



أظواء على

الفكر السياسي الإسلامي

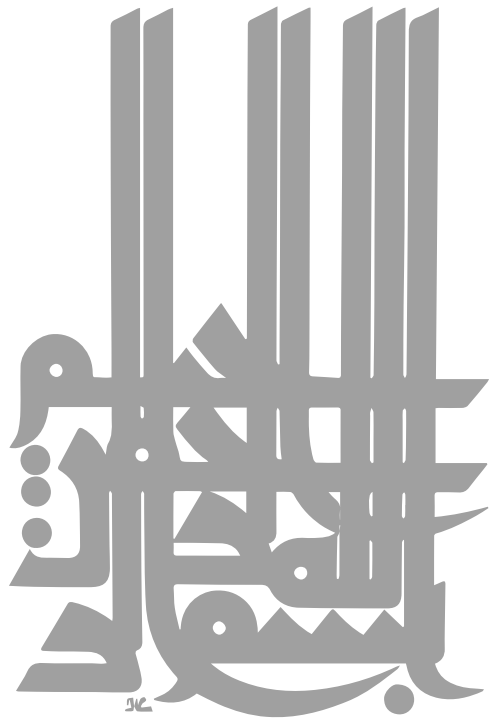
هُوَيَّةُ الْكِتَابِ

عنوان الكتاب:	أضواء على الفكر السياسي الإسلامي
إصدار:	لسماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله تعالى)
المجلس الإسلامي العلمي	دائرة الكتابة والتأليف
جمع وإعداد:	الشيخ سعيد المادح
المراجعة والتدقيق:	شعبة القلم
سنة الطبع:	الأولى ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م
تصميم وإخراج:	محسن الخباز

أظواء على الفكر السيراسي الإسلامي

الجزء الأول

سماحة آية الله
الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله تعالى)



المقدمة

الأمة الإسلامية بحاجة للإصلاح الشامل الذي ينهض بها، ويضعها في الموقع الريادي المتقدم الذي أراده الله تعالى لها باعتبارها المؤتمنة على خاتمة الرسالات الإلهية لكافة البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أهم المداخل الأساس لعملية الإصلاح الشامل هو الإصلاح السياسي الذي يمثل في الواقع المعاصر الشريان الرئيس لمختلف مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وإنَّ التخلف السياسي ينتج تخلفاً شاملاً لكل تلك الجنبات التي لا تنهض أي أمة من دونها.

ولا يخفى على أحد أنَّ أي عملية إصلاح إنما تبدأ من إصلاح الفكر والرؤى، والتي ستعكس بالطبع على كل حركة الإنسان وسعيه، وقوله، وفعله، مما يدفع به بالاتجاه السليم.

وكلَّما اقتربت الرؤى والأفكار من الصواب والحقيقة كلما اقترب الإنسان من الكمال والسعادة.

وأول خطوة على طريق الإصلاح السياسي هي بثُّ الوعي السياسي في أوساط المجتمع، وتسييل الضوء على مختلف القضايا في هذا الإطار، ولقد وجدنا ضالتنا في خطب سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله)، حيث إنها تخاطب عموم المجتمع بمختلف شرائحه بلغة تخاطب العقل فتقنعه، والقلب فتنبهه، والروح فتحببها، وفي ذات الوقت لا تهمل حاجات البدن، فهو خطاب يستهدف سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

كما تمتاز خطب سماحته بأنَّها ترتقي بمستوى المعرفة والعمق الفكري، ولا تقبل بالطرح السطحي والقشري.

ومن تلك الخطب استخلصنا هذا الكتاب، ووضعناه بين يديك أخي المسلم، وهو عصارة من الفكر السياسي بحسب الرؤية الإسلامية النقية لرجل أحيّا عمره في تحصيل علوم الإسلام حتى بلغ درجة الفقاهة، بعد أن تتلمذ علي يد كبار المراجع كآية الله العظمى الشهيد السيّد محمد باقر الصدر (قدس سره)، وآية الله العظمى السيّد كاظم الحائري، وآية الله العظمى الشيخ محمد فاضل اللنكراني، وآية الله السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي، وفي نفس الوقت كان علماً بارزاً في الساحة السياسيّة على مستوى العالم الإسلامي، وقد خبر مداخل السياسة ومخارجها، وأسّس مشاريع كبرى في البحرين، وقد أثبتت نجاحها على الأرض منذ سبعينات القرن الماضي وحتى هذا اليوم، فقد كانت هذه المشاريع ولا زالت الحاضنة الرئيسة للتيار الإسلامي العام في البلد، كما شارك في تأسيس الحياة السياسية عبر عضويته في المجلس التأسيسي لصياغة دستور البحرين عام ١٩٧٣م، ومشاركته كنائب في أول برلمان في البحرين، وكقيادي للكتلة الإسلاميّة في البرلمان، فضلاً عن خبرته الاجتماعيّة والثقافيّة، وإحاطته بمعارف الدين والحياة، والتي امتدت لأكثر من خمسة عقود، وذلك من خلال رجوع الناس إليه كواحد من أبرز من عرفه شعب البحرين ووثق بقيادته وحكمته وبُعد نظره، وحدة ذكائه، وفوق ذلك تقواه وورعه وعلمه الواسع الغزير.

لسنا هنا؛ لنكيل المدح والثناء، بل لنوصّف شيئاً من سيرة الشيخ الذي أعدنا هذا الكتاب من نصوص كلماته؛ وذلك كي نقرب الصورة للقارئ الذي لا يعرف سماحته.

ولقد اعتمدنا في إعداد هذا الكتاب (أضواء على الفكر السياسي الإسلامي) على نصوص خطب الجمعة لسماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم المصلي^(١).

وقد استخلصنا النصوص بمراجعة خمسمائة خطبة له، ابتداء بالخطبة الأولى (١) بتاريخ ١٢ محرم ١٤٢٢هـ، وانتهاء بالخطبة رقم (٥٠٠) بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ.

١- نسبة إلى عائلة المصلي، وهي العائلة التي ينحدر منها سماحة الشيخ عيسى أحمد قاسم وأجداده، وهي عائلة بحرائية عريقة من حي المصلي بمنطقة الدراز في جزيرة البحرين، وهذا الحي يُعرف حالياً باسم (فويليد)، وهي عائلة كبيرة جداً لازالت تقطن الدراز.

كما أن سماحته لازال ساكناً فيها، ويلقي خطبه في جامعها «جامع الإمام الصادق عليه السلام».

وكان عملنا مقتصرًا على اقتباس النصوص وترتيبها في فصول وأبواب وأقسام، مع إضافة عناوين لتلك التقسيمات، وأيضًا إضافة عناوين جانبية؛ كي يسهل على الباحث والقارئ الكريم الاستفادة منها.

وأما على مستوى النصوص، فلم نتصرف فيها، وقد أخذناها من الموقع الإلكتروني الرسمي لسماحة الشيخ، وهو (مكتب البيان للمراجعات الدينية). ^(١)

والجدير بالذكر: إن هذه الخطب كان يلقيها سماحته من خلال القراءة على الورق مما يعني أنها ناتج قلمه، وطبعًا فإنّ نتاج القلم له قيمة خاصة لا تخفى، ولكن أحيانًا يخرج سماحته عن النص المكتوب، فيعلق، أو يشرح، أو يستدرك، ثم يوضع ذلك في الهوامش بعد مراجعة الخطبة كما يظهر، وقد نقلنا ذلك - كما هو - في هامش الصفحات.

وننوّه على أنّنا عملنا على تخريج مصادر الروايات اعتمادًا على برنامج مكتبة أهل البيت^{١٢} الإلكترونية.

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفّقنا في هذا العمل، وأن ينفع به أمّتنا الإسلامية، وإخوتنا في الله جميعًا، إنّه سميع مجيب.

دائرة الكتابة والتأليف

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الفصل الأول

الدِّينُ وَالسِّيَاسَةُ

مدخل

إنَّه لعجيب جدًّا أنَّ يجهل المسلم أنَّ إسلامه يمتلك رؤيةً سياسية، وأطروحةً متكاملةً في عالم السياسة، وأنَّ المسألة السياسية تمثل إحدى المسائل المهمة في الإسلام، وتدخل في نسيج منهجه؛ لكي يتكامل، ويأتي سويًّا يغطي كل مساحة الحياة.

أسئلة تمهيدية

سأطرح أسئلة، وأجيب بما يسمح به المقام على بعضها:

السؤال الأول: لماذا الحديث في السياسة من منطلق الدين؟

هل الحديث في السياسة من منطلق الدين؛ من أجل إحداث ثورة عارمة تقلب الأوضاع في كل بلد، ومن أجل تحريك عسكري عام؛ لتحويل كل بقعة من بقاع الإسلام عن المسارات القائمة؟

الجواب:

في المنظور لا يرجى ذلك أبدًا، وليس من المعقول موضوعيًا أن يكون القصد هذا، ولا يتوافق مع حكمة الدين، ورأفته بالمؤمنين.

لكن إذا لم يكن المطلوب أن تحدث ثورات شعبية في وجه الحكم في كل مكان، فلماذا الحديث إذاً عن المسألة السياسية من منطلق إسلامي؟

الجواب:

أولًا: كما أنَّ لآخرين أن يقدموا رؤيتهم السياسية في بلاد الإسلام وهي رؤية سياسية تختلف مع الإسلام، فإن للإسلاميين أن يقدموا رؤيتهم السياسية من منطلق الإسلام بدرجة أولى.

إذا كان للأمريكي أو اللروسي أن يطرح الرؤية المنطلقة من الغرب أو الشرق في البلاد الإسلامية، فإنَّ الإسلاميين - وهم أبناء الأرض، وأبناء الحضارة هذه - أولى بأن يطرحوا رؤيتهم السياسية؛ للتصارع نظريًّا، وعلى مستوى الفكر مع الرؤى الأخرى،

ولتأخذ مساحتها الإعلامية كما تأخذ الرؤى الأخرى والأطروحات الأخرى مساحتها الإعلامية؛ ليتبين الحق من الباطل، والغث من السمين.

وبلغة أخرى: إذا كان للأطروحات الأخرى السياسية أن تخاطب الإنسان المسلم، وتحاول أن تصوغه فكرياً ونفسياً على مسارها من طريق الإعلام، ومن طريق الطرح العلمي، فإن الإنسان المسلم أولى بأن يتمتع بهذا الحق في أرضه الإسلامية، وفي أهله وهم مسلمون.

فإن لنا أن نقدم رؤيتنا السياسية، ونشرح أطروحتنا الإسلامية؛ لتزاحم الأطروحات الأخرى على نفس الإنسان المسلم وفكره، فيزن هذا الإنسان المسلم أي الطرحين أولى بالإتباع، وأي الطرحين يمكن أن يحل المشكلة لهذا العالم المعذب، بل أن ننطلق ببيان رؤيتنا، وشرح رؤيتنا للعالم كله، وقد بدأت قطاعات واسعة في العالم تتلهف وتتشفو، بل تطالب بأن تقف على الرؤية السياسية في الإسلام.

فواعجابه، كيف لا يتاح للرؤية الإسلامية أن تقدم نفسها على المستوى السياسي في بلاد الإسلام نفسها؟!

ثانياً: ثم إننا ومن جهة أخرى لحريصون أن يبقى الميراث الإسلامي، وأن تصل أمانة الإسلام إلى الأجيال القادمة، فإذا لم يكن في منظور جيل، وجيلين، وثلاثة أجيال، وأربعة أجيال أن تقتنع الأمة بإسلامها؛ لمزاحمة الإعلام الكافر الذي يمتلك ترسانة إعلامية هائلة إذا فقدنا الأمل في أن تستجيب الأمة الإسلامية في قطاعاتها الواسعة للإسلام، وأن تتفهم حقانيته في كل أبعاده ومساراته وحقوقه، فإن أملنا كبيرٌ وأكيدٌ، وإيماني راسخ بأن المستقبل للإسلام، فإنه من بعد حين ستفهم الأمة الإسلام وحقانيته، وهذا يحذونا، ويوجب علينا أن نواصل كلمة الإسلام، ونقدم الأطروحة الإسلامية لهذا الجيل، فيتحملها من يتحملها منه؛ ليوصلها بشكل أكبر إلى الجيل القادم الذي يوصلها بنشاط أكبر إلى الذي بعده، وهكذا ذواليك حتى تكتمل الصحو، وحتى يفيق الإنسان المسلم، ويعرف أن سعادته في الدنيا، وقبل الآخرة ترتبط بالإسلام والإسلام وحده.

فكل هذا يدعونا لأن نتحدث عن المسألة السياسية من منطلق الإسلام، وليس لغاية

التحريك الفعلي على مستوى إثارة الشعوب؛ من أجل المواجهة الساخنة التي تخسر المسلمين أكثر مما تربحهم، وربما أتت على الإسلام بآثار سلبية هائلة تعرقل مسيرته إلى الأمام.

نحن ومن ناحية موضوعية لا نرى أن الأمة - وفي ظل سنة، أو سنتين، أو في ظل عشر سنوات - يمكن أن تكتمل رؤيتها الإسلامية الكاملة، وأن تنقاد لقيادة الرؤية الإسلامية؛ من أجل تحريك هذه الأمة، هذه النتيجة غير مؤملة، فإذا كانت غير مؤملة في المدى القصير، فالتحرك ليس من أجل هذه النتيجة، ليس من أجل أن تتحرك الشعوب تحركاً ساخناً في وجه الحكام الدخاليين وإن كنا وحكام الأمة المخلصون علينا أن نستثير الأمة في وجه العدو الخارجي إسرائيل اللقيطة اللعينة.

السؤال الثاني: هل للإسلام تدخل في السياسة؟

طرح المسألة على المستوى العلمي ليس محله خطبة الجمعة التي لها وقت محدود، ولكن وبإشارة، وبطرح مقنع.

الجواب:

من هو رسول الله ﷺ؟ سيد المسلمين، ومعلم الإسلام للأمم.
الرسول الأعظم ﷺ أقام الحكومة الإسلامية بشكل لا ريب - عند أي مسلم - فيه.

أمير المؤمنين عيسى عليه السلام أقام الحكومة.

الإمام الحسن عليه السلام أقام الحكومة.

صحابه رسول الله ﷺ أقاموا الحكومة.

فمن من المسلمين في صدر الإسلام لم ير أن من الضروري أن تقام في الناس حكومة على أساس الإسلام؟

كل المسلمين كانت رؤيتهم ضرورة إقامة الحكومة الإسلامية في الأرض.

جواب آخر:

الترابط المصيري بين إقامة الحكومة الإسلامية في الأرض وبين ديمومة الإسلام وبلوغه أهدافه النبيلة، وأنَّ ليس للإسلام أن يبلغ أهدافه في تربية الإنسان، وفي صناعة حضارة عادلة، في إيجاد الإنسان المتقدم الحر بالحرية الإيجابية الشريفة، ليس في مقدور الإسلام أن يصنع هذا كله دون إقامة الحكومة الإسلامية؛ لأنَّ منبره في غياب الحكومة هو منبر الوعظ المعزول عن إرادة الحياة، والمُقَيَّد بالقرارات والقوانين الوضعية التي تحارب الإسلام.

فتدخَّل الإسلام في السياسة أمر واضح لا يحتاج إلى دليل.

ولا يمكن للإسلام أن يكون واقعياً، ولا يمكن أن يكون الإسلام من عند الله سبحانه وتعالى، وي طرح هذا الطرح، فيقول: إني أريد أن أتحمّل صياغة هذا الإنسان، أريد أن أقيم العدل في الأرض، ثم يمنع على نفسه أن يتدخل في السياسة، وأن يملك زمام الأمور في السياسة، فمن جهة يقول: أنا سلمي لا دخل لي في السياسة، وأكتفي بما تسمح لي به السياسة من إقامة مسجد - وقد تسمح به وقد تمنعه، وقد تراحمه وقد لا تراحمه -، أنا أكتفي بهذا المقدار، لكنني في نفس الوقت ألتزم بأن أصوغ العالم صياغة إنسانية رفيعة، وأنشر العدل، والرفاه، والأمن، والاستقرار!!

هذا اللون من الطرح المتناقض هل يمكن صدوره من الله سبحانه وتعالى؟!

مثال توضيحي:

تأتيك فئة من الناس تقول - مثلاً - : نحن ملتزمون بتجديد حياة المجتمع، بصياغته صياغة جديدة مشرقة.

فتسألها: ما هو برنامجكم؟

حين يأتيك من هذه الجماعة:

- نحن نكتفي أن يكتب الإنسان مقالة في بيته، ويضعها في صندوقه، برنامجنا أن يكتب الفرد أمانيه وأفكاره، ويضعها في خزانة من خزاناته!

- نكتفي بأن يمارس الإنسان شيئاً من الأذكار والحركات بينه وبين نفسه - وإذا سُمح لهذا المجتمع أن يجتمع على مائدة صلاة، أو صوم، أو ما إلى ذلك فليجتمعوا، وإذا لم تسمح لهم السياسة بذلك فليمتنعوا -!

أمن أحد يتبع هذه الفئة، ويرى عقلانيته؟!

هذه فئة جادة فعلا في صياغتها للمجتمع؟!

أهكذا دين الله تعالى؟!

دين الله الذي جاء يصوغ الإنسان، جاء ليرفعني، جاء ليصنعني، جاء ليجعل مني إنساناً يليق به أن يجالس رسول الله ﷺ في جنة الخلد - جنة الرضوان، جنة الرفعة الإلهية -، هذا الدين الذي يتحمل هذه المسؤولية، ومسؤولية أن يصنع الحياة المتقدمة، وأن يفتح أبواب البركات من السماء والأرض، هل يكتفي هذا الدين بأن يصلي الفرد في بيته، أو يصوم شهراً في السنة؟!

الخلاصة

إنه من الأكيد - وبلا أدنى شك - أن الإسلام يرى أن تبني المسألة السياسية ديناً لا مفر منه، وواجباً من واجبات الإسلام الكبرى، ومسألة يتوقف عليها مصير الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، بل الإنسانية كلها.

والإنسان يطالب عدل الله، والإنسان يطالب إحسان الله - إذا صحّت المطالبة، وإن صحّ تعبير المطالبة -، ويطالب لطف الله سبحانه وتعالى - يعني على الإنسان أن يتذلل بين يدي الله ﷻ، وأن يخشع طالباً تقديم الأطروحة السياسية الإسلامية؛ لإنقاذ الإنسان - لا أن يتركه في حيرته!!

التَّجربة خير برهان

تعرفون أنه كان للإسلام تجربة في الحكم هي تجربة الرسول ﷺ، وتجربة أمير المؤمنين عليه السلام، وبشكل أقل - فيما نعتقد - تجربة الخلفاء الراشدين - الخلفاء العمليين الفعليين بعد رسول الله ﷺ -.

قدّموا لي، وقدّموا للعالم حياةً استقرّت، وحياةً تقدّمت، وحياةً شُرُفت، حياةً استيقظ فيها الفكر، مجتمعةً تراصّ وترابط على الحب والتعاون، وخرج من الفقر إلى الغنى، ومن الذلة إلى العز، ومن الهوان إلى الكرامة، ومن الجهل إلى العلم، ومن التسافل إلى التصاعد والارتفاع، كما كان المجتمع المسلم الذي صاغه رسول الله ﷺ، وأبدعته يداه الكريمتان، وتبعه في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام.

لا زال الإنسان - قبل الإسلام، وبعد الإسلام، وإلى الآن - يقدّم الأطروحة بعد الأطروحة للحياة، وفي المجال السياسي، فتسقط كما تسقط أوراق الخريف، ولكن بفرق أن ورقة الخريف أعطت جمالاً، وأعطت منظرًا في وقت، وأطروحات الأرض لا تعطي في كل حياتها إلا عذابًا وتفرقةً وجهلاً وتمزيقًا!!

السؤال الثالث: لماذا يتدخل الإسلام في السياسة؟

لأنه ما لم يتدخل الإسلام في السياسة يضيع الإنسان، وما لم يتدخل الإسلام في السياسة لا يظهر عدل الله في حياة الإنسان وحضارته كما هو، ولا تظهر حكمته كما هي، ولا يبين لطفه سبحانه وتعالى.

لطف الله، وحكمة الله، ورحمة الله بعباده إنما تظهر كما هي للإنسان حين يتدخل الإسلام في السياسة.

ولأن مهمات السياسة في الإسلام تتجاوز هذه الحياة الدنيا، وتأخذ على عاتقها إعداد الإنسان للآخرة كان لا بد أن يتدخل الإسلام في السياسة.

الإسلام يتدخل في السياسة؛ ليصوغ الإنسان، المجتمع، الفرد.

الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) جاؤوا لا ليحركوا الوضع الاقتصادي،
ويقدموا به فقط، لا ليعطوا أماناً فقط، لا ليمنعوا تعطل الشغيلة في البلد فقط.

صحيح جداً أن الرسل جاؤوا؛ ليعطوا أماناً، وجاؤوا؛ ليعطوا تقدماً اقتصادياً،
وتقدماً علمياً وتقدماً عسكرياً، ويعطوا تقدماً في كل مجال؛ لكن كل ذلك من أجل ذات
الإنسان...؛ من أجل أن ينصاغ له كماله، وأن تستوي ذاته، من أجل أن يكون الإنسان
الواعي المرتبط بالله، المستجيب لأمره ونهيه، لأنه لا يمكن له أن ينصاغ عظيمًا جميلًا
إلا على طريق أمر الله ونهيه، وعلى طريق مرضاة الله تعالى.^(١)

١- خطبة الجمعة (٢) ١٩ محرم ١٤٢٢ هـ، ١٣ أبريل ٢٠٠١ م.

الباب الأول فلسفة السياسة

جذور المسألة السياسية في الرؤية الإسلامية

هل يمتلك الدين تأصيلًا للمسألة السياسية؟ أم أنَّ المسألة السياسية مأخوذة في الإسلام ليس لها جذورٌ من فكر، ولا تأصلٌ في الكون، ولا أرضية من رؤيةٍ واسعةٍ تحكم الحياة؟

المسألة السياسية في الإسلام هي مسألة جزءٍ من نظامٍ كونيٍّ كامل، خيطٌ من نسيجٍ متكامل، من نسيج هو من صنع الله، وهو نظامٌ أبدعته يد القدرة الإلهية، علم الله، حكمة الله، لطف الله، رأفة الله ورحمته.

أولاً: الجذر التكويني

تبتدئ المسألة السياسية في الإسلام من النظر إلى الولاية التكوينية لله سبحانه وتعالى.

ومعنى الولاية التكوينية لله **وَجَلَّ** هو:

- إنَّ خلق كل شيءٍ من عطائه، وأن شيئاً ما - كَبُرَ أو صَغُرَ - لا يمكن أن يأتي من غير الله، ومن غير عطائه.

- إنَّ ديمومة كل شيءٍ واستمراريته، في أصل وجوده، وفي صورة نظامه الداخلي، وفيما يربطه من نظام جزئيٍّ أو شاملٍ كامل، كل ذلك إنما يكون بديمومة العطاء من الله **وَجَلَّ**، وباستمرارية الفيض من الله سبحانه وتعالى.

فكونُنَّا كلُّه لو انقطع عنه المدد الإلهي لحظة لغرق في بحر ظلام العدم، هذا الكون بأراضيه، وبما في السماوات والأرض، وما بينهما إنما يعيش في كل لحظة من لحظاته بفيض من عطاء الله **وَجَلَّ**، الذي لا ينقطع ولا ينضب، لا نضب من معينٍ والله معينه.

قلبك ينبض بالله، عينك تطرف بالله، لسانك ينطق بالله، كل خلية من خلاياك، وكل ذرة من ذرات وجودك، تستمر في نظامها الخاص بفيض من الله، بعباء من الله، يتدفق أنا بعد أن، هذا من ولاية الله التكوينية.

هذا الوجود، هذا الكون، أصل وجوده وديمومته، إنما بفيض الله سبحانه وتعالى وبعباءه، فالكون كله ممسوك في قبضة الله، الكون كله محكوم بقدر الله، يقدر وجوده ويقدر حجمه، ويقدر وقته، ويقدر منه كل شيء.

- تقول الآيات الكريمة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١).

لو ارتفعت يد القدرة الإلهية عن الكون، هذا الكون لا ولي له ولا نصير، هذا الكون لا تدبره أمريكا، ولا تدبره روسيا، ولا يدبره ملك، أكبر ملك لا يدبر الكون أساساً وأصلاً، إنما هو تدبير الله سبحانه وتعالى، فحينما ترى وجوداً، وحينما ترى نظاماً، وحينما ترى دقة في النظام، فأنت تنظر الله وحده، تنظر يد القدرة الإلهية، ويد التنظيم الإلهي، ويد الحكمة الإلهية، ويد العناية الإلهية.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟

اسألوا أنفسكم، تنطق أنفسكم بهذا العلم أو لا تنطق - وأنتم مسلمون، وأنا لا أحصر السؤال في المسلم -؟

فالآية الكريمة طرح السؤال على الناس قبل أن تتلوث فطرتهم، وتطرحة عليهم حتى بعد أن تتلوث فطرتهم، إذا حاولوا أن يغوصوا ببعض العناء إلى داخل ذواتهم.

ما من نفس تستنطق ذاتها الأصل إلا وتجد في تلك الذات شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾؟

هذا السؤال يأتي يوم القيامة، جعلت في نفوسكم رسولاً، أودعت في نفوسكم معرفتي، معرفتي ربوبيتي وجلالي وعظمتي - هكذا يقول سبحانه وتعالى -، فلم عبدتم غيري؟

ألكم شهادة من داخلكم أن فلاناً، أو أن الدولة الفلانية هي ربكم؟

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؟

فتشوا، أعطوا لخيالكم أن يمتد، ولإدراكاتكم أن تتحرك، ولخيالكم أن يسرح، فإنه لن يعثركم شيء من ذلك، على ولي، لا نصير من دون الله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؟^(١)

ثانياً: الجذر التشريعي

ولاية تكوينية، لماذا؟

لأنك مملوكٌ بالكمال لله وَعَلَّيْ، وغيرك الذي يريد أن يتولى أمرك - أيضاً - هو مملوكٌ بالكمال لله سبحانه وتعالى، السماوات والأرض، وكل الملائكة والرسل، وكل عظيم هو مملوكٌ لله سبحانه وتعالى، فمن أين يأتيك مدد النصر من دون الله، وكل شيء مملوكٌ لله.

الفطرة تقرر هذه المسألة أو لا؟، تبدأ بمسألة طاعة الله، وعدم طاعة غيره من هذه النقطة.

النفوس تشهد بهذه الولاية تنطق بها؟

تجدها شهادة قائمة في داخلها أو لا؟

إذا كانت تعيش هذا الشهادة، فهنا تبدأ نقطة الانطلاق على ضوء العقل والمنطق، وأن لا إله في مجال التشريع، وفي مجال الحكم، وفي مجال متابعة إرادة الغير إلا لله، لا ألوهية إلا لله سبحانه وتعالى.

مادام لا ألوهية إلا لله سبحانه وتعالى، فهذا يقود عقلاً إلى انحصار الولاية التشريعية، وولاية الحكم، وولاية سياسة العالم ليس بالمعنى الضيق للسياسة، سياسة الحياة، أي صناعة الحياة، توجيه الحياة، بالمساحة الإرادية، هذا هو نطاق السياسة الذي تحدث عنه الإسلام صناعة المجتمعات.

وقد آل أمر الحكومات الوضعية - أيضاً - أن تضع يدها على ضمير الإنسان، على وجدان الإنسان، على مقدرات الإنسان؛ لتدخل فيها صنعا يخسف، صنعا يشوه، صنعا يخرّب داخل الإنسان.^(١)

العلاقة بين الولاية التكوينية والتشريعية

القرآن الكريم يربط بين الولاية التشريعية والولاية التكوينية، وأن من له الملك له الحكم، لا تحكم ما لا تملك، الملك لغيرك والحكم لك؟ قضية غير عقلية، ولا عقلانية ولا قانونية.

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.^(٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.^(٣)

١- خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ، ٢٧ أبريل ٢٠٠١ م.

٢- الأنعام: ١٤.

٣- البقرة: ٢١.

تجدون ربطاً واضحاً في الآيتين الكريمتين، بينما يقرره العقل والبرهان والوجدان وتعيشه الفطرة في داخلنا، من أن المرجعية لهذا الكون على مستوى الخلق والتدبير والرزق والإرادة إنما هي لله سبحانه وتعالى، لأي قدرة يرجع هذا الكون حدوثاً، وهذا الكون بقاء؟

لأي قدرة يرجع قيام السماوات والأرض الآن؟

بأي قدرة يعيش العالم حياته ووجوده في هذه اللحظة، الوجدان والبرهان والفطرة؟ كل ذلك يقول: إنَّ المرجعية في هذا الأمر للقدرة التي ليس فوقها قدرة، للوجود الذي ليس قبله وجود، للوجود الذي لا يفتقر إلى غيره، فهذه ولاية تكوينية.

إذا قال العقل: إنَّ هذا الكون كله يقوم بإرادة الله، ومدد الله، ورفد الله، فهل يقول بعد ذلك أن تعزل الله وَعَزَّلَ عن الأمر والنهي لعباده؟، وأن نتلقى الشريعة من غيره؟ أو أن العقل يقول مَنْ يتلقى الكون منه وجوده، مَنْ يتلقى الإنسان منه حياته، وأسباب حياته وبقائه لا بدَّ أن يتلقى منه توجيهاته، وأوامره، ونواهيه.^(١)

منبه

الله العليم بك، بكل دقيقة في ذاتك، بكل ما تختلج به نفسك، بكل منعطف من منعطفاتها، بكل تشابكاتها، بكل تداخلاتها، بكل ما تشتمل عليه تشابكاتها، وتلاقياتها، وتوافياتها.

الله العليم الخبير بك، وبأخيك وبكل بشر، وبكل شيء في هذا الكون وأنت لو فتحت عينك لوجدت أن ذاتك ترتبط بملايين من العلاقات، ملايين من العلاقات تربطك بالغير، بالأرض والسما، وبما في الأرض والسما.

١- خطبة الجمعة (٦) بتاريخ ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ، ١١ مايو ٢٠٠١ م.

هذه ملايين العلاقات، وبلايين العلاقات والتي تدخل في وزنك، وفي تقديرك، وفيما يصلحك، وفيما يفسدك، مَنْ يعلمها إلا الله؟!

وأي مشرع يستطيع أن يستحضرها لحظة تشريعه بكاملها؟

المشروع الذي يستطيع أن يستحضر بلايين العلاقات التي تربط الذات الإنسانية الواحدة في ماضيها، في حاضرها، في مستقبلها؛ ليشرع لهذا الإنسان من هو؟!!!

عقلية رسول الله ﷺ لم يُوكَل إليها أمر التشريع بصورة مطلقة، ولو علم الله ﷻ أن رسوله ﷺ بذاته المقدسة قادر أصلاً على وضع التشريع الكامل للإنسان لأرسله وأوكل له مهمة وضع التشريع من غير وحي آخر، لكنه قال له: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(١).

نعم يأتي من رسول الله ﷺ التوجيه، وقد يأتي الحكم - أيضاً - في مورد من الموارد، لكنه بهدى من ربه سبحانه وتعالى.

مرة ينزل عليه جبرئيل، ومرة لا ينزل عليه جبرئيل، ولكن كله وحي يتلقاه ﷺ من عند ربه، ولا ينسب شيئاً مما جاء به ﷺ إلى ذاته.

النتيجة

ما يلزمنا جميعاً أن نؤكد عليه بالنسبة لأنفسنا، وبالنسبة لأهلينا، وبالنسبة لمجتمعنا، وبالنسبة لأمتنا، وبالنسبة للعالم هو هذا الأمر، يعني أن يكون مرد أمر هذا الإنسان، مرد أمر تشريعه، ومرد أمر توجيهه، ومرد أمر تربيته، ومرد أمر قيادته لله سبحانه وتعالى، وذلك بأن يتلقى الهدى منه عن طريق رسوله الأكرم ﷺ.

وميراث الوحي الذي لم يورث رسول الله ﷺ أحداً من هذه الأمة مهما كان مثلما ورثه أهل بيته المعصومين عليهم السلام، فعندهم هدى الله، وعندهم كلمة الله، عندهم

منهج الله، عندهم شرع الله، عندهم الأطروحة المنقذة، عندهم النظام الذي يبحث عنه العالم، ويُشرَّق ويُغرَّب هنا وهناك، ويجمع فلاسفته ومفكره فلا يجد عندهم النظام الذي لو طبق لأسعد البشر دنياً وآخرة.^(١)

السياسة وعقيدة التوحيد

- ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.^(٢)

- ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.^(٣)

- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.^(٤)

لا توجد ولاية مستقلة لشيء في هذا الكون لأحد غير الله سبحانه وتعالى، وأيضاً لا توجد شركة في ولاية الله، لا توجد شركة في ولاية الله من أحد على أي شيء من هذا الكون، فالمنفي قضيتان، قضية أن تكون هناك ولاية مستقلة من دون الله على شيء بحيث يخرج هذا الشيء عن ملك الله، وتدبير الله، وتصرف الله، ثم لا توجد أي مشاركة في ولاية الله على أي شيء، فله الولاية وحده.

لا توجد، ولن توجد قوة ممكن أن تفرض نفسها على الله، وكل شيء عدُّ من دونه، وليس من قبل الله سبحانه وتعالى بأن يتخذ ولداً ولا صاحبةً ولا شريكاً، فالولاية خالصة لله.

هذه قضية يعرضها القرآن، وهو لا يتفكه مع الناس، فالآيات كثيرة في القرآن الدلالة على الولاية التكوينية لماذا؟، لأن هذا هو الأساس، وهذه هي القاعدة، وهذا هو

١- خطبة الجمعة (٧) بتاريخ ٢٤ صفر ١٤٢٢ هـ، ١٨ مايو ٢٠٠١ م.

٢- الأحزاب: ١٧.

٣- الرعد: ١١.

٤- الإسراء: ١١١.

التأسيس والتأصيل الفكري لعبودية الخلق لله سبحانه وتعالى.

فتجدون أن القرآن الكريم مليئاً بآيات الولاية التكوينية، الله يُقنع بولايته، هو المالك الحق، وعلى ذلك يُقنع بولايته.

البشر لا يقنعون بولايتهم، وإنما تعمل العصا والسيف؛ لفرض ولايتهم.

الله المالك الحق يقود العباد قوداً عقلياً، وعلى مستوى تفكيرهم الحر، وعلى مستوى إرادتهم يقودهم قوداً سلساً هادئاً رفيقاً ليُنّا إلى أن يؤمنوا به سبحانه وتعالى، وإلى أن يتقبلوا ولايته في التشريع والحكم، فيطرح هذا الأساس، يستنطق فطرتهم، وعقولهم: ألا تشهد عقولكم وفطركم بأن الولاية الحق لله وحده؟، يوقفهم على هذه القضية الأم الأساس: لينقادوا بعد ذلك في ضوء عقلهم وتفكيرهم الحر، ينقادوا مسلمين وعارفين المصير الرابع.^(١)

شكر النعمة

الإسلام نعمة كبرى، ورحمة للعالمين، ما غاب إلا وغابت شمس الرحمة على هذه الإنسانية فعاشت العذابات.

والإسلام مغيب في الساحة السياسية، وذلك مسؤولية حكومات وشعوب.

وكلما غُيب الإسلام في مساحة من المساحات كلما غطى الظلم والظلام تلك المساحة، وتحولت إلى متاهات يعيش فيها الإنسان الشقاء والعذاب، هذا ليس قول شعر، إنّه حقيقة نعرف مقدارها بقدر ما نعرف من الإسلام، وبقدر ما نعرف من المبادئ الأخرى.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ، ٢٧ أبريل ٢٠٠١ م.

٢- خطبة الجمعة (٣٠٥) ٣ ذو الحجة ١٤٢٨ هـ، ١٤ ديسمبر ٢٠٠٧ م.

الخلاصة

أولاً: أصلاً لا ولاية لأحدٍ على أحدٍ إلا لله الذي له الولاية التكوينية والتشريعية الشاملة الكاملة.

ثانياً: تثبت الولاية التشريعية التبعية المتفرعة على ولاية الله لمن جعل الله هذه الولاية، فتجب طاعته في أمره ونهيه، وهي بالأصل طاعة الله.

فأنت حين تطيع رسول الله ﷺ إنما تطيع أمر الله ﷻ وأولاً وبالذات، وما طاعتك لرسول الله ﷺ إلا لما وراءها من خلفية إطاعة الله، والانصياع إلى أمره ونهيه الذي كتب عليك أن تطيع رسول الله.

وهذه الولاية التبعية ثابتة للرسول الله ﷺ، ولخلفائه المعصومين عليهم السلام بلا أدنى شك عندنا.

ويبحث عند الفقهاء: هل ولاية الحكم والأمر والنهي في مجال الحكومة قد جعلت لغير المعصومين الخلفاء لرسول الله ﷺ في حال غيبتهم عليهم السلام؟^(١)

١- خطبة الجمعة (٢٢) بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، ٢٤ أغسطس ٢٠٠١م.

الباب الثاني العلاقة بين الدين والسياسة

الارتباط في الموضوع والوظيفة

يلتقي الإسلام والسياسية موضوعاً، وموضوعهما معاً هو الإنسان وعلاقته بنفسه، وبربه وبالأخرين - هكذا أرى -.

ويلتقيان كذلك وظيفة إذا كانا على خط واحد.

وإذا كان أحدهما صاعداً، والآخر نازلاً، تقاطعا وتعارضاً في أكثر الموارد وأهمها من حياة الإنسان وشؤونه، ومصالحه، وأهدافه، وعلاقاته، وأخلاقياته، وفكره، وهمومه، ومشاعره.

وقد جاء الإسلام يصوغ الإنسان، ويقود الحياة، ويبني مجتمعاً، وينشئ أمةً، ويوحد الناس على طريق التوحيد، ويكملهم بعباءات هذا الطريق، ويقيم عدل الله في الأرض، ويحييها بتعاليم الوحي، ويجعلها مشرقة بنور السماء.

وقيادة الحياة، وبناء المجتمع، وإنشاء الأمة، وتوجيه الناس، وصياغتهم، كل ذلك محل اشتغال السياسة.

الاعتزال والانفصال خرافة وافتراء

فاعتزال الإسلام السياسة خرافة، وتقول عليه بغير حق من السياسة، وبدافع سياسي معادٍ محض، ربما أدى إلى تصديق برئي عند السذج.

وعدم تدخل السياسة في الدين افتراء وزور مكشوف؛ إذ لا يسع السياسة إلا أن تتدخل في شؤون الدين، وهي تتحد معه موضوعاً، وتسجم معه، أو تعارضه في الوظيفة.

فكلمة (ما لله لله، وما لقيصر لقيصر) كلمة كاذبة ساذجة، أو سياسية مأكرة يراد بها تخدير المتدينين على أساس الإيهام بعدم وجود تعارض بين المساحة التي يتناولها

أمر الله ونهينه وتشريعاته، والمساحة التي يحكمها قيصر من حياة الإنسان ونشاطه، بعد التسليم أن لقيصر أن يستقل عن الله **وَكَلَّ** في أي أمر من الأمور.

والحق أن ليس لقيصر في الكون كله مُلكًا يستقل به، وأن أمر الله ونهيه وتشريعاته تعمُّ حياة الإنسان، فكلما جاء أمر أو نهى على خلاف ما لله من أمر ونهيه في أي نقطة من حياة الإنسان ووجوده كان ذلك مكابرة لله، وتمردًا على شريعته.

والحق أنه بمقدار ما تتحرف السياسة عن خطِّ الدين يُعطّل الدين، ويلغى من ناحية عملية، وبقاء الدين في مساحة الحياة بمقدار ما توافق السياسةُ الدين عليه من التشريعات والمواقف.

وقد استمر فصل الدين عن الحياة، وعطّلت السياسة في الكثير من المرافق، وألغته في ساحات كبيرة.

تسييس الإسلام

والأخطر من التعطيل التشويه، وقد ترافقا معًا منذ بعيد، ويتم التشويه بتسييس الإسلام، بدل أسلمة السياسة، ويكون التسييس باتخاذ دين الله مركبًا للأغراض السياسية، وكسب الرأي العام وتأييده، واستعمال الواجهة الدينية وسيلة فعالة؛ للاستقطاب الجماهيري.

وقد تكون هذه الواجهة شعارًا دينيًا بلا مضمون، أو مؤسسة إسلامية؛ للهيمنة السياسية على الدين، أو عالمًا مغبونا تستغفله الدنيا، وتكبر في عينيه زينتها.

وقد عرفت هذه الأساليب، وأجادت استخدامها دول في الغرب، ودول في الشرق في القديم والحديث، وحتى العالم الغربي العلماني لازال يقدر لهذه الوسيلة أهميتها في الظروف الخاصة، وعند المقتضيات الضرورية.

وقد أدى تسييس الدين على يد الدولة الأموية والعباسية إلى وجود نظرية تؤدي إلى نفى العدل الإلهي، وأخرى تنكر عصمة الأنبياء، وثالثة تأمر بطاعة أولي الأمر مطلقًا، وتحرم الخروج على السلطان الظالم ظلمًا فاحشًا، والمخالف لأحكام الإسلام، والمناقض

عملاً لأغراضه، وإن شرب الخمر، وزنى، وارتكب أبشع المنكرات!!

وأوجد تسييس الدين من برز قتل الإمام الحسين عليه السلام، وأسقط الرأي الفقهي لمثل الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وبهذا التسييس بدلت مفاهيم إسلامية كثيرة، وطمست أحكام شرعية، وتحول المنكر معروفاً، والمعروف منكراً.^(١)

لا فصل عند من يؤمن بالإسلام

يريد البعض أن يفصل الدين عن السياسة، وهو يصّر على ذلك، وينكر على الإسلاميين تدخلهم في ميادينها، بينما الإسلام جاد كل الجد في قرآنه العظيم، وعلى يد رسوله الكريم على معالجة القضية السياسية معالجة إسلامية، وحل مشكلاتها حلاً إسلامياً عادلاً بطريقة إسلامية إلهية بعيدة عن هوى البشر وأناياتهم الشخصية، وقد أقام الرسول ﷺ دولة الإسلام المباركة في المدينة المنورة على مرأى من العالم كله.

وحكم أربعة بعده ﷺ باسم الإسلام.

بل إن الحكم الأموي، وكذلك العباسي - وهما حُكمان قاما بالسيف، وصبغتهما وراثية كانا يرفعان شعار الإسلام والخلافة الإسلامية -، فالحكم بالإسلام صدقاً، أو زيفاً استمرّ لعدة قرون.

والحكم والسياسة في سلطاتها الثلاث تشريع، وتنفيذ للتشريع في مجال الإدارة، وقضاء على أساس ذلك التشريع في مجال الخصومات.

والمفروغ منه في شأن الإسلام أنه عقيدة وشرعية، والشرعية قرآناً وسنة شاملة يبين لمجال السياسة، والشأن العام كغيره.

والسلطات الثلاث التي تمارسها السياسة من تشريع وتنفيذ وقضاء بعد السيطرة على الثروة العامة والإنسان إما أن تكون من منشأ توافق عليه الشريعة الإلهية وقاعدتها العقيدية أو لا توافق عليه، وإما أن تتسجم في وظائفها الثلاث مع الحق الذي يراه الإسلام بقيمه وتشريعاته ومبادئه أو لا تتسجم، وإما أن تقوم بالعدل الذي ينشده

الإسلام أو تناهضه، فكيف من بعد ذلك كله لا يتدخل الإسلام عند مَنْ يؤمن به في السياسة والشأن العام؟!

وهل سلم الدين من تدخلات السياسة حتى يُطالب بالانفصال عن السياسة؟
 وهل تجد السياسة المخالفة للدين بُدًّا من التدخل في شأنه حتى لا يتدخل في شأنها؟
 ومتى تركت هذه السياسة للدين أن يتحرك بحرية كما يرى، وأن يَسَلِّمَ على رؤاه ومفاهيمه وأحكامه التي تخالفها؟
 في أي تاريخ؟، وفي أي ماضٍ أو حاضر يهودي أو مسيحي أو إسلامي كان هذا أو يكون؟

وكم يعاني الإسلام اليوم من التدخل المضر بعقيدته، ومفاهيمه، وتشريعاته، وأخلاقه، وأعرافه، وأصل الانتماء إليه من السياسة المخالفة في بلاد الإسلام والمسلمين؟
 ألم يصل أمر التدخل من السياسة في الإسلام إلى المسجد وأذانه وخطبته، والحوارات العلمية، والجامعات الإسلامية، والأحوال الشخصية، وزواج المسلم وطلاقه، وإرثه، وكل شؤونه؟

أولم يصل أمر هذا التدخل إلى استيراد إسلام من صناعة أوروبية وأمريكية على خلاف ما أنزل الله، وبلغ الرسول ﷺ؟

ألم تُنشأ السياسة المضادة للدين مجموعة كبيرة من المؤسسات؛ لمحاربة الدين، وتقويض الشريعة، والاستبدال عنها باسم حرية المرأة ومظلوميتها؟

فكيف يُقال بعد هذا كله بأن على الإسلام والإسلاميين عدم التدخل في السياسة؟
 وهل من مهمة للإسلام في الأرض أكبر من تثبيت العدل ومطاردة الظلم؟، وأول العدل التوحيد، وأول الظلم الكفر والشرك، حين أن كل ما تمارسه السياسة وتوافق فيه الدين أو تخالفه هو مساحة للعدل والظلم.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٩٨) ٢٥ ربيع الأول ١٤٣١، ١٢ مارس ٢٠١٠م.

مفارقة عجيبة

وهنا تحضرني مفارقة عجيبة عند كثير من الأنظمة في البلاد الإسلامية، وهي النصُّ في دساتيرها على أنَّ الإسلام مصدر رئيس، أو مصدر من مصادر التشريع، ثم المنع من تدخل الإسلام في السياسة!

إذ كيف نجمع بين كون الإسلام مصدرًا رئيسًا من مصادر السياسة، وبين قطع لسان الإسلام في مجالها؟!

ولكن من أجل أن تعيش، عليك أن تقول: هذا صحيح!^(١)

خدعة «السياسة نجاسة»

السياسيون الدنيويون^(٢)، وأتباعهم كثيرًا ما يعطون الإسلاميين بأن عليهم أن يُبقوا على قداستهم، وعلى النأي عن السياسة؛ لئلا يترجسوا ويتجسّسوا، لكنك تعجب حين يتعاطون - وبلا شروط وهم منغمرون في سياسة الظلم، وفي سياسة الأنا والمادة، والتبذُّخ على حساب الشعوب والأمم، والإساءة إلى الإنسان - هذه الألقاب الرفيعة: صاحب السَّعادة، صاحب السُّمو، صاحب العظمة، صاحب الفخامة، صاحب الجلالة!! أَيْخَشُونَ على المتدينين من الرجس، والنَّجاسة، والقذارة، والتَّمَرُّغ في الوحل، ولا يَخْشَوْنَ على أنفسهم كل هذا؟!

وكيف تُعطي السياسة لأهل الدُّنيا عظمة وسموًا وجلالة وقداسة، بينما لا تعطي للدِّينِيِّين الذين يتعاملون معها بالقيم الطاهرة إلا النجاسة والتسافل!!^(٣)

١- خطبة الجمعة (٩٨) ١٢ ذو الحجة ١٤٢٣هـ، ١٤ فبراير ٢٠٠٣م.

٢- هل هناك سياسيون دنيويون، وسياسيون آخرون؟

نعم، السياسي من منطلق قيم الدنيا سياسي دنيوي، من منطلق المادة والحرص على المادة سياسي دنيوي. السياسي الذي ينطلق من قيم أخروية، ويخدم بها الدنيا ويعمرها هو سياسي تستطيع أن تصفه بأنه سياسي أخروي، لا يُجمَد الحياة، وإنما يحركها، يأخذ بها على طريق العدل والإنصاف والمساواة من خلال قيم الآخرة.

٣- خطبة الجمعة (٣١٤) ٢١ صفر ١٤٢٩هـ، ١ مارس ٢٠٠٨م.

خلاصة

إذا كانت النصرانية كما صوّر النصارى ديناً ليس بسياسي، فالإسلام دين سياسي بلا إشكال، شاهد ذلك دولة رسول الله ﷺ، وهي دولة استمرت بعده بصورة وأخرى. وهناك إسلام مسيئس، الإسلام السياسي عانى من مرحلتين: مرحلة التعطيل لدوره السياسي، ثم جاءت مرحلة تسييس الدين، واستخدام الدين لأغراض السياسة الزمنية.

كان أن فصل الدين عن السياسة، وعطل الدور السياسي للإسلام وهي جناية السياسة الزمنية، ثم ترقّت هذه السياسة في محاربتها للدين، وفي هزئها بالدين، فأرادت أن تمتطي الدين، وأن تسخره لأغراضها، حتى أن أمريكا صارت في اتجاه استخدام المسجد في البلاد الإسلامية لصالح ثقافتها، ولصالح سياستها، فضلاً عن الحكومات المحلية في البلاد الإسلامية التي قد تتجه اتجاهًا علمانيًا صارخًا، أو اتجاهًا مزيجًا من ألف مكون من متضادات ومتناقضات.

نحن نطرح دائمًا أن الإسلام سياسي، سواء أمكنه ممارسة السياسة بالصورة الكاملة، أم لم يمكنه ذلك، وإذا غُيب الإسلام على مستوى الواقع العملي، فلا يصح أيضًا أن يُغيب على مستوى النظرية، وعلى مستوى الرؤية.

والمطلوب الآن للسياسة أن ينتهي الإسلام حتى نظريًا، وأن تؤمن كل الأجيال المسلمة بأن الإسلام ليس له شأن في السياسة!!^(١)

العلاقة بين المجتمع والدين والسياسة

بلحاظ الدين وعدمه ينقسم المجتمع إلى: مجتمع متدين، وغير متدين.

وبلحاظ السياسة وعدمها ينقسم المجتمع إلى: مجتمع سياسي، وغير سياسي.

١ - خطبة الجمعة رقم (٢٤٤) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، ٢٦ مايو ٢٠٠٦م.

وبلحاظهما معاً ينقسم المجتمع إلى: مجتمع متدين سياسي، ومجتمع متدين غير سياسي، ومجتمع سياسي غير متدين.

والسياسة والدين متقابلان مع كون السياسة غير دينية، فإذا كانت السياسة غير دينية كانت السياسة مقابلة للدين، والدين مقابلاً للسياسة، هذا يردُّ ذاك، وذاك يردُّ هذا، هذا يجبُّه ذاك، وذاك يجبُّه هذا، ويعيشان حالة التناقض والتهافت بينهما.

أما وهي دينية، فهي جزء من الدين، فلو كان دين المجتمع كاملاً، وتدنيته تآمراً وشاملاً، لم يكن تقابل بين السياسة والدين، وعندئذٍ فرضك المجتمع متديناً يعني أنك تقرضه سياسياً كذلك.

وتربية المجتمع المسلم تربية دقيقة أمينة شاملة لا بدَّ فيها من الاهتمام بالمقومات الرئيسة للدين، وأبعاده المختلفة ومنها البعد السياسي، وتوفير رؤية سياسية إسلامية بمعنى أنها مطابقة للمذهب السياسي في الإسلام، وأن يحمل المجتمع الهمَّ السياسي، والحيوية السياسية الموظفة لصالح الإسلام.

فلا تصدق التربية الإسلامية الشاملة للمجتمع في غياب الرؤية السياسية الإسلامية، والوعي والهمَّ السياسي الذي يخدم الإسلام وعدالته العملية والهوية الإسلامية للمجتمع، فالإسلام على هذا الفرض موجود ولكن بصورة عملية ناقصة.

أما انفصال التربية السياسية عن الإسلام رؤية ومفاهيم ووعياً وهماً وأهدافاً وأساليب، فهو لا يقدم للمجتمع صورة ناقصة عن الإسلام فحسب، وإنما يمتنع مع وجود الإسلام، ويضاده، ويدخل معه في مواجهة، وينتهي إلى نقض مصالحه.

إذا كانت هناك تربية سياسية على غير الخط الإسلامي، واستخدمت في الوقت نفسه عنوان الإسلام، وحملت شعار الإسلام كان الخطر أكبر، وإذا استخدم هذا الفصل عنوان الإسلام، ورفع شعاره، وأقنع أبناءه به كان ذلك افتراءً على الإسلام، وخيانة له، وإضراراً بالغاً به نظرية وتطبيقاً.^(١)

العلاقة بين السياسة والدين والدولة

السياسة المنسجمة مع الدين تعطي انسجاماً بين الحكومة والشعب المتدين، هذا الانسجام انسجام الحكومات التي تحكم شعوباً متدينة مع الدين يثير أكبر طاقة ممكنة عند الشعب؛ لإنجاح مشاريع الدولة، يولد ارتياحاً نفسياً وأجواءً رضا؛ تساعد على الإنتاج، وتجنب من الهزات الأمنية.

أما المواقف غير المنسجمة، فهي لا تسمح ببناء الثقة، تقتل روح العمل والقدرة على النشاط، تخلق واقعاً نفسياً منقسماً، تكون مصدر قلق أمني متعب للأوطان.^(١)

بأيهما يأخذ المسلم؟

يقرأ المسلم في كتاب الله العزيز الحكيم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.^(٢)

ويقراء: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.^(٣)

ويقراء: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.^(٤)

ويقراء: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.^(٥)

وهو كفر في الظاهر ليس على حد الكفر المعروف المخرج عن الدين بصورة كلية. والآية الكريمة تتكرر مع تنوع في التذييل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٦)، وفي موقع آخر: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.^(٧)

١- خطبة الجمعة (٣٧٥) ١٠ رجب ١٤٣٠هـ، ٣ يوليو ٢٠٠٩م.

٢- النساء: ٦٥.

٣- المائدة: ٤٩.

٤- المائدة: ٥٠.

٥- المائدة: ٤٤.

٦- المائدة: ٤٥.

٧- المائدة: ٤٧.

فيعلم - أي المسلم - من كل ذلك، ومن نصوص كثيرة أخرى، ومن واقع الإسلام أنه مأمور من ربه الجليل العظيم بأن يأخذ بحكمه في أي مساحة من مساحات الحياة، وأيما وجد.

ويسمع المسلم من جهة أخرى من حكومات كثيرة في عالمه الإسلامي بأن لا تدخل للدين في السياسة، والمسجد الذي يتحدث في السياسة لا بد أن يعاقب.

وهذا من الحكومات إما بنحو الإنكار؛ لتدخل الإسلام في السياسة وهو معلوم البطلان من الإسلام بالضرورة على مستوى التشريع النظري، والتطبيق العملي معاً، وإما بنحو الرد على الله ورسوله بعد التسليم بأن الإسلام له تدخل في السياسة، وهو أمر فظيع منكر فاحش.

فبأيهما يأخذ الإنسان المسلم؟

بما فهمه من كتاب ربه، أو بما تقول هذه الحكومات؟

وهذه الحكومات التي تقول بأن لا تدخل للدين في السياسة، هل تلتزم بعدم تدخل السياسة في الدين؟، وهل تُبقي للدين مساحة من الحياة الخاصة على الأقل؟

لا، لا تبقي، فقد كانت مساحة ضيقة من حياة الفرد، ومن علاقته بربه متروكة للدين مرحلياً، ثم صارت السياسة تزحف في اتجاه هذه المساحة زحفاً سريعاً كاسحاً؛ لطرد الدين منها، والرمي به خارج دائرة الحياة نهائياً.

تعدّي السياسة على الدين

ومسؤولية إيقاف هذا الزحف هي مسؤولية أمة الإسلام بكاملها على مستوى شعوبها المؤمنة، وبأن زحف السياسة وصل مسألة الزواج والطلاق، والإرث والوصية، وصلاة الجماعة والجمعة، والمسجد والحسينية وأوقافهما، وسيصل - إذا ترك الحبل على الغارب - إلى صلاة المفرد وغسله ووضوئه، وكل شيء من مثل ذلك وأشباهه.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٣٠) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٩ هـ، ٢٠ يونيو ٢٠٠٨ م.

الإسلام يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه

١. لا تقاس بحقائق الإسلام العقيدية والتشريعية وأخلاقياته العالية ما يقابلها وينافيهما في المبادئ الأخرى، والأديان الأخرى.

وكذلك لا تضارع براهينه وأدلتة وحججه، وبذلك فهو يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

٢. وإذا طُبِّق الإسلام تطبيقاً أميناً كاملاً لم يأتِ مثل نتائجه الكبيرة النافعة على يد أي طرح آخر، وبذلك فهو يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

٣. والإسلام يجب أن يعطى التقديم من المسلمين على أي شيء آخر في حياتهم، ولا يذلُّوه في علاقاتهم، وهو بهذا المعنى يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

٤. ومن واجب المسلمين أن يحققوا بالجد والاجتهاد - بعد توفيق الله - العلوَّ العمليَّ للإسلام، والعزة على الأرض بالنسبة للمناهج الأخرى، فهذا مما يليق بالإسلام، ولا يليق بالإسلام أن يضعفه المسلمون، وأن يكون في حاكميته في مؤخرة المذاهب الأخرى، وهذا معنى صحيح من معاني الإسلام يَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

٥. إذا نافس المسلمون بإسلامهم المناهج الأخرى وأهلها، ونافسهم الآخرون ومناهجهم كانت الغلبة للإسلام على غيره، على أن يتعب المسلمون أنفسهم في فهم الإسلام، ويتلقوه من مصادره الآمنة.

٦. أما المسلمون، فيعلون بالإسلام، ويمكن أن يكونوا أعلى وأعزَّ الأمم، وإذا تخلوا عنه أمكن أن يكونوا أسقط أمة، وأذلَّ أمة، وأهون أمة على الأمم، فليطلب المسلمون العزة بالإسلام، وإلا أمكن أن يكونوا أذلَّ من على وجه الأرض.^(١)

حاكمة الدين على السياسة

فإنَّ أمر الدين الزمُّ أمر، والإبقاء على صفاء الإسلام وصدقه وأصالته أهمُّ وظيفة، ولا يسع المسلمون أبداً أن يفرطوا في ذلك في حال من الأحوال ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

١ - خطبة الجمعة (٣٣٧) ٦ شعبان ١٤٢٩هـ، ٨ أغسطس ٢٠٠٨م.

وإنَّ الإسلام - كما أراد الله سبحانه - لسيّد السياسة وهي تابعة له، لا أنَّ للسياسة السيادة على الإسلام فيكون تابعاً لها.

ومَن قدّم فهمًا آخر لهذه العلاقة بين السياسة والإسلام فقد افترى، وهو إنما يتبنّى فهمًا يبرأ منه دين الله.

وإذا أرادت السياسة أن تختطّ لنفسها طريقاً آخر، فعليها على الأقل أن لا تشوّه مفاهيم الإسلام، ولا تكذب عليه، ولا تطمس رؤيته، ولا تُحكّم القبضة على رقبتة، وتتدخل في كلِّ شؤونه، وتتحكّم في كلِّ مفاصله، وتمسخ هويّته.^(١)

١- خطبة الجمعة (٤٢٤) ٦ ذو القعدة ١٤٣١هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠١٠م.

الباب الثالث

استقلالية الشأن الديني عن السياسة الوضعية

استقلالية المسجد

للمسجد موقف من المؤسسة الرسمية، ومنها المؤسسة الأمنية، هذا الموقف لا يمكن أن يتمثل في التبعية، فتبعية المسجد للمؤسسة الرسمية إعطاء قرار الدين بيد السلطة، ومصير الدين بيد السلطة، ويبدو هوى السياسة.

حين تكون تبعية من المسجد للسلطة الرسمية، ومعناه تبعية من الدين للسلطة الرسمية يكون الدين هو المحكوم، والسلطة الرسمية هي الحاكم، وما جاء دين الله؛ لتحكمه أي سلطة رسمية، إنما جاء الحاكم.

نحن نرفض هذه التبعية رفضاً شديداً على مستوى الكلمة والفعل، وفي الوقت نفسه لا يقف المسجد موقف المعاداة المطلقة للمؤسسة الرسمية ولكل مشاريعها، ولا يستهدف فعلاً المواجهة لهذا الوجود.

إنه يقف مع الخير بما هو خير، ويقف من الشر بما هو شر، وليس لأحد علينا أن يطالبنا بأن نقف مع الظلم كما نقف مع العدل، ومع الشر كما نقف مع الخير.^(١)

أهداف الميمنة على المساجد

يريدونها كنائس تذوب في السياسة، وتحلُّ ما تحلُّ، وتحرم ما تحرم، يريدون المساجد كنائس، وأئمة الجماعة فيها قساوسة ينتهي بهم الأمر إلى أن يحلُّوا الزواج المثلي.

نعم قد حلَّت بعض الكنائس، وبعض القساوسة والرهبان مسألة الزواج المثلي، وهو ما اشتتهه السياسة هناك، ولا ندري إلى أين تصل السياسة في هذا البلد أو ذاك

١ - خطبة الجمعة (٢٣٦) ١ ربيع الأول ١٤٢٧ هـ، ٣١ مارس ٢٠٠٦ م.

البلد من مشتهيات تخالف دين الله، وأنتم تعرفون أن من علماء البلاط في بعض البلاد الإسلامية من يفتي حسب هوى الحكومات والرؤساء والسلاطين وإن كان على خلاف المسلمات الإسلامية، وكل ذلك نتيجة طبيعية؛ لارتباط عالم الدين بالجهات الرسمية وخضوعه لها، ولسيطرة السياسة الدنيوية على المسجد.

جرّبت السياسة المال، واستخدمته لتطويع المسجد، وقد أقدمت على استعمال العصا في بعض البلدان الإسلامية، وهي هنا تتحرك في هذا الاتجاه، ذلك لتفريغ المساجد من محتواها، ولتلق بركب السياسة اللاهث وراء أمريكا التي يسمونها بالقطب الوحيد، وهي عند البعض بدل الرب الواحد الأحد تبارك وتعالى.

عصفوران ترميها السياسة بحجر واحد عن طريق الاستحواذ على المسجد: نيل رضا أمريكا، وهو أمنية كبيرة لها، والتخلّص من صوت المسجد المعارض لظلم الأنظمة للشعوب، واستهتارها بحقوق الإنسان وبالثروة.

وقرار شنق المسجد لا بدّ أن يواجهه بإرادة شعبية عامة، والمسجد ليس للإرهاب، وليس للفرقة، وكذلك هو ليس لمباركة ظلم الأنظمة الرسمية، وتبرير سياساتها المتخلفة الجائرة، وليس لتخدير الشعوب، ولا يجوز له أن يكون شيطاناً أخرس.

وإنّ العالم الإسلامي أمام خطرين ساحقين هما: إرهاب جارف يجعل لغة العنف والرعب اللغة الأولى والأخيرة في التعامل مع الآخر، وتيّارٌ رسميٌّ داخل الأمة يقوم بعملية تحريف وإقصاء واسعين للإسلام لحساب أمريكا، ومصالحه الدنيوية.^(١)

رجال دين على المقاس الأمريكي!

رسالة إلى رجال الدين: قال مساعد وزير الخارجية الأمريكية (برايزا) أنهم قد استعانوا برجال الدين الأتراك المنفتحين؛ لتثقيف وتأهيل الأئمة والخطباء المسلمين في أمريكا، وأشار إلى أهمية هذا الصنف من العلماء.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٩٤) ١٢ رجب ١٤٢٨هـ، ٢٧ يوليو ٢٠٠٧م.

٢- الخليج - ٢٧ أغسطس ٢٠٠٥م.

إنهم صنف خاص من العلماء منفتحون انفتاحاً وراء الحدود الإسلامية، أهل دنيا طامعون يغيروهم الدولار الأمريكي.

وواضح جداً أن قد أصبحت حاجة أمريكا، وكثير من الأنظمة الرسمية ملحة لهذا النوع من العلماء، ولعلماء آخرين طيبين طاهرين قد يقعون في الفخ.

أيُّ إرهاب وتطرف يعنون؟

إننا ضد الإرهاب، ولكن أيَّ إرهاب؟

التمسُّك بالإسلام، بالأصالة، رفض العبودية، طلب الحرية، رفض الاحتلال الأجنبي؟!

كل هذا إرهاب في قاموسهم، وكل هذا عندنا من الحق الذي لا يُضَيِّع.

ما هو الطريق الى العلماء المعنيين التجار، الطيبين في نظر أمريكا، المتعاونين معها؟

الطريق: الدولار، الطريق: أي عملة أخرى تقوم مقام الدولار، والطريق احتيال وتغريب وتضليل واستدراج، وخطة طويلة الأمد قد لا تبدو ملامح نهايتها في بدايتها لكل الأنظار.

إذاً، فعلى الشعوب أن تُمَيِّز بين علمائها.

وأنا أقول: إنَّ هناك علماء أحراراً غيارى، ولكن قد يقعون في الفخ، ويمهدون لغيرهم من العبيد الطامعين.

ولن تعدم أيُّ بلد ظهور هذا الصنف من العلماء، أو ذلك الصنف.^(١)

مبررات للميمنة على الشَّان الدِّيني

من المغالطة المضحكة جداً أن تتذرع السياسة في تدخُّلها في وظيفة المسجد وشأنه الرِّسالي باسم الحفاظ على الحرِّيَّة الدينية، وحماية الدِّين، والحفاظ على قدسيته والدُّود عن كرامته، والحرص على أداء رسالته وكأنَّ أئمة المساجد والقائمين على

١- خطبة الجمعة (٢١٠) ٢٧ رجب ١٤٢٦هـ، ٢ سبتمبر ٢٠٠٥م.

أنشطته شيوعيون متمخضون للشيوعية، أو علمانيون خالصون.

وكأن علماء المساجد أجهل فئات المجتمع بالإسلام، ولذلك كانوا هم الأحوج لدروس السياسة في الدين، وتبصيرها وعظاتها.

ويوم أن تبع المسجد السياسة، وأحكمت السيطرة عليه، وفي مفصل من مفصل تاريخ الإسلام كانت خطبة الجمعة تتولّى شتم خليفة من خلفاء المسلمين لا يشكُّ منصف في أحقيته للخلافة، لا يقدم عليه أحد رجلاً في التقوى وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

لقد فرضت السياسة شتم أمير المؤمنين عليه السلام، وجعلت ذلك ركناً من أركان خطبة الجمعة لسنين متتالية!

هذا ما تفعله السياسة في المسجد، ولو اقتضت مصلحة تلك السياسة لعن كل الخلفاء الذين أعقبوا في الحكم رسول الله صلى الله عليه وآله لما توقّعت عن ذلك!

والسياسة لا تثبت على حال، ومصلحتها دائماً في تقلّب، وصديق اليوم فيها عدوُّ غداً، وعدوُّ اليوم صديق بعده، وتدخل السياسة الخارجية للبلدان المعادية للإسلام في شؤون السياسة الداخلية المحلية لكثير من البلاد الإسلامية اليوم ليس بالأمر الخفي، والاستجابة لهذه التدخلات كذلك ليست قليلة.

إذا أريد لـ (نعم) السياسة أن تكون نعم المسجد، ولـ (لائها) أن تكون لاءً له احتجنا لمسجد من نوع آخر يتلون بلون السياسة، ويشرق إذا شرقت، ويغرب إذا غربت، ويبيح ما تبيح، ويحرم ما تحرم.

وكم من مباح في السياسة هو محرّم في الدين، وكم من مباح في الدين هو محرّم في السياسة، وكم واجهت السياسة من أحكام الدين أشدّ مواجهة وأقساها؟!

وسيكون على المسجد إذا دخل في تبعيّة السياسة، وأخضع لها أن يمدح من تمدحه، وأن تذمّ من تذمّه وإن كان الممدوح عدوًّا من أعداء الإسلام من الخارج، وإن كان المذموم عالماً تقياً من علماء الداخل.

ومسجد هذا شأنه يبرأ منه الإسلام كلّ البراءة.

المسجد ليس للفوضى الاجتماعية، ولا لفرقة المسلمين، ولا لزعزعة أمن الناس، ولا لإشاعة حالة العنف، ولا لإحداث القلاقل، وهو من جهة أخرى ليس لإقرار أي انحراف عن الدين والذي قد تقع فيه السياسة، ولا لتأييد الظلم، ولا مباركة الفساد، والتميز الجائر، ولا للموافقة على القوانين المخالفة للشريعة.

إنه لبيان الحق، وتعليم الدين، والتربية على الإسلام، وتركيز القيم الإلهية، وترسيخ الأخلاق الكريمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتوجيه لما فيه رضا الخالق وَعَلَىٰ، ولوحدة المسلمين وتراصهم واجتماعهم على الحق والهدى، وما فيه صلاح دينهم، ودنياهم، وقوتهم، وعزهم، واستقلالهم، وظهورهم.

والسياسة في واقعنا المعاش هي المسؤولة في عدد من بلدان المسلمين عن ممارسة المسجد الذي تضع يدها عليه؛ لإثارة الفتنة في الأمة، واستعداد بعضها على بعض، وإشاعة لغة التكفير والشتم واللعن للمسلمين، والمناداة بإباحة أموالهم ودمائهم.^(١)

والسياسة هي المسؤولة عن تحريك شخص هنا أو شخص هناك، من هذا المذهب أو من ذلك المذهب؛ لإطلاق بعض الكلمات المفجرة لأوضاع المسلمين، المعقدة للفتنة، الملتهبة لها.

الدول التي تضرب بكلمة الدين عرض الحائط إذا خالفت سياستها، وقوانينها، ومشاريعها، وطموحاتها تكون هي المأمونة على المسجد، المحافظة على وظيفته الأصلية، الحريصة على بلوغه هدفه الرسالي؟!

علينا أن نؤمن باجتماع الضدين إذا أردنا أن نصدق بذلك.^(٢)

لا تؤتمن الحكومات على الدين

تبقى الشعوب دائماً آمن على دين الله، وبقائه، ونقائه من حكومات معرضة للاستجابة لضغوط الغرب والشرق، والدخول في مساومات على قضايا تتعلق بدين الأمة، وأخلاقها، وحضارتها، وأمنها، وعزتها، وكرامتها، ووجودها.

١- أليست ممارسة المسجد الذي تضع السياسة يدها عليه هي هذه الممارسة؟!

٢- خطبة الجمعة (٤٢٤) ٦ ذو القعدة ١٤٣١هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠١٠م.

ولا يمكن بأي من الأحوال أن يوضع مصير المسألة الدينية، وثقافة الأمة، وحركتها الحضارية تحت رحمة هذه المساومات، وما تراه الحكومات من ظروف اضطرار سياسي لا تغني شيئاً في نظر الشعوب المسلمة بالقياس إلى حرمة الدين، وكرامته، ومنزلته الغالية التي يُضحَّى من أجلها بكل شيء، ولا يُضحَّى بها من أجل شيء.

وإذا كانت الحكومات ترفض الأخذ برأي الدين في السياسة، وترى الدعوة إلى ذلك من منكر القول، فإن على الشعوب وبدرجة أكثر صرامة أن تقف قوية أمام إرادة تذويب الدين في السياسة وامتطائه؛ لأغراضها المنافية له، والتضحية به من أجلها.

وحذارٍ حذارٍ من أن تُسلم أمانة الدين لأي مؤسسة حكومية في أي بلد من البلدان الإسلامية المحكومة بالاتجاه الوضعي.^(١)

المسجد بين الاستقلالية والتبعية

استقلالية المسجد، وإمام الجماعة والجمعة، وتبعيتهما لجهة رسمية هل يستويان؟ لا أظن أن يذهب ذاهبٌ إلى أن استقلاليتهما وتبعيتهما سواء، ولا أن التبعية أولى، وإن بين المسجد والمؤسسة الرسمية من حيث الوظيفة صوراً:

١ - استقلال وظيفي

فالمسجد يتحدث في أمر، والسياسة تتحدث في أمر آخر.

هذا مشغول بمساحة، وتلك مشغولة بمساحة.

المسجد يتكلم عن الكفن، والقبر، والوضوء، والغسل، والحيز، والنفاس، والسياسة تتحدث عن الحكم، عن المال، عن الإسكان، عن الاستيراد الحضاري، عن كل شيء يهم الحياة.

في هذه الحالة لا يكون شغل للسياسة بالمسجد، ولا تغيره اهتماماً، ولا تتشاغل بشأنه أساساً.

١ - خطبة الجمعة (٢٠٣) ٣ جمادى الأولى ١٤٢٦ هـ، ١٠ يونيو ٢٠٠٥ م.

هذا النوع من المساجد لا يُبذل في مواجهته عليه فلس واحد من قبل السياسة.

٢- تداخل وظيفي

تتحدث السياسة في الأحوال الشخصية، ويتحدث المسجد في الأحوال الشخصية.

تتحدث السياسة في السياحة الحرة، ويتحدث المسجد في السياحة الحرة.

السياسة تحتضن الربا، المسجد يرفض الربا.

للسياسة طريقتها في تقسيم الثروة، وللمسجد رأيه واقتراحه في تقسيم آخر للثروة.

إنه تداخل وظيفي، واحتكاك بين المسجد والسياسة.

وهنا يسهل على السياسة، بل يتوجب على السياسة أن تبذل الكثير؛ من أجل احتضان المسجد، توجيه المسجد، تعديل سياسة المسجد، السيطرة على المسجد! مرة تتفق الرؤية بين الطرفين في الأحوال الشخصية، في السياحة الحرة، في الربا، في تقسيم الثروة، في كل مجال من المجالات، وهذا ما كان على عهد رسول الله ﷺ، وفي هذه الحالة يكون تناصر، وتكامل، وتأزر بين المسجد وبين المؤسسة السياسية في كل مرافقها.

المسجد يدعم السياسة، والسياسة تدعم المسجد.

المسجد يعمل على نجاح الدور السياسي في هذه الحالة، والسياسة تعمل على نجاح دور المسجد.

ومرة يكون اختلاف في الرؤية، وكل هذه المواضيع محل اختلاف في الرؤية بين السياسة وبين المسجد، وهذه حالة تقسم الأمة، تخلق الصراع في المجتمع، تجعل السياسة معادية كل المعادة للمسجد، وتضطر المسجد لأن يقول الكلمة التي تضير السياسة، وفي هذا الفرض تأتي أهمية المسجد والسيطرة عليه من قبل السياسة.

ومنذ بدايات مفارقة الأمة خط إسلامها بدأت المفارقة بين المسجد والسياسة، وبدأ لونٌ من المواجهة بين المسجد والسياسة، وتكبر المواجهة كلما شطت السياسة بعيداً عن طريق الدين، وكلما حرص المسجد على أن يلتزم خط الرسالة.

عند اختلاف الرؤية إما أن يسكت المسجد على ظلم السياسة، ويتحول إلى شيطان أخرس، وإما ينطق المسجد في صالح ظلم السياسة، ويتحول إلى شيطان ناطق، والشيطان لا ينطق إلا بالباطل، والشيطان لا يسكت إلا عن الحق.

تنتهي مشكلة الصراع بين المسجد والسياسة عندما يتخذ المسجد للمسجد موقف الصمت من السياسة، ويكون الشيطان الأخرس عن النطق بالحق، ويكون التصالح والتحاضن، والعلاقة الحميمة، والدعم الهائل للمسجد حين يتحول المسجد إلى شيطان ناطق، فينطق بما تريده السياسة، ويكون حق السياسة حقاً عنده، وباطل السياسة باطلاً عنده، وصديق السياسة صديقه، وعدو السياسة عدوه، حينئذ يغنى المسجد، ويرتفع الشأن المادي للمسجد، ويأمن، وتصفق السياسة للمسجد.

أما إذا اتجه المسجد إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول كلمة الحق، فإن العلاقة ستكون مرهقة، وسيتعيب المسجد، وإمام المسجد من أذى السياسة، وربما أغلق المسجد، وطُرد إمام المسجد بقوة السياسة.^(١)

كيف نأتمن الدين عند هكذا سياسة؟!

أقول: كيف نأتمن على المسجد، وعلى الحسينية، والموكب، والحوزة القرار السياسي الذي منه قرار السياحة على ما نشهد حاله، وقرار الوضع الجامعي على ما نشهد حاله، وعلى قرار الربا على ما نشهد حاله، ونحن نشهد قرارات كثيرة جداً فيها مخالفة صارخة للدين.

وكيف نأمن القرار السياسي على مقدرات الدين ومقدراته - والكلام على مستوى الساحة الإسلامية الكبرى - ونحن نجد الهيمنة الأمريكية تزحف؛ لتفرض نفسها على كل قرار، وعلى كل زاوية من زوايا الوجود الرسمي للدول الإسلامية.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٤٣) ٢١ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، ١٩ مايو ٢٠٠٦م.

كيف نطمئن لهذا القرار، أو لهذا المشروع وهو يأتي في أجواء تعلن فيها أمريكا وجوب تعديل المناهج، ووجوب تخريج أئمة جماعة وجمعة من نوع جديد يتواءم مع صياغة إسلامية تستهدفها أمريكا.

وعلى كل حال، فإن القرار السياسي غير ثابت.

وإن وزير اليوم غير وزير الغد.

وإن حكومة اليوم غير حكومة الغد.

وإن المصلحة السياسية اليوم غير المصلحة السياسية في الغد.

أما الدين، فله ثوابته التي لا تقبل أن تتحكم فيها السياسة المتغيرة، وللدين حقائق خالدة، وأساسات ثابتة، إذا وضعت في يد القرار السياسي المتغير انهدم الدين.

ونحن حين ننظر إلى تاريخ مدرسة آل الرسول ﷺ نجد أن تاريخ هذه المدرسة كان يديم الرفض لتبعية المؤسسات الدينية للآراء السياسية المتغيرة التي تذهب لها السلطات الزمنية.

والذي يراه الإسلام هو أن السلطة تتبع المسجد، وليس أن المسجد يتبع السلطة. وإذا أبت السلطة أن تفارق في بعض قراراتها مضطرة أو غير مضطرة الحكم الحدي للشرعية، فإن الشريعة ليس عليها هنا أن تتنازل عن أحكامها، وليس لأهل الشريعة أن يركضوا وراء السياسة؛ ليغيروا الدين ما تغيرت السياسة.

وحوزة قم، وحوزة النجف بالأمس واليوم، في الظرف الشديد العنيد وفي الظرف الملائم - أيضًا - لم يعطيا إذنًا، ولا قبولًا أبدًا بالتنازل عن استقلالية الحوزة، ونحن من أبناء تلك المدرسة.

على أن المسجد وهو مستقل لا يصح أن يكون للإضرار، والإرهاب، والفوضى، وإنما المسجد وهو يتمتع باستقلاليته عليه أن يلتزم بخط الدين، وخط الدين يصلح ولا يفسد، ويأمر بالمعروف لا بالمنكر، ويرفض المنكر ولا يقره، ولا أمن ولا رخاء ولا سعادة لمجتمع

إذا قطنه المنكر، وغادره المعروف.

والمسجد - كما عليه أن يلتزم الحكم الشرعي - عليه أن يقدر الظرف الموضوعي، وأن يدرك الواقع السياسي، وأن لا يدخل المسلمين في متاهات ممزقة من غير نتائج رابحة، وإمام الجماعة والجمعة اليوم لا ينبغي أن يكون هزياً، وكلما وجد من هو أكفاً كان الأولى أن يكون هو الإمام.

والقرار السياسي لن يعرف هذا الشيء.

ولقد طالعنا خبر الخطبة الموحدة في مساجد مصر بكاملها، وأنه يُزعم أن تعميم خطبة واحدة أو الخطوط العريضة لخطبة واحدة على ما يزيد على واحد وسبعين ألف مسجد في مصر؛ خطبة تصدر من وزارة الأوقاف؛ لينطق بها كل لسان من لسان أئمة الجماعة والجمعة يوم الجمعة يوم الدين؛ ليتحول المسجد دائرة رسمية تنطق باسم الحكومة ومصالحها السياسية!!

وهذا درس يعلم كل المسلمين خطورة أن يتسلم إمام جماعة أو جمعة راتبه؛ لئلا يُستعبد المسجد للقرار الرسمي.^(١)

استقلالية الخطاب الديني

لا دين بلا خطاب ديني، فيوم لا خطاب للدين لا وجود له، والقضاء على هذا الخطاب قضاء على الدين نفسه، وما استمر الدين إلا بالخطاب الديني. وتزوير الخطاب الديني هو تزوير للدين بلا ريب، ومن ملك الخطاب الديني، وتصرّف فيه فقد ملك الدين وتصرّف فيه.

وضوابط لهذا الخطاب من خارج الدين تزوير ومسح وإسقاط له، وهو بالتالي تزوير ومسح وإسقاط للدين.

١- خطبة الجمعة (١٢٤) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ١٥ أغسطس ٢٠٠٣م.

وخطاب غير الدين إذا أُخضع للضوابط الدينية صار دينياً، والسياسة التي تضع للخطاب الديني ضوابط تجعله خطاباً لا خطاباً رؤية ومستوى وهدفاً وتوجّهاً واهتماماً. وعلى المجتمع أن يختار بين أن يقبل تحوّل الخطاب الديني إلى وسيلة من وسائل السياسة الوضعية وأغراضها الماديّة النفعية، فيفارق الدين، وبين أن يحتفظ بدينه، فيرفض تسييس الخطاب الديني، وإخضاعه لهوى السياسات الدنيوية التي تتصادم مع مصلحة الدين.

وعلى المسجد أن يختار بين أن يبقى مسجداً لله، فلا يأخذ إلا برأي الدين، ولا يقول إلا ما يرضي الله، أو يتحول إلى دائرة من دوائر الحكومات يعبر عن رأيها، ويخضع لأمرها ونهيها، ويكون الخادم الأمين لمصلحتها، ويشاركها في خطئها، وظلمها، واستبدادها.

الحكومات التي تملأ بلاد المسلمين بالخمير، ولحم الخنزير، وكل الموبقات، ومراكز الدّعارة والمراقص المشتركة، وبرك المجون والفواحش المنكرة هي التي تُؤمّن على الخطاب الديني، وتضع ضوابطه، وتحدد مساراته، وتتحكم فيه؟!

ويل لدين يقوم على حراسته هذا النوع من الحكومات، ثم ويل، ثم ويل.

وأقول لكل المشغولين بهمّ اللقمة، والكسوة، والمأوى - ومن حقهم ذلك، ولكنهم يغفلون عن خطورة مسألة المسجد، والخطاب الديني - : بأنّ اللقمة المسلوقة، وما يصادر من المادة وحقوقها يعيده المسجد الحر، أما المسجد المصادّر، فلا تعيده اللقمة الموقورة، وترف المادة.

المسجد وبخطابه الإسلامي الصادق غير المكبّل، ولا مدفوع الثمن من الحكومات يعيد المسلوب من حقوق الناس كما أعادها في صدر الإسلام بما يوقظه من عقل، وبيته من وعي، ويدلّ عليه من هدى، ويدعو إليه من صلاح، ويشير من إرادة، وبينه من عزم، وينكره من منكر، ويأمر به من معروف، ويعرّفه لرواده من حقوق.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٧٥) ١٠ رجب ١٤٣٠هـ، ٣ يوليو ٢٠٠٩م.

السياسة والدين المروّض

دين رهن الإشارة، وطوع البنّان هو حاجة ماسّة تعيشها كل الأنظمة التابعة للغرب أو الشرق والتي تحكم شعوبًا إسلامية لم يتم مسحها بدرجة كافية؛ للتوافق الفكري، والنفسي، والعملي مع أنظمة منفصلة عن هويّة الأمّة، ومصالح أبنائها.

وهذا الدين المطاوع للسياسة المنحرفة عن خطّ الأمّة، الباغية عليها له مقوماته على الأرض وآلياته؛ ومن ذلك:

أ- علماء وطلبة علم دينيون داخلون في خدمة المشروع الديني الرسمي لأيّ نظام مما وُصف سابقاً، ولخدمة الغرض السياسي للنظام.

وأولئك العلماء والطلبة منهم النوع المصنوع، ومنهم النوع المُشترى من السوق القائمة من هذا النوع.

ب- تحريف العدد الكافي من الرؤى والمفاهيم الإسلامية، والأحكام الشرعية، والتلاعب بمؤدّي النصوص من الكتاب والسنة، وبما يفتح الباب لتبعية الدين لهوى السياسة.

ج- الهيمنة على مراكز الإشعاع الديني من مثل المسجد، والحوزة، ووضعها تحت الوصاية، والتحكم الرسمي.

د- غلق كل المنافذ التي تمكّن من استقلال أي جهة دينية صادقة، وربط كل الوجود الديني بعباء الحكومات من الناحية المالية ومنعها.

هـ- الأخذ بأنواع المطاردات المختلفة حسب المقتضي، وظروف المكان والزمان لأي وجود ديني غير مساوم على دينه.

و- انتشار مؤسسات رسمية باسم الدين تمارس نشاطاً إسلامياً دعائياً ومزوراً ضمن منهجٍ خاصة تسلب من الدين لبّه، وتحوّله أداة طيعة؛ لتنفيذ مآرب السياسة المنحرفة، وتحاول أن تسد حاجة النفوس والأرواح للدين بالصورة الكاذبة التي لا تنافي تلك المآرب بل تخدمها.

عملية تذليل الدين وتطويعه لما يأتي على قياسنا، حكومات كُنا، أو أفرادًا، أو جماعات، وما نهوى، وما لا نهوى، حسب الحاجة، وما تتجه إليه التقديرات الشخصية عند هذا الفرد أو ذاك، وهذه الجماعة أو تلك.^(١)

ضمانة حفظ الدين من مكائد السياسة

وقد حمى الإسلام نفسه تشريعًا من هذه الفوضى والضياح بتحديد المرجعية الدينية الحجة في الفهم الديني في زمن حضور المعصوم عليه السلام، وغيابه كذلك، بأن أرجع إليه في زمن الحضور، وإلى الفقهاء العدول في زمن الغيبة؛ فمن راعى هذا التشريع خرج من الفتنة، ومن لم يصبر عليه وقع فيها.

ومنذ القرون الأولى وإلى الآن لا يعرف المشرعة من أبناء هذه الأمة مرجعية في تلقى أحكام الشريعة في مختلف ساحات الحياة غير المرجعية الفقهية من النوع الذي وصفته الروايات، فعليك بهذا الخط.^(٢)

خطاب المسجد

على المسجد أن يسكت، أم له أن ينطق؟

وإذا سكت يسكت حياءً، لأنه لا يملك رأيًا له وزنه واحترامه؟

أو يسكت خوفًا من صحافة، أو من قانون؟

أو يسكت لمكسب من مكاسب المادة التي تباع من أجلها الذمم والقيم؟

وإذا نطق ينطق لرضا من؟

ولنصرة من؟

١- خطبة الجمعة (٣٢٦) ١٧ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٣ مايو ٢٠٠٨م.

٢- المصدر نفسه.

وبأي كلمة ينطق؟

وعن أي منهج يستقي؟

ومن أي رؤية ينطلق؟

والإجابة: إن ليس على المسجد أن يسكت، بل ليس له أن يسكت، وهذه فتوى الإسلام الصريحة وسعها صدر الآخرين أو ضاق.

المساجد تمتلك رجالاً امتحنهم درب العلم، ودرب العمل والخبرة، ودرب المخاوف والمواقع والإغراءات، وليس في وزن رأيهم من نقص يجعله يطأطئ أمام رأي الآخرين أو يتوارى، فلرأيهم الوزن الثقيل الذي يستمد من قواعد العلم وعطاءات الخبرة وهدى الإيمان على عكس آراء كثيرة خفيفة تنتشر في طول الساحة وعرضها.

وعليه، لا يمكن أن تسكت المساجد حياءً.

وكذلك لا يمكن أن تسكت خوفاً، وهي تنطق بكلمة الحق والعدل والصدق والهدى، وتحتمي بحمى الله، وتلجأ إليه، فلا خوف من صحافة وإن جارت كلمتها، ولا خوف من قانون يعارض أن تكون للمسجد كلمته الحكيمة الرشيدة الهادية إذ لا قانون بهذا المضمون مطلقاً، ولو وجد في يوم من الأيام، فهو غير شرعي أولاً، وغير دستوري ثانياً، وغير عملي ثالثاً، وهو معارض لحضارة الأمة وقيمتها ودينها وتاريخها بكل وضوح، وإن قدسية الشريعة فوق كل قدسية، وحرمة دين الله فوق كل حرمة.

ولا يسكت المسجد ما دام مسجداً، ولا يسكت رجال المساجد - وهم كذلك - لمكسب من مكاسب الدنيا؛ لأن من صنعه الإسلام لا يكون من باعة الذمم والقيم.

فمتعين جداً أن المسجد يمارس حقه في النطق كما تمارسه كل المؤسسات، وهو أكثرها تجذراً، وأشدّها تغلغلاً في وعي الأمة وضميرها، ولن تدافع الأمة في يوم من الأيام عن مؤسسة دفاعها عن المسجد ووعيه، ودوره، ورسالته.

والمسجد ينطق بكلمة الدين، وفتوى الشريعة، ونصرته للإسلام والإنسان، ورؤيته إيمانية، ومنطلقه قرآني، ومنهجه رباني.

والمسجد يطلب رضاً واحداً لا أكثر.

لا يطلب إلا رضا الله، ولا ينظر إلا إليه، هكذا هو المسجد، وإلا لم يعد مسجداً حقاً، أو قل كما هو أدق: إنه مسجد خانه رجاله.

وكلما كان المطلوب هو مجتمع الصدق والحق، والعفة والاستقامة، والإنصاف والعدل، والتعاون على الخير، والتفاني في مصلحة الآخرين اشتدت الضرورة للمسجد ودوره الكبير البناء، وصياغته للشخصية الإنسانية الإيمانية التي تعيش للآخرين أكثر مما تعيش لذاتها.

والقضاء على المسجد ودوره قضاء على هذا المجتمع، وقطع للطريق السالك إليه.^(١)

لو سكنت المساجد!

لو استطاعت الحكومة أن تسكت المساجد عن مطالبتها بالإصلاح، وأن تسكت قولها كلمة المعروف التي تمس سياستها، وتُكر المنكر الذي تقع فيه، أو استطاعت أن تجعل المساجد منحازةً إليها، فهل تظنُّ الحكومة أنَّ عزل المسجد عن دوره، أو تحريف هذا الدور سيعود بالناس إلى النوم بعد الصحو؟، ويسكت الجائع والمحروم والمظلوم، وينهي المطالبة بالحق؟ هذا وهم، هذا خطأ فاحش، وإنما الذي سيحصل أن سيلتف الناس بالدين بعيداً عن أئمة المساجد ووعاظها ممن يخضعون لسياسة الحكومة وإرادتها إذا كانت منافية لدين، أو مصلحة من مصالح الناس.

١ - خطبة الجمعة (٥٧) ٢٠ صفر ١٤٢٣ هـ، ٣ مايو ٢٠٠٢ م.

والإ - يعني إن لم يلتفتوا بالدين خارج المسجد -، فسيكون الالتفاف حول غير الدين، وستستمر المطالبة تحت شعارات أخرى^(١) لا تعرف تلك الشعارات القيود والضوابط الخلقية التي تعرفها المطالبة الدينية التي تنبذ الإرهاب، وترعى الحرمات. المطالبات تكون مع الوضع الديني، ومع الوضع غير الديني، الانتفاضات من أجل الحق تكون في مناخ الدين، وفي المناخات الأخرى بفارق جوهري كبير، ما هو هذا الفارق؟

إن انتفاضات الدين، حركات الدين، مطالبات الدينين في إطار من قيم، ورعاية للحرمات^(٢)، والانتفاضات الأخرى منفلة، مجنونة، مستبحة، تدمر كل شيء، وتسف كل شيء حتى تصل إلى هدفها.

وكم سيدخل الدين من هوى السياسة الدنيوية من مسجد يخضع لها؟!

وكم سيناله من تحريف لهواها المتقلب الذي لا يثبت على شيء؟!

سيكون الناس كل يوم أمام دين يصوغ لهم هوى السياسة فيما يرتبط بمصالحها وما لا يرتبط، ومآل الدين حينئذٍ إلى ضياع، وقد فعل التاريخ من هذا الكثير الذي حرّف الدين، وأبعده عن جوهره في مسائل مهمة لا تخفى.

ليتدبّر متدبّر، وليتّق متقّ، فإن تدبّره وتقواه سيردّانه جدًّا عن المشاركة في رسم هذا المصير الأسود الذي ينقض مصلحة الدين، ويستوحش له ضمير كل إنسان مؤمن.^(٣)

لوسألت السياسة عن تدخل المسجد في السياسة أهو من الحلال، أم من الحرام؟، فلن يأتيك جواب واحد ثابت.

السياسة حرام على المسجد حين تناقش السياسة، وحين تحاول كشف عورات السياسة، وتصحيح مسار السياسة، والسياسة حلال على المسجد، بل واجب على المسجد حين تكون في مهاشة السياسة، ولتحقيق مآرب السياسة!!

١- المطالبات بالحقوق والنهضات من أجلها ليست مقصورة على الشعوب الإسلامية، أو المدينة عمومًا؛ فكل المظلومين في الأرض ينتفضون ما وجدوا فرصة؛ لاسترداد الحقوق، ورفع الظلم، والضيق والخناق بنفسه كافٍ للتحريك.

٢- وهذا عند دينيين يعون الدين الصدق حقًا، ويتعهدون به.

٣- خطبة الجمعة (٢٤٦) ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ، ٩ يونيو ٢٠٠٦م.

كل يوم نسمع كلمات متناقضة! أحياناً يُطالب المسجد بدور يشارك الأمن في وظيفته، ويساعد تلك الوزارة على وظيفتها، ويشيد بالموقف السياسي المعين، ثم تأتي كلمات تُحرّم على المسجد أن يتدخل في السياسة!

ومعنى لا تدخل للمسجد في السياسة أن يتوقف المسجد عن دوره نهائياً، وأن ينسحب من الساحة بالكامل، لماذا؟، لأن السياسة لم تُبقِ شبراً ولا قيد أنملة إلا وتسيطر عليه.

أي شيء لا يتدخل فيه السياسة حتى تبقى مساحة للمسجد مفصولة عن السياسة؟!

أي شأن من شؤون الإنسان بقي خارج إطار السياسة، ولا تتحكم فيه السياسة؟

كل مساحة الحياة قد سيطرت عليها السياسة، فحين يُطلب من مواطن، أو يُطلب من المسجد أن لا يتدخل في السياسة، فمعنى ذلك أن عليه أن يموت.

أما وظيفة المسجد في الشريعة، فهي وظيفة إصلاح وبناء، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، ودعوة للخير، ووقوف في وجه الباطل.

هذه هي وظيفة المسجد التي تلقّاها المسلمون من رسول الله ﷺ.

والدور المفعل الفاعل في كل مساحة الحياة هو الدور الطبيعي للمسجد في الإسلام.^(١)

منبر الجمعة منبر رسول الله ﷺ

منبر الجمعة - أصلاً - إنما هو منبر رسول الله ﷺ، ثم أوصياؤه، وليس لأحد أن يعتلي هذا المنبر في غيبتهم فضلاً عن حضورهم إلا بإذن صاحب المنبر الأصل في الشريعة الكاشف عن إذن الله مالك الأمر كله.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (٢٤٢) ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، ١٢ مايو ٢٠٠٦ م.

٢- المنبر منبر رسول الله ﷺ، ولا إذن لأحد أن يصعد منبر رسول الله ﷺ وإن كان في غيبته وغيبة الأئمة من ولده ﷺ إلا بأن يعرف أن له إذناً في ذلك، وإلا فلا.

وهذه المعرفة قد تكون معرفة واقعية، وقد تكون معرفة ظاهرية.

لا بد أن تكون له حجة شرعية؛ ليعتلي هذا المنبر، وإلا فلا.

ولهذا المنبر وظيفته الشرعية التي تُتلقى من القرآن، وسنة الرسول ﷺ، وسيرة المعصومين من بعده (عليه وآله) قولاً وفعلًا وتقريرًا، ولا مصدر آخر لهذه الوظيفة في الإسلام.

ومما لا يمكن أن يعترض عليه مسلم يُحسن شيئًا من الإسلام أن وظيفة هذا المنبر في سيرة رسول الله ﷺ، تبليغ الإسلام كما يريد الله ﷻ لا كما يهوى الناس، وبث روح التوحيد لله ﷻ في العقول والأرواح والنفوس، وإخلاص العبادة، والطاعة له بلا شريك، والتمكين للعدل في الناس، ومطاردة الظلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واستنهاض الأمة للعمل بدين الله، وتطبيق منهجه في الأرض، والتوحد في سبيله، والتعاون على البر والتقوى، ومواجهة المنكرات والمظالم، والعمل على إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

منبر الجمعة في الإسلام راصد، ومراقب أسبوعي لحركة المجتمع بكل أبعادها؛ لتدارك أخطاء هذه الحركة، وما قد يعرض عليها من انحراف، أو قصور، أو تقصير، أو تذبذب، أو تردد، وتصحيح كل المسارات، ورد الأمور إلى نصابها، لا يُستثنى من ذلك أمر اقتصاد، أو اجتماع، أو سياسة، أو غير ذلك.

ومن كان يقوم بكل ذلك وبصورة بعيدة عن الخلل والخطأ نهائيًا هو من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ثم من أقامه مقامه في الدين، وسياسة المسلمين كعلي بن أبي طالب عليه السلام.

ولا يبلغ مبلغ رسول الله ﷺ، ولا المعصوم عمومًا أحد على الإطلاق، وهم القدوة والمنار، وبهم يُستضاء ويهتدى.

نعم منبر الجمعة منبر رسول الله ﷺ، وهو لكل ذلك، وليس منبرًا سلبيًا، لا يهمله من أمر المسلمين شيئًا، ولا ما يعترى الدين من سوء، والأمة من خلل، وما يحدث فيها من مظالم، وما يتهدد وجودها من أخطار، وما يُراد بها من شرٍّ، وهو ليس لعون

الظالم على المظلوم، وإقرار البغي، وأي لون من ألوان الفساد في الأرض، أو الإخلال بموازين القسط في الناس.

ثمَّ إنه ليس للفوضى، وتأجيج الفتن، وإثارة النعرات، وتفتيت المجتمع، وافتعال الأزمات، وإحداث المشاكل، وبغي الكلمة، وسلاطة اللسان.

ولغته ليست لغة الشتم، والسُّب، والنَّيل من كرامة الناس بالباطل.

لغته أحقُّ لغة، وأكرم لغة، وأنزه لغة، وأعفُّ لغة، وأزكى لغة، وأقوى لغة في الهداية، والإرشاد، والإصلاح.^(١)

١- هتاف جموع المصلين بـ (لبيك يا إسلام).

الباب الرابع الأئمة عليهم السلام والسياسة

موقف الأئمة عليهم السلام من السياسة

ولدت هذه الأمة عزيزة قوية رائدة على يد بيت النبوة والرسالة والإمامة، ولن تبعث هكذا إلا على يدهم (صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين).

وهذه بعض كلمات عن موقف الأئمة عليهم السلام من السياسة:

أولاً: لا شك في أن الأئمة عليهم السلام قادة للإنسانية، وأكبر من مجرد ساسة محنكين ومنصفين، فإنهم لقيادة الحياة، وصناعة الإنسان، وتربيته، وتركيبته، والتقدم بحركة الحياة في كل أبعادها الصالحة، وإعداد الإنسان بكل مستوياته إعداداً إلهياً ينتهي به إلى أقصى درجات الكمال الفكري، والنفسي، والروحي، مع بناء أوضاع اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وعلمية، وصحية، وأمنية يشعر الناس من خلالها بطعم الحياة الهنيئة الراقية.

ثانياً: ليس وارداً القول بأن الأئمة عليهم السلام قد اعتزلوا الحياة العامة، وشأن الأمة، ومنه البعد السياسي، وعاشوا حالة اللامبالاة بهذا الشأن، وبهذا البعد بالخصوص، واكتفوا بدور الوعظ والإرشاد العفوي أو المخطط، وكانوا على مستوى المعلم المتفرغ لتعليمه، والكاتب المشغول بكتابته، والمحقق في أي حقل من حقول المعرفة المستغرق في تحقيقه، وصاحب الهمم الثقال في المشغوف بنشاطه الثقافى، هم عليهم السلام أكبر من كل هذه النماذج والأمثلة بكثير.

قادة حياة، يحملون مسؤولية توجيه الحياة والإنسان، صناعة الحياة والإنسان، ولا أظن أحداً ممن ينفي السياسة عن الأئمة عليهم السلام يريد اعتزالهم لها؛ وإلا ظلمهم، وقال قولاً شططاً، وبُعد عن الحق كثيراً.

لقد كانوا - وهم خزانة علم الوحي -، وقادة الأمم، وورثة الأنبياء، وقوام الدين، والمؤمنون على حركة التاريخ، ومصير الرسالات الإلهية أكبر من كل ذلك، وأبعد شأنًا، وأنزه من أن يقال فيهم هذا القول.

ثالثًا: قد يُراد أن أكثر الأئمة عليهم السلام لم يخططوا لقلب نظام الحكم المعاصر لهم، ولم يقودوا ثورة بهذا الغرض، وهذا صحيح وواقع، وله أكثر من سبب، ومن بين هذه الأسباب: إنهم ليسوا طلاب حكم لنفس الحكم، ومن أجل الامتيازات التي تنالها الذات، وإنما إذا طلبوا الحكم، فلأجل مصلحة الإسلام والإنسان كل إنسان، وحيث يتناقض - حسب تشخيصهم - طلب الحكم مع مصلحة الإسلام والمسلمين لبعض الملابس لا يعقل في حقهم هذا الطلب، وقد اعتذر الإمام علي عليه السلام عن الحكم معروضًا عليه، واشترط لنفسه ما اشترط.

وعرض على الصادق عليه السلام من أبي مسلم الخراساني أن يقود هذا الأخير حركة؛ لإسقاط الحكم لصالح إمامة الإمام عليه السلام، فحرق عليه السلام كتاب العرض.

رابعًا: ولا يتخلّى الأئمة عليهم السلام عن تربية الأمة، وحماية ثقافتها، وحراسة خطها الحضاري والإسلامي، والإسهام في تصحيح الوضع السياسي بالنقد والتوجيه والنصيحة، وتوعية الأخطاء ما أمكن، وعن تركيز وعي الأطروحة الإسلامية في صفوف الأمة، والنأي بها عن الإنزلاقات الفكرية، والضبابية في الرؤية الإسلامية في أي بعد من أبعاد الإسلام، والدفع بحركة الأمة في الاتجاه الصحيح الذي ينتهي بها إلى الخيار الإسلامي، والحل القرآني لا غير.

خامسًا: ويصرُّ الأئمة عليهم السلام على عدم إضفاء الشرعية الدينية على مختلف أنظمة الحكم التي لا تلتقي ورؤيتهم الدينية المعصومة في المسألة من غير أن يعني ذلك المواجهة الساخنة المكشوفة أو غير المكشوفة، أو يمنعه من التعاون في الخير مع تلك الأنظمة حيث تتطلب المصلحة الإسلامية هذا التعاون، ويقضي به الحفاظ على هوية الأمة.

سادسًا: علماء الدين على هدى أئمتهم عليهم السلام - كل علماء الدين الصالحين -، لا يستطيعون أن ينفصلوا عن الهم السياسي، وخاصة بعد انتشاره بين كل الفئات، وهذا لا يعني أن يتحوّلوا كلهم إلى محترفي سياسة، وأن تتحول السياسة بتفاصيلها

اليومية - مهمتها، وغير مهمتها - إلى خبزهم الثقافى اليومى ولا غير، وفي الوقت نفسه لا تكون السياسة عندهم فناً ترفيئاً لا يشتغل إلا بالتطبيقات البعيدة من دون أن يقولوا كلمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وليس مما يلتقي ووعيهم وتقواهم أن يستهدفوا إقلال الساحة الوطنية والإسلامية والعالمية تشهياً، أو استخفافاً بدم الإنسان وأمنه، أو يعتمدوا هدم الجسور داخل أوطانهم، وسياسة الإضرار، كما لا يدخل في استعدادهم أبداً أن يقولوا لغير ما هو شرعى في دين الله بأنه شرعى كذباً على الله ورسوله ﷺ، وخيانة للأمانة التي حملوا إياها، وطلباً لمرضاة المخلوقين، وهم عبيدٌ محابون.^(١)

من مواقف الأئمة عليهم السلام السياسية

أ- كان الإمام من أئمة أهل البيت عليه السلام أعرف أهل زمانه بزمانه، وأهل مكانه بمكانه - وبعيداً عن الغيب، ومن خلال الحس المرهف للإمام عليه السلام، والقابليات الفكرية العالية، والصفاء النفسى، والخبرة العملية، والذكاء المتوقّد -، كانت لا تغيب عنه حالة النفسانيات المختلفة.

وكان يهتم كل الاهتمام بتشخيص من حوله، وممن ليسوا حوله من فئات الأمة، لأنه قائدها، والمسؤول عن تصحيح أوضاعها.

فكان يتابع، ويتلقّى المعلومات والتقارير من غير الدخول فيما لا يرضى الله؛ وذلك من أجل التعرف على وضعية الأمة، وملابسات الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها.

وإذا كانت السُلطة تسعى لأن يكون الإمام عندها مكشوفاً، فقد كان الإمام عليه السلام يسعى - دائماً - لأن تكون السُلطة عنده - أيضاً - مكشوفة.

ب- الأمر الآخر: إن الإمام عليه السلام كان يُوظف كل الفئات حتى المنافقين - كما كان يفعل رسول الله ﷺ - في الصالح الإسلامى، وصالح الأمة كاملة.

فهو يحاول أن يدفع بكل القوى على اختلافها، من كان منها صديقاً حقاً، ومن كان

منها غير صديق، مَنْ كان على وعي كافٍ، ومَنْ كان على غير وعي بالدرجة الكافية في هذا الاتجاه.

كانت مهمته ﷺ أَنْ يوظف كل الطاقات، وأن يوجّه كل التيارات في سبيل الصالح الإسلامي، وكما يرى وهو المعصوم ﷺ لا كما يرى هذا وذاك، ولكن لا يعني ذلك عدم تقدير الآراء، وسماع المشورة، هذا شأن القيادة المعصومة.

ولو كانت قيادة غير معصومة، فلا يسعها أن تعول على رأيها - دائماً -، ولا تسمع بدقة إلى كل الآراء ذات الوزن والتوجهات، ولكن من ناحية تعبدية إنما يحكمها الرأي الذي تصير إلى قناعة أكبر به، ولا يمكن أن تقتنع القيادة برأي، ويقتنع الآخرون برأي، ففتبع رأيهم الخاطئ في نظرها، فإن ذلك قد يصل إلى حدّ الخيانة.

نعم، للمقتضيات الإسلامية، ورعاية لمصلحة الإسلام كان علي ﷺ قد تنازل عن رأيه الصائب لرأي الآخرين الخاطئ في بعض المواقف اضطراراً درءاً لمفسدة أكبر ولدها حفظ الأمة التي تحمّلت إثم مخالفتها للإمام ﷺ.

وكنّت ترى الإمام ﷺ، والحال هذه يحاول أن يوظف كل الطاقات في سبيل الله، وفي صالح الأمة.

ج- على مَنْ كان اعتماد الإمام ﷺ

كان اعتماده الأكبر على النخبة، على المؤمنين، على الشيعة الحق، على الذين يوالونه موالاة حقّة، ولا يتخلّفون عن أمره أبداً.

فإذا نظر إلى المسألة السياسية يكون العنصر الكبير في حساباته هو هذه الجهة.

وقد يكون العنصر الوحيد المعوّل عليه في استمرار الموقف.

الحسين ﷺ التحق به كثيرون، ولكن كان اعتماده على النخبة التي بقيت معه إلى الأخير، وقد خطط (صلوات الله وسلامه عليه) من خلال أكثر من موقف بأن لا يبقى معه إلا النخبة بعد أن تبين بُعد النصر العسكري في المعركة حسب كلّ المقدمات.^(١)

١- خطبة الجمعة (٢٢٨) ١٢ ذو الحجة ١٤٢٦ هـ، ١٣ يناير ٢٠٠٦ م.

الباب الخامس العلماء والسياسة

عجباہ!

فما أكثر استكثار الناس على عالم الدّين أن يتدخل في المسألة السياسية، وما أعجب ذلك من الناس!!^(١)

هل لعلماء الدّين - وفي مقدمتهم الفقهاء - أن يتحدثوا في الشأن السياسي؟

وقد تستغرب من هذا السؤال!

كثيرون هم الذين يعترفون لكل المثقفين، ولكل الاختصاصات بحق التدخل في المسألة السياسية، وإبداء الرأي، هذا اختصاصه هندسة، وهذا اختصاصه في الطب، وذلك اختصاصه في الزراعة، وذلك اختصاصه في البيطرة، وذلك اختصاصه في الذرة. كل هؤلاء وغيرهم لهم حق التدخل في المسألة السياسية، وإبداء الرأي، أما عالم الدّين كيف يتدخل في مسألة السياسة؟! عجباہ!

كيف يتدخل من يدرس الدّين، ومن يدعو لتقوى الله، ومن لا يعرف إلا الثقافة الدينية، كيف له أن يتدخل في السياسة؟!

وهناك نداءان:

١- نداء من خارج الصّف المؤمن، وهو يعي ما يقول، ويلتفت إلى ما يقول، ويلتفت إلى المغالطة إلى ما يقول، وهو يدري أن عالم الدّين هو واحد من الآخرين الذين لهم القدرة على إبداء الرأي في المسألة السياسية.

٢- أمّا المؤمنون حين يقولون هذا الكلام، فهم يقولون هذه الكلمات غفلةً، - ومع الأسف - سذاجة، وينبغي للوعي المؤمن أن يعرف أن عالم الدّين على الأقل يساوي خريج بيطرة!

١- خطبة الجمعة (٢) ١٩ محرم ١٤٢٢ هـ، ١٣ أبريل ٢٠٠١ م.

إنَّ مستواه يساوي الشهادة الجامعية، وأنَّه في المجتمع يسمع أخباره، ويعاني ما يعانيه الآخرون، ربما كان لديه جهاز متصل بشبكة الاتصالات العالمية، وعنده مذياع، وعنده تلفاز، لماذا يُحجر على هذا أن يقول كلمة؟!

وهناك مستويان للمسألة السياسية:

١- مسألة أصل الأطروحة الثابتة، وأي أطروحة تتقذ العالم؟

وهذا من شأن الفلاسفة الكبار، وأكبر السَّاسة الذين لم يشتغلوا بالسياسة العملية فقط، وإنما تكون لهم رؤية أيديولوجية، رؤية مبدئية، رؤية كونية.

وليس السياسي المحلي بقادر على أن يتحدث في الأطروحة السياسية التي تتقذ العالم، والمؤهل لأن يتحدث في الأطروحة السياسية، أما عالم دين متعمق، وغني بالرؤية السياسية، ويقدم الأطروحة السياسية لهذا العالم، أو يكون فيلسوفً سياسياً، فيستطيع أن يتحدث هذا الحديث، ومن موقعه الأرضي، ومن موقع معاناته وخبرته الفلسفية المحدودة، وأمَّا عالم دين يتكئ على الطرح الذي جاء من قبل الله سبحانه وتعالى، واستيعاب هذا الطرح والجمع بين أبعاده.

أحد هذين الاثنين فقط، هو المؤهل؛ لتقديم رؤية سياسية عالمية؛ لإنقاذ العالم.

٢- أمَّا الحديث العادي في السياسة، وفي الأوضاع المحلية هنا أو هناك، هذا حديث تستطيع أن تتحدث فيه المرأة، والرجل، والشباب في مقتبل عمره، إذا كانت له معاشية، وإذا كانت له خبرة، وعالم الدين على الأقل واحد من هؤلاء.^(١)

لماذا هذا الاستخفاف بعالم الدين؟!

مسكين عالم الدين، على عينيه غشاوة، وفي أذنه صمم، وقلبه محجوب، لا يسمع خبراً عن السياسة، ولا يقرأ شيئاً، وليست له قدرة تحليلية، ولم يعلم كيف يخرج من المقدمات إلى النتائج، ولم يعرف كيف يحاور، وما عاش تجربة في الحياة، إنه معزول، ودعوه في عزلته يعاني ... !!

١- خطبة الجمعة (٣) ٢٦ محرم ١٤٢٢ هـ، ٢٠ أبريل ٢٠٠١ م.

الجامعي له أن يتكلم، وأنا أرى أن له يتكلم، فهو إنسان في هذا المجتمع، له أن يتكلم عن وضع سياسي قائم، لكن أخاه عالم الدين والذي قطع مرحلة الجامعة وزاد على مرحلة الجامعة بما يساويه عشرات المرات، ليس له أن يتكلم عن المسألة السياسية!!

البعداء عن الإسلام، والمعادون له يتفوهون بمثل هذا وهم يخافون من تجربة عالم الدين، ومن إعطائه الرؤية الموضوعية الصارخة التي تساعد على تغيير في كثير من بقع العالم التي تعاني من سلبية الوضع السياسي.

موقف العلماء من المسألة السياسية

أما موقف علماء الإسلام من مسألة السياسة والدين، فلا يُتوقع فيه أن يختلف عن موقف الإسلام؛ فرويتهم رؤيته من حيث إن السياسة حقل من حقول الدين، وساحة من ساحات نشاطه وتربيته، وحيث لا يكون توافق تام بين السياسة والدين عملاً، فدورهم التبصير، والتذكير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ما استطاعوا، وهم أكثر الناس تقديرًا لحرمة الأنفس والأعراض والأموال، وتجنبًا للمجتمعات عن الفتن والاحتراب والخراب، وأشد الناس مراعاة لأحكام الله في هذه الموارد وغيرها، وأعرفهم بمسائل التزاحم، وانقسام الأمور إلى مهم وأهم على ضوء الشريعة، وكون التقديم للأهم على المهم، وأطلبهم للحفاظ على الأخوات الإنسانية، فضلاً عن الإسلامية، والوطنية، وهم مدركون لما عليه قيمة الدعوة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وما عليه خطورة العنف وإثارة القلاقل.

كل هذا صحيح وثابت ولا معدل عنه، وهم في نفس الوقت لا يقبلون أبداً، ولا يجوز لهم بتاتاً أن يجعلوا من أنفسهم، أو يتخذوا واجهات؛ لتمرير أي مشروع لا يرون فيه موافقة الشريعة ومصلحتها المقدمة على كل المصالح، وليسوا مستعدين مطلقاً أن يكونوا وسيلة دعائية لغير ما يطمئنون بأن فيه مرضاة الله الملك الحق المبين، ويجب أن يكونوا يقظين جداً لاتفاقات السياسة في هذه المجالات كلها، فلا يعينوا على دين الله بشرط كلمة، ولا جزء من موقف.^(١)

العلماء حصون الأمة لذلك هم مستهدفون

أنا أقول: بأن إسقاط العلماء مطلب أمريكي، فصل الجماهير عن فقهاء وعلمائها مطلب أمريكي، تُوظف له الميزانية الضخمة، فالمخلصون يجب أن لا يقعوا على خط واحد مع خط الإرادة الأمريكية.

ينطلق البعض، والبعض من إخلاص لكن مع سذاجة على هذا الخط، ولو وعى أنه يحقق الإرادة الأمريكية لما فعل، ولكنه في الخارج يحقق الإرادة الأمريكية بفصل الأمة عن علمائها، وما نجحت هذه الأمة في يوم من الأيام، وما وقفت الموقف الرسالي الصامد الصادق الذي لا ينتهي إلى مؤامرة على الأمة، ولا ينتهي إلى بيع الأمة، ولا ينتهي إلى تسلق المواقع الكبيرة الدنيوية إلا بارتباطها بالعلماء.^(١)

أعطوني بلدًا واحدًا سنياً، أو شيعياً كانت المواجهة فيه للاستعمار، وكان فيه الموقف الرسالي الصامد، وكان توجه الحركة فيه لله وحده، أريد بلدًا واحدًا كان له هذا الأمر كله، وكانت حركته مرتبطة بغير خط العلماء.

أبدًا، لن تجدوا بلدًا واحدًا، مصر، الجزائر، تونس، المغرب، إيران، العراق، كل البلاد الإسلامية كان العلم الإسلامي المرفرف فيها، وكانت العزة، وكان الإباء إنما يرافق حركة العلماء، وكان الصفاء والصدق إنما هو في صف العلماء دائماً.^(٢)

أساليب الاستهداف الخبيثة

للدين رؤاد وعشاق وأنصار متفانون، وله أعداء معاندون لا يكتفون عن محاربته، ومحاولة القضاء عليه.

وقد لا يوجّه بعضهم سهامه للدين مباشرة، ولا يرميه بشبهاته، ويحاول أن يظهر زورًا احترامه له، ولكن يعرف تمامًا أنه لا بقاء للدين من دون فقهاء، ولا حمى له من غير علماء، ولذلك - وحتى - لا يثير حفيظة العامة من المتدينين، ولا يتدخل في مواجهة

١- هتاف جموع المصلين بالتكبير، والولاء للعلماء.

٢- خطبة الجمعة رقم (٢٥٧) ١١ شوال ١٤٢٧هـ، ٣ نوفمبر ٢٠٠٦م.

مباشرة مع الدين تفضح نواياه السيئة، وتكشف خبثه، وتفشل محاولته يفضل أن يخوض معاركه الشرسة مع فقهاء الإسلام وعلمائه، ويثير حول المخلصين وأهل الصدق والأمانة والكفاءة والغيرة على الدين منهم ما يمكن له من التشكيكات والشبهات، ويتعدى بعضهم ذلك إلى إلغاء دور العالم، ومحاولة الإقناع بعدم الحاجة إليه نهائياً، مثيراً أن الارتباط بالعلماء سذاجة وبلاهة، وقبول للتبعية، وتنازل عن الإرادة، وتعطيل للعقل، وغلق لباب التفكير، وهو ارتباط يُضفي حالة من القداسة الكاذبة على جماعة لا تستحق القداسة، ويخلق قيادات وهمية حاملة تسبب إرباكاً للمجتمعات، وتعكيراً لأجوائه الصافية، وتوقع في المنزقات، وتعطل تقدم الحياة، وتعادي حالة الانفتاح والمرونة، وانطلاقة النفس إلى ما تشتهيهِ وما يريحها.

فيقولون لك: ماذا عند العلماء مما ليس عند غيرهم؟

عندهم كلام قد تجاوزه الزمان عن حلال وحرام، وجائز وغير جائز، ولو كان شيئ من هذا أو ذاك يستحق اهتماماً، فإن كتب الدين تغنيك عن الرجوع إلى أي عالم، وأنتك تملك عقلاً كما يملكون، وعقلك يمتاز بأنه ليس عقل خرافة كعقولهم، ولا محكوماً لها جس الماضي كما هي عقولهم، ولا مأسوراً لحالة التقديس كأسرهم.

ويقولون لك: بأن علماء الدين لهم شيء من دراسة، وشيء من فهم، وشيء من معرفة في حدود معينة، ولكنهم لا يعترفون بحدود، ولا يحترمون قضية العلم، ولا يتوقفون عن الإجابة عن أي سؤال، ويتدخلون في الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، والنفس، وآراؤهم وفتاواهم تعم كل الحياة.

وملخص القول: إن الشعوب الإسلامية بحاجة إلى الاستيقاظ، والتخلي عن علماء الدين، وعن الشعور بالحاجة إلى دورهم؛ لفهم الإسلام جيداً، ونحافظ على أصالته، ونكتشف كنوزه، ويكون ديناً طيعاً يتبع حركتنا التطورية أين ذهبت، وإلى أي شيء صارت، وأي فلسفة اعتمدت، وأي فكر استوردت، وبأي قطب أرضي ارتبطت.

هذه أفكار تملأ صحفًا وكتبًا، وقد تجدها في إذاعات وقنوات بثٍّ مختلفة.

هذه ثقافة يُرَوَّج لها بقوة واهتمام في كل الساحة الإسلامية من داخلها وخارجها مستهدفةً فصل الأمة عن فقهاءها وعلمائها توصُّلاً لفصلها عن الدين الذي تعاديه، وتحذر منه الطاغوتية السياسية والمالية العالميتان.

مناقشة الأفكار التي تدعو لفصل الأمة عن علمائها

ولنتقف عند هذه الأفكار وقفة محاسبة يسيرة؛ لينكشف لنا وزنُها من العلمية، والحقانيَّة، والصِّدق.

نقف هذه الوقفة لا عن وزن ذي قيمة لهذه الأفكار الذي لا يستغفل مكرها السيئ جماهيرنا الواعية، ولا يمكن أن تستجيب هذه الجماهير لمثل هذه المحاولات اليائسة؛ وإنما من أجل أن تُحبط هذه الأفكار المغرضة الهدامة علمياً بصورة مبكرة حتى لا تجد لها موطئ قدم بعد زمن في ظروف معيَّنة ولو بين بعض المسلمين الذي يفوتهم الالتفات لهذا المكر، ولا يدققون في الأمور.

تُطرح هذه الأفكار بأسلوب خداع بلا أي مضمون علمي يستحق شيئاً من الاحترام، والدوافع الخبيثة الحضارية والسياسية غير الأخلاقية لطرح هذه الأفكار أصبحت معلومة مكشوفة لكل ملتفت.

والمستهدف الأول فيها إنما هو الدين لوقوفه في وجه الرغبات والنزوات الشيطانية، وروح التسلُّط، والظلم، والاستئثار، والاستكبار، ومقاومته للباطل.

تتلخّص هذه الأفكار في الآتي

أولاً: يُشَمُّ من أقوالهم بأن مرجعية الفقهاء والعلماء موضوعها الحلال والحرام، وما يجب وما لا يجب، وهذه مسائل قد تجاوزها الزَّمن، ولا ينبغي أن تأخذ من اهتمام

الشعوب والمجتمعات.

الرد: وهذا كلام لا يقوله مسلم على الإطلاق، لأنَّ الدين ما هو إلا عقيدة وشرعية، وموضوع الشريعة ما يجوز وما لا يجوز، وما يجب وما لا يجب، وما هو حلال وحرام، والنقاش مع المنكر للشريعة موضوعه أصل الإسلام وعدمه، لا مرجعية العلماء وعدمها.^(١)

والحلال والحرام غير قابلين للتقادم والإلغاء، لأنَّ حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، وهذا أمرٌ بديهي من بديهيات الإسلام. ثانياً: قالوا بأن علماء الدين لا تقف فتاواهم عند حدٍّ، وليس لها سقف، وتتدخل في كلِّ علم، وتتلصص على كلِّ اختصاص.

الرد: علماء الدين الحقيقيون من أخشى من يخشى الله، ومن أبعد الناس عن الكذب، فلا يقولون على الله افتراء، ولا يستحلون الكذب على خلقه، ويحترمون العلم كلَّ الاحترام، ولا يستخفون بقدره، ومن تقواهم أنَّهم إذا استفتوا في أمر من الدين مما يجهلونه اعتذروا عن الجواب، أو أرجأوه إلى المراجعة، ومن خالطهم يعرف منهم هذه السيرة.

وأيُّ عالم دين حقيقي أعطى آراء من عنده في الهندسة، أو الطب، أو الرياضيات، أو الفلك، أو غيرها؟!

بل أيُّ منهم استغنى بعلم يدَّعيه في هندسة، أو طبٍّ، أو بخبرة ينسبها إلى نفسه في طيران، أو غير ذلك مما ليس له، ولم يرجع إلى المختصين في اختصاصهم؟^(٢)

١- علينا أن نعود مع صاحب هذا الإشكال إلى النقاش في أصل الإسلام، وهل يستحق الإيمان به كاملاً، أو لا يستحق، وهذا ليس مورد هذا النقاش.

٢- عالم الدين يرجع إلى الفلاح، يرجع إلى البناء، يرجع إلى أي عالم من علماء اختصاصه، فكيف من حاله هذه يدَّعي أنَّ له الإحاطة والقدرة على كل شيء؟!

وأظنُّ أن ما يريده هؤلاء من تجاوز علماء الدين لاختصاصهم، وتدخلهم في شؤون الغير من أهل الاختصاص هو كلامهم عن مسألة الظلم والعدل، وسلب حق الشعوب، والمتاجرة بقضايا الأمة، والتلاعب في مصيرها من قبل كثير من الساسة، وهذا هو ما يستكثر على علماء الدين، وعلى كل مواطن آخر ينتقد واقع السياسات المنحرفة.

ويجب أن يُميَّز بين علم السياسة والمذهب السياسي، وكذلك بين علم الاقتصاد والمذهب الاقتصادي، وعلم الاجتماع والمذهب الاجتماعي.

فالعلم الخاصُّ مجموعة من القوانين، والروابط العليَّة والمعلوليَّة الواقعيَّة التي تُوصل إلى نتائج معيَّنة مما لا ربط له بقيم، ولا معايير خُلقيَّة، ولا كلام للدين فيها^(١)، أمَّا مثل المذهب السياسي، فيرتبط بقضية العدل والظلم، وما ينبغي وما لا ينبغي، وما يقرُّه الضمير وما لا يقرُّه، وما أذن الله به وما لم يأذن، وما يحقُّ للفرد والمجتمع وما لا يحقُّ، وما يمكن أن يُتصرَّف فيه من شأن الغير وما لا يمكن أن يُتصرف فيه.

وإذا كان للدين مذهبه السياسي، ومذهبه الاقتصادي، والاجتماعي، فمن هو الأحقُّ بالتحدُّث عنه وبيانه من علماء الدين المتوغلِّين في دراسته؟

عالم الدين كغيره من أهل الاختصاصات الأخرى لا يتحدث في مجال غير مجاله إلا أن يكون له أكثر من اختصاص، ويتناول ذلك المجال اختصاصه.

وإذا وُجد عالم دين شاذُّ لا يقدرُ الأمور حقَّ تقديرها، وخاض في علم بغير علم فموقفه مرفوضٌ ديناً، على أنَّ أكثر النَّاس فضولاً، وأبعدهم عن الموضوعية واحترام الذات، وتوقير العلم، والتأدُّب بأدبه هؤلاء النَّاس الذين يُكثرون القول في الدين، ويبتئون بأرائهم في القضايا الدينيَّة، وهم بعيدون عن شأن الدين ودراسته، ويقتون في أمره، وهم أبعد النَّاس عن درايتة.

١- هذه الروابط من خلق الله ﷻ، ولكنَّ الدين بما هو دين لا يتحدث عن روابط العليَّة بين كذا ذرة من الأكسجين، وكذا ذرة من الهيدروجين؛ لإنتاج الماء، لا يتحدث عن ظاهرة التمدد وعلَّة الحرارة.

ثالثاً: القداسة الكاذبة

قالوا بأن مرجعية الفقهاء والعلماء تستتبع إضفاء قداسة كاذبة عليهم، وترتفع بهم في نظر العامة فوق مقامهم، وتجعلهم في النظر العادي في مقام الأنبياء والملائكة.

الرد: علماء الدين شأنهم شأن غيرهم من كان منهم مُحسِنًا قُدِّرَ له إحسانه، ومن كان مسيئاً أُدينَ بإساءته^(١)، ومن كان صادقاً مخلصاً متواضعاً أقبل عليه الناس، ومن كان دون ذلك وجد منهم ابتعاداً ونفوراً.

ولذلك نجد العلماء أقداراً متفاوتة عند الناس المتهمين في هذا القول بالسذاجة^(٢)، فالناس ليس كما يظنُّ هذا القائل، وليسوا مُصابين بالغباء كما يرميهم، ولذلك لا يُساوون بين كلِّ العلماء كفاءة، ولا تقوى، ولا عدالة.

والعلماء الصادقون ممن يخشى اللهَ وَعَلَى لا يظنُّون بأنفسهم خيراً برغم ما قد يكونون عليه من الخير، ولا يعطونها فرصة لأن تستكثر طاعة، أو تستقلَّ معصية، أو أن تزكِّي عملها ونفسها، وتعيش حالة التبجح بعلم، أو تقوى.

ولا أرى عالماً من علماء الدين الحقَّ يرى نفسه فوق الخطأ في علم أو عمل، وأنه نبيٌّ أو ملكٌ ممن لا تجوز عليه معصية، ولا يعرضه خطأ.

علماء الدين الحق على خلاف عبيد الدنيا والطواغيت الذين يسرُّهم أن يتضعع أمامهم الناس، ويؤلَّهوا فيهم، وأن لا يعلوا صوتهم وإن كان صوت منكر وباطل صوت.^(٣)

نعم علماء الدين الحقيقيون بهذا العنوان ليسوا جماعة من الأشرار، وسفلة الناس الذين يصحُّ أن تالهم الألسن؛ لِتُسَقِّطَ شأنهم درءاً لما يمثِّلُ السكوت عليهم من خطر انتشار الشرِّ، وشيوع التسافل.

١- هذا ما نقوله.

٢- هذا القول يتهم الناس بالسذاجة، وأنهم يتبعون علماء الدين اتباعاً بلا مقياس، ويعطونهم أقداراً فوق مقدارهم بمسافات.

٣- هذه شيمة الطغاة، والدين لا يعلم علماءه الطغيان. من التصق بثقافة الإسلامية، ومن تربَّى على خوف الله استوحش من الطاغوتية والطفلة.

على أنَّهم ليسوا فوق النَّقد، مع الاحتفاظ بحرمة العلم، والإيمان، والكرامة الإنسانية، ومراعاة جانب الأدب كما في كلِّ الآخرين.^(١)

ويبقى من الاعتراضات على مرجعية الفقهاء والعلماء الخوف من قيادتهم.^(٢)

رابعاً: إنَّ بقاء المرجعية الدينية للفقهاء والعلماء يؤدي إلى قيادتهم السياسية، وهي قيادة مربكة، وقاصرة، ورجعية، ومعطلة لطاقات الأمة، وتصادم روح الانفتاح، والعصرنة، والتقدم.

الرد: ويجري مناقشة هذا التبرير مرّة، مع استبعاد البعد السياسي من هذه القيادة، ومرة مع إدخاله.

مع فرض الاستبعاد، وقصر هذه القيادة على رعاية الشَّأن الدِّيني البحت للأمة، والتصديّ للإجابة على الأسئلة من هذا النوع، وتبيين مسائل الدِّين، ومواجهة الشُّبهات، والحفاظ والتنمية للحوزات العلميّة فإن الدَّعوة لإسقاط هذه القيادة إما أن تكون مع تعطيل هذا الجانب نهائياً، أو مع إسناد هذه المهمّة إلى شريحة أخرى غير دينيّة، أو دينية بعيدة عن جوِّ العلماء، وفهمهم، وثقافتهم.

وهذا الطَّرح يعني إلقاء الدِّين من وجود الأمة، والقضاء على ما تبقى منه، ولا يتقدّم به إلا مَنْ كان هدفه ذلك، وإلّا فكيف تُسند رعاية الدين إلى البعيدين عنه؟ وكيف تُتلقّى أجوبة مسأله، وآراؤه من غير حملته وعلمائه؟

وإذا كانت قيادة العلماء التي يُراد تجنيب المجتمع إياها حذرًا من أخطارها العظيمة لما تشمله من بُعد سياسي، فإن المرجعية الدينية لم يلازمها دائماً، وفي كل تاريخها ما تحذره السياسية الدنيوية منها من سحب البساط من تحت قدمها، ولا تحمل هذا الاهتمام عملياً في كثير من تجاربها.

١- وأي مسلم من المسلمين يجوز لك أن تنتقده بلا حساب؟

أي مسلم لا يجوز لنا أن تنتقده بلا حساب، وأن نرميه ببهتان.

٢- خطبة الجمعة (٤٣٠) ١٩ ذو الحجة ١٤٣١هـ، ٢٦ نوفمبر ٢٠١٠م.

والقيادة الدينية ذات البُعد السياسي لها تجربتان في هذا المقطع الزمني الخاص
تجربة على مستوى القيادة الشعبية المسهمة في الوضع السياسي، وأخرى على مستوى
القيادة من خلال الموقع الرسمي وإدارة شؤون الدولة، وكلّ منهما جسّد مثلاً رائعاً في
مجال القيادة، ولم يحدث على يده إلا الانتصار للأمة، والعدل، والأمن، والاستقلال،
والتقدم العلمي الشامل.

إنّ تجربة الدولة الدينية قدّمت كل ذلك، وانفتحت على كل طيب من طيبات الدنيا،
وإيجابيّ من إيجابيات الحضارات، وصالح من صالح الإنسان، وأحدثت نقلة كريمة في
حياة الأمة.

وتجسّدت تجربة القيادة من خلال الموقع الشعبي في مثل (حسن البنا)، و(سيد
قطب)، و(السيد محمد باقر الصدر)، و(السيد الخميني) الذي تمثّلت فيه القيادة
الدينية في كلّ من الموقعين، و(السيد موسى الصدر)، و(السيد فضل الله)، و(السيد
نصر الله).

وكل هذه القيادات لم تتأخّر بالأمة علماً، ولا عملاً، بل أعطتها التقدم والنباهة
واليقظة، وأثارت فيها روح العزّة والكرامة، وساهمت في إصلاح الأوضاع، وأنارت
الطريق، ودعت إلى كل تقدّم نافع.

وقد حقّقت قيادة السيد حسن نصر الله نصراً كبيراً للأمة على إسرائيل التي
ركّعت كثيراً من الأنظمة الرسمية الدنيوية.

وقد جرّبت البحرين القيادة الدينية في ظلّ شيخنا الجُمريّ الذي ما كان يستهدف
إلا الإصلاح، وكلّ دعواته إنما كانت للعدل والمساواة والأخوة الإسلامية والإنسانية
والتقدّم الكريم في هذا المجتمع، وقد شهدت سيرته بكل ذلك.

هذه تجارب القيادة الدينية، ولتُقارَن بالتجارب الأخرى في هذا المضمار.

وعدد من الأقلام الداعية للانفصال عن المرجعية الدينية^(١) خوفاً من أن تكون لها قيادة سياسية، تبارك أي مرجعية دينية موالية لما تواليه هذه الأقلام من أنظمة رسمية دنيوية، ويؤكد على صلاحها.^(٢)

فالغرض لكل هذه الكتابات معروف مكشوف، والمنطلق إماً سياسي ضيق الأفق، وإماً حضاري معاد لكل ما هو إسلامي.^(٣)

١- يريدون للأمة الانفصال عن الدين بالكامل حتى في المسائل الدينية كما تقدّم، وهناك كتابات وفي البحرين بهذا.
 ٢- المعادة ليس للمرجعية، مرجعية تدعو للاستقلالية، مرجعية تدعو للأخذ بالدين، المرجعية الموالية لأي نظام من الأنظمة الرسمية مرجعية مدعومة ومؤيدة، ومنتصر لها.
 ٣- خطبة الجمعة (٤٣١) ٢٦ ذو الحجة ١٤٣١ هـ، ٣ ديسمبر ٢٠١٠ م.

الفصل الثاني

النظام السياسي الإسلامي

تمهيد

هل يمتلك الإسلام نظاماً سياسياً؟

لقد قالوا ظلماً وزوراً: بأن الإسلام أخلاقيات، وعبادة، ومسألة ضمير فحسب والحق: إنَّ كلَّ أسس النظام السياسي والقضائي والاقتصادي والإداري والتربوي والاجتماعي، وكل نظم الحياة الإنسانية الأخرى تغنى بها النصوص والقواعد الإسلامية الثابتة، مع عدد وافر من التطبيقات والفروع.

وقد ترك الإسلام للقادرين على الاجتهاد - لا المتطفلين على العملية الاجتهادية - أن يواجهوا الوقائع المستجدة باجتهاد فني علمي رصين أمين منضبط، يتحرك في إطار الثابت والقواعد الإسلامية العامة المقررة.

كما ترك الإسلام للاختصاصات العلمية المختلفة أن تتقدم بعلم الإدارة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وغيرها من العلوم النافعة.

التفريق بين المذهب السياسي وعلم السياسة

هذا مع ضرورة التفريق بين ما هو المذهب السياسي، وما هو علم السياسة، أو المذهب الاقتصادي، وما هو الاقتصاد - مثلاً -.

فالمذهب يرتبط بتقدير العدل والمصلحة مما يتصل بحاضر الإنسان ومستقبله - الدنيوي والأخروي، وفرد ومجتمعه، وجسمه وروحه، وطبيعة تكوينه ودقائق ذاته، وموقعه وغايته، ومشتركات نوعه ومفترقاته -.

أما العلم، فيتصل باكتشاف القوانين بما يطور من آلية الإنسان وأساليبه في السيطرة على الظروف المحيطة به، وتمكينه من تحسين أوضاعه العملية، والتغلب على مشكلات حياته، والتقدم بمستوى معيشته، والوفاء بحاجات بدنه وراحته وحمايته، وعلاج أمراضه من جسمية ونفسية وعقلية.

والملاحظ أن انفصال الحركة العلمية المتقدمة عن المذهب السياسي والاقتصادي والتربوي السليم - مثلاً - يضاعف من مشكلات الإنسانية ويؤزمها، كما أن تعطل الحركة العلمية المادية يجعل الأوضاع المعيشية راكدة متخلفة، ويوجد عددًا كبيرًا من الأزمات الصحية والاجتماعية وغيرها، على أن هذا التعطل يمثل تخلفًا واضحًا عن المسار الإسلامي الصحيح وضروراته الثابتة، ومنهجه التربوي والسياسي والاقتصادي، وسائر مناهجه التفصيلية القويمية.

الإسلام يصير دائماً على التقدم في الحركة العلمية المادية وهو يكيّف هذه الحركة العلمية المادية تربوياً بما يصب في صالح الإيمان، وبناء الإنسان.^(١)

النظام الإسلامي بين الحل الكامل والحل الناقص

ولا بدّ للمؤمن من هذا الوعي الآتي:

أولاً: فرق بين الإسلام الواقعي والإسلام الاجتهادي

الذين يطلبون من الإسلام الحاضر، نفس النتائج الكبيرة المترتبة على الإسلام المتلقّى مباشرة من رسول الله ﷺ عندهم وهم؛ ذاك إسلام واقعي، وما عندنا إسلام اجتهادي.

صحيح أنه لا بدّ أن نتعبّد به، ولكن يبقى فرق بين عطاءات الإسلام الواقعي في حياة الناس وهي عطاءات كلها إيجابية، وبين عطاءات الإسلام الاجتهادي، على أن الإسلام الاجتهادي له عطاءات لا تبلغه أطروحة أخرى في الأرض.

وليس قليلاً أبداً ما يقدمه الإسلام الاجتهادي من إنقاذ وتخليص للبشرية من الأزمات، وما يعطيه من نتائج إيجابية كبيرة، هذا فرق.^(٢)

تنويه: تقديس الإسلام الواقعي يستتبع تقديساً للإسلام الاجتهادي

١- خطبة الجمعة (١٣٨) ١ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، ٢٣ يناير ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (٢٩٩) ٢٤ شعبان ١٤٢٨هـ، ٧ سبتمبر ٢٠٠٧م.

يبقى الإسلام الاجتهادي له قدسية، الإسلام الاجتهادي حيث يكون من المجتهدين المختصين له درجة من القدسية، صحيح أنها لا تبلغ قدسية الإسلام الواقعي، ويجب على المكلفين.

ويجب على الأمة، الأخذ بالإسلام الاجتهادي، كما يجب عليهم الأخذ بالإسلام أيام رسول الله ﷺ، والمتلقى من رسول الله ﷺ.

المنقول عن الإمام عليه السلام: الراد عليهم - يعني الفقهاء - كالراد علينا، والراد علينا كالراد على رسول الله ﷺ، والراد على رسول الله ﷺ كالراد على الله سبحانه وتعالى.

أنت لا تستطيع أن ترد الجريدة الرسمية حيث تشر لك القوانين.

قد تخطئ الجريدة الرسمية خطأ مطبعياً، وقد يعتمد متعمد من المسؤولين عن الجريدة الرسمية الخطأ في نشر قانون من القوانين.

الجريدة الرسمية تبقى حتى مع احتمال الخطأ فيها، هي المرجع الرسمي المحترم، ولست معذوراً حين تقول: أنا لن أرجع إلى الجريدة الرسمية في القانون الفلاني، لاحتمال الخطأ فيها، فلا يقبل منك الرسميون، المحاكم لا تقبل، الجهات التنفيذية لا تقبل، توقع عليك العقوبة حين تخالف مؤدى الجريدة الرسمية في قانون من القوانين، ولو اعتذرت باحتمال الخطأ.

أيضاً الله ﷻ - في فهمنا - لا يقبل منك العذر في رد قول مقلدك، حين تقول: أنا أحتمل أن مقلدي في اجتهاده لم يوافق الواقع، عدم موافقة الواقع ربما جاءت حتى في احتمال مجتهدك، وهو معذور فيه، وهو لديه الحجة في أن يطبق سلوكه على فتواه الاجتهادية، ولك الحجة، وعليك الحجة في تطبيق فتوى مقلدك وتطبيق سلوكك على هذه الفتوى حتى مع احتمال المخالفة للواقع.

ويبقى فرقان بين الإسلام الواقعي والإسلام الاجتهادي، يبقى فرقان:

١- فرق أن الحل الدقيق الكامل الشامل لمشكلات البشر، يحققه الإسلام الواقعي ١٠٠٪، وقد يحققه الاجتهادي بنسبة ٨٠٪، قد يقدم لنا الإسلام الاجتهادي في الاقتصاد، وفي السياسة بدرجة، وفي مختلف حقول الحياة حلاً لمشكلات البشرية بمقدار ٨٠٪، وبمقدار الإصابة للواقع، وقد يأتي فوق ذلك توفيق من الله سبحانه وتعالى، وتسديده، وتكميل النقص من ناحية عملية رحمة بالعباد، وجزاء لهم على تمشيهم مع مقتضيات الشريعة.

ونضمن أن مشكلات البشرية تحل بالكامل وبدرجة ١٠٠٪ في ظل تطبيق الإسلام الواقعي، هذا فرق.

٢- الفرق الآخر هو أن الإسلام الواقعي لا يصح بعد معرفته أن يمس بالاجتهاد، إذا عرفت أن هذا الحكم هو حكم الله.

وجدنا علمنا، وثيقنا أن الصلاة واجبة في الإسلام - وهذا ضروري من ضروريات الإسلام - لا يكون لأي مجتهد مهما علا قدره أن يقارب باجتهاده، أو يلامس هذا الحكم. إن له من القدسية ما يجعله في منعة وعصمة من أن يمس الاجتهاد من أي مجتهد.

أما الرأي الإسلامي الاجتهادي الداخل في الفكر الاجتهادي الإسلامي، فيمكن أن يتغير من خلال عملية اجتهادية لمجتهد آخر، لمجتهد وليس لمغير مجتهد، الفكر الإسلامي الاجتهادي يمتلك حرمة قدسية أمام الفكر غير الاجتهادي، ولا يمتلك قدسية أمام نفس الفكر الاجتهادي، هذا فكر اجتهادي أنتجته عقلية اجتهادية لفلان، يمكن أن يأتي عليه النقد من عقلية اجتهادية لفلان الآخر.^(١)

ثانياً: فرق آخر: فرق بين زمن الحضور والغيب

وزمن الغيب زمن التمحيص والغربة، لماذا؟ لأن المشاكل والأزمات تكثر لغياب الإسلام الواقعي، وغياب القيادة المعصومة، وعدم اجتماع الناس حتى على قيادة الفقيه العادل الواحد.

١- خطبة الجمعة (٣٥) بتاريخ ١٤ رمضان ١٤٢٢هـ، الموافق ٣٠ نوفمبر ٢٠٠١م.

وماذا يحكم الساحة الإسلامية اليوم؟

ما يحكم الساحة الإسلامية اليوم الأطروحات الغربية، والأطروحات الشرقية، وهذه الأزمات هي أزمات أطروحات أجنبية، الساحة الإسلامية تحكمها جاهليات، وهذا له إفرازاته الخطيرة.

الإسلام مُهمَّش، فكيف يُحمَّل الأطروحات الحاكمة في الناس؟!

فرق بين زمن الحضور والغيبَة، وهو زمن التمحيص والغربة، وزمن التمحيص منخل، أو غربال - كما في تعبير الأحاديث - يسقط منه خلق كثير من المسلمين، والمؤمنين.

زمن الغيبَة زمن التحديات، زمن أحداث ضخمة غير مُطافَة، فهو يمثل منخلًا وغربالًا يسقط منه خلق كثير من المؤمنين فضلًا عن غيرهم.

مع وجود المعصوم اليوم لا يكون هذا الاختلاف، مع استمرار الإمامة المعصومة إلى الإمام الثاني عشر بلا انقطاع، لو أعقب زمن الأئمة زمن الفقهاء العدول، فإن الأمة ستكون مهتأة الاجتماع على فقيه واحد، أعني الأمة كل الأمة ليس شيعة أو سنة حيث مع هذا الغرض لا يوجد هذا الانقسام، وستجمع الأمة كلها على قيادة واحدة، وفقيه واحد عادل، وستكون النتيجة مختلفة حتى في مسألة الهلال.

ثالثًا: فرق بين تطبيق الجزئية الإسلامية الواحدة في جو يُطبَّق فيه الإسلام كاملاً، ومن تطبيقها في جو آخر ليس من صناعة الإسلام

الجزئية الإسلامية الواحدة مرة تطبق في جو إسلامي كامل، وتطبيقها عندئذٍ سهل جدًا.

مثالان:

١- الصبر عن الزنا لمن لم يستطع الزواج المبكر، يتطلَّب درجة من التحمُّل في الجو الإسلامي: في جو الإيمان، جو النظافة، جو العفاف، جو الستر، بينما يتطلب أضعاف تلك الدرجة من التحمل في جو التهلك، في جو السفور، في جو الميوعة، إلخ.

٢- التَّوَقُّفُ عن الرِّبَا، والنَّظَام الاقتصادي المعاش هو نظام إسلامي، والإسلام معاش بكامله، ليس شيئاً عسيراً، ولا يتطلب درجة عالية من الإيمان جداً، بينما التوقف عن الربا في مثل الواقع القائم يتطلب درجة عالية من الإيمان والصبر والتحمل.

فرق كبير جداً بين تطبيق أي جزئية من الجزئيات الإسلامية، وأي موقف من مواقف الإسلام في جوٍّ إسلامي كامل، وفي ساحة يحكمها الإسلام، وبين أن تطبق هذه الجزئية في جوٍّ معادٍ تماماً، ومن صناعة أطروحة جاهلية.

الجو الآن جو عزلة مفروضة على الإسلام، وتطبيقك للإسلام في أي جزئية من جزئياته يتطلب منك أن تتحمل كلفة أكبر؛ لذلك فالقابض على دينه اليوم كالقابض على الجمر في يده، وأجره مضاعف.

الإسلام لا يدّعي أنه قادر على حلّ الأزمات بتطبيق جزئية منه أو جزئيتين، الإسلام يضمن للمجتمع حياة تعيش الرفاه والاستقرار والتقدم الروحي والنفسي والعقلي والمادي حين يطبق بكامله، أما أن يُطبّق من الإسلام جزئية أو جزئيتان، أو نظام من أنظمتها دون البقية كما في تطبيق النظام العبادي وحده - مثلاً -، فذلك لا يعطي معه الإسلام الضمان بأن يحلّ أزمات الأرض، على أنه يجب تطبيق أي جزئية من جزئيات هذا الدين العظيم، أو أي نظام من نظمه ما أمكن حتى لو استحال تطبيق وحداته الأخرى.^(١)

مسألة اختيار النظام السياسي

سنتحدث في اختيار النظام السياسي، ونظام الحكم.

نتحدث في: هل أن المجتمع يختار نظامه السياسي، وله أن يختار السُّلطة في نظر الإسلام، أو ليس له ذلك؟

فلنسأل: هل نحن مخيرون بين الإسلام وغيره؟

من ناحية تكوينية: نحن مخيرون، يعني أنت تمتلك قدرة على أن تختار الإسلام

١- خطبة الجمعة (٢٩٩) ٢٤ شعبان ١٤٢٨هـ، ٧ سبتمبر ٢٠٠٧م.

وعندك الإرادة الكافية لأن تختار الإسلام على غيره، أو تختار غيره عليه، وهذا واضح.
الكل منا يمتلك إرادة كافية موهوبة من الله سبحانه وتعالى لأن يُقدّم الإسلام على غيره في حياته، أو أن يقدم غيره عليه.

أما التخيير التشريعي: يعني هل هناك تشريع في الإسلام يُخير الإنسان بين الإسلام وغيره؟

لا، الإسلام من ناحية تشريعية يقول: لا دين إلا الإسلام، ولا أطروحة إلا الإسلام.
مَنْ أراد أن يطيع الله، فليس أمامه إلا أن يأخذ بالإسلام، فلا تخيير من ناحية تشريعية وإنما التخيير من ناحية تكوينية.

وإذا كان للإسلام طرح سياسي، فهذا الطرح السياسي ليس محل التخيير، وإنما الإنسان لا يقبل منه الإسلام إلا أن يأخذ بنظامه السياسي في حالة الاختيار.

وعن اختيار السُّلطة..

إذا وُجد الرسول ﷺ، وطرح نفسه حاكمًا، فليس لأحد من المسلمين أن يتخلف عن قبول حاكميته.

يستطيعون أن يمتنعوا عن حاكمية الرسول ﷺ، ولا يتعاونون معه على مستوى الإرادة التكوينية، أما من ناحية تشريعية فليس لهم أن يتخلفوا عن حاكميته ﷺ ودعمها.

وإذا وُجد المعصوم عدا النبي ﷺ، وطرح نفسه حاكمًا، فليس لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، وإنما على الجميع مبايعته.

هم من ناحية إرادية تكوينية يستطيعون أن يمتنعوا عن مبايعة المعصوم، ويستطيعون محاربته، لكن إذا أرادوا أن يكونوا مؤمنين، مطيعين لله سبحانه وتعالى، فليس أمامهم إلا أن يبايعوه ﷺ.

وإذا قلنا: بأن الفقيه خليفة المعصوم في غيابه من ناحية الدور السياسي، ودور الحاكمية، فإنه إذا طرح نفسه حاكمًا وجب على المسلمين أن يبايعوه، وهم يستطيعون أن يمتنعوا عن مبايعته، ويستطيعون محاربته من ناحية تكوينية، أما على المستوى التشريعي، فإن الإسلام لا يسمح لهم بالتخلف عن هذه البيعة.

فإذا، المسلمون لا يتمتعون من الناحية التشريعية والصلاحية الدينية بأن يقبلوا الحكم الإسلامي أو لا يقبلوه، وإنما عليهم قبوله، ليس لهم أن يتخيروا بين نظام سياسي إسلامي، وبين نظام سياسي علماني - مثلاً -، وكذلك الأمر بالنسبة إلى شخص الحاكم عند حضور المعصوم عليه السلام، أو وضعه عند غيابه، فعند حضور المعصوم يكون متعيناً، وفي حال غيابه تكون أوصاف الحاكم مأخوذة من الشريعة.

نعم، إذا وجد أكثر من فقيه كفء للمنصب، ورشحوا أنفسهم للمثله، فإن لهم أن يتخيروا بين هؤلاء الفقهاء، ويبايعوا من يرونه أنه الأفضل، وهذه البيعة إنما أن تأتي على مستوى أهل المشورة، وإنما تأتي على مستوى الأمة بكاملها.

سؤال كبير: إذاً لماذا يقبل الإسلاميون والفقهاء - بعد هذا الذي قلناه - إرجاع الأمر إلى الشعب؟

- السيد الخميني رحمته الله بعد أن قاد الثورة، وأسقط الشاه، كان حاكمًا من ناحية فعلية، واحتضنت قيادته وحاكميته قلوب الملايين، وكان يمكن له أن يفرض أي نظام سياسي على إيران، إلا أنه طرح النظام السياسي، وقضية اختيار الإسلام، وعدم اختياره نظاماً سياسياً للتصويت.

من أين كان للسيد الإمام أن يطرح القضية للتصويت؟، سؤال كبير.

- سماحة السيد السيستاني اليوم يطرح قضية الانتخابات، ويدعو الشعب العراقي إليها، ويوجب على الشعب العراقي أن يخرج إلى صناديق الاقتراع؛ للإدلاء بصوتهم للحكومة المنتخبة المؤقتة.

من أين للسيد السيستاني (حفظه الله) أن يدعو لهذه الدعوة في وقت يعلم فيه أن الحكومة لن تكون إسلامية، وأن الحكم في العراق اليوم لن يكون إسلامياً بالمعنى الدقيق؟

أيضاً هذا سؤال كبير يفرض نفسه.

الجواب: هناك ظرف عادي، وظرف ثانوي، ونحن في ظروف ثانوية، وليست ظروفًا عادية، والحكم الشرعي قد يأخذ صيغة أخرى في ظل الظروف الاستثنائية دون صورته في الظرف العادي، ونحن نقبل في هذا العصر قضايا التصويت على أصل النظام السياسي، وعلى تشخيص السلطة، ومَن يكون الحاكم، فحتى لو كان الطرح هو التخيير بين الإسلام وغيره، أو كان الطرح بين فقيه وبين غير فقيه ممَّن لا يصلح في نظرنا للحكم من ناحية شرعية، فنحن نقول للانتخابات: نعم.

ووراء الموقفين الحكيمين للسيد الإمام، وللسيد السيستاني خلفية تامة.

كان عند السيد الإمام اطمئنان كامل بأن خيار الشعب الإيراني - وفي ظل تلك الظروف الخاصة - لن يعدو الإسلام، ولن يقدم الإيرانيون على الإسلام شيئاً، وإذا اختاروا الإسلام التقوا حوله، ودافعوا عنه، وأعطوا أنفسهم له ذلك، لأنه خيارهم.

اطمئنان السيد الإمام أن الشعب الإيراني لن يقدم على الإسلام أمراً آخر، كان خلفية من الخلفيات التي تجعله يطرح القضية للتصويت.

وفي ظروف كظروف اليوم، وفي القضية العراقية، المواقف ثلاثة:

١- إما التخلّي عن المسألة السياسية من قبل السيد السيستاني (حفظه الله) والحوزة العلمية، والتخلّي عن المسألة السياسية، وترك الأمور تتسيّب بدرجة أكبر، وتتجه في الاتجاه الآخر المعاكس للإسلام بدرجة فاحشة، أمر غير جائز.

٢- خيار آخر، القيام بالسيف، وحدوث مواجهة بين الشعب العراقي وبين أمريكا، وهذا جائز جداً، بل واجب إذا لم يكن بديل لطرد العدو الكافر.

وهذا أمر موضوعي تدخل فيه الخبرة العملية، ويُدلي فيه المختصون برأيهم، ولكل جماعة أن تدرس الواقع في ضوء محصّلة معلوماتها وخبراتها، وتنتهي إلى رأي في الموضوع.

٣- ما انتهى إليه رأي السيد السيستاني (حفظه الله) والحوزة العلمية المباركة هو أنّ هناك طريقتين: طريق السيف، وطريق الانتخاب، وطريق الانتخاب يُقدّم على طريق السيف حتى لو كانت مسافته أطول بشيء ما.

الانتخابات أقل خسائر، وإذا كانت الانتخابات قد تحدث فيها مغالطات، ويمكن أن يفشل الغرض من تحقيق واقع إسلامي بدرجة ما، فإن الصّراع الدموي لا يسلم - أيضًا - من المغامرة، وأنه ليس مضمون النتائج.

هناك حرص من المرجعية في العالم الإسلامي، ومن العلماء على الحفاظ على تماسك المجتمع الإسلامي.

والصراع الذي يمكن أن يجر إلى صراع داخلي بين المسلمين صراع مستبعد في نظر المرجعية الفقهية.

والصراع في العراق ليس صراعًا مع أمريكا فقط، وإنما هو صراع مع صدام والصداميين الذين لا يزالون يمتلكون واقعًا قويًا جدًّا في الساحة العراقية، وإنّ تحقيق الانتصار على أمريكا وحدها في العراق لا يعني انتصارًا للإسلام.

عليك أن تخوض معركة ثانية مع صدام والصداميين؛ ليتحقق واقع إسلامي هناك، وهذا ما سيجر إلى حرب أهلية لعدم اليقظة الكافية في صفوف المسلمين، وللخلط بين ما هو سني وبين ما هو صدامي في الواقع.

ثم إن نجاح أي حكم قائم على رضا الشعب والأمة، وقد رأينا أمير المؤمنين (عليه السلام) يعتذر عن قبول الحكم بعد وفاة عثمان، وقد يكون من منطلقات ذلك الامتناع هو عدم ملائمة الظروف الموضوعية لنجاح الأطروحة الإسلامية، أمير المؤمنين معصوم، وقيادته

ناجحة بالكامل، لكن الصف النخبوي الذي يؤمن بالإسلام وبالأطروحة الإسلامية،
ويصبر على الأطروحة الإسلامية، ويعطي لها كل شيء لم يكن بالدرجة الكافية.

والإسلام لا يريد حكمًا شكليًا.

الإسلام يريد حكمًا حقيقيًا.

يريد أن يصنع نفوسًا.

يريد أن يصنع عقولًا.

يريد أن يخلق واقعًا إسلاميًا.

ولا يريد أن يحكم حكمًا شكليًا فحسب.

وهذا ما يفرض عدم عزل الحكم الإسلامي رضا النصاب الكافي من الناس؛

لإقامته.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٨٢) ٣ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ، ٤ يناير ٢٠٠٥ م.

الباب الأول

أركان النظام الإسلامي

ليس من طريق للضعيف؛ لكي يخرج من ضعفه إلا الارتباط بالقوي، وكل الناس في أصلهم ضعفاء، وكل الكائنات دون الله على ضعف ذاتي، فلا قوي إلا الله تبارك وتعالى، هو القوي المطلق، الغني المطلق، وكل الطرق أمام الإنسان مسدودة، لأن يخرج من الضعف إلى القوة إلا الطريق إلى الله تبارك وتعالى.

﴿... وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١)، المثل الأعلى الذي لا نهاية لعلمه، لا نهاية لغناه، لقدرته، المثل الأعلى هو الكامل المطلق، في كل ذاته، وفي كل صفة من صفاته بلا تجزئة بين الذات والصفات.

الآية الكريمة تدلنا على الطريق الواحد الذي يعطي الارتباط به الخروج من الضعف إلى القوة.

وتقول الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.^(٢)

الرجس ظلمة، الشك ظلمة، الكفر ظلمة، الغرور ظلمة، كل صفات الضعف التي يعاني منها الإنسان تمثل حالة سلبية وظلمة.

ومن الذي يخرج الإنسان من ظلماته إلى النور، هوربه تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

١- النحل: ٦٠.

٢- البقرة: ٢٥٧.

العنوان المأخوذ في الإخراج هو الإيمان؛ فلا يخرج الذين كفروا من الظلمات إلى النور وهم على كفرهم، فالكفر ليس سبباً عند الله للإخراج من الظلمات إلى النور، ما هو السبب؟

ما هي الأرضية التي يخرج الله وَعَلَّزَ الإنسان على أساسها من الظلمات إلى النور؟ هي الإيمان، هي الارتباط به، هي الانشداد إليه، هي الاستكانة بين يديه، هي التعلق به، هي الاستمطار والاسترفاد من فيضه وفضله.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾^(١)، أولياؤهم في التريبة، وعلى المستوى الإرادي الطاغوت، والطاغوت لا يملك أن يخرج من الظلمات إلى النور وهو يعاني في ذاته من الظلمات، والتي يحتاج في الخروج منها إلى المخرج، وليس من مخرج من الظلمات إلى النور إلا مالك الظلمات والنور تبارك وتعالى.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢)، لا بد أن تكون النتيجة هي هذه، فأصحاب النار هم من لا قدر إنسانيّ لهم، وليس فيهم ما يميزهم عن الحجر، وقد فرغتهم التريبة الطاغوتية من إنسانيتهم، فصاروا كالأنعام بل أضل سبيلاً، وهم الذين يتحملون مسؤولية خسارة أنفسهم بما فرطوا.

١- المنهج الإلهي

إنَّ الله وَعَلَّزَ رسم منهجاً حقاً، ودلَّ الناس عليه، وجعله الطريق إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فالارتباط بالله والذي يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور هو الارتباط بمنهج الله وَعَلَّزَ الموصل إليه.

١- البقرة: ٢٥٧.

٢- البقرة: ٢٥٧.

﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ...﴾^(١)

فالقضية قضية رسالة، ورسول، ومنهج إلهي، وقائد على طريق هذا المنهج وهو في
الأصل المعصوم عليه السلام.

﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢)

المنهج الإلهي صحيح، ومنقذ، لكن يريد الله سبحانه وتعالى أن يُبين في هذه الآية
أن ليس شيء من خلق الله يستقل بالنفع لا رسول ولا منهج، فالذي يملك عملية الهداية
والإضلال، ويملك كل فعل في الأصل هو الله تبارك وتعالى.

المنهج على كفاءته، الرسول على كفاءته يحتاج إلى تدفق الإذن التكويني من الله؛
لتحصيل الهداية.

لكل منهج من المناهج التي تقود حركة الإنسان في حياته على الأرض صناعة خاصة
لهذا الإنسان، ونتائج تنعكس على حياته ووجوده في الدنيا والآخرة، وهي نتائج يمكن
أن تنعكس بوجود الإنسان على مستوى الفعل، وتنحط به في نفسه وأوضاعه وعلاقاته،
وفي حال الدنيا والآخرة معاً انحطاطاً بالغاً جداً، وترهقه وتحقره، وتشقيه، كما يمكن
أن تبلغ به المعالي، وترقى به القمم، وتتجاوز به آفاقاً بعيدة من آفاق الكمال، وتريعه،
وتؤنسّه، وتسعده.

وما البؤس، واليأس، والجوع، والخوف، والقلق، والاضطراب، وأنواع الشقاء التي
يعاني منها الإنسان اليوم والفرقة والشتات والمأساة التي يتعذب بمرارتها الملايين من

١ الطلاق ٩-١٠.

٢ المائدة ١٥-١٦.

بني البشر إلا من عطاءات المناهج الأرضية الحاكمة، وإفرازاتها المقيتة المهلكة.

وليس السقوط الذي يعيشه الإنسان في نفسه، ورخص نفسه عليه، وهوانها عنده، وانفصاله عن هدفه الكبير، وغايته السامية التي خلق من أجلها إلا من مسؤولية المناهج الساقطة، والأنظمة الخاطئة، والسياسات المنحرفة، والقيادات الخائنة وغير الكفوءة.

ويوم أن حكمت مجتمع الإنسان كلمة الوحي، وأشرفت على تربيته وحركة حياته قيادة الرسول ﷺ القيادة الربانية الكريمة، خرجت أوضاع الأرض من سوئها، ورجسها، وظلمها، وفحشها، ومستنقعها إلى الفضاءات الرفيعة الفسيحة النزيهة، وقفز مستوى الإنسان إلى قمم عالية بعيدة.

٢. القيادة الربانية

مع المنهج هناك شيء آخر؛ فالأخذ بالمنهج يحتاج إلى قيادة ربانية، والفاعل الحق ومن إليه منتهى الأمر هو الله تبارك وتعالى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ...﴾^(١).^(٢)

﴿الرَّكِتَابِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٣).^(٤)

الإنسان مع تناسقه في الخلق وتعادله في القوى، وتناسبه مع دور الخلافة عن الله ﷻ والمطلوب منه في الأرض، واستعداداته الكبيرة لدرجات متقدمة من الفعلية الصالحة السوية القويمة الباهرة إلا أنه يولد وفيه حالات من الضعف الفعلي التي لا

١- إبراهيم: ٥.

٢- خطبة الجمعة (٣٨٩) ٢٤ ذو القعدة ١٤٣٠هـ، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٩م.

٣- إبراهيم: ١.

٤- خطبة الجمعة (٣٨٧) ١٧ ذو القعدة ١٤٣٠هـ - ٦ نوفمبر ٢٠٠٩م.

يخرجه منها إلا ارتباطه وتعلُّقه بالخالق العظيم، والمنهج المتلقَّى منه سبحانه على يد رسله، والقيادة الربانية المتمثلة في رسل الله، ثم أوصياهم في هذا المجال، ثم في الامتداد الطبيعي الشرعيِّ لأولئك القادة الربانيين العظام ممَّن دلَّ عليهم دين الله بجلاء، وهم الفقهاء العدول من أهل الخبرة والدراية.^(١)

الباب الثاني رسالة النظام الإسلامي

خاتمية الرسالة الإسلامية، مع ثبوت حاجة الإنسان إلى كلمة السماء تستوجب أن تكون عالميّة، وخطابها عامًّا لكلِّ مكان، وقوم، وأُمَّة على حدٍّ شمولها للزَّمان كُلِّه.

أن يكون الإسلام مستكملاً لكلِّ ما تحتاجه المسيرة البشريّة في المطلق من زمانها ومكانها من تشريعات ومعالجات لكلِّ قضاياها ومشاكلها، بأكمل صورة تُحقِّق لها سعادة الدنيا والآخرة، وتتقدَّم بها إلى أكبر حدٍّ ممكن للإنسان، ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١).^(٢)

الصِّفَاتُ الْعَامَّةُ

للإسلام صفاتٌ عامة يشترك فيها مع كلِّ الأديان السماوية الصادقة المنتزلة قبله، ولا يمكن لأيِّ دين منها أن يدخله النقيض، ولو جاء أي دين فيه مناقضة مع شيءٍ منها كان في ذلك دليلٌ كذبه، وكذب مدَّعيه.

وله صفاتٌ خاصة بمقتضى كونه خاتم الأديان من جهة، واستمرار الحاجة البشرية إلى دينٍ إلهي صادق يضعها على الطريق، ويجمع كلمتها على الهدى، ويأخذ بها إلى الغاية، ويتكفَّل لها باتباعه بسعادة الدنيا والآخرة.

١- التَّوْحِيدُ

فما من دين من الله سبحانه، ولا وهو يدعو إلى توحيدِه ونبذ الطاغوت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣).

١- الأنعام: ٣٨.

٢- خطبة الجمعة (٤٥٤) ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٣ يونيو ٢٠١١م.

٣- الأنبياء: ٢٥.

٢- العدل

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾^(١)، فما من دين يأتي من الله الذي يدعو للعدل والإحسان؛ ليدعو للظلم والعدوان والإساءة.

٣- احترام الإنسان، والحفاظ على كرامته

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢).

وهذا التكريم والتفضيل يُحيل على الدين الحق أن يمتن كرامة الإنسان، ويسقط منزلته، ويُعامله معاملة البهائم.

٤- العلمية الخالصة

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾^(٣)،
﴿... ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...﴾^(٤).

وكيف يأتي من عالم الغيب والشهادة ما فيه جهل؟

وكيف يكون الكتاب المنزل بالحق فيه منافاة للعلم؟

فأيما دين ثبت اشتماله على جهل، واختلاط حقه بالباطل لم يكن من الله سبحانه بهذه الصورة.

٥- الحفاظ على القيم الخلقية

الضمير الخلقى الإنسانى من فطرة الله سبحانه، وهو حُجَّة له على عبده، وطريق العبد إلى ربه، وراعى له عن الاستسلام لحيوانية نفسه، والانحدار على طريق الشهوات عن مستوى إنسانيته: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٥).

١- النحل: ٩٠.

٢- الإسراء: ٧٠.

٣- البقرة: ٢١٣.

٤- التوبة: ٩٤.

٥- القيامة: ٢.

وإذا كان الضمير الخلقي المرتبط بالقيم الخلقية الرفيعة رسولاً من الله وعِزّاً، والدين رسول الخارج لم يَجْزْ أن يكون بينهما تناقض.

وإذا كان كمال الإنسان بإتمام أخلاقه وعظمتها، والوظيفة الرئيسة للدين إنما هي تكميل الإنسان، فكيف يأتي في الدين ما يُبالي الخلق الكريم لينال في غايته؟!

٦- الخلو من التمييز على أسس أرضية عصبية كالقومية واللغة والمكان والزمان

فالدين السماوي نظرتة سماوية ومقاييسه إلهية لا بشرية، ولا أرضية، فالكل عبيد الله، ولا تفاوت إلا بطاعة تقرب إليه، وسعي يؤهل إلى مزيد من رحمته: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١)، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ﴿... الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾^(٣).

ومقاييس العلم والتقوى، وحسن العمل مقاييس مفتوحة على بني الإنسان جميعاً، تُتيح فُرص السباق بعدل، وترتبط بإرادة الإنسان، وخاصة التقوى والإخلاص في العمل، وتُلغي قيمة الفوارق البشرية التي لا دخل للإنسان في صنعها واختيارها.

٧- التعامل مع الإنسان بطبيعته

للإنسان طبيعة اثنيينية لا تتغير، ولا تزول: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٤).

الإنسان خلق من طين، فله حاجات طينيته وروح، فله غاية من رُوحِيته، فلا بُدَّ من الاعتراف له، والتعامل معه بلحاظ واقعيته ومثاليته.

وكلُّ تعامل آخر معه يُلغي أحد جانبيه تعامل ظالم، فاشل ولا بُدَّ أن يصطدم مع طبيعته، ويتبرهن فشله.

١- الحجرات: ١٣.

٢- الزمر: ٩.

٣- الملك: ٢.

٤- الحجر: ٢٩.

ولا يتنزّل دين من الله فيه جور على خلقه، أو يحمل بذرة فشله، ويتسبب في شقاء عبده.

فكل الديانات الإلهية الصادقة لا تُعطّل حركة هذه الحياة، ولا تقف بمستوى الإنسان عند حدّها، وما تغنى به من لذائذ المادة وشهواتها.

٨- عدم التّهافت والتّعارض

إذا كانت الديانات الصادقة كلها من عند الله سبحانه - كما هو كذلك - استحال أن تتهاافت وتتناقض وهي صادرة من العلم الذي لا يضل، والحكمة التي لا تجهل، والرحمة التي لا تتغير.

فالحق لا تختلف الديانات الإلهية عليه، ولا يتخلّف عنه إحداها، والباطل لا يدنو منها، ولا تُخطئ في معرفتها به.

أما الاستكمال لبعض الأحكام، أو نسخ شيء منها قد سبق، فإنما هو لمقتضى التطوّر الموجب، والاختلاف في الموضوع، ذلك في جانب الاستكمال، والنسخ كاشف عن توقيت سابق معلوم لله سبحانه وتعالى أزلاً، ولعلمه كذلك بحصول مقتضيات موضوعية في زمن النسخ؛ لتجدّد الحكم، وحلول الناسخ مكان المنسوخ.

هذه صفات مشتركة بين الإسلام وغيره من الديانات الإلهية الصادقة.^(١)

محورية التّوحيد في النظام الإسلاميّ

«قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»^(٢)، هذه كلمة الحرية الصادقة.

كلمة العدل والمساواة.

كلمة الخير كله.

كلمة السّعادة في الدنيا والآخرة.

١- خطبة الجمعة (٤٥٣) ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٢٧ مايو ٢٠١١م.

٢- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ١٨ ص ٢٠٢.

قولوها لأنفسكم الأمارة بالسوء.

قولوها لكل التحديات في داخل النفس.

قولوها لكل التحديات في الخارج.

قولوها لكل الفراغة والطُغاة.

قولوها في موقفٍ صعبٍ شائكٍ.

قولوها عند كل شهوة ثائرة، وعند كل إغراءٍ مستفزٍ، وعند كل رعبٍ مزلزلٍ.

هذه هي الكلمة الأولى التي جاء بها رسول الله ﷺ، وانبثقت منها، وسارت على خطها كل رسالته، بكل ما في تلك الرسالة العظمى من تفاصيلٍ.

هذه رسالة رسول الله ﷺ، وهي رسالة كل الأنبياء، والمرسلين، والأولياء، والصالحين (صلوات الله وسلامه على جميع أنبيائه ورسله).

الغاية هي الانتشال، غاية الرسالة هي انتشال الخلق من كل مشكل، والمنطلق الأول للانتشال هو التغيير الصالح الإيجابي للإنسان، والمغيّر الوحيد على طريق صناعة النفس الصناعة الإيجابية، والصناعة الصالحة ليس هو إلا التوحيد.

قولوها عقيدة صادقة، ومشاعر حيّة ومنهج حياة.

قولوها علاقات هادفة.

قولوها سلوكات منضبطة.

قولوها في كل لحظة من لحظات الحياة، وفي كل موقفٍ من مواقفها.

هي قبل ذلك ليست كلمة لسان، وليس أثقل ما فيها أن نقولها لساناً.

هي عقيدة.

هي شعور.

هي رؤية.

هي منهج.

هي مواقف.

«قولوا لا إله إلا الله» أمرٌ، نصيحةٌ، توجيهٌ، دعوةٌ إلى أن تأخذ هذه القضية مركز المحور الوحيد في كل حياة.

الإصلاحات الصغيرة والكبيرة المفصولة عن محور التوحيد، عن منهج الله لا يمكن أن تمثل الغاية في نظر الإسلام، وهي غير قادرة على أن تحل المشكلة الحل الجذري، ولا يتأتى لها على الإطلاق أن توفر السعادة المطلوبة في الحياة والآخرة دون أن تسمو بالإنسان السمو الذي خطط له الإسلام.

نعم من حق الناس إذا ضغطت عليهم الأوضاع الظالمة أن يتحركوا؛ لدفع الخطر العاجل، ولتخفيف المأساة، ولكن ليس لهم أبداً أن تستغفلهم الأوضاع، وأن تصرفهم المشاكل عن الهدف الكبير.

هدف التوحيد الذي يضمن سعادة الدنيا والآخرة، ويعطي حلاً لكل مشكلة.^(١)

أساس العدل

بعدل الله كان الوجود، وبه قيامه ودوامه.

وبعدل الله كانت الحياة، نشوءها واستمرارها، ولا يقوم شيء، ولا يدوم إلا بعدله.

يقول الإمام علي عليه السلام كما عنه:

- «العدل أساسُ به قوام العالم».^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣١٥) ٢٨ صفر ١٤٢٩هـ، ٧ مارس ٢٠٠٨م.

٢- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٥ - الصفحة ٨٣.

- «العدل أقوى أساس».^(١)

- «العدل حياة».^(٢)

- وفي ربط واضح بين إقامة العدل، وانتعاش الإسلام وتقدمه في حياة الناس، وتهيؤ الأجواء لظهور عظمته، والافتناع به، واحتضانه تقول الكلمة عنه ﷺ: «العدل حياة الأحكام».^(٣)

- وانظر إلى عظمة كلمة في المورد عن إمام معصوم آخر من أئمة آل محمد ﷺ، وهو الإمام الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٤): «ليس يحييها بالقطر، ولكن يبعث الله رجالاً، فيحيون العدل فتحيا الأرض؛ لإحياء العدل، ولإقامة الحد لله أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً».^(٥)

لئن كانت الأرض تحيا بالمطر، ويكثر به منها العطاء إلا أن الظلم يعصف بكل خيرها، وينحرف بوظيفته؛ ليتحول سوءاً وشرّاً وأذى، وتردياً، واستكباراً واستعباداً، وتمزقاً وفتناً، وبطراً وتبهاً، وضللاً، وفساداً، وشقاء في حياة الناس.

أما العدل، فيكثر به الخير خيراً الأرض، وخير الناس، وتستقيم به النفوس، وتطيب القلوب، وتطهر الأرواح، وتنشط العقول، وتشتد العزائم، وتطلق قوى الإعمار، ويعم الأمن، وتغزر البركات، وتنهأ الحياة.

- وتقول الكلمة عن علي عليه السلام: «عدل السلطان خير من خصب الزمان».^(٦)

إذا لم يكن عدلٌ واستطالت الثروة وكانت بيد فئة متنفذة ضيقة عملت بالفساد

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - الصفحة ١٨٣٨.

٢- المصدر نفسه - الصفحة ١٨٣٩

٣- المصدر نفسه.

٤- الروم: ٥، الروم: ١٩، الحديد: ١٧.

٥- المصدر نفسه.

٦- المصدر نفسه - الصفحة ١٨٣٨.

في الأرض، وخلق الفتن والعداوات، وصارت تستطيل بها على الناس، وتصادر أمنهم، وتسرق منهم كل فرص النمو، وتغتال إنسانيتهم وأخلاقيتهم، وتحجبهم عن رؤية الحق، ومعرفته ربهم، ونفسهم، وتعمي قلوبهم، وتذلهم في داخلهم، كل ذلك من أجل أن لا تقوم لهم قائمة، ولا يستطيعوا أن يحدوا من جشع الفئة المنتفذة، وحتى يبقى الطريق مفتوحاً لمزيد من التعمق المالي والشهرة الكاذبة، والترف الباذخ لنفوس فارغة لا تفتأ تطلب من هذا المزيد؛ لتملأ شيئاً من فراغ لا يملأه المال.

وملهاة المال عند هذه الفئة تشغلها عن إنسانيتها، وتفرغها من قيمها وأخلاقيتها، وتحولها إلى وجود مادي تافه في كل تفكيره، ومشاعره، وحساباته، وتطلعاته، وفيما يفعل ولا يفعل، وما يؤمن ولا يؤمن، وما يريد ولا يريد.

وفي ظل واقع الظلم والاستبداد تضعف الأكثرية، ويقل إنتاجها، ويسودها كثير من الأمراض، وتشعر بملالة الحياة، وتفقد الأمل، وتشعر بعداوة الآخر، وترتفع عندها درجة التوتر، ولا تجد بداً من الصدام.

وستبقى الأرض في موات وإن كثرت خصوبتها، وفي فقر وإن عظم غناها ما دام يحكمها الظلم الذي يجاري طمع أهل السلطة والنفوذ، فإن طمعاً مفتوحاً من شخص واحد في الأرض كل الأرض لا تقنعه الدنيا وإن اجتمعت كلها بيده.

ولن تحيا الأرض، وتغنى الحياة، وينبسط الخير، ويجد كل الناس الكفاية وما يحتاجون، ويحصل على قناعتهم إلا بظهور الحق، وبسط العدل، وسيادة الدين، ودولة المتقين.

عن الإمام العسكري عليه السلام لعمرته حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام :
 «بِئْسَ اللَّيْلَةُ عِنْدَنَا؛ فَإِنَّهُ سَيُولَدُ الْمَوْلُودُ الْكَرِيمُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ الَّذِي يُحْيِي اللَّهُ وَكَفَى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».^(١)

فبإقامته العدل، وأخذه بالحق، وإشادته للدين، واتباعه للهدى ستحيا الأرض،
والعقول، والأرواح، والنفوس، وعندئذ يطفئ الخير، وتعظم البركات، وترتفع الشكوى،
وتختفي الحاجة.^(١)

الإنسان دوراً

- في حضارة الإنسان: وهي الحضارة التي يصوغها القرآن والإسلام؛ من أجل
إنسانية الإنسان، وسعادته.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.^(٢)

للإنسان دور محدود تابع لله سبحانه وتعالى في الخالقية والتغيير والتطوير النافع
لنفسه ولغيره، وفي تحقيق العدل والإحسان والرحمة والخير في الأرض.

الإنسان مهياً لأن يجاري الله وَيَكْلِفُ مجارة عملية محدودة، وبفيض من الله سبحانه
وتعالى في التزيين بأسماء الله الحسنى حسب ما يطيقه وجوده المحدود، وفي حيثيات
معينة، وجهات مخصوصة، أما أسماء الله الحسنى، فيستحيل على الإنسان أن يتزين
بها كالقديم والدائم.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.^(٣)

هذا دور الإنسان في التصوير القرآني.

- إقامة الصلاة توجه خالص من الذات الإنسانية لله يربّيها، ويصوغها، ويصنع
خيرها وكمالها، والصلاة مصنع للذات الإنسان تصنع صناعة سامية عالية، تولد فيه
القوة الخيرة، وترفع من مستواه، وتجعله على الطريق الصحيح، تسموبه، وتعطيه الغنى،

١- خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ، ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٢- ٣٠: البقرة.

٣- الحج: ٤١.

وتقلبه من ضيق النظرة إلى سعة الرؤية، ومن الشعور الخانق إلى الشعور الفسيح، هذا الدور البناء؛ دور الإعمار والصناعة للذات الإنسانية تقوم به الصلاة وعلى الإنسان أن يمارس الصلاة؛ ليصنع ذاته.

- وإيتاء الزكاة دور بناء آخر يقوم على العطاء، وحب الخير، والفاعلية القويمة الكريمة في الحياة، فمن دور الإنسان أن يعطي، أن يفيض، والله وَكَلِّمْهُ هو المعطي المفيض بالأصل، والإنسان في الأرض محاولته الجادة الصحيحة أن يتحلّى بأسماء الله الحسنی ما استطاع، فحتى يتربى الإنسان على العطاء عليه أن يستغني ما استطاع أن يستغني، وعليه أن يعطي ما استطاع أن يعطي؛ لكي يكون مفيضاً في الأرض خيراً وبركة وهدى.

- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو دور بناء آخر يصنع الأوضاع الإنسانية الصحيحة سليمة من آفة الانحراف، ويقومها كلما عرضها شيء من الميل عن الخط اللاب.

ف نجد الإنسان هنا في التصوير القرآني مقيماً للصلاة، مؤتياً للزكاة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر؛ ليكون الخليفة عن الله في الأرض، وليمارس دور البناء والإصلاح، وتقويم الأوضاع.

﴿... وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾^(١)
و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(٢)

الآية الأولى تحدد جانباً من دور الإنسان، والإنسان في المفروض الإسلامي عليه أن يكون مؤمناً، وصاحب دور قائم على الإيمان، وعلى خط وظيفية الإنسان، ودوره في الأرض جاءت الرسل، ونزلت الكتب، فإنما جاءت الرسل، ونزلت الكتب؛ لتثير، وتنشط، وتحافظ على الدور الإنساني الأصل الذي خلق له الإنسان.

١- ٢٥: الحديد.

٢- النساء: ١٣٥.

ما هو هذا الدور؟

١- إقامة القسط

من هذا الدور إقامة القسط: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فمطلوب من الناس كل الناس أن يقوموا بالعدل، وإقامة العدل ليس في جنبه من الجنبات، وليس على صعيد من الصعد فقط، إقامة العدل في الفكر، في الشعور، في الأوضاع الخارجية، في الأوضاع النفسية الداخلية، في كل مساحة الحياة، وفي كل مناحي النشاط.

﴿... وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾، ويُسْتَقْرَبُ عند بعضهم في الميزان أنه الإسلام، وأنَّ الميزان تفسير للكتاب، وليس ببعيد وإنَّ كان التأسيس أولى من التأكيد إلا أن تقوم قرينة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، فلتكونوا على حركة، ولتكونوا على نشاط، ولتكونوا إيجابيين دائماً، لا قاعدين، كونوا قائمين، بل قَوَّامِينَ بالقسط شهداء لله شهادتكم لا تنظر لغير الله سبحانه وتعالى.

وأقصى درجات القسط، وأتم درجات العدل هو أن يأتي الشعور والسلوك غير ناظر إلا لوجه الله سبحانه وتعالى، فحيث ينظر السلوك والشعور لله وحده لن يميل عن الحق قيد شعرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾^(١)، فالحركة، والقيام، والجد في البناء والإعمار والتصحيح والتغيير والتطوير مطلب إسلامي، والإنسان جاء الأرض لا لينام، جاء الأرض لا ليتكاسل، لا ليسترخي، جاء للحركة، والحركة إيمارية تصحيحية تغييرية.

وهذه الحركة لا تكون للإعمار بحق، وللتصحيح وللتغيير الإيجابي إلا بأن تكون حركة في اتجاه الله، بأن تكون حركة صاعدة، وليس من حركة صاعدة إلا إذا اتجهت لله

سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ لا للشيطان.

تقوم من فراشك صباحاً لله، ولا تقوم من فراشك صباحاً للشيطان، بنيةً سوء، وللحركة الإفسادية.

تقوم من الفراش صباحاً ملوك الشعور بالحب لله ولن أطاعه، وملوك الشعور بالشفقة على الإنسانية، ملوك النية صالحة، ملوك الفاعلية الخيرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾، فليس من جمود ولا همود ولا كسل، إنما هي حركة ونشاط وفاعلية، وهذه الفاعلية، وهذا النشاط لا بد أن يكونا صاعدين، ولا صعود في حركة ولا نشاط إلا بأن يكون اتجاهاهما لله، ومن أجله، وعلى منهجه.

﴿شُهِدَاءٌ بِالْقِسْطِ﴾ شهداء بالعدل، فلا ميل عند الفرد المسلم، ولا عند الأمة المسلمة عن العدل، والشهادة بالقسط على الأم والأب، وعلى النفس.

حركة على منهج الله، والهدف هو رضوانه، حركة تحقق العدل في كل أبعاد الذات الإنسانية، وجوهاً داخلي، وتحقيق العدل في كل مساحة الحياة الخارجية، وتحقيق الشهادة القويمية العادلة ابتغاء وجه الله، وكل ذلك يمثل تجسيداً للدور الذي كُلف به الإنسان في الأرض، وهو بهذا يبني نفسه، ويطورها، ويتكامل من خلال حركته الصاعدة لله سبحانه وتعالى.

٢- العمل الصالح

﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾.^(١)

الإنسان نشطاً، الإنسان متحركاً، الإنسان صانعاً زارعاً، الإنسان منتجاً على غير طريق الله في خسر.

مَنْ هو الإنسان الرابع؟

صاحب هذا الدور: دوره الداخلي إيمان بالله سبحانه وتعالى، وبملائكته، ورسله، واليوم الآخر، وهو إيمان بالحق.

حركة النفس ونشاطها وحيويتها إنما تكون لون حركة تتسق وطبيعتها، فالذات الإنسانية حركتها الداخلية الذاتية ليست في صورة إنتاج مصانع، وزراعة، وتكنولوجيا متقدمة.

النفس في حركتها الداخلية، إنتاجها أن تصل إلى رؤية الحق، أن ترتفع بمستواها إلى حد القدرة على التمسك بالحق، أن تحتضن الحق وتتفاعل معه، وتذوب فيه، وتستجيب له وتعطيه الحاكمية الكاملة على داخلها.

وللإنسان حركة في الخارج تتمثل في البناء، وفي الصناعة، وفي غيرها إما بهدف سوء أو بهدف خير، والحركة على يد الإنسان المؤمن دائماً هادفة هدف الخير.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(١)، حيث تتخلق نفس مؤمنة، تمتلك رؤية كونية حقيقية صادقة، وحيث تهتدي نفس إلى الله سبحانه وتعالى، فتستضيئ بهداه، وتتعرف على شيء من أسمائه الحسنی، تكون جميلة، فلا يصدر منها إلا الجميل بقدر ما آمنت، وبقدر ما عرفت، وبقدر ما كانت على استجابة لله سبحانه وتعالى، فيأتي العمل الصالح، ويأتي التواصي بالحق، ويأتي التواصي بالصبر.

فالعمل الصالح دور إنساني داخلي وخارجي إيجابي خير، والتواصي بالحق، التواصي بالتمسك بالطرح الإلهي الصحيح، التواصي بالنظرية الصحيحة، وبالموقف العملي الصحيح، تواص بالدين في داخل النفس، وتواص بالدين في خارج النفس، وتواص، باحتضان كلمة الوحي، وبالتمسك بها على مستوى الفكر والشعور والسلوك،

وهو من دور الإنسان في هذه الحياة، والتواصي بالصبر على طريق الله، وتحمل تبعات هذا الطريق البناء الصاعد وظيفه من وظائف الإيمان والإنسان على الأرض.

الإنسان المسلم يبني نفسه في ضوء إيمانه، ويسعى جاداً؛ لبناء نفسيّة الآخرين في ضوء هذا الإيمان.

هذا هو دور الإنسان في التصوير القرآني، فماذا تريدون من الحضارة الإسلامية أن تتعامل؟، فأني تعامل من الحضارة الإسلامية مع الإنسان في جانبه الروحي، وفي جانب الطين ترتقبون؟!

إنها حضارة الروح وإن كانت أنجح الحضارات في إسعاد البدن كذلك.^(١)

٣- القيام في وجه الظلم

الحديث عن المسيح ﷺ: «بحق أقول لكم: إن الحريق ليقع في البيت الواحد، فلا يزال ينتقل من بيت إلى بيت حتى تحترق بيوت كثيرة، إلا أن يستدرك البيت الأول، فيُهدم من قواعده، فلا تجد فيه النار معملاً».^(٢)

وفي نسخة أخرى: «محلاً»، وكذلك الظالم الأول لو أخذ على يديه لم يوجد من بعده إمام ظالم، فيأتمون به^(٣) كما لو لم تجد النار في البيت الأول خشباً وألواحاً لم تحرق شيئاً».^(٤)

هنا توجيه بأن يؤخذ على يد أول ظالم، وأن يؤخذ على يده لأول ما يظلم، فإن الظلم يؤسس للظلم، وهو مدعاة لنشر الظلم، والتساهل مع ظالم يغري كل من في نفسه أن يظلم، أن يتمادي في ظلمه.

١- خطبة الجمعة (١٦٣) ٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ١٦ يوليو ٢٠٠٤م.

٢- أي شيء تعمل فيه، وتؤثر فيه.

٣- ربما كانت في المصدر الأصلي «يؤتم به».

٤- ميزان الحكمة - محمد الرشدي - ج ٤ - الصفحة ٣٥٨١.

وقد تقدم أن الظلم أساس يتنافى مع الإسلام تمامًا، وخلق يتضاد مع التوحيد، فإن الله عدل، ومن توحيد الله أن نعترف بعدله، فهذا الظلم المتنافي مع الدين لا بد من مواجهته، يواجه في البيت، يواجه في المحلة، يواجه في القطر، يواجه في كل الدنيا.

«مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا فَهُوَ ظَالِمٌ، وَمَنْ خَذَلَ ظَالِمًا فَهُوَ عَادِلٌ»^(١)، هذا عن إمامنا الرضا عليه السلام، وهويطالب المجتمع بأن لا يعين ظالمًا في ظلمه، معونة الظلم في ظلمه ليس بمعنى أن أشاركه الموقف، إذا شاركته الموقف فأنا ظالم أصلاً مثله، ومصدق جلي للظالم، لكن معنى المساعدة في ظلمه، وعونه في ظلمه أن تُهيئ له مقدمة من مقدمات الظلم ولو أن تُتاوله قلمًا؛ ليكتب قرارًا فيه سفك دم حرام، مناولتك القلم له، ملؤك القلم له حبرًا، هذه معونة للظالم، وتكون به أنت ظالمًا، وشريكًا في الظلم.^(٢)

قيم رسالية

١- وحدة العالم: والمحور هو توحيد الله سبحانه وتعالى، ولا شيء يوحد هذا العالم، ويرتقي به، ويعالج مشاكله كما هو محور التوحيد، وهذا موضوع بحث طويل لسنا بصدد.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾^(٣)، وهو خطاب القرآن الكريم لكل العالم، لكل الملل، لكل الناس كذلك: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»^(٤)، كما هي الكلمة عن رسول الله ﷺ.

٢- الحرية المشتركة: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٥)، وحين تنتهي الربوبيات الكاذبة، والطاغوتية في الأرض تكون حرية الإنسان الصادقة.

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ - الصفحة ١٧٧٩.

٢- خطبة الجمعة (١٤٠) ١٤ ذو الحجة ١٤٢٤ هـ - ٦ فبراير ٢٠٠٤ م.

٣- آل عمران: ٦٤

٤- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٨ ص ٢٠٢.

٥- آل عمران: ٦٤.

نشر الرحمة على عموم العالم، وفي كل الأبعاد من فكر، وشعور، من أوضاع نفسية، أوضاع فكرية، أوضاع عملية، أوضاع خاصة، أوضاع عامة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

الرحمة التي يحتاجها الإنسان ليست رحمة غذاء جسدي فحسب! إنه يحتاج الرحمة في كل أبعاده، ومساحات حياته وحاجته لا يسدّها إلا فيض الله سبحانه وتعالى وتعاليمه، ومن ذلك الرسالة والرسول، والإمامة والإمام.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، فكر الرسالة، وموازن العدل الإلهي، والقيادة من اختيار الله سبحانه أسس ضرورية؛ لقيام حضارة إنسانية كريمة عادلة.

وإنه سخف، وإنه عبث، وإنه وهم وخيال أن تبحث عن حضارة إنسانية عادلة راقية وراءها فكر ساقط، وموازن مضطربة، وإمام هابط.

٣- التنمية البشرية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣).

تنمية هذا الإنسان فكرياً، شعورياً، روحياً، قلبياً، بأن يزكو، وينمو في كل أبعاد داخله النماء الصالح.

هي التنمية البشرية الحقيقية، وهذا هو العمل الرسالي الكبير الذي يستهدف صناعة الحياة القويمة من خلال صناعة الإنسان القويم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾^(٤).

١- الأنبياء: ١٠٧.

٢- الحديد: ٢٥.

٣- الجمعة: ٢.

٤- الأحزاب: ٤٥-٤٦.

تقود القلوب، تقود النفوس، تقود العقول على الخط الواضح النير الوضاء.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١) كل ما في الداخل من ظلمة تتبدل إلى نور، ومن ضعف يتبدل إلى قوة، ومن ضلال يتبدل إلى هدى، ومن ضياع يتبدل إلى ارتباط واضح، وإلى قدرة على توظيف هذه الحياة على الخط الصاعد لله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.^(٢)

٤- الحفاظ على سلامة البيئة العامة: والتنمية البيئية وظيفة من وظائف الرسالات الإلهية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وصلاح الأرض له بعدان: الصلاح المعنوي بصلاح الإنسان، والبعد الثاني هو صلاح البيئة التي يعيشها الإنسان ويتعامل معها، ويحتاجها في استمرار قيامه بالدور الخلافي في الأرض.

وفي الآية إعلاء من قيمة إصلاح الأرض، ومواجهة لعمل الإفساد. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤)، وتجدر أن وظيفة الإصلاح والنأي عن الإفساد تربطها الآيتان الكريمتان بحالة الإيمان: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٥)، وحالة الإحسان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.^(٦)

إنه من الإحسان.

إنه من الإيمان.

١- البقرة: ٢٥.

٢- البقرة: ٢٥.

٣- الأعراف: ٨٥.

٤- الأعراف: ٥٦.

٥- الأعراف: ٨٥.

٦- الأعراف: ٥٦.

إنه من دور الخلافة في الأرض الذي كلف به الإنسان، أن نصلح الأرض ولا نفسدها. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١)، لا بد من الرجوع إلى الخط الصحيح، خط القيم والتشريع الإلهي في كل التعاملات، خط الإعمار، خط إصلاح البيئة، والمحافظة على البيئة، ولذلك تأتي تجارب قاسية في حياة الإنسان تؤدبه، وترجع أو تقترب به إلى الخط الصحيح في التعامل الإيجابي العادل والحكيم مع البيئة وأخيه الإنسان.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾^(٢) بناء علاقات إنسانية متينة تخلق بيئة موائمة؛ لتقدم الإنسان واحد من أغراض الرسالة، وسيلة من وسائل هذا البناء، وهي والأرحام تمتد من مسافة إلى مسافة، وتتسع من مساحة إلى مساحة، فإذا كان الحفاظ على الأرحام واجباً، وعلى كل الناس، فمعنى ذلك أن تقوم علاقات إيجابية متينة بين كل الناس تعم كل المجتمع الإنساني في محيطه الكبير.

فالرسالة الإلهية من أهدافها أن تقوم علاقات إيجابية كريمة بين الإنسان وأخيه الإنسان، كما أن من وظيفة الرسالة أن تضع هذا الإنسان على خط هذه العلاقات عملياً.^(٣)

إنحراف الانسان عن النظام التشريعي يؤدي إلى إفساد النظام التكويني

إن الإنسان قد خلقه الله مريداً؛ ليتحمل مسؤولية ضخمة في صلاح أوضاعه وفسادها، وعمران الأرض وخرابها، وسعادة الحياة وشقائها، وإن مساحة الفعل الإرادي عند الإنسان لتؤثر سلبيًا وإيجابيًا - بإقدار من العزيز الحكيم - على مساحة معينة من التكوين، وأن تحول الحياة على وجه الأرض إلى جنة راقية، أو نار حامية.

١- الروم: ٤١.

٢- محمد: ٢٢- ٢٣.

٣- خطبة الجمعة (٣١٧) ١٣ ربيع الأول ١٤٢٩ هـ، ٢١ مارس ٢٠٠٨ م.

وسلامة النظام التكويني على الأرض وما يتصل بها وإن كانت راجعة إلى دقة القوانين التكوينية التي تحكم هذا النظام، وكونها تشكّل منظومة متناسقة متكاملة، تحفظ من خلالها البنية التي بني عليها، إلا أنّ النظام التشريعي الصالح الذي يحكم كيفية التعامل عند الإنسان فردًا ومجتمعًا على مستوى مختلف العلاقات في حياتهما، ومنها علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقته بالبيئة، إنّ لذلك أثرًا ملحوظًا في سلامة النظام الكوني في مساحة الأرض، وما يتصل بها، إذ يمثل الخروج على النظام التشريعي الصحيح الذي ينظم هذه العلاقات تنظيمًا حكيماً هادفًا عادلاً ضرراً بالنظام الكوني في حدود ما تطاله تصرفات الإنسان، وبالأهداف الحكيمة التي يخدمها ذلك النظام.

وتمثل الاستقامة على خط التشريع الإلهي العادل الذي ينظم تلك العلاقات حركة إنمائية مباركة صالحة للإنسان والبيئة، ودورًا إعمارياً رشيدياً على يد الإنسان.

وتُستعرض هنا بعض النصوص في الربط بين انحراف الإنسان عن خط الشريعة الإلهية العادلة والدين القويم، وبين تردّي الأوضاع الاجتماعية، وفساد البيئة التكوينية، وحوادث الكوارث والأمراض.

فحينما يتعامل الناس مع الطبيعة، وفيما بينهم بعيداً عن الهدايات الإلهية الفطرية، والعقلية، والتشريعية، يفتقدون حالة التناسق القائمة بين قوانين التكوين، وقوانين التشريع من صنع الله العليم الحكيم، ويظهر ذلك بالفساد والتخلفات والتشوّهات على أوضاعهم الحياتية، وعلاقاتهم الإنسانية، وعلى المساحة التكوينية التي تمتد إليها مواقفهم الإرادية.

ولك بعض النصوص التي تعرض للخلل والفساد الذي يصيب الإنسان والحياة والبيئة بسبب الانحراف عن خط الله، والفطرة، والدين:

الانحراف وتردّي الأوضاع

- يقول الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.^(١)

يبتدئ الانقلاب من حسن الحالة إلى سوء الحال في الحياة الاجتماعية، وفي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والتربوية، وغيره من انحراف ينطلق من داخل الإنسان، ويظهر على مواقفه، وتعامله مع شريعة الله سبحانه وتعالى، هذا التغيير السلبي بداخل النفس البشرية والذي يمثل درجة من الانحراف عن الخط الإلهي هو أول مصيبة تطرأ على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، فكل انحراف في أي جنبه من جنبات الحياة في المجتمع الإنساني يرجع هذا الانحراف إلى انحراف عن خط الله سبحانه وتعالى، وإلى تخلّ جزئي أو كلي عن شريعة الله، قانون هنا، هذا القانون يقول: أنتم لا تخرجون في حياتكم من الحالة الإيجابية إلى الحالة السلبية إلا من خلال موقفكم من خط الله وشريعته.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وإذا كان الانحراف عن خط الله هو مفتاح الشر، فإن العودة إلى خط الله وَجَلَّ هي مفتاح الخير، فإذا ما ضقتُم أيها المؤمنون، بأوضاع الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للأمة كل الأمة، وللأرض كل الأرض، وفكرتم في أن تصحّحوا أوضاع الحياة، فلا بد أن تصحّحوا مواقفكم، ولا بد من قبل ذلك أن تصحّحوا فكريكم ومشاعركم، وتصحيح كل ذلك إنما هو بالعودة إلى خط الله، خط الرسل، والأنبياء، والقرآن، والسنة.

الانحراف والكوارث

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.^(٢)

١- الأنفال: ٥٣.

٢- الشورى: ٣٠.

الكوارث والمصائب البيئية والاجتماعية على المستوى الصحي، على المستوى العقلي، على مستوى الأمن، على مستوى الاقتصاد، على كل المستويات تقول الآية الكريمة منشؤها إنما هو ما كسبت أيديكم، وتعني الآية الكريمة بذلك ما كسبت الأيدي من سوء، ما كسبت الأيدي من ذنب، ما تحمل الإنسان من معصية بانحرافه عن خط الله، هذا الذي ترون من مصائب ليس هو الجزاء الكامل لما أتيت من انحراف، لأن الله وَكَفَّرَ يَعْفُو عن كثير، ولولا عفو الله عن الكثير لرأيتم مردود انحرافكم عن خط الله هلكة تامة.

الانحراف وفساد البيئة

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١)

التسمم البيئي، تضرر الثروة السمكية، تضرر الثروة الحيوانية، انتشار الأوبئة بسبب ما يدخل من تسمم على البيئة كل ذلك بما كسبت أيدي الناس.

الخيانة، التغفل، الروح التجارية التي لا تبالى بالقيم، انحطاط قيمة الإنسان في نفس الإنسان، نسيان الإنسان ربه سبحانه وتعالى، يبيح لهذه النفس أن ترتكب كل جريمة؛ من أجل الربح المادي الآني، يتيح لها ومن غير شعور بأي ألم لمصير الآخرين، وبكوارث الآخرين أن تدمر البيئة، وتلوث البيئة، وتنقض أسباب الحياة.

التخلي عن قيم السماء يؤدي إلى حروب نووية، جراثيمية، وكيميائية - وإلى التلاعب بجراثومة الجمرة الخبيثة - إلى غش، قتال في السلع التجارية، إلى تصحر مدمر.

كل ذلك فساد في البر، ومثله فساد في البحر، وذلك بما كسبت أيدي الناس ... إلخ.^(٢)

١- الروم: ٤١.

٢- خطبة الجمعة (٧٢) ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ، ١٦ أغسطس ٢٠٠٢م.

أين يبدأ الحل؟

أين تكمن أزمة الحضارة بسياساتها، واقتصادها، واجتماعها، وتربيتها، وكل نواحيها، ومن أين يبدأ حل هذه الأزمة؟

ولأدخلك في الإجابة على هذا السؤال واضعاً لها في عدد من النقاط:

١- الكثير من أهل الأرض يتطلعون إلى العدل والأخوة الصادقة، يتطلعون للرفعة والتقدم، يتطلعون للأمن، والاستقرار، والسلام.

وإنسان الأرض لو كان مخلصاً غير مؤهل لإنتاج الأطروحة الشاملة التي تضع حياة الإنسان على الطريق الذي يحقق طموحات الإنسانية وأشواقها وتكاملها؛ ذلك لأن هذا الإنسان مبتلى بالمحدودية والأنانية، ومأسور في نظريته لضغط الواقع الآني، ولمخلفات ماضيه المتسمة بالقصور، ولرواسب أزماته الفكرية والنفسية والعملية، ومحكوم لدوافع وغرائز مادية تحجبه عن الرؤية، وتحول بينه وبين الحق والحقيقة.

٢- لو أمكن للإنسان المحدود جدلاً - وهو غير ممكن - أن يصوغ الأطروحة الناجحة الكاملة التي تحرك الحياة وتثريها، وتتقدم بها مستمراً على خط العدل، والأمن، والمحبة، والسلام، والرقى، والتكامل، والانسجام بين أبعاد وجوده الكبير، لو أمكن له ذلك، فلن يجد أن يعطي لهذه الأطروحة نجاحها المطلوب وديمومة الدفع والتحرك الصاعد بالإنسان بعيداً عن خط الله والعبودية لوجهه الكريم.

وعليه فكل الصيغ والأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية المنحدرة عن خط الله لا يمكن أن ترقى لمستوى الحل الناجح لمشكلة الإنسان، وتدارك نواقص الحضارة المنتجة على يديه.

ثم إنها لا يمكن أن تكون لها القدرة على الدفع والتحرك على الخط الصاعد في مختلف أبعاد هذه الحضارة في ظل هذه الصيغ المخترعة على يد الإنسان غير القادرة على التغلغل إلى أعماقه، واستقطاب أجياله إلا على مدى محدود، ومن خلال بقاء الباب

مفتوحًا داخل النفس البشرية على أخلاقية الاستكبار، والاستضعاف، والاستغلال، والاستحمار يمكن تحويل أي أطروحة تتوفر على النجاح نظريًا بأي نسبة من النسب إلى شعار مفرغة من محتواه على المستوى العملي، وإلى آلية من آليات المخادعة البشعة، واستغلال الجماهير العريضة.

٣. تفسير ما تقدم أن الإنسان مركب من قبضة من طين، وهي درجة متدنية من بين مراتب الوجود، ونفخة من روح الله، وهي مرتبة وجودية عالية من مضمونها إدراك الحق، واستذواق الجمال المعنوي من علم وعدل وإحسان ورحمة وتسامح إلى آخره، وشوق دائمًا إلى المطلق من هذا الجمال.

والجانب الطيني في النفس البشرية جانب حي قوي دافع، يبحث عن بقاء الجسد ولذائذه ومشتبهاته والجمع والاستكثار من أجله، والتمدد في الثروة والقوة والسيطرة على حساب الآخرين؛ لمتعته وضمان استمراره، ويرتبط به الغرور والبطش وقهر الآخرين، والتمرد على القيم والقوانين ما أمكن حماية لمصلحة الذات واستمتاعها بالمادية المتنوعة.

فإذا انطلق الجانب المادي في ذات الإنسان انطلق بطأشًا مكتسحًا للقيم والأخلاق والأعراف، ومصلحة الشعب والوطن والأمة إرواء لنهم بهيمي لا يرتوي عند حد.

فإذا لم تكن قوة في داخل الإنسان لها من الحضور والشدة والفاعلية ما يمكنها من ضبط شهوات الطين، ودوافع المادة فيه، وربطها بمحور القيم المعنوية، فكل أطروحات الإصلاح ومحاولاته ستواجه بالنسف والاجتثاث من دوافع الطين عند الأقوى.

إن أقدر نظام على الإصلاح مطلقًا وهو الإسلام لو أريد تطبيقه مفضولًا عن انفتاح النفس البشرية بجانبها الروحي على الله وتقديسه وتوقيره وخوفه ورجائه لم يستطع أن يحقق أهدافه المرجوة، ولا يستعمل شعارًا؛ للاستقلال فقط، هذا فضلًا عن المحاولات الأرضية في هذا المجال، وبهذا نعرف أن مشكلات المجتمع البشري الاقتصادية والسياسية

والاجتماعية وغيرها، والتمزقات الخطيرة، والنكسات المفجعة التي يعاني منها هذا المجتمع تكمن في الإنسان نفسه، وسيطرة الجانب الحيواني من محتواه على داخله، ولا نهاية لهذه المشكلات الإنسانية إلا أن يصحح الموقف الداخلي عند الإنسان، ويكون اتخاذ القرار قائمًا على قاعدة الفكر القويم، والقيم الرفيعة، والإحساس بالمسؤولية الكبرى، ولا يتم له ذلك أبدًا وبشكل مستمر إلا بالانشداد إلى الله، وعشقه، أو خوفه، ورجائه.

لا يمكن لأي أطروحة إصلاحية، ولا يمكن للإنسان على خط أي أطروحة من هذه الأطروحات أن يبلغ النجاح، ويحقق الطموحات المرجوة له، تلك الطموحات الخيرة حتى يتحقق النجاح في جهاد النفس، جهاد النفس الذي عدّه رسول الله ﷺ هو الجهاد الأكبر، فإنَّ جهاد النفس هو الذي يؤسلم داخل الإنسان؛ لتتأسلم الحياة في الخارج، ويقضي على الظلم دون أن يستبدل إلى ظلم غيره وظالمين آخرين جدد.^(١)

١- خطبة الجمعة (٢٠) بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ١٧ أغسطس ٢٠٠١م.

الباب الثالث

الحكومة في النظام الإسلامي

الحُكْمُ: هو منع الغير من التصرف المخالف لإرادة الشخص، أو الجهة الأمرة، وهو الضبط، والسيطرة، وفرض الأمر والقرار على الآخرين.

الحكم وقوة التشريع

والحكم دائماً يقوم على القوة، إلا أن القوة مرّة تكون متبوعة بالتشريع، ومرّة تكون تابعة للتشريع.

هناك حكم قائم على قوة التشريع أولاً، ثم على القوة الخارجية.

وحكم آخر يقوم على القوة الخارجية أولاً، ثم على قوة التشريع.

السيطرة بالسيف تُعطي قوة في الخارج، قوة المال، وقوة الجند، وقوة السجون، وقوة الشرطة تُمكن لحكومة فرد أو جماعة، ثم يأتي التشريع؛ يُسند هذه القوة التشريعية، ويكون قوة أخرى معاضدة لها، هذا لون من الحكم.

ولون آخر من الحكم يقوم أولاً على التشريع كما في حال الديمقراطيات، وكما في حال الحكم الإلهي.

الحكم الإسلامي يقوم على قوة التشريع أولاً، وأن قوة التشريع، والتسليم لهذا التشريع من الآخرين يسمح ببناء قوة خارجية داعمة لقوة التشريع.

فالمنطلق مرّة يكون منطلقاً تشريعياً، ومرّة يكون منطلقاً آخر من خلال القوة الخارجية، وقد يكون من لغة الغاب، والقوة المتحصلة عن الظلم والانقضاض على الآخر من غير حساب للقيم أساساً.

ثمَّ، إنَّه لا حكومة بلا حق الحكم، ولا معنى لأن تكون حكومة ولا حقَّ لها في الحكم، ولا السيطرة أساسًا، وأن يُساوي أمرها أمر الآخرين، وأن تكون قدرتها على التصرُّف فيما يتَّصل بالشأن العام، بالثروة العامة، وبالوضع الأمني العام، وضع الحرب والسلم، قدرةً مشلولة تمامًا، وغير معترف بها نهائيًّا عند المحكومين، فلا حاكم بلا حاكمية، ولا حكومة بلا حقَّ في الحكم.

أما مساحة الحكم، فهي: الشأن العام بما يشتمل عليه من حقوق وواجبات، وما يتطلَّبُه من حفاظ على هُويَّة المجتمع والأُمَّة، وما يتطلَّبُه من تنمية مستدامة صالحة للإنسان، وأوضاعه الكريمة، ومنجزاته النافعة، وثروته المادية والمعنوية التي تتمثَّل فيها قوة المجتمع أو الأُمَّة، وتنبثق منها عزَّتهما، وكرامتهما، وسعادتهما.^(١)

١- خطبة الجمعة رقم (٢٤٨) ٢٦ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ، ٢٣ يونيو ٢٠٠٦م.

الباب الرابع

العلاقات الدّاخلية والخارجية في النظام الإسلامي

أسس العلاقات الدّاخلية والدولية

الدّاخلية: وهي المتحركة في إطار المجتمع المسلم.

والدولية: وهي المتحركة في إطار الدولة الإسلامية، والدول الأخرى غير الإسلامية.

الأساس الأول: العدل والإحسان

فإن لم يكن إحسان فعدل، وهذا لا يخص المسلمين، بل يعم التعامل مع كل الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾^(١)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

المطروح في كل النصوص التي تمثل النظام الإسلامي دين، وليس أحكاماً منبذة، وقواعد مفصلة عن رضا الله سبحانه وتعالى، هذه قواعد يرتبط بها رضا الله وعجزه.

الطرف الثاني عدو، ومرتكب لما يجعله مبعوضاً عند الإنسان المسلم، إلا أنه يجب أن لا يشط خطأ الآخر بالمسلم عن خط العدل في التعامل معه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، هناك رقابة من الله، هناك حساب، هناك عقاب إن عدلتم عن هذا الخط الإلهي إلى خط الأرض خط الظلم والجور.

١- النحل: ٩٠.

٢- المائدة: ٨.

٣- المائدة: ٨.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١)، تؤكد الآية بذيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ على القسط، لأنه مطلق، فسواء أخرجونا من الديار، أم لم يخرجونا من الديار، قاتلونا أم لم يقاتلونا، القسط لا بد منه. الذين لم يقاتلونا، ولم يخرجونا من ديارنا لا ينهانا الله عن البر بهم، والإحسان إليهم، مع تأكيد القسط في حقهم.

الأساس الثاني: لا عدوانية في الإسلام

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا...﴾^(٢)، ترفع مستوى الخطاب: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾^(٣).

الأساس الثالث: مبدأ التعاون وعدم التعاون

﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤)، هذا التعاون مع من؟
التعاون مع الداخل الإسلامي، وكذلك مع الآخر.

يمكن أن نتعاون مع دولة أخرى غير إسلامية ولكن على البر والتقوى، ونشر الصلاح والأمن والعدل والحق في الأرض، أن نخفف من مأساة الإنسان، أن نفتح الباب لإنقاذه، أن نطفئ نار حرب تحرق الأخضر واليابس من بلاد الكفر والإسلام، ولا تصح أوضاع الأرض، أن نعدل عن حرب إلى سلم لا يفضب الله سبحانه.

١- الممتحنة: ٨.

٢- المائدة: ٢.

٣- الأنعام: ١٠٨.

٤- المائدة: ٢.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ لا مع مسلم، ولا كافر.

فلا تعاون من المسلم على الإثم والعدوان ولو كان مع مسلم على كافر.

التبادل الحضاري الإيجابي

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(١)، ذكر الخلق من ذكر وأنثى هنا؛ لذكر وحدة النسب الأصل، فمهما تباعدت الأنساب الفرعية، فالنسب الأصل واحد، فهناك رابطة الأصل الواحد، وعلى الإنسان أن يحترم هذه الرابطة أيًا كان الإنسان الآخر، ثم جاء جعل الشعوب لحكمة إلهية، ولمصلحة هذه الأرض، والآية الكريمة تبين الغاية ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٢)، لا لتباعدوا، لتخلق العلاقات الإيجابية الهادفة للبناء، التي تثري هذه الحياة، وتحافظ على استمراريتها، ويسعد في ظلها الإنسان.

﴿... لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣)، الآية الكريمة في هذه الفقرة تحدد المسار الصحيح؛ للتنافس والتسابق، وهذا المسار هو الذي يرتفع بمستوى الإنسان ومستوى الحياة، ويعطيها الكرامة، والسمو، والاستقرار، والسعادة.^(٤)

- ثم تأتي الآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.^(٥)

ودائمًا نجد - وكما سبق التنبيه إليه - أن هذه الأسس والركائز تربط بقضية تقوى الله واستحقاق الثواب عن أطاعه، والعقاب لمن خالفه، فهي قضية دين وعمق إيماني وأخروي، وليست قضية تعاليم ووصايا دنيوية سطحية بلا جذر بعيد.

١- الحجرات: ١٣.

٢- الحجرات: ١٣.

٣- الحجرات: ١٣.

٤- خطبة الجمعة (٣١٧) ١٣ ربيع الأول ١٤٢٩هـ، ٢١ مارس ٢٠٠٨م.

٥- المائدة: ٢.

والآيتان الكريمتان تفتحان باب العلاقات الدولية ولكن العلاقة مع أي دولة أخرى من حدودها أن تكون علاقة تعاون على البر والتقوى، وما ينفع الناس، وما لا يخرج عن طاعة الله تبارك وتعالى، فهذا أمر ونهي: أن يكون التعاون على البر والتقوى هذا هو الأمر، أن لا يكون على الإثم والعدوان هذا هو النهي.

تعاوني معك، وتعاونك معي، تعاون فئة مع فئة، تعاون الدولة الإسلامية مع دولة أخرى مسلمة أو كانت كافرة، ضابطته أن يكون تعاوناً على البر والخير والصالح، لا تعاوناً على الإثم والعدوان.

الأساس الرابع: حفظ الأمانات ورعاية العهود والمواثيق

وهي قضية تحتاجها العلاقات الدولية أتم حاجة، ولا يمكن أن يكون هناك تبادل تجاري مستقر، ولا أمن ولا سلم، ولا أي علاقة إيجابية من دون أن يكون هناك وثوق بأمانة الطرف الآخر، ورعايته للعهد.

والقرآن الكريم يؤكد بكل قوة على هذا المبدأ الإيجابي الضروري الكريم:

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(١).

- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٢).

- ويأتي قوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

كل هذه الآيات الكريمة تصب في صالح التأكيد والترسيخ لمبدأ حفظ الأمانات، ورعاية العهود والمواثيق، وكم تعاني العلاقات الدولية من عدم رعاية هذا المبدأ وإن نصّت عليه المواثيق الدولية، ولكنه يبقى في الكثير في ظل الحضارة المادية الجاهلية

١- المؤمنون: ٨.

٢- النحل: ٩١.

٣- التوبة: ٤.

حبراً على ورق.

أما في الإسلام، فإنه لا يسع المسلم الحق أن يغير أو يبدل، أو ينقض ابتداء عهداً أقدم عليه، أو أمانة قبل ائتمانها ما دام أصل الأمر ليس خارجاً عن طاعة الله. ويأتي في السياق نفسه قوله سبحانه هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

الأساس الخامس: حق الجوار

ومعنى ذلك أن يستجيرك مشرك من يستحق القتل يريد أن يسمع الإسلام - وليس كل مشرك يستحق القتل -، فهذا المشرك ممن يستحق القتل، ويستجيرك؛ لیسمع الإسلام تقول عن مثله الآية الكريمة في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فالموقف منه أن تجيره، وإذا بينت له الإسلام بصورة كافية عليك أن توصله إلى المكان الذي يجد فيه نفسه آمناً سواء آمن بالإسلام أم بقي على كفره.^(٣)

الأساس السادس: تقابل الحقوق

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها، ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض»^(٤)، وهذا يعني أن ليس لك في المنطق أن تتمسك بحقك وأنت تهدم حقوق الناس، وتتكررها.

أول ما تطالب به من حق هو أن تطالب نفسك بحق الغير.^(٥)

١- الأنفال: ٢٧.

٢- التوبة: ٦.

٣- خطبة الجمعة (٣١٨) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٩هـ، ٢٨ مارس ٢٠٠٨م.

٤- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٢ - الصفحة ١٩٨.

٥- خطبة الجمعة (١٢٦) ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣م.

المبدئية والانفتاح في العلاقات

المبدئية ليست واحدة، والانفتاح هو كذلك.

أنواع المبدئية

١- هناك مبدئية منشؤها مبدؤ ناقص، أو منغلق على فئة خاصة من الناس، وتجمع بشري محدود لا يرى في غيره كفاءة التكامل، وإمكان الصعود، والمكانة الإنسانية اللائقة، ويحكم على ذلك الغير بالدونية التي لا مخرج له منها كما في اليهودية المحرفة على يد بني إسرائيل، وكما في النظرة النازية وغيرهما من أديان محرفة، ونظرات أرضية ضيقة.

٢- هناك مبدأ رحمة واسع الانفتاح على صالح كل إنسان، وكل جماعة، وكل أمة، وينظر للإنسان في نفسه نظرة احترام، ولا يعادي الحق في أحد، ولا يبخل بالخير والهدى على أحد، ولا يضمر لإنسان شراً، ولا يعادي في الناس إلا ما كان جهلاً وضلالاً، وزيفاً عن الحق، وانحرافاً، وظلماً وباطلاً، ولا يقرب إنساناً إلا لحسن عمل وسريرة، ولا يبعد آخر إلا لقبح ظاهر وباطن؛ ظاهر من فعل، وباطن من ضمير.

٣- مبدأ قد يقسو، ولكن لا يقسو إلا على شر، أمّا الخير فيرحّب به في كل إنسان، ويشيد به على أي يد كان، ومن أين جاء وهو مبدأ يطلب العدل مع الصديق والعدو، والقريب والبعيد، ويتأفح عن المظلوم أيّ مظلوم، ويعمل على ردّ الحق ممّن سلب منه وإن كان العدو المبين^(١)، وهناك مذهب كذلك.

والإسلام، ومذهب أهل البيت عليهم السلام مثال صادق كلّ الصدق لهذا المبدأ، والمذهب والدّين الذي وصفنا.

ولو انحرف فهم بأيّ مبدأ حق^(٢)، ودين قويم، ومذهب صدق، ومال به عن خطّ المحبة والانفتاح الهادف الصالح البناء والعدل القويم انقلبت صورته، وصار إلى

١- التفت! الإسلام يتحمل رد الحق إلى من سلب عنه وإن كان العدو المبين.

٢- قد يكون مذهب حق، ولكن الأفهام قد تنحرف عن خطّه.

العصبية العمياء، والجهل الأهوج، والعدوانية الشرسة التي تدفع إلى هدر الحق، واستباحة الآخر، وسفك الدماء، وإعمال القتل والتجيز للأبرياء، وإخافة الأمنين، وترويع الحياة، وتبرير الظلم، والتنظير لوحشية السلوك، وإشاعة الفساد.^(١)

وهناك من يحرف فهم الإسلام، فيصير به إلى صورة عدوانية قائمة كالحمة منفرة، ويجعله بتحريفه دين مجازر ومحارق، وسفك للدم الحرام بلا ضوابط، ولا حساب.

وهذا من أكبر الظلم للإسلام، ومن أكبر الظلم لمذاهبه على تفاوتها لأن ليس من مذهب تصح نسبته للإسلام بشيء من الصدق يمكن أن يقوم على مبدأ الظلم والوحشية والتكبر للحقوق، وانفلات المشاعر، والكراهية البهيمية السوداء، والحدق الجاهلي الدفين.

وكفى بانفتاح الإسلام الحق الذي تؤمن به قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ^(٢) وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٣)﴾.

فالأمر والنهي في الآية الكريمة يُدَّان باب كل شر، ويفتحان باب كل خير في تعامل الإنسان مع الإنسان وغير الإنسان، ويأخذان بيد المسلم إلى أقوم السلوك، وأنظف التعامل، وأنفع العلاقات التي تعمّر بها الحياة، وتأمين المجتمعات، وتنتهي أسباب التوتر، ويسحبان كل مبرر للعدوانية والظلم، والكراهية الجاهلية السوداء، والاستهانة بالحقوق، والتسرع في الدماء، وارتكاب الهتك والفتك بغير ما أنزل الله، وشرع دينه العدل، ووحى الحق الصدق.

وأما التشيع، فنأخذ فهمنا له في التعامل مع كل الناس من مثل هذه النصوص:

- عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شيعتنا المتبادلون في ولايتنا،

١- الفهم السقيم قد يقلب كل موازين الدين، فيحوّله من دين عدل إلى دين ظلم، ومن دين محبة إلى دين بغضاء.

٢- مع المؤمنين فقط؟ أم الآية فيها إطلاق؟

إطلاق الآية واضح.

٣- النحل: ٩٠.

المتحابون في مودَّتنا، المتزاورون في إحياء أمرنا، الذين إذا غضبوا لم يظلموا^(١)، وإنَّ رضوا لم يسرفوا^(٢)، بركةٌ على مَنْ جاوروا^(٣)، سلم لمن خالطوا^(٤).

- والحديث يتكلم عن العلاقات الداخلية، وهي علاقات أخوة إيمانية لا تمسُّ أحدًا بسوء على الإطلاق.^(٥)

ثم عن العلاقة مع الآخر، وهي علاقة تخلو من الظلم، وتلتزم خط العدل، وتغنى بالخير والبركة^(٦)، وتنتأى عن العدوانية والمكر السيئ، والنَّيَّة السوداء، والمخالطة بالسوء.

- وعن الصادق عليه السلام: «يا شيعة آل محمد، إنَّه ليس منَّا مَنْ لم يملك نفسه عند الغضب، ولم يُحسن صحبة من صحبه^(٧)، ومرافقة من رافقه، ومصالحة من صالحه، ومخالفة من خالفه».^(٨)

والحديث يقرِّر حسن الصحبة مع الآخر، ورفقته بحيث لا تخرج عن العدل والإحسان، كما يُقرِّر مصالحة الآخر المصالح، فلا مكر به، ولا ختل، ولا خديعة، وحتى من خالف وخاصم لا يطاله الشيعي في تقرير الحديث بظلم، ولا يتعدى في التعامل معه حدود الله، وكلُّ حدوده سبحانه حدودٌ عدلٍ وحقٍّ.

الشيعي الحقُّ لا يسيئ المخالفة مع مَنْ يخالفه، فلا يظلم، ولا يفجر، ولا يستبيح ما حرَّم الله وخالف دينه.

١- غضبهم لا يحملهم على ظلم حيوان فضلاً عن الإنسان.

٢- الرضا عن الصديق، عن الحبيب لا يجعلني أسرف، وكل خروج عن حدِّ الله فيه إسراف.

٣- أيًّا كان مَنْ الذي جاورك. المجاور مسلماً كان أم كافراً.

٤- الكافي للشيخ الكليني، ج ٢، ص ٢٣٧، ط ٤.

٥- صحيح أنَّ علاقة الشيعي بالشيعي علاقة إيمانية أخوية، ولكن مأخوذة في هذه العلاقة أن لا تمسُّ أحدًا بظلم، أو سوء على الإطلاق.

٦- لا يكفي أن تعدل مع الآخر، إنما تكون بركة عليه، ومحسناً إليه.

٧- أيًّا صحبت، إذا لم أحسن صحبة من صحبته، فأنا لست من مذهب أهل البيت عليه السلام بالكامل، بالدقة، وكما ينبغي، صحيح أكون من مذهبهم بنحو الإجمال، ولكن على نقص ومخالفة ومغايرة لهم عليه السلام.

٨- تحف العقول لابن شعبة الحراني ص ٣٨٠، ط ٢.

- وعن الصادق عليه السلام - كذلك - : «ليس من شيعتنا من يكون في مصر يكون فيه آلف، ويكون في مصر أروع منه».^(١)

فالشيعي الصادق لا بد أن يكون المثل الأعلى من بين الألوف في مصر في الورع، والتقوى، وكف الأذى عن الناس، والنموذج الأروع في حسن التعامل، والتعاون على الخير، وبر الآخر.

وفي ضوء هذا الإسلام والتشيع في الفهم الصحيح لهما لا يسعنا أن نخذل مظلوماً ونقف مع ظالم، ولا أن نساعد على ارتكاب منكر، أو نهادن رذيلة، أو ننطوي على حقد جاهلي أسود لأحد من الناس أيًا كان، أو أن نعادي الإنسان وإن عادينا ظلمه وبغيه وفحشه وسوءه، أو أن نسعى في الناس بفتنة، وفي الأرض بفساد، أو نرضى بحرب نهب وتشف واستكبار، أو نكف عن دعوة الخير، ونداء الإصلاح، أو نقف على محنة مستضعف فلا نغيثه ونحن قادرون، أو ندعو دعوة جاهلية للفرقة، أو لا ندرأ ظلماً لأمة، أو شعب، أو فئة من الناس ونحن نملك أن ندرأه.

نحن نفهم أن الإسلام دعوة للمحبة والإخاء والعدل والإحسان والمعروف، ودفع الأذى، ورفع الظلم، وتطهير العقول والصدور، وفتح الأبواب والأرواح على الخير والصلاح، ونحاول - دائماً - الانسجام عملاً مع هذا الفهم؛ ولا عاصم إلا الله، وبالله المستعان.^(٢)

دين التواصل لا التقاطع

أما بعد أيها الإخوة المؤمنون، والأخوات المؤمنات، فإطلالة سريعة على بعض من نصوص الإسلام تعطي صورة واضحة عن كون هذا الدين العظيم دين التواصل لا التقاطع، وأنه يدفع في اتجاه العلاقات الإنسانية الكريمة المثمرة على مختلف الأصعدة،

١- بحار الأنوار للمجلسي ج ٦٥، ص ١٦٤، ط ٢ المصححة.

٢- خطبة الجمعة (٤١٧) ١٠ شعبان ١٤٣١هـ، ٢٣ يوليو ٢٠١٠م.

وأن الأصل في تعاليمه مدُّ شبكة العلاقات الخيرة؛ لتشمل عطاها النافعة البُناء أبناء المجتمع الصغير والكبير، وكل فئات المجتمع البشري في طول الأرض وعرضها.

أما القطيعة، فتمثّل استثناء؛ ومن أجل إصلاح الوضع الإنساني، وسلامة المجتمع، وتصحيح مسار العلاقات بما يجعله منسجماً مع خط القيم الإلهية السامية، والأهداف النبيلة الكريمة، ومن أجل ألا تعدم ظاهرة القطيعة، ويتفشّى التقاطع، وتتقطع الأواصر، ويؤول الأمر الإنساني إلى التدهور والفساد.

وهذه سلسلة من العلاقات التي أولتها النصوص الإسلامية اهتماماً بالغاً -:

١- العلاقات العشائرية

«ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة - شدة الحاجة - أن يسدّها بالذي لا يزيده إن أمسكه - الحديث يقول: المال الفائض إن صرفته لا ينقصك، وإن احتفظت به لا ينفكك، وكل مال يزيد على الحاجة لا يزيد المرء إن أمسكه واحتفظ به، وإذا أنفقه لا ينقصه - ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تُقبض منه عنهم يد واحدة - إذا قبض يده عن عشيرته قبض يداً واحدة عن كثير، ولكن في قبّال ذلك يقبض الكثيرون أيديهم عن مساعدته، وعونه، ومناصرته -، وتُقبض منهم عنه أيدٍ كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة»^(١).

«وأكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصل»^(٢).

٢- العلاقات القومية

سُئل علي بن الحسين عليه السلام عن العصبية، فقال: «العصبية التي يَأْثُم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية

١- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ١ - الصفحة ٦٢.

٢- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ - الصفحة ١٠٥٤.

أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»^(١).

فعودك قومك على الخير، ومحبتك لقومك من غير أن تجرّك إلى ظلم الآخرين صحيح ومطلوب.

٣- العلاقات الإنسانية العامة

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

والكلمة المعروفة عن أمير المؤمنين عليه السلام في تقسيمه للناس: «إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق»^(٣).

٤- علاقة الإيمان

وهي فوق كل علاقة، وفوق كل حسب ونسب: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٤).

وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٥).

ومن حاكمية هذه العلاقة قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(٦).

وفي آية أخرى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

١- الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - الصفحة ٣٠٩.

٢- الحجرات: ١٣.

٣- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٣ - الصفحة ٨٤.

٤- التوبة: ٧١.

٥- الحجرات: ١٠.

٦- النساء: ١٣٥.

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾

علاقة الإيمان إنما تدخل في تراحم وتعارض مع العلاقات الأخرى حين تأخذ تلك العلاقات منحى غير منحى الإيمان وتضاده.

ولورُكزت قاعدة الأخوة الإيمانية في الحياة لانسجمت كل العلاقات معها، ولم يتناف منها شيئاً معها.

علاقة الإيمان تدعو لعلاقات إيجابية في كل الدوائر الصغيرة والكبيرة، وتوظف كل هذه العلاقات؛ من أجل كمال الإنسان، ورفعته، وسعادته.

٥- العلاقة مع الأعداء

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (٢)

والضمير في ﴿جَنَحُوا﴾ عائد على قوم أعداء ليسوا بمؤمنين.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. (٣)

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا...﴾. (٤)

فالإسلام يفتح بأبنائه على العلاقات الإنسانية الكريمة في الدوائر الصغيرة لا ليقف بهم عندها، وإنما لتمتد علاقاتهم الطيبة النافعة إلى كل الدوائر في الإطار الإنساني وإلى أوسعها، ولا يضع على ذلك شرطاً إلا أن تكون ملتقية مع القيم، مبنية على أساس أخلاقي قويم، منسجمة مع رضا الله تبارك وتعالى الإله الحق، ورب كل مربوب. والنظر إلى مرضاة الله هو المؤمن الأكبر لكون خطوات الإنسان وعلاقاته وكل

١- التوبة: ٢٤.

٢- الأنفال: ٦١.

٣- المائدة: ٨.

٤- النحل: ٩١.

حياته على الطريق الصحيح الموصل لكمالهِ وسعادته.

والعلاقات التي لا يحكمها هذا النظر إنما هي للهدم لا للبناء، وللفساد لا للصلاح، وللشقاء لا للسعادة.

فحينما تحب عشيرتك على غير طريق الله، فهذا الحب ليس لصالحك، وليس لصالح عشيرتك، وحينما يكون حبك لولدك، أو حبك لوالديك على غير طريق الله، فهو **من الحبِّ الهدَّام المفسد المهلك.**^(١)

المبادئ الثابتة في العلاقات

إنَّ القيادة المؤمَّنة والمجتمع المؤمن لا مساومة عنده على المبادئ، ولا ترصيات على حساب دين الله سبحانه وتعالى.

مواقف التعاون، مواقف الائتلاف، ومواقف التنسيق تكون ولكن بحيث لا تسلب من دين الله شيئاً، وتكون تحت مظلة الدين، وحسب القوانين الدينية، وحسب رؤية المختصين الدينيين، وبما يوافق الحكم الشرعي.

هناك تعاون تجاري مع الكفار، وهناك مهادنات ومصالحات مع الكفار، وهناك مع مختلف أقطار الأرض تتعامل الدولة الإسلامية، دولة الرسول ﷺ، لم تتطو على نفسها في المدينة، ولكن تتحرك مع علاقات مع الآخرين، إنما تتحرك في إطار الحكم الشرعي ورضا الله سبحانه وتعالى، وتشخيص ذلك إنما يرجع للفقهاء، وليس لمتفقه قاصر، أو غير متفقه أصلاً.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١٨٩) ٢٣ محرم ١٤٢٦هـ، ٤ مارس ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (١٢) بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٤٢٢هـ، ٢٢ يونيو ٢٠٠١م.

علاقات الولاء

تتحرك كل الولاءات والعلاقات الاجتماعية في النظام الإسلامي حول محور واحد له المركزية التامة، والاستقطاب الكامل، وهو محور الولاء لله وحده بلا منازع ولا شريك، وهو الولاء الذي يحكم كل الولاءات ويتقدم عليها، ويلغي ما يصادمه منها سر ذلك أن لا كمال إلا في الاتجاه إلى الله، وعلى طريق الله، وكل ولاء يخالف الولاء لله هو انحدار عن خط الله، انحدار بالنفس، وسقوط للذات، وذوبان للإنسانية.

وبذلك لا تتقاسم النفس الولاءات المختلفة، وتخلق الصراع في داخلها والتهافت، وإنما تنسجم كلها وتتوافق بعد أن لا يبقى منها إلا الصالح الذي يوافق مرضاة الله سبحانه.

في ظل التمركز من كل الولاءات حول محور الرضا الإلهي والولاء لله، تقع كلها في مواقعها المناسبة البناءة من غير أن تتعملق بما ليس لها، أو تضمر فتظلم وزنها.^(١)

أقسام العلاقات الولائية

في قول الله وَحَلَّلَ الفصل، وبه يُعرف الحق، وباتباعه يطلب الفوز والنجاة، وقد قال (عز من قائل): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَعْلَوُهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ

١- خطبة الجمعة (٤٤) ١٨ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ١ فبراير ٢٠٠٢م.

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾

١- الولاية بين المؤمنين، والولاية بين الكافرين

هنا أيها الإخوة، مقابلة بين الولاية بين المؤمن والمؤمن - هذا في طرف -، وهناك ولاية أخرى تقابلها، هي ولاية الكافر للكافر، والكفار كل واحد لا يتجزأ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض.

إنهم كيان واحد، إنهم كتلة واحدة، شرقيهم غربيهم، إنجليزيهم، أمريكيهم، روسيهم، عربيهم، كل أولئك كتلة واحدة يعملون ضد الإيمان ويقاومون الإسلام، فلا بد من كتلة أخرى.

لا بد من تيار متعاضم كبير في الأرض يحمل راية الله.

لا بد من ولاية.

لا بد من تناصر.

لا بد من محبة.

لا بد من تعاون.

لا بد من تواف في الجهود.

لا بد من تنظيم بين المجهودات المختلفة على مستوى الأفراد، وعلى مستوى المؤسسات داخل كتلة الإيمان، وتحت ظل راية الله سبحانه وتعالى، تقول الآية الكريمة: إن لم تعتبروا الكفار بعضهم أولياء بعض، وتقفوا بولايتهم عند هذا الحد لا تتعدى إليكم، وإن لم تواجهوا هذه الولاية بولاية بينكم - هذا فيما يفهم من تفسير -.

هنا قضيتان:

القضية الأولى: أن لا تمتد الولاية بين الكافرين إلى المؤمنين، فلا تسترق منكم أولياء، الولاية القائمة بين الكفار لا تنتهب الصف الإيماني، لا تأخذ أولياء منهم على مستوى الشعور، ولا على مستوى العمل، ولا على مستوى الفكر.

القضية الثانية: أن يقوم كيان كبير راسخ، ممتد، شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، هي كتلة الإيمان والمؤمنين، وأن تعيش هذه الكتلة الولاية، ولاية المحبة، وولاية النصرة، وولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخلها.

القضيتان معاً: ﴿إِلَّا تَعْلَمُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^(١)؛ لأن كتلة الكفر إذا تمددت على حساب كتلة الإيمان، وكان التيار الغالب في الأرض هو تيار الكفر، لا يقاومه ولا يناهضه تيار الإيمان، فهو فساد في الأرض يستوجب غضب الله وسخطه، ولا بد من أن تحل النقمة، ذلك أن هذا الدور في الأرض، دور الفساد الذي يطغى، دور الفساد الذي لا يقاوم، دور الفساد الذي لا يناهض، هو مواجهة صريحة صارخة لإرادة الله، ولخط الكون الذي يحمد ليل نهار، ويحمد كل لحظة، ويسبح كل لحظة باسم الله، فهذه إرادة أرضية شيطانية تصطدم بإرادة الله سبحانه وتعالى بقوة، وبالخط الكوني كله بمسار الكون، فأقوى الطرفين لا بد أن يدك الطرف الآخر، والقوة لله وحده، والعزة لله وحده.

٢- الولاية بين المنافقين

مقابلة أخرى أيها الإخوان، - تلك مقابلة قرأناها بين صف الكافرين، وصف المؤمنين - هل انتهى الأمر؟ لا، هناك مقابلة أخرى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

١- الأنفال: ٧٣.

٢- التوبة: ٦٧.

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

هذه مقابلة أخرى، هناك كتلة أخرى تعيش في داخل الأمة - في داخل أمة الإسلام والإيمان - هي كتلة المنافقين والمنافقات، وهي كتلة منظمة، كتلة تتحرك على أساس التخطيط والدعم الخارجي، كتلة لا تقتر أبداً عن مواجهة الإسلام والإيمان وبشتى الأساليب، وبأنواع المكر والكيد.

إنها تدخل في الصفوف، قد تدخل المسجد، وتدخل الحسينية، وقد ترفع لافتة الإسلام يوماً ما، وقد تهادن الإسلاميين لحظة لكن لتنقض عليهم في وقت قريب أو بعيد، كتلة المنافقين كانت موجودة في صدر الإسلام، وفي حياة الرسول الأعظم ﷺ، وكانت تتعامل مع اليهود ومشركي مكة، وتكيد بالإسلام من داخل مكة، ومن داخل الصف الإسلامي، وهذه الكتلة اليوم - أيضاً - لها امتداداتها العالمية، تعيش لحساب ومصالح إنجلترا، وأمريكا، وروسيا، والغرب، والشرق، الكافرين معاً، هذه الكتلة وزنها اليوم غير وزنها أمس، هي اليوم بحجم كبير مستطيل من ناحية الإمكانيات، والقوى المادية، والتنظيم، والتقنين، والتوجيه، والقيادة الممولة.

أيقف المسلمون فرادى أشتاتاً في مواجهة هذا الوجود الطاغوي الكبير، والغدة السرطانية في هذه الأمة؟

أم لا بد أن تتوحد الجهود؟

ولا بد أن تبلور الرؤى الإسلامية؟

ولا بد أن ينقى الفكر الإسلامي في ذهن أبناء الأمة؟

ولا بدَّ أن تكون الرؤية ناصعة واضحة جلية لا غبش فيها، هي راية الإيمان والإسلام والتوحيد، وكل شي يمكن أن يتنازل عنه إلا نقاوة المفاهيم، وإلا صَحَّة الرؤية، وإلا قضية **الإيمان لا يدخلها الغبش ولا الضبايئة**.

٣- معالم الولاية بين المؤمنين

أيُّها الإخوة الكرام، تقول الآية عن كتلة الإيمان:

١- ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١)، فلا تستوحشوا أمرًا بمعروف، ولا نهياً عن منكر، ومنكرٌ أن تُنكروا أمرًا بمعروف، وأن تُنكروا نهياً عن منكر. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مساحته كل الآخرة، وكل الآخرة أيُّها الإخوة، ما من مشكلة تتصورونها، وما من انحراف سياسي، أو اقتصادي، أو اجتماعي. أي انحراف من انحراف الأمة أو حكمها إلا وهو مسألة تدخل في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ربما تصورت عقول أن مساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المخالفة في الصلاة، التخلف عن حكم جزئي من أحكام الصلاة فقط، هذا كبير وهذا أصل، وهذا مقدر، وهذا لا بدَّ منه وهو الإنكار على المخالفة التي قد تتراءى لبعض الأعين أنَّها صغيرة مما يتعلق بشأن الصلاة، ولكن هل كل مساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي هذه المساحة، أم أنها تمتد مع مساحة الحياة؟، وتستوعب كل امتداداتها وتشعباتها.

٢- الحق الثاني ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، لا بدَّ أن نصر على التواجد في مساجدنا كل مساجدنا.

لا بدَّ أن نصر على الصلاة، وقيم الصلاة، ووعي الصلاة، وروحية الصلاة، والاشتغال بذكر الله، فإنَّ المسار خاسر ما لم يرتبط بالصلاة، ويموَّن من الصلاة

وقيم الصلاة، وروحية الصلاة، وذل الصلاة، وخضوع الصلاة أمام جبار السماوات والأرض.

٣- ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، لا يتخلفون عن دورهم الاقتصادي، عن واجبهم الاقتصادي، عن بناء الحالة الاقتصادية الصحيحة المتقدمة.

٤- ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قيادتكم الله، قيادتكم رسول الله، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يجل قدره، ويعظم شأنه عن معاشة الناس في أحوالهم المعيشية كوجود يروونه بحسهم على الأرض، وكان رسول الله ﷺ قد انتقل إلى جوار ربّه، فإن هناك قيادة بعده، هي قيادة المعصوم عليه السلام، والمعصومون عليهم السلام لم يتركوكم في فراغ وفراغ، دلوكم على القيادة، إن لم تكن هذه القيادة تمتلك موقع القيادة الفعلية التي تتمتع بكل الإمكانيات، فإنها قيادتكم ومرجعكم في الفتوى، وفي إعطاء الرأي السياسي فيما يجوز وفيما لا يجوز، وفي ما يصح أن يؤخذ من الأجنبي، وما لا يصح أن يؤخذ من الأجنبي، هذه الصفة ضرورية ومنها تنتقل كل الصفات وهو أن هذه الكتلة، هذا الصف، هذا البناء، يطيع الله، ويطيع رسوله ﷺ، طاعة رسول الله ﷺ على مستويين: طاعة على مستوى التعبد بالتشريع الآتي عن طريقه، وطاعة تتمثل في تلقي أوامره التنفيذية الإجرائية وهي الأحكام الولائية، تلقي بقبول وتسليم ورضا، وهذا أمر ينسحب على منصوب رسول الله ﷺ، ومنصوب رسول الله هو أمير المؤمنين عليه السلام والأحد عشر من بعد عليه السلام، وينسحب على منصوب الإمام المعصوم وقد نصب الإمام المعصوم في النص عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وفي النص عن الإمام القائم عليه السلام، **الفقهاء العدول، الصائنين لدينهم، المخالفين لهوهم^(١)، الذين لا يأخذون إلا بما قام عليه الدليل، وأنه من حكم الله، لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.**

١- ونص الحديث هو: «... فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ، حَافِظًا لِدِينِهِ، مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ، فَلِلْعَوَامِ أَنْ يَقْلُدُوهُ... وسائل الشيعة (آل البيت) الحر العاملي، الجزء ٢٧، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤ هـ، المطبعة: مهر، قم - إيران.

هنا ولاية مرفوضة أيها الإخوة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾^(١)، كفى، كفى، كفى لمتعل،
كفى لمن في قلبه ذرة إيمان.

أيها الإخوة، ألا يعيش حالة ولاء داخلي في النفس، على مستوى الشعور ولو بمقدار
ذرة على أعداء الله، وذلك شأن غير شأن تلاقي الجهود الخارجية في الوقوف في موقف
واحد في قضية عادلة وفي رد ظلم ظالم، وانتصار لمظلوم، ذلك أمر آخر غير ما أقوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، أبوك الذي قرنت طاعته بطاعة
ربك، أمك التي قرنت طاعتها بطاعة ربك، اللذان طاعتهما جاء بها قرآن صريح هذان،
والإخوة الأعضاء الأجنحة ليس لك أن تحبهم، الحب الذي يفصلك عن الله، ليس لك أن
تتنصر لهم النصر التي لا يرضاها الله، ليس لك أن تقربهم التقريب الذي يبعدك عن
الله وِعَلَّيْ، فكيف اليهود؟، فكيف النصاري؟، فكيف الشيوعيون؟، فكيف العلمانيون؟،
فكيف أعداء الله؟، هؤلاء لا تدخل مع محبة أحدهم في قلب مؤمن، وإن دخلت محبتهم
في قلب مؤمن فإمّا أن يكون ذلك لخطأ في تصور، وإمّا لنقص في إيمان - أعاذنا الله
من ذلك -^(٣).

١- المائدة: ٥١.

٢- التوبة: ٢٣.

٣- خطبة الجمعة (١٤) بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ٦ يوليو ٢٠٠١م.

التفاضل والارتقاء بالشعوب ميزان التفاضل العالمي

ميزان عالمي في التقييم لا يضيق بضيق القومية، ولا يضيق بضيق العشائرية والفئوية، وأي حالة أخرى.

هو فوق هذه الحالات كلها، وأوسع منها، ويستوعب العالم كله، ونطالعه في الآيات الكريمة الآتية:

- ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، تفاضل بين الخبيث والطيب، والطريق مفتوح أمام كل شخص في العالم أن يتوفر على الطيب، وأن يتخلص من الخبيث؛ ليسبق، وليتقدم على من سواه، فهو مقياس مفتوح على كل العالم.

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾^(٢) عقل نير، نفس نيّرة، قلب طاهر لا يستوي مع عقل وقلب وروح قد تلوّثت بما يجعل صاحبها عنصراً مضرّاً.

هذا المقياس الذي نتحدث عنه آيات سابقة ولاحقة، ظاهر بعض الآيات الكريمة التي تقرّره أنه للآخرة، وبعض آخر يفتح به على حالتي الآخرة والدنيا.

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) مقياس العلم، والعلم قد هيأ الله له سبحانه وتعالى الإنسان نوعاً، ولم يهيئ له الإنسان على مستوى قوم خاصين، أو عشيرة، أو إقليم معينين.

١- المائدة: ١٠٠.

٢- فاطر: ١٩-٢٠.

٣- الزمر: ٩.

- ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، قاعد ومجاهد، الجهاد مقدّم على القعود، والجهاد معنى يطرحه الإسلام؛ للإصلاح، وللبناء، والإعمار، والتصحيح، ولا يطرحه للظلم، والبغي، والفساد.

والجهاد على طريق الحق مفتوح بابه لكل القادرين في العالم.

- ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(٢)، والمؤمن هو من سلم بالحقيقة الواضحة.

المؤمن من لم يكابر الحق.

من لم يُعطِ الحق.

من لم يدس الحق.

والفاسق هو الخارج على حق يعرفه.

أيضاً مقياس مفتوح على كل العالم لا يعطي الأفضلية لقوم معيّنين، لعشيرة معيّنة، لإقليم معيّن، لعنصر معيّن.

- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣)، التقوى التزام منهج الحق البناء، منهج الحق والعدل، والصلاح والإصلاح، وهو منهج الله سبحانه وتعالى إذ لا تقوى من غير التزام بمنهج الله.

والتقوى غير مرتبط بأرض، ولا قوم، ولا عنصر، ولا طبقية.

- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٤)،

١- النساء: ٩٥.

٢- السجدة: ١٨.

٣- الحجرات: ١٣.

٤- الملك: ٢.

حسن العمل، جودة العمل أمر متاح لكل الفئات، والقوميات، والأقطار.

هذا المقياس الذي عبّر عنه هنا بأنه مقياس عالمي، ما مقتضاه؟

هذا المقياس يخلق صراعاً بين القوميات؟، بين عنصر وآخر؟، بين إقليم وآخر؟

أو يدفع الجميع على طريق الإصلاح، على طريق البناء، على طريق التعاون، على طريق الهداية؟

إنه مقياس إيجابي يدفع كل هذا العالم على طريق واحد إلى الله سبحانه وتعالى، وطريق الله طريق الصلاح، وطريق الفلاح.

هذا الكلام على مستوى مقتضى الأصول الأولى للحضارة الإيمانية في مسألة العلاقات، وأن ما تنتجه هذه الحضارة هو أي نوع من العلاقات الإنسانية في ضوء هذه الأصول.^(١)

الإسلام ومبدأ تعارف الشعوب

ولا تتخذ حضارة الإيمان من تعدد الشعوب والقبائل، أو تعدد الجنس واللون وما شابه ذلك سبباً للصراع، بل تحلّ محلّه التعارف والتآلف، وتفتح باب السباق في الخيرات، والكمالات الإنسانية الرفيعة، والكرامة عند الله المرتبطة بتقواه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.^(٢)

فإذا كانت غاية خلق الناس شعوباً وقبائل هي التعارف، فغاية التشريع الحق لا تختلف عنها بل تتطابق معها.

١- خطبة الجمعة (١٧٠) ٣٠ شعبان ١٤٢٥هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م.

٢- الحجرات: ١٣.

وخطاب القرآن لرسول الله ﷺ أنه رحمة للعالمين، ولا يكون كذلك إلا بهداهم وتوحيدهم، والمساواة بينهم في العدل، ووضعهم جميعاً على طريق الصلاح والصلاح والسعادة بعيداً عن الاعتبارات العنصرية والقومية والجغرافية واللغوية وغيرها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

منهجية الإسلام نفى للاستعباد والتمييز الظالم بين البشر

دعوتنا من دعوة الله، ودعوة رسوله ﷺ للاجتماع على كلمة سواء، لا تحابي أحداً، ولا تجور على أحد، لا استعباد فيها من بشر لبشر، ولا استغلال في حكمها من إنسان لإنسان، ولا فرض من أحدٍ على أحدٍ لذلٍّ أو هوان، فلا عبودية إلا لله خالصة، لا شوب للشرك، فيها تشفى بها أرواح العباد، وتسمو نفوسهم، وتركو قلوبهم، وتصح وتتقدم، وتطهر حياتهم.

دعوتنا من دعوة الرسول ﷺ بالرجوع إلى منهج التوحيد الذي لا يفرق بين أمة وأمة، ولا شعب وشعب، ولا عنصر وآخر، وعلمه كامل، وعدله شامل.

منهج لا تسجد فيه جباه العباد إلا لرب العباد، ولا تخضع الرقاب إلا لمالكها، والنفوس إلا لبارئها.

نحن - الإسلاميين - لا نرضى أن يتخذنا أحدٌ أرباباً - عليٌّ عليه السلام حرق من أراد أن يؤلّله -، ولا نرضى بأن نتخذ من الآخرين أرباباً، وعلينا إذا رفض الغير منهج الحق والعدل والتوحيد، بأن نُشهد الدنيا كلها قولاً وعملاً بأننا مسلمون، لا نقبل العبودية إلا لله، ولا نرى الربوبية إلا له، ولا يتجه سعينا أبداً، لأن نكون أرباباً للغير، ولا نعطي يدنا لمن أرادوا أن نتخذ منهم أرباباً من دون الله، أو معه.^(٢)

١- الأنبياء: ١٠٧.

٢- خطبة الجمعة (٤٤) ١٨ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ١ فبراير ٢٠٠٢م.

اعتراضان

الدعوى بأن حضارة الإيمان لا يترشح عنها إلا علاقات إنسانية إيجابية خيرة، وأن حضارة الطين والمادة المترشح عنها علاقات سيئة، علاقات تناح وصراع وتكالب على الدونيات، أمامها اعتراضان:

الاعتراض الأول: حضارة الإيمان تُقسّم الناس إلى مسلم وكافر، وإلى تقي وفاجر، ومؤمن وفاسق، وتثير المسلم ضد الكافر، وهذا صراع تثيره هذه الحضارة. وللإجابة على هذا الاعتراض يُذكر التالي - باختصار:-

مقدمات

١- الكفر يعني جحود الحق، وتغطية الحقيقة ومعاندها.
معنى الكافر: إنّه مغطّي الحقيقة، والذي يهضم الحقيقة حقّها.
الشمس حقيقة ساطعة، إذا كفر الإنسان بها غطّاها بقوله ودعواه إنكاراً لوجودها.
الله وَعَلَّمَ أظهر شيئاً، وظهر كل شيء بظهوره سبحانه وتعالى.
الكافر يستر هذه الحقيقة التي هي أكثر الحقائق سطوعاً، بل لا حقيقة من دونها إلا بها، يسترها بإعلامه المضلل، بدعاواه الكاذبة، بخططه الخبيثة، بدوره المفسد للعقول والفطر، هذا هو الكفر.

٢- وهو وضعية مصادمة لخط الكون والفطرة الذي هو خط العبادة لله والخضوع لإرادته.

كل شيء في الكون ناطق بحمد الله، بتسبيح الله، شاهد بعظمة الله، والحاجة إلى الله، وكل شيء في الكون خاضع لإرادة الله، أخذ إلى غايته على المسار الذي حدده الله سبحانه وتعالى إليه، حتى الإنسان الكافر في جانبه غير الاختياري عابد لله، مسبح باسمه، حامد له، متعلق بذيل كرمه وجوده.

فالكفر، وهو انحراف عن الله، واستدبار لأمر الله ونهيه وهو قبل ذلك خروج إنكار

لمعرفته، وضعية مصادمة لخط الكون والفطرة الذي هو خط العبادة لله، والخضوع لعبادته.

٣- وهو - أي الكفر - أرضية للظلم بعد أن كان يمثل خروجاً على أكبر حق على الإطلاق.

ماذا يساوي حقك من حق الله حتى إذا خرج الكافر على حق الله لا يخرج على حقك!

٤- وهو أرضية للانحدار السلوكي بعد أن كان مفتقداً لأساس القيم الذي لا يبقى منه شيء بعد الإنكار لله، والمصادمة للفطرة.

بعد أن ينكر المرء الله وَعَلَىٰ، ويخرج على الفطرة، ويصادمها يكون قد خرج على القيم كلها، لأنه لا مصدر في الأساس للقيم إلا أن الله موجود وكامل، وبالدرجة الثانية إلا هذا الصوت المججل في داخل الفطرة بالقيم الخلقية من غرس يد الله المبدعة الحكيمة الرحيمة.

٥- فيه تعطيل للغاية من خلق الإنسان وهو كماله وسعادته الأبدية التي لا يمكن أن تتحقق إلا على الخط الإلهي، وبالارتباط بالله، والانصياع إلى الله سبحانه وتعالى.

النتيجة

وعلى هذا كله تكون مناهضة خط الكفر، ومدرسته الساقطة من صميم الحفاظ على الصالح الإنساني كله بلا تمييز بين إنسان وآخر، ومقدمة ضرورية لخلق علاقات إنسانية شريفة، ولأنه لا يمكن أن تسلم العلاقات الإنسانية الإيجابية العادلة الكريمة على خط الكفر كانت محاربته عين الدفاع عن هذه العلاقات ونموها وثباتها.

على أن الإيمان لا يدفع لظلم أحد - حتى الكافر - : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...﴾^(١).

الاعتراض الآخر: إننا نرى من حضارة الإيمان، وفي داخل الدين الواحد، والملة الواحدة، والمذهب الواحد أنها غير قادرة على تحقيق علاقات إنسانية رائعة، تلك العلاقات التي تحدثون عنها، فالحسد والحقد والتقاطع والتدابير والظلم والاستعلاء على الآخر والكيد كله نجده في الدائرة الإيمانية الواحدة.

الجواب: وما يردُّ هذا الاعتراض هو أننا لا ندعي بأن الانتماء الاسمي للدين قادر على خلق الواقع الصحيح على الأرض، وأن الدين يعمل في صناعة أوضاع الحياة والإنسان بعيداً عن إرادة الإنسان نفسه.

فما نراه هو أن الدين بعقيدته ومفاهيمه ورؤاه وأحكامه وأخلاقيته وتربيته وقيادته للحياة، يُضاف ذلك إلى استجابة الإنسان له، قادر على أن يعطي أكبر النتائج الإيجابية على مستوى صناعة الإنسان، وأوضاعه، وعلاقاته الإيجابية الراقية المتميزة.

الدين ليس فاعلاً حياً مريداً ينفذ إرادته الحديدية بقهر، ويعطي النتائج المطلوبة له على نحو الجبر، وعلى معزل من إرادة أبنائه، وإنما يعطي من هذه النتائج بقدر أخذهم به، وتحليلهم بمطالب تربيته.^(١)

العلاقات الإنسانية في الحضارة الطينية

١- على مستوى الرؤية الذاتية.

٢- على مستوى الرؤية القرآنية.

أولاً: على مستوى الرؤية الذاتية

الكلام على مستوى الرؤية الذاتية للحضارة الطينية، وما يمكن أن تفرزه هذه الرؤية من علاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان.

تفرز علاقات من النوع الإيجابي البناء، أم تفرز علاقات من النوع السلبي الذي يحطّم أوضاع الإنسان وإنسانيته؟، ويحول الحياة إلى شقاء؟

١- خطبة الجمعة (١٧١) ٧ شهر رمضان ١٤٢٥هـ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٤م.

الحضارة المادية حضارة تنتهي في نظرتها الكونية للمادة، وتقف عندها على أنها الخالق، والرازق، والمدير، والمنظم، والقائم بالأمر كله.

المادة الجامدة تُرجع إليها هذه الحضارة الخلق والرزق والتدبير والتنظيم، وقيام أمر هذا العالم الضخم.

نظرة الحضارة المادية كذلك، أو أن نظرتها منقطعة عند المادة، ولا تسأل عن قضية الخلق والرزق والتدبير والتنظيم والقيام بمد هذا العالم وإدارة شؤونه.

فإما أن تفلسف هذا العالم المادي بالمادة نفسها، وإما أنها تسكت عن فلسفة هذا العالم، وتصرف النظر عن طلب العلة الأولى له.

وحين يتجه النظر خطأً أو مغالطاً إلى إنكار الخالق الكامل، أو يتغافل عن قضية الإله الحق، فالنتيجة أن لا قيم ولا خلق في ظل هذه النظرة، ولا مسؤولية حيث لا تكليف، ولا بعث، ولا حساب، ولا عقاب وراء هذه الدنيا، وكل القيمة منحصرة في لذتها ومتعتها. وعندئذ يكون الحكم في علاقات الأفراد والفئات والمجتمعات تابعاً لمصلحة الأنا في بعدها المادي القريب، ولذتها الحاضرة.

والمصلحة المادية والأنا المنشدة إليها لا تحترمان أحداً، ولا تشفقان على أحد، ولا تراعيان عهداً، ولا تعترفان بذمة.

المادة جامدة بلا إدراك، ولا شعور، ولا ضمير، والأنا شعور حاد وإيمان شديد بمصلحة الذات.

وإذا كانت الأنا في ظل هذا الشعور الحاد المتقوقع على مصلحتها لا تؤمن إلا بالمادة، وأن لا مسرح لها إلا في هذه الحياة، فهي لا تحرص على شيء، ولا تسابق على شيء غير ما هو مصلحة مادية، ومنفعة وشهوة في هذه الحياة.

وهي مستعدة أن تقاتل على ذلك، وتسرق وتتهب، وتحايل وتخون، وتبيع كل شيء مما يعدّه الآخرون من المقدّسات والشرف والكرامة؛ من أجل أن تترف، وتتبخ، وتتقلب في ألوان المتع واللذائذ في المسافة الزمنية التي تعيشها على الأرض.

فروح الأنا ليست في عمى دائم عن مصالح الآخرين فحسب، وإنما تدفع أسيرها؛ لتحطيم مصلحة الآخر؛ من أجل مصلحة الذات المادية العاجلة، وتحرق كل الآخرين من أجل هذه المصلحة.

الأنا منغلقة على قضاياها ومصالحها وهمومها، وأكثر من ذلك أنها تنفتح بعين العدوان، وتمتد بيد الشر؛ لتغتال مصالح الآخرين، وتستبيح حياتهم ووجودهم لا من أجل أن تبقى فحسب، وإنما من أجل أن تترف وتستطيل على مَنْ تحتاج إلى بقاءه في استمرار مصالحها كذلك.

وروح الأنا بطبيعتها من غرس العدل الحكيم الرحيم في الذات البشرية^(١)، وهي حافظة للنفس عند كل إنسان، ودافعة له لطلب خيره في الدنيا والآخرة.

وشأن هذه الروح شأن ما وهبه الله هذا الإنسان من قوى وطاقات ودوافع.

ونعم يبقى بها سعيداً المدة في هذه الحياة سعادة تطيقها طبيعة الدنيا، ويكمل بها ذاته فيها استعداداً للسعادة الحقيقية الأبدية في الآخرة.

روح الأنا نعمة من الله، ولا تتحول نقمة إلا على يد الإنسان.

وكل نعم الله عند الإنسان تحوّلها الإرادة الإنسانية السيئة نقمة تحطّم حياته، وتنتقل به إلى سوء المصير.

والمنهج المادي المنحرف الفاشل هو الذي ينحرف بكل الطاقات والمواهب والدوافع والنعم عن خطها الوظيفي النافع الكريم الذي يرسمه المنهج الإلهي؛ لتربية الإنسان، وتضييع إنسانيته، وتكميل ذاته.

الله أغدق على هذا الإنسان نعمه، وضمّ إلى ذلك منهجاً تربوياً ناجحاً، فحين يتخلى الإنسان عن المنهج الإلهي لا بدّ أن تتحول النعم إلى أداة شقاء لا سعادة.

١- هذه الذات من غرسها في كيان الإنسان؟

غرسها البارئ العدل الحكيم الخبير سبحانه وتعالى.

فالتربية في المنهج الإلهي تتحرك بالإنسان من روح الأنا في ذاته لمصالحه الحقيقية في الدنيا والآخرة بما يلتقي مع مصالح الآخرين، ولا يتقاطع معها، لأن أي إحسان للآخر يتكفل الله جزاءه حسب الوعي الإيماني والواقع، فلا يضيع إثثار، ولا إحسان، ولا تضحية من أحد لفرد، أو مجتمع بعد هذا الضمان من الله الذي يجزي على الحسنة بأضعافها، ويعطي المحسنين في الدنيا، وفي الآخرة فوق كل ثواب، وكل مكافأة مما يؤمله محسن عملاً.

وما ضحى عبد بشيء من أشياء الدنيا للآخرين في سبيل الله إلا عظم أجره في الآخرة، وكان مردود عمله فوق أمل الآملين.

وإن الإحسان من الإنسان في الدنيا يبني له ذاته في ظل تربية الله.

أنت تسمو وتتكامل من خلال عمل الخير على يدك، وكلما أحسنت، أحسنت لنفسك، لأنك تنشئ في داخلك حب الخير، وحب الفضيلة وتسمو من خلال هذه الممارسة.

وأما الجزاء الإلهي في الآخرة، فهو مما لا أذن سمعت، ولا عين رأت!

ففي ظل هذا الوعي الإيماني لا يبقى عطاء مما تعطيه الغير من غير جزاء، والجزاء المحتوم من الله لمن أحسن عملاً يفوق كل عطاء.

والأخذ بغير حق خسارة كبرى في ظل هذا الوعي، لأنه سقوط للعبد في عين الله، وعاقبته وخيمة في الآخرة.

فروح الأنا في ظل الوعي الإيماني تصنع عدلاً لا ظلاماً، ومحبة للخير لا للشر، واندفاعاً للإيثار لا الأثرة، وتمسكاً بالإحسان لا العدوان.

أما التربية في المنهج المادي، فتنشئ في النفس التقديس للمصلحة المادية الآنية وتركزها، وتأخذ بحب الذات وروح الأنا على خط الصراع الشرس على المصالح المادية

الدنيوية بما يبيح الأثرة، والنهب، والغصب، والفتك، والخيانة، وكل دناءة وعدوان طلباً وحماية للحالة الترفيئة، والموقع الاستكباري، والبذخ المادي المجنون.

روح الأنا في ظل الإيمان تدفع كل إنسان إلى رعاية إنسانيته، وسمو روحه التي يرى فيها معناه الكبير، وقيمتها العالية.

وهذا الاتجاه يجعله مضحياً لا نهائياً، بينما هي في ظل النظرة المادية تدفعه إلى الاقتتال، والاستغلال، واستباحة كل قبيح؛ من أجل أن يكون الأكثر حظاً في هذه الحياة إلى الحد الذي لا يبقى في داخله أي فاعلية لروح رحمة، أو إحسان، أو عدل، أو إنصاف.

خلاصة

وبكلمة موجزة: إن وعي الإيمان يفتح بروح الأنا على رعاية مصالح الآخرين، ونظرة الطين تفتح بروح الأنا على نهب مصالحهم، وامتصاص دمهم.

ثانياً: على مستوى الرؤية القرآنية

١- ماذا تقول الرؤية القرآنية عن علاقات تنشأ في ظل الرؤية المادية؟

الكلام في الآية التي سأقرأها عن الفاسقين، والفاسقون جماعة خرجت عن تعليم الله، مالت عن خط السماء، ارتبطت بالأرض، تكلست مشاعرها مع الأرض:

- ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.^(١)

ماذا يعطي الفسق؟

ماذا يعطي الكفر من نتائج عملية في ساحة الحياة؟

عهد الله موثق، مؤكد في العقول، في الفطر، في النفوس، ليس عهدًا مكتوبًا على ورق.

عهد معجون بالفطرة.

عهد مكتنز في الذات.

عهد مختلط بالدم.

عهد تتشرب به كل المشاعر الفطرية عند الإنسان، وتحمله الدوافع المعنوية في ذاته.

هذا العهد أبقى عهد بعد نقضه؟!

من نقض هذا العهد، ماذا تساوي العقود المكتوبة على الورق عنده؟ لا شيء.

فإذا، هي حضارة نقض العهود، والتَّكْرُّ للذِّمِّم، والخلف بالوعد، والخروج على الشرط، وحضارة هذا أولها لا يمكن أن تقوم فيها علاقات إنسانية صحيحة.

﴿يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، الكامل يأمر بوصل ماذا؟

بوصل ما فيه كمال الإنسان، بما هو عدل، بما هو حق، بما هو صلة رحم، بما هو رعاية حقوق، وهذا كله مقطَّع، كله مبعثر في حضارة المادة.

حضارة المادة ترمي بالعدل جانبًا، تدوس الحق، تقطع الرحم، تبتتر العلاقة الإيجابية الصحيحة بين الإنسان والإنسان.

وما هو الناتج المترتب على ذلك بعد نقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل؟

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، خاسرون في ذواتهم.

وخاسرون في الحياة الدنيا.

وخاسرون في الحياة الآخرة.

مجتمع الشقاء، ذلك المجتمع الذي تبنيه النظرة المادية، وشقاؤه هنا قبل أن يكون في الآخرة.

وتجدون أن فساد الدنيا كله من فساد الإنسان: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...﴾^(١).

٢- وماذا عن المنافقين والمنافقات وهم إخوة الفاسقين والفاسقات؟

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).
والمنكر ما ينكره العقل، والفطرة، والدين القويم.

والمعروف ما يحتضنه العقل والفطرة والدين القويم، وهؤلاء يأمرُونَ بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم.

الكافر قد يدفع من ماله، ولكن إما أن يدفع من منطلق تجاري، وإما يدفع من منطلق اضطراري، وإما يدفع إعلامًا، وإما يدفع تحت تأثير دافع آخر ليس هو الدافع المادي.

فقد تدفعه بقية فطرة في داخله، أو تسرب تعليم ديني إلى نفسه من بيئته لأن يبذل شيئاً في سبيل الآخر.

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ مركز السوء، مركز الفساد، منطلق الفساد في العلاقات وتحطم العلاقات، وسوء العلاقات هو أنهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣)، وليس أنسى لله من الاتجاه المادي.

١- الروم: ٤١.

٢- التوبة: ٦٧.

٣- التوبة: ٦٧.

٣- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.^(١)

وفرعون كافر مادي.

والحضارة المادية الكافرة فيها فرعون المتعالي كذباً وزوراً، وطرفٌ آخر وهو طرف
المستضعفين.

الاستكبار والاستضعاف يلزمان الحضارة المادية بأنانيَّتها المقيتة.

لا بدَّ في هذه الحضارة من استكبار من فئة قليلة طاغية، واستضعاف
للملايين.^(٢)

١- القصص: ٤.

٢- خطبة الجمعة (١٧٢) شهر رمضان ١٤٢٥هـ، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤م.

الباب الخامس

أسس السياسات الدفاعية والأمنية في النظام الإسلامي

فلسفة القوة

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾^(١).

الإسلام يطالب أمة الإسلام ببناء قوة ضاربة، ولكن لا للعدوان، وأنت تفهم أن هذه
القوة ليست عدوانية من قوله تعالى في الآية اللاحقة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

إذا كانت هناك قوى مادية ضاربة عدوانية في الأرض تتهدد الإيمان، وتستضعف
الإنسان، وتهاض منهج الله، وتعمل بالفساد والإفساد في الأرض، فلا بد من أن تكون
لدولة الإيمان قوة ضاربة في مواجهة تلك القوة؛ لتردعها عن عدوانها.

أما حال أن يجنح الآخرون للسلم، وتنتهي عدوانية الطرف الآخر، أو يرى منه الجدد
في الميل إلى السلم، وأنه يأخذ بروح السلم في مواقفه، فإنه لا داعي للاستمرار في بناء
القوة، بما يحول المسألة إلى عبث، ويشجع على الصراع. وسباق التسليح.

ولا بد للأمة الإسلامية حينئذ أن تأخذ بالسلم، لأن الأصل في الأمة الإسلامية أنها
أمة السلام والأمن والازدهار في الأرض.

١- الأنفال: ٦٠.

٢- الأنفال: ٦١.

القوة الاقتصادية

يوسف عليه السلام في خطابه لملك مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١).

يوسف النبي عليه السلام يتقدم؛ لشغل وزارة المالية - إذا صحَّ التعبير -، لحفظ الاقتصاد المهدد بسبب سنوات القحط التي كانت تتهدد مصر، وذلك لأنه يتوفر على ما لا يتوفر عليه الآخرون من كفاءة علمية، وأمانة ﴿... إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ...﴾ شديد الحفظ، شديد الأمانة، وشديد العلم، والعلم المناسب هنا هو علم الاقتصاد.

العلم الذي يفيد؛ لتسلم أمانة المال، وإدارة خزانة الدولة، وحمل الحقيقة الاقتصادية هو أي علم؟

ليس علم القيم، وعلم الأحكام الشرعية فحسب، وإنما علم الاقتصاد كذلك. وكان التمكين من الله سبحانه لنبيه في الأرض أجراً لوفائه بعهد ربه وإحسانه. وهذا التمكين رحمة من الله، وهو قوة يسعى الدين؛ لتوفر المؤمنين عليها، ويقدم منهجاً ناجحاً؛ لتحقيقها.

وأي قوة، وأي غنى وفرض عريضة في الدنيا لا تقف بطموح المؤمن عن خير الآخرة الذي لا يعدله شيئاً في ميزان الله.

وقيمة القوة والثراء وكل النعم في هذه الحياة لا تتم ما لم توظف من أجل الآخرة، ولا تكون كذلك ما لم يستعن بها على بناء الذات، وتقويم عوجها، ومعالجة نقصها.

القوة السياسية

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾^(٢)، وهو ذو القرنين.

١- يوسف: ٥٥-٥٦.

٢- الكهف: ٨٤.

هذه قوة تجسدها السلطة السياسية الثابتة المتجذرة تدعمها قوة المال، والعلم، والإدارة الحكيمة، والعقل القادر، والجند المطيع... وهي قوّة يضعها الإيمان والعلم في صالح الإنسان، ويصوغ منها أوضاعاً قديمة، وذاتاً راقية تجد نفسها على طريق كمالها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١)، هذا التكرير في كلمة ﴿بَرَكَاتٍ﴾ للتعظيم.

وهذه (البركات) المنتزلة من السماء والأرض، والإثراء الاقتصادي، وغيره ليس نتيجة غيبية محضة لمنهج الإيمان والتقوى، فإنّ هذا المنهج معبأً بقدرة هائلة على إعطاء هذه النتيجة التي لا تكون إلا بإذن الله.

فهناك ترابط بين المنهج الإلهي المنتزل على الإنسان، وبين هذه النتائج، فلا نحتاج إلى أن نذهب إلى أن هذه النتائج تتم لمن طبق هذا المنهج بصورة غيبية، وإنما نفس المنهج قد جعل من الله وَجَّهًا قَادِرًا على تحقيق هذه النتائج وإن كان لا يتم شيء في الوجود ابتداء واستمرارًا إلا بإذن الله.

الضَّعْفُ وَالاستضعاف مرفوض

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا...﴾^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٣).

١- الأعراف: ٩٦.

٢- النساء: ٧٥.

٣- النساء: ٩٨-٩٨.

حالة الاستضعاف مرفوضة، والاستسلام إليها مرفوض، والمستضعف يتحمل مسؤولية الخروج من أسر هذه الحالة ما استطاع، والمجتمع الصالح يتحمل مسؤولية مواجهة الاستضعاف.

والحق أننا أمام واقع كبير لتجربة الإسلام على يد رسوله الكريم ﷺ، ونصوص غفيرة من الكتاب والسنة لا يدع أحدهما شكاً في أن الحضارة الإيمانية حضارة القوة لا الضعف، والنهوض لا الركود على مستوى صناعة الإنسان، وصناعة أوضاعه الخارجية. هذا سيل من الآيات الكريمة فضلاً عن الحديث الكثير يتحدث عن أمة القوة، وعن دولة القوة، ويطلب أمة الإسلام بأن تكون قوّة قادرة.

القوة بين حضارة المادّة وحضارة الانسان

وكل من حضارة الإيمان والإنسان، وحضارة المادّة والطّين تهدفان إلى تحريك قضايا القوة الخارجية على الأرض، ولكن بفوارق بينهما منها بصورة مختصرة:

١- قوّة مع عدل، وقوّة مع ظلم

عدل اجتماعي تقيمه حضارة الإيمان يقوى ويسعد به المجتمع كله، وظلم وطبقية اجتماعية على أكثر من صعيد تنشأ حضارة الطين، وتحول القوة إلى سوط عذاب على الجميع؛ على الطبقة الغنيّة، وعلى الطبقة الفقيرة بشرح لا يناسبه المقام، وذلك لما تشيره الروح المادية من أثره فاحشة من جانب وحقد دفين من جانب آخر، وكما يقتل الفقر أصحابه، يقتل الترف أصحابه!

٢- قوّة هادفة، وقوّة هدف

حضارة الإيمان تدفع إلى بناء القوة، ولكنها القوة الهادفة، والهدف هو بناء الإنسان الصالح، وبناء الأوضاع الإنسانية الصالحة.

أما الحضارة المادية، فهي تدفع إلى بناء القوة، وتشيد قوة على الأرض؛ قوة اقتصادية أو عسكرية - مثلاً -، ولكن تبقى هذه القوة هي الهدف، وتستهلك حياة الإنسان، وتستنزف كل طاقاته؛ لتكبر القوة، ويصغر الإنسان، ويتحول إلى خواء.

٣- حضارة تؤسس لسقوطها

حضارة المادة تثير الصراع داخل إطارها بما ينسفها نفساً على خلاف حضارة الروح.

لو فرغ الجول حضارة المادة، فإنها تقيم القوة لكن لا تبقى، وإنما لتحدث صراعاً مريعاً داخل إطارها، وتلهب تصارع القوى، وحرب الطبقات حتى تسقط هذه الحضارة. أما لو خلا الجول لحضارة الإيمان، فإنها تبني قوة؛ لتبقى.

ويبقى المجتمع مجتمع الأخوة، ومجتمع الصفاء.

نحن نتكلم عن تربية مادية للمجتمع، وبناء قوة خارجية في إطار القيم المادية، وفي جانب آخر عن بناء قوة مادية في إطار القيم الإلهية.

والحديث عن بناء الحضارة الإيمانية لقوة الأوضاع الخارجية فيه تصحيح لتفكير المؤمن، وشعوره، وموقفه العملي لو ذهب به تصور أو شعور شاذ إلى أن يقبل الضعف لأوضاع مجتمعه من منطلق إيمانه.^(١)

وفيه إبطال للدعوى الزائفة بأن الدين أفيون الشعوب، والدعوة الكاذبة الأخرى التي تقول: (ما لله لله)، بمعنى: الصلاة والصوم وأمثالهما فحسب، (وما لقيصر لقيصر)، بمعنى: إن له أن يفعل في البلاد والثروة والعباد، ويقرر ما يشاء من دون تدخل للتشريع الإلهي، أو رعاية لموازين الدين، وفيه إفشال لمحاولات الانتفاف على حقوق الناس، وتخدير مشاعرهم بدين مكذوب يسمح بالتهب والسلب، أو الخمول والسلبية، وتضعف المجتمع المسلم.^(٢)

أهمية الشباب في بناء القوة السياسية

إنَّ شباب الأمة محتاج إلى تحصين تربوي إسلامي بصورة دائمة وواسعة، وتزويدهم بالبصيرة الكافية على كل الصُّعد، ومنها الصعيد السياسي حماية له من استغلال

١- فهناك مَنْ يذهب بجهله إلى أن يربط بين الإيمان وبين الضعف والاستسلام للفقر، أو للظلم، أو لغيرهما، فهذا شعور شاذ يجب أن يُصحَّح.

٢- خطبة الجمعة (١٦٩) ٢٣ شعبان ١٤٢٥هـ، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤م.

الأعداء بما يؤدي به إلى أن يكون وقود معارك يخطط لها العدو، وتجري على أرض الإسلام بعناوين مختلفة، وهدفها الفتنك بالإسلام والمسلمين، وقطع الطريق على عودة الأمة إلى إسلامها ووحدتها وهو أخوف ما تخاف منه قوى الشر والطغيان في العالم، لما في ذلك من تهديد لوجودها الظالم، وقطع يد النهب والغصب لثروات المسلمين، ويد السلب للكرامة والعزة والاستقلال لأمتنا المجيدة.

ولأهمية تربية الشباب المسلم - من الجنسين - التربية الإسلامية الواعية الراقية، وأثرها البالغ على حاضر الأمة ومستقبلها يحرص الكفر العالمي اليوم، وتستجيب له سياسات كثيرة في بلاد المسلمين على فرض الهيمنة الظالمة على مراكز الوعي والتربية والإمداد الروحي والفكري في وجود المسلمين حتى تأتي الأجيال الشبابية من صناعة التربية الكافرة في أرض المسلمين الطاهرة.

ويصر الكفر هذه الأيام، ويتعاقد مع حكومات في العالم العربي والإسلامي على أن تزوّد بالعقول المتميّزة؛ لتصنع هناك على منأى من الإسلام، وفي أجواء جاهلية الكفر المظلمة.

ويأتي من هؤلاء الشباب والدارسين من يحارب فكر الأمة وهويّتها، ويستهدف مصلحتها؛ من أجل مصلحة الأجنبي.

هناك من ينجم من شبابنا العزيز - وإن عاش في تلك الأجواء، ويعدّ من نفسه من خلال النصب والتعب والمجاهدة - بطلاً من أبطال هذه الأمة، ومنقذاً من منقذها، ولكن الكثيرين يسقطون تحت وطأة التخطيط والهندسة التربوية المضلّة^(١).

المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف

الإسلام دين القوّة الصالحة، ولا يرضى من أهله إلا بأن يملكو ناصية القوّة وأسبابها، وأن تكون هذه القوّة على يدهم للخير والإصلاح.

١ - خطبة الجمعة (٣٧٤) ٣ رجب ١٤٣٠هـ، ٢٦ يونيو ٢٠٠٩م.

والعلم النَّافع قُوَّة يفرض الإسلام طلبها على المسلمين؛ ليكونوا هم الأقوى، وليكونوا عُمَارًا للأرض مصلحين.

وَمَنْ أراد لأمته أن تعزَّز، وتستقلَّ، وتستعيد حقوقها، وتملك إرادتها، وتتمتع بكرامتها فلا بُدَّ أن يبذل قصارى جهده في طلب العلم.

ولا تقوى دنيا النَّاس إلا بعلوم من علوم الدُّنيا النافعة التي تبنيتها، ولا يقوى دينهم إلا بعلوم من علوم الدِّين التي تُعرِّف قيمته، وتحافظ على أصالته، وتحميه من تسلُّ الخرافة، وتُجنِّبه الوضع الكاذب، وتسمح بتطبيقه، وإعطائه النتائج الكبيرة المترتبة عليه.

وتُخلف الأُمَّة عن علوم الدُّنيا تخلف لها فيها، وتخلفها عن علوم الدين يفصلها عنه، وينتج أن تُعاديهِ^(١).^(٢)

منهجية العزَّة ونبذ الذُّل

- ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.^(٣)

وهذه الذُّلة في التعامل مع المؤمنين ليست ذُّلة انحطاط، وإنما هي ذُّلة لين ورحمة وعطف وتواضع، ولذلك جاء قوله تعالى ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يأتِ «أذلة للمؤمنين»، فالمؤمن - دائماً - يعيش العزَّة؛ عزَّة الإيمان، وعزَّة الكرامة بالصلة بالله تبارك وتعالى، وليس من مؤمن بموقع العبد ولو للمؤمن الآخر، ولكنه يتعامل معه من موقع الإيمان، ومن موقع العطف الذي يفرضه الإيمان والرحمة بين المؤمنين يتعامل معه وكأنه الدليل بين يديه تواضعاً لا ضيعة، في الوقت الذي تملأ نفسه عزَّة الإيمان، وكرامة الإيمان، ولا تدخله روح الانسحاق أمام أي مخلوق من المخلوقات بما هو ذلك العبد، أو ذلك الشيء الممكن الذي لا يملك نفعا ولا ضرا لنفسه، فضلا عن غيره.

١- «الناس أعداء ما جهلوا». كما جاء عن الإمام علي عليه السلام. نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٢.

٢- خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ، ١١ يونيو ٢٠١٠م.

٣- المائدة: ٥٤.

- «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْمَنِيَّةَ قَبْلَ الدُّنْيَا، وَالتَّجَلُّدُ قَبْلَ التَّلَبُّدِ»^(١). (٢)

الحديث يطرح أن المنية قبل الدنيا؛ فحين يكون الخيار إما عيش ذل وهوان وانحطاط، وإما أن يقبل الإنسان المؤمن الموت، فالموت مقدّم في خيار المؤمن على عيش الذلّة والمسكنة بما هو ذلّ ومسكنة، وهذا لا ينفي الأحكام الشرعية التي تتصل بموضوع الشهادة، وبموضوع الإقدام على الموت وضوابطهما.

ولكنّه من الواضح جدًّا أنَّ الأُمَّة حينما يكون خيارها إما أن تقبل بالذلّة والهوان والانحطاط وأن تُعامل معاملة العبيد، وإمّا أن تُضحّي؛ من أجل حريتها وكرامتها وعزتها، فهنا المطلوب من المؤمنين أن يعملوا على استرداد الكرامة والعزّة من دون أن يستسلموا لمسألة الذل والهوان.

وأرجع لأقول: بأن هذا يخضع لميزان الشرع الدقيق، ولا يرجع إلى اجتهادات الأفراد العاديين.

«والتَّجَلُّدُ قَبْلَ التَّلَبُّدِ»، الأصل في المسلم والمؤمن والجماعة المسلمة والمؤمنة هو الحركة التغييرية الناشطة التي تعمل على إعادة الحقّ إلى نصابه، وتصحيح أمور الدنيا والدين، ووضع كل الأوضاع على الطريق السالك لله سبحانه وتعالى، وهو طريق العدل والكرامة، لكن قد تأتي ظروف القاهرة، والسؤال هل للظروف القاهرة أن تُعطي للمؤمن اختيار حالة جمود تامة؟

وهل التَّلَبُّدُ الذي قد يأتي في بعض الظروف يعني التوقّف التّام عن حركة البناء؟

ما نعرفه عن سيرة الأئمة عليهم السلام والأنبياء والرُّسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أنَّ التَّلَبُّدَ يعني: استبدال أسلوب إلى أسلوب آخر، وأنّه بدل أسلوب المواجهة من غير استعداد لا بدّ أن يبيّن الناس أنفسهم وأوضاعهم حتّى يستطيعوا أن يدخلوا المواجهة بصورة متكافئة، أو قريبة من المتكافئة.

١- ولبد، وألبد بمعنى: أقام بالمكان والتصق.

٢- بحار الأنوار ج ٧٤ ص ٢٨٤.

أما الجمود واللَّجْء إلى هامش الحياة، وإلى منطقة خارج الحياة؛ ليشهد الشخص، أو لتشهد الجماعة على نفسها بالموت، فهذا مرفوض من فهم الدين القويم.

الرسول ﷺ كانت له مرحلتان في الدعوة: مرحلة السِّر، وعدم المواجهة، وبناء الجماعة، والعمل على رفع مستواها، ثمَّ مرحلة الدعوة الجهرية، وتحمل أعباء المواجهة. فالمسلمون غير مطالبين - اللحظة مثلاً - أن يدخلوا حرباً عالمية مع الكفر، لكنهم مطالبون وبصورة حتمية أن يبينوا أنفسهم، أن يطلبوا أسباب القوة، أن يعملوا على توفير كل الاستعدادات التي تفتح لهم إيمان باب المواجهة الاختيارية مع الكفر العالمي لا ليظلموا، وإنما ليقام العدل مقام الظلم في الأرض، ويقود العلم والهدى حركة الإنسان بدل أن يقودها الجهل والضلال.

- ويأتي هذا الحديث عن علي عليه السلام: «ساعة ذل لا تقي بعزَّ الدهر».^(١)

يقول أحدها: إنني أقبل حالة الذل والهوان والانسحاق لساعة، أو ليوم، ولكنني من خلال هذه الساعة سأغني! في الفقر ذل، وأمامي طريق مفتوح؛ للتخلص من الفقر بأن أقبل الآناف، بأن أقول الكلمة المتملقة الكاذبة، بأن أنسحق ساعة واحدة أمام كبرياء الآخر، من أجل أن أخرج من ذل الفقر ولكن علياً عليه السلام يقول على نحو القلب في التعبير: «ساعة ذل لا تقي بعزَّ الدهر»، والمعنى: إن عزَّ الدهر لا يساوي ذل ساعة، فلا تقل: بأنني اشتري عزَّ الدهر، وأتسلق إلى الموقع الكبير، إلى المال العريض من خلال ساعة ذل واحدة.^(٢)

- لما عبأ عمر بن سعد أصحابه لمحاربة الحسين عليه السلام، وأحاطوا به من كل جانب حتى جعلوه في مثل الحلقة ...، فقام الحسين عليه السلام، ثم قال: «ألا وإنَّ الدَّعيَّ بن الدَّعيِّ قد ركز بين اثنتين بين القلَّة^(٣) والذلَّة، وهيهات ما آخذ الدَّنيَّة، أبا الله ذلك ورسوله،

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ - الصفحة ٩٨٢.

٢- خطبة الجمعة (٣٢٧) ٢٤ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، ٣٠ مايو ٢٠٠٨م.

٣- القلَّة: قلَّة العدد.

وفي بعض النسخ (السَّلَّة).

وجدد طابت، وحجور طهرت، وأنوف حميَّة، ونفوس أبيَّة، لا نُؤثر مصارع اللثام على مصارع الكرام...»^(١).

مصرع اللثيم في ذاته، ولُبُّ روحه، ومعناه وإنسانيته، أما مصرع الكريم فموضوعه جسدٌ من لحم ودم، أما الروح عنده، فتعيش أقصى لحظة التعالي حين مصرع البدن، وتصل إلى قمة مجدها في تلك اللحظة.

الذِّلَّةُ على أكثر من ضرب

- هناك ذِلَّةٌ شخصيَّة لا تمسُّ دين الله في صورته العامة بسوء.

- وذِلَّةٌ أخرى تصيب الدِّين بالوهن.

- وثالثة ذِلَّةٌ دنيا تُحافظ على كرامة الدين، أو على مصلحة المؤمنين، وتكون تضحية بسمعة الدنيا؛ من أجل دين الله تبارك وتعالى.

الذِّلَّةُ الأولى: مثالها أن يطلب الإنسان المباح كزواج من امرأة، ولكنه من أجل ذلك لا يُبقي ولا يذر من وسيلة تذلل واسترضاء، وبذل ما لا يصح له بذله من نفسه وإن لم يكن يمسه دينه... إلخ إلا وأخذ بها، تجده يتوسل بالكلمة المهينة، بالسعي الذي يحطُّ من قدره في النَّاسِ توصلاً لهذا المطلب أو أمثاله، وإن لم يصل الأمر في هذا البذل وهذا التذلل إلى ما يُصيب دينه، ويخلق كارثة لدينه، وهو من الذِّل الذي لا ينبغي ولا يليق بالمؤمن إلا أن يترفع عنه، وأن يطلب معالي الأمور، وما يليق به من الرغائب وبالوسائل اللائقة.

الذِّلَّةُ الثانية: الذي فيها مهانة الدِّين، أن نجد رجلاً يحمل سمة الدِّين وعنوانه، ويمثِّل في قلوب النَّاسِ رصيِّداً ضخماً للدين، ويملك موقع تقدير واحترام في أوساط الأمة المتديِّنة، وإذا به يقبِّل الأناف والجباه، ويتضعضع، ويستكين، ويهن أمام سلطان من السلاطين؛ من أجل حطام دنيا، أو ما إلى ذلك.

هذا ذلٌ يُسَجَّلُ وهنا على دين الله في نفوس المؤمنين، وقد يسقط قيمة الدين عند قسم منهم.

ما أبشع هذه الصورة من الذل، وأشدَّ خطرها!!

وربما يتجاوز الأمر ذلك، وهو أن يُطلب منه التبرّي، وربما جاز التبرّي على مستوى الكلمة حين الاضطرار الخانق، لكن هذا العرض حينما يكون على أكبر فقيه في الأمة، وعلى شاشة التلفاز، لو جرت الكلمة السطحية على لسانه انهزم الدين في نفوس الناس بانهزامه وهان، وذلت الأمة، فعليه أن يتحمّل القتل من دون أن تجري الكلمة ولو كاذبة على لسانه.

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾^(١)، جاءت في حقِّ عمّار عليه السلام كما هو المروي، حيث قال كلمة الكفر تحت ضغط التهديد بالقتل، ولم يخطئه القرآن الكريم؛ لا اضطراره، وعدم جدّية كلمته، واطمئنان قلبه بالإيمان.

لكن لم يكن عمّار في الموقع الذي كنّا نتحدث عنه قبل قليل، والذي تتسبّب مثل هذه الكلمة بلحاظه في هدم قيمة الدين، وتوهينه في نفوس المؤمنين.

وهناك الذل الذي ضاق به صدر حجر بن عدي، وأصحاب له في موقف الإمام الحسن عليه السلام من الصلح، وكم تحمّل الإمام الحسن عليه السلام من لوم وتجريح، وتناولته ألسن المخلصين، فضلاً عن الألسن المغرضة، والإمام الحسن عليه السلام فوق كل الذين ناصروه إباءً، وإباء الإمام الحسن عليه السلام يجعل الصلح عليه أمرٌ من القتل، لكن لما كانت المصلحة الإسلامية حسب ما رأى تقتضي الصلح، فقد صالح، وسليته الإمام الخميني (أعلى الله مقامه) قد تجرّع كأس الصلح كما يتجرّع كأس السمّ، أو أشدّ مرارة في حرب صدام ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية!

فَالذُّلُّ عَلَى ضُرُوبٍ، وَيَأْتِي الْقَوْلُ عَنِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمَا مَعْنَاهُ - : « الْمَوْتُ أَوَّلَى مِنَ الْعَارِ »، لَكِنْ « الْعَارُ أَوَّلَى مِنَ النَّارِ »^(١)، الْعَارُ السُّطْحِي، الْعَارُ الشَّكْلِي، الْعَارُ الدُّنْيَوِي، الْعَارُ فِي نَظَرٍ غَيْرِ الْمَلَمِّ بِالْدِّينِ، وَمَصَالِحِ الدِّينِ.

الْعَارُ الشَّخْصِي الَّذِي يَنْقُذُ الدِّينَ، وَالَّذِي كَانَ فِي مِثْلِ مَوْقِفِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَى مِنَ النَّارِ.

الْإِصْرَارُ مِنَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْحَرْبِ، وَفِيهَا الْقَضَاءُ عَلَى الثُّلَّةِ الْمُؤْمِنَةِ، وَالْقَضَاءُ عَلَى ذِكْرِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِيُدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ الْكَلِمَةُ السَّيِّئَةُ مِنْ جَاهِلٍ، أَوْ مَغْرُضٍ رَغْمَ خَسَارَةِ الدِّينِ الْفَادِحَةِ الْقَاضِيَةِ فِيهِ ارْتِكَابُ النَّارِ دَفْعًا لِلْعَارِ، وَهُوَ لَيْسَ خِيَارَ الْمَعْصُومِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الصِّلَحُ كَانَ فِيهِ إِنْقَادُ الدِّينِ، وَكَانَ فِيهِ الْعَارُ الشَّخْصِي الدُّنْيَوِي السُّطْحِي؛ وَعَلَيْهِ جَاءَ تَطْبِيقُ « الْعَارِ أَوَّلَى مِنَ رُكُوبِ النَّارِ ».^(٢)

١- العبارة كما نقلها ابن طاووس هي: «القتل أولى من ركوب العار، والعار أولى من دخول النار»، اللهوف في قتلى الطفوف - السيد ابن طاووس - الصفحة ٧٠.

٢- خطبة الجمعة (٣٢٨) ٢ جمادى الآخرة ١٤٢٩ هـ، ٦ يونيو ٢٠٠٨ م.

أسس الحرب والسلم

لا حرب للغنائم الدنيوية

هل يشن الإسلام حرباً من أجل التوسع الجغرافي؟، من أجل آبار النفط؟، من أجل الثروة؟، من أجل الغنائم الدنيوية؟

تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾^(١)، فلا حرب من أجل عرض الدنيا، لا حرب من أجل الغنائم الدنيوية.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخَرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وبغضب تقول الآية الكريمة الأخرى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

لا تعطش للحرب

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤).

وقد يجنحون للسلم، ولكن قد يلامس النفس شكٌ في جدية ما أظهره من الجنوح لها، فما الموقف؟ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

١- النساء: ٩٤.

٢- الأنفال: ٦٧.

٣- الأنفال: ٦٨.

٤- الأنفال: ٦١.

٥- الأنفال: ٦٢.

الاحتمالات الضئيلة بمراوغة العدو، وطلبه الصلح؛ للاستراحة، واسترداد القوة ينبغي أن لا يكون مانعاً من قبول السلم المعروض، لكن قد تقوم قرائن جدية على محاولة نقض العدو للعهد، وأنه يريد أن ينقض على الإسلام وكيانه، وهذه الحالة تعالجها الآية التالية: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾^(١)، فكما ألغوا قيمة العهد من جانبهم، وألقوا به جانباً، فارم بالعهد الذي عاهدتهم به، وانبذه، وتخل عنه معلناً ذلك كما تخلوا حفاظاً على كيان الإسلام، وإثباتاً لحالة اليقظة والوعي والجدية، وحماية للقيم، وأخذاً بالحزم أمام تحايل العدو ومكره.^(٢)

القوة ضرورة لقيام الدولة

فرق كبيرٌ أيُّها الإخوة، بين دين الدعوة، وبين دين الدولة^(٣)، دين يختار لنفسه وظيفة الدعوة فقط، له وسائله وآلياته، أما دين يريد أن يقيم دولة تسحب البساط من تحت أقدام الطغاة، هل يمكن أن يبلغ مأربه بالكلمة؟!

كان لا بد من استعمال القوة من قبل رسول الله ﷺ، ولا ينكر عاقل حاجة الدولة إلى القوة، وكان رسول الله ﷺ يستهدف أن يقيم دولة العدل والسلام العالمي، وعلى طريق إقامة هذه الدولة - دولة العدل والسلام العالمي - مئات الألوف يوم ذاك من الطغاة، وسيأتي الإمام القائم عيسى عليه السلام، ويجد أن ملايين على طريق إقامة هذه الدولة يصدون عنها، ويواجهونها بكل سلاح فتاك.

إذا، كان لا بد من القوة، والقرآن صريح في ذلك: ﴿...وَأَعِدُّوا لَهُمْ...﴾^(٤).^(٥)

أنواع الحروب.. وحكمها في الإسلام

الإسلام عنده حرب.

١- الأنفال: ٥٨.

٢- خطبة الجمعة (٣١٨) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٩هـ، ٢٨ مارس ٢٠٠٨م.

٣- المقصود دين الدعوة والدولة.

٤- الأنفال: ٦٠.

٥- خطبة الجمعة (٨٠) ٤ شعبان ١٤٢٣هـ، ١١ أكتوبر ٢٠٠٢م.

ولا بدَّ أن يكون عند الإسلام حرب، وليس ديناً واقعياً دين لا يقر أصل الحرب ولو اضطراراً، ولنصرة الحق والعدل، ولكن الحرب في الإسلام أنواع:

- هناك حرب مشروعة لا بدَّ منها: ﴿وَإِنْ نَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ...﴾^(١).

والتفتوا إلى من هم أئمّة الكفر: فهم الذين يقودون الحركة العدوانية على الإنسان، وهم الذين يواجهون الدين الحق، ويحولون بين الناس وبين حقوقهم في اتّباعه.

وقتل أئمّة الكفر لا بدَّ أن يتطلب قتال الجيوش التي سخروها في مواجهة الحق، والإنسان، ومن أجل العدوان الشامل والاستعباد: ﴿فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾^(٢)، والمطلوب هنا إنهاء الحالة العدوانية، التأديب لنقض العهود؛ من أجل أن تقرر الأسس الحضارية الصالحة والتي لا قوام لحضارة الإنسان في الأرض، ولا لاستمرار المسيرة الإنسانية بدونها: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.

- ﴿لَا تَقَاتِلُوا قَوْمًا نَّكُتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٣).

لا يجري عند أي مجتمع عقلائي أن يُهجم عليك، ويريد الآخر تصفيتك، وإلغاءك وتقف أنت مكتوف اليدين لا تحرك أمام العدوان ساكناً.

- هناك حرب الإكراه على الدين، والآية الكريمة صريحة في نفي هذه الحرب، وبحسب التعليل لقضية عدم الإكراه فيها، فإنّها غير قابلة للنسخ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾^(٤).

١- التوبة: ١٢.

٢- التوبة: ١٢.

٣- التوبة: ١٣.

٤- خطبة الجمعة (٣١٨) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٩هـ، ٢٨ مارس ٢٠٠٨م.

أهداف حروب الإسلام

١ - حماية الدَّعوة، والدُّود عن حدود الدولة

بدأت حرب المشركين، وطفاة الأرض في مكَّة، من الذين كانوا يذيقون المستضعفين أشدَّ ألوان العذاب، ويستغلُّون الإنسان حملتهم الشرسة ضدَّ رسول الله ﷺ لأوَّل ما سمعوا بالدعوة، واستمر الاضطهاد والملاحقة في مكَّة وخارجها، وحتى بعد قيام الدولة في المدينة استمرَّت المؤامرات والمواجهات، وتجميع الأحزاب والسَّعي الحثيث؛ من أجل القضاء على الإسلام.

دعوة من رسول الله ﷺ قابلتها حرب.

رسول الله ﷺ قَاتِلْ، وَقِتَالُهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: قَاتِلْ حِمَاةً لِلدَّعوة، وَذُوْدًا عَنْ حُدُودِ الدَّولة، هَذَا أَمْرٌ.

٢ - تحرير الإنسان

وأمر آخر: وَقَاتِلْ - أَيْضًا -؛ لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ.

رُبُّ أَهْلِ مَكَّةَ هُوَ رُبُّ أَهْلِ أَمْرِيكََا، وَرُبُّ دَوْلَةِ الْفَرَسِ وَالرُّومِ يَوْمَ ذَاكَ، فَالدَّعوة الَّتِي جَاءَتْ؛ لِإِنْقَاذِ الْعَرَبِ هِيَ نَفْسُهَا جَاءَتْ؛ لِإِنْقَاذِ كُلِّ شُعُوبِ الْعَالَمِ، فَكَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْضِدَ عَلَى النَّاسِ الْإِسْلَامَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ.

فَإِذَا مَا وَقَفَ الطُّغَاةُ أَصْحَابُ الْمَصَالِحِ وَالْأَرْبَابِ الْمَزِيْفُونَ يَحُولُونَ بَيْنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَبَيْنَ أَنْ يَسْمَعُوا كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، وَنِدَاءَ اللَّهِ كَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْطُمَ قَاعَةَ الشَّرِكِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا كُلُّ اضْطِهَادٍ، وَكُلُّ اسْتِعْبَادٍ، وَكُلُّ اسْتِغْلَالٍ وَنَفْعِيَّةٍ، وَكُلُّ خُلُقٍ وَضِيعٍ.

وكان عليه أن يوقظ شعوب العالم من جهتين: من جهة العقيدة الفاسدة والواقع المر الذي كان يفرضه الطغاة في الأرض، وأنت إذا سألت: بأيَّ عنوان يتحرَّك بوش الآن في حرب البلاد الإسلامية؟

سيقول لك: إنه مسؤول خلقياً عن حماية الإنسان والوضع البشري، وأن هناك محوراً للشر في الأرض، وما لم يسقط محور الشر سيبقى الشر!!

الله ﷻ ورسوله يقولان: هناك محور شر؛ وهي فكرة الإلحاد، فكرة عبادة الوثن، إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، هذا المحور من الشر لا بد أن يُطارد فكراً، ولا بد لمن يحميه ويبقيه؛ ليقيم منه قاعدة إفساده وظلمه وبغيه في الأرض أن يواجه حرباً من الإسلام.

كان هذا الفكر الذي جعل رسول الله ﷺ يحارب الطغاة في الأرض، ويرسل إلى كسرى، ويرسل إلى امبراطور الروم.

٣- الحرب ضد الإرهاب

حرب الرسول ﷺ فعلاً هي حربٌ ضدَّ الإرهاب.

كانت الحكومة للسيف، وللقوة الباطشة، وكانت الحضارة - فيما تقوله قصة الحضارة - شجرتها في الغرب منحورة تترنح، ولم يبق سبب من الأسباب الموضوعية في الأرض ممّا يبشر باستمرار الحضارة، وبعودة عافيتها، فجاء رسول الله ﷺ؛ ليقضي على السبب الرئيس الذي ينخر في شجرة الحضارة: فرعونية الفراعنة، وطاغوتية الطغاة.

ودائماً كان الطغاة والفراعنة يتكئون على فكرة الشرك والإلحاد؛ ليقيموا من أنفسهم أرباباً من دون الله، فتخضع لهم الرقاب، فرسول الله ﷺ جاء يواجه الإرهاب، ويواجه الاستغلال، ويواجه التجهيل، ويواجه الإضلال، وواجهه بالكلمة، وأصرَّ على استمرار المواجهة بالكلمة حتى اليأس، حتى أن رسول الله ﷺ إذا تواجه الصفان: صفُّ التوحيد، وصفُّ الشرك، في القاعدة لا يبدأ القتال إلا بعد الدعوة للإيمان، وبعد طرح الحجة.

٤- محاربة محور الشر

هناك محور شر بتشخيص الله ﷻ، وتشخيص رسوله، ومحور الشر هو محور الشر، محور الطغاة، محور الفراعنة لا محور المستضعفين، فإذا ما جاء تشخيص من بوش لمحور الشر، فذاك تشخيصه، أما تشخيص الله ﷻ، فيقول: بأن فراعنة الأرض وطفاته والذي يصدر عن الإرهاب إلى مختلف القارات، ويهددون بكل سلاح فتاك، ويعيشون في الأرض فساداً، ويحدثون في الشعوب النقلة بعد النقلة إلى الهاوية في الفكر، وإلى الهاوية في الأخلاق أولئك هم جبهة الشر ومحور الشر، وكان على رسول الله ﷺ؛ لتستقيم الأوضاع في الأرض، ولتؤدي الأرض دورها المكتوب لها من الله، وليقوم الإنسان بدوره الخلافي في الأرض، كان لا بد لرسول الله ﷺ من أجل ذلك كله أن يواجه محور الشر، ويقضي على الإرهاب.

وهل يمكن القضاء على الإرهاب بالكلمة فقط؟

إذاً، لماذا يتحرك الغرب الآن بأفتك الأسلحة باسم محاولة القضاء على الإرهاب؟^(١)

وجوب تحرير المستضعفين

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.^(٢)

لا نقرأ من الآية الأولى شرعية القتال؛ لأنقاذ المستضعفين المضطهدين من حكومات الجور، ولا التدخل في شؤون الدول الأخرى للإصلاح فحسب، بل تواجهنا الآية بالوجوب؛ لإحقاق الحق.

نعم لا بد من النظر إلى أمور أخرى تكون في طريق فعلية الوجوب، ولا تثبت الفعلية

١- خطبة الجمعة (٨٠) ٤ شعبان ١٤٢٣هـ، ١١ أكتوبر ٢٠٠٢م.

٢- النساء: ٧٥-٧٦.

بدون أن تتوفر هذه الأمور.

نقرأ تخلص المستضعفين من ويلات المستكبرين؛ ليحيوا إنسانيتهم الكريمة، ويتنفسوا أجواء الإيمان، ويتمتعوا بحريتهم اللائقة، ولا يُظلموا حقوقهم، ولا تسرق جهودهم.

والقتال من أجل ذلك من القتال القيمي الرفيع المقرون بالقتال في سبيل الله، بل هو فرد مؤكد عليه من أفراد.

الفرق بين القتال الإيماني والقتال الاستكباري

إنَّ الذين آمنوا وهم يقاتلون؛ لإنقاذ المستضعفين من قبضة المستكبرين، لا يقاتلون لأغراض استكبارية، ولا استبدال استكبار محل استكبار آخر، وإنما قتالهم وتضحياتهم في سبيل الله، ومن أجل تصحيح الوضع الإنساني في الأرض، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل بكل صوره، وحتى يكون التحرر من العبودية للعباد، ولا يخضع جبين إنسان إلا لله العلي العظيم الذي لا عزة إلا في صادق العبودية له.

إذا قاتل الذين كفروا وإنَّ كان باسم إنقاذ الشعوب، ومحاربة الدكتاتورية، ونشر الديمقراطية كما يقولون؛ فإنهم لا يقاتلون إلا في سبيل الطاغوت، وتركيز الطاغوتية، ومن أجل الاستكبار في الأرض، وتوسُّعًا في الفرعونية، واستعبادًا للشعوب، واستنزافًا لخيراتهما، ولزيادة الفساد في الأرض، وتدمير إنسانية الإنسان، وأسرته من داخله فضلًا عن أسر الخارج، والمأسور للطاغوت فكرًا ومشاعر؛ ذاته منسحقة ساقطة دونيةً بالكامل.^(١)

كل حرب لا تخدم الإنسانية، لا تُقيم العدل، لا تتمشى وأحكام الشريعة الإلهية، لا تُرضي الله سبحانه، فهي خاطئة وخاطئة.

كل حرب تشنها الطاغوتية العالمية، والاستكبار العالمي؛ لإذلال الشعوب والأمم،

والسَّيطرة على الثروات، والتحكُّم في مصائر الدول هي حروب ظالمة، ومُدانة، ومن أكبر ألوان الفساد في الأرض.

وقد واجهت أمتنا الإسلامية في مدَّة وجيزة، ولسنوات معدودة أكثر من حرب من هذا النوع بدوافع مادية، وتوسُّعية، وطاقوتية سافرة، وبأسباب مُفْتَعَلَة.

والأمة اليوم أكثر وعياً من أيِّ يوم مضى، وجماهير أمتنا اليوم على فطنة تامة بالأهداف الخبيثة لأيِّ حرب تشنُّ على أي بلد من بلدان هذه الأمة.

وكلُّ جماهير الصحوة الإسلامية في طول البلاد الإسلامية وعرضها ترى أنَّ أيِّ حرب تشنها قوة عدوانية على أي قطر من أقطار هذه الأمة هي حرب على الأمة كلّها، وتعني الأمة بكاملها، ورفضها لها على حدِّ رفضها لضربها هي، ولتهديم منازلها على رؤوس أبنائها.^(١)

الحرب المدرسة

الحرب التي تتحول مدرسة للهدى، وللتصحيح، ولتخريج الأجيال الواعية الكريمة هي الحرب التي تنطلق من الإيمان والقيم، وتتمسك بالعنصر الأخلاقي، والهدف النبيل في كل مراحلها حققت نصراً عسكرياً، أو لحقتها الهزيمة.

رافق العنصر الخلقي، رافقت روح الإيمان، رافق الحكم الشرعي وحديته كل حروب الرُّسول ﷺ، ومواقف أمير المؤمنين ﷺ، وموقف الإمام الحسن ﷺ، وموقف الإمام الحسين ﷺ يوم كربلاء.

لا يخرج المعصوم ﷺ عن الحكم الشرعي أبداً.

نعم، يوازن بين ما هو مهم وأهم، وقد يتخلَّى عن المهم إلى الأهم، وليس في هذا مفارقة للحكم الشرعي.

١- خطبة الجمعة (٤٧٨) ٢١ ذو الحجة ١٤٣٢هـ، ١٨ نوفمبر ٢٠١١م.

مَنْ أراد لثورته أن تبقى مدرسة للأجيال، وأن تصحح للأجيال دربها، وأن تكون مرجعاً من مراجع التاريخ المركزية، فليبقَ على الخط الخلقى والإيماني في كل مفردات ثورته وانتفاضته وإلا فهي ثورة لوقت، وانتفاضة ليوم، وتذهب من بعد ذلك هباءً، أو تبقى لعنة على صاحبها.^(١)

وحدة الوطن الإسلامي

أرض الإسلام وطن واحد لا أوطان، فالعراق وطن المسلمين، كل المسلمين، وفلسطين وطن المسلمين كل المسلمين، وأفغانستان وطن المسلمين كل المسلمين، وكل شبر من أرض الإسلام هي وطن لكل مسلم في الفهم الديني، ونحن مع هذا الفهم.

فأمريكا بعدوانها على أي شبر من الأرض المسلمة تعتدي على كل المسلمين، وتستنهض بهذا - لو توفّرنا على الشعور الإسلامي الصحيح - كل المسلمين.^(٢)

إنّ الاعتداء على شبر واحد من أرض الإسلام هو اعتداء على الإسلام كله أرضاً، وإنساناً، وقيماً، وحضارة.^(٣)

مسؤولية الأمة في الدفاع

معركة الدين مع أعدائه معركة الأمة كلها، وليست معركة فئة خاصة، هي فئة المثقفين، أو فئة العلماء.

«هل من ناصر ينصرنا؟»

هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله ﷺ؟

إذا كان الإمام الحسين عليه السلام قد قال هذه الكلمات، إذا استغاثت هذه الاستغاثة،

١- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (١٦٥) ٢٥ رجب ١٤٢٥هـ، ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤م.

٣- خطبة الجمعة (٣٠١) ١٤ شوال ١٤٢٨هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٧م.

إذا أطلق هذا النداء، فهو لا يقول: تعالوا دافعوا عني وعن أهلي!
 وإنما نداؤه: تعالوا دافعوا عن قضيتكم، لأنَّ أول مَنْ يحمل قضيتكم هو
 الحسين عليه السلام، لأنَّ الذين يحملون قضيتكم بكفاءة وإخلاص هم أهل البيت عليهم السلام،
 وبعد أهل هذا البيت عليهم السلام لا مدافع عنكم، ولا يبقى لكم إسلام، تنتهون.^(١)

١- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

الفصل الثالث

القيادة الإسلامية

القسم الأول القيادة المعصومة

دروس من قيادة الرسول ﷺ

تعالوا أيها الإخوة والأخوات، نتعلم من رسول ﷺ .

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. (١)

آيتان في سياق واحد، ثم آية أخرى الثالثة منفصلة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنِّي كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. (٢)

الرسول القائد: يعيش معاناة الإنسان، يفهمه، يقدر مشكلاته، لا ينفصل عن

همومه.

همه يتسع لهموم الناس كل الناس.

تلك الهموم الحقّة، تلك الهموم البناءة.

يستحيل عليه أن يكيد بإنسانية الإنسان، وبمصلحة الإنسان.

يستحيل عليه أن يهمل أي خطوة تقع على طريق إنقاذ الإنسان أي إنسان، أو لم

يكن رحمة للعالمين؟ وكيف يكون رحمة للعالمين وصدره يضيق عن رحمة بإنسان؟ وكرمه

يضيق عن بذل ما في الوسع ممّا ينقذ الإنسان؟!

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾. (٣)

١- التوبة: ١٢٨-١٢٩.

٢- الحجرات: ٧.

٣- التوبة: ١٢٨.

والخطاب في ﴿عَنِتُّمْ﴾ ليس لخصوص المؤمنين، إنما يدخل في الخطاب المنافقون، والمنافقون قسم من الكافرين، بفرق إظهار الكفر وإبطانه.

والعنت: المشقة، ويعزُّ على رسول الله ﷺ أن تشقَّ حياة الإنسان، أن تركب المركب الصعب، أن تسوء الحالة الاجتماعية في المجتمع البشري، الحالة الروحية، الحالة الاقتصادية، الحالة السياسية، الحالة النفسية.

هذا على مستوى المجتمع البشري بكامله.

وإنَّه ليصعب على رسول الله ﷺ أن يرى مجتمعاً يعيش الضياع في بقعة من بقاع الأرض قربت أو بعدت، وأن تتردى حياته.

ذلك الرسول العظيم يحمل الإخلاص للإنسان، ويصعب على نفسه الشريفة أن يتعذب إنسان، وأن يسقط، وأن يلحقه ضرر دنيًا أو آخرة.

تهُمُّه مصلحة الإنسان كل إنسان، يهمله حاضره ومستقبله ومصيره، وتخطيط ذلك الرسول ﷺ، وجهده منصب على تخليص البشرية وإسعادها قربة لله ﷻ وهو معبوده الوحيد الذي لا يشرك به أحدًا.

وبذلك يكون الرسول ﷺ في أفقه الواسع مؤهلاً لقيادة العالم، أما الهم المنتوقع، والشعور الحبيس في الإطار القبلي، أو الإقليمي، أو الفئوي، أو القومي، أو العنصري، أو المذهبي، فيسلب صاحبه صلاحية القيادة الشاملة.

وما تقدم يجمله قوله عز من قائل ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾^(١)، والمخاطب هو نفس المخاطب السابق.

أما الذين يدخلون تحت قيادة الرسول ﷺ مسلمين راضين، متبعين، وهم المؤمنون، فتتعمق في نفسه الطاهرة، ومشاعره الكريمة، ومواقفه المسؤولة بهم الرأفة

والرحمة، فيكون الأب الروؤف، الرحيم: «يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة»^(١) - كما في النقل -.

الآية الكريمة تقول: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)، وهي صيغة مبالغة.

والرسول القائد قوي، لا يهزه الموقف السلبي والجايء، ولا التخلي والانسحاب من الآخرين أعداء كانوا أو أصدقاء، ذلك أنه يستمد قوته وثقته وإصراره من إيمانه بالله، من علاقته الوثيقة بربه، ومن يقينه بكفايته.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣).

ذلك التوكل، ذلك الاكتفاء بالله يستحيل معه أن ينحدر الرسول ﷺ عن خط الله تحت أي ضغط، كان ضغطاً من أعداء أم كان ضغطاً من أصدقاء، كان ضغطاً من دولة الطاغوت، أم كان ضغطاً من رأي عام.

إنه ملتزم الخط الإلهي اللاحب القويم، لأنه ليس في نفسه عظيم غير الله.

زبدة الدرس: لا ثقة بقيادة إلا أن تكون على خطى قيادة الرسول ﷺ.

نسأل: على أي خط تجد الأمة شيئاً من هذه القيادة؟

لن تجد هذه القيادة على حجمها وسعتها، أو ما يقرب منها، ويلتصق بها في غير المعصوم.

لكن على أي خط تجد الأمة شيئاً من هذه القيادة؟

وأي أمة يمكن أن تجد اليوم نوع هذه القيادة؟

وهل تفتش الإنسانية عن قيادة أكفأ وأمن وأهدى من هذه القيادة؟

١ - الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٧٥٥ - تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم - الطبعة:

الأولى - سنة الطبع: ١٤١٧هـ - الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

٢ - التوبة: ١٢٨.

٣ - التوبة: ١٢٩.

وَمَنْ سَيَقْبِذُ الْإِنْسَانِيَّةَ غَيْرَ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْقِيَادَةِ - سواء كان إنقاذاً جزئياً أم إنقاذاً كلياً - ٩

كلما كانت القيادة قريبة بدرجة ما مَنَّ وصفت الآيات الثلاث، كانت القيادة الرشيدة المؤمَّلة، وكلما بعدت القيادة عن هذا الخط كلما قادت إلى ضلال، وكلما أوقعت في التيه.

والرسول القائد ﷺ لو جامل وتابع رأي المسلمين غير المعصومين في كثير مما يطرحون، ويقترحون، ويرون لوقعوا في الأضرار الفادحة، والهلاك المدمر، وكانت رحمة من الله بالمؤمنين أن ارتفع بهم لطفه إلى مستوى الرشد، وذلك أن حَبَّبَ لهم الإيمان، وزَيَّنَ في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فصاروا بوصفهم أمة لا أفراداً، يطيعون الرسول ولا يعصونه، ويأخذون بأوامره، وإن كان منهم من يجانب الصواب، ويتجاوز في موقفه على رسول الله ﷺ بصفة كونه فرداً.

والنتيجة: إن محمداً بن عبد الله الرسول القائد ﷺ قيادة أعدائها الله، ووَقَّرَ لها كل الضمانات الكافية؛ لتحمل الأمانة الكبرى، وهي أمانة تربية الإنسان بكل مستوياته، وأخذها على خط الله سبحانه وتعالى.

وقابل ذلك في الواقع الخارجي من الأمة المسلمة بما هي أمة، وليست بما هي ذلك الفرد أو ذلك الفرد، قابلت تلك الكفاءة طاعة ونصرة، وعدم إيذاء واتهام، وذلك ممن آمن بقيادته ورضيه رضا حقيقياً، وسلم إليه تسليمًا.

ولن تكون قيادة المعصوم، ولا تستحق قيادة أخرى ثقة كالثقة التي يستحقها المعصوم، ولكنه الدرس الذي يجب أن تتعلمه الأمة، وتستفيد منه، وتتعلمه الإنسانية كلها وتستفيد منه، وأن عليها أن تطلب أوصافاً في أي قيادة من الأوصاف التي حددها القرآن الكريم، وألا تعطي ثقة في أي قيادة إلا بمقدار مخزونها من تلك الصفات.^(١)

الخلاصة

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١)، قيادتكم الله، قيادتكم رسول الله، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يجلي قدره، ويعظم شأنه عن معاشة الناس في أحوالهم المعيشية كوجود يروونه بحسهم على الأرض، وكان رسول الله ﷺ قد انتقل إلى جوار ربه، فإن هناك قيادة بعده، هي قيادة المعصوم، والمعصومون عليهم السلام لم يتركوكم في فراغ ولفراغ، دلوكم على القيادة.

إن لم تكن هذه القيادة تمتلك موقع القيادة الفعلية التي تتمتع بكل الإمكانيات، فإنها قيادتكم ومرجعكم في الفتوى، وفي إعطاء الرأي السياسي فيما يجوز وفيما لا يجوز، وفيما يصح أن يؤخذ من الأجنبي وما لا يصح أن يؤخذ من الأجنبي.

هذه الصفة ضرورية، ومنها تنتطلق كل الصفات وهو أن هذه الكتلة، هذا الصف، هذا البناء، يطيع الله، ويطيع رسوله ﷺ، طاعة رسول الله ﷺ على مستويين:

- طاعة على مستوى التعبد بالتشريع الآتي عن طريقه.

- وطاعة تتمثل في تلقي أوامره التنفيذية الإجرائية، وهي الأحكام الولائية، تلقي بقبول وتسليم ورضا.

وهذا أمر ينسحب على منصوب رسول الله ﷺ، ومنصوب رسول الله هو أمير المؤمنين عليه السلام، والأحد عشر من بعد عليه السلام، وينسحب على منصوب الإمام المعصوم، وقد نصب الإمام المعصوم في النص عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وفي النص عن الإمام القائم عليه السلام: الفقهاء العدول، الصائتين لدينهم المخالفين لهوهم الذين لا يأخذون إلا بما قام عليه الدليل، وأنه من حكم الله.^(٢)

القيادة المعصومة هي قيادة للعالم كله

الوظيفة الأم للإمام الشرعي، لا تختلف فيما عدا تلقي الوحي عن وظيفة الرسول ﷺ، وتتركز في تكميل البشر، وتربيتهم تربية إلهية رفيعة في كل أبعاد

١- التوبة: ٧١.

٢- خطبة الجمعة ١٤ بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ، ٦ يوليو ٢٠٠١م.

الحياة، ووضعهم على المسار العباديِّ الواصل إلى الله سبحانه، وهو الصراط المستقيم. وتولي الشأن السياسي، وتصريفُ أمور الأمة بعدُ من الأبعاد التي تقع على طريق التكميل والتربية الشاملة، والنهوض بمستوى الإنسان الذي يُسأل عنه الإمام، ويجب الانقياد إليه من أجله.

فخطُّ الولاية لحفظ الإسلام، والنأي به عن الخطأ والتحريف في الرأي والتطبيق، وصناعة الإنسان على ضوءه، ولوحدة الأمة واستقلاليتها، وعزُّها، وكرامتها، وسبقها.

وهوبما يُمثِّل من نقاء الإسلام، وحقانيَّته، وربانيَّته، وانفتاحه على المصالح الحقيقية لكل الشعوب والأقوام، لا بدَّ أن يكون من أجل الأخوة الإنسانية العامة، والعدل في كل النَّاس، والتربية القويمة لكلِّ العالم، والسُّلم والأمن الشامل والكامل.

فأطروحة الولاية بريئة من الضيق، والشُّحِّ والأنانيَّة والانغلاق، من التعصب الأعمى، من الصراع على المصالح الدنيوية، من الاستعلاء والاستكبار، من الحقد والانفعالات العدوانية كما هي براءة الإسلام، وطهره، ونقاؤه.

وكما أنَّ أزمات الأمة والعالم راجعة في أصلها إلى الانفصال عن هذا الخط، فكَذلك لا يتم اعتناق العالم من أسر أزماته إلا بالعودة إليه.

وما كانت الأرض تشهد ما تشهده اليوم من حكم الهوى والفساد والفوضى والاضطراب لو حفظت وصية رسول الله ﷺ في وليِّ الله، والخليفة الحق بعد الرسول ﷺ كما في موازين الكتاب، وضوابط السُّنة.

وعندما يتحقق النصر لمهديِّ الأمة، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وتشرق الأرض بضياء الإسلام، ونور ربِّها على يديه الكريمتين بفضل الله العظيم، سيتبيَّن الناس مدى ما جنوه على أنفسهم، وما ضيعوه من هدى، وما خسروا من فلاح بتعطيلهم دور بيت النبوة، والرسالة، والإمامة كل هذا الوقت الطويل.

وعندئذٍ ستتحقق الدنيا أنَّ الإسلام بلا حدود أرضية، وأن ولاته الحقيقيين لا شرقيُّون ولا غربيُّون، ولا مكِّيُّون، ولا مدنيُّون همًّا وأفقًا وسعةً ورحمة، وإنما هم للعالم كله، والإنسان على إطلاقه؛ لإنقاذه، سلامته، هدايته، رُقْيته، دنياه وآخرته، وأنهم أولى

النَّاسُ بالنَّاسِ، وأشدهم رَافَةً بهم، وحرصًا على أن يبلغوا بهم الكمالَ، وتتحقق لهم السعادة؛ كانوا من بيض أو سود، من شرق أو غرب.^(١)

قيادة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام

هذا البيت بيت قيادة عالمية، وقد احتضن اثني عشر قيادة إلهية عالمية، يرتبط مصير العالم في سلامة خطه الحضاري، واستقامته على الدرب، وسعادته أو شقائه دينيًا وآخره بما عليه نوع علاقته بهم مودة ومحبة، أو بغضًا وقلبي، متابعة أو مقاطعة، طاعة أو عصيانًا، فإنهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو منهم، وهم الإسلام والإسلام هم. والنجاة إنما هي بالإسلام دينًا، وبهم قيادة ارتضاها هذا الدين، ولم يرتض مستوى دون مستواها إلا في حالات الاضطراب التي تعزل المعصوم عن الساحة، ولا يمكن الوصول إليه.

وإذا كانت القيادة الصالحة من دون مستوى المعصوم، والتي يتوفر لها قدر من التكامل والتوافق في شخصيتها يؤهلها لشغل مركز القيادة ولو بدرجة ثانوية مقبولة لا تجود - يعني هذا اللون من القيادة من دون مستوى المعصوم، وهي قيادة ثانوية - لا تجود بها الدنيا إلا بصورة نادرة، أو على رأس فترات متباعدة، فإن القيادة المعصومة المؤهلة؛ لتكميل العالم ووضعه على المسار الصحيح في كل الأبعاد تتمثل في عدد محدود جدًا في العالم من أوله إلى آخره.

وعلى امتداد الزمن كله نحن نقف أمام قيم لا تتكرر دون المستوى المحدود - أيها الإخوة -، ولم يبقَ لهذا العالم وإنقاذه إلا قائد واحد من هذا المستوى فما أعزّه، وما أغلاه، وما أسعد الزمن الذي يشهد ظهوره ونصره وحكومته وإن كان أمره (سلام الله عليه، وأرواحنا فداءه) على أهل الباطل من الأمر الصعب الشديد الثقل.

أنتم أيها الإخوة، إذا أردتم أن تتعرفوا - ولو قليلًا - على مستوى المعصوم، القيادة

١ - خطبة الجمعة (٩٩) ١٩ ذي الحجة ١٤٢٣ هـ، ٢١ فبراير ٢٠٠٣ م.

العالمية المختارة من الله سبحانه وتعالى، فانظروا إلى مؤسسة ثقافية، أو مؤسسة اجتماعية، أو مؤسسة سياسية، وانظروا كم تجدون في مجتمعاتكم لهذه المؤسسة من قيادة أمينة قادرة كفؤة؟، فكيف بقيادة العالم؟، قيادة ليس؛ لإسعاد الناس اقتصادياً، ولا لإسعادهم اجتماعياً فقط، إنما لإسعادهم دنياً وآخره، قيادة تستوعب كل الكفاءات بكفاءتها، قيادة هي قدوة لكل المستويات، لفقهاء الأمة، لفلاسفة الأمة، لعلماء الأمة، للمتجهدين في الأمة، لكل أتقيائها، لكل أهل الإيمان فيها.

إنها قيادة لا يمكن أن يضع يده عليها إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن يصطفها من بين العباد إلا هو سبحانه وتعالى.

فمسار الإمامة مسارٌ ضروري، ومسار أكيد يؤكده القرآن، وتؤكدُه السُّنة، وتؤكدُه الضرورة، وتؤكدُه حاجة العالم المستمرة إلى المعصوم.

وهأنتم تجدون ما هي العذابات، ما هو الشقاء الذي يطغى على هذا العالم، كيف يتمزق العالم؟، كم هو خائف؟، كم هو فقير؟، كم هو جاهل؟، كم هو شارد عن الحق؟ ولن يجمع هذا العالم على الخط اللاحب الصاعد إلى الله إلا القيادة المعصومة المنتظرة (اللهم عجل فرجه، وسهل مخرجه).

إنهم قادة بعد الوفاة!

انظروا وقد مضى أكثر من عشرة قرون على الأئمة (صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين) ممن توفوا، والقيادة المنتظرة مُغيّبة عن السّاحة، لكن أهل البيت عليهم السلام لهم حضورهم القوي الفاعل في القلوب، ومن خلال الملايين التي تؤم مشاهدتهم، فتتعلم منهم البطولة، وتتعلم منهم الإيمان، وتشفى بهم القلوب والأرواح، ويتخرج الإنسان من خلال خمس دقائق يلتقي معها بضريح الإمام المعصوم عليه السلام مستوى جديداً في روحه، وفي فكره، وفي توجهاته، وفي طموحاته، عزيمته، وفي إرادته.

ها هم الأئمة عليهم السلام يصنعون الأجيال الصامدة، الأجيال الفولاذية التي لا تتنازل عن إيمانها ذرة، والتي تأخذ على نفسها أن تواجه كل الاستكبار العالمي عند الضرورة، دون أن تتخلى عن إسلامها، وعن ارتباطها بالله وكتّبه، هكذا هم الأئمة.

إنَّهم أحياء.
إنَّهم قادةٌ فعليون، وسنبقى مرتبطين بهم، وبخطهم الكريم الذي لا يقصد إلا إلى
الله سبحانه وتعالى.

إنَّهم صنَّاعُ أُمَّةٍ لا طلاب حكم

صحيح أنَّهم يطلبون الحكم وسيلة، ولكن أين غايتهم؟، وأين الحكم؟
غايتهم تتجاوز الحكم بمسافات هائلة شاسعة لا يملك لها الإنسان حدًّا.
إنَّهم - كما سبق - يحاولون أن يرتفعوا بالأرض، بكل ذرة في هذه الأرض التي تسبَّح
باسم الله سبحانه وتعالى.

أنَّ يرتفعوا بهذه الأرض، بكل ذرة فيها، بكل إنسان عليها، بكل شيء يسكنها.
أنَّ يرتفعوا بها إلى الخط الصاعد إلى الله سبحانه وتعالى، ويضع المسيرة
الحضارية كلها على خط الله سبحانه وتعالى؛ لتهدى، ولترشد، ولتستقيم، ولتعيش
أمنةً، ولتطمئن، ولتغنى، وتثرى على كل المستويات.

إنَّهم جاءوا؛ ليصنعوا الأُمَّة، ليصنعوا البشرية، الصناعة التي لا تستطيعها
أطروحة غير الأطروحة التي ارتبطوا بها، وبشروا بها، ولا تستطيع أن تصنعها قيادةٌ
غير قيادتهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

نعم، بهم بعثت الإنسانية بعد أن كانت مواتًا، أو شبه موات.
ليس في الجزيرة العربية فقط، وإنما في كل العالم، كان كل شيء إلى انحدار، كانت
الإنسانية تترنح؛ لتسقط في الحضيض.

كانت شجرة الحضارة - كما يعبر أحد الغربيين - منخورةً، وربما قصد إلى
أقصى حد.

بلى شجرة الحضارة كانت منخورةً إلى أقصى حد، ولم تبقَ إلا صباية كصباية
الإناء في كل العالم وتسكب هذه الصباية؛ لينتهي العالم بكل معانيه الرفيعة، وينحدر
عن الخط نهائيًّا؛ لينتهي، ليهلك ويذوب.

جاءت رسالة رسول الله ﷺ؛ لتبعث الإنسانية من جديد، وحين غاب أهل البيت ﷺ كثرت الفوضى، وحين شُرق بالسفينة وغُرب بها عن خط أهل البيت ﷺ، اضطربت الأرض، واضطرب أهل الأرض ولا زال أهل الأرض في اضطراب وقلق وفزع وهو إلى ازدياد، حتى يأتي سليل رسول الله ﷺ قائم آل محمد؛ لينقذ السفينة من جديد، وليكون ربّانها القدير الذي لا تتعرض معه السفينة إلى الغرق، ولا إلى الضلال والتّيّه، سيضع السفينة على الدرب اللاحب الصاعد إلى الله درب سعادة الإنسان دنياً وآخره، هم أولئك أئمتك (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

نعم عاشوا - دائماً - في مواجهة الامتحان، وكانوا أكبر منه، قولوا لي: أي إمام ﷺ لم يعيش المحنة؟

لم يواجه الصعوبات؟

لم يبتل بحكم ظالم؟

لم يبتل بالشدائد؟

وأي موقف سجل على أحد الأئمة ﷺ انهزاماً؟، الساحة العلمية الفكرية؟، الساحة السياسية؟، الساحة الاجتماعية؟، الساحة الاقتصادية؟، السلوك الشخصي داخل المنزل؟، في الساحة العامة؟

لم ينقل التاريخ - أبداً - عنهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أن موقفاً من المواقف - وإن صعب، واشتدّ - سجل على أحدهم (صلوات الله وسلامه عليهم) فشلاً، أو ميلاً عن الحق.

تأريخهم، واقعهم يعلمنا أن للأمة أهمية، وأن للفرد أهمية، وأن من الأفراد ما يكون أمة، ولولا أولئك الأفراد الذين واحداهم أمة، أو نسبة معينة وإن ضوّلت من مستوى الأمة، لما بقيت مقدسات، ولما بقيت قيم، ولما بقيت للأرض سلامتها واستمرارها.

فهناك أفراد، الفرد منهم به حياة الأمة، قادتهم الفقهاء، لو انقطع سلك الفقهاء جيلاً أو جيلين لانتهدت هوية الأمة، لانمست الأمة مسخاً كاملاً، لضلّ الناس، لتاهوا.

لا يوجد عندنا معصوم غير الإمام المنتظر عليه السلام، ولكن الفقهاء في مجموعهم وفيما يجمعون عليه من خط الله وَعَلَى، وليس في الأحكام الفرعية، الفقهاء الموجودون - أقصد - حين يجمعون، تجمع كلمتهم على رأي واحد، ففي الغالب في الأكثر - إن لم يكن دائماً - أن هذا الرأي هو رأي الدين، ولا يكاد يضل رأي الفقهاء جميعاً عن رأي الدين، ولستم واجدين أي فئة في المجتمع ترقى إلى مثل هذا المستوى وفيها مثل هذه الضمانة أبداً.

فاعرفوا قدر فقهاءكم، وارتبطوا بخطهم، فهم النواب نواب إمامكم المعصوم عليه السلام، وأئمة أهل البيت عليه السلام، هم الذين اختاروهم لكم، وأوصوكم بهم، وأوصوهم بكم.^(١)

حراس الأمة

هناك بعض الفئات المبدئية في كل عصر، وكان آل علي عليه السلام كذلك - أي هم الفئة المبدئية دائماً في الحقيقة - لا يقدمون دنياً ربما تكون على دين، وكانوا حراساً أمناء على الفكر الإسلامي، والأطروحة الإسلامية النقية.

وقد لا يشتغلون بمقاومة الحكم، ولا يستهدفون إسقاطه، ولكن لا يرضون أن يختلط ما هو دين وبما هو دنيا في أذهان الناس، وهؤلاء في العادة ضحية الانتهازيين والنفعيين ممن يريدون أن يقتاتوا عن طريق الملق الرسمي، إذ يقدمون على تلك الفئات إلى الحكم صورة مفرعة تتهدده بأفدح الأخطار.

وما أضر فئة المقتاتين، أصحاب الزور على كثير من الأنظمة والشعوب!^(٢)

من ثمرات قيادة الأئمة عليه السلام

لا نعرف كثيراً من الأئمة عليه السلام للظروف القاهرة التي كبّلتهم، ولكن يكفي أن نعرف منهم أنهم أخرجوا هذه المدرسة النورانية مدرسة أهل البيت عليه السلام، وأوجدوا نخبها وتيارها الجماهيري الكبير العملاق من المؤمنين والمؤمنات.

١- خطبة الجمعة (٣٠) بتاريخ ٩ شعبان ١٤٢٢هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠١م.

٢- خطبة الجمعة (٤١) ٢٧ شوال ١٤٢٢هـ، ١١ يناير ٢٠٠٣م.

يكفي أن نعرف أنهم أخرجوا ذلك من بين فرث ودم، فرث الحكم الفاشم والقبضة الحديدية الطاغية، فرث القرارات الأرضية التي تكبل الدين وتقيده وتغله، فرث السلطة القائمة على الهوى، ودم العلماء الذين يبيعون دينهم بثمن بخس، أو يدفعونه مجاناً بغير ثمن!

ذلك الفرث والدم الذي يصعب أن يخرج من بينهما لبن خالص يغذي الناس، تغذي به النفوس، تغذي به العقول، تهدي به النفوس، تسمق به الهمم، تستقيم به الإيرادات. هذا اللبن الخالص خرج بإذن الله على يد أوليائه (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) من خلال جهد جهيد لا نراه، ومن خلال خطط حكيمة، وتدابير محكمة لم يكشف التاريخ إلا عن بعضها.

ما نراه من جهاد الأئمة عليهم السلام، وما نقف عليه من جهدهم هو القليل، وما تكشف من أوراق الأئمة عليهم السلام في التخطيط، والإدارة، والتدبير، والسياسة للمجتمع الإسلامي من موقعهم الشعبي القيادي في دين الله ما تكشف من هذه الأوراق إنما هو النزر القليل جداً، ولكن الأثر يدل على المؤثر، والبصرة تدل على البعير، فهذا الإسلام الصافي النقي، وهذه المفاهيم القرآنية المشعة، وهذه الأجوبة القطعية في أشد المسائل صعوبة، وأكثرها اختلافاً على مستوى العقيدة، إنما نقف عليها اليوم من جهود الأئمة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، هذا الوجود المتنامي هذا النصر الساحق على أمريكا وإسرائيل والكفر العالمي كله شرقيّه وغربيّه من خلال الثورة الإسلامية في إيران المباركة، وهذا النصر الهائل الكبير في جنوب لبنان إنما هو من عطاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، إنما هو من عطاء الطلاب الذين صنعتهم هذه المدرسة، ووعيتها، وإرادتها، وهذاها. ^(١)

معنى الإمامة

الإمامة في نظر فاطمة عليها السلام: «نظاماً للملة» ^(٢)، وكون الإمامة نظام الملة، والملة من معانيها: إنها الدين، هذا يمثل وعياً كبيراً، ولا يستكثر على فاطمة عليها السلام أي وعي كبير،

١- خطبة الجمعة (٩) بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ، الموافق ١ يونيو ٢٠٠١ م.

٢- دلائل الإمامة، ص ١١٣، محمد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

والوعي كل الوعي يستقى منها، والهدى كل الهدى الواصل إلى الناس يمكن أخذه منها. فاطمة عليها السلام تمثل بهذه الكلمة وعيًا ضاربًا في الوعي، وعيًا متقدمًا في الرؤية السياسية الواضحة.

فاطمة عليها السلام تقدم من خلال هذه الكلمة مسؤولية ضخمة تتحملها الأمة في تربية الأجيال على وعي أن الدين دائماً حاضره، مستقبله مربوطٌ بنوع الإمامة في الأمة. ^(١)

الإمامة أصعب امتحان

أمر الإمامة هو أمر صعب مستصعب حقاً؛ ذلك أن وزن الإمامة ثقيل، ومسؤولياتها ضخمة، وأثرها خطير، فإن الإسلام بالإمامة، وحيث لا إمامة بحق لا إسلام بحق.

إنَّ التأهل لها لا تكاد توجد لمثل ندرته ندرة، حتى كان من شأنه أن تجاوزت شروطه كثيراً من المقامات الدينية الرفيعة، والطريق إليه إتمام ناجح لكلمات صعبة من ابتلاء الله سبحانه لعبده، وعبور لتجارب مرّة تمتحن الذات الإنسانية كلّها امتحاناً بالغاً شديداً من صنع ربّه.

وأي ذات إنسانية هي الممتحنة لهذا التأهيل؟

إنّها ذات رسول كبير كريم كما في مثال النبي إبراهيم عليه السلام.

إنَّ قبول الإمامة للإمام الحقّ من أهل التطلع والطموح صعب ومتحدّ للكثير من المستويات الإسلامية العالية، وفيه مرارة بالغة لم يطمئن قلبه بالإيمان، ويخشى الله ويعظّمه، وهو من أبلغ الامتحان لإيمان المؤمن، وفيه منازلة شديدة لعقيدته، وتواضعه لربّه، وحقيقة تسليمه إليه.

إنّهُ الامتحان الذي طرد به إبليس من الرحمة، واستحق به اللعنة، وهو ما خسر به بنو إسرائيل قضية الإيمان في موقفهم من النبي الحق، والرسول الصدق، والإمام الهادي محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله.

وهو ما استشهد به الحسنان عليهما السلام سماً وقتلاً على يد الأمة بعدما سمعت من كتاب

الله وسنة رسوله ﷺ، فيهما ما سمعت من رفعة قدر، وعلو شأن، ووجوب طاعة ومودة، وحرمة أن يتقدم عليهما أو أن يتأخر عنهما، ولزوم متابعة، ومحاولة لحاق.

ولامتحان الإمامة للناس فقدت الشهادات الغفيرة - من الكتاب العزيز، والسنة المطهرة في شأن علي ﷺ ولزوم إمامته - قوة تأثيرها الهائل في نفوس المسلمين، وقوبلت بالاجتهاد.

وها هم المسلمون بكل مذاهبهم ومنهم من تؤلمه ما تعاملت به الأمة مع إمامة أهل البيت ﷺ تكثر بينهم الصراعات، ويستهان بالحرمانات، ويخوضون في دماء بعضهم البعض خوفاً لكون امتحان الإمامة يكبر نفوسهم، ولا يتحملون شدته، فيسقطون في الخطيئة أمام تحدّيه.

وما أكثر المنافسات المتلونة بألف لون في هذا المجال ومبعثها واحد وهو ثقل الحق في هذه المسألة الامتحان.

الإمام بعد النبي ﷺ

وإذا كان لنا أن نتشرف بالحديث عن علي ﷺ؛ فإن القول فيه:

- إن الله وﷻ أوجده رجل المواهب الكبرى بعد الرسول ﷺ،

- وصاغته الرسالة، ورسولها الكريم، وقرآن الله العزيز الحكيم حتى غدا القرآن الناطق بعد المصطفى ﷺ، فكان كتاب الله إمام كل كتاب، وهو ﷺ بعد ابن عمه إمام كل ولي.

- وهو القرآن الناطق؛ لأن:

- عقيدته عقيدة القرآن، فهمه فهم القرآن، رؤيته رؤية القرآن، فقهه فقه القرآن، علمه لا يفارق القرآن، مواقفه لا تحيد عن القرآن، هدفه لا يتباين - أبداً - مع هدف القرآن، إذا قرأت كلماته، مواقفه، كل سيرته قرأت القرآن.

- وإذا بحثت عن الإسلام والقرآن فهماً، وعن ترجمتها العملية، فافراً علياً ﷺ،

فإذا فهمته ووعيته فهمت ووعيت الإسلام في حدود ما فهمت، ووعيت، من الإمام عليه السلام.

- أو ليس «علي مع الحق، والحق مع علي» يدور معه حيثما دار»^(١)؟

الإيمان بالإمام يفتح البركات على العالم

وإذا سألت عن الإيمان المثري للحياة، المنقذ لها، والذي تنزل به البركات في حياة عموم الناس، وتكشف الغم، وهو ما عنته الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) لوجدته عند التأمل إيماناً بإسلام من قرآن وإمام لا يفترقان.

الإيمان الذي تنزل به البركات أي إيمان؟

إيمان بإسلام من قرآن، وإمام لا يفترقان، ولا يتكاذبان، قرآن معصوم، وإمام معصوم يتم على يده تطبيق المنهج الإلهي المنقذ المثري بكل كفاءة ودقة وأمانة.

ففتح البركات لا يأتي جائزة غيبية لإيمان بارد ساكن بلا حيوية أو حركة، ولشيئ اسمه الإسلام من دون أن تتحرك الحياة في خطّه، ولا يأتي نتيجة حركة مضطربة متذبذبة وإن كانت باسم الإسلام والإيمان.

فتح البركات وتدققها ليس أمراً غيبياً محضاً مفصلاً عن جهد الإنسان وسعيه، وعلمه ووعيه، وحكمته ورشده، واستقامته ونزاهته، وتطبيقه للأطروحة العادلة الناجحة في حياته: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾^(٣)، وزارع الشوك لا يجني العنب، والقاعد لا يساوي بالقائم، والجد غير الكسل، والاستقامة غير الانحراف.

نعم، إن الله يضاعف أجر من أحسن عملاً، وينصر من نصره: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٤).

١- بحار الأنوار ج ٣٠ ص ٣٥٢.

٢- الأعراف: ٩٦.

٣- النجم: ٣٩.

٤- الطلاق: ٢.

إنَّ قيادة الواقع، وحركة الإنسانية في الأرض على خطِّ الله، وفي ضوء الإسلام، وطبقاً لقرآنه، وسنَّة نبيِّه ﷺ، وشريعته هو المنتج - بإذن الله - لفتح البركات، وإثراء الأرض بالخير والأمن والهدى والنور والصالح.

وهذه القيادة في أتمِّها هي قيادة إمام لا يفارق الكتاب لا علماً، ولا عملاً.
وما يوم القائم ﷺ الذي يملأ الأرض ثراءً، وخيراً، وقسطاً، وعدلاً إلا يوم القيادة التي لا تفارق الكتاب.

ماذا سيجد في حياة المسلمين يوم ظهور الإمام عليٍّ عليه السلام؟
القائد القرآني الصدق الحق الذي لا يفارق القرآن لحظة.

نفحات من قيادة الإمام عليٍّ عليه السلام

ولنأخذ نقطتين ضوئيتين من سيرة الإمام عليٍّ عليه السلام:

١- كان (سلام الله عليه) شديداً في ذات الله على الانحراف، والتساهل في الدين، وسلوك غير الجادة كان ذلك من مستكبر أو مستضعف، ولا يحابي، ولا يصانع أحداً في مضرة دينه، وغضب ربِّه من قريب أو بعيد، ومن قويٍّ أو ضعيف، ومن خاصة أو عامة.
وإذا حمل (سلام الله عليه) على عُتاة الخلق من أهل البطش والقوة والسلطان حمل شديداً.

وإذا حمل على أخطاء العامة، وتقاعسها عن نصره الدين، وتساهلها في أمره، وارتكابها الجهل حمل شديداً.

وما كان يمنعه مانع وهو المشفق على المستضعفين، المخلص لقضاياهم، المستميت في الدفاع عنهم، المضحي؛ من أجل خيرهم أن يواجه سوء عمدهم، وتقصيرهم بالكلمة الغاضبة، والصوت العالي لردهم إلى الطريق، وإلزامهم سلوك الجادة في الدين، وعدم التعدي عن خطِّ الصلاح والشريعة.

ولقد كان له من الغنى بالله ما يصرفه عن شراء رضا المخلوقين في غضب ربِّه.

٢- الإمرة عنده أقل شأنًا من شسع نعل يخصفه ما لم تحقق حقًا، وتبطل باطلاً.
هذا من جهة.

وهي من جهة أخرى دين تطيح من أجله الرؤوس العظيمة، ويترمل من يترمل من نساء، ويتيّم من يتيّم من صبية وصبايا إذا كانت ستقيم الحق، وتسقط الباطل.
وكلمة حق: إنَّ عليًّا عليه السلام لدين حق خالص، لا غش فيه؛ فمن أخذ بهديه إنَّما أخذ بالدين، ومن زهد فيه إنَّما زهد في الدين.^(١)

التزام خط الإمامة الشرعية

في مقدمة ما تقدّمه كربلاء للأمة المسلمة من دروس: التأكيد على التزام خط الإمامة الشرعية.

ما كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام لسبب أكبر من سبب الانحراف عن الإمامة الشرعية، وهو مستتب لكل الانحرافات في واقع الأمة.

ما كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام لمعالجة الناحية الاقتصادية، أو قضايا آنية، وإن كان علاج كل القضايا في ما استهدفه الإمام الحسين عليه السلام من تصحيح مسار الأمة، والعودة بها إلى خط الله.

من أراد أن يعالج كل قضايا الأمة وأزماتها في العمق، فليعمل على العودة بالأمة إلى الخط الإسلامي الصحيح، وإن كانت المعالجة لأي قضية من قضاياها بدرجة وأخرى مما لا يصح التفريط فيه.

كربلاء تحمّل التأكيد على التزام خط الإمامة الشرعية، والقيادة الشرعية في الحياة الفردية والاجتماعية بكل أبعادها الثقافية والسياسية وغيرها التزاماً غير مشروط بخياراتنا الشخصية.

الإمام الحسين عليه السلام ثورته دعوة إلى مبايعة الخط الشرعي، القيادة الشرعية، والاستنكاف والاستعلاء عن مبايعة أي يد جاهلية.

١- خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠ هـ، ١٠ يوليو ٢٠٠٩ م.

وكل راية لا تدخل تحت راية القرآن، ولا تتقيد بالشرعية الإلهية هي في المنظور الإسلامي راية جاهلية.

والقيادة الشرعية هي قيادة الأطروحة الشرعية، والإمام الشرعي^(١) الذي يعينه الإسلام شخصاً، أو يدل عليه وصفاً.

نعم، لا ريب تتكرر كربلاء على الأمة أن تعطي الاعتراف الشرعي - وأضع خطين تحت كلمة الشرعي - للأطروحات الأرضية، وقيادات أهل الأرض المستغنية عن اعتراف الشريعة بها.

وإن رفض الظلم بأي عنوان كان، وتحت أي شعار، والعمل على رفعه ودفعه، وتصحيح الواقع المنحرف، وترسيخ هوية الأمة، وانتمائها الرسالي عقلاً وضميراً وعملاً، وحماية هذه الهوية والانتماء في مقدمة أهداف كربلاء العظيمة.^(٢)

انعكاسات الالتزام بخط الإمامة

١ - الإيمان بأن انبعاث الأمة الانبعاث الشاملة، وعودة الإسلام إلى موقع الريادة العملية في الأرض، وتطبيقه التطبيق التام العادل، لا ينفصل عن عودة الإمامة الراشدة، على يد المعصوم، وهو المنتظر من آل محمد ﷺ.

فليست تصلح الدنيا في آخرها إلا بما صلحت به في أولها؛ صلحت دنيا الإسلام برسول الله ﷺ، ومنهجه الكامل.

وتصلح الدنيا في آخرها بمنهج الإسلام والمعصومين عليهم السلام، والقائم ﷺ.

قل: صلحت، وتصلح بالمعصومين من المنهج والقيادة.

١ - لا تقل بأنك إسلامي وأنت تستكبر على القيادة التي دلّ عليها الإسلام، أنت مسلم، ولكن أن تكون إسلامياً بالمصطلح السائد الآن، وأنت تحمل راية الإسلام ودعوتك له، وأنت رمز من رموزه، ومثل من أمثله، فذلك ليس صحيحاً ما لم تدعن للقيادة الشرعية التي دلّ عليها القرآن والسنة.

٢ - خطبة الجمعة (٣٠٩) ١٦ محرم الحرام ١٤٢٩ هـ، ٢٥ يناير ٢٠٠٨ م.

والمطروح هنا لا يسقط عن المسلمين واجب التحرك في إصلاح شؤونهم أبداً، بل يفرض علينا الأمل في ظهور الإمام القائم عليه السلام، والتمهيد له أن ننشط أكثر فأكثر، في محاولة إقامة العدل في الأرض.

٢- عدم إمكان الإيمان فكرياً ونفسياً بالنظم الأرضية.

أنت مؤمن بيوم الولاية، يوم الغدير، بإمامة علي عليه السلام، بضرورة الإمامة المعصومة، بالإسلام الكامل، ويترتب على هذا عدم إمكان الإيمان فكرياً ونفسياً بالنظم الأرضية قاطبة، بالنظم الأرضية التي لا تمثل امتداداً طبيعياً لخط الإمامة .

ولكن هذا لا يعني بالضرورة المواجهة العملية؛ بل يمكن التعايش العملي والتعامل السلمي الواقعي مع هذه الأنظمة - إذا لم تعلن حربها على الإسلام، والمسلمين في دينهم ودنياهم -، والتعاون معها في أمور الخير، وبناء مصالح البلاد الإسلامية، وتحسين وضع المسلمين، والدفاع عن حقوقهم وموقعيتهم، وإقرار الأمن والسلام بالقدر الميسور، وكل ذلك بما يوافق حدود الشريعة وأحكامها العادلة.

ولقد ضربت سيرة الأئمة عليهم السلام المثل الحي في الحفاظ على مصالح الإسلام والمسلمين، والتعايش السلمي، وإسداء النصيحة العملية لحكومات لا يرون شرعيتها من ناحية دينية، من دون أن يشاركون في ظلم، أو يعينوا على باطل، أو يقصروا في واجب، أو تجري على يدهم مداينة لا يأذن بها الله سبحانه وتعالى.

فاعتقاد أن الشرعية الدينية مقصورة على خط الإمامة أصلاً وامتداداً لا يعني سياسة المواجهة العملية، أو الخروج من جسم الأمة، أو تكفيرها وشهر السيف في وجهها، وعدم التعاون على الخير مع أي فئة من فئاتها.

ولا بد أن نفرّق بين الشرعية التي تحاول الأنظمة الأرضية أن تكتسبها؛ تقوية لكياناتها، وبين الشرعية الإسلامية المعنوية في لسان الفقه الإسلامي.

فالأولى شرعية بحسب القانون الوضعي، ونظر المؤسسات السياسية العالمية اليوم،

والدول الوضعية، وهيئة الأمم المتحدة مثلاً.

والثانية مقياسها تمشي النظام والمنظور الشرعي الإسلامي في تكوينه وبنيته.

٣- يحرم في ظل الانتماء إلى خط الإمامة تثقيف الأمة بثقافة غربية، أو أي ثقافة أرضية أخرى بديلة، ولذلك جرى ويجري التركيز - دائماً - على إمامة الإمام القائم عليه السلام ^(١).

المنهج العام لسياسة الأئمة عليهم السلام : وحدة هدف، وتعدد موقف

نهج الإسلام في نهج رسوله الكريم والأئمة المعصومين عليهم السلام، ومبادئ هذا النهج ثابتة، وقيمه لا تتغير، وموضوعه الدائم توحيد الله، وعزة الإسلام والمسلمين، والحفاظ على مصلحتهم، أما الأساليب وتشخيص الموقف العملي من الأحداث وطبيعة المواجهة، ولون الجهاد فهو أمر متحرك، والخيارات قد تكون مفتوحة، وقد تحددها الظروف والإمكانات، والأخذ بالأسلوب الموافق لمصلحة الرسالة والأمة يعتمد على الخبرة والحكمة والصدق والإخلاص، والمعصوم هو القمة في كل ذلك، ومن بعده الفقهاء العدول من أهل الخبرة والمستعنيين بأهل الاختصاص، والرسول صلى الله عليه وآله حارب وصالح وهادن، وعلي عليه السلام امتنع عن البيعة أو كرهاً أو قسراً، ثم أشار وأعان بما فيه خير الدين والأئمة، والحسن حارب وصالح، والحسين لم يكن أمامه لمصلحة الدين والأئمة إلا أن يحارب ويستشهد، وكان للأئمة الباقيين جهادهم العقيدي والفقهية والاجتماعي والثقافية والسياسي، وبنواؤهم للكتلة الإيمانية الصالحة، ونشر العلم، والإبقاء على الهوية الإسلامية العامة للأئمة، وإسقاط الشرعية الدينية عن غير حكومة القرآن والسنة.

وكل هذه الخيارات تتنظمها أهداف واحدة، ومنطلق واحد، ورؤية نوعية مشتركة ما كانت تسمح أن يعدو معصوم خيار المعصوم الآخر لو كان ظرفه ظرفه.

فلا تهافت في الإسلام، ولا في خيارات المعصومين عليهم السلام، فكل خيار من خياراتهم

جاء في موقعه المناسب الذي يجعله لا يحمل خطأ، ولا تساهلاً في مصلحة الإسلام والأمة، ولا تخلفاً عن مقتضى الواجب.

المرجعية على نهج الأئمة عليهم السلام

وفي سنواتنا المحدودة وجدنا مواقف متعددة من مجاهدين صادقين، وفقهاء أفذاذ، وجدنا الشهيد الصدر الأول ومكابرته لحكم البعث، وعناده المستमित حتى استشهد، والسيد الإمام وثورته الدامية وتضحياتها الكبيرة، ودولته المباركة ومواجهتها المستمرة لأمريكا والكفر العالمي، والسيد الخامنئي القائد والمرشد للجمهورية الإسلامية والتزامه خط الإمام الخميني بأصالته وإبائه وكبريائه الإيماني، والصدر الثاني وانتفاضته العارمة ضد البعث التي أدت به إلى الشهادة، والسيد موسى الصدر وحركة المحرومين على يده، والسيد عباس الموسوي وصموده وصلابته، والسيد نصر الله ومقاومته ومقارعته لإسرائيل، وحرصه على لبنان موحد تتعايش كل طوائفه ومكوناته في عدل وأمان، والسيد السيستاني وإصراره على خيار الانتخابات مقاومةً لرغبة أمريكا في التأجيل والتسويق والتضييع، وهو مقدمة لوضع الوجود الأمريكي في العراق في وضع سياسي حرج أمام الشعب الأمريكي والعالم، ومن أجل إنهاء حالة العنف الداخلي، وتوحيد الجبهة الداخلية ضد الاحتلال الأجنبي، ومقاومته بالقوة لو أصرَّ على إطالة أمده.

وهذا الخيار اجتمع عليه مجاهدون، قد أبلوا بلاء حسنًا لعشرات السنين في وجه الطغيان الصدامي، تتظمهم تشكيلات سياسية متمرسة ذات خبرة طويلة، وأخرى عسكرية خاضت مواجهات دموية مع الظالم، وأعطت الكثير من التضحيات السخية، مثبتة جدارتها المتفوقة في مواقع الكفاح.

فالخيار لم يأت من خور، أو نقص في الخبرة، أو حب في الراحة، أو لين في القناة، أو وهن في العزيمة، أو استرخاخص لكرامة الوطن، فهؤلاء قوم فوق كل ذلك، وما قدموا يوماً حب الحياة على مصلحة الإسلام.

الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ لِلشَّبَابِ

وأريد من شبابنا أن لا يكونوا يوماً ثوريين غير مستعدين على الإطلاق للمسالمة عند مقتضيها، وفي آخر مواد عين مسالمين غير مهيين أبداً للثورة عند موجبها.
كن ثورياً مستعداً للمسالمة، وكن مسالماً مستعداً دائماً للثورة.

أريد لشبابنا أن يكونوا وهم في قمة الثورية كلهم استعداد للمسالمة إذا اقتضت مصلحة الإسلام، وكلهم تهيؤ للثورة والتضحية وهم في أجواء الدعة والسلم إذا جاء نداء الإسلام، وهكذا كان المؤمنون الواعون الخُلص، والنوع الآخر - وإن كان مؤمناً بالمعنى الأعم - كان يخلق المتاعب للنبي الكريم ﷺ، والأئمة من أهل بيته عليه السلام، ولا زال يفعل ذلك مع القيادات المخلصة على هذا الخط.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٨٧) ٩ محرم ١٤٢٦هـ، ١٨ فبراير ٢٠٠٥م.

مناقشات حول القيادة المعصومة والشورى

سؤال ١: هل للشورى قيمة في إعطاء المعصوم شرعية الحكم؟

والسؤال: الشورى للشرعية، أو التفعيل؟

هل الشورى لكسب المعصوم شرعية الحكم، أو لكسب حكم المعصوم الشرعية؟
أو أنها لتفعيل الحكم؟ بمعنى أن يحصل التعهد من الناس بدعم المعصوم لتفعيل حكمته على الأرض.

الجواب: الآية الكريمة تقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(١).

وهي ولاية قبل البيعة، لأن هذه البيعة إنما أخذ فيها النبي بما هو نبي، والمؤمنون بما هم مؤمنون.

والنبي بما هو نبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم بما هم مؤمنون، وليس مأخوذ في الموضوع البيعة.

وهذه الولاية ولاية مقدمة على ولاية النفس للنفس: ﴿... أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، ومن أظهر معاني هذه الولاية الطاعة، فطاعة النبي ﷺ ثابتة على المؤمنين من جهته بما هو نبي، ومن جهتهم بما هم مؤمنون.

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ^(٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاوَوْكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

١- الأحزاب: ٦.

٢- وأظهر ما تكون الطاعة في الأوامر الإجرائية.

أما أخذ الحكم المبلغ من قبل النبي فهو معتمد كل الاعتماد على التصديق بنبوته.

وعلى الأقل، فإن الطاعة هنا مطلقة للحكم الإلهي وللحكم الولائي.

وينتج من ذلك: إن طاعة الرسول ﷺ في الأمور الولائية ثابتة قبل البيعة، والبيعة لعهد بالالتزام بالطاعة، وهو أمر اختياري تكويناً واجباً شرعاً.

حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١﴾.

الإيمان متوقف على تحكيم الرسول ﷺ في كل الخلافات، وفي كل النزاعات، وفي كل القضايا.

وهذه ولاية واضحة جداً، وغير متوقفة في الآية على البيعة.

سؤال ٢: إذا؛ ما دور البيعة؟

الجواب: قد يقال بأن البيعة سبب من أسباب ثبوت الولاية، أو متمم سبب.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾ (٢).

هذه الآية نفسها دليل ولاية ثابتة بلا بيعة، لأن بيعة الرسول نُزِلَتْ منزلة بيعة الله، فالمؤمن الذي يبايع الرسول إنما يبايع الله، وولاية الله غير متوقفة على البيعة.

ولاية الله التشريعية، وولاية الله في الحكم ثابتة بلا بيعة، فيجب على المؤمنين مبايعة الله لولايته الثابتة سلفاً.

وبيعة الرسول ﷺ نُزِلَتْ منزلة بيعة الله ﷻ، بل هي بيعة لله أصلاً وللرسول ﷺ تبعاً.

هذه البيعة الواجبة على المؤمنين للرسول بما أنها بمنزلة بيعة الله الواجبة عليهم، هل هي بيعة مأمور بها على نحو القضية الكلية - كما يقولون -، أو على نحو القضية الجزئية؟

بمعنى: إنَّه هل جاء الأمر للمؤمنين بأن يبايعوا الشخص الذي يحمل مواصفات تنطبق على الرسول، فيكون الرسول أحد الذين يدخلون تحت المأمور بمبايعته؟ أو أنَّ الأمر متَّجه إلى المؤمنين بمبايعة الرسول مباشرة؟

١- النساء: ٦٤-٦٥.

٢- الفتح: ١٠.

الأمر هنا متجه إلى مبايعة الرسول مباشرة مبايعة هي بمنزلة بيعة الله وَعَلَى الواجبة.

ولا تجب البيعة إلا لمن كانت له الولاية سلفاً إما بأن يكون متوفراً على وصف المأمور بمبايعته، وإما كان هو المخصوص بوجوب البيعة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هنا مخصص بوجوب البيعة.

فولاية شخصه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثابتة قبل البيعة.

فينتج بعد هذا: إن ولاية المعصوم غير متوقفة على البيعة أصلاً.

ما تقدم هو المعصوم قبل الحكم والشورى، والآن يجري الكلام عن المعصوم ما بعد الحكم والشورى.

سؤال ٣: ما المراد من قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾^(١).

والآية الكريمة الثانية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

الجواب: الآية الثانية واضحة، وأن الإيمان متوقف على تحكيم الأمة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في الأمور، وإذا كان هذا ثابتاً قبل البيعة، فثبوته بعد البيعة أوضح.

وليس لرأيهم هنا دخالة، هو تحكيم وليس فرض رأي.

إنه تحكيم بالتسليم للرسول بحق نفاذ أمره في شؤونهم، وليس الأمر أنهم يفرضون رأيهم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأن يلزموه بما يذهب إليه منهم الرأي.

الآية الأولى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، هذه المشاورة إنما هي في الأمور الموضوعية المتصلة بالشأن العام للأمة.

١- آل عمران: ١٥٩.

٢- النساء: ٦٥.

سؤال ٤: هذه المشاورة من الرسول ﷺ للأمة، نسأل: هل هي لتنضيج الرأي

عند الرسول ﷺ؟

لفجاجة في رأى الرسول؟

أو لتطبيب الخواطر مثلاً؟

الجواب: هنا أمور يمكن أن تكون وراء هذه المشاورة:

- تنضيج الرأي، وهذا غير صحيح في المقام، لأن رأي المعصوم عليه السلام لا يتنضج برأي غيره.

خلفية أخرى: تطبيب الخواطر، ورفع المعنويات لمن يستشيرهم الرسول ﷺ .
- خلفية ثالثة: لتربية البصيرة العملية عند المؤمنين.

حين يدخل الرسول ﷺ معهم في قلب الرأي، وبحث الموضوع تتنضج بصيرتهم، وتتفتح بصيرتهم، ويمتلكون القدرة على الرؤية الصحيحة للأمور.

- أن تكون الخلفية توليد حافز الجد عند المؤمنين من ضعفاء الإيمان، لأنهم بإبداء الرأي يشعرون بأن القرار لهم نصيب منه.

أما كامل الإيمان، فلا يحتاج إلى مزيد بعد كلمة الرسول ﷺ .

- أن تكون الخلفية إعطاء درس للحاكم غير المعصوم.

هذا عدد من الخلفيات التي يمكن أن تكون وراء الأمر بمشاورة المؤمنين من قبل

الرسول ﷺ .

سؤال ٥: هل المشورة ملزمة؟

الجواب: والمشورة إنما تكون ملزمة للرسول ﷺ لو كانت الخلفية هي تنضيج

الرأي، بينما هي خلفية ساقطة بلحاظ العصمة.

والخلفيات الأخرى كلها حكمٌ للمشورة لا تستوجب من الرسول ﷺ متابعة الرأي الآخر.

وهذه المشورة لها فروض:

الفرض الأول: قد يلتقي الرأيان؛ رأي الرسول ﷺ ورأي المؤمنين، فلا بحث.

الفرض الثاني: وقد يختلف رأي الرسول ﷺ عن رأي الآخر.

بحث في الفرض الثاني

أ- القرار بيد الرسول القائد ﷺ

هنا - في الفرض الثاني - ماذا تقول الآية؟ فإذا عزموا هم فتوكل على الله.. فإذا عزمتم مشتركين فتوكل على الله.. أو تقول: ﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ...﴾ يعني: أنت ﴿... فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؟

بعد كل التشاور ماذا تقول الآية؟

لا تقول: فإذا عزمتم مشتركين.

ولا تقول: فإذا عزموا فتوكل على الله.

إنما تقول: ﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

فالقرار بعد المشورة إنما هو للرسول ﷺ.

ب- حالات الاختلاف والموقف العملي

وإذا اختلف رأي الآخرين مع رأي الرسول ﷺ في الموضوع، فهذا الاختلاف له حالات:

الحالة الأولى: أن تكون هناك ظروف ضاغطة تفرض الاستجابة من باب ارتكاب أخف الضررين.

هذا الاختلاف قد يكون مع حالة ضاغطة من الرأي الآخر تهدد المعصوم والكيان الإسلامي عندما لا يأخذ به، وهذا وجدناه في مسألة التحكيم التي أصر عليها الرأي الآخر في موقعة صفين، بحيث اقتضت الحالة من الإمام عليه السلام أن يستجيب، لكن استجابته كانت من باب ارتكاب أخف الضررين، لأنه إما أن يُقضى على الإمام والإسلام، وإما أن يخسر الإمام عليه السلام المعركة، وخسارة المعركة هي أخف الضررين في ذلك الموقف.

الموقف العملي

هنا الحالة الضاغطة قد فرضت على الإمام عليه السلام أن يستجيب للرأي الآخر، وليس بما هو نتيجة للشورى، على أن المعصوم عليه السلام لم يكن بصدد الاستشارة في الموقف، لأنّ الرأي كان عنده جازماً.

الحالة الثانية: أن تكون هناك مناسبة للاستجابة بهدف التعليم والتأديب.

هناك حالة أخرى تقتضي إعطاء درس عملي مؤدّب، ونجد مثلاً لهذا في الخروج لأحد لمواجهة جيش المشركين؛ حيث كان رأي النبي صلى الله عليه وآله البقاء في المدينة، وكان الرأي الآخر يضغط في اتجاه أن يخرج النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنون لمواجهة قريش في أحد.

الموقف العملي

استجابة الرسول هنا ليس لأنه يلزم عليه أن يستجيب للشورى وإنما لتلقين النفر الذين أعطوا هذا الرأي درساً مؤدّباً على طول التاريخ.

الحالة الثالثة: أن لا يوجد مقتض للاستجابة عدا مقتضى الشورى

هناك حلة ثالثة حالة الخلو من المقتضيات الأخرى، وأن ليس في البين إلا مسألة الشورى.

وإذا كان الموضوع هو موضوع الشورى فقط، فالآلية تحسم المسألة، وتقول: ﴿... فَإِذَا

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ، وليس إذا عزمتم مشتركين، أو إذا عزموا.

الموقف العملي

المتصور أن هناك أمرين:

١- أمر بالتشاور.

٢- وأمر باتباع نتيجة التشاور.

الأمر في الآية إنما هو بالمشاورة، وليس الأمر باتباع نتيجة المشاورة.

وقلنا: إنه يلزم هذا الاتباع لو لم تكن حكمة للمشاورة إلا تنضيح رأي المشاور، على

أن هذه الحكمة منتفية قطعاً في حق المعصوم عليه السلام.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٨٨) ١٦ محرم الحرام ١٤٢٦هـ، ٢٥ فبراير ٢٠٠٥م.

القسم الثاني القيادة غير المعصومة

المركزيّة في القيادة

إنَّ أيَّ مجهود دينيٍّ، أو سياسيٍّ، أو اجتماعيٍّ بلا مرجعية ولا مركزية لا يمكن أن يمثل كياناً معيناً في صورة كائن اجتماعي حي سويٍّ قادر على مواصلة الطريق، ومقاومة الزمن.

ولا بدّ أن يتمحور حول مرجعية، وينتهي إلى مركزية، أو يواجه الذوبان والتلاشي والموت المحتّم.

شرط الطّاعة والانقياد

ولا مركزيّة بلا طاعة، ولا مرجعية بلا انقياد، وأرقى ما يرى كثير من أهل الأرض أنهم توصلوا إليه في الحياة السياسية هو انتخابهم للقيادة، ولكنهم بعد انتخابها يسمعون لأوامرها ونواهيها، ويدخلون في الحرب والسلم بتشخيصها، ولو كان تشخيص الكثيرين مهم على خلافها، ولولا ذلك لما انتظمت لهم الحياة، ولكان القائد مقوداً والمقود قائداً.

القيادة موقع خطير

وفي حكم العقل والدين لا طاعة بلا موجب، ولم يتشدد طرْحُ بقدر ما تشدد الطرح الديني في أمر الإمامة والقيادة بكل مستوياتها ومواقعها التي من أبسطها إمامة الجماعة، وإمامة الجماعة في مذهبنا لا تجوز لأي واحد، فمن كان مسلماً مؤمناً لم يسعه مختاراً أن يهمل ما اشترطه الإسلام في هذه المواقع كلها.

التّشويش في مفهوم القيادة

والملاحظ أنَّ الناس على إسلامهم لما دخلهم من غَبَش في الرؤية، واختلاط في الثقافة، واضطراب في المفاهيم، وخلل في الشعور بقيمة الإسلام، صاروا يختلفون في

موجب الطاعة^(١)، ويبعدون كثيرًا عن إسلامهم في هذا المجال كغيره من المجالات، حتى استساغ مسلمون أن تكون الطاعة لشيوعي يحصل على أكثرية الأصوات.

والأدهى من ذلك والأمر أن قاد ضعف الإدراك السياسي والاجتماعي الكثير الى إنكار الموجب الشرعي والعملي للطاعة إلا ما يضطرهم من موجب القوة والقهر، وهذا أمر مرعب منذرٌ بأكبر الأخطار التي تتهدد وجود الأمة بما هي أمة ذات هوية حضارية محددة.

لا بدَّ من قائد

ولقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام أزهد الناس في الإمرة، ولم تكن تساوي عنده شسع نعل كاد يذهب بها الاستعمال، إلا أنه كان يتمزق عليه السلام لأمر الدين والأمة، وكان من رأيه أن لا بدَّ من أمير برٍّ أو فاجر، لأنَّ المقابل لذلك الفوضى الضاربة التي تأتي على الأمة بالنهاية القاضية.^(٢)

لا قيادة إلا لمن ثبت على خطِّ الرِّسالة

نعم، لكل مسلم مجاهد حظ في النصر، في تحقيق النصر، وفي حماية الإسلام، ولكن المعوّل بالدرجة الأولى وفي كل زمن على أصحاب الثبات في كل الظروف، وفي كل المواقع.

الشَّخصيَّة التي تثبت على الخط، حين الزلزال، وحين الإعصار، وحين الردة، هي الشخصية التي تتخذ المجتمع، ويحتاجها المجتمع، وعلى المجتمع أن يلتف حولها ولكنها نادرة، وقد لا تحصل.

وقد تقدم في بعض الخطب أن الشخصية التي لا تميل ولا تتحدي ولا تميد، وعلى

١ - وموجب الطاعة في الإسلام واضح.

أما ونحن نبعد عن الإسلام شيئاً فشيئاً، فنختلف، وسنختلف أكثر في ما هو موجب الطاعة، ولئن تكون الطاعة؟ وعلى من تكون الطاعة؟

٢ - خطبة الجمعة (٦٨) بتاريخ ٨ جمادي الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٩ يوليو ٢٠٠٢ م.

مستوى العالم كله، وعلى مستوى كل بعد من أبعاد العالم الإنساني، وعلى مستوى كل مسار، هي شخصية المعصوم (عليه أفضل الصلوة والسلام)، وهذا لا يعني أن الشخصيات الأخرى لا يجب أن يلتفت حولها، فإن الميسور لا يسقط بالمعسور.^(١)

شروط القيادة الإسلامية

ثم إنّه لا يتم صدق الثورة الإسلامية، والحركة الإسلامية ما لم تكن القيادة قيادةً إسلامية واقعةً.

وصدق عنوان القيادة الإسلامية متوقف على شروط لا بدّ من تحققها الخارجي:

- أ- وضوح فكري للإسلام في تركيبته العامة، وروحه، ومقاصده، ورؤيته.
- ب- إيمان عميق ثابت بالإسلام وقدرته على الإنقاذ، وحقانيته التي لا غبار عليها.
- ج- فقه أحكامه^(٢) وتشريعاته بما في ذلك تشريعات الحياة العامة للمجتمع وحركة الحياة خاصّة.
- د- التقوى العملية الرادعة عن مخالفة الشريعة في مضائق الأمور، ومزالق الأقدام.
- هـ- كفاءة الخبرة والعلم بالمكان والزمان.
- و- الكفاءة النفسية، والإرادة الإيمانية المتطلّبة عدم الضاغط المعطل، أو المعرقل من صفتين خطيرتين على النفس في هذا المجال: الجبن، والتهوّر.
- ز- التواضع أمام علم الآخرين وخبرتهم إلى حدّ التنازل عن رأي القيادة وإن كان معلناً، مع احترام القيادة لما هي عليه من علم وخبرة.
- والشرط الأخير وارد في حق غير المعصوم عليه السلام.^(٣)

١- خطبة الجمعة (٣٨) بتاريخ ٦ شوال ١٤٢٢هـ، ٢١ ديسمبر ٢٠٠١م.

٢- القيادة بلا فقه، لا يمكنني أن أسميها قيادة إسلامية.

٣- خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

القيادة ونظم الأمر

ما تلقيناه في الوصية عن أمير المؤمنين عليه السلام من نظم الأمر، وإن علينا أن نطلب نظم أمرنا.^(١)

وماذا يعني نظم الأمر؟

توزيع الوظائف بحسب الاختصاص، مما يعنيه نظم الأمر الخروج من حالة الفردية، ومن حالة العشوائية، ومن حالة الابتسار إلى حالة الجماعة التي تتلقى توجيهها من مركز يتوفر على الخبرة الأكثر، ويتوفر على العقل الأكثر، يجمع كل العقول خبرات العقول يتلقاها، كل تجارب الآخرين يتلقاها ليس هو كل شيء، ومن المستحيل أن يكون إنسان واحد أو جماعة معينة هي كل شيء، لكن بما أن هذه الجماعة، وبما أن هذه القيادة تتلقى من مختلف العقول، تتلقى من مختلف التجارب، يكون مركز يجمع الخبرات، يجمع التجارب، يجمع عطاءات الأفكار تكون اقدم على معرفة الساحة، تكون رؤيتها أصدق من رؤية الآخرين، تكون أقدر على التوجيه هذا منضماً إلى ما تتميز به هذه القيادة دائماً بالحكمة والحنكة، والقابليات الذاتية، فيما يفرض أن تختاره الشعوب والأمم، من نظم الأمر أن لا تكون هناك جماعة، وتكون هناك قيادة، ثم تتحرك الجماعة على غير خط القيادة، وأن تتلقى أوامرها من قيادات أخرى، أو تستغلها أي دعوة، أو تستجيب لأي نداء، المطلوب ولأي جماعة أن لا تتحرك التحرك الجماعي، وأن لا تعطي رد فعل لأي نداء إلا بعد أن تتأكد من أن هذا النداء من قيادتها التي تؤمن بها.^(٢)

لمن القيادة في زمن غيبة الإمام عليه السلام؟

وإذا كانت القيادة المعصومة لا تحضر الساحة على مشهد من الناس اليوم؛ لينضوي تحت لوائها المؤمنون، فما الموقف؟

إن أمر الحكومة محسوم من ناحية الخارج، ولا كلام لنا فيه، إنما الكلام على مستوى المرجعية الدينية والاجتماعية، وفي المواقف المتاحة سياسياً حسب القانون.

١ - من وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام: «أوصيكم، وجميع ولدي، وأهلي، ومن بلغه كتابي: بتقوى الله، ونظم أمركم». نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٣ - الصفحة ٧٦.

٢ - خطبة الجمعة (١٧١) ٧ شهر رمضان ١٤٢٥ هـ، ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٤ م.

وأنا أحصر كلامي الآن في هذه المساحة.

والسؤال هنا: هل يعني غياب القيادة المعصومة أن يعود أمر المؤمنين إلى الفوضى؟

وهل تبقى مسألة المرجعية بلا ضوابط؟

وهل ترتفع الطاعة نهائياً، وتكون القيادات بعدد الأفراد؟

والصحيح: لا فوضى، ولا مرجعية بلا ضوابط، والطاعة غير مرتفعة.

هناك طاعة، هناك مرجعية.

والضابط: الفقه، والعدالة، والكفاءة العملية، ومنها الخبرة.^(١)

وإذا لم يمكن الفقيه، فيتنزل الأمر إلى عدول المؤمنين من أهل الفقه والخبرة والكفاءة.

كلما لم يمكن المعصوم كان الفقيه، وكلما لم يمكن الفقيه كان العدل المؤمن الأكثر توفراً على الفهم الفقهي، وبما له من الخبرة، والطاعة لازمة على المؤمن مع توفر الضوابط حفظاً للدين، وتجنباً للكوارث.

تعدد القيادة

والسفه الذي لا يجوز ارتكابه هو الفوضى الضاربة، وتعدد القيادات بعدد الأفراد ...^(٢)

وأمة تتعدد قياداتها من غير أن تكون لهذه القيادات مرجعية أخيرة هي ليست أمة وإنما ألف أمة، ومليون أمة.

نحن لسنا أمة واحدة في الواقع العملي.

نحن أمة بقدر ما لنا من قيادات.

١- وأنعى على الذين يرون لأنفسهم الخبرة، ويرون أن الخبرة طائر لا يناله فقيه، وسحر يمتنع على الفقيه أن يتوفر عليه، وعلى أي عالم أن يتوفر عليه، وإذا قسموا واستحووا قالوا الفقيه أوفر على الفقه، أما نحن فأكثر توفراً على الخبرة، وهو ليس بالإنصاف فقد يكون فقيهاً وأخبر من الآخرين.

٢- خطبة الجمعة (٦٨) بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٩ يوليو ٢٠٠٢ م.

إذا كانت هذه القيادة مشرّقة والأخرى مغرّبة، وكانت ثالثة إلى الجنوب، ورابعة إلى الشمال، فأين الأمة الواحدة؟

أنا في اتجاهي إلى الجنوب لست مع الأخ المتجه إلى الشمال خطأ ولا هدفًا، ومن اتجه إلى الغرب غير من اتجه إلى الشرق قبلةً وهدفًا.

والأمة إنما تكون أمة واحدة بأن تكون على خط واحد، إلى هدف واحد، ومن منطلق واحد.^(١)

بين القيادة التّابعة والقيادة المتبوعة

وكون القيادة لا تتحرك، ولا تتخذ قرارًا إلا بوصاية من الأتباع، فالجمعية الثقافية أو السياسية تنتخب إدارتها عندنا، ثم لا تعطى حق القرار إلا بأن تراجعها، والزعيم السياسي، أو الاجتماعي، أو الديني ينتخبه مريدوه وقواعده، ثم لا يتخذ قرارًا إلا كما يشتهون، ولا يتقدم ولا يتأخر إلا كما يأمرهم، وينهون!!

أتراها قيادة؟، أو هي آلة؟

هذا أمر غير عقلاني أصلاً، ولا تقوم عليه حياة أمة ولا جماعة، وهو خارج عن النظم الوضعية بما فيها كل ألوان الديمقراطية، وعن الوضع الذي يقرره الدين.

وفيما ينبغي أن يكون عليه علماء الدين هو أن يكونوا عبيدًا للشرع، لا لما تهواه الدول، أو ما يرغبه الرأي العام، وصحيح أن الإسلام على مثاليته واقعي لمن تدبّره، ومثاليته لا تلغي واقعيته، كما أن واقعيته لا تلغي مثاليته، وهو من خلال واقعيته يُدخل في موضوع أحكامه عددًا من مقتضيات الخارج المتغيرة، إلا أنه إذا اقتضى الموضوع بطبيعته التي هو عليها خارجًا الحكم المناسب له في النظر الشرعي لا يرفع الإسلام، ولا عالم الدين - الذي يتعامل مع الأمور من موقع العلم والتقوى - اليد عن ذلك الحكم تزلّفًا لأحد مهما كان، وطلبًا للدنيا، وزهدًا في الآخرة.

وكثيرًا ما يخلط العديد من الناس بين مراعاة الموضوع الخارجي في إصدار الأحكام

١ - خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

وتغيُّرها، وبين متابعة الهوى في الحكم والتلاعب به.

وقد يملأ الناس الساحة آراء، ومنهم مخلص وغير مخلص، فطن وغير فطن، وقد يطول السكوت من آخرين عن فطنة وإخلاص ودراية وبعد نظر وصبر، وقد لا يكون وراء السكوت إلا الخواء، فهو سكوت أبله.

وليس - دائماً - أن مَنْ تكلم أبلغ ممَّن لم يتكلم، وقد لا يُبيح بليغ لنفسه الكلمة حيث لا يرى المقام مقام كلام.

والساكت لا يُحكم عليه برأي حتى ينطق برأيه، وهو في سعة من أمره حتى ينطق.^(١)

الرُّموز القياديَّة واتباعها في المنعطفات

معلومات الرموز - دائماً - أغزر من المعلومات المتفرقة عند القاعدة، وما رُشِّح مُرُشِّح في مركز معيَّن إلا لأن قواعده ترى فيه امتيازاً، وهذا الاعتراف بالامتياز لا بد أن يبقى في كل المنعطفات.^(٢)

أمن الأُمَّ وأمن القيادة لا يتجزَّان

الأمن في عزٍّ وشرف ودين، لا يقبل تجزئة بالنسبة للأُمَّ وقيادتها.

إذا كان الأمن الذي تطلبه هو أمن في عزٍّ وشرف ودين، فإنك لست قادراً على أن تجده بلا قيادة مؤمنة، وبلا أمن لهذه القيادة، والقيادة المؤمنة لن تجد أماناً لها وحدها من دون أن تأمن جماهيرها، فالقائد المؤمن الذي يبحث عن أمان يخصه دون الآخرين واهم، والجماهير التي تبحث عن أمان لها من هذا النوع - من النوع الذي فيه عزٌّ، وشرف، ودين - مفصولاً عن أمان قيادتها واهمة، وموقف العباس عليه السلام يريد أن يقول للأجيال هذا، وذلك حين رد أمان الشمر الذي نقله عن قيادته.^(٣)

١- خطبة الجمعة (٦٨) بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٩ يوليو ٢٠٠٢ م.

٢- خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥ هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤ م.

٣- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤ هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣ م.

القرار بيد الشارع أم القيادة؟

القواعد العامة تمد قيادتها عبر القنوات المعقولة بكل ما لديها من خبر وخبرة ونصح، والقرار لا يُتخذ في الشارع، وإنما تتخذ القيادة بمشورة صفوة أهل الخبرة، وبعد أن تتجمع كل الخبرات، والأخبار، والمدخلات.^(١)

الولاء الهش

لا تعويل على الولاء الهش، والولاء العاطفي السطحي، فما أغنى الولاء الهش والولاء العاطفي السطحي عند أهل الكوفة عن أن يقاتلوا سيدهم الحسين عليه السلام، والإمام الذي يروونه في الحق إماماً.^(٢)

القيادة والانقياد

واضح أن القيادة المعصومة لا يصح مخالفتها.

دعونا ننزل إلى القيادة غير المعصومة.

القيادة غير المعصومة قد تحدد الموقف، ويكون هناك رأي في مقابل رأيها، وقد يكون هو الأرجح إلا أن ملخص القول هنا: إما أن نقبل خطأ رأي القائد في بعض المرات، وإما أن نتمرد على رأيه في كثير من المرات.

التمرد على رأي القائد في كثير من المرات، الضغط عليه ضغطاً يلجئه إلى الرأي الآخر، معناه أن القيادة ليست قيادة، وأن الرأي العام يكون هو القائد.

وكان صبر الأمة على بعض الخطأ في رأي القائد - ولأنه غير معصوم - خير لها مليون مرة من أن تفرض عليه إرادتها بعد أن تعرف عدله، ورجاحة عقله، ومثانة رأيه - بصورة عامة -، وقدرته على التشخيص الدقيق - في الأغلب -، وإلا لما صح لها أن تختاره قائداً.

١- خطبة الجمعة (١٨٧) ٩ محرم ١٤٢٦هـ، ١٨ فبراير ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

أذكر - جدًا جدًا - بأن فرض الرأي العام على القيادة من خلال الضغط المتواصل يعني أن الأمة بلا قيادة.^(١)

القيادة والثبات

إنَّ الرسل المعصومين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) ما اختيروا قيادة إلا لأنَّهم أكبر من كل الأحداث، ولأنَّهم فوق كل العصبية، وفوق ضغط كل الظروف، وهم أشم من الجبل، وأقوى وأرفع من كل القمم، وأقوى من كل فولاذ أمام كل حدث من الأحداث التي تزلزل النفوس، فالرسول ﷺ كان الرسول في فقره، وكان الرسول في غناه، وكان الرسول في الهزائم العسكرية، وكان الرسول في الانتصارات، وهو الرسول في موقع الدعوة، وهو الرسول في موقع الحكم والقوة، وهكذا هم تلامذة الرسول ﷺ حتى اليوم.

إنَّ أهل القرن الواحد والعشرين، من تلامذة الرسول ﷺ إنما يحذوهم ويقود خطواتهم، ويترسومون - دائماً - في كل الظروف رضوان الله، وحكم الله سبحانه وتعالى، النصر لا يصيبهم بالغرور، والهزيمة لا تكسر عزيمتهم، وهكذا هو الإنسان المؤمن، هي هذه النفس المؤمنة، النفس التي اطمأنت بذكر الله سبحانه وتعالى، وصارت لا تتلقى تعاليمها من ظرف من الظروف، ولا تحت ضغط من الضغوط.

صحيح أنَّ الضغط يلوّن الموقف، ويخلق موضوعاً جديداً للحكم الشرعي، لكن الحكم الذي يأتي متناسباً مع حالة الضغط، إنما جاء بالصورة المعينة، لأنَّ الحكم يتناسب مع الموضوع في شريعة الله، والمنظور للمؤمن في كل حالة من الحالات إنما هو الحكم الشرعي، كانت الحالة حالة سعة، أو حالة شدة.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٩) بتاريخ ١٣ شوال ١٤٢٢ هـ، ٢٨ ديسمبر ٢٠٠١ م.

٢- خطبة الجمعة (٣٥) بتاريخ ١٤ رمضان ١٤٢٢ هـ، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠١ م.

المرجعية

الحاجة إلى الفقهاء

أما وجود الفقه والفقهاء، والعلم الديني والعلماء، فهو ضرورة من ضرورات هذه الأمة، وحاجة ملحة من حاجات كل أقطارها، وهم صمام أمان لحفظ هوية الأمة، وسلامة دينها.

ولست تجد فئة من فئات المجتمع أكثر وعياً، وأشد حرصاً على تطبيق العدل ورعاية الواجبات والحقوق، والحفاظ على أمن الناس وسلامة الأوطان والمكتسبات الصالحة، وأبعد عن روح العدوانية، وتجاوز القيم، والاستخفاف بإنسانية الإنسان، وأقرب إلى العقلانية والتعقل من فئة الفقهاء وعلماء الإسلام الحقيقيين.

هناك تصوير للفقهاء وللعلماء وكأنهم أسد مفترسة، أو كأنهم من مجانيين الأمة، أو من أشرارها وسفلتها، وهذا من أكبر الظلم الذي تمارسه بعض الجهات.

وإذا كان هناك من يتوقع من هذه الفئة أن تأخذ دور الشيطان الأخرس، وتقر أي ظالم على ظلمه، فضلاً عن أن تسنده في بغيه أو تقرط بواجبها الديني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو واهم، وأمنياته باطلة.

ومن يتصور أن حملات الاتهام والتشويه والإسقاط والتهويل ستوقف العلماء عن النطق بكلمة الحق، ومناصرة المظلوم، وستجعلهم يتخلون عن الضعيف والمحروم، ويتراجعون إلى الوراء انهزاماً أمام هذه الحملات، فرأيه ساقط، وظنّه خائب.^(١)

دور المرجعية في الأمة

المرجعية الدينية للمسلمين عامة؛ لحفظ أصالة الأمة، ووحدتها، ومقاومتها:

أصالة الأمة لا يمكن أن تتحفظ إلا بفقهاءها القادرين على استيعاب فهم إسلامي كبير، هو الأقرب إلى الصورة الإسلامية الواقعية، هؤلاء الفقهاء الذين يعيشون عمرهم

١- خطبة الجمعة (٣١٠) ٢٣ محرم الحرام ١٤٢٩هـ، ١ فبراير ٢٠٠٨م.

كله؛ من أجل التوفر على فهم إسلامي دقيق؛ ليردوا الأمة دائماً في حركتها إلى هذا الفهم، فهم للحفاظ على أصالة الأمة، وكذلك هم للحفاظ على وحدتها، فليس في نفسي أن فقيهاً مخلصاً واعياً حريصاً على مصلحة الإسلام والأمة - شيعياً كان أم سنياً - ينحو نحواً آخر غير نحو الوحدة، لا يتصور في فقيه من هذا المستوى أن يقول كلمة، أو يخطو خطوة إلا في صالح الوحدة الإسلامية المتمحورة حول محور الإسلام.

وإن وجد فقيه أو مدع للفقاهة ينحو نحواً آخر، فهو إما أن يكون على نقص شديد من فهم الإسلام، أم أن يكون مريض النفس، فالفقهاء - دائماً - حريصون على الوحدة الإسلامية.

الفقهاء كما عرف من تاريخهم أنهم في الخندق الإسلامي دائماً، وأنهم الطليعة في الدفاع عن بيضة الإسلام، أرضه، وقيمه، وكيانه، وسيبقى الفقهاء يتحملون أمانتهم دائماً، ويحتفظون بأصالتهم دائماً، ويقفون الموقف الجهادي الذي تحتاجه الأمة.

مرجعية الشهيد الصدر الأول (أعلى الله مقامه) كانت المثال الحي في المجالات الثلاثة كما يشهد العالم كله.

من كان منصفاً في العالم، وكان يعرف السيد الشهيد الصدر الأول، فإنه لا يستطيع أن ينكر دوره الكبير، وتمثيله الحقيقي للإسلام بالمقدار الذي يتأتى لغير المعصوم، وأنه كان الحريص كل الحرص على الوحدة الإسلامية، وتماسك البيت الإسلامي الكبير.

على مستوى الأصالة لم يهزم قلم لأحد - كاتباً كان، أم عالماً، أم فيلسوفاً - الشيوعية الحمقاء كما هزمها قلم السيد الشهيد الصدر الأول، حتى احتاجت المكتبة الإسلامية في كل البلاد الإسلامية إلى كتاباته في هذا الشأن، وانكبَّ عليها فلاسفة الأمة، ومن يهتمهم أمر الأمة في هذا الشأن من علمائها.

ووقف وقفته العملية في وجه التيار المنحرف، التيار الشيوعي يوم أن أراد غزو العراق.

وعلى مستوى وحدة الأمة كل من سمع كلمات السيد الشهيد الصدر الأول (أعلى الله مقامه)، وكانت له معرفة بمواقفه عرف منه أنه لا يعيش هم طائفة معينة، ولا قطر

معين، إنما كان يعيش هم الأمة بكاملها، وكان لا يرضى كلمة لا تصب في صالح الوحدة الإسلامية، وكان يهمله من أمر الإنسان كل إنسان ما يهم الإسلام نفسه، والإسلام يهمله أمر كل إنسان.

الشهيد الصدر واقتداء بأجداده الأطهار (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كان يعيش هم الأمة الإسلامية أولاً، ثم هم الإنسانية بكاملها ثانياً.

وعلى مستوى المقاومة، كان قد وقف الوقفة الصلبة العنيفة أمام البعث الكافر، وجاهد بكل ما أوتي من قدرة، وخطط - كما ذكرت - أكثر من مرة لأن يقدم على التضحية الصارخة بنفسه، وبالنخبة من طلابه، ورؤاده من الأجلة.

ولكننا نعرف أن مقاومته، وإخلاصه، وإصراره على خط الإسلام، وعناده في سبيل الله أوصله إلى التضحية بشهامة، وبصبر وجلد لا يصبرهما إلا قليل.

موقف لو اطلع عليه مطلع لكبر الصدر في نفسه مليون مرة عما هو عليه وهو لا يعرف ملاسبات المحنة.

وللإنصاف أقول: إن بيت الصدر - وله رموز ثلاثة عاشتها الأمة في هذه الحقبة القصيرة - بيت علم ودين ومرجعية، بيت جهاد وقيادة وشهادة، وادرسوا كل هذه العناوين، فلن يمكن أحداً أن ينكر نسبتها إلى هذا البيت الشريف من خلال رموز ثلاثة بينة قريبة إلى الذاكرة: السيد الشهيد الأول، والسيد الشهيد الثاني، والسيد موسى الصدر.

والمرجعية اليوم بكل رموزها الكبار، وبكل أفاذاها في النجف الأشرف، وفي قم، وفي الأزهر هذه المرجعية ستبقى سنداً للإسلام، وستبقى حصناً للإسلام، وستبقى الذائد الأول عن الإسلام، وستبقى الأصوات النشاز التي تزهد في المرجعية، وتحاول أن تفصل جماهيرها العريضة عنها، أو تحدث في صفها الشرخ، سواء على مستوى النجف على مستوى العلاقة الاثنينية بين النجف وقم، أم على مستوى العلاقة الثلاثية بين النجف وقم والأزهر، هذه الأصوات النشاز لا بد أن تخجل، ولا بد أن تنهزم، وسيهزمها - حتماً - وعي الأمة، وتماسكها ووحدتها.

إنَّ فقهاءنا الكرام، ومرجعيتنا العظيمة التي تمثل الامتداد الحقيقي لخط أهل البيت عليهم السلام؛ الخط اللاحب الكريم الموصول برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتخلفون عن نداء الإسلام، ولا يُسلمون الأمة في أي يوم من الأيام، واليوم هو يوم محنة الإسلام والأمة، وهو من أصعب أيامها، والمحنة من أشد المحن التي مرَّت في تاريخها.

فلا يرتقب أحد من الفقهاء العدول الكرام استخذاءً ولا سلبية، ولا تخلفاً عن الواجب. (١)

السُّرُفي محاولات فصل الأمة عن المرجعية

أسأل: متى يتحول الدين إلى عصبية عمياء، ومبرر للقتل والفتك من غير حق، ومبرر إلى استئصال المسلمين لبعضهم البعض؟

متى يتحول الدين إلى ورقة سياسية رابحة يلعب بها الساسة الدينيون، ويوظفونها لأغراضهم؟

متى يتحول إلى مخدر شعبي يهرب بك عن معاناة الحياة؛ لتموت، ويسمن الآخرون؟ ومتى يتحول الدين إلى شيء مكذوب متغير - دائماً - بلا ثابت مستعد، لأن يُضفي الشرعية على كل تبذل، وانحدار، وانحراف، وانفلات سلوكي، ويطمئن قلب الماكن والفاسق بأن فسقه ومجونه لم يخرجهم عن الدين قيد شعرة، وعن رضا الرب العظيم؟

كل ذلك عندما تتميع المرجعية الفكرية والفقهية للدين، وتتسبب وتتدنّى مستوياتها علماً وخلقاً وفضيلة نفسية وروحية، وتكون التنظيرات الدينية والفتاوى من حق الصحفي والتاجر وحتى الممثل والرقاص، ومَن كان له أي اختصاص، أو لم يكن له أي اختصاص.

أعرفت بعد هذا شرط العصمة في المرجعية الدينية الأصل؟

ولماذا شرط الفقاهة والعدالة في المرجعية الثانوية في إصرار مدرسة أهل البيت عليهم السلام؟، لأنه لا بقاء للإسلام من غير هذه المرجعية في صورتها الأصلية، أو في صورتها الثانوية على الأقل.

أو عرفت - أيضاً - لماذا يُهَوَّنُ كثيرًا من ضرورة الرجوع إلى الفقهاء والعلماء من الناحية الدينية في مسائل الحياة المختلفة؟؛ ذلك من أجل تحقيق جوِّ يستطيع فيه الغزاة أن ينهوا هُوية هذه الأمة، ويستبدلون لها خلقًا منسوخًا جديدًا مشوهًا.^(١)

لا نعيد عن المرجعية

ونحن نعرف أن في الالتفاف بالمرجعية الدينية المخلصة الكفوءة في مثل النجف الأشرف قوة للدين يكرها الكافرون والمنافقون، ويحولون بين الأمة وبين هذا الأمر ما استطاعوا وبكل الأثمان.

وعلى الأمة أن تكون عنيدة كل العناد في هذه المسألة، وأن تكابر إرادة الكافر والمنافق في الانفصال عن قياداتها الدينية، وتُحْبِط آمال أعدائها في أن تكون رهينة حالة الفرقة، والشتات، والانفراط والفوضى.^(٢)

لا بد من مرجعية

معارضة بلا مرجعية فوضى.

بيت بلا مرجعية فوضى.

قبيلة بلا مرجعية فوضى.

مؤسسة بلا مرجعية فوضى.

فئة اجتماعية بلا مرجعية فوضى.

بلد بلا مرجعية فوضى.

والمرجعية مرجعيتان: مرجعية تشريع، ومرجعية على مستوى مركز القرار.

والتشريع تشريعان: تشريع وضعي (بشري)، وتشريع إلهي.

١- خطبة الجمعة (١١٨) ٣ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ٤ يوليو ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (١٦٦) ٢ شعبان ١٤٢٥هـ، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٤م.

فأي مؤسسة، وأي دولة لا بد أن تركز إلى إحدى المرجعيتين: مرجعية التشريع الإلهي، أو مرجعية التشريع الوضعي.

فمؤسساتنا ليست بدعاً في هذا الأمر، فلا بد لها من مرجعية تشريعية، فإمّا أن تأخذ بالمسار الفقهي والتشريع الإلهي، وإمّا تأخذ بمسار التشريع الوضعي ولو من عند نفسها.

وعن مرجعية مركز القرار مهما قيل عن الديمقراطية، فإنها تثبت المرجعية، فالديمقراطية لا تعني الفوضى، ولا تعني أن الشارع يتخذ القرار^(١)، ولا تعني النزاعات التي لا تنهيها كلمة فصل، وإنما رأي الأغلبية على مستوى الديمقراطية هو منتهى القرار. صوت زائد على الطرف الآخر، وبغض النظر عن قيمة هذا الصوت، وقد يكون أضعف عقلاً في المجموعة، وأقصر رؤية، وأقل نزاهة، إلا أنه مادام عضواً في المؤسسة، أو في الحكومة، أو في الحزب، فإن زيادة رأيه مرجح، هذه مرجعية. والمرجعية المستقة مع خط أهل البيت عليهم السلام مرجعية صاحب رأي فقهي وعدالة.

على الإسلاميين أن يحددوا مرجعتهم!

وفي الساحة علمانيون وإسلاميون، والعلمانيون صريحون ومنسجمون مع خيارهم، فإنهم لا يابھون بالدين، ولا يقيمون له أي وزن - كما يصرحون بذلك - ولو في المسألة السياسية على الأقل.

فما بال الإسلاميين؟

عليهم أن يحددوا موقفهم، إما أن تكون لهم مرجعية من التشريع الإسلامي وإمّا لا تكون.

والفقه اختصاص عميق، ولا ينكر أنه من الاختصاصات الكبيرة المتعبة، فإذا قلنا:

١- في تفاصيل الأمور الدقيقة التي تحتاج إلى نظر متمعن، وتقليب للأمر.

بأن مرجعية أي مؤسسة إسلامية هي التشريع الإلهي، فيلزم من ذلك أن يكون الراجعون إلى التشريع قادرين على فهم التشريع، على فهم الفقه، أو يرجعون إلى من يفهم الفقه، ولا يسировون أمورهم لمجرد قرار الأغلبية، فإن الأغلبية مرة توافق مقتضى الفقه، ومرة تخالفه.

ولسنا نريد أن نختار للساحة، ولكن الله وَعَلَّمَ قد اختار للمؤمنين، وأن عليهم أن تكون مرجعيتهم - دائماً - من مرجعية خط أهل البيت عليهم السلام.

وهذه المرجعية معروفة، لا يمكن أن يتقدم فيها صاحب الاختصاصات الأخرى على أصحاب الاختصاص الديني، والمرجعية لا تفرض نفسها إنما تختار.

وأقول عن نفسي: إنني مستعد كل الاستعداد أن أسمع، وأدعم أي مرجعية يختارها المؤمنون في هذا البلد من إخوتي العلماء، وسأكون خادماً أميناً - إن شاء الله - صغيراً لأي مرجعية تختار في الداخل على هذا الخط.

وأقول: علينا من حيث إننا إسلاميون أن لا نرتكب خطأ المغالطة والاستغفال لقواعدنا المؤمنة، علينا أن نكون صريحين إما أنه يسعنا الظرف أن نكون إسلاميين فنقول: بأننا إسلاميون، ونلتزم بخط الإسلام تماماً، وإما أن نقول: إننا ديمقراطيون على الطريقة الغربية، فنريح أنفسنا.

وعلى الأقل إذا لم تكن لنا مرجعية نراجع عنها مذهبنا، وقادتنا أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، على الأقل علينا أن نأخذ بما لا يمزقنا وإن لم يكن في ذلك مرضاة الله تبارك وتعالى كما ينبغي، إلا أن التمزق ربما كان أبغض إلى الله وَعَلَّمَ - ولا أريد أن أرتكب مسؤولية التراجع -، ولكن أقول: إذا لم نر أن نراجع أهل البيت عليهم السلام في مثل هذه الأمور، فعلى الأقل فليلتزم الإخوة العاملون بمسألة مرجعية الأغلبية، ويرتكبوا إليها، ويخرجوا من خلافاتهم على أساسها بعدما يذهب بهم الرأي إلى الأخذ بها.^(١)

الإسلاميون والتقيّد بمرجعية الفتوى

هناك نوعان من القضايا: نوع خاص يرتبط بالفرد، ونوع عام يرتبط بالمجتمع.

والناس مسلمون وغير مسلمين، والذين في إطار الإسلام مسلمون وإسلاميون - إذا صحَّ التفريق -، مسلمون عقيدة ولكن لا يتقيدون بالإسلام، وإسلاميون مسلمون على كل الأصعدة، ويرون أن حياتهم لا بدّ أن تتقيّد في صغيرها وكبيرها بالإسلام.

والإسلاميُّ أيُّها الإخوة، لا يُفتي نفسه في شؤونهِ وقضاياهِ الخاصة ما لم يكن مجتهدًا فضلًا عن أن يفتي غيره، وفي مسائل الشأن العام، أليس كذلك؟

ولكنني أقرأ، وأسمع، وتصلني بعضُ الرسائل التي لا تشرح الموضوع الخارجي فحسب، ولا تكتفي بإعطاء وجهة نظر في الموضوع الخارجي، وإنما تُثبت الحكم مع ذلك، وتفتي لي ولغيري من شاب كريم أحترم فيه إيمانه، ووعيه، وغيرته لكن لا أعطيه الحق في أن يفتي في حقِّي، وفي حق غيري، وهو بإسلامه لا يعطي لنفسه الحق في ذلك.

الإسلاميون الأعزاء المخلصون والغياري قد يقعون في خطأ وهم يُفتون فتاوى جماهيرية وإن لم تكن باسم الفتوى.

أنت حين تُشخّص الموضوع المرتبط بالشأن العام، وتصدر الرأي المتناسب مع تشخيصك، وتوجّه الجماهير إلى هذا الرأي، وتدفع بهم دفعًا؛ للأخذ به، فماذا تفعل؟

أنت هنا تفتي، وتعمل على تنفيذ فتواك، سميتها فتوى، أم لم تسمها.

للكل أن يُنظر، أن يُعطي وجهة نظره في الموضوعات الخارجية، ولكن بحيث لا يرقى بالأمر إلى حدّ أن يدفع بالناس دفعًا حثيثًا في اتجاه ما يراه.

هناك مسائل يكفي فيها أن تعرف الحكم الكلّي، وفتوى الفقيه، وأن يتشخّص عندك الموضوع، فتعمل بالفتوى، وهناك أمورٌ لا تكفي فيها الفتوى، بل تحتاج إلى حكم ولائي، والممارسات القائمة تتجاوز حدّ الفتوى إلى ما يرقى إلى حدّ الحكم الولائي^(١).

المفتون الجدد

صارت تملأ الساحة فتاوى كثيرة متسيّبة، ومتطاولة، ومنفلتة في موضوع الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وغيرهما، وفي مسائل السياحة من النوع القذر، وفي السياسة، وأمور دينية كثيرة من مفتين جدد لا فقهة لهم، ولا فقه، ولا دراية، ولا عدالة.

وهي حالة سيئة من حالات الاختلال في الضوابط والموازن، واحترام العلم وأصوله وأخلاقيته لو استمرّت، وأخذت مكانها في النفوس، وقبولها عند الجيل لأضلّت الأمة كثيراً، وفكت بالدين، وساد الهرج والمرج، وكان في ذلك أكبر التعدي على العلم والحقيقة.

وإنّي لأحذر الممارسين للعمل الإسلامي في كل ساحاته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها والمنتسبين إلى هذا العمل تحذيراً دينياً من الانزلاق في هذا المنحدر الخطير الذي يعني التقوّل على الله ورسوله^(١)، والجرأة على دينه وشريعته، ويوقع المؤمنين في الجهل والتغريب والزيف، ويلغي وصف الإسلامي عمّن يمارسه إلغاءً واضحاً جلياً.

إذا كان هذا الوصف بالتقيّد الإسلامي، ومتابعته.

أنّا لا أكون إسلامياً بحق، ولا أستحق هذا الوصف على الإطلاق، وإن كنتُ أعمل في ميدان العمل الإسلامي إذا كنتُ أفتي وأنا لست أهلاً للفتوى.^(٢)

إسلام بلا مراجع، ومراجع بلا إسلام

يريد المناوئون لأمتنا، المعادون للإسلام من الخارج والداخل إسلاماً بلا فقهاء أفذاذ أمناء صالحين أتقياء ترجع إليهم الأمة في فهم الدين، وفقه الشريعة، وتأخذ برأيهم في مسيرتها.

وليس هذا فحسب، بل يريدون للأمة مراجع فاقدين للعلم والدين، أو للدين وحده، وهذا هو المفضل فيما يقصدون إليه، فإن العالم بلا دين أضّر على الإسلام والأمة ممّن

١- الفتوى من غير أهلها فيها تقوّل على الله ورسوله.

٢- خطبة الجمعة (٢٢٢) ٢٩ شوال ١٤٢٦ هـ، ٢ ديسمبر ٢٠٠٥ م.

دونه، وهو أقدر على التغرير بالناس، وأملك لأدوات الهدم والتضليل باسم الإسلام. وإذا وُجد مراجع لهم من العلم والتقوى ما لا يمكن للأمة أن تتغافله، واستحال على الأعداء أن ينكروه، وأن يسقطوا حملته، فليكن هؤلاء فيما يخطط له أهل المكر بالأمة والدين مراجع في المسائل العبادية الفردية البعيدة عن المساس بمصلحة الاستئثار، والاستغلال، والاستعباد التي يحرص المستكبرون وذيلهم على التمتع بها.

وهذا الفصل بيد الأمة وفقهائها المخلصين، وعلمائها العاملين، والتحجيم لدور هذه النخبة القيادية، ومحل الوصية المؤكدة من رسل السماء، وأئمة الدين هدف خبيث ثابت عند المستكبرين العالميين وأذنانهم، وله الأهمية الكبرى فيما يخططون.

وعلى الأمة أن تعي ذلك، وتعمل على إحباطه.

الانشداد إلى من أمر الله سبحانه بالاطمئنان إليهم، وأخذ الدين منهم، ومتابعتهم ومسايرتهم، والتخندق معهم في خندق الإسلام المنتصر بإذن الله.^(١)

إن انشداد جماهير الأمة، وشبابها، وشاباتنا وناشئتها بالخصوص لفقهائها وعلمائها الواعين الصادقين المخلصين، وهم الحماة الحقيقيون لدينها واستقلالها ومصالحها لأشد إيلاماً لجبهة المستكبرين في الأرض والمفسدين فيها من كل أمر آخر.^(٢)

المرجعية من أبرز مفاصل القوة لدى الأمة

استضعاف طرف لطرف، يعني العمل على ضعفه حتى لا يملك أن يتفوق، أن يقاوم، أن يقوم.

والاستكبار في كل أحجامه، وعلى مستوى الزمان كله، وكذلك المكان كان ولا يزال يعمل على تجفيف منابع القوة للطرف الآخر؛ ليبقيه رهن حالة الضعف والاستكانة التي تمكن من استغلاله، وفرض إرادة المستكبر عليه.

١- هتاف جموع المصلين ب: (معكم معكم يا علماء).

٢- خطبة الجمعة (٢٢٣) ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٩هـ، ٢ مايو ٢٠٠٨م.

ومن أبرز نقاط القوة ومركزاتها الصُّلبة للحالة الدينية في عالمنا الإسلامي المرجعيةُ المبدئيةُ الكفوءةُ المخلصةُ المستقلةُ المتمثلةُ في الفقهاء الوعاة العدول الأتقياء، وتوفُّر الأسباب الموضوعية لهذا الاستقلال، وأي من نقاط القوة ومركزاتها وأسبابها عند المسلمين والإسلاميين يُضير المعادين للحالة الإسلامية، ويقضُّ مضجعهم وإن كان بيد أولئك الأعداء من أسباب القوة والبطش الكثير الكثير مما لا نملك.

إنَّ استقلال المرجعية الدينية واكتفائها بما يصل إليها من فريضة الخمس الذي تأتي وظيفته تشييد الدين، وحمايته، والحفاظ عليه ممَّا لا ينفصل أبدًا عن قوة الحوزات العلمية واستقلالها وأصالتها أولَ وظيفة له خاصة بالنسبة لسهم الإمام عليه السلام لمَّا يؤرق دوائر الاستكبار العالمي المهتمة بشؤون الإسلام والمسلمين ويؤلُّها؛ كما يؤرق كل من لا يريد للإسلام الحق أن يظهر ويتجلَّى، ويُعرف.

المرجعية والخمس وراء قيام دولة إسلامية كبرى، وراء انتصارات حزب الله، ووراء مرابطة النجف الأشرف وحراستها للإسلام، وإصرارها على الهوية الإسلامية.

فمَن لا يدرك من المخلصين من أبناء الإسلام أهمية المرجعية الدينية والحوزات العلمية، وتمتعهما بالاستقلالية، فليتنبه إلى هذين الأمرين معًا: إلى ما أنتجته المرجعية والخمس على الأرض، وإلى إصرار الاستكبار العالمي على إسقاط هاتين الركيزتين من يد الإسلام والإسلاميين.

وإنَّ مواجهة هاتين الركيزتين من الاستكبار العالمي وأتباعه لإلى تعاظم كلِّما اشتدَّ وجود الإسلام، وقوي الإسلاميون بهما.

إنَّ الصَّحوة الإسلامية التي تحققت على يد هاتين المؤسستين الأصيلتين المباركتين أفزعت عالم الاستكبار، وضاعفت جهوده في مواجهة الإسلام كُلِّه، وفي مواجهتهما بالخصوص.^(١)

حياد المرجعية

يظهر طرح مفهوم حياد المرجعية في الساحة الشيعية العامة، أو بعض أجزائها.

ومراد هذا المفهوم: إنَّ على المرجعية الدينية في أعلى مستوياتها المتمثلة بالدرجة الأولى في زمن الغيبة في مراجع التقليد العظام، ثم من بعدهم العلماء الآخرين أن تقف موقف الحياد، وعلى مسافة واحدة بين وجهات النظر والمواقف والتوجهات المختلفة والتي قد تشهد اضطراباً داخل الساحة الخاصة للطائفة، وأن تعيش هذه المرجعية الأبوّة المشتركة وواقع المظلة العامة للجميع.

وهذا المفهوم، وأي مفهوم آخر يُطرح في الساحة يمكن أن يسود أوساط المؤمنين، ويأخذ موقعه الكبير في عقليتهم ونفسياتهم، ويتحوّل جزءاً ثابتاً مؤثراً في ثقافتهم الإسلامية التي تحرّك مواقفهم وتحدّدها، وتجري على ضوئها محاكمتهم لمواقف الآخرين وتقييمها.

وعليه، فلا بدّ من تسليط شيء من الضوء على هذا المفهوم قبل أن يتسلّل إلى ثقافة المجتمع المسلم وقلاعاته ومواقفه؛ ليتبيّن مقدار صحّته وفساده.

هناك اختلاف في كلّ المجتمعات فيما يتعلّق بالأمور الشّخصيّة، وهذا الاختلاف ليس معنياً لهذا المفهوم فلا كلام فيه، وإنما الكلام في الاختلاف فيما يتعلّق بالحياة العامة لمجتمعات وتوجهات المجتمع والأمة ومواقفهما.

وهناك اختلاف بين أهل الحقّ وأهل الباطل فيما يتعلّق بالهدف والموقف والأسلوب مع تبين ما هو حق، وما هو باطل.

والمفهوم المطروح لا يتناول هذا النوع من الاختلاف فيما يقصده المؤمنون من أصحاب الطرح، وإنّ كان هذا شيئاً مطروحاً على مستويات أخرى كما هو منادى به في بعض الساحات في إطار أشمل كما يطرحه بعض العلمانيّين في بعض البلاد.

وهناك اختلاف بين فريقين أو فرقاء من أهل الحق والهدف المشترك كتقليل المعاناة، وتخفيف الظلم والفساد في أي ساحة من الساحات، وهو اختلاف قد يتعلق بأسلوب أو موقف عملي من قضية أو أكثر، وبصورة مؤقتة أو دائمة ولا فرق.

ولا أقل من أن يشير مفهوم حيادية المرجعية إلى هذا النوع من الاختلاف.

فنحن في هذا الحديث، وهذا النوع.

لكن هذا الاختلاف قد يكون في حدود المباح والنافع، مع تفاوت يسير في النفع يكون في صالح وجهة النظر هذه، أو في صالح وجهة النظر تلك.

وقد يصل إلى حدود أوسع، ويتفاحش الفرق بين الموقفين تفاحشاً كبيراً فيما يُستتبع من المنافع والأضرار اللاحقة بالناس والوضع العام بما قد يصل إلى اصطدام بعض المواقف والخيارات عند هذا الطرف أو ذاك بالحكم الشرعي والمصلحة العامة.

وهنا يأتي السؤال عن شرعية حيادية المرجعية القادرة على التدخل والتصحيح، كلامنا في هذا المقام.

وقبل ذلك يُسأل: هل المرجعية معفوة أساساً وابتداءً عن اتخاذ موقف معين من القضايا العامة التقى موقفها مع موقف هذا أو ذاك أو اختلف ما دام مطابقاً في نظرها للحكم الشرعي، وأن عليها أن تتخلى عن مسؤوليتها العامة حتى مع القدرة، وعدم موجبات سقوط التكليف انتظاراً؛ لاتخاذ الآخرين الموقف؟^(١)

كيف ينسجم هذا اللون من الحيادية مع التكليف الشرعي العام أولاً، ومع مطالبة الأمة للمرجعية برعاية قضاياها ما أمكن ثانياً؟^(٢)

والحيادية حين تكون حيادية من الخطأ والصواب، والضرار والنافع حسب تشخيص المرجعية نفسها تكون خيانة وتخلياً من المسؤولية لا يصح للمرجعية ارتكابهما.

نعم، إذا كانت المرجعية مغلوبة على أمرها، مسلوبة الإرادة من ناحية عملية، ولا تجد طريقاً مفتوحاً، ولا يمكن لها فتح هذا الطريق لأن تقول كلمتها، وتقف موقفها الشرعي فذلك أمر آخر.

وقد وقع فيه أئمة معصومون أطهار.

١- هل ترضى الأمة للمرجعية أن تتخلى عن مسؤوليتها، وتقف موقفاً متفجعاً، وتنتظر قول الآخرين؛ لتصفق لهذا أو تصفق لذاك، أو لا تصفق لهذا ولا تصفق لذاك نهائياً؟ ألا نظلم المرجعية بهذا الطرح؟

٢- من جهة نطالب المرجعية بأن تقف موقفاً من قضايا الناس، ومن جهة أخرى نطالبها برفع اليد ولا تبدي أي رأي، وتترك الناس أن يشرق من يشرق، وأن يغرب من يغرب.

حيادية بمعنى: لا يهمني أمر الناس، أو أن الآراء المتناقضة كلها صحيحة، أو كلها خاطئة حيادية خطأ لا ترتكبها مرجعياتنا الواعية الكبيرة.

ومتى وقف أي معصوم من المعصومين عليهم السلام موقف الحيادية والتفرُّج، وعلى مسافة واحدة من كل الشقاكات والتشققات التي تتعلق بمصلحة الدين وسلامة الأمة وهو قادر على بيان الصحيح من الخطأ، والسليم من الفاسد.

وفارق العصمة لا دخل له أبداً في هذا المقام.

وإنما كان إقرار المعصوم حجة حيث يمكنه بيان الرأي، لأنه لا يقف موقف الحياد من الحق والباطل، والصحيح والخطأ.

الحيادية التي يمكن أن تقبل ديناً هي أن تقف المرجعية من خطأ هذا الطرف موقفها من خطأ الطرف الآخر، ومن صواب هذا الطرف موقفها من صواب الطرف الآخر، ولا تعادي الحق هنا، وتصادق الباطل هناك بصورة كلية أو جزئية.

أما الأبوّة والمظليّة المنفتحة على كل وجهات النظر بغض النظر عن خطئها وصوابها، وأثرها النافع أو الضار، وموافقتها للحكم الشرعي وعدمه، فهي عيب وعار على المرجعية لا يصح ارتكابه، ومخالفة شرعية واضحة لا تجوز مقاربتها.

وموقف السكوت لا يبرره إلا سقوط التكليف، وموجباتُ هذا السقوط لو تمت^(١).

الرَّدُّ على أولي الأمر

هناك قضايا بحسب طبيعتها ودرجة وضوحها، وبدايتها في الإسلام لا تحتاج إلى توضيح، ولكن قد يشتبّه مشتبّه، فيتوجّب البيان العلمي الذي يعيد الأذهان إلى بديهية تلك القضايا.

أولاً: الراد على الرسول صلّى الله عليه وآله رادُّ على الله هذه قضية تستوي فيها مساحة الحكم

الإلهي ومساحة الحكم الولائي، فسواء كان الصادر من الرسول تبليغ لحكم إلهي أو أمر حكومي، فإنَّ الرَّدَّ عليه في هذا أو ذاك هو من الرد على الله سبحانه، ووحدة الرد هنا وحدة تنزيلية وليست عينية، بمعنى أنَّ الرد على الرسول ﷺ هو في حكم الرد على الله، وبمنزلة الرد على الله، وليس هو هو، فإنَّ ردَّ أحدنا على أمر بعد ردِّه الأول مثلاً، لا يعني أنَّ الرَّدَّ الثاني هو عين الرَّدَّ الأول.

ولماذا الرَّدُّ على الرسول ﷺ هو بمنزلة الرد على الله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لما قاله سبحانه: ﴿... مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣).

فالرد على الرسول ﷺ فيه ردُّ لأمر الله باتباعه، وطاعته، والأخذ منه، والتسليم لحكمه، وهذا لا غبار عليه.

ثانياً: الرَّدُّ على مَنْ نَصَّبَهُمُ اللهُ أئمةً للمسلمين في دينهم ودنياهم بعد الرسول ﷺ ردُّ على الرسول ﷺ فيما بلغه من إمامة هؤلاء المنصوبين، وهو ردُّ لأمر الله بطاعتهم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٤)، فالراد على الإمام راد على الله بحكم الآية الكريمة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

والخلاف في أنَّ تنصيب الله ﷻ للأئمة بعد الرسول ﷺ هل هو تابع لتنصيب الناس لهم عن طريق الشورى الخاصة، أو الانتخاب العام، أو هو تنصيب ابتدائي من الله، وأنَّ الخيرة له لا لغيره؟

١- الحشر: ٧.

٢- النجم: ٣-٤.

٣- النساء: ٦٥.

٤- النساء: ٥٩.

وسواء أخذ المسلم بهذا الرأي، أم ذاك لزمه أن لا يرد على الإمام المنصوب أو المُمضى إمامته.

اللَّهُ وَحْدَهُ إِمَّا أَنْ يَنْصَبَ الْإِمَامَ ابْتِدَاءً، وَإِمَّا أَنْ يَنْصِبَهُ النَّاسَ، ثُمَّ يَمْضِي اللَّهُ وَحْدَهُ مَنْصُوبِ النَّاسِ، سِوَاءَ كَانَ عَادِلًا أَمْ كَانَ فَاسِقًا، كَانَ عَالِمًا أَمْ كَانَ جَاهِلًا، وَسِوَاءَ قَلْنَا: بِأَنْ شَأْنُ اللَّهِ وَحْدَهُ فِي الْأَمْرِ هُوَ التَّنْصِيبُ الْإِبْتِدَائِيُّ، وَأَنْ لَا خَيْرَ لِأَحَدٍ إِلَّا هُوَ، أَمْ قَلْنَا: بِأَنْ شَأْنُهُ فِي الْمَسْأَلَةِ إِمضائي لإمامة أي إمام منتخب، فَإِنْ هَذَا الْإِمَامُ حَتَّى الْمَمْضَى سَتَجِبُ طَاعَتُهُ، بَعْدَ إِمضَاءِ اللَّهِ وَحْدَهُ لِإِمَامَتِهِ، وَعَلَيْهِ أَخَذْنَا بِهَذِهِ النِّظَرِيَّةِ أَوْ تِلْكَ النِّظَرِيَّةِ سَيَكُونُ الرَّدُّ عَلَى الْإِمَامِ رَدًّا عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ.

ما معنى الرد على الإمام؟

الاستكبار على أمره، وتكذيب أو رفض نقله التبليغي عن الرسول ﷺ.

ينقل الحكم عن الله اعتمادًا على العلم الذي تلقاه عن رسول الله ﷺ، فنقول: لا نقبل منك، ويحكم بحكم، ويقضي بقضاء، ويأمر بأمر، فنقول له: لا نقبل منك، ونأخذ بالرأي الذي نذهب إليه، فهذا هو الرد على الإمام الذي ينتهي إلى الرد على الرسول ﷺ، والمنتهي أخيرًا إلى الرد على الله سبحانه.

والمذهب الجعفري الذي نتحدث عنه - وكان عنه الحديث في محرم على الرأي القائل بالتعيين، بأن الله هو الذي يعين الإمام، ويمتلك من الأدلة على هذا الرأي ما لا يسعه رفع اليد عنه، وليس هذا مجال التفصيل -، ورأي المذهب في الأئمة الاثني عشر (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أنهم معصومون، لا يدخل نطقهم باسم الدين في حكم من أحكام الشريعة المتلقاة من رسول الله ﷺ، أو في حكم من الأحكام الولائية خلل عن جهل أو عمد أو سهو، وهم معصومون خارج هذه الدائرة كذلك.

هذا رأينا، ولنا أدلتنا، وليس من حق أحد أن يصادر علينا الرأي، وحرية الفكر والمعتقد.

ونحن لا نحمل السيف؛ لإجبار الناس على مذهبنا، وكون هذا أو ذاك لا يرى العصمة إلا للأنبياء عليهم السلام لا يعطيه الحق بأن يلزمنا برأيه، ولا يملك علينا الرأي، وأن نفارق ما دلَّ عليه الدليل عندنا.

ثالثاً: الراد على الفقهاء رادُّ على الأئمة عليهم السلام الذين ثبت من الدليل أنهم أرجعوا شيعتهم إلى الفقهاء العدول في زمن الغيبة، ونصّبواهم نواباً يرجعون إليهم، وأمروهم بطاعتهم.

وعليه فالمستكبر على الفقهاء من المؤمنين، الراد عليهم كأنه يقول للأئمة عليهم السلام : لا أطيعكم في أمركم بالرجوع إلى الفقهاء، وفي تنصيبكم لهم نواباً لكم في غيبتكم!! وهذا العصيان للأئمة عليهم السلام عصيان لرسول الله صلّى الله عليه وآله الذي أمر بالتقيد بأمر الأئمة عليهم السلام ونهيه، وعصيان لله الذي نصّب الأئمة عليهم السلام في منصب الإمامة بعد رسوله صلّى الله عليه وآله، وبلغ عنه الرسول كما في رأينا الاعتقادي العلمي الثابت.

قضايا لا تحتاج إلى توضيح

تنبيهات

١- لله في الناس سفينة نجاة، وسفينة النجاة في حياة الرسول صلّى الله عليه وآله هو الإسلام ورسول الإسلام الذي يفهمه الفهم المعصوم، ويطبقه التطبيق المعصوم، وسفينة الإسلام بعد الرسول صلّى الله عليه وآله في نظرنا هو الإسلام المنتزّل على رسول الله صلّى الله عليه وآله، والمتلقّى من الإمام بدقّة، مع ضميمة الإمام، يعني أن سفينة النجاة بعد النبي صلّى الله عليه وآله إنما تتم بالإسلام، والإمام المعين من الله الذي يفهم الإسلام الفهم المعصوم، ويطبقه التطبيق المعصوم.

والعقل يقول لنا، والدين يقول لنا: إنَّ الإسلام لا يبقى معصوماً في فهمه النظري، وفي واقعه العملي ما لم يكن الإمام القائم على الإسلام، والناطق به والمبلّغ له، والحاكم باسمه معصوماً.

الخارطة الدقيقة لا يسلم لك من دقتها في فهم مهندس قاصر إلا بقدر فهمه.
والإسلام بعيد الغور، وكم اختلفت اجتهادات الكبار في شأنه، وشطت بعض
الاجتهادات الشطط البعيد الذي لا يناسب أحياناً حتى مستوى ذلك المجتهد المخطئ
في اجتهاده.

وسفينة النجاة التامة والشاملة هي في الإسلام المعصوم فهماً وتطبيقاً لا فيما دونه.
٢- الفقهاء العدول لا يبلغون مبلغ الأئمة المعصومين عليهم السلام، ولكنهم القمّة على
مستوى المرجعية الإسلامية في زمن الغيبة، وهم الذين دلّ الدليل عندنا على مرجعيتهم،
ووجوب الأخذ عنهم، وطاعتهم، وكونهم النواب الحقيقيين عن أئمة الهدى عليهم السلام في
غيبتهم، وعند ظهور القائم عليه السلام يرجع الأمر كله إليه، وهو المتصرّف في نصب أو عدم
نصب من يشاء من الفقهاء نواباً خاصين.

وحرمة الرد على الفقهاء لا تنشأ من عصمة فتوَاهم وعصمتهم، وإنما تنشأ من
عصمة أمر الإمام عليه السلام الذي شدد على اتباعهم، والأخذ منهم، والانصياع لما يحكمون
به.

٣- حاشا للإسلام الحق أن يقبل خلافة يزيد، أو طريقة استخلافه كذلك، وأن
يقبل في مقام الكلام عن الإسلام وحقائقه الاحتجاج باسم القانون الوضعي، والتهديد
به، فهذا ليس من الإسلام، وهو جديد على الإسلام، وكيف لا تكون نظرية الجبر التي
تبرر معاوية ويزيد ظلمهما، أو تبرئتهما من الظلم، وتحمله على الله سبحانه وتعالى،
حيث هو الذي أجبر يزيد، وأجبر معاوية على الظلم!، ثم يعاقبهما على ما أجبرهما
عليه، وبذلك يكون سبحانه قد ظلم مرتين!

٤- مرة نتحدث عن أخطاء الواقع السياسي وعندئذ نتحمل مسؤولية هذا الكلام،
ومرة يكون الحديث عن انحرافات يزيد وشناعاته، فيتولى البعض إسقاط ما عن يزيد
على واقع سياسي معين، وذلك من مسؤوليته.

٥- كيف يستقيم القول بطاعة أولي الأمر بصورة مفتوحة ومن دون شرط فقاهاة، ولا عدالة، والتي يقول بها البعض، وينادي بها في مواجهة المطالب الوطنية، ولتكميم الأفواه؟

كيف يستقيم هذا مع استنكار واستهوان القول بطاعة الفقهاء العدول؟
ونسأل: أليس القول بطاعة أولي الأمر راجعاً إلى فكرة أن الراد عليهم بمنزلة الراد على الله الذي أمر بطاعتهم - بغض النظر عن فقاهاتهم، وعد التهم كما يرى هذا البعض -؟

فإنه إذا كانت معصيتهم لا تعني معصية لله، وكان الرد عليهم لا يعني الرد والاستنكار على الله، فكيف وجبت طاعتهم؟^(١)

٦- الفقهاء رأيهم في كثير من المساحة الفقهية رأي اجتهاادي قد يصيب واقع الحكم الثابت عند الله سبحانه وقد يخطئه، ويجوز في حق أي فقيه آخر أن يؤدي به الاستدلال إلى رأي اجتهاادي يخالف رأي صاحبه، والحجة في حق كل من الفقيهيين هو ما أدى إليه اجتهااده، لا اجتهاد مقابله.

أمّا الرد على الفقيه إذا كان قائماً على التّشهي، وبلا حجة شرعية، فهو غير جائز، كما هو الاتفاق عند كل المسلمين، ويأتي ذلك من مثل غير المجتهد.

ولو ثبت أن غلق باب الاجتهاد هو الصحيح شرعاً لسقطت قيمة كل اجتهاد لاحق لمن أوقفت الشريعة حق الاجتهاد عليهم، ولكن باب الاجتهاد عندنا مفتوح.

٧- لو استحق أحد الإمامية الاثنى عشرية التكفير لقوله بعصمة أهل البيت عليهم السلام لاستحق كل المنتمين لهذا المذهب أن يكفروا، لأن القول بعصمتهم عليهم السلام من المقومات الضرورية للمذهب.

٨- من سلم بأن إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله إنما هي بأمر الله، وأن إطاعة الإمام بأمر

الرسول ﷺ، وإطاعة الفقيه بأمر الرسول ﷺ، أو الإمام لزمه حتماً أن يرى في الرد على المأمور بطاعته ردّاً على الأمر بتلك الطاعة.

والنقاش كلُّ النقاش في ثبوت الأمر وعدمه، وكما يعبرُ المنطقة: النقاش صغرويٌّ لا كبرويٌّ، يعني هناك أمر من الرسول ﷺ بإطاعة الإمام أو ليس هناك أمر، أما لو ثبت الأمر من رسول الله ﷺ، أو من الله ﷻ مباشرة بإطاعة الامام كان لا بد أن نعترف بأن الرد على الإمام هو رد على الرسول ﷺ، وعلى الله سبحانه وتعالى.

والأمر لا يرتبط بالعصمة وإن كان كاشفاً عنها على بعض المستويات كما في أمر الله ﷻ بالطاعة المطلقة للرسول ﷺ، وأمر الرسول بالطاعة المطلقة للإمام.

فهذان الأمران كاشفان عن العصمة، ولكن إطاعة أمر الرسول ﷺ، أو إطاعة أمر الله ﷻ حين يأمر بإطاعة شخص لا تتوقف على عصمة ذلك الشخص دائماً.

وقضية أن الرد على المأمور بطاعته هو ردٌّ على الأمر بهذه الطاعة قضية عقلية وعقلانية، ولاستنتاج بعض النفوس حول هذه القضية نذكر مثالين:

المثال الأول: ماذا يقول الناس في الراد على منصوب القيادة السياسية العليا، أو العسكرية العليا في حدود الصلاحيات الممنوحة للمأمور بإطاعته، أهو راد على تلك القيادة، أو لا؟

إذا نصّبت القيادة العسكرية العليا، أو القيادة السياسية العليا في أي بلد شخصاً وأمرت بإطاعته، الرد على ذلك الشخص ماذا يعد؟

واضح جداً أنه رد على القيادة العسكرية أو السياسية نفسها، هذا مع التنبيه على أن هذه القيادة أو تلك لا تتصف بالعصمة!

المثال الثاني: من رفض طاعة والديه في حدود ما أمر الله ﷻ به من طاعتهما ماذا يقال عنه؟، عاصٍ لله سبحانه وتعالى.

٩- مَنْ لم يدرك مَنْنا - نحن المسلمين جميعاً - أَنْ الأخذ للفقهِ من إمامه منتهٍ إلى إذن الله بنحو الجواز أو الوجوب سواء كان هذا الإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، أم الأئمة الأربعة مثلاً ، ومع ذلك يأخذ منه ، فهو بعمله هذا لا يعبد الله وَعَلَى ، لأنَّ الله إنما يُعبد بامتثال ما أمر به لا بما أمر به غيره .

فأننا لو صليت الصلاة على رأي الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، مع كوني لا أعتقد بأن أمر الإمام الصادق عليه السلام منتهٍ إلى أمر الله ، فإنَّ عبادتي هذه ليست لله وَعَلَى ، هذه عبادة لجعفر الصادق عليه السلام ، والمعبود هو الله وحده .

ولورد أحدنا على الإمام الذي يعتقد بإذن الله له في الفتوى ، والتصدي لإمامة الفقه ، وبوجوب أخذ الغير لدينه منه ، فقد ردَّ على الله سبحانه سواء كان الرد للحُجَّة أم بالاستكبار على الفتوى التي يراها الرادِّ حجة عند الله وَعَلَى يحاسب العبد عليها ، ويعذِّبه بها .

١٠- الاختلاف في الرأي بين المذاهب الإسلامية الثابتة لا يُنكر ؛ وهو لا يهز إيماننا مطلقاً بوجوب التقارب النظري بين المسلمين ما سمحت به المذاهب نفسها ، ووجوب توخُّدهم عملاً فيما يحمي الإسلام ، ويحافظ على كيان المسلمين ، ويدفع عنهم غائلة أعدائهم ، ويحقق مصلحة أوطانهم ، ويمتُن العلاقات الإيجابية بينهم ، والعمل على تقارب المسلمين ، ووحدتهم واجب إسلامي لا فرار منه ، ولا يثينا عنه شيء .

الكلام عن وجوب إطاعة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ، وإطاعة الفقهاء الذين ثبت الأمر عنهم عليهم السلام بوجوب إطاعتهم ليس من الحديث المستجد المرتبط باليوم أو الأمس القريب ، إنَّه الحديث المرتبط بزمان الرسالة والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وهو حديث اليوم والغد ، ولا علاقة له بطرف خاص من الظروف التي تمر بها الأمة ، أو منطقة من مناطقها ، أو قطر من أقطارها .

والكلام في متابعة العلماء قديم قدم الإسلام ، وقدم الرسالات الإلهية كلها ، وهو

كلام القرآن الكريم، والسُّنَّة المطهَّرة، وكلام كلِّ فرق المسلمين، ولا يصح أن ينتهي هذا الكلام أو يُتوَّارَى به لهواجس واهمة قد تعيشها بعض الأوساط السياسية، وهو كلام لا علاقة به بتوجُّهات سياسية معيَّنة، وطرح سياسي عملي خاص يرتبط بساحة سياسية محلية، أو إقليمية^(١).

فقمأونا.. علمأونا تصدروا كلَّ نمضة

وظموح التغيير طموح مشروع لا غبار عليه، التغيير إلى الأفضل، إلى الأكثر عطاءً واحتراماً للإنسان، وتقديراً لمستواه، إلى الأقرب إلى القيم الثابتة والمفاهيم المتجذرة في وجود الأمة وضميرها، وتاريخها المجيد، إلى الصيغة الأقدر على توفير درجة من العدالة.

وهذا الطموح الذي يعنى به الشباب المسلم لم يكن زرعاً ونماؤه بعيداً عن جهود الفقهاء المخلصين والعلماء العاملين في مختلف الأقطار الإسلامية في يوم من الأيام، وستبقى المسيرة الإسلامية أول مَنْ يتزعمها بصبر وجلد، وقوة إيمان، وصدق إخلاص وعقلانية وتدبرٍ وتأملٍ وتقوى من الله هم فئة الفقهاء والعلماء الذي هم ورثة الأنبياء، والذين يعملون جهدهم وما استطاعوا وبتوفيقٍ من الله أن لا يتعدوا حدوده.

وما جاء في التاريخ الإسلامي الطويل، أنه قد انحفزت مصالح الأمة، وكيانها في أي مرحلة من مراحل الصراع المرير في أي قطرٍ من البلاد الإسلامية، ولم يكن لأولئك الفقهاء والعلماء يدٌ طولى في ذلك أبداً.

يخلو تاريخ الإسلام من هذا، يخلو تاريخ الصراع في داخل الأمة الإسلامية، وفي خارجها من أن فقهاء الأمة وعلماءها قد تقدمتهم قوافل من الأمة في جهاد الأعداء، أو الأوضاع غير الصالحة.

١- خطبة الجمعة (٣١٠) ٢٣ محرم الحرام ١٤٢٩هـ، ١ فبراير ٢٠٠٨م.

وهي مئة منها الله سبحانه وتعالى عليهم فيمن من عليه من عباده الصالحين من شرائح هذه الأمة، ومن قوافلها المجاهدة شبابًا وكهولًا، رجالًا ونساءً.^(١)

عالم الدين بين الظالمين والمظلومين

أعني من العالم هنا عالم الدين الذي يحاول الانسجام مع دينه في حياته وواقعه.

كثيرًا ما تنقسم مجتمعات الناس إلى فئة المواقع السلطوية الكبيرة الجائرة، وفئة المواقع الشعبية المظلومة المنهكة، وأنت تجد من خلال هذا الواقع ظلمًا هناك ومظلوميّة هنا، علمًا ماديًا هناك وجهلًا ماديًا هنا، قوة هناك وضعفًا هنا، أمنًا هناك وخوفًا هنا، بذخًا هناك ومسكنة هنا، صحّة هناك ومرضًا هنا، شوارع هناك وأتربة هنا! تجدك في عالمين، وتجدك وأنت في وطن صغير واحد في بيئة راقية مترفة، وفي بيئة مسحوقة وملوّثة، وبيئة مرض، بيئة فقر، بيئة جهل.

فَمَع مَنْ يَكُونُ عَالَمُ الدِّينِ، وَأَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ؟ وَأَنْ يَجِدَ النَّاسَ مِنْ هَذَا الانْقِسَامِ؟ وَقَبْلَ ذَلِكَ أَنْ يَجِدَ رَبَّهُ؟!

أَيَكُونُ حَيَادِيًّا؟

لا حيادية مع الرسالية في مثل هذا الانقسام.

مع التّرف، والانحراف، والظلم، والبغي؟

هذا خروج عن الخطّ، وانقلاب في الذات.

في خندق المحرومين والمظلومين؟

هذا هو المتعین.

هذا الانحياز وبصورة إيجابية يدفع إليه حبُّ الله، الطمع في الله، خوف الله، وذلك

هو الذي يصبر عليه رغم ثقله وكلفته.

١ - خطبة الجمعة (٤٧) ٩ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٢٢ فبراير ٢٠٠٢م.

وكلفة التخندق مع المستضعفين المحرومين كلفة مضاعفة، هي كلفة عداوة من القوي، واستهداف منه لمن انحاز للمستضعفين.

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنَّ المستضعفين والمحرومين الذين طحنتهم الحياة أعصابهم متوترة، ودمهم يغلي، وقد يقلُّ صبرهم، بل قد يخسرون صبرهم تحت وطأة الظروف، والمنحاز لهذا الصفِّ يتعب، وقد تأتية السهام الكثيرة وكأنَّه العدو، والظروف، والصعوبات، والإرهاق، وطغيان المحنة، وتعاظم الفتنة يثير الأعصاب، وقد يُنسى، وقد يسبب الغلط، والخطأ الكثير، لكنَّها المسؤولية التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده وخاصَّة من وضع نفسه على خطِّ العلم والدين بصورة علنيَّة.

وهنا تكون النفس أمام امتحان كبير، هل تعادي المستضعف؟

هل تنتقم لنفسها؟

هل تتراخى في إخلاصها؟، في جهدها على خط خدمة المستضعفين؟

إنَّ كانت تتعامل مع الإنسان، فستفعل.

وإنَّ كانت تتعامل مع الله، فستصبر، وتتعالى.

وتدخل هنا أمور تزيد من حالة توتُّر المستضعفين، منها الأعياب المستكبرين التي تستهدف الفصل بين المستضعفين ومَن يخلص لهم، ويدخل على الخط كلمة غير واعية، أو غير مسؤولة هنا أو هناك تصب في التحريض؛ للنيل ممَّن قد يكون عاملاً بصدق وكفاءة وما خان أمانته، وما توانى عن المسؤولية التي آمن بها.

إنه بمقدار ما صدق علم العالم وفهمه، وإيمانه وإحساسه بمسؤوليته ستجده مرابطاً مع المستضعفين المؤمنين، وفي خندق واحد رغم كل إساءة، وكل تحدٍّ، وتكرُّر، وظلم، فهو ما قامت عليه الحجَّة من الله وَكَفَّ بِالْحِرْكَةِ تمنعه خشيته من التخلف.

وماذا يعني تخنق العالم مع المستضعفين؟

أ- لا يعني دغدغة مشاعر!

ولا يعني كلمات رنانة.

ولا يعني وعودًا كبيرة.

إنّما يعني أنّ يكون بعقله، وقلبه، وإمكاناته مع همّ، هم وقضاياهم العادلة، ومحنتهم التي تكوي حياتهم وقلوبهم.

ب- أنّ يأخذهم لله لا لنفسه، فيقف بهم عند طاعته، وإنّما يعلمهم دائماً أنّ الطاعة لله، وعليهم أن ينفصلوا عنه حال خالفت خطواته طاعة ربّه.

ج- أنّ يربّيهم تربية الأنبياء لأمرهم وأقوامهم ما استطاع حسب وزنه وفرصه.

وكيف كانت تربية الأنبياء والمرسلين للأمم والأقوام؟

تقويم داخلي، وكفاح خارجي.

أهمّ أمانة يتحمّلها رسول، أو إمام، أو فقيه، أو عالم هو أن لا يهمل إنسانية إنسان، يأخذ منه ولا يبيعها بثمن، وأن يتعلم على يده، أنّ دينه أكبر شيء عليه، وأنّ إنسانيته أنفس شيء في وجوده، ومن هذا المنطلق لا يقبل الذلّ والهوان ولا الظلم في الخارج، ويسعى دائماً لوضع حركة الحياة على المسار الصحيح.

أن يطلب الرأي الراجح في الأمور، ويقبل به، ويستعين بأهل الخبرة والبصيرة، وأن يكون هو نفسه من أهل القدرة على الترجيح، ولا يُقَاد قوْداً، ويكون الإمعّ!

هـ - أنّ ينزل عند رأي أصغر الناس وأبعدهم منه إذا رأى فيه الحق والمصلحة، وأن يردّ الرأي من أكبر الناس الذين حوله إذا رأى فيه الزيغ والمفسدة، ولا يجامل على الحق الذي أخذ الله العهد من عباده باتباعه.

و- عليه أن يتبين دائماً موضع قدمه من الحق والمصلحة، حتى إذا أحرز من نفسه أنه على الطريق لم يبال بالقال والقليل.

ز- أن يكون نظره إلى مصلحة أخوانه المستضعفين قبل أن يكون نظره إلى رضاهم.

وكم أساء الناس في عليٍّ عليه السلام الظنَّ؟!

وليس أحرص من عليٍّ عليه السلام على مصالح الناس.

وكم انشقَّ عن الأئمة عليهم السلام من جماعات؛ لاتهمهم بالتقصير، أو عدم الكفاءة وما إلى ذلك؟!

وما من مثال أكبر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من مثال الأئمة عليهم السلام في الكفاءة، والإخلاص، والحرص على مصلحة الناس كل الناس.

ح- أن يعرض كل أهدافه ومشاريعه وخطواته ووسائله على الشريعة التي آمن بها، فلا يعتمد شيئاً من ذلك إلا ما وافقها، ولا يقدم ضاراً على نافع، ولا ما هو أكثر ضرراً على ما هو الأقل، ولا يرتكب ما لا جدوى له، أو يأخذ بما هو أقلُّ جدوى، أو ما ضرره أكثر من نفعه، وكل ذلك يحتاج إلى إدراك فقهى جيد، وإمعان نظر موضوعي، وخبرة ميدانية، وتقليب للأمر، واستعانة بأصحاب النظر والخبرة بعيداً عن حالات الانفعال والارتجال والتشنج.

وإنها لأمانة كبرى من ابتلي بأمرها كان أمام امتحان ديني عسير وخطير وكبير. ^(١)

العلماء وواجب المسؤولية في مختلف قضايا المجتمع

وبعيداً عن دعوى العصمة للعلماء، فهي غير موجودة، وأداء الواجب على أتمه وكما ينبغي، وهو ليس بحاصل، وعن دعوى التنزيه عن القصور والتقصير للمجموع العلمائي، أو لأي واحد من هذا المجموع وهي دعوى لا أحد يذهب إليها.

١- خطبة الجمعة (٣٦١) ٢٢ ربيع الأول ١٤٣٠ هـ، ٢٠ مارس ٢٠٠٩ م.

أستطيع أن أقول واثقًا عن الحالة العلمائية بصورة مجملة لا التفات فيها إلى بعض الأفراد: إن العلماء لهم حضور في كل الساحات، وفي كل المعتركات الثقافية، والسياسية، والاجتماعية.

وأنا لا أتحدث عن شخص معين، إنما أتحدث عن المجموع العلمائي، فإن المجموع العلمائي لا يعيش حالة الغيبوبة، ولا يعيش حالة اللامبالاة، ولا يقبع وراء الجدران بعيدًا عن حركة المجتمع.

هم في قلب المعترك الثقافي والاجتماعي والسياسي، ولكن ليس دائمًا على الطريقة التي يراها الإنسان العادي، وتتجه ذهنيتها، ويصممها نظره للأمور، وتقديره وموازناته ومقارناته، وينتهي إليها فهمه.

وقد لا يستسيغ العلماء الأخذ بالدعاية العريضة، والإعلام الواسع لمواقفهم، في حين أن عليهم إذا عقلوا أن يتهموا أنفسهم دائمًا بالقصور والتقصير.

وأنا أتحدث هنا - كما سبق - عن حالة، وليس عن شخص بعينه، فقد يكون الشخص مصداقًا للتخلي عن عذر أو غير عذر عن واجب التواجد الكافي في الساحات الجهادية المتعددة.

أما رمي العلماء جملة وتفصيلاً بهذا الأمر، فهو من الغبن الفاحش.

وسيطل العلماء المخلصون من بين الصفوة الخالصة من الأمة يحرسون حدودها، ويدودون عن جماها، ويثبتون أصالتها من غير أن يكون أكبر همهم أن ينالوا من دنيا الناس؛ والناس لا يملكون لأنفسهم من دون الله نفعًا، ولا ضرًا.^(١)

العلماء يُسيّرهم الحكم الشرعي فقط

المجتمعُ بِمِيطالِب العلماء؟ بالنُّطق، أو الصمت؟

١- خطبة الجمعة (٢٠٩) ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ٢٢ يوليو ٢٠٠٥م.

صمتوا، فَأَعَبْتُكُمْ!

ونطقوا فَعَضَبْتُكُمْ!

ماذا تريدون؟

تريدون التدخل في السياسة؟، أو الاعتزال؟

الحكومات تقول: اعتزلوا!

الغرب يقول: عليكم الاعتزال!

الخطط الأجنبية والمحلية في كثير من البلدان قائمة على قدم وساق؛ من أجل إقصاء المسجد، وتعطيل دوره في الحياة السياسية بالكامل!

هل تشاركون في طرح الاعتزال للعلماء؟!

قولوا لنا: اعتزلوا.

أتريدون التدخل، أو الاعتزال؟

التدخل له ضريبته على العالم، وعلى المجتمع.

أتريدون النطق المشروط، أو الحر؟

قد يقول المجتمع للعلماء: انطقوا، قولوا كلمة الحق، تدخلوا ولكن بشرط أن توافق كلمتكم وموقفكم توجه الرأي العام، أو النخبة المثقفة!

اعرضوا هذا الشرط على الله، على رسوله، على الكتاب، على السنة، أمير المؤمنين عليه السلام لم يوافق على البيعة بشرط التقيّد بمسيرة الشّيخين!

يا عالم انطق، وتدخل، ولكن لاتخالف رأينا، أشرط معقول؟، يرضاه عاقل؟ يرضاه

دين؟

لا تخالف شرع الله، هذا شرط صحيح.

اقتراحُ النطق المشروط مرفوض من قبل العلماء، ولسنا مع خيار الحكومات، وعلى العلماء أن ينظروا إلى الحكم الشرعي وما يقتضيه؛ اقتضى السكوت، فعليهم أن يسكتوا، اقتضى النطق فعليهم أن ينطقوا، هكذا إذا استطعنا الانسجام مع ديننا.

الحكم الشرعي هو المنظور، وهو الحاكم، ومع تقديري لصفوف المؤمنين، ولجماهير الأمة إلا أننا لا يكون لنا وزن ولا شأن عند الله حتى ندعن لتشريعهِ.^(١)

١- خطبة الجمعة (٢١٢) ١١ شعبان ١٤٢٦هـ، ١٦ سبتمبر ٢٠٠٥م.



الفصل الرَّابِع

أَطْرُوحَاتُ الْحَكْمِ

الباب الأول

أطروحة الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه)

حديث صراحة وعلم

هناك توجُّس، وتحسُّس عند السياسي من الدِّيني في ساحاتنا الإسلامية والعربية بدرجة كبيرة، وهذا التوجُّس والتحسُّس يقود إلى التهويل والتأويل، وتقوم عليه خطط خاطئة، وتبنى عليه سياسات غير صحيحة، ويحدث كثيرًا من التوترات، والساحة المحلية في مسألة ولاية الفقيه يمكن أن تكون مثالًا لذلك.

لنتحدث في المسألة حديث صراحة وعلم:

الأصل الإسلامي العام: على مستوى المسلمين كلُّهم هو هذه الكبرى السالبة، وهي أنه: (لا حكم لإنسان على إنسان، بل لأحد من الممكنات على أحد بالأصل)، وهناك استثناء، والاستثناء يحتاج إلى دليل.

المخرَج في الفكر السُّنِّي

الفكر السني عنده أن المخرج من هذه الكلية السالبة الشورى، بشروط دون العصمة. فإذا بُوع مسلم من المسلمين للحكومة اكتسب حق الحكم في الناس، وكانت له صلاحياته.

وذهب البعض إلى أن الغالب بالسيف يكتسب الشرعية.

المخرَج في الفكر الشَّيعي

أما بالنسبة للفكر الشيعي، فإن المخرج من هذه القاعدة - قاعدة: أن لا حكم لأحد من الممكنات على أحد، وأن الحكم في الأصل لله وحده - إنما هو العصمة على مستوى الحكومة الشَّأنية، والعصمة، والبيعة على مستوى الحكومة الفعلية.

المخرج في عصر الغيبة

يأتي الإشكال في الفكر الشيعي في مرحلة غياب المعصوم عليه السلام، وقد دخل الفقهاء في بحث ولاية الفقيه من مدخل الاستشكال في أن يكون حكم لأحد من الناس دون المعصوم عليه السلام.

فسألوا: هل للفقيه أن يحكم؟

وسألوا: ما هي صلاحيات الفقيه إذا حكم؟

هل تثبت له صلاحيات الحاكم المعصوم؟

أو تثبت له صلاحيات دون هذه الدرجة الواسعة؟

والسؤال: هل الفقيه يحكم؟

إنما ينتهي الجواب عليه إلى إثبات شأنية الحكم، وأن من شأن الفقيه العادل أن يحكم، وأن الفقاهة والعدالة تُثبت أرضية لصحة حكمه.

فالفكر الشيعي في قمة تشكيكه في مسألة الحكم بعد المعصوم يطرح السؤال حتى بالنسبة للفقيه، وليس معنى ذلك أنه يثبت الحكم لغير الفقيه، ولا يثبت له للفقيه.

إنما يرى - وبحسب النظرة الإسلامية في هذا الفكر - أن الحكم في الناس إذا أردنا أن نعطيه الصبغة الشرعية، وأن نعتبره طريقاً للتعبُّد إلى الله وَعَلَيْكُمْ، وأنه امتثال لأمر الله سبحانه وتعالى، أيثبت للفقيه أو لا يثبت للفقيه؟

وإذا قيل بحكم الفقيه، جاء السؤال الثاني - كما سبق - وهو: ما حدود صلاحيات حكمه؟

والسؤالان يشكّلان موضوع البحث في ولاية الفقيه.

وهي مسألة علمية قبل أن تكون عملية.

وليس كل من بحث في بحث ولاية الفقيه وانتهى إلى الإيمان بها فعَل هذه الولاية.

شروط الولاية الفعلية

الولاية الفعلية مشروطة ببسط اليد؛ حكومة بلا جيش، حكومة بلا بيعة، بلا سيف، بلا آخره....، لا وجود لها على الأرض.

ونحن نرى أن الحكومة عن طريق البيعة، وليس بتسليط السيف على رقاب الناس. الفقيه لا يسلط سيفه على رقاب الناس، وينحر المسلمين نحرًا، ويضحي بكل المصالح الإسلامية، ويبعثر الحالة الإسلامية؛ من أجل أن يتمتع بالحكم!

الإيمان النظري لا يلزم التطبيق الفعلي

الولاية الفعلية مشروطة ببسط اليد، ومقدمة بسط اليد البيعة، وإلا كانت ولاية الفقيه فكرة لا أكثر.

فليؤمن الفقيه بأنه الحاكم، ولكن المساحة مشغولة بحكومة ثانية، فهنا لا حكومة له على الأرض، ولا يمكن أن يشغل الساحة الخاضعة لحكم الغير بحكمه. الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام - وهو الذي نرى وجوب إمامته - ما كانت له الحكومة الفعلية في زمن الخلفاء الثلاثة، وما زاحم حكمهم بحكمه، وقراراتهم بقراراته، وإنما فعل حكومته حين بايعه الناس، وتأتى له بسط اليد، فكيف بالفقيه؟!

لا ولاية فعلية خارج مساحة اليد المبسوطة

الفقيه حاكم شرعي بالصورة الفعلية في إقليمه الذي تأتى له أن يبسط يده عليه، وأما الأقاليم الأخرى فيها حكوماتها الخاصة التي تنفذ أوامرها ونواهيها دون أن تحكم بأوامر ونواهي ذلك الفقيه، ومن دون أن تحدث ولاية الفقيه في منطقته حكمه الفعلي فوضى التعارض بين أوامر حكومته، وأوامر حكومات الأقطار الأخرى غير الداخلة في حكمه، وتحطم حياة المسلمين.

مع قيام حكومة أخرى ولاية الفقيه غير قائمة بنحو الفعل، والإمام المعصوم عليه السلام لم يكن يمارس حكومته فعلاً في مثل هذه الحالة، الإمام الصادق، الإمام الباقر، كل الأئمة عليهم السلام بعد أمير المؤمنين، وبعد الحسن عليه السلام لم يمارسوا ولايتهم بصورة فعلية.

لا علاقة لفكرة ولاية الفقيه بالتَّوسُّع السياسي

لا ربط بين الفكرة - فكرة ولاية الفقيه - وبين إرادة التوسع السياسي، لا ربط بين ولاية الفقيه وبين قرار التوسع السياسي، لا ربط بين ولاية الفقيه وقيام ظروف مؤاتية للتوسع السياسي.

حتى لو كان هناك طمع، لو كان هناك توجُّه، فهذا الطمع، وهذا التوجه لا يلتفت بأي وجه من الوجوه إلى مسألة ولاية الفقيه.

قد يجتمع التوسع السياسي، وقرار التوسع السياسي، ظروف التوسع السياسي مع الفكرة، وقد يفترقان، ولا تلازم بينهما، وليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا.

والحكم قد يكون ديمقراطيًا، ويكون له إرادة التوسع السياسي، وقرار التوسع السياسي، وظروف التوسع السياسي، وقد يكون إسلاميًا وقائمًا على ولاية الفقيه إلا أنه لا توجد عنده إرادة توسع سياسي، ولا قرار توسع سياسي، ولا ظروف التوسع السياسي؛ وهذه مسألة راجعة إلى الخارج وليست هي للفكرة في حد ذاتها.

الفكر السنِّي - كما الشيعي - يثبت ولاية الفقيه!

أؤكد أنَّ الفكر السنِّي أكثر وضوحًا في مسألة ولاية الفقيه من الفكر الشيعي.

الفكر السنِّي واضح جدًّا في حكمه بولاية الفقيه، فهذه الولاية مفروغ من ثبوتها في هذا الفكر.

لماذا؟

الفكر السنِّي يوسِّع الولاية، ويعطيها لغير الفقيه، وهل يُعقل في الفكر السنِّي أن يجد من الفقهاء مانعًا من ذلك؟!

مائة في المائة لا.

فالفكر السنِّي يثبت ولاية الفقيه، ويثبت ولاية أوسع وهي ولاية غير الفقيه.

وليس أنه يثبت الولاية لغير الفقيه، ويمنعها عن الفقيه.

فالإخوة السنة الكرام يثبتون ولاية الفقيه، ولكنهم يعيشون مع الحكومات في

أوضاعها المختلفة من غير أن تحدث كل يوم على يدهم ثورة.

والشيعة عاشوا - أيضاً - مع الحكومات، ولم تحدث على يدهم كل يوم ثورة. إيران نفسها حُكِّمت بحكومات وضعية، ولم يُفَعَّلْ مَنْ يُؤْمِنُ منهم بولاية الفقيه ولايته وحكومته، ولم يُحدثوا في كل يوم ثورة. حين يؤمن الإخوة السُّنَّة بولاية مَنْ هو أعم من الفقيه، فهم يؤمنون جزماً بولاية الفقيه؛ لأنَّ الأخص داخل في حكم الأعم. ولا يأتي في البال، في العقل، في العرف، في العقلاني أنَّ الفقاها والعدالة مانعان من أصل الحكم، أو مُضَيِّقان لصلاحيته.

نتائج عمليّة

١ - ولاية الفقيه لا صلة لها بإرادة التَّوسُّع السِّياسي

يترتب على هذا الفكر المتعلق بولاية الفقيه أنَّه لا صلة لها مطلقاً بإرادة التَّوسُّع والتَّمدد السياسي، وإثارة الحروب، وهذه أمور قد تحصل عند الفقيه، وقد لا تحصل. وقد تحصل عند غير الفقيه، وقد لا تحصل.

ونحن نعرف أنَّ الأنظمة الأرضية تحاول دائماً أن تتمدد وتتوسع وحساباتها في هذا المجال، تنصب على البعد السياسي والبعد العسكري فحسب.

أما بالنسبة لمن كان فقيهاً عادلاً، فحساباته أوسع من ذلك ووحدة الأمة، ومصلحة الدِّين، والحفاظ على هُوية الأمة أولويات لا تغيب أبداً في نظر أي فقيه عادل من المؤمنين. ولاية الفقيه لا صلة لها على الإطلاق بإرادة التوسع والتَّمدد السياسي، وإثارة الحروب، وممارسة الحكم البديل في بلد محكوم لغير الفقيه يزاحم حكم حكومته. ولو أخذ بتفعيل حكم الفقيه في بلد محكوم لغيره لكان معناه التمزق! معناه: تشتت المسلمين!

معناه: أن تعم الفوضى الطاحنة في كل بلد يتواجد فيه جماعة من الشيعة.

يتوقع من أي حكم ديمقراطي، أو غيره لا يمت لولاية الفقيه بصلة، ولا للإسلام بصلة أن يستهدف التوسع السياسي، في حين نتوقع جداً بأن الفقيه أبعد ما يكون عنده هو التوسع السياسي مراعاةً للموازن الإسلامية، وللمصلحة الإسلامية.

يمكن جداً أن نعثر على فتاوى من كل الفقهاء الشيعة تمنع من التآمر على الأوطان، وإضعاف الأمة، وتقريبها، ولا يمكن لك أن تعثر على فتوى واحدة علنية أو سرية تجيز ذلك - وأنا بذلك ضمين -، إلا أن يكون المفتي اسماً بلا مسمى، وبعيداً عن فهم روح الإسلام ومصلحته.

٢- ولاية الفقيه لا تعني أن يتمرد الشيعة على قوانين بلدانهم

لا تقوم على فكرة ولاية الفقيه فتوى بتمرد الشيعة على قوانين البلدان التي هم مواطنون فيها.

وأمر إنكار بعض القوانين غير العادلة، أو غير المستقيمة مع الدين مشترك بين الفكر السني والشيوعي من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفاظ على الهوية الإسلامية، والشريعة الإلهية المقدسة.

المواطنون الشيعة كغيرهم من مواطني البلدان التي يعيشون فيها تكون لهم ملاحظاتهم على هذا القانون أو ذاك، وعلى هذا المشروع السياسي أو ذاك، وهذه المسألة السياسية أو تلك، ومطالبتهم بالإصلاح والعدل والمساواة هي على حد مطالبة كل سائر المواطنين في بلدانهم بكل ذلك، وهو أمر لا ربط به بالإيمان بولاية الفقيه وعدم ولايته، وهو ثابت لا يمكن سقوطه.

هل القناعات بالنظريات العلمية ممنوعة؟!

أما تدخل السياسة في قناعات الناس العلمية في المساحة الدينية وغيرها، فهو أمر مستغرب، وبعيد عن الموضوعية، ومن شأنه أن يجرّ متاعب جمّة في أي بقعة من بقاع العالم حصل فيها هذا الشيء، وهو خروج من السياسة عن اهتماماتها، وعن دائرة كلّ الاحتياطات لمصالحها، ولا وجه له على الإطلاق.

والناس من أي دين، ومن أي مشرب، ومن أي مذهب، ومن أي وجهة نظر علمية أو دينية ليسوا مستعدين أن يتنازلوا عن قناعاتهم خاصة ما كان منها دينياً ثابتاً.^(١)

لماذا الكلام والبحث في مسألة ولاية الفقيه وحكومته في ساحة ليس لها في حياتها وواقعها السياسي ارتباط بالمسألة كساحتنا، ولها نظامها الخاص المعروف؟
والجواب كالآتي:

١- الكلام في ولاية الفقيه من حيث البعد الديني للقضية، وهل هي منسجمة مع الطرح الديني، أم هي بدعة في الدين ومجافية له؟

وليس الكلام فيها من حيث البعد العملي السياسي، والناحية السياسية التي قد يتفق عليها وضعان سياسيان، أو يختلفان.

٢- الساحة الإسلامية العربية عامة، بل الإسلامية والعالمية، وليست الساحة المحلية فحسب صارت مشحونة بالهجمة الإعلامية، والتهميش، والتشديد، والسخرية، والكذب، والاستهزاء، والإثارات الاستفزازية المستهدفة للفكرة وحتى باسم الدين.

وفي هذا تطاول كبير على الدين، وتحريف له، وتزييف للحقائق لا يصح السكوت عليه.

٣- سبق القول بأن كثيراً من المناقشات في الموضوع تنصب على أصل الحاكمية للدين بأي وجه من الوجوه، وبأي لون من الطرح، وترفض هذه الحاكمية أساساً وعلى الإطلاق.

٤- إن التعطيل العملي لأي فكرة من أفكار الدين يمثل خطراً عليه، لكن الأخطر من ذلك تشويه هذه الفكرة، ومحاولة إسقاطها حتى على المستوى النظري، وفصلها عنه.

وهذا ما صار إليه موقف كثير من أبناء الأمة من هذه الفكرة، فلا بد أن يتصدى لمثل هذا التشويه للإسلام.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٣٥) ٢١ رجب ١٤٢٩هـ، ٢٥ يوليو ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠هـ، ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.

تخُرُّصَات الصَّحَافَةِ تَتَطَلَّبُ هَذِهِ الْوَقْفَةُ التَّوْضِيحِيَّةُ

يدعو إلى هذه الوقفة مع قضية ولاية الفقيه كثير من الكلام بهذا الصدد على لسان الصحافة وهو كلام يفتقد الدقَّة والموضوعيَّة، ويأخذ بالتزويد والإضافة والتَّخُرُّصَات والتَّهْوِيل والتَّضخيم؛ ليبني نتائج كثيرة واهمة.

ولاية الفقيه بين القَبُول والرَّفْض

أوَّلًا: لا اعتراض في عالمنا الوضعي، وفي عالمنا الديني العادي على ولاية وحكومة غير الفقيه بما هو غير فقيه، ومن حيث هذا السلب بعد التسليم بنظام الحكم الذي يحكم باسمه، والشرعية القانونية؛ لوصوله لمنصب الحكومة حسب ذلك القانون.

ثم إنه لا حكم بلا حكومة، ولا حكومة بلا حكم.

وإذا كان اعتراض، فإنَّما هو على شرعيَّة النظام - أي نظام -، أو شرعية وصول الحاكم إلى الحكم حسب ذلك النظام.

فهناك نظام حكم ديمقراطي يعتمد الخيار الحر للشعوب ولو نظريًا، وهناك حكم يفرض نفسه بالقوَّة، ويوجد نظام حكم دستوري، وآخر غير دستوري، وحكم وراثي تكسبه صلة الأبوة والبُنُوَّة، أو الأخوَّة.

ويوجد اعتراض على نوع هذا النظام أو ذاك، وهو اعتراض نظري في الأكثر اليوم.

وقد يطعن في اكتساب الشخص صفة الحكم بعد الاعتراف بشرعيَّة النظام، كما في الاعتراض على نزاهة الانتخابات التي أوصلت الشخص المعين إلى الحكم في النظام الديمقراطي.

أمَّا بعد التسليم بأصل النظام، وصحة الطريق الذي يعتمد في الوصول إلى الحكم، فلا اعتراض من أحد على حكم الحاكم وولايته.

ثانيًا: وبعد هذا التسليم الواسع في عالمنا اليوم بولاية غير الفقيه، وعدم الاعتراض عليه من حيث هذا الوصف يأتي الاعتراض على حكومة ولاية الفقيه العادل.

وهذا الاعتراض إما أن يكون من المسلم، وإما غير المسلم، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى إما أن يكون اعتراضاً على أصل النظام الديني، والحكم باسم الدين، ومن منشئه، وتحت نظره، وأخذ الشرعية منه، وإن كان بتوسيط البيعة الحرة التي تعني التصويت الانتخابي الحر، وإما أن يكون اعتراضاً على وصف الفقهاء، أو العدالة في الحاكم؛ للتأثير السلبي لكلا الوصفين أو أحدهما على كفاءة الحكم، ونزاهته، وعدم تفرده.

وقالوا: بأن ولاية الفقيه لون من فرض الوصاية على الآخرين، واتهام لهم بالقصور، وهو نوع من تهميش كفاءات الآخرين وعزلها وإقصائها.

ثالثاً: الكلام مع غير المسلم في اعتراضه على المنشأ الديني الإسلامي للحكم يسبقه الكلام عن قيمة الدين والإسلام ودورهما في الحياة - ولهذا الكلام مكان آخر -، وكذلك بالنسبة للكلام عن شرط الفقهاء وإيجابيته وسلبيته التي تلحق بالحكم، أما العدالة فلا أظن بعامل ممن يرجح الخير على الشر يسجل اعتراضاً عليه.

أما الكلام مع المسلم في اعتراضه على حكومة الفقيه وولايته، فإن كان من جهة المنشأ الديني لهذه الحكومة، وأن الدين لا يصلح منشأ للحكم مطلقاً للفقيه أو غير الفقيه، لعادل أو غير عادل، فإن كان ذلك بحجة دينية فلو ثبتت - وهي على خلاف الضرورة الدينية في الإسلام -، فإن فيها تخطئة لرسول الله ﷺ الذي حكم باسم الدين، وأخذ شرعية حكمه منه، وتخطئة لكل من نظرتي الإمامة، والخلافة عند المسلمين، لأن الخلافة عند من يقول بها إنما تقوم على أن الدين يحكم، وكذلك الإمامة، فلو خطأنا الحكم باسم الدين، وعلى أرضية الدين، ومن منشأ الدين فقد ألغينا شرعية حكم رسول الله ﷺ فضلاً عما بعده من معصوم، أو غير معصوم.

وإن كان بحجة خارج الإسلام، وعلى خلاف رأيه، ففي ذلك مفارقة واضحة، وعدول من هذا المسلم عن إسلامه ولو في هذه المسألة وهو جرح عظيم في إسلامه، وأمر يدخله في عداد الآخرين في النقاش المتعلق بهذا الموضوع.

ولو كان هذا المسلم لا يبدي اعتراضاً على الرجوع إلى الدين في الحكم، وإضفاء

الشرعية على الحكومة من خلاله، ولكن اعتراضه ينصبُّ على الحكومة باسم الإسلام لو اشترط فيها الفقاها والعدالة، أو حتَّى جوزت للفقيه العادل أن يحكم لكان ذلك من المنكر الذي لا يستقيم مع دين الله في شيء، ولا مع عقل، ولا نظر عقلائي.

الدين يقول: بأن العدالة مانعة، والدين يقول: مَنْ فهمني لا يصلح حاكمًا؟!

العقل يرى أن العدالة مانعة للحكم؟!

يرى أن العلم والفهم مانعان للحكم؟!

رابعًا: ما هي حكومة الفقيه وولايته؟

ولنسأل ما هي حكومة الفقيه وولايته والتي تستحق كل هذا الاستغراب، والاستبشاع، والإنكار، والتَّهريج، والضَّجيج، والاستهجان، والمواجهة، والمحاربة؟

إنَّها تعني: إنَّ الشريعة - وهي لا ترى في الأصل ولاية لأحد على النَّاس إلا بأمر الله سبحانه - قد أعطت إذنًا للفقيه العادل الخبير الكفؤ في غياب الرسول ﷺ، وعموم المعصوم عليه السلام عن الساحة العملية لحياة المسلمين بحيث لا يمكن الرجوع إليه - أي المعصوم - في الحكم، وتدبير الأمور في الزمن الطويل؛ أعطته أن يتولى منصب الحكومة حيث يمكنه ذلك، وعلى المسلمين أن يختاروه على غيره لهذا الأمر، ويعينوه عليه، ويدخلوا في البيعة له فيه، فإذا ذهب المسلمون عمليًا إلى هذا الخيار، أو أخذ به بلد من بلدانهم تمتَّ الحكومة الفعلية لمن اختاروه من الفقهاء العدول ولو في حدود المكان الذي تمتَّ له البيعة في إطاره.

ولا بدَّ أن تكون البيعة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ؛ ليحكم العلاقة بين الطرفين، ويكون لهما الفصل في محل الخلاف.

وإذا وضع دستور معين يأخذ كل أحكامه من الكتاب والسنة وجرت البيعة في إطاره، فهي بيعة على الكتاب والسنة والحاكمية إنما تكون لهما عليه.

وعليه، فإنَّ الحكومة دستورية على الفرضين، والطريق إلى فعليتها هي البيعة، واختيار النَّاس.

وإذا تم للفقيه العادل الوصول إلى موقع الحكم بهذه الطريقة، وكان عليه أن يتقيد في حكومته بالصلاحيات المعلقة له دستورياً، ولا يتعداها، وكانت ولايته في مساحة الشأن العام وما يتعلق بها من حياة الأفراد، وحكم من خلال المؤسسات الدستورية، واستعان بأهل الخبرة، وكان تحت رقابة مؤسسة معتمدة من الدستور، فما هو محل الاعتراض على هذه الحكومة الإسلامية الشعبية؟

وأين هي الوصاية التي تستقل هذه الحكومة بها عن باقي أنواع الحكومات؟ وكيف تجب طاعة كل الحكومات الأخرى إلا هذا النوع من الحكومة؟^(١)

يمكن فرض الآتي في سبب الاستنكار، وعدم الطاعة

١- شرط الفقاهاة، وهي علم اجتهادي بالشريعة.

الرّد: ولو كان كذلك^(٢)، فمعناه تقديم الجاهل على العالم، واشتراط الجهل في موقع الحكومة.

٢- شرط العدالة.

الرّد: ومعناه أن الفسق، والظلم، والتحلل مقدّم على العدل، والاستقامة، والالتزام.

٣- الاحتكام إلى الشريعة.

الرّد: وإذا صح لغير المسلم أن يتقوه بهذا، فإنه لا يصح للمسلم.

وغير المسلم سبق أن النقاش معه يأتي في الرتبة قبل هذه المسألة.

٤- أخذ الشرعية من الإسلام.

الرّد: والكلام فيه كالكلام في سابقه.

٥- قيام فعالية الحكم وثبوته للفقيه العادل من بيعة الناس واختيارهم.

١- خطبة الجمعة (٣٧٧) ٢٤ رجب ١٤٣٠هـ، ١٧ يوليو ٢٠٠٩م.

٢- أي لو كان العلم والفقاهاة هو سبب الاستنكار على ولاية الفقيه، فهذا معناه استنكار تقديم العلم والعالم، وهو يعني القبول بتقديم الجاهل على العالم، بل اشتراط الجهل في موقع الحكومة!!! (معد الكتاب)

الرَّدُّ: وهذا إذا طرح من الديكتاتوريين، فإنه لا ينبغي طرحه من الديمقراطيين.

العيب: إنَّ الناس بايعوه!!

المانع من طاعة حكومته أن الناس بايعوه، وأنَّ بيعته حرَّة؟!

٦- أن تكون للفقيه العادل حكومة بعد إذن الشريعة واختيار النَّاس.

الرَّدُّ: وهذا من أغرب ما يُستغرب!!

وهل يوجد حاكم بلا حكومة؟!

وعدم الاعتراف بصلاحيه الحكم، وعدم الوجوب الدستوري، أو الشرعي الإلهي لطاعة هذا المنتخب يجعلنا محتاجين إلى منصب آخر تكون له صلاحية نفاذ الحكم مثل منصب رئيس الوزراء.

فلما كانت ملكة بريطانيا بلا مسمَّى احتاج ذلك البلد إلى مَنْ له الاسم والمسمى؛ ليملاً فراغ الحكومة، وتنفيذ أوامره الحكومية على المحكومين في حدود الصلاحيات المتاحة له من ناحية دستورية.^(١)

إشكالات نقضية

تنطرح في الحديث عن الموضوع ثلاثة أسئلة:

١- ما هو التخريج الذي صارت به خلافة الخلفاء غير المعصومين بعد رسول الله ﷺ شرعية وملزمة، ولا يجوز رُدُّها، ويجب على الأمة الأخذ بمقتضاها من الطاعة والنصرة، ومع ذلك لا يجري في مسألة حكومة الفقيه المسلم العادل؟ والسؤال مطروح على كل من يسلم بخلافة الخلفاء، ولا يُسجَّل عليها اعتراضاً دينياً، ويتعبد بشرعيتها.

٢- كيف صارت بيعة الملوكة في زماننا مكسبة لحقِّ الحكم ونفوذه، ومصححة لمحاربة الخارج عليه، بينما إذا كانت البيعة لفقيه عادل من فقهاء الأمة من أي مذهب كان، لا توليّه على مَنْ بايعه؟، وكيف يصلح ذاك ولا يصلح هذا؟

١- خطبة الجمعة (٣٧٧) ٢٤ رجب ١٤٣٠هـ، ١٧ يوليو ٢٠٠٩م.

وإذا ولّته كان مسلوب الصلاحيات وممنوع الحكومة؟، وإذا مارسها كان الجبار، والدكتاتوري، والمستخف بعقول الناس، وأقذارهم، وأوزانهم، وأنه يفرض الوصاية على غيره؟!

السؤال مطروح على مَنْ يعطي الملكية المرتبطة بلون ما من البيعة ولو الضيقة، أو الشكليّة بعداً دينياً صارماً ملزماً وحجّة شرعيّة نافذة.

٣- ماذا لورجع أمر الأمة الإسلامية اليوم للاختيار الحر لشعوبها في شأن التولية عليها، واختيار حكومتها الواحدة، أو حكوماتها المتعددة؛ فهل سيجد أهل العلم والدين من كل مذاهبها، أو أي مذهب خاصّ منها أن الفقه والعادلة مانع من سلطة الحكم، ونفوذ الأوامر والنواهي الولائية أو السلطانية كما هو التعبير الآخر، وأنه حتى تنفذ هذه الأوامر والنواهي شرعاً لا بدّ من شرط عدم الفقه، وعدم العدالة؟!

هل سيجد أحد منهم من دين الله **وَكَلَّ** ما يقول له بتقديم الجاهل على العالم، والفساق على العادل؟!

وهذا سؤال مطروح على كل ذي دين من أتباع كل المذاهب الإسلامية.

إنه لمن الغريب جداً أن ينتهي مسلمون ومن ناحية إسلامية إلى أن ولاية غير الفقيه العادل ثابتة لا مرأى فيها، وأن ولاية الفقيه العادل مُتردّد فيها بل هي من المنكر الفطيع.^(١)

حكومة الفقيه انتخابيّة دستوريّة

من وصفها - حكومة الفقيه - أنها انتخابية.

إنّها تأتي عن طريق البيعة، واختيار الناس، ورضاهم، وهذا الانتخاب لا يكون إلا ضمن الشروط التي افترضها الإسلام في الحاكم.

وحكومة الفقيه دستورية، وليست استبدادية، حكومة الفقيه ليست من حكومة العادل المستبد.

١- خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠هـ، ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.

إنها من حكومة العادل الخاضع للدستور، ودستور الفقيه الإسلام الذي لا يتعداه إذا كان عادلاً قيد شعرة، وهي مستندة في تمشية الأمور، وإدارة شؤون الدولة إلى خبرته الشخصية منضمة إلى خبرة أهل الخبرة من أهل الاختصاصات المختلفة.^(١)

بحث مختصر في ولاية (غير الفقيه)

لا أحد من الفقهاء ينفي الولاية عن (الفقيه)، ثم يثبتها لـ (غير الفقيه).

يبحث عند الفقهاء: هل ولاية الحكم والأمر والنهي في مجال الحكومة قد جعلت لغير المعصومين الخلفاء لرسول الله ﷺ في حال غيبتهم ﷺ؟

أما غيرهم - غير الفقهاء - ولولا كانوا من المؤمنين المتفقهين العدول، فلا بحث فيهم إذا لم تثبت ولاية الفقيه، فلا أحد - من الفقهاء - ينتهي إلى هذه النتيجة، وهي: إنَّ الفقيه لا ولاية له، أما الذين دونه مرتبةً فلهم الولاية!

هذه النتيجة مرفوضة نهائياً عند كل الفقهاء، بعد أن لم تثبت ولاية الفقيه، لا تثبت لأحد - قطعاً - من دونه، قطعاً وبدرجة أولى.

إذا لم تثبت الولاية للفقيه، فلا تثبت لمن هو دونه بطريق أولى.

فكلما قلنا: بأنه لا ولاية للفقيه، قلنا: لا ولاية لمن دونه من العلماء العدول، فضلاً عما هو أقل منهم شأنًا - كغير العالم الديني، ومن فقد العدالة، بغير العالم الديني وإنما يكون جاهلاً مثلاً في الدين، ومن فقد العدالة التي تؤهله للمراكز الدينية التي يعد مركز الولاية أكبرها وأشدّها تصلباً للعدالة -.

فمن التوهم الساقط جداً أن يقال: بأنه لا ولاية للفقيه، وهذا يعني أن الولاية ثابتة عند الفقهاء لغيره!

ومن الواضح جداً أن أي فقيه تثبت عنده الولاية في غيبة المعصوم ﷺ لا يقدم أحداً على الفقيه في ذلك وهو القدر المتيقن الذي لا شك فيه. ومن لم تثبت عنده الولاية للفقيه، فهو لا يثبتها لغيره بدرجة أولى وأوضح.

١ - خطبة الجمعة (١٨٣) ١٠ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ، ٢١ يناير ٢٠٠٥ م.

الأدلة لا تشمل غير الفقيه

أ- الأدلة اللفظية - نصوص الآيات، والروايات - تجعل الولاية للفقيه فقط

هناك أكثر من دليل على ولاية الفقيه.

بعض أدلة ولاية الفقيه فيه إطلاق لمساحة كبيرة جداً، هناك دليل لفظي لولاية الفقيه يدرك هذا الدليل لفظي.

هل من لسانه أن يشمل غير الفقيه؟، أو أن لسانه وخطابه يقتصر في جعل الولاية على الفقيه؟

الإطلاقات الموجودة عندهم والتي تعتمدون عليها هي إطلاقات لا تتجاوز الفقيه.

ب- ولاية الفقيه هي المقدار المتيقن بالدليل العقلي

هناك دليل عقلي على ولاية الفقيه وهذا الدليل العقلي - كما يقولون - له قدر متيقن وهو الفقيه.

إذا أثبت الدليل العقلي ولاية الفقيه، وسألنا هذا الدليل العقلي: إذا قام الدليل العقلي على إثبات الولاية لأحد على أحد، يشك هل هذه الولاية التي يراها العقل لأحد على أحد في الناس بعد ولاية الله، وبعد ولاية المعصوم عليه السلام؛ هل هي واسعة تشمل الفقيه وغير الفقيه؟، أو هي ضيقة لا تشمل إلا الفقيه؟

يقولون: هنا قدر متيقن، يعني نعلم يقيناً أن هذا الدليل له مصداق أظهر، له مصداق قطعي، مصداق من له الولاية هو الفقيه، أما من دونه فمشكوك، فلا يثبت بدليل العقل ولاية له من دون الفقيه.

لا يثبت لا بالدليل اللفظي، ولا بالدليل العقلي ولاية له، وإنما إذا ثبتت الولاية إنما تثبت للفقيه، وهي في غيبة المعصوم عليه السلام.

تنويهات

- نعم، عند عدم الفقيه يأتي البحث في ولاية عدول المؤمنين ممن لهم تفقه.
- من الواضح جداً أن أي فقيه تثبت عنده الولاية في غيبة المعصوم عليه السلام لا يقدم

أحدًا على الفقيه في ذلك وهو القدر المتيقن الذي لا شك فيه، ومَن لم تثبت عنده الولاية للفقيه، فهو لا يثبتها لغيره بدرجة أولى وأوضح.

- والفقهاء يسمون مَن ليس فقيهاً عامياً - وإن كان هذا الشخص يتمتع بمستوى علمي جيد، أو كان مهندساً متقدماً، أو طبيباً حاذقاً، أو سياسياً كبيراً، وله خبرته وإطلاعه السياسي الممتاز -، والعامي هنا ليس بالمعنى السائد في الأوساط العرفية، وإنما يعني هذا اللفظ: الفاقد للفقاهة بمعناها الاصطلاحي، مَن كان فاقداً للفقاهة بمعناها الاصلاحي يسمى في عرف الفقهاء بأنه عامي - ولو كان مقارباً للاجتهاد وبعد لم يجتهد -، وهي القدرة على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها المقررة حسب الموازين والطرق المتعارفة عند الفقهاء المتضلعين، رغم اختلافهم على المستوى الثقافي، وهذا العامي مقطوعٌ عندهم بأنه لا ولاية له بعد القول بعدم ولاية الفقيه وإن كان من المؤمنين العدول.

لا خلاف بين الفقهاء في مسألة ولاية الفقيه من حيث الأصل

الخلاف عندهم ليس في أصل الولاية، فهم يثبتونها على مستوى تمشية أمور الوقف، ومال اليتيم، ومجهول المالك، والخمس - مثلاً -، وإنما الخلاف على اتساعها لمسألة إقامة الحكم، وتشكيل الحكومة، وممارسة الصلاحيات التي تتطلب التصرف في المال والنفس وإن كان ضمن الأحكام الشرعية المقررة، ونتائج الصناعة الفقهية الدقيقة.

عملياً نجد السيّد الخوئي (رحمه الله) - وهو ممّن لا يذهب إلى الولاية السياسية - قد تصدى عملياً كما هو المنقول لأعمال الولاية في الدائرة محل النزاع عند الحاجة في ظروف الانتفاضة الشعبانية، ولم يتوقف فقهيّاً في ذلك، فتولى ولاية الفقيه، ومارسها بشكل عملي كما هو المنقول.

النتيجة

النتيجة من هذا المرور السريع بالمسألة هي أن الذين يناقشون ولاية الفقيه في عالمنا

الإسلامي اليوم؛ لينفوها عن الفقهاء توصلًا في نظرهم لإثباتها لأنفسهم واهمون جدًا، قد يتصور البعض أنه إذا انتفت الولاية عن الفقيه جاز لغير الفقيه أن يمارس هذه الولاية، وأظن أن هذا فهمٌ سائدٌ في بعض أوساط عالمنا الشيعي، وهو خطأ كبيرٌ في التصور، ووهم فاضح.

هؤلاء مخطئون إذا كانوا يراعون النفي من الناحية الشرعية، ولا يريدون مخالفة الحكم الشرعي.

المسألة من منطلق ولاية الشعب

نعم، من انطلق في تقرير مسألة الولاية من منطلق آخر، وهو أن الشعب له ولاية على نفسه، أن الفرد من أبناء الأمة له ولاية كاملة على نفسه، يستطيع أن يتصرف فيها على منأى من إرادة الله، لو صار المنطق هو هذا، فـ:

الرد: صحيح أن الانتخاب - انتخاب الكل - يعطي الولاية لهذا الشخص، أو ذاك.

أما انتخاب البعض، وإن كان الأكثرية، فلا يصح في ميزان العقل أيضًا أن يعطي الشخص المنتخب ولاية على ٤٩٪ بعد أن وافق على الشخص ٥١٪.

لماذا تسحب أصوات ٤٩٪ بما فيهم من فلاسفة، بما فيهم من اقتصاديين كبار، بما فيهم من سياسيين كبار، بما فيهم من حكماء، بما فيهم من فقهاء؟!!

فلنحتكم للميزان الشرعي

المهم نحن والميزان الشرعي، الميزان الشرعي لا يسمح بعد انتفاء الولاية عن الفقيه أن تثبت هذه الولاية لأحدٍ من دونه، لأنه إذا كان الفقهاء يحرم اتباعهم في أمر الولاية، فهو أكثر حرمةً بالنسبة لمن يحاولون هذه المحاولة، وهم بذلك حين يحاولون أن يقيمون الدليل على انتفاء ولاية الفقيه، هم بذلك يقيمون الدليل على عدم أهلية من ليس بفقيه لهذا المنصب الذي يرون حرمة على من هو أكفأ وأولى.^(١)

مشاركات ومفترقات بين حكومة الفقيه وغيرها

أ- مشاركات

من المشاركات بين حكومة الفقيه وغيره:

- ١- الاستماع إلى أهل الخبرة والمشورة، فلا بدّ للفقيه من أن يستمع إلى أهل الخبرة والمشورة كغيره، من الحكّام الذين يطلبون رأيًا ناضجًا، واستقراءً دقيقًا للحالة الموضوعية؛ من أجل أن يبني عليها الحكم الصحيح.
 - ٢- يُضاف إلى ذلك: إنّه لا بدّ من مرجعية دستورية وقانونية، فكما يرجع الحكّام الآخرون إلى دستور وقانون، فالفقيه لا بدّ أن يرجع إلى دستور وقانون.
 - ٣- يُطلب من أي حاكم أن يفهم حكم الدستور والقانون، ولا يكون إمعة، وأعمى يُقاد على الطريق، لا بدّ له من أن يفهم الحكم الدستوري والقانوني.
 - ٤- بعد الاستماع إلى أهل الخبرة والمشورة ترجع إلى الفقيه كغيره من الحكّام سلطة تشخيص الموضوع على أنه لا بدّ أن يكون هو من أهل الخبرة، وقادرًا فيما لا خبرة له واسعة على فهم رأي أهل الخبرة.
 - تكون له سلطة تشخيص الموضوع بعد الاستماع لأهل الخبرة والمشورة.
 - ٥- ثم سلطة إمضاء الحكم، فليس من حاكم فقيه أو غيره إلا ولا بدّ أن تكون له سلطة إمضاء الحكم بالقوة؛ لإدارة المجتمع، وضبط الأوضاع، والدفع بالمستوى العام السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والخلقي، والروحي، وكل المستويات الأخرى على طريق التقدم.
- هذه مشاركات.

ب- مفترقات

تفترق حكومة الفقيه عن أي حكومة أخرى في:

(١) مرجعيّتها الشّرعيّة

من الحكّام من يرجعون إلى حقّ الوراثة، ومن الحكّام من يرجعون إلى الرأي العام

الغالب، ومن الحكام مَنْ يرجع إلى قفزه من خلال ثورة عارمة تُمكنه من الإمساك بالقوّة، أما الفقيه فمرجعيته تبدأ من الإذن الإلهي، وينضاف إلى ذلك بيعة الأُمّة.

حكومة الفقيه وعلى المستوى الشأني^(١)؛ هذا الأمر مرجعه إلى الأمر الإلهي، وإلى التشريع الإلهي، والحكومة الفعلية للفقيه لا بدّ لها من بيعة.

فيوجد مصدران لهذه الحكومة الفعلية: هو مصدر التشريع الإلهي والإذن الإلهي، ومصدر بيعة المحكومين للحاكم.

(٢) الشروط

شروط الحاكم الفقيه تختلف عن شروط الحاكم غير الفقيه:

- لا بدّ من علم الدين، لا بدّ من الفقه للحاكم الفقيه، وهذا غير مراعى في غيره ممّن يُقابلة.

- عنصر التقوى نجده مأخوذاً بقوة في اعتبار حاكمية الفقيه، ولا حساب له في الحكومات الأخرى.

تقوى الله، خوف الله، تقديم أمر الله ونهيه على أمر غيره فارق بين الحكومتين، وهذه الخلفية خلفية تُمثّل ضماناً عالية جداً لحفظ الأمانة، والسير على الطريق القويم.

- الخبرة والكفاءة، قد تكون مشتركة، ولكن إذا كان هناك تسامح في هذا الشرط بالنسبة لغير الفقيه، فلا تسامح بالنسبة لحكومة الفقيه، فلا بدّ من خبرة وكفاءة.

مغالطة وتمويل

تسمعون عن حكومة الفقيه السياسية، وعن مرجعية العلماء الاجتماعية أن في ذلك رجوعاً إلى طاغية، لا يسمع رأياً، ولا يأذن بكلمة.

هكذا يُصوّر الفقيه الحاكم، ويصوّر العالم إذا تصدّر مسألة اجتماعية: إنّه طاغية لا يسمع رأياً، ولا يأذن بكلمة، ولا يجوز عليه نقد، استبداد كامل في الرأي، قلة خبرة،

١- أي: بأن يكون من شأن الفقيه أن يحكم، ومن حق الفقيه أن يحكم.

معبود من دون الله، مؤلّه، مصنّع، قداسة كاذبة، كل هذا تُوصف به مرجعية الفقيه السياسية، ومرجعية العالم الاجتماعية.

لو حصل هذا، وأن حكومة الفقيه تُلازمها كل هذه الأوصاف والعيوب، وتُبرأ منها حكومة غير الفقيه، فإذا لا بدّ أن يكون مردُّ هذه العيوب والسلبيات في حكومة الفقيه السياسية، ومرجعية العالم الاجتماعية إلى ما أخذ فيه من شرط العلم بالدين والتقوى، فمعنى ذلك أن الشرطين المتميّزين الذين أخذوا في حكومة الفقيه وهو أن يكون عالماً في الدين، وعلى تقوى شديدة من الله تبارك وتعالى، هما العلة وراء انحرافات الفقيه، وراء استكبار الفقيه، وراء تألّه الفقيه، استبداد الفقيه، طغيان الفقيه!!

هل ترى من تناسب بين شرط العلم، وشرط التقوى المأخوذ في حكومة الفقيه وبين كل هذه النتائج السلبية؟!

أما الجهل، أما الفسق، أما التساهل في الدين فيُنتج تواضعاً، ويُنتج سماعاً للرأي الآخر، ويُنتج خبرة وكفاءة، ويُنتج تساهلاً مع الناس؟^(١)

الباب الثاني

أطروحة الحكم الوضعي (الديمقراطية)

المحور الأول

البحث النظري في مسألة الديمقراطية

مساحات الديمقراطية

١- التشريع: فالتشريع تعتبره الديمقراطية مسرّحاً لها، ومساحة من مساحاتها، فتُعطي للشعب أن يُشرّع، وللاّمة أن تشرع لنفسها من دون أي وصاية من خارج الكون المادي أو من داخله، من داخل دائرة الإنسان أو من خارج دائرة الإنسان.

٢- اختيار النّظام: أن يكون جمهورياً، أن يكون ملكياً؛ أن تكون الملكية مطلقة، أن تكون الملكية دستورية، أن يكون النظام دينياً، أن يكون النظام علمانياً، هذا كله شأن من شؤون الشعب والأمة، فهي التي تختار نظامها، وتحدد منهج حياتها بالكامل.

٣- اختيار القيادة: - كرئيس الجمهورية، أو الملك مثلاً -، واختيار الحكومة، وفصل هذه القيادة، وهذه الحكومة حق من حقوق الشعب في الديمقراطية.

نسأل: ما هو منطلق الديمقراطية، أو أساسها الأول؟

تنويه: نحن قد نوّمن بالديمقراطية عملياً بلحاظات موضوعية معيّنة، ولكن هذا لا يعني أن نحضنها ديناً، وأن لا نناقشها فكراً، وأن لا نحاسبها منطلقاً ونتيجة.^(١)

١- وأن لا نردّها منها ما يردّه العقل والدين.

منطلق الديمقراطية، أو أساسها الأول:

أساسها الأول: هو الحرية المطلقة

إنَّ الإنسان حرٌّ لا قيد على اختياره ولا تصرُّفه، وهذه الحرية لا بدُّ لها من خلفية، هذه الخلفية يمكن أن تكون هي:

- أ- إنكار الربوبية حيث لا يكون إله قد خلق الكون والإنسان، فهنا واضح جدًّا أن الإنسان يكون سيد نفسه، وليس لأي جهة من الجهات سلطة عليه، والفرد من الإنسان لا بدُّ أن يكون سيد ذاته أيضًا، فالإنسان أخو الإنسان، والأخوة لا تعطي سيادة، فهي تعني أن الأخوين يقفان على صعيد واحد، وهما من مستوى واحد في إنسانيتهما، وفي كونهما وُجدا من غير خالق، فأفرادهم مستوون، ويقفون على صعيد واحد، فليس لك سيادة عليّ، وليس لي من سيادة عليك مطلقًا، إذا اخترت أنا أن أجعلك سيدًا فذاك، وإذا لم أختَر أن أجعلك سيدًا، فليس لك في الأصل عليّ سيادة، وأنا منك بهذه المنزلة أيضًا.
- ب- أن يكون هناك خالق، ولكن هذا الخالق نقلصَّ حقّه، ونحدُّ صلاحياته، ولا نعطيه حاكمية على ما خلق في المساحة التي نستطيع أن نحدِّ حقّه فيها، وهي المساحة التي وهب لنا فيها القدرة على الاختيار.

إذا قلنا: بأن الله وُجِّدَ خلق الكون، خلقنا وخلق كل ما عندنا، وهو صاحب النعمة، ولكن ليس له أن يشرع لنا، ليس له أن يتدخل في حياتنا، فهذا - أيضًا - أساس يمكن أن تقوم عليه حرية الإنسان التي تُمثل أرضية الديمقراطية في عرضها العريض، وفي صورتها الأكثر تمامية، في الصورة الغربية التي يتبناها الغرب، ويعيشها في أغلبه.

ج- أن نقول: بأن الله خالق، وله الحق في أن يتدخل في حياتنا؛ في التشريع، في الحكومة، في أي شيء، ولكن جاء منه تفويض للإنسان بأن تصرّف كيفما تشاء.

هذا أساس صالح لأن يتمتع الإنسان بحريته في مسألة نظامه، وتشريعه، وحكومته، وقيادته.

د- الفرض الآخر الذي يمكن أن يكون أساسًا للحرية المطلقة عند الإنسان هو ليس

انتفاء الإلوهية، وليس تحديدنا لحق الله، وليس تفويض الله المطلق الصريح لنا، ولكن لكون الله وَكَوَلًا لم يرسل رسلاً، ولم ينزل كتباً، فنحمل هذا على أن لنا الحرية التامة في التصرف في شؤوننا الخاصة، وفي الشأن العام.

وهذا لون من التفويض بلغة سلبية يقابل اللون الأول من التفويض الذي يأتي بلغة إيجابية.

الحرية في الرؤية الإسلامية

إسلامياً لا حرية لأحد أمام الله.

الله هو الخالق، هو المدبر، هو الرازق، هو المالك من كل أحد كل ذرة من وجوده، وكل حركة من حركاته، وكل أثر من آثاره حتى أنك لتقول حقاً بكل إيمان: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أنت الذي لا تملك من نفسك أمام قدرة الله شيئاً، وأنت الذي لا تستقل بشيء من وجودك وحياتك في شيء.

أنت الذي كلُّك من الله، وكلُّك بالله، أنت الذي يتدفق عليك وجودك أنا بعد أن من فيض الله وَكَوَلًا، أتستكبر على أن تمتثل لأمر الله ونهيه؟!

أليس من مقتضى العقل الواضح أن مالك الوجود يتصرف في ملكه، فأنت المملوك بكلك لله، أليس من حق الله في العقل أن يتصرف فيك بأمر ونهي؟

إنه لا حرية أمام الله لأحد على الإطلاق، لا في صلاة، ولا في صوم، ولا في سياسة، ولا في اجتماع، ولا اقتصاد، ولا أي شيء آخر.

الذين يطلبون التحرر من شريعة الله عليهم أن يطلبوا الانفصال عن قدرة الله، فيحيوا بغير قدرته، ويقوموا ويقعدوا، ويفكروا من غير مدِّه.

بعد الله لا سيادة لأحد على أحد لا تكويناً ولا تشريعاً.

ليس ملك، ولا نبي، ولا رسول حق التشريع، وحق الأمر والنهي والطاعة في الأصل

على الإطلاق.

حين ننظر الى الملك في نفسه، حين ننظر إلى الرسول في نفسه وبما هو بشر، لا نعطيهِ حق الأمر والنهي، ولا نعترف له بحق الطاعة على الإطلاق.

وكما لا سيادة لأحد على أحد بعد الله لا تكويناً ولا تشريعاً، فليس من حق أحد أن يعطي من نفسه العبودية مختاراً لأحد، وإذا كانت العبودية عبودية الداخل، فإنَّ أحدًا لا يملكها منك إلا بأن تملكه أنت من نفسك.

وليس لأحد من الناس على الإطلاق أن يذلَّ في داخله، أن يعترف بحق الطاعة لأحد من غير الله سبحانه وتعالى مفصولاً ذلك عن أمر الله وإذنه.

ولا نقول بالحرية المطلقة للإنسان، لأنَّ القول بالحرية المطلقة للإنسان ولو في اتجاه غير الله يساوي نتيجة خطيرة، هذه النتيجة هي حق التصرف المطلق في الغير.

لوقلت لنفسي: بأنِّي حرٌّ بالنسبة لعلاقتي بالآخرين لكان معنى ذلك: إنَّ لي حق التصرف المطلق في الآخرين، وهذا خطأ.

ففي الوقت الذي يحرم عليك أن تعطي من نفسك العبودية لأحد، فإنه ليست لك الحرية المطلقة في اتجاه الآخرين من خلق الله.^(١)

هل أنا حرٌّ مطلقاً؟

ما أكثر ما نُحب أن نتعرف عليه من الأشياء والأمور من حولنا، ونلَمَّ به علماً عن الغير، ونستقصيه من أحداث كبيرة أو صغيرة ذات شأن وغير ذات شأن، مما ينبغي أن ينال الاهتمام بدرجة ما، أو أن يُهمل.

وكان على الإنسان كلُّ إنسان أن يكون أشدَّ ما يكون عليه اهتمامه هو معرفته بنفسه، وعلاقته بربه المبتنية على معرفة عظمته لما في ذلك من المعرفة الأساس لما ينبغي أن تكون عليه حياته، وتعامله مع ذاته، ومع كلِّ شيءٍ غيره.

أنا في نفسي، وفي علاقتي التكوينية مع ربِّي الله؛ إمَّا حرٌّ مطلق، وإمَّا عبد مطلق، ولا يجتمعان.

وصِدِّقْ أحدَ الفرضين يُنتج صورة من التعامل مع الحياة والنَّاس والأشياء مغايرة جدًّا لما يُنتجه صِدِّقُ الأخرى.

وكما يفترقان في ذلك يفترقان في تحقيق، أو عدم تحقيق ما أُريد من كلِّ ما تحدَّثني به نفسي.^(١)

وعلى مستوى النُّظرة السُّطحيَّة، والنظر المخدوع يتراءى لي كذبًا في المساحة التي خُيِّرْتُ فيها بقدر من الله سبحانه أني أملك الاستقلال في التصرُّف، وأنِّي أتمتع بالحرية التامة غير المحكومة على الإطلاق.

والصحيح في شأن هذه الحرية أمران:

الأول: إنها حرية معطاة من عند الله، مقيدة بإرادته، باقية ما شاء، منتهية لو شاء، ولا يملك منها العبدُ بقاء ولا زوالاً من نفسه.^(٢)

الثاني: إنَّ مَنْ عرف مملوكيته لله وَحْدَهُ خَلَقًا ابتداءً واستمرارًا كان عليه ألا يخرج بإرادته عن إرادة ماله وسيده شرعًا.

ويبقى السؤال الأساس: هل أنا حرٌّ مطلقًا، أو في شيء من أمري تكوينًا؟

هل أنا مملوك مطلقًا، أو في شيء من أمري لغير الله سبحانه؟

قبل ذلك هل جئت من ظلمة العدم بلا موجد؟

أعلم أني لم أخلق نفسي، ولم أوجدتها من العدم إلى الوجود.

لا أشكُّ في ذلك أدنى شك.

١- ذلك بغض النظر عن الموجودات الأخرى.

٢- الحرية في مسألة الصلاة أن أصلي أو لا أصلي، أن أقوم، أن أقعد، أو لا أقوم أو أقعد، أن أصادق، أن أعادي، أن أترك، أن أكل، أن لا أكل.

هذه حرية متاحة، هنا مساحة اختيارية أُعطيت إياها من الله سبحانه وتعالى.

لا أحد غير الله وَعَلَّمَ أتى عنه أنه خلقني، أو خلق أي شيء آخر.

وكل من عدا الله إذا كان محتاجاً في وجوده إلى غيره، فلا يمكن أن يكون هو المرجع الأول في وجود أي شيء آخر.

وما يجعلني محتاجاً في وجودي لموجد يشترك فيه معي كل من عدا الله سبحانه، وما عداه من شيء.

وما هو الأمر الذي يجعل كل الأشياء عدا الله سبحانه محتاجة في وجودها إلى موجد؟^(١) ذلك هو كونها ليست غنية بالوجود في ذاتها، وإنما هي فقيرة بالذات، وبلحاظها في ذاتها.^(٢)

ولولا الغني بالوجود بذاته، غير المفتقر في وجوده لغيره، لأنه حق الوجود، وخالص الوجود لما وُجد شيء على الإطلاق من كل الأشياء المحتاجة في وجودها إلى من يعطيها الوجود، ويُخرجها من عدمها.

وحتى نقول بأن شيئاً ما قد خرج من عدمه بقوة من عدمه، أو من غير علّة على الإطلاق، فلا بدّ لنا أن نتخلّى عن عقولنا التي لا يقبل شيء منها هذا الهراء والزيف.

ولا بدّ أن تتعطل الحركة العلميّة، ويُغى العلم، وتتقلب موازين الحياة، وتسقط أكبر ضابطة للفكر البشري في مساحة السياسة والاجتماع والاقتصاد والصناعة والزراعة، وكلّ المساحات بالتخلّي عن قانون العليّة والمعلوليّة الصارم الذي يُمثّل قاعدة صلبة، ومنطلقاً واضحاً للفكر البشري.

إنّنا مدفوعون بمنطق العقل، ويَقْطَعُ الضمير، وصوت الوجدان، ولغة الفطرة أن نؤمن بخالقيّة ومالكية الله سبحانه الوجود الحقّ، وأصل الوجود لكل شيء، والغني بذاته، والفياض بالوجود.

١- ما الذي يجعلنا كلنا محتاجين إلى موجود من خارجنا.

٢- إذا لاحظت كل شيء في ذاته غير الله سبحانه وجدته لا يملك الوجود لنفسه.

وحينئذٍ، فنحن عبيد تكويناً لا أحرار أمام مالكيّة الله وربوبيته.

نعم نحن أحرار أمام كلّ شيءٍ بعدَ عبوديتنا لله وحده.

ومن كان تنزّل وجوده، ورزقه، وكلّ خير من الله سبحانه، وكان تديره وقدره، ومصيره بيده، ومرجعه إليه - وهذا هو شأن كلّ من خلق الله -، فالعقل قاضٍ بأنّ عليه ألا يخرج بإرادته في المساحة الاختيارية الموهوبة له من الله عن إرادة خالقه ومالّكه.

فكما نحن عبيدٌ لله تكويناً لا بدّ أن نكون عبيده تشريعاً، فلا يكون لنا تشريع غير تشريعه، ولا خروجٌ عمليٌّ عمّا شرّع، ولا موقفٌ على خلاف ما أمر، ونهى شرعه.

أنّها الإنسان أكبر وأثمن ما فيك عقلك، وهو هاديك ودليلك في حياتك، وكلّ أمرك.

سل نفسك هل هو هبتها لذاتها؟^(١) سله^(٢) هل هو هبة ذاته لذاته؟

هل أوجدته قدرة وإرادة من داخله؟

هل هو الذي وضع قواعد ونظام تفكيره؟

هل إذا بدأ التفكير في قضية من القضايا يعلم ابتداءً إلى أين سينتهي بها تفكيره؟

هل هو الذي اختار بنفسه مقدار فهمه؟

هل يضمن ألاّ تتحوّل أفكاره؟

ألاّ يتحوّل مسار تفكيره؟

هل له من نفسه ما يضمن بقاءه؟

وهل قرر العدم يوماً أن يمنحك العقل؟

وهل قررت قدرة من داخل عقلك، وإرادة من داخل نفسك أن تهيك العقل؟

١- ذاك وهبتك عقلك؟

٢- عقلك ونفسك.

وإذا كان جوابك على كل هذه الأسئلة بالنفي، ولا أجذك وأنت تريد أن تعطي جوابًا جادًا من وحي عقلك تجيب بغيره^(١)، فكيف لا تُدعن للعلي القدير الغني بذاته، ولا تعترف بالملوكية والعبودية له؟^(٢)

وإذا كنت المخلوق المملوك العبد لله سبحانه، فكيف لك أن تستقل بإرادتك المعطاة منه إليك، والتي لو شاء سلبها عنك، كيف تستقل والحال هذه عن إرادته، فتشرع لنفسك ولغيرك على خلاف تشريعه، وتُخالف أمره ونهيه؟

وكلُّ أمر من أوامره، وكلُّ نهي من نواهيه لا منطلق له إلا رأفته بك، ورعايته لمصلحتك، وتفضُّله بإيصال الهداية إليك، بلا حاجة له في طاعتك، ولا خشية منه لمعصيتك، وتمردك فأنت المملوك له في كل حال، المأسور لقدرته على كل تقدير.

عدُّوك عن شرع الله لأنك أعلم، أخبر بمصلحتك؟ لك إحاطة بالكون، وما مضى وما يأتي وما هو قائم أكبر من إحاطته؟

أتتهمه بالحاجة إليك في تشريعه؟

أتتهمه بغشٍّ أو بعبثية، بنقصٍ في حكمته؟

تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

عنادك له لقوة تعتمد عليها في مواجهته؟

لغيابٍ في علمه عما أنت عليه من معاندته؟

ألساواته بين أهل طاعته ومعصيته؟

جلَّ الله العليُّ القدير عن هذه الظنون الساقطة والأوهام المهلكة.

وهل يجوز شيء من هذا على مَنْ لا علم، ولا قوة، ولا هدى، ولا نور، ولا حكمة، ولا

خير إلا من عنده، وبتقديره، وفيضه؟

١- أي بغير النفي.

٢- كونوا عبيدًا لله كما أنتم أيُّها الناس.

ألا لا سبيل لأحد يرجع إلى العقل في صفائه ونقاؤه، وإلى وجدانه، وفطرته أن ينكر الله سبحانه، أو شيئاً من أسمائه الحسنی، أو يختار معصيته.^(١)

الإرادة التكوينية والتشريعية وعلاقتها بالحرية

والآن نتحدث بشكل بسيط عن الإرادة التكوينية والتشريعية لله سبحانه، والاختيار التكويني، والتشريعي للإنسان.

ببساطة: نحن بما أننا مسلمون معتقدون تماماً من منطلق توحيدنا بأن شيئاً في هذا الكون لا يمكن أن يحدث بلا إذن تكويني من الله، بمعنى أن قدرة وقوة وعلمًا وحكمة يحتاجها الكون في تسييره لا توجد من مصدر آخر غير مصدر الله سبحانه وتعالى، هذه السماوات تقوم بإرادة الله، هل هي إرادة افعل، أو لا تفعل، أو إرادة كن فيكون؟ بإرادة كن، فيكون.

قيام السموات، استمرار الأرض، استمرار الحياة كل ذلك بمدد من الله سبحانه وتعالى عن طريق الخلق المستمر، عن طريق تدفق الفيض الإلهي المستمر، عن طريق تنزل الوجود، عن طريق تنزل الحياة على ما في الوجود، وعلى ما في الحياة.

هذا الفعل من الله ماذا نسميه؟

نسميه فعلاً تكوينياً.

مرة يريد منك الله أن تصلي بالإرادة التكوينية، فيثبتك في المحراب، يطلق لسانك قهراً عليك، يسجدك، يركعك، يجعلك تأتي بكل الأذكار قهراً عليك وبإرادة، هذه صلاة منك كتبها الله عليك بالإرادة التكوينية قهراً جبراً.

ومرة يقول لك: صل، أعطاك قوة الصلاة، وأعطاك قوة عدم الصلاة، أعطاك إرادة أن تصلي، وإرادة أن لا تصلي، وقال لك: صل، هذا هو التشريع، هذا هو الجعل، هذا هو القانون على حدّ قوانين الأرض.

١ - خطبة الجمعة (٤٩٣) ٨ ربيع الآخر ١٤٣٣ هـ، ٢ مارس ٢٠١٢ م.

مثال: مرة يدفعك الرجل دفعًا إلى النقطة التي يريد أن تصل إليها، وهذا تحريك تكويني وبالإرادة التكوينية.

ومرة يقول لك: اذهب إلى النقطة الفلانية، وهو هنا قد حركك بالإرادة التشريعية، والأمر هنا جَعَلِيَّ تشريعيَّ قانونيَّ.

فهناك إرادتان، ولا شك أن إرادة الله التكوينية لا يتخلف عنها متخلف، إذا أراد الله شيئاً بالإرادة التكوينية لا يمكن أن يتخلف شيء آخر، هذه الإرادة التكوينية ثابتة بلا إشكال عند كل متدين.

والإرادة التشريعية عبّرت عنها الأوامر والنواهي التي نزلت بها الكتب، وجاءت الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

الحرية بالإرادة التكوينية والتشريعية

ونسأل الآن: هل نحن مجبورون مقهورون بالإرادة التكوينية على الأخذ بمنهج معين؟

طبعًا: لا.

نحن مختارون، كل الناس يستطيعون أن يختاروا هذا المنهج أو ذاك المنهج، هذه الحكومة أو تلك الحكومة، هذا النظام أو ذاك النظام، فنحن أحرار بالإرادة التكوينية. يعني لسنا مقهورين من الله، لسنا مجبورين من الله على سلوك درب معين، لكن بعد أن أسلمنا، وآمنا بالله ورسله وكتبه هل نحن أحرار من ناحية تشريعية؟ لا.

يعني هل جوّز لنا الله وَعَلَّمَ أن نطيعه، أو نعصيه بلا فرق؟ وقال لنا: أطعتم أو عصيتم، فلا عقاب ولا ثواب؟ وأنا أساوي بين مطيعكم وعاصيكم؟ هذا تخيير تشريعي.

يقول لك في المباحات: لك أن تشرب ما في هذا الوعاء، أو لا تشرب.

حرية تشريعية، ولك أن تشرب الماء في هذه اللحظة إذا كانت حياتك لا تتوقف على شربه، ولا يضر بك عدم الشرب ضررًا بالغًا غير مسموح به في الشريعة، فأنت في هذا المورد لك أن تشرب، ولك ألا تشرب بالإرادة التكوينية، وكذلك أن تشرب أو لا تشرب بالإرادة التشريعية، فأنت مخير، ومسموح لك من ناحية التشريع بالشرب وعدمه.

لكن هل تأتي شريعة الله، ورسل الله أمام قتل النفس المحترمة البريئة، فتقول لك: مباح لك أن تفعل، وسواء قتلت أم لم تقتل، فموقف الله منك سواء؟! طبعًا: هذا ليس موجودًا.

خلاصة

نقول: نحن مريدون بالإرادة التكوينية يعني نستطيع، ونملك القدرة بين أن نطيع ونعصي، بين أن نأخذ بمنهج الله، أو لا نأخذ به، بين أن نأخذ بهذا الطريق أو بذاك الطريق، هذا من ناحية تكوينية.

ولكن من ناحية تشريعية قد حدد الله لنا منهجًا وطريقًا وسلوكًا وحكومة أيضًا. أريد أن نفرق بين هاتين الإرادتين، وإننا حين نتحدث عن أننا أحرار أو لسنا أحرارًا إنما نتحدث في ذلك على مستوى الإرادة التشريعية.^(١)

رأي الإمامية في الحرية

الإمامية والمعتزلة تقولان بالإرادة التكوينية للإنسان، وأن مساحة معينة يتمتع فيها بالحرية التكوينية، وأنه مريد.

وهناك من المذاهب الإسلامية ما يرى أن الإنسان مجبور!

أما نحن الإمامية، فلا نرى الإنسان مجبورًا ولا مقهورًا، وهو يتحمل مسؤولية موقفه الاختياري، هذا على المستوى التكويني.

١- بمعنى: هل نحن أحرار في ما أقدرنا الله على فعله وتركه بأن نختار ما نشاء من ذلك بلا أن يكون لله أمر ولا نهي في هذه المساحة، أو بأنه لا يكون له حق الطاعة علينا في ذلك؟

أما من ناحية الحرية التشريعية للإنسان، فنحن نعتبر أنفسنا مخاطبين من الله سبحانه وتعالى بخطاب يُكزمننا، ويطوق رقابنا.^(١)

الديمقراطية هل لها تأصيل إسلامي؟

الديمقراطية ليست من مستوى النظرة الأساس فتحتاج إلى تأصيل؛

هناك قضايا أساس تنبني عليها كل الحياة، وهناك قضايا فوقية تحتاج إلى بنية تحتية؛ لتقوم عليها.

الديمقراطية من القضايا الثانية، وليست من القضايا الأولى.

فالديمقراطية تحتاج إلى تأصيل لا أنها هي التأصيل.

والتأصيل الغربي للديمقراطية غير وارد عند الإسلاميين.

والإمامة قضية من القضايا الفوقية، والشورى قضية من القضايا الفوقية، وليستا من القضايا التحتية التي تتأسس عليها بنية الحياة.

القضية الأم التي تتأسس عليها بنية الحياة، وتقوم عليها مثل قضية الإمامة والشورى هي قضية التوحيد، فهل نجد تأصيلاً للديمقراطية في الإسلام، أو لا نجد تأصيلاً؟

الديمقراطية بمعناها الغربي لا نجد لها تأصيلاً في الإسلام، وإنما تأصيلها يتنافى مع التأصيل الإسلامي تماماً، لكن هذا لا يعني أن الإسلاميين يعادون الديمقراطية بكل معانيها.^(٢)

مقومات الديمقراطية

لكل نوع من الأنظمة والطروحات السياسية مقوماته، ومعامله، ومقتضياته، وأثاره، فما يسمى بالأنظمة الديكتاتورية، أو الديمقراطية، أو ما هو النظام الإسلامي الذي

١- خطبة الجمعة (١٤٠) ١٤ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، ٦ فبراير ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (١٨٢) ٣ ذو الحجة ١٤٢٥هـ، ٤ يناير ٢٠٠٥م.

يمثل نوعاً مستقلاً من الأنظمة، ويباين بطبيعته كل نظام آخر مما تتجه الأرض، تختلف فيما بينها في كل الأبعاد المشار إليها، وإنما يُعرف الواحد منها خارجاً بما يميزه من ناحية الواقع من تلك الأبعاد المتعددة.

ومن لوازم كل الأنظمة الديمقراطية على اختلاف مراتبها وخصائصها الصنفية والشخصية، ومنها النظام الملكي الدستوري الذي يشارك الشعب في الموافقة عليه أنها لا تلغي إرادة الشعب نهائياً، ولا تكتم الأفواه، وتسكت صوت المعارضة، بل تفتح له أبواب التعبير، وقتوات النقد السياسي بما يعطيه حرية الحركة في إطار الدستور، ويحافظ على الهوية الديمقراطية، ويتطور بها على المسار نفسه، وبآليات من طبيعة هذا المسار.

ومن أجل بقاء الطابع الديمقراطي، وممارسة الحرية السياسية المتاحة دستورياً، ومن أجل قيمة ملحوظة لهذه الممارسة لا بد من وجود عقلية سياسية اجتماعية متدربة؛ حتى يتاح لها أن تناقش الأمور العامة، وتلاحق مساحة الشأن السياسي استقراراً ونقداً واقتراحاً ومطالبةً بوسائل دستورية مكفولة لا يستتبع تحريكها أي إزعاج رسمي، ولا توجيه التهمة لمن يطالب بالحقوق.

وهذا يجعل المؤسسة السياسية الأهلية التي تمارس تحريك العقلية العامة سياسياً، وتقوم بدور الرقابة والنقد والمحاسبة والتوجيه من خارج المؤسسات الرسمية في إطار صلاحياتها الدستورية من متطلبات الوضع الديمقراطي لمن يريد الاعتماد عليه.

فلا معنى للديمقراطية بلا مؤسسات وأصوات سياسية تمارس حريتها في عملية النقد الموضوعي، وتعريّة الأخطاء، والمطالبة بالحقوق، والعمل الدستوري على تطوير الأوضاع وتصحيحها باستمرار من غير حاجة إلى توترات ومواجهات لا تجلب إلا الشر على جميع الأطراف.

هذا كلام على مستوى الديمقراطية.

أمّا السعادة الكبرى والحياة الراقية الآمنة الهانئة، وكسب الدنيا والآخرة، فإنك تبحث عنها حتى الدُّوار، ولا يمكن لك أن تجدتها إلا في رحاب الإسلام العظيم.^(١)

مصدريّة الشعب للسلطات

نظرتان:

النظرة الأولى: هناك نظرة دينية في المسألة السياسية.

والنظرة الثانية: نظرة أرضية استقرّ عندها الرأي العالمي على مستوى الغالبية العظمى من الشعوب في العالم، وعدد كثير من الأنظمة الرسمية ولو نظرياً.

١- النظرة الأولى تُرجع الحكم في الناس إلى مالكمهم الحقّ وهو الله سبحانه، وتُحكّم في المسألة السياسية أمره ونهيه، وتعتمد فيها على إذنه، وإلزامه، وترخيصه، وردعه.

٢- وهذه النظرة لا ترضى لحكم الناس، ولا تسمح لهم بأن يختاروا مَنْ لا يرضى الله علمه وعدله وتقواه وتعفّفه ونزاهته، وخبرته وإخلاصه ووفاءه، وتقديمه لآخرته على دنياءه، وتفانيه في نصرة الحقّ والعدل وإنصاف الناس، وصلابته في الدين الذي لا يحفظ للحقّ والعدل إلا به.

النظرة الثانية: وهي ترى أنّ للإنسان حقّ الاستقلال عن ربّه سبحانه في خياراته!، ومنها الخيار السياسي، وترى أنّ الشعب هو مصدر السلطات، وأنّ أي سلطة لا تكتسب الشرعية إلا بانتخاب الشعب لها ولو بالأغلبية.

فمن حقّ أيّ شعب اليوم أن يستوقف أيّ سلطة يُساءلها عمّا تعتمد عليه من أساس في ممارسة الحكم على الناس، ولا بُدّ لها من أن تراجع وضعها من هذه الناحية.

فإذا كانت سلطة تعتمد النظرة الدينية في المسألة السياسية، فعليها أن تمتلك الأساس الذي يوافق عليه الدين للتوفّر على السلطة، وإذا كان سلطةً وضعيّة فعليها أن تُصحّح وضعها السياسي بما يتفق ومرجعية الشعب وكونه المصدر الأصل والوحيد للسلطات.

وأوّل ما في هذا الأمر هو انتخاب الشعب للسلطة، ووجود دستور يحكم العلاقة بها، ويكون من وضعه.^(١)

١- خطبة الجمعة (٤٥٩) ٦ شعبان ١٤٣٢هـ، ٨ يوليو ٢٠١١م.

سُلطة واحدة لا سُلطات ثلاث

طلبًا للتوازن، وتخفيفًا للقبضة الحديدية المشددة للسُلطة الواحدة البعيدة عن قاعدة القيم الدينية، ورادع التقوى من الله، وتقليلاً للتحكم المطلق لهذه السُلطة في مصائر الناس ومصالحهم، وللحد من غلوها وتغوُّلها أخذ بفكرة السُلطات الثلاث التي تستقل كل واحدة منها عن الأخرى، مع رقابة السُلطة التشريعية على السُلطة التنفيذية التي تتجمع بيدها القدرات الهائلة للبلد الذي تتولى إدارة شؤونه العامة مما يمكنها من التلاعب بحياة الناس، ومصالحهم متى أرادت فيما لو ترك لها الأمر، وأمنت من المراقبة والمحاسبة، مع فقد الضمير.

ولا إصلاح لهذا الوضع الفاسد حَسْبَمَا استقرَّ عليه عالم اليوم إلا بأن يكون الشعب هو مصدر السُلطات، ولا تعبير عن ذلك بصدق من غير دستور من وضع الشعب لا من وضع النظام.^(١)

١- خطبة الجمعة (٤٨٦) ١٩ صفر ١٤٣٣هـ، ١٣ يناير ٢٠١٢م.

المحور الثاني

الموقف العملي من الديمقراطية

الديمقراطية خيار قد يفرضه الموقف العملي، وليست فكرة نؤمن بها

- إذا لم نتوقف بالثقافة الإسلامية، وإذا رُوجنا للديمقراطية في صورتها البعيدة عن الإسلام، سيعيش الإسلام غربة فينا عميقة جداً إذا ضيعنا الفهم الإسلامي، وإذا لم نُفرّق بين ما يقتضيه الموقف العملي وبين ما هو الحق في الأصل.

وكثير من الذين يُصلُّون، ويصومون، ويتهجّدون، ويقومون بالنشاطات الإسلامية سيواجهون الإمام القائم عليه السلام بالإنكار إذا تعرّبت ثقافتهم.^(١)

- الدّين رؤية كونية ومنهجية وتنظيم عام لكل مساحة الحياة، وله طرّحه الخاص في المسألة السياسية الذي يختلف عن الدكتاتورية، وعن الديمقراطية بمفهومها الغربي.

- من الديمقراطية أن يُترك للشعوب أن تختار نمط حياتها، ونظامها السياسي، وإن اختارت الإسلام أو غيره، الأمر الذي تتنكر له ديمقراطية أمريكا وأوروبا، ولا يمكن أن تلتزم به عملياً، وتقف في وجهه بكل قوة وصرامة وعنف وظلم واستبداد وعنجهية إذا جاء خيار الشعوب الإسلامية خياراً إسلامياً.

- ليس أمام الشعوب الإسلامية من ناحية عملية إلا أن ترحب بديمقراطية، تعطيها الخيار الحر، وعليها من جهة أخرى أن تستجيب لأمر ربها باختيار الإسلام لا غيره، وأن لا تقبل الديمقراطية المشروطة بالنمط الغربي، وبقيمومة أمريكية، أو أوروبية، فبحسب الواقع أفضل طريق متاح للتغيير الآن هو الديمقراطية، وبحسب الواجب الشرعي لا خيار لمسلم في أن يختار على الإسلام شيئاً آخر.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢١١) ٤ شعبان ١٤٢٦هـ، ٩ سبتمبر ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (١٩٩) ٤ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ، ١٣ مايو ٢٠٠٥م.

نقبل الديمقراطية (عملياً)؛ لأننا الرّابحون فيها!

وبالنسبة لعبد الله - هذا المتكلم - ، فالنظر ومنذ السبعينات وإلى الآن وسيبقى فيما أرى ثابتاً في مسألة الديمقراطية: لا نرضى الإرهاب، نرفض العنف، نقدّم الكلمة على القوة، نختار الديمقراطية على المصادمات، نرى الديمقراطية في صالحنا، ونخاف جداً من أن تزوير الديمقراطية، والاستغفال بشعار الديمقراطية، والكذب على الديمقراطية ينتهي بالناس إلى العنف والمصادمة، موقفنا مع الديمقراطية.

ونتحدّى الآخرين في أن يأخذوا بالديمقراطية، وأن يصبروا على نتائجها.

نعم نتحدّى كل الآخرين في القبول بنتائج ديمقراطية حقيقية في الشارع البحريني، وفي أي شارع إسلامي آخر، والشارع في بلدان المسلمين اليوم إسلامي، وكفى بتركيا مثلاً في هذا المجال.

نعم، نقبل بالديمقراطية، ونبقى عليها، لأننا نقدّسها، وإنما لأننا نجد أنفسنا دائماً في ربح من خلال أعمال الديمقراطية، وقبول كل الأطراف بها، لا اليوم فقط، وإنما على طول الخط.

فأي بلد إسلامي تقوم به تجربة إسلامية، الإسلاميون فيه لن يخسروا حين يستمرون على خط الديمقراطية.

حماس لا تخسر لو بقيت المسيرة الفلسطينية على خط الديمقراطية.

إيران لا يخسر الإسلام فيها إذا بقيت ديمقراطية حقيقية.

أي بلد إسلامي شيعياً كان أم سنيّاً لا يمكن أن يخسر الإسلام فيه من خلال الخيار الديمقراطي.

فتحن مع الخيار الديمقراطي، ونتحدّى الآخرين في القبول به، والصدق معه، والصبر على نتائجه.^(١)

١- خطبة الجمعة (٢٩٦) ٢٦ رجب ١٤٢٨ هـ، ١٠ أغسطس ٢٠٠٧ م.

الإسلاميون والديمقراطية

الإسلاميون اليوم قسمان:

١- قسم يرفض الديمقراطية رفضاً تاماً، ويلجأ إلى خيار القوة، ولا يختار على السيف الديمقراطية، ووراء ذلك خلفية من واقع موضوعي عاشه أولئك الإسلاميون، رأوا ظلماً لا يكف، واستهتاراً بالإسلام لا يفتر، وتكالباً على محاربة الدين، وعدم إصغاء للكلمة، واستكباراً فاحشاً على الله سبحانه وتعالى في الأرض، وانضم إلى ذلك ما انضم إليه فصاروا من وراء ذلك كله لا يختارون غير السيف.

لا نصح موقفهم، ولكن إسهام الوضع الاستكباري في الأرض في لجوئهم إلى الأرض والبطش والعنف الخارج عن الحدود والذي يتحملون مسؤوليته ووزره.

أقول: إسهام جهة الاستكبار وجهة الظلم في ذلك ربما كان أكبر.

٢- القسم الآخر من الإسلاميين لا يرى الديمقراطية ديناً، ولا مجسدة للحق دائماً، ولا كاشفة عن الواقع، لكنه يراها آلية لحسم النزاع في الشأن العام، ولهذا فهذا القسم يأخذ بالديمقراطية، ويلتزم بنتيجتها، ويقدمها على العنف.

القسم الأول يؤس، والقسم الثاني لا زال يجرب.

وستكثر حركات العنف والإرهاب كلما تفاقم الظلم، وكلما أهمل شأن الكلمة، وأحبط الناس بالنسبة لفاعلية النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمطالبة السلمية الهادئة، هذا ليس في بقعة من الأرض، وإنما في كل الأرض.

إذا اشتد الضغط، ولم تنفع وسائل السلم، فكثيرون هم الذين سيلجأون إلى العنف، إلى القوة، وربما قادتهم القوة إلى العنف غير المبرر، وغير الصحيح.

غير الإسلاميين والديمقراطية

ذاك موقف الإسلاميين، فما هو موقف الآخرين؟

أولاً: موقف الآخرين

القهر للإسلاميين والشعوب، واللجوء دائماً إلى القوة، وتكميم الأفواه، وترعى ذلك أنظمة متفردة، أنظمة باطشة، وفي الأنظمة العربية أمثلة لهذا النوع من الممارسة كثيرة. الآخرون قد يستترون بشعار الديمقراطية، ويتحيلون عليها، ويعملون على تزويرها، وقد يأخذون بالديمقراطية في مساحة جزئية مع تزييفها من محتواها، وإخضاعها للتزوير والكذب.

قد تخوض بعض الأنظمة التجربة الديمقراطية للضرورة، ولأنها مُلْجأة إليها تحت الضغط، لكن ما أن تأتي النتائج على خلاف ما تشتهي حتى تتقلب على الديمقراطية، وتُعمل السيف، وتفتح السجون، وتعلق المشانق، ولك في الجزائر مثلاً.

ثانياً: الغرب والديمقراطية في بلاد الإسلام

هذه المواقف الغربية من الديمقراطية: مهاجمة لبلاد إسلامية هي أقرب للديمقراطية والحرية السياسية بصورة واضحة بالنسبة لدول إسلامية أخرى، هذا موقف، الموقف الآخر: الصداقة والمساندة لأنظمة بعيدة عن الديمقراطية والأمثلة لا تحفاكم.

ثالثاً: الإشادة بديمقراطية مكذوبة.

رابعاً: الانقلاب على تجارب ديمقراطية صادقة كتجربة الجزائر، وتجربة حماس. والجيش التركي الذي يعد جيشاً غربياً في تربيته، وفي توجّهاته، وفي سلوكياته لا زال لحدّ الآن يضع شروطاً على الشعب التركي في اختياره لرئيس الجمهورية، وأنه لا بدّ للرئيس أن يكون الراعي الأمين للعلمانية الأتاتورية، والذي لا يحمل شمة إسلامية على الإطلاق!!

هذا هو موقف الآخرين والغرب من الديمقراطية الذين يرفعون شعارها، ويتبجحون بها.

الديمقراطية وواقع الشارع الشعبي في بلاد المسلمين

خيارات الشارع الإسلامي خيارات محرّجة ومتحدية لغير الإسلاميين في الشأن الديمقراطي، كل غير الإسلاميين لا تسرهم الديمقراطية الحقيقية اليوم، ولا يصبرون

على نتیجتها فی البلاد الإسلامية، لأن نتیجة ديمقراطية حقيقية فی الشارع الإسلامي هي الإسلام، وكل غیر الإسلامیین - ولا أفرق بینهم - لا یصبرون على هذه النتيجة، ویواجهونها بكل الإمكانيات!

الإسلامیون لا یخافون من الديمقراطية لا ابتداء ولا استمراراً، والذین یوهمون یوهم الناس بأن الإسلامیین لو وصلوا إلى الحكم عن طریق الديمقراطية لانقلبوا علیها کاذبون وهم یعرفون کذبهم.

الإسلامیون إذا كانوا الیوم وهم محاربون، ولم تعرف تجربتهم مؤهلین؛ لاكتساح أصوات الشارع الإسلامي لصالحهم فهم إذا أقاموا تجربتهم على مستوى بلدیة، أو على مستوى مجلس نیابی، أو على مستوى بعض الوزارات، أو على مستوى حكومة، وأتیح لهم أن یعملوا بما یؤمنون به لصالح تجربتهم، فإن هذه التجربة ستكون أعلى صوت إعلامی دعائی للإسلامیین.

الجمهورية الإسلامية الإيرانية ما أعطیت فرصة البناء الداخلي، فلأول یوم نجحت فیة الثورة، ولأول یوم قامت فیة الدولة حاربها العالم، من أجل ماذا؟ من أجل أن لا تتحول منارة فی الأرض تستقطب أفئدة المستضعفین فی كل العالم.

العالم الاستکباری خاف خوفاً شديداً، ولا یزال یخاف من قیام تجربة إسلامیة على الأرض، لأنها لن تبقي لكل التجارب الأخرى أي بریق، وستحول أصدقاء التجارب الأخرى، والواثقین فیها إلى أعداء لتلك التجارب للفارق الکبیر بین کفاءة وصدق التجربة الإسلامية الحقيقية، وتصور وكذب تجارب الآخرين.

فی إمكان التجربة الإسلامية إذا قامت على الأرض أن تسقط بنموذجیتها وصدقها وإنجازاتها وعدلها وإنسانیتها وبدون حرب التجارب الأخرى وتفشلها، وستملك من الإشعاع ومن قوة الإقناع بواقعها ما یکفی للاستقطاب والتهافت علیها، فکیف إذا انضم إليها إلى صدق التجربة، وكفاءة العالیة کلمة حق، ونداء صدق؟!

أقول: الإسلامیون لا یخافون من الديمقراطية، ولا یحتاجون إلى أن ینقلبوا علیها لو وصلوا من خلالها إلى أي موقع من المواقع، بل ستعینهم تجربتهم من خلال الديمقراطية

على أن يتقدموا كل الصفوف، وأن يكونوا رائد هذه الأمة في أعين كل أبنائها.

فحظوظ الإسلاميين تتنامى دائماً مع التطبيق، ومن هذا المنطلق يخاف كل الآخرين أن تقوم تجربة إسلامية صادقة على الأرض.^(١)

للسعوب الإسلامية خيار مكبوت وهو خيار الإسلام الذي لا تقدّم عليه شيئاً؛ فكلما أُتيحت لها فرصة التعبير برهن موقفها العملي على ذلك.

وهذا ما تقوله الانتخابات البلدية في فلسطين، وانتخابات الجمعية الوطنية العامة في العراق، وكل انتخاب يجري في أرض الإسلام.

ومن المفارقة في الديمقراطية أنّها كلما وصلت إلى نتيجة من هذا النوع انقلبت على نفسها على يد المتشدين بها وكفرت بخيارها كضراً شديداً، وقلبت الطاولة - كما يقولون - رأساً على عقب كلما دخل في إمكانها أن تفعل.

ولنتذكر تجربة الجزائر، وتجربة تركيا مع أربكان، ولنسمع الإعلام الآن في هلعه من ديمقراطية توصل الإسلاميين إلى الحكم.

والإسلاميون أحرص الناس على مصلحة أوطانهم ورعايتها من دون أن يطلبوا مصلحة الوطن بتقويض مصالح الآخرين، ولا تعني مصلحة الوطن عندهم مصلحة الحكم والنظام على حساب المستضعفين والمحرومين، ولا أمنه أمن الحاكم والنظام فحسب.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٩٦) ٢٦ رجب ١٤٢٨هـ، ١٠ أغسطس ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (١٨٥) ٢٤ ذو الحجة ١٤٢٥هـ، ٤ فبراير ٢٠٠٥م.

الدِّيمقراطيَّة بين الغرب والشرق

الديمقراطية شعار تستعمله أمريكا وأوروبا غطاءً؛ لإقامة واقع حضاري بديلاً عن الإسلام في بلاد المسلمين.

والوعي الشبابي سلاح فاعل في إبطال اللعبة، وإفشال المخطط الأجنبي الماكر. والوعي لا يأتي من فراغ، ولا من حالة حماس مجرّدة، ولا التحاق نشط بالنشاط الإسلامي يفقد الرؤية المركّزة والدرجة الكافية من الدراسة. الوعي يحتاج إلى فهم جيد لقيمة الإسلام وضرورته، وأصالته، وقدرته على الإنقاذ والتحرير، وتوفير متطلبات الحياة العادلة الهانئة السعيدة، والتزامه بتحقيق كرامة الإنسان، وحفظ مصلحته المستقبلية.

وهذا يحتاج إلى قراءة وإمعان ودرس وتدارس وحوارات ومطارحات، ويحتاج إلى معاهد وكليات وحوزات كفاءة، وذات تخصصات كافية.

وعلى العلماء والمؤسسات الإسلامية مسؤولية ثقيلة بالغة في هذا المجال كله.^(١)

أمثلة على صداقية الديمقراطية الغربية

١ - ديمقراطية اللاقيم

وفي دائرة أحداث التدمير في أمريكا والآراء بشأنها يقولون: إن الديمقراطية والحرية الغربية ضاقتا وسعاً بتصريح وزيرين من وزراء الحكومة الأمريكية شطاً كثيراً في نظر السيّد بوش حينما قالاً: بأن الأحداث هناك درس من دروس الغضب الإلهي، وأثر من الآثار الموضوعية للبعد عن خط القيم السماوية في أمريكا، والتسافل الجنسي والإباحية الحيوانية المنفلتة التي يرعاها ويغذيها النظام هناك، حتى طلب من الوزيرين أن يسحبا تصريحيهما بحكم من الديمقراطية والحرية المتقدمة!

ولا غرابة، فإن ديمقراطية اللاقيم من حقّها أن تسكت صوت القيم.

١ - خطبة الجمعة (١٩٩) ٤ ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ، ١٣ مايو ٢٠٠٥ م.

أما صوت القيم وخط القيم لوند يومًا بالآثار المدمرة لخط اللاقيم، فهذا ما يسمونه بالدكتاتورية!، وهذا تعصب ورجعية وضيق أفق وانغلاق وحجر وإرهاب فكري!

٢- ديمقراطية من لم يكن معي فهو ضدي!

وموقف ديمقراطي آخر صارخ تبرهن به الديمقراطية على صدقها، ويتمثل في هذا الحكم العادل الذي ينطلق من حرية الطرف الآخر والذي يقول: مَنْ لم يكن معنا في الحملة على أمته، فهو إرهابي وإن لم يحرك ساكنًا في ميدان الإرهاب!^(١)

٣- سويسرا والمآذن الأربع!

مآذن أربع في سويسرا تصيبها بالفزع، وتحدث لها حالة استنفار، وتؤدي إلى تعديل دستوري يمنع من تشييد المآذن هناك.

ولقد صارت البلاد الأوروبية تقزع، ويصيبها الذعر لقطعة قماش تستر رأس امرأة، أو نقاب يغطي شيئًا من وجهها، وتخاف على حضارتها العملاقة الانهيار من ذلك!

وسويسرا، وأوروبا بلاد تتشدد برفع شعار الحرية، وتتصب نفسها مدافعة عنه في كل الدنيا، وتغزو بلادًا بعد أخرى بذريعة الانتصار لشعار الحرية، وتنعى على الكثيرين أنهم لا يقيمون للحرية وزنها المطلوب، وأنهم يحتاجون إلى مَنْ يعلمهم فنّها الذي لا يجيده إلا الغرب!

مواجهة المآذن الأربع، ومواجهة ستر الوجه، أو ستر الرأس، أو أي سلوك من هذه السلوكات التي تأخذ طابعًا إسلاميًا الذريعة فيها الخوف من الإرهاب.

ولكن وراء هذه الهجمة والشراسة في مواجهة أي مظهر إسلامي في الغرب شيء أكبر من ذلك، وهو خوف الاستقطاب.

إنّ الغرب ليخاف من الإسلام، لأنّه يقدر أصلته وكفاءته، ويعرف أن الإسلام الأصيل النقي إذا عرفه الناس هفت القلوب إليه من شعوب الدنيا كلّها، وأنّ السبيل على بقاء المصالح الاستكبارية هو الصد عن الإسلام، وتشويهه.

١- خطبة الجمعة (٢٦) بتاريخ ١٠ رجب ١٤٢٢هـ، ٢٨ سبتمبر ٢٠٠١م.

وكما يأخذ الغرب بهذه السياسة، فإنَّ كل الذيول الاستكبارية في البلاد الإسلامية تأخذ بهذه السياسة نفسها.

كل المستكبرين، وكل الطغاة، وكل الذين يريدون أن يستغلُّوا الناس، وأن ينصبوا أنفسهم آلهة في الأرض من دون الله يعزُّ عليهم أن تنتشر الحقيقة الإسلامية، وأن يعرف النَّاسُ الإسلام.

ولا حرب اليوم في الأرض أكبر من الحرب على الإسلام، وحرب المستكبرين كلها في مظاهرها المختلفة، وفي كل جبهاتها هي في عمقها حرب على الإسلام.

ونقول: إذا كان للغرب أن يحمي حضارته ودينه، أو ماديَّته، فلماذا ينكر علينا هذا الحق نفسه بالنسبة لموقفنا من مراكزه التخريبية، وعريه، وعربدته في البلاد الإسلامية؟

من حقِّهم أن يحموا حضارتهم، ومن الواجب علينا أن نسكت أمام غزوهم الذي تشارك فيه أنظمة تحكم المسلمين من عرب، وغير عرب؟!!

إذا شتم شاتمهم مقدساتنا اعتذروا بأن الحرية مبدأ مقدس عندهم لا يمكن أن يمسَّ، ولا أن يؤدَّب الممارس لحرية من أبنائهم، لأنَّ القانون والدستور يحميه، أما إذا سترت مواطنة مسلمة من مواطني بلادهم شعر رأسها بمنديل ممارسة لحرِّيَّتها قالوا: هذا تهديد للحرية، وخطر على الحضارة كلّها، وباب من أبواب الإرهاب!!

أرأيت كيف يكال بمكيالين؟!

وكيف يكون التناقض في المواقف المتشابهة، وحتى المتماثلة؟!

وذريعة الإرهاب التي صار يستعملها الغرب؛ لإذلال المسلمين هناك، ولكبتهم، ولسلب حرّيتهم، وإنزال الأذى والضرر بهم هي ذريعة قدِّمها نذر لا يجيدون فهم الإسلام من أبنائه من خلال مذابح بشعة، وتقتيل مسرف، وتككيل لا حدود له باسم الإسلام بالمسلمين، أطفال المسلمين، شيوخ المسلمين، أبرياء المسلمين، وعلى أرض الإسلام، والغرب استغل هذه الذريعة أبشع استغلال.^(١)

٤- شيراك والقانون الذي يمنع الحجاب

نحن لا نتحدث هنا؛ لنؤثر على شيراك، ولنغيّر من قراره الذي يدعو إلى سن قانون يمنع المسلمات في فرنسا من الحجاب، ولكن نتحدث لنعرّي حضارة، ولنعرّف أنفسنا، وما يجب أن يكون عليه موقفنا.

أين حرية المرأة حين تختار الحجاب بمحض إرادتها، فتقهر إرادتها يا غرب، ويا علمانيون في كل مكان؟!

أين الموقف المحايد للعلمانية من الدين ولو في المظهر الشخصي والمسائل الذاتية كما يدعى؟!

الحجاب مسألة شخصية، تختار المرأة أن تتحجب أو لا تتحجب، مستجيبة لشرع الله أو خارجة عليه، والجسم جسمها، واللباس لباسها، والخيار خيارها، وهي تتصرف في ذاتها، ولماذا يكون للآخرين أي لباس يختارونه، ولا يكون للمرأة أن تختار لباسها من باب الحرية الشخصية التي ينادون بها؟!

ألم يمتلئ الغرب بتقليعات اللباس، وفي كل يوم تقليعة؟

ولماذا لا يكون في خيار المرأة أن تلبس هذا اللباس؟! أهو حياء أو مطاردة؟!

العلمانية تقف موقف الحياد من تصرفات المسلم في نفسه، وفي عباداته وشعائره، بعد أن تمتلك عليه الساحة الاجتماعية السياسية والاقتصادية التي لا تسمح له بأن يدنو منها؟!

المساحة الباقية العلمانية تقف منها موقف الحياد، أو كما يقول قرار شيراك : موقف المطاردة للإسلام خاصة، ولكل دين؟

الغرب يناقش العصبية الدينية، وفي نفس الوقت يمارس العصبية الجاهلية ضد الدين.

وهذه علمانية في مواجهة كل الأديان، أو المقصود مواجهة الإسلام؟
تفاصيل قرار شيراك تؤكد على الثاني أكثر.

أين تنوع الثقافات الذي يدعونا إليه الغرب، وأتباع الغرب العلمانيون؟

يريد البعض أن يملأ البحرين ثقافات متعددة من كل لون، ما كان منها وثيقاً، وما جاراها، وشابهه.

لماذا الذين يريدون أن نفتح كل أبوابنا لكل تقليعة، ولكل تقليد، ولكل سوء يأتي من غرب أو من شرق لا يحتجُّون على شيراك ويدينونه؟

ماذا يقول الغرب في تنوع الثقافات؟

يدعوا لتنوع الثقافات في بلادنا، لكن أين تنوع الثقافات عنده؟

أليس هذا من ثقافة الإنسان المسلم وهي ممنوعة عليه؟

أين الانفتاح على الآخر، يا غرب يا فرنسا، يا شيراك، يا علمانيون؟

أين القبول بالآخر؟

أنا تريدني أن أقبل بالإنجليزية هنا تلبس لباساً فاضحاً، وتركض في طول البحرين وعرضها، وتشير الفتنة في كل أجوائها، وترجسها بهذا اللباس، وأنت تمنع على أختي المسلمة في فرنسا أن تلبس الحجاب؟

أين كل الشعارات يا غرب، يا عشاق الغرب، يا علمانيون؟

إذا كان النظام العلماني من حقِّه أن يحمي نفسه من الدين، فلماذا يا علمانيون، ويا دول إسلامية لا يكون من حقِّ الدين، وأي دولة دينية، وأي جمهور ديني أن يحمي نفسه من العلمانية؟

يناقش العالم الغربي وأتباعه أحكام الذمة في الإسلام، حيث لا مجاهرة فيه بشرب الزمى الخمر وبيعه، وأكل الخنزير وتداوله مثلاً، وهو اليوم يشترط المواطنة أي مسلم أن يذوب في علمانيته، وينسلخ من أحكام دينه الإلزامية، وقيمه الثابتة.

ودول إسلامية قبل شيراك، تمنع من ارتداء الحجاب، وأخرى تخلق أمامه المضايقات في الجامعات، وفي أماكن التوظيف، وفي كل ما تستطيع من مساحة، وتشجع ضده وتسيئ إلى من تلتزم به من الفتيات المؤمنات.

(إنَّ خطر ارتداء الحجاب في مدراس فرنسا شأن داخلي لا يحقُّ التَّدخُّل فيه، ومن

حقّ كلّ دولة أن تصدر من القوانين ما يناسبها)!!، كلمة عالم دين يتبوأ منصباً كبيراً في عالمنا الإسلامي!!

هذه اللغة أهي من اللغة الوضعية؟ أم من اللغة الشرعية؟

الثاني غير مفهوم مطلقاً، وعلى تقدير الأول - ولا أظنّه هو المراد، لأن الموقع موقع ديني-، فإنّ أمريكا تتدخل في مناهجنا، وتتدخل في قوانيننا، وتتدخل في كل تفاصيل حياتنا يا عالم.^(١)

مفارقة أخرى: علمانية الغرب وتركيا ترفع شعار حماية الحرية الفردية، وهي تعيش مواجهة شرسة في تركيا لقرار ديمقراطي بفتح حرية الحجاب، وليس باب الإكراه على الحجاب.

علمانية تركيا تُكره على السفور، وتقف سداً منيعاً، وتنزل العقوبة على المتحجبات، وهي تدعي الديمقراطية، وتدعي الانفتاح، بينما تناهض قراراً نشأ في أحضان الديمقراطية، وقرار ديمقراطي محض، وهذه المواجهه لا لأنّ القرار يكره على الحجاب، وإنما لأنّه يخير الناس في قضية الحجاب!

فالإسلاميون في تركيا يعطون الحرية للمرأة أن تتحجب أو لا تتحجب، والعلمانية دعاة الحرية يكرهون المرأة على عدم الحجاب.

ومبادرة فردية على مستوى الحجاب في الغرب تستنفر دولة!، فتاة في السادسة عشرة تختار لنفسها الحجاب في المدرسة تقيم الدولة ولا تقعدها، تقيم حرية الغرب ولا تقعدها، حتّى تنزع هذه الفتاة الحجاب، انظروا مدى المفارقة!!^(٢)

٥- الازدواجية في الدّعوة إلى الديمقراطية!

هناك دول تنزعم الدعوة إلى النظام الديمقراطي على مستوى العالم كلّ، وتراه ضرورة للسياسة العادلة في مختلف المجتمعات، وتشن حروباً باسم الدفاع عن قدسية هذا المبدأ.

١- خطبة الجمعة (١٣٤ ٢٥ شوال ١٤٢٤هـ، ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣م).

٢- خطبة الجمعة (٣١٤) ٢١ صفر ١٤٢٩هـ، ١ مارس ٢٠٠٨م.

لكنك تجد من هذه الدول أنها تبرّد حتى في دعوتها اللفظية للأنظمة الصديقة بالتزام الديمقراطية الحقيقية، وتضغط على الشعوب عند تحرّكها للمطالبة بهذا المبدأ في اتجاه القبول بأرباع الحلول، أثمان الحلول، أعشار الحلول، وما هو أقل مما قد يعيد الشعوب إلى حالة الصّمت والتسليم للأمر الواقع، وحالة الهيمنة والتصرّف المطلق للأنظمة الحاكمة التابعة.

وهذا ما يجعل أساس دعوة تلك الدول إلى النظام الديمقراطي في العالم متّهمًا عند الشعوب المختلفة بأنّه لأغراض سياسية، ومصالح ذاتية خاصة بتلك الدول، ورؤوس السياسة فيها. ^(١)

الديمقراطية المصدّرة إلى بلاد المسلمين

الديمقراطية في أوروبا وأمريكا لوّن من ألوان الصراع على المصالح الدنيوية بين أهل الطموح المادي، والذي يأخذ بكل الوسائل مهما كانت درجة قذارتها للوصول إلى السُّلطة والجاه والمال، مع تجنّب بذل الدماء طلباً للسلامة، ولو كان دم الغير هو الوسيلة لهذه المصالح لما تحرّج عنه ما دام لا يُهدّد بالقصاص.

وأما ديمقراطيتهم المصدّرة، فهي ذات أحجام وألوان وأشكال متفاوتة بجامع واحد هو أن تأتي مفصّلة من عندهم أو محلياً على قدر أكبر ما يُمكن تحقيقه من مصالحهم. وكلما جاءت على خلاف ذلك حكم عليها بعدم النزاهة، وأنها من الفوضى، وفيها تهديد للديمقراطية الحقيقية، ولعب بالرأي العام، وأنها تساعد على الإرهاب، والتصويت فيها ليس للبرامج، وإنّما للشعار الديني والطائفي والفئوي، ولا بدّ من إسقاطها، والتخلص منها حتى يفيق الشعب الذي أدّى اختياره لها، ويتحسن عنده مستوى الوعي وإدراك المصالح، ويرقى إلى مستوى العقلية الغربية.

وعندئذٍ وحيث يختار الديمقراطية التي تحقق مصالح الغرب، فإنّه الشعب الناضج، وهي التجربة الناجحة.

وإذا كان الشعب الذي اختار الديمقراطية بما لا يحقق المصالح الغربية، ويوصل

عملاءه إلى السُّلطة مصرّاً على خياره، فلا بدّ من تأديبه بإشعال الحرب بين فئاته، أو تسليط سيف السُّلطة السابقة على رقابه، أو تجويعه بالحصار الاقتصادي والمقاطعة، وتوقيف كل الإمدادات.

ويشتد الموقف الغربي غضباً وصرامة على الشَّعب الذي تُقضي ديمقراطيته إلى الخيار الإسلامي وحكومة الإسلاميين.

وقد مارس الغرب إجراءاته الصارمة، وصبَّ جام غضبه على شعوب أمتنا، وأشعل فيها الفتن، وأحرقها بنار الحرب، وحاصرها، وعزلها لخيارها الإسلامي وإعطائها صوتها للإسلاميين في أكثر من تجربة ولأكثر من مرة؛ حتى شكّل ذلك ظاهرة حديثة مشهودة للعيان؛ فمن الجزائر، إلى إيران، إلى العراق، إلى انتخابات الأرض المحتلة التي فازت فيها حماس.

أنواع الدِّيمقراطيّات التي يرتضيها لنا الغرب!

وإنه من أجل ديمقراطية في البلاد الإسلامية بحيث لا تغضب أمريكا وأوروبا، وتحقق مصالحهما، وتُجنّب شعوب الأمّة من إجراءاتهما العقابية الصارمة لا بدّ من إحدى حالات ثلاث:

هذه هي الديمقراطية الثلاث التي يمكن أن يُرحّب بها الغرب:

١- اقتناع الشعوب الإسلامية بديمقراطية شكلية تُبقي جوهر ما كان من هيمنة الغرب على الأمّة ومصالحها ومقدّراتها على ما كان، ديمقراطية تتمّ بهذه الصورة تحت مظلة الأنظمة القائمة بكل ثوابتها، ومنها التحالف القوي مع الغرب، بل الاستسلام لإرادته.

وهذه هي الديمقراطية التي يُسوّق لها حالياً على حذر، بحيث يقدم الغرب اتجاهها رجلاً، ويؤخر رجلاً أخرى، ويجادل في داخله بشأن هذه الديمقراطية، وهل يمكن أن تعطى فرصة للإسلاميين فتُمنع، أو لا تعطى فرصة للإسلاميين، أو تكون قادرة على استمالتهم، فيعمل على تسويقها.

٢- انقلاب الرأي العام في البلاد الإسلامية، وتحولُه إلى صالح علمانيّين يؤمنون بالطرح الغربي للكون والحياة والإنسان، ومعنى المصلحة واللذة والسعادة، وما يقوم على ذلك كلّ من تفاصيل المناهج والبرامج والفكر والخلق والسلوك، علمانيّين ينفصلون عن هُويّة الأُمّة ومصلحتها ورسالتها، يلتحمون بالكامل بهُويّة الآخر ومصلحته ودوره في الحياة، ويرون أنفسهم من خلاله، ويقدرّون أن مصلحتهم من مصلحته، وهيمنتهم بهيمنته.

ونحن نجد كثافة في مظاهر الفساد والتحلل الخلقي والفكري الساقط، والأنماط السلوكية المستوردة من الغرب، ونجد انتشاراً واسعاً في ساحاتنا الإسلامية لكل ما هو غربي، ومن آخر المستوردات ظاهرة من يُسمّون بعبدة الشيطان الذين يمكن لهم في البلاد الإسلامية على مسمع ومرأى من حكومات هذه البلاد.

وعند تحوّل الشارع الإسلامي إلى شارع علماني يحتضن العلمانية والعلمانيّين، ويرحب بسلطنتهم، فحينئذٍ ستبارك الديمقراطية من الغرب في البلاد الإسلامية، وهي ديمقراطية تركّز وجوده، وتزيد في مكاسبه، وتعطي الفرصة الكاملة للذوبان الحضاري في طرحه.

٣- أن تحصل ديمقراطية تُمكن لجماعات إسلامية تطرح الإسلام شعاراً للاستقطاب الجماهيري، والتغريب بأبناء الأُمّة، وتتفصل عنه انتماء حقيقياً شاملاً بما في ذلك المساحة السياسية من حياة المجتمعات، وتُمازج في الطرح العملي بينه وبين ما يريده الغرب بما لا يؤثر على حقيقة الارتقاء في أحضانه، والإخلاص لشعاراته، ورعاية مصالحه، والاندغام بأفكاره، وفي ذلك حفاظ على أهداف الغرب، ومخادعة لشعوب الأُمّة.

الخيار المفضّل لدى الغرب

وأفضل الحالات عند الغرب - فيما يُقدّر - هي الحالة الثانية التي تُمكن لعلمانيّين مصنوعين على عينه، ويؤمنون بالكامل بنظرته ومصلحته، ولم تبقَ تربطهم بالأُمّة أي رابطة دينية وحضارية عميقة في فكرهم ومشاعرهم، ولا يواربون كثيراً ولا قليلاً إذا

أمكنهم بأن يتقدموا بهويتهم الحقيقية للأمة بعد أن تكون أوساطها العامة قد تهيأت لقبول هويتهم.

فهذه الفئة مرشحة تماماً - مع سماح الظروف - لأن تخلق حالة انسجام كامل في حياة الأمة مع التوجه الغربي والمصلحة الغربية، وذوبان كامل في رؤاه وأخلاقه وسلوكياته.

هل يختار الغرب الديمقراطية في ظل الأنظمة القائمة؟

يُلاحظ على هذا الخيار أنه يعاني من صعوبات صار الكل يعرفها للحالة العامة من الانفصال الفكري والنفسي والعملي عند الشعوب عن كثير من هذه الأنظمة لتراكمات تاريخية كثيرة، وتجارب متعددة مُرة، وإنَّ بقاء الأنظمة التقليدية لا تحصل معه نقلة واضحة مشهودة لجماهير الأمة تعطيلها أملاً جديداً، وتشعر من خلالها بحياة جديدة، ولو كان ذلك من باب الأمل الكاذب.

صعوبة المخادعة بالديمقراطية من النوع الثالث

وبالنسبة لخيار الإسلاميين الشُّكَّليين لا يمكن في الحقيقة أن يُساوى خيار العلمانيين المكشوفين، لأنَّ هذا الخيار محتاج للتسُّرُّ، وبطء التنفيذ لما يريده منه الغرب، ومضطر لتقديم شيء من التنازلات للرأي العام الإسلامي الذي يخالفه في الحقيقة، ويحاول أن ينسجم معه في الظاهر.

التعاطي العملي الغربي مع الأنواع الثلاثة من الديمقراطية المصدرة

وإنَّ الغرب لا يرفع يده بصورة نهائية عن أي من هذه الخيارات الثلاثة ولا غيرها - إنَّ وُجدت -، فهو في الوقت الذي يعزِّز فيه علاقاته مع الأكثرية من أنظمة الحكم القائمة في البلاد الإسلامية، ويُتسَّق معها بما يخدم مصالحه تراه يمتنُّ العلاقة مع العلمانيين، ويحمي حركاتهم، ويغير الساحة الإسلامية لصالح طرحهم ونفوذهم وتسَلُّقهم إلى السُّلطة، لأنَّ هذه الفئة ستكون وكيلاً مباشراً مؤهلاً وبصورة مكشوفة، وتتحمَّل مسؤولية التغيير الجذري الهائل في أوساط الأمة بما ينسجم وطموحات الغرب

ورغائبه.

وإن كانت حكومات قائمة كثيرة من حكومات البلاد الإسلامية لا تقصر في هذا المجال أبداً عما يمكن أن يمارسه دور العلمانيين إلا أن التغيير الشكلي الذي ستشهده الأمة بوصول العلمانيين إلى السُّلطة سيساعد على تجاوب الأمة معهم خاصة بعد أن يكون الشارع قد تهيأ تماماً لتقبل أفكارهم وطروحاتهم.

وفي نفس الوقت نجد أن الغرب يحاول أن يخترق جماعات إسلامية، ويجد منفذاً إليها، ويتفاهم معها علَّه يجد في بعضها ضالته من أصحاب الهوى الدنيوي، وطلاب السُّلطة ولو على حساب الدين ممن يستعد أن يقدم التنازلات الكبيرة الضارة للدين والأمة المرضية لأعدائها، كما يسعى لايجاد جماعات إسلامية الاسم.

نعم، إنَّ الغرب ليحاول الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الأوراق في علاقته بالعالم الآخر، ويعزز صلاته بأكثر من جهة وخط؛ للاستحواذ على كامل العملية السياسية في أرض الغير، والإمساك بكل خيوطها لمصلحة تمكينه وتحكمه في مصير الآخر.

العقبة الكؤود أمام المخطط الغربي

ويبقى الصف المؤمن المخلص من أبناء الأمة من فقهاء وعلماء دين ومتقنين إسلاميين واعين ومخلصين لدينهم، هو الصف المقاوم الحقيقي في وجه الهيمنة الأجنبية، وهؤلاء لا يعدلون عن قيم الدين ومبادئه على الإطلاق، ولا يقدمون شيئاً على مصلحة الدين والأمة، ولا يرضون تزييداً ولا نقصاً لما أنزل الله من الحق، وما تلقته الأمة من الوحي، وما قضى به الدين من الأمر.

وهذا صف عنيد يستعصي على المساومات التي تنال من نقاء الدين وعصمته وكرامته، ومن مصلحة الأمة، وقد حفظ الله به الإسلام كل القرون، وحمى به أصالة الأمة، وأبقى لها هويتها الكريمة الصادقة المتميزة.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٢٣٣) ٣ صفر ١٤٢٧هـ، ٣ مارس ٢٠٠٦م.

موقف أمريكا من الديمقراطية

أمريكا إنما تريد ديمقراطية مصنوعة على عينها تؤمن بحضارتها وطرحها وتوجهها ورموزها وأخلاقيتها، وتؤمن مصالحها وموقعها في البلاد الإسلامية.

ولماذا عدم احتضان الدكتاتورية؟

الآن وكأن أمريكا لا تحتضن الديكتاتورية، وتسعى لفرض نوع من الديمقراطية، ذلك لا لأنها تختار الديمقراطية على الديكتاتورية في الأصل للآخرين.

أمريكا تركب كل مركب، وتستبيح كل طريق إذا كان هذا الطريق هو المحقق لمصلحتها، ولأن الشعوب العربية والإسلامية ملّت من الديكتاتورية، وقد دخلت صراعاً جدياً معها، وقفز الوعي بحيث لا صبر على الديكتاتورية، وتمسك أمريكا بالديكتاتورية سيطردها من البلاد العربية والإسلامية، فهي تسلك طريقاً آخر وتحت شعار الديمقراطية؛ لتثبت قدمها في البلاد الإسلامية.

مراوغات باسم الديمقراطية

والديمقراطية أيها الإخوة، والتي صارت تتحدث الأنظمة عنها حديثاً أكثر في هذه الأيام - أعني الأنظمة العربية والإسلامية - هذه الديمقراطية إذا أرادت أن تصدق، فليس أن تفرغ موقعا يملؤه رجل على هواك؛ لتملاء امرأة هي كذلك على هواك.

استبدال رجل بامرأة، أو استبدال امرأة برجل في موقع معين لا يعني ديمقراطية، وكأنني أرى الديمقراطية التي يعنيها القوم هي من هذا النوع.

حين تأتي امرأة على هواك، وعلى المقاس الذي حدّدته أنت؛ لتملاء هذا الموقع مكان رجل كان على المقاس نفسه، فهذا لا يعني ديمقراطية!

إن الديمقراطية تعني إشراك الأمة في رسم خط مصيرها، في بناء حاضرها، في التخطيط لمستقبلها.

وإن الديمقراطية إشراك الشعوب فعلاً في تقرير مصيرها.^(١)

١ - خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥ هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤ م.

شرط الغرب: الإسلام والاستقلالية في مقابل الديمقراطية!

بعيداً كلُّ البعد عن مناقشة القيمة الذاتية للديمقراطية، أقول لكل الذين يؤمنون الوصول إلى ديمقراطية حقيقية من أبناء عالمنا الإسلامي الكبير من إسلاميين وغيرهم: إنَّ الغرب ما دام هو القابض على القرار الرسمي في أكثر البلاد الإسلامية، والمهيمن على مواقعه لن يسمح لكم بديمقراطية يتحسن من خلالها موقع الإسلام، أو تستطيعون بها أن تتحرروا من قبضة الغرب بمقدار.

إنَّ الديمقراطية التي لا تحافظ بالكامل على مصالح الغرب في العالم الخارجي في مفهومه حكمٌ متسلط، والحكم الفردي المتسلط الذي يضمن تلك المصالح وبقاءها حكمٌ ديمقراطي منفتح!

الديمقراطية المسموح بها من الغرب في البلاد الإسلامية هي الديمقراطية التي تُبقى سيادته على بلاد الغير، وفيما عدا هذا اللون من الديمقراطية الباب دونه مسدود، كما يشهد بذلك تعامل فرنسا أمُّ الديمقراطية مع التجربة الديمقراطية في الجزائر، والواقع الأفغاني، والمستقبل العراقي الذي تحضّر له الولايات المتحدة.

وإذا أراد أبناء الإسلام الديمقراطية التي يحلمون بها، ويلقون عليها الآمال في هذه الظروف، فليتحلّوا أولاً عن الإسلام قولاً وعملاً، وعندئذٍ لهم أن يفكروا أن الغرب الجاثم على صدر البلاد الإسلامية يتيح لهم ذلك، فالشرط لشيء من هذا أن يضمن الغرب أن صوت المرشح والناخب في البلاد الإسلامية ليس مع الإسلام، ولا المصالح الوطنية.^(١)

الغرب والانقلاب على الديمقراطية

وأي شعب، وأي بلد يطلب الديمقراطية؛ من أجل تأكيد هويته الإسلامية، ونهضته، وتحرره واستقلاله، فإن الغرب يقف عدواً له في هذه المطالبة لا معيئاً، ولا محايداً.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤٧) ٩ ذو الحجة ١٤٢٢ هـ، ٢٢ فبراير ٢٠٠٢م.

٢- هتاف جموع المصلين ب: (الموت لأمريكا).

يقولون عن الإسلاميين بأنهم ينقلبون على الديمقراطية، والمنقلب على الديمقراطية هو الغرب، وأتباع الغرب كما في تجربة الجزائر، وتجربة حماس، وتجربة العراق، وتجربة إيران القائمة، أما حزب الله الذي يمثل خطأ إسلامياً أصيلاً وناصباً، فإنه وقف من نتائج العملية الديمقراطية موقفاً شريفاً معترفاً بغلبة الطرف الآخر وإن كانت غلبة وُجدت وراءها في تقديره أمور وأمور مسيئة للديمقراطية.

حزب الله مثال إسلامي، وأنه لم يتمرد على نتائج الديمقراطية، وأمريكا والغرب وعملاء الغرب، والحكومات التابعة للغرب تمردت مرة ومرة وأخرى على نتيجة الديمقراطية حين جاءت في صالح الإسلاميين شيعة كانوا أو سنة.

وبعد خسارة غير الدينيين في الشارع المسلم سارع الغرب والطامعون في الأمة أن يبحثوا عن إسلاميين ملائمين مرنين متصالحين مع الفكر الغربي، والمصلحة الغربية يستحقون الإشادة والدعم، وإسلاميين متزمتين متصلبين وإن كانوا بريئين من لوثة الإرهاب يخاف منهم على واقع الأمة والتقدم الاقتصادي والسلم العالمي، ويسببون العزلة للشعوب الإسلامية، وتقويض مصالحها، وهؤلاء لا بد من تشديد الخناق عليهم، ومحاربتهم من الخارج والداخل، واستثارة الشعوب ضدهم.

لا بد أن يُقسَّم المجتمع الإسلامي إلى قسمين: إسلاميين معتدلين، وإسلاميين متطرفين، ويُستدرج الإسلاميون المعتدلون ضد الإسلاميين المتشددين، ويختلط بالإسلاميين المعتدلين كل مريد سوءاً بهذه الأمة.

وقد يحمل أهل خلق المرونة والروح التصالحية مع الغرب لافئات مرنة كذلك، ويمكن أحياناً أن يأخذ التحرك من هذا النوع وصف الإسلامي وإن كان بمضمون آخر.^(١)

لا ديمقراطية على يد أمريكا؛ حيث: «... لا أيمان لهم».

والإسلاميون هم الراحون في الديمقراطية ليس ابتداءً فقط وإنما كذلك استمراراً؛ لأن الأمة جربت كل الأنظمة الأخرى، وكل الخطوط الأخرى، وقد صدقت

يقيناً بأن الغرب عدو لها، ولم يبقَ أمل لها إلا في الإسلاميين لو أعطوا الفرصة السانحة؛ ليقيموا عدلاً في الأرض وأماناً وأخوة ليست على مستوى العالم الإسلامي فقط وإنما يستهدفون أن تكون أخوة عالمية.^(١)

خلاصة

دكتاتورية على الأرض وحسب القرار المعتمد، وديمقراطية على مستوى الإعلام الزائف! هذه هي أمريكا، وإنجلترا.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١١٣) ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٣٠ مايو ٢٠٠٣ م.

٢ خطبة الجمعة (١٠٧) ١٦ صفر ١٤٢٤هـ، ١٨ أبريل ٢٠٠٣ م.

الدِّيمقراطيَّة في واقع البلدان العربيَّة

إشادة نظريَّة وقمع عمليّ

الإذاعات العربية والصحافة العربية تُشيد بالديمقراطية، وتتغنَّى بها، وترى فيها الحلَّ، وتُعزي ما آل إليه أمر السودان إلى غياب الديمقراطية، أو تخلفها، وعدم صدقها، وكذلك ما يحدث في مصر.

والكلُّ من هذه الأنظمة لا يألو جهداً في دعوى الديمقراطية والثَّناء عليها، والإعلاء من قيمتها.

هذا والسُّجون ملأى من طُلَّاب الديمقراطية، وحرية الكلمة السياسية مكبوتة، ومختومٌ عليها بالأختام، والشَّمع الأحمر والقاني، والمظاهرات المطالبة بتحسين الأوضاع مقموعة، ومعاقب عليها، والأحرار مطاردون، ومراكز الوعي ملاحقة، والولاء للسياسة القائمة هو الميزان، والدساتير لا يكاد يعترىها إلا تغيير واحد يساعد على تركيز السُّلطة وتثبيتها وإدارتها بيد الشخص، أو العائلة، أو الحزب المتلخّص في الشخص وعائلته، وينصُّ على التوريث أو التمديد لشخص الحاكم بعد التمديد حتَّى مغادرة الحياة!

أليست هذه المفارقة من الضحك على الأمَّة، والهزؤ بها، والاستخفاف بعقليَّة الجماهير؟!

بلى، إنَّه ضحك، وهزؤ، واستخفاف بالأمَّة بكلِّ جماهيرها، ولكنه يكشف عن مأزق صارت تعيشه الأنظمة الرسمية القديمة ذلك أنَّ الوضع العالمي كله لا يترك لها مجالاً إلا أن ترفع شعار الديمقراطية، وتُبشِّر به، وإن كانت في داخلها تعاديه.

وينتهي الإعلام العالمي، والإعلام العربي حتَّى الرسمي المشارك في تمجيد الديمقراطية، والتَّبشير بها إلى خلق حالة انشداد وتعلُّق جاد، ومطالبة عامة جماهيرية على مستوى كلِّ شعوب الأمَّة تسترخص التضحيات؛ من أجل حُلُم الديمقراطية التي

تتناقض عند صدقها مناقضة تامة مع واقع الأنظمة الفردية والعائلية والرئاسية المتوارثة.^(١)

موقف الانظمة العربية من الديمقراطية

الأنظمة العربية: لا لأي ديمقراطية في أي مكان من البلاد العربية، ولا الإسلامية. وتقف هذه الأنظمة ضد الديمقراطية بقوة، ويقول مدير الوكالة الأمريكية للتنمية: «إن الحكومات العربية كانت الأكثر مقاومة للجهود الأمريكية الرامية إلى تعزيز الحريات السياسية».^(٢)

ومعروف أن المصلحة الأمريكية أهم عند أمريكا من مصلحة غيرها، والأنظمة العربية لا تقوى على مقاومة الرغبة الأمريكية إلى الأخير إذا كانت متجهة إلى التغيير بما يوافق مصالحها، ولذلك يقول المصدر نفسه: «إن هذا يتغير، وإن الدول العربية لم يعد في وسعها التدخل في اختيار الجماعات والمنظمات المدنية التي تمولها واشنطن». الدول العربية لا تقاوم أمريكا فيما تريده، ولكنها تقدم بدائل عن الديمقراطية المعروضة من أمريكا.

من هذه البدائل:

١- علاقات متطورة مع إسرائيل.

٢- رفع شعار حرية المرأة ومساواتها بالرجل - لا لسواد عيني المرأة، ولكن هذا الشعار يريد أن تُساوي المرأة بالرجل على الطريقة الغربية إرضاء للغرب وإسكاته - ، والدفع ببعض النساء من جبهة الموالاة، أو فئة خاصة أخرى إلى بعض المواقع الوزارية، ولا يدفع بالنساء من المعارضة، ومن أصدقاء الشعوب في الغالب إلى المواقع الوزارية.

٣- قصص الوجود الديني حسب الممكن.

٤- إعطاء تمدد في الحريات الشخصية التي لا تطال الناحية السياسية.

١- خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ، ١٤ يناير ٢٠١١م.

٢- الخليج ١٤ يولييه ٢٠٠٥م.

٥- تنازلات تجارية، وسياسية، وثقافية للقوى العالمية الضاغطة وفي مقدمتها أمريكا.^(١)

الأنظمة بين مطرقة الإسلام وسندان الديمقراطية

وجدت أنظمة سياسية كثيرة داخل الأمة الإسلامية والعربية نفسها تتفصل في ظل الصحو الإسلامية، وانتشار النظام الديمقراطي في الحكم في عدد من بلدان العالم، ورفع الشعار الديمقراطي من الدول الغربية، والترويج له على مستوى كونه شعاراً؛ لأغراض سياسية وحضارية تلتقي وما يخططون له لعالمنا العربي والإسلامي، وجدت نفسها تتفصل بسرعة عن شعوبها، وتتفصل شعوبها بسرعة عنها.

إنها غير قادرة على الاستمرار، وإقناع الشعوب ولو بالسكوت عليها فضلاً عن الرضا بها، مع بقاء الصيغة القديمة لها من مثل الصيغة الوراثة بلا تحسينات شكلية. فمنها ما رفع راية الإسلام، ومنها ما رفع راية الديمقراطية على مستوى الشكل، وبعض سطحيات المضمون، ولكنها أدخلت نفسها بهذه الخطوة في واقع محرج مع شعوبها، وصارت تطالب بالكثير على أساس الشعار الجديد الذي اتخذت منه منعزلاً لها من دون أن تؤمن به، وتتبنّاه على نحو الحقيقة والجد.

وهنا انفتح باب خطر للخلاف بين حكومات تصرُّ على التمسُّك بالشكل، وأن ترضى الشعوب به، وبين شعوب تصرُّ على أن يكون الإسلام الشعار حقيقة، وأن تكون الديمقراطية الشعار واقعاً.

المشكلة هي أن الأنظمة السياسية ذات التوجه والعقيدة والهدف والأرضية غير الإسلامية في البعد السياسي، وغير الديمقراطية والتي تلبس لباس الإسلام أو لباس الديمقراطية حملت نفسها أمام شعوبها والعالم ما لا يمكن أن تتحمّله، وتلتزم به بحسب طبيعتها، ووجدت من لباس الديمقراطية لباساً أطول وأعرض منها بكثير، فضلاً عن لباس الإسلام، وهو الأطول والأعرض والأرفع من كل الأطروحات، والإسلام الذي له من خصائص الرقي والامتياز ما لا يمكن أن يسابق من أي طرح أرضي، الإسلام الذي

١- خطبة الجمعة (٢٠٨) ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ١٥ يوليو ٢٠٠٥م.

يفرض على من رفع شعاره مستوى عاليًا جدًا من العقل والروح، وكل الأبعاد الإنسانية الكريمة، ويفرض عليه مسؤوليات ضخمة لا يحتملها في الناس إلا القليل.

عقلية الأنا والتسلُّط والمغالاة في الاعتزاز بالذات، والاستخفاف بالآخر، واحتقاره عند حكومة وغير حكومة تتصادم جدًا مع واقع الديمقراطية، وهي أكثر تصادمًا مع حقائق الإسلام.

الإسلام يريد نفسا تعيش العبودية الخالصة لله **وَعَلَّجَ**، يريد نفسًا لا تستكبر على حقِّ يراه الدين.^(١)

مفارقة!

هناك أنظمة فردية تأسيسًا وبقاء أنظمة حديدية فردية في تأسيسها وفي بقائها تعتمد السيف والسُّوط، وهذه الأنظمة وهي تمارس ما يُسمَّى بالديكتاتورية بأقبح وأسوأ صورها تظهر هلعها على مصير الديمقراطية من بروز الإسلاميين هنا أو هناك.

هؤلاء يمارسون الظلم، ويعيشون نزعة الحكم الفردي، ويقسون على الشعوب، ويُكَلِّون بها، ويطاردون مَنْ يطالب بالحقوق من أبنائها، وهذا كله أمر واقع، لكنهم يهلعون على الشعوب لو جاء إسلاميون في موقع من المواقع إذ يحتمل عندهم أنهم يعادون الديمقراطية^(٢)!! وهل أنت صديقها؟! وهل أنت داعيتها الحق؟! هذه مفارقة.^(٣)

الديمقراطية والقيم

إنَّ غياب التربية الدينية القويمة وقيَمها، والتخلي عن شروط الحاكم التي فرضها الله سبحانه ولو في أدنى حدِّها لن تتغير معه مأساة العالم ولو طبَّقوا الديمقراطية بأدق معانيها، وأنَّ خسارة العالم لقيم السماء وتشريعها العادل لا تنفع معه مليون ديمقراطية، ولا ينفع معه أيُّ حل.

١- خطبة الجمعة (٣٦١) ٢٢ ربيع الأول ١٤٣٠ هـ، ٢٠ مارس ٢٠٠٩ م.

٢- الإسلاميون بحق لا يحتاجون للانقلاب على الديمقراطية، فيقظة الشعوب معهم، وعدلهم وخدمتهم للمجتمعات، وتنزههم عمَّا في أيدي الناس يقدِّمهم على غيرهم لو أعطى الناس الخيار الحد.

٣- خطبة الجمعة (٣١٤) ٢١ صفر ١٤٢٩ هـ، ١ مارس ٢٠٠٨ م.

والذين يتوهمون أنَّ الكلام في تأسيس وعي إسلامي، والمطالبة بالأخلاقية الإسلامية، وإفادات النظر إلى المخالفات الخلقية، وإلى خطورة الخروج على التشريعات الإسلامية أمرٌ ثانوي يغفلون كثيرًا، ويتعاملون مع الأمور بسذاجة، وسيئون الأدب مع دين الله وأهميته في تقويم الحياة.

وإنَّ أي مسيرة تختطُّ لنفسها طريقًا غير الطريق الذي حدَّده منهج الله، فإنها مسيرة خاسرة.^(١)

مشكلات الأرض يحلها المنهج العليم، والجهاز الصالح المؤمن به، والتربية على القيم.

والمنهج العليم الدقيق الأمين هو منهج الله - والجهاز الصالح المؤمن به لا يكون إلا من إعداد -، والتربية على القيم لا تكون إلا من صنعه، وفي ضوء ركائزه.

كثيرًا ما نتحدث عن حكم الشعب أو الفرد، وحكم الشعب بلا قيم لا ينقذ، وحكم الفرد بلا قيم لا ينقذ.

حكم الفرد الاستبدادي كارثة، والحديث عن حكم الشعب الذي هو مهوى أفئدة الناس الآن، وحكم الشعب بلا قيم لا ينقذ إذ أنَّ شعبًا بلا قيم هو مجموعة حيوانات عدوانية مفترسة كاسرة متغالبية وساقطة ساقطة، فلا تفكروا في ديمقراطية تنقذكم، ولا غيرها حيث يخرُّ سقف القيم، أو يهبط كثيرًا.

إنَّ الديمقراطية نفسها لا تحل المشكلة وإنما يحلُّها ما قد تعتمد من منهج إلهي صحيح، وهي طريق - فحسب - للتمكن لهذا المنهج ولحكومة من صنعه، أما لو انصبَّ خيار على منهج جاهلي، فستركِّز الديمقراطية الجاهلية.

والمجتمع الجاهلي لا يختار غير منهج جاهلي، وإذا كان الشعب المؤمن الواعي لا يختار إلا حكومة مؤمنة عادلة، فإن الشعب الفاسق لا يختار إلا حكومة من جنسه،

١ - خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفره ١٤٢٥ هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤ م.

والشعب المؤمن إذا أمكن استغفاله كان جسراً لحكومة تكفر بالعدالة، وتحارب القيم.
وعدد من طغاة العالم ومجرمي الحروب إنما أوصلتهم إلى مواقعهم الخطيرة
الديمقراطية، وتبوأوا هذا الموقع على متن قطار رسمي اسمه الديمقراطية.
ما الذي أوصل بوش إلى موقعه؟ هي الديمقراطية.

ولون من الديمقراطية كاذب، وكثير من الديمقراطيات كاذبة، والديمقراطية
الصادقة مستعدة أن توصل في بعض الظروف الشيوعية للحكم في البلاد الإسلامية،
وتوصل الانتهازي الذي يملك فنّ المراوغة إلى الموقع المتقدم في البلاد التي تؤمن بالله
وبرسوله ﷺ. (١)

الديمقراطية بلا وعي، وبلا تماسك، وبلا إيمان، وبلا فهم موضوعي كارثة،
الديمقراطية تحتاج لأن توصل إلى ما به الحل هو المنهج الصحيح، والحكومة الصحيحة،
إلى الموقع المؤثر؛ إلى آليات، إلى وضعيّة خاصة من الوعي واليقظة، والإيمان، والرُّشد،
والتَّوْحُد. (٢)

هل نبقى بلا ديمقراطية، ولا دين؟

عرفنا أننا بقينا من غير ديمقراطية، والحديث عن الديمقراطية - كما يقولون -
حديث واهم، وإذا تصوّر أنّها وجدت يوماً هنا، فقد كُفّنت، ودفنت.

فرغنا أنه لا ديمقراطية على الأرض، لكن هل لا دين أيضاً على الأرض؟!

١- ذلك حين يُستغفل النَّاس - مثلاً -، وتكون الإمكانات المالية والدعائية أكبر بكثير في يد المراوغين منها في يد المخلصين.

ملحوظة: إن أي فئة تطالب بالديمقراطية؛ لتحسين موقعها السياسي، ووضعية الحقوق الثابتة لها عليها أن
تصنع ما استطاعت شارعاً يقف معها في الحملات الانتخابية، ويؤمن بطرحها، وأن تحمي جماهيرها من تأثيرات
الطروحات الأيديولوجية الأخرى، وتربيتها التربوية المبدئية التي تؤمن بها.

أما المناداة بالديمقراطية، وترك الشارع يتصنع بصناعة الآخرين؛ ليقف مواقفهم، فهي لون من الانتحار.

٢- خطبة الجمعة (١٢٥) ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٣م.

نحن لا نرضى بالديمقراطية ثمناً للدين، نحن لا نعطي الدين بأي ثمن، لا بحرية
جسدية ولا بديمقراطية، ولا بأن تبوؤني مركز الحكم، فكيف الجمع بين سلب ما يراد
بديلاً وما هو المبدل عنه وهو الأسمى، والذي لا تنازل عنه أبداً؟!
أقول: أبقى الأرض بلا ديمقراطية بُشّر بها، وبلا دين هو قدرنا، وهو شعارنا، وهو
مصيرنا؟!

ونحن نذهب، والدين يبقى.

نحن نموت، والدين يحيا.

ولا تنازل أبداً عن الدين.^(١)

لا إصلاح للأرض إلّا في الدين القيم والشرعية العادلة

عن ميسر قال: قلت قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(٢) - هذا
الرجل يعرض سؤالاً عن الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ - على
الإمام الباقر عليه السلام، قال - أي ميسر - فقال عليه السلام: يا ميسر، إنّ الأرض كانت فاسدة،
فأصلحها الله ﷻ بنبيه ﷺ، فقال - أي الله ﷻ - : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا﴾.^(٣)

أي نظام آخر - رضيت أم لم ترض - غير النظام الإسلامي يمثل حالة إفساد،
رضي وعيكم الديمقراطي أم لم يرض، الحاكمة لله سبحانه وتعالى، والشرعية الحقّة
شرعية الله سبحانه وتعالى.

نعم، تصلح الديمقراطية طريقاً؛ لإصرار الاختيار الشعوب، وإصرارها على
الرجوع إلى شرعية الله سبحانه وتعالى، أما الحاكمة فهي لله وليس للشعب أن يختار

١- خطبة الجمعة (٦٣) ٢ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، الموافق ١٤ يونيو ٢٠٠٢ م.

٢- الأعراف: ٥٦.

٣- الكافي - الشيخ الكليني - ج ٨ - الصفحة ٥٨.

هذا النظام أو ذلك النظام، هذا الأمر أو ذاك الأمر، لا خيار إلا لله، فاتقوا الله.

إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فَاسِدَةً، فَأَصْلَحَهَا اللَّهُ وَجَلَّ، في الفترة بين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حيث بعدت الأرض عن خطِّ الله، ورجعت إلى نُظْمٍ وضعيَّة، أو نُظْمٍ خليط بين حق وباطل في تلك الفترة كانت الأرض فاسدة، متى صلحت؟

صلحت بالأطروحة الإلهية، وبالقائد الإلهي، بالإسلام، ورسول الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

كانت فاسدة، فأصلحها الله سبحانه وتعالى بنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. ^(١)

الآن أصلحت لكم الأرض بالإسلام وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فلا تعودوا للإفساد في الأرض بأن تركبوا مركباً آخر غير مركب الإسلام. ^(٢)

١- الأعراف: ٥٦.

٢- خطبة الجمعة (٧٢) ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ، ١٦ أغسطس ٢٠٠٢م.

تتمة

أنظمة سياسية بلا هُويّة!

هناك على مستوى التّصور والافتراض أنظمة سياسية دينية صادقة، ودينية أخرى، وأنظمة أرضية تتفاوت على اشتراكها في استقلالها عن السماء منطلقاً وفلسفة ومنهجاً وهدفاً في تكييف شرعيتها وأسلوب علاقتها مع شعوبها، ومدى سُلطوتيتها وإحكام قبضتها، والوسائل المعتمدة؛ لبقاء هيمنتها، وإمكان مساءلتها ومحاسبتها.

وهذه الأنظمة الأرضية منها ما هو واضح الهُويّة، معروف الانتماء، ومنها ما لا يكاد تكون له هُويّة محدّدة.

وهذا الأخير هو أصعب الأنظمة على الشعوب، والمبتلى به منها من أشقى الشعوب، وأتعبها بسببه.

هناك نظام يعلن إسلاميته أو علمانيته، شيوعيته أو رأسماليّته، دكتاتوريته أو ديمقراطيّته، ويبقى عملاً عندما أعلنه عن نفسه، وتكون محاسبة المحكومين له على أساس من هُويته المعلنة والملتزمة، وكذلك محاسبته وجزاؤه ومؤاخذته لئن يحكمهم.

ويكون خيار المحكومين في علاقتهم مع النظام الذي حدّد هُويته، والتزم بها قائماً على رؤية واضحة قبلوا به أم لم يقبلوا، تفاعلوا معه أم لم يتفاعلوا، صبروا عليه أم لم يصبروا، هادنوه أم قاوموه.

ويتعبدك نظام يتعامل مع شعبه تعامل الأنظمة الدكتاتورية، ويرفع عن نفسه شعار الديمقراطية، ويأخذ سياسة مناهضة للإسلام ولكنه يتبرقع بشيء من المظاهر الإسلامية، ويتنكر للعدل الإسلامي وللمساواة التي ينادي بها الإسلام، ويرفع شعار الإسلام في وجوه معارضيه، ويتحدث عن طاعة أولي الأمر الواجبة على الشعوب تجاه حكوماتها، وينكر على الشيوعية تشدُّدها، ويمارس القبضة الحزبية الحديدية، والقمع الشيوعي المبالغ فيه، ويعلن انتماءه إلى النظام الاقتصادي الحر، ويصادر الحرية الاقتصادية، وكلّ فرصها لفئات عريضة من المجتمع، ويتحدث لك إعلانه عن الآخرة

ومشاريعه للسياحة وغيرها تسحق قيم الدين، وتهرب بالعقول والمشاعر عن فكر الآخرة وحسها ومثلها، وفي الوقت الذي ينادي فيه بشعار الحرية الدينية، والتسامح الديني، ويفتح الباب؛ لممارسة الطقوس المسيحية، واليهودية، والوثنية، ويحارب شعائر مذهب حق من المذاهب الإسلامية، ويخفق حرية دور العبادة، ويطارد إنشاءها، وعمارتها!!

هذا النوع من الأنظمة يحاكم الناس وأوضاعهم استناداً إلى منطلقاته المتعارضة، ولا يعدم منطلقاً من المنطلقات المتعددة؛ لتثبيت الحجة على شعبه، لأن كل المنطلقات، كل الأطروحات مفتوحة أمامه - كما يرى - على طريق هذا الاحتجاج: يحاكم العلماني على أساس الإسلام، والمؤمن بالإسلام على أساس العلمانية، ويرفع في وجه هذا شعار الحرية الشخصية، وفي وجه ذلك شعار التمسك بالدين مثلاً، بينما لا يملك الشعب المحكوم لنظام من هذا الطراز أن يحاسبه على أساس من قاعدة منضبطة، فإن تحدثت معه عن الانفلات غير الأخلاقي مذكراً له بالإسلام قال لك: هذه رجعية، وعقلية قديمة، وحالة انغلاق مزرية!!

وإذا أردت أن تحاسبه في السياسة على أساس ديمقراطي، قال لك: لنا ديننا، وتقاليدنا، وعاداتنا، ولا نأخذ من الديمقراطية إلا ما وافق ذلك كله!!
فلا تعرف أن مثل هذا النظام رأسمالي، أو اشتراكي، أو إسلامي، ملكي وراثي منغلِق، أو ديمقراطي منفتح.
هو أي شيء من هذه الأشياء، أي طرح من هذه الطروحات إذا أراد أن يحجك، وهو الشيء الآخر بين كل الانتماءات والهويات حين تريد أن تحتج عليه بشيء منها.

حقاً، إن هذا النوع من الأنظمة متلاعب بالشعوب، ومنتعب لها، ومراوغ في تعامله معها، ولا يعطي بطبيعته فرصة؛ للتفاهم لفقد الضابطة الواضحة المحددة التي يرجع إليها في نمط حكمه للناس، والمدرسة التي ينتمي إليها.

هذا النوع من الأنظمة لا بد له أن يحدد هويته وانتماءه المدرسي من ناحية سياسية وإلا كان لا بد أن تسود العلاقة بينه وبين الشعوب التي يحكمها صفة الفوضى في غياب قاعدة محددة، ومدرسة معروفة للاحتكام في حالات الاختلاف.^(١)

الباب الثالث

بحث مقارن في فلسفة النُّظم السِّياسِيَّة

مقارنات بين النُّظام الإسلامي والأنظمة الأخرى

أولاً: الرُّؤية والمهدف

هذه الحضارة تنظر إلى الإنسان أكثر من كونه شيئاً من الطين، وأكثر من كونه روحاً تعطي التراب نموّه وحركته.

إنها ذات نظرة تضيف إلى ذلك روحاً كثيرة الشوق إلى الله، شديدة التطلع إلى التشبُّه بأسمائه الحسنی، لا تستريح إلا في ظل معرفته، ولا تأنس إلا بذكره، ولا تقتنع من ذاتها إلا بقربه، ولا تستغني عنه بكل ما سواه، ولا تفتقر إلى ما دونه ما وجدته وعرفته وشعرت برضاه.

هذه الحضارة تتحرك بالمادة على طريق نموّها وتقدُّمها، وتثري الحياة بالحركة والنشاط، وتقيم على الأرض واقعاً عملاً أكبر ممّا ما تصنعه الحضارة المادية من واقع كبير على الأرض، لكنّ الواقع الأكثر تعملقاً، والأكثر ترسُّخاً، والأكثر بسوقاً، والذي تصنعه حضارة الإنسان - المقابلة لحضارة الطين - على الأرض واقع منشدٌ إلى القيم، وشاهد على الرسالية، وناطق بقيم الخلق والدين، ومتسام بالوضع المادي الكبير المصنوع على يدها بدل أن تخسر قيمها بالوقوف عنده والذوبان فيه، فتتمرّغ في الطين، وتبتلي ببلادته، ويستولي عليها جموده، وينقطع بها عن الأفق اللامحدود، والنور الذي لا يتوقف، ولا يأتي عليه شيء من النهايات.

الإنسان بروحه الشفافة، ورؤيته الكونية العميقة الواسعة الأصيلة، وشعوره الصاعد إلى الله، وشوقه ولله المتعلق بعظمته، الإنسان بذاته المعنوية الفياضة بالخير، بالحب الطاهر، بالوعي الرشيد، بالعدل، بالإحسان، بالرحمة، بالعطاء، بالإيثار هو الهدف في

هذه الحضارة.

أما النمو المادي، ومتع البدن مما يقع وسيلة فيها لصناعة الإنسان الكبير في عقله العارف بالله، وفي روحه المنفتحة على هداه، وقلبه المليئ بالخير، وذاته الزخّارة بمعاني الرفعة والسمو، والتطلعات الإلهية الكريمة.

الإنسان في هذه الحضارة ينشدُّ بالأرض إلى السماء، يرتفع بها إليها، يقود الحركة فيها على ضوء قيمها، يخصبها بالخير من منهج تلك القيم، يفرشها عدلاً وأماناً وسلاماً، وفيوضات بركة بتعاليم المنهج الإلهي ووصاياه الكريمة، وأخلاقيته الرفيعة، وشريعته السمعاء الهادية العادلة المثرية.

الإنسان في هذه الحضارة لا يسقط مستواه الخلقي، ولا ينهار في معنوياته، ولا يخسر ذاته المشعة، وفطرته الهادية القويمة؛ ليجد نفسه من بعد ذلك عاجزاً عن الأخذ بمنهج السماء، والإيمان بمنظومة قيمها حتى يكفر، أو يستنزل السماء إلى الأرض، فيكون إلهه من مستوى الطين، ومعبوده مخترعاً من حجم المادة، وهي النتيجة الحتمية لمناهج الأرض وأطروحات الإنسان البعيد عن الله، وهي النتيجة التي تنتهي إليها حضارة التراب بقصورها، وجمودها، وجهلها، ووضاعتها.^(١)

الفرق على مستوى العدالة

نظام أخروي، مصالحه أخروية، وقيمه أخروية، ويخدم الناس؛ من أجل ثواب الله، والحاكم في تلك الأنظمة يعتبر نفسه خادماً للناس، أما الأجر فمن الله.

وأنظمة تطلب الدنيا، وتتقاضى الثمن فيها، فتأخذ نصف الثروة، ثلاثة أرباع الثروة، أربعة أخماس الثروة، فالنظام الأخروي وهو يريد ثواب الله سبحانه وتعالى استقرار الأوضاع الأمنية أنفع له، والنظام الدنيوي والذي يتقاضى من الثروة العامة ثلاثة أرباعها، أو أربعة أخماسها هذه الأوضاع مستقرة حتى يبقى أنفع له في دنياه، وأبقى في غالب الظروف.

العضو في النظام، المستفيد من النظام عنده قصران، وخمسة قصور، وعشرة

١- خطبة الجمعة (١٦٠) ٦ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٥ يونيو ٢٠٠٤م.

قصور، وعشرون قصرًا، وستمائة خادمة، وكذا مليار، وكذا كيلومتر من الأرض، وأبناء الشعب العاديون الكثير منهم لا يجد مسكنًا، لا يجد لقمة، تضيق به المعيشة، فاستقرار الأوضاع في صالح مَنْ أكثر؟، ولا يكون استقرار الأوضاع في صالح شعب حتى تكون هناك درجة عدل معقولة يمكن أن يُصبر على الحياة في ظلّها، إمّا مع انتفاء العدل، وإمّا مع تقلص مساحة العدل إلى حد محرج، فأبناء الشعب لا يكتفون في العادة في أن الأوضاع استقرت أم لم تستقر، فمن صالح الحكومات أن تهدّئ، أن تعطي أقراص أسبيرين، أن تعطي إبرًا مخدّرة؛ لتهدأ الأوضاع، في حين أنها تؤجج الطائفية، تستحدث عمليات استفزازية كل يوم.

هذا ليس من العقل، هذا غباء، أعطِ إبرًا مهدّئة، قم ببعض الإصلاحات، هذه الإصلاحات وإن كانت جزئية قد تهدأ شريحة كبيرة من الناس، أما أن تبعد المسافة بينك وبين الناس، وتواصل السخرية بهم، واستنزاف خيرات البلد، وتستثير دين الناس، وتفتت الأخوة الإسلامية بين الناس، وتستثير الأخ ضد أخيه فذلك في العاقبة ما يؤول عليك أنت أولاً بالخسارة، الفقير إذا فقد ماذا سيفقد؟، إذا اضطربت الأحوال، وسادت الفوضى ماذا سيخسر الفقير؟

لن يخسر الكثير، أنت الذي ستخسر الكثير، فلا أدري مَنْ يُسوّل للأنظمة أن تزيد في الظلم، وأن تواصل السلب، والابتزاز، وأن تحدث مشاكل الفتنة بين حين وآخر؟^(١)

ثانيًا: مستوى التشريعات

نماذج من شرعة النظام الإسلامي

أ- من الأوامر

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٩٣) ٥ رجب ١٤٢٨ هـ، ٢٠ يوليو ٢٠٠٧ م.

٢- النحل: ٩٠.

هذه أوامر الله، هذه توجيهاته، هذه أحكامه، هذه الخطوط العريضة في منهجه، والتي تعبر عنها التفاصيل بكل أمانة ودقة.

إنه لا يأمر إلا بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، فهو أساس من أسس المنهج الإلهي.

إنَّه سبحانه يأمر بالعدل المنفتح على كل الأمم على كل الشعوب على كل إنسان، وينطلق الإنسان المسلم فوق ذلك بأمر من ربه من روح الإحسان، فهو إنسان لا يحمل روح الإساءة، وإنما على العكس هو مشبَّع من خلال إيمانه وتقواه، وانشداده إلى الله بروح الإحسان، بروح العطاء، بروح الإصلاح، بروح البناء، هكذا هو منهج الله، وهذا هو خط عريض من خطوط ذلك المنهج الكريم.

- ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

ما ينشره الإسلام في الأرض، ما يبتغيه المنهج الإلهي بحياة الإنسان، أن ترتبط بخط المعروف، والمعروف هو ما يوافق عليه العقل السليم، وما يلاقي رضا الله، ويتوافق مع رضوانه سبحانه وتعالى، السلوك المعروف، والفكر المعروف، والشعور المعروف، والنظام المعروف، والعلاقات المعروفة، هي أمور رفيعة المستوى، هي أمور طاهرة، هي أمور بناءة، هي أمور تقود الحياة على الخط الصحيح، هي أمور تصل من الشفافية، ومن الطهر والنزاهة، ومن القدرة على البناء.

إنَّها توا في رضوان الله العظيم، وأنها تلتقي مع الفطر السليمة، ذلك هو المعروف، وذلك المعروف هو ما تبني الشريعة الإسلامية، القائمة على العقيدة الحقَّة، أن يكون في الأرض، وأن ترتبط به حياة الإنسان: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^(٢).

ماذا يريد الإنسان أكثر من أن يجنب كلَّ سوء، وأن يجنب كلَّ قذارة، وأن تتفصل

١- الأعراف: ١٥٧.

٢- الأعراف: ١٥٧.

حياته عن كل خبيثة، وأن ترتبط بكل طيب، هذا المنهج الإلهي الكريم يربط حياة الإنسان بالطيبات، يفصلها عن الخبائث، ينجو بالإنسان ويبعد به كثيرًا كثيرًا عن كل رذيلة، عن كل قبيح، عن كل ما يحط قدر الإنسان.

لم يحرم الله سبحانه وتعالى شيئاً على عباده من تضيق، وإنما حرم عليهم أشياء لا يتناسب مستواهم الإنساني، وهدفهم الكبير، وروحهم المنفتحة على الله وعجلٍ معها، لخبائثها، ودونيَّتها، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، كل ما يعرقل حياة الإنسان عن الانطلاقة الكبيرة إلى الله، عن بناء نفسه البناء الإيجابي، عن بلوغه الهدف الكبير، هذا الذي يقيّد حركة الإنسان، يشلّها عن كماله، هو المحرم، وهو الذي جاء الأنبياء والرّسول الأعظم ﷺ؛ ليضعوه عن الناس، ليعطوا الإنسان التّحرُّر الكامل، يعطوا حركته الانطلاقة الكاملة، بعيدة عن هذه الأثقال التي تقف بالإنسان دون غايته، والتي تقطع على الإنسان رحلته إلى بارئته العظيم.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.^(١)

ما أروع من خط، وما أكبر هذا الخط إعلاناً كريماً، شاهداً على عدالة الإسلام، شاهداً على صدق الإسلام، شاهداً على بعد الإسلام عن الاستغلال، وعن النفعية الساقطة.

إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَمَأْمُورٌ أَنْ يُؤَدِيَ الْأَمَانَةَ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ: ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ...﴾ - أي ناس؟ كل الناس - ، ﴿... أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.^(٢)

الحكومة المسلمة حكومة محكومة لعدل الله، لا تملك أن تحيد عن عدل الله، وعن شريعته القويمة العادلة قيّد شعرة، ما دامت تريد لنفسها أن تبقى على خط رضا الله، وما دامت تريد لنفسها أن تتشرف بشرف الإسلام، فهي مسؤولة أن تحكم بالعدل حتى مع العدو.

١- النساء: ٥٨.

٢- النساء: ٥٨.

العدو لا يعامل بالظلم، ولا يعامل إلا بالعدل، والعدل لا يعرفه حقًا حقًا إلا الله، والمتلقون أحكامهم عن طريق الله.

ب- من النواهي

نظرنا إلى ما يأمر به الله، إلى ما يدل عليه المنهج الإلهي من أوامر وأحكام موجبة، هذه الطائفة الثانية تتكلم عن ماهية النواهي الإلهية، وعن ما هو متعلق هذه النواهي:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

إنها العلاقات المنفتحة في الإسلام، لا يحول بينها وبين المسلمين إلا أن تكون هناك عدوانية من الطرف الآخر.

الطرف المسلم، طرف عادل، وطرف بار، وطرف حسن النية، وطرف لا يريد إلا الخير للدنيا كل الدنيا، وللاطراف كل الأطراف.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، إنه نص على أن النواهي الإلهية لا تنطلق من روح التشنج، ولا تنطلق من ضيق الأفق، ولا تنطلق من روح العدوانية.

إنما النواهي الإلهية وراءها موضوعات مقتضية للنهي، ووراءها دائمًا خلفية من المفسدة تستوجب عدم الفعل، وتقضي بالنهي، دائمًا يكون وراء النواهي الإلهية، مفسد لا تتناسب مع وظيفة هذا الإنسان، مع مستوى هذا الإنسان، مع هدف هذا الإنسان، مع مصلحة هذا الإنسان.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

أنظرت لنواهي الله وأنها تنصب على الفساد في الأرض، الفساد في الأنفس، الفساد في البيئة، الفساد في الوضعية الاجتماعية، الفساد في الوضعية الاقتصادية، الفساد في

١- الممتحنة: ٨.

٢- هود: ١١٦.

الوضعية السياسية، الفساد الذي يمس روح الإنسان، يمس فكر الإنسان، يمس مشاعر الإنسان؟

هو ذلك المتعلق لنواهي الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

والمسلمون تدفعهم النصوص الشرعية، وتدفعهم الإرادة الإلهية، تدفعهم الإرادة الإيمانية في داخلهم، أن يكونوا - دائماً - على خط المواجهة للفساد، في خندق واحد متحدين؛ ليدروا عن الأرض الفساد، ليطاردوا الفساد في الأرض شبراً شبراً، ويطاردوا الفساد في الأرض بقعة بقعة.

- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ...﴾^(٢)، لم يحرم عليكم خيراً، لم يحرم عليكم شيئاً طاهراً، لم يحرم عليكم شيئاً بنأً، حرم عليكم ما يسوءكم، ما يقتل إنسانيتكم، ما يفسدكم ما يفصلكم عن هدفكم، ما يباعدكم عن الله وهو الخير والحق، ما يحط بقدركم، ما يتقهقر بمستواكم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾^(٣)، المسلم لا يبغي على غيره بغير حق وما لم يكن رداً على العدوان.

﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، منهج علمي باطل بأن لا تفصلوا عن الدقة والأمانة.

ادّعاء ما لم ينزل به الله سلطاناً، وما لم يقم لك عليه برهان، فلا تقل.

أن تقول: ما لا تعلم، ذلك من معصية الله، ذلك من الجهل، ذلك مما لا يلتقي مع منهج الله سبحانه وتعالى.

١- هود: ١١٦.

٢- الأعراف: ٣٣.

٣- الأعراف: ٣٣.

٤- الأعراف: ٣٣.

نماذج من شرعة الحضارة المادية

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

جاءتك الصفحة السوداء الكالحة، جاءك الوجه القبيح للحضارة المادية، جاءتك السوءات، جاءتك القبائح تواجهك بها حضارة الأرض، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾، فالكلام عن حضارة الكافرين، حضارة المنفصلين عن الله، حضارة التراب، حضارة الطين، حضارة الغرائز المادية الساقطة.

ما هي سمات هذه الحضارة؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾، القتل بغير حق لأكبر الرموز الإنسانية، لأطهر الأئمة والأرواح والقلوب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ...﴾، مَنْ يقتلون؟ أيقتلون مفسدين؟

يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، تلك حضارة تبتني العدل في ضوء خط الله، ولا تحمل للبشرية إلا خيراً، ولا تكف الناس إلا عن شر، وهذه حضارة تنطلق من روح الشيطان، وتتصل بالشيطان، وتتحرك بوحي من الشيطان، والشيطان لا يوحي إلا بالعدوانية، والشيطان لا يأمر إلا بالسوء، والشيطان لا يقود إلا إلى خط الفحشاء والمنكر، وهي الحضارة التي ترونها المدمرة، في كل مكان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، هذا الخط خط من حق العذاب عند الله سبحانه وتعالى.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾^(٢)، في قبال ما يأمر به الخط الإسلامي من المعروف: ﴿... وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٣)، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٤)، فإذا

١- آل عمران: ٢١.

٢- التوبة: ٦٧.

٣- التوبة: ٦٧.

٤- النور: ٢١.

لا علينا إلا أن نرتقب من الحضارة المادية، حضارة الشيطان الكبير والصغير، الأمر بالفحشاء والمنكر، الخطط التي تشيع المنكر، التي تحارب المعروف، التي تثير الفتنة التي تسقط بالخلق التي تدعو إلى الرذيلة، التي تغزو قلب الشاب الطاهر، قلب الشابة الطاهرة؛ لتلوته بالرذائل؛ لتضع خطى هذا الشاب، وهذه الشابة على طريق الرذيلة والفحشاء والمنكر.

إنها الحضارة التي تحارب كل فكرة إصلاحية في أي رأس من الرؤوس، والتي تحاول أن تجتث أي نبتة من نباتات الصلاح في الأرض.^(١)

ثالثاً: الحضارتان وصناعة الإنسان

الإنسان القوي الذي لا تأسر روحه الأحداث، ولا تستعبده الدنيا، ويملك القوة التي يصنعها ولا تملكه، ويبقى له توازنه واتزانة في كل الظروف هو صناعة حضارة الإيمان والقرآن - كما تقدم -.

أما إنسان حضارة الطين المصنوع على يدها، فهو إنسان ضعيف مهزوز في إنسانيته، يمكن أن يصنع القوة في الخارج؛ لتثير فيه الغرور والطيش والجنون، وأن يتقدم على يده البناء المادي؛ ليطيح بإرادته وإنسانيته، ويسترق وجوده، ويُقرم معناه.

وإليك طائفة من الآيات التي تُقدّم صورة عن إنسان الحضارة المادية فيما يخسر من إنسانيته، ويفقده من معناه، ويعتريه من نقص في قيمته بالقياس إلى ما عليه واقع تكوينه وفطرته.

١ - تقول الآية الكريمة: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.^(٢)

المخاطبون في الآية الكريمة فيما يظهر الكفار ومنافقو ومنافقات هذه الأمة.

١ - خطبة الجمعة (٣٣) بتاريخ ٣٠ شعبان ١٤٢٢هـ، ١٦ نوفمبر ٢٠٠١م.

٢ - التوبة: ٦٩.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. (١)

وما خاض فيه هؤلاء هو عداوة القيم السماوية الرفيعة ومواجهتها وهؤلاء، وهم أصحاب الاتجاه المادي، يستمتعون بنصيب من المادة يكون لهم في الدنيا، ولكن أعمالهم محبطة لا تغني يوم القيامة حيث النظر إلى الروح والمعنى، لأنها تهدم صاحبها ولا تبنيه، وذاته خاسرة تفقد من خير غنَّت بها فطرتها، ويلمُّ بها نقص شديد.

وفي معرض الحديث عن قوم عاد، وحضارتهم من حضارة الطين، وفي خطاب للكفار زمن القرآن يقول الكتاب الكريم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (٢)

السمع والأبصار نوافذ الإنسان على العلم، والأفئدة مصنع المعرفة، ومركز الإدراك والتقدير والتدبير والحكمة، وهي مواهب الله في الفطرة، وكلها فاقدة لقيمتها العالية ودورها الكبير في صناعة الإنسان السوي، ونموه، وكماله، ونضجه، وهداه، وإثراء إنسانيته، وتوسيع أفقها بفعل جاهلية حضارة الطين، مع التمكن المادي، وبلوغ القوة المادية ما بلغت.

فالباطل يمكن أن يُقيم حضارة مادية ضخمة، ولكن بلا إنسانية شامخة، وإنما الإنسانية في ظل هذه الحضارة هابطة منسحقة مضيعة، وهي بقدر ما تتعلق في الخارج، وتتركز قيمها في نفس الإنسان تأكل من معناه وإنسانيته، وتهبط بمستواه من حيث هو روح كريمة، ومشاعر طاهرة، وعقل حكيم، ومضمون سام خالد بإذن الله.

وهذه طائفة من الآيات الكريمة الأخرى في هذا الموضوع:

٢- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ

١- التوبة: ٦٧.

٢- الأحقاف: ٢٦.

وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ^(١).

حضارة مادية قوية، وغنى باذخ، وثروة زراعية متقدمة لكن إنسانها مذنّب ذنباً لا يستحق معه الحياة عند الله، ومجتمعها ساقط سقوطاً لا يصلح معه للبقاء.

والإغراق في الذنوب، والوغل في الخطايا هو غاية الوهن، وضعف الشخصية الإنسانية، وانحلالها.

٣- ﴿اتَّبِعُوا بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾^(٢).

تقدم عمران، وفنّ مادي راقٍ، وقوة على الأرض لكن وراءها إنسان مضيع للهدف، خاوٍ من القيم، يقوده العبث، وينفق العمر والفكر والنشاط في ما هو ضرب من ضروب التلهي الذي لا يقع خطوة على طريق الغاية الكبيرة النبيلة المربحة، ذلك أن المنطلق مادي لا يلتفت إلى الروح، وجاهلي منفصل عن الله.

٤- ﴿اتَّبَرُّكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَجْنُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يَيْبُوتًا فَاَرِهِينَ فَاَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٣).

مجتمع أقام حضارته المادية مفصولة عن هدى الله، غير آخذ بمنهجه، ولا مستقيم على طريق تقواه، منساقاً وراء قيادة غير مؤمنة، مسرفة على نفسها، متجاوزة لحدّ عبوديتها، مستكبرة على بارئها ومدبرها.

إنسان هذا المجتمع فقد الصلاح في نفسه، وملك الفساد داخله، وأعطيت إنسانيته بماديته فكان دوره الإفساد، ونشاطه للخراب، ونتاجه التشويه لرسالة الحياة، وهدف الوجود.

وواضح أن إقامة حضارة مادية باذخة على الأرض فيها إسقاط الإنسان، وإطفاء

١- الأنعام: ٦.

٢- الشعراء: ١٢٨.

٣- الشعراء: ١٤٦-١٥٢.

نور الفطرة في داخله، وتضيقه من جماله المعنوي، وإقبال قابلياته الإنسانية الخيرة لا يعد إصلاحًا، ولا يُعقِب فلاحًا ولا نجاحًا.

فالمنحدر عن خط الله، وهو مسرف جزمًا، مفسد لا مصلح: ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١).

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾^(٢).

هؤلاء أقوام أشادوا ألوانًا من حضارة المادة متفوقة على الأرض، على منأى من قيم السماء، فانطمست معالم الهدى والنور في ذواتهم، وخسروا الحكمة والبصيرة، فكان أن طغوا وأكثروا في البلاد والعباد الفساد، وكانوا وراء الظلم والضلال في الأرض حتى صبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب.

٦- ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ، وَطُورِ سِينِينَ، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٣).

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ومعادلة تكوينية تضعه على طريق سعادته، وتبلغه غايته بشرط حسن إرادته فانقسم فريقين؛ فريق نما وزكا وسما وزاد نورًا ورشدًا وهدى بأن انشد إلى منهج الله، وأقام حياته على هداية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٤).

وفريق انحدر عن الصراط، وراهن في حياته على الأرض، وانكبَّ على الطين، فكان أسفل سافلين، بلا رشد ولا حكمة، ولا هدى ولا نور، ولا هدف كبير ولا نية صالحة، ولا

١- الشعراء: ١٤٦-١٥٢.

٢- الفجر: ٦-١٣.

٣- التين: ١-٦.

٤- التين: ١-٦.

تطلع واسع، ولا رؤية فسيحة، ولا خلق كريم، ولا عمل صالح، ولا تقدير له صائبًا، ولا تسليم فيه بالحق: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(١)، وكأنه عاد حيوانًا مفرغًا من كل ما تغنى به إنسانية الإنسان القويم، بل من الناس والجن من يكون أكثر بعدًا عن الإنسان في هدام، وطهره، وسموه من الحيوان، وهؤلاء الذين هم أكثر انحيازًا من الحيوان كثير: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

٧- ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٣).

عدا من استنتهم الآية الكريمة الأخيرة، يُقسم الله سبحانه أنهم في خسر، هذا الخسر يبدأ فقدًا في وزن إنسانية الإنسان، ومقدار هدام، واستعدادات صلاحه، وقدرته على الاستقامة، وقبوله للحق، ورضاه بالعدل، وأخذه بالهدى، ونقص زكاة في فطرته، ونقاء في روحه.

وهذا الخسران مستتبع لخسران الرضا والاطمئنان والأنس بالله في الحياة، وإمكان إقامة المجتمع السعيد في الدنيا والألطاف الإلهية الممنوحة للصالحين فيها وجميل موعود الله في الآخرة لمن ارتضى، فالإنسان أول ما يخسر بإدباره عن ربه يخسر من ذاته، ومن جماله، وكماله، ونوره، وهدام؛ ليخسر ثانيًا لذة روحه في الحياة وبعد الممات، ويعيش متاعب ضياع الروح في الدنيا، وشقاء الآخرة.

وأما متعة الكافر في هذه الحياة فمتعة بدن، ولذة حيوان لا استقرار لها ولا مقام، وبعض الحيوان أغزر منه لذة في جانب البدن، وأغلط شهوة، وأكثر تمكثًا في هذا التمتع^(٤)

١- التين: ٥

٢- الأعراف: ١٧٩.

٣- العصر: ١-٣.

٤- خطبة الجمعة (١٦٨) ١٦ شعبان ١٤٢٥هـ، أكتوبر ٢٠٠٤م.

حضارة الذكر وحضارة النسيان

هناك حضارة من صناعة إلهية رحمانية هي حضارة الذكر، وحضارة أخرى هي من صناعة الشيطان، وجند الشيطان هي حضارة النسيان.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

القوم الظالمون، حركة الإغواء عندهم تنطلق من إغواء الشيطان لهم، ومجلسهم مجلس الشيطان، وإعلامهم إعلام الشيطان، وخططهم خطط الشيطان، وسياستهم سياسة الشيطان.

حين تجلس إلى ثقافة الظالمين، حين تقرأ كتاب الجبهة الطاغوتية في الأرض، تُصنفي لمضامين قنواتها الإعلامية، وتتلقى منها باستسلام، فأنت - تمامًا - تجلس إلى الشيطان، إلى حديثه، إلى وسوسته، تخضع إلى ضغطه.

﴿... فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، القوم الظالمون ينسيك الشيطان من خالهم، من خلال حركتهم، من خلال خطتهم، من خلال إعلامهم ذكر الله، ذكر ذاتك، ذكر الآخرة، ذكر ما يقوم لك الحياة.

الآية الأخرى: ﴿... فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(٣)، نسيان لم يخرج بيوسف عليه السلام عن حد العصمة لكنه يبقى نسيانًا مرجوحًا بدرجة من الدرجات.^(٤)

١- الأنعام: ٦٨.

٢- الأنعام: ٦٨.

٣- يوسف: ٤٢.

٤- النسيان في الآية الكريمة منسوب في تفسير ليوسف عليه السلام، وفي آخر - ويصر عليه صاحب الميزان - إلى من ظن أنه ناج من السجينين مع يوسف عليه السلام، ولكل منهما دليله القابل للمناقشة، والعصمة ثابتة على كل تقدير.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾^(١)، الشيطان يلتف على النفس، يغويها، يريها الوهم حقيقة، ويغيم في ناظرها الحقيقة، وتتحول النفس بكل ما فيها من مصادر خير، ومن كنوز هدى، ومن إضاءات إلى لعبة في قبضة الشيطان لمن استسلم للشيطان المرة، والمرتين، والثلاث.

هذا الإنسان الكبير الذي تعلّم كثيراً، وخبر الحياة كثيراً، وتراكت عنده التجارب، وقرأ القرآن، وأدمن قراءته، وتعلم الفقه وأكثر من تعلّمه، حين يبدأ جولة من الاستسلام للشيطان يتحول إلى طفل ينسى ذاته، ينسى مصالحه، لا يعرف الخير من الشر.

له معرفة فكرية غزيرة، ولكن هذه المعرفة الفكرية الغزيرة لا تلامس النفس، يبني شعور على خلافها، وتختط النفس لها خطأ آخر غير ما عليه الرؤية الفكرية النظرية.

وللشيطان جنود يعملون عمله: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾^(٢)، فالإضلال والغواية والإلهاء، وإفادات النظر عمّا هو المهم، وعمّا هو الجد، وعمّا هو الحق وظيفة دائمة لخطّ الشيطان، وجند الشيطان، لفرعون شخصاً، فرعون نوعاً، فرعون خطأ.

هذه نصوص عامة تؤكد لنا قيام حضارة على الأرض من صناعة شيطانية؛ صبغتها أنّها حضارة النسيان.

وهناك نصوص خاصة بمعنى أنها تتناول مواضيع خاصة يعمل الشيطان وجبهة الشيطان العريضة على أخذ ذاكرة الإنسان بعيداً عنها، وأخذ اهتمام الإنسان على منأى منها، ولا يعني النسيان هنا كما تقدم محو صورة الموضوع، ومحو صورة القضية المهمة المركزية.

إنما يعني أن الشيطان وجند الشيطان ينزلان بمستوى النفس الإنسانية، ويملكان من الإغواء، ومن الإلهاء، ومن المغالطة، ومن التغرير ما يجعل الإنسان يقف من الحقائق الكبرى الصارخة موقف الناسي، على أنه ليس على نسيان من ناحية فكرية، ومن ناحية احتفاظ الذاكرة بصورة القضية، أو الموضوع.

١- المجادلة: ١٩.

٢- طه: ٧٩.

ألا ترى أن الطفل يرى الشيء كالنار ولكن طفولته، وضآلة خبرته، وضعف تقديره للأمور يجعله يقف من النار التي جربها مرة أو مرتين موقف من نسي حرارة النار، وأذى النار، فيمد إصبعه حيث تحترق.

الإنسان الفيلسوف، الإنسان الفقيه، الإنسان الخبير، الإنسان الكبير بتراكمات تجاربه، وخبراته، وعلمه يتحول هذا الطفل في تعامله مع القضايا الكبرى حين تصوغه يد الشيطان.

ومجتمع كله، وحضارة كلها تتحول إلى ذلك الطفل وأقل منه، حيث تكون الصياغة شيطانية تعتمد النسيان، تعتمد إلهاء الإنسان، وإغوائه، وإغرائه بالباطل.

من أكبر الحقائق التي تستقيم بالإنسان على الدرب، وتجعله لا يختار عبادة الطاغوت، ولا يقدم شيئاً على عبادة الله هو أن يذكر ربه العظيم.

فإذا، لا بد لحضارة الطاغوت أن تنسى الناس الله، حتى يتسنى للطاغوت أن يُقام له وزن في الأرض، وأن يُقدّر.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(١)، في آية أخرى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ...﴾^(٢).

وسائل للإلهاء، وسائل للإغراء، أمور وهمية مصطنعة، أمور صغيرة مكبرة من أجل إلفات نظر الإنسان عن ربه وذاته، وحقيقة الآخرة، وكل حقيقة تدخل في صياغة ذاته لتكون قويمه: ﴿... فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾^(٣).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾^(٤)، فمن ينسى الله يتحوّل إلى بهيمة، ويُقاد قود

١- طه: ٨٥.

٢- طه: ٨٨.

٣- طه: ٨٨.

٤- الحشر: ١٩.

البهيمة، ويوضع على الطريق التي تضره وهو يبتسم، ويُغرى بالنار وهو فرح: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (١). (٢)

رابعاً: الحضارتان والأوضاع الخارجية

السؤال المطروح في هذا المجال هو ما موقف كل من الحضارتين من تقدم وتخلف الأوضاع الخارجية، وضعف هذه الأوضاع وقوتها؟

الوضع الاقتصادي والسياسي والعسكري والعمراني أوضاع حيوية ونشطة وناهضة، أو هي على خلاف ذلك في هذه الحضارة وتلك؟، هذا هو السؤال المطروح.

تقدم أن الحضارة المادية يمكن أن تقيم واقعاً مادياً شامخاً على الأرض، وأن تتقدم بالزراعة والصناعة، وتحقق ازدهاراً اقتصادياً، وتتوفر على وضع عسكري رادع، ووضع عمراني متفوق، وتوجد وضعاً سياسياً مستقراً إلى حين.

وقد مرّ من الآيات الكريمة ما يتحدث عن حضارات ومجتمعات جاهلية قد تحقق لها تقدم كبير في جانب أو آخر من جوانب المادة، وإبداع ملحوظ.

أما حضارة الإيمان التي تجعل إنسانية الإنسان وكماله هدفها الأول، فعلينا أن نسمع عن موقفها من قوة الأوضاع الخارجية على لسان آيات من الذكر الحكيم: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٣).

المخاطبون قوم عاد، والمخاطب هود عليه السلام.

وعاد كانوا يتمتعون بتقدم عمراني، وتحصينات قوية، وقوة ضاربة تدفعهم في ظل جاهليتهم إلى العدوانية الشرسة والبطش الظالم المتجبر.

١- التوبة: ٦٧.

٢- خطبة الجمعة (١٥٣) ١٧ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٧ مايو ٢٠٠٤م.

٣- هود: ٥٢.

الآية الكريمة تقول: ﴿... تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(١)، التوبة هنا هي عودة إلى منهج الله.

كان ذنبهم أنهم فارقوا منهج الله، وانفصلوا عن الوحي والرسالات السماوية في إدارة أمور حياتهم، فعليهم أن يستغفروا، وأن يتوبوا إلى الله، بأن يعودوا إلى المنهج القويم، إلى كلمة الوحي، وإلى القيم السماوية في تسيير الحياة، والمردود لهذا ليس تقهقرا للقوة، وليس تراجعاً للوضع الاقتصادي والوضع العسكري، وإنما الآية الكريمة تقول: ﴿... يُرْسِلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾، فالمنهج الإلهي سيضاعف القوة الاقتصادية والقوة العسكرية، ويعزز الموقع في كل أبعاد القوة لقوم عاد لو عادوا إلى منهج الله.

والفارق هو أن القوة في المنهج الجاهلي للبطش، أما القوة في المنهج الإلهي فهي للإصلاح، ولمصلحة الإنسان.

الآية الكريمة الأخرى تقول: ﴿وَالْوِاسْتِقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾^(٢)، الغدق الكثير، والعذاب الصعد: هو الشاق، أو الذي يتصعد على صاحبه فيغلبه.

وعد بازدهار اقتصادي، والماء الغدق تعبير عن ثروة زراعية متقدمة، وعن نهوض اقتصادي، وهذا النهوض الاقتصادي لا يجعله القرآن هدفاً، وإنما يعدُّه سبباً من أسباب صناعة الإنسان أو هدمه، ويرجع ذلك إلى أن يُحسن الإنسان التصرف في هذه النعمة، أو لا يحسن التصرف، أن يستفيد من الازدهار الاقتصادي، فيبني نفسه، أو أن ينساق وراء الازدهار الاقتصادي هدفاً، وأن يسبب له ذلك الغرور، ويسبب له الطيش، والاشتغال بالدنيا.

١- هود: ٥٢.

٢- الجن: ١٦-١٧.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾. (١)

الإسلام يطالب أمة الإسلام ببناء قوة ضاربة، ولكن لا للعدوان، وأنت تفهم أن هذه
القوة ليست عدوانية من قوله تعالى في الآية اللاحقة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (٢)

إذا كانت هناك قوى مادية ضاربة عدوانية في الأرض تتهدد الإيمان، وتستضعف
الإنسان، وتهاض منهج الله، وتعمل بالفساد والإفساد في الأرض، فلا بد من أن تكون
لدولة الإيمان قوة ضاربة في مواجهة تلك القوة؛ لتردعها عن عدوانها.

أما حال أن يجنح الآخرون للسلم، وتنتهي عدوانية الطرف الآخر، أو يرى منه
الجد في الميل إلى السلم، وأنه يأخذ بروح السلم في موقفه، فإنه لا داعي للاستمرار
في بناء القوة، بما يحول المسألة إلى عبث، ويشجع على الصراع وسباق التسلح، ولا بد
للأمة الإسلامية حينئذ أن تأخذ بالسلم، لأن الأصل في الأمة الإسلامية أنها أمة السلام
والأمن والازدهار في الأرض.

يوسف عليه السلام في خطابه لملك مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ
عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. (٣)

يوسف النبي عليه السلام يتقدم؛ لشغل وزارة المالية - إذا صح التعبير - لحفظ الاقتصاد
المهدد بسبب سنوات القحط التي كانت تتهدد مصر، وذلك لأنه يتوفر على ما لا يتوفر
عليه الآخرون من كفاءة علمية وأمانة: ﴿... إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ...﴾ شديد الحفظ، شديد
الأمانة، وشديد العلم، والعلم المناسب هنا هو علم الاقتصاد.

١- الأنفال: ٦٠.

٢- الأنفال: ٦١.

٣- يوسف: ٥٥-٥٦.

العلم الذي يفيد؛ لتسلم أمانة المال وإدارة خزانة الدولة، وحمل الحقيقة الاقتصادية هو أي علم؟، ليس علم القيم، وعلم الأحكام الشرعية فحسب، وإنما علم الاقتصاد كذلك.

وكان التمكين من الله سبحانه لنبيه في الأرض أجراً لوفائه بعهد ربه وإحسانه. وهذا التمكين رحمة من الله، وهو قوة يسعى الدين لتوفر المؤمنين عليها، ويقدم منهجاً ناجحاً؛ لتحقيقها.

وأي قوة، وأي غنى، وفرص عريضة في الدنيا لا تقف بطموح المؤمن عن خير الآخرة الذي لا يعدله شيء في ميزان الله.

وقيمة القوة والثراء، وكل النعم في هذه الحياة لا تتم ما لم توظف؛ من أجل الآخرة، ولا تكون كذلك ما لم يستعن بها على بناء الذات، وتقويم عوجها، ومعالجة نقصها: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾^(١)، وهو ذوالقرنين.

هذه قوة تجسدها السلطة السياسية الثابتة المتجذرة تدعمها قوة المال والعلم والإدارة الحكيمة، والعقل القادر والجند المطيع، وهي قوة يضعها الإيمان والعلم في صالح الإنسان ويصوغ منها أوضاعاً قويمية، وذاتاً راقية تجد نفسها على طريق كمالها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢)، هذا التنكير في كلمة ﴿بَرَكَاتٍ﴾؛ للتعظيم.

وهذه البركات المنزلّة من السماء والأرض، والإثراء الاقتصادي وغيره ليس نتيجة غيبية محضة لمنهج الإيمان والتقوى، فإن هذا المنهج معبأً بقدرة هائلة على إعطاء هذه النتيجة التي لا تكون إلا بإذن الله.

١- الكهف: ٨٤.

٢- الأعراف: ٩٦.

فهناك ترابط بين المنهج الإلهي المنزل على الإنسان، وبين هذه النتائج، فلا نحتاج إلى أن نذهب إلى أن هذه النتائج تتم لمن طبق هذا المنهج بصورة غيبية، وإنما نفس المنهج قد جعل من الله وعَلَّيَّ قادراً على تحقيق هذه النتائج، وإن كان لا يتم شيء في الوجود ابتداء واستمراراً إلا بإذن الله.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا...﴾ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٢).

حالة الاستضعاف مرفوضة، والاستسلام إليها مرفوض، والمستضعف يتحمل مسؤولية الخروج من أسر هذه الحالة ما استطاع، والمجتمع الصالح يتحمل مسؤولية مواجهة الاستضعاف.

والحق أننا أمام واقع كبير لتجربة الإسلام على يد رسوله الكريم ﷺ، ونصوص غفيرة من الكتاب والسنة لا يدع أحدهما شكاً في أن الحضارة الإيمانية حضارة القوة لا الضعف، والنهوض لا الركود على مستوى صناعة الإنسان، وصناعة أوضاعه الخارجية. هذا سيل من الآيات الكريمة فضلاً عن الحديث الكثير يتحدث عن أمة القوة، وعن دولة القوة، ويطالب أمة الإسلام بأن تكون قوية قادرة.

خامساً: القوة بين الحضارتين

وكل من حضارة الإيمان والإنسان، وحضارة المادة والطين تهدفان إلى تحريك قضايا القوة الخارجية على الأرض، ولكن بفوارق بينهما منها بصورة مختصرة:

١- النساء: ٧٥.

٢- النساء: ٩٨-٩٩.

١- قوة مع عدل وقوة مع ظلم

عدل اجتماعي تقيمه حضارة الإيمان يقوى ويسعد به المجتمع كله، وظلم وطبقية اجتماعية على أكثر من صعيد تنشئها حضارة الطين، وتحول القوة إلى سوط عذاب على الجميع على الطبقة الغنية وعلى الطبقة الفقيرة بشرح لا يناسبه المقام، وذلك لما تثيره الروح المادية من أثرة فاحشة من جانب وحقد دفين من جانب آخر، وكما يقتل الفقر أصحابه، يقتل الترف أصحابه.

٢- قوّة هادفة، وقوّة هدف

حضارة الإيمان تدفع إلى بناء القوة، ولكنها القوة الهادفة، والهدف هو بناء الإنسان الصالح، وبناء الأوضاع الإنسانية الصالحة.

أما الحضارة المادية، فهي تدفع إلى بناء القوّة، وتشيد قوّة على الأرض؛ قوّة اقتصادية أو عسكرية - مثلاً -، ولكن تبقى هذه القوة هي الهدف، وتستهلك حياة الإنسان، وتستنزف كل طاقاته؛ لتكبر القوة ويصغر الإنسان، ويتحول إلى خواء.

٣- حضارة تؤسس لسقوطها

حضارة المادة تثير الصراع داخل إطارها بما ينسفها نفساً على خلاف حضارة الروح.

لو فرغ الجوُّ لحضارة المادة، فإنها تقيم القوة لكن لا لتبقى، وإنما لتحدث صراعاً مريعاً داخل إطارها، وتلهب تصارع القوى، وحرب الطبقات حتى تسقط هذه الحضارة. أما لو خلا الجوُّ لحضارة الإيمان، فإنها تبني قوّة؛ لتبقى، ويبقى المجتمع مجتمع الأخوة، ومجتمع الصفاء.

نحن نتكلم عن تربية مادية للمجتمع، وبناء قوة خارجية في إطار القيم المادية، وفي جانب آخر عن بناء قوة مادية في إطار القيم الإلهية.

والحديث عن بناء الحضارة الإيمانية لقوة الأوضاع الخارجية فيه تصحيح لتفكير

المؤمن، وشعوره، وموقفه العملي لو ذهب به تصور أو شعور شاذ إلى أن يقبل الضعف لأوضاع مجتمعه من منطلق إيمانه^(١)، وفيه إبطال للدعوى الزائفة بأن الدين أفيون الشعوب، والدعوة الكاذبة الأخرى التي تقول: (ما لله لله): بمعنى الصلاة، والصوم، وأمثالهما فحسب، (وما لقيصر لقيصر): بمعنى أن له أن يفعل في البلاد والثروة والعباد، ويقرر ما يشاء من دون تدخل للتشريع الإلهي، أو رعاية لموازين الدين، وفيه إفشال لمحاولات الالتفاف على حقوق الناس، وتخدير مشاعرهم بدين مكذوب يسمح بالتهب والسلب، أو الخمول والسلبية، وتضعف المجتمع المسلم.^(٢)

سادساً: الحضارتان والعلاقات الإنسانية

السؤال المطروح هو: ما نوع العلاقات الإنسانية التي تترشح عن طبيعة حضارة الطين، وعن طبيعة الحضارة الأخرى؛ حضارة الإنسان، وذلك حسب اقتضائهما؟ الحضارة في تصميمها النظري، وفي أوضاعها العملية لا تمثل فاعلاً حياً مريداً يتفرد بعملية الصنع والتكوين للفرد والمجتمع، فالصحيح أنه تبقى للإنسان إرادته، ويبقى له أن يتفاعل مع الأطروحة الحضارية أو لا يتفاعل. ولكن مقتضى هذه الحضارة في ذاتها وما يمكن أن تنتج يختلف عن مقتضى تلك الحضارة، وما يمكن أن تنتج.

ما هو إنتاج حضارة الإنسان؟ وما هو إنتاج حضارة الطين؟

أهو علاقات إخاء واتصال؟ أو علاقات انفصام وخصام؟

أنتج هذه الحضارة، أو تلك علاقات تعاون، أو تقاطع، وأي تعاون إن كان؟

تنتج علاقات استعلاء واستكبار، أو علاقات احترام ومساواة؟

ونأتي إلى كل من الحضارتين في مقتضاها لهذا النوع، أو ذاك النوع من العلاقات.

١- فهناك من يذهب بجهله إلى أن يربط بين الإيمان وبين الضعف والاستسلام للفقر، أو للظلم، أو لغيرهما، فهذا شعور شاذ يجب أن يصحح.

٢- خطبة الجمعة (١٦٩) ٢٣ شعبان ١٤٢٥هـ، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤م.

حضارة الإنسان والإيمان

وكلمنا قلنا: حضارة الإنسان، فتعني بها الحضارة التي تتخذ الإنسان هدفًا لها تطويرًا ورقياً، وصناعة سويّة، وتلك هي حضارة الإيمان.
الكلام تحت حضارة الإنسان والإيمان يتمثل في أكثر من نقطة:

الأساس الفلسفي

هل الأساس الفلسفي لهذه الحضارة يعطي هذا النوع من العلاقات، أو يعطي ذلك النوع من العلاقات؟

الركائز الأساس لحضارة الإيمان عمّ تترشح؟

تترشح عن أخلاقية إنسانية تُعنى بالإخاء الإنساني، وتُعطي علاقات إنسانية إيجابية، أم هو العكس؟

الأصول الأولى

الأصول الأولى لهذه الحضارة مجسّدة في الإسلام والقرآن نأخذ عنها:

١- خالق واحد

خالق واحد لكل شيء، وكل شيء ملكه، وواضح جداً أن الخالق لا يريد فساد من خلق وما خلق، وإنما يريد إصلاح من خلق وما خلق، ثمّ هو لا يأذن لغيره بأن يُفسد خلقه، بل يدفع ذلك الغير على خطّ إصلاح من خلق وما خلق.

فالعلاقات التخريبية، علاقات الفساد والإفساد، علاقات الظلم، علاقات الاستكبار والاستعلاء تخريب لخلق الله، لا تتسجم مع هذا الأصل، فهذا الأصل يرفض هذا النوع من العلاقات، ويؤكد العلاقات من النوع الإيجابي.

٢- الأصل الإنساني

هذا الإنسان خلق مُكْرَم، ومن أصل مشترك، هو قبضة من الطين، ونفخة من الروح تشرّفه.

هذا هو الأصل الأول للإنسان، ثم يأتي في أصله من الدرجة الثانية، وأنه من ذكر وأنثى، وذلك الذكر والأنثى مرجعهما الأصل الأول قبضة الطين، ونفخة الروح. هذا الأصل وهو أصل أخوة، وأصل منبت واحد، هو بالآخر لا يقتضي إلا نوعاً من العلاقات الإيجابية التعاونية الخيرة.

٣- هدف واحد

والأهداف قد تتسع وقد تضيق، الهدف الواحد قد يتسع وقد يضيق، يتسع بما لا يخلق صراعاً، ويضيق حتى يتقاتل أصحابه في سبيل الوصول إليه، ذلك لضيقه واختناقه. الهدف في حضارة الإيمان تقول عنه الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، وليس أوسع من هذا الهدف، لأنّ عبادة الله سبحانه وتعالى في بُعد من أبعادها تعني خدمة الآخر، وتعني الإخلاص للآخر، ورعاية مصلحة الآخر. فهو هدف لا يثير الصراع، بل على العكس يدفع إلى التآلف، والتعاون، والحل المشترك للمشكلات.

٤- منهج أخلاقي

منهج قيميّ أخلاقي يعتمد التكليف والمسؤولية، وقضية الحساب والثواب والعقاب، وهذا المنهج القيميّ الأخلاقي إنما يُنتج ما هو من طبيعته، وبحكم تجانس المقدمة. والنتيجة لا بدّ أن تكون النتائج القائمة على أصل من هذا النوع، ومنهج من هذا النوع هي نتائج التعاون والتكافل، ورعاية الطرف الآخر، ورقابة الذات ومحاسبتها عند كل حالة من حالات الانحراف.

٥- ميزان تقيمي عالمي

اعتماد ميزان عالمي في التقييم لا يضيق بضيق القومية، ولا يضيق بضيق العشائرية، والفئويّة، وأي حالة أخرى.

هو فوق هذه الحالات كلها، وأوسع منها، ويستوعب العالم كله.

ونطالعه في الآيات الكريمة الآتية:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) تفاضل بين الخبيث والطيب، والطريق مفتوح أمام كل شخص في العالم أن يتوفّر على الطيب، وأن يتخلص من الخبيث؛ ليسبق، وليتقدم على مَنْ سواه، فهو مقياس مفتوح على كل العالم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾^(٢) عقل نير، نفس نيّرة، قلب طاهر لا يستوي مع عقل وقلب وروح قد تلوّثت بما يجعل صاحبها عنصراً مضرّاً.

هذا المقياس الذي تتحدث عنه آيات سابقة ولا حقة، ظاهر بعض الآيات الكريمة التي تقرّره أنه للآخرة، وبعض آخر يفتح به على حالتي الآخرة والدنيا.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) مقياس العلم، والعلم قد هيأ الله له سبحانه وتعالى الإنسان نوعاً، ولم يهيئ له الإنسان على مستوى قوم خاصين، أو عشيرة، أو إقليم معينين.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...﴾^(٤) قاعد ومجاهد، الجهاد مقدّم على القعود، والجهاد معنّى

١- المائدة: ١٠٠.

٢- فاطر: ١٩.

٣- الزمر: ٩.

٤- النساء: ٩٥.

يطرحه الإسلام؛ للإصلاح، وللبناء، والإعمار، والتصحيح، ولا يطرحه للظلم، والبغي، والفساد.

والجهاد على طريق الحق مفتوح بابه لكل القادرين في العالم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾^(١)، والمؤمن هو من سلم بالحقيقة الواضحة.

المؤمن مَنْ لم يكابر الحق، مَنْ لم يغطِّ الحق، مَنْ لم يدس الحق، والفاسق هو الخارج على حق يعرفه.

أيضاً مقياس مفتوح على كل العالم لا يعطي الأفضلية لقوم معيّنين، لعشيرة معينة، لإقليم معين، لعنصر معين: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢)، التقوى التزام منهج الحق البناء، منهج الحق والعدل، والصلاح والإصلاح، وهو منهج الله سبحانه وتعالى، إذ لا تقوى من غير التزام بمنهج الله.

والتقوى غير مرتبط بأرض، ولا قوم، ولا عنصر، ولا طبقة.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٣) حسن العمل، جودة العمل أمر متاح لكل الفئات والقوميات والأقطار.

هذا المقياس الذي عبّر عنه هنا بأنه مقياس عالمي، ما مقتضاه؟

هذا المقياس يخلق صراعاً بين القوميات؟

بين عنصر وآخر؟

بين إقليم وآخر؟

١- السجدة: ١٨.

٢- الحجرات: ١٣.

٣- الملك: ٢.

أو يدفع الجميع على طريق الإصلاح؟

على طريق البناء؟

على طريق التعاون؟

على طريق الهداية؟

إنَّه مقياس إيجابي يدفع كل هذا العالم على طريق واحد إلى الله سبحانه وتعالى، وطريق الله طريق الصلاح، وطريق الفلاح.

هذا الكلام على مستوى مقتضى الأصول الأولى للحضارة الإيمانية في مسألة العلاقات، وأن ما تتجه هذه الحضارة هو أي نوع من العلاقات الإنسانية في ضوء هذه الأصول.

ثم يأتي الكلام على مستوى المنهج، والتربية.

سابعاً: المنهج والتربية

ما هو نوع العلاقات الذي يركّز عليه هذا المنهج وهذه التربية؟

على أي خط تقود الحضارة الإيمانية المسيرة البشرية وتربي إنسانها؟

على خط علاقات الانفصام، وعلاقات الخصام؟ أم على خط التعاون الإيجابي الخير المثمر؟

تقول نصوص هذه الحضارة على مستوى المنهج والتربية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) شجب للمنكر، للبغي، للفحشاء، ودفع للعدل والإحسان، والإيتاء الخير.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ لخصوص المؤمن؟، أو أنه مبدأ عام يأخذ به الإسلام في كل علاقاته؟

كل موقع صالح للعدل، والإحسان له موقعه، وهذا العدل مفتوح على كل إنسان، وعلى كل حالات، والإحسان مفتوح على كل موقعه المقتضية.

الأمر مؤكد بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، أرضية للإخاء والمحبة والاحترام والترابط على طريق الخير والفضيلة كما هو بين وواضح كل الوضوح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، تقوى الدين مرتبطة بالعدل، والعدل مرتبط بتقوى الدين، فلا تقوى بغير عدل، والعدل الذي أمر به الدين لم يقيّد بدائرة من الدوائر البشرية، ولا بحالة من الحالات، ومورد الأمر بالعدل في الآية قوم بين المؤمنين وبينهم بغضاء، فالعدل ثابت إسلامًا في مورد البغضاء والعداوة فضلًا عن غيره.

وأنه الأمر الجازم الحاسم في الآية الكريمة بالقيام لله، بصيغة المبالغة - ﴿قَوَّامِينَ﴾ -، ولم تقل الآية الكريمة: قائمين.

هذه الصيغة المبالغ فيها للقيام لله تعني قيام العلم، وقيام العدل، وقيام الحق، وقيام البناء والإعمار الصالح في الأرض كل الأرض، وفي الأزمان كل الأزمان.

وهو عدل حتى مع العدو، ولا تمنع منه البغضاء.

تعاونان

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢) وهناك تعاونان: تعاون يشيع في الأرض على الإثم والعدوان، والتعاون الذي تأمر به السماء، وتقرره الشريعة، وتحضنه حضارة الإيمان هو تعاون على البر والتقوى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

١- المائة: ٨.

٢- المائة: ٢.

وَالْتَقَوْا وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ ، فلو تُعَوَّن على الإثم والعدوان من أمة الإسلام على أي طرف في الأرض لكان في ذلك خروج على مقتضى الآية الكريمة، وعدول عن منهج الله. ^(٢)

أطروحة الحياة الكاملة

فإن الإسلام أطروحة الحياة الكاملة، له أهدافه في هذه الحياة، وفي صناعة الإنسان، وهي أهداف تتلخص في أمرين:

في التقدم بهذا الإنسان في هذه الحياة، وتوفير السعادة له بقدر ما تطبيقه هذه الحياة، ثم تخريجه إنساناً كاملاً أكمل ما يمكن أن يكون من هذه الحياة؛ ليصبح إنسان الجنة، وإنسان الآخرة السعيدة، الجنة مأوى الأنبياء، والرسل، والأصفياء.

ولا بد أن يصنع الناس على طريقتهم، وأن يأتوا أمثلة ولو صغيرة منهم؛ ليصلحوا لمجتمع الآخرة، أي حكم من أحكام الشريعة، أي خلق من أخلاق الإسلام، أي تعليم من تعاليمه، وقبل ذلك أي عقيدة من عقيدته، إنما يستهدف صناعة الإنسان على هذين البعدين: أن يعمر الحياة، أن تعمّر به الحياة، أن يكون الإنسان الصالح لسكن الجنة، أي حكم تطالعه من أحكام الشريعة، يطالعك هو من جهته بأنه يلتقي مع هذين الهدفين، ولا أدري بأن هناك حكماً واحداً من أحكام الشريعة يصب في مصلحة هذا الهدف وحدة، أو في مصلحة ذلك الهدف وحده، إنهما هدفان متلاقيان، والآخرة لا تصلح إلا بصلاح الإنسان في الدنيا، والدنيا لا تصلح إلا بخلق الآخرة.

الإسلام لا يريد آخرة، ولا يعطي جنة من غير دورٍ في هذه الحياة، وإذا كان لإنسان دورٌ عبادي بالمعنى المصطلح فقط من صلاة، وصوم، وحج، ودعاء، فإنه دورٌ ناقص لا يكسب جنة عالية، مطلوب من هذا الإنسان أن يترك بصمات الإيمان، وبصمات العدل

١- المائدة: ٢.

٢- خطبة الجمعة (١٧٠) ٣٠ شعبان ١٤٢٥هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م.

والتقوى على هذه الحياة، ويحول من الحياة مدرسةً للأجيال القادمة تنطق بعدل الله، تنطق بعدل الله، وبحكمته، وبعلمه، وبلفظه.

الدُّنيا والآخرة سبيلان منسجمان

لا يكاد يكون هناك حكم من أحكام الشريعة يتراءى لنا أنَّه يصلح الدنيا إلا وهو يصلح الآخرة، ولا حكم من أحكامها يتراءى لنا أنَّه لصالح الآخرة إلا وهو يعالج مشكلات الدنيا، فالمسألة في الإسلام مسألة تكامل ومسألة تنسيق، ومسألة انسجام وتناغم بين ما هي السعادة في الدنيا وبين ما هي السعادة في الآخرة.

وكذب في فهم الإسلام أن تتوفر سعادة في الدنيا، وخاصة على المستوى الاجتماعي بعيدة عن خط السعادة في الآخرة.^(١)

الأسس والمنطلقات

أولاً: حضارة الفَرْج والبطن!

١- الأساس المادي

حضارة البطن والفَرْج من مواصفاتها أنَّها تنطلق من تفسير الكون تفسيراً مادياً بحثاً مخالفة للعقل والفطرة، أو أنها تهمل النظر في سرِّ الكون، وسرِّ الخلق.

٢- أساس الشُّكِّ

وتبني على الشك، وغريبٌ أن تنطلق حضارة عملاقة في الأرض من منطلق الشك والريبة!

والشك لا يمكن أن يعطي الاستقرار، والشك لا يمكن أن يعطي الثقة في الطريق،

١- خطبة الجمعة (١٧) بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٧ يولييه ٢٠٠١م.

والشك حين يكون هو المنطلق يصبغ حياة الإنسان كلّها، يصبغ فكره، ونفسيته، ومشاعره، خطواته، علاقاته، ويبقى ضائعاً تائهاً لا يضع يده على هدف، ولا يكاد يمسك بطريق عن ثقة، هذا هو المنطلق، منطلق الإنكار على خلاف الدليل، أو منطلق الإهمال في النظر في المبدأ والمصير.

الانطلاق مع الشك من أول الطريق إلى آخر الطريق، وهو شك يلف حياة الإنسان بكاملها، ويقف وراء اهتزازها من الأعماق، ووراء قلقها، وابتسارها.

٣- أساس الإشباع المادي

والوصف الآخر الملازم لهذه الحضارة أنها تحصر سعادة الإنسان في الإشباع المادي، وترى أنه كلما توفر الإنسان على أكبر قدر من المادة كانت سعادته أكبر، وكلما انغمس في الشهوات، وفي لذائذ الحياة المادية كان أكثر هناءة من غيره.

رؤاهم والواقع

والواقع أمامكم يشهد على بطلان ذلك، وأن كثيراً ممن يجمعون أكبر أرقام المادة هم أتعس الناس حياة، وأكثرهم قلقاً، وأن اللذائذ إذا ما بولغ فيها قتلت الإنسان، ووقفت به في ربع الطريق من عمره، لا يستطيع أن يلتذّ بهذه الحياة، ولا يستطيع أن يعطي نتاجاً كالآخرين، الحياة تتحول شقاءً مرّاً من خلال السّرف في لذائذها، وشهواتها ولو في مقتبل العمر.

فلا ربّ، ولا حياة أخرى، ولا قيم، وتحصر سعادة الإنسان في الإشباع المادي، وتجعل أسفل الإنسان هدفاً، وأعلاه وسيلة.

وأعلى الإنسان عقله، وقلبه، وروحه، يمكن أن تنشّط الحضارة المادية، وتعطيها الإنطلاقة، ولكن على خط المادة؛ من أجل إنتاج مادي أكثر فقط، ومن أجل تبذُّخ مادي للبعض على حساب المجموع.

إنَّ وسيلة العقل، ووسيلة التفكير وسيلة من وسائل الحضارة المادية، وآلة من آلات الإشباع المادي، وحتى الدين يُمكن أن يُركب للذة، وتلك هي فلسفة أمريكا التي ترى الدين مركبًا من مراكب المصلحة والمنفعة المادية، وقد تُشجّع الدِّين في وطن دون آخر، وعلى مستوى من المستويات، وبالصياغة التي تخدم مصالحها، وقد تحارب الدِّين حين لا يخدم المصلحة، أو يعارضها.

نعم، أمريكا في فلسفتها لا تعادي الدِّين دائمًا، وإنَّما تدجِّنه، وقد تشجعه ولكن بالطريقة التي تخدم مصالحها، فهي يومًا تحارب الشيوعية، ويومًا تشجعها، ويومًا تحارب الدِّين، ويومًا تشجعه، تحاربه في هذا البلد الذي يعني فيه الدِّين المواجهة للظلم والفساد، وتشجعه في البلد الآخر الذي استطاعت أن تلونه فيه؛ ليكون خادم مصالحها. فالحضارة المادية من أوصافها الرئيسة أنها تجعل أسفل الإنسان هدفًا، وأعلاه وسيلة، مقياس التفاضل في هذه الحضارة هو الظفر والنَّاب، وكثرة المال!

الأرقام المادية الهائلة تعني أنَّك كبيرٌ، وكلما تضاعف رقم المادة في يدك كلما ضلَّك وزنًا وقيمة في المجتمع الذي تصوغه الحضارة المادية.

كنَّ العالم الكبير، وكنَّ الفيلسوف، وكنَّ المفكر ما لم يكن لك إنتاج مادي، وما لم تكن آلة من آلات الطغاة والمستكبرين التي تدرُّ بالمال الكبير في جيوبهم، فأنت لا قيمة لك، تفرز هذه الحضارة:

١- حركة علمية مادية وعملية نشطة، ولكن لتطوير المادة وتطوير الأوضاع المادية التي تخدم حاجات الجسد، وتلبى مطالبه على مستوى اللذة والشهوة.

٢- الإسراف في الإشباع المادي، والولع بالمادة إلى حدِّ التهالك.

مما تفرزه هذه الحضارة أنَّ الإنسان - وهو يرى قيمة وجوده، وملخص معناه في اللذة، فهو من خلال هذه النظرة - ينطلق في حالة من السرف البشع؛ للتوفر على المادة، ولإشباع الشهوات المادية بما يقوده على خط النهاية.

٣- هذه النظرة التي تقدس المادة، وتُثري الإنسان نفسه من خلالها، وقيمتها فيها تتطلق به على خط الصراع اللاهب على المادة، على خط النهب والاستعباد، والاستغلال،

والاستئثار، وشنّ الحروب التدميرية؛ من أجل التبذخ، وحياة الترف، والسباق على الشرف المادي.

٤- هذه الحضارة تترشّح عنها استباحة التخريب البيئي، والإخلال بالثروة الطبيعية إذا كان في ذلك إشباع النهم المادي لهذا الطاغية، أو لهذه الدولة على حساب الدول الأخرى.

لا يكون هناك تورع أصلاً، ولا حساب للآخرين أصلاً، فليكن التلوث البيئي الذي يستتبعه إنتاج السلاح النووي يقتل الملايين، ولينتشر مرض الإيدز؛ ليحصّد الملايين ما دام في ذلك فائدة مادية لجهة من جهات الاستكبار، وطاغية من الطغاة.

استباحة التخريب البيئي، والإخلال بالثروة الطبيعية إخلالاً فاحشاً يسيئ إلى حياة الملايين، ويؤثر على المستقبل البشري ناتجٌ من ما تنتجه حضارة المادة.

٥- إذا كانت المادة هي قيمتي، وكان وزني من المادة دائماً، فأنا صغيرٌ في نظر نفسي، حين يكلّ ما في يدي فلا بدّ أن أفزع، ولا بدّ أن أقلق، ولا بدّ أن أذل للآخرين، ولا بدّ أن أستكين، وما الذي يعالج في أمراض النفسية، وعُقدي النفسية والعصبية، إذا كنت لا أجد لهذه الحياة ربّاً رحيماً، ولا أجد من ورائها جزاءً أخروياً، إنما أجد الحياة في مساحتها المحدودة فقط، وأنّ السعادة والقيمة تتمثّل بما في اليد، وإذا كان الشرف كلّ الشرف أن أتفوّق على الآخرين في المادة، والسبيل أمامي للنموّ المادي مقطوعٌ، إمّا من خلال علة داخلية، نقص في قواي، وإمّا من خلال الظروف القهرية الخارجية، فأنا لا بدّ أن أسقط في نفسي، وأنا لا بدّ أن أمرض نفسياً، ولا بدّ أن أتمزق في الداخل، وهكذا حتى أصحاب الأرقام المالية الضخمة الكبيرة مصابون بالأمراض النفسية حين يقيسون أرقامهم إلى أرقام الآخرين؛ لتتضاءل أمامها على ضخامتها في داخلها، والأمراض النفسية تستتبع أمراضاً جسديةً كثيراً، وما أكثر الأمراض الجسدية المعاشة الآن، والتي تجد منبعها من أمرض النفس.

٦- فوضى الجنس ناتج ومترشح من مترشحات هذه الحضارة، وهذا الداء نقف أمام بعض الأرقام التي تسمعونها هذه الأيام في الإذاعات عن حالة أفريقيا، والإيدز:

أفريقيا: (٨٠٠٠ ضحية يوميًا لهذا المرض - ٦٠٠٠ إصابة عدو يوميًا) ، فاحسب في مدار السنة كم يكون؟ ٢٨ مليون مصاب، والعلاج لثلاثين ألفًا فقط!!

يستطيعون أن يورّدوا الداء، أن يصدّروا الداء، ولا يستطيعون أن يصدّروا الدواء، وإذا عالجوا لا يحاولون أن يسدوا منبع الداء الذي يدرّ عليهم بالأرباح الطائلة، إنما يحاولون أن ينشروا الداء لما يدرّ عليهم من أرباح في مقدماتها، وأن يوجدوا أسواقًا لبيع الدواء كذلك.

العلاج بالعقاقير التي تعالج بعض مظاهر هذا الداء، وليس أصل الداء، ولا يحاولون أن يسدوا المنبع الخبيث الصديدي، وهو الزنا.

٧- فقد الأمن عطاءً واضح من عطاءات الحضارة المادية، لأنها تولد التهارش على المادة، والسباق المحموم، والصراع المفصول عن القيم، فلا بد أن تقلق الدنيا كلها، فلا يأمن أحد على ما في يده، ثم لا يأمن على نفسه، وحتى الكبار يعمهم الخوف والقلق لسياسة الغصب والنهب والسرقة، والاستغلال والاستعباد.

ثانيًا: حضارة العقل والقلب

ففيها نظرتان:

١- النظرة المعطلة

وتتمثل في بعض المذاهب الصوفية التي تفصل الإنسان عن حركة الحياة، وتعطل فيه الفاعلية المنتجة، وهذه النظرة لا تتلاءم مع الإسلام، والإسلام يرفضها رفضًا واضحًا، ولذلك نتجاوزها.

٢- نظرة أخرى هي النظرة المحرّكة، النظرة الفاعلة.

الأسس الفلسفية للحضارة الإسلامية

حضارة العقل والقلب في النظرة المحركة لها، لها مواصفات تنطلق من تفسير الكون تفسيرًا عميقًا، ينطلق من:

١- أساس الفطرة والعقل

هذا الإنسان أمامه حالة كونية هائلة، لا تسمح له فطرته، ولا يرضى عنه عقله حين يعطي للفطرة أن تتحدث، وحين يعطي للعقل أن يفكر لا ترضى منه فطرته، ولا يرضى منه عقله أن يقف عند الظاهرة من دون أن يبحث عن علّتها.

هذه الحضارة لا تهدأ في نفس صاحبها حتى يقف على سر الكون، وهو لا يحتاج إلى بحث كثير في هذا المجال، فإن فطرته نفسها تحدّته، لأنّ هذا الكون الذي كان لا شيئاً، والذي كان في يوم من الأيام موأناً لا بدّ أن تكون وراءه قدرة مبدعة غير محدودة هي التي أبدته، وإلا لو كان المحدود لم يكن المبدع الأول، وإنما كان محتاجاً إلى مبدع.

هذه الحضارة تنطلق من تفسير كوني شامل دقيق تحمل إشعاعاته الفطرة، وتتحدث به الفطرة لصاحبها، وينطق به العلم، ويزيده العلم تركيزاً، هذه الحضارة تتوسع في حاجات الإنسان ومقتضى سعادته، وأنّ سعادة الإنسان لا تتلخص في التوفر على كم من الشهوات، وإنما سعادة الإنسان أكثر ما يتوفر عليها حين يشعر بسموّ ذاته، حين تتجلى له ذاته سامية رفيعة قابلة للخلود، ذات معنى كبير، لا يتهدهده العدم، ولا تقيدده الحدود الزمنية والمكانية الخائفة، وإنما هو الوجود القابل على الإنقراض مع الأبد، الانطلاق مع الكون كل الكون حتى ليتجاوز الكون المادي كله، وهو إنما يشعر بالذات الرفيعة الممتدة العالية في ظل رؤية الله سبحانه وتعالى.

٢- أساس الإيمان وسمو الذات

سمو الذات والشعور بهذا السمو رفعة الذات، والإيمان الأكيد في الداخل بهذه الرفعة هو سر الشعور بالسعادة المفعمة للذات، الإنسان ما توفر على الكثير من المادة في يده وهو يرى نفسه المنزّل الزائل السريع الزوال، والوجود الضئيل المحدود المخنوق في قوقعة لحظات الزمن، وفي قوقعة المكان، يشع؟

فكيف يشعر بالدونية؟

وكيف يشعر بالضياّع؟

وكيف يشعر بالموقع المتخلف؟

بنفسه بأنه دوني، وبأنه صغير، وبأنه تافه، ولا يمكن أن يغنى داخله بالسعادة، والإنسان يكون صفر اليمين وهو يشعر بسمو الذات، وبالامتداد، وبأنه شعاع لا ينقطع منبع الإشعاع عنه، ويبقى دائماً متصلاً بمنبع الإشعاع يشعر بالسعادة، ويشعر بالمعنى الكبير، ويشعر بالقيمة الذاتية العالية.

أبو ذر لم يمر عليه يوم من الأيام في فقره يشعر بالشقاء، ويشعر بالدونية، ويشعر بالتفاهة.

أبو ذر وفي كل لحظات فقره المادي كان يشعر بأنه أقوى من كل الملوك، وكان يشعر بأنه أكبر من كل الفلاسفة، ويشعر بأنه أكبر من كل أصحاب الأرقام المالية الخيالية، لأنه يشعر بذات إيمانية موصولة بالله سبحانه وتعالى، يشعر بالامتداد الأبدي، يشعر برضا الخالق العظيم الكامل سبحانه عنه، وما دام هذا العبد ممدوداً دائماً من الكامل الرب الكامل، فكيف يشعر بالنقص؟

وكيف يشعر بالدونية؟

وكيف يشعر بالضياح؟

وكيف يشعر بالموقع المتخلف؟

٣ - أساس خلافة الإنسان

نعم، وهذه الحضارة تجعل أعلى الإنسان هدفاً، وأسفله وسيلة.

إنها لا تهمل الأسفلين، ولا تهمل المادة، ولكن المادة في يد الإنسان المؤمن وسيلة، وقد سُخِّرَ له الكون؛ ليكون من بعد الله، وفي طول سيادة الله تبارك وتعالى السيادة المطلقة سيِّداً لكثير من أشياء هذا الكون، ولمساحة هائلة من هذا الكون.

مقياس التفاضل في هذه الحضارة هو مستوى إنسانية الإنسان، والتي تتمثل في مدى قربته من الله، مدى تلائم إنسانية الإنسان، مدى تبلور إنسانية الإنسان، ما استطاع الإنسان أن يحقق لإنسانيته في هذه الحياة من تقدم، ومن تبلور، ومن صفاء، ومن نقاء،

مدى صحة رؤيته، وثبات هذه الرؤية، نظافة مشاعره، مدى نظافة مشاعره، نيته، طموحاته، أخلاقياته، هذا المستوى الإنساني المتقدم هو مقياس التقدم في نظر حضارة العقل والقلب.

نتائج الفلسفة الإسلامية

- هذه الحضارة لها نتائج وتمرشحات - أيضاً - حضارة القلب والعقل تبعث على:
- ١- حركة علمية وعملية نشطة، لكنها لا تتجمد عند حدّ المادة، إنما تتقدم بالمادة وتطوّر الأوضاع المادية، وتسمو بالإنسان، وتلبي حاجات كلّ الأبعاد في وجوده.
 - ٢- الاعتدال في الإنفاق والتناول من المادة، حيث إنّ الإنسان المؤمن - وهو لا يرى قيمته في المادة - لا يسرف فيها، من أسرف في المادة، فهو من نقص في نظرته، لقيمة ذاته، ومن نسيان لعظمة ربّه سبحانه وتعالى.
 - ٣- تعاون في الإنتاج، وعدل في التوزيع، وبذل هادف ببناء للغير، الإنفاق على الذات هادف، الإنفاق على الغير هادف، والهدف دائماً هو البناء، والهدف دائماً هو التقدم بإنسانية الإنسان.
 - ٤- تحمل أمانة السلامة البيئية، والحفاظ على تدفق الثروة الطبيعية من خلال نظرة الخلافة في الأرض، التي تجد أرضيتها في حضارة العقل والقلب.
 - ٥- الانضباط الخلقي الذي يُخلّص من كثير من الكوارث المرضية التي يسببها التلوث البيئي، وانتشار المحرّمات.
 - ٦- تركيز أجواء الاطمئنان القلبي والراحة النفسية.^(١)

١- خطبة الجمعة (٦٧) بتاريخ اجمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٢ يوليو ٢٠٠٢ م.



الفصل الخامس

الحكومة

الباب الأول

الحكومة وتقسيماتها

الحكومة

إنَّ الحكم بما يعنيه من قدرات متميّزة، وميزانية ضخمة، وصلاحيات واسعة، وقرار نافذ، وسلطة كبيرة ليمثّل أهمية بالغة، وعنصرًا شديد الحسم في مسيرة الإصلاح والإفساد، والتقدّم والتخلّف، والعدل والظلم، والاستقامة والانحراف في حياة المجتمعات وأوضاعها الدينية والدنيوية، ومن هنا جاء: «إنَّ النَّاسَ على دين ملوكهم»^(١).

وكلما تركّزت السُّلطات بيد واحدة، أو كان التعدّد شكليًا، فإنَّ خطورة موقع الحكم تزداد كثيرًا، ويعظم أثرها سلبيًا أو إيجابًا على واقع الحكم وصلاحيه، أو فساد.

أقسام الحكومات

أولاً: تقسيم على أساس المنهج

والحكومة حكومتان: حكومة غائية، وحكومة إنسانية.

١- الحكومة الغائية

حكومة غائية طريقها إلى الحكم القوّة الماديّة البطش، والظلم، والقتل، والسفك، واستمرارها بالأدوات نفسها، وهي لا تقدّر إنسانيّتها بقدر ما تقدّر قوّة الظفر والمال، ولا تجد للآخر مقامًا من خلال إنسانيّته.

٢- الحكومة الإنسانية

الحكومة الإنسانية تعيش روح الإنسانية، وتجد في الآخر قيمة لإنسانيّته، وتعترف لهذه القيمة ولو بمقدار.

١ - جاءت هذه الكلمة في الأمثال والحكم المشهورة كما يظهر (المعد).

الحكومة الإنسانية مرة دينية، ومرة غير دينية.

الحكومة دينية الصحيح فيها أن تعتمد على النصب الإلهي.

الحكومة غير الدينية - والتي تنطلق في حكمها من منطلق إنساني - تقوم على النصب من الأمة.

الفرق بين الحكومة الغائبة والانسانية

الحكومة الغائبة حكومة تجد نفسها مالكة للأرض، للإنسان، مسلكها النهب والسلب والاستئثار، وإعمال السيف في سبيل تيسر كل ذلك، تحكم بإرادة مستقلة إلا عن الهوى الشخصي، وإرادة الأقوى من حكومات أخرى.

هذه الحكومة لا ترى نفسها في مقام المساءلة، أو المحاسبة، أو توقيع الجزاء بالمكافأة أو العقوبة.

العلاقة بينها وبين من تحكم هي علاقة المغالبة والقوة في قبال القوة، فإما أن تتعاضم قوة أحد الطرفين فينهى الآخر، وإما أن يبقى الصراع مستمرًا بين قوة هذا الطرف وذاك.

أما الحكومة الإنسانية، فهي حكومة ترى نفسها مؤتمنة، والمؤتمن مسؤول ومحاسب، ولا تخرج إرادته في التصرف فيما أوّتمن عليه عن إرادة المؤتمن.

وفي مثل هذه الحكومة لا بد من جهاز مراقبة ومتابعة ومحاسبة ومجازاة بالمكافأة، أو المعاقبة.

وهنا لا تخفي بالمعلومات، ولا تجيش للأنصار ضد المساءلة، أو المحاسبة، أو المطالب.

وظائف المراقبة والمحاسبة تتطلب أن يكون الجهاز المتكفل بها جهازًا شعبيًا خالصًا، وتشكيله بإرادة شعبية محضة.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٩٣) ٢٠ صفر ١٤٣١هـ، ٥ فبراير ٢٠١٠م.

ثانياً: تقسيم على أساس الإصلاح

نوعان من الحكومات:

١- حكومة الإصلاح الجدي

هناك حكومة تعتمد الإصلاح سياسةً جديةً، وتستمرُّ عليها، وتعمل دائماً على تطوير الأوضاع تطويراً إيجابياً في صالح شعبها، وتوظف جهود أبناء الشعب على هذا الطريق، وتشغلهم في عملية إصلاح مشتركة، يبنون مستقبلهم ومستقبل أَرْضهم من خلالها، وتُفعل كل الإمكانيات؛ من أجل هذا الهدف، وتجد نفسها محتاجة من أجله أن ترقى بالكفاءات، وأن تزيد منها، ولذلك تبحث عن القابليات، وترعاها، وتهتمُّ بها.

وهي بهذه السياسة لا تخلق مشاكل للشعب، والشعب المتعقل لا يخلق مشاكل لها، وعندئذ لا تجد نفسها مضطرة لأن تفتعل مشاكل ثانوية، وأن تستورد المشاكل من الخارج، لصرف شعبها عن معاناته الحقيقية التي يسببها أصل سياستها القائمة على الإجحاف، والاستئثار، والنهب، والإهمال للشعب، والاستهتار بقيمه، والإضرار بمصالحه.

وهي حكومة مريحة مستريحة، لأنها لا تريد كل الدنيا لها، ولشعبها التعب، والشقاء، والتدهور.

٢- حكومة الإصلاح الصوري

وهناك حكومة ترفع الإصلاح شعاراً، وتجافيه عملاً، وإذا خَطَّت على طريقه خطوة ظاهرية اضطراراً تراجعت بدلها عشرًا.

هذه الحكومة وهي تمارس الاستئثار، وأكل المال بغير حقٍّ، وتزاحم الفقير في لقمته، وتنتهب الأرض للقليل من الأفراد، وتصادر الثروة، وتحرم المستضعف، وتضطهد الناس في دينهم ودنياهم لا بد أن تواجه مشاكل، فتحاول أن تستعين عليها بأكثر من طريقة، فتستعمل القمع والشدة، وتستخدم الدعاية والتضليل، وتراوغ الناس وتخادعهم، وتثير آمالاً، وتقدم وعوداً من نحو السراب، وتسوّف وتؤجل ثم تؤجل، وتتذرع بالأعذار الواهية الواهمة لنفسها، والاتهامات الكاذبة للطرف الآخر، وتفرّق شمل الشعب وتشتته، وتخلق

المشاكل الجانبية الجزئية تلو المشاكل؛ لِتُشغَل عن الهمِّ الذي يثير الاشتغال به النعمة العامة المشتركة عليها، وتعتمد إلى محاولات متكررة؛ لتبريد السَّاحة بحل لهذه المشكلة، أو تلك من مشاكل اختلقتها أساسًا بقصد حلِّها بعد حين لهذا الغرض بعينه، أو بحلِّ مشكلة من المشاكل الأساس حلًّا مؤقتًا خُطِّطَ له أن تُقْتَلَ أسباب؛ لرفع اليد عنه بنهاية التوقيت المحدَّد سلفًا.

وهذه حكومة تُتَعَب وتُتَعَب، ولا بدَّ أن تنعكس الأوضاع العامة في كلِّ أبعادها على يد سياستها الغاشمة في البلد الذي تحكمه على الأقل.

وعلى الحكومات التي تشتكي من علاقة الشعوب معها أن تُنصف القول في أنها من أيِّ الحكومتين؛ ليُحكم لها بأنها مظلومة، أو عليها بأنها ظالمة.^(١)

ثالثًا: تقسيم على أساس صراع الرأي والإرادة

الحكومات قسمان: حكومة مخصصة لشعبها، وغير مخصصة.

والرأيان من الحكومة - أيَّ حكومة -، والشعب - أيَّ شعب - قد يأتیان متوافقين، وقد يأتیان غير متوافقين.

وحالة غير التوافق قد تستدرج الطرفين إلى تنافر أكبر، وتفاحش في البُعد بين الموقفين.

وهناك حكومة يصعب عليها أن تغضب شعبها، وأخرى لا يصعب عليها ذلك، وهي مستعدة لأن تتجاوز كل رأي للشعب مخطئًا كان أو مصيبًا.

ولا ندَّعي أن الرأي الصائب - دائمًا - مع الشعوب، فقد يكون الرأي الصائب مع الحكومة - أتحذ عن أي حكومة، وليست حكومة معينة، وقد يكون مع الشعب، فلقد كان الإمام عليٌّ عليه السلام له رأي في موقف، وكان لقطاعات من الأُمَّة غير مخصصة ولا بارَّة رأي آخر، ولقد كان لأئمة آخرين من أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام رأي، ولجماعة من جماعاتهم رأي آخر.

١- خطبة الجمعة (٣٩٠) ٢ ذو الحجة ١٤٣٠هـ، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٩م.

لكن حكومة من نوع معين تحرص على استرضاء شعبها بحق أو بباطل، عن صدق أو غير صدق، لأنها تخشاه، وحكومة من نوع آخر لا تكاد تكون لها خشية من شعبها، فتعمل على إبراز عضلاتها عند أي بادرة من بوادر الاعتراض على الرأي الذي تقدم على الأخذ به، ولا يلتقي مع رضا الشعب، لا يصعب عليها أن تختلف مع شعبها، وأن تصر على موقفها ولو كان الموقف الخاطئ، لأنها لا تعتمد في أصول وجودها، ولا في بقائها على رأي الشعب، ولا ترى في الشعب ما يكسر إرادتها في المدى المنظور حسب تصوُّرها.

والحكومات التي يصعب عليها أن تخالف شعوبها هي حكومات تستمدُّ بقاءها من رأي الشعب، لأن نظامها يقوم على الانتخاب، فتخشى قوة الرأي الانتخابي، وقد تخشى حكومة أخرى قوَّة الشعب.

في قبال ذلك هناك حكومة تعتمد في وجودها قوَّة البطش والتكيل، ولا تستمد شرعيَّتها من الصوت الانتخابي لشعبها، ولا تخشى منه قوَّة مواجهة.

وهذه يمكن أن تجاهر، وتصارع برأيها الذي يخالف رأي كل الشعب.

الحكومات التي تستمد بقاءها من رأي الشعب، أو التي تهاب قوة الشعب - وإن خالفت شعبها في الرأي - تعمل على الاسترضاء، أما الثانية فقد تقدم على الخطوات المستنكرة المكشوفة من غير كثير مبالاة، وردّها الصريح على الاستنكار البطش، والإسراف في استعمال القوَّة.

وممَّا تقدَّم تقدم عليه هذه الحكومات مواقف فيها بيع للأمة، وسحق وإذلال لكرامتها، وهدر لمصلحتها، وإيقاع لها في المفاسد الكبيرة.

هذا واقع عام، وتقسيم عام للحكومات في علاقتها مع الشعوب من ناحية توقُّفها، أو عدم توقُّفها في الرأي والموقف المخالف للشعوب التي تحكمها.^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٨١) ٢٢ شعبان ١٤٣٠هـ، ١٤ أغسطس ٢٠٠٩م.

رابعاً: تقسيم على أساس الاستقلالية والتبعية

هناك حكومات مستقلة تأتي قراراتها من إرادتها بلا أن تكون هذه الإرادة مهيمنة عليها، ومملوكة لإرادة حكومة أخرى.

هذه الحكومات قد تتوافق في سياستها مع شعوبها، وقد تختلف.

لكن حتى على فرض الاختلاف لو اقتنعت أن مصلحتها الدائمة أو المؤقتة في التوافق مع إرادة الشعب، والسَّماع إلى مطالبه، فإنه لا يبقى أمامها مانع من إعمال إرادتها في هذا الاتجاه، وحلّ المشكل، وإنهاء الأزمة.

وهناك حكومات لا تتمتع بالاستقلال الكافي، وتكون إرادتها مقيّدة بإرادة مهيمنة لحكومة أخرى.

وهذه الهيمنة تؤزّم في العادة العلاقة مع الشعب، وتزيد من تعقيد حالات الاختلاف، وتخلق مانعاً من الوصول إلى التوافق في موارد النزاع، وخاصّة عندما يكون استمرار النزاع مطلوباً للطرف المهيمن، ويرى فيه فرصة للتمكين لهيمنته وترسيخها، والمدّ في بقائها، وفرض شروط أكبر على الطرف الواقع تحت هيمنته.

ويزيد التعقيد تعقيداً حينما تكون أي حكومة عبداً مملوكاً لأكثر من جهة خارجية تفرض عليها هيمنتها، وتعيش هي الحاجة إليها، وتعتمد على حمايتها، أو عطائها وإمدادها.

فالعبد المملوك لأكثر من جهة سيادية يكون نهياً في مشاعره ومواقفه لهذه الجهات، ولا يستطيع أن يتخذ قراره بنفسه، فإن أرضى جهة بما يريد اتخاذه من قرار يُنهي مشكلته ربما لم ترض عنه جهة أخرى، وقد تتصادم إرادات مالكيه إلى الحد الذي يحيرّه ويمزّقه، ويمنع عليه اتخاذ قرار واضح وافق مصلحته أو خالفها إلا أن تتفاوت قوة مالكيه، فتكسر إرادة الأقوى منهم إرادة الأضعف.

ثم إن هذه الحكومة، أو تلك قد لا يأتي دور إرادتها إلا في المرتبة الثالثة من إرادات

سيادية يكون متوسطها مملوكاً لأعلاها، وهي مملوكة لكل ما فوقها من إرادات، وعندئذٍ تشتدُّ مصيبة شعب حكومته بهذه المنزلة من الضعف والذل في حين أنها تعدُّ نفسها سيِّداً للشعب.

وما أكثر الحكومات الإسلامية والعربية التي تعيش حالة تبعية واضحة في إرادتها، وسياستها، وعلاقاتها، وتعاملها مع شعوبها لإرادة حكومة أخرى أو أكثر.^(١)

حكومات غير ناجحة

- حكومات بأذن صمّاء عن شكوى المظلوم والمستضعف والمسحوق والمحروم، حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات لا تملك غير العنف في إسكات أصوات المظلومين والمسحوقين والمحرومين، حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات يتوالى منها خلق الأزمات مع مواطنيها، حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات كل مكرها على شعوبها غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات تقيم الأمور كلها على سوء الظن المفرط، حكومات غير ناجحة وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات تحاول أن تعيش على اختلاف الفئات والطوائف في الأوطان التي تحكمها حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات تدير ظهرها لدعوات الحوار المنطلقة من شعوبها، وتعدُّها ضعفاً ومسكنة، حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

١- خطبة الجمعة (٤٧٤) ٢٢ ذو القعدة ١٤٣٢هـ، ٢١ أكتوبر ٢٠١١م.

- وحكومات تستهدف الناس في أغلى ما على أنفسهم، وهو دين المتدينين وشعائهم ومقدساتهم، حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.

- وحكومات ترى في الإعلام المتزئذ، والمضل، والمُلهي، والمجهل، والمزوق، والمتفنن غنى عن العدل على الأرض، وملهياً عن كل المشكلات ومخدرًا للمشاعر مع الجوع، وفقد المسكن، والبطالة حكومات غير ناجحة، وتُتعب وتُتعب.^(١)

الباب الثاني

الحكومة والشعب

أنماط العلاقة بين الحكومة والشعب

١- العلاقة الطبيعيّة

والعلاقة الطبيعية بين الشعب وبين الحكومة هي علاقة التفاهم والحوار والتعاون، لا المواجهة.

إنّما تنشأ الحكومات؛ من أجل مصالح الشعوب، والحكومات التي ترعى مصالح شعوبها يثبت حقاً على الشعوب بأن تدعمها، وتدافع عنها، وتكون حصناً واقياً لها، فالعلاقة الطبيعية بين أي حكومة وأي شعب محكوم لها في الأصل هي علاقة الالتئام والتوافق والاتساق والتعاون، وإذا كان شيئاً فحوار، وتفاهم.

٢- علاقة الخلاف

العلاقة الأخرى علاقة الخلاف، وعلاقة التصادم، علاقة استثنائية مرضية يجب أن لا يمحّث عندها، وأن لا تُقر، وأن يكون السعي للخروج منها إلى العلاقة الطبيعية: علاقة الالتئام والتعاون على الخير.^(١)

تناسب طردي

كلما ظلَّ حكم شعباً استشعر بغضاً مظلومه، وفَقَدَ ثقته فيه، واشتدَّ حذره منه، وفتح الأعين على كلّ حركاته وسكناته، واستبدّت به الهواجس من كلّ تصرُّفاته، ورأى فيه عدوّه الذي لا بدّ أن يُضعفه، ويقهر إرادته.

ذلك على عكس حكم عادل مع شعبه، ساهر في خدمته، مخلص له، جادٌّ في رقيّه، عامل على راحته وسعادته.

١- خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

هذا السلوك يبني ثقة بالشعب، واطمئناناً له، واعتماداً على تعاونه، ودعمه للحكم وحرصه على قوّته واستمراره.

يأتي في حياة الناس وعلى مستوى الأفراد أن يُسيء إليك مَنْ تُحسن إليه، وإذا أتى هذا فإنّما يأتي من إنسان فقد إنسانيّته.

ولكن المحسن يبقى مستمراً في إحسانه لما يفرضه الإحسان من اطمئنان عند العقلاء بمن أحسنت إليه، وعدم توقّع الإساءة منه؛ لانتفاء السبب المعقول إلاّ مَنْ خبث نفس خاص يعاني منه مَنْ يقابل الإحسان بالإساءة، حتى ليتفاجأ المحسن وكلّ الآخرين حين تأتي الإساءة من شخص لآخر أحسن إليه، ويكون هذا الأمر - مثلاً - في السوء، والانحدار عن الخلق الكريم.

أمّا على مستوى الشعوب والحكومات، فيندر ذلك ندرة تكاد تُلحقه بالمستحيل، فلا يمكن عادة أن يفقد شعب في غالبية ضميره، وخلق، ورؤيته، ويتعامل مع صدق الحكم وإخلاصه وتفانيه في صالح الشعب، وعفة يده التعامل مع الإساءة، ويعاقبه على إحسانه، وتعاونه.

إنّه لا يفقد حكم ثقته بشعبه إلاّ من ظلم شديد مارسه في حقّ هذا الشعب.

والخطأ كل الخطأ أنه بدل التراجع عن هذا الظلم، والأخذ بالعدل، وتصحيح الوضع؛ لبناء الثقة من جديد، وترميم الأوضاع النفسية، وتدارك الخطأ يُعمد إلى مزيد من الظلم والعسف، والإمعان في إيقاد الفتنة، وأذى الشعب وتهميشه، والإصرار على الاستبداد والإذلال، وتبعية الأغنام لرعاتها مما يعلم من الشعوب كلها اليوم الوقوف في وجهه بأيّ ثمن كان ومهما كلفها ذلك.^(١)

لا حكم اليوم يريد لنفسه البقاء، وأن ينال ثقة شعبه أو سكوته عليه - على الأقل - يسعه أن يتعامل التعامل الجافي القاسي مع الشعب، ويدوس كرامته، ويتجاهل حقّه في تقرير مصيره، ويدير ظهره لمصالحه، ويتنكر لحريته.

صار من الضروري؛ لاستقرار أي حكم، والتعايش معه من غير توترات حادة

١- هتاف جموع المصلين بـ (لن نركع إلا لله).

مستمرة أن يعدل، أن يحترم حقوق الشعب، أن يعترف له بحقه في تقرير المصير، بحريته، بإنسانيته، بكرامته.^(١)

الناس والحكومات

الناس اثنان: متملق نفعي كاذب، وغيره.

والمتملق الكاذب المتسأجر بالمال يتحرك بلا قيم، ولا يهتمه أمر دين، ولا يفكر في مصلحة وطن، ولا ينطلق إلا عن أنانية وجشع، ونظرة مادية آنية ضيقة، وهو ليس صديقاً لأحد، وليس بالأمين الذي يعتمد عليه.

وكم هم الذين سيشتريهم مال الحكومة حتى يُغنوا عن الشعب بأكمله وجميع فئاته؟! ألف، ألفان، عشرة آلاف؟ تبقى الأغلبية ساخطة.

أما غير المتملق، فهم ثلاثة:

أ- مَنْ لا تُرضيه ولا تغضبه إلا الدنيا، وَمَنْ لا همَّ له فيها إلا هي، أو مَنْ يتركز همُّه في الأكثر عليها، ولا يمكن أن يسكت أمام مَنْ ينازعه على غنائمها، أو يحرمه من فرصها.

ب- مَنْ يكتفي من الدنيا بما لا يكتفي به غيره منها، ولا يعبأ كثيراً لها بعد قضاء ضرورياته وحاجاته المعتادة، ولا يلتفت إلى أثر اختلال العدل فيها على الدين، لا يملك العقلية والالتفاتة إلى الترابط بين اختلال العدل وفساد الدين في الناس، ولكنه حريص على دين نفسه، والسلامة الدينية لبيئته.

ج- مَنْ يدرك قيمة العدل في نفسه، ويؤمن بضرورته، ويعرف الترابط بين سلامة الدين والدنيا، ويهمه أن يعيش الناس راحتهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة.

ولتنظر الحكومة مَنْ أبقت من هؤلاء الثلاثة في دائرة صداقتها، والثقة بها، ولم تظلمه في دينه أو دنياه، ولم تؤذِهِ أذى شديداً فيهما؟!

١- خطبة الجمعة (٤٩٢) ١ ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، ٢٤ فبراير ٢٠١٢م.

لا الطالب للسعة في دنياه، أو التوفّر على ما يقومه فيها براضٍ عنها، ولا المشفق على دينه سالمًا منها عليه.

أمّا طالب الصلاح والإصلاح لمجتمعه في دينه ودنياه، فحظّه من ظلم السياسة المأخوذ بها حاليًا هو الأكبر، فهو لا يُمكن أن يرضى، ولا يمكن أن يسكت.

نهبُ الثروة الطبيعية المشتركة، انخفاض الرواتب، التعلُّل، سرقة الأموال المنقولة، التحايل على الميزانية العامة لجيوب الكبار والمتنفذين، أزمة السكن الحادة ... إلخ، القائمة هي طويلة، هل يمكن أن يسكت عليها مَنْ يطلب أن يعيش معيشة مادية كريمة حلالًا، أو مَنْ يفكر في العدل في الناس؟!

ومظاهر الفحشاء، والابتذال، والتخطيط للانحدار الخلقي، وإفشاء أنواع المنكرات، وتعدد مشاريع المسخ الديني، ومحاصرة الحالة الدينية العادية، والسب والشتم للمؤمنين، وتحريف أحكام الله، وإحلال البديل الجاهلي حتى في دائرة وصية المتوفى المسلم وميراثه والتي بتّ الحكم الشرعي فيها الأمر بتأ واضحا لا لبس فيه على الإطلاق، والإصرار على طرد الشريعة حتى من الحياة الأسرية المحدودة، والقائمة هنا طويلة جدًا أيضًا، هذا كلّه يرضي المتدين، ويريح ضميره، ويسكن أعصابه؟!

لتنظر الحكومة إلى أي عاقبة يقود هذا الواقع، وإلى أي نتيجة يريد أن ينتهي بالوطن كله إليها؟^(١)

النزاعات فرصة البعض

هناك محبّو ظهور، باحثون عن مال، باحثون عن مناصب، أصحاب أحقاد، أصحاب عقّد، لا يجدون فرصة أفضل من جوّ النزاع والصراع، وتضارب المصالح بين شعب وحكومة.

والحكومات تبحث في كلّ الظروف عن عملاء، عن السُّن، عن أيدٍ، عن عيون تستعين

١- خطبة الجمعة (٣٢٤) ٣ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، ٩ مايو ٢٠٠٨م.

بهم؛ لتنفيذ خططها، وتثبيت وجودها بأيّ ثمنٍ مستطاع، ولا تجد أفضل من باعة الدّين والضمير من كلّ الفئات والشرائح والملل والمذاهب والتخصّصات ممّن يبحثون عن مشترٍ لهم كما تبحث تلك الحكومات عمّن تشتريه؛ لأغراضها السيّئة.

وأعظم ما تشتدُّ حاجة الحكومات لهذه السلعة، ويكثر طلبها عليها، فيكبر ثمنها في حال أزماتها مع شعوبها، وإصرارها على كسر إرادة الشعب، وإذلاله، وعدم التنازل له في أيّ من حقوقه الثابتة.

وهذه هي الفرصة الذهبية لمن كان يبحث عن الدنيا في أيّ بُعد من أبعادها، وأيّ مغرٍ من مغرياتها، أو تفاهة من تفاهاتها، وكان مستعدّاً ألاّ يبقّي نفسه ذمّةً ولا ديناً، ولا إنسانية ولا شرفاً في قبال ما يطمح إليه من مال، أو منصب، أو تزلف، وفي هذا مصيبة كبرى للدّين، والشعوب، والأمم، وضياح للحق، ومحقّ للعدل، والله المستعان.^(١)

الحكومات وحاجة المجتمعات

الحكومة حكومتان: حكومة تعيش لنفسها، تضخّي بكلّ شيء؛ من أجل وجودها. وحكومة أخرى تعيش لشعبها، تفكيرها منصب على مصلحته، ومشاريعها تستهدف أن ترقى به إلى أقصى حدٍّ ممكن.

والمجتمع مجتمعان: مجتمع مرتبط بالدّين، ويعيش أوضاعاً دينيّة، وحاجاته تنقسم إلى حاجات دنيا ودين، وهناك مجتمع لا ارتباط له في أغلب أوضاعه الحياتية بالدّين وإنّ كان يمتلك روحاً دينيّة وفطرة لا تسمح له بأن ينفصل عن الدّين انفصلاً نهائياً في كلّ أوضاعه، وفي كلّ مشاعره.

والحاجات نوعان:

حاجات مشتركة بين كل المجتمعات البشريّة، وحاجات خاصّة.

الحاجات المشتركة: من مثل الحاجات المعيشيّة، والصحيّة، والبيئيّة.

وأيضاً الحاجة إلى الكرامة الإنسانية العامة، فإنَّ للإنسان في عمومهِ شعوراً بالكرامة لا يكفي لإشباعه في الأحوال الطبيعية لنفس الإنسان مهما كان لقضيته أن تغنى يداه بالمادة الغنى من هذا النوع.

والحرية في بعدها الإنساني هي حاجة مشتركة كذلك.

توفير فرص العمل والعلم، حاجة أخرى لمجتمع الإنسان، فإنَّ الإنسان لا يطلب المال فقط، وإنما يحتاج إلى أن يعمل، ويحتاج إلى أن يعلم.

حاجات خاصة: الحاجات الدينية النابعة من طبيعة الدين، أو المذهب الذي يعيشه المجتمع.

هذا مجتمع يعيش حاجات دينية على الخط الإسلامي، ذاك يعيش حاجات دينية على الخط المسيحي، أو البوذي، أو ما إلى ذلك.

احترام العادات والتقاليد والتي تختلف باختلاف المجتمعات، فقد تتنافى عادات في مجتمعين، وهذا يطالب باحترام عاداته، وذاك يطالب باحترام عاداته.

المجتمع المسلم وحاجاته الخاصة

المجتمع المسلم له حاجتان: حاجة دنيا، وحاجة دين.

ولا يعتبر المجتمع المسلم نفسه مجتمع حيوانات همُّه الأكل والشرب، وما مائل.

إنَّه يعيش حاجة دين، وله متطلباته الدنيوية، وتعظم المصيبة عليه في بعض مستوياته أن ينال المصيبة، أن نال في دينه، كما لا تعظم عليه أن يصاب في حاجاته المادية.

إنَّ المجتمع المسلم - وعلى الأقل - في بعض شرائحه ومستوياته ليقدم أحراره على دنياه، ودينه على حاجاته المادية.

فلو تعارض الدين والدنيا عند بعض المستويات من المجتمع المسلم لكانت تضحيته بدنياه، وليس بدينه.

موقف الحكومات من حاجات المجتمع

ينقسم إلى:

١. حيادي من حاجات المحكومين.
٢. منافع للمسؤولية التي تتحملها أي حكومة في قبال شعبها، بحيث يتنكر هذا الموقف للقيمة العيش عند الشعب، أو مقدساته، وقد يحاربها.
٣. أن ينسجم مع مسؤوليتها وأن تكون هذه الحكومة في خدمة مصالح شعبها المادية، وقيمه المعنوية.^(١)

العلاقة بين الحكومة والمعارضة

وإذا اختلفت حكومة ومعارضة في أي بلد، واستهدف أحد الطرفين إلغاء الآخر واجتثاثه تصاعدت الأمور إلى أقصى حد.

يجب أن يتجه التفكير عند الطرفين إلى التصالح والتوافق، وإذا كان هذا هو الهدف، فلا بد أن تأخذ الوسائل طبيعتها من طبيعته.

وهي على هذا التقدير لا يعدو الحوار، وآلياته، ومقدماته، وأجواؤه وهو الشيء الذي شددنا عليه كثيراً، وفي عدد من المناسبات والمواقف.

وإذا جرب التشدد الأمني والتضييق المعيشي والديني وغيره، والتواجه الصاعد مرة، وألف مرة، فلن يكون فيه الحل، وإذا نشبت مواجهات ساخنة - لا سمح الله -، فستزيد المشكلة، ولن تخفف منها؛ فلا العقوبات الجماعية، وتعطيل المشاريع الإنمائية في القرى، والحرمان قادراً على الحل، ولا الزجاجات الحارقة - إذا وجدت - تملك أن تحققه.

وعندي أن كلاً منهما مرشح إلى أن يؤزم الوضع بدرجة أشد وأعظم.

وأي طرف يستكبر اليوم على الحوار، أو يزهده فيه، ويعتمد على خياراته الأخرى

١ - خطبة الجمعة (٣٣٩) ٢٠ شعبان ١٤٢٩هـ، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٨م.

الواثق بها لا بدَّ أن يقتنع غداً أنه لم يحسن صنعاً، ولم يوفق في خياراته، وسيعلم أن الحوار لا غيره هو الحل، لأنَّ وضع الأسرة الواحدة، القرية الواحدة، المدينة الواحدة، المجتمع الواحد لا يصلح إلا بالحوار والتفاهم، وعلاقات العدل والإحسان.^(١)

مسارات العلاقة بين الحكومات والشُّعوب

لحياة التقدم والرخاء والرفق والأمن والاستقرار والتلاحم الوطني والإنساني في المجتمعات طريق، ولما هو العكس طريق آخر، والنتيجتان لا تلتقيان كما أن الطريقين لا يلتقيان.

وكلُّ طريق يؤدي إلى ما اتجه بطبيعته إليه لا بما عليه دعاواه وإعلامه المزيّن له، والمدافع عنه.

النتيجة: من طبيعة الطريق، وليس من التصفيق للطريق، وزغردات الطريق.

ومنهج العدل، والعلم، والخلق الرفيع، والدين القويم له نتائج في العقول والنفوس والأوضاع، ولمغايره نتائج أخرى، والنوعان من النتائج لا يشتبهان.

وسياسة تتعمد خلق الأزمات، وتفرق المجتمعين حولها، تعطي نوع نتائج، وسياسة تعمل على حلّ الأزمات، واستقطاب المفرقين عنها نتائجها إيجابية مختلفة؛ ولا استقطاب من كلمة ساحرة خالفها فعل، إلا أن يكون المخاطب مغفلاً؛ فكيف إذا جاء الفعل والكلمة منفردين؟!

وأوضاع الحكومات تقاس في الكثير في توجهاتها ونجاحها وإخفاقها، وما تبشّر به من مكاسب مريحة ونتائج مربحة، أو تنذر به من عواقب وخيمة، نتائج خاسرة بما عليه من أوضاع المحكومين من راحة وتعب، واستقرار واضطراب، وعلاقة إيجابية أو سلبية بالحكومات، وبما يجدونه من رضا، أو سخط عليها.

وفي كل الأحوال تعد العلاقة السلبية المنشئة بين الحكومات وشعوبها من أكبر عوامل الشلل والتخلف والهدم للأوطان، فلا بدَّ من تدارك العلاقة من هذا النوع

١- خطبة الجمعة (٣٣٥) ٢١ رجب ١٤٢٩هـ، ٢٥ يوليو ٢٠٠٨م.

بالتصحيح قبل فوات الأوان.^(١)

ثم لنسأل: ماذا تريد الحكومات من الشعوب؟

وماذا تريد الشعوب من الحكومات؟

١- ماذا تريد الحكومات من الشعوب؟

كل الحكومات يهتمُّها أمنها، وقد يهتمُّها أمن شعوبها، وقد لا يهتمُّها إذا كان لا يؤثر على أمنها، وقد تستهدفه بالإضرار وإن لم يسلبها أمنها، وكثيراً ما كان ذلك.

ونادر أن توجد اليوم حكومة تقدِّم أمن شعبها على أمنها، أو لا أن لا ترى لها أمناً إلا من أمن شعبها، وأن تضجَّ بأمنها؛ من أجل أمنه، فلا تبيعه لتبقى، ولا تذله لتعزَّ به ولو عند أعدائه.

ويهم الحكومات أن تطبِّق القوانين التي تشرف على تطبيقها.

ويأتي هنا أمران يقوم عليهما تطبيق الشعوب للقوانين:

الأوّل: الرضا الشعبي بالجهة المقتّنة، وهي إمّا شريعة سماوية عند أهل الأديان، و إمّا مجلس نيابي عند العرف الديمقراطي المنتشر اليوم.

ولا تسليم من الشعوب اليوم للقوانين التي تسنُّها الجهة التنفيذية، أو المجالس التشريعية التي تتحكم هي في تشكيلها.

والثاني: ممّا يقوم عليه تطبيق القوانين من الشعوب بإيمان هو أن تأتي هذه القوانين مقدورة، ولا تؤدي إلى حرج شديد.

ومعروف أنه إذا أردت أن لا تطاع، فكلف بما لا يُطاق.

فالحكومة التي تضع على كلِّ طريق من طرق الخير - وكل طريق من طرق النمو الصالح، والكسب الشريف، والتعبير العادل، والتفاهم المنتج - إشارة حمراء، وقانوناً قاسياً تحوّل طاعة مجموعة القوانين إلى أمر صعب وشبه مستحيل، وفي هذا سبب

١ - خطبة الجمعة (٣٤٤) ٨ ذو القعدة ١٤٢٩ هـ، ٧ نوفمبر ٢٠٠٨ م.

اصطدام وفوضى لا انضباط فضلاً عن الانسجام.

بهذا يحصل تصادم المصالح، وتصادم الإرادات، وتكون الخصومة والنزاع بين أي شعب وأي حكومة لا تملك قوانينها الشرعية في نظر الشعب لفقد التوافق على قضية التشريع، ولكون القوانين المشددة المضيقة واصلة إلى حد خنق الأنفاس والمصالح.

ويأتي دور السؤال الثاني:

٢- ماذا تريد الشعوب من الحكومات؟

تريدها وكيلاً أميناً عادلاً على الثروة في كل مراحل الحفظ والتوزيع الأولي والاستثمار، وتوزيع الإنتاج، والتوظيف للمال العام في الصالح العام، وتنمية الشعوب التنمية الشاملة.

يريد الشعب من الحكومة أن تكون راعية لمصالح دينه ودينه، وإنسانيته وحضارته، وامتائه وقناعاته.

ويريدها قبل ذلك حكومة موافقاً عليها، وموافقاً على الدستور والقانون اللذين يمثلان المصدر الذي يصار إليه في الاحتكام عند مرجع حيادي يحكم الدستور والقانون اللذين رضي بهما الطرفان.

وحين يُفتقد المرجع التشريعي المتفق عليه تكون الحالة السائدة هي الخلاف والنزاع والصراع.

وحين يتم خروج السياسات العملية أو القوانين وما يقوم مقامها، أو اللوائح الداخلية، والتعليمات على صورة ما اتفق عليه من دستور ونظام، فهذا يعني التأسيس لحالة الخلاف والنزاع والصراع.

وحين لا تكون مرجعية حيادية يُحتكم إليها في الخلاف على مؤدى الدستور والقانون، ويكون الحكم للقوة لا يكون إلا خلاف ونزاع وصراع.

وحين تُسدُّ عند الاختلاف أبواب الحوار، ويكون التفعيل لمنطق القوة والبطش،

فالمؤدَّى هو استمرار النزاع والصراع، وتفاقمه وتصاعده، واتساع رقعته.

وكل هذا يفيد أن الحكومة بيدها الحل، ومفتاح الأمن والاستقرار، وتوحيد الجهود؛ للإنتاج النافع والتقدم الإيجابي، وبيدها أن تلهب الساحة، وترهق الوطن، وتدفع به إلى خسائر عظام.

خذوا مثلاً: إلى أين تصير شركة تجارية تأسست على يد أشقاء من أب وأم، ولكن بلا نظام صحيح، وبلا توزيع عادل متفق عليه، إلى أين تصير هذه الشركة في نفسها وبالأشقاء؟

وكيف لو ألغى القوي من الإخوة نظام الشركة، واستأثر، ونهب، وألغى مصلحة أشقائه من الحساب؟

وكيف لو استخدم أرباح الشركة في تهميش البقية، وسحق كرامتهم؟
هل ستبقى الشركة قائمة؟!

وهل سيبقى الأشقاء من ناحية التعامل الخارجي، ومن ناحية ما في القلوب أشقاء؟
لن يكون ذلك!

وليست العلاقة بين الشعوب والحكومات السائدة علاقة متدينين برسول من رسل الله.

هي علاقة دنيوية مصلحة في الأكثر، وما العلاقة بين الشعوب والحكومات السائدة بأوثق وأمتن، ولا أشد حرمة وأقوى سبباً من العلاقة في الشركة التي ضُربت مثلاً، وهي علاقة بين أشقاء، وواحدة من أمتن العلاقات وأشدّها رباطاً وسبباً.

وهذه الرابطة الأكيدة المتينة القوية لا تصمد قوتها، ومثانتها، ومقاومتها أمام هزّات الظلم والاستئثار والإهانة التي يمارسها عضو الشركة وهو واحد من أشقاء في حقّ أشقائه وأحبّته.

فلا بدّ لمنطق الظلم والاستئثار والإلغاء والإهانة برغم كل شيء أن يخلق العداوة والبغضاء، ويهدم الشركة، ويؤدي إلى الاحتراب.

ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.^(١)

موازن القوى بين الحكومات والشُّعوب

للحكومة قوّة، وللشعب قوّة، هناك إمكانيات، وهنا إمكانيات، وهذه الإمكانيات في الأصل هي للبناء، للتطوُّر، للإصلاح.

هذا هو الأصل، والصحيح أن هذه الإمكانيات مجتمعة ومحشودة؛ من أجل البناء والإصلاح، وخير الجميع.

ذلك هو الأصل، أما الواقع فهي لإضعاف الآخر.

إمكانيات الحكومة مستعملة؛ لإضعاف الشعب، ويترتب على ذلك أن تكون إمكانيات الشعب؛ لإضعاف الحكومة، وإضعاف الشعب ليس في صالح الوطن، وإضعاف الحكومة وهي الحكومة ليس في صالح الوطن.

ما دامت الحكومة هي الحكومة، وما دامت ستبقى الحكومة، فإنّ إضعافها لن يكون لصالح الوطن، والأساس هو أن الحكومة صارت تعمل جادّة على إضعاف الشعب، فلا بدّ أن ينالها من هذا ضعف.

إمكانيات الحكومة هي ملك الشعب، والحكومة في الأصل أفراد شأنهم شأن غيرهم، وليس في يد الحكومة شيء تستقلُّ به ملكاً.

ما بيد الفرد من الشعب هو ملك له على مستوى الاعتبار، وما في يد أي شخص في الحكومة ممّا هو معدود ملكاً شخصياً له هو ملك له في الاعتبار، على أن يكون ما في يد أي فرد من هذا الشعب، وأي فرد من أفراد الحكومة هو من الطرق المشروعة.

أما ما في يد الحكومة بما هي حكومة فليس لها، ولا ذرّة منه للحكومة، إنما هو للوطن، للشعب، ولأفراد الحكومة بما هم أفراد من الشعب.

وهذه الإمكانيات التي بيد الحكومة بصفة أنها وكيل قانوناً عن الشعب في هذه الأموال، إنما يصحّ تصرفها فيها لمصلحة الشعب وليس لضربه، وإيذائه، وإضعافه!

١- خطبة الجمعة (٣٥٨) ١ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، ٢٧ فبراير ٢٠٠٦م.

وإمكانات الشعب - أيضاً - ليس لهدم الوطن، وإنما هي لبنائه، والأخذ به على طريق التطور والتقدم والازدهار.

والحكومة قادرة بشدة على إيذاء الشعب، والشعب هو كذلك قادر وبقوة على إيذاء الحكومة.

أما قضية القضاء على أحد الطرفين، فهي بعيدة المنال، وأمر غير عملي. إذا أراد الشعب أن يقضي على الحكومة، فإن عليه أن يدفع ضريبة كبيرة جداً، ومرهقة، وقد لا يتأتى له ذلك، ومستحيل على الحكومة أن تقضي على الشعب. في المتعقّل العملي أن الشعب لا يستطيع أن يسقط الحكومة في المدى المنظور، ولا الحكومة تملك أن تسقط الشعب.

فإذا: لن يعطي استمرار الصراع، وتفاقمه وتعاضله واشتداده إلا الإضعاف والاستنزاف، والمتاعب المستمرة للطرفين، والقلق الدائم، وتوريث الصراعات، هذه هي النتيجة.

إلى متى التدهور، والتّردي، والاقتراب من حافة الانفجار والانهيار؟ هذا ليس شعراً، ليس إنشاءً، وإنما هو الدرس الذي تقدّمه لنا كل الصراعات في البلدان والأقطار، وأنها تصل في الأخير إلى حافة الانفجار، فتنفجر الأوضاع انفجاراً مدمراً، ويكون الانهيار.

لتحاشي هذا الأمر، ودرئهِ يحتاج إلى موقف من الحكومة، وموقف من الشعب. إن الحكومة تُعطي ما اغتصبته من حقوق الشعب، وما سلبته وهمّشته، وأن تعترف بأن هناك مشكلات سياسية ومعيشية ودينية واجتماعية وأخلاقية لا بدّ من السعي الجادّ المُبرهن عليه عملياً لحلّها.

ودور الشعب أنّه كلّما قدّمت الحكومة برهاناً على جدّيتها في الاعتراف بحقوقه، وأعطت من نفسها الحقّ كلّما كان عليه أن ينوّه بذلك، وأن يعترف بذلك، وأن يطلب الاقتراب من التوافق على الحلّ.

إذا استمر السَّيفان: سيف الحكومة، وسيف الشَّعب كلُّ منهما في وجه المقابل، فإنَّ النتيجة لا بدَّ أن تكون فظيعة، ومروَّعة، ولا نتائج إيجابية في المنظور على الإطلاق.

هل الطرق سَدَّتْ؟

الفرص ضاعت؟

الحريق صار حتمياً؟

لا، إذا صار التعقل هناك، وصار التعقل هنا، وحصلت الجديَّة هناك، وحصل التجاوب مع هذه الجديَّة هنا.

تجربة العنف فاشلة هنا، وفي بلدان أخرى كثيرة وكثيرة، وحتى العنف الذي رآته أمريكا طريقاً ملك هذا العالم تبرهن أنَّه تجربة فاشلة، وكون الحكومة تمتلك سلاحاً كثيراً، وجيشاً قوياً، وشرطة، وميزانية كلُّ ذلك لا يكفيها؛ لتحقيق نصر تنوَّهه على شعبها، وضعفُ شعبها ضعف لها.

على أن العنف يدعو للعنف، وعنف أي طرف من الطرفين لن يسدَّ الباب على العنف الآخر، والتجربة العملية لسنوات وسنوات برهنت على ذلك.

سيفك لن يكسر السيف المقابل، وسيف المقابل لن يكسر سيفك.^(١)

المخارج من أزمات التَّوتُّر بين الحكومة والشَّعب

الحكومة تريد أمناً والشعب هو الآخر يريد أمناً، والاثنان يطلبان احتراماً، وأمن هذا واحترامه مرتبط بأمْن ذاك، وأمن ذاك واحترامه مرتبط بأمْن هذا واحترامه.

وهناك حقوق يطالب بها الشعب، وهي ضرورية؛ لتحقيق درجة من العدل، وضرورية للاستقرار، وقد يسلك أي طرف من الطرفين لما يريد طريق العنف مع اعتماد إهمال حاجة الآخر، وتهميشه، وعدم الاعتراف به، ونفي الآخر في بيت واحد، أو مؤسسة واحدة، أو وطن واحد ليس الشيء الميسور الذي قد يتوهمه متوهم، ودونه بحر من المتاعب

١- خطبة الجمعة (٣٦٣) ٧ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، ٣ أبريل ٢٠٠٩م.

والصعاب، والتضحيات والدماء والأهوال لا يكاد يُشَقُّ عبا به، وكل تجارب الدنيا تتحدث بأبلغ لغة، وأوضح أسلوب عن ذلك، كما تتحدث عن فشل هذه المحاولة في الأكثر.

وقد يتعقّل الطرفان، فيأخذان بأسلوب الحوار والتفاهم؛ ليصلا من المشتركات إلى التوافق على موارد الاختلاف؛ ليخرجا من المأزق الذي يعنيه استمرار النزاع والصراع بين المصالح أو بين الإرادات، وينأيا عن بنفسيهما عن الهاوية المشتركة التي تُنهي إليها الصراعات على تقدير الاستمرار.

وقد ينشأ التعقل عند هذا أو ذاك من ميل للعدل، واحترام الإنسان للإنسان، وتقديره لضروراته وحاجاته وشأنه وكرامته، وقد ينشأ من الإشفاق على الذات، ورعاية مصالحها واستقرارها التي تعرضه مخاطر الصراع إلى الضياع، وكثيرا ما تحتاج الحكومات إلى التعقّل، والرّزانة، والتأمّل، والوصول إلى التفاهم، وإلى نتائج متوافق عليها، حتّى لو جاء من منطلق الشعور بتعرّض المصالح الذاتية للخطر هو خير لطرف في الصراع من حالة الاحتراب التي يقدر أن تعصف بهذا وذاك مصالح واستقرارا وذاتا، وكلّ مكسب عزيز مقدّر كان من أجله الصراع.

وعقلا وعقلائيّا لو استوت أو تقاربت نتائج التفاهم المرغوبة عند هذا الطرف أو ذاك، أو كليهما، مع نتائج الاحتراب المهلك، أو الصراع المرهق لتعيّن الأخذ بأسلوب التفاهم لا أسلوب القتال.

هذا حتّى لو لم يكن حساب إلا لمصلحة الذات، وبقي الناس بلا خلق وقيم إنسانية ودين، وما رجعوا لله سبحانه في رعاية الحرّمات.

ولا بدّ أن نلتفت جميعا أن فراشا يجمع بين زوجين يترصد كلُّ منهما بالآخر، ويخاف أحدهما من الآخر هو فراش شقاء، والاجتماع فيه للعذاب.

ورفقة الطريق إذا كان كل واحد منهم يترصد بأخيه، وله خوف جدّيّ منه كان هذا الطريق طريق شقاء وعذاب، ولا بدّ أن يفترقوا.

وأهل الوطن الواحد حكومة، أو شعبا، أو فئات شعبية لو أطّر حياتهم إطار الترصد لبعضهم البعض، وخوف كل طرف من الآخر لكانت حياتهم للشقاء والعذاب، فلا مفرّ

لأهل البيت الواحد، والسفينة الواحدة، والوطن الواحد من التفاهم والعدل والإنصاف،
وإلا فهو الأخذ بطريق النصب والشقاء، والعذاب والهلاك.

فهل تعقل كل الحكومات هذا وتسعى إليه؟

وهل يتوافق الجميع عليه؟

وكم يضل أهل الأرض عند العصبية، أو الغفلة عن الطريق؟

وكم يفوت الأقوياء في نظرهم من فرص الخير والراحة على أنفسهم وغيرهم
الكثير؟^(١)

حاجة متبادلة بين الحكومة والشعب

إنَّ استقرار حياة أيِّ شعب يحتاج إلى حكومة؛ وحياة شعب بلا حكومة لا بُدَّ أن
تسودها الفوضى.

وإذا كانت الحكومة من مقتضى حياة الشعب، فإن صدق الحكومة أصلاً متوقف
على الشعب، ومن دون فرضه لا صدق لهذا العنوان على الإطلاق.

وحياة الأوطان لا تزدهر إلا في ظل حكومة قويّة، وشعب قوي.

وقوّة الحكومة ليس باستئسادها على الشعب، وقوّة الشعب ليس بالاستئساد عليها.

قوّة أي حكومة في قدرتها الكفوءة على إدارة شؤون المجتمع إدارة صحيحة ومخلصة
خالية من الفساد الإداري والمالي والخلقي.

قوّتها أن تتقدّم بأوضاع المجتمع إلى الأمام، وتدفع بكل الطاقات على طريق بناء
الإنسان والأرض.

وقوّة الشعب في أن يعمل جاداً بالنهوض بمستواه، والتقدّم بإمكاناته، وأن يدعم
الخطط التنموية الصالحة التي تتبناها سياسة الحكومة^(٢)، وأن يشارك في رسم

١- خطبة الجمعة (٣٦٤) ١٤ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، ١٠ أبريل ٢٠٠٩م.

٢- كلامي عن أي حكومة، وعن أي شعب.

السّياسة العامة الناجحة، ويعمل على نجاح تطبيقها.

وأيّ أوضاع تستنزف جهد الشعب والحكومة خارج دائرة البناء الإيجابي والتخطيط له، وتداركه هدر للطّاقات، وإهمالٌ لمصلحة الوطن.

وسلامة العلاقة بين الشعب والحكومة أمرٌ لا بدّ منه لمصلحة الوطن، وأمن الجميع.

وهو أمرٌ لا يُضمن إلا بالقانون العادل^(١)، والتطبيق العادل لهذا القانون.

والاختلاف على القانون، والتمييز في تطبيقه يخرج بالعلاقة عن إطار الثقة، ويجعل اعتمادها على لغة التغالب والقوّة وهي أخطر ما يكون على مصالح الأوطان وسلامتها، وأتعب ما يكون لحياة الطرفين، وأبعد ما يكون عن الاستقرار والأمن.

لغة التغالب والقوّة هي لغة بطش وعنف، وأضرار بالغة تحرق ما بناه العقل والحكمة والخبرة والجهد والعرق على كل المستويات، وفيه نفسٌ لكثير من حرّات الدّين، وثوابت القانون، ومكانة القيم، ومقتضيات الأعراف العُقلائية والاجتماعية الصالحة.

والأسلوب الأمني داخل في هذه اللغة^(٢)، وهو أبلغ لسان لها، وكثيراً ما يَفْزَعُ على كل الحواجز، ويكسر الضوابط، ويلغي الحدود، ويتنكّر للدّين والقيم، ولا نريد أن نذكر أموراً مُشينة قبيحة وظالمة تُرتكب عملياً ضمن هذا الأسلوب.

ولو جئت النّاس، فإنّ جلّهم لا يبحثون لأنفسهم عن المشاكل، ولا يطلبون المتاعب لها، ولا يريدون أن يدخلوا مع الحكومات في مواجهات مكلفة مرهقة؛ وإنما تأتيهم المشاكل من حيث لا يُريدون، وتقرض عليهم الأوضاع الضيّقة أن يقولوا كلمة، ويبثّوا الشّكوى ممّا قد يُشكّل بداية مشكلة في المواجهة^(٣).

والأسلوب الأمني قد يجبر على الكبت، ويخنق الكلمة إلى حين، وقد لا ينجح في ذلك أساساً، ومع نجاحه تعود الكلمة في أول فرصة للانطلاق.

١- يجب أن يكون القانون عادلاً؛ حتى يكون ضماناً لسلامة العلاقة بين الحكومة والمجتمع.

٢- لغة التغالب والقوّة وهي لغة مدمّرة.

٣- المشكلة تبدأ من الظلم، المشكلة تبدأ من التمييز في تطبيق القانون، المشكلة تبدأ من قانون غير عادل، المشكلة تبدأ في الغالب ممّن بيده القوّة.

وهكذا تستمر المشكلة.

إنَّ الذين يدفعون في اتجاه الأسلوب الأمني، ويرون فيه بديلاً عن الإصلاح ليدفعون بأوطانهم إلى استمرار الأزمات، وإلى الهاوية.

وإذا تَبَدَّل العنف، وصار الاحتكام من الطرفين إلى لغة اليد، والقوَّة والبطش كان ذلك أسرع في أن تَأْكُل النارُ ما تَأْكُل من أنفُس وبناء، وأخضر ويابس.

وكثيراً ما تتوارى في أجواء الصراع من هذا النوع لغة الدِّين، والعقل، والقيم، والوطن، والمصالح الحقيقية المشتركة، وتحلَّ محلها لغة أخرى جائرة مدمِّرة.

ومن أمكنه أن يرجع إلى الدِّين وقت عصبِيته وجد أن لا ظرف يُسقط أحكاماً من أحكام الدِّين، وحقوقاً من حقوق الإنسان، ومن رجع إلى الحكمة وجد أن احترام القانون إنما يختبر وقت ثورة النفس والقدرة.^(١)

وللحكومات فشل ونجاح في سياستها الداخلية، واستعمالُ القوة والبطش للإسكات لا يمثل حالة النجاح.

وإنما نجاح هذه السياسة بالقدرة على كسب الاحترام والثقة من النَّاس من خلال واقع عملي يبرهن على الإخلاص والتواضع والتفاني في خدمة مصالحهم بعيداً عن مشاكل الفساد المالي، والإداري، والخُلقي، وكل أنواع الفساد.

والتوصُّل إلى هذا الاحترام والثقة يجعل أمن الحكومة أمناً للشَّعب، وأمن الشعب أمناً للحكومة، ولا ينقسم الأمن في حسِّ أيِّ طرف منهما في هذه الحال إلى أمنين متنافيين متهاضين.

وفي هذا ما يسدُّ أبواب شرور كثيرة تدخل على الأوطان.

صحيح أن السبيل مع الرسول ليس سبيلاً سهلاً، ولكن من ضيَّعه فقد اختار لنفسه العذاب المقيم، والشقاء الذي لا مخرج منه.^(٢)

١- ونحن نقرأ ونسمع كثيراً ممَّا يخالف أحكام الدِّين، وحقوق الإنسان، واحترام القانون هذه الأيام.

٢- خطبة الجمعة (٤٢٢) ٢١ شوال ١٤٣١هـ، ١ أكتوبر ٢٠١٠م.

أقوياء ولكن!

تصرُّ كثير من الحكومات في البلاد الإسلامية العربية، وغير العربية على أن تكون قويَّة بالغة القوة، مهيبة شديدة الهيبة في صدور شعوبها، تملأ قلوبها رُعباً وهلعاً، نافذة الكلمة بلا نقاش، ماضية الحكم بلا إبداء ملاحظة، صارمة السَّيف على الرُّقاب، بطَّاشة عند أي مبادرة احتجاج على ظلم فاضح.

ولكنَّ الشعوب تغيَّرت بعض تغيُّر بعد طول غيبوبة وسبات، فلم تبقَ صالحة بما يُريح المتسلطين كلياً كما كانت لأن تسمع من الحكومات، وتنفذ ما يراد منها دون أدنى مناقشة، وأن تُسرق وتتهب من دون اعتراض، وتُقتل وتعذب من دون أن تتأثر لنفسها على الإطلاق، وأن تباع ويباع معها دينها وعزَّتْها وانتماءها، وكلُّ مقدَّساتها لحساب الحكَّام من دون أن تتبس ببنت شفة، وأن تُهدى أرضها وثرواتها لأعدائها من غير أن يكون لها رأي، وأن يتصرف فيها الحاكمون تصرف المالك في ملكه ومن دون إرادة، وأن تُعتبر الحكَّام ملائكة حقيقيين وهي شيئاً من المتاع.

وإنَّ الشعوب الإسلامية وبعد تعطيل طويل لشعورها بذاتها الحضارية، وانتمائها الكريم للإسلام العزيز، وانفصالها الكبير في مساحة واسعة من حياتها عن خطِّ هذا الانتماء، وذلك بفعل السياسات الطاغية الباغية التي سلكت بالأمة طريقاً غير طريق الإسلام بدأت ولجهد رساليِّ متواصل، وأحداث إسلامية ضخام لا تخفى يعود لها الشعور بالذات الحضارية الكريمة، والانتماء الأصيل لأعظم دين يعتني بالحقِّ وروح العزَّة والكرامة، ويقدر الإنسان أحسن تقدير.

هذا في وسط عالمي بدأ رفضه لظلم الحكومات الذي عانى منه طويلاً يشتد متعاضماً معبِّراً عن نفسه بأساليب متفاوتة منها صالح وغير صالح، عقلاني وغير عقلاني، عادل وظالم.

وهذا الواقع الجديد في بعده المتصل بالأمة، وبعده العالمي يخلق حالة من المفارقة والتباعد المتسع بين ما عليه الأنظمة الرسمية الظالمة، والغطرسة التي تتصف بها وما عليه الشعوب من إحساس مرٍّ بالظلم، والتهميش، والإهانة، وسلب الحقوق، والسُّحق، والمحق.

وعودة شريحة واسعة من الأمة الإسلامية إلى شيء من أصالتها ومفاهيم دينها وقيمه، والتمسك بالعرزة الإيمانية التي يوحىها، والحقوق الإسلامية والوطنية والإنسانية التي قررها يجعل المسافة بين تفكير الحكومات - والتي تصر على الاستثناء، والجشع، ونهب ثروات الشعوب، والمتاجرة بها، واسترخاض قيمتها، ومصادرة رأيها وكلمتها، ومضايقتها في أمور دينها ودنياها والسياسة العملية المركزة؛ لتنفيذ كل هذه المساوئ، وبين الحالة المتنامية لوعي الأمة وإحساسها العميق بذاتها وكرامتها، وإيمانها الشديد بحقوقها - مسافة شاسعة تزيد تباعدًا كل يوم؛ لتتفاقم بصورة مستمرة ومتصاعدة من كل المشاكل والأزمات المترتبة على هذا التباين.

والأنظمة الرسمية عاجزة عن أن تعود بالأمة عن خطّ وعيها، وشعورها بذاتها وقيمتها وأصالتها إلى الوراء، وعاجزة كذلك عن تصحيح نظرتها لطبيعة العلاقة بينها وبين شعوبها من أنها علاقة الراعي لحقوق الشعوب المؤمن لها، الساعي في الحفاظ عليها وتثبيتها، وليست علاقة القويّ الناهب للضعيف، والمتسلط الغاشم المستحلّ لكل شيء من أسيره، والسيد المطلق بالعبد الذليل.

وهل تعتمد الحكومات إلى أن ترحل شعوبها، أو تقضي عليها، وتستبدل عنها غيرها من شتى بقاع العالم لتبقي على سياستها؟

لو استطاعت لفعلت، ولو فعلت ما استقام لها أن تستمرّ على سياستها، لأنك لا تجد شعبًا واحدًا من الشعوب المتحضرة بمستوى البهائم أو العبيد والإماء لا يرفض الظلم والذل والهوان.

وماذا بعد ذلك؟

ليس شيء من بعد ذلك إلا أن تُدّل الأنظمة الرسميّة من سياستها، وتعترف بحق الشعوب وحرّيتها وإنسانيتها وكرامتها، وأن ليس لها أن تحكم إلا بصفة النيابة عن الشعوب، والنيابة لا تتم إلا بالرضا ابتداءً، وعلى مستوى الاستمرار.^(١)

آثار الانقطاع بين الأطراف المشتركة

إذا تهدمت الجسور تنسى الأطراف في غمرة الشك، وفقد الثقة والشعور المضاد مقتضى وحدة الدين والوطن، ومصلحة الحاضر والمستقبل المشتركة، ولا يبقى إلا التفكير في النصر الموهوم، وهزيمة الآخر التي لا بد أن ينكشف أنها هزيمة للجميع، وأن الربح النسبي الذي قد يحققه هذا الطرف أو ذاك كان يمكن أن يتحقق بلا خسائر فادحة تطال الدين والإنسان والأرض بلا استثناء لطرف لو لم تتحطم الجسور، وكان الخيار التفاهم.^(١)

المواجهات الداخلية

وإذا كانت حياة الأوطان لا تتحمل المواجهات الخارجية بصورة دائمة، فهي أقل تحملاً - بكل أطرافها - من المواجهات الداخلية الصاعدة لودامت.

والمواجهات الداخلية أمر مذاقاً، وأشدّ إنهاكاً، وأصعب إرهاقاً، وأسوأ نتائج، وأبقى على التخريب وتحطيم الجسور، والناس رسميون وغير رسميين منهم من يخطئون الظن بحملهم الأصوات الداعية إلى العقل والحكمة والعدل والحق، وتغليب لغة الحوار على أنها إنما تنطلق من شفقة على النفس، وخور في الداخل، وتعلق بالحياة، وربما كان من أصحاب هذه الأصوات الداعية للإصلاح، وتحكيم لغة العقل والحوار من هم أسخى بأنفسهم للحق من الكثيرين، والصبر على الظن السيئ من الآخرين في هذه الموارد محتاج إلى مبدئية وإخلاص وعزيمة، وهو ضرورة لصالح الأمم والأوطان والشعوب.

ولا بد منه ما أمكن أن تسمع النصيحة، ولم تقضِ الضرورة بأمر آخر لا تستقيم بدونه الأمور، ولا يرضى الدين إلا به، وهي حالات تحدث في مجتمعات الدنيا، ولا يكون منها مفرٌّ لمخلص من جهة عقل ودين، وكل الذين يعقلون، ويحرصون على سلامة أوطانهم وأمهم أن يحولوا بين واقعهم وبين يوم يتحتم فيه الصدام.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١٩٣) ٢١ صفر ١٤٢٦هـ، ١ أبريل ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (٢٧٤) ١٢ صفر ١٤٢٨هـ، ٢ مارس ٢٠٠٧م.

تقويم العلاقة الفعلية بين حكومات والشعوب

١- الطرف الذي يفترض التحدث فيه بشأن هذا الموضوع هو ظرف التدخل الأمريكي في البلدان الإسلامية عسكرياً، وعلى مستوى الأمن الداخلي، والتربية والتعليم، والإعلام، والاقتصاد، والتوجيه الديني.

وصلت مسألة التدخل الأمريكي في الشأن الداخلي للبلاد الإسلامية إلى الناحية الدينية، إلى التوجيه الديني، ومعاملة الحكومات لشعوبها، وما ينبغي لهذه المعاملة أن تلتزمه من مسارات تضمن الحفاظ على المصالح الأمريكية بأقصى درجة ممكنة.

٢- المطلوب في هذا الطرف مع التزام الحكومات في البلاد الإسلامية بالتفرقة الواضحة بين الإرهاب وبين المطالبة بالحقوق، والعمل على التخلص من طاهرة الإرهاب إذا وجدت أن تتحد صفاً واحداً؛ من أجل الحد من هذا التدخل الواسع السافر الذي يكاد في بعض البلدان أن يلغي دور السلطة القائمة فيها تماماً، كما قد تشاهدونه في حالة باكستان اليوم.

٣- ينبغي أن تسعى هذه الحكومات ما استطاعت للعمل على التنمية الشاملة الإيجابية للثروات والشعوب تنمية ملتزمة بقيم الدين، والخلق الكريم، وأن لا تسمح بتحول هذه الشعوب إلى كمٍّ مهمل تفرض عليه نتائج الإهمال والتسيب غير المسؤول، والخروج من دائرة حركة التاريخ.

٤- لا بد من العمل على استقرار العلاقة الإيجابية بين الشعوب والحكومات وثباتها من خلال أوضاع دستورية واضحة تستكمل بيان الحقوق والواجبات بصورة صريحة تأخذ بموازين الحق والعدل، وتكون مرجعاً للعلاقة بين الطرفين، مصحوباً ذلك بحسن النية في التفسير والتضيق.

٥- مطلوب للشعوب أن تتشقق على المطالبة الدستورية والقانونية بحقوقها بدلاً ثابته عن الأساليب الأخرى.

وهو أمر يتطلب أن تبرهن الحكومات على فعالية هذا الأسلوب وجدواه من خلال الاحترام لهذه المطالبة قطعاً للطريق على تسلسل أي أسلوب آخر يضر بمصالح الأمة جمعاء.^(١)

الفاصلة الواسعة بين الشعوب والأنظمة

الضياغ الفكري والنفسي الذي أنشأه التذبذب بين الحضارة الأمّ، حضارة الفطرة، حضارة النور، وبين الحضارة الوافدة، الحضارة الغريبة، حضارة الظلام، الحضارة المفتعلة.

لم يعد المسلم في أكثره مسلماً، نفسيته منقسمة، داخله يعيش الصراع، ويعاني من حالة الانشطار بين ما هو هدى وبين ما هو ضلال على المستوى الرؤية والمفهوم، وعلى مستوى الشعور، وعلى مستوى السلوك.

العلاج عودة من الأنظمة لشعوبها، وتفاهم بين الأنظمة نفسها ولكن على الخير لا على الشر، وبأن يكون التعاون بينها تعاوناً مما يرضاه الله لا ممّا يسخطه سبحانه. وعودة من الأمة كاملة إلى إسلامها الذي سيصنعها إنساناً أقوم، وأوضاعاً أصح، وحاضراً متقدماً، ومستقبلاً سباقاً.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤٢) ٤ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ١٨ يناير ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (١٥١) ٣ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٢٣ أبريل ٢٠٠٤م.

الباب الثالث

الحكومة والدستور

الدستور واستقرار البلدان

البلدان ثلاثة:

أ - بلد بلا دستور، وحياته السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية محكومة في هذا الحال بقبضة حديدية فردية أو حزبية، أو أنها مُنتهبة للفوضى والاضطراب، فلا بد من دستور.

ب- بلد يحكمه دستور مختلف عليه أساساً ومنذ البداية، والحالة تقترب من حالة عدم الدستورية، والحياة في هذا الفرض تقترب جداً من حياة بلا دستور.

فالمطلوب دستور، وأن يكون الدستور محل توافق وتعاهد بغض النظر عن نسبة ما فيه من عدل وظلم، وإن كان عدل الدستور مطلباً أساساً لا بد منه.

ج- بلد يحكمه دستور هو محل التوافق، وهذه الحالة تُوفر شرطاً أولياً ضرورياً من شروط حياة الاستقرار، وحياة التقدم، وحياة الأخوة.

وكلما كان الدستور المتوافق عليه أقرب إلى العدل وروح الانصاف، وأكثر أخذاً بما فيه المساواة كلما تمتعت حياة المجتمع بلون أكبر من الاستقرار، ومن روح الأخوة والتقدم.^(١)

ولن تجد عدلاً، ولا صدقاً، ولا أساساً لحياة كريمة في أي دستور في العالم يبتعد عن دين الله، والدساتير الغربية والشرقية التي لها نصيب من الإيجابية إنما إيجابيتها بمقدار ما تقترب بطبيعتها من مقررات دين الله.^(٢)

١- ودستور يتأسس ظالماً، فإنه حتماً إلى الفشل، ولا يقوم عليه بناء صالح.

٢- خطبة الجمعة (٢١١) ٤ شعبان ١٤٢٦هـ، ٩ سبتمبر ٢٠٠٥م.

الباب الرابع

الحكومة والقانون

بين الحق والقانون

لا حياة على المستوى الاجتماعي بلا قانون، ولا قيمة لقانون بلا تطبيق، ووجود القانون اسمي لا غير إذا كان تطبيقه على بعض دون بعض في المجتمع الذي شرع له، ولا قيمة لقانون لا تكون قاعدته الحق وقصده العدل، وإنما دعت الحاجة إلى القانون لدعوة الحاجة إلى الأخذ بالحق، وإقامة العدل.

ومن أراد الظلم، فلا حاجة له إلى قانون، لأن منطلق الظلم الهوى، والهوى لا ثبات له على شيء، ولا يخضع للضوابط.

وإذا نادى ظالم بالقانون، فإنما ليتخذ أداة طيعة في مقام التطبيق، يتصرف فيه هواه، ويستعين به على تحقيق ما تشتهيه نفسه، ويفعل منه ما اقتضى ذلك تفعيله، ويعطل منه ما استوجب ذلك تعطيله.

والقوانين التي تولد ظالمة هي قوة تشريعية تُضاف إلى قوة الناب والظفر التي بيد الظالم تثبيتاً لظلمه وترسيخاً له، وتبريراً يزيد من سوءه ومأساته، ومن أظلم الظلم تشريع القوانين الظالمة التي تعطي تأصيلاً للظلم، وتظهره كذباً وزوراً بمظهر العدل وتبرره.

وتتبع الصورة بدرجة أشد، ويتفاحش الظلم عندما يكون الدستور الذي يُعد أصلاً للقوانين الفرعية ظالماً، وصوتاً لاهباً لظهور المستضعفين، وما استقل فرد بوضع دستور أو قانون لشعب أو أمة إلا وكان نظره فيه إلى ما يراه مصلحة له، ولمن هو أقرب من هواه وميل نفسه، وكذلك هو شأن أي هيئة تتولى مهمة وضع دستور، أو قانون.

فالدستور الذي يخلو من مس الجهل والهوى والقصور مطلقاً، إنما هو الدستور المتنزل من السماء لا غير.

وإذا أراد مجتمع أن يدير ظهره لشرعية السماء، أو اضطرت له الأوضاع أن يعتمد على التجربة الأرضية وخبرتها، فإنه لتجنب الحالة الأسوأ لا بد من دستور تُعتمد الطريقة الديمقراطية في وضعه بعيداً عن تحكم فرد، أو جماعة.

واستقلال أي حكومة ظالمة بطبيعتها مخالفة للحق والعدل، ملغية النظر للدين والضمير، وكل أصل إنساني وخلق وكرامة الإنسان، ولا ترى إلا ما تتصوره من مصلحتها، ولا تلتفت إلا إلى مشتهاها، ولا تستهدف إلا بقاءها، والتأكيد على تميزها. استقلالها بوضع الدستور من أكبر ما يبتلى به الشعب أو أمة، ومن أشد أسر لهما، وأقصى إلغاء لإنسانيتهما.

وواضح أنه كلما زاد التمسك بالقانون الظالم، وُبلغ في تطبيقه، كلما ازداد الظلم واشتدت ضراوته، وضاق الأبرياء بالحياة درعاً، وكانت حياتهم شقاء.

وأي قانون ظالم يطالب الناس بالالتزام به، فإنما هي مطالبة بالاستسلام للظلم، وإقراره، ومباركته.

الحق أساس القانون، والقانون الذي لا يُراعي الحق، ولا يتخذ قاعدة له، في حكم العدم، ولا قيمة له في دين ولا عقل ولا ضمير، ولا ميزان المصلحة الحقيقية، حتى المستفيد من هذا القانون الظالم ما يراه استفادة له منه هادماً لمصلحته، يُعطيهِ مآلاً حراماً، كرسياً ظالماً، قوة مختلصة إلا أن ذلك يهدم من ذاته، ويأكل من إنسانيته.

القانون لا يخلق الحق، وإنما يتبعه، وصدق قانونيته من صدق حقانيته.

الحرمة والقداسة والاحترام لا لبنود ومواد صيغت بطريقة قانونية^(١)، وإنما كل ذلك لما تنطق به من الحق، وتثبتته من العدل إن كانت كذلك، وإلا فهي حبرٌ على ورق، بل باطلٌ لا يصح التسليم به والسكوت عليه ما أمكن الإنكار.^(٢)

١- تصوغ لي موادٌ وبنوداً بصيغة قانونية، فتقدمه قانوناً!

هذا ليس بقانون.

السؤال هذه المواد، وهذه البنود قاعدتها حقٌ أو باطل، عدلٌ أو ظلم؟

سمِّه قانوناً، ولكنه الفوضى، وهو الظلم، هو التعسف مادامت قاعدته الظلم.

٢- خطبة الجمعة (٤٨١) ١٣ محرم ١٤٤٣هـ، ٩ ديسمبر ٢٠٢١م.

شروط احترام القانون

الدول لها طريقتان في التعامل مع الشعوب: طريقة تتمثل في أن الأصل هو القانون، والعصا تتبعه وتسند.

العصا؛ من أجل تطبيق القانون، والقانون هو الأصل.

لا غنى لأي حكومة عن عصا، لكن هناك حكومة تعتمد القانون أصلاً، وهما المحافظة على القانون، وتحكيمه في إدارة الأمور.

أما العصا، فدورها ثانوي، ومن أجل تطبيق القانون.

وهناك دول تتجه اتجاهاً آخر، الأصل عندها العصا، والقانون تابع لها، ويساندها، وكلما احتاج إعمال العصا إلى قانون جاء القانون كما تشتهي العصا.

وهناك طاعتان: طاعة عن رضا، وطاعة عن عصا.

وطاعة الرضا عن وعي، وكرامة، وحق هي طاعة الأحرار.

أما الأخرى، فهي طاعة العبيد.^(١)

طاعة الرضا لا يمكن أن تقوم إلا على قناعة، ومن أسباب هذه القناعة أن يكون هناك قانون محترم، يجد احترامه من داخل النفوس.

وحتى ينال القانون الاحترام، ويكون فوق الجميع هناك شروط:

١- أن يكون من جهة محايدة.

والجهة التي هي فوق كل الاتهامات، وكل الشبهات، والمنزلة كل التنزيه عن الميل بغير حق، وعن الجور، والجهل وعن كل سوء ونقص وقصور، إنما هي جهة الله تبارك وتعالى، فحيث يؤمن الناس بأن هذا القانون هو قانون الله، وبعد أن يعرفوا الله لا بد أن ينال ذلك القانون الاحترام من داخل النفوس.

وإذا لم يكن قانون إلهي، وسلك الناس مسلكاً آخر في طلب القانون، فلا أقل من

١- هتاف جموع المصلين ب: (هيهات منا الذلة)، و(معكم معكم يا سجناء).

أجل أن ينال القانون درجة من الاحترام في النفوس من أن يكون متوافقاً عليه، ولو من الأكثرية، وهي الطريقة المأخوذة فيما يسمّى بالدول الديمقراطية حيث تسنُّ المجالس النيابية الشعبية بحق القوانين لتلك البلدان، وكون المجالس النيابية شعبية بحق يعني نزاهة قانون الانتخاب، والعملية الانتخابية بكاملهما.

ب- أن يكون القانون عادلاً.

لو خرج هذا القانون من أصدق هيئة تشريعية نيّة، وجاء خطأً وعن قصور أن القانون جائر، فإن هذا القانون الذي يُكتشف أنه جائر لا يمكن أن ينال الاحترام، وهنا تتدخل قوة العصا وليس احترام القانون في ضبط الأمور لو أريد الاعتماد عليه. إذا أردنا قانوناً عادلاً، فهل يمكن للقانون أن يخلق العدل المجرد كونه أخذ واقع القانون؟

وهل الظلم ينقلب عدلاً بتشريع؟

إذا شرّع أيّ مجلس نيابي الظلم، وجوّزه، وقتّنه هل يكون هذا القانون عادلاً؟ أنت تحجّني بالقانون، ليس لك أن تحجّني بالقانون إلا أن يكون هذا القانون عادلاً، والعدل قبل القانون، وليس القانون قبل العدل، القانون الصالح وليد العدل، وليس العدل وليد القانون.

٣- أن يكون أخلاقياً وواقعياً.

لوجاء القانون عادلاً من كل جهاته، لكن لم يقدر طاقة الإنسان، فهو غير واقعي، وبالتالي فهو غير عادل، لأنّه لم يزن الإنسان أو المجتمع الوزن الدقيق، ولم ينسب تنسيباً دقيقاً بين الأحكام التي يتناولها وبين موضوعها وهو الإنسان.

هذا القانون لا يمكن أن ينجح على المستوى العملي.

قوانين الله تبارك وتعالى لوجاءت فوق طاقة البشر، وتجاوزت حدود المقدور ما كان يمكن أن تُطبّق.

٤- أن تطبقه الحكومات على نفسها.

ونحن نرى أن الاستيلاء على الثروة مخالفة للقانون، أن اقتطاع الأراضي الواسعة مخالف للقانون، أن الفساد المالي مخالف للقانون، أن عدم العدل في التوزيع مخالف للقانون، أن التمييز في التوظيف مخالف للقانون.^(١)

الموقف من القوانين الظالمة

وموقفنا: إننا لسنا مع التمرد ضد مطلق القوانين، ولكن يتوجب علينا القول: بأن علينا جميعاً أن نعمل بكل الوسائل السلمية الضاغطة على إجهاد أي قانون جائر يراد له أن يولد؛ لتثبيت الظلم، وإضفاء الشرعية على الممارسات الباغية، ولإدانة المطالبين بالحق، والمنكرين على الخطأ، وأن نعمل كذلك على إقبار حزمة القوانين التي ولدت وهي من هذا النوع.^(٢)

العلاقة المتوترة بين الشعب والحكومة

هناك حلان لمشكلة العلاقة المتوترة بين الشعب والحكومة:

١- حلٌ يعتمدُ العدل، ويقوم على إنصاف الشعب، ويعيد حقوق المظلومين، ويقتص من الظالم، ويعترف للناس بحريتهم وعزّتهم وكرامتهم، وحقهم في إعطاء الرأي في شؤونهم العامة، واحترام وجهة نظرهم، وألا يُحكموا بإرادة فردية، أو فتوية، أو عائلية، وهو حلٌ يتطلب إصلاحاً واسعاً شاملاً جذرياً، وبصورة عاجلة قبل فوات الأوان.

٢- أمّا الحل الثاني، فيقوم على الإصرار على تكريس الظلم، وفرض الهيمنة الغاشمة، وإسكات الصوت، والاستسلام لإرادة الطرف الآخر.

والأسلوبُ المعتمد لهذا الحل هو الأسلوب الأمنيُّ المتشدد، والمُسقطُ لكل اعتبار ديني، أو خلقي، أو عريفي حميد، ذلك الأسلوب الذي عاث في جنبات هذا الوطن فساداً مدّة طويلة، ولم يُعقّب إلا مزيداً من الغليان، ومزيداً من ترسيخ القناعة بوجوب المطالبة

١- خطبة الجمعة (٣٥٤) ٣ صفر ١٤٣٠هـ، ٣٠ يناير ٢٠٠٩م.

٢- خطبة الجمعة (٢٠٩) ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ٢٢ يوليو ٢٠٠٥م.

والإصرار على الإصلاح، ودفعِ غائلة الظلم ومقاومته.

الحلُّ الثاني وأسلوبه الذي يعتمدُه ساقطان، قد تجاوزهما الزمن، وأفشلهما ربيع التحرُّك العربي المنطلق من رحم الصحوَّة الإسلاميَّة، وهما مُدانان بكلِّ المقاييس الدينيَّة والخُلقيَّة والعقليَّة والعُقلائيَّة، وحسب المواضعات الدوليَّة، والمصلحة الوطنيَّة، وما يُمُتُّ بصلَّة لقيمة الإنسان وكرامته.

الذين يختارون الحلَّ الثاني إنَّما يختارون لهذا الوطن الفساد والفوضى والدمار، وأنَّ يحترق إلى النهاية.

يا أصحاب الحلِّ الثاني

أعدلوا عمَّا أنتم عليه، وكونوا أقرب إلى دين الله، والحقِّ، والحكمة، ومنطق العقل، والضمير، ومصلحة الوطن، والاعتراف بكرامة الإنسان، ولا تشطُّوا كلَّ هذا الشُّطَط، ولا تظلموا كلَّ هذا الظلم، ولا تجنوا الجنون كلَّه.^(١)

الحكَّام وحسن الظنِّ

نقرأ هذا النص من كتاب الإمام عليٍّ (عليه السلام) للأشتر لما ولَّاه مصر:

«اعلم، أنَّه ليس شيءٌ بأدعى إلى حسنِ ظنِّ راعٍ برعيَّته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤنَّات عليهم، وترك استكراهه إيَّاهم على ما ليس له قبْلهم، فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسن الظنِّ برعيَّتكَ؛ فإنَّ حسن الظنِّ يقطع عنك نصباً طويلاً.

وإنَّ أحقَّ من حسنِ ظنِّكَ به لمن حسن بلاؤُك عنده، وإنَّ أحقَّ من ساء ظنِّكَ به لمن ساء بلاؤُك عنده».^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤٨٤) ٥ صفر ١٤٣٣هـ، ٣٠ ديسمبر ٢٠١١م.

٢- نهج البلاغة - خطب الإمام عليٍّ (عليه السلام) - ج ٣، الصفحة ٨٩.

الحاكم العادل في شعبه، المحسن لهم، الساهر على مصلحتهم، الأمين على الثروة العامة، لا يدخله سوء الظن بالشعب، فلا يجد في نفسه ما يدعوه للتوجس منه، والتخطيط ضده، والعمل على إضعافه، وإخافته، بل إنه بمقدار ما يُحسن في معاملة الشعب، ويعمل في سبيل مصلحته يكبر ظنُّه بشعبه، وتتمتُّن ثقته فيه؛ فيجد الفرصة الكافية للتفكير في التطوير النافع للأوضاع العامة والتقدم بها، وفي حماية حدود الوطن من أخطار الخارج ومفاجآته.

أمَّا الحاكم الظالم المسيئ لشعبه، فلا بدَّ أن يسوء ظنُّه به، ويرى فيه عدوًّا له مما يجعله يعمل على إنهاكه والإضرار به، وتفكيك كلمته؛ ليأمن جانبه، ويطمئن لاستسلامه، وفقده القدرة على مقاومته.^(١)

١- خطبة الجمعة (٤٨٦) ١٩ صفر ١٤٣٣هـ، ١٣ يناير ٢٠١٢م.

الباب الخامس

الحكومة والممارسة الحكومية

الممارسة الحكومية تتمثل في تطبيق أحكام الشأن العام المأخوذة من الدستور، والقانون الوضعي أو الشرعي على موضوعاتها بعد تشخيص هذه الموضوعات.

فالحكم لا بد أن يتحدد عند الحاكم، وهذا الحكم إما أن يكون مصدره الشريعة، وإما أن يكون مصدره مصدرًا آخر من التشريعات الوضعية.

الممارسة الحكومية وتحديد الأحكام

قد يختلف الخبراء - خبراء الدستور، وخبراء القانون - مع الحاكم في معرفة الحكم، في تحديد الحكم، فأَيُّ رأيٍ محكَّم هنا؟

رأي الحاكم، أو رأي المحكومين؟

حين يختلف خبراء الدستور على فهم معين - بغض النظر عن كون الحاكم عادلاً أو ظالماً، وأنَّ ادِّعاءه هذا الفهم المعين ادِّعاءً يقوم على الفهم الصحيح، وعلى الموضوعية والإخلاص، أم كان هذا الادِّعاء ادِّعاءً فارغاً، وله منطلقاته الشَّخصية الأنانية الأخرى -، فإن حكومته تقتضي أن يكون المأخوذ به في مجرى العمل هو فهمه لا فهم آخر.

الحاكم له مستشارون، وله خبراء، وقد يختلفون معه، ولو كان هو نفسه خبيراً دستورياً، فهل عليه أن يتنازل عن رأيه، ويأخذ برأي الآخرين في الفهم، أو أنه له أن يُحكِّم رأيه؟

واضح جداً من خلال منصب الحاكمية أن لو اختلف الخبراء مع الحاكم الذي هو خبير دستوري أيضاً في الفهم الدستوري، فإنَّ المُحكَّم سيكون هو فهمه الدستوري، وكذلك لو لم يكن خبيراً دستورياً، وكان له خبراء دستوريون، فإن حاكميته - وبغض

النظر عن ظلمه، أو عدله - ستعطيه أن يُحدّد الرأي من بين الرأيين المختلف عليهما بين الخبراء الدستوريين، أو القانونيين.

الحاكم حين يكون فقيهاً، وحكمه على أساس الشريعة، ويختلف رأي الفقيه الآخر معه، أو حين يختلف الفقهاء على الرأي الفقهي بين فريقين، ويكون هذا الفقيه الحاكم من أحد الفريقين بأي رأي سيأخذ؟

بأي رأي يصح أن يتعبّد؟

لا بدّ أن يكون أخذه برأيه، ولن يعوّل على الرأي الآخر في الحكم.

فهذه المسألة الأولى مسألة تحديد ما هو الحكم، تحمل فهماً معيّناً للحكم والبناء عليه، البناء على الحكم في فهم معيّن، إنما يرجع إلى الحاكم بمقتضى حاكميته لا إلى المحكوم.

تشخيص المصالح والمفاسد للحكم

ثمّ يأتي دور تشخيص المصلحة والمفسدة، دور تشخيص الموضوع، أن الظروف الموضوعية تقضي بالحرب، أو تقضي بالسلم، تقضي باستمرار الحرب، أو تستدعي الصلح والهدنة.

حين يكون اختلاف على الموضوع، ما معنى الحاكمية؟

لا معنى للحاكمية إلا أن يكون المُحكّم في تشخيص الموضوع من موضوعات الشأن، من موضوعات القضايا المتعلقة بالشعب والأمة للحاكم نفسه.

أما حين يختلف رأي الحاكم في الموضوع ورأي المحكومين، وتكون الحاكمية لرأي المحكومين، فمعنى ذلك انقلاب النسبة، بأن يكون الحاكم محكوماً والمحكوم حاكماً.

هل يُمكن حين يختلف التشخيص على الموضوع أن تُحكّم كل الآراء؟

معنى ذلك أن تكون عندنا حكومات بمقدار أفراد الشعب، أو بمقدار الأحزاب، وبمقدار الفئات والجمعيات، ومعنى ذلك الفوضى، والحرب، وغرق السفينة.

فمن تجنّب الفوضى، وتجنّب الاحتراب في أي مجتمع من المجتمعات لا بدّ أن تكون هناك فئة واحدة حاكمة، أو فرد واحد حاكم على اختلاف المشارب، وحاكمية هذا الفرد، أو الجهة، أو قيادة فرد، أو جماعة لأمة، أو لشعب، أو لحزب لا يمكن أن تعني إلا أن يكون لهذه الجهة أو لهذا الفرد الرأي الأخير فيما هو الحكم، وفيما هو الموضوع من موضوعات الشأن العام.

الحكومة وآلية اتخاذ القرار

والحكومة - دائماً - أيها الإخوة، فيما يُرى هي حكومة فرد معين، أو حكومة فرد على البديل، أو حكومة ثلاثة من تسعة على البديل، أو أربعة من اثني عشر على البديل - مثلاً -.

أمّا أن يكون الحاكم النبي ﷺ، وهي حكومة فرد - طبعاً - وهي ليست حكومة هوى، حكومة الفرد قد تكون حكومة هوى، وقد تكون حكومة دين وحكومة من عبد خاضع لتشريع إلهي معين، وحكومة النبي ﷺ حكومة فوق الهوى، وهي حكومة دين وتقوى وعقل ومصلحة جازمة.

هذه حكومة فرد معين.

أمّا حكومة الأغلبية لو كان هناك مجلس حكم، وليس فرداً، فكيف سيكون الحكم؟ قد يكون الحكم حكم الأغلبية المطلقة، وأن زيادة فريق بواحد على الفريق الآخر يعني أنّ له الحكم، وأن رأيه هو الرأي الذي تتحرك على ضوئه القوة الخارجية، تخضع له كل الوزارات، يخضع له الجيش، تُوضع كل الإمكانيات في سبيل تحقيقه وتنفيذه على من يرضى، ومن لا يرضى.

حين يكون الفريق الحاكم تسعة أشخاص، فيصوّت خمسة في اتجاه، ويصوّت أربعة في اتجاه آخر، معنى ذلك تعارض أربعة (نعم) مع أربعة (لا)، وتساقط الأربعين.

تعارضاً تساقطاً، وبقي التاسع، فالحكم في الحقيقة لمن هنا؟

للصوت المفرد التاسع.

ولو كان الحكم بأغلبية الثلثين، فلنفرض أن هؤلاء تسعة، صوّت سِتَّة في اتجاه، وصوّت ثلاثة في اتجاه، فالتصويت ثلث في مقابل ثلثين، تساقط ثلاثة (لا) مع ثلاثة من سِتَّة (نعم)، وبقيت ثلاثة فقط، فصار الحكم لثلاثة، فحقُّ الحكم للأقلية وليس للأغلبية، وإن كانت قد تحصل غالبية ساحقة في بعض الموارد.

الحاكم الفرد إمّا أن يكون حاكمًا هزيلًا في عقله، هزيلًا في نفسيّته، حاكمًا غير عادل، فيكون الترجيح - دائماً - للأخس، وإمّا أن يكون المعصوم، أو يكون مالك الأشر، أو سلمان الفارسي وهو في قَمّة الإيمان من بعد المعصوم عليه السلام، فهنا سيكون الترجيح دائماً بيد الأكفأ، والأحسن.

وبالنسبة للديمقراطية لأنّ الترجيح لواحد على البديل، فمرة يتمثّل في أشر التسعة، ومرة يتمثّل في أكثر التسعة خيراً، وحين يكون الترجيح بالثلثين، فمرة يكون الترجيح للثلاثة المتأمرين على الأمة، وأحياناً يكون الترجيح للثلاثة المخلصين للأمة، فالترجح بالبديل فيه مخاطرة شديدة، ومغامرة، وقد يحكم أخس الآراء، وقد يحكم أحسن الآراء.

أمّا حكومة الفقيه العادل الخبير الذي اختارته نخبة الفقهاء، والذي أيده إسناد الأمة، وبيعة الأمة، فلا بدّ أن يحفّ نفسه بمستشارين وخبراء، وسينقسم هؤلاء في العادة إلى رأيين أو ثلاثة، والترجح هنا بعد الموازنة والمقارنة والدراسة الموضوعية المتأنية إنما سيكون بيد أكفأ الآراء، وأعدل الآراء، وأرجحها.^(١)

الباب السادس

الحكومة وإدارة الحكم

إنَّه من أجل تقدم هذا المجتمع، من أجل رقيِّه وسعادة أبنائه، من أجل حاضره ومستقبله، من أجل دينه ودينه، ومن أجل إسهاماته الخيرة في حركة الرشد العالمي لا بدَّ من:

١- الاقتراب بالحياة الفردية والأسرية، والحياة الاجتماعية العامة من قيم السماء، وأخلاق الدين وثقافته وأحكامه، وإلا فإن اهتزاز هذه القاعدة لا يتيح لنا إقامة بناء مستقر مأمون، ولا حياة كريمة إنسانية رابحة.

٢- نبذ مبدأ العنف من جهة الحكومة والشعب معاً.

٣- تقيد الحكم بمبدأ العدالة الشاملة لكل مرافق الحياة التي تدخل في اختصاصاتها.

٤- أن تبقى الدولة والشعب كذلك مسألة الاختلاف المذهبي في دائرة الرأي والعبادة، من دون إعطائها أي بعد اجتماعي، أو سياسي، أو اقتصادي، من دون إثارات صاخبة وأساليب تثير الفرقة، وتؤجج روح الانقسام في الساحات الأخرى.

ولا شكَّ أنَّه ممَّا ينقص هذا الأمر التهييج الطائفي على مستوى الصحافة والخطابة، وكتب التكفير التي توزع في المساجد، والمؤسَّسات، ومن خلال البريد!!

وإذا قوبلت هذه الكتب بمثلها اشتعلت فتنة بين المسلمين داخل أوطانهم، وضاعت فرص البحث عن الحقيقة في صخب الإعلام المتهور، وذهبت حرمة الأنفس، والأموال، والأعراض وهي الكارثة الكبرى.

٥- الأخذ بمبدأ الحرية الذي تنادي به الضرورة الإنسانية، ويتطلبه تقدم الحياة، وتأذن به الشريعة السمحاء، ولا يحده إلا ما حرم الله من المنكرات والخبائث، والتساقل ومحقق الحق.

٦- الخروج بالمواطن من دائرة الضغط للضرورات المعيشية من مأكل ومسكن وملبس ومنكح، بتوفير احتياجاته من الحلال في هذه الدائرة، إضافة إلى تمكينه من فرص العلم النافع والخبرات البناءة، ودفعه على طريق نمو الإنسان، وعمقه الفكري والروحي، وتنقيح إنسانيته وإنسانيه الآخرين.

٧- التأسيس لاقتصاد قوي وعادل نظيف لا بد أن لا يدخل في وسائله هدم الجانب الروحي والخلقي عند المواطن، ولا يستتبع هذه النتيجة الوخيمة من خلال طبيعة مشاريعه، فيؤدي إلى إنهاء خلقي عام وفوضى اجتماعية، ويناقض بواقعه الساقط كرامة الإنسان، ودوره ورسائله الكبرى في هذه الحياة، وينحرف بمسار الأمة عن اتجاهه الرباني الكريم القويم.

٨- بناء حركة علمية شاملة تتلاقى مع هدى الإيمان، وفاعلياته، وأنشطته التي ينبغي أن تغمر الساحة كلها، وترشد معطيات الحركة العلمية في مقام الاستفادة والتطبيق؛ لتخريج الشخصية الصالحة والمجتمع الصالح.^(١)

قواعد من الحكمة الإداريّة

وتطبيقاً للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف أوجه هذا النداء لدولنا الإسلامية من غير تخصيص:

أولاً: التأسيس لعلاقات الوفاق الداخلي في أي بلد، وبعيداً عن تأثيرات الوضع العالمي وتقلباته، لا ينفصل مطلقاً عن التأسيس لعلاقات سياسية عادلة.

ثانياً: قد تنفق الدول على الإقناع الإعلامي بالعدل، إضعاف ما تنفق على تحقيق العدل نفسه، وترتكب من الصعوبات للأول إضعاف ما يتطلبه الثاني، على أن عدل ساعة يحقق من الإقناع بهذه الصفة، ما لا تحققه الدعاية الإعلامية لسنوات، ممّا لا يلبث أن يتبخر في لحظة واحدة.

١- خطبة الجمعة (٣١) بتاريخ ١٦ شعبان ١٤٢٢هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠١م.

ثالثاً: الأقلية أو الأكثرية غير الحاكمة، وخاصة تلك التي تمد يد التعاون مرة بعد الأخرى، وتبرهن على وفائها لوطنها المشترك، لا ينبغي أن تُبنى سياسية الوطن على الحذر منها والشك فيها، فإنَّ مَنْ قالت مواقفه في الأزمان - الواحد تلو الآخر -: إنه الذي لا يُسلمك، وإذا طالب لا يطالب إضراراً وتعنتاً - ولذلك يبدي التعاطف والمباركة عند أول بادرة من حسن النية -، لا يصحُّ في ميزان العدل والإنصاف إلا أن تتخذه أخاً ووعوئاً، فيكون تخطيطك معه، واحتراسك لك وله، لا منه مما يشعره أنه مشكوك منبوذ.

رابعاً: العلاقات السياسية العادلة كفيلة بأن تجعل الأقلية أو الأكثرية الحاكمة في أي بلد إسلامي أو غير إسلامي أمنها أمناً للحكم، وتقدمها تقدماً له، وقوتها دعماً لقوته، لأنها في ظل العدل في العلاقات السياسية المقننة على مستوى الوطن كله من غير تسميات طائفية وعرقية، وما إلى ذلك سيكون شعورها بالمواطنة والمصلحة الوطنية العامة قوي الحضور والفاعلية من غير أن يتولد لديها شعور الصراع على المصالح المتعارضة.

خامساً: الحكومة في أي بلد محتاجة إلى الأمن، وهي تبحث عنه والشعب في أي بلد محتاج إلى الأمن على نفسه، هذا محتاج للأمن على وجوده، إلى الأمن على عرضه، على ماله، على شرفه، على دينه، على دنياه.

الأمن ليس محتاج من طرف واحد، وإنما الأمن محل الحاجة من كل الأطراف، وهذا الأمن ليس له من طريق أقصر، ولا أقدر على الإيصال، ولا أقل كلفة، من طريق العلاقات المقننة المستقرة العادلة، فإذا ما وجدت هذه العلاقات مع حسن النية والوفاء في التطبيق الخارجي في كل قانون قانون، فحينئذ نكون جميعاً في بلداننا الإسلامية كلها قد عثرنا على الطريق الأكثر إيصالاً، والأقل كلفة، والأضمن بقاءً، للعلاقات الاجتماعية المستقرة، وللوفاء والوئام والإنسجام، فهل تفعل الدول الإسلامية، فتكون بذلك قد وفرت على نفسها كثيراً من الراحة، وكثيراً من المال، وكثيراً من المال، وكثيراً من النصب والتعب والشكوك، يكفي.. يكفي.. نصف العدل عن أضعاف ما تبذله الدول للإعلام؛ للإقناع بالعدالة، الذي صار يجابهه بوعي كبير من الشعوب، فلا تخدع الشعوب ساعة، إلا وتفيق بعد ذلك.

سادسًا: على كل حال الأمن والاستقرار، وليس بما هو الأمن والاستقرار، وإنما بما هو مقدمة للتقدم، وبما هو مقدمة للرفق.

مطلوب من الدول الإسلامية، وعلى الحكومات أن تثق، وعلى الشعوب تثق، بأن الأمن الداخلي لن يعثر عليه شعب من الخارج، ولن تعثر عليه حكومة من الخارج، مصنع الأمن والاستقرار داخلي، وعلى أيدي المواطنين كلهم حكومة ومحكومين، ومن غير ذلك لا يكون أمن ولا استقرار.^(١)

سابعًا: ويُخطئ أي نظام يحكم أي بلد من داخله أو خارجه في ظل تنبّه الشعوب على الحقوق، ورفضها لحياة العبودية للإنسان حين يتصور وهو يمارس الظلم للشعب أنه سيقبله من دون أن يُقلق، وسيرهقه من دون أن يُرهق.^(٢)

ثامنًا: إدارة المجتمعات المسلمة لا يصح أن تكون بالعقلية المادية الصرفة التي تدار بها المجتمعات الكافرة، وأن للمجتمع المسلم حاجاته وأولوياته المتميزة، وتجاوز هذا الفارق بين مجتمع الكفر والإيمان يعني الاصطدام بالواقع الذي تعبّر حاجات الروح من خلاله عن تواجدها وقوة حضورها في مجتمعات الإيمان والفضيلة.^(٣)

تاسعًا: الحكم على الأفراد والجهات والسلطات إنما هو بالأفعال لا الأقوال، فمتى يكشف المخادعون عن أنفسهم بالقول الصريح؟!

ما من دولة من دول العالم إلا وتتحدث عن العدالة!

بوش في حملته المحتملة يقول: إنما يشن الحرب؛ من أجل الأخلاق، ومن أجل الديمقراطية التي تنقذ الشعوب!!

الأقوال كلها تتجه للتبرير، كلها تتجه؛ لتلميع شخصية الفرد، شخصية الجهة، شخصية الدولة، والحكم للأفعال.

الحكم على عمر بن سعد بعد أقواله الإسلامية لموقفه لا لأقواله.

١- خطبة الجمعة (٤٨) ١٦ ذوالحجة ١٤٢٢هـ، ١ مارس ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (٩٨) ١٢ ذي الحجة ١٤٢٣هـ، ١٤ فبراير ٢٠٠٣م.

٣- خطبة الجمعة (١٤٦) ٢٧ محرم ١٤٢٥هـ، ١٩ مارس ٢٠٠٤م.

يزيد ما كان يتكلم كلامًا غير إسلامي في الغالب، إذا كان يتكلم كلمة غير إسلامية ففي حدود بطانته، أما على العلن إعلامه كله يعلي من شأن يزيد من ناحية إسلامية. فعلينا أن لا نصوغ شخصية أي دولة، وأي جهة في نفوسنا من خلال إعلامها، وإنما ننظر - دائماً - إلى المشاريع إلى المواقف.^(١)

وطننا.. كيف نجعله كما نحب، وكما يمكن؟
نحب أن يكون وطنٌ تقدُّمٌ لا تخلف، وطنٌ محبةٌ لا عداوة، غنى لا فقر، تعاون لا تنافر، أمن وسلام لا خوف وقلق واضطراب.

لكن كيف نجعله كما نحب وكما هو ممكن؟
فإن جعل وطنٍ وطنٌ محبةٌ لا بغضاء، تقدم لا تخلف... إلخ، شيء ممكن.
على طريق هذا الإمكان، وعلى طريق صناعة وطنٍ من هذا النوع، يُحتاج إلى:
١- دستور متوافقٍ عليه.

فالمجتمع الذي يقوم على تعادل الحقوق والواجبات يحتاج إلى دستور.
والدستور الذي يضمن علاقاتٍ منضبطةٍ تسمح ببناء مجتمع التقدم لا بد أن يكون متوافقاً عليه.

فدستورٌ بلا توافقٍ كلا دستور.

فالحاجة قاضيةٌ بوجود هذا الدستور حتمًا.

٢- عقليةٌ سلمية عند كلٍّ من الحكومة والشعب.

فحين تكون عقلية الحكومة عقلية حرب، لا يمكن بناء هذا الوطن.

وكذلك حين تكون عقلية الشعب عقلية حرب لا يمكن أن يكون هذا الوطن.

لا بد أن تسود العقلية السلمية عند الحكومة وعند الشعب.

وإذا تكررت الاختراقات من جانب الحكومة أو الشعب، صنعت عقلية حرب،

١- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

وأبعدت الوطن عن العقلية السلمية.

تتحول العقلية من عقلية سلمية إلى عقلية حربية بتكرار الاختراق من هذا الطرف أو من ذلك الطرف.

٢- تقديم الوطن والمواطن.

ويعني تقديم الوطن والمواطن أن هذا الوطن في اهتماماتي قبل الأوطان الأخرى. أنا مسلمٌ وإسلامي يحتم عليّ أن أكون منفتح الأفق، واسع الهم، ممتد الرؤية إلى كل شبر، وإلى كل حبة ترابٍ من الوطن الإسلامي الكبير. ولكن مع ذلك، المسؤولية المرتبطة بالأرض المسؤول عنها قبل غيرك أكبر من مسؤوليتك عن الأرض التي يولي غيرك اهتمامًا أكبر بها.

فتقديم هذا الوطن على غيره فيما لا يضر بمصلحة المسلمين العليا، ولا يعني كيدًا بالوطن الإسلامي الكبير، ولا تساهلاً في حقّه، ولا تأمرًا عليه هو ما نعينه بتقديم الوطن. وكما أن علينا أن نقدم الوطن على غيره، حسب الضابط المذكور.

كذلك علينا أن نقدم المواطن على غيره.

فثروة هذا الوطن للمواطنين أولاً، فرص العمل في هذا الوطن للمواطنين أولاً، كل الامتيازات هي للمواطن أولاً.^(١)

٤- مواطنون من درجة واحدة.

لكي نبني الوطن المطلوب، لا بدّ أن يكون كل المواطنين من درجة واحدة، بلا تقسيم حسب العائلة، أو حسب الطائفة، أو حسب الانتماء القومي، وإلا فخيال أن نبني وطن المحبة، ووطن الائتلاف والتعاون، ووطن التقدم، ووطن الاستقرار.

٥- عقلية إصلاحية لا هاجساً أمنياً.

كيف تدار الأمور؟

١- كلام سماحة الشيخ هنا كان في سياق الحديث عن شأن داخلي في البحرين.

مرةً تدار الأمور بعقليةٍ إصلاحيةٍ مخلصه، ومرةً أخرى تُدار على أساس الهاجس الأمني، وقد أدار الهاجس الأمني دفّةً البلاد لمدةٍ طويلة، فكانت نتائجه وخيمة، محطمة، ممزقة، كارثةٌ على الجميع.

فلنجرب - ولو مرةً واحدة - أن تدار الأمور بعقليةٍ إصلاحيةٍ بعيدةٍ عن الهاجس الأمني الذي يصل إلى حد الهوس.

والإصلاح يوفر الأمن.

والذي يضاد الأمن حينما يكون إصلاحٌ حقيقيٌّ سيكون شاذًا، وسيكون مرفوضًا من الجميع، لأنَّ تحركه سيكون ضد مصلحة الجميع.

إذا عاش الشعب نتائج الإصلاح، ولمسها لمس يدٍ، فإنَّ مَنْ يتحرك ضد الإصلاح، فسيتحرك الشعب كله ضده.

فالإصلاح يوفر الأمن، ولكن الهاجس الأمني يهدم الإصلاح، ويفسد الأمن، ويحل محله الخوف والقلق والفوضى، وقد فعل لسنواتٍ طويلة، وأقام الدرس تلو الدرس، وأعطى البرهان بعد البرهان على خطورة نتائجه.

الهاجس الأمني معناه شكٌّ، ويقابل الشك شكٌّ.

ومعناه توجسٌ، ويقابل التوجس توجسٌ.

ومعناه كيّد، ولا يُقابل الكيّد إلا بالكيّد.

ومعناه تأمرٌ، ولا يُقابل التأمّر إلا بالتأمّر.

هذه نتائج الهاجس الأمني.

لقد أدار الهاجس الأمني الأمور لمدةٍ طويلة، وجرب مرات ومرات، وفي بلدانٍ كثيرة، وأثبت فشلًا ذريعًا خاصةً في الآونة الأخيرة.

فلنجرب الإدارة من منطلق روح الثقة والإصلاح.

الإصلاح يؤلّد الشعور بالثقة المتبادلة، ويؤمن موقفًا شعبيًا عامًّا متعاطفًا، بل مساندًا ومناصرًا.^(١)

تقديم المصلحة الشعبيّة

«وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمّها في العدل» العدل للجميع
«وأجمعها لرضا الرعيّة، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصّة، وإن سخط
الخاصّة يغتفر مع رضا العامة».^(٢)

لا بدّ من تقديم المصلحة الشعبية عند التزاحم.

الكلمة عن أمير المؤمنين عليه السلام تطرح ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: أن يكون حكم الله، ورضا الله هو المحور دائمًا.

القضية الثانية: إنّ هناك بطانة، وهناك رسميين، وهناك وزراء، وهناك وكلاء،
وهناك محيطين بأي حاكم من الحكام، هؤلاء مصلحتهم نسميها (المصلحة الخاصة)،
والمصلحة الشعبية هي (المصلحة العامة).

فتوجد مصلحتان، وقد تنهافت المصلحتان.

اكتراش الخاصة، وتضخم الخاصة ماليًا يكون - دائمًا - على حساب العامة،
وبسرقة عرق العامة، وثرورات العامة.

لا بدّ من عدل، لا تظلم الخاصة لصالح العامة، ولا تظلم العامة لصالح الخاصة
في حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذا كان تزاحم بين المصلحتين، فالمنشأ في الأغلب هو طمع الخاصة، وإذا كان
المنشأ في التزاحم والتهافت والتناقض هو طمع الخاصة، فلا بدّ أن يقلم ظفر هذا
الطمع، ولا بدّ أن يشاح عنه بالوجه عن مصلحة الخاصة رعاية لمصلحة العامة.

١- خطبة الجمعة (١٧٥) ٦ شوال ١٤٢٥هـ، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م.

٢- المصدر السابق نفسه.

التَفَتُّوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ

أمير المؤمنين عليه السلام حين كتب عهده إلى مالك الأشتر، لأنه لم يذع في إذاعة، ولم يشهر في حينه في جميع الأمصار، وإنما كان سياسة حكم صادقة لا تراعي إلا وجه الله سبحانه وتعالى، وهذا يختلف كثيراً عما عليه حكومات العالم اليوم حين تذيع برامجها الإصلاحية، فهي تزيعها إعلامياً ولتأييد الرأي العام، أما على مستوى التطبيق، فالله أعلم كم يطبق من وصايا الحكام حتى لو أخلصت.

تقول الكلمة لأمير المؤمنين عليه السلام في العهد لمالك الأشتر: «وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق...»^(١).

يعني الأمر الذي يتوسط طريق الحق بحيث لا يميل شعرة عنه، فإن الميل عن وسط الحق فيه خطورة الوصول إلى طرف الباطل، معنى أن يكون الأمر في وسط الحق، أنه متغلغل في قلب الحق لا يحمل شعرة من الباطل، ولا ذرة من الباطل أبداً.

«وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل...» العدل للجميع «وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة»^(٢).

وهنا درس سياسي لمالك الأشتر، لكل الحكام.

الذين يطلبون رضا الخاصة حماية للكرسي واهمون مخطئون.

رضا الخاصة - الذي ينسف برضا العامة، ويذهب رضا العامة - هذا ليس فيه ضمان لبقاء الحكم، وإنما فيه تهديد للحكم.

الذي يمثل ضماناً لبقاء الحكم هو رضا الرأي العام، هو رعاية المصالح الشعبية العامة، وليس أن يكثرش نفر قليل بحرمان الآخرين، وفي قبال ذلك حرمان الآخرين وجوع الآخرين.

١- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٣ ص ٨٦.

٢- المصدر السابق نفسه.

ما يتطلبه بقاء الحكم أن يراعى الرأي العام، ولكن في ظل المقدمة التي قدمها أمير المؤمنين عليه السلام وهي رعاية العدل، والتزام وسط الحق؛ الرأي العام ليس سيداً عند أمير المؤمنين عليه السلام، لا رأي الخاصة بآله، ولا رأي العامة بآله، إنما الإله إله واحد حق، وأمر الله سبحانه وتعالى.

وأمر أمير المؤمنين - الذي هو من أمر رسول الله، من أمر الله سبحانه وتعالى - أن تراعى مصلحة العامة عند التهافت والتناقض لما سبق أن منشأ هذا التهافت هو طمع الخاصة.

إشكال جانبي

قد يعترض على استعمال كلمة (الرعية) عند أمير المؤمنين عليه السلام، فكأن الحكم الإسلامي يستهين بعقول الناس بعقول الفلاسفة، بعقول المفكرين السياسيين، بعقول النخبة المثقفة، يسميهم أمير المؤمنين عليه السلام رعية.

الجواب:

أولاً: في مسألة إمرة المؤمنين، فإن سائر الناس هم دون الحاكم، فلاسفة كانوا، مثقفين كانوا، أيّاً كانوا، على الأقل المعدل الوسطي للحاكم - حتى بعد المعصوم - في الإسلام بلحاظ ما تتوفر عليه أبعاد شخصيته يجب أن يكون أعلى من الآخرين، هو ليس الأكمل في كل شيء لكن المعدل الوسطي لأبعاد شخصيته لا بد أن يكون هو الأكثر تقدماً أما إذا نظرنا إلى المعصوم عليه السلام فهو سيّد كل الفلاسفة، وسيّد كل الحكماء، وأكبر شخصية في الأرض.

الجانب الآخر: فالرعية من الرعاية، الرعاية من الناحية السياسية، ومن ناحية الحقوق، من ناحية التربية على المنهج الحق والحاكم لا يربي أفراداً إنما يربي أمة، والحاكم لا يحكم أفراداً بمقدار ما يحكم الهيئة العامة للأمة، والوجود الكلي للأمة، الوجود الاجتماعي وليس الوجود المجموعي.

ففي الحقيقة تربيته تكون للوجود الاجتماعي أكثر منها للوجود المجموعي، وإن كان الوجود المجموعي تربيته عبر تربيته للوجود الاجتماعي.

والأمة شخصية اجتماعية اعتبارية أو قريبة من الاعتبار إلا أنها في شخصيتها الاجتماعية قاصرة لا تدير نفسها.

الشخصية الاعتبارية لا تملك أن تدير شؤون أفراد الأمة، وهي قاصرة أمام الفرد الذي هو من أكمل أفراد الأمة.

وليست الرعاية من هنا حط القدر من إنسان الأمة، كيف وأمير المؤمنين عليه السلام والإسلام أساساً، والقرآن يرى الإنسان خليفة الله، ويكلفه الدور الأكبر في الأرض.^(١)

الحكومة وسر الاستقرار

«وإن أفضل قرة عين الولاية استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وأنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاية أمورهم....»^(٢)

يركز النص هنا من أمير المؤمنين عليه السلام على هداية الحكومات إلى سبل الاستقرار، وإلى أكبر سبيل من سبل الاستقرار وهو أن يعملوا على مصلحة الشعب، وأن يكتسبوا ود الشعب من الداخل.

والإعلام المزور لا يكفي لاكتساب ود الشعب، إنما هي المشاريع الحية الفاعلة تقوم على الأرض، وتدخل بالصالح على الناس، وتغير أحوال الناس إلى الأكثر إيجابية، هذا هو الذي يكسب مودة الحكم، ويجعل الشعب كل الشعب قلعة تحمي الحكم، وتزدود عنه.^(٣)

الحكومة في خدمة الشعب

الحكومة التي تريد لنفسها الراحة لا بد أن تفكر في راحة الشعب قبل ذلك.

١- خطبة الجمعة (١٦) بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ٢٠ يولييه ٢٠٠١م.

٢- نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام، الجزء ٣، شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة: الأولى، سنة الطبع:

١٤١٢هـ - ١٣٧٠ ش، المطبعة: النهضة - قم، الناشر: دار الذخائر - قم - إيران.

٣- خطبة الجمعة (١٦) بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ٢٠ يولييه ٢٠٠١م.

والحكومة التي تريد أن تُحترم لا بدَّ أن تبدأ هي باحترام شعبها.

والحكومة التي تريد أن تحاسب الناس على قضية الأمن لا بدَّ أن لا تعمل على تقويض أمن الناس، وأمن هذا الشعب كما هو أمن دم، وأمن معاش، هو أمن عرض وخلق ودين.

الأساس أن تقام الحكومة لأمن المجتمع لا أن تقام المجتمعات لأمن الحكومات، يعني أن المنظور الأول في قضية الأمن هو المجتمع الذي من أجل أمنه وتقدمه تقوم الحكومات، والتي إذا أخلصت لمجتمعاتها كان أمنها من أمن تلك المجتمعات، وضرورة من ضروراته، ولا تتم هذه الملازمة حتى يكون ذلك الإخلاص، وتأخذ الحكومات بالعدل ورعاية أمن مجتمعاتها من كل الأبعاد، ومنها البعد الديني والخلقي والمعاشي، وبعد الحريات الإنسانية الكريمة، ولا تغالط في إعلامها، وتقلب الحقيقة بأن تجعل أمنها هو المحور الذي تضحي من أجله بأمن المجتمع، ولا ترى للحفاظ عليه إلا ظلم الشعب وإضعافه بتمزيقه، واستعداد بعضه على بعض.

إنه إذا أرادت الحكومة أن تتجنب المتاعب، فعليها أن تجنّب شعبها المتاعب.^(١)

الحكومة وتصادمها مع دين الشعب ودنياه

إن بقاء الحكومة والشعب مغرّباً ومشرّقاً لا يلتقيان فيما يتصل بأمر الدين والدنيا نهايتها مأساوية بالنسبة للجميع، فهل تنتظر الحكومة من الشعب أن يدير ظهره لقضايا دينه ودنياه، ويترك لها أن تصنعه كما تهوى، أو يهوى نضر منها؛ ليكون البهيمة المسيرة بلا إرادة للمسلخ أو النار؟!

أو لا تعرف الحكومة أن هذا مستحيل، ولن يكون أبداً؟!

الحق أن على الحكومة أن تلتمس حلاً لهذا التباعد المستمر لا يقوم على وهم الانتظار لانتكاسة شعبية على مستوى العقل والإرادة والدين.

١- خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ، ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

ولن يتسنى لأيّ حكومة في أي بلد من بلدان الإسلام منذ اليوم أن تراهن على سذاجة هذه الأمة، وتنازلها عن حقوقها، وفتور إرادتها الإيمانية، وروح الاعتزاز بالانتماء للإسلام.^(١)

إدارة الخلافات السياسيّة

وإنّ المسيرة السياسية لا يمكن أن تخلو من الخلافات، وإذا كان أي خلاف سيجرد السيف من غمده، ويخربّ العلاقة، ويحدث القطيعة، ويثير حالة التوتر والمواجهات الساخنة، فهذا يعني الفشل السياسي عند الجميع، وتخلف القدرة على مواجهة المشكلات السياسية بنفس سياسي بعيد عن التهديد، والاستخدام الفعلي للغة القوة من هذا الطرف، أو ذاك.

كما يعني خسارة الوطن، وتدمير المصالح الوطنية، وكل النتائج الكوارثية التي تترتب على سياسة استعراض العضلات من طرف أو آخر.^(٢)

فروض ثلاثة

كثيراً ما تتعرّض علاقة الحكومات بشعوبها إلى الاهتزاز والمشاكل المعقّدة، وذلك ليس من فراغ، وإنّما في الأكثر لأسباب موضوعية موجبة تتمثل في الأغلب في التوجّهات السياسية غير العادلة، والتعمُّق والتمدد في الثروة والقوّة على حساب الشعوب، وامتصاص جهودها، وسوء التعامل والقوانين الجائرة التي تنصرف للقوي على الضعيف، وعلى المظلوم للظالم.

والعلاقة بين الشعوب وحكوماتها لها فروض ثلاثة:

١- سياسة القمع والشدّة والعصا الغليظة، وما يدعمها من قوانين تعسفية جائرة، وهي سياسة لا بدّ لها من توليد ردود فعل ساخطة مبكّرة أو متأخّرة، وقد تنتهي إلى تفجّرات خطيرة كما شهده أو يشهده عددٌ من الساحات العربية هذه الأيام إذ الشعور بالذات لا يموت، وصوت الحرية في الكثيرين لا يقهر.

١- خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ، ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (١٥٣) ١٧ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٧ مايو ٢٠٠٤م.

٢- سياسة المراوغة، والوعد الحاملة الكاذبة، والتسويات المستمرة، والتسويات الزائفة، وهذه سياسة إنْ خدعت بعض الوقت، فإنها تسحب الثقة في الأخير، وتنتهي إلى نفس النتيجة التي تنتهي إليها السياسة الأولى.

٣- سياسة الإصلاح والصّدق والإخلاص للشعب ومصالحة، واحترام رأيه ووجهة نظره، والعمل على رفع مستواه، وتوحيد صفوفه وتلاحمه.

وهي سياسة تُعطي تلاحماً بين الشعب، وتلاحماً بينه وبين حكومته، وتوفّر كلّ الجهود؛ لتصبّ في صالح الوطن كلّ وإثرائه وارتقائه، وتقدّمه، وتخلق حالة من الأمن المتبادل، وأن يكون كلّ واحد من الطرفين حارساً للآخر، محافظاً على أمنه الذي هو من أمن نفسه، وعلى مصلحته التي لا تتفصل عن مصلحته.

والحكومات في الأغلب لا يقع اختيارها على هذا الفرض، وتضيّع الطريق، وتدخل الأوطان في المتاعب والمثاهات، وتُذلّ نفسها بالحاجة إلى الاستقواء بالخارج، وطلب الأمن والدعم منه ضدّ شعوبها، وبذلك ترتكب ظلماً للشعوب، وخطأ في حقّ نفسها، ولكنّ المعبر قليل.^(١)

أنواع المعالجات

هناك أنواع للمعالجات:

١- المعالجة الأمنية بالاستعمال المفرط للقوة.

هذا النوع من المعالجة يمكن أن يسكت مؤقتاً، لكنه حتماً يهيئ لانفجارات نفسية قادمة يمكن أن تتسبب في زلازل مدمّرة.

والإفراط في استعمال القوة في نفسه ظلم، وهو في الغالب؛ من أجل تثبيت وتركيز الظلم كذلك.

١- خطبة الجمعة (٤٥١) ٩ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ١٣ مايو ٢٠١١م.

والظلم لا تطيقه النفوس، وإذا أسكت يوماً قهراً، فلا بد أن يُنطق في يوم آخر أصواتاً أعلى على سبيل الانتفاض.

٢- المعالجة السياسيّة الكيديّة الخادعة

هذه لا بد أن تتكشف؛ لتعطي أثراً عكسياً سيئاً جداً، ويُعمق عندئذٍ فقد الثقة، ويصعب الوصول إلى حلّ.

ولا تطول المخادعات، وخاصة في ظل وعي متنامٍ لا يتوقّف تنامياً.

٣- المعالجة السياسيّة الواقعيّة.

بمعنى أن هناك طرفاً آخر شريكاً لي بطبيعة الأمور الخارجية في الحياة على أرض واحدة له ضروراته، وتطلّعاته، وقناعاته، وإحساسه بكرامته، وأن أخذ كلّ شيء، وأحرمه كلّ شيء يتطلّب القضاء عليه نهائياً أو بصورة شبه نهائيّة، وهذا مستحيل بمنطق الأحداث والواقع التاريخي الطويل، والحاضر القائم.

إذاً، فلا بد أن أتفاهم معه، وأنصفه ولو بعض الشيء بما يكفيني متاعبه، هذه هي السياسة الواقعية.

هذا الحل حل فاقد للأخلاقية، خاضع لظرف الضرورة، مشوب بالشك، وقد لا يفجّر وضعاً حالاً، لكن يمكن أن يخلق متاعب مضاعفة بعد حين، ولا تستقر على مثل هذه السياسة الحياة.

٤- المعالجة الإنسانيّة الأخلاقيّة.

هناك طرف آخر يشاركني الإنسانية والضمير والحقّ في إبداء الرأي، وله تطلّعه وكرامته وقناعاته الدينية والسياسية، وهو شريكي في التراب الواحد والثروة الواحدة. وحكم العقل والضمير والإنسانية والخلق الفطري أن أعترف له بحقه وأنصفه.

هذه المعالجة لها درجة من الثبات، ودرجة كبيرة من الفعالية، والأزمات في ظلها قليلة.

٥- المعالجة الدينيّة.

القائمة على النظر إلى الآخر بأنه إما أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق، وأن الظلم حرام على الإطلاق.

والأساس الديني يمثل قَمّة العقل والضمير والإنسانية والخلق الكريم، وكل ذلك رافد له، ومعه في اقتضاءاته السامية النبيلة، مع ما لهذا الأساس من ميزة الإحساس بالقيمة العليا للجزاء الإلهي من الثواب والعقاب، وكونه شديد الضبط والتوجيه لحركة الإنسان إلى المسار الصحيح.

ونتيجة المعالجة الدينية أكبر إيجابية، وأدق عدلاً، وأثبت وجوداً، وأبعد عن الهزات والتخلفات ما دام دين قوي يُرجع إليه.^(١)

علاج الأزمات يتمُّ بعلاج أسبابها

وكلما أتاحت لأيّ وطن أن يتوفر على نتائج تُربح جميع مكوناته وأبنائه عن الطريق الأسير والأسهل، تحتمُّ الأخذ بهذا الطريق، وكان في ذلك رحمة من الله تبارك وتعالى للجميع.

ولا يجوز التفريط بطريق كذلك، والتعدي عنه إلى الطرق المكلفة بما لها من نتائج سلبية ضخمة قد تترتب عليها على مستوى الخاصة والعامة.

والعدل، والإصلاح، والإعمار، والمساواة، والحفاظ على الكرامة، وإعطاء كل ذي حقّ حقه إذا توفر ابتداءً أغنى، وإلا كان التفاهم هو الوسيلة الأولى من بين كل الوسائل المتاحة للوصول إلى ذلك، والأخذ بها هو المقدم كلما كان له أن يحقق هذا الهدف.

والتفاهم مسؤولية الطرفين: الحكومة، والشعب.

١- خطبة الجمعة (٣٥٩) ٨ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، ٦ مارس ٢٠٠٩م.

ودور الحكومة أن تفتح باب التفاهم الصادق، وأن تعطي له قيمة عملية إنتاجية مقنعة، ودور الشعب أن ينصف في تثمينه نتائج الحوار والتفاهم، ويعطي رد فعل مجانس لها قولاً وعملاً، وأن لا يعدل عن هذا الخيار أبداً كلما انفتح بابه، وبدأت بشائر عطائه العملية الصادقة.

هناك أزمة، وتداعيات للأزمة، الأزمة تتعلق بالجانب السياسي والحقوقى، والتداعيات احتجاجات، مظاهرات، ممارسات أخرى هذا من جهة، وتشديد في القوانين وزيادة عددها على طريق التضييق والمصادرة للحق، ومطاردات وملاحقات وسجن ومحاكمات وإدانات، هذا من جهة أخرى، ومخاطر جمّة، ومتاعب كثيرة تلحق الجميع.

والتخلص من كل التداعيات يتطلب التخلص من أساس الأزمة، والطريق المرشّح بدرجة امتياز لازمة لهذا الهدف هو الحوار والتفاهم الذي لا يجوز تعديّه مع إمكانه، وجديته، وفاعليته، وجدواه.

وهذا أمر لا يختلف عليه متدينان، ولا يختلف عليه عاقلان، والمفروض فيه مدان، والمسوّف فيه مقصّر، والمحبط له بإسقاط جدواه، وتقريغه من نتيجته، وجعله عقيماً وصورياً واستهلاكياً وتخديرياً، مرتكب شنيعة بتئيسه من نفعه، وفتحه الباب للبدل السيئ الذي يفتح على الوطن كله باب شرّ، ومحرقة، ومهلكة.^(١)

اجتناب التعصّب

التعصّب للباطل لا يُبقي لصاحبه سمعاً ولا بصراً، وهناك من يتعصّب ابتداءً للحقّ، ثم يخرج به تعصّبه عن حدود الحقّ ومقتضاه، ويتحوّل إلى عصبية للذات، يضيع بها النظر للحقّ، والتقيّد به، وتتصبّ الرؤية عنده على رضا النفس، وتكون الاستجابة لهواها.

والتغالب السياسي الديني من أشدّ ما يدعو للتعصّب الأعمى.

١- خطبة الجمعة (٣٦٥) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، ١٧ أبريل ٢٠٠٩م.

والبقاء فيه مع الحق ولو كان ذلك التعصّب لله ابتداءً يحتاج إلى نفوس عالية، شديدة التورّع، والتقوى.^(١)

ولذلك لا يعجب الإنسان من حالات الانفلات الإعلامي المسرف في البعد عن الأخلاق والدين في هذه الصراعات ممّن لا يرون وراء الدنيا وزينتها شيئاً آخر، أو لا يحضر لهم من ذلك أيّ شعور.^(٢)

أدب الخلاف

الخلاف لا بدّ منه في البيت الواحد، وفي المؤسسة الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية الواحدة، وفي الدوائر الأخرى من عالم الاجتماع في حياة الناس، وقد تختلف أنت مع نفسك، وقد اختلف أنا مع نفسي.

أنا هذه اللحظة على رأي وخاطرة، ثم ما أن تمر لحظة واحدة، حتى يكون لي الرأي الثاني، ولا يكاد يكون مخرج في أي من هذه الدوائر من كل أنواع الخلاف، وإن أمكن التقليل من ظواهره وأثارها.

فالتفكير ينصب كثيراً على الالتزام بأدب الخلاف، وكيفية تطويقه، والتقليل من أثاره، وسد أبوابه الحاضرة، والاحتراس من منافذه المستجدة بقدر الإمكان، ولا يصح بحال أن يُتّجه للتأجيج، وإشعال الفتن، وصب مزيد من الوقود على النار.

ومن أهمه أمر نفسه، فليهمه أمر غيره، وهو يركب معه في سفينة واحدة.

ولئن كانت المسافة بعيدة في الانتقال من مجتمع الفوضى إلى مجتمع الاستقرار، فإن المسافة قصيرة جداً؛ للانتقال من مجتمع الاستقرار إلى مجتمع الفوضى، وشيئ يسير من المواقف المثيرة والكلمات الاستفزازية من هذا الطرف أو ذاك كافٍ جداً لأحداث نقلة عاجلة بالمجتمع من الأمن إلى الخوف، ومن الاستقرار إلى الاضطراب، ومن التلاحم إلى التشرذم والتمزق الشنيع.

١- «أهدنا الصراط المستقيم» (الفاتحة: ٦)، الهداية على الطريق المستقيم ليس طلباً للهداية الابتدائية فحسب، وإنما هو طلب للهداية الاستمرارية كذلك.

٢- خطبة الجمعة (٤٨٨) ٣ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ٢٧ يناير ٢٠١٢م.

الثقة بين الشعب والحكومة

إذا كان الجميع حريصًا بصدق على أن يكون وطنُ الجميع ووطنُ أمان، وتقدم ورخاء، ومودة واحترام، وحرية إنسانية عالية واستقلالية، فلا بدَّ من عدل ومساواة وحياة قانونية منصفة، وإشعار جادٍّ بالأخوة، واعتراف بالكرامة، من جهة.

ومن الأخذ بأساليب الحوار، والتمسك بلغة الدين والقانون في المطالبة بالحقوق، وعدم التعدي في الكلمة، وعدم الظهور بمظهر استفزازي قد يثير الظنون بالتساهل في أمر الوطن من جهة أخرى.

إنَّ حسن ثقة الشعب بالحكومة يحتاج إلى مواقف إيجابية تدفع إلى ذلك، وكذلك هو الأمر في حسن ثقة الحكومة بالشعب.^(١)

الحبُّ يحتاج إلى ثمن

الحب لا تصنعه القوة والإكراه، إنما يصنعه العدل والإحسان حتى في دائرة العلاقات الرَّحْمِيَّة.

الأب لا يستطيع أن يملك قلب ولده لو لم يرَ منه إلا الغلظة، ولو لم يرَ منه إلا الظلم، ولو لم يرَ منه إلا الإهمال.

والأب قد لا يبقى على حبه كله مع ولد عاق، فإذا كانت العلاقات الرَّحْمِيَّة لا تقاوم من أجل الاستمرار والمتانة سوء المعاملة، والتفريق والظلم، فإنَّ هذا يأتي تمامًا في علاقة الشعوب مع الحكومات.

فكلما كانت الحكومات عادلة ومنصفة، وتقوم مشاريعها على المساواة، وتبرهن على الأرض بأنها حكومة للجميع.

١- خطبة الجمعة رقم (٧٥) ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ، ٦ سبتمبر ٢٠٠٢م.

ومن مسؤولية الحكومة أن ترفع مصالح الجميع؛ كلما كان ذلك كان سبباً في زرع المودة والمحبة والألفة والثقة.

ومن جانب آخر كلما كان الشعب متعقلاً، وكلما كان حكيماً في تصرفاته، وكلما كان منضبطاً في خطواته العملية، ويراعي المصلحة الوطنية العامة، ويستفيد من منافع القانون والقنوات الدستورية والأعراف العامة من دون لجوء إلى العنف كلما كان ذلك أقرب إلى إحداث التآلف، والأقرب إلى الإيصال إلى الحلول المطلوبة.

أؤكد أن الحب يحتاج إلى ثمن.

حبّي لك يحتاج إلى ثمن منك وهو أن تتعامل معي تعاملًا حسنًا، وحبك لي يحتاج إلى ثمن وهو أن أتعامل معك تعاملًا حسنًا.

إذا نظرت إلى صاحبي نظرة الاحترام ونظرت لي نظرة الازدراء، فسيكون فرق بينما يحمله قلب أخي لك، وبينما يحمله قلبي^(١)

١- خطبة الجمعة رقم (٨٢) ١٨ شعبان ١٤٢٣هـ، ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٢م.

الباب السابع

الحكومة والسياسات العامة للحكم

أصعب عمل

كلُّ عملٍ إماريٍّ ببناءٍ صالحٍ يحملُ تحدّيًّا، وصعوبةً تواجه وعي الإنسان، وخبرته، وإمكاناته، وإرادته، وصبره.

ومن أصعب هذا العمل ما اتصل بتصحيح مسار المجتمعات وتربيتها، والارتقاء بما هي عليه من أوضاع، ومن أصعب الصعب في هذا المجال التصحيح السياسي، ومعالجة أدواء السياسة وحل مشكلاتها، والأخذ بها على الطريق الصحيح الذي لا غبن فيه، ولا أثر، ولا زيف، ولا مؤامرات، ولا طاغوتية ولا شر.^(١)

أنماط السياسات

١- هناك سياستان، سياسة دنيوية وسياسة أخروية.

ولا أعني بالسياسة الأخروية التي تنصرف بالإنسان للآخرة عن الدنيا، وإنما هي تلك السياسة التي تعمّر الدنيا، وتصلح الدنيا، وتنتشر الأمن والسلام في الدنيا، وتحوّل الدنيا إلى جنّة من حيث ربطها بالنظر إلى الآخرة، وتأسيس الحركة فيها على أساس من القيم الإلهية العليا العادلة.

وأما السياسة الدنيوية، فهي التي تقتصر حركة الإنسان في الأرض في إطار شهوات الطين، وتحول الحياة صراعاً مريئاً على هذه الشهوات والملاذات الساقطة، وتستبيح كل جرم في سبيل الشهوة واللذة المحرّمة.

السياسة الدنيوية لا تتورّع عن فعل أي شيء في سبيل مصالحها المادّية، لا عن زرع روح الاقتتال والفتن المدمّرة، ولا عن أي جريمة أخرى تمر بخاطر الإنسان.

١- خطبة الجمعة (٣٢٦) ١٧ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٣ مايو ٢٠٠٨م.

هذه السياسة تجيد إشعال الفتن، واختيار توقيتها، ولها موظفوها المعدون لمثل هذا الدور، كما أن هناك شرطة، كما أن هناك جنداً، كما أن هناك وزارات مالية وداخلية وغيرها، كذلك هناك طابور خاص يعمل على إشعال هذه الفتن حسب السياسة المرسومة لهذا النوع من الأنظمة في أي أرض كانت.^(١)

مثال:

هذه السياسة والأنظمة تكره الوجوديين والعاملين على التقريب، وتخطط ضدهم، وترميمهم زوراً بالدور الذي تمارسه.

وموظفوها للتفرقة يمكن أن ينقلبوا إلى دعاة وحدة، ويحاولوا أن يمسخوا الخواطر، ويدأوا الجروح؛ لأغراض وحدة اصطناعية مؤقتة تخدم أغراض السياسة التي ينتمون إليها.

أما دورهم الأصيل والرئيس، فيتمثل في بذر بذور الفتنة وإشعالها.

والمبدئيون يرون دعوة التقريب والوحدة واجباً دينياً، ولا يعدلون عنه بفاعلات السياسة الدنيوية غير المتحرّجة.

والسياسة الدنيوية قد تستعمل لغتين في عرض واحد: لغة الوحدة، ولغة الفرقة.

هناك من يتحدث بلسان الوحدة، وعادة يكون هؤلاء هم الساسة الكبار ووجوه السياسة الحاضرة في أي أرض، وهناك فريق آخر هو فريق الذبول والصحفيين المأجورين، والذين يتحدثون بلغة الفتنة والطائفية.

ولغة التفرقة تحتاج في نجاحها إلى أجواء ساذجة، وشعوب غير واعية لا تميز بين قلم يكتب لله، وقلم يكتب للحكومات.

نعم، لغة الفرقة مما تلعب به الحكومات لعب الأطفال بالنار التي ربما أول ما تحرق أصابع لاعبيها.

١- خطبة الجمعة (٢٣٢) ٢٥ محرم الحرام ١٤٢٧هـ، ٢٤ فبراير ٢٠٠٦م.

ولو أفاقت الشعوب إلى ما وراء اللعب بهذه النار لصَبَّتْ جام غضبها على كل لاعبيها.

وقد تحاول هذه السياسة أن تضبط جرعات الطائفية، وزرع الفتنة إلى الحد الذي يخدم أهدافها، بحيث لا يتجاوز حتى يصل إلى حد إحراقها، إلا أنها لا تستطيع هذا التحكم في كل الأوقات، وقد يتسع الخرق على الراقع، وأول ما قد تفعل الفتن الطائفية أن تطيح بأنظمة عاتية.^(١)

٢- هناك سياستان: سياسة تنطلق من حساب المصالح، وسياسة تنطلق من منبع القيم.

والمصالح مصالح ظاهرية حسب علم الإنسان، ومصالح حقيقية يعلمها الله تبارك وتعالى.

المصالح التي تقابل القيم هي المصالح من النوع الأول، أما المصالح الحقيقية فتلتقي - تمامًا - مع القيم، فإن كل الأحكام الشرعية أحكام تنطلق من القيم، وتتوفر على حساب دقيق بالغ الدقة للمصالح والمفاسد.

فحينما نقارن بين المصالح والقيم لا نقابل بينها بلحاظ المصالح الحقيقية، وإنما بلحاظ ما هو من المصالح الظاهرية، وحسب علم الإنسان.

فكثيرًا ما تتقابل وتتعارض المصالح قصيرة الأمد، المصالح الظاهرية، والتي تهدم مصلحة الإنسان الحقيقية مع القيم.

أما المصالح الحقيقية التي يعلمها الله، فهي تلتقي مع القيم، وتلتقي القيم معها. فالسياستان اللتان نعينهما هما: سياسة تنطلق من المصالح الدنيوية الظاهرية، وحسب العلم القاصر، والحسابات غير الدقيقة للإنسان.

والسياسة الأخرى هي سياسة تنطلق من حساب القيم والمصالح الحقيقية التي يعلمها الله، وتقوم عليها كل شرائعه، خذ هذا الانقسام من جهة.

١- خطبة الجمعة (٢٣٢) ٢٥ محرم الحرام ١٤٢٧هـ، ٢٤ فبراير ٢٠٠٦م.

ومن جهة أخرى: إنه لا أرض، ولا وطن بلا فوارق، ما من مجتمع إلا وفيه فوارق، فوارق دينية، فوارق مذهبية، فوارق قومية، فوارق قبلية، مجتمع الأسرة فيه فوارق، وهي الفوارق الشخصية، وفيه مصالح دنيوية قد تلتقي، وقد لا تلتقي حتى بين الأخ وأخيه.

سياسة المصالح، وهي تتطلق وراء هذه المصالح الدنيوية الذاتية لأصحاب السياسة، تقوم على استغلال الفوارق، والفوارق بين الناس - دائماً - موجودة، فليكن سكّان الأرض من مذهب واحد، لكن تبقى بينهم الفوارق القبلية، تبقى بينهم الفوارق الطبقية، تبقى بينهم الفوارق المهنية، ما أكثر الفوارق بين الناس!!

السياسة الدنيوية المصلحية دأبها أن تستغل الفوارق وتستثيرها، وتخلق الصراع بين أهل هذه الفوارق؛ من أجل بلوغ مآربها.

سياسة القيم تختط خطاً آخر، تحاول أن تعالج آثار هذه الفوارق، توجّهها، تحدث التكامل في الأدوار على أساسها، تجمع الجهود من مختلف الخطوط؛ لتصب في مصلحة الجميع.

هناك مثالان:

أ- سياسة القيم نستطيع أن نجد موقفها من الفوارق في مؤاخاة رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

كان فارق كبيرة بين المهاجرين والأنصار، حروب قامت بينهما، وكان بإمكان رسول الله ﷺ؛ من أجل أن يثبت قدمه في المدينة، أن يحابي قبيلة على حساب قبيلة، يحابي القبيلة الأقوى - مثلاً - على حساب القبيلة الأضعف أو العكس؛ من أجل أن تسود كلمته، لكن سياسة القيم اتجهت اتجاهاً آخر، فأخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وأحدث تنسيقاً في العلاقة الاجتماعية بين اليهود من سكان المدينة وبين المسلمين.

أما سياسة المصالح والتنافس على الدنيا، فنجد لها مثلاً في فرعون، وكيف استعبد بني إسرائيل للطرف الآخر، وأذلّهم، وأحدث شرخاً اجتماعياً، وهوةً سحيقة بين فئتين من المجتمع بحيث يتيح له ذلك أن يستعين بفئة على فئة أخرى، وقبل ذلك قتل قاييل

هابيل من منطلق حساب المصالح الدنيوية وحبُّ الأنا الأعمى.

والعراق نموذج حديث من نماذج سياسة المصالح في توالي حكومات علمانية، أو شبه علمانية على هذا البلد المسلم العريق، كرّست فيه الشعور بتقادم المصالح الطائفية والقومية.

والعراق ليس هو النموذج الوحيد في هذا المجال، وإنما أكثر بلداننا العربية والإسلامية داخلية في أمثلة سياسة المصالح، حيث لا تجد بدلاً إلا وتعشش فيه المشاعر الطائفية، المشاعر القومية، المشاعر القبلية، المشاعر الطبقيّة، وكل بلد على فؤة بركان بيد حكومته أن تفجّر هذا البركان في أي لحظة من اللحظات إذا اقتضت مصلحتها السياسية ذلك.

ب- سياسة المصالح تضطهد فئة لحساب فئة، طائفة لحساب طائفة، قومية لحساب قومية، قبيلة لحساب قبيلة.

تحرم من حقوق المواطنة بل قد تسلب المواطنة نفسها بأن تشرد وتطرد فئة من الشعب، لكن كل ذلك لا يقضي على حنين المواطن لوطنه، ويبقى حنين المغرّبين، وحنين المشرّدين إلى أوطانهم نابتاً كما هو في القلوب والنفوس.

وكم قاسى الإخوة المؤمنون في العراق، كم قاسوا في بلاد المهجر؟!

كم هم الملايين الذين شرّدهم النظام الصدامي؟!

ولكن بقى حنين العراقي إلى وطنه، وبقت أمنيته أن يعود إلى الوطن.

فأولئك كاذبون كاذبون كاذبون، وهم الذين يقولون: بأن مواطناً أصلياً يُمكن أن يخون وطنه، وخاصة إذا كان على إيمان.

نعم، من لم يكن على إيمان لم يقوَّ حبُّ ارتباطه بالوطن أن يصمد أمام مصالحة الدنيوية، فقد يخون وطنه.

أمّا المؤمن، فيأبى له إيمانه، بل يستحيل عليه في ضوء إيمانه، ويشق عليه من خلال

حب وطنه أن يمسّ وطنه سوء^(١).

٣- هناك سياستان: سياسة الإنسان، وسياسة القطعان - قطعان الغنم -.

الإنسان مستوى غير مستوى الغنم والبقر، بهيمة الأرض تتقمم، وتلتهم أي شيء يسد جوعتها بلا أن يدخل في حسابها حساب القيم والدين والشرف والكرامة.

أما الإنسان، والإنسان المسلم بالخصوص فهو في لحظة تعارض بين الجوع، بين القتل، بين المرض، بين التشرد، وبين الدين، لا يختار إلا الدين.

الإنسان المسلم عندما يقف بين خيارين: إمّا أن يعيش عيشة البهائم بلا عزٍّ، ولا كرامة، ولا عفة، ولا شرف، ولا دين مكترشاً، شبعاً، ممتلئاً، متخماً، وإمّا أن يحتفظ بدينه على جوع ومسغبة، وعلى خوف على ماله ونفسه.

إنه يختار الدين زائداً الخوف والفقر، على الشيع زائداً عيش الخسة والسقوط والرذيلة.

وسياسة الشعوب الغربية التي قد أفتعت على خلاف ما هي عليه من إنسانية لا يصح أن تساس الشعوب الإسلامية على طريقتها.

الشعوب الغربية لها إنسانيتها كما هو الشعب المسلم، لكن تلك الشعوب قد مرزمن، وتناول الزمن على إقناعها بأنها أجساد فقط، وبأن الهمم الوحيد لها ينصبُّ على البطن والفرج والظهر، وركز في نفسها أن الجد الأكبر قرد، وأن البنين لا يزيدون كرامة على الجد الكبير.

فإذا كانت السياسة المادية، وسياسة إشباع البطون من الفروج سياسة تليق بالغرب، فهي سياسة لا تليق بالمجتمع المسلم.

والإسلام لن يموت، والشباب المسلم يتزايد عدداً وصلابة، والشباب المسلم لن يسمح في يوم من الأيام بأن يُسلب دينه؛ من أجل لقمة عيش.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٣٩) ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، ٢١ أبريل ٢٠٠٦م.

وإذا كان الأمن هو الشيء الأهم، وإذا كان الوثام الوطني والوفاق الوطني هو المطلوب، ونحن نطلبه ونصر عليه ونؤكد عليه، فإن هذا كله لن يحصل أبدًا حين يستهدف الدين، وحين تداس القيم.

فكّلي دعوة جادة ومخلصة للمسؤولين وهم مسلمون، وأبناء تاريخ إسلامي مجيد، وهم ليسوا من أبناء غرب كافر، أو شرق ملحد، هم مسلمون أبناء مسلمين.^(١)

المنطلقات العامة لسياسات الحكم

وهناك منطلقات ودوافع تنطلق منها السياسة في أي بلد:

١- أسس الانطلاقة هنا: دين، أو دنيا، أو هما معًا؟

سياسة تنطلق من قيم دينية تلغي الدنيا بالكامل تنتهي إلى نتيجة، وسياسة تنطلق من دين يحتضن الدنيا، ويصلح الدنيا تنتهي إلى نتيجة أخرى، وسياسة تستهدف الدنيا ولا تقيم وزنًا للآخرة لها نتائجها الثالثة.

٢- والمنطلق هو مراعاة مصلحة الكل، أو مصلحة البعض؟

مصلحة النظام والشعب، أو مصلحة النظام وحده؟

المفكر فيه دائمًا، محل الهم دائمًا هو أمن النظام، أو أمن النظام والشعب؟

هو رخاء النظام، أو رخاء النظام والشعب؟

هو قوة النظام، أو قوة النظام والشعب؟

لا شك أن المنطلقين يختلفان في نتائجهما.

٣- هل تحرك السياسة هنا من قاعدة الثقة في الشعب، أو من قاعدة الشك، ومن

قاعدة المؤامرة، ومن قاعدة سوء الظن؟

إذا كانت الانطلاقة السياسية من ثقة بالشعب، وبمواطنة المواطن، وبجبه لوطنه، وبحرصه على مصالحته، فستنتهي هذه السياسة إلى نتائج، ونوع من الممارسات، وستأتي

١- خطبة الجمعة (٦٣) ٢ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ١٤ يونيو ٢٠٠٢م.

الممارسات على خط من نوع آخر، وستأتي المشاكل الكثر، والاحتياطات الخيالية، والضمانات غير المعقولة لسلامة النظام إذا كان المنطلق هو الشك في الشعب، وأن القاعدة في المواطن هي التآمر.^(١)

الإنصاف والحكم

عن أمير المؤمنين عليه السلام من كتابه للأشتر: «وَشَحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشَّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ وَكَرِهَتْ».^(٢)

نفس الحاكم تحب وتكره، شأنه شأن المحكوم.

والنفس غير المعصومة يأتي عليها أن تكره حقاً، وتُحِبُّ باطلاً، وأن ينطلق حبُّها من هوى، وكرهها من جهالة، وتدفع مع العواطف الاندفاع المجنونة التي تُعطي من غير حق ولا حساب، وتمنع من غير حق ولا حساب، وتقتل بريئاً، وتُبرِّئ قاتلاً مجرمًا.

والنفس المأسورة لهواها لا تَعِفُّ عن شيء يُحَقِّقُ لها المشتى، ولا تنظر فيما اشتتهت أنه من حلال أو حرام، ومن طيب أو خبيث.

ومن هنا يأتي أمر علي عليه السلام لمالك الأشتر، وقد ولَّاه الشأن السياسي العام في مصر - الأمر الذي لا يستقيم إلا بالعدل والإنصاف - أن يرى لنفسه وزناً لا يُهدر بطلب الحرام، ويربأ بها عمًا فيه انحطاطها من أي ظلم، وأي باطل.

ولا تُؤمِّنُ نفس من الظلم في الحكم بين الناس، حتى تُتصفهم من نفسها، فلا تأخذ بشيء ممَّا تُحِبُّ، ولا تدع شيئاً ممَّا تكره، ممَّا في الأخذ به، أو إهماله ظلم للعباد.

وتطبيق العدالة على النفس هو المنطلق الصادق؛ لتطبيقها في الحكم بين الآخرين.

فكيف يعدل من لم يغلب حُبُّه وكرهه إذا كان محبوبه لا يُحقِّقه إلا الانتصار للظالم، وكان مكروهه في الانتصار للمظلوم؟!

١- خطبة الجمعة رقم (٢٣٩) ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، ٢١ أبريل ٢٠٠٦م.

٢- نهج البلاغة ج ٣ - ص ٨٣ - ط ١.

وتثبيتها لهذا الوعي، وتركيزاً له تقول الفقرة الآتية من كتابه ﷺ: «أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلِكَ، ومن لك فيه هوًى من رعيته؛ فإنك إلا تفعلْ تظلم»^(١).

والكلمة لها بُعدان:

البعد الأول: إنَّ مَنْ لم يعرف حقَّ الله تبارك وتعالى، ويُقاض نفسه به، ولا يعطها فرصة لأن تخرج عليه، وهانت عليه مخالفة خالقه ورازقه، ومالكه، ومدبره هان عليه أن يدخل في ظلم الآخرين، ويستسلم لنزعة الظلم، ويُسرف فيه في انقياد غبي لها.

أمَّا من أنصف الله ﷻ من نفسه، وألزمها بأداء حقِّه، وشكر نعمه، فقد أعدّها لقبول إنصاف الناس منها، وإخضاعها للعدل فيما بينه وبين العباد.

ولكون المنطلق؛ لإنصاف الإنسان غيره من الناس من نفسه هو إنصافه لربه سبحانه منها كان لا بدَّ في الحاكم بما يتاح له من قدرة كبيرة، وفرص واسعة للعدل والظلم في شعب كامل، أو أمة واسعة أن يكون مؤمناً صادق الإيمان، تقياً شديد التقوى، عارفاً بحقَّ الله حقَّ المعرفة، راجياً للأخرة، طامعاً فيها، زاهداً في الدنيا مُستعليّاً عليها؛ ليعطي الله ﷻ الحقَّ من نفسه، وليعطي الآخرين حقَّهم منها، وليقيم القسط في الناس، ويعدل فيما بينهم.

البعد الثاني للكلمة الهادية: إنَّ الحاكم الذي لا ينصف الله ﷻ والناس من نفسه بالدرجة الأولى، وبخاصة من أهله من أب، وولد، وزوج، وأخ، وابن عم، وابن خال، ولا من البطانة المقربة منه، المحببة إليه، ومن يراه من أهل الولاء له، فلن يأتي منه أن يعدل بين الناس.^(٢)

وفقرة أخرى من هذا الكتاب للأشتر: «وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم»^(٣) ممَّن تقتحمه العيون^(٤)، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقته من أهل الخشية والتواضع،

١- المصدر نفسه، ص ٨٥.

٢- مَنْ لم يستطع أن يعدل الناس من نفسه وأهله وبطانته، فهو غير قادر على أن يعدل بين المتخاصمين الآخرين.

٣- هناك مَنْ لا يستطيع أن يصل إلى الحاكم، وأفراد الحكومات.

٤- بمعنى: إنها تفترسه العيون، لأنها لا تهابه.

فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه^(١)، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه»^(٢).

عدل الحاكم الحق في كل من يحكم، ولكل من يحكم، فلا ظلم لفقر لعين غني، ولا ظلم لغني لحساب فقير، ولا لقريب لخاطر بعيد، ولا لبعيد لرضا قريب.

ولكن هناك طبقة خاصة من المجتمع كثيرًا ما تتعرض للاضطهاد، وتُبْتَز حقها، وتعيش الضيم، ويُحال بينها وبين وصول صوتها للحاكم في أغلب الظروف.

ليس لها موقع مالي، ولا اجتماعي، ولا علمي يجعل لها وجاهة، ويفتح الطريق أمامها إلى أبواب السلاطين، ومسامعهم.

وبذلك تكون هذه الطبقة الفاقدة للصوت العالي، والعلاقات المؤثرة، والمستضعفة المستهدفة لأصحاب الأطماع، هي الأحوج للإنصاف، وإيصال الحق لها، وحمايتها، واسترداد ما سلب منها.

ولأنها لا تصل للحكومات، وتُحجب شكواها، كان على الحكومات أن تصل إليها؛ للتعرف على أوضاعها ذلك؛ لتُنصَفَ من ذوي الجاه والنفوذ، والمقرّبين للحكم، وليس للتجسس على ما تبثه من تدمرٍ لظلم الحكومات مقدّمة؛ لمؤاخذتها، والتكيل بها.

وأنت خير بأن كلمات عليّ عليه السلام في العدل، وفي كل الفضائل تأتي منتزعة من سيرته المعصومة البيضاء، التي تشف عن روحه المؤمنة، العارفة معرفة علت بها، المنصرفة لله، العاشقة له^(٣).

ولنسأل ما هو الأبقى لأنظمة الحكم التي تحرص على البقاء؟

هل هو خنق حرية الشعوب حتى تتفجر الشعوب غاضبة؟

هل هو التمييز بين إخوة الدين والوطن، وحتى بين الفئات الاجتماعية المختلفة ديناً، أو قوميةً لخلق الفتن؟

١- هناك ربّ لهؤلاء، هناك محاسب، هناك مؤاخذ.

٢- المصدر السابق ص ١٠١.

٣- خطبة الجمعة (٤٧٠) ٢٤ شوال ١٤٣٢هـ، ٢٣ سبتمبر ٢٠١١م.

هل هو تشديد التضييق الديني، والسياسي، والمعيشي على الشعوب؛ حتى تكفر بقيمة الحياة في ظل الأنظمة الضاغطة؟

هل هو في الرد القاسي على احتجاجات الشعوب ومطالبتها بالعدل، والحق، واحترام إنسانيتها، وتمتعها بحقوق المواطنة الكاملة بأريز الرصاص، وهدير المدافع، وقصف الدبابات، وبإسقاط مزيد من الشهداء؟

من تصوّر أن هذا هو طريق البقاء المريح والمستقر للأنظمة الحاكمة، فهو يحاول أن يُصمِّمَ سمَّه عن لغة الواقع القائم، ويُصْغِي لغة أخرى من وحي الخيال، وينسى دروس الحياة الصَّارخة.

وأيُّ حكومة مسلمة لورأت واهمة أن بقاءها مرهون بممارسة الظلم، والقهر، والعسف، والقتل الحرام لكان لها لو انسجمت بعض الشيء مع الإسلام حاجز من إسلامها، وخوف الله من الدُّخول في الظلم فضلاً عن التماذي فيه، والإسراف في دماء المسلمين؛ من أجل بقاء حكمها.

ليس أبقى للأنظمة من أن تتصالح مع شعوبها، وتُصَفِّ الناس من نفسها، وتعديل بينهم، وتُتال مودة من تحكم، ولا يكون ذلك إلا بإعطاء الحقوق، والاعتراف بقيمة الشعوب، وإشراكها في أمرها، بل إرجاع أمرها إليها، واعتبار الشعوب الأصل، والنظر إليهم بما هم أصحاب الثروة، ومحط الاهتمام الإيجابي المخلص للسياسة.

ما نريده لعالمنا الإسلامي والعربي، ولمحيطنا الخليجي ألا يبقى على تخلفه، وألا يُظلم فيه إنسان، ولا تُهمَّش شعوبه، وأن ينتهي فيه التمييز، والتضييق الديني والدُّنيوي، ويعترف للشعوب بحقوقه في ممارسة دورها الإيجابي، وتحديد مصيرها، وألا تكون مجتمعاته مساحة للنزاعات، وصراع الشعوب والحكومات، وألا تنفقت لُحْمَتُهُ، وألا تدخل الحكومات في هذا العالم^(١) في قتال بيني لمصلحة الأجانب.^(٢)

١- في عالمنا العربي والإسلامي والخليجي.

٢- خطبة الجمعة (٤٩١) ٢٤ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ١٧ فبراير ٢٠١٢م.

أنواع السياسات العامة للحكم

أولاً: سياسة العدل وسياسة الظلم

من العدل إيفاء كل ذي حقَّ حقَّه، والمعرفة لكل ذي مقام مقامه، ولكل ذي قدر قدره، ومن العدل المساواة حيث تتساوى الموضوعات والقضايا والأشخاص، ومن العدل الأخذ بالفرق الذي تقتضيه حيث تتفاوت.

وإنقاص الحق ظلم، وخطُّ الأقدار ظلم، والتفريق في موضع المساواة ظلم، وبعض المساواة ظلم، والتقديم والتأخير على خلاف مقتضياتهما الذاتية ظلم، ومن أبشع الظلم.

ولا يدوم حكم بظلم، وما بقي دمر وأفسد، ولا يهدم عدل حكماً، وما بقي العدل عمر وأصلح، وما قامت السماوات والأرض، وما بقيتا كذلك إلا بالعدل، ولو دخلهما الظلم - وحاشا - لما كانت أرض، ولا سماء، ولا شيء.

ولا يتدارك أمر الأمم، والأوطان كالإقلاع عن الظلم، والرجوع إلى العدل.

فحتى لا يخسر هذا الوطن أكثر ممَّا خسر، ولا يتبعثر أكثر ممَّا تبعثر، ولا يأتي عليه الطوفان لا بدَّ من عودة إلى دين وعقل وعدل، والثلاثة من أصل واحد، وجذر متَّحد، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والأخذ بالظلم، والبقاء عليه مكابرة لقانون من قوانين الله، وسنة من سننه التي يقوم عليها الاجتماع الصالح، ومع طول هذه المكابرة يحدث زلزال اجتماعي مدمر يفزع لهوله الصغير والكبير، وتسقط رواسٍ، وتندكُّ جبال ممَّا بنته الحضارات، وبذلت فيه المجتمعات أعمارها الطويلة، وتُسف أوضاع، وتبدل وجوه، وتخفض مرتفعات، وترتفع منخفضات.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٥٨) ١ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، ٢٧ فبراير ٢٠٠٦م.

الحكومة وخيار العدل

وكلمة للحكومة: قليلٌ من عدلٍ يقي كثيرًا من شرٍّ، وفي العدل لا الظلم دوام الملك، والفتنة لا تحمي ملكًا، وإنما تُدمر أوطانًا، وتُهلك الحرث والنسل.

والغلبة في فتن البيت الواحد هزيمة.

والفتنة من الطابع السياسي، وحيث لا تتعداه خطيرة مدمرة.

أما الفتنة السياسية، أو غيرها إذا دخلها العنصر الديني، أو المذهبي، فهي أكثر خطورة وأشدّ تدميرًا.^(١)

العدل هو الميزان

أول ميزان، وأكبر ميزان، وأثبت ميزان، وأصل ميزان، وأصل الموازين كلها العدل، ولا قيمة تتقدم العدل، وهو مقدّم على القيم كلها.

شرط السلوك السويّ القويم، والعلاقات الإنسانية النبيلة المستقرّة العدل، وما مال من سلوك وعلاقة عن خط العدل إلى الظلم كان سوءًا وفسادًا، ومنهيًا إلى خراب، وشقاق، ودمار.

والانتفاف على العدل لا ينسي قيمته، ولا ضرورته، ولا يمكن أن يُطيل التخدير عنه، والسكوت عن المطالبة به حتى عند من كان قابلاً للتخدير.

الإصلاح الحقيقي الجذري السياسي وغيره هو العدل، وكل التخديرات والشكليات لا تغني عنه، ولا تلهي الشعب اليوم عن المطالبة به.^(٢)

سياسة التضييق والتشديد وآثارها المدمرة

الآية الكريمة تقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٣)، الله العزيز الحكيم المالك الحق، العليم الخبير يقدّر أن هؤلاء العبيد المملوكين المحتاجين إليه ليلهم

١- خطبة الجمعة (٢٤٦) ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ، ٩ يونيو ٢٠٠٦م.

٢- خطبة الجمعة (٤٨٧) ٢٦ صفر ١٤٣٣هـ، ٢٠ يناير ٢٠١٢م.

٣- الحج: ٧٨.

ونهارهم، لو شدد عليهم الدين لما أخذ بالدين إلا النادر النادر، ولما كادت تقوم حجة لله تبارك وتعالى على عبده في نفوس الكثيرين، وإن كانت له الحجة البالغة، وكان الحق أن لله تبارك وتعالى أن يملك على هذا الإنسان في مجال إرادته كل حركة وسكون، كما أنه يملك منه في مساحة تكوينه كل حركة وسكون.

يقدر الله وَعَلَىٰ أن العصاة سيكثرون، وأن انفجاراً في النفس البشرية يحصل في الأكثر لو كان هذا الدين قائماً على العسر والحرج، فإما أن يجن الكثيرون، وتتهار أعصاب الكثيرين، وإما أن يتضاعف العصاة في الأرض، فما بالك أيها المخلوق تذهب إلى لا نهاية في التضيق والتشديد، وتحريج الحياة، وخلق الأنفاس، وتتوقع من بعد كل ذلك أن تسلم لك الطاعة، وأن يفقد الناس إرادتهم؟!؟

إنها عجلة، إنه بالون، يتحمل مقداراً من النفخ، ثم إذا زاد نفخ البالون، فلا بد أن ينفجر.

إنه برميل زيت قابل للاشتعال لك أن تضع تحته شمعة، ويمكن أن لا ينفجر، أما إذا أوقدت ناراً متواصلة مستعرة، فإنه لا بد أن ينفجر.

هذه السياسة سياسة خطيرة جداً على كل البلد.^(١)

ثم أنه من أسوأ حالات السياسة أن تُمنع في الظلم والتضييق، وسد كل منافذ الحل، وغلق فرص التدارك، وفي التجويع والترهيب والازدراء والتهميش والإقصاء والاستهداف بأحط أنواع السوء حتى تنطق هذه اللغة العدوانية من الحكومة التي تمارسها للشعب قائلة: هذا فراق بيني وبينك، وأنا عليك ما دمت، فأحم نفسك إن استطعت^(٢).^(٢)

ثانياً: سياسة نشر الكراهية

إذا أردت أن تتعب، وتقلق حياتك، وتدخل في مشكلات لا تحصى، فانشر روح العداوة في أجواء بيتك.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٣٩) ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، ٢١ أبريل ٢٠٠٦م.

٢- فهذه اللغة لا تبقى ولا تذر.

٣- خطبة الجمعة (٤٧٢) ٨ ذو القعدة ١٤٣٢هـ، ٧ أكتوبر ٢٠١١م.

وإذا أردت أن تُحطِّمَ أعصابك، وتسيء إلى نفسك، وإلى مَنْ معك، فبُثْ هذه الروح بين أعضاء مؤسستك.

وإذا أردت أن تُصَبَّ عليك المشاكل صُبًّا، وأن تفقد كلَّ راحتك، وتنتقض عليك الأمور، وتفسد الأحوال، ويعسر الإصلاح، ويمتنع التدارك، فاسمح لروح العداوة أن تأخذ مكانها، وتتمدد في بلدك، وبين أبناء أمتك أو شعبك.

هذه نارٌ بدايتها قد تكون محكمة، ولكن نهاياتها خارجة عن الحكم والتقدير، وعواقبها - دائماً - وخيمة، وفوق حسابات ذوي الحكمة والنظر البعيد، فضلاً عن حسابات المبتلين بقصر النظر.

نشرُ العداوة بين أهل البيت الواحد، المؤسسة الواحدة، الأمة الواحدة، القطر الواحد فيه تضيق جهود، تقويض أمن، نشر فوضى، لعب بالنار، حرق أعصاب، تعطيل حياة.

وكلُّ ذلك يمنع منه العقل والدين والإخلاص والحكمة، وتُلجُّ على الدرع منه المصلحة العامة المشتركة.

والتعب والشقاء داخل البيت الواحد، والمؤسسة الواحدة، والبلد الواحد يستحدثه أيُّ طرف لآخر لا بد أن يعمَّ ويشمل الجميع.

وهذا الكلام ليس إنشاءً إنما هو حقيقة يُحدث بها كلُّ التاريخ، وكل الحياة، والواقع في كلِّ مكان عاش تجربة العداوات الداخلية.

فهل من معتبر، وهل من عبرة وتعاظ؟^(١)

ثالثاً: سياسة زرع الخلافات والفرقة

لقد كانت السلطات السياسية - العباسية - تحقق مكاسب آنية من خلال زرع الخلافات وتأجيجها في الدائرة السنية السنية، وفي الدائرة الشيعية الشيعية، وفي الدائرة السنية الشيعية، وفي مقابل ذلك كانت الأمة تخسر وحدة الكيان، وتقع في فوضى

١ - خطبة الجمعة (٤٤٩) ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٢ هـ، ٢٩ أبريل ٢٠١١ م.

الفتن المحرقة؛ لتأتي الآثار السلبية والانتكاسة في الأخير حتى على السلطات الحاكمة يومذاك نفسها.

تبدأ السلطة الفتنة؛ لتحترق بها الأمة لكن ما أن تلبث حتى تسقط الحكم وتنتهي. وهذا يعلم الأمة أن تتجه خلاف هذا الاتجاه شعوباً وحكومات، أن تنبذ الفرقة، والأعمال على زرع الشقاكات والخلافات، لا من خلال الكلمة، ولا من خلال المشروع العملي، فإن الخلافات في الأمة تحرقها، والحكومة من الأمة، فلا تحترق الأمة إلا ويحترق الحكم.

هكذا يجب أن نتعلم بأن نكون حريصين على وحدة الأمة، عالمنا وعاملنا، والحاكم والمحكوم.^(١)

ونداؤنا: لاتغرقوا سفينتكم الواحدة، ومن يفعل لا بد أنه سيغرق مع من سيغرقون. وليس بيد طرف دائماً أن يثير العاصفة، ويتراجع بها إلى الحد الذي يريد، وفي الوقت الذي يريد.

لا تستطيع هذا التحكم السياسة في موقع الحكم، ولا الموالاة، ولا المعارضة، كما لا يضمن أحد نجاته من محرقة الفتنة الطائفية المجنونة وإن احتوى بقلعة، أو اعتصم بحبل.

وإذا أسس هذا الجيل لطائفية حاكمة، فإن انفجرت - أي هذه الطائفية - أيامه فستحرقه، وإن تأخر انفجارها فسيحترق بنارها جيل لاحق؛ ليلعن سابقه بعد أن يُفنيق على هول الكارثة، وخيانة المؤسسين للفتنة.^(٢)

رابعاً: سياسة أنا والآخر، وأنا أو الآخر

أنا والآخر اعتراف بوجود الآخر، بمصلحته، بحقوقه، بكرامته، بشراكته في المسيرة، وفي رسم المصير.

١- خطبة الجمعة (٤١) ٢٧ شوال ١٤٢٢هـ، ١١ يناير ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (١٩٤) ٢٨ صفر ١٤٢٦هـ، ٨ أبريل ٢٠٠٥م.

حكومة تنطلق من سياسة أنا والشعب، أنا وهذه الفئة وتلك الفئة، هذه حكومة تعترف بشعبها، بمصلحته، بحقوقه، بكرامته، بشراكته، بدوره الفاعل.

تقول: إن عليه واجبات، وله حقوقاً ثابتة.

المنطلق لهذه السياسة قد يكون النظرة الخلقية للإنسان، والنظر إلى الوحدة الإيمانية، الوحدة الوطنية، الوحدة الإنسانية.

يمكن أن تقوم هذه السياسة على الشعور بالوحدة والاشتراك في إطار معين ولو كان الإطار الإنساني.

كما يمكن أن يكون المنطلق لهذه السياسة هو النظرة الواقعية، وأن السفينة الواحدة لا يصلح لها أصلاً أن يلقي أحد الطرفين وجود الآخر فيها، وأن هذا لا بد أن يخلق مشكلة، ويكون تدافع في هذه الحالة؛ من أجل الحياة.

لهذه النظرة الواقعية تتجه بعض الحكومات إلى سياسة أنا والآخر.

هناك سياسة خطيرة أخرى هي سياسة أنا أو الآخر، وهي سياسة تقوم على الشعور بتناقض الوجود، وجودك ووجود الآخر، وتناقض المصالح، وتناقض الحقوق.

والمنطلق لهذه السياسة النظرة الأنانية التسلطية العدائية الاستكبارية.

لا يقف وراء هذه السياسة إلا نظرة من هذا النوع.

وما هو المترشح من هذه السياسة؟

استضعاف الآخر، إعاقة حركته الإيجابية، تجفيف منابع القوة عنده، تهميشه وإقصاؤه، واستغلاله، واستعباده.

السياسة الأولى لها مترشح، والسياسة الثانية لها مترشح، وكل مترشح من جنس السياسة التي يقوم عليها.

فالمرشح الأول اعتراف متبادل، وتنسيق، وتعاون، وتفاهم، وحوار، وتقاسم حقوق وواجبات.

والمرشح الثاني هو الاستضعاف، والإعاقة وتجفيف منابع، والإقصاء، والاستغلال، والاستعباد.

ليت البلاد الإسلامية والبلاد العربية تكثر فيها سياسة أنا والآخر، وتخفُّ سياسة أنا أو الآخر.^(١)

خامساً: سياسة القبضة الأمنية

يصلح أن يكون الحلُّ الأمنيُّ للمشكلات السياسية تعبيراً عن العجز عن الحلِّ، ولا يمكن أن يكون هو الحلُّ، وكيف يكون حلًّا وهو يُعقِّد الوضع، ويوقف حالة التفاهم، ويُبعد بين وجهات النظر، ويزيد في الفواصل، ويُثير النفوس، ويلهب المشاعر، ويغيّب العقل، وينشط حالة الانفعال، ويلهب العواطف المتوجهة؟!

وكما هو ليس بحلٍّ، فهو ليس من مقدمات الحلِّ، لأنَّه مقدمة غير متجانسة مع ما هو الحل الحقيقي، وهو الإصلاح.

الحل الأمني مشكلة في حدِّ ذاته من المشاكل الحادَّة التي تتطلب الإصلاح، وتقرض ضرورته، وتدعو إلى تعجيله.

لئن مثَّل ما يُسمَّى بالحل الأمني حلًّا في النظرة السطحية والقريبة، فهو على العكس من ذلك حسب النظرة المعمَّقة وذات البعد؛ يمثِّل أزمة في حدِّ ذاته تضاف إلى ما هنالك من أزمات أخرى تتطلب الحل وهو في هذه النظرة مشكلة من المشاكل المستعجلة بالغة الضرر.

الحل الأمني يُعاكس الإصلاح الذي هو الحلُّ، ويأخذ مكانه، ويجول دون تحقيقه، بينما الإصلاح للحياة السياسية، ولمختلف مشاكل المجتمعات كالعلاج للبدن يُطلب

١- خطبة الجمعة رقم (٢٤٢) ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، ١٢ مايو ٢٠٠٦م.

التبكير به، ويفقد من قيمته بقدر تأخيرهِ^(١)، ويتعسر أمره كلما انتظر به، وقد لا يجدي، ويفقد فاعليته بطول الانتظار.^(٢)

سادساً: سياسة الانفتاح والإصلاح

جو الانفتاح في حكومة عليّ عليه السلام: «واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا تفرغ فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسًا عامًا، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعده عنهم جندك، وأعوانك من أحراسك، وشرطك؛ حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع».^(٣)

هذا هو الانفتاح الحقيقي، أن تعطى للكلمة الهادفة، للكلمة البناءة، للكلمة الناقدة، للكلمة التي تسلط الضوء على العيوب الإدارية، وعلى المفارقات الإدارية، وعلى نقاط الإجحاف والظلم، وعلى تخلفات القانون العادل والدستور العادل، تعطي لهذه الكلمة الفرصة لأن تقال في جو ليس فيه متابعات ولا ملاحقات، لا ملاحقات أمنية، ولا ملاحقات إعلامية تسقط الشخص وتذيله، وتتهمه بالعمالة، وتقصيه من مواقعه الشعبية بالإعلام المضلل.

الانفتاح عند أمير المؤمنين عليه السلام هذا، أن يعطي للضعيف للإنسان العادي، الفرصة كل الفرصة، بأن يقول الكلمة حرة هادفة بناءة، كل هيئة الحكم، كل مظاهر الهيبة في الحكم، توضع عن هذا اللسان؛ ليقول الكلمة التي تتلجلج على طرفه، وقد يمنع منها هيبة السلطان، وجند السلطان، وسيف السلطان.

جو الانفتاح يعني أن لا تلاحق الكلمة حتى قبل أن تقال، بل لا تلاحق حتى بعد أن تقال إلا أن تخالف أمرًا من أوامر الله، أو تصد عن ذكر الله، وأن تنتهج نهجًا غير عادل، وأن تسيئ إلى الاجتماع، وأن تحدث الفرقة، أما الكلمة المصلحة التي تبين العيب الإداري، فهي كلمة مصلحة جامعة غير مفرقة.^(٤)

١- المريض إذا أخر العلاج ضرره تأخيرهِ، والمجتمع إذا مرض، والمشاكل الاجتماعية أمراض، إذا تأخر حلها، فلا بد أن يضر هذا التأخير.

٢- خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ، ٦ مايو ٢٠١١ م.

٣- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٣ ص ١٠٢، شرح: الشيخ محمد عبده - الطبعة الأولى سنة الطبع: ١٤١٢ هـ - ١٣٧٠ ش، دار الذخائر، قم - إيران.

٤- خطبة الجمعة (١٦) بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ، ٢٠ يولييه ٢٠٠١ م.

أنجح طريق، وأقصر طريق

لكثير من الأوطان مشكلاتها من خلافات داخلية، ونزاعات، ومن هذه النزاعات ما هو صعب، وما قد يكون أضعف ثقة كل طرف في الآخر.

وتختلف الأوطان في مثل هذه الأوضاع، فقد يستمر التصلب، فتتصاعد وتيرة الخلاف والنزاع إلى حد الصراعات المدمرة؛ ليشهد الجميع موسمًا سيئًا من حصاد الكوارث المؤلمة، والخسائر الجمة، والمصير الأسود.

وقد يتدخل العقل والدين والمصالح المشتركة؛ لتوقف التدهور في الأوضاع، وتمنع الانزلاق في مخاطر كبيرة، ويكون في ذلك رحمة للجميع تحفظ بها المصالح، وتدرأ بها الخسائر والمفاسد والنكبات.

وأنجح طريق، وأقصر طريق لحل مشكلات الأوطان - حتى ما صعب منها - هو الأخذ بمبادرات الإصلاح ممن يبدعهم القرار؛ لتخفيف حالة الاختناق الضاغط، والأوضاع السيئة، والأزمات المثيرة، وتبريد الأجواء الساخنة.

فمبادرات الإصلاح إذا جاءت جادة ومخلصة وملفنة تملك قدرة كبيرة على احتواء الأزمات، وهي لغة عملية إصلاحية لا تعدلها لغة.

ولتوقف واحد جاد، وتجربة واحدة صادقة من تجارب الإصلاح العملي ومبادراته الفاعلة لتفوق في تأثيرها الإيجابي، وبناء الثقة، واستعادتها بعد ذوبان سنوات من إعلام الوعود، والإغراءات الكلامية التي لا شاهد لها على الأرض.

ومبادرة من هذا النوع تخلق أرضية صلبة لحوار واصل، وتوافق بناءً.^(١)

معنى الإصلاح

الإصلاح عدلٌ بدل الظلم، مشاركة بدل الانفرادية، شمولية بدل الفئوية والطائفية والقبلية، تثبيت أسس الحضارة الإسلامية الكريمة، وأخلاقيتها الرفيعة، وكل قيمها المرية بدل محاربتها، والتخطيط المضاد لها.

١- خطبة الجمعة (٣٣٩) ٢٠ شعبان ١٤٢٩هـ، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٨م.

إن الإصلاح يبدأ بالخروج من النظرة الضيقة إلى النظرة الواسعة، ومن التوقع في دائرة الأنا إلى الانفتاح النافع على الأمة، والمحيط الإنساني والكوني الكبير، ومن الانشداد إلى الأرض إلى التطلع العقلي والروحي إلى السماء.

لا يكون إصلاح إلا بأن تتغير النفسية، بأن تتغير العقلية، يتغير التوجه، يتغير الهدف، بأن ينفتح أفق الذات، لأن يرنو الإنسان بنظرته إلى علو، بأن يطلب الله، بأن يتجه إلى السماء بدل أن يكب على الأرض.

وهناك محيطان ضاغطان: محيط يضغط؛ من أجل الإصلاح، ومحيط يضغط؛ من أجل بقاء الأوضاع السيئة كما هي! الأول يتصف بسعة النظرة والأفق، والتطلع الراقي.

والثاني ينطلق من الهموم الضيقة، والنظرة الأرضية، وشح الأنا، واختناقها.

في كل مجتمع توجد فئة تريد أن تبقى الأوضاع في موقعها، الأوضاع التي تقوم على نهب المال، تقوم على الغصب، تقوم على السرقة، تقوم على الظلم؛ من أجل البطانة السيئة.

صحفيون في عالم اليوم يتملقون، يريدون دائماً أن تبقى أوضاع الظلم، وأوضاع التخلف كما هي؛ من أجل أن يرتزقوا، من أجل أن تمتلئ جيوبهم بالمال الحرام.

وهناك دعاة للإصلاح لا يرجون من الإصلاح فلساً واحداً، ولا يتطلعون إلى توظيف ولد أو إلى منصب، وإنما قد جبلت أنفسهم على حب الخير.

لا يريدون من الإصلاح إلا أن يروا صورة جميلة، ويروا أجواء سعادة يرقل بها الإنسان، سرورهم أن يسر الإنسان، سرورهم أن يستقيم الإنسان، سرورهم أن يكون عدل، أن تكون مساواة، أن تكون الحياة جميلة مريحة للنفس المتعبة، ولنفس المحرومين والمستضعفين.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٥٩) ٢٩ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ١٨ يونيو ٢٠٠٤م.

إصلاح الأرواح أولاً

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١)، المطلوب من الإنسان مجتمعاً وحكومة، المطلوب من الإنسان فرداً وجماعة أن يتحمل مسؤولية مهمة الإصلاح في الأرض، ويتفرغ لمسؤولية الإعمار الصحيح الزكي الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، هذه هي المهمة الصحيحة، وهناك أمم وهناك شعوب، وهناك حكومات تتخلى عن وظيفة الإصلاح، وعن وظيفة الإعمار.

وأول ما ينبغي أن يعمر ويبنى ويزكى هي النفس البشرية، هو ضمير الإنسان، هو قلبه، هو عقله، هو روحه، حين يكون تخل عن هذه الوظيفة الكبرى، لا يكفي بناء العمارات، ولا تكفي الزروع، ولا تكفي المصانع، أول ما يجب أن يبني الأرواح والأنفس والأفئدة، وإلا كان فساد، وفساد كبير، وكان توعد من الله وتهديد.

قيادة ثمود كانت متحملة لمسؤوليتها بشكل لائق فيما يبدو من سياق الآيات الكريمة على المستوى المعيشي والاقتصادي، ولكنها كانت في تخلف شديد، وإسراف كبير من ناحية البعد الإنساني، وبعد الروح في الإنسان، والإنسان بروحه لا ببذنه.

أيها الإخوة والأخوات، البدن من تراب، وسيتحول إلى تراب، البدن يأكل الحيوان، وسيأكله الحيوان وأخسه الدود، ومن رأى أن قيمته في البدن، فهو يضع نفسه على صعيد واحد مع الحشرات، ومع الديدان، والديدان أكبر منه لأنها ستأكله!

الإنسان بروحه، الإنسان عملاق حين تتعلق روحه وذاته الإنسانية، الإنسان كبير حين يمتلك عقلاً متفتحاً، يمتلك رؤية ممتدة دائمة على عدل الله ولطفه وقدرته وإحسانه عدله وحكمته، الإنسان هو ذلك الشعاع المتعلق بنظر دائم إلى عظمة الله.

الإنسان هو ذلك الإنسان القبسة من نور الله التي إذا ما انطفتأت في ذاته أنطفأ كل شيء من كرامته، ووزنه الكبير.^(٢)

١- الشعراء: ١٥١-١٥٢.

٢- خطبة الجمعة (١٤) بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ٦ يولييه ٢٠٠١م.

الميزان في الإصلاح

وإن الإصلاح ليُقاس بنوع القوانين التي تسنُّ، والمشاريع التي تُنفَّذ، والممارسة العملية على الأرض، والأزمات التي حُلَّت والملفات التي تخلص منها، فعلياً أن نقيس مدى الإصلاح بكل هذا، أما دعاوى الإعلام فلا قيمة لها بتاتاً إذا كدَّبها الواقع.

كان الإعلام إعلاماً حكومياً، أو إعلام معارضة.^(١)

الحاجة إلى الإصلاح السياسي

ومُحال أن يستغني وطن عن الإصلاح، ويتعذر أن يسلم مجتمع من الفتن الحارقة، أو ينأى عن حرائق الداخل، ونزاعات الخارج، أو أن تكون له قدمٌ رقيٌّ وتقدم، وأن يهناً بالأمن والاستقرار وهو يرفض حركة الإصلاح، ويستبدل حماته عنها بالعنف، والبطش، والإرهاب، والتكيل.^(٢)

محورية الإصلاح السياسي

الإصلاح مطلب رئيس، والإصلاح عملية متكاملة.

أبعاد الشخصية الإنسانية الفردية أبعاد متشابكة، والشخص الواحد عملياته الإصلاحية تكون شاملة، وأنت لو أصلحت الشخص من بُعد واحد وأبقيت سائر أبعاده على وضعها المتخلف ما كنت قد أصلحته، وربما رأيت من نقطة إصلاحه ما هو أفسد له لو ظلَّ بلا إصلاح، فحين تتقدم به علمياً مع تخلف رُوحِي ذريع، ومع تخلف نفسي كبير، سيسيئ استعمال هذا العلم بما يحطم نفسه ومحيطه.

الشخصية الاجتماعية - أيضاً - هي شخصية ذات أبعاد متشابكة ومتكاملة، وإصلاح المجتمع يحتاج في مقابل شخصيته المتكاملة المتشابكة الأبعاد إلى عملية إصلاحية متكاملة.

١- خطبة الجمعة (٢٠٢) ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ، ٣ يونيو ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (٤٥٢) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٢٠ مايو ٢٠١١م.

وأي إصلاح اقتصادي، أو إداري، أو اجتماعي، أو غير ذلك محتاج أساساً إلى إصلاح سياسي، ومن غير الإصلاح السياسي تكون العملية عملية إعلام أكثر من كونها عملية إصلاح حقيقي، وتكون العملية عملية عاجزة عن بلوغ أهدافها على تقدير الإخلاص، والإصلاح السياسي أول منطلقه صلاح الدساتير، وورقي الدساتير، وتطوير الدساتير في الاتجاه الإيجابي.

ولذلك بالنسبة لهذا الوطن العزيز نركّز على المطلب الدستوري، وما يرتقي بالدستور، ويطوّره تطويراً إيجابياً، ويرتفع بمستواه، وتكون فيه الحقوق، ومراعاتها، وتقريرها بصورة أوضح وأكد، وأن تكون له الآلية الواضحة التي تستطيع أن تسلك بالمسيرة إلى الغاية التي تتحقق فيها الحقوق المقررة.

كون الدستور يتوفر على مبدأ الحرية، على مبدأ المساواة، على حق الشعب في المشاركة إلى آخر القائمة من غير أن تتضمن مواد آليات واضحة للوصول إلى هذه الأهداف، وتطبيق هذه الحقوق لا يعني شيئاً، ولا يضمن ولا يغني عن جوع.

لا بدّ من تأكيد على الحقوق، وتأكيد على الآليات التي تجسد هذه الحقوق على الأرض.^(١)

استمرارية الإصلاح أمر ضروري

قطار الإصلاح ينبغي أن لا يتوقف، وأن لا يتلكأ، والضرورة قاضية بأن ينطلق بسرعة، وفي انطلاقته السريعة المطلوبة يجب أن يلاحظ خصوصية الأرض التي يقطع طريقه فيها.

الأرض أرض قيم، وأرض إسلام، ومن أنبت قيم هذه الأرض هو العدل، والمساواة، والإنصاف.

ولست تجد قيماً قادرة على الحفاظ على الأمن، كما هي قيم السماء وهذه البلد

١- خطبة الجمعة (١٧٠) ٣٠ شعبان ١٤٢٥هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م.

قيمتها قيم السماء، فلوروعيت لحفظت الأمن، وليس من حافظ للأمن كما هي هذه القيم.^(١)

نية الإصلاح لها طريقها المناسب معها

لكل قصد مقدماته^(٢)، ولكل هدف استعداداته، وكثيراً ما كشفت الظواهر النيات.

الحكومة التي تهدف للإصلاح، وتنوي العدل، واحترام حقوق المواطنين، والاعتراف بقيمتهم، ودورهم في رسم مستقبلهم، واختيار خط حياتهم لا تحتاج إلى أن تُخيف وتُرعب، وأن تزيد من قسوة التعامل مع الشعب، وتطلق لقوات أمنها اليد الحرة في التصرف في مصير الناس وحياتهم، وتطمئن أنها بأنه لا عقوبة، ولا حساب، وتضاعف من أسباب حمايتها إعداداً لخوضها معارك شرسة باغية ضد الشعب.

كل ذلك إنما هو من مقدمات يتخذها من يختار الظلم على العدل، والاستمرار في الفساد بدل الإصلاح، ويقدم الحرب على السلم، والتصفية على الإبقاء.^(٣)

نية العدل، والإصلاح، والتراجع عن الخطأ، والاعتراف بالحق مقدماتها، ظواهرها، أماراتها تختلف كل الاختلاف عما يسمعه الشعب من الإعلام الرسمي من وعيد، وتهديد، واستعدادات، وما يُمارَس من إجراءات على الأرض من السلطات.

وما نتيجة الاستمرار في الخطأ، والتكبر لحق الشعب، ومعاداته، والاستعانة على ذلك بسياسة الحصار، والإضعاف، والبطش، والقمع، وتخريب البنية الاجتماعية، وإثارة الفوضى، وإشعال الفتنة؟

النتيجة: احتراق الوطن، رعب عام، خصام دائم، شقاء للجميع، نهايات كارثية لا يخرج من نارها خارج، ولا تستثنى أحداً.

خياراً من هذا: خيار العقلاء؟، خيار المجانين؟

١- خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

٢- مقدمات تدل على ما يستهدفه.

٣- فهل تتجه السياسة هذا الاتجاه، وتؤكد على ذلك بصورة عملية مشددة؟

الجواب ليس بالشيء الصعب، أو الذي يُتردّد فيه.

الإصلاح لا غيره هو الحل.

ومن طلب الحلّ في البطش بالشعب، فقد طلب ما يستحيل معه الحل.

نعرف أن إنتاج القوانين المتجاهلة لحقوق الإنسان، شديدة القسوة على المواطن، المستجيبة لرغبة الانتقام، المتجاوزة لقيم الدين، وأحكام الشريعة، الشاذّة عن كل القوانين هي من أسهل الأمور اليوم في ظلّ الوضع القائم، وغياب المعارضة، ونعلم أن إمكانيات استعمال القوّة المفرطة ضدّ الشعب متوفرة، وأنّ الدعم الإعلامي الآثم متيسّر، وأنّ أموراً أخرى مساعدة قائمة بقوّة.

لكن لا بدّ أن يعلم الجميع إلى جنب ذلك أمور أخرى:

إنّ قمع الشعوب، والإسراف في القتل، والتنكيل بالنّاس محاولة فاشلة إذا أُريد منها إسكات الشعوب عن المطالبة بالحقوق، وأنّ ردّة الفعل لهذه المحاولة عكسيّة، ومن شأن هذه المحاولة أن تزيد من درجة الصمود، والإصرار على المطالبة بالحقوق، وتوسّع المطالب كما أثبتت كل تجارب السّاحة العربية من قريب، ولا زالت تؤكد على ذلك.

والبحرين ساحة من هذه الساحات التي لم يرتدّ بها القمع لحظة عن المطالبة بالحقوق.

هذا أمر، والآخر أنّ سياسة القمع، والتوحّش في التعامل مع مطالب الشعوب أسلوب لا يمكن أن يثبت مع الزمن^(١)، لأنّه أسلوب استثنائي شاذّ غاشم لا يمكن أن تقبله بيئة مجتمع إنساني يشعر بإنسانيته.

وآخر^(٢) أنّ الآثار المدمّرة لأسلوب العنف، وبما يولّد بطبيعته من ردّات فعل مجانسة تطال المجتمع كلّ، وتمثّل كارثة للجميع.^(٣)

١- إلى كم سيعيش هذا الأسلوب؟

٢- أي أمر آخر.

٣- فهل يُخطّط لأن يقع الجميع في الكارثة؟

إنها ليست معاداة لفئة من الشعب، وإنما هي المعاداة لكل الشعب.

إنَّه لا بدَّ من التفتيش عن حل آخر، ولو فتشتم عن حلٍّ في كلِّ مكان، ولو قلبتم كلَّ الأمور، فلن تجدوا حلاً غير القبول بالإصلاح الجدي الحقيقي المطلوب الذي شدَّد عليه الشعب.^(١)

بين سياسة الإصلاح وسياسة العنف

ومُحالٌّ أن يستغنيَ وطن عن الإصلاح، ويتعذَّر أن يسلم مجتمع من الفتن الحارقة، أو ينأى عن حرائق الداخل، ونزاعات الخارج، أو أن تكون له قدمٌ رفِيٌّ وتقدُّم، وأن يهناً بالأمن والاستقرار وهو يرفض حركة الإصلاح، ويستبدل حماته عنها بالعنف، والبطش، والإرهاب، والتنكيل.

وساحتنا العربية كلُّها تجارب حيَّة تفيد بأنَّ سياسة العنف لا تولِّد إلا عنفاً، وتزايد البطش لا يدفع بأوضاع الأوطان الملتهبة إلا إلى تصاعد، حتى يكاد الوطن يحترق كله، وهذا مع ما تفتحه الصِّراعات العنيفة المنفلتة من أبوابٍ على مصراعِها؛ لتدخُل أجنبي أكبر^(٢)، وما تخلقه من الأرضية المناسبة؛ لتمكين التدخل الأجنبي لما تُلجُّ الحاجة إلى الاحتماء به من طرف أو أكثر.^(٣)

ولو استطاع العنف والقتل بالمئات والألوف مع التعدييات المروعة الأخرى التي يُمارسها النظام الرسمي (أ)، أو (ب) في ساحتنا العالمية أن يُسكت شعبه إلى وقت، فإنَّه لا بدَّ أن يتوقَّع الانفجار بدرجة أقوى في كل لحظة من لحظات المستقبل.

وعليه في ظل هذا الترقُّب الدائم، أن يضع كل ثروة الشعب، وكل الوقت، وكل الجهد وإمكانات الوطن في حراسة أمنه وإضرار الشعب، وإضعافه، وتفريقه، وإخافته بدل أن يعيش معه في أمن مشترك، وثقة متبادلة، وتعاون مثمر يصبُّ في صالح الوطن كله، وبنائه، وعزِّه، وهيبته.

١- خطبة الجمعة (٤٨٩) ١٠ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ٣ فبراير ٢٠١٢م.

٢- وهو أكثر ما يضرُّ بالأوطان.

٣- وفي هذا أكبر الخطورة التي ينبغي أن يدرك كل مواطن وطنه عنها.

أسلوب البطش الذي يستخدمه عدد من الأنظمة لئن سكنت عليه الحكومات القويّة؛ رعاية لمصالحها المادية التي لا تُساوي كل القيم المعنوية والدينية والأخلاق الإنسانية بإزائها شيئاً، فإنّ الشُّعوب المحايدة في كلّ العالم وإنّ كانت بعيدة ترى فيه ما يُنقص من قيمتها، ويهدّد مصيرها، ولذلك لا بُدَّ أن تدينه بقوة من منطلق هذه الرؤية، وضميرها الإنساني.^(١)

شرط الإصلاح السّياسي

لا إصلاح، ولا ديمقراطية بلا صوتٍ شعبيٍّ مراقبٍ، ونافذٍ، ومحاسبٍ يتمثّل في مثل الجمعيات أو الأحزاب السياسية الجادّة، التي تمتلك صلاحيات مراقبة ومتابعة، ونقد ومحاسبة حقيقية.^(٢)

أنواع الإصلاح

أ- الإصلاح الجذريّ والإصلاح الحقلي

هناك إصلاح عامٌّ وجذريٌّ، بينما هناك إصلاح يرتبط بحقلٍ من حقول الاجتماع، أو الاقتصاد، أو السياسة وغيرها، وقد يكون هذا الإصلاح سطحيّاً.

ب- الإصلاح التلقائي وإصلاح المقاومة

ونجد إصلاحاً ينطلق تلقائياً من حكومة من الحكومات، وبتقدير شخصيّ منها للمصلحة، ومن منطلق الإيمان بقيمة الإصلاح، ومن خلال ارتباط هذه الحكومة بأطروحة تؤمن أساساً بقضية الإصلاح، وقيمة الإنسان.

بينما قد نجد قضية إصلاح لا تكون إلا عن مقاومة ومجاهدة، وقد يستنزف هذا اللون من الإصلاح كثيراً من جهود شعب وحكومة، وكثيراً من مال، وكثيراً من بناء حضاري قام على الأرض.

١- خطبة الجمعة (٤٥٢) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٢٠ مايو ٢٠١١م.

٢- خطبة الجمعة (١٦٦) ٢ شعبان ١٤٢٥هـ، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٤م.

ج- الإصلاح المشهود وإصلاح القطارة

وهناك إصلاح مشهود مكثف، يفرض نفسه على الأبصار والأسماع، بينما يأتيك إصلاح من نوع آخر شحيح وبالقطارة، وربما كان إصلاح متفق على أنه إصلاح، يُقابلة إصلاح آخر يُختلف على طبيعته باختلاف أنظار الأمم والشعوب والحضارات كما في إصلاح اقتصادي يقوم على سياحة منفلة تدوس القيم، وتهدم الدين، أو من إصلاح نوع حرّية تتيح للإنسان أن يمارس شهوته على المكشوف بحيث تُفسد حياة الإنسان المعنوية، وتجهض فاعلية القيم في النفس، وتأخذ بالإنسان على طريق الحيوان، هذا اللون من الاقتصاد، أو الحرية يُعدُّ إصلاحًا عند أمة، وإفسادًا عند أمة أخرى.

تقييم أنواع الإصلاح

أ- الإصلاح الحقلي المرتبط بحقل معين بينما تبقى سائر حقول الحياة مهملة، يعيش فيها الجهل والظلم والتخلف، هذا اللون من الإصلاح لا يكاد يصمد، ولا بدّ أن يذوب في الجوّ العام الفاسد.

ب- وإصلاح عن مقاومة طويلة، وعن مواجهات ساخنة، وعن منازلات دائمة يُكلف ضريبة ثقيلة، ولا يكاد تقوم عليه ثقة، ولا استقرار.

الإصلاح الذي لا يأتي إلا بعد أمد طويل من المقاومة المستمرة المكلفة، والتي تترك جراحات في الطرفين أقول عنه: بأنه لا يكاد يبني ثقة، ولا يعطي أمناً.

ج- وإصلاح القطارة الذي لا تكاد تشهده عين لا يقنع، ولا يُعبأ به، وهو لا يستطيع أن يُهدئ، أو يعالج.

الإصلاح وخصوصية الشعوب

أما عن الإصلاح المختلف عليه؛ فعلى مَنْ يتبنّى نوعاً من الإصلاح تختلف عليه الأمم والشعوب والحضارات أن يراعي الخصوصية الحضارية والدينية والعرفية للمجتمع المستهدف بهذا اللون من الإصلاح.

الإصلاح بضريبة وبلا ضريبة

وإذا كانت أي حكومة جادة في مسألة الإصلاح، وتريد الإصلاح فعلاً، فلماذا تبعد الطريق؟!

ولماذا تختار أن تكون ضريبة الإصلاح ثقيلة على الشعب، ثقيلة على الحكومة، ثقيلة على الحاضر، ثقيلة على المستقبل، ثقيلة على مصالح الدين، ثقيلة على مصالح الجسد؟!

إنه خيار غير رشيد بالمرّة، فإذا كانت نيّة صادقة للإصلاح، فلا بدّ أن تكون مبادرة، ولا بدّ أن تكون مسارعة، ولا بدّ أن يكون جدّ، ولا بدّ أن يكون الإصلاح مكثّفاً حتى تشهده الأبصار والأسماع، وحتى يفرض نفسه على أي فرد من أفراد الشعب إقتناعاً وتصديقاً.

الإصلاح المشهود هو الخيار الصّحيح

قد تخاف بعض الحكومات من هذا النوع من الإصلاح المكثّف المشهود، وتتحسّب، وتظنّ سوءاً بأنه سيُغري بطلب المزيد، المقوّض لها.

ولماذا تُوضع حدود أمام حركة الإصلاح؟!

ولماذا يُحجّم الإصلاح؟!

أو ليس من حقّ كل الأمم، ومن حقّ كل الشعوب أن تعيش أرقى حالات الإصلاح؟!

وهل يُطلب خير من الظلم؟!

وهل يُفتقد خير في العدل؟!

وهل يُعطي الظلم استقراراً للحكومات وأمناً لها، وقوة وفاعلية وهيبة ومكانة من

بين الحكومات الأخرى؟!

وهل يُعطي شيئاً لأمّة من الأمم، أو لشعب من الشعوب قدرة على الفاعلية الإيجابية،

وعلى الصنع المجيد، وعلى إقامة واقع عملاق متقدّم أكثر مما يُعطيه العدل، وأكثر مما

يُعْطِيهِ الإِصْلَاح؟^(١)

لماذا الخوف من الإصلاح، والإصلاح الكبير؟

وهل كُتِبَ على الإنسان أن يستعبده الإنسان؟

وأن يُقْزَمَ حياته؟

أليس من حق كل الأمم، ومن حق كل الشعوب أن تبلغ أبعد وأقصى غاية في التقدم والمجد؟

وإن التجارب لشاهدة بأن الإصلاح يعطي الاستقرار، ويعطي الأمن، ويعطي الثقة، وأن إصلاح القطارة لا يبني ثقة، ولا يقنع أحداً، ولا يوقف حركة ولا انتفاضة.^(٢)

إِصْلَاحُ الْخَطْوَةِ الْخَطْوَةِ

يظل الإصلاح السياسي معطّلاً قرونًا مع الحاجة الملحة له، وحتى المطالبة به، ثم إذا تفجّر الوعي السياسي عند الشعوب، وانتفضت من أجل الإصلاح، وعندما تضطر الحكومات والأنظمة له تحت الضغوط المختلفة يرتفع شعار إصلاح الخطوة خطوة.

ويُراد بهذا الشعار أن تصبر الشعوب على الظلم والضييم، وتعيش آلامها طويلاً في انتظار قطارة الإصلاح.

ويُراد به أن تقبل الشعوب بأن تُعْطَى بين آونة وأخرى سيلاً من دماء أبنائها وبناتها، وتمتلئ منهم السجون، وتُنتهك الأعراض، وترتفع درجة الجحيم العسكري، وتغلق في وجوههم أبواب العمل والدراسة، وكل ذلك؛ ليخرجوا من تضحياتهم العزيزة بلا شيء، أو بشيء لا يذكر، وبخطوة إصلاحية لا تكاد تبين؛ ليستعدوا إلى جولة جديدة من التضحيات المضاعفة، ولينتهوا إلى نتيجة مساوية.

هذا ليس عقلاً، ولا شيء فيه من الإنصاف.

١- وهل يؤلف القلوب، ويرضي النفوس، ويقر العيون في النتيجة النهائية مثل العدل، والإنصاف، والمساواة، وإشاعة روح الأخوة؟

٢- خطبة الجمعة (٢٨٠) ١ ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ، ٢٠ أبريل ٢٠٠٧ م.

إنَّ مَنْ بذل الكثير لا يصح له أن يرجع بالمردود الحقيق.

وهناك مَنْ يُحاول إقناع الشعوب بإصلاح الخطوة خطوة بالواقعية.

ومفاد ذلك أنَّ على الشعوب أن تكون واقعيَّة، وتُقدِّر الظروف، والمعادلات الخارجيّة، وأن تقنع نفسها بأن ما لا يُدرك كُلُّه لا يترك كُلُّه.

والمراد الدَّقِيق لهذه الواقعية التي يطرحها هؤلاء هو مطالبة الشعوب بأن تحترم منطق القوَّة الفُتَّاكة الذي تمارسه الحكومات، والإمكانات الهائلة التي تُسخرها في مواجهة الشعوب، وإسكات صوته، ومصادرة رأيها، وإلغاء حقّها.

وهذا الطرح يواجهه بأمّرين:

الأمر الأوّل: إنَّ ما قد يقال عنه بأن خطوة على طريق الإصلاح في الكثير من الأحيان لا يمثّل حتى شيئاً من خطوة، وأنَّ كل ما طالب به هذا الشعب أو ذاك لا يزيد في نفسه على كونه خطوة واحدة.

ولماذا تُقسِّط الأنظمة على الشعوب الإصلاح وهو حقّها، وفي الجانب الآخر تفتح عليها كل أبواب الشر والفساد دفعة واحدة؟!

والأمر الثاني: في مواجهة المطروح المغلوط: هو أنَّ الشعوب فيما ظهر جليّاً حسب الواقع قد اختارت أن لا يُنتهيها عن المطالبة بحقّها، ونيل كرامتها شيئاً^(١).^(٢)

متطلبات الإصلاح السّياسي

لا تستقيم أوضاع الناس على طريق إنسانيتهم وسعادتهم بصورة كاملة إلا بالرجوع إلى الله سبحانه عبادةً، وحكمًا، وتشريعًا.

هذا ما نفهمه من دين الله، ومن لغة الواقع، والتاريخ كُلُّه.

وعليه، فإذا تحدّثنا عن أوضاع إيجابيّة يمكن تحقيقها في ظلّ القوانين والصّيغة الوضعية التي تنظّم علاقات الناس، وتحكمها فلا بدّ أن لا يبلغ بنا الطموح إلى تلك

١- هتاف جموع المصلين ب: (لن نركع إلا لله).

٢- خطبة الجمعة (٤٥٩) ٦ شعبان ١٤٣٢هـ، ٨ يوليو ٢٠١١م.

الصورة المشرقة من سيادة الحق والعدل والمحبة والسلام، ومن الاستقامة على طريق الهدى والنور والصلاح.

لا بدّ أن نبحث عن صورة أقل إشعاعاً، بل عن صورة يمكن أن لا تنهدم بها حياة الناس على رؤوسهم، ولكن برغم ذلك فإن درجات الاضطراب، والفوضى، والتمزق، والظلم، والانفراط، واليؤس، والخوف، والشقاء تتفاوت بتفاوت القرب والبعد من قواعد الدين والعقل والضمير، وما به الحفاظ على المصالح المشتركة، والعلاقات المتوازنة.

وهذه أمور تجنّب من حالات الخطر، وتخفّف من احتمالات الانهيار، وتعالج بعض مشكلات الحياة، وتساعد على درجة من الاستقرار في العلاقات الداخلية للدول والمجتمعات:

١- دستور يخف ظلمه إلى الحدّ الذي يمكن أن يُطاق ولو بصعوبة، وهو الذي يمكن أن يتوفر عليه دستور أو قانون وضعي من صناعة البشر، إذ لا تنصور دستوراً، أو قانوناً، وضعياً خالياً من الظلم والقصور.

٢- أن يحصل التوافق على هذا الدستور والقانون، ولو بإملاء من واقع اليأس من بلوغ الطموح في العدل الكامل لأي موجب من الموجبات، كأن يسود البُعد عن شريعة الله حياة الناس، ويجهلون قيمتها وقدرتها على تحقيق السعادة في ظل الصيغة الإسلامية الكاملة، فمثل هذا البعد والجهل يحققان اليأس من بلوغ العدل.

٣- أن يحصل تطبيق الدستور والقانون بدرجة مجزية من خلال ما يُسمّى بتعدد السُلطات، واستقلاليتها، وتكامل أدوارها مثلاً.

٤- أن لا تقوم سياسة الحكم على الفئوية القبلية، أو الطبقية، أو القومية، أو العنصرية، أو المذهبية.

٥- أن لا ترتعن إرادة الحكم بإرادة أجنبية لا تهمّها مصلحة الوطن، وإنما كل ما يهمّها هو استمرار استغلاله، وتوظيفه لأهدافها المتعلقة بمصالحها المتناقضة مع مصلحته.^(١)

١- خطبة الجمعة (٢٩٠) ١٤ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٢٩ يونيو ٢٠٠٧م.

الشُّعوب ومطلب الإصلاح

الوعي عند الشعوب الإسلامية والشعوب العربية وصل درجة لا تقبل السكوت على الظلم والتهميش، وهذا واقع جديد يدخل في المعادلة بين الحاكمين والمحكومين بما هو عنصر جدوى يفرض ضريبة على الحكومات، وكل يوم يأتي الوعي فيه في ازدياد.

الشعوب الإسلامية يزداد وعيها بإسلامها، والارتباط بالإسلام يرفع من درجة الوعي، والعزة، والكرامة، والشموخ، ويعطي ثقة عالية بالنفس، ويفرض شعورا رسالياً ودوراً إيجابياً في الحياة، وهذه الشعوب صار وعيها السياسي يتعمق يوماً بعد يوم، وصار وعيها الحقوقي يتعمق يوماً بعد يوم، وصارت إرادتها تكبر وتتعاظم، ولا تقبل أن تتراجع وتتقهقر، هذا واقع جديد ينبغي للحكومات أن تحسب له حساباً كبيراً.

والحكومات من جهتها تستعظم السقف الحالي من مطالب الإصلاح، وهو سقف هابط، وكلما ساء الحال وتعطلت هذه المطالب، فسقف المطالب سيكون في ارتفاع واتساع، فماذا ستفعل الحكومات عندئذٍ؟

اليوم توجد أزمة بين الشعوب والحكومات، ودرجة الوعي على ما هي عليه الآن، وسقف المطالب هو ما عليه الآن، وهو ليس بالرفيع ولا المتجاوز، فكيف إذا اشتد الوعي أكثر، تصلبت الإرادة أعظم، وكان مضاء العزم أكبر، وارتفع مستوى المطالب، وكبر الطموح، واتسعت وتركزت ثقافة الحقوق؟!؟

ماذا ستفعل الحكومات عندئذٍ؟

يمكن أن تأتي هنا فروض:

١- فرض انتظار تراجع الوعي أو الإرادة عند الشعوب، وفيما يظهر بصورة كبيرة، وبعد ما قطعتة الصخرة الإسلامية من شوط في واقع الأمة هذا الفرض ساقط.

فرض أن يتراجع الوعي، وأن تلين الإرادة عند شعوب الأمة فرض لا قيمة له في حساب الاحتمالات.

الوعي في ازدياد، والإرادة في اشتداد، فتعويل الحكومات على أن يتراجع وعي الشعوب، أو أن تلين إرادتها في المطالبة بالحقوق تعويل غير علمي.

٢- الاعتماد على التضليل والتلهية الإعلامية، والوعود المعسولة المؤجلة لمرات ومرات، وهذا الفرض كسابقه لا يمتلك وجهة في حساب الاحتمالات، ذلك لانكشاف اللعبة السياسية عند الحكومات، ولكونها أصبحت معرّة النوايا والأهداف والتكتيكات، وكذلك لتعاضم وعي وإرادة الأمة.

٣- الاعتماد على سياسة فرق تسد، وقد أصبحت هذه السياسة مكشوفة - وإن كانت لا زالت فاعلة في أوساط لا بأس بها -، ولكن تعاضم الوعي، ومرور الأيام سيسقط هذه اللعبة أيضًا، وسينكشف للمناصر للحكومات من هذا أو ذاك من مكونات الشعوب أنّه مظلوم كما هو صاحبه.

٤- الخيار الأمني المتشدد، وهذا يعني أن يُحرق الملايين من أبناء الأمة الإسلامية. قضية المطالب اليوم ليست قضية مئات من الناس أو ألوف، قضية شعوب عريضة، وقضية ملايين من أبناء الأمة كل شعوب الأمة في تحرك، وفي تحفّز لتغيير واقعها السيئ الذي تعرضه عليها الحكومات، ومعنى الأخذ بالخيار الأمني المتشدد أن تحترق الحكومات والشعوب.

ولماذا تختار الحكومات قولة لا للإصلاح؟

١- أثره وجشع، وجنون مادي.

عندك خمسة ملايين، عندك عشرة ملايين، تصر على أن تصل إلى مائة مليون، إلى مائة مليار، وصلت إلى رقم المليارات، ولا زلت تطلب المزيد جهلاً، واستكباراً في الأرض!!

٢- خوف ارتفاع سقف المطالب.

يخافون من أنه لو حقّقوا هذه المطالب الصغيرة لجاءت بعدها مطالب أكبر، ولكنهم لا يدرون أن ذلك أحسن من الانفجار الذي إذا حصل لا يقنع بأي مطلب من المطالب!

ولا يتوقف إلا بإزالة الحكومات.

٣- الاعتماد على الدّعم الخارجيّ.

حيث يرون أنهم مُستغنون عن الشعوب، وهذا وهم، والدعم الخارجي ليس مضموناً دائماً، والدعم الخارجي لا يصمد إلى الأخير أمام إرادة الشعوب إذا زحفت.

٤- اعتقاد الفوقيّة.

فإن حكّاماً في البلاد العربية والإسلامية يعيشون الروح الفرعونية، ولهم كثير من فرعون الذي قال: ﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١)، ولكن الواقع سيبرهن لكل صغير وكبير من الناس أنه ما هو إلا عبد من عبيد الله، وأنه ما هو إلا رقم في أرقام عديدة لا تعد ولا تحصى من بين الناس، وأنه بغيره أكثر منه بنفسه.

وأقول قبل ذلك: بأن النهاية للإصلاح، ومن لم يقبل الإصلاح، فهو مضطر لأن يقبل التغيير.^(٢)

العلاقة بين الإصلاح السياسي والإصلاح المعيشي

إصلاحان أو إصلاح واحد؟

ما يُسمّى بالإصلاح السياسي، والإصلاح المعيشي هما إصلاحان فعلاً، أو إصلاح واحد إمّا أن يكون، وإمّا لا يكون؟

في النظر: هما روحاً إصلاح واحد أمّا أن يوجد، وإمّا لا يوجد، وليس يوجد أحدهما في غياب الآخر، فيبقى الآخر مغيباً كان هذا أو ذاك.

فروح التّسلط الظالم واحدة، وروح العدل واحدة، فإن تكن الأولى تجدها في السياسة والاقتصاد وغيرهما، وتشهدا عليها كل الأبعاد، وإن تكن الثانية تجدها حاضرة في السياسة والاقتصاد كذلك، وتشهد بها كل الأبعاد.

١ - النّازعات: ٢٤.

٢ - خطبة الجمعة (٢٩٩) ٢٤ شعبان ١٤٢٨هـ، ٧ سبتمبر ٢٠٠٧م.

ومن هان عليه أن يظلم في السياسة هان عليه أن يظلم في الاقتصاد، ومن هان عليه أن يظلم الناس في لقمة العيش هان عليه أن يسوسهم بالخسف، ومن استقبح الظلم استقبحه في كل ساحاته، والنفس التي تأنس الظلم تأنسه في كل الميادين.

وإذا أبيت إلا أن تقول: إنهم اثنان يمكن أن يوجد أحدهما بدون الآخر، ومن مصدر واحد، فإني أقول لك على هذا: إنهما لا يتعارضان، ويمكن اجتماعهما وتزامنهما، فلا طولية بينهما، ولا ترتب، ولا عذر للاشتغال بأحدهما عن الآخر كما تريد أن تدعي الحكومة، ومن ينتصر لها في هذا الأمر.

بل إنهما يتساندان، ويدعم كل منهما صاحبه، والعلاقة بين الظلم السياسي والاقتصادي علاقة صميمية ومتينة كذلك.

الظلم السياسي يفتح باب القدرة على الظلم الاقتصادي، ويفري به، ويتقوى بمردوده، وهو مستهدف له، ولا يدوم بدونه، فلا تصدق أنه ينفصل عنه كأن يقوم عدلاقتصاديا في مناخ الظلم السياسي.

والاستئثار الاقتصادي، والاستعلاء المالي، والتمدد المادي يفري، ويمكن من الطغيان السياسي وهو يحتاجه لحمايته، والإبقاء عليه وتوسعه.

وقد يحصل إصلاح معيشي محدود لا بقصد حل المشكلة الاقتصادية ومعالجتها جذرياً، وإنما من باب تهدئة الخواطر المحتقنة، وذراً لمقتضيات أنية، واحتواء الأوضاع حتى لا تتفجر مما يمثل خطوة سياسية؛ لتثبيت الظلم الاقتصادي والسياسي معاً على المدى الطويل.

المطلوب عدل شامل تفتقده علاقة الحكم مع الشعب في السياسة والاقتصاد والتعليم وفي كل الجوانب.

والمعاناة التي يعيشها الشعب هي معاناة من فساد عام يمارسه الجانب الرسمي، ويهدد حياة أبناء الشعب، ويهدر كراماتهم، ويأكل إنسانيتهم.^(١)

العلاقة بين الحوار والإصلاح

المقصود الجدِّي للشعوب، ولَمَن يريد الخير من الأنظمة هو الإصلاح.

والإصلاح لا يحتاج إلّا لإرادة سياسية جازمة ممَّن يمتلكون قرار الإصلاح، وأدواته، ووسائله، وإعادة الحقوق.

أمّا الحوار لو جَدَّ، فمقدمة قد تنتج جزئيًّا، وقد لا تنتج، وقد تجمع وقد تُفرِّق، وقد تُخفِّف، وقد تؤزِّم.

هذا هو شأن الحوار الجادَّ المهيئ للإثمار، فما حال الحوار الذي دخله التلاعب والفساد والظلم قبل بدايته، وفي مقدماته؟

وإذا كان من الحقِّ الذي تعترف به الحكومات نظريًّا أنَّ الشعب مصدر السُّلطات فالحقُّ لا يُسوِّف فيه، وإذا كانت الحرية مطلبًا ضروريًّا معترفًا به، فلا تأجيل فيها.

وإذا كان العدل والإنصاف لا يجوز لأحد أن يعترض عليه، أو على المطالبة به، فلا يصحُّ لأحد أن يؤخِّره، وإذا كانت الديمقراطية خيرًا مسلمًا به عند الحكومات، فلا معنى لإرجاء ما هو خير مسلم به.^(١)

والحوار طريق وليس هدفًا، وقيمته من قدرته على تحقيق الهدف، والهدف دائمًا الإصلاح، والإصلاح الصادق القادر على الإقناع، ونيل الرضا، والثبات.

على أن مباشرة الإصلاح عملاً من القادرين عليه هو الطريقة الأمثل، والتي لا يمكن لأحد أن يشكَّك في جدِّيتها، وليس فيها تطويل، ولا مجادلات، وتوترات.^(٢)

الإصلاح على الطَّريقة الحسينيَّة

لم يخرج أشراً، ولا بطراً، ولا ظالماً.

خرج (عليه أفضل الصَّلَاة والسَّلَام)؛ لطلب الإصلاح في أُمَّة جدِّه، منهجه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يسير بسيرة جدِّه وأبيه ﷺ وهي سيرة ملتزمة

١ خطبة الجمعة (٤٥٩) ٦ شعبان ١٤٣٢هـ ٨ يوليو ٢٠١١م.

٢ خطبة الجمعة (٤٥٧) ٢١ رجب ١٤٣٢هـ ٢٤ يونيو ٢٠١١م.

- كلياً - بخط القرآن، ولا تعدل عنه قيد شعرة.

هذا هو منهجه في الإصلاح.

وهنا حديث:

- العقلية التوحيدية لا تُنتج أشراً ولا بطراً ولا ظلماً، ولا استعلاء ولا تكبراً، ولا خِفة، ولا نزقاً، ولا جهلاً.^(١)

ولا تتناسب مع شيء من الذلة والخسة والهوان، وفقد الإحساس بالكرامة.

ولا مع الإفساد والخراب، وهدر الوقت، وتضييع الطاقات، وعدم الإحساس بالمسؤولية.

للعقلية التوحيدية ناتج واضح نابع من طبيعتها: دُلُّ بين يدي الله، وطاعة واستسلام له، وعبادة مخلصة لا تشرك به شيئاً، ثم عزّة على الإطلاق، وشعور عميق ودائم بالقيمة العالية والكرامة، ودور بناء، وإصلاح، وإعمار، وإشادة للخير في كل الأرض، وفي كل إنسان.

والحسين عليه السلام مثال معصوم كامل للعقلية التوحيدية، والنفس الموحدة، ومنهج التوحيد، وثورته، وأخلاقه، وهدايه.^(٢)

- والإصلاح الذي نتحدث عنه كلمته عليه السلام دائرته الأمة ابتداءً، ثم الإنسانية كلها بعد ذلك، وهو إصلاح شامل حسب إطلاق الكلمة لا يترك بُعداً من أبعاد الأمة والإنسانية إلا استهدفه، وحاول إنقاذه من التخلف والفشل والزيغ، والتجميد، والعرقلة، وبطء النمو الصالح والانحراف.

- وكان لا بد أن يواجه هذا الإصلاح الانحراف الخطير في السياسة الباغية التي كان لا بد أن تطيح بالإسلام من عقلية الأمة وشعورها وواقعها العملي، وتقضي

١- وهي لا تنتج في المقابل ذلة، خسة، خضوعاً لمخلوق.

٢- إذا، فماداً يرتقب من خروج الإمام الحسين عليه السلام غير الحق، وغير الذلة لله، والعزّة في الناس.

على منابع العزّة في داخلها، وتمرّغ أنفها في الدُّل والهوان، وبذلك ينغلق باب الإصلاح الحقيقيّ الشامل على كلّ مصلح في الأمّة يولد ولو بعد أجيال.^(١)

فليس بعد ارتفاع الدّين الحق من الأرض سبيل إصلاح، وفرصة نهوض.

- إن الإصلاح الذي يتحدث عنه أبو عبد الله ﷺ إصلاح إنسان الأمّة حاكمًا ومحكومًا؛ لتصلح كل الأوضاع.

فإصلاح الإنسان هو المطلوب أساسًا، والإصلاح السياسي يفتح الطريق.

وفساد السياسة كما كان على يد يزيد إذا ترك له أن يستمر من غير فضح، ومواجهة تعرقله أغلق كلّ باب للإصلاح، والتغيير الذي تحتاجه الأمّة، ويستوجب وجودها ودورها ورسالتها.

- والإصلاح يحتاج إلى قيادة صالحة حقًا في نفسها^(٢)، وتفقه معنى الإصلاح، وتؤمن به، وتحمل رسالته، وترى فيه واجبًا إلهيًا لا بدّ منه، وتعرف طريقه ومنهجه، وتتحمّل ثقل أعبائه، وتخلص له، ولا تخرج في أسلوبها عن خطّه، ولا تخفي عن رؤيتها وسائله ومعامله، ومَن أقدر من الحسين ﷺ يوم كربلاء على ذلك؟!

ولا قيادة تصلح؛ لإنقاذ هذه الأمّة الإنقاذ الحقيقيّ الشامل، وإنقاذ الإنسانية كلها إلا قيادةً من مستوى الإمام الحسين ﷺ.

ولا محقّق لشيء من الإصلاح في واقع النّاس، ولا منقذ لأوضاعهم من سوءٍ وهو بعيد عن خطّ الإمام الحسين ﷺ، ومكوّنات شخصيته، ومقوّمات ثورته.

والقيادة الصالحة لهذه الأمّة، الآخذة بها على خطّها الإلهي، والمنقذة لها فعليًا بأيّ درجة من الدرجات لا تكون إلا قيادةً من خطّ الإمام الحسين ﷺ، وهدفه، ورؤيته، وصدقه وإخلاصه، وفقهه، وتقواه، وشموخه، وإبائه، وصلابته، وقدرته على البذل والتضحية والعطاء الكريم في سبيل الله.

١- نعم، لو استمر الحكم البيدي شخصًا وامتدادًا لامتنع على طلاب الإصلاح للأمّة أن يصلحوها.

٢- كيف يكون إصلاح والقيادة غير صالحة؟

حجم الإصلاح يتبع حجم صلاح القيادة، ورسالية الإصلاح تتبع رسالية القيادة.

- الإصلاحُ الحقُّ في الأرض كلَّ الأرض، وبأي نسبة خالصة من عوالمق السوء والترديّ وظيفة ومستوى ليس لها من كفاءٍ إلاّ الدين الحق، ورجاله الحقيقيون، وجماهيره الصادقة.

- للإصلاح منهج واحد في كلمة الحسين الشهيد عليه السلام هو منهج القرآن الكريم الذي تترجمه سيرة الرسول الخاتم صلّى الله عليه وآله، وعليّ أمير المؤمنين في الجهاد والحكم، ومنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بمعناهما العميق الواسع، ومستوياتهما المختلفة، وآلياتهما المتعدّدة وشروطهما اللازمة، وأحكامهما الثابتة، وضوابطهما المحكمة.

والمناهج من غير هذا المنهج الذي دلّت عليه كلمة الحسين عليه السلام جائزة وفاشلة وخاسرة.

وطلب الإصلاح للنفس والأمة قضية دائمة، ولا تنقطع الحاجة إليها، ولا تتوقف عند سقف خاص، ولا تهيبها ظروف صعبة، ولا يصح منها التراجع، ولا تتصف بالاستحالة على طول الطريق.

- الحاجة إليها دائمة، ولا تتوقف عند حدٍّ معيّن، لأن الإنسان يبقى دائماً قابلاً للتطور والتقدّم، وطريق الكمال مفتوح أمامه بلا انقطاع، فهو وإن توفّر على وضعية جيّدة في نفسه أو خارجه كان أمامه وضعية أكثر جودة وتقدّمًا، وعليه أن يطلب الوصول إليها.

وطريق الكمال تعترضه تحديات كثيرة، ويعاني السائرون عليه من عثرات كبيرة، ووسوسة الشيطان تلاحق الإنسان، ونفسه الأمّارة بالسوء تتجه به دائماً إلى الانحدار، فلذلك هو دائماً يحتاج إلى الإصلاح.

- ولا تُتهي الظروف الصّعبة طلبَ الإصلاح، لأنها لا تلغي القدرة تماماً على السعي؛ لتوفير المقدمات.

ولا يصح التراجع عن هذا الطلب، لأنّه مسؤولية الإنسان في هذه الحياة، وصلبُ دوره، وهدفُ العبادة المكتوبة عليه.^(١)

١- ولا استحالة دائمة حتمية للإصلاح لقدرة التجديد عند الإنسان.

وإن أي جيل يجد نفسه عاجزاً عن تحقيق الإصلاح المطلوب، عليه أن يُعدَّ الجيل اللاحق في بعده الفكري والنفسي والعملي؛ لإحداث هذا الإصلاح وتجاوزه.

فمسؤولية الإصلاح الفعلي، أو الإعداد له لا تنتهي أبداً في حياة أي جيل من الأجيال المسلمة كلها.

وكلُّ جيل حقَّق درجة من الإصلاح هيئاً للجيل القادم أن يُحقِّق إصلاحاً أكبر بالبناء عليه، والاستفادة منه في التطوير.

وتطوير الحالة الإصلاحية العامة للإنسان، وأوضاع الحياة من مسؤولية كلِّ جيل قبل نفسه، وقبلال الجيل الذي يليه، وهكذا تكون حياة الأجيال كلها تقدُّماً على خطِّ الإصلاح، وبناء الإنسان، وأوضاع الحياة.

- وعلى المسلمين أفراداً وجماعات ومجتمعات وأمّة أن يعرفوا وظيفتهم وواجبهم في الإصلاح، فالإسلام يطالبهم بذلك، ويصرُّ عليه، ويدفع له، ويملك وسائله، وتحريك أدواته، ومنهجه.

وما يتوقَّف عليه الإصلاح عند المسلمين بعد ذلك هو إعمال الإرادة.^(١)

سابعاً: سياسة الحوار الحوار هو المسار الطبيعي

والعلاقة الطبيعية بين الشعب وبين الحكومة هي علاقة التفاهم والحوار والتعاون، لا المواجهة، إنما تنشأ الحكومات؛ من أجل مصالح الشعوب، والحكومات التي ترعى مصالح شعوبها يثبت حقاً على الشعوب بأن تدعمها، وتدافع عنها، وتكون حصناً واقياً لها، فالعلاقة الطبيعية بين أي حكومة وأي شعب محكوم لها في الأصل هي علاقة الائتئام والتوافق والاتساق والتعاون، وإذا كان شيئاً، فحوار وتفاهم.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤٣٣) ١٠ محرم الحرام ١٤٣١هـ، ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م.

٢- خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

متى يكون الحوار منتجاً؟

- وقيمة الحوارات واللقاءات لا تبرز ولا تصدق إلا بالاستجابة العملية للحلول الأكثر فاعلية في تحقيق العدل والمساواة، ورفع مستوى المواطن معيشة وخلقاً وإنسانية ودينياً، وكرامة، وقدرة.

وأخشى ما يخشى على اللقاءات والحوارات أن تتوقف لفقد معناها حين تفرغ من العطاء العملي، ولا تسهم في التخلص من مأساة الواقع والنواقص على الأرض.

ولا يفرط بفرص الحوار أبداً ما دامت توقعات إثماره؛ للنفع مفتوحة وجدية ونحن ندعو إلى هذا الحوار بقوة وإخلاص على كل المستويات.^(١)

لا يأس من الحوار

لا ينبغي اليأس من فاعلية الحوار في الكثير الأكثر من الأحيان والقضايا، وفي أصعب الظروف، وحالات الصراع فضلاً عن الاختلاف والخلاف العادي في الساحات المتعددة، ومن ذلك الساحات المتأججة، أو التي هي على طريق الاشتعال كالساحة العراقية، والساحة في لبنان.^(٢)

لا بد من الحوار

وأقول: بأن كل الذين يزهدون، أو يُزهدون في خيار الإصلاح اليوم في وطننا الكريم أو غيره، ويختارون سياسة كسر العظم لا بد أن يضطروهم الزم إلى لغة الحوار، والأخذ بقضية الإصلاح والمصالحة.

وإذا كانت حياة الأوطان لا تتحمل المواجهات الخارجية بصورة دائمة، فهي أقل تحملاً بكل أطرافها من المواجهات الداخلية الصاعدة لو دامت.

١- خطبة الجمعة (١٢٥) ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٢٢ أغسطس ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

والمواجهات الداخلية أمر مذاقًا، وأشدَّ إنهاكًا، وأصعب إرهاقًا، وأسوأ نتائج، وأبقى على التخريب، وتحطيم الجسور.

الدَّعوة للحوار ليست ضعفاً

والناس - رُسميُّون، وغير رُسميِّين - منهم من يُخطئون الظن بحملهم الأصوات الداعية إلى العقل والحكمة والعدل والحق، وتغليب لغة الحوار على أنها إنما تنطلق من شفقة على النفس، وخور في الداخل، وتعلُّق بالحياة، وربما كان من أصحاب هذه الأصوات الداعية للإصلاح، وتحكيم لغة العقل والحوار من هم أسخى بأنفسهم للحق من الكثيرين، والصبر على الظن السيئ من الآخرين في هذه الموارد محتاج إلى مبدئية وإخلاص وعزيمة، وهو ضرورة لصلاح الأمم والأوطان والشعوب، ولا بدُّ منه ما أمكن أن تسمع النصيحة، ولم تقتضِ الضرورة بأمر آخر لا تستقيم بدونه الأمور، ولا يرضى الدين إلا به، وهي حالات تحدث في مجتمعات الدنيا، ولا يكون منها مفرُّ لمخلص من جهة عقل ودين، وكل الذين يعقلون، ويحرصون على سلامة أوطانهم وأمهم أن يحولوا بين واقعهم وبين يوم يتحقَّق فيه الصِّدام.^(١)

الحوار الهادف نهج ثابت

ومن ثابت كربلاء الذي لا بدُّ أن يستهدي الحاضر به، ولا يمكن له الانفصال عنه: - الدعوة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والحوار الواعي الهادف القوي هو المقدم دائماً.

والحسين عليه السلام ظل يحاور عمر بن سعد حتى ليلة العاشر - كما يذكر التاريخ - وقد مارس عدد من صحبه الكرام التذكير، والوعظ، والحوار مع الطرف الآخر.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٧٤) ١٢ صفر ١٤٢٨هـ، ٢ مارس ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (١٠١) ٤ محرم ١٤٢٤هـ، ٧ مارس ٢٠٠٣م.

لا استكبار على الحوار

وإذا اختلفت حكومة ومعارضة في أي بلد، واستهدف أحد الطرفين إلغاء الآخر، واجتثائه تصاعدت الأمور إلى أقصى حد.

ولو اتَّجه أي طرف من الطرفين في البحرين هذا الاتجاه لكانت المحاولة خاطئة وخاسرة ومكلفة وكارثية، ولمصلحة أي من الطرفين صار يفكر بهذا التفكير أن يتجه هدفه إلى غير ذلك.

يجب أن يتجه التفكير عند الطرفين إلى التصالح والتوافق، وإذا كان هذا هو الهدف، فلا بد أن تأخذ الوسائل طبيعتها من طبيعته.

وهي على هذا التقدير لا تعدو الحوار وآلياته ومقدماته وأجواءه، وهو الشيء الذي شدّدنا عليه كثيراً، وفي عدد من المناسبات والمواقف.

وأي طرف يستكبر اليوم على الحوار، أو يزهّد فيه، ويعتمد على خياراته الأخرى الوثائق بها لا بد أن يقتنع غداً أنه لم يحسن صنعا، ولم يوفق في خياراته، وسيعلم أن الحوار لا غيره هو الحل، لأن وضع الأسرة الواحدة، القرية الواحدة، المدينة الواحدة، المجتمع الواحد لا يصلح إلا بالحوار، والتفاهم، وعلاقات العدل والإحسان.^(١)

الحوار والعلاج الناجع

والعلاج الناجع في أن ننظر إلى الجذور، وأن نبحت في الملفات المختلف عليها عن طريق الحوار، وأن تأتي خطوات إصلاحية تتعامل مع أساس المشكلة؛ لتعود ثقة الطرفين، ولتتضافر جهود السواعد على بناء هذا الوطن البناء الصالح المجيد وهو ما نتمناه كل التمني، ويجب علينا أن نساعد عليه.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٣٥) ٢١ رجب ١٤٢٩هـ، ٢٥ يوليو ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٣٣٦) ٢٨ رجب ١٤٢٩هـ، ١ أغسطس ٢٠٠٨م.

الحوار والأمن

التخلي عن الخيار الأمني والعقاب الجماعي، وتفعيل أسلوب الحوار الجدي المنتج لصيغة متوافق عليها بين الحكومة والشعب تسدُّ باب الهزَّات الأمنية والتوترات، وتنتج الفرصة لقيام علاقة مستقرّة بين الشعب والحكومة تتصف بكونها أقرب إلى الإنصاف والعدل.^(١)

الإصلاح والحوار

أصبح الإصلاح ضرورة سياسية وليس مطلباً شعبياً فقط، ضرورة سياسية لا بدّ منها، وكل يوم يتأخّر فيه الإصلاح يترك انتكاسات خطيرة غير محسوبة على واقع الساحة.

وقد يكون الحوار مقدّمة منتجة للإصلاح، ولكن قد يكون حوار ولا ينتج.

فالحوار ليس مقدمة منتجة حتماً.

وكل المشكلة في غياب الإصلاح المتوقف على الإرادة السياسية ممّن يملكون القرار، وهذه الإرادة السياسية لا تتوقف على الحوار، وقد تتخلف عن الحوار المفعل.

وهذه قضية لها أكثر من شاهد عملي صارخ، وأن الحوار قد يكون، والنتيجة تأتي على مستوى الصفر.

ومصلحة البلد، وأمن البلد، وتقدّم البلد في انتظار الإصلاح لا أي نوع كان من الحوار ولو كان استهلاكياً، واستغلاليّاً، واستغفاليّاً، ولمسألة الإعلام والتهدئة الوقتية للخواطر، وتمرير الخطط.

ومهما كان، فإن كل المناورات السياسية بلا إصلاح عملي صادق لن تجدي شيئاً في حل الأزمات القائمة بين الحكومات والشعوب.

١- خطبة الجمعة (٣٥٤) ٣ صفر ١٤٣٠ هـ، ٣٠ يناير ٢٠٠٩ م.

وإذا كانت هذه المناورات؛ من أجل تأجيل الإصلاح إلى أطول مدى ممكن، فإن هذا قد أصبح مكشوفاً لعيون الشعوب، مفضوحاً أمام فهمها.^(١)

الحوار حاجة مشتركة

وإذا تحدّثنا لمرات عديدة عن الحوار، فنحن لا نتحدث عن حاجة الشعب فحسب، وإنما الحوار حاجة الحكومة والشعب معاً.

وإذا شعرت الحكومة بأن ليس لها حاجة في الحوار، وأن اعتماد القوة يكفيها، فإن مثل هذا الشعور، وما وراءه من تفكير من طبيعته لكافٍ جداً للبرهنة على أن الحكومة بعيدة كل البعد عن تفهّم التجارب، والاستفادة السياسية من دروس الدول والشعوب، وأنها مصابة بدرجة من الغرور القاتل الذي يهدد الوطن كله بالمحق.

لا تجارب الماضي، ولا تجارب الحاضر تساعد على أن منطق العنف والظلم والبطش هو الذي يعطي للحكومات استقرارها.

هذا المنطق كان عاجزاً عن تحقيق الاستقرار والأمن للحكومات زمن ما قبل الصحو العالمية للشعوب، وخاصة شعوب هذه الأمة الكريمة الخالدة، وانتفاض إرادة إنسانها المقهور، فكيف به زمن ما بعدها؟^(٢)

وحكومات تدير ظهرها لدعوات الحوار المنطلقة من شعوبها، وتعدّها ضعفاً ومسكنة حكومات غير ناجحة وتُتعب، وتُتعب.^(٣)

الحوار طريق وليس هدفاً

الحوار طريق وليس هدفاً، وقيّمته من قدرته على تحقيق الهدف، والهدف - دائماً - الإصلاح، والإصلاح الصادق القادر على الإقناع، ونيل الرضا والثبات.

١- خطبة الجمعة (٣٦٩) ١٩ جمادي الأولى ١٤٣٠هـ، ١٥ مايو ٢٠٠٩م.

٢- خطبة الجمعة (٣٥٧) ٢٤ صفر ١٤٣٠هـ، ٢٠ فبراير ٢٠٠٩م.

٣- خطبة الجمعة (٣٥٩) ٨ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، ٦ مارس ٢٠٠٩م.

على أن مباشرة الإصلاح عملاً من القادرين عليه هو الطريقة الأمثل، والتي لا يمكن لأحد أن يشكك في جدّيتها، وليس فيها تطويل، ولا مجادلات وتوترات.^(١)

الإصلاح العملي هو الثمرة والحوار طريق، ولا قيمة للطريق إلا بالإيصال للثمرة، والإصلاح لا يحتمل التأويل، بينما الحوار يحتمل الدخول في دهاليز المخاتلة والمخادعة والتسويق وما إلى ذلك، والإصلاح أدلُّ على الجدّية، وأسرع إلى إطفاء النار، وإيقاف التدايعيات.

وإذا كان للحوار الجادُّ المخلص نتائج إيجابية، فإن الحوار للاستهلاك، ولتخطي واقع معيّن، وعلى مستوى التسلية، ولغرض خلق وجهات نظر متعارضة تضعف الحالة المطلوبة، فهذا الحوار له مخاطر كبيرة، وآثار سيئة جدًّا على واقع الساحة بأكملها، وهو زيادة في تأزيم الأوضاع، ومبعد بمسافات عن يوم الحلِّ لما يسبِّبه من زيادة في فقد الثقة، وما يركّزه من مشاعر سلبية اتجاه الآخر.^(٢)

الحوار المؤيِّس

فلا بدّ من إصلاح، ولا بدّ من حوار، وهو حوار يبني الجسور ويمتّنها، ولا يهدمها أو يضعفها، وشرط حوار من هذا النوع أن يكون جادًّا وفعالًا ومنتجًا، وإلا فالحوار المؤيِّس ضرره أكثر من نفعه.^(٣)

باب الحوار أو السَّجون!

حين تغلق الحكومة باب الحوار في وضعنا الحاضر، فهي تفتح باب السجون، فغلق باب الحوار فتح لباب السجون، وفتح باب الحوار غلق لباب السجون.

١- خطبة الجمعة (٤٥٧) ٢١ رجب ١٤٣٢هـ، ٢٤ يونيو ٢٠١١م.

٢- خطبة الجمعة (٣٦٢) ٢٩ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، ٢٧ مارس ٢٠٠٩م.

٣- خطبة الجمعة (١٩٤) ٢٨ صفر ١٤٢٦هـ، ٨ أبريل ٢٠٠٥م.

ذلك لأنه توجد مطالبات إصلاحية، والمطالبات إذا سُمعت، أو انفتح بشأنها باب حوار مؤمل فيه، وكان التعقل من الطرفين لم تنشأ الأزمات، ولم تتوتر الأوضاع، ولم تحدث أخطاء في البين، ولم تنشأ حاجة إلى إطفاء النار بما قد يزيدها.

أمّا إذا لم يكن هذا ولا ذاك، وأوصدت الأبواب، أو كان التشاغل بحوار ملهاة، تهيأ الجو بدرجة كبيرة للأزمات والمواجهات والتمزقات والخسائر التي تنال من كل الأطراف.

وهذا الجو هو جوّ السجون والشجون والترصّدات، والأضرار، والانفلات.

ومن هنا نؤكد على خيار التفاهم والحوار المنتج، وسدّ باب السجون والشجون، والكوارث والخسائر، والتمزّقات.^(١)

الحوار بين النظام والشَّعب فقط، ولا طرف ثالث

كلامي ليس في الحوار وعدمه، ولا في سقف الحوار ومستواه، وإنما كلامي من حيثية أخرى.

هناك طرفان متقابلان: مُطالب وهو الشعب، ومُطالب وهو النظام، ومن يُقرّر الحوار أو عدمه هما الطرفان لا طرف ثالث.

والحوار يحتاج إلى موافقة الطرفين، ويُعطّله عدم الجدّية، أو عدم الوثوق من أحدهما.

وأي حوار على خلاف رغبة الشَّعب، وخارج إرادته، ويأتي بعيداً عن طرحه لا قيمة له، ولا يؤدي إلى حلٍّ أو تهدئة، وهو من نوع عقد الفضولي الذي يحتاج إلى إمضاء الشعب ومباركته.

١- خطبة الجمعة (٢٢٧) ٦ ذو الحجة ١٤٢٦هـ، ٦ يناير ٢٠٠٦م.

فالحوار بين الطرفين المختلفين^(١)، ولا يمكن أن يحاور عن أحدهما أحد من غير إذنه.

وعن النواب الموافقين في الرأي لسقف الحكومة في الحوار، وفيما تريد أن تعترف به وتعطيه، وما تتنكر له، وتستكره، بما أنهم يتوافقون مع الحكومة كل هذا التوافق فلو كانت المسألة مسألة تصويت، فلا شك في حقهم في التصويت، لأنهم مواطنون كسائر المواطنين، أمّا وأن المسألة مسألة حوار بين الحكومة، ومَن يختلف معها في الرأي، فلا موضوع عند أولئك النواب مع الحكومة للحوار.

وإذا عُدُّوا طرفًا فيه، فهم الطرف الحكومي نفسه، لا أنهم طرف ثالث.

وفي المقابل يكون كل الممثلين في الحوار للشعب طرفًا واحدًا لا أكثر.

فلو اشتركت عشرون مؤسسة في الحوار بوجهة نظر موحدة فهم طرف واحد، وكذلك لو اتحدت وجهة نظر واحدة واجتمع مع الحكومة فيها عشرون طرفًا، فهم طرف واحد لا غير.

ومسألة التصويت مسألة أخرى، فذلك حقٌّ لكل الشعب لا لهذه المؤسسة وحدها أو تلك المؤسسة، ولا لهذه الطائفة ولا تلك الطائفة، ولا لهذا الحزب أو غيره ولا لنواب دون غيرهم.^(٢)

شروط الحوار السياسي الناجح

- لا حوار؛ من أجل الحوار.

- ولا حوار؛ لتضييع الوقت، وتمييع المطالب، وامتصاص مشاعر الغضب بالتدريج، ومع طول الوقت.

١- والاختلاف هنا بين النظام وبين الشعب.

٢- خطبة الجمعة (٤٤١) ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٢هـ، ٤ مارس ٢٠١١م.

- لا حوار بلا مقدمات عملية تفتح الجوّ للحوار، ولا مبادئ معلنة موافق عليها من قبل الدولة تُعطي وضوحاً كافياً لموضوع الحوار، وقيمة وإنتاجية الحوار، ومن غير ضمانات التزام بهذه المبادئ، وجدولة واضحة جدية تضمن تنفيذ منجزات الحوار.

- وإن الحوار الذي يستهدف حلاً شكلياً لا يصلح اليوم أن يكون مهدداً وقتياً فضلاً عن أن يمتلك درجة من الواجهة والثبات، وأن يُعدّ حلاً ولولوقت قصير.

لا بدّ أن يكون الحلُّ معالجة جذرية قابلة للحياة، مقنعة لروح التغيير، قادرة على البقاء، مستجيبة للمطالب العادلة.^(١)

شروط التمثيل الشعبي في الحوار والمفاوضات مع الحكومة

ولا تقوم إرادة شخصية، أو حزب أو جمعية في هذا الفرض مقام إرادة الشارع العام إلا بإبانة وتوكيل واضح، وإن كانت أي شخصية، أو حزب، أو جمعية عضواً من أعضاء المجتمع، وله أن يتوافق عن نفسه مع الغير في أي أمر من الأمور التي يُقدّر أنّ فيها المصلحة.

وإذا دخلت أي شخصية، أو حزب، أو جمعية في توافق على حلّ في مسألة طرّفها الثاني هو الشارع العام أمكن أن يمثل ذلك خطوة تمهيدية فقط يُرجع إلى الشارع العام المعارض في الأخذ بمؤدّاها، لأنّه الطرف الأصيل الثاني في هذا الفرض، ولأنّ مطلوب الحلّ هو أن يرضى هذا الشارع، ويحصل التوافق العام على صيغة سياسية واضحة؛ لينتهي سبب الشكوى، والتوتر، والغليان.^(٢)

الشخصية شخصيتان

شخصية حقيقية، وشخصية اعتبارية.

١- خطبة الجمعة (٤٤٠) ٢١ ربيع الأول ١٤٣٢هـ، ٢٥ فبراير ٢٠١١م.

٢- خطبة الجمعة (٤٥٤) ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٣ يونيو ٢٠١١م.

مثال الأولى: أنا وأنت.

ومثال الثانية: المؤسسة الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والحزب، والدولة.

وإذا نُظِرَ إلى الشعب، فمرة يُنظر إليه بلحاظ كل فرد فرد من أفرادهِ، ومرة ينظر إليه في مجموعهِ وبما هو كيان اجتماعي موحد له شخصيته الجامعة الواحدة.

وهو باللحاظ الأول مجموعة من الشخصيات الفردية الحقيقية المستقلة المتعددة، وباللحاظ الثاني شخصية اعتبارية موحدة.

وشخصيات الأفراد كل واحد منها إنما يُمثّل نفسه، ولا يُمثله غيره إلا بإذنه.

نعم بالنسبة إلى القاصر أقامت له الشريعة والقانون ولياً يراعاه ويمثله.

والشعب في شخصيته الاعتبارية لا يُمثله شعبٌ غيره، ولا عضوٌ من أعضائه شخصاً كان أو مؤسسة إلا أن يُقيم هو نفسه، وإرادته الحرّة من يُمثله.

وليس لأحد أن يفرض نفسه عليه، وينطق باسمه، ويُعطي الرأي عنه في أي مسألة تهمّه خارج إرادته، ومن غير اختياره.

وفضول واضح، وتعدّ صارخ أن يعطي أحدٌ نفسه سواء كان شخصية حقيقية، أم اعتبارية حقّ تمثيل الشعب، وفرض رأيه عليه، وإن فعل ذلك لم يُعتبر تمثيله، وكان بطلان هذا التمثيل من أوضح الواضحات.

وتمتّع أي شعب بالاستقلالية في التعبير عن نفسه بمحض إرادته، وحاجة أيّ جهة تريد أن تمثّل الشعب، وتنطق باسمه إلى إذنه وموافقته حقّ واضح لا غموض فيه يعترف به كلُّ العالم، ولا يُنكر عليه ذو عقل سليم، ولا جديد فيه على الإطلاق.

ولأنه من الحق الذي لا غبار عليه ولا مرأ فيه، ولا يصحُّ لعاقليْن أن يختلفا عليه، ولا مُنطلق له غير الإنصاف، واحترام إرادة الناس، فإنّي أعود للتأكيد عليه، واحترامه

والتمسُّك به، ولو كنتُ وجدتُ فيه خطأً لما تردَّدتُ في الإعلان عن الخطأ فيه، والتراجع عنه، ولكنِّي لا أجد فيه شيئاً من خطأ، أو منفذاً لنقد من أي شخص يلتزم الإنصاف، ولا يبيع عقله ودينه بثمن من أثمان الدنيا، وإنَّ خَرَجَ على الحقِّ الصراح، وخالف كل موازين العلم والعدل علناً، وبشكل مكشوف فاضح.^(١)

ثامناً: سياسة إطلاق الحريَّات العامة حرِّيَّة الدين والمعتقد

لا يصح لأي حكومة، وأي مؤسسة من مؤسساتها أن تكره الناس على مخالفة دينهم أو مذهبهم، وكل قانون من هذا النوع لا قانونية له بمقتضى الدين والعقل وحقوق الإنسان المقررة دولياً.

والواضح من واجب الدين أن يكون وجود هذا القانون كعدمه، ولا يصح التعامل معه إلا على هذا الأساس.

وإذا ولد هذا القانون، فعلى الشعب المؤمن أن يعتبره كأنه لم يولد.^(٢)

حرِّيَّة الصَّحافة

الصحافة - فيما ينبغي أن تكون - للحق، للدين، للخير، للفضيلة، للقيم، للمصالح الحقيقية البناءة للإنسان، للعدل، للأمن، لحركة الإنتاج الصالح في كل المسارات. وعليه، فالحرية التي لا بدَّ أن تتمتع بها الصحافة هي الحرية التي تصب في صالح هذه القضايا، والأمور وتخدمها.

أما حرية الهرج والمرج، وهدم القيم، والتحريض على العدوان، والتطاول والسخرية

١- خطبة الجمعة (٤٥٥) ٧ رجب ١٤٣٢هـ، ١٠ يونيو ٢٠١١م.

٢- خطبة الجمعة (٢٨٨) ٢٩ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ، ١٥ يونيو ٢٠٠٧م.

بالمقدّسات، وتأجيج الشهوات الحيوانية في الإنسان، ومحاربة الحقّ، والإضرار بهويّة الأمة، والقذف والتشهير، واللغة النابية، وفحش القول، وبذاءة الكلمة، وبث روح الخلاف بين مكونات المجتمع؛ لتأجيج الفتن، وتمزيق الصفوف، والتخندق مع الظلم ضد المحروم والمستضعف، فهي حرية ساقطة بعيدة كل البعد عن خط الصحافة النافعة، ودورها الصالح المطلوب.

ولذلك فنحن مع حرية الصحافة من النوع الأول الذي تدخل فيه الحرية السياسية المتّزنة القائمة على النقد النزيه، واللغة العلمية، بعيداً عن المهاترات والكلمة الهابطة.^(١)

الباب الثامن

الحكومة والسياسات الاقتصادية

الحكومات والمال العام

وعلى مستوى الطرح العلمي البعيد عن السياسة يأتي هذا البحث:

هل الحكومات مالكٌ حرٌّ مطلق التصرف في المال العام كما يريد هذا المالك؟ أم هو وكيل يتقيد بإرادة الموكل ويحاسب أمامه، أم هو مؤتمن مأمور بالتصرف الذي يوافق رأي الأمر المؤتمن؟

والجواب: إنَّ هذا يختلف باختلاف نوع الحكومات:

١- حكومة الغلبة

حكومة تقوم شرعيتها على الغلبة، على القوة، والبطش، والظفر والنايل.

هذه الحكومات ترى من نفسها أنها مالك أصيل، يتصرف التصرف الحر في الشعوب والثروات، وهو غير مسؤول أمام أحد؛ لا أمام الله، ولا أمام الناس.

وعطاؤه ينطلق من روح الاستصلاح للشعب، والأمة، والأرض إلى الحد الذي يخدم ذلك الحاكم المالك، وذلك على حد ما في استصلاح الإنسان لوضع غنمه وبقره.

فكما يحتاج الإنسان أن يستصلح وضع غنمه وبقره، فيضطر إلى أن ينفق على هذه الحيوانات، فكذلك ترى بعض الحكومات أنها مضطرة - ومن باب مراعاة مصلحتها، وبقاء وجودها - أن تنفق شيئاً من الفتات على الشعوب.

وفي العادة يكون العطاء في هذه الحالة مصحوباً بالمنة والشعور بالجميل على

الآخر.

٢- الحكومة الديمقراطيّة

وهي وكيل يتبع تصرفه في المال العام إرادة الشعب والأمة، وترى نفسها بحسب منطلقها الديمقراطي مسؤولية أمامهما، وهذا من ناحية نظريّة وقانونية.

أما واقع المسألة، فيرتبط بحيوية الضمير، والتقوى، والإذعان لإرادة الله وَكَلِّزْ، أما الشعوب فيمكن التّحايل عليها، ويمكن الالتفاف عليها، وهذه النظرة الديمقراطيّة لا تعصم الحكومات ولا تجعلها عادلة، وإن كانت تعطي فرصة أوسع لمحاسبة الحكومات ومراقبتها.

٣- الحكومة الشرعيّة

أي التي تأخذ نوع حكمها من الله، وشرعية حكمها من الله، وتتقيد بحكم الله في ممارستها، كما هي حكومة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه الحكومة ترى نفسها مكلفاً مأموراً مؤتمناً على المال، ووكيلاً عن الأمة في نفس الوقت، وترى نفسها مسؤولة أمام مكلفها، والتصرف عندها تابع لإرادة الأمر سيد الحكم والأمة معاً، والمؤتمن لهما على الثروة، كما أن التصرف عندها تابع لمصلحة الشعب والأمة، والحكومة في هذا الحال إذا لم تكن معصومة ترى نفسها مسؤولة ومحاسبة أمام الشعب والأمة طبقاً لتحويل المالك الأصل وهو الله تبارك وتعالى.

وماذا يقول الإسلام من خلال سيرة أمير المؤمنين عليه السلام؟

تبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أن المال مال الله، وأنه لعيال الله، ولا يرى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه مالكاً للمال، كما لا يرى نفسه مالكاً لأحد من الناس.

أمير المؤمنين عليه السلام يطفي شمعة في لقاء مع أمين الخزانة في بيت المال بعد انتهاء العمل المتصل بصالح المسلمين، بحجة أنه لا يُنفق على شيء لحظة خارج مصلحة المسلمين من بيت المال.

يتحفّظ على صفيحة العسل، أو السمن تحفظاً شديداً، ويحكمها إحكاماً بقبضته الحديدية (سلام الله عليه)؛ حتى لا يصل إليها تصرف من طفل من الأطفال.

يقف من عقيل أخيه الموقف الذي تعرفون.^(١)

يساوي في العطاء من بيت المال بين العربي وغيره، ويطرح الحجة في ذلك بأن المال لو كان ماله لعدل فيه، فكيف والمال مال الله، ثم الأمة؟!

هذه هي نظرة الحكومة الشرعية لا تبيع لصاحبها، ومن خلال تكوينه الفكري وتكوينه الوجداني، وزاد التقوى عنده أن يتصرف في درهم واحد خارج أمر الله، ومصلحة الأمة.^(٢)

الحكومات وملكية المال العام

١ - الحكومات الفاقدة للشرعية مطلقاً كالحكومات الطاغوتية التي تفرض نفسها على رقاب الناس فرضاً لا مالكة للمال العام في أصوله الأولية، ولا في ناتجه، ولا هي مؤتمنة.

من هو المؤتمن لها على المال؟

من أين ملكت المال وهي لم تخلقه، ولم يكن هناك سبب خاص عقلي، ولا ديني ولا عقلاني يعطيها الملكية الاعتبارية؟ لا ملكية اعتبارية في هذا الغرض على أساس من ملكية تكوينية يقرها العقل، ولا على أساس عقلاني، ولا على أساس من دين.

وعندئذٍ، فكل تصرف في المال العام من مثل تلك الحكومات هو من التصرف الباطل، وهذه هي النتيجة الطبيعية لعدم الملكية، وكون اليد ليست يد أمانة، وهي

١ - قصة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (عليه السلام) مع أخيه عقيل مشهورة، وقد ذكرها الإمام في إحدى خطبه، حيث قال: "والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غير الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعظم، وعاودني مؤكداً، وكُرر علي القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيع ديني، وأتبع قياده مفارقاً طريقي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه؛ ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألهاء، وكاد أن يحترق من ميسمها.

فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها ليعيه، وتجرنني إلى نار سجرها جبأرها لغضبه. أتئن من الأذى، ولا أتئن من لظى".

نهج البلاغة، خطب الإمام علي (عليه السلام)، الجزء: ٢، شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٢ هـ - ١٣٧٠ ش، المطبعة: النهضة - قم، الناشر: دار الذخائر، قم - إيران.

٢ - خطبة الجمعة (٢٧٨) ١٠ ربيع الأول ١٤٢٨ هـ، ٣٠ مارس ٢٠٠٧ م.

ضامنة إذا لم يكن إمضاء للتصرف، أو إبراء للذمة.

٢- أمّا الحكومة الشرعية، فالدقيق في حقها أنها مؤتمنة على المال العام، وليست مالكة، وهذا الائتمان ائتمان إلهي واقعا، وحسب النظر الشرعي - على تقدير شرعية الحكم بالشرعية الإلهية -، وهو ائتمان شعبي بشري على تقدير شرعية الحكم بالشرعية الديمقراطية الأرضية وموافقة أغلبية المحكومين على نظام الحكم.

على أن المالك الحقيقي على كل تقدير إنما هو الله سبحانه، وكل تفويض أو ائتمان إنما يجب أن يكون بإذنه.

النتيجة الكلية

وإذا كانت النتيجة: إن الحكومات غير مالكة للمال العام على كل التقادير لم يكن لها حق التصرف إلا في حدود إذن المؤتمن^(١) من شريعة إلهية، أو شعب.

وكل تصرف خارج هذا الإذن هو تصرف باطل ومضمون على صاحبه، ولا يصح للمؤتمن أن يتصرف في المال العام تصرف المالك في ملكه لنفسه، فضلاً عن غيره.

هذا ما عليه العقل، والدين، والعقلاء، والدساتير الصالحة في العالم.^(٢)

مال الشعب

المال العام مال الشعب، المشترك هذا المال فيه لقمة الفقير، وكسوة اليتيم، ومسكن المشرد، ودواء المريض، وما تحتاجه العقول في نموها، والنفوس في سلامتها، والأرواح في صفائها، والمجتمع في أمانه، وأخوة أبنائه، وبقائه وتقدمه، فيه حياة الناس وصلاهم.

وإذا فشى التلاعب في المال العام، واستبيح من الاختلاس، والتحايل، وسوء الإدارة كان في ذلك التوترات والانتفاضات والثورات والفوضى، وانهدام الدول، وانحطاط

١- رسول الله ﷺ فيما يرى مؤتمن على المال العام من قبل الله سبحانه وتعالى، ولذلك لا يستطيع رسول الله ﷺ أن يتصرف أدنى تصرف في المال العام إلا بإذن من ربه تبارك وتعالى، وتشريع ربه.

٢- خطبة الجمعة (٣٣٣) ٧ رجب ١٤٢٩هـ، ١١ يوليو ٢٠٠٨م.

الشعوب، واحتراق الحياة.

وكل من جامل، أو تستر، أو دافع، أو داهن، أو تساهل مع مختلس لشيئ من المال العام، أو متحايل عليه، وخائن له، فهو مجرم فاقد للدين، والضمير.

ولو كان هذا المستتر، أو المدافع، أو المتساهل نائباً من نواب الشعب الذين اختارهم لمواجهة الفساد، والدفاع عن مصالح الوطن، والمطالبة بالحق لتضاعفت جريمته، وعظمت خيانتة، وحرم على الشعب قطعاً أن يعيد انتخابه.

هذا أمر لا يختلف عليه أهل المذاهب، وحتى أهل الآراء الوضعية في حدود المتعارف. ^(١)

المال العام مال الشعب، ويشترك فيه كل أبنائه، والسرقة منه، والتحايل عليه، وسوء التصرف فيه يعطي كل مواطن حق الوقوف في وجه الأفعال الخيانية، ومن ورائها والمطالبة بمحاكمتهم ومعاقبتهم، وإرجاع المال بعينه، أو عوضه إلى مكانه.

فالمطلوب رقابة حقيقة لا رقابة اسمية، والرقابة الحكومية لا تكفي بلا رقابة نيابية حرّة ومسموعة من دون عملية التفاف ومراوغة.

والمهم في علاج الفساد المالي وغيره أساساً هو التوظيف على أساس الكفاءة والأمانة، لا الموالاة للأشخاص والمحاباة.

والرقابة ونتائجها المؤثقة قيمتها ليست ذاتية، وإنما طريقية؛ فما لم يترتب عليها الجزاء الوفاق لجناية الجاني مثلت إقراراً للفساد المكتشف الموثق. ^(٢)

وكلما سرق كبار المسؤولين شجّع ذلك صغارهم على السرقة، وكلما كثر السراق الرسميون للمال العام كلما توفرت الجريمة على عدد أكبر من الحماية، وحصلت على جيش من المدافعين من المؤتمنين على هذا المال، وحصل تعطيل لعجلة الإصلاح.

١- خطبة الجمعة (٣٦٨) ١٢ جمادي الأولى ١٤٣٠هـ، ٨ مايو ٢٠٠٩م.

٢- أنت توثق الخيانة، ثم تسكت عليها، فكانك أمضيتها، وفتحت أمامها الضوء الأخضر.

ولا يؤدب الصغار كورع الكبار عن المال العام، واحترامهم له^(١)، وحبس أيديهم عنه، والشعب هو المتضرر الأول من انتشار الفساد المالي، ولكن أي حكومة لا بد أن تنهار إذا تفاقم هذا الفساد.

ويجب أن يطال التدقيق والمحاسبة كل ذي موقع له صلة بالمال العام كبيراً كان الشخص أم صغيراً، حماية لهذا المال، ودرءاً للتلاعب به، وضياعه.^(٢)

المال في الإسلام

وهذه الثروة قبل أن تكون ثروة أفراد هي ثروة مجتمع، ولا حركة، ولا تقدم، ولا نمو لإنسانية الإنسان، ولا بلوغ من الإنسان لأهدافه حين تُبعثر الثروة العامة، وحين تتمكن منها أيدي السفهاء.

وأخطر ما يكون عليه الأمر أن يكون المال العام بأيدي السفهاء، فإنه إذا كان من الممنوع أن تمكن يد السفية الفرد ممّا هو ماله في القانون، وممّا يخصه من مال موروث، أو من مال مكتسب بيده، فإن المال، والثروة العامة حين تكون بيد السفية تكون الكارثة، والإسلام أحرص أن لا تكون ثروة الملايين في مثل هذه اليد.

المال ليس للعب إنما هو آليّة كمال، وهو عنصر من عناصر الحركة الاجتماعية، والحركة الإنسانية، وآلية ضرورية من آليات بلوغ الإنسان أهدافه الكبيرة، فهو عامل ضروري من عوامل قيام هذه الحركة، وبلوغ المسيرة الإنسانية أهدافها الإلهية المرسومة.

فالمال قيام كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.^(٣)

١- فلو حبس الكبير يده عن المال الحرام لتأدب الصغير، وحبس يده عنه.

٢- خطبة الجمعة (٤٣٦) ٢ صفر ١٤٣٢ هـ، ٧ يناير ٢٠١١ م.

٣- النساء: ٥.

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.^(١)

والإنفاق على النفس أمرٌ ضروري من ضروريات الحياة، وأبخل البخل لا يمكن أن يمتنع عن الإنفاق على نفسه، فالأمر بالإنفاق متَّجه في الأكثر إلى غير الإنفاق على الذات والولد.

إنَّه الإنفاق في الشأن العام، وفي الإصلاح الاجتماعي؛ ومن أجل بقاء الدين، والقيم السماوية الرفيعة.

وهذا الإنفاق وراءه ثمن، وثمر الإنفاق لا يكون إلا حيث يكون في الحياة.

الإنفاق في الآخرة لا دور له، ولا موضوع له أساسًا، فهناك لا بيع، والمال هناك لا ينفع، ولا يؤدي دورًا أصلاً.

دور المال هنا، ومن أجل أن تُشترى به الآخرة، والمال يتحقق به الإيمان، والكافرون هم الظالمون من لم يُنفق الإنفاق الذي أمر الله، فقد وقع في لون من الكفر العملي، وفي لون من الظلم الذي يبعده من الله سبحانه وتعالى.

استخلاف لا ملك

والانسان ليس مالكا حقيقيا للمال، وإنما هو مستخلف فيه من الله خالق الاثنين معًا، ومالكهما، ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.^(٢)

١- البقرة: ٢٥٤.

٢- الحديد: ٧.

تربط الآية الكريمة بين الإيمان بالله ورسوله، وبين الإنفاق من هذا المال الذي لا صلة للإنسان به إلا كونه قد استخلفه الله فيه، وعلى المستخلف أن يتعامل مع هذا المال، ومع كل شيء بيده من عند الله سبحانه وتعالى حسب إرادة المستخلف لا إرادته.

فالإنسان حيث يكون مستخلفاً في المال لا بد أن يراجع في تعامله معه، وتصرّفه فيه أمر ونهي وإرادة من استخلفه في هذا المال.^(١)

مشكلة الفقر

ماذا نعني بالفقر؟

أنّ يبیت الرجل وعياله بلا مأكّل؟

أنّ يعرفوا عن الملبس؟

أنّ يتشردوا بلا مأوى؟

هذه صورة قائمة من الفقر، ولكن ليست هي الفقر الذي يتحدث عنه الإسلام الذي ننتمي إليه، وليست هي صورة الفقر الوحيدة التي توقع الإنسان في الحرج، وتقلق حياته، وتذله وعياله.

الفقر هو حالة معيشية دون حد الكفاية، ويدخل في الكفاية كلما تفرّضه الحياة الاجتماعية التي ينتمي الفرد إليها من حاجات، ويدخل في الكفاية الخادم والسيارة والمنزل، وأكثر من سيارة وأكثر من منزل ما اقتضى حال الشخص ذلك، وأن يكون المنزل مناسباً وليس مطلق المنزل، ويتوسع إطار الكفاية بتوسع الحاجات المستجدة في الوسط الاجتماعي الذي ينتسب إليه الشخص، وينمو الوضع الاقتصادي، وما يرافقه من تقدم في مستوى المعيشة.

النّظرة الجذريّة للفقر

للإسلام نظرة جذرية للفقر، نترقب منه أن تتمشى تشريعاته معها خاصة أن

١- خطبة الجمعة (١٧٨) ٢٧ شوال ١٤٢٥هـ، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤م.

الإسلام لا يفارق تشريعه نظرته، ولا يؤسس قاعدةً، وينفصل عنها تشريعه.

١- «كاد الفقر أن يكون كفراً»^(١) عن الرسول ﷺ .

٢- وفي حديث آخر عنه: «لولا رحمة ربي على فقراء أمتي كاد الفقر يكون كفراً»^(٢).

الفقر في نفسه يكاد يكون كفراً، وبالنسبة لأبناء هذه الأمة المرحومة لولا رحمة الله يكاد يكون كفراً.

٣- «أربعة قواصم للظهر» من هذه الأربع «فقر لا يجد صاحبه له مداوياً»^(٣) عن أمير المؤمنين عليه السلام.

والفقراء شركاء الأغنياء، إذ أن نظرة الإسلام إلى المال هي أن المال مال الله، وإلى الخلق أنهم عيال الله، وإذا كان المال لله والعيال عيال الله، فلكل عيال الله، وليس لطبقة خاصة من عياله.

ونحن نفهم من كلمة أمير المؤمنين عليه السلام^(٤) أنه ما حرم فقير إلا بما شح به غني، أو استأثر به غني، أو بما تمتع به غني من مال حرام، أو من مال محبوبس عن مستحقه. والاستئثار قد يكون في حبس للمال، وقد يكون في توزيع غير عادل للثروة في المستوى الطبيعي منها وما بعد مرحلة الإنتاج، والموقف العملي للإسلام من مشكلة الفقر أن الثروة الطبيعية لا تحتكرها أيدي أفراد قليلين.

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - الصفحة ٢٤٣٨.

٢- المصدر نفسه.

٣- الخصال - الشيخ الصدوق - الصفحة ٢٠٦.

٤- عنه عليه السلام: «إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما تمتع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك، نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٤ ص ٧٨، شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة الأولى سنة الطبع: ١٤١٢ هـ - ١٣٧٠ ش، دار الذخائر، قم - إيران.

والإسلام يحارب الفساد المالي، حتى تذهب كلمة أمير المؤمنين عليه السلام إلى استرداد المال الذي منحه عثمان لغير أهله ولو تزوج به النساء^(١)، وهناك مبدأ: (من أين لك هذا؟) في مواجهة الفساد المالي.

وفي الإسلام ضمان اجتماعي في هيئة زكاة وخمس، وما إلى ذلك. وفيه تكافل اجتماعي، وفيه سياسة تفتت الثروة التي قد تعظم وتكبر في أيدي الأفراد، وقطع الطريق على عملها بيد أي شخص من الأشخاص.

الفقر شاهد صدق

شاهد صدق على أي نظام، وأي حكومة، وأي مجتمع؛ وأنه هناك حالة من الخلل الخطير.

إذا وجد فقر كان ذلك شهادة على حالة من الخلل الخطير الذي لا يمكن أن يستره الإعلام المائل المحابي، إلا أن تكون هناك حالات طارئة كحرب طويلة المدى، أو كارثة طبيعية قاسية قاصمة.

تقسيمات الفقر

ولنا أن نقسم ظاهرة الفقر من أكثر من حيثية بالصورة التالية، وهذا على وجه المثال لا الحصر:

١- ظاهرة مقيمة، وظاهرة عابرة.

٢- ظاهرة في طريق الانحسار، وظاهرة تزداد تركّزاً وانتشاراً.

٣- ظاهرة تفرضها ظروف خارج الاختيار، وظاهرة نابعة من سوء الاختيار كسوء توزيع الثروة، وسوء الإدارة، والتبذير للمال العام في جانب، وحبسه في جانب آخر أهم.

١ - عنه عليه السلام: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فاجبور عليه أضيق»، المصدر نفسه.

٤- ظاهرة يُخَطَّط؛ لتثبيتها وتوسيعها، أو تُوجَّه بالإهمال والتقصير، وإذا كانت حتى ظاهرة الفقر الاضطرابي والتي تفرضها ظروف قاهرة تنذر بحالة الانفجار والفوضى، فهي إذا كانت اختيارية كانت أشد فيما تنذر به، مما يحتم على الجميع أن يتلافى أخطارها وذيولها المدمرة، وانفجاراتها الخطيرة الكاسحة.

الفقر يجا في الإيمان ويقرب الكفر، والإسلام لا يُقرُّ الكفر ويواجهه.

- «كاد الفقر أن يكون كفرًا».^(١)

- «لولا رحمة ربِّي على فقراء أمّتي كاد الفقر أن يكون كفرًا».^(٢)

وكيف يكاد الفقر أن يكون كفرًا؟

إنه مدخلٌ لسوء الظن بالله تعالى، مدخلٌ للشيطان، ومدخلٌ للنفس الأمّارة بالسوء، يدخلان منه على ذات الإنسان، يؤثران على فطرته يغطيان وعي عقله، ينسيانه نِعَمَ ربِّه، فلا يرى من الله وَكَلِمَةً إلا تضيقًا، ولا يرى من الله سبحانه وتعالى إلا شدة، ولا يرى من الله سبحانه وتعالى إلا شحًا، وهو كفر، وقد يرتقي الأمر عن ذلك وهو عظيم، بأن ينكر وجود الله سبحانه وتعالى بعد أن تسقط عدالته سبحانه وتعالى في نفسه.

هذا إلى حقدٍ وغلٍّ دفينَيْنِ يُثيران في المجتمع الفتن، وإلى حسدٍ يشعل النفس ويحرقها، وإلى مشغلةٍ تلهيه إن لم يكفر عن دين الله، وعن الاهتمام بواجباته، وعن السعي إلى تكميل ذاته، فالفقر كاد أن يكون كفرًا، ولولا رحمة من الله وَكَلِمَةً تنقذ عددًا من الفقراء من الأمّة الإسلامية لعاشوا هذا الكفر، ولتغلغل في نفوسهم، ولكن من رحمة الله ما يأتي على القلوب المؤمنة، ما يلطف أجواءها، ما ينقذها من وسوسة النفس الأمّارة بالسوء، وكيد الشيطان.

سؤال: إذا كان الإسلام يرى الفقر بهذه المنزلة، فهل ترى من الإسلام:

أن يترك الفقر؟!

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - الصفحة ٢٤٣٨.

٢- المصدر نفسه.

أَنْ يَسْكُتَ عَلَيْهِ؟!

أَنْ يَتَفَرَّجَ عَلَى مَأْسَاةِ الْفُقَرَاءِ؟!

أَنْ يَقِفَ مَكْتُوفَ الْيَدِ أَمَامَ بَغْيِ الْأَغْنِيَاءِ؟!

أَتَرَى مِنَ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَادِلِ؟!، أَتَرَى مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ تَعَالَى أَنْ يَهْمَلَ نِظَامًا مِنْهُ عِبَادَهُ هَذَا الْإِهْمَالِ؟!

جواب: على المستوى التكويني أوجد الله سبحانه وتعالى هذه الأرض، وأودع فيها ما يكفي الحياة، ليست حياة الإنسان فقط، وإنما كل شيء يدب على الأرض، ولم يوسع في الخيرات بقدر يُغْرِقُ الْإِنْسَانَ إِغْرَاقًا حَكَمَةً مِنْهُ، وَلِأَنَّ الْحَيَاةَ حَيَاةَ ابْتِلَاءٍ، وَحَيَاةَ تَرْبِيَةٍ، وَمَدْرَسَةَ تَخْرِيجِ الْإِنْسَانَ مِنْ خِلَالِ الْكَدِّ وَالْكَدْحِ فِي ذَاتِ اللَّهِ.

جاءت الثروات الأرضية تكافئ مستوى البشرية مع عدلٍ للقوي بالنسبة للضعيف، ومن الغني بالنسبة للفقير، وفي ذلك امتحانٌ للطرفين، وحتى تتم التجربة البشرية على الأرض في وضعٍ مناسب، وليس من فقرٍ لله سبحانه، ولا شح منه سبحانه وتعالى أن يجوع فقير، ولا تهن عظام ضعيف، وإنما هي مدرسة حياة، مدرسة الابتلاء، مدرسة الامتحان التي تخرج للجنة أفواجًا، وللنار قوافل وأفواجًا!!

هذا على المستوى التكويني.

أمَّا على المستوى النظام التشريعي، فالدارسون للإسلام يجدون منه نظامًا اقتصاديًا متكاملًا، في وسطٍ من نظام شامل يهيئ الأرضية الكافية؛ لنجاح هذا النظام الاقتصادي العادل.

لفتةً نظرٍ للنظام الإسلامي الجزئي سواء إن كان نظامًا اقتصاديًا، أم نظامًا اجتماعيًا، أو نظامًا سياسيًا، أو أي نظام تفصيلي آخر، كل هذه الأنظمة لا تعمل على درب غايتها، ولا تبلغ بغيتها مفصولةً عن وسطها الذي يشكله النظام الإسلامي العام الشامل، الذي يبدأ من جذر العقيدة حتى ينتهي إلى كل مسألة تفصيلية من مسائل الحياة والإنسان ينظمها بما يصلحها.

لا نرتقب النجاح الكامل للنظام الاقتصادي الإسلامي - مثلاً - في وسطٍ من تربيةٍ كافرة، في وسطٍ من فلسفةٍ كافرةٍ توجه الحياة، في وسطٍ من نظامٍ اجتماعي كافر، في وسطٍ من نظامٍ سياسي وضعي.

أنت لا تستطيع أن تقتطع النظام الاقتصادي الإسلامي؛ لتعطيهِ النجاح الكامل الذي يستطيعه.

عندما تقتطع هذا النظام، وتفصله عن أرضيته التي يشكلها النظام العام الإسلامي، وتأخذ به إلى الوسط الأمريكي، إلى الوسط الأوربي، إلى الوسط الروسي، إلى الوسط التربوي، إلى الوسط الفلسفي، الوسط الشعوري، الوسط الاجتماعي، الوسط الخلفي المتردي هناك لن تستطيع أن تحقق للنظام الإسلامي الاقتصادي نتائجاً وثمراته.

يعطي النظام الاقتصادي الإسلامي ضماناً مائة في المائة أن يحلَّ مشكلة الحياة من ناحية اقتصادية، ويساهم في تربية الإنسان تربيةً صالحةً بدرجة عالية، لو طُبِّقَ في وسطٍ من النظام العام الإسلامي، وهكذا هو حال النظام السياسي والنظام الاجتماعي، وكل نظام آخر من الأنظمة التفصيلية الإسلامية.

أما الفقر على مستوى الظاهرة الاجتماعية، فقد واجهها الإسلام بنظام اقتصادي كامل، يقول (عليه أفضل الصلوة والسلام) فيما روي عنه - أمير المؤمنين -: «لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته»^(١)

أمير المؤمنين، الحاكم قالها في موقع الحكم؟ أو قالها في غير موقع الحكم؟

فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لا يتخلَّى عنها في موقع الحكم.

إنه يأخذ على نفسه أن يقاتل الفقر، وأن يواجه مشكلة الفقر من الجذور، وأن يلاحقها، ويطاردها من خلال تطبيق دقيق لنظام إلهيٍّ عادل.

١ - النظام السياسي في الإسلام، ص ٢٤٧، الشيخ باقر شريف القرشي، الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان.

وأُمير المؤمنين، وغيره مَهَن يحكمون بالإسلام لا يحتاجون في مطاردة الفقر واستئصاله إلا إلى العمل بأحكام الله **وَعَلَّزَّ**، والأخذ بدقائق نظامه علاقات اقتصادية عادلة، ونظام تربوي، ونظام عقيدي، ونظام سياسي، ونظام اجتماعي، ونظم تفصيلية أخرى كلها تعالج المشكلة الاقتصادية، كما أن النظام الاقتصادي يكمل النظام السياسي، والنظام الاجتماعي، وأي نظام آخر من نظم الإسلام في سعيها في القضاء على مشكلات الإنسان.

المسألة تبدأ من توزيع الثروات الأولية، ويتابع العدل الإلهي المسيرة الاقتصادية، وفي التوزيع الناتج بحيث يلاحق مشكلة الفقر، وأسباب هذه المشكلة من أول الطريق إلى آخره؛ ليقطع على الجشع أن يكبر الثروة في أيدي قليلة، ويفقر أيدي الملايين.^(١)

المعالجة الجذرية للأوضاع المعيشية

المعالجة الجذرية تحتاج إلى منهج متكامل، منه - لا كله -:

١- أن ينظر بعين الجد والإصلاح والتوزيع العادل، والثروة الأولية من مثل الأرض والماء، والثروة الناتجة بضم الجهد البشري، والحركة الاقتصادية في صورة خدمات متساوية.

٢- وإلى مجال الإدارة، والتوظيف بما يكفل تقديم الكفاءة الأقدر.

٣- وإلى إعداد الكفاءات الإدارية والوظيفية بما يأخذ بمبدأ المساواة، وعدم التمييز على الأسس التي لا تمت إلى مراعاة القدرة والمصلحة العامة بصلة.

٤- كما تحتاج المعالجة الجذرية إلى الترشيده، الإنفاق إعلاماً وعملاً، ومن ذلك أن لا يخطط؛ لاستعادة ما يدخل في جيب الشاب والشابة عن طريق المشاريع التي تفتك بالدين، والجسد، والإنسانية.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١٩) بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ١٠ أغسطس ٢٠٠١م.

٢- خطبة الجمعة (٥) ١٠ صفر ١٤٢٢هـ، ٤ مايو ٢٠٠١م.

هل الحكومة مسؤولة؟

تضع الحكومة يدها على الثروة في مصادرها الأولى، وتدير عملية التصرف فيها، وتشغيلها، وتوزيعها، فتملك بذلك القلب النابض لحركة الاقتصاد ومساراته، وهي تتحكم في الناتج بعد العمل، وفي حركة وتحديد الأجور، وحجم العمالة المحلية والأجنبية، وتطوير الخبرات، وسد حاجات سوق العمل بالكفاءات الوطنية.

وليس بعد ذلك أي وجه لعدم تحميلها مسؤولية أي فشل، أو خلل، أو ظلم يتسبب في مشكلة الفقر.

وطن بلا فقر

هل هذا ممكن؟

أهو خيال؟

أم واقع يحول دون تحقيقه عدم الجدية الكافية على أقل التقدير؟

الجواب:

١- توزيع الثروة قبل عنصر العمل، وبعد عنصر العمل باليد.

٢- معادلة القوى الوطنية والأجنبية باليد.

٣- تحديد أجور عادلة باليد.

٤- رفع الكفاءة ومستوى الخبرات باليد.

٥- إصدار تشريعات عادلة تغطي كل المساحة الاقتصادية باليد.

٦- معالجة الفساد الإداري باليد.

٧- الحد من الطبقة الفاحشة باليد.

٨- الوقوف في وجه السرقات والتلاعب بالمال العام باليد.

٩- الضمان الاجتماعي المجزي للعاطلين لضيق سوق العمل بالعمالة الأجنبية، ولغير القادرين على العمل باليد.

مخارج عديدة للتخلص من مشكلة الفقر الضاغطة ميسورة لمن يملك القرار، والخبراء، والمال إذا توفرت الإرادة الجديّة للحل.

وكان التصريحات تطل علينا بعزم جديد، وبروح جادّة نرجو أن تتجسد على أرض الواقع؛ لنهي هذه القضية المخزية.

وعليه، فإنّ قضية «وطن بلا فقر» - يكون هذا الوطن العزيز مصداقاً لها - ليست فوق أن تُنال، والشرط هو العدل والجد في الأمر، والصدق الكامل في خدمة الشعب، وسماع صوت المحرومين، وجودة التخطيط وتطوير الكفاءات، وتقديم المواطن على غيره، وتحمل مسؤولية المتعطل المعذور، وحفظ أمانة المال العام، وإحكام الرقابة، وحسن الإدارة، ودقة المحاسبة، واسترجاع الأموال المسرّبة، والعقوبة الرادعة إلى ما هنالك من خطوات أخرى جادة.

وهذا الكلام مشاركة في مواجهة طويلة المدى للمشكلة السيئة، ودفع كل القوى الخيرة على طريق التخلص من المأزق الخانق الذي يهدد حاضر الوطن ومستقبله، واستنهاض الحكومة لأن تقوم بواجبها.

ونحن نحتاج إلى وعي شامل لمشاكلنا، وتركيز لهذا الوعي، وجهر بالكلمة التي يفرضها حتى تكون المشكلة مطروحة على ألسن الكثير، فلا تجد أرضية للبقاء والترعرع في الظلام، والكلام لا يقال دائماً للإثارة، والاستفزاز، واستحداث الفواصل، أو توسيعها.

فإنّما نريد حل مشاكلنا الوطنية لا تأزيمها، والتخلص منها رحمة بالوطن لا تعميقها، وليست المسألة مسألة صراع بين شعب وحكومة، وتحشيد على هذا الطرف لصالح ذلك الطرف.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٦٧) ٩ شعبان ١٤٢٥هـ، ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤م.

الإيمان في مواجهة الفقر

أما بعد، أيها المؤمنون والمؤمنات، فهذه جملة من النصوص المروية عن معادن الحكمة، وخزنة الوحي في الناس - أهل بيت النبوة - تتحدث عن نوعين من الفقر، فقر الأيدي، وفقر النفوس:

- «كاد الفقر أن يكون كفرًا»^(١).

- «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ.

فقال رجل: أيعذلان؟ - يعني يساوى هذا بذاك حيث تستعيز منهما يا رسول الله في عرض واحد -؟

«قال: نعم»^(٢)، عن الرسول ﷺ .

فهنا تنافٍ أساس في نظر الإسلام بين مجتمع الإيمان ومجتمع الفقر، وكما هو تنافٍ في مفهومه هو في نظامه وهو في سيرة قاداته، وهو في كل تطبيقاته، وفي الحس المركز في شعور الإنسان المؤمن الذي يعيش حالة الإيمان.

والموقف من الكفر هو الموقف من الفقر في المنهج الإسلامي مواجهة ومحاربة ومطاردة.

والأمر هو كذلك عند الرساليين، وكما تقاس إسلامية المجتمع إلى درجة الكفر وعدمه، كذلك تقاس في الحالات الاختيارية إلى درجة الفقر وعدمه.

الأول على مستوى العقيدة، والثاني على مستوى التطبيق.

- «الفقر في الوطن غربة»^(٣).

إنَّ الفقر مذهلة للنفس، مدهشة للعقل، جالب للهموم.

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهرى - ج ٣ - الصفحة ٢٤٣٨.

٢- ميزان الحكمة - محمد الريشهرى - ج ٣ - الصفحة ٢٤٣٨.

٣- ميزان الحكمة - محمد الريشهرى - ج ٣ - الصفحة ٢٤٤٢.

- «الفقر هو الموت الأكبر»^(١)، عن الصادق عليه السلام.

- «الفقر أشد من القتل»^(٢)، عن الرسول ﷺ.

- «القبر خير من الفقر»^(٣)، عن علي عليه السلام.

كيف ترون أن يقف الإسلام من المؤمن في غربته؟

من الموت الأكبر يتهدد المجتمع؟!

ممّا هو أشد من القتل؟!

ممّا القبر خير منه؟!

أيقف الإسلام نظاماً؟

أيقف الإسلام رجالاً؟

أيقف الإسلام تطبيقاً؟

من كل ذلك موقف مكتوف اليد؟!

أم أن الإسلام يقف الموقف الجاد على مستوى العقيدة؟ وعلى مستوى الشعور، وعلى مستوى التربية، وعلى مستوى التحشيد العملي، على مستوى التعبئة الاجتماعية العامة في مواجهة مع الموت الأكبر، مع ما هو أشد من القتل؟

مع ما القبر خير منه؟!

الإسلام يقف بكل قوة في وجه الفقر الذي يعد في الوطن غربة.

وهل يرضى الإسلام لأبنائه أن يعيشوا بشعور الغربة، وشعور الكآبة، وشعور

الوحشة، وشعور فقد الاستقرار حتى في الوطن؟!

وهل يرضى لأبنائه أن يعيشوا حياةً هي أشد من الموت الأكبر.

١- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٠١ - الصفحة ٧١.

٢- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٩ - الصفحة ٤٧.

٣- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٤ - الصفحة ٢٨٤.

هي أشد من القتل؟ حتى يتمنوا أن يذهبوا إلى القبور بدل أن يكونوا على ظهر الأرض للفقر؟!

الرسالين - أيضاً - كما تهمهم كل هذه المشاكل، يهمهم أمر الفقر الذي قد يزيد عليها.

فالمجتمع المؤمن لا يكون مجتمعاً مؤمناً، والرسالين لا يكونون رسالين فعلاً حتى يحملوا من هم الفقير ما يحملونه من هم أمام الموت الأكبر، أمام ما هو أشد من القتل، أمام الغربة في الوطن، أمام ما القبر أحسن حالاً منه.

الفقر والشخصية الإنسانية

عن أمير المؤمنين عليه السلام - في نصيحته لابنه الإمام الحسن عليه السلام - : «لا تلم إنساناً يطلب قوته، فمن عدم قوته كثر خطايا».

يا بني، الفقير حقير لا يسمع كلامه - الإمام عليه السلام لا يقرر أن الفقير حقير في ذاته، وإنما يقرر أن الفقير برغم علو ذاته، وسمو ذاته يراه المجتمع حقيراً، ولا يريد عليه السلام المؤمن أن تنتهبه العيون على أنه موجود حقير -، ولا يعرف مقامه، لو كان الفقير صادقاً يسمونه كاذباً، ولو كان زاهداً يسمونه جاهلاً.

يا بني، من ابتلي بالفقر ابتلى بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقعة في دينه، وقلة الحياء في وجهه، فتعوذ بالله من الفقر.^(١)

الفقر يتغلغل بأثره القاتل إلى أعماق إنسانية الانسان، إلى مراكز العزة والكرامة في ذاته، إلى مكان الشعور والتفكير، إلى كل خلجة من خلجات النفس تريد أن تشعر بالعزة، وتريد أن تشعر بالكرامة في المجتمع.

هذا الفقر يؤثر على دين هذا الإنسان، على اعتزازه بإنسانيته وبدينه، يفقد من كمال عقله، يرق دينه حتى لا يقاوم ولو سهماً ضعيفاً من سهام الشياطين.

هذا كله على مستوى الشَّأْنِيَّة والاقتضاء بمعنى أنَّ الفقر في نفسه يستدعي كل ذلك سواء وجد نفساً صلبة مقاومة من الفقير تتفوق على كل الضغوطات، أم وجد نفساً مهلهلة من الفقير تخترقها هذه المشكلات.

المهم أن الفقر فيه اقتضاء أن يفعل كل هذه المآسي في نفس الفقير، ومن الفقراء بالطبع من هو أعز ملايين المرات من أغنى الأغنياء.

إذا معالجة مشكلة الفقر على المستوى العام، أو على المستوى الفردي، أو على المستوى الاجتماعي الجزئي، تقع على طريق بناء العزَّة والكرامة، والدِّين والشخصية القوية، والدور الاجتماعي المؤثر، فإذا أردنا مجتمعاً قوياً عزيزاً كريماً يشعر بشخصيته الإيمانية المتفوقة، ويؤدي دوره الاجتماعي والرسالي الفاعل، فلا بدَّ لنا بصفتنا مجتمعاً مؤمناً، وبصفتنا رساليين إلى أن نواجه وبكل ما أوتينا من قوة مشكلة الفقر في الحدود الضيقة، وفي الحدود الواسعة الممتدة.

ومن هذا المنطلق، فنحن حين نطالب الدولة بالدِّين نطالبها، بالدُّنيا، لأنَّ الدِّين والدنيا في نظرنا الإيمانية والإسلامية المتكاملة مترابطان، ولا يقوم أحدهما على معزل من الآخر.^(١)

الثَّروَات الاقتصادية ومقاومة الهيمنة السِّياسِيَّة العالميَّة

ولا طريق لتحرير الثَّروة، ورد العدوان عنها، وقطع يد سَرَّاقها والمستولين ظلماً عليها وهم أكبر سَرَّاق العالم وناهبيه إلا بالبذل الكبير الذي يحفظ تدقُّ عائدتها المستقبلي على مدى الأجيال المتعاقبة لصالح أصحابها أصحاب الأرض وتاريخها الحقيقيين.

إنَّه جيل واحد يضحي بشيئ من ثروة البلد؛ من أجل حفظ هذه الثروة لكل الأجيال القادمة، ومن أجل أن تتنامى على يده ويدها المخلصين الحرَّتَيْن الفاعلتين.

١ - خطبة الجمعة (٦٥) بتاريخ ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ، ٢٨ يونيو ٢٠٠٢ م.

وإذا عانت البلاد التي استطاعت تحرير اقتصادها من الهيمنة والسطو الأجنبي من مشكلات اقتصادية للحروب المفروضة من العدو، وألوان الحصار والتآمر، والحاجة إلى الإنفاق على التسليح ممّا يحمي أمن البلاد، فإنّ ذلك مرهون بوقت معيّن، وحتى التغلب على هذه المشكلات المثارة.

ولنتذكر حصار شعب أبي طالب الذي نال من النَّبِيِّ ﷺ والهاشميين ما نال من سطوة الجوع والضعف، ولكن من نتائج ذلك الحصار أن قامت دولة عملاقة، وكبرت الثروة في يد المسلمين حتى أصابت بعضهم بالجنون؛ جنون التلهّي بالدنيا، ونسيان الآخرة.

ولا يقاس ذلك بحالة الاستسلام للعدو الجاثم على صدر أي بلد وشعب والمستنزف لخيراتهم، والمتصرف فيها تصرف المالك المطلق، والذي لا يبقى للشعب المستعبد إلا الفئات الذي يسمح كعدوّه باستمرار استثماره له.

وأنت إذا نظرت إلى شعوب البلاد الغنيّة بثرواتها الطبيعية وما يستخرج منها، وما هي عليه من وضع معيشي وجدتها في جمهورها العريض فقيرة جدّاً بالقياس إلى طبيعيّ تلك الثروة ومصنّعها.

وأما البلاد الفقيرة بطبيعتها، فلا ينقذها استعباد الطغاة العالمين من فقرها إذا لم تزدد بذلك فقرًا على الفقر، وفاقّة على الفاقة، هذا إلى جانب الذل المقيم، والهوان الساحق.

والطغاة لا يبحثون عن بلدان يعالجون فقرها، وإنما همهم بلدان يستثمرونها، ويستغنون بها، ويستثمرون شعوبها لمطامعهم.^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٢٨) ٢ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٦ يونيو ٢٠٠٨م.

ربط الاقتصاد بالدولار

واستمرار ربط الدينار بالدولار الذي يعاني من تراجع في قيمته الشرائية ليس من مسؤولية الطبقة المحرومة من أبناء المجتمع، وليس عليهم أن يتحملوا ضريبة أي خطأ في هذا المجال من الغير.^(١)

الاقتصاد واستنزاف الميزانية العسكرية والأمنية

ونسأل: لِمَ تتضخم ميزانية الدفاع والأمن على حساب ما تتطلبه ضرورة الإسكان؟ وإنه لا قيمة عملية لتكديس أسلحة بمليارات الدنانير؛ لتتقادم كما تقادم غيرها، وهي في مخازنها بينما يكون التضيق على حاجة السكن الضرورية. وأما الأمن الداخلي، فإنما يُشترى بكسب ثقة المواطن لا بإثارة الريبة عنده من جهة، وإشعاره بأنه العدو الملاحق والمستهدف من جهة أخرى.

رضا المواطن إنما يُشترى ببيت يسكنه، ولقمة عيش مريحة، وكرامة محترمة، ودين غير مستهدف، وخيار مذهبي غير معاقب عليه، وبإنصافٍ يشعره بالاعتراف له بحقوق مواطنته، وأنها على حد مواطنة أي مواطن آخر يشاركه وصف المواطنة الأصيلة.

نعم، لا بد أن يكون هناك إنصاف يشعر هذا المواطن بالاعتراف بأنه مواطن على حد ما عليه المواطنون الآخرون في مسألة المواطنة، وأن مواطنته من الدرجة الأولى إذا كان حقها كذلك.

ولا يُشترى الأمن الداخلي بالميزانيات الضخمة، واستيفاد أعداء غفيرة من المشتغلين في الداخلية، وخبراء التعذيب المرتزقة، وبزيادة السجون، وتشديد العقوبات، وتوتير الحالة الأمنية بالمقالات الصحفية الممزقة، وبكيل الاتهامات للشرائح الواسعة من المواطنين، وعلى لسان رسميين كبار في أكثر من مناسبة، وبممارسات قمعية من النوع المعبر عن الانتقام والاستهتار.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٢٩) ٩ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ١٣ يونيو ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٣٢٩) ٩ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ١٣ يونيو ٢٠٠٨م.

البطالة والضمان

البطالة بما هي ظاهرة مرض اجتماعي خطير يهدد المجتمع بأمراض كثيرة كما يعرف الجميع.

ومشكلة البطالة إنما علاجها الأول في العمل وليس في الضمان، وإن كان الضمان ضرورة لا بد منها حينما لا تتوفر فرص العمل.

لا يقال لجائع ومعذب: انتظر خمس سنوات عليك تحصل على فرصة عمل في الخطط التطويرية الجديدة والمعالجات العملية للوضع السيئ.

عليك أن تبقى على جوعك وعراك، وعلى عذابك منتظرًا هذه الفرصة.

ونقول: إن الضمان على ضرورته لا يقوم مقام العمل، ولا يكون بديله المكافئ.

وهذه بعض الفوارق التي تُذكر في المقام:

١- الحياة في الحركة والإنتاج، وهذا ما يتكفل به العمل دون الضمان الاجتماعي.

٢- العمل يُشعر بالعزّة؛ الشيء الذي تفتقده مسألة الضمان.

٣- العمل زيادة في الإنتاج القومي، والضمان استنزاف للنتاج.

٤- العمل يربّي حسّ المسؤولية، والضمان يثير روح التواكل.

٥- العمل يعالج الناحية المادية والنفسية والاجتماعية السلبية الناشئة من الفراغ،

بينما قد يعالج الضمان الجانب المعيشي، وتبقى المشاكل الأخرى يعاني منها الفرد والمجتمع.

٦- العمل يمكن أن يفتح فرص الرخاء المادي للأسرة، بينما لا يملك الضمان أن

يفعل ذلك.

٧- العمل يوفر احترامًا اجتماعيًا لصاحبه داخل الأسرة وخارجها، ولا يوفر

الضمان ذلك.

٨- يمكن أن تتربى مع العمل روحية البذل والعطاء، والضمان إنما يربي أخلاقية الأخذ.^(١)

نداء

يا مسؤولون، يا حكومة، يا كلَّ القوى، أنقذوا الشباب من براثن البطالة، اسمعوا صرخاتهم، فالفقر أخ الكفر، ومعدور من شهر سيفه عند جوعه، وعند جوع زوجه وولده. الذين تأكلهم البطالة سيصبرون إلى حدٍّ، وصبرهم صار ينفذ، وقبل نفاذ الصبر لا بدَّ من حلٍّ.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١٩٠) ٣٠ محرم الحرام ١٤٢٦هـ، ١١ مارس ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (١١٨) ٣ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ٤ يوليو ٢٠٠٣م.

الباب التاسع

الحكومة والسياسات الأمنية

الوضع الديني، والوضع الثقافي، والوضع الاقتصادي، والوضع السياسي، والوضع الأمني، كلها أوضاع مترابطة.

إذا دخل الخلل على أحدها عمَّها الخلل كلها، ولا يسلم أي وضع من هذه الأوضاع إذا ابتلي أحدها بسوء.

الأوضاع الاجتماعية جسم مترابط، ومركب عضوي يتأثر بعضه ببعض الآخر، والوضع الأمني واحد من أهم هذه الأوضاع.

فإذا تدهور انعكس بآثره السيئ، وبالفوضى فيه على كل بعدٍ آخر، وكل وضع آخر من أوضاع المجتمع.

نحن نقدر هذا ونفهمه، وعلى يقين منه.^(١)

الأمن حاجة ومسؤولية

الأمن حاجة كل شعب وحكومة، وأي مواطن كان فردًا من شعب، أم عضوًا من حكومة.

وفاقد الأمن لا يسعه أن يفكر في شيء قبل أمنه، أو أن ينتج بعيدًا عن طلب ذلك الأمن وهو فاقد له.

وأمن الحكومة والشعب إمَّا أن يتَّحد، وإمَّا يتعدد بأن يكون لهذا الطرف أمنه، ولذلك الطرف أمنه الآخر.

فإذا كان واحدًا في عقلية الطرفين ومساهما، فهو التلاقي، والتواقي، والتساند، لتحقيق الهدف المشترك.

١ - خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥ هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤ م.

أما إذا تعدد الأمن بينهما، فهو التهافت، والتعارض، وعدم الاجتماع الذي يثير معركة دائمة بين الطرفين حفاظًا على الذات ولو بما فيه القضاء على الآخر، أو إضعافه إلى حد أمن المقاومة منه، لأن واقع العلاقة في حالة تعدد الأمن بين الشعب والحكومة أن يكون أمن هذا خوف ذاك، وفي خوفه أمنه، وكل خائف لا بد له من طلب أمن نفسه ولو على حساب من يريد سلب الأمن منه.

وليتحد الأمن لا بد للحكومة أن ترى نفسها جزءًا من الشعب، وتقف من كل مكُوناته على بعد واحد في سياساتها التي يجب أن تكون سياسات رحيمة حكيمة عادلة رحيمة، ولا ترى لها مصلحة مفصولة عن مصلحة الشعب، ولا تكون سببًا يُلْتهم خيرات الأرض وثمرات جهود الكادحين، وإلا كان التضاد في الوجود، والتعددية الأمنية، والتهافت والتعارض والتصادم والتناهي بين أمن تريده الحكومة لنفسها على حساب الشعب، وأمن يطلبه الشعب، ويلغيه أمنها.

والحكومة هي المتكفل الأول بأمن الشعب.

وإنه وإن كان الأمن مسؤولية مشتركة، وتقع على عاتق كل واحد، لكن مع ذلك تبقى الحكومة هي المتكفل الأول بأمن الشعب، لتأتي مسؤولية الشعب بعد ذلك في طلب الأمن للحكومة؛ من أجل أمنه.

أما الأمن الذي يكون فيه خوفك، فلا يعقل أن تحافظ عليه.

هذه قواعد فكرية، هذا منطق قبل أن يكون كلامًا عن ساحة معيَّنة.

ولنا أن نطبقه على كثير من ساحاتنا في البلاد العربية والإسلامية التي تعيش واقع الانقسام بين الشعوب والحكومات.

نعم، الأمر أن الحكومة هي المتكفل الأول بالأمن حسبما تفرضه مسؤولية الحكم، وحسبما يفرضه وضع الإمكانيات والموارد والقوة من قبل الشعب بيدها إذا كانت تلك الحكومة عن رأي الشعب الذي تدير شؤونه.

والأمن الذي تُسأل عنه الحكومات من قبل الله تعالى ثم الشعوب هو أمن الدماء

والأعراض والكرامات والأموال، والأمن الحضاري والديني والمذهبي للمواطنين، والأمن الثقافي والاجتماعي، وأمن الحرية النظيفة، والكلمة الصالحة، وحرية التنقل، والأمن الغذائي، والصحي، وغير ذلك.

المعنى الصحيح للأمن

الأمن ليس أن أسلم على نفسي، وأكون العبد الذليل.

الأمن ليس أن أسلم على لقمتي، وتسلب مني ديني وكرامتي.

لا ينبغي أن يضيق معنى الأمن في ذهن الناس، والمجتمعات تختلف في أهمية الأمن، فلو أسقيت المؤمنين عسلاً مصفىً، وألبستهم الحرير، وأسكنتهم القصور، وأطعمتهم ألذ طعام وأطيبه، وخذشت دينهم لثاروا في وجهك.

نعم، هناك شعوب أكبر أمنها اللقمة، ولكن الشعوب الإسلامية الواعية - وهذا الشعب منها - لا يمكن أن ينام على رخاء دنيا مع مطاردة دينه.^(١)

والأمنان عندنا مترابطان، وموقفنا من طلب الأمنين بقوة واحدة، أمّا عند التعارض فإننا نبيع ديانا من أجل ديننا، ولا نشترى دنياً بدين إن شاء الله.

ذلك هو الأمن الذي تتحمل الحكومة مسؤوليته.

ومن هذا الأمن الذي توفره الحكومات لشعوبها يأتي أمن الكرسي، والاطمئنان عليه، لأن هذا الأمن سيكون من أمن الشعب.

تهديدات للأمن

ولا يتحقق أمن لشعب، ولا لحكومة بالسياسات الجائرة، والأخذ بالأثرة والظلم والفرقة والإساءة إلى المحكومين، ومصادمة عقائدهم والتزاماتهم الدينية وشعائريهم، والتخطيط ضدهم، والاستطالة عليهم، والإخلال بالواجبات الخدمية الثابتة على الحكومات، ولا بانتهاب الثروة، وتكميم الأفواه، وزيادة السجون، والشرطة المرتزقة،

١ - هتاف جموع المصلين بـ (لبيك يا إسلام).

والأجهزة الأمنية المتعددة، والتعذيب والتنكيل، وخلق الأزمات الواحدة تلو الأخرى، وتسليط الأسن البذيئة على الشرفاء، وعلى أي متفوّه بكلمة ناقدة مخلصّة، وتهويل الأمور الأمنية، وربطها بمسرحيات مفضوحة لأكثر من مرة.^(١)

الوضع الأمني تُقوّمه أمور، وتُحطّمه أمور:

من مقوّمات الوضع الأمنيّ

العدل، الثّقة المتبادلة، الحوار الجاد، النظرة الموضوعية البعيدة، عدم تحكيم الانفعال في القرار، اللغة الموزونة.

من محطّات الوضع الأمنيّ

الظلم، التصور الخاطئ لطرفٍ أو أكثر مما يهدم الثّقة، عدم التفكير في العواقب البعيدة، الفرور بالقوة، المبادرة لاستعمال القوة والعنف، الإفراط في استعمال القوة والعنف، اللغة الطائشة والمتشنّجة، تضيق الحريات، ارتجالية المواقف.

هذه الأمور ليست مصنّفة على هذا الطرف بخصوصه، أو ذلك الطرف بخصوصه، قد يحدث الخطأ هنا، وقد يحدث الخطأ هناك.

الجميع مسؤول، والحكومات أولاً

هذا الطرح - الذي ذكرته من وجود مقوّمات ومحطّات للحالة الأمنية - يجعل مسألة الوضع الأمنيّ من مسؤولية الجميع، والنظرة المنصفة لا يسعها إلا أن تُحمّل الحكومات - إجمالاً - المسؤولية أولاً، لأن أول ما يقلق المجتمعات هو السياسات المجافية للعدل، منطلق المشاكل هو أن تكون هناك سياسات حكومية مجافية للعدل، مستضعفة للناس، مصادمة لضرورات حياتهم، مناهضة لمقدساتهم، وكراماتهم.

وهذا لا يعني أن المصلحة الوطنية تحقّقها مفتوح على كل الوسائل والكلمات عند المعارضة بعيداً عن كل الموازين والضوابط الشرعية والعملية.

١ - خطبة الجمعة (٣٥١) ١٢ محرم الحرام ١٤٣٠ هـ، ٩ يناير ٢٠٠٩ م.

إنَّ عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد نُظِّمها الإسلام تنظيمًا دقيقًا، وكل أمر بالمعروف ونهي عن المنكر عليه أن يبدأ أولاً بالتفقه في هذا الباب تفقُّهًا دقيقًا؛ لأنَّه يضر أكثر مما ينفع في بعض الأحيان.

الحوار الجاد هو المخرج

ولا حل في النظر الموضوعي لرمزة المشكلات، وحالات التدهور المخوف إلا عملية حوار جاد هادف مخلص يسلك بالجميع إلى نتيجة التوافق الشامل على مجمل الوضع، وإلا فالساحة ستبقى تتراوح بين يوم هداة ويوم زلزال إن لم يعصف بها زلزال عنيف؛ لتعيش حالته على طول الخط.^(١)

عاقبة الطَّيش الأُمِّي

إنَّ البشاعات التي ترتكبها بعض الأنظمة الطائشة لا بدَّ أن تنتهي للقضاء عليها، وفي حين أنها تتخذها؛ لإسكات الأصوات، تجدها أخيرًا أنها سبب للتفجير الخطير. وهكذا كانت بشاعات بني أمية.^(٢)

الحلُّ الأُمِّي للمشكلات السِّياسِيَّة

يصلح أن يكون الحلُّ الأُمِّي للمشكلات السِّياسِيَّة تعبيرًا عن العجز عن الحل، ولا يمكن أن يكون هو الحلُّ، وكيف يكون حلًّا وهو يُعقِّد الوضع، ويوقف حالة التفاهم، ويُبعِّد بين وجهات النظر، ويزيد في الفواصل، ويثير النفوس، ويلهب المشاعر، ويغيِّب العقل، وينشِّط حالة الانفعال، ويلهب العواطف المتواجهة.

وكما هو ليس بحلٍّ، فهو ليس من مقدّمات الحلِّ، لأنَّه مقدمة غير متجانسة مع ما هو الحلُّ الحقيقيُّ، وهو الإصلاح.

١- خطبة الجمعة (٢٧١) ٢٠ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ٩ فبراير ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

الحل الأمني مشكلة في حد ذاته من المشاكل الحادة التي تتطلب الإصلاح، وتقرض ضرورته، وتدعو إلى تعجيله.

لئن مثل ما يُسمَّى بالحل الأمني حلاً في النظرة السطحية والقريبة، فهو على العكس من ذلك حسب النظرة المعمّقة وذات البعد؛ يمثل أزمة في حد ذاته تضاف إلى ما هنالك من أزمات أخرى تتطلب الحل، وهو في هذه النظرة مشكلة من المشاكل المستعجلة بالغة الضرر.

الحل الأمني يُعاكس الإصلاح الذي هو الحلُّ، يأخذ مكانه، ويحول دون تحقيقه، بينما الإصلاح للحياة السياسية، ولمختلف مشاكل المجتمعات كالعلاج للبدن يُطلب التّكبير به، ويفقد من قيمته بقدر تأخيرهِ^(١)، ويتعسّر أمره كلما انتُظر به، وقد لا يجدي، ويفقد فاعليته بطول الانتظار^(٢).^(٣)

منطق القوّة

واعني بالقوة هنا، القوة الباطشة، المنفلتة، المستبiche، المسرفة، المعرضة عن لغة الحق والعدل، المستبدلة عنها بلغة الرصاص، والقنص، والإرهاب، والاختطاف، والسب والشتم، والكلمة الساقطة البذيئة الدنيئة.

هذه لغة الغاب التي لا مكان لها في العالم اليوم، والتي لا يمكن لها الاستمرار، وأن يستعاض بها عن الاعتراف بالحقوق والكرامة، هذه اللغة تزيد في استحكام الأزمة وتتصاعد بها، وتسد كل منافذ الحل الذي لا يحتاجه طرفٌ دون طرف، ولا بديل عنه لأحدهما.^(٤)

١- المريض إذا أخر العلاج ضرّه تأخيرهِ، والمجتمع إذا مرض، والمشاكل الاجتماعية أمراض، إذا تأخر حلها، فلا بد أن يضر هذا التأخير.

٢- إذا انتظر المريض بطلب العلاج لحظة أن يحضر موته، فعندئذ يكون قد فات أوان العلاج.

٣- خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٦ مايو ٢٠١١م.

٤- خطبة الجمعة (٤٤٤) ١٩ ربيع الآخر ١٤٣٢هـ، ٢٥ مارس ٢٠١١م.

تجارب سياسة العنف الحكومي

وساحتنا العربية كلها تجارب حيّة تفيد بأن سياسة العنف لا تُؤلّد إلا عنفاً، وتزايد البطش لا يدفع بأوضاع الأوطان المتهبة إلا إلى تصاعد، حتى يكاد الوطن يحترق كله، وهذا مع ما تتفحه الصّراعات العنيفة المنفلتة من أبوابٍ على مصراعها؛ لِنُدخلُ أجنبي أكبر^(١)، وما تخلقه من الأرضية المناسبة؛ لتمكين التدخل الأجنبي لما تُلحّ الحاجة إلى الاحتماء به من طرف أو أكثر.^(٢)

ولو استطاع العنف والقتل بالمئات والألوف مع التّعديّات المروّعة الأخرى التي يمارسها النظام الرسمي (أ)، أو (ب) في ساحتنا العالمية أن يُسكت شعبه إلى وقت، فإنّه لا بُدَّ أن يتوقّع الانفجار بدرجة أقوى في كلّ لحظة من لحظات المستقبل.

وعليه في ظلّ هذا الترقّب الدائم، أن يضع كلّ ثروة الشعب، وكل الوقت، وكل الجهد، وإمكانات الوطن في حراسة أمنه، وإضرار الشعب، وإضعافه، وتفريقه، وإخافته بدل أن يعيش معه في أمن مشترك، وثقة متبادلة، وتعاون مثمر يصبُّ في صالح الوطن كله، وبنائه، وعزّه، وهيبته.

أسلوب البطش الذي يستخدمه عدد من الأنظمة لئن سكّنت عليه الحكومات القويّة رعاية لمصالحها المادية التي لا تُساوي كل القيم المعنوية والدينية والأخلاق الإنسانية بإزائها شيئاً، فإنّ الشعوب المحايدة في كلّ العالم وإن كانت بعيدة ترى فيه ما يُنقص من قيمتها، ويهدّد مصيرها، ولذلك لا بُدَّ أن تدينه بقوة من منطلق هذه الرؤية، وضميرها الإنساني.^(٣)

الحلول الأمنية هل هي قادرة على حلّ الخلافات؟

تُثبت الأيام والأحداث في الساحة العالمية والعربية أنّ الحلول الأمنية في خلافات الحكومات والشعوب قد فقدت القدرة على إسكات الناس.

١- وهو أكثر ما يضرّ بالأوطان.

٢- وفي هذا أكبر الخطورة التي ينبغي أن يدرك كل مواطن وطنه عنها.

٣- خطبة الجمعة (٤٥٢) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٢٠ مايو ٢٠١١م.

أما بالنسبة لحلّ المشاكل، فالحلُّ الأمنيُّ بعيدٌ عنه كل البعد، ولا يزيدها إلا تعقيداً، وتفاقماً، وامتداداً، وتوسُّعاً، ويضع المجتمعات على فُوهة البركان.

وإذا استنفد الحلُّ الأمنيُّ طاقته؛ ليزيد من تفاقم المشاكل، فماذا بعد؟، أن تبقى المشاكل على ما هي عليه؛ لتتضاعف مع الأيام؟، وتزيد في سعة التمزُّق، وتعميق الخلاف، وتغذية الصُّراع، وإضعاف الأوطان، ووضعها تحت التَّهديد الدَّائم بالانفجار هذا؟ أو أن يُبادَرَ بالإصلاح من قِبَل الحكومات؛ ليعالج أصل الدَّاء، ويسدَّ منبع الفساد، والخلاف، والتمزُّقات؟

وإذا كان ذلك في أثر موجةٍ أمنيَّة صارمة، وانتهاكِ واسعٍ للحقوق، وحملةٍ كبيرة من الإجراءات الانتقامية المخلفة لآلام صعبة، ومظاهر قاسية كان أوَّل الإصلاح التخلص من هذه الآثار الموجعة والمظاهر الاستفزازية اللاهبة كما هي حالة امتلاء السجون والمحاكمات والأحكام السياسية المترتبة عليها، والفصل من العمل والدراسة، واستباحة أمن الناس، وكل مظاهر التَّعدي، والإخافة، والإرعاب.

الحلُّ يكمن في معالجة الأسباب

ويُسأل من أين تأتي الاحتجاجات والمظاهرات والاعتصامات؟ في الحالة التي يتفق فيها الجميع على الحاجة إلى الإصلاح، ووجود أوجه للفساد، ولخلل تحتاج إلى معالجة لا بدَّ أن نسلم أن المنطلق للتحرك هو الفساد والخلل والحاجة إلى الإصلاح.

وعند التخلص من المظاهر الطافحة الصارخة مما يخلِّفه الحلُّ الأمنيُّ للإصلاح المطلوب ينتفي موضوع كل احتجاج ومظاهرة واعتصام، ويفقد كل ذلك معناه ووظيفته المقبولة، وغرضه المعقول.

فلبَّ ما يُنتهي كلُّ مظاهر الاحتجاج هو الإصلاح، وكل المشاكل إنما هي في غيابه. والإصلاح الحلُّ هو الإصلاح الحقيقي، ولا ننسى أن الحقيقة السارية في كل الأمور هي أن النتيجة تتبع أحسن المقدمات، فإذا صغرت أيُّ مقدمة صغرت النتيجة وإن اجتمع

ما اجتمع من المقدمات الكبار، وتخلّف مقدّمة واحدة يعني التخلّف للنتيجة مع توفّر كل المقدمات الأخرى.

والحقيقة الثانية الثابتة هي: إنّ المنظور الأوّل لكلّ العقلاء إنّما هي النتيجة، أمّا المقدمات، فالنظر إليها نظر ثانوي، والقصد إليها تابع للقصد إلى النتيجة، وكل المقدمات فاقدة للقيمة لو لم تترتب النتيجة.

ومن الواضح جداً أنّ الطريق لقضية الأمن الداخلي للأوطان قصيرٌ جداً وسهل، وواضح، ولا تعقيد فيه وهو أن تكون إرادةٌ سياسية مبادرة للإصلاح، وبالدرجة الكافية. ثمّ، إنّهُ مرّةً يكون خلاف على الصلاحيات والواجبات والحقوق بين حزب معين وحكومة، ومرة يكون هذا الأمر بين شارعٍ عامٍّ وحكومة. وطبيعيٌّ أن يكون المنظور في الحالة الأولى هو التوافق على الحل الذي تتلاقى عليه إرادة الحزب والحكومة.

كما أنّ الطبيعيّ في الحالة الثانية أن يكون المنظور في الحلّ هو تلاقي إرادة الحكومة والشارع العام المعارض على الحل.^(١)

لغة القوّة بين الحكومة والشّعب

هناك لغتان: لغة استعراض العضلات من جانب أو أكثر، تصلّبٌ بغير حق، سجون، رصاص، قتل، مسيرات، مظاهرات، حرق، اعتداء، تدمير... إلخ، هذه لغة يمكن أن يتبادلها شعب وحكومة؛ ليخسر كلّ من الحكومة والشّعب.

وهذه لغة لا يأخذ بها عاقل إلا حين يُخاف أن يضيع الحق، وتقلب الموازين، وحين لا يوجد أي مخرج آخر.^(٢)

لغة الحرب معروفة في الأرض، ولكنها اللغة الاستثنائية عند العقلاء، وفي الدين.

١- خطبة الجمعة (٤٥٤) ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٣ يونيو ٢٠١١م.

٢- ولها ضوابطها الشرعيّة، وأحكامها المحدّدة، ولا تترك للفوضى والانفعال، ولا يلغي الاضطراب إليها على تقديره حاكميّة القيم والشرعية.

اللغة الأصل والتي أصلحت الأرض في الغالب هي لغة غير هذه اللغة، وهذه اللغة قد يحتاجها أي مجتمع، ولكنها لما لها من خطورة، وفداحة خسائر تحتاج إلى عقل كبير، وأمانة كبرى، وقد احتاجت الحروب، وإدارة الأرض في تقدير الله إلى المعصوم عليه السلام. وانظروا إلى خطورة الحرب، فإن المشهور من الرأي الفقهي يذهب إلى أن الجهاد الابتدائي إنما يكون بقيادة المعصوم عليه السلام، أو نائبه الخاص، ولا تكفي قيادة الفقيه ممن له النيابة العامة.

تنويه

- ١- ونحن نتحدث بهذه اللغة، ونحثُّ عليها، فلسنا أخشى مَنْ يخشى على أنفسنا، وإنما هي كلمة الإصلاح التي لا بدَّ منها، والضوابط الشرعية التي لا بدَّ أن تراعى.
- ٢- والمتدينُّ كما يشحُّ بقطرة الدم في ظروف، يسمح بأنهار من الدم في ظروف أخرى، وليس أشرف من دم الحسين عليه السلام بعد جدِّه وأبيه، أو يساويه شرفاً من غير دم المعصوم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وقد ضحَّى به عن طيب خاطر في سبيل الله، ولحفظ الدين.
- إنَّ دماء الأئمة عليهم السلام وجدوها رخيصةً في سبيل الله، فلا تذهبن المذاهب بأحد أنَّ مَنْ يتحدَّثون بهذه اللغة واجفون خائفون بخيلون بالدم حين يقتضي الدين.^(١)

العلاقة بين الأمن الداخلي والخارجي تنويهان:

- ١- وحديثي عن الأمن الخارجي والداخلي على مستوى القضية الكلية، وليس على مستوى القضية المربوطة ببلد معيَّن.
- ٢- ونعني بالأمن الخارجي: انتفاء التهديد من الخارج، وأسباب السيطرة التي يفرضها الأجنبي، والتدمير الذي يواجه به وطن الآخرين، وأن لا يكون الوضع السياسي

١- خطبة الجمعة (٢٣٥) ٢٤ صفر ١٤٢٧هـ، ٢٤ مارس ٢٠٠٦م.

والاقتصادي والثقافي والديني، وغير ذلك من أوضاع أي بلد فريسة اليد الخارجية العابثة.

والأمن بمعناه الواسع منتف دائماً في ظل أي سيطرة خارجية.
 وإن تدهور الأمن الداخلي ليفتح الطريق واسعاً لسيطرة الخارج.
 فالشعب الذي لا يجد أمنه الداخلي يمكن أن يبحث عن أمنه من الخارج، وهذا أمر بالغ الخطورة، ولا ينبغي أن يكون أبداً.
 والحكومة التي لا تستطيع أن توجد لنفسها أمناً داخلياً من خلال الانسجام مع شعبها لا بد أن تبحث عن الأمن من الخارج، وهذا أمر خطورته بالغ جداً أيضاً.
 الأمن في مجمله ليس حاجة الشعوب فقط، وليس حاجة الحكومات فقط.
 الأمن في مجمله حاجة كل من الشعوب والحكومات، وبمقدار ما يهم الحكومة من أمر الأمن يهم الشعب، وبمقدار ما يهم الشعب من أمر الأمن يهم الحكومة.^(١)
 في البلد الواحد يعني تهديد أمن الآخر تهديد أمن الذات.
 فالشعب الذي يهدد أمن حكومته لا بد أن يقبل أن ذاته مهددة.
 والحكومة التي تهدد أمن شعبها لا بد أن تقبل فكرة أن أمنها مهدد.
 ولا يمكن أن يسلم أمن طرف في بلد واحد من دون أمن الطرف الآخر.
 فلغة التهديد، ولغة الوعيد لغة ساقطة جداً، وتعني خسارة كبرى في إطار الأمن.
 لا أمن بلا ثقة متبادلة، والثقة قد يكون من طريقها التفاهم، لكن لا يمكن أن تبني من غير مواقف فيها عدل واحترام، ونزاهة من الطرفين.

١- هذا إذا كان الأمن المنشود أمناً لمصلحة الوطن والأمة، وقيمها واستقلاليتها، وكانت الحكومة والشعب يشغل اهتمامهما حاضر الوطن والأمة ومستقبلهما، وعيننا بالأمن معناه العام الشامل للنواحي الدينية، والإنسانية، والمصالح الاقتصادية.

أما الأمن الخاص، فمصيره مشترك داخل البلد الواحد مطلقاً.

ولغة التهديد من هذا الطرف أو ذاك قد تُكره الطرف الآخر مؤقتًا، ولكنها تجر إلى الكيد والتحفز؛ لإنهاك الآخر.

فالأحسن للجميع أن يتخلى عن لغة التهديد، وأن يلجأ إلى لغة الحوار، ولغة الحوار لا تمتلك قيمة ذاتية، إنما ماله القيمة الذاتية في البين هو أن توصل لغة القرار إلى حلول عادلة.

هذا إذا كان الأمن المنشود أمنًا لمصلحة الوطن والأمة وقيمها واستقلاليتها، وكانت الحكومة والشعب يشغل اهتمامهما حاضر الوطن والأمة ومستقبلهما، وعيننا بالأمن معناه العام الشامل للنواحي الدينية، والإنسانية، والمصالح الاقتصادية.

أما الأمن الخاص، فمصيره مشترك داخل البلد الواحد مطلقًا.^(١)

الجيش

الجيش للوطن لسلامته، واستقراره، للدفاع عن حريمه ومنجزاته ومكتسباته، وهو للشعب كما هو للحكومة.

ولا يصح أن يكون لإرهاب الشعب وحتى بلا سبب، ولإسكات الكلمة وإن كانت دستورية ومطالبة بالإصلاح، ولتكميم الأفواه وإن كانت ناطقة بحق.^(٢)

أمن الحكومة وأمن الشعب

شعار الأمن يطرحه الجميع، ونسأل: أمن من هو المطلوب؟

في إجابتنا على هذا السؤال نقول: المطلوب أمن حكومة وشعب؛ شعب بكل فئاته.

ونسأل: أمن ماذا؟

ونجيب: أمن حياة، أمن مال - أمن عرض، وكرامة، وشرف - أمن مسكن وطريق وأماكن عامة - أمن حرية إنسانية بناءة.

١- خطبة الجمعة (١٤٩) ١٩ صفر ١٤٢٥هـ، ٩ أبريل ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (١٩٣) ٢١ صفر ١٤٢٦هـ، ١ أبريل ٢٠٠٥م.

ولاشيئ من ذلك بغير أمن دين.

ما هو الطريق لهذا الأمر؟

البطش الحكومي، القوانين الحديدية المقيّدة، الحرّية الحيوانية البهيمة، الظلم الاجتماعي، إقصاء الدين ومطاردته.

أشيئ من ذلك يصلح آلية أمن؟

أشيئ من ذلك يفتح على الأمة طريق الأمن؟

أليس كل ذلك مضاداً للأمن؟

أليس كل ذلك فتاكاً بقضية الأمن؟

أشيئ من ذلك ينسجم مع شعار الأمن؟

لا شيء من ذلك ينسجم مع شعار الأمن.

ولا أمن لشعب مكبوت.

الشعب المكبوت مهياً دائماً للانفجار، والذي تمارس في حقه الظلم، وتعلمه الظلم، وتنشئه على الظلم، يمكن لك جداً أن ترتقب منه الظلم.

ولا أمن لحكومة ظالمة، ولا من حكومة ظالمة.

ولا أمن مع حرية حيوانية منفلة، ولا مع ظلم اجتماعي.

وإقصاء الدين ومطاردته يستحيل معهما أمن.

فالذين يريدون أن يصدقوا مع هذا الشعار عليهم أن لا يناقضوه عملاً.

وعلى طريق الأمن علينا أن نرفع هذا الشعار: حكمٌ عادلٌ يساوي وطنٌ آمنٌ ومحبةٌ.

والأسرة الآمنة والوطن الآمن يحتاجان بالضرورة إلى حكم منصف عادل.

الأسرة المحاربة في رزقها، أو في أمنها، أو في أخلاقها، والمقهورة في دينها والتي

يُعاني أبناؤها من البطالة، ولا تجد مسكنًا يُظِلُّ رؤوس أبنائها، لا تكون أمانة، ولا يبتني منها مجتمع آمن، ولا يتم بها أمن وطن.

الطَّرِيق

عالجوا مسألة العدل في الحكم، وابنوا أسرة في ظل قيم الدين، وأحكام الشريعة يأمن الوطن.

من أجل وطن آمن، ومن أجل أسرة آمنة، ومن أجل مجتمع آمن لا بدَّ من قيام هذه الكيانات على أرضية صلبة، على أرضية تعطي العدل، على أرضية تخصب الضمير، وتوظف إمكانات الإنسان؛ من أجل صالح الإنسان، وليست هناك رسالة وصلت الأرض تتوفر على قدرة إقامة العدل، وإقامة الحق، وإشادة صرح للإنسانية عامر بالخيرات كرسالة الإسلام.

لبناء أسرة آمنة، وبناء وطن آمن، وبناء مجتمع آمن لا بدَّ من قيم، لا بدَّ من الرجوع إلى الشريعة العادلة.

خيال أن تُبنى أسرة آمنة في ظل قيم الغرب، أن تُبنى أسرة آمنة في ظل التشريعات الغربية، مستحيل أن تولد أسرة في الأرض تعيش روح المحبة، وروح الوفاء، والصدق، والأمانة، والإيثار والتضحية، مستحيل أن تقوم أسرة من هذا الطراز على غير طريق الله تبارك وتعالى.

نحن مع الأسرة الآمنة، نحن مع المجتمع الآمن، نحن مع الوطن الآمن، ومن أجل كل ذلك نصر على الطرح الديني، ونصر على الالتزام بالإسلام، ونصر على عدم مفارقة الإسلام.^(١)

ما هو الأهم في حالة التَّزاحم: الأمن أم الإسلام؟!

ننبّه: إنَّ السلم والأمن المحلي والإقليمي والعالمي يمتلك قيمة عالية في الإسلام، ولكنّه إحدى القيم، والعدل قيمة، والعفة قيمة، والكرامة قيمة، والقيم - على قدسيتها

جميعاً - تختلف درجات، والمسلم وهو يحترم الأمن في وطنه، وفي إقليمه، وفي أمته، وفي العالم، ويسعى لتركيته وتأكيدته وتثبيتته، ويقدره كل التقدير، ويضحّي من أجله، لكنه مع كل ذلك يضحّي به؛ من أجل الإسلام سواء في وطن، أم في إقليم، أم في إطار الأمة، أم في إطار العالم كله.

فحين يرفع المسلم شعار الأمن والسلام، ويؤكد أنه مستعد في أي لحظة من اللحظات أن يتنازل عن إسلامه، وأن يضحّي بإسلامه، وأن يلغي إسلامه، وأن ينفصل عن إسلامه؛ من أجل أي سلام.

ولا سلام في الحق، ولا أمن في الحق في أي أرض، وعلى أي مستوى من المستويات لو ذهب الإسلام، وقيم الإسلام.

إن هناك تراحماً بين القيم، وهو الأصل في التراحم بين الأحكام الشرعية، ودائماً التقديم في التراحم للأهم، ولا شيء أهم من الإسلام أصله وجوهره على الإطلاق.^(١)

الأمن المفقود

الامن المطلوب: الأمن المطلوب هو أمن شعب وحكومة، وأمن مجتمع وفرد، والأمن العادل بعضه يؤسس لبعض، وفقد بعضه يفقد البعض.

إذا توفر الفرد على الأمن أمكن أن تأمن الجماعة والمجتمع، إذا توفر الشعب على الأمن أمكن أن تأمن الحكومة.

وأمن الحكومة لا بد أن يستتبع في المعقول أمن الشعب.

وأمن الجماعة لا بد أن يعطي أمناً للفرد.

وحين تحاصر الفرد، وتقلقه، وتجعله دائماً في خوف، فلا بد أن تخاف في هذا الفرض الجماعة، ولا بد أن تخاف الدولة.

١ - خطبة الجمعة (٢٣١) ١٨ محرم ١٤٢٧ هـ، ١٧ فبراير ٢٠٠٦ م.

وإذا أَحَقَّتْ الشُّعْبُ، فلتخَفْ أنت كذلك، ولا يمكن أن تأمن والشعب خائف.
والحكومة التي تخاف لا بد أن تعطي رد فعل ضار عادلاً أو ظالماً بالنسبة للشعب.

من أين يبدأ الأمن؟

هل يبدأ من الفرد؟

يبدأ من الشعب؟

يبدأ من الحكومة؟

الحق أن الأمن يبدأ من الحكومة التي تملك كل البرامج، وكل الامكانات، وكل الخبرات، وتسيطر على كل حبة من الأرض، وعلى كل فلس من الميزانية، وتمتلك من الإمكانيات ما يمكن أن يبني العدل وما يمكن أن يهدمه، وما يمكن أن ينشر الظلم وما يمكن أن يرفعه.

الدولة بإمكاناتها الهائلة، وبخبرائها، وخططها، وتفرغها للحكم قادرة على أن تؤسس لأمن شامل وعدل شامل، وقادرة على أن تدفع الخوف عن كل بيت وعن كل نفس.^(١)

أندرون أين الأمن؟

الأمن في العدل والإنصاف والمساواة، والصعود المتصل في سلم الإصلاح، وتسريع خطواته، والإصغاء إلى الأصوات المشفقة على الوطن، الحريصة على أن يكون حوار؛ لتفكيك الأزمت لا لتعقيدها، وللاسراع للتخلص منها لا لإطالة عمرها، وحوار من هذا النوع لا بد أن يكون جاداً ومخلصاً ومبرهنًا بنتائج الإيجابية التوافقية على إخلاصه.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٦٦) ١٥ ذي الحجة ١٤٢٧هـ، ٥ يناير ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (١٧٤) ٢٨ شهر رمضان ١٤٢٥هـ، ١٢ نوفمبر ٢٠٠٤م.

الأمن الحقيقي

الأمن الحقيقي والدائم ليس في السكوت عن المطالبة بالحقوق، وليس في قمع هذه المطالبة، وإنما الأمن الصادق في الاعتراف بالحقوق، وتوفيرها، ورعايتها.

وإذا نبهنا على هذه الحقائق اعتُبر ذلك تحريضاً على العنف، وكأننا نكشف مغطى، أو نتحدث عن بعيد، أو كأن الناس لا سمع لهم ولا بصر ولا تفكير، حتى يخفى عليهم الظاهر، ويغيب عنهم المكشوف.

إننا لا نقول الكلمة الصادقة للتحريض، إنما نقولها تنبيهاً على الخطأ، ولأن تكون في الأمور في نصابها الصحيح.^(١)

المطالبة بالحقوق والمسألة الأمنية

ولا بد من التأكيد على أن المطالبة بالحقوق لا تلغي النظر إلى قيمة الأمن، وأن شعار الأمن لا يصح أن يوقف المطالبة بالحقوق.

وفي إقرار الحقوق ما يدعم الأمن ويثبتته ويرسخه، ولا يتحقق المعنى الدقيق للأمن في غياب الحقوق، وإذا أسكت الصوت المنادي بها.

وفي انتشار الوعي والحس الحقوقي، والثقافة الحقوقية من منطلق إنساني، ومن منطلق إسلامي، وتبلور أن أمر المطالبة الحقوقية في بعدها الاجتماعي العام واجب ديني لا يجوز التفريط به حفظاً للمجتمع عن الانهيار، وحذراً من زيادة النأي عن خط الله، والانحراف عن قيم السماء، وأحكام الشريعة الإلهية العادلة وهو مما يُسهّل عملية الاقتراب من الحالة الصحيحة، والوضع المتوازن في مجال الحقوق، ويعفي عن الهزات العنيفة، والتضحيات الهائلة، والخسائر الضخمة؛ لتحقيق مثل هذا الوضع.^(٢)

الفساد والوضع الأمني

الفساد كله سياسياً، اقتصادياً، إدارياً، خلقياً، دينياً كان أم غيره يجامعه، ويلزمه فساد الوضع الأمني، ويخلق مواجهة دائمة بين قوة الحكومة والرأي العام، ولا يتوقف

١- خطبة الجمعة (٣٣٠) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٢٠ يونيو ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (١٧٩) ٤ ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٤م.

معه مسلسل الأزمات الأمنية حتى نصل إلى حد الكارثة، ونقع فيها.

أتكلم عن وطن بكامله.

فالتفكير في إصلاح الوضع الأمني مرتبط في الحق بالتفكير في إصلاح الوضع السياسي وغيره.

ولا يمكن أن نتوفر على وضع أمني مستقر من غير أن تكون هناك أرضية صالحة لهذا وهو وضع سياسي مستقر، لكنك إذا قلت هذه الحقيقة التي تفرض نفسها على كل الساحات في العالم قيل لك هذا لون من التحريض للشارع، ماذا نقول؟! وهي حقيقة لا بد أن يقال قبل أن يفرق الوطن كله في فتنة عمياء واسعة مقيمة، ويخسر الوطن حاضره ومستقبله.^(١)

الأمن الاجتماعي

الأمن الاجتماعي هو أمن شخص وشخصية.

يجب أن نعي أن الأمن الاجتماعي هو أمن شخص - يعني سلامة بدنه، سلامة ماله، سلامة أهله... إلخ -، وهو كذلك أمن شخصية بحيث يعيش كريماً، محفوظ الدين، محترم الرأي الذي ينبغي احترامه، متمتعاً بحقوقه المعنوية، سالم العرض، لا تناله صحافة، ولا أقلام سوء، ولا أسنة سوء بمكروه لا يستحقه.

والأمن مطلب أساس لا راحة في الحياة ولا هناءة ولا تقدم بدونه، وهو مطلب كل مجتمع إنساني وإن كانت كل المجتمعات الإنسانية اليوم وفي ظل الحضارة المادية الساقطة فاقدة للأمن في بعده المادي وفي بعده المعنوي.^(٢)

أرضية الأمن الاجتماعي

أرضية الأمن عدد من الأمور لا يأتي الحديث هنا على استقصائها، ولكن من أهمها:

١- خطبة الجمعة (٣٠) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٢٠ يونيو ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٣٠٢) ٢١ شوال ١٤٢٨هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠٧م.

- ١- دين قويم؛ بأن يكون للفرد وللمجتمع دين قويم في نفسه، وقيم إلهية رفيعة.
- ٢- أن يكون هناك فهم سليم للدين، وإلا فدين قويم، وفهم سقيم النتيجة سوء.
- النتيجة قتل بلا حق، وعدوانية، وبغضاء شيطانية، وحقد أسود.
- لا بدّ مع الدين القويم من فهم سليم لذلك الدين.
- ٣- ثمّ العنصر الآخر تربية سوّية رشيدة خاصّة وعامة؛ فإنّ يُحسن البيت تربية الولد، ويسيّئ المجتمع والمؤسسة الرسمية تربية الطالب والطالبة، فذلك لا يكاد ينتج.
- ٤- سياسة رشيدة وعادلة.
- ٥- عقلية ذات تفكير علمي غير مغلوّبة للخرافة، والإشاعة، والتهرّيج.^(١)

الجريمة ومسؤوليّة الحكومة

للجريمة عقوبة، إهمالها مفسد، وتجاوز هذه العقوبة ظلم، وأن المجرم عليه حق وله حق، للمجتمع على المجرم توقيع عقوبة الجرم عليه، وللمجرم على المجتمع والسُّلطة أن لا تتجاوز هذه العقوبة، على أن هذه العقوبة لا تكون عادلة إلا بأن تكون عقوبة قد قررها اللطيف الخبير، العليم الحكيم، العدل الرؤوف بعباده سبحانه وتعالى.

وينبغي التخلص من الجريمة، وذلك بالتربية السليمة، والتربية لا يمسك أحد بنصيب منها اليوم كما تمسك الحكومات، في البيت تربية، في المدرسة تربية، في المجتمع تربية، في الصحافة تربية، ولكن بما أن كل هذه المؤسسات تخضع اليوم للتأثير الرسمي بصورة مباشرة، فإن الحكومة هي الطرف الذي يتحمل أكبر مسؤولية تربية.

فانحراف التربية محسوب بدرجة أكبر على الحكومات، واستقامة التربية - أيضًا - محسوب بدرجة أكبر للحكومات.

والحكومة تشهد على نفسها أو لنفسها من خلال الواقع الاجتماعي المتقدم، أو المتردّي الذي تشارك في صناعته بدرجة عالية فاعلة.

١- خطبة الجمعة (٣٠٢) ٢١ شوال ١٤٢٨هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠٧م.

البيت تحكمه الدولة بقنوات بثها، وبما تلقنه الطفل الصغير والشاب في المدرسة، ولا توجد اليوم زاوية تتخلق تربوياً، وتتخلق إنسانياً ومنهجياً بعيداً عن التأثيرات الإيجابية والسلبية لتوجيهات الدولة وسياستها.

فالذين يريدون أن يحملوا البيت المسؤولية التربوية أو المدرسة عليهم أن يحملوا الدول أولاً هذه المسؤولية، تجدون أن كل الوزارات، وزارات تربية، وكل القرارات الرسمية والمشاريع الرسمية مربية، يبقى أن هذه التربية سيئة أو حسنة، ذلك ما نراجع فيه الواقع؛ ليشهد على نمط هذه التربية.

نعم وزارة الاقتصاد بما تتبناه من لون اقتصاد مربية.

وزارة الصحة بما تفتح له الأبواب من الاختلاط الفاضح - مثلاً -، وغير الضروري تربى تربية سيئة، ويقدر ما يكون لها من تحفظ في هذا المجال بقدر ما تكون مربية تربية حسنة.

وزارة الداخلية من تلاحق؟

تغمض النظر عن أي مشروع، وتفتح النظر على أي مشروع؟ إنها مربية.

وما من وزارة من وزارات الدولة إلا وزارة تربية، وحتى وزارة التربية هي من تربية وزارات أخرى، وتربية وزارة التربية في الحقيقة تابعة لما ترضه وزارات أخرى من نمط تربوي.^(١)

الجريمة وأسبابها

لا بد أن نبحث عن أسباب الجريمة، سبب الجريمة جوع، وسبب الجريمة إهمال تربوي أسري، ولكن نؤكد المرة تلو الأخرى بأن السبب الرئيس لوجود الجريمة هنا هو التربية التغريبية التي تخاف من الإسلام خوفها من الموت، وتقر بالمجتمع عن إسلامه، وعن أخلاقيات الإسلام إلى أخلاقيات القنوات التلفزيونية والأنترنت الأجنبية.

١- خطبة الجمعة (١٢٤) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ١٥ أغسطس ٢٠٠٣م.

التربية في المدارس غير سليمة، وتربية الإعلام غير سليمة، وتربية المستشفيات غير سليمة، وتربية الأسواق غير سليمة، وفي رأي كثير من الوزارات قد تُستغل؛ لتربية فاسدة تبعد بالإنسان عن إسلامه وأخلاقياته الإلهية الرفيعة.

ولن يكونَ خطر هذا الأمر على فئة معينة؛ فمجتمع يخلو من الدين يخلو من الأمن والاستقرار، ومجتمع بيتعد عن الإسلام يقترب من القبر.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٠٣) ١٨ محرم ١٤٢٤هـ، ٢١ مارس ٢٠٠٣م.

الباب العاشر

الحكومة والسياسة الإعلامية

الأمن والإعلام

لا تتحقق أجواء أمنيّة صادقة في ظل إعلام متوتّر وكلمة نابية. وتبنيّ الإعلام الرسمي، أو شبه الرسمي للكلمة من هذا النوع سبب كافٍ لسيطرتها على الساحة كلها في حالة من الفوضى والانفلات. والإعلام لا يكون معتدلاً، وأخذاً بالدين، والعقل، والحكمة في ظل توجهات سياسية غير عادلة.

والإعلام دائماً كاشف عن توجهات السياسة وإن كانت له مراوغاته. والأمن ضرورة من ضرورات الأوطان، وابتعاد السياسة عن موازين الحق والعدل لا بدّ أن يفسد الإعلام، ويهدم الأمن؛ ليُقلق حياة المجتمع كله بجميع فئاته وأبنائه. ومن منطلق الدين، والعقل، والحكمة، وحفاظاً على مصلحة الوطن نطالب الإعلام كله رسمياً كان أم أهلياً، ومنه الصحافة، ومواقع الانترنت بنظافة الكلمة، وسلامة النقد، والأخذ بأدب الحوار والاحتجاج.^(١)

نموذجان: إعلامان

الإعلام الأموي المضلل قتل الإمام الحسين عليه السلام، الإعلام بالترهيب، والإعلام بالترغيب؛ جاءت جيوش الشام، سيّضاعف عطاؤكم! مثل هذا الإعلام قادر على أن يقتل أكبر رموز الأمة، وأن يوقع الأمة في أكبر مأساة. فإذا لم يكن الحس الواعي، وإذا لم تكن الحصانة الداخلية وكانت جماهير الأمة مأسورة لكلمة الضلال، فإنها لا بدّ أن تضل.

١- خطبة الجمعة (١٨٩) ٢٣ محرم ١٤٢٦هـ، ٤ مارس ٢٠٠٥م.

والإعلام الصادق المسؤول أعطى لقضيته ﷺ الامتداد، وساهم بحق في صناعة النصر.

فهذان إعلامان: إعلام قتل الحسين ﷺ، وإعلام آخر أحياء الإمام الحسين ﷺ، أحياء قضيته.^(١)

ما نحتاجه في مواجهة الإعلام المضاد

العنصر النفسي عنصر فعّال جداً في النصر والهزيمة والأمة كثير ما تؤتى، والهزيمة كثير ما تفرض من خلال العامل النفسي السلبي عند الأمة الذي تكونه الدعاية المضادة.

في كل المعارك، وفي كل الساحات نحتاج إلى نفوس، واثقة إلى قلوب مطمئنة، إلى نفوس تتعلّق بالله سبحانه وتعالى وترى ذاتها، ولا تعيش الوهم، ولا تعيش تحت تأثير الإعلام المضاد، فتفقد وزنها.

نحتاج إلى أمة تعيش النظرة الصحيحة، فلا تفقد وزنها في نفسها، ففقد الوزن في النفس، وفي النظر إلى الذات هو سر هزائم كثيرة تكون في الأرض.

المسلمون مطلوب لهم أن يرجعوا إلى الإحساس بانتمائهم، بأصالتهم، بقوة رموزهم، بحقانية قضيتهم، بوعد الله سبحانه وتعالى لهم بالنصر.

أن يلتفتوا إلى رصيدهم الكبير وهم ينتمون إلى الله، ويعملون في سبيله، فينطلقون على هذا الطريق.

إذا التفتوا إلى هذا كله، انطلقوا على الطريق واثقين مطمئنين، وفي غير ذلك، وفي فرض التردي للحالة النفسية، ورسم الحالة النفسية عن طريق الإعلام المضاد، والاستسلام إلى وسائل الإعلام المضاد، وصياغة نفسية عند الإنسان المسلم على أساس هذه الوسائل الإعلامية المضادة تكون نكسة كبرى في حياة المسلم الخاصة، وحياة المسلمين العامة.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (٣٦) بتاريخ ٢١ رمضان ١٤٢٢هـ، ٧ ديسمبر ٢٠٠١م.

الفصل السادس

الشَّعْبُ

تمهيد

علاقة الشعب مع الحكومة

المشاركة في مشاريع الحكم الوضعي

١- هناك مشاريع في صالح الإسلام والمسلمين قد تتبناها هذه الدولة أو تلك، وهي مشاريع بلا مردود سلبي للمشاركة فيها، ولا يمثل الدخول فيها دعمًا للنظام. والعلماء يرون في هذا الغرض جواز المشاركة، وقد يبلغ الأمر حد وجوب المشاركة، وذلك في حالات استثنائية.

٢- مشاريع أخرى تضر المشاركة فيها بالإسلام والمسلمين.

الموقف الصريح للعلماء - هنا - هو عدم المشاركة.

٣- مشاريع نافعة ولكن المشاركة فيها أكبر ضررًا، أو مساوية، فلا مشاركة.

٤- مشاريع مضرّة، ولكن المشاركة فيها أكبر نفعًا، فهذا يأتي جواز أو وجوب المشاركة حسب درجة النفع وضرورته.

وتشخيص العلماء إنما يتم في ضوء فهمهم للحكم الشرعي، وتقدير المصالح.^(١)

الطموح للإسلام لا ينافي معاشة الوضع وفق التوجيه الإسلامي

كون الإسلام هو الطموح، والحياة الإسلامية هي مطلب الإسلاميين، لا يعني أبدًا العنف، وفتح باب المواجهة الحادة، والمصادمات الشرسة، ولكنه يفرض بالضرورة مواصلة المطالبة؛ لتحقيق العدالة، وفتح الفرص للتعبير عن الحق، كما لا ينافي معاشة الواقع التي تختلف عند التجمد عن مقتضاه معاشة تنطلق من منطلق الإسلام، وبتوجيهه، وبالطريقة التي يحددها لا التي يحددها الخلق، ويفرض الدفع بهذا الواقع

١- خطبة الجمعة (١٨٠) ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ، ٣١ ديسمبر ٢٠٠٤ م.

للأمام، وبغرض الدفع لهذا الواقع للأمام، بدل الوقوف معه حيث يقف، أو التراجع في المستوى حيث يريد، وفي ضوء الحفاظ على وحدة الأمة، وصيانة مكاسبها، وبناء الأوطان التي تتنافى والاستسلام للواقع وتقديسه.^(١)

مسألة التعاطي مع الأوضاع غير الشرعية

إن تعاملك مع أي وضع تقديراً للمصالح والمفاسد وموازنة بينها لا يعني الاعتراف بالشرعية، ولا يمنع من مقاومة الخطأ؛ لتصحيحه.

وكثيرة هي الأوضاع الشاذة والخطأ التي يتعامل معها الفاسق والمؤمن، ويتعامل معها حتى المعصوم عليه السلام من غير أن تكون محل اعتراف له، ولا يعطيها الشرعية.

وأذكر للإخوة العاملين (حفظهم الله، وباركهم، وأيدهم، وأعزهم) بأن الواقعية بلامثالية ولارسالية كفر، وبأن المثالية بلا واقعية على الإطلاق خيال، والصحيح هو الواقعية المحكومة للرسالية، ومن أجل المثالية.^(٢)

والإسلام، وسيرة أهل الهدى والعصمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ثرآن بالدروس في هذا الموضوع، فلقد كان رسول الله صلوات الله عليه وآله يجمع في منهجه بين المثالية والواقعية، وكل معصوم من المعصومين عليهم السلام يجمع في منهجه، وفي سيرته بين المثالية والواقعية.^(٣)

قضية حساسة ولغة صريحة

وددت أنؤكد عبر اللغة الصريحة عن الموقف الواضح للفكر السياسي الإمامي الذي لا يوقف التعامل مع الواقع تعاملاً إيجابياً في الحدود الشرعية التي تنظمها القواعد والأحكام الفقهية على أن يكون هذا الواقع هو الصورة الأصلية التي يؤمن بها هذا الفكر، والتجسيد الخالص للأطروحة الإسلامية التي يأخذ بها.

١- خطبة الجمعة (٤٧) ٩ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٢٢ يناير ٢٠٠٢م.

٢- راجع صفحة ٧٨٨ الرسالية والواقعية.

٣- خطبة الجمعة (٢١١) ٤ شعبان ١٤٢٦هـ، ٩ سبتمبر ٢٠٠٥م.

وهو مشترك في هذا الأمر، وبهذا المقدار مع المذاهب الإسلامية الأخرى غير التفسيرية، ملتزمًا مسألة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر طبقًا لضوابطها الشرعية المحددة.

وإنَّ ما يحرك الشيعي من مضايقات السياسة وإهمالاتها واضطهاداتها المعنوية والمادية هو ما يحرك السني، ويحرك كل الناس إذا عانوا منه؛ لأنه تحرك من وحي الضرورة والضمير والحس بالكرامة، وقيمة الذات، إلا أن يكون الانتماء عند الفرد، أو الجماعة المضطهدة من النوع الذي يفتال إنسانية الإنسان، ويبد شعوره بالكرامة، ويقتل إحساسه بمعناه، ويكتب عليه الرضا بالدلة والمسكنة والهوان، والإسلام حاشاه أن يعني الانتماء إليه ذلك.^(١)

الشَّيعة والتَّعاش مع أنظمة الحكم الوضعية - كالحكم الوراثي مثلاً -

ولألامس وتراً أكثر حساسيةً في الموضوع المطروح، وهو أنَّ النظام ربما عاش هواجس خاصةً من الفكر السياسي الشيعي بما فيه من مسألة الإمامة، وولاية الفقيه، ممَّا قد يفكر بأنَّه لا يستقيم مع تقبُّل الحكم الوراثي في البلد.

وقبل معالجة هذا الأمر المثير للحساسية جدًّا لا بدَّ أن نلتفت إلى أن الفكر السياسي السني يرتبط بالخلافة الراشدة وشروطها، وأن الفكر الديمقراطي لا يقبل بتعيين الحكومات، ولا يصلح قاعدةً - في أفقه الواسع، ومعناه العميق - قاعدةً للحكم الوراثي، ولا يعتبر الشرعية لما تفرضه لغة الأمر الواقع.

فالإشكال من هذه الناحية ليس خاصاً بالمذهب الشيعي، إنما يعم المذهب السني، ويعم الديمقراطية الغربية.

أمَّا ما يعالج إشكالية المفارقة بين الفكر السياسي الشيعي، وصيغة الحكم الوراثي، وما تثيره هذه المفارقة من شكٍّ في الموقف العملي الشيعي في المسألة، فالكلام فيه يمكن أن يكون بالنحو التالي:

١ - خطبة الجمعة (١٧٩) ٤ ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٤م.

أولاً: يجب أن نفرق بين الشرعية الدينية لنظام الحكم، وكونه حكماً إلهياً، ومن صناعة قرآنية، وبين شرعية قبوله عملياً، والتعامل معه، مما يحفظ مصلحة الوطن والأمة، ويؤمن الاستقرار، ويبقي من الكوارث، ويساعد على التقدم.

وليس على الناس وغير مطلوب منهم أن يعتقدوا في داخلهم بأن النظام الفلاني منزل من عند الله، ولو كان هذا هو المطلوب، فإنه غير حاصل من الشيعة، ولا من السني بالنسبة لكل الأنظمة الوضعية على الإطلاق.

فكما أن الشيعي لا يعتقد بأن النظام الوضعي الذي يحكمه هو نظام قرآني، منزل من عند الله، كذلك السني لا يعتقد بأن النظام الوضعي منزل من عند الله، وأنه نظام قرآني.

فالشرعية الدينية لا يمكن اتصاف أي نظام بها، ما لم تكن البيعة له مقيدة بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وعلى أساسهما في كل المذاهب.

كل المذاهب ترى أن أقل ما يحقق صفة الشرعية الإسلامية والإلهية لأي نظام، هو أن تكون البيعة معه على أساس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا على أساس دساتير وضعية، فإن البيعة على أساس الدستور الوضعي لا يمكن أن تحقق الشرعية الإلهية كما هو بديهي عند جميع المسلمين.

وليس الأمر خاصاً بمذهب دون مذهب.

فالنظام لا يكون دينياً في ظل دستور وضعي عند المسلمين على الإطلاق.

ثانياً: إن سادة المذهب الإمامي وأئمة المعصومين عليهم السلام، قد عاشوا في ظل حكم غيرهم لقرون، ولم يقودوا ثورة ضد أنظمة الحكم التي عايشوها، ولم يسجل عليهم أن حاكوا مؤامرة؛ للاطاحة بها.

وثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت لخصوصية في يزيد وحكمه، الذي كان يهدد الإسلام والمسلمين بالمحق الكامل، ولما أراده من إكراه الإمام الحسين عليه السلام على البيعة، وما كان عليه وضع الأمة من الاقتراب إلى الهاوية.

والحسين عليهما السلام نفسه لم يسمع لمن أراد أن يثور على حكم معاوية.
والأئمة اثنا عشر، والثائر منهم على الحكم المخالف هو إمام واحد، والإمام الثائر سيرته حجة، والأئمة الآخرون سيرتهم حجة.
وحين يهدد الإسلام، ويعمل أي نظام على اقتلعه من جذوره، فحينئذ لا يتوقف شيعي ولا سني عن الثورة ضد ذلك النظام.
أما في الظروف العادية، فإنه كما يمكن للسني أن يتعايش مع الأنظمة القائمة بإذن من مذهبه، فكذلك يمكن للشيعي أن يتعايش مع الأنظمة القائمة بإذن من مذهبه.
وفي سيرة المعصومين عليهم السلام حجة قاطعة، وهي ثابتة في هذا المجال.

ثالثاً: قد عايشت المرجعية الدينية، والحوزة العلمية في النجف الأشرف أنظمة الحكم المختلفة في العراق، ومن المذهب الآخر، ولقد كانت المرجعية والحوزة مسالمة لتلك الأنظمة، ولم يكن تحرك ولا مواجهات إلا عندما طغى الكيل، وبلغ سيل الظلم، والاضطهاد والتشريد والقتل الرُّبى على يد صدام، الذي ضاق به في آخر المطاف ذرع الأشقاء والأصدقاء من الدول المجاورة وغيرها، ممَّن كانوا يدعمونه ويناصرونه، ولا يمكن أحد إلا أن يدافع عن نفسه بعد أن يهدد فيها.

وحتى ثورة السيد الإمام الخميني (أعلى الله مقامه) في قبال الشاه، كانت عند مفترق طرق، حيث أراد الشاه أن يبيع إيران، أو قد باعها بالكامل على أمريكا، وجعل نفسه حرباً على الإسلام وأهله، وكانت محاولته اجتثاث الإسلام من جذوره.

وأؤكد أنه ليس من مسلم شيعي ولا سني إذا رأى بيضة الإسلام تهدد، وأن الإسلام أصبح في كَفِّ عفريت، يسعه الحال إلا أن يتحرك.^(١)

الحكم الوراثي خطأ وقع فيه المسلمون

في الإسلام طرح سياسي واحد لا اثنان، ولكنَّ المسلمين اختلفوا حول هذا الطرح؛ فمدرسة الإمامة غير مدرسة الشورى فهماً لهذا الطرح.

١- خطبة الجمعة (١٧٨) ٢٧ شوال ١٤٢٥هـ، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤م.

تذهب مدرسة الإمامة - وهي تربط بين سياسة الدنيا والدين بلا تفكيك بين الإمامة فيهما معاً على الإطلاق، ولكون إمامة الدين متوقفة على فهمه الفهم الدقيق المأمون الكامل، وتطبيقه كذلك، ولحاجة السياسة الدنيوية ونجاحها - إلى خطّ الدين، إلى أن تعيين الإمام من الله، لأنه وحده الذي يعلم بالمعصوم الثابت على العصمة في علمه وعمله.

وتستند مدرسة الإمامة مع ذلك إلى عدد من النصوص الواردة في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ومواقف الرسول ﷺ العملية.

وتذهب مدرسة الشورى إلى حقّ الأمة، أو أهل الحلّ والعقد فيها في اختيار الإمام على ضوء مواصفات دينية مطلوبة.

ولا وقفة هنا للنظر في أيّ المدرستين.^(١)

وما تقدّم إنما هو على المستوى النظري.

وعملًا وقع المسلمون في خطأ الحكم الوراثي الذي لا يلتقي مع أيّ من المدرستين اللتين مرّ ذكرهما.

جاءت الدولة الأموية التي كانت ترى أن على الأمة أن تعيش تحت سيطرة الحكم الأموي ما دام على الأرض إنسان، وهكذا كانت وجهة نظر العباسيين والعثمانيين من بعد.

وكل أسرة حكمت بلدًا من بلاد المسلمين صار رأيها أن تحكم هذا البلد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وحتى لا يشتبه الأمر على أحد، ويخلط بين هذا الفهم الأجنب قطعًا عن الإسلام وبين فهم مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فلا بدّ من الالتفات إلى أن مدرسة الإمامة بعيدة كل البعد عن الحكم الوراثي، فإمامة الحسن أو الحسين عليهما السلام ليس لأنّ هذا أو ذاك ابن

١ - فالحديث ليس بصدد التحقيق العقيدي.

لعلي بن أبي طالب عليه السلام، وإنما لأنه منصوص عليه بالنص الديني، وممَّن بشَّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بإمامته، وهكذا الحال في إمامة الأئمة الاثني عشر.

والإمامة في أهل البيت عليهم السلام إنما حُدِّدَتْ في اثني عشر إمامًا سُمُّوا سلفًا وقبل ولادة الكثير منهم، ولا تمتدُّ الإمامة في ذرية النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وعليَّ عليه السلام حتى النهاية.

ثمَّ أنَّه في غياب المعصوم عليه السلام لا تقتصر مدرسة الإمامة إمامة المسلمين على ذرية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وعليه، فإنَّه إذا أراد المسلمون أن يحترموا فهمهم للإسلام في المسألة السياسية حتَّى مع تخليُّهم عن مدرسة الإمامة، فليس لهم أن ينسبوا الحكم الوراثي للإسلام، ويُشَرِّعوا له على هذا الأساس.

وإذا أعطوا الحكم لأي فرد من أي عائلة، فلا بدَّ أن ينظروا صلاحيته على أساس ما فهموه من مواصفات الحاكم في الإسلام حتى تتصحَّح نسبة اختيارهم إليه، وأنَّ اختيارهم ذاك إنما هو من اختيار الإسلام.^(١)

المحور الأول

الحراك الشعبي العام

(١) تنامي الوعي عند الشعوب

شبَّ عمرُّو على الطوق، ولم تعد الشعوب تُسكتها تسلييات الأطفال، والكلام المعسول، والوعود الملهية، والوصفات المجوجة، والحلول المؤجلة، ولا تصبر على مزيد من العزل، والتهميش، والإلغاء.

وهي تشعر بعمقٍ بغبنٍ كبير، ومحرومية بالغة، وإهمال قناعة، وإرادة، وشعور، ومصالح دنيا ودين.

ولا حلَّ إلا بأن تُشركَ هذه الشعوب بجدٍّ في رسم حاضرها ومستقبلها، وصناعة واقعها ومصيرها.

وكل المراوغات والتضخيم الإعلامي والدعايات الفنية، والتلميع الساحر الكاذب، وانتحال مواقف البطولة والعدل والإخلاص لم تعد قادرة على إقناع الأمة بلا شاهد عملي واضح.^(١)

مطلب الشعوب المعاصرة

مطلب الشعوب واضحٌ جدًّا، ويتمثل أولاً في دساتير إصلاحية تعطي الشعوب الكلمة في أمر نفسها، وتأخذ مجراها العملي في التطبيق.

أما رزم الشعارات والقرارات المعطلة، والوعود المؤجلة، فلا تمثل شيئاً، ولا تُسمن ولا تُغني من جوع.

١- خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤م.

وتطلُّع الشعوب العربية لحياة جديدة فيها عدل، فيها مساواة، فيها اعتراف بقدرات الأمة، فيها حق مشاركة واضح في تقرير المصير.^(١)

الشُّعوب وَخِيَارُ الْحَرِّيَّةِ وَالْكَرَامَةِ

لكل ممكن حد، والاعتزاز بالحياة أمر ممكن وإن كان من ثوابت طبيعة الإنسان، ولأنَّه ممكن فله حدُّ.

والاعتزاز بالحياة يدفع بالإنسان لطلب البقاء، وطلب كل ما يراه صواباً، أو خطأً بأنه سبب من أسبابه، ويحاول أن يجمع كل ما أمكنه مما يرى فيه أنه سبب من هذه الأسباب.

وقد تحدث للإنسان تنازلات، ويتخلَّى عن بعض ما يطمح إليه إذا كان ذلك سيفقده الحياة.

ومنطلق هذا التنازل إنما هو اعتزازه بالحياة وحُبُّه في البقاء.

ولكنَّ هذا الاعتزاز قد ينتهي عند نقطة معيَّنة، وينقلب إلى تمرُّد على الحياة، واسترخاَص للتضحية، أو ضيق بالحياة يسقط قيمتها، ويفرض على نفسية هذا المستضيِّق الرغبة بالخلاص، ولذلك ينتحر مَنْ ينتحر عند نقطة من نقاط تفجُّر النفس وعدم صبرها على ضريبة الحياة.

وأصحاب النفوس القوية لا ينتحرون، ولكنَّهم يُضْحُونَ بحياتهم مُختارين في هدوءٍ وراحة نفس؛ من أجل مبدئهم، وحرِّيَّتهم، وعزِّهم، وإيمانهم بقيمتهم الإنسانية، وذلك عندما تُكلِّفهم الحياة أن يدفعوا كلَّ ذلك ثمنًا؛ من أجل البقاء.^(٢)

وهذا ما يفشل تكثيف الضغوط على الناس إذلالاً لهم، ومن أجل أن يتنازلوا عن إرادتهم لإرادة الغير، وكما يهوى استغلالاً من القويِّ للاعتزاز بالحياة، وتقديم البقاء من الطرف الآخر على كثير من المطالب.

١- خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤م.

٢- إذ اكلَّفَتْهم الحياة أن يدفعوا عزَّتهم، ودينهم، وكرامتهم ثمنًا لها تفلوا على الحياة، وداسوها بأرجلهم. (الشيخ)

ولتصوّر أن ذلك يجعله يُضحّي بكلّ شيء، ويصبر على كلّ مدّة؛ من أجل أن يبقّي لنفسه لو أحس مستوى من الحياة، وهو تصوّر خطأ قاتل.

إنّ زيادة الضغط في هذا المجال تولّد الانفجار الذي يأتي ردّ فعل حتميٍّ في حالتين: في حالة تضيق النّفس بكلفة الحياة بما يُثير فيها الرغبة بقوة للانتحار، ومَنْ هانت عليه حياته، هانت عليه حياة الآخرين، ومَنْ وصل إلى حدّ الانتقام من حياته، لم يتوقّف عن الانتقام من حياة الآخرين، هذه حالة.

والحالة الثانية التي تُعطي النّفس فيها رد فعل بالانفجار لا عن انهيار، وإنما عن وعي وبصيرة وقوّة وشجاعة هي الحالة التي تفرض فيها المبدئيّة، والعزّة، والكرامة، والنّظرة الأخرى التضحية بالحياة.^(١)

فمن خطأ السّياسة أن تعتبر يوماً فاصلاً تُقرّر فيه أن لا حرية للإطلاق على الآخر بعد اليوم.

ألا اعتزاز للآخر بعقيدته بعد اليوم.

لا اعتزاز للآخر بنفسه، ولا كرامة بعد اليوم.

لا خيار للآخر في حياته ومصيره بعد اليوم.

لا لُقمة شريفة له بعد اليوم.

لا فرصة علم له بعد اليوم.

لا حقّ له على الإطلاق بعد اليوم.

لا سلامة لماله، ونفسه، وعرضه بعد اليوم.

هذا خطأ فادح، وخطر كبير، لأنك بهذا تضع الناس في حالة انفجار، هو انفجار تضحية واعية، أو انتحار.^(٢)

١- هتاف جموع المصلين بـ(هياهات منا الذلة).

٢- خطبة الجمعة (٤٥٣) ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٢٧ مايو ٢٠١١م.

سقف المطالب عند شعوب العصر

وبالنسبة لسقف المطالب عند الشعوب لا يوجد ما هو أقل من سقف إصلاح النظام السياسي، وما يبتني عليه من تصحيح لمجمل الأوضاع التي طالها الفساد من فساد السياسة.

ولم يأت تحرك الشعوب للإصلاح الشكلي، ولا يملك هذا النوع من الإصلاح المزعوم قبولاً عند أي شعب من الشعوب.

ومن المستسحف جداً، والممجوج أن ينزل سقف الإصلاح بعد الدماء والتضحيات عمّا هو مطروح قبل ذلك.

إنّه ليس شيئاً عقلائياً بالمرّة.

وهل يقدم عاقل على تقديم المزيد من الجهد والتضحيات والمتاعب؛ من أجل مزيد من التنازل عن المكاسب؟!!

لا يتعقل من الشعب اليوم، ولا يدخل في الوهم أن يقبل بعد التعب والنصب، والبذل الكثير، والعذابات الموجهة، وعزيز التضحيات، ومرّ المعاناة أن يرجع بخفي حنين، أو بما يفرح الصبي المغرّر به!

إنّه يريد إصلاحاً مُجدياً مُقنعاً يمكن أن يستريح الوطن في ظلّه، وتحفظ حقوق المواطن الدينية والدنيوية، السياسية وغيرها، وتُصان في هذا الوطن الكرامة، وأن يجد هذا الإصلاح أساسه القوي، وقاعدته المتينة التي تحفظ له سلامته، وديمومته.

أما الإعلام وتضخيماته، والخطابات الواعدة، والوعود المعسولة، فلا تعني شيئاً عند الناس، وإنما ينصبّ نظرهم على الواقع ومُنجزاته.

ولا إصلاح والسجون ملأى رجالاً ونساءً، وأرزاق أبناء الشعب مُحارَبة، والأعداد المفصولة من الموظّفين والعمال، والطلاب بالألوف، والشعائر الدينية محاصرة، والإعلام التحريضي الكاذب مستمر.

أردنا ونريد لحياة البلد أن تكون حياة عدل، وأرادوا ويريدون لها أن تكون ظلماً.

أردنا ونريد للمجتمع أن يكون مجتمع أخوة، وأرادوه ويريدونه أن يكون مجتمع تمزق وعداوة.

أردنا ونريد للوطن أن يكون وطنَ سلم، وأرادوه ويريدونه أن يكون وطن حرب.
ولكنَّ الله لا يخذل من أخلص عملاً.^(١)

مطالب الشعوب أكبر من لقمة العيش

الشعوب الإسلامية ليست قطعان من الأبقار والإبل، ليست بهائم.

لها تفكير وهمٌ كغيرها من الشعوب يتعلَّق باللحمة والكسوة والمسكن والحياة المسهَّلة، ولكنَّ لها نظرة أبعد من ذلك، وهمُّها الأول يتركز على ذاتها الحضارية، وقيمة انتمائها. إنها لتفدي نفسها رخيصة للدين قبل اللقمة.^(٢)

حقيقة صارخة لا يمكن أن تنتكر لها أمريكا ولا غير أمريكا، وهي أن الشعوب المجوعة والشعوب المظلومة ما عادت تقبل الواقع السيئ الظالم، وهي تصر دائماً على الانتفاضة أمام هذا الواقع، وعلى تغيير هذا الواقع، وإن دعمته أكبر قوة عاتية في الأرض.

والدرس الذي يجب أن تتلقاه كل الحكومات هو أن اعتماد أسلوب القوة؛ لإسكات الشعوب مع استمرار النهب والغصب، والاستيلاء الظالم على مصادر الثروة، واقتسام المال العام بين نفر قليل، أو العمل على مصادرة الحق الديني، ومعاداة دين الأمة، والتعاون مع أعدائها على إضعافه شيء فاشل لا يؤدي إلا إلى مزيد من الخسائر المشتركة، وقواصم الظهر العامة، وإغراق الأوطان في الكوارث والمأساة.

الحكومات التي تعتبر أن اليابسة لها، والبحر لها، وما تحت الأرض وما عليها لها، تهبُّ من كل ذلك ما تشاء لمن تشاء، وتمنع من تشاء بغير حساب، ولا ضابطة من شرع، ولا قانون، ولا عرف تكون قد اختارت الصِّراع مع شعوبها حالة دائمة، واستخدام قسط

١- خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ، ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٢- هتاف جموع المصلين ب: (لبيك يا إسلام).

كبير من ثروات الأوطان، وتضييعه لقمع الشعوب في هذا الصراع، وكتبت على شعوبها خوض معركة مفروضة عليها من قبل تلك الحكومات.

والحكومات الجادة في إيقاف حالات العنف - والعنف ضارٌ بالجميع - والمستهدفة درؤها حقًا لا يمكن أن تؤجج حالة العنف، أو تدفع إليها، أو تؤسس لها بالتلاعب بالثروة الطبيعية العامة، وتوزيعها على عدد قليل من أهل الثروات العملاقة؛ لتوقع عامة الناس في مأزق خانق وضائقة حادة في المعاش والمسكن تفرض عليهم أن يجهرُوا بصوت المظلومية والاحتجاج، وأن يُشدِّدوا النكير، ويطلبوا الخلاص من أي طريق تفتتح نافذة الفرج منه.

لا يقبل عاقل على الإطلاق أن من العدل، ومما يهدئ الأوضاع، ويقود إلى حالة من التعقل أن تُخصَّص ملايين الأقدام المربعة من أرض وطن صغير المساحة لنفَرٍ قليل من أهل القِمة في الثروة في وقت يُحرم فيه الكثير الكثير من المواطنين نيل أحدهم قطعة أرض صغيرة يقيم عليها مأوى صغيرًا يأويه، وأهله، وأطفاله.

لا نرضى العنف أبدًا، ولا نرضى التشجيع عليه، وندعو للتقيّد بالأسلوب السلمي في مواجهة الظلم، ولكن نؤكِّد أن في استمرار الفساد المالي والإداري وغيره سياسة تشجّع على العنف، وتحت عليه، وتستهدف تأجيجه، وتُيسِّر من قيمة الأسلوب السلمي، وطَرَق أبواب الحوار، وهي سياسة فيها تدمير للوطن بكل ثروته، وسمعته، وإنسانه.^(١)

وعى الشعوب

تقدّم وعى الناس، وارتفع مستوى الإرادة عندهم في كلِّ مكان، وفتحت الفهم، وزادت ثقافة الحقوق، والتمسُّك بقيمة الحرية والكرامة، وقطعت كل المجتمعات أشواطًا بعيدة في هذه الأصعدة والمساحات.

ولم تعد مغالطات الحكومات لشعوبها مجدية، ولا الحملات الإعلامية المكثفة كافية للإغفال عن بعض الحقوق بالخصوص، والوعود لا تملك أن تُنزع ما لم يُصدِّقها العمل، وقد تغري بالمطالبة أكثر مما تلهي، وتلفت أكثر مما تصرف.

١- خطبة الجمعة (٣٩٢) ١٦ ذوالحجة ١٤٣٠هـ، ٤ ديسمبر ٢٠٠٩م.

والحكومات التي تحبُّ التَّعبَ لنفسها وشعوبها تعرف الطَّريق إلى ذلك، وتسلك الظلم، وتتسكف في كل الأمور، وتجور على الثروة والإنسان، والدين والدنيا، وتعمل بالبطش، وتسلط السيف على الرقاب، وتملأ السجون.

وكل ذلك لا يجديها شيئاً في ظل تنامي الوعي، والشعور بالحقِّ والكرامة، ونهوض الإرادة، وعشق الحرية والانعتاق.

وهذه أمور تنامي في الشعوب في اليوم الواحد، فضلاً عن الشهر والسنة.

ووضع السياسة لأي شعب في خانة ما قبل ستين وسبعين سنة إدراك سيئ، وتفكير غبي في الأمور.

الحكومة التي تبحث عن حياة الاستقرار والاطمئنان لها، لا بدَّ أن تبحث عن ذلك أولاً لشعبها، وأن تعرف أين وصل هذا الشعب من وعي الذات، والحقِّ، والكرامة، وماذا تغير في مستوى توجهه وإرادته، واعتزازه بحريته، وإصراره على تحقيق ذاته، وأن تحترم عملاً المكانة المتقدِّمة الجديدة التي صار يتبوأها، وأن تحمل احتراماً لإنسانية الإنسان أساساً، ولا تتغافل؛ وذلك من أجل أن تحسن التعامل مع شعبها، ويمكن له أن يتعامل معها التعامل المقبول.

إنَّ الاحتماء بتكديس الثروة لا يجدي.

وإنَّ الاحتماء ببطش القوة لا ينفع.

وإنَّ شراء مودَّة الخارج لا يغني.

وإنَّ التوسل بالإعلام الزائف، وبالأقلام المأجورة، والذمم الرخيصة لا ينقذ.

وكل ذلك وأضعاف مضاعفة من مثله وشبهه لا يقوم اليوم مقام رضا الشعوب ومودَّتها بعد شدَّة وعيها وإرادتها، وهذا الرضا والمودة لم يعد الالتفاف على الحقوق، والدعاية الإعلامية المكبَّرة، والكلمات البرَّاقة والشعارات المغرية الفارغة قادرة على تحقيقهما.

ما يحقق هذه المودة والثقة والرضا إنما هي مشاريع العدل على الأرض، والإنصافُ

والمساواة عملاً، والاحترام المطبّق لقضية الحقوق، والاعتراف بإنسانية الناس وحرّيتهم وكراماتهم، وأنهم شركاء حاضرٍ ومستقبلٍ، وثروة وسياسة، وأمن، وواجبات وحقوق.

نصيحتي للحكومة: بأن تطلب مودة الشعب بتغيير سياستها وموقفها في التعامل معه، ومنطلقات هذا التعامل، والرؤية التي يقوم عليها، والأهداف التي يرمي إليها، والأخلاقية التي يعتمدها، وتعترف للناس بحقوقهم وترعاها، وترفع عنهم صوت العذاب، وتكنّ لهم المحبة والمودة.

ولن يكون تعامل الشعب معها إلا من جنس هذا التعامل حين يكون.

وأي حكومة تهتز علاقاتها مع الشعب الذي تنتمي إليه، ينعكس عليها ذلك بحالة من استضعاف الحكومات الأخرى الصغيرة والكبيرة لها، وسياسة الاستغلال والابتزاز التي تُمارَس من الدول معها.

احترام الداخل يعطي احتراماً في الخارج للحكومات، والتحصّن بالداخل تحصّن ضد الخارج، والتقوي بالداخل يعزّز الموقع في الخارج.

ومن نصح بظلم الشعب فقد غشّ، ومن أشار بعداء الشعب فقد أضّر، ومن لم يبدِ كلمة نصح صادقة فقد خذل.^(١)

الشَّعب المتحرِّك حالةٌ صحيّة

والأوطان لا تتبني بلا عدل وأمن، والعدل يعطي الأمن، والأمن يساعد على العدل، والحكم يدخل في قلب الشعب بقدر ما يخفّف عنه، ويخدم مصالحه، ويعترف له بكرامته، ويشركه في صوغ حياته العامة، واختيار خطّ حاضره ومستقبله.

والشعوب التي تقطع مسافات من طريق تقدّمها أكثر تطلباً من غيرها للاعتراف بالحق والموقع، واعتداداً بالنفس والقدرة على المشاركة في البناء، وتمسّكاً بالمطالبة بالحرية والاختيار.

١- خطبة الجمعة (٤٠٥) ١٥ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، ٣٠ أبريل ٢٠١٠م.

ولا شأن لوطن شعبه ميّت لا يطالب بحقوقه، ولا يحرص على تطوير وضعه، والإسهام في بناء حاضره السياسي والمستقبلي، وهو شعبٌ فاشل لا ينفع نفسه، ولا ينبغي أن تفخر به حكومته، كما لا شأن لوطن تُكْمَم حكومته أفواه الشعب، وتقتل الكلمة. وسياسة من هذا النوع إمّا أن تفتك بعزّة الشعب وتقتل ثقته بنفسه، وتهبط بروحيته، وإمّا أن تستثيره، وتشعل ثورته.

وإن روح الحماس في الشعوب ليس لمُصلحٍ أو حكومةٍ أن تقتلها، وغياب روح الحماس عن شعبٍ يقتله، ولكن الحماس لا بدّ معه من عقل، كما لا بدّ مع العقل من حماس. الأول للتدبّر، والتبصّر، والتخطيط، والرأي الصائب. والثاني للحركة، والاندفاع على خط العقل.

ولو كان عقل بلا حماس لتعطّلت الحركة، وضاعت قيمة الرأي. والرأي المعطل لا قيمة له، وما لم تكن إرادة وحماس يتعطّل الرأي الحصيف، وتسقط قيمته.

ولو كان حماس بلا عقل لكانت الاندفاع المتخبطة أو المهلكة، والأمور لا تُدرس ولا يُقضى فيها في الشارع وإنما تحتاج دائماً إلى أجواء خاصة، وعقول متخصصة. وإن كان الشارع قد يمد تلك الأجواء والعقول عبر القنوات الميئنة، وفي المناخات المتحررة من ضغط العقل الجمعي بالرأي الصائب، والفكرة النادرة.^(١)

ضريبة التّحرُّك السّياسي

الفساد وضع شاذّ، والظُّلم والفساد وانحرافُ الأوضاع، وتراكم الخطأ، والاستمرار في البغي طريقُ الهلاك، وهو منتهٍ حتماً بالمجتمعات إلى الهاوية. ولذلك انصبَّ صوتُ الشَّرائع السَّماوية العادلة، والأخلاق المنبثقة من خطِّ السَّماء، وكلُّ الشَّرائع المتعلّقة على المناداة بالعدل، ومحاربة الظُّلم والفساد.

١- خطبة الجمعة (١٥١) ٣ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٢٣ أبريل ٢٠٠٤م.

وكلما طال عمر الظلم والفساد تعمقت الأزمة، وتجدرت، واتسع نطاقها، وزادت في شقاء المجتمعات، وصعب الإصلاح، وكلف الكثير.

ولا إصلاح، ولا تغيير من غير ثمن وخسائر، والمسؤولية في ذلك إنما هي مسؤولية الظلم والفساد الذي لا بُدَّ من مواجهته وإلا مَحَقَ الحياة مَحَقًا بعدما يُحوّلها إلى شقاء. وتصبح كُلفة الإصلاح والتغيير، وتتضاعف كلما طال عمر الظلم.

ويرجع استمرار الخسائر والمتاعب التي تُرافق عملية الإصلاح إلى عدم الاستجابة إليه على ضرورته، والتمسُّك بخيار الظلم والفساد.

والخسائر والمتاعب المرافقة للإصلاح لا تُمثل إفراسًا لطبيعته، وإنما هي من إفراسات الظلم الذي يراد معالجته، ومن عطاءاته الصديدية السيئة، وبسبب البنية المتردية للأوضاع والنفوس والمصالح الضيقة والحسابات الأنانية التي تُعطي رد فعل معاكس من جنس طبيعتها في مقاومة شرسة للإصلاح لا تعرف شيئًا من الدين، والخلق القويم.

وكلُّ المتاعب التي تتطلبها عمليات الإصلاح وإن عظمت وآلت لا تكاد تساوي شيئًا من المتاعب والخسائر والكوارث التي يجرُّ إليها استمرار الفساد والانحراف.^(١)

وطالبو الإصلاح الحقيقيون يتحاشون أيَّ خسارة، وأيَّ تعب لأيِّ إنسان في مجتمعاتهم تضيفها حركة الإصلاح فوق ما تتسببه وضعيَّة الانحراف التي يسعون؛ لتخليص المجتمع منها، وإلا انحرفوا بما يضيفونه من خسارة عن خطِّ الإصلاح.

والكلُّ يتمنَّى أن يكون التحرك السياسي الإصلاحي بلا أيِّ أثر سلبي اقتصادي، أو اجتماعي، أو غيرهما؛ ولكن كما تقدّم أن حركة الإصلاح، وهي تصطدم بإرادة الوضع المنحرف لا بُدَّ أن تتسبب في شيء من الصّداق للمجتمعات، وهو الشيء الذي تُقرّزه أوضاع الانحراف ومقاومتها الشرسة، ومكرها السيئ، وألعايبها وحيلها الملتوية، وإنَّ حَرَصَ كل المصلحين على النأي بالمجتمع عن كل الخسائر.

١- كلف الإسلام كثيرًا، ولكن كان الإسلام ضرورة، ويبقى الإسلام ضرورة، وقد وقى البشرية من هلاك محتم.

وبالإمكان أن يتقلص حجم الخسائر ويقلَّ جدًّا، وأن يُتخلَّص منها نهائيًّا بسرعة لو بادرت كلُّ الفئات إلى الانضمام إلى صوت الإصلاح والوقوف مع العدل، ومناهضة الظُّلم، والقول عمَّا هو حقُّه بأنه حق، وعمَّا هو باطل بأنه باطل من غير مواردٍ أو لفٍّ ودوران.

وبمبادرة المسؤولين بالإصلاح، والاستجابة السريعة له تتوقَّف كلُّ المتاعب والخسائر، فالضُّغط كلُّ الضُّغط إنَّما يجب أن يوجَّه إلى هذا الطرف بالخصوص، لأنَّه الطرف الذي يملك مفاتيح الحلِّ، ويده إمكانيات حلحلة الأمور، ولم يؤخذ منه شيء حتَّى يُطالب الآخذ له بإرجاعه إليه.^(١)

نعم، عليَّ وأنا أطالب بالإصلاح أن أحسن الخطاب، أن أحسن التصرّف، أن أتجنب الإساءة، ألا أثير الريبة، ألا أخالف حكما شرعيًّا، ألا أسيئ النية، ألا أضمر ظلم أحد، أن أحسن الخُلُق، ثمَّ لا لوم بعد ذلك على من رفع صوته يطالب بالإصلاح، واسترجاع الحقوق.

ثمَّ، إنَّ الجماهير المحتشدة والمتظاهرة ما هي إلا مُطالبية بالحقوق الوطنية وليست محاربة، وقد أبدت انضباطًا عاليًا كلَّ هذه المدَّة، وينبغي لها أن تتمسَّك بهذا الانضباط، والنأي بنفسها عن العدوانية والشَّراسة، وعدم الاستجابة للاستفزاز، وهي بذلك لا تسجِّل إلا عقلانية وتديُّنًا، وحرصًا على الأخوة الإسلامية، والمصلحة الوطنية مما يُحسب لها، وليس عليها، وبذلك تُسدُّ الذرائع أمام كلِّ المشكِّكين والمتقولِّين.^(٢)

التَّحرُّكُ الاصلاحِيُّ هو من صميم الإسلام

ثم ليس لمسلم وعلى أساس الإسلام أن ينكر على الأمة مواجهتها للظلم، ومحاولتها ردع الظالم عن ظلمه.

١- الشعوب لم تأخذ شيئًا، الأنظمة هي التي تأخذ من الشعوب، وهي المدينة بالحقوق للشعوب.

٢- خطبة الجمعة (٤٤٢) ٥ ربيع الآخر ١٤٣٢هـ، ١١ مارس ٢٠١١م.

وإنما على المسلم من منطلق إسلامه ألا يُقَرَّ أحدًا على ظلم، ولا يسكت على مظلمة مظلوم كان من كان ما وجد إلى التغيير سبيلاً ومنفذاً.^(١)

إن الوقوف مع الظالم ضدَّ المظلوم يفصل العالم الديني، وأي متحدث باسم الإسلام عن الإسلام نفسه في هذا الموقف الشائن المعادي لدين الله.

ورفع شعار الإسلام ممن يقفون موقف المناصرة للظلم من أكبر عمليات التزوير المضرة بصفاء الدين، ومكانته في الناس.

وعلى الأمة فضح هذه المواقف، والتبري من أصحابها إنقاذاً للدين من التزوير وسوء السمعة، ولأجيال من الاغترار بالزور كما حدث كثيراً في التاريخ، وابتليت به الأمم.^(٢)

وإن الذين يناهضون حركات التحرر والتغيير النافع والإصلاح، ويعادون المصلحين إنما ينطلقون في هذه المناهضة والعداوة من ارتباط مصالحهم المادية بالوضع الظالم المتخلف، والفساد المستشري فيه، وإنَّ تستروا بشعارات مختلفة منها الديني والمذهبي، والدفاع عن هذه الفئة أو تلك من فئات المجتمع التي كلها تعاني من آثار الوضع الظالم الذي يضطهد الجميع، ويسرق ويسلب، ويستخف بكرامة الجميع، ويستعبد الجميع، ويُمزق النسيج الاجتماعي الذي يحفظ وحدة كل الفئات.

وينبغي للجماهير في كل مكان أن تعي المنطلقات الحقيقية، والدوافع الخلفية للمناهضين لحركات التغيير والإصلاح، وتغزلهم.

وإذا كان البعض يرى في الإصلاح إضراراً بامتيازاته المادية المرتبطة بالوضع الظالم، والصيغة السياسية الفاسدة، وتقليلاً من فُرص تسلقه للمواقع المغرية، والمكاسب الحرام التي لا يرى له فرصة ولا طريقاً إليها إلا بمساندته للظلم والفساد واستماتته في التبرير والدفاع عمَّا لا يرضاه الله سبحانه من ظلم العباد، وامتهان

١- كلما وجد سبيل أو منفذ إلى إنكار المنكر، وإيقاف الظلم كان ذلك متعيناً على المسلمين جميعاً.

٢- وكم من أمة ضلَّتْ أجيال منها بسبب مواقف علماء الدين الموالين للسلطات الظالمة.

كرامة الإنسان، والاستئثار بالثروة المشتركة، فإنَّ الشعب الذي يرى في الإصلاح حياته وكرامته، وفي التخلّي عن الإصلاح العبوديّة والانتحار لأشدّ استماتة ودفاعاً عن حقّه في الحياة الكريمة والحرية، والعيش في سعة وأمان.^(١)

لا لن يكون المدافعون عن الظلم والفساد خوفاً على مصالحهم الشخصية وامتيازاتهم الظالمة القائمة على آلام المحرومين والمعذّبين أشدّ حماساً وتضحية من المكتوبين بنار الوضع الظالم، والمتطلّعين للخروج من العذاب.

على الذين يتمنّون بقاء الأوضاع السياسية المنحرفة الظالمة في البلاد العربية - ومنها البحرين - على ما هي عليه من صورة سيئة مزرية تتنافى وحقوق الإنسان وكرامته، والشأن العزيز للمسلم حرصاً على ما يستفيدونه من امتيازات محرّمة ترتبط بهذه الأوضاع أن يياسوا من ذلك.

وليس لهم يوم يأتي نصر الله للمؤمنين إلا أن تتقطع قلوبهم حشرات.^(٢)

١- هتاف جموع المصلين ب: (سحقاً سحقاً للعملاء).

٢- خطبة الجمعة (٤٨٢) ٢٠ محرم ١٤٣٣هـ، ١٦ ديسمبر ٢٠١١م.

(ب)

المطالبة بالحقوق

المطالبة والمناهضة

عنوانان يختلفان، وقضيتان مفترقتان؛ تفترقان هدفًا، وتفترقان وسيلة، وتفترقان رد فعل.

١- هدفًا: على مستوى الهدف المطالبة هدفها تطبيق المواثيق والدساتير والقوانين استكمالًا للحقوق المكفولة، وطلبًا للإصلاح والتطوير.
أما المناهضة فهدفها الإسقاط والإلغاء.

٢- وسيلة: وعلى مستوى الوسيلة، فالمطالبة تعتمد الوسيلة السلمية التي لا تعتمد التخريب والتعدي على الأرواح والأموال والأشخاص والشخصيات، وتأخذ بالأسهل فالأسهل.

والمناهضة قد تقوم على وسائل التخريب والإتلاف والإضرار، وتصل إلى حد المحاربة.

٣- رد الفعل: وعلى مستوى رد الفعل، فإن رد الفعل على المطالبة حوار ومناقشة وأقصاه المجادلة.

أما المحاربة، فتواجهها المحاربة.

ثم، إن قيمة المواثيق، والدساتير، والقوانين إثبات الحقوق والالتزامات المتبادلة؛ لتكون محلاً للمساءلة والمطالبة.

ولا معنى لوجود هذه المرجعيّات من مواثيق ودساتير وقوانين إذا مُنع الاحتكام إليها والمطالبة على أساسها.

والصعوبة أن تكون هذه المرجعيّات نفسها أو بعضها محلًّا للاختلاف، فهنا يبقى الطرفان بلا مرجعية متوافقٍ عليها.^(١)

فتاوى تحرّم الاحتجاجات!

من انتسب إلى دين، أو مذهبٍ أساء إليه بإساءته للنّاس، وشوّهه بممارسته للظلم، أو مساندته له، وإذا جاءت الإساءة أو الظلم أو المساندة له من عالمٍ دينٍ عظمت بذلك الإساءة إلى الدين.

أمّا أن يحدث ذلك من عالمٍ دينٍ وباسم الدين أو المذهب، فهو من أظلم الظلم للدين والمذهب، وليس هناك من هو أشدّ عداوة على دين أو مذهب من عالمٍ يُسيئ لخلق الله، أو يمارس ظلمًا في حقّهم، أو يُعين على الظلم والجور والفساد بما يُفهم منه أنّ هذا بإذنهما، لما يلمس لذلك من مبررات ينسبها للدين والمذهب اللذين ينتسب لهما، أو يرى الناس فيه أنّه يمثلهما في قوله وسلوكه.^(٢)

وما أكثر العلماء اليوم ممّن يصدرّون فتاوى تحرّم المظاهرات والمسيرات والاعتصامات، ومختلف أنواع الاحتجاج السلمي ضد السياسات الظالمة، والتي تُطالب بالحقوق والإصلاح في صالح الإسلام والمسلمين.

ولا يخلو بلدٌ من بلاد المسلمين اليوم من علماء تعتمدهم الحكومات الجائرة لمحاربة الشعوب بفتاوى التحريم والتكفير لمن يُعلنون الإنكار على السياسات الظالمة، ويطالبون جهرًا بالإصلاح بطرق الاحتجاج السلمي.

وهذا من أسوء ما يواجه الدين من مسخ وتشويهٍ وزيف، وعملٍ مسقطٍ لقيمة الدين، ملوّث لنزاهته، وهو من أحد أدوات الفتك به وأشدّها فاعلية وأثرًا قاتلًا له.^(٣)

١- خطبة الجمعة (١٩٢) ١٤ صفر ١٤٢٦هـ، ٢٥ مارس ٢٠٠٥م.

٢- حين يرى الناس أنّ فلانًا يمثل الدين أو المذهب في قوله وسلوكه، فيأتي منه ما فيه ظلم للعباد أو إعاقة على الظلم، ماذا يفهمون؟

يفهمون أنّ هذا بإذن الدين والمذهب، وأنّ هذا الدين والمذهب يُبرران له ما يرتكبه من ظلم.

٣- خطبة الجمعة (٤٧٣) ١٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ، ١٤ أكتوبر ٢٠١١م.

المطالبة بالحقوق في الفهم الديني

إذا كان يسع أحداً أن يتوانى عن مسألة الحقوق والمطالبة بها، فإن من يفهم الدين، ويتمسك به لا يسعه أن يسكت على ذلك، لأن منطلقه ديني إلهي ملزم.^(١)

نداء إلى الجماهير

أيها الجماهير المباركة الكريمة المصغية لكلمة دينها، المقتدية بعلمائها، الحريصة على خير أمّتها وشعبها ووطنها، إن المطالبة بالحقوق الثابتة في دين الله، وبالعدل والإنصاف الذي لا بد منه واجب شرعي لا يمكن التخلي عنه^(٢).^(٣)

واجب شرعي لا يجوز التفريط به

المطالبة الحقوقية في بعدها الاجتماعي العام واجب ديني لا يجوز التفريط به حفظاً للمجتمع عن الانهيار، وحذراً من زيادة النأي عن خط الله، والانحراف عن قيم السماء، وأحكام الشريعة الإلهية العادلة، وهو مما يُسهّل عملية الاقتراب من الحالة الصحيحة، والوضع المتوازن في مجال الحقوق، ويعفي عن الهزات العنيفة، والتضحيات الهائلة، والخسائر الضخمة؛ لتحقيق مثل هذا الوضع.^(٤)

المطالبة بالحقوق حق ثابت

والمطالبة بالحقوق، والتطور إلى الأفضل، وتصحيح الواقع حق ثابت للمواطنين عقلاً، وشرعاً، وعقلاً.^(٥)

وينبغي ممارسته بالطرق السلمية المناسبة، وبأرقى الأساليب المتاحة، وأن تُفتح القنوات الرسمية لهذه الممارسة فضلاً عن القنوات الشعبية اللائقة، ولا يصح للحكومة أن تغلق الباب أمام هذا الحق، ولا أن يتخذ أحد من هذه الممارسة في حدها المشروع وهو

١- خطبة الجمعة (٢٧٣) ٥ صفر ١٤٢٨هـ، ٢٣ فبراير ٢٠٠٧م.

٢- هتاف جموع المصلين بـ (لبيك يا فقيه).

٣- خطبة الجمعة (٣٣٠) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٢٠ يونيو ٢٠٠٨م.

٤- خطبة الجمعة (١٧٩) ٤ ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٤م.

حد واسع سبباً للتشنجات والتوترات الضارة بوحدة الوطن، ومصالحه المشتركة.^(١)

المطالبة بالقيم هي الأهم

الحرية والاستقلالية والكرامة الإنسانية والدين العظيم لا يعادله ثمن.

والإنسان بإنسانيته، وحرية، وكرامته، ومبديته، ورسالته، ودينه قبل أن يكون بما يأكل ويشرب ويلبس ويسكن، ونحن أمة تبيع دنياها بأخراها، ولا تبيع أخراها بدنياها، أمة تضحي بضرورة الجسد لضرورة الدين والروح، ولا تتركب العكس إلا بمقدار ما انسلخت عن هويتها.^(٢)

لا للذل، لا للهوان ولو توقفت عليه اللقمة، ولو توقفت عليه الحياة.

نعم للعزة والكرامة ولو كان ثمنها الجوع، ولو كانت ضربيتها الحياة، ولم يكن لها من سبيل إلا الموت كان الموت هادئاً، أو صاخباً.

هكذا يقول الإسلام للشعوب، وبهذا يقضي الإباء وعزة الدين.

لقمة العيش ضرورة، والكسب الحلال حق مكفول، وتوفير فرص العمل الشريف واجب الدولة، ولا تقريط بحق العيش الكريم، واللقمة الحلال، ولكن أول ما تستهدفه مقاومة الشعب هو استرداد الحرية والكرامة، وحق تقرير المصير.

ولا شيء يعوّض عن كرامة الدين، والتمتع بالحرية، ولا شيء يقع ثمناً لهما.^(٣)

بطون وعقول

الناس: بطون، وعقول، وأرواح.

ومطالب البطون اللقمة، وهي تفرض نفسها على الإنسان كما تفرضها على الحيوان، فتدفعهما على حد سواء لطلبها، والمقاومة والحرب من أجلها.

١- خطبة الجمعة (٧١) ٢٩ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، الموافق ٩ أغسطس ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (٣٢٨) ٢ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٦ يونيو ٢٠٠٨م.

٣- خطبة الجمعة (٤٨٧) ٢٦ صفر ١٤٣٣هـ، ٢٠ يناير ٢٠١٢م.

فَمَنْ لَمْ يُشْبِعِ البطون وهو قادر على ذلك فضلاً عن مستلبها يعرّض نفسه للحرب.
وللناس من حيث عقولها وأرواحها حاجات معنوية متميزة لا يحمل الحيوان همّها،
وهي تحرك المجتمع الإنساني في اتجاه التوفر عليها والدفاع عنها والتضحية في سبيلها؛
ومنها العلم، والدين، والحرية، والكرامة، والعزة.

وكلما كان المجتمع أكثر وعياً ونضجاً في الدين وارتباطاً به كلما كان أكثر التحاماً
وتطلباً؛ لسدّ هذه الحاجات، وإحساساً بمأساة مصادرتها.

ولا يرضى أبناء مثل هذا المجتمع أبداً أن يُنتكر لهذه المعنويات، أو تمس بسوء وإن
أغدقت عليهم الدنيا ما أغدقت.

ومن حاول أن يشتري رضا المؤمنين بتضييع هذه القيم بغذاء البطون، فقد أمعن
في إهانتهم.

أعطني قيماً، ولا تعطني لقمة.

وإن كنت سأحارب؛ من أجل اللقمة بدافع من جوعة البطن، ولكني سأحارب بوعي
أكبر، وبإصرار أكبر، وبعزة أكبر؛ من أجل القيم.

والمساومة على الدين بالدنيا بكل لذائذها، وتسهيلاتها، ومشاريعها، وخدماتها مع
هؤلاء أكبر ضربة توجّه لكرامتهم.

فلا يمكن أن يُقَابِلَ الدين في ضمير المؤمن بأي صفقة دنيوية، وبأي صورة راقية
معيشية في الحياة، ولا يُقَابِلَ الخبز الكرامة^(١)، ولا مواقع الجاه، والمال والسلطان العزة
بالله، ولا التقلب في لذائذ المادة وشهواتها الحرية^(٢).

مطالب قدسيّة

إنّ الشعوب والأمم تلتقي في بعض مطالبها، وتختلف على مطالب أخرى، فإذا كانت
مطالب المأكل والملبس والسكن والمشرّب، وتوفير فرص العمل والمساواة فيها، والعدل في

١- لا يقابله وزناً.

٢- خطبة الجمعة (١٧٢) شهر رمضان ١٤٢٥هـ، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤م.

توزيع الخدمات المدنية مطالب مشتركة، فإن من خصائص المجتمعات الإيمانية، كهذا المجتمع المتميز في إيمانه أن لها مطالب قدسية ترتبط بمصيرها الأكبر، وهي مطالب روحية تتصل بقيم الدين، وخلق العفة والطهارة، والجو الإيماني النقي، وحرية الشعائر الدينية، وعلوم الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وعقيدتها، وفقههما، وثقافتهما التي تستقيم بها الحياة، وتطهر أجواءها.^(١)

التوازن بين المطالب الشعبية الدنيوية والدينية

وتنبه أخير: وهو أنه يجب أن لا نفسح إلى جائع إذا طالب لا يطالب إلا بلقمة العيش، وإلى مكتف لا يطالب إذا طالب إلا بالقيم المعنوية.

المصلي، الصائم، الشيع، المصلي الصائم الواجد، المال الواجد الكفاية حين يطالب، عليه أن يطالب بالقيم، ومن القيمة التي يصر عليها الإسلام، أن يشبع الجائع، وأن تجد الفاقد، وأن يصل النظام بالناس إلى حد الكفاية، ساعياً مع ذلك السعي الحثيث الجاد، ولا ينبغي لمؤمن جائع أن ينسى دينه.

فإذا طالب لا يطالب إلا بلقمة العيش، وينسى المنكرات الأخرى، وما تفعل في العقول والأنفس، وفي الدين والدنيا، المسلم عليه أن يجمع في مطالبته بين حقوق البدن والروح، وما يحتاج الدين والدنيا.^(٢)

الظلم ظل لا يفارق أي نظام أرضي من أي لون، وبأي صيغة، وتحت أي اسم إذا كان لا يعير اهتماماً بشريعة الله.

أي نظام لا يعير اهتماماً بشريعة الله لا يمكن أن يفارقه الظلم.

وأقول لكم: سلب اللقمة مشكلة لا تستقر معها حياة المجتمعات، لكن إسقاط الدين مشكلة أكبر، وهي تهدم الحياة.

والذين لم يدركوا ضرورة الدين حتى من ناحية الحفاظ على مصالح الدنيا

١- خطبة الجمعة (٤٦) بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ١٥ يناير ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (١٢) بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٤٢٢هـ، ٢٢ يونيو ٢٠٠١م.

ولاستقرار الحياة الدنيوية للمجتمعات ربما علّمتهم الحياة بعد حين أن لا غنى لاستقرار الأرض، وحفظ الحقوق عن دين الله.^(١)

تجزئة خطأ!

جميعيات إسلامية تصب اهتمامها على مشكلات الدنيا، وأخرى تجعل تركيزها على مشكلات الدين.

ومسجد ينادي بالصلاح الاقتصادي، وآخر بالإصلاح الخلقي، أو جميعيات كلها تقف مع المطلب السياسي البعيد عن هموم الدين، ومساجد كلها تقف مع المطلب الديني البعيد عن هموم الدنيا.

هذه الصورة لو كانت فهي صورة خطأ لا تعبر عن وعي إسلامي، ولا تستجيب لهذا الوعي.

الصحيح أن يكون الصوت واحدًا مشتركًا كما يركز على هموم الدنيا، يركز على هموم الآخرة، وكما يطالب بالإصلاح في هذه المساحة يطالب بالإصلاح في تلك المساحة. والطريقة الأولى تباعد كثيرًا بين الدين والدنيا، وتجعل لكل منهما تيارًا مستقلًا عن الآخر في البلد المسلم لا يفهمه ويعاديه.

وتضعف المطالبات، وتفقد وزنها بضعف في هذا التيار وضعف في ذاك، وتخلق في الجيل الجديد إرباكًا شديدًا في فهم الإسلام، وتقلل من تبلور الفهم الإسلامي في الجيل المنقسم نفسه.^(٢)

الثقافة الحقوقية في الإسلام

صحيح أن الثقافة الإسلامية الحقوقية ثقافة واسعة متجذرة متأصلة، ولا يملك الغرب ثقافة حقوقية كما عليه واقع الثقافة الحقوقية عندنا في الإسلام.

١- خطبة الجمعة (٢٩١) ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٦ يوليو ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (١٢٢) ١ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ١ أغسطس ٢٠٠٣م.

ولكن لأن الشارع المسلم لا يعرف من إسلامه الكثير، يكون تحركه للمطالبة بالحقوق من وحي الثقافة الوافدة في هذا المجال أكثر من تحركه على هذا الخط بوجي من الثقافة الحقوقية في الإسلام، كما تشهد بذلك لغته، وشعاراته، وممارساته.^(١)

الحقُّ لا يسقط بالتَّقديم

يقول أمير المؤمنين عليه السلام فيما جاء عنه في نهج البلاغة - عن قطائع قد أقطعها عثمان لآخرين، ولم يكن هذا الاقتطاع في فقه أمير المؤمنين عليه السلام و عدله عدلاً - ، تقول كلمته عليه السلام: «والله لو وجدته قد تزوّج به النساء، ومُلِك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق».^(٢)

المطلوب أولاً أن يُسترجع عين المال، فإن لم يمكن استُرجع عوضه.

وأي يد - ولو كانت اليد العاشرة، أو هي اليد المائة - قد وصلها هذا الدينار لا بد أن يُتزرع منها، وإذا كان قد وصلها ثمنًا، فإن العوض على من غشها وغرّر بها. فمسألة تعاقب الأيدي عند الفقهاء تقول: المال المغصوب أينما وصل يُسترجع، وكل يد ترجع إلى اليد التي غررت بها من قبل فتضمّنها.^(٣)

الثقافة الحقوقية والواقع المعاصر

والثقافة الحقوقية توسّعت، والإعلام العالمي وحتى الإقليمي وحتى المحلي يصبّ جديدًا في صالح الوعي الحقوقي، وصور المطالبات الحقوقية، وما يصحب هذه المطالبات تصل إلى نفس الشاب والطفل في كل مكان من خلال القنوات المرئية والمسموعة.

هذا كله يجعلك أمام إنسان جديد، فكر جديد، إرادة جديدة، تطلّع جديد، فلا تقس إنسان اليوم على إنسان الأمس.

الشعب في السبعينات استحقّ دستورًا أرقى من دستور اليوم، وكان له مجلس

١- خطبة الجمعة (١٧٨) ٢٧ شوال ١٤٢٥هـ، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤م.

٢- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ١ - الصفحة ٤٦.

٣- خطبة الجمعة (١٣٨) ١ ذو الحجة ١٤٢٤هـ، ٢٣ يناير ٢٠٠٤م.

نيابي بصلاحيات أوسع من صلاحيات المجلس النيابي اليوم، هذا منطق مقلوب، وعلى الحكومة أن تصحح منطقها.

في وسط عالمي مليارات من الناس تنادي بمسألة الحقوق، الدنيا تمتلئ مظاهرات، اعتصامات، تعيش معارك كل ذلك؛ من أجل تحسين الوضع الحقوقي للشعوب، في هذا الوسط العالمي لا يصح أن تبقى العقلية السياسية عند أي حكومة، وآليات الحكم وأدواته وأساليبه وذوقه عند مستواه في السابق، فكيف به إذا تراجع؟^(١)

منطلقات المطالبة بالحقوق

كيف نطرح مطالبنا السياسية أيُّها الإخوة؟

هل نطرح مطالبنا السياسية من منطلق وطني؟

من منطلق قومي؟

من منطلق ديمقراطي؟

من منطلق ليبرالي؟

من منطلق التقدم العالمي؟

أم أن علينا أن نطرح مطالبنا السياسية على مستوى الروح والبدن من منطلق حضاري متميز يفوق كل المنطلقات، ويستوعب كل العدل، وينطلق من الرؤية الكونية الصحيحة، ومن قيم لا تتزلزل، ويرفع لافتة غير كاذبة، هي لافتة الدين، ولافتة تقوى الله سبحانه وتعالى، ولن يردع في الأرض شيء أكبر من تقوى الله سبحانه وتعالى في نفس الإنسان.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ﴾^(٢)، طالبهم بالتقوى، طالب الدنيا حتى الكافر، طالبه بالتقوى، علمه أنه عبد لله، ازرع في النفوس ثقافة الإيمان؛ لتحاسب النفوس على أساس الإيمان، سوق الثقافة الإسلامية، الوعي

١- خطبة الجمعة (٣٥٦) ١٧ صفر ١٤٣٠ هـ، ١٣ فبراير ٢٠٠٩ م.

٢- الشعراء: ١٠.

الإسلامي، أعطِ الشيعاء، أعطِ الانتشار للوعي الإيماني للوعي الإسلامي، رَبِّ مجتمعا مؤمنا، ثم طالب مدراء وطالب وكلاء وزاراته، وطالب وزراءه، وطالب حكاه بالعدل على أساس من منطلق الدين.

إن ضمانه العدل، وإن ضمانه الاستقامة، لا تكمن في شئ كما تكمن في الدين، ولا تكمن في شئ كما تكمن في تقوى الله.

الله و﴿يَرْسِلْ﴾ يرسل موسى لأطفي رجل في الأرض يوم ذاك؛ ليواجهه، ويواجه به لفيقه كله، بدعوة تقوى الله، بالتذكير بسلطان الله، ليشيع وعيا في الأمة يرتبط بالله بتقدير الله، بتقديس الله، بالخشية من الله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن الناس لا يستقيمون على الدرب إلا حين تنطلق إرادتهم من إرادة الله، ولن ينصف أحدا الآخر كما ينصفه إذا اتقى الله سبحانه وتعالى.

أنت لا تتصف زوجك الإنصاف الكامل إلا أن تؤمن بالله.

أنت لا تتصف ولدك الذي هو فلذة من كبذك لا تتصفه الإنصاف الكامل التام عند الغضب، عند الانفعال، عندما يأتي بما يكره، إلا حين تتقي الله، فكيف تتصف أهل الأرض كل أهل الأرض بلا تقوى من الله.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(١) يستمر السياق، فيقول: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾^(٢) أَوْفُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٣)، شعيب النبي ﷺ، يحمل دعوة للتصحيح الاقتصادي، للعدل الاقتصادي، ولكنه ينطلق في هذه الدعوة مأمورا من الله سبحانه وتعالى، من تقوى الله، والتخوف بالله، فنحن أصحاب مطالب سياسية، وعلينا أن نعيش الحركة السياسية، وعلينا أن تكون لنا مطالبنا الواضحة السياسية، وعلينا أن نتقدم الآخرين سياسيا في الطرح السياسي سياسيا، والمطلب السياسي، ولكن ليس من منطلق القومية ولا الوطنية،

١- الشعراء: ١٧٧.

٢- الشعراء: ١٨١-١٨٣.

ولا الإمبريالية، ولا أي عنوان آخر، يجب أن نطالب بذلك كله بالعدل السياسي، بالعدل الاقتصادي، بالعباية التربوية، بعدم التجنيس الجائر، بكل مفردة من مفردات العدل من منطلق الدين، وأن هذا كله واجب في دين الله، أرايتم شعبيًا وما يأمر به من أمر قومه بتقوى الله سبحانه وتعالى وذلك لخلل اقتصادي، لخلل في العدالة الاقتصادية.

عجبا، كيف يقال: إن الدين لا يحمل هم الدنيا؟

وكيف يقال: إن الدين يغفل الدنيا؟

هذا رسول، وخط عريض من خطوط رسالته الكبرى هو أن يعالج الوضع الاقتصادي الجائر، والاستغلال الاقتصادي، وتعتبر الآيات الكريمة ذلك فسادًا في الأرض.

فالفساد في نظر القرآن الكريم قد يكون لانحراف سياسي، وقد يكون لانحراف اقتصادي، وقد يكون لانحراف روحي، وأي انحراف عن خط الله العادل المستقيم المربي هو فساد يجب أن تواجهه رسالات السماء في تنزيلها، في امتداداتها، على يد الرسل، وعلى أيدي الأجيال الرسالية كهذا الجيل الرسالي العظيم.^(١)

مشاركة المرأة في الاحتجاجات

يحتجون بخروج المرأة في مسيرة، أو مشاركتها في اعتصام؛ لتبرير ما يرتكب في حقها من مساس بالشرف والكرامة.^(٢)

وهل تُبيح مشاركة المرأة في مسيرة واعتصام إنكارًا منها للمنكر، وأمرًا بالمعروف، ومطالبة بالحقوق والعدل والإصلاح، وإنهاء الظلم، وسفح الدم الحرام، والاعتقالات الظالمة أن تُستباح حرمتها، ويُدنس شرفها، وتهدر كرامتها؟^(٣)

١- خطبة الجمعة (١٤) بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، الموافق ٦ يونيو ٢٠٠١م.

٢- الشيخ يتحدث هنا في سياق رده على السلطة التي انتهكت حرمة المرأة، ثم أُلقت باللائمة على المرأة نفسها بحجة أنه لا ينبغي لها الخروج في الاحتجاجات! (معد الكتاب)

٣- وكل ذلك بمبرر أنها خرجت في مسيرة، أو شاركت في اعتصام!

لكنكم تقولون: إنَّ على المرأة إمَّا أن تسكت عن المطالبة بالحقِّ، وتحوَّل إلى حجر أصمٍّ، وشيطان أخرس، وتتخلَّى عن كل مشاعر البنوَّة والأخوَّة والزوجية والأمومة، فلا تُبالي بما يقع على أبيها وأخيها وزوجها وابنها من ظلم، وضييم، وقتل، وتعذيب، وسجن، وملاحقة، وفصل من العمل، والدراسة، وتتفرَّج على مشاكل كلِّ أحبَّتها، وإمَّا أن تقبل ويقبل كل هؤلاء الأحبة أن تُترك لألوان التعديات، ومنها ما يمسُّ شرفها، ويهدر كرامتها، وينتهك حرمتها.

أي منطق أكثر اعوجاجًا من هذا المنطق؟!

وأي فكر أشدَّ انحرافًا من هذا الفكر؟!

وأي سياسة أجهل من هذه السياسة؟!

وأي امتهان لكرامة الإنسان أقبح من هذا الامتهان؟!

وأي انتهاك للحقوق أفظع من هذا الانتهاك؟^(١)

ومن الذي يستخفُّ بحرمة النساء، ويهدر كرامتهنَّ؟

من يسكت على خروج المرأة في احتشامها تُكر المنكر، وتأمّر بالمعروف، وتطالب بالحقِّ والكرامة؟!

أومن يدفع بها إلى المراقص والحفلات الغنائية المثيرة المختلطة، ويسوّق للفنادق بسلة الفجور؟^(٢).^(٣)

١- إمَّا أن تسكت، وإمَّا حلِّ قتلِكَ وسلبكِ وانتهاك عرضكِ. هتاف جموع المصلين بـ(هيهات منا الذلّة).

٢- من هو المسترخص؟!

٣- خطبة الجمعة (٤٨٨) ٣ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ٢٧ يناير ٢٠١٢م.

(ج) ضوابط التَّحَرُّكِ الشَّعْبِيِّ

ضوابط الاحتجاجات

والمظاهرات والمسيرات يجب أن لا تمثل شغل المواطن، ولا هوايته، وأن لا تكون للتحدي، وهي في تقييمي ضرورة تفرض نفسها أحياناً، ومن أجل التعبير عن الرأي حين لا تكون وسيلة أخرى ممكنة أقل منها صخباً.^(١)

لا تشترك في مظاهرة مجهولة

أقول للأبناء من الشباب، وللناشئة، ولمن هو أكبر: أن أعرف منطلق المظاهرة، هدفها، من ورائها قبل أن تشترك فيها.

أعيزك بالله أن تكون إمعة، لا تدري إلى أي هدف تقصد، وأي طريق تسلك، ووراء من تمشي.

نحن أبناء الإسلام، والإسلام هادف، والإسلام واعي، ويريد من أبنائه دائماً أن يكونوا وعاء هادفين الهدف الصحيح.^(٢)

لا ندفع باتجاه تبادل التصعيد

وإنه لا يمكن لنا أن نساعد على تبادل التصعيد، أو نرضى به، وأن تتجه الساحة إلى ما قد يخرج عن كل الحسابات والتوقعات، وأن تسقط الساحة في نار فتنة كبرى مشتعلة تلقن كل الأطراف دروساً قاسية مرعبة.

١- خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

نحن مع العدل والإنصاف، وسماع صوت الجائع والمحروم، وصدق الوعد، وجديّة الحلّ من جانب الحكومة، واحترام كرامة الإنسان، وأمنه، وشرفه، وحرّيته الإنسانيّة الرفيعة الشئ الذي يجب أن تلتزم به الحكومة فعلاً.

ونحن كذلك مع أساليب التعقّل عند شبابنا المحترمين، وعدم السماح لغلبة العاطفة، ولأيّ مبادرة من هنا أو هناك أن تحكم الساحة، ولأيّ نداء أن يستقطبها استقطاباً انفعالياً غير مدروس، ولا خاضع لحسابات المصلحة السياسية، وأحكام الشريعة.^(١)

اختيار الشّعارات والكلمات غير الاستفزازيّة

ولا بُدّ مع سلمية الأسلوب من نزاهة الكلمة، ومع انضباطه انضباطها.

تُدرس الكلمة التي لا مؤاخذة أخلاقية عليها، وتُدرس قيمتها، لتُقصى كل كلمة تضرّ ولا تنفع، أو يكون ضررها أكبر من نفعها.^(٢)

أمّا الكلمة النّابية، فلا ورود لها أساساً في قاموسكم^(٣)، ولا مكان لها على ألسنتكم. وتنصبّ الشّعارات في أدبٍ جمّ على المطالب والقضايا والحقوق والأهداف، دون الدّوات والأشخاص.

لا تسبوا، لأنّ الآخر يسبّ، ولا تهبط الكلمة على ألسنتكم، لأنّ الكلمة قد هبطت على لسان الآخر، ولا تدنوا من كلمة الفُحش لأنّ الآخر يقتربها، ولا يحملنكم سوء الآخر على السوء، ولا ظلمه على الظلم، ولا سفهه على السّفه، وعلينا بمراقبة الله ورسوله في كلّ

١- خطبة الجمعة (٢٢٢) ٢٩ شوال ١٤٢٦هـ، ٢ ديسمبر ٢٠٠٥م.

٢- أقول لكم ناصحاً، آخذاً هذا على نفسي ما استطعت، وأقوله لكلّ الأعزاء ناصحاً: إنّ علينا أن نكون مثلاً صادقاً في أدبنا، فيما نقول، فيما نفعل للإسلام، لا شيئاً عليه.

والكلمة السوء تُسقط، والكلمة الضّارة لا تنفع عند الله سبحانه وتعالى، وأي ضرر تجلبه كلمة غير منضبطة انضباطاً إسلامياً، وخارجة عن الحكمة لا يُعذر الإنسان فيها، هذا الضرر لا يُسجل له، وإنما قد يصيبه من غير ثواب، قد يُعاقب الطرف الآخر، ولكنّي لا أستحق الثواب شيئاً أجره عليّ من غير جدوى، ومن غير فائدة.

٣- أنتم أنظف من ذلك، وأبعد وأجلّ.

ما نفعل ونقول، وألا يعدل بنا عن حكم الشريعة، وأدبها، وخلق الإسلام ما نواجه به من باطل^(١).^(٢)

المنطلق الشرعي في حفظ الممتلكات

أنا لا أنطلق في التذكير للمسيرات بالمحافظة على الممتلكات العامة والخاصة، وضبط الشعارات، والنأي بها عن التحرك خارج الهدف من منطلق الأخلاقية التحضرية، فإن الحضارة المادية السائدة هي التي ترتكب المجازر في الآمنين، وتُشكل، وتيتم، وتسحق؛ لتتهب، وتذل، وتستضعف الشعوب، وتستعبدتها.

المنطلق الصحيح لمثل هذا التذكير هو مراعاة الحكم الشرعي الذي نؤمن به في صورته الأولى والثانوية، وما يقتضيه التفكير الصحيح، والعقل السليم من المناسبة بين الوسيلة والهدف.

منطلقنا أحفظ للحرمت، من منطلق أوروبا، إذا كان المتحضر في أوروبا ينطلق في المحافظة على بعض الأشياء من منطلق تحضره، وتحضره لا يمثل أرضية أصلاً لرعاية الحرمت، فإننا ننطلق من منطلق قوي، ويقوم تورعنا على أرضية متماسكة صلبة، هي أرضية الإيمان ومراعاة الحكم الشرعي الإلهي.

وإنه كلما كان علينا أن نذكر الشعب بالمحافظة على الأموال الخاصة والعامة كان علينا أن نطالب الجهة الرسمية باحترام النفوس والدماء الطاهرة، وحرمة المال دون حرمة الأنفس بكثير.^(٣)

لا بدّ من ضوابط ولكن!

ونحن وإن لم نكن مع المسيرات حيث تكون بلا حساب ولا دقة ولا تدبّر ولا ضوابط، ولا قيادة حكيمة عارفة محيطية بالحكم الشرعي، ونريد للأجواء أن تميل إلى الهدوء

١- ونحن قد وُوجهنا، ولا زلنا نواجه بباطل كبير وكثير.

٢- خطبة الجمعة (٤٦٥) ١٨ شهر رمضان ١٤٣٢هـ، ١٩ أغسطس ٢٠١١م.

٣- خطبة الجمعة (٥٤) ٢٩ محرم ١٤٢٣هـ، ١٢ أبريل ٢٠٠٢م.

ما أمكن في غير ضياع للحقوق، وسكوت على الظلم والتلاعب إلا أننا ننبه على هذه الحقيقة،

وهي: إنك إذا أقمت على كل طريق إشارة حمراء، وفرضت أن تستمر هذه الحالة، فإن كل أهل المركبات المتعطلة سيضيعون ذرعاً، وستطلق حركة السير بلا حساب حتى لو كانت تصادمات وحوادث، فاحذر أن تغلق كل الطرق، وإذا أقمت على كل معبر حاجزاً، وضاق الناس بالحواجز، وخافوا على حياتهم، فإن الأعرج والضعيف سيغامر بأن يحاول القفز على الحواجز، وإن تهدده السكوت.

فلنحذر من حالات الخنق، وحالات التضيق، حالات الأسر، ومن كثرة الإشارات الحمراء، ومن إقامة الحواجز على كل المعابر، فإن هذا الوضع ينتهي إلى نتيجة تضر بالوطن والمواطن بكل فئة.^(١)

المعارضة واستقرار الأوطان

لا تقوم دولة مستقرة ومتقدمة على التهويل والتضخيم الإعلامي فحسب، وعلى جيش من الصحفيين والإعلاميين والنيابيين المتحرّكين على مسار الإعلام الدعائي، المستعدين، لئن يقولوا كل شيء يمكن أن يُلَمَّع النظام، ويزكّيه، ويبرّر ممارساته، ويضخم إنجازاته، ويمكن أن يقولوا كل شيء فيه شتم الآخرين وقذفهم، والإساءة إليهم.

إذا كان هذا البُعد فيه خدمة، وفيه ربح للنظام أي نظام، فإنه لا يمكن أن يقوم عليه استقرار دولة وتقدمها، على أن هذا الأسلوب أسلوب يضرُّ أكثر مما ينفع، وإذا كان ينفع في أوساط شعب مغفل، فإن شعبنا هنا قد بدأ يقظته مع أوّل صحوة إسلامية، وهذه اليقظة إلى اتساع، وليست إلى تراجع.

لسنا مع رغبة التصعيد الأمني، ولا مع حالات الاستفزاز من أيّ طرف، لسنا مع العنف والعدوانية والتطرف من أيّ طرف، وفي الوقت نفسه نُصرُّ على حق التعبير السلمي عن الرأي والمطالبة الشرعية، والشرعية قبل كل شيء، والدستورية من بعد ذلك بالحقوق الثابتة.

١- خطبة الجمعة (٢٠٩) ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ٢٢ يوليو ٢٠٠٥م.

ونحن نقف ضد قوانين التكتيم والتكبير والتدجين القسري.^(١)

المعارضة والثوابت الشرعية

ومن ثابت كربلاء الذي لا بد أن يستهدي الحاضر به، ولا يمكن له الانفصال عنه:

- لا يصح للمسلمين في أي زمن أن يسكتوا على الفساد السياسي، لأنه من الناحية العملية رأس كل فساد، ولا إسلام حقاً إذا استشرى الفساد السياسي، إذا كان الوالي مثل يزيد، فعلى الإسلام السلام.^(٢)

- لا يكفي للدخول في أي معارضة أنها تواجه مفسداً ما، وتتحرك ضده، فلو كانت تستبدل فساداً جديداً بفساد قديم لم تكن المعارضة المطلوبة، ولا يصح متابعتها، وإنما معارضة الفساد التي تستحق المناصرة هي التي تأخذ بالأوضاع إلى الصلاح بعد فسادها، «لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً»^(٣)، فكلما كانت معارضة يزيد بيزيد مثله أو أخس لم تكن شرعية، ولا يتأدى بها الواجب، ولا تستحق المتابعة.^(٤)

التعدييات الحكومية بين السكوت والمعارضة

حين تكثر القوانين الجائرة، والخطوات الاستفزازية، وتبقى الملفات الساخنة على ركودها، هل تقابل بسكوت النائمين أو الموتى؟

هذه ظاهرة تدلُّ بكل وضوح على سقوط الشعب والحكومة، وعلى فشل الشعب والحكومة، وعلى أن هذا الشعب والحكومة لا موقع لهما في حركة التاريخ الناهضة.

١- خطبة الجمعة (٢٧٣) ٥ صفر ١٤٢٨هـ، ٢٣ فبراير ٢٠٠٧م.

٢- ورد عن الامام الحسين عليه السلام قوله: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد». بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٤ ص ٣٢٦ - تحقيق: محمد الباقر البهبودي - الطبعة الثانية المصححة - سنة الطبع: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان - ملاحظات: دار إحياء التراث العربي.

٣- ورد عن الإمام الحسين عليه السلام قوله: «وأني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي عليه السلام أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر». المصدر نفسه - ج ٤٤ ص ٣٢٩.

٤- خطبة الجمعة (١٠١) ٤ محرم ١٤٢٤هـ، ٧ مارس ٢٠٠٣م.

هذا يُعبّر عن تخلف مجتمع وحكومة، إذا كان الموقف المقابل لكل الأزمات هو سكوت النائمين والموتى، فقد طغت حالة الموت على الحياة.

هل هو ضجيج الشوارع إلى حد حالة الانفلات؟
والاستجابة لكل صيحة؟

ولنداء ولو من مجهول أو غريب عن الصف؟

ولو من صبيّ بعد لم يبلغ الحلم؟

هذا لا يصلح، وإنما قد يفسد كثيرًا، بل الأمر كذلك، وهو أمر مخرج من الدين. أنا أقول: بأن على الحكومة إذا أرادت أن لا ينفلت الزمام من يد كل عاقل أن تجلس إلى طاولة الحوار، وأن تفتح الملفات الساخنة على مائدة الحوار، وأن تقبل بالحق، وأن تعطي من نفسها النصف، وأن تُقدّم تنازلاتٍ وهو لصالحها أمر من صالحها.

إذا كان في هذه الأرض من يبحث عن أزمات، فإن كل المؤمنين علماء وقواعد حرصهم على أن يطفئوا نار الأزمات، وعلى أن يبدؤوا الفتنة لا أن يشعلوها، ولكنّ لهم صوتًا سيبقى دائمًا مع الحق، ومع المطالبة بالحقوق.

لسنا مع أي عمل تخريبي، ولا مع أي استجابة غير مدروسة لمجهول، أو غريب، أو صبي لم يبلغ بعد الحلم، ولسنا مع الاستعلاء الحكومي، ولا مع بقاء المشكلات على ما هي عليه، ولا مع السكوت على الأخطاء، ولا مع خنق لغة التعبير السياسي الصريح المتّزن، ولا مع القرارات الفوقية الضاغطة على حرية الناس، ومصالحهم.^(١)

حركة الشارع

حركة الشارع يجب أن تكون منضبطة، منطلقها واضحًا، هدفها محددًا، لغتها راقية، خلقها كريمًا، الجهة التي وراءها واضحة قادرة على ضبط إيقاعها، مجيدة لتوقيتها، وأن تكون حريصة في حفاظها على الأنفس، والممتلكات الخاصة والعامة.

١- خطبة الجمعة (٢٣٥) ٢٤ صفر ١٤٢٧هـ، ٢٤ مارس ٢٠٠٦م.

وتحرك الشارع وراء كل نداء، وكل دعوة يتيح لكل مغرض ولأي جهة، وأي مستوى أن يشير بالحركة، فتَهَبَّ الجماهير لخدمة غير أهدافها، وتستغل ممن يريد الإفساد والعبث بالأرواح والممتلكات لخفة في دين أو جهل أو طيش، أو لإرادة التشويه والإسقاط والإدانة، وخلق المبررات لمصادرة الحريات، وخنق الصوت المطالب بالحق.^(١)

الانضباط بالقيادة العلمائيّة

سيُطالب العلماءُ الناسَ بأن يُتَّبَعُوا، إذا طالبهم الناس بأن يتحرَّكوا، على أن تحرَّك العلماء واجب طالبهم الناس بذلك أم لم يطالبوهم، ولكنَّ التحرك الذي يدفع إليه الناسُ يكتب على الناس أن يُعطوا وعدًا صادقًا بالاتباع، ولا تُطالبني بأن أتحرك وأنت تقول لي حين يختلف رأيي مع رأيك: اذهب وحدك، وأني أقف ضدك.

إذا كان القرار - أقولها صراحة - بالأغلبية، فمن يُطالب بالمواقف هم الأغلبية، ومن يتحمل المسؤولية هم الأغلبية سواء كانوا أغلبية جمعية، أم أغلبية مجتمع، وما إلى ذلك.

إذا كان رأي العلماء سيبقى محكومًا بأغلبية جمعية، أو أي أغلبية أخرى، فالعلماء لا يتحملون المسؤولية، وإنما الذي يتحمل المسؤولية ويُلام بعد ذلك هم الأغلبية، وإشعار الناس العلماء بأنهم معهم مع التخلف في الموقف العملي تغرير، وخيانة، ومضرة للدين والمجتمع.

ورأي الأغلبية في ساحة الفتوى، وفي ساحة الحكم الولائي محتاجة إلى مراعاة الفتوى، وإلى مراعاة الحكم الولائي، ولا يقوم رأي الأغلبية مقام الفتوى، ولا مقام الحكم الولائي.

ولو كان خطأ في قرار الأغلبية، فلن يتحملة ابن التاسعة عشر عند بروز العقوبة، وإنما سيتحملة العالم المتابع، وأنا لست مستعدًا أن أتحمّل تبعة قرار الأغلبية؛ لتخرج

الأغلبية بسلامة، ويتحمل أمثالي المسؤولية بكاملها أمام الناس، وأمام الله الذي هو المنظور الأول إن شاء الله.^(١)

التفريق بين القرار السياسي والخطاب السياسي

في قناعتي لا يصحّ للخطاب السياسي أن يُشرّق، وللقرار السياسي أن يُغرّب، ولا أن يصعد أحدهما إلى السماء، وأن يغوص الآخر إلى عمق التراب.

ولكن مع ذلك لا يُطلب للقرار السياسي أن يتشبع بكل خصوصيات الخطاب السياسي، ولا يلزم أن يبلغ طموحه، وإلا لكان الإسلام كاملاً على الأرض لأول يوم من دولة رسول الله ﷺ التي كانت خطاباتها خطابات عالية، وكانت الدولة في بداياتها بمستوى الثورة في نهاياتها من حيث الطموح وبُعد الطرح.

ولست تجد على الأرض دولة تكون من أول يوم في مستوى طموح الثورة والخطاب. وللخطاب وظائفه الخاصّة، ومعالجاته والتفاته ومسؤولياته، وللقرار مسؤولية أخرى، وخصوصية أخرى، فلا بدّ من فرق.

هل يقال كل شيء بحجّة أن الكلمة كلمة حق؟

أقول كلمة الحق؛ من أجل خدمة الحق، وكلمة الحق عند سلطان جائر من أفضل الجهاد لما تُصلحه من أمر الحق.

ولا يكفي لأن أقول الكلمة بأن أعرف أنها كلمة حق ما لم أعرف أنها كم ستنتفع الحق، أو تضر الحق.

إذا كان في كلمة الحق إجهازٌ على الحق حرّمت.

١- خطبة الجمعة (٢١١) ٤ شعبان ١٤٢٦هـ، ٩ سبتمبر ٢٠٠٥م.

هل السُّكوت على كل المطروح إقرار وعجز؟

نسمع الكثير، ونقرأ الكثير، ويصلنا الكثير.

ولكني شخصياً قد أسكت، وخطأً أن يُفسَّر السُّكوت بأنه إقرار لكل ما يطرح، أو أنه عجز عن الردّ على ما يطرح، ولي حكمة في السُّكوت تتصل بمصلحة هذا المجتمع، ولتقتضيات الإيمان والإسلام.^(١)

الثَّوابت في الموقف السِّياسي

هذه ثوابت في موقفنا السِّياسي^(٢):

- ١- لا نستطيع أن نتخلى عن قيمنا، والأحكام الشرعية.
- في الحركة والسكون في موقفنا السِّياسي كغيره، تمثل ذلك في معارضة أو موافقة، فإن هذا التخلي سنخسر معه وجودنا وحياتنا الحقيقيين.
- ٢- نحترم الدماء، والأعراض، والأموال، وحقوق مختلف الطوائف والفئات على حدّ احترام الدين لها.
- ٣- نتمسك - وإلى الأخير - بالمطالبة بالحقوق الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وسائر الحقوق لأبناء الشعب كل الشعب.
- وإذا تحدّثنا عن فئة، أو منطقة، أو طبقة قبل أخرى، فإنما ذلك بلحاظ ميسر الحاجة الفعلية التي قد تعاني منها هذه الطبقة أو الفئة، فنحن لا نقر ظلم أي فئة، ولا نسكت عن حق أي طبقة.
- ٤- نقدم التعاون مع الآخرين في خير الدنيا، والوطن، والأمة على الاختلاف والمنازعة.

١- خطبة الجمعة (٢١١) ٤ شعبان ١٤٢٦هـ، ٩ سبتمبر ٢٠٠٥م.

٢- تنويه: هذه الثوابت السياسية ذكرها سماحة الشيخ في سياق الوضع في البحرين، ولكنها قابلة للتعميم كما يظهر. (مُعَدّ الكتاب).

٥- في ظروف الاختلاف، وفي المطالبة بالحقوق نتمسك بالحوار، ثم بالوسائل السلمية الأخرى، ونرفض أساليب العنف والتخريب.

٦- تتحرك أساليبنا السلمية في إطار الدين، مع الإنكار على كل قانون في نقاط جَوْرِهِ، وتُشكّل الموقف السياسي عناصر متعددة، وتتدخل فيه حسابات عديدة قد تبرر بمجموعها بعد استبعاد العنف أن نقبل الكلفة الثقيلة التي تُحتم الضرورة تحملها، وقد لا تستوجب المقتضيات قبول كلفة أقل في فرض آخر.

المنظور ليس ما نتحمّله من كلفة.

قد أقبل أن أموت في سبيل هدف، وقد لا أقبل أن تُبتر مني أصبع واحد في سبيل هدف آخر.^(١)

ونحن ندور مدار التكليف الشرعي بغض النظر عن الكلفة خَفَّتْ أو ثَقَلَتْ، مع عدم اللجوء إلى العنف، وإنما نحن نتحدث عن كلفة يفرضها الطرف الآخر.

٧- ننادي بانضباط حركة الشارع، والتزامها بمرجعية سياسية مأمونة دينياً وموضوعياً، ووعياً سياسياً، وتحملاً للأمانة الثقيلة انسجاماً مع المقررات الدينية الثابتة التي لا مناص لمؤمن منها.

٨- هدفنا تحسين الأوضاع الحقوقية للشعب، وتنشيط حركة الإصلاح الحقيقي لا إيجاد سلسلة من الأزمات مع النظام القائم.

على أن الجانب الرسمي في بعض تشكيلاته، وفي بعض الظروف قد يتعمد خلق بعض الأزمات؛ للتخلص من الإحراجات الحقوقية الملزمة، ولتحويل المسار السياسي، وتوجيه دفة الأحداث بما يحدث انقلاباً على الحقوق بدرجة أكبر، ويبرر لتوجيه ضربات مقصودة.

وإذا حدث هذا، فضرره ليس على الشعب فقط، وإنما على كل رُكّاب السفينة.

١- والهدف الواحد قد تقتضي كل الملابسات أن يضحي من أجله عاجلاً بكل شيء، وقد تقتضي غير ذلك. والمسألة أدق بكثير من أن تدركها عقول الكثيرين، أو يقضي فيها إسلاماً بلا فهاة كافية، وخبرة وافية مع توفر عناصر أخرى.

٩- نؤمن بالقيمة العالية للوطن، والحفاظ على استقلاله ومصالحه ووحدته وانتماؤه الديني والتاريخي، ولا نجيز لأنفسنا أن نخل بشيء من ذلك، ونطالب النظام كما نطالب أنفسنا بهذا الحفاظ وهذا الالتزام بالدرجة نفسها أمام القوى الكبرى.

١٠- ونحن مع الوحدة الوطنية، ولا نريد أن ندخل في مواجهة مع النظام، ولا مقاطعة له، ولا قطيعة معه.

أما المقاطعة لهذه المؤسسة، أو تلك من مؤسساته تصحيحاً للأوضاع، فهي أمر آخر مختلف تماماً عن المقاطعة أو القطيعة مع النظام.

فقد نقاطع هذه المؤسسة أو تلك المؤسسة كما نحن مقاطعون للمجلس النيابي، ولكن هذا ليس في سياق مقاطعة النظام نفسه.

وتحكم علاقتنا مع النظام ومشاريعه، وكل مؤسساته، وفي كل الفروض والحالات ثوابت الدين ومصلحة الوطن والشعب.

١١- نملك وعياً إسلامياً عاماً ومذهبياً خاصاً في إطار الإسلام، ومن عطاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وفقههم الدقيق، وتقواهم العالية يُحرّم علينا أن نعمل على فرقة المسلمين، وزرع الخلافات العملية بينهم والانتقاص من حقوقهم، فضلاً عن الاستخفاف بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، ومسّها بأقل أذى، وأدنى سوء.

وידفعنا هذا الوعي إلى العمل على وحدة المسلمين، ورعاية الحقوق فيما بينهم، وتناصرهم في الحق والدفاع عن حمى الإسلام وكرامة المسلمين ومصالحهم بعيداً عن الظلم والتجاوز على حقوق الآخرين من الملل الأخرى وشركاء الخلق، وأجناس المخلوقات.

أما المذهبية العقيدية والعبادية، فمتروكة لمسؤولية الأفراد، ومداركهم، وأفهامهم في حرية من بيان الرأي العلمي لكل المذاهب في أسلوب غير عدواني، ومراعٍ لأدب الإسلام وأخلاقياته الرفيعة.^(١)

الحفاظ على الأرواح والممتلكات أساس في أساليب الإصلاح

شبابنا الأعزاء، شابًا تانا الكريمت، أيها المجتمع المؤمن، أيها الإخوة والأخوات المسلمون والمسلمات، لا بدَّ من إنكار المنكر، ولا بدَّ من أمر بالمعروف، ولا بدَّ من ضرب أروع المثل في رقي أساليبنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلينا دائمًا أن نبرهن بأننا أحرص من كل الآخرين على المال العام، وعلى المال الخاص، على الأنفس والأعراض، وأن نتقدم بأساليبنا الإسلامية النقدية والاحتجاجية التي لا تقدم أصعب على أسهل، ولا تختار ما فيه ضرر على ما ليس فيه ضرر.

أنا لا أحتاج أن أعبّر عن هذه الأساليب بالأساليب الحضارية، وإنما عليّ أن أعبّر عنها بأنها أساليب إسلامية، أعني الأساليب الأكثر تأثيرًا والأقلّ خسارة ليس بالنسبة لي أنا المحتج فقط وإنما بالنسبة لكل نفس.

وإذا كان للحضارة رقي، وإذا كان للحضارة أدب، وإذا كان للحضارة أخلاق، وإذا كانت هناك أساليب حضارية يقال عنها حضارية إطراء، فهي أساليب مقتبسة من الإسلام.

أنا أؤكد على حالة الأمن والاستقرار، وأن نخلص لهذه الحالة، وأن نسعى جادين لهذه الحالة، ولكن لن يفوق شيء حرصنا على إسلامنا وإيماننا، وكلنا إيمان بأن مصلحة الأمن والاستقرار ومصلحة كل المواطنين، ومصلحة العلاقة الإيجابية بين الدولة والشعب إنما تثبت، وتستقر، وتنمو، وتتركز في ظل اقتراب أكثر فأكثر للمنهج الإسلامي، والأخلاقية الإسلامية، والطهر، والعفة التي ينادي بها الإسلام.^(١)

توصيات لحفظ وحدة الصف

علينا أن نحرص على رص الصفوف، وتجنب أي خطأ يحدث الخلطة فيها، والنأي عمّا يوقننا في شيء من المخالفة الشرعية، والإخلال بالخلق الإسلامي الرفيع.

مما أخذته شريعة الله علينا ألا نرمي أحدًا بسوء من غير علم، وألا نمسّ شخصية مؤمن من غير حق.

لك أن تحترس، أن تتوقّى، ألا تنفتح على من لا تعرف، أن تحتفظ بسرّك عمن لم تحصل لك ثقةً تامةً به، فضلاً عمّن تجهله، أو تشك فيه^(١)، ولكن ليس لك أن تقضي على شخصية مؤمن اجتماعياً بإطلاق الكلمة غير المسؤولة فيه، وأن تحطّم سمعته من غير بيّنة ولا دليل.

وللكلمة في الشريعة حدود كما للعمل، فليس للمسلم أن يطلق الكلمة متى شاء، وكيف شاء من غير مراجعة هذه الحدود.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الناس ليسوا سواء في المستوى الفكري والنفسي والبدني، والإرادة والجرأة والإقدام، فالناس على درجات.

والحرّاك الشعبي لا يتقوّم بالأقوى فحسب، وإنما يتقوّم بكل المستويات، وبكلّ الجهود، ولو بقي الأقوى وحده لما تحقّق على يده المطلوب.

ولو أسقطت من هو الأقل منك دوراً، لحق لمن هو أكبر منك دوراً أن يسقطك.

والمشارك بشيء من الجهد خير من غير المشارك، والمتعاطف خير من المعادي، والمحاييد خير من المحارب.

شجّع على الخير، ولا تهاجم من هو أقل منك جهداً، أو من كان له تعاطف، أو من يقف موقف الحياد، فربما أسأت بذلك إلى الحرّاك، وثلمت من رصيده، بل وخلقت له أعداء كانوا معه على درجة من الصداقة.^(٢)

الانضباط وحرية الرأي

نحن مع الانضباط، ومراعاة المصلحة الوطنية العامة، وتقدير الظروف، ومع الأساليب الأكثر هدوءاً، ولكن لسنا مع مصادرة حرية الرأي السياسي الآخر، ووأد الكلمة، وتكميم الأفواه، ولا مع قلعة ظالمة من القوانين الحديدية لحبس التعبير.

وكما يمكن وصف بعض الحركات بالإرهابية، يمكن وصف بعض القوانين بصدق

١- لك كل ذلك، بل عليك كل ذلك.

٢- خطبة الجمعة (٤٩٨) ١٤ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ، ٦ أبريل ٢٠١٢م.

وحقُّ بأنها إرهابية.

وكلمتي للشارع: اطلبوا الوسائل الأكثر هدوءًا كلما أمكن.

لا تتظاهروا إلا للضرورة.

احرصوا على ألا تسدوا طرق الحوار.

وكلمتي للحكومة: لا تمارسوا إرهاب القوانين.

ولا تُطوّقوا عنق الشعب بألف قانون جائر.

ولا تستعملوا الورقة الطائفية للحل السياسي.

لا تُضِّقْ صدوركم عن كلمة حقٍّ قالها مكروب، وعن استغاثة اضطرار استغاثها مستغيث.^(١)

السُّلْمِيَّةُ لَهَا قِيَمَةٌ مُمَيِّزَةٌ

إنَّ الدفاع عن الحقوق أمرٌ واجب، وطلب العدل، وحماية القيم فريضة، ولكن ذلك كله لا تغني عنه الحالة الانفعالية شيئاً، وإن كانت قد تفرض نفسها في بعض الحالات فرضاً، بوحى من ضغط الظروف، ومرارة الواقع.

وللدفاع عن الحقوق وحماية المصالح والقيم أكثر من أسلوب، والأساليب دائماً يخضع اختيارها لخلفية القيم ومقتضيات الواقع، والإسلاميون في كل مكان لا يختلفون على القيمة المتميزة لسلمية الوسائل.^(٢)

السُّلْمِيَّةُ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَالْحُكُومَاتِ

ومع تأكيدنا على السلمية، وتشديدنا عليها نطرح هذا السؤال على العقلية العالمية، والضمير العالمي، وعلى عقل كل عاقل، وضمير كل ذي ضمير، ودين كل ذي دين، وإنسانية كل ذي إنسانية: هل السلمية ليست مطلوبة إلا من الشعوب فحسب؟

١- خطبة الجمعة (١٩٣) ٢١ صفر ١٤٢٦هـ، ١ أبريل ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (٤٧) ٩ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٢٢ فبراير ٢٠٠٢م.

أما الحكومات، فلها أن تفعل ما تشاء؟

وتظلم ما تشاء؟

وتفتك وتبطش كيف تشاء، وتُرعِب وترهب كيفما ترى؟

إنها قسمة ضيزى، وظلم من الظلم الفظيع.^(١)

التَّغْيِير بين الواقع والطَّموح

هناك واقع يمكن أن يتجاوز، وهناك واقع لا يمكن أن يتجاوز، واقع القوانين الطبيعية من خلق الله، وواقع قوانين الاجتماع والتاريخ وهي قوانين من فعل الله لا يمكن للإنسان تجاوزها.

وهناك مشكلات عملية قد تكون عصيَّة من صنع الإنسان، وهذه لا يستحيل أن تُتجاوز، ولكن تجاوزها لا يكون بدرجة واحدة، ولا بدُّ أن يتم التحرك في تجاوزها ضمن مقتضى القوانين الطبيعية والتاريخية معًا.

أقول باختصار: هناك واقع كوني لا يغيّر منه شيئاً إلا خالقه، ولا تفلّت لأحد منه، والطَّموح لا يمكن أن يقترب من مسّهِ، ولا يستعان على شيء منه إلا بقانون، أو أكثر من قوانينه.

وهناك أوضاع عملية منحرفة على الأرض صنعها جهل الإنسان، وسوء اختياره، وطغيانه في حدود ما أتاح قدر الله **وَكَلَّ** لهذا الاختيار من فسحة الحركة.

وهناك إمكان للتغيير في هذه الدائرة طبقاً للقوانين الطبيعية، وقوانين التاريخ والاجتماع، وليس بالصورة المفتوحة المطلقة، وحتى حركة الأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم) كانت خاضعة لتلك وهذه القوانين، وإن كان تدخل الغيب في محطات خاصة في مسيرة الأنبياء والأولياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) لا يمكن أن يُنكر.

١- خطبة الجمعة (٤٥٢) ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ٢٠ مايو ٢٠١١م.

وسقوف التغييرات الممكنة متفاوتة، وما عليه المنهج الإلهي في الأرض^(١)، وسيرة الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، وسيرة المتشرعة، والسيرة العقلانية هو عدم حرق المراحل في المعتاد، وإلغاء حساب الواقع، وإهمال المقدمات في استهداف التغييرات العملاقة وحتى الصغيرة، وكذلك عدم الوقوف عند السقوف الهابطة من حركة التغيير والانشغال بها عن المستويات العالية، سواء في مرحلة التحضير لتلك السقوف، أم مرحلة التوفر عليها.

إنهم لا يبقون، وهم يحضرون للسقف الهابط من التغيير عند مستواه، بل يرمون بالنظر البعيد إلى الهدف الأخير الكريم، وإذا تحقق لهم سقف من سقوف التغيير لم يقفوا عنده.

الرسل والرساليون لا يعيشون في حركتهم التغييرية من غير أهداف مستقبلية كبيرة تتحقق على أيديهم أو على يد غيرهم، ولا يفرطون في التحضير لإنجازها ما أمكن، ولا يذوبون في الواقع، ويستسلمون له، وينهزمون أمامه، ولا ينطلقون من الخيال لا في أهدافهم القريبة، ولا في أهدافهم البعيدة، في إهمال لمقتضيات الواقع، والمحاولة العملية الواقعية؛ للتغلب على ضغوطاته، وتجاوز محنة قساوته بإيمان وصبر، وعزم ومثابرة وجهاد، وعقل وحكمة.

ولقد حضرت جهود الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) على مدى تاريخي بعيد لدولة خاتم الأنبياء عليه وآله عليهم السلام، وكانت تلك الدولة هدفًا منظورًا للرسالات قبل بعثة نبينا الأكرم صلوات الله عليه وآله من غير أن تهمله في حركة أي من الأنبياء والمرسلين في المفصل الزمني الذي كانت تشغله، ومن غير أن تنسى واقعها التي كانت تتعامل معه.

ومثل ذلك دولة الإمام القائم عليه السلام، وتحضير أئمة أهل البيت عليهم السلام، ونوابهم المخلصين لها على مدى قرون^(٢).

١- الله على كل شيء قدير، وعلى إصلاح الأرض وهو لا يحتاج في قدرة الله إلى رسل، ومناهج تنزل، فلو شاء سبحانه وتعالى، وذلك قهراً لخلق الناس كلهم مهديين لا يملكون أن يضلوا، ولكن منهج الله وَكَلَّمَ جاء؛ ليتناسب مع ما أراد لهذا الإنسان من أن يكون مخلوقاً مختاراً.

٢- خطبة الجمعة (٣٦٧) ٥ جمادي الأولى ١٤٣٠ هـ، ١ مايو ٢٠٠٩ م.

المحور الثاني

الحراك الشعبي الخاص

(١)

الأحزاب والجمعيات السياسية

مسؤولية المسلم تجاه العمل السياسي

وظيفة كل مسلم ومسلمة، أن يأخذ على عاتقه المشاركة الجادة في صناعة التاريخ، وألا يبقى في الهامش ووراء ساحة التاريخ، ألا يقف على التلة متفرجاً كيف يصنع المجتمع، كيف تصنع التيارات الفاسدة، وكيف يصنع الكفر العالمي المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية.^(١)

مؤسساتنا الإسلامية

مؤسساتنا الإسلامية الأهلية الثقافية والسياسية والاجتماعية تمثل وجوداً ضرورياً؛ للحفاظ على مصلحة الدين والوطن، وتقوم بالدور الفاعل المؤثر الذي لا تنهض به جهود الأفراد المتفرقة، ومن مسؤولية المجتمع أن يدعم هذه المؤسسات، ويقف معها، ويدافع عنها، كما يقع على مسؤوليته مراقبتها، وحراسة خطها، وأن يضخ فيها عناصر ملتزمة بصورة مستمرة احتياطاً لمستقبلها، وتمكيناً لها من أداء دورها، ورفعاً لمستواها، وزيادة لكفاءتها وخبراتها من جهة، ودمجاً لهذه العناصر في العمل المؤسسي القادر على تلبية حاجات المجتمع، وتنظيم الجهود وتنشيطها، وإكساباً للأفراد لمزيد من الخبرة، والقدرة على التفاعل الاجتماعي النافع؛ من أجل الصالح العام من جهة أخرى.

المؤسسة تكسب جديداً، والأفراد يكسبون جديداً حين ينضمّون إلى المؤسسات الإسلامية.

١- خطبة الجمعة (١٥) بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، الموافق ١٣ يولييه ٢٠٠١م.

إضافة كفاءات، والانضمام إلى المؤسسة طريق رفع الكفاءة للفرد والمؤسسة التي انضم إليها.

وفي مقدمة مؤسساتنا الإسلامية الأهلية المحلية التي نعتزّ بها، والتي يجب الحفاظ عليها المجلس الإسلامي العلمائي الذي يتميز بدور أكثر أهمية في حراسة الخط الإسلامي، وتنشيط الحركة الثقافية الإسلامية وتأصيلها، وتأكيد الصبغة العملية للمجتمع، والمنتمة للفكر الإسلامي، والسلوك الإسلامي، والولاء للإسلام، والاهتمام بمختلف قضايا المجتمع التي تمس مصلحة الناس في كل من البعد الدنيوي والأخروي لتربط البعدين في الإسلام، والذود عن الهوية الإسلامية لهذه الأرض وإنسانها الكريم، والارتقاء بمستواه في كل الأبعاد الكريمة لإنسانيته المظلومة المهانة.

وتأتي أهمية هذه المؤسسة الإسلامية بدرجةها العالية من كونها مؤسسة تضم لفيّاً كبيراً من علماء وأساتذة الحوزات المحلية وطلابها، وخريجي الحوزات الأم ممن يتمتعون بكفاءات عالية، ولأنها المؤسسة التي انتظرها المجتمع كثيراً، ويعلق عليها كثيراً من الآمال.

إنّها المؤسسة التي علينا جميعاً أن نقف معها بكلّ قوة ودعم وإخلاص، وأن نحافظ على وجودها وسلامتها وأصالتها ونقائها، ثم لنا من بعد ذلك أن نتوقع منها الكثير النافع المصلح.^(١)

الموقف من الجمعيات الإسلامية والإنسانية

١- لا شك أن الجمعيات الإسلامية القويمة الصادقة، والجمعيات الإنسانية النظيفة المخلصة البعيدة عن الشبهات هي محل تأييد هذا الشعب واحترامه.

٢- إن التأييد والاحترام والدعم المرغوب مراعى دائماً بالاستقامة على خط القيم والدينية والخلقية الرفيعة، والتقيد بالحكم الفقهي في مقام التخطيط والتنفيذ، ومراعاة المصلحة العامة للمجمع وخدمته.

١- خطبة الجمعة (٣٤٧) ٢٩ ذو القعدة ١٤٢٩ هـ، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٨ م.

٣- يؤمل في بعض الجمعيات الإسلامية القائمة، ومن خلال واجهاتها العريضة في تمثيلها الإداري خير كثير، نرجو أن يكون أكبر مما يظن.

٤- لا بد من الرقابة الاجتماعية لسير هذه الجمعيات من داخلها، وفي الدائرة الاجتماعية الواسعة، وذلك بملاحظة مشاريعها، وتوجهاتها، وخطواتها العملية التفصيلية دائماً: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾^(١).

٥- يطلب لأصحاب الكفاءات المخلصين بإلحاح أن يلتحقوا الصالحة؛ ليسهموا مع إخوانهم القائمين بالعمل فعلاً في خدمة المجتمع، وتحسين مستوى الوعي بجميع أبعاده النافعة، كما ينبغي دعم هذا النوع من الجمعيات من جميع فئات المجتمع في خارجها.^(٢)

واقع الجمعيات الإسلامية

جمعياتنا الإسلامية حجم كبير، وموقع مؤثر، ومسؤولية ضخمة.

١- الحجم

لماذا حجم جمعياتنا الإسلامية حجم كبير؟

هذا بلحاظ نوعية المنتمين.

المنتمون للجمعيات الإسلامية هم الصفوف الشبابية النابضة، أصحاب الكفاءة والخبرة، المتميزون بالفاعلية، أصحاب المواقع الاجتماعية، ومثلهم غيرهم ممن تجاوز مرحلة الشباب.

العينات في عدد من الجمعيات مختارة من ذوي القابليات المتميزة والخبرة والفاعلية الأشد.

إنهم من لباب مجتمعا.

١ - التوبة: ١٠٥.

٢ - خطبة الجمعة (٤٢) ٤ ذو القعدة ١٤٢٢ هـ، ١٨ يناير ٢٠٠٢ م.

إن الجمعيات تأخذ من لباب أبناء المجتمع، وصفوة أبناء المجتمع، وتقتطع إمكانات وقابليات كبيرة من هذا المجتمع.

تقتطع ذلك على فرض أن تنأى عن الخط، وهي تضخ في المجتمع بهم دمًا جديدًا من جنس دمه، ووعيًا دقيقًا من وعيه إذا ثبتت على الخط. وبلحاظ العدد: هو نسبة كبيرة.

حين تجمع كل المنتمين إلى الجمعيات الإسلامية من ثقافية وسياسية واجتماعية وغيرها، ستجد أن العدد بالقياس إلى مجموع شبابنا عددٌ ضخم، وخاصةً بالقياس إلى النُخب.

وبلحاظ الوسط: إذا كانت الجمعيات الأخرى تجد أعضاءها من الوسط الاجتماعي العام، فإن الجمعيات الإسلامية إنما تجد أعضاءها من الوسط الإسلامي الخاص.

فهي تتعامل مع وسطنا، وتسترفد منه، وتستعين به، وتفرغ مجالات أخرى من العمل النشط والعمل الرسالي إذا استوعبت هذا العدد الكبير من الشباب.

تحتضن هؤلاء الشباب؛ ليتلقوا تربية خاصة في أجوائها، ولتخلق من خلال أجوائها أرضيةً لتكوين شخصية خاصة لهم.

وجهود هؤلاء الشباب، وألوف ومئات الألوف وملايين الساعات من ساعاتهم ستتوظف في إطار هذه الجمعيات واستثماراتها.

ونحن نعرف أن الانتماء إلى أي مؤسسة له إحياءاته التي تدخل تلافيف الشخصية وطواياها وتكوّن نوعًا من الولاء والاعتزاز بالانتماء والانتساب.

ثم إن هذه الجمعيات تتحرك باسم الإسلام، وتتحدث باسم الإسلام، وهي مدرسة تشارك في صنع المجتمع ثقافيًا وسياسيًا وأمنيًا واجتماعيًا، ومن حيثيات كثيرة.

تساهم في صنع الرأي العام، والموقف العملي العام.

إذا، هذه الجمعيات على حجم كبير حقًا.

٢- الموقع المؤثر

فرق بين مؤسسة تعمل في المجتمع الإسلامي باسم الإسلام، وأخرى تعمل بأسماء من لون آخر.

الجمعية التي تعمل باسم الإسلام توحى دائماً أن مواقفها، أن آراءها، أن مطروحاتها إسلامية، وهذا ما قد يميز البعض غثّه من سمينه، وما لا يميزه البعض الآخر، فيتلقى هذا النشاط على إجماله، وهذا الطرح على إجماله على أنه إسلامي، وخاصة بالنسبة للشباب في بدايات شبابهم وللناشئة، فإنهم يستقبلون معطى الجمعيات الإسلامية على أنه إسلام حق، وإسلام صادق.

وإن الجمعية من النمط غير الإسلامي ليس من الصعب أن يقاومها، أن يفضحها، أن يعزلها المجتمع الإسلامي، ولكن الجمعية حين تكون لافتتها التي تستقبل بها الآخرين لافتة إسلامية، وشعارها شعار الإسلام، فإن هذا يخلق نوعاً من الصعوبة في الفضح عند الانحراف، وفي المقاومة والعزل الاجتماعي.

وعند عزل أي جمعية من الجمعيات غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي، لن ينقسم الصف الإسلامي.

وأما عند عزل أي جمعية من الجمعيات التي تتلفع بالإسلام - حتى مع تقدير الانحراف -، فإنه من المتوقع أن تحصل بعض الشروخ في الصف الإسلامي. إذًا، الجمعيات الإسلامية لها موقع مؤثر خطير!!

٣- المسؤولية

نستطيع أن نستوعب مسؤولية الجمعيات الإسلامية الضخمة من خلال النقطتين السابقتين: الحجم الكبير، الموقع المؤثر يستتبع مسؤولية ضخمة.

فلا بد أن تعمل هذه الجمعيات على أن تبقى على خط الاستقامة، وأن تتعامل مع مسؤولياتها بكفاءة.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٣٥) ٢ ذي القعدة ١٤٢٤ هـ، ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٣ م.

أَيُّهُمَا الصَّحِيحُ: أَنْ تَتَعَدَّدَ الْجَمْعِيَّاتُ، أَمْ أَنْ تَتَوَحَّدَ؟

تَعَدَّدُ، أَمْ تَوَحَّدُ

التعدد مرة يكون مدروسًا، ومرة يكون ارتجاليًا، ومرة يكون انفعاليًا. إذا كان تعددٌ، فهو التعدد المدروس، وليس التعدد الارتجالي، والأخس منه التعدد الانفعالي.

تعدد الجمعيات من منطلق الانفعال لا شك أنه مضر.

من موقع الارتجال أيضا مضر.

إذا كان هناك تعدد، فهذا التعدد لا بد أن يكون مدروسًا ومقدرًا تقديرًا دقيقًا.

التعدد مرة يكون تنوعيًا، ومرة يكون تكراريًا.

لا نقف مع التعدد التكراري، ويمكن أن نقبل، بل ندعو إلى التعدد التنوعي.

التعدد مرة يكون مع التنسيق، ومرة يكون مع التضاد والمواجهة.

لا بد أن نكون مع التعدد حين تقتضيه الظروف وتعدد الوظيفة، ولكن مع التنسيق.

أما التعدد مع المواجهة، فلا بد أن تدرس أي حالة من حالات المواجهة؛ لتُسَقَطَ الجمعية المضرة، ويقف المجتمع مع الجمعية الأخرى التي تقف موقفًا أقرب إلى الإسلام.

مرة يكون التعدد مع توفر القابليات، ومرة مع ندرتها.

إذا جاز الأول، فلا يجوز الثاني.

وكذلك لا بد أن تلاحظ الإمكانات الأخرى من إمكانات مالية، وإمكانات من نوع آخر، فإن كانت الإمكانات تسمح بالتعدد عند وجود المفتضي أساسًا قبلناه، وإلا فلا تعدد.^(١)

الجمعيات والمرجعية

هل جمعياتنا الإسلامية تمثل مرجعية نهائية مستقلة لأعضائها ومنتسبيها؟ أم أنها مؤسسات تقع على طريق المرجعية؟

لا شك أن جمعياتنا لا تعتبر نفسها مرجعية مستقلة ونهائية، ولا يدخل في ذهنها هذا أبداً، فيتحتم أن تكون مؤسسات تعمل على طريق المرجعية الأخيرة النهائية.

ومرجعية المسلم أولاً وبالذات هوربه الكريم تبارك وتعالى، يأتي من بعد ذلك بالإذن رسول الله ﷺ، يلحقه أئمة أهل البيت ﷺ، يليهم من بعد ذلك الفقهاء العدول - والكلام عن خط الفقهاء، وليس عن فقيه معين -.

فمرجعية جمعياتنا الإسلامية لا بد أن تكون منتهية إلى خط الفقهاء؛ لتنتهي إلى مرجعية الأئمة ﷺ، إلى مرجعية رسول الله ﷺ، إلى المرجعية الحق التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، مرجعية الإله العظيم؛ الله سبحانه وتعالى.

المرجعية هنا مرجعية مدرسة، وليست مرجعية شخص، كل المسلمين - الملتزمين بالإسلام - مرجعيتهم الإسلام، ومن رأى أن له مرجعية تنتهي لغير الإسلام، فهو - على إسلامه - ليس بالمسلم الحق الملتزم.

وفي الإسلام مدارس، والجمعيات التي تنتمي إلى مدرسة أهل البيت ﷺ لا تكون من هذا الخط حتى تكون مرجعيتها مدرسة أهل البيت ﷺ، ولا نعرف في الأرض، ولا في الدين تمثيلاً لخط مدرسة أهل البيت ﷺ يُتيقن بأنه تمثيل مرضي عند الله غير تمثيل الفقهاء العدول الذين أوصى بهم، وبمرجعيتهم أهل البيت ﷺ.

فيتحتم على جمعياتنا الإسلامية من هذه المدرسة؛ لتكون كذلك أن تبرهن دائماً على أن لها مرجعية، وأن مرجعيتها تتمثل في مدرسة أهل البيت ﷺ، وفقهاء هذه المدرسة العدول.

الجمعيات والتتقيف

التتقيف داخلي وخارجي.

وحين تختار أي جمعية شعار أنها جمعية إسلامية يفرض عليها هذا الأمر: واجب أن يكون أعضاؤها يفهمون الإسلام، يعيشون الإسلام، يطرحون الطرح الإسلامي، يخلصون للإسلام، يتحركون على خط المصلحة الإسلامية.

وأعضاء الجمعيات منهم أبناء العشرين، وأبناء الثانية والعشرين، وما هو فوق ذلك، وقد يكون العضو الذي ينتمي إلى الجمعية ابن الثلاثين والخامسة والثلاثين إلا أنه ليس على كثير فهم من أمور دينه، وليس على التركيز المطلوب لمسألة الدين، فهنا - حتى تكون الجمعية جمعية إسلامية - لا بد أن يتتقف أعضاؤها على الإسلام، ولا بد أن يكون من صلب وظيفة أي جمعية إسلامية أن تتقف أعضاؤها على الإسلام في أبعاده المختلفة: العقيدية، والمفاهيمية، والفقهية، والوجدانية، ولا أريد من ذلك أن يخرج أعضاء الجمعيات الإسلامية فقهاء وعلماء كباراً متخصصين في هذا المجال أو ذاك المجال، وإنما أريد أن أطالب الجمعيات الإسلامية بأن تكون شخصيات أعضائها شخصيات إسلامية، وأن تكون للعضو شخصيته الإسلامية الواضحة حتى لا يهدم الإسلام باسم الإسلام من خلال ما ينتمي إليه من جمعية إسلامية.

والتتقيف مرة يكون مبدئياً، ومرة يكون وظيفياً، فإذا كانت الجمعية ثقافية، فلا بد أن يكون أعضاء هذه الجمعية على تقدم واضح من ناحية الثقافة.

وإذا كانت الجمعية سياسية، فلا بد أن يكون للأعضاء نضج سياسي واضح وتقدير سياسي ملحوظ، ومعايشة واضحة للفهم السياسي الدقيق من غير أن يبتعد بهم ذلك عن التتقيف على الخط الأول - وهو الأهم في نظري - وهو التتقيف الذي يهتم بتكوين شخصية إسلامية واضحة المعالم.

التتقيف السياسي يكون تثقيفاً على الحقوق، فلا بد من عضو الجمعية السياسية أن يكون أسرع من غيره وأفهم لما هي حقوق المواطن وحقوق الشعب، ثم يكون التتقيف على المطالبة بالحقوق.

فأن نفهم حقوقنا هذا أولاً، وأن نطالب بهذه الحقوق هذا ثانياً، وكل منهما مطلوب. وهناك تثقيف آخر: تثقيف على أساليب المطالبة، وأدواتها وآلياتها، على شرعية المطالبة، قانونيتها، مناسبتها للوضع الميداني الخاص والعام، المحلي، الإقليمي، العالمي، أولويات المطالب، وكل ذلك مما يجب أن يكون أعضاء أي جمعية سياسية إسلامية على وفرة كافية بالنسبة إليه.

وهناك التثقيف على الوظائف والواجبات، وأن لا يتعلم العضو أن يطالب فقط من دون أن يشعر بأن عليه واجبات لوطنه، وأن هناك حدوداً تحد حركته نابعة من حق الدين، وحق المجتمع.

التَّصَدُّعات والانقسامات

الجمعية - أي جمعية إسلامية - تصدعها، وتشققها، وانقسامها ربما أحدث انقساماً في المجتمع، وتصدّعاً وشرخاً، فالمجتمع له حق أن يطالب أي جمعية إسلامية بأن تعمل على سد أي باب من أبواب هذا التمزق، وهذا التبعثر، والتصدع والانقسام. ليس من حق أي جمعية، ولا من حق أي تيار في أي جمعية أن يحدث شرخاً، وأن ينقسم ما لم تكن هناك ضرورة واضحة جداً تستطيع أن تقنع المجتمع بأن هناك موجباً لتأسيس جمعية أخرى.

نحن نطالب جمعياتنا الإسلامية بالتماسك، وبأن تبني نفسها متينة، وبأن تبقى الأخوة فيها صادقة، وتتجاشى كلما أمكن أي انقسام خطير.

وسيحاكم المجتمع أي انقسام، وستكون له كلمته الحاسمة في هذا الانقسام.

المجتمع يطالب هذه الجمعيات بالالتزام بأهدافها.

والجمعيات السياسية الإسلامية إنما كانت؛ من أجل المطالبة بالعدالة، من أجل أن تقف مع المحرومين والمظلومين، وأن تكون في خدمة الشعب، وأن تقف مع كل القضايا

التي تؤكد على الإنصاف والمساواة، وأن تقترب بالحياة العامة من الطرح الإسلامي، وأن تلتزم مسار الإسلام فيما تطرحه، وفيما تدخل فيه من تحالفات، وفيما تتحرك، وفيما تترك أو تفعل.

المجتمع المسلم يراقب هذه الجمعيات، ويطلب منها الالتزام بالوقوف مع الشعب ومع قضايا ومشكلاته، وهذا لا يعني أن نشن حرباً في وجه الحكومة، وأن نخلق عداوة مستمرة مع الحكومة، إنما نحن نطالب بأن تقف هذه الجمعيات مع قضايا الشعب، ومع قضايا المظلومين والمحرومين، في أساليب وفي فعاليات، وفي صور حكيمة ومؤدبة وموصلة، وأن تقدر لأساليب الحوار قيمتها، وأن تقدر لأمن البلد وظروفه وضعها الخاص، على أن لا يكون ذلك على حساب الحق والعدل.

ويجب أن تكون المطالبة بالحقوق مستمرة، والشعب كل الشعب مع هذه الجمعيات إذا التزمت خط هذه المطالبة وبعقلانية ضمن الإطار الحكيم والذي يؤكد على الفهم والوعي السياسي، والالتزام الديني.

أيضاً تُطالب هذه الجمعيات بالتأكيد على هويتها الإسلامية، ولن يُقبل من هذه الجمعيات أن تهمل جانب التحقيق الداخلي، على أنه يجب عليها أن تشارك في التحقيق الإسلامي الخارجي.^(١)

الجمعيات المهنية والنقابات

لقد انفتح الباب على مصراعيه للجمعيات المهنية، وغداً ربما يفتح كذلك للنقابات، وهذه الجمعيات يتسابق على شغل مواقع القرار فيها، وعلى تكثيف الوجود، وزيادة العدد المؤثر على سياستها مختلف الاتجاهات والتوجهات غير الإسلامية.

ويقف الإسلاميون - مع الأسف الشديد - إزاء هذا الواقع موقف اللامسؤول وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء، بينما تمثل حالة التخلي عن المسؤولية في هذا المجال خطراً بالغاً

١ - خطبة الجمعة (١٣٦) ١٧ ذو القعدة ١٤٢٤ هـ، ٩ يناير ٢٠٠٤ م.

جدًّا حيث يستعان بهذه المؤسسات عند انحرافها على تنفيذ كثير من المشاريع الضارة والسياسات المنحرفة، وستستغل معامل؛ لتفريخ جيل متكرر لقيم الإسلام ومفاهيمه وتعاليمه، وحتى على مستوى ركائزه الأساس.

وهناك من الجمعيات التي يمثل قطاعها قطاعًا واسعًا جدًّا يبلغ خمسة وعشرين ألفًا أو يزيدون، الجمعية في هذا الحقل أعضاؤها لا تزيد على المئات.

إنها المسؤولية الإسلامية الواضحة التي تفرض نفسها على من يهمله أمر الإسلام من طالب، ومعلم، ومهندس، وطبيب، وعامل، وغيرهم، وتقضي عليه باللاحق الهادف بهذه الجمعيات والمؤسسات؛ لأداء دوره الفاعل النافع في خدمة وطنه، وبناءه البناء السليم الذي يحافظ على ركائز هذا المجتمع المؤمن وأخلاقيته، وقيمه الإسلامية الرفيعة.

فكيف يختار مسلم غيور أن يقف متفرجًا من صناعة الحاضر والمستقبل لبلد من بلدان الإسلام، ووطن عزيز من الوطن الإسلامي الكبير بطرق وأهداف مستوردة يؤمن بها هذا الاتجاه أو ذاك من الاتجاهات المتغربة؛ لتنفصل بالوطن عن الإسلام، وتجند أبناء الإسلام ضده بينما يمكن لهذا المسلم المتفرج أن يدخل على الخط؛ ليقوم، ويرشد بل ويقود؟^(١)

١- خطبة الجمعة (٦٤) بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٤٢٣ هـ، ٢٤ يونيو ٢٠٠٢ م.

(٢)

الانتخاب والتصويت

الانتخاب حق أم واجب؟

الانتخاب حق سياسي لا واجب كما هو واضح.

والحق قاعدته العقلية والقانونية الاختيار، وأن لصاحبه تشريعاً أن يُعْمَلَهُ أو لا يُعْمَلَهُ، وذلك على خلاف الواجب الذي لا خيار تشريعاً في التخلف عن أدائه.^(١)

الانتخابات والمصلحة الإسلامية والوطنية

فإن أي انتخابات - طلابية، أو عمالية، أو تجارية، أو انتخابات معلمين - مما يُتوقع لنتائجه أن تؤثر بسلب أو إيجاب على المصلحة الإسلامية والوطنية، ويمكن أن تنقذ شيئاً من الحق، وتعطي بعض التصحيح يتحمل المؤمنون مسؤولية المشاركة فيها بكل جدية ونشاط وإخلاص بروح الحفاظ على الإسلام، وتحقيق المصلحة الوطنية وبعيداً عن التفكير الفئوي، وشعوره الضيق.

وإنه كلما سنحت فرصة من هذا النوع لزم عدم التفريط بها، لأنها إنما تأتي نتيجة لطريق طويل من العطاء والتضحية والمجاهدة، ولأنه لا بديل يفضّلها، أو يغني عنها.^(٢)

مسألة التصويت على اختيار نظام الحكم

كيف نوائم بين حكم الله بالإسلام، وبين التصويت على قبول أطروحته في

الحكم؟

اللَّهُ وَكَانَ يُوجِبُ الأخذ بالإسلام، ولا يَرَحُّصُ في الأخذ بغيره، فكيف يحقّ لنا، وفي مجتمع مسلم، أن نصوّت على قبول الأطروحة الإسلامية في المجال السياسي وعدم قبولها؟

١- خطبة الجمعة (٤٧٠) ٢٤ شوال ١٤٣٢هـ، ٢٣ سبتمبر ٢٠١١م.

٢- خطبة الجمعة (٢٠٢) ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ، ٣ يونيو ٢٠٠٥م.

الجواب: وقد قلنا: إن هذا التصويت إنما يجري في الحالة الاستثنائية - التي تكلمنا عنها في الحديث الصباحي -، ولهذا الخيار خلفيته الصحيحة.

خلفيات هذا الخيار

١- الأمر يدور بين فتنة طاحنة في المجتمع الإسلامي، وبين التصويت على الأطروحة الإسلامية في المجال السياسي.

وحين يكون الأمر كذلك، فإن القاعدة لا تجيز ارتكاب الخسائر إلا للضرورة، فإذا انفتح سبيلان؛ لتحكيم الإسلام: سبيل التصويت والانتخاب، وسبيل المواجهة العسكرية الدموية، وكانت النتيجة أكيدة في كل منهما، أو كانت متوقعة على حد واحد، فإن أسلوب التصويت هو المتعين من بين الأسلوبين لما يمثله أسلوب المواجهة الدموية من خسائر فادحة لضرورة لها.

٢- والإسلاميون في البلاد الإسلامية - ولحد الآن -، وفي ضوء أكثر من تجربة عملية، لهم أن يثقوا بأن النتائج في صالح الإسلام عند طرح المسألة للتصويت.

شهدت بذلك الجزائر، وشهدت بذلك أي انتخابات حملت درجة من النزاهة في أي أرض إسلامية على مستوى الجامعات، وعلى مستوى النقابات، وعلى أي مستوى آخر.

فالإسلاميون واثقون بأن المجتمع الإسلامي سيصوّت للإسلام لو أُعطي الخيار بين الإسلام وغيره، وقد أثبتت التجربة الإيرانية ذلك وبصورة سافرة وقوية لا يُجادل فيها.

٣- في هذا التصويت إسقاط لحجة الآخرين الذين قد يرمون أي حكومة إسلامية تأتي عن غير طريق الانتخاب بالديكتاتورية والاستبدادية.

ونحن لا نقدر إعلام الآخرين من هذه الناحية إلا لما له من أثر سيئ على المسلمين أنفسهم.

٤- ثم أن الحكم ليس هو الغرض للإسلاميين، الغرض هو الحفاظ على أصل الإسلام، وعلى نقائه وصفائه، واحتضان الناس له، وبقاء الأمة الإسلامية متماسكة.

وحين تتعرض وحدة المسلمين للتفتت، فإن الحرب غير مختارة إلا أن تحكم ضرورة

بالغة بذلك لا يمكن الحفاظ على المصلحة الإسلامية بمقتضاها من غير المواجهة العسكرية، وفي أي فرض آخر يمكن الحفاظ على المصلحة الإسلامية العليا من غير تعريض الأمة الإسلامية إلى التفتت لا يمكن الإقدام على تفتيتها.

٥- وشيئ آخر هو أن الحكومة الرسالية الإلهية لها دوران:

الدور الأول: دور إيجاد أوضاع دنيوية إيجابية مستقرة، فمن دور الحكومة الإسلامية أن تتقدم بدنيا الناس، بصناعتهم، بزراعتهم، باقتصادهم، بسياساتهم إلى آخره، والدور الأهم هو صناعة الإنسان صناعة الإنسان الراقي، صناعة الإنسان الرسالي.

الدور الثاني: يحتاج إلى موقف اختياري من الناس، تربية الناس، وتكميلهم، وأخذهم على مسار الرسالة الإسلامية؛ ليُصنعوا عظماء يحتاج إلى استجابتهم لتلك التربية؛ فالموافقة التي تؤخذ على الإسلام، أو على الحكومة الإسلامية تنفع في هذا المجال كثيرًا، حيث إنَّ الناس سيستجيبون إلى التربية الإسلامية، وإلى المنهج الإسلامي الذي يستهدف صناعتهم، وتخريجهم نماذج فذة، ومجتمعًا إنسانيًا راقياً، ومنازة مشعة في الأرض، عند ما يكونون قد اختاروا ذلك المنهج بملء حريتهم.

هل شعار الانتخابات عند الإسلاميين وصولي وموقت، وسيُقابل بإدارة الظاهر بعد تحقيق المطلب السياسي؟

أقول: لا، شعار الانتخابات يمكن أن يستمر عند الإسلاميين، وأنهم لا يتخلّون عن هذا الشعار، وعن قضية الانتخابات حتى لو تحقق الحكم لهم، لماذا؟

لما تقدّم من أنهم ليسوا الأضعف في الساحة الإسلامية وإنما هم الأقوى، وهم الأكثر وثوقاً من حصول أغلبية الأصوات.

وإذا كان هذا حالهم قبل تسلّم السلطة، وقبل أن يتولوا تربية المجتمع تربية إيمانية مشعة فكيف إذا حكموا، واستطاعوا أن يسهموا إسهامًا كبيرًا في صياغة المجتمع صياغة إسلامية؟

إنَّ المجتمع بعد ذلك لن يختار على الإسلام شيئاً.

فلا داعي لأن يتخلى الإسلاميون عن شعار الانتخابات بعد أن يتسلموا الحكم في أي بلد يقوم فيها الحكم على ما يسمى بالديمقراطية.

تجربة الانتخابات وغير الإسلاميين

أما غير الإسلاميين، فقد دُبِحت الديمقراطية على أيديهم أكثر من مرة، وقد طُلِّقت أكثر من مرة، ماذا فعل العلمانيون في الجزائر بالديمقراطية عندما شارف الإسلاميون على تحقيق النصر؟

وماذا تفعل الجماهيريات العربية وهي تُحوّل المسألة السياسية من مسألة انتخابات إلى مسألة وراثية؟!

ماذا فعلت باكستان على يد مشرّف؟

ماذا فعلت تركيا مع أربكان عندما شارف على النجاح السياسي؟

آية الله العظمى السيستاني والانتخابات .. نموذج لبعض الإشكالات:

إشكال (١): حينما يطرح سماحة آية الله العظمى السيّد السيستاني (حفظه الله) مسألة الانتخابات هل يخير المسلمين العراقيين بين الإسلام، وغيره؟

وهل يخير المسلمين العراقيين بين حكومة إسلامية، وغير إسلامية؟

وبين دستور يقوم على الإسلام، ودستور يكفر به؟

لا، سماحة السيد آية الله العظمى السيستاني يناهز، ويوجب على المسلمين أن ينتصروا لدينهم، ماذا يقول؟

يقول: هناك محاولتان للانتصار للإسلام، طريقان للانتصار للإسلام، تجريد السيف، وما يُدعى من الديمقراطية، وتحكيم صناديق الاقتراع.

نحن نختر تحكيم صناديق الاقتراع في الانتصار للإسلام، نقدّم هذا الأسلوب السلمي على أسلوب المواجهة الدموية، فهو يوجب على المسلمين العراقيين أن يخرجوا كبيرهم وصغيرهم، ومن استطاع من مرضاهم وسقمائهم إلى صناديق الاقتراع نصرته

للإسلام، والصوت عنده أغلى من الذهب في هذه المسألة.

القول: للإسلام نعم.

القول: للإسلاميين نعم.

ترشيح انتخاب حكومة تختار الإسلام على غيره ولو جزئياً مسألة واجبة على العراقيين، وبطالبتهم السيد السيستاني بهذا الأمر مطالبتهم بالصلاة، والصوم، والحج إن لم يزد على ذلك، لأن في المسألة مصير الإسلام.

فهو يوجب على المسلمين أن ينصروا دينهم عن طريق صناديق الاقتراع بدل أسلوب العنف ما أمكن.

وإنه يوجب التصويت للأطروحة المرضية لله، وللأشخاص المرضيين لله.

إشكال (٢): تنوع القائمة الموحدة

بم نفس تنوع القائمة الموحدة عند سماحة السيد السيستاني حتى يكون فيها الصائب، ويكون فيها العلماني، ويكون فيها أصناف من الناس غير الإسلاميين؟

إنه تكيف مع الظروف في حدود مقررات المصلحة الإسلامية، هناك تكيف مع الظروف في الإسلام، ولكن بحيث يكون هذا التكيف محكوماً لمقتضى المصلحة الإسلامية.

وفيما اختاره سماحة السيد حرص على سلامة المجتمع ووحدته.

وفي موقفه رد على مزایدات الغرب باسم الديمقراطية والتعددية، لكن بما يأذن به الإسلام في ظل العنوان الثانوي.^(١)

مبدأ صوت لكل مواطن

وعلى المستوى الديمقراطي إن مبدأ (لكل صوت قيمة مساوية لقيمة الصوت الآخر) في مسألة الانتخابات مبدأ عادل بلحاظ الكم العددي إذ لا يُحابي حزباً على

١- خطبة الجمعة (١٨٣) ١٠ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ، ٢١ يناير ٢٠٠٥ م.

حساب حزب، ولا طائفة على حساب طائفة، ولا يقلل من قيمة أحد من مكونات المجتمع، فهو أنصف ما يكون من الناحية العددية.^(١)

تساوي الأصوات

مقياس أن الذات الواحدة تساوي ألف ذات في الواقع الخارجي، ومن حيث العدد؟
قضيته مرفوضة عقلاً تماماً.

إذا كان هناك مقياس مقبول بأن يكون الرجل عشرات، فهو مقياس رجل كألف،
لكن لماذا الرجل كألف في الدوائر الانتخابية والدين واحد، والقومية واحدة، والوطن
واحد، والثقافة متقاربة؟

هناك مثقف وغير مثقف، وهنا مثقف وغير مثقف.

فنستطيع أن نقول: بأن الثقافة أيضاً واحدة.

على أن ما يسمى بالديمقراطية لا تُفرّق بين دين ودين، ولا بين قومية وأخرى، ولا
بين مواطن ومواطن آخر.

والقضية المطروحة هي قضية الديمقراطية.^(٢)

ما يحتاجه الشعب لخوض الانتخابات

والانتخابات تحتاج دائماً إلى وعي وحسّ نابه، وخبرة سياسية وموضوعية، وحنكة
وتدبير، ومرجعية رشيدة في مجالها الخاص ترشد وتحدد المسار، وتعين على حسن
الاختيار، بما تملك من دقة التشخيص، والإخلاص وبعْد النظر، والمعرفة بكثير من
التشابكات المرتبطة بهذه الساحة بخصوصها، أو تلك الساحة.^(٣)

١- خطبة الجمعة (٤٥٩) ٦ شعبان ١٤٣٢هـ، ٨ يوليو ٢٠١١م.

٢- خطبة الجمعة (٢٢٩) ١٩ ذي الحجة ١٤٢٦هـ، ٢٠ يناير ٢٠٠٦م.

٣- خطبة الجمعة (٢٠٢) ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ، ٣ يونيو ٢٠٠٥م.

مغالطات انتخابية مفروضة

هناك عدد من الأفكار التي يقرأها الناس، ويسمعونها في خضم عمليات المواجهات الانتخابية، وما هو الأخطر في هذه الأفكار أنها مغالطات لو تكثفت وتركزت لحرفت مسار التفكير عن خطه الصحيح، وأحدثت إرباكات فكرية خطيرة في المساحة الواسعة من تفكير الناس.

وهذا أمثلة:

١- الخوف من تدخل علماء الدين في الانتخابات

إبداء الهلع الشديد على الديمقراطية ونقائها، وطهرها، وقداستها، وعصمتها من تدخل علماء الدين في مسألة الانتخابات نقداً لنواقص التجربة، وبياناً للمواصفات المطلوبة في مرشحين - مثلاً -.

والسُّرُّ في ذلك الهلع أنَّ كلمة الدين تلقى ترحيباً من النفوس، وأنَّ هذه الكلمة تمتلك رصيذاً جماهيرياً واسعاً والديمقراطية مهددة بالفناء إذا ظهر الدين، وتغلب التيار الديني - كما يقولون -.

لكن أليست تعني الديمقراطية تغليب رأي الأكثرية بعد أن تُعطي لكل الآراء أن تعبر عن وجهة نظرها، وتخاطب رصيدها الشعبي بكل حرية؟

وإذا كان شيئاً يطلب في هذا السياق، فهو عدم التجريح للآخرين بأسمائهم ومشخصاتهم، وليس عدم البيان للمواصفات المطلوبة في المرشح، ولا عدم التزكية لهذا أو ذاك، كيف وأنَّ القبول الرسمي لطلب الترشيح معتمد على التزكية من عدد ممن لهم حق الانتخاب.

على أنَّ ديمقراطية الغرب وهي المثل الأعلى عند هؤلاء الخائفين عليها من الدين تقوم بنبش كل الفضائح للطرف الآخر، وعلى أنَّ المتدينين أعفَّ الناس لسناً من أن يقول في النَّاس ما لا يجوز في دين الله.

وكيف يعطي هؤلاء الناعون النادبون حظ الديمقراطية المهددة من دين الله كما

يقولون أنفسهم توحيه الرأي العام ليلاً ونهاراً وجهة النظر التي ينتمون إليها، ويحجرون على غيرهم حق الكلمة؟

عرفنا أن المطلوب لك أن تتكلم، وأن أسكت، في مسألة أعطت فيها أوساط المؤمنة من الثمن الباهض ما أعطت، وأنت تنعم وتضحك.

فهل تراني أستجيب لك وأسكت؟!

٢- أكذوبة صكوك الغفران

أؤكد أن علماء الدين في الإسلام لا يوزعون صكوك الغفران، ويبرأون لله سبحانه من هذه المقولة، ولكنهم يدلون الخلق على طريق الجنة، وغفران الله، وشهادات الفوز والنجاح الحاصلة بطاعته، وإذا كانت دعوتهم إلى الله تعني توزيع صكوك الغفران، فإن دعوة الآخرين لغير الله تعني توزيع صكوك الشيطان.

٣- مقولة: «الناس كلهم مسلمون ومؤمنون فهم على حد واحد»

هذه مقولة من المقولات المسوَّقة لها في أجواء الانتخابات، ولكنها مقولة لا تساوي شيئاً أمام لغة الدين، والعقل، والواقع.

فالناس منهم المؤمن البالغ الإيمان، ومنهم من هو دون ذلك، فمنهم الفاسق، والمتهتك، وإن أظهر الجميع كلمة الإسلام، وحرمت بذلك دماؤهم، وأموالهم، وأعراضهم بالصورة التي تحددها الشريعة.

فليس هؤلاء كلهم أمام الله بقدر واحد، وليسوا سواء في تحملهم الأمانة، ووفائهم بالعهد، وصراحتهم في الحق، وإخلاصهم للخلق.

وليس من هو أقرب في سلوكه إلى الكفر من الإيمان وإن أعلن كلمة الإسلام، كمن هو مثال عالٍ في قضية الالتزام.

٤- مقولة: «المساواة بين المتدين وغير المتدين في الانتخاب»

مقولة أخرى يُسَوِّق لها.

والحقُّ ليس كذلك، فلا يُساوَى من لم تقبله الشريعة شاهداً في الأمور البسيطة بمن رضيه الله للمواقع الكبيرة.

غير المتدين لا تقبل شهادته على دينار واحد.

فهل يساويه الله بأهل الأمانات الكبرى؟

إذا، أين ذمُّ الله سبحانه للفاسقين، والمنافقين، والكافرين؟

وأين ثناؤه على المؤمنين والمتقين؟

إنَّ هذه المقولة وأمثالها إنما تنطلق من منطلق يخالف الدين، فما دام المجتمع متخلِّفاً بتديته كما يرى أصحاب هذه المقولة لا يصح لهم أن يُخاطبوه بمثل هذا الخطاب، على أنهم لا يُخلصون لشعارهم هذا، ولا يلتزمون به، لأنَّ غير المتدين يفوق المتدين الحقَّ عندهم مئات المرات.

إنَّه شعار؛ للاستغفال، والاستغلال لا غير.

وإنَّ المؤمن لشديد الالتزام بتقديم المؤمن على غير المؤمن، وهذا هو مقتضى دينه الذي لا يشكُّ فيه.

من التلاعب بالألفاظ أن يقال لأي كلمة نصح، أو توجيه، وأي رأي من عالم الدين بأنَّه فرض للوصاية، وأن يقال لكل ما يصدر عن مناوئ الدين بأنَّه حرية رأي، ومشاركة إيجابية، وطرح تقدّمي، ونقد بناء، وتظهير متقدم.^(١)

الاختلافات المصاحبة للانتخابات

وأرجو أن لا يُنسى الخلق والدين، وأدب الخطاب، وحرّمات المؤمنين لقضية الاختلاف في الرأي، ولقضية الانتصار والتعصب للرأي، فإن الأمر من بعد ذلك سيؤول

١- خطبة الجمعة (٥٧) ٢٠ صفر ١٤٢٣ هـ، ٣ مايو ٢٠٠٢ م.

إلى عبادة الرأي لا عبادة الله تبارك وتعالى.

وفرق كبير بين التمسك الرشيد بالرأي وبين عبادته، التمسك الشديد الرشيد بالرأي يلزمه عند المؤمن تذکر الحرّات والقيم، والتمسك بالدين، أما التعصّب الأعمى للرأي، فتسقط معه كل الحرّات، وكل القيم وكل الأحكام الشرعية، أعاذ الله الجميع من أن يمسه شيء من عصبية الرأي التي تبعد عن الله سبحانه وتعالى.

التهريج وكيل التّهم يغير ميزان حق مسألة لا تتناسب مع شرف الرجال، ولا تتناسب مع دين المؤمن، ونسأل الله ويحك أن نكون جيمعاً عند المستوى اللائق الذي أرادّه لنا ديننا الكريم.^(١)

(٣)

التَّحَالُفات السِّياسِيَّة

نحن لا نقف في وجه التحالفات السياسية المحسوبة والتي تؤدي إلى مصلحة وطنية أكبر في البُعد الديني والدنيوي، وفيها قدرة أكبر على إحقاق الحق، وإنصاف الشعب. التحالفات من هذا النوع لا يمكن أن نقف في وجهها، وإذا كانت على حساب دُنيا الشعب، أو على حساب دينه، فهي تحالفات مرفوضة.

قد أتحالف مع القريب، وقد أتحالف مع البعيد، ولكنه التحالف المحسوب الموضوع في موضعه، والقائم على رعاية المصالح والمفاسد، بأن يكون أخذًا بالمصلحة، وفيه درء للمفسدة.^(١)

مفهوم عدم التَّمكين، ومفهوم التَّحالف

وأمامي أن أوضح مسألة تتعلق بمفهومي: مفهوم عدم التمكن، ومفهوم التحالف. سبق التأكيد ولا زال التأكيد قائمًا وشديدًا على عدم صحة التمكن لغير أهل الدين، ولغير الرساليين في نفوس المؤمنين، وفي شؤون المؤمنين، وفي قضايا المؤمنين، المساجد ليست مفتوحة لغير الرساليين، الحسينيات ليست مفتوحة لغير الرساليين، كل قضايانا وكل مواقعنا محصنة دون اقتحام غير الرساليين، ونصر على هذا الأمر، ونستمر عليه، وهذا المفهوم مفهوم مستقر، مفهوم ديني واضح جدًا، وهو مستقرٌ ومحوريٌّ. أما قضية التحالف وعدمه، فهي مسألة متحركة في إطار الجواز عدمه.

التحالف يجوز مرة، ويحرم مرة، هذا التحالف حرام، وهذا التحالف حلال، والتحالف الذي يُمكن أن نسكت عليه هو تحالف يخدم الإسلام، ويخدم مصلحة

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٤) ١٩ شهر رمضان المبارك ١٤٢٧هـ، ١٣ أكتوبر ٢٠٠٦م.

المواطن، ولا يعارض أبداً الأحكام الشرعية، وقد سبقت الإشارة إلى أن تحالفاً من هذا النوع لا نقف في وجهه، وقد قيّدنا التحالف الذي أشرنا إليه بأن يتفق مع الأحكام الشرعية، ومع مصلحة الدين والمؤمنين.

التحالف مارسه رسول الله ﷺ في المدينة مع اليهود على حماية المدينة، التحالف يكون مع المسلم وغير المسلم، أما التمكين فلا يكون إلا لأهل الحق، يجب أن لا تختلط المفاهيم، وأن ترتفع الذهنية إلى مستوى التفريق بين هذا المفهوم، وهذا المفهوم.^(١)

التحالف السياسي والحفاظ على الدين

١- نحن مع التحالفات السياسية المدروسة النافعة شعبياً والمقدّرة للحالات الموضوعية بدقة، والتي لا تخرج على مصلحة الشعب، ولا على مصلحة دينه ومقرراته، وندعم هذه التحالفات إذا كانت تصب في صالح الشعب، وتتقيد بالإسلام.

٢- التحالف السياسي هل هو بشرط التخلي عن الدين؟

أيهما المشروط بعدم الإضرار بالآخر؟

الدين مشروط بعدم الإضرار بالتحالف السياسي، فإذا أضر الدين بالتحالف السياسي نرمي بالدين؟

أو أن التحالف السياسي مربوط بعدم الإضرار بالدين، وأن أي تحالف سياسي قيمته صفر وندوسه بالأرجل إذا خالف دين الله؟ أيهما تقبلون؟

وكل التحالفات السياسية القائمة - كما تعرفون - هي تحالفات آنية لا تثبت عند إحساس هذا الطرف بالضرر منها، أو ذاك الطرف، وكل ضرر مقبول إلا الضرر بالدين.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٦) ٤ شوال ١٤٢٧هـ، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٦م.

٢- خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ٦ يونيو ٢٠٠٣م.

(٤)

مجلس النُّوَّاب (البرلمان)

مجلس النُّوَّاب وسُلطة التَّشريع

ما معنى التقنين؟

ما معنى أنَّ المجلس الوطني يُقنِّن؟

ما معنى أنَّ المجلس الوطني يمثلُ مؤسَّسة تشريعيَّة؟

يأتي مشروع القانون ومسودَّة القانون إلى المجلس التشريعي - سواء من جهة الحكومة، أم من جهة نائب، أم أكثر -.

وأسأل: هل وظيفة المجلس النيابي عندئذٍ هي أن يقرأ مشروع القانون؛ ليوقع عليه؟

لا، المجلس التشريعي يقرأ كلَّ مادة بمفردها، وي طرحها للنقاش والمداولة، حتى إذا تمَّ النقاش حولها ارتفعت الأيدي؛ للتصويت على الموافقة وعدمها، عليها في صورتها الأولى، أو عليها منقوصًا منها، أو عليها مضافًا إليها، فهذا تشريع.

وكما أن الله سبحانه وتعالى يشرع بأن يحرم، ويحل، ويوجب، ويبيح المجلس النيابي وضعه هكذا!

فإذا، المجلس النيابي وظيفته التشريع، وليس الموافقة على تشريعات الآخرين، وإمضاء تشريعات الآخرين.

لودخل القرآن؛ للتصويت، والتزم المجلس النيابي بوظيفته التي حددت له لَصُوت على كلِّ آية آية!!

هناك قضية أساس لا بدَّ أن يلتفت إليها المكلفون - ونعني المكلفين من الله سبحانه وتعالى - نسأل أنفسنا: أمتعدون نحن بتشريع الله، أم مشرِّعون؟

فيما اختار الله للمسلم إذا أسلم حقاً لله يملك رأياً في قبال ما شرع الله، أو لا يملك رأياً؟

عزيزي، أنا إنساناً دوري هذا، أن أبحث دقيقاً ومعتمداً عن أحقية دين الله، أو عدم أحقيته؛ فإن وصلت إلى عدم أحقيته فأنا حر كل الحرية، وإذا وصلت إلى أحقيته وأن الله حق، والإسلام حق، والرسول حق، والكتاب حق.

فهناك أحكام: حكم وجوبي، وحكم تحريمي لا خيار لي فيهما أصلاً، وهناك حكم بالإباحة أشرب هذا الماء أو لا أشربه وأنا في غير شهر رمضان؟

هنا يتخير المكلف التخير التشريعي، بمعنى أن له أن يشرب ولا إثم عليه، وله أن لا يشرب ولا إثم عليه.

فبما أنني إنسان اعترفت بالعبودية لله سبحانه وتعالى أين تكون حرّيتي؟
لا تكون لي حرية إلا في مساحة المباحات، وليست في مساحة الحلال والحرام، والصحيح والفساد.

فهناك زواج صحيح، أو زواج فاسد هذا لا حرية فيه، وإذا وجبت الصلاة فلا خيار لي، وإذا حرم الخمر فلا خيار لي، وإذا بطل الزواج فلا خيار لي، وإذا صح الطلاق فلا خيار لي.^(١)

التَّشْرِيع لِمَنْ؟

في نظرٍ هو للنَّاس، وفي نظرٍ إنما هو لله.

في نظرٍ يقطع الإنسان والحياة عن خالقهما، ويُعطّل حق الله، ويفصل بين إمداده لهذا الكون بالوجود والحياة، وبين حقّه في التشريع له يكون التشريع للنَّاس؛ للنَّاس شعباً أو فرداً، رئيس جمهورية، أو ملكاً، أو أميراً، أو راهباً، أو غير ذلك.

١ - خطبة الجمعة (١١٢) ٢١ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٢٣ مايو ٢٠٠٣م.

أما في النظر الذي يعترف لله وَعَلَّمَ بربوبيته، ويدعن بحقه في التشريع كما يؤمن بجميله في الخلق والتدبير، وحاجة الكون كله إليه في مسألة الخلق والإمداد، فهو يرى أن التشريع لله وحده لا شريك له.

والإسلام واضح في قصر حق التشريع على الله وحصره فيه، وأن ليس لأحد حتى رسول الله ﷺ أن يقول كلمة في التشريع بغير إذن الله.^(١)

الدولة العصرية بين تشريعات الديكتاتورية والمجالس النيابية

دولة عصرية، وهذا الوصف بماله من معنى متعارف له إيجابياته وسلبياته بالقياس إلى الإسلام وإنسانية الإنسان وكرامته ومصالحته، ومن إيجابياته أن الدولة العصرية من معناها أنها دولة القانون، وأن الحاكم ليس هو الذي يضع القانون الذي يحكم به؛ فإن القانون من وضع الحاكم في حكم عدم القانون، وأنه يمثل الإماءات الشخصية التابعة لما يراه، ويهواه.

ومع نقص كل التشريعات الأرضية، ووجوب الأخذ بالتشريع الإلهي إلا أن تشريع المجالس النيابية الحرّة أقرب إلى رعاية المصالح العامة للشعوب وتحقيقها، وأبعد عن الاتهام.

ولوفوّضت المجالس النيابية قضية التشريع إلى الفرد لسقطت قيمتها وفقدت حكمة وجودها وعاد التشريع في حقيقته إلى الإرادة الفردية بما تحمله من سلبيات يفرضها البعد الفكري والنفسي الخاص للفرد، وضغط المصلحة الشخصية والفئوية التي ترتبط به.

ولو جاء التشريع من أي مجلس نيابي يتمتع بالحرية التشريعية، ووضع عليه استثناء يفتح باباً واسعاً لحرية الفرد وصلاحيته في اتخاذ القرار المخالف لسقطت قيمة ذلك التشريع.

١- خطبة الجمعة (٣٠١) ١٤ شوال ١٤٢٨هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٧م.

وكلما كان مورد التشريع أكثر أهمية، وأبلغ في التأثير بالمنفعة أو المضرة على أوضاع الناس حاضراً ومستقبلاً تحتم أن يكون التشريع تاماً واضحاً حاسماً بعيداً عن الثغرات والمنافذ التي تسقط قيمته، أو تقللها.^(١)

مجلس النواب فرصة؛ لإيصال مطالب الناس للحكومة

والفرصة متاحة أمام الحكومة عبر قناة مجلس النواب بالاستجابة لمطالب الشعب الملحة، واحترام مصالحه المهمة، وقضاياه المركزية، وانتمائه الإسلامي، وشريعته المقدسة من خلال التفاعل الإيجابي مع كل ذلك عبر تلك القناة، وإلا فإن المسافة تتباعد بصورة خطيرة بين الحكومة والشعب إلى حد فقدان الثقة بالكامل، والغربة التامة بين الطرفين، وفي ذلك ما فيه من الأزمات والكوارث.

والنواب لا يتحملون خطأ الحكومة بصورة مطلقة، لكنهم يتحملون مسؤولية هذا الخطأ في فرض التأييد له، وفي فرض السكوت عليه، وعدم مواجهته سواء أضر هذا الخطأ بمعيشة الناس وأوضاع حياتهم الدنيوية، أم أضر بدينهم، وقيم هذا الدين الكريم، وقديسيته، وحرمته.

ولا يقبل الشعب من نوابه أي موقف متخاذل في قضايا الدينية والدنيوية، كما لا يقبل لهم أن يكونوا فريقين: فريقاً قد يدافع عن قضايا الجسد وينسى الروح، وفريقاً قد يدافع عن قضايا الروح وينسى الجسد، أو فريقاً لا يعرف إلا قضايا الشيعة، لأنه شيعي، وفريقاً لا يعرف إلا قضايا السنة لأنه سني، على تقدير أن يقبل واقع بعض القضايا هذا التقسيم.

وإنه لعار على المجلس النيابي وتشكيلته إسلامية في غالبيتها العظمى أن يقهر الإسلام، ويُهَان، ويُفترى عليه، ويُزور، ويتعدى على أوضاع أحكامه، وتُستباح الساحة للأنشطة الإباحية من أي نوع وهم يستطيعون دفعاً، أو تصحيحاً، أو تداركاً، أو أي نوع من أنواع الإنكار، فلا يفعلون.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٤٧) ٢٩ ذو القعدة ١٤٢٩هـ، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ، ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

قيمة المجلس النيابي

لا قيمة للمجلس النيابي في نفسه كما يعرف الجميع، وإنما قيمته في نوعية إنجازاته وكمها، وفي التخفيف من حالة الظلم والاحتقان الذي يسود حياة الناس، وفي التأسيس لعلاقات وطنية عادلة على المستوى السياسي وغيره، وذلك لا يتم إلا من خلال سنّ قوانين عادلة.^(١)

مجلس النواب لا يلغي دور الشعب

إنّ الشعب قد وكلّ نوابًا يثق بهم لكنه هو الأصل، ولم يعزل نفسه، وتوكيله للنواب لا يعزله، ومصالحه الملحة، وحقوقه الثابتة لا تعفيه عن ممارسة واجباته التي يستكمل بها حقوقه، ويحافظ عليها.

النواب وكلاء للمطالبة بالحقوق، والوصول إلى قوانين عادلة، ومواجهة الفساد عن طريق الحوار، وشرح وجهة النظر، وإقامة الدليل، بدلاً من حركة الشارع المطالبة رغبة في تجنب التوترات وما يجرّ إلى ما لا يحمد من متاعب وخسائر أينما أصابت، فهي خسارة عند من يعقل.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٦٥) ٨ ذي الحجة ١٤٢٧هـ، ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.

٢- خطبة الجمعة (٢٦٥) ٨ ذي الحجة ١٤٢٧هـ، ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.

(٥)

النَّأْخِبُ وَمَسْؤُولِيَّةُ التَّنْوِيبِ

فلسفة التَّنْوِيبِ

التنويب من شعب مسلم، من شعب مؤمن تنويب لمصلحة الدين والدنيا.

نحن لسنا دينًا بلا دين، ولا دينًا بلا دنيا، والمسلم دائمًا ليس دينًا بلا دين، ولا دينًا بلا دنيا، الإسلام يعمر الآخرة من خلال إعمارها للدنيا، والعرب خرجوا من محنتهم الاقتصادية، وخرجوا من أسرهم في الدنيا، ومن ذلتهم، وخرجوا من وهنهم وضعفهم ببركة الإسلام، فالإسلام يطلب للإنسان القوة على كل الأصعدة النافعة.

والنواب مطالبون في هذا البلد المسلم المؤمن أن يحملوا الهمم معًا: هم المواطنين للدنيا، وهم المواطنين للآخرة.

نحن لسنا رهبانًا، ونحن لسنا خرافًا لا تطلب أكثر من العلف، والنواب سينادون بالعلف مهملين الجانب الروحي، ومهملين سلامة الدين هم ليسوا نوابًا لهذا الشعب، والنواب الذين سيترهبون؛ لينسوا الدنيا دنيا المواطنين هم ليسوا نواب هذا الشعب.^(١)

مَنْ يُمَثِّلُ الْمُسْلِمَ الْحَقِيقِيَّ عَلَى الْمُسْتَوَى السِّيَاسِيِّ؟

هل تمثله الفئات المادية والتي لا تملك مطلبًا إلا على مستوى المادة - وإذا أخلصت لندائها، فهي إنما تخلص لنداء مادي بحث يركض وراء الشهوات، ووراء إشباع البطون -؟

المسلم الحقيقي الذي يمثله سياسيًا هو هذا النمط من التكتلات والفئات، أم أن

١ - خطبة الجمعة رقم (٨٤) ٣ شهر رمضان المبارك ١٤٢٣ هـ، ٨ نوفمبر ٢٠٠٢ م.

الذي يمثله هو الإنسان المسلم الحقيقي وعيًا، ورشدًا، وتوجهًا، هدفًا، وقيمةً، ودورًا،
ورسالة؟

هم الرساليون، هم المبدئيون، هم الذين يقدمون المبدأ على كل شئ، ولا يبيعون
الذي هو أغلى بالذي هو دون، لا يقنعون برفاه اقتصادي يحطم في الشعوب الروح
ويحطم في الإنسان قدسيته.

نعم، هم يطالبون بالتحسن الاقتصادي، يطالبون بالتقدم المعيشي، يطالبون
بكل حق من حقوق البدن، لكن لا على حساب الروح.

إنهم يقدمون أطروحة منتظمة، منظومة من الأسس، منظومة من الخطوط
العريضة، ثم التفصيلية التي تتسجم مع حاجات الروح، وتتسجم مع حاجات البدن؛
لتدخل بالانسجام على الأمة كل الأمة، على المجتمع، على الأسرة، على النفس في داخلها،
والتمزق هو نصيب الأمة، وهو نصيب الشعوب، وهو نصيب الأسرة، وهو نصيب النفس
الواحدة، الانشطار، التمزق، الضياع هو نصيب كل ذلك.

حين يبتعد سير الناس ومسارهم، عن خط الله، وعن أطروحة الدين، لن ترتقب
الدنيا اليوم رفاهاً اقتصادياً كما كانت عليه ثمود يوم أمس وبحسب مستواها الزمني
الغابر، إلا أن ذلك لم يقنع الشريعة، لم يرض الله سبحانه وتعالى حين ضاعت القيم،
وحين نسيت الروح.^(١)

إرشادات للتأخين من ننتخب؟

١- الأكثر التزاماً ووعياً بالدين.

٢- والأكثر خبرة ونباهة.

٣- والأقدر على إبداء الرأي النافع الصريح.

١- خطبة الجمعة (١٤) بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ، ٦ يولييه ٢٠٠١ م.

٤- والذي يشهد له تاريخه بالمواقف الاجتماعية المشرفة، والإخلاص للناس، ومشاركتهم في آمالهم وآلامهم مشاركة فاعلة إيجابية.

ما الموقف عند تعدد المرشحين ولم يكن أحدهم مرضياً بصورة مطلقة ولكن كان أحدهم يحسن السكوت عليه؟

هنا ينتخب هذا الذي يحسن السكوت عليه؛ دفعاً لضرر غيره.

ماذا لو كان المرشحون كلهم غير ثقات؟

هنا لا يصح انتخاب أحدهم.

ولكن هذه الحالة قد تكون نادرة جداً في كثير من الدوائر، فلا يلتفت إليها.

ماذا أفعل لو لم أكن قادراً على تشخيص المرشح الصالح؟

على من يفتقد الخبرة بالمرشحين المتقدمين للانتخاب في دائرته أن يراجع المؤمنين الثقات من أهل الخبرة والدراسة الاجتماعية؛ ليعين من بعد ذلك مرشحه على بصيرة حتى لا يضيع صوته الذي ربما احتاج إليه الصالح من المرشحين، وحتى لا يذهب في فرض آخر لمن لا يحسن انتخابه.^(١)

صفات المرشح المرضي

الانتخابات سواء كانت في دائرة مؤسسة ثقافية، أم اجتماعية، أم سياسية، أم كانت على مستوى البلديات، أم أكبر، فلا بد أن يركز فيها على صفات المرشح المرضي، ومنها:

- ١- الكفاءة والقدرة على أن يقدم الجديد المفيد من خلال موقعه.
- ٢- وأن يكون الصوت الذي يعبر بأمانة ودقة عن أمانى الناخب وقناعاته وطموحاته.
- ٣- وأن يمتلك من رجاحة الرأي.

١- خطبة الجمعة (٥٧) ٢٠ صفر ١٤٢٣ هـ، ٣ مايو ٢٠٠٢ م.

٤- ودقّة التقدير الموضوعي ما يؤهله؛ لوضع الأمور في موضعها.

٥- ومن الخبرة ما يثري به التجربة.

٦- ومن الدين والتقوى ما يحجزه عن التلاعب بمصالح الناس، ومصائرهم وكراماتهم لحساب الأنا في مطالبها المادية الرخيصة المتسعة المتمادية، ويقف عند المضائق موقف الحق بلا انهيار، ولا تراجع يصيب المقتل من مصلحة الناخبين في دنيا أو دين.

أَيُّهُمَا الْأَهْوَنُ: المرشح ناقص الخبرة، أم المرشح ناقص الدين؟

والكلام المهم حين يقف الناخب بين نقص في كفاءة مرشح من حيث الخبرة والأداء، وبين نقص في الدين والأمانة ورعاية مصلحة الأمة لحساب مصلحة الذات في مرشح آخر.

ويُسال هنا أي الضررين أهون؟

لا شك أن كلا منهما مصيبة.

نقص الكفاءة، وفقد الأمانة.

لا شك أن كلاهما مصيبة؛ ولكن مصيبة بيع الأمة والعمل على مسخ هويتها، والربح الذاتي بخسارتها لا يعدله تلكؤ العمل، وفجاجة التجربة، وقلة النتائج على أن الساحة في كل ميادين الانتخاب تمتلك الكفاءة بالإضافة إلى الدين، والأمانة، وخوف الله سبحانه وتعالى الذي يصون مع الوعي عن الانزلاق.^(١)

المرشح غير الصالح

إذا كان فوز المرشح الكفو المؤمن في هذه الانتخابات قد يحقق شيئاً من النفع، ويدفع شيئاً من الضرر، فإن فوز من لا أمانة له ولا دين، وكان همّة التسلق على أكتاف الناس وهو الذي **ينفصل** عنهم فكراً وهمّاً ومصالحةً، ويتنكر لهم في شدتهم لن يحقق

١- خطبة الجمعة (٤٣) ١١ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ٢٥ يناير ٢٠٠٢م.

للمجتمع إلا مزيداً من الخسارة، ومزيداً من الأضرار.^(١)

شرط الإيمان في نَوَابِ المسلمين

حين تحدثنا عن شرط الإيمان لم نتحدث عن شرط الإيمان على مستوى الاعتقاد فقط، إنما حديثنا عن شرط الإيمان على المستوى العملي التطبيقي، وحديثنا عن الإيمان في بلد الإيمان، فمن أين يأتي الاستغراب؟!

أنا لا أتحدث عن شرط الإيمان في إنجلترا، لو تحدثت هناك عن الإيمان شرطاً في النائب المسلم لكان وجهه، فكيف يُستكر عليّ أن أتحدث عن شرط الإيمان في بلد الإيمان؟! ^(٢)

على ضوء الآيات والروايات.. ننتخب مَنْ؟

١- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٣)، الآية تفرض شرط الكفاءة العلمية، والكفاءة في دين ليست فكرية فقط، وإنما هي فكرية، ونفسية كذلك.

٢- ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(٤)، إنسان كان متفرجاً قاعداً، وإنسان قائم في غمار الأحداث الصعبة، وفي وجه المشكلات الحادة، وهو لا يتوقع إلا السجن والمطاردة والفصل من الوظيفة، هل نساوي بينهما؟!

٣- ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْطِمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ^(٥)، جماعتان: جماعة كانت تبذل من مالها، ومن عرفها، ودمها قبل تبشير النصر، وقبل حالة الانفراج، وجماعة كانت تبذل بنية مخلصة كذلك، ولكن بعد الفتح.

١- خطبة الجمعة (٥٧) ٢٠ صفر ١٤٢٣ هـ، ٣ مايو ٢٠٠٢ م.

٢- خطبة الجمعة رقم (٢٥٩) ٢٥ شوال ١٤٢٧ هـ، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٦ م.

٣- الزمر: ٩.

٤- النساء: ٩٥.

٥- الحديد: ١٠.

الآية الكريمة لا تساوي بينهما في الدرجة، هذا إذا كان البذل المتأخر من منطلق الإخلاص لا من منطلق طلب المواقع والنجاح في الانتخابات.

٤- عن عليٍّ عليه السلام: «مَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ لَا أَمَانَةَ لَهُ».^(١)

ومن هنا شرطنا الإيمان، أنا أريد أمانة.

المسؤوليات المودعة صعبة، الأمانة التي تُعطى النائب كبيرة، أمانة على أموال ودماء وأعراض، على دنيا ودين.

هذا الوزن من الأمانة بحسب طبيعة المودع يتطلب وزناً كبيراً من الأمانة في نفس النائب، والكلمة عن عليٍّ عليه السلام تقول: «مَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ لَا أَمَانَةَ لَهُ»، ولا شيء كخوف الله، وكخشية الله في مسألة الردع، وفي مسألة النزاهة.

انظروا ماذا تقول الكلمة، عن الباقر عليه السلام: «مَنْ اتَّيَمَّنَ غَيْرَ مُؤْمِنٍ، فَلَا حِجَةَ لَهُ عَلَى اللَّهِ وَوَعَلَّ».^(٢)

خسرت مالك، خسرت نفسك، خسرت أمنك، لا حجة لك على الله وَعَلَّ، أنت الذي فرطت، أنت الذي فعلت بنفسك هذا الفعل.

وعنه عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ مِنْ عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ كَذِبًا إِذَا حَدَّثَ، وَخِيَانَةً إِذَا أُؤْتِمِّنَ، ثُمَّ اتَّيَمَّنَهُ عَلَى أَمَانَةِ اللَّهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ وَوَعَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُ»^(٣) فيها، ثم لا يخلف عليه، ولا يأجره^(٤) لا يعطيه عوضاً في الدنيا، ولا عوضاً في الآخرة.^(٥)

الحذر الحذر

الديمقراطية اليوم، ومن ناحية فعلية، وفي مناسئها الأصلية إنما هي حكم رأس المال والتموليين لا حكم الشعب.

١- ميزان الحكمة ج ١ ص ٣٤٦.

٢- المصدر ص ٣٤٨.

٣- أن يبتلي المؤمن.

٤- المصدر والصفحة.

٥- خطبة الجمعة رقم (٢٦٠) ٢ ذو القعدة ١٤٢٧ هـ، ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٦ م.

فرأس المال هو الذي يدير العملية الانتخابية، ويتحكم في اتجاهها، ويصنع الرأي العام بما يملكه من آلة إعلامية ضخمة، ويشترى خبراء الحملات الإعلامية، ويوصل مرشحين معينين إلى المواقع المؤثرة، ويفرض سلطانه عليهم بعد ذلك، ويوجه الخطوط العريضة لسياساتهم الرئيسية، ويتدخل في حسم المواقف، ويضغط على آراء الساسة الكبار، ويسحب البساط من تحت أقدامهم عند المخالفة.

أما البلاد التي تحكمها سلطة الفرد، وتمارس لوئاً من الانتخاب في بعض المساحات من باب التفاف سياسي، وتلميع واقع النظام فالديمقراطية في هذه الانتخابات محدودة ومضيق عليها، ومثقلة بالقيود التي تراعي مصلحة الحكومات، وشكلية في الأكثر أساساً، ثم تأتي متلاعباً بها، ومحكومة للمال، وشراء الذمم، والأصوات، وإفساد الضمائر.

والمال الانتخابي مصدره إما المرشح الفرد، وإما الحزب، وإما الحكومة.

والقدرة الطائلة هنا إنما هي للحكومات التي تغدق على مرشحيها من غير حساب لشراء الأصوات، ثم للأحزاب ذات الكيانات الاقتصادية المتينة، وجماعات المال الغزير. وأما الفرد لو كان مستقلاً فعلاً وواجداً للمال، فمهما نافس باستخدام عنصر المال، ففي العادة لا يُنافس ببذل الكثير الذي يجعله خاسراً مادياً في مقايسته بين ما يبذل، ويتوقع من مردود على مستوى المال.

والحكومات تُحرّك كثيراً من المرشحين بعنوان أنهم مستقلون، وتحمل موازاناتهم الانتخابية المالية الباهظة.

ولا نقول بأن كل مستقل هو كذلك.

ولتع الشعوب بأن الداعم للحملة الانتخابية لأي مرشح هو الذي يملك صوته ورأيه وموقفه في المجلس النيابي أو البلدي أو غيره، أما الشعب فلا نصيب له في صوته ورأيه وموقفه إلا على مستوى كلمات التفاف، والرّياء، والمخادعة.

والحكومات لا تدعم مرشحاً إلا بعد أن تشتريه، وتضمن وفاءه بهذا العقد من البيع والشراء كما تشتري الصحفي، والكاتب، والخطيب، والعالم، وغيرهم.

وبذل المال الكثير من أي مرشح يُظهر الاستقلال يكشف عن أن أمره ليس كذلك،

وأنه قد ترشَّح لحساب جهة معينة.

وقبول الناخب لبيع صوته بالمال تنازلٌ عن رأيه، وامتهانٌ لشخصيته، وخيانة لدينه وشعبه ووطنه، وسحقٌ لكرامته، وإفسادٌ للحياة السياسية، وتكريسٌ لظلم الظالم، ومظلومية المظلوم، وهدرٌ لحقوق الشعب، وبيعٌ لمصلحة الأمة، وتعطيلٌ للمطالب، وتمكينٌ للفساد، ومشاركةٌ في الجريمة، وإقصاءٌ لأهل الصدق والإخلاص والوفاء من المواقع المؤثرة إيجاباً على صنع القرار، وإسكاتٌ لصوت المحرومين والمقهورين، وفتحٌ للطريق للانتهازيين والاستغلاليين، وبإتاعي الذم؛ ليشاركوا في اقتسام غنائم الأمة، وسرقة خيراتها، وجريمة النهب والغصب والإفساد في الحكم، ومحاربة للحق، ومناصرة للباطل.

بيع الصوت بثمنٍ كبير، أو صغير يعني كل هذا.

وهو حرامٌ ديناً، كيف لا وهو يفرز كل هذه النتائج؟!

والشعب الذي يطالب بالديمقراطية، ثمَّ يقبل برشاوى الانتخاب يسخر من نفسه ويهزأ بها؛ فأى تمثيل شعبي إذا كان المال الحكومي وشبهه هو الذي يوصل أصحاب المواقع إلى مواقعهم؟!

التمكين لباذلي المال الانتخابي من مصادره المشبوهة متاجرةٌ بكفاح الشعوب ودمائها، وتضحياتها، وآلامها، وطموحاتها، وحقوقها، وكرامتها^(١)، وكل ذلك بزهد من المال الحرام^(٢).

وكل كبير من المال يُباع به الشعوب وقضاياها وتضحياتها زهيد، وسحت، وعار، ونار.

١- أنت هنا لا تباع صوتاً، إنما تباع شعباً، وديناً، ومصلحة أمة، وآلام محرومين.

٢- ألف دينار للصوت، ألف الدينار يساوي أمة؟

يساوي شعباً؟

يساوي ديناً؟

ماذا تدفع أنت؟

أنت تدفع الدين والدنيا، تُمكن للظلم، ترسخه، تقسو على كل المحرومين والمستضعفين والمظلومين، تشارك في جريمة الظلم بهذا البيع.

ولا يُحَصِّن الناس من الوقوع في هذا الإثم^(١)، وارتكاب هذه الموبقة، وبيع القيم والوطن ومصالح المستضعفين إلا خوف الله^(٢)، ورجاء ثوابه، والإحساس بقيمة الذات. ومن احترام نفسه لم يبع صوته لغبي، أو لطماع، أو لمشبوه.

وثقل الأمانة، واحترام كرامة الإنسان وحقّه، وتقدير العدل، والحرص على إقامة الحقّ وموازين القسْط، والوعي بالأعيب السياسية^(٣)، والترفع عن الخيانة، والإحساس بعذابات الناس والتألم لها يحول بين الإنسان وبين أن يتاجر بقضايا الأمم والمجتمعات. لقد احتقر ذاته، واستخفّ بدينه، وهان عليه أمر شعبه، وخان وطنه، وكذّب في مطالبته بالحقوق، ورفع شعار العدالة، وضجيج للظلم، وبراءته من أهله من باع صوتاً انتخابياً في أيّ قضية من قضايا الأمم والشعوب بقليل أو كثير من المال، وبمعسول الوعود.

أمّا الذين يروّجون لمثل هذه الصفقات الآثمة، ويقبلون أن يكونوا سماسرة للمرشّحين العبيد لأصحاب المال والجهات المتسلّطة فهم أشدّ إثمًا، وأحطّ قدرًا، وأسفه رأيًا، وأبشع خيانة.^(٤)

وعي الانتخاب

المطلوب للتخطيط أن تكون النتيجة مجلسًا لا مدافع فيه بصدق وإخلاص عن

مصلحة الشعب في دنيا أو دين.

١- هذا أكبر من جريمة، قتلك شرب الخمر، جريمة شخصية وهي كبيرة جدًا، لكن بائع صوته على حساب الشعب يقتل نفسه والمجتمع.

نعم، وإنه قتل سريع للمجتمع، للدين، للأمة.

٢- ولذلك يحرض المستكبرون في الأرض على تجفيف منابع الخوف من الله ﷻ واحترامه، يريدون قلوبًا فارغة من توقير الله ومن خشيته وخوفه؛ حتى يملكوها، حتى يصلوا إليها عن طريق المال، وزخارف الحياة.

٣- وكل الشعوب المسلمة تحتاج إلى وعي سياسي.

٤- خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ، ٢ يوليو ٢٠١٠م.

وعلى الناس إذا أرادوا أن يُحبطوا هذه الأمنية السَّقيمة أن يُشاركوا بقوة في التصويت للأصلح، الأصدق، الكفء، المأمون في الدفاع عنهم في شأن دينهم وديناهم، والمطالبة بحقهم في كل من الأمرين.

لا تعطوا للطبخة المضادة لمصلحتكم فرصة لأن تتجح، فتكونوا قد أعنتم على أنفسكم، وأسأتم إليها.

قابلوا من يراهن على استغفالكم؛ ليكون المجلس على هواه بوعي كافٍ يوصل إليه عناصر واعية مخلصه تدفع ضارًّا، وتحقق نافعًا، عناصر تنطق بصوت عالٍ بما فيه مصلحة الشعب في دينه وديناه، ولا تتستر على الفساد، ولا تخونها النفس، ولا يعوزها الدين والضمير.

إنَّ مجلسًا نيابيًا خاليًا من أصوات واعية كفوءة مخلصه وفيّة للشعب مدافعة عن حقوقه، مبررًا للأخطاء والمظالم؛ ليضيف إلى الكارثة بدل أن يخففها، ويزيد الجراح عمقًا وألمًا، ويكرّس المصيبة، ويضاعف من مظلومية المظلومين، وعذاب المعدّبين.

لنائب موقع في التشريع، وفي القرار، وكشف المعلومة، والرّقابة والمحاسبة، وأن يكون النائب للشَّعب غير أن يكون عليه^(١)، وأن يناصره غير أن يضاده؛ فأحسنوا لأنفسكم بحسن الاختيار.

واللسان الأخرس^(٢)، أو القاصر في المجلس خسارة^(٣)، والضعيف المرتجف لا يعتمد عليه^(٤)، ومن ترشَّح للمال سهل شراؤه، ومن لا يحمل وعيًا كافيًا استُغفل، ومن انفرد كان الطمع في إغرائه وإخافته أكبر.

١- النائب الذي يختاره الشعب مرة يكون له، ومرة يكون عليه، ولا يمكن أن تساوي بين مجلس كل نوابه على الشعب، وبين مجلس يكون عدد من نوابه مع الشعب.

٢- هذا نوع ثالث من النواب.

٣- كأنك لم توصل نائبًا عنك.

٤- عنده لسان، وعنده طاقة وقوة لكنّه ضعيف في عزمه وإرادته.

النُّوَابُ ثَلَاثَةٌ لَا يَسْتَوُونَ

١- نائب للشعب.

٢- ونائب عليه.

٣- ونائب لا يدري أين يذهب، أو هو داخل في سوق المساومات.

والصّالح من الثلاثة الأول، فاحرصوا عليه.

ولا يستوي نائب يهّمه أمر الدين والخلق والمقدّسات، ونائب يستحفّ بكلّ ذلك، أو يعاديه.^(١)

فَمَنْ أَهَمَّهُ أمر الدِّين من الناخبين لم يعد في اختياره الانتخابي النائب الأول.

والناخب شريك النائب في صوته، ودوره المناصر للشعب في المجلس، أو المضاد له، والمدافع عن الدِّين، أو المحارب له.^(٢)

فاحذر أن تأثم بمضادة الشعب، وبمحاربة الدِّين باختيار مَنْ لا دين له، أو لا توجهه آلام الشعب.

التصويتُ مَنْ يهّمه أمر الشعب؛ لقمة عيشه، أمنه على دينه وديناه، أخلاقه، إنصافه، المساواة بين أبنائه، قضايا الرئيسة، مطالبه الحقّة، مشاركته السياسية الفاعلة، شكواه، توجّعه، سجنائه، حرّيته الدينية، المتعطّلين من شبابه، المتسيّبين من فلذات كبده.

والتصويت لمن يُخلص لكل هذه القضايا، ويستطيع أن يُعبّر عنها، ويملك القدرة أن يواجه من أجلها، وله الخبرة التي تُعينه على ذلك، والمناعة عن الدوبان، والتهالك على الدّنيا، والشجاعة الكافية للإصهار بالحق، والإدراك لحجم الأمانة، وعِظَم المسؤولية، والخوف الرّادع من الله وَكَفَّ عَنْ الاستسلام للترغيب والترهيب.^(٣)

١- قد يكون نائب يستخفّ بكلّ مقدّساتك، بالأخلاقية التي تهّمك، بالدِّين الذي تعتزّ به.

ونائب آخر يقابله بحمل الهم الذي تحمله بالنسبة لقضايا الدِّين، والمقدّسات، وربما أكبر مما تحمل، فهل يستويان؟
٢- صوت النائب المحارب لدين الله والذي اخترته مثل صوتك، وأنت شريك له في ذلك الإثم، النائب الذي سيدافع عن الدين، وعن المقدّسات في كل كلمة يقولها في هذا المجال شرف لك وثواب.

٣- خطبة الجمعة (٤٢٣) ٢٨ شوال ١٤٣١هـ، ٨ أكتوبر ٢٠١٠م.

(٦)

النَّائِبُ وَمَسْئُولِيَّةُ النِّيَابَةِ

أَيُّهَا النَّائِبُ الْمُحْتَرَمُ، وَأَيُّهَا الْمُمَثِّلُ الْبَلَدِيِّ الْمُحْتَرَمُ

ليكن نجاحك في الانتخابات نجاحًا لك لا إخفاقًا، وكل نجاح ساقط قيمة، وكل نجاح إخفاق ما قاد إلى النار، وكان فيه وضع اليد في يد ظالم، وليس ظالمًا معيَّنًا، بل في يد مشروع ظالم، في يد قانون ظالم، في يد قرار ظالم.

من أين جاء هذا القرار؟

ممنَّ جاء؟

من أخلص المخلصين؟

ولو جاء خطأ من مؤمن؟

وليكن نجاحك - أيضًا - نجاحًا للشعب كل الشعب، وللوطن كل الوطن، ولمحروميه ومستضعفيه خاصة.

وليكن نجاحك انتصارًا للحق والعدل والإنصاف، وتركيزًا والالتحام لا للفرقة والانقسام، وتشبيهاً لقيم الدين والخلق الكريم، واقتراباً من أحكام الله بل تمسُّكاً بها، وفرصة للعمل الجاد على تحسين الأوضاع المعيشية والعملية عامة، وعلى الانتصار للحقوق الأساس، ومعالجة الملفات المهمة والقضايا المركزية كقضية الدستور والقضايا المماثلة والمشابهة.^(١)

أَيُّهَا النَّائِبُ الْمُحْتَرَمُ

١- أنت المصلي الصائم، فلا يصح لك أن تقدّم نسباً، ولا مصاهرة، ولا جواراً، ولا صداقة على دينك في إعطاء صوتك لهذا المرشح، أو ذاك.

١- خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ، ٢ يوليو ٢٠١٠م.

فليكن الله وأنت تضع ورقتك الانتخابية في صندوق الانتخاب بين عينيك.

ولتضمحل حينذاك كل العلاقات، ولتتجاوز كل المصالح، وليكن نظرك الوحيد إلى الله سبحانه وتعالى.

٢- في الانتخاب امتحان لعقل الناخب ووعيه، ودينه، وشعوره بكرامته وكرامة الآخرين.

حجم الناخب من حجم المنتخب، وذوق الناخب من ذوق المنتخب، ودين الناخب من دين المنتخب، وعقل الناخب من عقل المنتخب، فانظر مَنْ تريد أن تكون.

٣- إعطاء الصوت لمرشح يضر بالناس في دينهم، أو دنياهم جريمة، أو غفلة لا يرتكبها مؤمن.

وإيصال مرشح حكومي إلى المجلس النيابي نقض للغرض أساساً.

إنما كان المجلس النيابي؛ لملاحقة أخطاء الحكومة، للمراقبة، لإنكار منكرها، للعود بها إلى السكة الصحيحة، وللتشريع الصالح، وحين يأتي النواب حكوميين نكون أمام حكومة مضاعفة الأخطاء والتجاوزات.

٤- الناخب شريك النائب في عدله وظلمه، وما أخطرها من قضية.

كلمة الحق التي يقولها النائب في المجلس أنت شريك في ثوابها بعد أن أوصلته إلى هناك، وكلمة الباطل حين يقولها، فأنت شريك له في الإثم.

كل ناخب هو شريك للنائب فيما كسبه من حسنة في المجلس ومن سيئة، فاجمع على نفسك أيها الناخب غير الدقيق سيئات لا تُعدّ ولا تحصى حين تنتخب مرشحاً ليس يرضاه الله وعَلَّاهُ.

أنت تصلي، وتصوم، وتكتب عليك سيئات من خلال نائبك.

إن صوتك للمرشح غير الصالح رصاصة في قلب دين الله والوطن.

٥- إن المشاركة في الانتخابات، وإيصال المرشح الصالح إلى المجلس النيابي وظيفة

شرعية لا تضيق فيها، والمقاطعة تُعطي فرصة للمتسلقين، والنفعيين، والحكوميين بأن يتصرفوا في مصير الشعب بكل حرية وبلا قيد، وسلبتي من العملية الانتخابية فيما أقدره أنا، وفيما أفقهه أنا تشركني في الإثم.

٦- إنه أمر بيدنا أن نُعطي المجلس النيابي دورًا إيجابيًا بمقدار ونجعله مناصرًا لقضايانا، أو نُفرضه من مضمونه الإيجابي، ونجعله مضادًا لنا.

هل نشارك في العملية الانتخابية وبفعالية ووعي؛ لنوصل نوابًا صالحين، إذا فعلنا ذلك كنا قد أعطينا المجلس دورًا إيجابيًا بلا إشكال، وقد أوصلنا للمجلس من يدافع عن مصالحنا الدينية والدنيوية، أما إذا تفرجنا على العملية الانتخابية، ووقفنا منها الموقف السلبي أو شاركنا فيها؛ لنُدفع بمرشحين غير صالحين إلى المجلس، فحينذاك سنكون قد فرغنا المجلس من مضمونه الصالح، وأوصلنا محامين ضدنا إلى المجلس النيابي.

وكم سنضر بمصالحنا إذا أخذنا بأحد هذين الخيارين؟!

الخيار الرشيد فيما أرى - وللآخرين أن يروا رأيهم - أن نشارك بقوة، وأن تكون مشاركتنا؛ من أجل نوابٍ صالحين أكفأ يقولون الحق، ولا يخافون في الله لومة لائم^(١).

٧- هناك أوراق رابحة تلعب بها الحكومات، وبعض الفئات؛ لتخريب عملية الانتخاب، وإفسادها على الشعوب، من هذه الأوراق - وكما تعرفون - (ورقة الطائفية، ورقة المناطقية، ورقة القبليّة، ورقة الفئويّة، ورقة التبعية للحسينيات والجمعيات والمؤسسات العامة الأهلية).

كل هذه أوراق بيد الحكومات والفئات المفرضة توظيفها؛ لإفساد العملية الانتخابية؛ من أجل تحقيق مآرب انتهازيتها.

٨- على النابخين الذين يُفرضون بعدم الإدلاء بأصواتهم للنائب الصالح، أو بإعطائهم أصواتهم لغير الأكفأ والأكثر إخلاصًا أن يلوموا أنفسهم غدًا قبل أن يلوموا المجلس النيابي الذي شاركوا في رداءته والهبوط بمستواه، ومكّنوا للعناصر السيئة أن

١- هتاف جموع المصلين ب: (معكم معكم يا علماء).

تتحكم فيه.

المجلس النيابي من صناعة الناخبين، المجلس النيابي في مستواه من مستوى الناخبين، هو في مستوى أمانته، أو خيانتته من مستوى أمانة، أو خيانة الناخبين، وهو في وعيه وعدم وعيه من درجة وعي الناخبين وعدم وعيهم.

٩- علينا أن ننتخب نواباً لا نحتاج غداً لأن نلاحقهم؛ من أجل أن يستقيموا ويقفوا الموقف المشرف من قضايانا «أرسل حكيمًا، ولا توصه».^(١)

١٠- النواب ثلاثة:

أ- نائب لك منه صوته ولا يملك رأياً، ولا قدرة له على مناقشة، ولا يدخل في أخذ ولا رد، وإذا دخل في ذلك أساء وأضر، هذا نائب!

ب- نائب آخر لك منه رأيه، وصوته، وقوة حجته، وجرأة موقفه، ولك منه أمانته الدينية وصلاحه، فهنيئاً لك أن تختار هذا النائب، ومن لا يراهن على مجلس نيابي تكون كتلة كبرى من نوابه من هذا الوزن.

إذا استطعنا أن نوصل كتلة نيابية، تياراً نيابياً مؤثراً صالحاً من هذا المستوى، أو ما يقرب، فقد فعلنا لأنفسنا الكثير من الخير.

ج- وهناك نائب هو عليك بكله وليس لك منه شيء، إن كان قوي الحجة فحجته لغيرك، وإن كان جريئاً فجرأته عليك، هذا النائب العدو حذارٍ حذارٍ من أن تختاره.^(٢)

١١- الناخب شريك في الثواب والعقاب للمرشح.

مرشحك الذي تنتخبه وأنت لا تحرز فيه كفاءة ولا دينا كافيين إذا خان خنت، وإذا تحمل الأمانة بصدق كنت له شريكاً في تحمله الأمانة، وإذا ارتشى ارتشيت، وإذا ظلم

١ - هذا شطر من قول الشاعر: إذا كنت في حاجة مُرسلاً فأرسل حكيمًا ولا توصه نهج السعادة في مستدرک نهج البلاغة ٢٨٢/٧، الشيخ المحمودي، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، مطبعة النعمان، النجف الاشرف - العراق.

٢ - خطبة الجمعة رقم (٢٥٥) ٢٦ شهر رمضان المبارك ١٤٢٧ هـ، ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٦ م.

الناس ظلمت، وإذا تساهل في كلمة الحق تساهلت، فَلَهُ الْغَنَمُ عَلَيْكَ الْغُرَمُ، يعني هو قد يخرج بنتيجة مادية في الحق لا تساوي شيئاً أمام عقاب الله، ولكن هذا الناخب وبلا فائدة مادية أيضاً سيحمل على نفسه حطباً للنار، فلنلتفت!

أخوك لن ينقذك من النار، صديقك لن ينقذك من النار، قرابة العشيرة وقرابة الصداقة، وأي لحمه أخرى لن تنقذك أيها الناخب من النار يوم أن تعطي صوتك لمن لا يصلح، وقد يُفسد.

١٢- الانتخاب امتحان لعقل الناخب، ورشده، وحكمته، ودينه، وصلته بالله، وبعده عنه.

المرشح الذي تنتخبه، رسولك في مسألة اجتماعية، رسولك فيما يتصل بحق المسلمين، فيما يمكن أن يؤدي إلى عدل أو ظلم لهذا المجتمع، هو رسولك، ورسولك دليل عقلك، دليل رشذك، من اختار سفيهاً فهو سفيه، من اختار ظالماً فهو ظالم، من اختار جاهلاً فهو جاهل، من اختار مؤمناً كفواً فهو مؤمن كفوؤ.

ستبرز بكل دينك، وبكل حجمك من حيث العقل، ومن حيث الحكمة، ومن حيث الروية حين تعطي صوتك، من تعطيه صوتك، هو دليل عقلك، ودليل دينك، ودليل حكمتك.

اعرف نفسك تماماً أنك بعيد عن الله أو قريب إليه، يوم أن تعطي صوتك لأخيك من أمك وأبيك وأنت لا تعرف فيه الكفاءة، فاقراً نفسك بعيداً عن الله، ويوم أن تحرم أخاك من أمك وأبيك صوتك الانتخابي لله، فاحمد الله وَعَلَّجَ على أنك مؤمن، وعلى أنك مرضي عند الله.

١٣- التقييم لأي مرشح لا يقوم على وعوده، بل يقوم على ملاحظة سجل حياته الطويل في حالات الخوف والأمن والشدة والرخاء، ومن حيث علاقاته وانتمائه، ومشاركته للناس في صعوباتهم، ومدى وعيه وصلابة إرادته وصدقه مع الله في مختلف

أدواره.

المرشح تاريخ وليس لحظة دعاية، لا تقرأ المرشح من خلال لحظة دعايته وسعة دعايته، اقرأه من خلال سجل حياته الطويل.

١٤- «حرمة المؤمن لا تُجرح» قاعدة، وحرمة الدين أكبر.

ليس لأحد باسم الانتخابات أن يهدم شخصية الآخرين.

الغيبة حرام، الكذب حرام، أذى المؤمن حرام، وقد يؤذى المؤمن في ماله، قد يؤذى في بدنه، قد يؤذى في شرفه وسمعته وهو الأشد، ولو على بعض النفوس، كل ذلك حرام قاعدة، ولكن لو أن واحداً أعرفه بأنه معاد لدين الله، يريد سوءاً بالمؤمنين، والناس لا يعرفونه هل تجوز لي غيبته؟

نعم، وبكل تأكيد إذا لم تكن فتنة أكبر، نعم وبكل تأكيد حماية لدين الله.

لا تسلم حرمة المؤمن، ولا مسلم، ولا إنسان في الأرض إذا ذهب حرمة الدين.

من أين تحفظ الحرم؟

كل الحرمات إنما تحفظ بحفظ حرمة الدين.

أرايت أكبر من حرمة النفس، وحرمة النفس تسقط عند حرمة الدين.

هل أكبر من حرمة نفوس الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام؟

الحسين عليه السلام وهو يعرف حرمة ذاته المعصومة، إلا أنه وبحكم عصمته ودينه رأى

أن حرمة الدين أكبر، ففدى بالذي هو أقل؛ من أجل الذي هو أعظم - دين الله -.

والحسين عليه السلام من دين الله.

فهذه حرمت، ولا يصح أبداً أن تهتك إلا في ظل الاستثناء الشرعي، وهذا يحتاج

إلى فهم فقهي.

١٥- عند تعدّد المؤمنين الأكفاء في أيّ دائرة من الدوائر يركّز على الأكفأ والأكثر جدارة من كلّ الجهات من جهة الخبرة، ومن جهة الجرأة قول الحقّ، ومن جهة الدين، وإلا انفتح الطريق لخسارة هؤلاء جميعاً وفوز من لا يرضاه الجميع.^(١)

وظيفة الشعب بعد انتخاب النواب

جرت الانتخابات، وانتهت، وأسأل:

الانتخابات تعطي للشعوب إجازة من حيث المسؤولية أم تضاعفها.

الذين صوتوا للنواب، هل انتهى دورهم السياسي ودخلوا في عطلة، وأعطوا التفويض الكامل في التصرف في المصير دينياً وآخرة؟

أم أنّ هؤلاء تضاعفت مسؤوليتهم، وصاروا اليوم يتحمّلون من مسؤولية الدين والدنيا، ومسؤولية حاضر هذا الوطن ومستقبله أكثر مما كانوا يتحمّلون؟

الصحيح هو الثاني، وأنّ مسؤولية الناخبين قد كبرت، وأنّ الشعب قد تضاعفت مسؤوليته، وأنّ النوم لا يصح في حقه، وأنّ لا عطلة ولا إجازة من حيث مسؤوليته.

اليوم صارت القوانين تسن باسمه - ولو بنحو من الشراكة المحدودة -.

كان القانون أمس يسن باسم الحكومة، ومن قبلها، ويعتذر الشعب أن القانون يفرض عليه فرضاً، واليوم هناك بعض شراكة وإن كانت الشراكة المحدودة، وهناك فرصة التعبير والنقد عند النواب، وإعلان الرأي، فإن يقصر نائب في ذلك أو يعطي صوته لقانون غير عادل؛ لقانون يضر بدنيا الناس أو دينهم، فقد أعطى كل ناخبه صوتهم لهذا القانون إذا لم يلاحقوا، يراقبوا، يحاسبوا النائب.

على أن النواب وإن انتخبهم من انتخبهم ولم ينتخبهم آخرون إنما يدخلون المجلس؛ ليمثلوا الشعب بكامله، من نطق ومن صمت، وعلى الكل يوم أن يعطي النائب صوته لغير

١- خطبة الجمعة (٥٦) ١٣ صفر ١٤٢٣ هـ ٢٦ أبريل ٢٠٠٢ م.

الحق أن ينطق، ولا يجوز لأيّ أن يسكت ما دامت تسع الكلمة.

واليوم تكون الممارسات السياسية والإدارية ممضاه من نوابه ما لم يعلنوا الرأي فيها، ويكشفوا عن سقيمها من صحيحها.

النُّواب لهم دور رقابي، وإن لم يصل من ناحية عملية، فعلية إلى حد إسقاط الثقة لما يحف بالقرار، من معوقات - كما هو معروف -، إلا أنه مع ذلك يوجد دور رقابي يمكن أن يخجل، يمكن أن يحرّج، يمكن أن يعري، وهذا كله مطلوب حين تكون أخطاء، وحين تكون مخالفات تضر بهذا الشعب الذي من مسؤوليته أن يطالب النُّواب كل النُّواب عن تمثيله التمثيل الذي ينطلق من مصلحته، وضميره، ودينه.

(٧)

النُّوَّابُ ومسؤوليَّاتهم

النُّوَّاب - السِّيَاسِيُّونَ والبلديُّون - وحاجات النَّاس

لِلنَّائِبِ دور سياسيٌّ يتركِّزُ على:

- ١- المطالبة بالحقوق السياسية للشعب.
 - ٢- ومشاركته في رسم خطِّ حاضره، ومصيره.
 - ٣- وحضوره الفاعل في قضايا الكبري، ومفاصل حياته.
 - ٤- وعلى تحسين الوضع التشريعي للحياة الاجتماعية.
 - ٥- ومتابعة الأداء السياسي والإداري، وأداء كل الوزارات.
 - ٦- والمراقبة والمحاسبة لدقة التطبيق، وأمانته بالنسبة لكل التشريعات والسياسات المقررة التي على الحكومات تنفيذها.
- أما البلدي، فنائب لمحافظة، ثم للشعب من بعد ذلك، وله دور خدماتي يتركِّز على:
- ١- المطالبة بالحقوق الخدماتية.

٢- وعلى تطوير البيئة، ووضعها الصحي والجمالي والعمراني، وكل ما يتصل بتقدّمها، وملاءمتها لحاجات الإنسان، من غير إضرار بالبيئة المعنوية الدينية، والأخلاقية المتصلة بالحفاظ على قيمة الإنسان، وهي الشيء الأهم^(١).

البلديات في مجالسها لها صلة بالمصلحة الدنيوية والأخروية بإعمار البيئة المادية، بنظافتها، بصحتها، بجمالها، بتناسقها، ولها صلة بالبيئة المعنوية، وسلامة هذه البيئة وصحّتها.

١- خطبة الجمعة (٢٧٧) ٣ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، ٢٣ مارس ٢٠٠٧م.

فحين تأخذ المشاريع الترفيهية بلغتها التي تحمل معنى التعارض مع الخلق القويم، ومع الأحكام الشرعية امتدادها في ساحتنا، فإنها ستفسد الكثير من شبابنا وشاباتنا، وستدخل بالأثر السيئ على كثير من النفوس.

وبالعكس فيما لو جاءت المشاريع جمالية، وجاءت تحمل روح الخلق، وتحمل روح الإيمان، وتلبى الحاجة إلى الحس الجمالي المادي، كما تغذي الحس الجمال المعنوي والروحي.

حين تأتي هذه المشاريع ملتزمة وجمالية، تكون قد أدت دورًا إيجابيًا، وحين تأتي جمالاً مادياً؛ لتفتك ستار الروح، وتدخل بالقبح عليها، فإنها في بيئتنا مرفوضة، وإنها شين وليست زيناً.

البلديات لها هذان الأثران.

فإذا، لا يصح أن نستهن بشأنها، وعلينا أن نعطي الاهتمام البالغ في أمرها وإن كانت الفسحة للمجالس البلدية - كما تقدم - لا تكاد تكون فسحة، ولكن برغم ذلك المجلس البلدي يستطيع أن يواصل الضغط في ظل توجه صحيح؛ حتى يكون الشيء الإيجابي.^(١)

قضاء الحاجات العامة

والنائب البلدي على اختلاف ما بين وظيفتهما مسؤولان معاً عن المطالبة بالحقوق العامة، والمحافظة عليها، والدود عنها.

قضاء الحاجات الخاصة

أما الحاجات الخاصة للأفراد والمؤسسات - مثلاً -، فإذا كانت من منشأ تخلف قانوني، أو مخالفة رسمية للقانون وقعت في عهدة النائب أو البلدي كل حسب اختصاصه.

١ - خطبة الجمعة (٥٦) ١٣ صفر ١٤٢٣هـ، ٢٦ أبريل ٢٠٠٢م.

وإن كانت بعيدة عن ذلك، وكانت أمراً شخصياً، وكان ذلك من باب الوقوع في حاجة معينة لأسباب شخصية، وكان قضاؤها لا يدخل في باب المطالبة، وإنما تحتاج إلى طلب وتوسط، فإن كان في ذلك إذلالٌ للنائب أو البلدي أمام مسؤول تنفيذي من وزير أو غيره، وتأثير سلبي على دوره المنوط به من المطالبة بالحقوق العامة والمراقبة والمحاسبة، فلا يمكن له أن يضحي بوظيفته الأصل والمحاسب عليها أمام الله سبحانه، ثم أمام الشعب؛ من أجل قضاء هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأشخاص، أو المؤسسات، أو المجموعات بعنوان أنه نائب، أو بلدي، أو بأي عنوان آخر.

وتكليف الآخرين له بذلك، والضغط عليه في هذا السبيل مضايقة غير صحيحة، وفيها إضرار بالشعب، وإفساد للبعض من النواب والبلديين.

قضاء الحاجات المعيشية للمحتاجين

والنائب والبلدي شأنه بالنسبة لقضاء الحاجات المعيشية لبعض المواطنين المحتاجين في دائرته الانتخابية، أو غيرها شأن غيره من المؤمنين، يستحب له المشاركة في قضاء هذه الحاجات من غير أن يفرض عليه فرض خاص في هذا المجال؛ لأنه نائب أو بلدي، ولا يكلف بتكليف خاص من هذا الباب من ناخبيه، ولا ينبغي أن ينال الثقة الانتخابية اعتماداً على ما يعطيه في هذا المجال، وإنما يجب أن يقوم اكتسابه للثقة على أساس وفائه لمهام دوره العام الذي أنيط به، وتجديد الانتخاب لأي نيابي أو بلدي لا يقوم في الصحيح إلا على ملاحظة كفاءته، وإخلاصه، ونشاطه، وحسن أدائه للدور العام الذي تحمّل مسؤوليته لا على النظر إلى هباته وعطاياه، وإلا فتحنا باباً خطيراً على النائب أو البلدي، وذلك أن يستوهب، ويستعطي، ويرتشي؛ ليهب، ويعطي، ويرشي، وأن يبيع نفسه لمن فوقه؛ ليشترى بشيء من الثمن من تحته، وكل ذلك على حساب الدين، ومصالح الشعب، وحقوقه العامة المشتركة.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٢٧٧) ٣ ربيع الأول ١٤٢٨ هـ، ٢٣ مارس ٢٠٠٧ م.

وقفة مراجعة

أما النواب الذين يتطلعون إلى موقع نيابي، فعليهم بمراجعة النفس، وهل أن هذا التطلع من منطلق الحرص على الدين وعلى الأمة؟

وأن المنظور الأول فيه هو الله وحده؟

أو أن للنفس مآرب وتطلعات من منطلقات أخرى يجب الاحتراس منها؟

هذا الكلام لا يجري في حق نائب تكتلي، أو نائب مستقل، الكل سواء في وجوب هذه المحاسبة.

ومن ناحية دنيوية: أيها المتطلع إلى النيابة، أنت اليوم عزيز، وربما كنت بعد دور النيابة ذليلاً، ربما أذلتك النيابة.

واليوم أنت مسكوت عنك، وغداً ستتناولك الألسن السليطة بكل ما يؤذك.

أنت اليوم غير محاسب، وغداً يحاسبك الشعب كله.

واليوم أنت غير ملاحق فيما تفعل في علاقاتك، في شؤونك الخاصة، وغداً ستلاحقك العيون، وستحسب عليك الأنفاس، ومن أين جاءك الدرهم الواحد.

لا تقترح، إن لم يكن ربحٌ أخروي وهو قائم على الإخلاص لله، وللمؤمنين، فالنيابة خسارة لا ربح.

أعود فأقول: إن المرشح غير الكفو أو غير الأمين سيُخرج نفسه، وسيُسقط نفسه، وخيرٌ له أن لا يجازف بسمعته، وشرفه، وموقعه في مغامرة لم يُعدّ نفسه لها.^(١)

أيها المرشح المحترم

١- إذا كنت ممن يراعي الدين والشعب، فأعطِ الفرصة لمن هو أكفأ منك؛ للترشح وتحمل مسؤولية النيابة، وحتى لو كان أخوك ليس أكفأ منك ولكن قد سبقك إلى الترشح، فافسح له المجال، ولا تخلق معركة في الصف الواحد.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٤) ١٩ شهر رمضان المبارك ١٤٢٧هـ، ١٣ أكتوبر ٢٠٠٦م.

٢- قد يدفعك للترشح مَنْ لا يريد لك خيرًا، ولا حرص له على مصلحتك، فهناك دوافع ودوافع تُحرِّك بعضًا من الناس؛ للدفع ببعض الأشخاص للترشح، وقد يتقاضون على ذلك ثمنًا على حسابك - أيها المدفوع للترشح - من جهة لها مصلحة باللعب في الانتخابات.

احذر عزيزي، أن يستغلَّ أحد في هذا المجال.

وكم من غاشٍّ لبس ثوب الناصح الأمين؟!

وقد يكون الغرض هو تبيد الأصوات المؤمنة، وإعطاء فرصة نجاح لمن تريد الحكومة أن يصل إلى موقع النيابة مثلاً.

وما كان دفعك للترشح؛ لتنجح وإنما لينجح بك مرشح حكومي خُطط لإنجاحه، وذلك على حساب أتعابك ومشاكلك، فلا تتخدع.

٣- مَنْ وجد نفسه أنه سيكون في النيابة كالمطالب المتخلف في صفه لا يحسن أن يطرح سؤالاً وجيهاً، ولا يملك أن يجيب إجابة مقنعة أو أن يقدم رأياً ذا بال، مَنْ وجد نفسه أنه لا يجيد إلا أن يرفع إصبعه مع هذه الجماعة أو تلك الجماعة، فليحترم نفسه، وليتخلَّ عن هذا الطموح.

٤- في الحق أن الترشُّح يحتاج إلى مستوى علمي وسياسي قادر على إعطاء الرأي الصحيح في المسائل الدقيقة، وإلى فهم فقهي يقي من مخالفة الشريعة، ونزاهة دينية بالغة يمتنع معها الضعف أمام الإغراءات، وجرأة شديدة تكفي للإصهار بالحق، وحكمة، ورشد تكون الكلمة بهما في موضعها، وقدرة بيان تُظهر الرأي جلياً، وقوة برهان تُدعم الرأي وتردُّ عنه الشبهة والمغالطة، ومعرفة بدقة اللغة القانونية التي تُصاغ بها القضايا؛ ليؤمن من ضياع الرأي في مرحلة صوغ القرارات والمواد، وإلى مداراة لا يضيع بها الحق، وصلابة إيمانية لا يميع معها الموقف، ولا يُتنازل عنه للحسابات الصغيرة البعيدة عن تقوى الله.

هذه بعض صفات يحتاجها المرشح على الإخوة الأعزاء من المرشحين المؤمنين أن يراعوها خيرًا لهم في دينهم ودنياهم.

الاختلاف بين المرشحين المؤمنين

منازلة المرشحين المؤمنين لبعضهم البعض، وتصادمهم يحملهم مسؤولية ضخمة، مسؤولية شق الصف المؤمن، وتبديد الأصوات وبعثرتها، وفتح الطريق لمن لا تهمه مصلحة الشعب، ولا أمر الدين لمن كانت دوافعه نفعية، أو لمن كان عميلاً لهذه الجهة، أو تلك الجهة إلى المجلس النيابي.^(١)

المطلوب وقفة وطنية من الجميع

على جميع النواب أن يكونوا للوطن كله، ولحقوق المواطنين جميعاً، وأن لا يتحولوا إلى فريقين مذهبيين وظيفية كل منهما الهجوم على الآخر، والدفاع عن نفسه وهو الشيء الذي يهدم الإسلام، ويفرق صفوف المسلمين، ويقبر الحقوق. وحيث يفعلون ذلك، فإنهم سيجرون البلد إلى الخراب، وأهله إلى الهلاك.^(٢)

المرشح الرأشي والناخب المرتشي

العملية عملية بيع وشراء، عرفنا أن المرشح الراشي يعطي ثمنًا من المال، ووعدًا مادية، ولكن الناخب ماذا يُعطي؟ إنه يُعطي دينه، وليس دينه فقط وإنما دين الآخرين، لأن هذا النائب نائب عن الشعب إن باع الدين بالمال، فقد باع دين الناس كلهم من خلال تشريعات، وقرارات مخالفة للدين.

إنه يبيع مصالح المحرومين والمستضعفين، وليس على مستوى جيل واحد وإنما على مستوى أجيال.

إنه يبيع أمن المواطن، وحتى حياته من خلال مساعدته على الخيانة مساعدته على التشريعات القاسية الجائرة، وتمير الأخطاء، والتستر على الخيانات والتلاعب.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٥) ٢٦ شهر رمضان المبارك ١٤٢٧هـ، ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٦م.

٢- خطبة الجمعة (٢٦٥) ٨ ذي الحجة ١٤٢٧هـ، ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.

إنه طريق لتمرير قانون مثل قانون التجمّعات، ومثل قانون الجمعيات، ولتمرير قوانين أشد وأقسى.

هذا الناحب يبيع كل هذه الأمور المهمة العالية بالثمن الذي يقبضه، وأحياناً يبيع صوته، وأحياناً يبيع صوته وصوت جمعيته، أو عشيرته، أو بيته، أو أصدقائه الذين يستطيع التأثير عليهم.

وإذا باع أصوات عشيرة وصل الثمن إلى الألوف، وإذا استطاع أن يبيع أصوات قريته، أو نصف أصوات قريته، فقد يصل الرقم إلى عشرة آلاف وعشرين ألفاً، وثلاثين ألفاً، بورك له صفقة تأخذ به إلى النار.

حديث مع المؤمنين

وهنا يأتي صراع الدين مع المال، الربُّ في النَّفس المال، أم الله؟

المكانة في النفس للمال، أم الدين؟

صلاة أخينا حقيقية أو شكلية، صوم أخينا حقيقي أو شكلي، حج أخينا حقيقي أو شكلي، لئن كان له حج حقيقي، أو صلاة حقيقية، أو صوم حقيقي، فإنه لا مال الانتخابات، ولا مالاً أكبر من مال الانتخابات بملايين المرات يستطيع أن يشتري منه موقفاً واحداً.^(١)

مصيبه الذين حاربوا الحسين، الذين خذلوا الحسين عليه السلام ولم يحاربوا معه هي مصيبه دنيوية، وحتى لا تتكرر مأساة الكوفة مرة أخرى، ولا يُخذل مسلم بن عقيل، ولا يُخذل الإمام الحسين عليه السلام، فلنستكبر على صنم المال، ولننقِ الله، وليكن لنا معبود واحد ليس هو إلا الله سبحانه وتعالى.

أتظل سنين ابن المسجد والحسينية، وتأتي لحظة امتحان يسيرة؛ لتبيع دينك؟

وتبيع شرفك، ووطنك، وأمّتك؟!

١ - مقاطعة أحد المصلين لسماحة الشيخ بقصيدة حماسية كُبر خلالها المصلون بـ (لله أعطي ولائي).

وتتبع أجيالاً من بناتك، وأبنائك، وإخوانك، وأخواتك؟

فلنرجع إلى ديننا يا إخوة.

لنقل للدينار بساً لك من دينار تقودني إلى النار.

لنطرد المرشح الذي يقدم لنا مالا يشتري به ديننا.

والمرشح الراشي اليوم هو نائب مرتشٍ غداً بلا إشكال، وإذا كانت عطايه اليوم كبيرة، فقد بدأ قضية الارتشاء من يومه هذا.^(١)

منهج النائب في البرلمان

ونوابنا فيما ينبغي ليسوا لخوض معارك مفتعلة مع الحكومة أو غيرها، ولا فرقة قتال في مواجهة أحد، ولا للدعاية الفارغة، ولا للفرقة الضارة، ولا للإثراء والتزيد من الدنيا، ولا للبحث عن الفرص الشخصية، ولا لتمتين العلاقات التي تخدم المصالح الذاتية، ولا للتسلق للمناصب.

واجبهم أن يقفوا صفاً واحداً لحماية الحقوق، للمطالبة بكل حق سليب، لحماية الثروة العامة، وحراسة المال العام، لتحسين الوضع التشريعي، والاستجابة لحاجة الإسكان، وحاجة المعيشة اليومية التي يكبر ثقلها على الناس، ومن أجل تقدم الموقع السياسي للشعب، ولعالجة مسألة الدستور، ولمواجهة التمييز غير العادل، والفساد الإداري، والمالي، والأخلاقي، وإصلاح الوضع الأمني، ولرعاية مصلحة الوطن وأخوة أبنائه، للتعاون على الخير مع أي قائل لكلمة خير، أو صاحب موقف نبيل.

يخطئ المرشح الذي وصل إلى مقعد من مقاعد النيابي أو البلدي إذا اعتبر نفسه قد نجح، الصحيح أنه قد دخل الامتحان، أما الحكم بنجاحه أو فشله، فمرتبط بجنس عمله، ودرجة صدقه وإخلاصه، ومستوى دوره في المجلس.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٨) ١٨ شوال ١٤٢٧هـ، ١٠ نوفمبر ٢٠٠٦م.

إذا انتهت السنوات الأربع للفصل التشريعي ووجد النائب أو البلدي نفسه قد أخلص للشعب في تمثيله له، وقد أرضى الله سبحانه فقد نجح، وإلا فهو من أسقط الساقطين. أربع سنوات النيابي والبلدي تجربة يقضيها الممثل للشعب فيهما مع الدنيا والآخرة، ونتيجتها أن يكسب الجنة أو يُحرّمها^(١)، أن ينجو من النار أو يدخلها.

وأريد أن ألفت نظر المؤمنين جميعاً إلى أن من طبيعة الأجواء الانتخابية أن تحمل معها غباراً وأتربة خلاف، وهذه يجب أن لا تبقى معكّرة لجو الإيمان، ومؤثرة سلّياً على الأخوة الإيمانية العامة، ومسببة لتحاملٍ مضادٍّ لمقتضى الإيمان لا يرضاه الله.^(٢)

إذا فزت أيّها المرشّح

إذا فزت أيّها المرشّح في الانتخاب، فاحمل همّ ما أقدمت عليه من تحمّل الأمانة، حذارٍ أن تفرح، فغداً عند الله سبحانه يثقل السؤال، وتصعب الإجابة على مظلمة اشتركت فيها أو قصّرت في ردّها، مظلمة تضرّ بديننا النّاس أو بما هو أعظم؛ وذلك دينهم الكريم.

واحذر عزيزي، كلّ الحذر أن يكون فوزُ الانتخاب، بداية طريقك إلى النار. ففوزك يعني أنّ النّاس قلّدوك الأمانة وهي أمانة دنيا ودين، وهم غداً يطالبونك بين يدي العدل الحكيم، عن الكبير والصغير مما حمّلك أمانته. بالفوز في الانتخاب يفرح الجاهل، يهلع العاقل، وفرح الأول بدينه، ويهلع الثاني على عاقبته.^(٣)

١- قد يدخل النيابي ويكسب الجنة، وقد يدخل النيابي وهو مستحق للجنة، فيخرج منه محروماً منها، فأين النجاح؟

٢- خطبة الجمعة (٤٢٦) ٢٠ ذو القعدة ١٤٣١ هـ، ٢٩ أكتوبر ٢٠١٠ م.

٣- خطبة الجمعة (٥٦) ١٣ صفر ١٤٢٣ هـ، ٢٦ أبريل ٢٠٠٢ م.

(٨)

الكتلة الانتخابية

النُّوَاب بين التَّبَعثر والتَّكْتُل

وأَيُّ عدد من النواب يكون مع الشَّعب في المجلس إمَّا أن يَأْتِيَ أصواتًا متفرِّقة، وآراء متباينة، واجتهادات مختلفة، وإمَّا يَأْتِيَ حزمة واحدة يجمعها رأي موَّحد، وصوت واحد، رأي تنتهي إليه دراسة مشتركة من عقول متعددة وتجارب متكثرة؛ ليتَّسم بالعمق والإحاطة والشمولية والمتانة والقوَّة، وصوتٌ مدوٌّ مواجهٌ غيرُ متردد ولا مطموعٍ في إسكاته، على خلاف رأي الفرد الذي قد يَأْتِي مرتجلًا، أو نتيجة لدراسة قاصرة، وظروف نفسيَّة مرتبكة، وتجربة مجزوءة، والذي يمكن أن تهزمه الأصوات المضادَّة حين تحتوشه بعنادها وشراستها وتكالبها.

والواحد ضمن الكيان الموَّحد لعدد من النواب خاضع لرقابتهم ومحاسبتهم، وخاضع لحساب المؤسسة التي ينتمون إليها بكلِّ الدوائر والجهات الرسمية في هذه المؤسسة، وخاضع لمحاسبة الجمهور العريض الذي يقف وراء هذه المؤسسة، وهو أمر مفقود في النائب خارج هذا الكيان والذي لا يجد مرجعًا له في مواقفه اليومية والتفصيلية إلا نفسه، وإن كان يشعر بشيئ من الرِّقابة العامة الاجتماعية غير الثَّابتة والمنظَّمة.

وإنَّ النائب القوي في الكتلة الموحَّدة؛ ليزداد شعورًا بالقوة والدَّعم والثَّقة، وإذا كان على ضعف وُجد ما يجبرُّ ضعفه بمقدار من الكُتلة مما ينهض به.

والنائب المنفرد محروم من كل ذلك.

إنَّ تجربة الكتلة الموحَّدة قد أثبتت جدارتها بما لا يدع شكًّا في ذلك، وكان الاعتماد على توحيدها في محلِّه.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٤٢٣) ٢٨ شوال ١٤٣١هـ، ٨ أكتوبر ٢٠١٠م.

التَّجربة خير برهان

الكتلة التي يحكمها ميثاق واحد، ومنهج واحد ستمثّل قوة ذات ثقل كبير مؤثّر داخل المجلس، ولن تستطيع المداورات السياسية، واللُّعْبُ السياسية في الأكثر أن تُفتّتها لصالح سياسة الحكومة، أو لصالح أي جهة أخرى.

جَرَّبْنَا الأصوات الملتحقة في تجربة المجلس الوطني الأسبق، وفي تجربة المجلس التأسيسي، جَرَّبْنَا الأصوات الملتزمة، وجَرَّبْنَا الأصوات الملتحقة وجدنا من الأصوات الملتحقة تخلفاً في كثير من الأحيان، وتخلياً عن تحمّل المسؤولية.

قد يقف معك موقفاً أو موقفين، ولكنه يتخلّى عنك في الموقف الثاني أو الثالث، وحين يأتي القرار الصعب كقرار التخلي عن النيابة نهائياً يتوقف الكثيرون من غير المبدئيين، ويتوقف الكثيرون من غير أهل الالتزام، والذين أعطوا عهداً من قبل ذلك.

فرقٌ بين أن تدخل بكتلة مبنية مختارة مدروسة، وبين أن تبحث عن جميع كتلة من هنا وهناك بعد الانتخابات، من يقول لك بأن هذا يساوي ذلك؟!

أي جيشٍ يترك بناء صفوفه وتحديد نوعية هذه الصفوف إلى الصدفة، وإلى الموافقات، وحالات الارتجال؟!

من أهداف الكتلة النيابية

١- يراد للكتلة النيابية الموحدة أن تكون؛ من أجل ذلك كلّه، ومن أجل أن يكون للشعب حضوره الفاعل في قضايا المرتبطة بحاضره ومستقبله، وذلك من خلال هذه الكتلة ودورها المنتصر للحق.

٢- هي للوحدة لا للفرقة والشتات.

٣- للدور الإصلاحي الجاد لا للصراعات الشكلية المضيّعة للوقت المنسية للحق، المبعثرة لوحدة الشعب، المؤدية للكوارث.

٤- إنها للتعاون على الخير، وتصحيح المسار، وتركيز قضية الإصلاح الصادق.

٥- ومن أجل مصلحة الوطن كله، والشعب بكامله.^(١)

الكتلة الانتخابية والبرلمان

هذه صور لمجلس نيابي قادم، فاختاروا الصورة التي ترون:

- مجلس كله موالة للحكومة، وهذا له مترشحاته؛ تترشح عنه قوانين، وتترشح عنه توصيات، وتترشح عنه مواقف ليس منها ما يسر الشعب.
- مجلس كله معارضة، وهذا المجلس لا يتحقق اليوم، ولن يتحقق غداً، فداءً للحكومات قادرة على أن تجد لها ممثلين في داخل المجالس النيابية.
- وفي ظل أرقى دستور، فإن المال ساحر، والمال بيد الحكومات أكثر منه بيد المعارضة.
- مجلس فيه معارضة ضئيلة، مجلس فيه معارضة مفككة.
- مجلس فيه معارضة بنسبة مؤثرة، وهي معارضة مترابطة، ومنسجمة، وواعية ومخلصة.

أستوي كل هذه الصور عطاءً في الخارج؟!

وهل تأتي النتائج بالنسبة لهذه الصور كلها على حد واحد؟ أم أن ما هو الممكن من كون المجلس فيه معارضة مؤثرة بنسبة معينة، فيه عدد من النواب يمثلون كتلة واحدة مترابطة، ومنسجمة، وواعية، ومخلصة، ومنظمة هو الخيار الأفضل عطاءً حسب الممكن؟

هذه الصورة هي الصورة التي يمكن أن يُعَوَّل عليها، الصورة المثلى وهي أن يكون مجلس كله.

١- خطبة الجمعة (٢٦١) ٩ ذي القعدة ١٤٢٧هـ، ١ ديسمبر ٢٠٠٦م.

معارضة صورة ليست بيد هذا البلد، ولا بيد أي بلد آخر، صورة لا يمكن أن تكون من عطاء هذه الظروف، ولا من عطاء أي ظروف أخرى، الشيء الممكن دائماً أن يمثل الشعوب بكتلة نيابية مؤثرة قادرة على خوض الصراع، وإدارة الصراع بكفاءة.^(١)

القائمة الموحدة والمستقلين

قلنا بالقائمة الموحدة لا بقائمة خاصة موحدة، وأرجو أن نمتلك الفهم المفرق. قلنا: بضرورة القائمة الموحدة لا بقائمة خاصة موحدة، وقد كان يُرتقب للقائمة الشاحصة أن يدخل فيها أطراف أكثر مما هي عليه الآن. قلنا: بالقائمة الموحدة وباب الترشيح كان مفتوحاً، وكان لأي مستقل أن ينضم في ذلك الوقت إلى تلك القائمة لوقبله أهل القائمة. وقلنا: بذلك بالقائمة الموحدة، ونحن نحتمل في ذلك الوقت أن يكون أقرب الناس لنا نسباً، أو سبباً يتقدم؛ للترشح مستقلاً. فأنا ما تكلمت في مواجهة المستقل الأجنبي، حبّذت القائمة الموحدة، وأنا أحتمل أن ابن عمي، أو ابن خالي، أو أن صديقي يتقدم؛ للترشح مستقلاً، فضّلت القائمة الموحدة في حين أحتمل أن قريبي، ومن كان بيني وبينه نسب مصاهرة، أو نسب صداقة أن يتقدم؛ للترشح. ولقد أنصفنا المستقلين، وقلنا: بأنه قد يوجد مستقل أكثر كفاءة من منتسب للقائمة، ولكن تبقى قيمة القائمة الموحدة حتى عند ذلك محفوظة.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٧) ١١ شوال ١٤٢٧هـ، ٣ نوفمبر ٢٠٠٦م.

٢ خطبة الجمعة رقم (٢٥٩) ٢٥ شوال ١٤٢٧هـ، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٦م.

(٩)

المعارضة والعمل النيابي

لا بدّ من معارضة

المعارضة إنما تُفترض حيث يكون هناك ما يُعارض، وما لا ينبغي أن يكون، حيث يكون انحراف، حيث يكون ظلم، حيث تكون أوضاع سيّئة، ولأن هذا الموضوع يكاد يكون قائماً في كل بلدان العالم، وهو قائم هنا بشدّة، فلا بدّ من معارضة.

هدف المعارضة

أما هدف المعارضة، فيختلف من بلد إلى بلد، ومن حالة إلى حالة، هدف المعارضة في البحرين فيما ينبغي أن يكون هو تثبيت خطّ إصلاح، وتنفيذه، وإعطاؤه الجدية الكافية، وأن لا تتقف حركة الإصلاح، وأن لا يلتف عليها، وأن لا تكون شكلية.

هدف المعارضة هنا ينبغي أن ينصبّ على قضية الإصلاح، وتقويم الأمور، والتطوّر بالأوضاع إلى ما هو أحسن، وإلى ما يحقّ العدل، ويحقّق كرامة المواطن.

آليات المعارضة

آليات المعارضة تعتمد على نمط المعارضة، المعارضة مرّة تكون سياسية، ومرّة تكون غير ذلك، - ويكاد يجمع كل المعارضين في البحرين على أن المعارضة من النمط السياسي -، والمعارضة السياسية لا بدّ أن تكون آلتها سياسية كذلك، ومناسبة مع الطابع السياسي.^(١)

١ - خطبة الجمعة رقم (٢٥٦) ٤ شوال ١٤٢٧هـ، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٦م.

استراتيجيات المعارضة السياسية

قد تختلف المعارضة مع الحكومة في بعض مواقفها، وقوانينها، ومشاريعها، ولا بد أن تختلف معها فيما تراه ضاراً بالشعب، غير مستقيم مع العدل والدين، ولا بد من مطالبتها بخلافه.

لكن اختلافها معها ينبغي أن لا يعني أبداً اختلافاً منها على النظام يهدف إلى أي مشاركة في إسقاطه.

أما التفكير بالاستعانة بأمريكا، أو أي قوة خارجية إسلامية، أو غير إسلامية فيما يتعلق بمثل هذا الأمر وهو أمر الإسقاط وتفتيت حالة الأمن، فنحن نضع أمامه ألف إشارة حمراء من وحي الرشد، والحكمة، والحفاظ على أمن الوطن، ومصلحة المسلمين.

وإيماننا راسخ جداً بأن المشكلات الداخلية حلها داخلي، وخيارنا المطالبة السلمية والحوار لا الاحتراب، ويؤسف جداً أن خيار الحوار معطل من قبل الدولة، والأزمة ليست صعبة لو تراجعت الحكومة عن تصلبها ومالت إلى ما يميل إليه الآخرون من قضية الحوار، وبدون ذلك سيطول مدى الأزمة، والشدة والجذب من هنا وهناك، وهذا ما لا نحمد عقباه، ولا ينبغي أن يكون خيار الحكماء.^(١)

الإسلام هو الهدف الاستراتيجي للمعارضة الإسلامية

وليعلم المعارضون السياسيون باسم الإسلام في أي مكان أنهم لن يقدموا للإسلام، ولا للمسلمين شيئاً يذكر ما لم يضعوا جماهير الأمة على طريق الإسلام الواضح، ويعملوا على تربيتها التربية الإسلامية الحقّة، ويوفّروا لها رؤية وبصيرة وهدفاً وأخلاقية إسلامية صدقاً وحقاً.

١- خطبة الجمعة (٢١٠) ٢٧ رجب ١٤٢٦هـ، ٢ سبتمبر ٢٠٠٥م.

وليعلم الحريصون على سلامة الدين وبقائه، والذين تتمزق نفوسهم لأنواع الفساد المستشري في الأمة أن فساد السياسة فساد لكل شيء، وأن علاج الفساد السياسي ضروري لعلاج الساحات الأخرى من حياة الأمة وواقعها، وغير الدين لا تصلح به السياسة.

من أين جاء الفساد في السياسة؟

من تخلي الساسة بقدر وآخر عن الدين، ولو وصلت ساسة تحت أي اسم إلى مواقع الحكم والقوة في أي مكان وزمان، ولم يكونوا على دين صحيح رصين لعادت الحال إلى ما كانت عليه من فساد، وربما وجدت أكثر.

إذا لم نرب أنفسنا وشعوب الأمة على الدين، فلسنا على طريق الإصلاح أساساً.^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٦٦) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، ٢٤ أبريل ٢٠٠٩م.

(١٠)

المشاركة والمقاطعة للانتخابات

آليتان للمعارضة

المقاطعة والمشاركة آليتان سياسيتان من آليات المعارضة.

وتأخذ المشاركة جدّيتها، وأهميتها، وربما وجوبها من حيث كونها آلية ضرورية من آليات الصراع الذي ليس أمامه كثير من الآليات المنتجة، ولا توجد في التقدير آلية أخرى أكبر إنتاجاً من هذه الإنتاجية حتى آلية المقاطعة، وهي آلية لها قوّتها لم تستطع أن تحقّق ما تصبو إليه المعارضة.

على أن المشاركة المطلوبة هي مشاركة لا تصدر الدور الشعبي، المشاركة لا تعني تجميد الشعب وحركته لمدة أربع سنوات، النيابة هنا لا تعني نيابة عن ميت، ولا تُعطي للشعب عطلة لأربع سنوات عن دوره السياسي، لا تعفيه عن دوره السياسي، ولا تعطيه عطلة لأربع سنوات في هذا المجال، النيابة ليست لتتقاضى حفنة من المال.

ومع النيابة ومع المشاركة لا بدّ من حضور شعبيّ فاعل حسب اقتضاء المصلحة والحكمة، في تناسق مع دور إيجابي نيابي داخل المجلس؛ ليتكامل الدوران ويصبّأ معاً في مصلحة التّغيير الإيجابي.

لا تعني المشاركة أن قضية الحقوق، وقضية الإصلاح ستكون في ذمّة النواب بينما على الشعب أن ينام عن قضاياها.

على الشعب أن يكون حاضراً في الساحة، وعليه أن يجاهد الجهاد الذي يُحقّق له مطالبه، منضماً دوره إلى دور نيابي صالح.

إنها ليست مشاركة موالاة ومسايرة وإمضاء وبصمة على القرار، إنما هي مشاركة

معارضة ومزاحمة ومحاسبة للجانب الحكومي، وملاحقة لأخطائه وسلبياته.

إنها مشاركة الاحتجاج، والإحراج، والمطالبة، والمجاهدة.

ومنذ هذه المشاركة؟

هذه المشاركة لا تكون من إنسان يبحث عن المال، هذه المشاركة لا تكون من إنسان يبحث عن الجاه.

هذه المشاركة لا تكون من إنسان يلين في المواقف الصعبة فيخسر الحق، هذه المشاركة لرجال أشداء، ولرجال صلاب، ولرجال مبدئين رساليين، ولرجال أكفاء، وكلما كانت الشخصية قد امتحنها الأحداث، وكلما مرّت الشخصية بتجارب سياسيّة وعملية، وأثبتت جدارتها من خلال الامتحان بعد الامتحان كانت أولى بهذا الموقع، لأنه موقع ليس للتشريف وإنما موقع للجهاد.

إنه موقع يحمل صاحبه أن يقول للباطل باطل، وللحق حق، وأن يقف مع الحق ضد الباطل.

لا بدّ من شرط الرسالية.

لا بدّ من شرط الإيمان.

لا بدّ من شرط الكفاءة.

وحينما طُرح أمر الكتلة الواحدة إنما طُرح؛ من أجل أن تكون الجبهة النيابية الرسالية قويّة، ومتماسكة، ومبنية بناءً مرصّوصاً.^(١)

المشاركة والمقاطعة مسؤوليّة دينيّة

المشاركة والمقاطعة من الصعب جدّاً، ومن غير المنسجم دينيّاً أن نقول بأنهما مسألتان أجنبيتان عن الدين، وأن الدين لا دخل له فيهما.

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٦) ٤ شوال ١٤٢٧هـ، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٦م.

الدين يتحدث عن خرقه الحيض، عن قطنه الحيض، يتحدث عن التطهير في الخلوة فحسب؟!

الدين يتحدث وفي آيات كتابه الكريم، وفي السُّنة المطهرة عن الاقتصاد، والحكم، والسياسة، وعن كل ما يمس حياة هذا الإنسان.

«ما من واقعة إلا ولله فيها حكم...»^(١).

أين نذهب بهذا القول؟!

نرميه في البحر؟!

قول: «ما من واقعة إلا ولله فيها حكم حتى أرش الخدش» نتبرأ منه؟!

بلى وبكل تأكيد، إن للدين رأي في المشاركة والمقاطعة، والذين يريدون أن يبحثوا في كتاب الله، وسنة رسوله عن عنوان المشاركة، وعن عنوان المقاطعة فلن يجدوه، لكن الفقيه يجد أن المشاركة والمقاطعة قد تناولتهما كليات الأحكام الشرعية.^(٢)

المشاركة والمقاطعة أمران خطيران لكونهما يمسان حاضرنا ومستقبلنا على مستوى الدنيا والدين معاً، فليس سهلاً أن آخذ بقرار المقاطعة، وليس سهلاً أن آخذ بقرار المشاركة: كل منهما مسؤولية ضخمة أمام الله وَعَلَيْكُمْ، والأمر أمر دين قبل أن يكون أمر دنيا.

وكل من القرارين يحتاج إلى خبرة ونظر موضوعي بتجرد، ويحتاج إلى فقه، ويحتاج إلى تقوى، فلا يمكن أن يقرّر في المسألة بعيداً عن النظر الموضوعي، ولا يمكن أن يقرّر في المسألة بعيداً عن معطيات الفقه، ولا يمكن أن يقرّر في المسألة من مجتمع مؤمن، ومن إنسان مؤمن بعيداً عن التقوى.

١- ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «... وليس من قضية إلا وهي فيها، حتى أرش الخدش». الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ ص ٢٤١ - تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري - الطبعة الخامسة - سنة الطبع: ١٣٦٣ ش - المطبعة: حيدري - الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.

٢- خطبة الجمعة رقم (٢٥٧) ١١ شوال ١٤٢٧ هـ، ٣ نوفمبر ٢٠٠٦ م.

أخذ القرار بالمشاركة أو المقاطعة محتاج كما تقدم إلى نظرة موضوعية شاملة، يضاف إلى ذلك مطالعة للتجارب المحلية والخارجية، إلى ما هو المهم جداً من النظرة الفقهية وتقوى الله سبحانه وتعالى، والنظر إليه سبحانه قبل النظر إلى الناس.^(١)

المشاركة على وفق مبدأ تقليل الخسائر ودفع الضرر

تقليل الخسائر، وحجم المضار مبدأ شرعي وعقلي وعقلائي، ولا صلة له بحالة الجبن والشجاعة، ولا صلة له بروح الهزيمة والنصر، فليس مَنْ يقول: بأن علينا المشاركة ولو من أجل تقليل الخسائر، وتقليل المضار مهزوماً في داخله، وليس الآخر أقوى منه ولا أشجع، مسألة تقليل الخسائر لا تتنافى أصلاً مع السعي لزيادة المكاسب، وليس من جيش قوي في العالم ولا من دولة قوية في العالم إلا وتسعى وتعمل على خطين: خط زيادة المكاسب، وخط تقليل الخسائر، فواعجابه كيف يأتي القول بتقليل الخسائر من باب الهزيمة النفسية؟! كما يريد البعض أن يقول.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٤) ١٩ شهر رمضان المبارك ١٤٢٧هـ، ١٣ أكتوبر ٢٠٠٦ م.

٢- خطبة الجمعة رقم (٢٥٦) ٤ شوال ١٤٢٧هـ، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٦ م.

الجزء الثاني

الفصل السَّابع

قضايا سياسية معاصرة

(١)

قضية الطائفية

مشروع الفتنة الكبرى

مشروع الفتنة الذي يُحرّك ضدّ الأمة هذه الأيام، وتجرّ إليه بقوة وعنف ومكر ودهاء، ليس مشروع فتنة عادية، وإنما هو مشروع فتنة كبرى طاحنة مستأصلة، تبدأ ولا تكاد تنتهي، تهدم ولا تبني، تدمّر وتتسّف، وتجرف، ولا تستثني قطراً من أقطار الأمة من لهب وشر ومأساة، ولا تبقي للمسلمين صدق دين، وإنسانية وحضارة.

فتنة طائفية مجنونة، جارفة، حارقة، مهلكة، مستبحة لكل ما حرّم الله على المسلم من أخيه في الدين^(١).^(٢)

وإنما اختير لهذه الفتنة أن تكون طائفية انتقاماً من توجّه الأمة لإسلامها، وحنينها للعودة إليه، وبداية هذه العودة وتفعيلها.

أضف إلى ذلك أنها^(٣) الأنسب؛ للاستغلال السيئ الخبيث للروح الدينية التي أخذت تسري بقوة وحيوية في عروق الأمة ودمها.

ولو كان التوجّه قومياً عند مكوّنات أمتنا لاختير للفتنة أن تكون قومية؛ للإجهاز على وحدتها.

وهناك أطراف تتلاقى على تحريك الصراع، وإثارته، وتغذيته مستخدمة التعددية المذهبية في الأمة أداة؛ لإشعال الصراع الذي ليس مثله في القوة التدميرية، والقدرة على الاستقطاب لون آخر من الصراع إلا ما كان بين أهل ديارتين متباينتين خطّط لهم أن يتخلّوا عن قيم الدين، ويرفعوه شعاراً للصراع.^(٤)

١- التنفيذ لهذه الفتنة قائم على قدم وساق.

٢- لماذا اختير لها أن تكون طائفية لا قومية مثلاً؟

٣- أي الفتنة الطائفية.

٤- هتاف سماحة الشيخ وجموع المصلين بـ(إخوان سنة وشيعة، هذا الوطن ما نبيعه).

هناك طرف خارجي أرعبه تحرُّك الوعي الإسلامي عند الأمة وشوقها للإسلام، وبداية التحرُّك على خط اللحاق بأفقه البعيد.

وهناك حكامٌ من حكام الأمة ممَّن لا يهمهم من أمر الإسلام شيءٌ إلا خوفهم من عودة الأمة إليه.^(١)

وطرف ثالث هم أصحاب النظرة المذهبية الضيقة، وممَّن لا يملكون نظرة صحيحة للإسلام من أيِّ مذهب كانوا.

هذه الفتنة أوَّل ما تقضي عليه موقعُ الأمة في واقع الحياة، وأوَّل ما تفعله تحويلها إلى سلعة رخيصة بيد الأعداء، وجعلها قِسْمَةً بين الأمم.^(٢)

وفيها قضاء على أصالة الإسلام، وصدقته في الأجيال الوارثة.

أما خسائرها، فأكبر ممَّا يُتصوَّر، على كل المستويات، وبصورة شاملة.

مسؤولية كلِّ مسلم يهمله أمر الإسلام، وأمر الأمة، ولم تسلب عقله العصبية العمياء، ولم يُذهب جهله حكمته، ويعرف ما عليه الإسلام كُلُّه من أنَّ للمسلم حقوقاً لا يُسقطها خلاف المذاهب، وأن حرماته مصونة في دين الله أن يعمل جاهداً على درء هذه الفتنة الكبرى، وإحداث أيِّ عرقلة ممكنة في طريقها، وأن يحول بينها وبين أن تبدأ، وتنطلق من أيِّ بلد من بلدان المسلمين ما أمكن، ومن بلده بالخصوص.^(٣)

العلاقة بين الطوائف

هل نختار الصراع الطائفي، أو التقارب والتعاون بين طوائف المسلمين؟

المؤكد أن الصراع والاقتتال بلا سند من دين ولا عقل ولا مصلحة وطنية، وكان هناك حديث متسلسل بهذا الصدد طرحت منه حلقتين، وتركت الباقي، لأن خطبة الجمعة ليست محلاً للدراسة والتحقيق.

١- هتاف جموع المصلين بـ(لبيك يا إسلام).

٢- الفتنة الطائفية ستؤدي إلى أن تكون هذه الأمة مائدة تقتسمها الأمم.

٣- خطبة الجمعة (٤٨٩) ١٠ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ، ٣ فبراير ٢٠١٢ م.

نعم، الصراع والاقتتال بين طوائف المسلمين، كاذب من ادّعى أن له سنداً من دين أو عقل أو مصلحة، وإذا وُجد مذهب يؤسّس للفتنة والاقتتال، فهذا يكشف عن زيفه.

السند مع التقارب والتعاون، فكل التكاليف الاجتماعية الإسلامية التي يتحدث عنها القرآن الكريم، والسُّنة المطهّرة هي موجّهة لهذا المجتمع المسلم بسنّيه وشيعيه، التكاليف الاجتماعية التي يستمر بها الإسلام، يقوى بها الإسلام، يُحافظ بها على الإسلام، تكاليف تشمل كلّ المسلمين الذين يؤدون الشهاداتتين، ولا ينكرون ضرورة من ضروريات الإسلام الواصلة إليهم بكل مذاهبهم مَنْ كان ملتزماً كل الالتزام، ومَنْ كان غير ذلك.

العقل لا يمكن أن يحكم باقتتال فيه مفسدة الجميع، ومضرة الجميع، وكل المجتمعات العقلائية تعمل على رأب الصدع، وعلى توحيد الصف، ولو من أجل المصالح المشتركة، والمصلحة الوطنية في مهبّ الريح مع الفتنة والاقتتال، المصلحة الوطنية لا يمكن أن تحفظ إلا بالتقارب والتعاون على الخير.

ما هي الأرضيات للتقارب؟

هناك أرضيات متصوّرة للتقارب، ويطرح على مستوى بعض العناوين:

١- الحسّ الوطني: هل الحسّ الوطني هو الأرضية الأصح لأن يقوم عليها التقارب والتعاون على الخير؟

الأخذ بمبدأ الحسّ الوطني، واعتماده للوحدة أو التقارب يعني إلغاء للمذهبيّة، وأن يكون الولاء للوطن ولو على حساب المذهب، وهذا لا يقبله شيعي ولا سنيّ.

حيث تتصادم مصلحة يُتصوّر أنها مصلحة وطن مع أساسية من أساسيات المذهب السني، أو مع أساسية من أساسيات المذهب الشيعي، فما بقي السنيّ سنياً فهو غير مستعد لأن يُضحّي بأساسية من أساسيات مذهبه، وكذلك الشيعي.

والحسّ الوطني يعني أن كل الحسابات منصّبة على هذا الحس، وعلى هذا الانتماء،

وعلى هذه المصلحة، ولو كان في ذلك تحطيم السنّي خارج الوطن، وتحطيم الشيعي خارج الوطن.

الوطن قبل كل شيء.

فمعناه السنّي، أو الشيعي في السعودية، أو في العراق لا شيء أمام مصلحة هذا الوطن، أو ذاك الوطن.

٢- **الحس القومي:** فيه إلغاء للمذهبية، وأمامنا حالة التعدد القومي في الوطن الواحد، فكيف نفعل؟

٣- **التوجه العلماني:** وهذا ما يطرح في الصحافة أحياناً، وأنه منقذ من الطائفية، والتوجه العلماني معناه، إلغاء الانتماء الديني والمذهبي، أو ضعفه وإسقاطه أمام الحالة العلمانية ومقتضياتها.

والتوجه العلماني تعصب من نوع جديد نراه مدمراً في تركيا، وباسم العلمانية تُشنّ الحروب الداخلية وباسمها تسقط حكومات وكيانات سياسية ذات توجه ديني، فالعلمانية إذا أخرجتنا من عصبية تدخلنا في عصبية جاهلية أخرى.

٤- **الفهم الديني:** الفهم الديني هناك فهم سيئ للدين، وهذا لا يصلح أرضية للتقارب، وإنما هو منبع التباعد، والفتنة، والاقتتال.

أناس لا يفهمون الدين على واقعه، ولا يفهمون مقاصده، فيسيئون الفهم له، وباسمه تتحرك العصبية العمياء؛ لتقتل، وتسفك، وتشر الفساد والرعب في الأرض.

كان هذا الفهم منتسباً إلى التشيع، أو إلى التسنن لا فرق.

أن يكون هناك مذهب فتاك في أصوله ومركزاته، وبعيد البناء عن قيم الإسلام وفكره الأصيل، فهذا مذهبٌ بليّة، وهو يكشف عن ضلاله وغيّه وبعده عن الإسلام.

ومذهب يمتهن الفتنة، والقتل، والسفك للدم المسلم لو وجد لا بدّ لأتباعه أن يراجعوه، فإنهم لا بدّ أن يعثروا على خطئه، وغريب أن يخفى خطؤه في ظلّ الوضوح

الإسلامي في مجال الحرص على الأمن والسلام والتعايش السلمي ما أمكن.

نعم، غريب أن يخفى خطؤه على أحد.

الفهم الديني الصحيح يتركز على مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١) مما فيه تثبيت لأصل العدل والإحسان، وما فيه دعوة إلى التعاون على الخير، وعدم التعاون على الإثم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢)، وكم من إطلاقات لتعليمات قرآنية ونبوية، ومعصومية عامة تدعو إلى التوحد وإلى التقارب والتفاهم، والحوار الجميل، وتتأى بالمسلم عن أخلاقيّة العصبية، والوحشية، وأخلاقيّة الاستخفاف بالدماء، والأعراض، والأموال.

فالتجربة: إن إنهاء حالة الطائفية العملية المتكررة للحقوق والواجبات، والتي تعني العداوة والبغضاء والافتتال بين المسلمين يتوقف على شيء واحد هو أن نفهم الدين بصورته الصحيحة.^(٣)

الطائفية الدينية والمذهبية

إيانا والطائفية الدينية، والطائفية المذهبية، فإنها محرقة عامة، وإرهابها أشر إرهاب.

والطائفية المذهبية ليست على يد الحكومة فحسب، وإنما على يد كتاب وكتاب، وهي تُرسّخ في هذا البلد، وعلينا أن نعمل جاهدين؛ لتخفيف الوضع الطائفي، وبث ثقافة التسامح، وثقافة الإخاء، وثقافة المحبة، وأخوة الإسلام والمحبة في الله تبارك وتعالى. وعلى الحكومة أن تعدل، أن تُتصف، أن تساوي بين مواطن ومواطن؛ لئلا تشتعل نار الفتنة.^(٤)

١- النحل: ٩٠.

٢- المائدة: ٢.

٣- خطبة الجمعة (٢٩٨) ١٧ شعبان ١٤٢٨هـ، ٣١ أغسطس ٢٠٠٧م.

٤- خطبة الجمعة (٢٠٧) ١ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ٨ يوليو ٢٠٠٥م.

الطائفية شرٌّ مستيطر يساعد على القضاء السريع على الأمة كما يريد أعداؤها.

الطائفية تعني حرباً داخلية تقضي على وحدة الأمة، وعلى إمكاناتها، وعلى وقتها الذي يجب عليها أن تستثمره في صالح بنائها، ومواجهة عدوها، الطائفية تعني مواجهة الإخوة مواجهة لا تبقي من أخضر ولا يابس.

فهي خطر مدمر ليس من تقى أولاً، ثم ليس من عاقل ثانياً يعمل على تغذيتها، أو أنه يملك أن يوقفها فلا يوقفها.

والوقت وقت حساس وبالغ الخطورة، وكل البلاد الإسلامية مشتعلة بحرب مصيرية مع أعداء الله في الأرض.

فنحن مهددون من الخارج، فأَنْ يأتي مع ذلك تهديد داخلي وهو إثارة مسألة الطائفية، يكبر الخطر، وتتعاظم المحنة.

مَنْ يقف وراء الطائفية داخل بلدنا؟

الطائفي ومغذي الطائفية: محتمل أن يكون هذا الطرف، أو ذاك الطرف، أو أكثر من طرف:

الجهات المحتملة وراء تأجيج الطائفية

- ١- القرار الرسمي في العديد من مواقعه.
 - ٢- الكتابات التي تلاحق الملف الطائفي، ووقائعه الشاهدة.
- وأقف هنا: إذا كانت الكتابات بلا موضوع فهي المسؤولة، وإذا كانت الكتابات وراءها موضوع، فالمسؤول هو منشأ ذلك الموضوع.
- يعني إذا كانت الكتابات عن الطائفية وراءها واقع طائفي، فليست هي المسؤولة، وإذا لم يكن وراءها واقع طائفي واختلقت الطائفية اختلاقاً، فهي المسؤولة، ويجب أن تحاكم.

فهنا نحتاج إلى تحقيق، وليكن هذا التحقيق بعيداً عن الاستشارات الصحافية، وليس الغرض أن ننشر ضجة، وإنما أن نصل إلى حلّ.

فإذا كان الحل ممكناً عن الطريق الهادئ، وعن طريق التفاهم، وبناء على الاستقراء العلمي الصادق؛ لتعالج المشكلة، فهذا هو المفضلّ.

والصحافة ليس لها أن تلجأ إلى كشف الواقع بما قد يخلق نوعاً من الاختلاف، وسوء الظن إلا حيث تتعذر تلك الوسيلة.

افتحوا باب الوسيلة الأولى، فهي مفضّلة جداً عندنا على الوسيلة الثانية.

٢- الكتابات التي تمتهن شتم مذهب معين، ولا تكف عن ذلك.

وهذا أيضاً يحتاج إلى تحقيق.

٤- توزيع الأشرطة والكراسات الشاتمة والمزيفة للحقائق، والتي تصل إلى الطالب والمعلم في مدرسته، وإلى الموظف في دائرته، وقد تصل إلى البيوت من خلف الأبواب.

المطالبة به الحكومة هي أن ترصد الظاهرة تماماً، وتتبعها تتبعاً علمياً، وتحمل نفسها المسؤولية التي تتحملها واقعاً، ثم تحمل الآخرين ما عليهم من مسؤولية.

٥- جمهور الطائفتين.

وفي نظري أن جمهور الطائفتين، والشارع من الطائفتين هو الأكثر أمانة في هذه المسألة وانضباطاً وحرصاً على الوحدة.

٦- علماء الطائفتين المشهورون المقدرين عند جمهورهم.

وفي نظري أن هؤلاء العلماء هم شديدي الحرص على الوحدة، وهم أتقى وأورع وأعقل من أن يحركوا مسألة الطائفية.

أؤكد أن المسألة تحتاج إلى تحقيق؛ لتصحيح الوضع ودرء الخطر لا لإغماض البصر.

ونقول كما سبق: لا إصرار على التشهير والفضح وهو آخر ما ينبغي أن يصار إليه،

ولكن الإصرار على الحل.

وإذا كانت الصحافة مطالبة باللغة الهادئة - ونحن نطالبها بذلك، وباللغة العلمية - ونحن نطالبها بذلك، وبأن تكون حريصة جدًا على وحدة البلاد، وعلى العلاقة الإيجابية بين الشعب والحكومة، فإن الحكومة مطالبة بذلك كله بدرجة أكبر وأكبر.

والكتابات تذكر أن هناك ممارسات رسمية طائفية، ولا تقول بأن هناك طائفية على مستوى الشارع، ولا تدعو إلى طائفية بين أفراد الشعب.

علينا جميعًا أن نكون متبصرين عقلاء رزينين مقدرين للعواقب، والعواقب وخيمة جدًا إذا كانت الحكومة - وهي مطلوب منها أن تكون شديدة الحرص على وحدة الوطن - تضرب على هذا الوتر.

الشَّرُّ يَعْمُ

فليراجع الإسلاميون الشتامون للمذاهب الإسلامية، الممزقون لوحدة المسلمين الإسلام مراجعة ممعنة، وليستفتوه واعين غير عمين، فإنهم لن يجدوه أبدًا يهدم وحدة المسلمين، ويمزق صفوفهم.

وليراجع السياسيون بإذن مفتوحة لا صمّاء المصلحة الوطنية، ويراجعوا القيم الإنسانية وقيم الدين، ومصلحة الحفاظ على الدماء والأعراض والأموال والمكاسب الوطنية، فلن يجدوا أن واقعًا القارب الواحد المشترك يسمح لهم بأن يعملوا على التفرقة؛ ليضمن طرف السلامة بغرق الطرف الآخر، فإن غرق القارب الواحد ليس من شأنه أن يجعل غرق طرف مقدّمة لنجاة طرف، إنما غرق القارب الواحد غرق لكل أهله في الغالب.^(١)

قد ينطلق صوت الطائفية من مسجد، ينطلق من ساحة اجتماعية، من ساحة سياسية، من أي ساحة من الساحات في أي قطر من أقطار البلاد الإسلامية.

للطائفية لغتان: لغة لفظية، ولغة عملية، وكلّ منهما لغة فعّالة مفسدة، تهدم الصالح

١ خطبة الجمعة (١١٥) ١٢ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ ١٣ يونيو ٢٠٠٣م.

من البناء، وإذا كان لها أن تقيم شيئاً، فإنما تقيم عمارة خراباً.

ولا أرى في الطائفية المجنونة إلا أنها تهدم كل خير، ولا تستطيع أن تقيم على الأرض صالحاً.

الطائفية استعداد من طرفٍ لطرف، واستباحة إضرار به، وشرخ اجتماعي واسع، وتربية أجيال على الكراهية، وسلب حقوق، وإسقاط قيمة، ومشاعر بغضاء بلا عقل ولا إيمان.

وطائفية الكلمة - أي التي تأتي عن كلمة - لا تبقى طائفية كلمة، وإنما تمتد إلى كل مساحات الحياة؛ لتصبغها بلون الطائفية السوداء الكالحة.

وطائفية منطقة لا تبقى طائفية منطقة، إنما من شأنها أن تمتد إلى كل مناطق المسلمين، وإلى كل أقاليمهم؛ لتتشر الخراب، لتتشر البغضاء، لتتشر سُنّة الاحتراب.

فإذا حدثت طائفية في العراق، فعلينا أن نفكر فيها هنا، إذا حدثت طائفية في الكويت فعلينا أن نفكر فيها هنا، إذا حدثت طائفية هنا فعلى كل المسلمين أن يفكروا فيها؛ للتخلص منها.

وطائفية المساجد لا تبقى طائفية مساجد، وإنما تخترق كل الجدران، وكل الأبواب، ولو كانت الجدران محكمة، ولو كانت الأبواب موصدة لتدخل الجامعة، لتدخل الدائرة، لتدخل السوق، لتدخل كل قرار، لتدخل أفكار الصبية، أفكار الصبايا، أفكار الشيوخ، أفكار كل الأعمار؛ لتدمر، لتفسد، لتحوّل الحياة عذاباً.

والطائفية منطلقاً هي إمّا:

١- سياسية مربوطة بسياسة داخلية، أو سياسية مربوطة بسياسة خارجية، وكلّهما شر.

كلّ سياسة تتخذ من الطائفية مركباً؛ لتثبيت قدمها هي سياسة شرّ قتالة لنفسها والآخرين.

٢- وقد يكون منطلق الطائفية هو الحق العام على الإسلام من غير المسلمين، ومن

أعداء داخلين في المجتمع الإسلامي.

٢- ويأتي منطلق آخر خطير - أيضاً - وهي العصبية العمياء بخلفية من تربية جاهلة لا تعرف الإسلام، ولا تقدّر الأمور، وتقوم في تنشئتها للجيل على الكراهية البغيضة للمسلمين، والاستخفاف بكل فهم للإسلام غير الفهم الذي تربّت عليه حتّى لو كان هذا الفهم سقيماً.

فلا بدّ من بعد ذلك من تيارٍ عام داخل المسلمين، تيار معتدل يرفض الدعوات والمواقف الطائفية، ويدينها بصورة مبكّرة، وبشكل جدّي حازم.

وحين تثار الطائفية في أي بلد يجب أن يهبّ ضدها كل المسلمين، لأنها لن تحرق طائفة منهم فحسب وإنما ستكون محرقة كل الطوائف والفئات.^(١)

الطائفية السياسية

البلية كل البلية في الطائفية السياسية، والطائفية السياسية ماذا تعني؟

تعني محاولة إقصاء طرفٍ لطرف، محاولة تقزيمه في أعماله من ناحية مالية، من ناحية ثقافية، من ناحية أمنية، هنا تجري محاولة دائمة؛ لإقصائه، وطرده عن مواقع التأثير، عن مواقع النمو، عن مواقع الرشد، وما إلى ذلك.

الطائفية السياسية تعني استعمال الموقع ضد طائفة معينة، تعني تسخير الطاقات والإمكانات في هذا البلد أو ذاك؛ من أجل ملاحقة طائفة معينة في مستواها العلمي والثقافي والاقتصادي، وما إلى ذلك.

الطائفية السياسية مصدرها الأقوى!

هذه الطائفية في العادة من أين تبدأ؟

هل تبدأ من القاعدة، من الشعب؟

أو تبدأ في العادة من السُّلطة؟

١- خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤م.

المعقول والذي يسمح به الواقع العملي أن الضعيف لا يتحرش بالقوي، وأن الضعيف يحاول أن يمهّد الطريق للمصالحة مع القوي حتى تسلم له بعض مصالحه، والسُّلطة بما تملك من إمكانات، وفي تقدير من التقديرات، وفي حالة السلم أقوى من الشعب، الشعب أقوى من السُّلطة حين تهب ريح الفتنة، وحين تشتد وتشتعل نارها، أما في حالات السلم فالسُّلطة أملك للأمر، والناس كل الناس ليسوا طلاب فتنة وتتعبهم الفتنة، ويحبون الراحة والاسترخاء، ويحبون التفرغ لأعمالهم ولأفكارهم ولنموهم الذاتي ولمصالحهم الشخصية، في المتصور أن الحرب الطائفية، وأن الفتنة الطائفية، وأن الطائفية السياسية، إنما تبدأ من موقع السُّلطة، وربما استجابت لها الشعوب بسرعة، وإن كان عن غفلة منها.

المطالبة بالعدالة نقيض الطائفية

الشعوب تطالب بالعدالة، المستضعف والمظلوم والمحروم يطالب بالعدالة، فإن كانت المطالبة بالعدالة طائفية كان بذلك أن أمر الطائفية منطلقه الشعب.

إذا كانت المطالبة بالعدالة تعني الطائفية، فالشعب صحيح بهذا الفهم المغلوط أنه يكون منطلقاً للطائفية، لكن في الحق أن المطالبة بالعدالة، المطالبة برفع المحرومية، المطالبة بالمساواة لا يمكن أن تكون طائفية، وذلك لسبب واضح جلي، ذلك لأن العدالة نفسها سبب من أسباب الاتحاد، وسبب من أسباب الائتلاف والمحبة والمودة، فكيف ما يكون سبب مودة ومحبة واتحاد يكون سبب فرقة؟!

الذين يطالبون بالعدالة والمساواة إنما يطالبون بمدّ الجسور، وبناء الجسور لحياة المودات والمحبات والاتحاد.

لماذا إلهاب الجوى؟ ودق طبول الحرب، حرب الطائفية؟

أنا في نظري أن الصحافة تخطئ كل الخطأ إذا أحسنت النية حين تحاول إثارة غبار الطائفية.

والطائفية بغیضة ممرّقة، تعبر عن مرض داخلي قاتل فتاك.

من أحب إثارة الفتنة الطائفية من موقع شعبي أو من موقع رسمي، فهو إنما يحاول أن يهدم البيت على غيره وعلى نفسه.

الوطن بيت الجميع، وعلى الجميع أن يرعوا هذا البيت، وأن يحافظوا على بنائه وبناءه لا يستقيم مع الفرقة، والشُّتات، والتناحر.

الصحافة تخطئ حين تثير جُؤاً ملهياً تدّعي أنها تحاول أن تعالج به أمر الطائفية، وهذه الحملة تمثل في نفس الوقت إثارة روح الطائفية والتشنج وإفات أنظار الناس إلى ما يمكن أن يكون منبع فتنة كبرى.

دعاة الطائفية هادمون لمقدارت الأمة.

أنا واحد من هذا الشعب، ومن الطائفة الشيعية الذي يؤمن بالمذهب الشيعي كل الإيمان - إن شاء الله -، وفي نفس الوقت أعادي الشيعي الذي يحاول أن يثير فتنة طائفية، وأواجه الشيعي الذي يحاول أن يثير فتنة طائفية، وأواجه الصحافة التي تحاول أن تثير فتنة طائفية، وأواجه السُّلطة ما استطعت إذا حاولت أن تثير الفتنة الطائفية. فلنبقَ إخوة، وإخوة مسلمين متحابين.

فليضع كل منا يده في يد الآخر؛ من أجل بناء وطن واحد متماسك يعمر بالمحبة والمودة، ويسير على هدى الله، وفي طريق الله، وعلى أساس من العدل.

وإن لي وصية واضحة للحكومة في البحرين، وغير البحرين: بأن تأخذ بالعدل، وتتمسك به، وتأخذ بالمساواة، وتتمسك بها؛ من أجل إقامة بناء وحدوي متين سميكَ قوي فولاذي يقف أمام كل الأعاصير.^(١)

الطائفية ذلك الشبح المخيف

ربما بدأت بوادر طائفية تطفح على السطح في العراق منذرة بتفجر خطير، وهي أمنية سعى إليها المحتل الأجنبي والإرهابيون في العراق على السواء، وطائفية الخطف والذبح واستباحة المال والعرض والدم كفرٌ عملي لا إيمان - وقيد الكفر بكونه عملياً لمن

١ - خطبة الجمعة (١٧) بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٧ يولييه ٢٠٠١م.

يفهمه - وجاهلية لا إسلام، وهي تمثل مصيرًا أسود ينتظر الإنسان والأرض باليابس منها والأخضر.

ويرجى للعراق ألا يسقط في محرقة الطائفية البغيضة بدرء من الله، ثم بجهد الواعين المخلصين المشفقين على مصير الإسلام والمسلمين من أبنائه والقوى الإسلامية الخيرة من خارجه.

وعلى البحرين أن تشارك حكومة وشعبًا ما استطاعت في إطفاء هذه الفتن وأمثالها وأشباهها في العراق، وأي بلد آخر من بلاد الجوار وغيرها من أقطار الأمة المسلمة، وأن نحذر جميعًا من استيراد مثل هذه الفتن القاضية من الخارج، أو التأسيس لها ابتداءً من الداخل، فإنها خيار المجانين.

والأمة إذا لم تتكرر هذه الجرائم البشعة مجاهرةً بإنكارها، وإذا لم تقف في وجهها بكل الوسائل الممكنة، فهي أمة مضيعة لدينها، خائنة لأمانتها، متعرضة لغضب من الله وعذاب أليم.

والصحيح أن تدان هذه الجرائم النكراء من أهل أي مذهب إذا كان مرتكبها من أبنائه قبل أهل المذهب الآخر.

إذا كان مرتكب جريمة من هذا النوع شيعيًا، فعلى الشيعة أن يكونوا هم المبادرين؛ لإدانة هذا الجرم حتى لا يُحمل رد الفعل على الطائفية.

وإذا كان المجرم سنيًا كان على الإخوة السنة أن يكونوا هم المبادرين في الإنكار، وأن يقفوا في وجه الجرم وقفة حقيقة جادة، لأن رد الفعل الشيعي ربما حُمل على الطائفية.

ومن أراد الاحتراس لبلده من فتنة الطائفية أو غيرها، فلتنك كلماته محسوبة، وطرحه معتدلاً، ومشاعره منضبطة، أخذًا على نفسه احترام الآخر قبل اشتعال نار الفتنة، فرب كلمة أشعلت نارًا لا تنطفئ إلا بعد أكوام من الكوارث المهولة، ورب خبر كاذب مغرض ودعاية سيئة في هذا الباب أشعلت نار حرب ببلد، فأحرقته.

فلنتق الله في دماء المسلمين، وحرمة أهل القبلة، فأني شهادة سيؤديها نهر دجلة بين

ييدي العدل الحكيم وهو يفيض بدماء الأبرياء من أهل القبلة، وتتقاذف أمواجه جثث المؤمنين شبيهاً وشباناً ونساءً وأطفالاً، وهي ممثلةٌ بها.

ألا من عاقل، ألا من غيور، ألا من منكر؟!

إما إنكارٌ، وإلا بلاءٌ وعذابٌ من الله يعمُّ هذه الأمة. ^(١)

لا للطائفية، نعم للحقوق

لا للطائفية شعاراً، دعوة، ممارسة.

لا للطائفية التي تستبيح الآخر، تنقص حقه، تحاول تقزيمه والإضرار به، تسترخص حقوقه، تستهدف تهميشه، ترتاح لمظلوميته، تتأخر عن نصرته عند ظلم مسّه.

لا لطائفية تمزق المجتمع، تقصم عرى الألفة والمحبة والأخوة بين أبنائه، تهدم الجسور، وتحفر الخنادق، وتقطع الصلات، وتوسع الشقة، وتوهن الإسلام، وتطمع فيه أعداءه.

ونعم للاعتراف بالحقوق والمشاركة العامة في المطالبة بها حتى إقرارها.

وإذا كنا شيعة وسنة، فإن الإسلام يرفع حقوق الجميع، وإن المواطنة الواحدة قاعدة لحقوق ثابتة مشتركة.

وهنا ينبغي التنبيه على أمرين مهمين:

١- ينبغي أن لا يتضايق الشيعة من وصول إخوانهم السنة لشيء من حقوقهم، وإنصاف الحكومة لهم والتوسعة عليهم في الوظائف، والخدمات، والمشاريع الدينية والثقافية، وغيرها مما يشارك في راحة الحياة، وتقدم المستوى.

والصحيح هو أن يفرح المسلم لخير أخيه المسلم.

فهنيئاً للأخوة السنة أن يوسع عليهم، أن ينالوا حقوقهم، أن يتقدم مستواهم.

١- خطبة الجمعة (١٩٦) ١٣ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٢ أبريل ٢٠٠٥م.

٢- من حق الشيعة بل من واجبهم أن يطالبوا الحكومة بكامل حقوقهم من حيث إنهم مواطنون كاملو المواطنة، وأن يصروا على تطبيق العدل والإنصاف بعيداً عن شعارات الطائفية، ولا يليق بالإخوة السُّنة أن يحملوا هذه المطالبة بالحق من الشيعة على الطائفية، فإن الحق أحق أن يتبع والإنصاف فيه خير الجميع، وسد لأبواب الشر، ولا يصح أن يسرَّ أحدًا ظلمٌ إخوة له في الدين والوطن، وأن يقف من ذلك موقف المتفرج الذي لا يعنيه من جرح أخيه شيء، ولا يسيئه اختلال موازين الحق والعدل والإنصاف.

وملخص القول: إنه إذا أردنا أن نكون مسلمين كما يجب لنا الإسلام ويرضى، فعلى الشيعي أن يفرح لخير أخيه السني، وأنه قد نال شيئاً من حقوقه في دُمة الحكومة، وعلى السني أن يُفزع لشر أخيه الشيعي، ويهب معه للمطالبة بحقه الثابت في دُمة الحكومة.

على أن الأمر لا يعني المواجهة بين حكومة وشعب، ولا يتجه إلى خلق حالة توتر وصراع، وإنما كل الأمر هو أن يؤخذ بالعدل، وتؤدي الحكومة وظيفتها الواجبة، ويعطى لكل ذي حق حقه في جو من المودة والمحبة والاطمئنان الذي يعم الجميع.^(١)

الطائفية والحياة الإصلاحية

وأقول: لا بدّ من حياة إصلاحية بعيداً عن مصطلح الإصلاحات السياسية، الذي استعمل كثيراً في الساحة، وأؤكد وأركز على أن الحل في الحياة الإصلاحية، وللحياة الإصلاحية معالم، من هذه المعالم، ألا طائفية ولا فتوية على مستوى القرار الرسمي في الوزارات والدوائر، وكل مناحي الحياة.

مهلكة هي الطائفية في حدّ ذاتها ومهلكة، ومملكة هو الشعور الطائفي هو الآخر، فإنه إذا تركز الشعور الطائفي تشبّتنا، وخسرنا وحدتنا وعزتنا، وكرامتنا وأمننا واقتصادنا، وكل شيء.

إننا نريد وحدة وطنية حقيقية، وهذه الوحدة الوطنية الحقيقية لا يمكن أن تتم في ظل ممارسات طائفية تعمّق الشعور، أو توجد الشعور بالطائفية ثم تعمّقها مما تتطلبه

١- خطبة الجمعة (٢٠١) ١٨ ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ، ٢٧ مايو ٢٠٠٥ م.

الحياة الإصلاحية، ألا تكون مصادرة للكلمة الناقدة في أسلوبها العلمي البناء.^(١)

صَنَاعُ الطَّائِفَةِ

نشر العداوة بين الطائفتين المسلمتين الكبيرتين هدم لكيان المسلمين، وتمكين لأعداء الله منهم، لا يفعل تأجيج هذه العداوة، وإشعال نارها إلا غافل أو مجرم.

وهناك صنّاع للطائفية، أتحدث عن بعضهم، على مستوى العناوين فقط^(٢):

١- شخص جاهل أسرته - هذا الشخص الجاهل، ومن يقابله قد يكون عالماً، وقد يكون مثقفاً بالثقافة غير الفقهية، وقد يكون زعيماً سياسياً، وقد يكون غير ذلك - النظرة الخائقة.

فهو ينظر للإسلام نظرة خانقة، مجزوءة، ليست له النظرة التي يستطيع من خلالها أن يرى أين تكمن مصلحة المسلمين، وأين تكمن مصلحة الحق.

إذا كان المذهب السني هو الحق، فهل تكمن مصلحة المذهب السني في أن يشنّ حرباً على التشيع؟، وهو يلتقي معه في مساحة كبرى من الإسلام؟

وإذا كان الحق كل الحق في التشيع، فهل من صالح التشيع أن يشنّ حرباً على التسنن في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، والسنة تلتقي مع الشيعة في كثير من القضايا؟

وهل أنّ الفكر الشيعي الصافي الأصل، وما قدّمه الأئمة عليهم السلام من دروس نظرية وعملية في هذا المجال، تبعث على شنّ حرب من هذا النوع؟

أو أنّ الأئمة عليهم السلام يرفضون أن تخلق حالة من العداوة، وأن تضرم نار العداوة بين المسلمين، وأنه إذا كانت هناك دعوة، ولتكن فإنما هي دعوة على منوال ما أوصى به

١- خطبة الجمعة (٥٢) ١٥ محرم ١٤٢٣ هـ، ٢٩ مارس ٢٠٠٢ م.

٢- خطبة الجمعة (٦٧) بتاريخ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٢ يوليو ٢٠٠٢ م.

الكتاب الكريم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١)، وعندنا: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

٢- غزارة الحقد الذي قد يغزو القلب والإنسان في سنيّه الأولى، جدّة غافلة، أب غافل، أمّة غافلة، بدل أن توضح حدود الحقّ وتميز الحق عن غيره، وما ينبغي أن يكون عليه التعامل بين المسلمين من الخلق الرفيع، والتراحم والتعاون على الخير، ورفع حاجة المحتاج، وعوز المعوز، شيعياً كان أو سنياً، هذه الجدة أو تلك الأم أو ذلك الأب يزرع الحقد على الشيعة والتشيع، أو على السنة والتسنن.

ليس مطلوباً منا أبداً أن نزرع هذا الحقد في نفوس أبنائنا.

مطلوب جداً جداً أن نقدم لهم الرؤية الدينية الصافية، والمدرسة الحق وهي مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وعليّنا مع ذلك أن نزرع في نفوسهم الخلق الإسلامي، وكيفية التعامل الصحيح مع المسلمين.

٣- عالِم لا ورع له أو أيّ شخص، شخص لا ورع له يبحث عن جمهور من طائفة سنية أو شيعية؛ لأغراض دنيوية.

٤- شخص يعمل على التفريق بين المسلمين بالوكالة عن عدوهم، ويتقاضى أضخم الأجور على هذه العمالة.

٥- حاكم يعتمد في تثبيت حكمه، ووضعه على إضعاف الأمّة بالفرقة.

ولقد كان دور الدولتين الأمويّة والعباسيّة في التفريق بين المسلمين واضحاً جداً حتى أبعد مذهب الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وأسقطت صحة التعبد به وهو أصل المذاهب.

١- النحل: ١٢٥.

٢- النحل: ١٢٥.

وهنا الدعوة تتوجه للنخبة من الشيعة والسنة، ولكل المهتمين حقًا وصدقًا بشأن الإسلام بأن يوحدوا الصف في مواجهة دعوات التفريق والتخريب الذي يستهدف صفوف المسلمين.^(١)

الطائفية العمياء تحصد أرواح الأبرياء

في باكستان، وفي يوم قريب سقطت أرواح أبرياء في مسجد من مساجد الإخوة السنة على أيدٍ شيعية^(٢)، وقبل ذلك ذهبت أرواح بريئة من الشيعة على أيدٍ سنية^(٣)، وهكذا إذا اشتعلت الطائفية الشيعية السنية، أو أي طائفية أخرى حصدت أرواح الأبرياء من غير حساب.

إنها لطائفية عمياء لا تقوم على هدى الدين، ولا تستبصر بتعاليمه، ولا تعرف من روح التسامح أي شيء.

ليس وراء هذا القتل دين حق، وفهم حق للدين.

وراء هذا القتل انتقام للذات، وثورات أرضية، ولوعرف السنة والشيعة أساسات الإسلام، وركائزه، وخطوطه العريضة بحق لما استباح سني أن يسفك دم شيعي، ولا استباح شيعي أن يسفك دم سني.

ولتأخذ المجتمعات الإسلامية الأخرى عبرة، ولتتق الله في دم المسلمين بأن لا تثير طائفية بأي شكل من الأشكال، وليتق الساسة والمسؤولون الرسميون الله، ويراعوا هذه الأمة بأن لا يقيموا أوضاعًا سياسية طائفية، فتجرّ إلى نزاع طائفي، وإلى أحقاد طائفية تعصف بالبلاد والعباد.^(٤)

١- خطبة الجمعة (٦٧) بتاريخ ١ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٢ يوليو ٢٠٠٢ م.

٢- كما نقل.

٣- كما نقل.

٤- خطبة الجمعة (١٦٩) ٢٣ شعبان ١٤٢٥ هـ، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤ م.

تكفير المسلمين

الحكم بالإسلام، أو بالكفر من أخطر أحكام الدين، وهما حكمان موضوعهما واضح جدًا في الكتاب والسنة، والحكم على أي أحد بالكفر من أكبر العدوان إذا تجاوز مقياس كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهو جاهلية، وفتنة كبرى.

أمّا أن يحكم أحد الناس من موقع ديني رسمي كبير على ملايين المسلمين بالكفر على مسمع من العالم كله فضلًا عن جميع المسلمين، فهو فتح باب شرٍّ عظيم على الأمة بكاملها، وإعلان حرب داخلية بين أبنائها - وقى الله المسلمين ذلك وإباحة للدماء والأعراض والأموال التي حرم الله، وصانتها شريعته -، وفي ذلك أكبر خدمة للكفر المتربّص بالإسلام والمسلمين.

وفي الوقت الذي نكر بأشد درجات الإنكار على التعاطي مع الشتم والسبّ واللعن بين المسلمين صحابة كانوا أو غير صحابة، فإن التكفير للمسلم لجريمة أكبر وأخطر.

ولو كان التكفير من السهولة بحيث من سبّ مسلمًا، أو لعنه ظلمًا حكم بكفره لخرج من الإسلام خلق كثير من كل المذاهب، وفي كل العصور، ولخرج عدد كبير من الصحابة أنفسهم عن الإسلام.

وعجبًا أن يحكم ذوو المناصب الدينية الرسمية الكبيرة بقضية الكفر على ملايين المسلمين المصلّين الصائمين، الملتزمين بأصول الإسلام وفروعه ببرودة أعصاب حكمًا فاسدًا في كل من كبراه وصغراه؛ فكبراه وهي أن من سبّ مسلمًا فقد كفر، مخالفة لقواعد الإسلام وأحكامه الواضحة الضرورية، وأمّا من حيث صغراه وهو أن علماء الشيعة يسبّون، يشتمون، يلعنون، ويتعبّدون بسب الصحابة، فأنتى لصاحب الفتوى أن يتيقن بأن كل عالم شيعي شغله وتعبّده باللعن والسبّ والشتم لهذا أو ذاك من الصحابة الذين تولوا أمر الخلافة بعد رسول الله ﷺ؟!

أليس هذا من الرجم بالغيب؟!

هذا العالم الشيعي في بيته ما أدرى هذا المفتي والمتفوّه بالباطل أنه يتعبد بشتم لهذا

الخليفة أو ذاك حتى يعطي حكماً كلياً بكفر كل عالم شيعي؟!، أهذا علم؟!

ولو تواجعت مساجد المسلمين وجوامعهم في قضية التكفير بأن صارت كل طائفة تكفر الأخرى من خلال مساجدها ومحاريبها لاحتقرت هذه الأمة في أيام، ولم يمهلهما عصف الفتن عن الهلاك أكثر من ذلك.^(١)

الدم الحرام

تُحلُّه دائماً مطامع المستكبرين، ويُحلُّه الجهل بالإسلام، والبُعد عن الإسلام. أُحلَّ الدم الحرام سنّياً سنّياً: فهو حلال على هذا المستوى في أفغانستان، وفي فلسطين، وفي تركيا، والجزائر، والصومال، والسودان. وأحلَّ سنّياً شيعياً: كما هو الوضع في العراق، وفي باكستان.

ويمكن أن يحلَّ شيعياً شيعياً في معارك أخرى، وهو قد حصل في إيران، وفي لبنان. أقول: وراء أن يحلَّ الدم المسلم الحرام مطامع استكبارية عالمية من الخارج، تُثير الفتن في داخل هذه الأمة، وتُغذيها تحت شعار مُدمر تبناه جناح متطرّف في أمريكا وهو ما يُسمّى بـ «الفوضى البناءة»، والفوضى البناءة تعني أن يعمل جدّاً، ومن خلال كل الوسائل على خلق فوضى في المجتمعات الإسلامية عن طريق الحروب الطائفية والقومية والعرقية وإلى آخره، وهذه الفوضى هي التي يمكن من بعد ذلك، ومن بعد أن يحصل يأس من الإسلام، ومن حلٍّ من الداخل أن تقود إلى ديمقراطية الغرب بخلفيتها الفكرية، وبأخلاقيتها، وبأهدافها المادية بعيداً عن قيم الدين، وعن انتماء هذه الأمة إلى الهوية الإسلامية، وبحيث تضمن تبعيّة الأمة للمستكبر.

فيا شيعة وسنة في الخليج، وفي البحرين، احذروا، فإنكم غير متروكين، فمصالح من الخارج، وربما تبعتها مصالح من الداخل، أو كانت معها في عرض واحد تتجّه إلى خلق الفتنة الحارقة داخلكم، فابغضوا قلماً يثير الفتنة، حاربوا هذا القلم، وابغضوا

١- خطبة الجمعة (٣٦٩) ١٩ جمادى الأولى ١٤٣٠ هـ، ١٥ مايو ٢٠٠٩ م.

وحاربوا أي لسان يثير مسألة الطائفية البغيضة.

لا تحتاج إلى نظر متمعن حتى تعرف أن فتنة سيئة قاتلة مقصودة لهذا المحيط الخليجي، ووقود هذه الفتنة مستضعفو الشيعة والسنة.

فيما إختوت السنة والشيعة، احذروا أن تكونوا وقوداً لأطماع المستبكرين؛ مستكبري أمريكا، ومستكبري أوروبا.^(١)

الخطاب التحريضي

إنَّ من مسؤولية الحكومات الثَّابتة في العالم اليوم هي المساواة بين المواطنين من مختلف المذاهب في الحقوق السياسيَّة والخدميَّة والثقافيَّة، وغيرها وحماية الحريَّات الدينيَّة والمذهبيَّة.

إنَّ أبعد ما يمكن أن يُؤخِّد فئات الشعب على ما فيه صلاح الجميع هي روح استئصال الآخر، وضربه في دينه ومذهبه.^(٢)

وبشأن الخطاب التحريضي الذي يريد أن يحرق الأُمَّة من منطلق الطائفية، أو ما يشبهه سواء جاء شيعياً أم سنياً يطلب من كلِّ الشعوب الإسلاميَّة وشبابها الغيور على الإسلام والأُمَّة أن يكون أذكى من أن يجرَّه هذا الخطاب الفتنة الآثم إلى حالة افتراق عمليَّة، فضلاً عن فتنة عمياء طاحنة تُدمِّر الأخضر واليابس في محيط الأُمَّة، ولا تُبقي لها ديناً أو دنيا كما يشتهي أصحاب ذلك الخطاب المقيت، ويُخطِّطون له، أو يسعون إليه عميماً عن جهل وغباء وبلاهة وضلال كبير.

ويذكر أنه قد أنكر من أنكر من المسلمين على الحاخام اليهودي الذي ظهرت فتواه الأخيرة بإباحة قتل الشيوخ والأطفال المدنيين من المسلمين وغير المسلمين في عددٍ من الحالات، وقد حقَّ النكير.

١- خطبة الجمعة (٢٤٦) ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ، ٩ يونيو ٢٠٠٦ م.

٢- تكبِّلني، وتلغيني، وتصفِّيني، وتقول لي: هذا هو طريق الوحدة؟

ولكن ماذا يقول المنكرون عن الفتاوى المتتابعة التي تُكفّر طائفة كبيرة من المسلمين، وتُبيح دماءهم بلا حساب وهي دماء موحّدين لا يُشركون بالله شيئاً، ولا يعبدون من دونه أحداً، ويُجاهدون في سبيله، ويوالون من والاه، ويُعادون من عاداه؟

ألا تحتاج هذه الفتاوى إلى إنكار وإدانة من كل كبير وصغير من أبناء هذه الأمة؟^(١)

فتنة وقى الله المسلمين منها^(٢)

المنطقة مشغولة بالتحضير الميداني العسكري والسياسي والنفسي، وعلى كل الأصعدة لحرب عدوانية جديدة بإرادة وتخطيط أمريكيين.

والفتنة الطائفية بين الإخوة من أبناء الأمة الإسلامية الواحدة وقع الاختيار عند المخطّط على أن تكون من بين الآليات الفعّالة الأهم في هذه الحرب.

ومعلوم أن تأثير الفعل يحتاج إلى قابل، والمسلمون حسب واقع علاقاتهم حتى داخل المذهب الواحد والقومية الواحدة والقطر الواحد لا يملكون عصمة أمام مؤامرات الفرقة والشتات والافتتال، وذلك من بُعد شاسع ارتكبه عن الإسلام.

ونحن على يقين بأن تأجيج الفتنة بين المسلمين، وإثارة الأحقاد والأراجيف المفسدة في صفوفهم ممّا يغضب الله ورسوله، ويمكن منهم أعداءهم والمتربّصين بهم الدوائر.

والساحة العامة الإسلامية، والساحة المحلية في هذا البلد تتعرّض لشحن طائفي فوق العادة، وضخّ مستمر لمشاعر الحقد والكراهية بين المسلم الشيوعي والمسلم السني، ولكلمات تستفزّ النفوس، وتدفع إلى المواجهات المجنونة التي حرّم الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ.

وهي كلمات تُحدّر دائماً طائفة من المسلمين بأن حرب الطائفة الأخرى لها على الأبواب، وأنها مصمّمة أن تسلبها كل المواقع والامتيازات إلى حد الإسقاط والإلغاء، وسحق المذهب الآخر، وكأن الطائفة الأولى صفرٌ على الشمال، ولا تملك أيّ إمكانات

١- خطبة الجمعة (٣٨٩) ٢٤ ذو القعدة ١٤٣٠ هـ، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٩ م.

٢- وهذا دعاء.

للدفاع عن نفسها.

اللَّهُ أعلم ماذا وراء كل هذه التّهويلات، والاختلاقات، والتّوهّمات من تصور وتصديق وتوقّع، ونية في نفوس أصحابها.

وليس لنا وقمة مناقشة حتى موضوعية مع هذه الممارسات.

ولكن من الضروري أن نذكّر النفس، وكل الإخوة من المسلمين شيعة وسنةً بوجود الحذر من الانسياق وراء هذا التخويف للمسلم من مسلم، وحرّق العلاقات الإسلامية بينهما لحساب الاطمئنان إلى الأجنبي الذي ما فتئ يكيّد بالإسلام والمسلمين.

كما ندعو المستهدفين بهذه الحملات المنظّمة المستعرة إلى مقابلتها بالصبر، أو التصبّر وقاية لشر مستطير يوقع المسلمين كلّهم في هول أعظم نكبة.

علينا أن نصرّ بأن يضع الشيعي يده في يد السني، وأن يضع السني يده في يد الشيعي، غير ملتفتين إلى كل الأصوات النشاز من هذا الطرف، أو ذلك الطرف ممّن يُريد أن يُشعل الفتنة.^(١)

الفتنة لعنة قاسية

الفتنة لعنة قاسية على أيّ شعب، وعلى أيّ أمة اعترتها.

قد تبدأ الفتنة غير مسموعة، ولكنها تتفجر إذا تفجّرت مدوية، وإذا شبت نارها لا تكاد تُطفأ.

وإذا انطلقت انطلقت مجنونة لا حساب فيها لربح ولا خسارة، ولا مصلحة، ولا مفسدة، ولا حاضر، ولا مستقبل.

عمياء لا ترى وحدة دين، ولا مذهب، ولا وطن، ولا نسب.

فاجرة منفلتة على يد الكثيرين لا تُعير اهتماماً لقيم، ولا تفرّق بين حقّ وباطل، وحرام وحلال.

١ - خطبة الجمعة (٢٧٤) ١٢ صفر ١٤٢٨ هـ، ٢ مارس ٢٠٠٧ م.

محطمة تأكل ما بنته السنون، وإن كان اشتعالها لأيام أو حتى لساعات.

تبدأ في الكثير كلامية، وإذا ما وصلت حدّ الشتم والسب العلني، والإساءة المتكررة على مستوى الكلمة، والتهريج، والكذب، والتطاول، والألفاظ الساقطة، والإهانات، والإثارات السيئة المتعمدة؛ أُنذرت بذلك - والعياذ بالله - بتحريك كل وسائل الانتقام، وأدوات الهلاك المدمرة.

وهذا البلد الصغير في جغرافيته، القليل في عدد سكانه يحتضن - ومع الأسف الشديد - أكثر من فتنة، وينذر بأكثر من انفجار فيه فساد ودمار وهلاك.

والفتنة الطائفية في مقدّمة هذه الفتن المحرقة، ولهذه الفتنة رافدان: رافد العصبية المذهبية المنغلقة، ورافد المصلحة السياسية الضيقة.

والرافد الثاني يوظف الأول بكفاءة عالية، ويوجهه بدقة إلى المستوى الذي يطمئن أنّه لا يتجاوز حدّ السيطرة، والقدر الذي لا يؤثر على المصلحة السياسية المنظور إليها سلباً أو هكذا يُخيّل له.

والاطمئنان المذكور ليس بعيداً عن الواقعية والصواب في الحالة الراهنة، وإن كان لا ضماناً على الإطلاق، لأن يبقى الأمر كذلك، أو حتى يطول عمر الثقة الظاهرية غير المرتكزة على أساس متين بين مصدر الرافد الأول، ومصدر الرافد الثاني.

على كل حال، هناك طرف قوي يدير اللعبة السياسية، ويتحكّم في المسألة السياسية بدرجة كافية حتى الآن، وهو يعدّ الطائفية وسيلة من وسائل تلك اللعبة، وترجع إليه بالدرجة الأولى مسؤولية توتير الوضع الطائفي، وتأجيجه، أو التخفيف من غلوائه وتضاعده.

وتعتمد صناعة التوتير للوضع الطائفي وسائل عديدة من أقلام مأجورة، وصحف، ومواقع التكرونية، وميزانيات ضخمة، ومنح مواقع سياسية، وتسهيلات، ووظائف عالية، وهبات، ومشاريع تمييز على الأرض، وأما الاختلاف المذهبي فهو المنفذ والورقة المستخدمة لخلق وضع طائفي متأزم مقصود، وليس أكثر من ذلك.

ولو التفت الناس كل الناس، والحكومات كل الحكومات، والفئات كل الفئات، والشعوب كل الشعوب لرأوا في العدل الذي أمر الله به السعة والخير والأمن والراحة، وأن في الظلم الذي نهى عنه سبحانه الضيق والشر والتعب والقلق، وأن عمر الدول لا يقصر بعدل، ولا يطول بظلم، إنما هو العكس.

والمشير بالعدل هو الناصح الأمين، والمشير بالظلم ساع بالشر والغش وطالب للفساد.

ولحد الآن، فإن الفتنة الطائفية لم تدخل النفق المسدود الذي لا يسمح إلا بالانفجار، ذلك لأن طرفاً محدداً وهو الحكومة لا يزال قادراً على التحكم في الأمر كما سبق، ودرء الخطر، ووأد الفتنة من حيث سطرته على مصدر الرافد الأول، ومن حيث إمكانه الأخذ بطريقة العدل والإنصاف والإصلاح، وطلب الاستقرار السياسي عن هذا الطريق المربح المريح بدلاً من الطريق الوعر المظلم المخيف المليئ بالمغامرات غير المحسوبة، والمجازفات الكارثية.

ويبقى إمكان التحكم في إشعال الفتنة إلى حد التفجر وعدمه مهدداً بالتغيرات غير المنظورة، والظروف المفاجئة، والمعادلات المستجدة التي يتعذر على الإنسان أن يحيط بها علماً وخبراً.^(١)

الصحافة والفتنة الطائفية

يُطلب منا اليقظة الكبيرة، أن لا نندفع وراء ما تريد الصحافة من استدراجنا له من معاداة الإخوة السنة.

وعلى الإخوة السنة من جهتهم، على الشارع السني من جهته أن يعي اللعبة السياسية، وأن تحتفظ جميعاً بالأخوة الإسلامية قبل الأخوة الوطنية على لزومها.

وعلى الجميع أن يرفضوا حالة الانجرار لما تخطط له الصحافة السيئة من حالة التصادم والاحتراب.

١ - خطبة الجمعة (٣١٩) ٢٧ ربيع الأول ١٤٢٩ هـ، ٤ أبريل ٢٠٠٨ م.

ويراد من الإخوة العلماء والمتقنين السُّنة أن يقولوا للناس كلمةً تحميهم من الوقوع في فخِّ التأسيس لعداوات مذهبية طائفية متأصلة في هذا الوطن العزيز.^(١)

مقاطعة الصَّحافة الطَّائفيَّة

أقول: صحافة الشتم لا تُشتري ولا تقرأ، أمدّ سبابي بما يساعده على سبِّي؟

أعينه على نفسي؟

أُقر أكثر ذلة من إقرار العبيد بصحة سبِّي وشتمي؟

صحافة الشتم لا تشتري ولا تقرأ.

ونحن نعرف أن صحافة التفرقة الطائفية المشينة، وإثارة روح الشحناء بين الإخوة من أبناء الإسلام، وفي هذه الظروف السياسية الحرجة التي تعيشها الأمة، ويراد أن تستفرد القوى الأجنبية الطاغية فيها بكل بلد من بلاد الإسلام على حدة إنما تنطلق - أي تلك الصحافة - من خدمة الأهداف الأجنبية القذرة، وتشارك في جريمة الإجهاز على وجود الأمة المسلمة الواحدة.

وتجعل الأخ يتفرج على مصير أخيه كيف يصادر.

والإخوة المجاهدون المخلصون السُّنة في أي ساحة من ساحات الجهاد يعرفون جيداً جهاد إخوتهم الشيعة وإخلاصهم وأخوتهم لهم، ولا يعيرون كتابات التفريق أي اهتمام.

نعم، هي كتابات يمكن أن تغشّ السذج هنا وهناك من أبناء الشارع العاديين، ومَن تربّى على الطائفية البغيضة والحقد بلا تبيين.

وهو أمر ضار جداً، وبالعجز الضرر.^(٢)

تعدّد الطوائف والمذاهب

تعدد الطوائف الإسلامية أمر واقع لا يُنكر، والإلغاء لهذا الواقع بالقوة فيه محق

١- خطبة الجمعة (٢٧١) ٢٠ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ٩ فبراير ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (٦٣) ٢ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ١٤ يونيو ٢٠٠٢م.

أكيد للأمة، وإحداث زلزال شامل لا يدع يابسًا ولا أخضر.

ومثل هذا لا يقصد إليه عاقل متدين مشفق على أمته.

وتعدد الطوائف له حالتان:

١- حالة الاعتراف العملي المتبادل، والقبول الفعلي بالآخر على مستوى الحقوق والواجبات.

والنتيجة على هذا الفرض هي: التقارب، والتعاون، والتفاهم، والأخوة.

٢- حالة التهميش والإقصاء والازدراء للآخر.

والنتيجة: التباغض: والتناذب، والتناحر، والاقتتال.

فطائفة الموقف الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وهي الطائفة التي يمكن التخلص منها إنما تتجهها حالة التهميش والإقصاء، لا حالة الاعتراف بالوجود والحقوق.

الإسلام في واقعه واحد لا متعدّد، ولكنه على مستوى الفهم مذهبي، والمذاهب متعددة.

وفرضنا فهمًا مذهبيًا واحدًا على الكل إكراه للآخرين على هذا الفهم.

هل يمكن إلغاء الخصوصيات المذهبية؟

ولك أن تتحدّى من جهة عملية قول القائل بإيجاد منهج إسلامي تعليمي وتربوي واحد لأبناء المذاهب المختلفة بعيدًا عن كل الخصوصيات المذهبية، مجردًا عمّا به تمايزها، فإنه هذا أمر لا يكاد يكون ممكنًا، وإذا كان ممكنًا، فليس كل ممكن بواقع.

على أن حصول هذا الأمر على مستوى الواقع لا يفي بالحاجات المذهبية في التعليم والتربية لأبناء المذاهب، وسينتشر الجهل بكل المذاهب انتشارًا كبيرًا كما هو الحال في كثير من ناشئة وشباب مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا الوطن، وهم لا يتلقون التربية

الإسلامية طبقاً على مذهبهم في مدارس بلادهم^(١).

نبذ الطائفيّة ليس معناه إلغاء الطوائف

هل أنت مذهبي؟

أقول لك: نعم، أنا مؤمن بمذهب معيّن من المذاهب الإسلامية لا غبار عليه في رأيي، وهو المذهب المتلقّى عن أهل البيت عليهم السلام، وانتمائي له عن نظر وبرهان ترشّحت عنه قناعة تامة وإيمان أكيد، وفي الوقت نفسه لا أكفر أحداً من إخواني المسلمين، ولا أكنّ لهم حقداً، ولا أستحل أن أكر بهم لهذا المذهب أو ذاك.

وتسألني: هل أنت طائفي؟

أقول لك: إذا كان ذلك بمعنى أنني أحبّ لطائفتي الاستقامة والخير والتقدّم، وأحبّ منها ولها العدل، وهو الشيء الذي أحبه لكل المسلمين، بل ولكل إنسان، فأنا بهذا المعنى طائفي، وهو معنى لا يؤاخذ عليه أحد أحداً، وهو من أكبر معاني الانفتاح الإنساني الكريم.

وإذا كان معنى الطائفية أن أحبّ لطائفتي الهدى ولغيرها الضلال، ولها الاستقامة وله الانحراف، ولها الخير وله الشر، وأن يسودها العدل وأن يُعامل الغير بالظلم، فهذه طائفية أمّجها، وأكرهها، والسبب واضح، ذلك لأن ديني ومذهبي يُكرّهُها لي ولكل منتسبيه، فهي طائفية ينبذها القرآن الكريم، وسنة المعصومين عليهم السلام، وسيرتهم الوضّاء الشريفة.

نعم، أبغض الكفر والفسق والظلم والعدوان أين كان، ومن أيّ كان، وأؤمن بمواجهته بما يُستطاع، ومن منطلق حبّ الخير للإنسان كل إنسان، إذ لا خير في الكفر، والخير كلّ في الإيمان والهدى والاستقامة والالتزام.

١- خطبة الجمعة (٢٠٣) ٣ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ، ١٠ يونيو ٢٠٠٥م.

ومن ناحية سياسية، ومن منطلق مذهبي أجدني مع حكومة سنيّة في سيرتها المنصفة للشيعة والسنة على السواء، ولست مع حكومة شيعية في سيرتها المجحفة بحق أهل السنة.

إذا وجدتُ الأولى، فسأكون معها في سيرتها العادلة.

وإذا وجدتُ الثانية، فسأكون ضدها في سيرتها الباغية.

ومن ناحية المرشّحين أنا مع مرشّح سنيّ يقف مع حقوق الشعب على مرشّح شيعي يقف ضدها، هذا صدق، وأنا مستعد أن أبرهن عليه في أي امتحان في مورده، وأنا أستقي ذلك من وحي مذهبي.^(١)

إسلام بلا مذاهب!

قرأت لكاتب سعودي لقبه المالكى دعوة إلى إسلام بلا مذاهب، والقول عنده يقسم أن دعوة «إسلام بلا مذاهب» على رأيين:

١- رأي يبقي على المذهبية والانتماء إلى أئمة خاصين، ويوجب التعبد على رأي هذا الإمام أو ذلك الإمام من الناس الذين اتخذهم المسلمون أئمة لهم في الدين.

ولكن إذا سُئل الشخص عن انتمائه الديني، قال: أنا مسلم من غير أن يضيف إلى ذلك أنه حنبلي، أو جعفري، أو شافعي، وما إلى ذلك.

وكأن شأن هذا الرأي شأن التقليد عند الإمامية في الوقت الحاضر، فإن المكلفين ينقسمون في التقليد ولكنهم في النسبة لا ينتسبون إلى هذا المقلد أو ذلك المقلد في مقام التعريف بانتمائهم، وإنما ينتسبون إلى مذهب الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

إذا كان هذا الرأي يعني مذهبية بلا عصبية تبقي على حق الآخر في التمدد، وفي المشتركات الإسلامية والوطنية العامة، وعلى احترام الإنسان المسلم فهو، وإلا إذا كان إلغاء النسبة إلى المذاهب ليس لحفظ الحقوق، ودفع العصبية والغائها، وإنما

١- خطبة الجمعة رقم (٢٦٠) ٢ ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٦م.

لتضييع الحقوق، أو أنه يُتخذ مقدمة لرفع اليد عن الإسلام، وعن أخذ الرأي العبادي من مصادره ومراجعته الموثوقة، فإنه يلتقي مع التفسير الآتي لمقولة إسلام بلا مذاهب.

٢- المعنى الثاني والذي يطرحه الكاتب هو أن قوله: «إسلام بلا مذاهب»، تعني إلغاء المذاهب كلياً وعلى مستوى الواقع، فلا يوجد أي مذهب في الإطار الإسلامي، ولا مرجعية لأي من الأئمة الذين اتخذهم المسلمون أئمة.

هذا الرأي الأخير للتكليف معه بقاءً وارتفاعاً أكثر من فرض:

أ- **أن ينحصر التكليف في الضروريات**، ومعنى ذلك أن نرفع يدنا عن المساحة الكبرى من الإسلام، وأن يتعطل الإسلام في أكبر مساحته، وتتفصل عنه الأمة، وتبحث عن قاعدة أخرى لها غير الدين في التعامل مع المساحة الكبرى من الحياة.

ب- أن يُستغنى عن الشريعة كلياً بعد إلغاء المذاهب، إذ يعسر الوصول إلى الحكم الشرعي على المكلفين، أو على أغلبهم.

فالعلاج لمسألة عدم الوصول إلى الأحكام عند سائر المكلفين بعد التخلي عن المذهبية بإلغاء الالتزام بالشريعة نهائياً، وهذه دعوى لنفي الإسلام.

ج- هناك فرض آخر: أن يعم التكليف بالأحكام، وأن يعم التكليف بالاجتهاد، فصحيح لا مذاهب، ولكن تجب الأحكام الإسلامية على كل مكلف، ولأنه لا وصول إلى الأحكام بعد إلغاء المذهبية إلا بالاجتهاد في أغلب الأحكام.

فإذاً يجب الاجتهاد على جميع المكلفين، وهذا فرض غير عملي بتاتاً، لأن الاجتهاد من أصعب الاختصاصات، ولا يمكن للأمة لو أوتيت الذكاء الكافي، الفطنة الكافية أن تتوفر جميعها على الوقت الذي يتطلبه الاجتهاد، وهذا يعني أيضاً إلغاء الإسلام، ورفع اليد عنه بالنسبة للغالبية العظمى من المكلفين.

د- فرض آخر: يأتي مع إلغاء المذهبية انتقائية الهوى للأحكام، أن يترك لكل مكلف أن ينتقي ما يشتهي من الأحكام من أقوال العلماء الماضين واللاحقين، أو مما عن له هو أن يعتبره حكماً، وهذه الفوضى الضاربة والبعد الواضح عن دين الله تبارك وتعالى،

فالمرجعية هنا لا تكون للرأي العلمي وإن أخذ الحكم منه؛ إنما المرجعية للهوى، ومعنى ذلك أن نلغي العقل والدين، ونأخذ بمرجعية الهوى.

هـ- يأتي فرض التخيير بين الاجتهاد والتكليف وعدمهما، بأن إذا اجتهدت أمكن لك أن تصل إلى الحكم الشرعي، وبذلك تكون مكلفاً بما أوصلك إليه اجتهادك، أما إذا أردت أن لا تجتهد فلا تجتهد ولست مطالباً حينئذٍ بحكم شرعي، وهذا رجوع في الحقيقة إلى ربوبية العبد وليس إلى ربوبية الرب، فالعبد رب نفسه، أراد أن يكلف نفسه فليكلف نفسه، وإذا أراد أن لا يكلف نفسه، فله أن لا يكلف نفسه.

و- عموم التكليف مع بقاء الاجتهاد والتقليد، التكليف باقٍ، وأنت إما أن تجتهد، وإما تقلّد.

وهنا نرجع في الحقيقة إلى تعددية المذاهب، فإذا كان طرحنا أن على نضر من الأمة أن يجتهد، وعلى الآخرين غير القادرين أو الذين لم يجتهدوا فعلاً أن يرجعوا إلى المجتهدين رجعنا إلى تعددية المذاهب.

فالرأي باطل، وفيه مواجهة للإسلام على كثير من فروضه، وهو على بعض فروضه غير عملي، أو يرجع بنا إلى ما حاولنا أن نهرب منه، وهو قضية تعددية المذاهب.

والنتيجة الأولى لهذا الرأي إلغاء الشريعة كلياً، أو بصورة شبه كلية، وولادة أمة غريبة على الإسلام، والإسلام غريب عليها.

النتيجة الأخرى: إلغاء الإمامة والعصمة عند أهل البيت عليهم السلام، والمصادرة لهما.

ثم نتيجة أخرى لو بقيت صلاة وصوم وحج.... إلخ، لكننا أمام صور من الإسلام بعدد من يصلي، ومن يصوم على بعض فروض المسألة.

والخلاصة: إذا وجد من ينادي بقضية إسلام بلا مذاهب بهذا المعنى، فهو ينادي بقضية الأ^(١) إسلام.

(٢)

الإرهاب

مفهوم الإرهاب

لمصطلح الإرهاب - الذي يسوق له عالمياً - أن يستوقف كل الشعوب، وكل الناس مرة بعد أخرى لما يترقب له من تطويق الأعناق، وشل الإرادة، وإسكات صوت الحق، واستباحة الدم الحرام، ونسأل هنا:

ما هو الإرهاب الذي إذا ثبت في حق فرد، أو جماعة، أو دولة وجب أن تهب الدنيا كلها في وجه مرتكبه؟

أولاً: المصطلح الغربي

وأضع الحديث عن الإجابة، وما يتصل بها في نقاط:

١- المصطلحات المصنعة في معامل الفكر الغربي الحضاري والسياسي يتصف العديد منها بالتشويش والاضطراب وعدم الدقة، والكثير منها مصطلحات بيئية لا يصح تعميمها على العالم كله، ولكل حضارة رؤاها وخصائصها التي قد تتنافى وحمولة تلك المصطلحات، وفي استيرادها المفتوح، أو تصديرها القهري مخاطر حضارية وأخلاقية، وعلى مختلف المستويات.

٢- نسأل ماذا تعني قوة الردع النووي التي تمتلكها أمريكا، أوروبا، روسيا ألا تعني إرهاباً؟

ألا تعني أن يسكت صوت الدول الأخرى، أن تنتقم الدول الأخرى؟

أن تندق- الدول الأخرى، أمام الإرادة الأمريكية خوفاً من القوة النووية الرادعة -؟

ما معنى الردع؟

الردع هنا بماذا؟

الردع هنا بالقوة الإرهابية؟

فهل تريد أن تحارب أمريكا نفسها، لأنها مرهبة؟!

٢- إذا لم يتحدد معنى للإرهابي خاص، فإن الإرهاب شاملٌ بالموقف الأمريكي الذي يهدد العالم كله.

٤- ماذا تعني أجهزة الشرطة والجيش والمخابرات في كل مكان؟!

ألا تعني أنها قوة إرهابية؛ لتسكت صوت الشعوب، مرةً لتأدب المجرم، ومرةً؛ لتسكت المطالب بالحق والعدل.

بماذا تحاول أمريكا اليوم أن تفرض سلطتها على العالم؟

عن طريق ضرب المثل الأعلى في العدل والإحسان؟!

الآن أمريكا تتقدم بزعامة العالم؛ لقيادة العالم عن طريق ضربها المثل الأعلى في العدل والإحسان والتسامح والقيم الخلقية الرفيعة، أم عن طريق آخر؟!

أم عن طريق التهديد، وتحريك الأساطيل والبطش والفتك وإشعال النار؛ لحرق الإنسان، وما زرع، وما بنى، وما صنع؟

أي الموقف هو موقف أمريكا، والدول القوية الآن؟!

ثانياً: المصطلح الإسلامي

عن النظرة الإسلامية في الموضوع نقرأ بعض النصوص من كتاب الله العزيز الحكيم:

١- الإرهاب إرهابان: إرهاب مطلوب، وإرهاب مرفوض:

أ- الإرهاب المطلوب: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِإِِبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾^(١)، يرهبون لإرهاب الله، الله له إرهاب سبحانه

وتعالى، ملكه العظيم يرهب أصحاب العقول والقلوب المفتحة على الله وَعَلَّيْ، قدرته التي لا تجارى، بطشه سبحانه وتعالى لمن يقاوم ملكه، لمن يتمرّد هذه الإمّاة، هذا الافقار، هذا الإغناء، هذا التقلب للأحوال - من رأت عينه شيئاً من قدرة الله رهبه، رهب وخضع وخشع - في هذا المساق: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١).

كأن الآية الكريمة تحمل فكرة القوة الرادعة.

ولكن القوة الرادعة التي يقف ورائها العدل.

ومن أجل تطبيق العدل.

ومن أجل تأديب المستكبرين.

ومن أجل قطع أيدي المستغلين.

لا من أجل استنزاف الشعوب والأمم، ومن أجل إضعاف الآخرين، ومن أجل استحمارهم، ومن أجل تجهيلهم، فرق بين الأمرين.

الإسلام يتخذ القوة الضاربة التي تردع من تحدّثه نفسه في مقاومة العدل والحق ومواجهة الله وَعَلَّيْ.

هذه النفس التي تتحدّث بهذا حين ترى من قوة الإسلام ما تراه ترتدع، وتغنى الأرض عن الحرب بما في يد العدل من قوة.

إذا كانت القوة بيد العدل استراحت الأرض من الحرب، لأن العالم لا تمتد يد الإثم منه إلى أي إنسان.

هذا إرهاب وهو إرهاب بأمر الله وَعَلَّيْ به: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

ب- الإرهاب المرفوض: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

نحارب مصطلح فقهي، إسلامي، وهو المخل بأمن الأمنين، بالأمن العام للناس، ولا يعني المعارضة للحكم السياسي.

هؤلاء الذين يقطعون على الناس السبيل، ويقفون في الطرق بالسلاح؛ لينهبوا، ليقتلوا، ليخيفوا.

الذين يسطون على الأمنين في كل مكان، شراذم، عصابات، تخرج هنا وهناك؛ لتمارس هذا الدور، كان الممارس فردًا، أم عصابة، أم جماعة، فإن الإسلام هنا يعطي هذه العقوبة الصارمة لمثل هؤلاء الذين يخلون بأمن الأمنين.

والآية الكريمة في جانب، وما تتحدث عنه الرسمىات من الأمن العام في جانب آخر فلا يكن خلط.

هذا الإرهاب قطع السبيل عن الناس الطريق عن الناس إرهاب يواجه الإسلام بكل صرامة.

انظروا إلى العقوبة: ﴿... أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ...﴾^(٢).

وفي بعض التطبيقات الفقهية والتفسيرية أن ينفى من أرض، ولينفى من الأرض الثانية، ولينفى من تلك الأرض الثالثة، وهكذا فالإسلام يواجه الإرهاب كل المواجهة بصلاية، وبأشد ما يكون.

المصطلح الإسلامي ليس الإرهاب، وإذا أردنا الإرهاب مصطلحًا نقسمه إلى: إرهاب عدواني، وإرهاب غير عدواني (تأديبي).

١- المائة: ٣٣.

٢- المائة: ٣٣.

وإذا كان هناك إرهابٌ عدواني، وإرهابٌ تأديبي لا بد أن يبحث عن الجاني الأول في المسألة، ومن أين صدرت الفتنة، ومن كان السبب في نشر الرعب والإرهاب في هذه الدنيا حتى وصل الأمر إلى ميكروب الجمرة الخبيثة، وهو إرهابٌ من أخطر الإرهاب.

٢ - لا ظلم ولا عدوان في الإسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)، ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا...﴾^(٢)

هناك بغض من قريش شديد للمسلمين، هناك صد عن المسجد الحرام، هذه الأسباب لا يقبلها الإسلام خلفية؛ لاستساغة العدوان على قريش من المسلمين، قولوا: الله أكبر للإسلام: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾، لا سبيل لأحد على أحد إلا أن يكون ذلك المأخوذ قد ظلم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٤)، العدوان هو أي انحراف عن حدود الله سبحانه وتعالى، على أي مستوى من المستويات، وحدود الله هي العدل الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٥).

٣ - رفض الظلم والعدوان: ﴿... فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٦).

١- النحل: ٩٠.

٢- المائدة: ٢.

٣- التوبة: ٩٣.

٤- البقرة: ١٩٠.

٥- المائدة: ٨٧.

٦- البقرة: ١٩٤.

لا تجاوز في الرد على الظلم والعدوان؛ إنما يرد على العدوان بمثله: ﴿...فَمَنْ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾.

وانظر إلى التدبيل، وهذه الضمانة موجودة في نفس المؤمن، في قلب المؤمن، في
أعماقه، ولا توجد في ظل تربية كافرة فاجرة: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾، هناك تأديبات
قانونية في الإسلام وعقوبات.

لكن الركيزة الأولى للارتداع هي: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾، لأن النفوس المؤمنة قابلة
لأن تتقي الله وَعَلَى، وترى في عقوبة الله، في سخط الله أكبر مما تراه في عقوبة الآدميين،
واعلموا أن الله مع المتقين.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(١)، ظلمت أعطيت
رخصة للمظلوم أن يقاوم: ﴿وَلَكِنْ ائْتَصِرْ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(٢)، لا
مؤاخاة على جهة يتحدد ويتعين أنها مظلومة، وليست ظالمة.

الإسلام لا يطلق المصطلحات على عواهنها، الإسلام دقيق كل الدقة.

كيف لا وهو من عند الله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٣).

يا أمة الإسلام، وأنظمة الحكم في بلاد الإسلام تعاونوا على البر والتقوى، ولا
تعاونوا على الإثم والعدوان.

فهل شخصتم أن التعاون مع أمريكا على أفغانستان هو من التعاون على البر
والتقوى؟!؟

مبروك لكم أيتها الأنظمة الحاكمة!!

١- الحج: ٣٩.

٢- الشورى: ٤١.

٣- المائدة: ٢.

الحكومة الإسلامية وموقفها من الظلم والعدوان

الحكومة التي يرتضيها الإسلام، التي يقيمها الإسلام، حكومة القرآن: ﴿الَّذِينَ
إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١).

هذه هي حكومة البناء، حكومة الإصلاح، حكومة العدل، حكومة مداواة جراح
المستضعفين في كل مكان.^(٢)

أسباب ظاهرة العدوانية

العدوانية الدموية - في الإطلاق الصحيح، لا ما يسمونه بالإرهاب بقصد سياسي
ماكر؛ ليشمل الدفاع عن النفس - إما أن تكون ابتدائية، وإما جزائية وعلى مستوى رد
الفضل.

والمنظور لهذا الحديث هو أسباب الظاهرة التي قد تكون ابتدائية بحيث لا يكون
الشخص أو الجهة قد تعرض لظلم الغير، ومع ذلك ينطلق في أعمال إرهابية عدوانية
دموية تفزع حياة الآخرين.

ويدخل في هذا الحروب الاستكبارية الطاحنة، والممارسات الطاغوتية لبعض
الحكومات المتعطشة للدماء والدمار، وممارسات بعض الأحزاب السرية والعننية في
التنكيل بالآخرين، والولوج في الدماء إلى حد الاستهتار كما كانت عليه أساليب الشيوعية.

وتنطلق هذه العدوانية من أسباب:

- ١- منها الروح المادية الجشعة المنكرة للقيم المعنوية الكريمة الدينية والإنسانية
- والتي تعشش في داخل البعض وتحكم كل حياته -.
- ٢- روح الطاغوتية والاستكبار التي قد تتفاقم في بعض النفوس بما يبرر لها أن
ترتكب كل شيء في سبيل السيطرة الظالمة على الآخرين.

١- الحج: ٤١.

٢- خطبة الجمعة (٢٩) بتاريخ ٢ شعبان ١٤٢٢هـ، ١٩ أكتوبر ٢٠٠١م.

٣- التربية المتعصبة عن عمى وجهل قومية كانت هذه التربية، أو وطنية، أو دينية إذا كان الدين مختلفاً، أو أسيئ فهمه من معتنقيه.

٤- كلما غابت القيم السماوية الطاهرة من حياة المجتمعات كلما انفتحت الأبواب على مصراعها على الحالة الهمجية العدوانية الإرهابية بصورة أكبر وأخطر.

وهناك الإرهاب العدوانى من موقع رد الفعل على ظلم الآخرين وتعديهم، بحيث لا يقف عند حد الجزاء العادل، وإنما يتحول إلى عملية استهتارية عابثة، لا تقيم وزناً لأي حرمة من الحرمات، ولا تلتفت إلى أي قيد من القيود ما أمكن لها أن تقسد، وتخرّب، وتتهب، وتقتل، وترعب.

والدين الحق وفهمه السليم بريئ من هذه العدوانية، والبهيمية الشرسة، والتعطش للدماء والدمار كان ذلك على مستوى الفعل القبيح ابتداءً، أم رد الفعل من النوع السيئ المتجاوز.^(١)

مناشئ الإرهاب

والإرهاب له مناشئ؛ ومن مناشئه:

١- الفكر المنحرف.

فالفكر المنحرف منشأ خطير من مناشئ الإرهاب، وأي انحراف آخر.

ومسؤولية المدارس الفكرية في الإسلام أن تراجع فكرها؛ ليكون منضبطاً مع خط القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

٢- لا بد من التخلص من النظرة التجزيئية في فهم الإسلام، والتخلص من النظرة العوراء لمقررات الإسلام، وقضاياها، وأحكامه، وتعاليمه.

١- خطبة الجمعة (١٠١) ٤ محرم ١٤٢٤هـ، ٧ مارس ٢٠٠٣م.

٣- الوضع المتسلط منشأ آخر من مناشئ الإرهاب، والوضع المتسلط الظالم المستبيح لحرمان الناس المستولي على جهودهم، ونتاج عرقهم سائد في الأرض، فلماذا لا نرتقب إرهاباً؟

٤- إذا كان كل شبر من أكثر الأرض يعاني من ظلم، ويعاني من طاغوتية، ويعاني من نهب، ويعاني من جبروت، فلماذا لا نتوقع إرهاباً في الأرض؟

٥- الصحافة السيئة، ونحن نعاني من الصحافة السيئة منشأ من مناشئ الإرهاب، ويُخاف على هذا البلد الآمن أن تعتريه موجات إرهابية عارمة لما ترتكبه الصحافة المحلية من خطأ، ولخيانتها لأمانة الأمن الوطني، ولأجواء المحبة والإخاء في هذا البلد الكريم.

٦- الإرهاب في لندن يحدث ضجة، ونحن مع هذه الضجة، ولكن لماذا لا يحدث الإرهاب في العراق كل هذه الضجة؟

أين لندن؟

أين أمريكا؟

أين فرنسا؟

أين روسيا؟

أين العالم العربي؟

أين العالم الإسلامي من الإرهاب في العراق؟^(١)

إرهابان مدَّمران

١- إرهاب الحكومات المناقضة لمصلحة الأمة وإرادتها، والمتآمرة مع أعدائها على هويتها، والداخلية في التبعية المذلّة والانسياق المخزي وراء إرادة أولئك الأعداء مع

١- خطبة الجمعة (٢٠٧) ١ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ، ٨ يوليو ٢٠٠٥م.

استعمال القوة الباطشة، وأساليب القمع والتنكيل؛ لتثبيت هذه السياسة، وقهر كل صوت حر وصرخة شعبية مؤثرة، ذلك إلى جنب النهب والغصب والاستحواذ على الثروة، وممارسة ألوان الظلم والتمييز، وإحداث الفتن والتفنن في خلق أنواع الأزمات.

أنظمة من هذا النوع هي إرهابية، وهي أساس الفتنة في الأرض، وسياسات من هذا النوع لا بد أن تولّد حالة الإرهاب.

٢- إرهاب الجماعات المتطرفة التي امتهنت جريمة القتل الجماعي الحرام بلا حساب، ولا تفريق بين رجل وامرأة، أو شيخ كبير، وطفل صغير وحتى الرضع، وبين من له دور سياسي، ومن لا دور له في السياسة، وبين سوق ووزارة، ودار عبادة، وبين جماعة تزف عريساً، وأخرى تشيع جنازة.

وقد وُلد الإرهاب الثاني في الأجواء الفاسدة البغيضة للإرهاب.

الأول؛ ليجتمع تدميران هائلان لوجود الأمة، وتشويهان بالغان لإسلامها، وطاعونان للقضاء على أخضرها ويابسها.

والمصيبة الكبرى أن كلاً من الإرهابيين ينتسب للإسلام، ويدّعي تمثيله، ويتمترس بجبهة عريضة من العلماء والفتاوى العلمائية المتراشقة.

وليس من الضروري أن يكون هؤلاء العلماء علماء، ولا أمناء ولا أتقياء، وممن يخاف الله في دينه، وفي أموال المسلمين، وأعراضهم، ودمائهم.

ولو كانوا ممن يعرفون الدين، ويخافون الله، لما اشتركوا في ظلم، ولم يدفعوا إلى جرم، ولَفَقَدَ كلُّ الإرهابيين دعامة من أكبر دعائمهم.

أيُّ عالم بحق له فهم بالإسلام، وإيمان بقيمه، وفقه بأحكامه، وتقيّد بشريعته يمكن أن يُبرّر ما يجري من الاستهداف المتعمد للشيوخ، والأطفال، والنساء، والأبرياء من كل الأعمار بتمزيق الأشلاء، وتطاير الأكفّ والرؤوس، وعلى مستوى جماعي كبير من الضحايا في الأسواق، والمساجد، ودور العلم، والمصحات، وفي كل مكان كما في العراق، وباكستان، وغيرهما!!

وهل يُحارب الغزاة المستكبرون بهذا القتل والتدمير للمستضعفين الأبرياء ممن يُعادون الاستكبار، ولا يكتفون له إلا البغضاء، وبنشر الرُّعب وفوضى الخوف والهلع في صفوف الآمنين من المسلمين المصلّين والصّائمين الذين لا يتمنّون للإسلام والأُمَّة الإسلامية إلا النّصر والعزّ والسّودد؟!

وفي الساحة العراقية يتناصر إرهاب الحكومات المعادية؛ لاستقرار العراق ومصالحته وفي مقدمتها الحكومة الأمريكية مع إرهاب الفئات المتطرّفة وذبول البعث، ويتمّ التنسيق بين الإرهابيين في مواجهة الخيار الديمقراطي للشعب، وإرادته الحرة، واختياره لحكومته، وتقرير مصيره.^(١)

الإرهاب لا دين له

يعتدي مسلم على مسيحي في بلد مسلم أو مسيحي، أو يعتدي مسيحي على مسلم في بلد من البلدان، فيثأر هؤلاء أو أولئك في البلد نفسه أو غيره في صورة انتقام عام من أهل الدين الآخر، وإن كانوا أهل الدين الآخر أبرياء ولا يرضون بالجريمة. يثأرون بروح جاهلية جهلاء بعيدة كلّ البعد عن موازين الدّين ومقرّراته، ومنطق العدالة.

إنه ليس من دين الإسلام، ولا المسيحية، ولا اليهودية عدا ما افترى الإنسان على دين الله أن تزر وازرة وزر أخرى، وأن تؤاخذ نفس بما كسبت نفس آخر. والإجرام الذي يرتكب باسم الدين من أكبر الظلم له، ومن أفكك سلاح بقديسيته، وأشدّ أساليب الحرب التي تواجهه، وأقضى ما يقضي عليه. لا يفعل ذلك إلا جاهل انقلب فهم الإسلام عنده رأساً على عقِب، أو من لا يساوي الإسلام عنده قلامة ظفر، أو مريدٌ سوءاً بالإسلام.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٨٦) ١٠ ذو القعدة ١٤٣٠ هـ، ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٩ م.

٢- خطبة الجمعة (٤٨٦) ١٩ صفر ١٤٣٣ هـ، ١٣ يناير ٢٠١٢ م.

الإرهاب ومسؤولية الحكومات

المطلوب من الحكومات الإسلامية، وحكومات العالم أجمع أن تحدد مفهومًا واضحًا للإرهاب، على مستوى هيئة الأمم المتحدة، وأن تتخذ قرارات مشتركة مدروسة وعادلة في مكافحة هذه الظاهرة التي تهدد العالم بالدمار، تهدف هذه القرارات إلى معالجة المشكلة من الجذور بتوفير العدل، وعدم إلغاء القوي للضعيف والاستخفاف بحقوقه، وإنسانيته، وحياته.

إن التآدييات العسكرية الصارمة المنطلقة من روح التشفي والانتقام والتي تحدث الدمار، وتغرق الأرض بالدمار، إذا أسكتت فإنما تسكت إلى حين، ولكنها تفتح ملف حالات الاختلاف في داخل البلد الواحد أو بين البلدين المسلمين، وكذلك في حالات الاختلاف مع العالم الآخر.

ولكن هل هو صحيح أن تمارس دول مجتمعة أبشع صور الإرهاب؛ لتقتل، وتفتك، وتدمر، وتشرذ الملايين من شعوب أمة من غير حساب؟

إن العنف يدعو للعنف، والإرهاب يدعو للإرهاب، فلا بد أن يكون الشجب شاملاً منسحباً على الجميع، وألا تفتح باب لظاهرة الإرهاب في تبادل مستمر للعنف، وتفنن دائم في أساليب المواجهة الفتاكة.

كلنا ننكر الإرهاب من أي كان، ونشجبه ونشجب معه أسبابه ومناقبه، ونؤكد بأن فيه خسارة العالم كله، وننكر أن تواجه أمة وتباد شعوب، وتُحشد دول في عملية إرهاب واسع صار في بشع تقوده الدولة التي تريد زعامة العالم، وباسم محاربة الإرهاب.^(١)

استغلال قوانين مكافحة الإرهاب

لا بد من مواجهة الإرهاب الظالم الذي يحوّل حياة المجتمعات الإنسانية إلى حياة فزع ورعب وفوضى ودمار، ولكن استغلال مثل هذه القوانين استغلالاً سيئاً؛ للتضييق

١ خطبة الجمعة (٢٥) بتاريخ ٣ رجب ١٤٢٢هـ، ٢١ سبتمبر ٢٠٠١م.

على الحريات العامة والخاصة الإنسانية الكريمة، واستباحة ما حرّم الله من دم ومال باسم القانون هو إرهاب كذلك، وهو أحوج للمكافحة وأولى بها، لأن الإرهاب الذي يُضفي عليه التقنين الشرعية ولو كانت وضعية أخطر أنواع الإرهاب.

فلنحذر من تسلل الإرهاب إلى مجتمعنا باسم القانون ومكافحة الإرهاب.^(١)

كلمة «الإرهاب» قنبلة إرهاب!

كلمة الإرهاب تحوّلت بالإعلام الفتّاك إلى قنبلة إرهاب حارق فعلي مدمّر مرعب، وصارت آليّة؛ لاستعباد الجماعات والحكومات والشعوب، وإسقاط الدول، والهيمنة على الأمم.

انطلقت كلمة، ثم تحولت إلى هذه الآليّة الفتّاكة المدمرة والمبرّر الشيطاني الذي يستهدف كل خير في الأرض هدمًا ونسفًا، وبهذا السلاح الظالم - أي تهمة الإرهاب - تجرّد المقاومة في البلاد الإسلامية، والدول الخارجة عن الإرادة الأمريكية من سلاحها، ولن يبقى لو نجح هذا العدوان السافر إلا السلاح الذي تحركه الإرادة الأمريكية، ويُحارب به للصالح الأمريكي، وتحرق به بلاد المسلمين، وتستنزف الشعوب الإسلامية وإن كان من السلاح الذي باليد العربية، أو الأفغانية، أو التركية، أو الفارسية المحسوبة على المسلمين.

ومن قبل رفعوا شعار «الرجعية»!

وقبلُ قد تحركت شعارات التخلف والرجعية وسوّق لها حتى أخرجت خلقًا كثيرًا عن دين الله، وجمّدت آخرين خوفًا من عار التخلف والخروج عن روح العصر والتقدم. وهي شعارات لا زالت تنشط في أوساط المسلمين، ومنها هذا البلد؛ لتُربّع، وتربك، وتضل، وتفشّل أي مواجهة للانحراف كما في مواجهة الخروج على أحكام الشريعة في دائرة ما يسمى بالأحوال الشخصية سمّوك رجعيًا، سمّوك متخلفًا، سمّوك ظلاميًّا، وليسّموا المؤمنين ما سمّوا ويسّمون، فإنّ المؤمنين أصلب عودًا، وأشدّ إرادة.^(٢)

١ خطبة الجمعة (١٩٤) ٢٨ صفر ١٤٢٦هـ، ٨ أبريل ٢٠٠٥م

٢ - خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ٦ يونيو ٢٠٠٣م.

الحرب الإرهابية على الإرهاب!

فلأن الحملة المطلوبة محدودة لا تفجر حدثاً عالمياً هائلاً يحرق العالم بما فيه أمريكا، لذا فإن أمريكا تحتاج في هذه الحملة المحدودة إلى إسناد من الدول الإسلامية. وعليه ستكون المشاركة بدرجة وأخرى من الدول الإسلامية في هذه الحرب بقيادة أمريكا عنصراً فعّالاً في توسعة حدود الحرب على المسلمين، ومستوى الضربات الموجهة لهم.

قل: إنَّ الحملة الأمريكية دولاً وأهداف وجماعات، تعتمد على حجم المشاركة الفعلية لمستوياتها المختلفة من الدول الإسلامية نفسها.

إنه كلما تمزق شمل الأمة الإسلامية، وكثرت الخلافات داخلها بسبب هذه المشاركة، واشتدت تبعية الدول للإرادة الأمريكية كلما ثقلت الضرائب على الأنظمة؛ لبقائها لحماية أمريكية خالصة فيما بعد.

الموقف المعادي للأمة من قبل الأنظمة، وضرب الأمة في حملة تشارك فيها الأنظمة، سيحوج هذه الأنظمة بدرجة كبيرة جداً إلى أن تكون تحت حماية أمريكية مباشرة، وتحت رحمة القرار الأمريكي، وبهذا ترتقب الأنظمة خطأين: إضعاف الأمة، وخيانتها، وإهلاك نفسها، واستغلالها بدرجة أكبر ممّا عليه ذل اليوم.

لذا لا بدّ من نداء للأنظمة بالألا تشدوا حول عنق الأمة وأعناقكم حبل المشنقة.^(١)

ازدواجية المعايير: الإرهاب نموذجاً

أسيكون مقياسُ الدول الإسلامية والعربية هو المقياس الذي تأخذ به أمريكا والغرب في مسألة الإرهاب حيث توصل به الفلسطينيون المدافعون عن أنفسهم وأرضهم وكرامتهم، ومن تستشيرهم مظلوميتهم وحرمانهم، وتبرئ منه إسرائيل التي تتفنن في أساليب القتل والتعذيب، والتجويع، وسحق الكرامات والاستخفاف بالقيم والمقدسات؟

١- خطبة الجمعة (٢٧) بتاريخ ١٧ رجب ١٤٢٢هـ، ٥ أكتوبر ٢٠٠١م.

أم ستتخذ هذه الدول المقياس الذي يفرضه العدل والحق، ويبرئ المستضعف المظلوم، ويدين الطاغية الظالم؟^(١)

يحاربون الإرهاب، أو يسوقونه؟!

ولأسمّه نشر الرعب في الأرض، واتخاذ الإخافة والقتل والتخريب مهنة ووظيفة يمثل فسادًا كبيرًا، ويخلق فوضى عامة، ويحوّل الحياة عذابًا لجميع الأطراف، وكل إرهاب ابتداءً يبرر إرهابًا بعده.

والعنف الابتدائي يستجلب العنف، والفوضى الابتدائية تستجلب فوضى أخرى، ونحن ضد الإرهاب، وعلينا أن نعمل دائمًا ضد الإرهاب، وعلينا أن نكرّس ونركز تربية تنأى بالناس عن الإرهاب، ولكن الذين يدعون محاربة الإرهاب وعلى رأس القائمة أمريكا نسألهم: أهم يحاربون الإرهاب، أو يسوقونه؟

أمريكا حيث احتفاظها بأفتك سلاح في الأرض إلى حدٍّ يمكنها من تصفية أهل الأرض مَرَات ومَرَات ومَرَات، وتطويرها لهذا السلاح، ودعم حليفها الإسرائيلي في توفّره وتطويره للسلاح الفتاك، وإصرارها على تجريد الآخرين من السلاح الذي يدافعون به عن أنفسهم - وإذا ملكت أمريكا السلاح النووي، فأى دولة أخرى لا تستطيع أن تدافع عن نفسها أمام أمريكا إلا بسلاح نووي، فإما أن تُجرّد الأرض كل الأرض من السلاح النووي، وإما أن يفتح الحق لكل دولة بأن تمتلك السلاح النووي دفاعًا عن نفسها -.

المهم، هذه مفردة؛ مفردة التوفّر على أفتك سلاح نووي وجراثومي وكيميائي وتطويره.

ثم إن هناك فرض حكومات وسياسات قهرية على الآخرين، والديمقراطية الأمريكية ديمقراطية مشروطة بأن لا تؤدي إلى الإسلام، ولا تفتح الباب على حكومة إسلامية.

١ - خطبة الجمعة (٥) ١ صفر ١٤٢٢ هـ، ٤ مايو ٢٠٠١ م.

مفردة أخرى وهي فرض الهيمنة الثقافية، ومواجهة قيم الدين وأحكامه في الشعوب المؤمنة به.

وأمر آخر، وهو سلب ثروات الآخرين، والسيطرة على رؤوس الأموال العملاقة، ويضاف إلى ذلك الوجود العسكري الضخم في مناطق مختلفة من العالم إعلامًا بالاحتلال، وفرض الإرادة والهيمنة.

كل ذلك يعني تسويقًا للإرهاب، لأنه لا بد من أحد أمرين: إما أن يفقد الناس إرادتهم أمام الهيمنة الأمريكية، ويستسلموا للقرار الأمريكي الذي يذبهم، وإما أن يحتفظوا بدرجة من الإرادة، وبدرجة من الإنسانية والكرامة.

في الفرض الأول تنتهي إنسانية الإنسان وإن لم يكن إرهابيًا إلا من طرف واحد، أما إذا كان للشعوب والأمم أن تحتفظ بشيء من إرادتها، وبشيء من وعي ذاتها، وبشيء من أصلاتها، ومن الحفاظ على كرامتها ومصالحها، فإن كل المفردات المتقدمة نداء صارخ بالإرهاب المتبادل في الأرض كل الأرض.^(١)

الحرب الإرهابية التي تشنها أمريكا هي نهاية الإرهاب أم بدايته؟

كثير ممن في العالم يختار هذا الجواب، وهو: إن هذه الحرب الإرهابية هي بداية إرهاب عالمي واسع، وهذا هو المظنون، لأن الإنسانية لم تمت كلها، وإذا لم تمت كلها وكانت هناك إرادة غير الإرادة الأمريكية حتى في العالم الغربي، وحتى على مستوى الأنظمة الاستكبارية، فإن الفتنة ستكبر، والإرهاب سيشدد، لن يكون إرهابًا من الدائرة الإسلامية - كما يقولون -، وإنما سيكون إرهاب عالمي يشارك فيه الكافر والمسلم، وكل حريص على وطنيته، وكل حريص على قوميته.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١١١) ١٤ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ١٦ مايو ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

هدف الحرب الإرهابية على الإرهاب

من جهة أخرى يواجه الأمة مستقبلٌ خطير، يُنذر به واقعها المرير، والأسر الخانق لإرادتها الحضارية، التي تريد حضارة المادة الغازية إلغاءها بالكامل.

إن التصفيات الجسدية التي قد تحصد باسم محاربة الإرهاب كثيرًا وكثيرًا من أبناء الشعوب لهذه الأمة، في صورة مطاردة للأفراد والجماعات، وحروب شاملة تشن على الأوطان المسلمة، إنَّ هي إلا مقدمة لمحاولة استئصال ثقافي، واجتثاث حضاري لا تخفى ملامحها في بداية الحملة الحربية الطويلة المدى، بل لا تخفيها التصريحات والمطالبات للحكومات الإسلامية من قبل أمريكا بالتدخل في التوجيه الديني، وإحداث التغييرات في مناهج التربية الإسلامية بما يحقق حلم الطرف الآخر في تهجير الإسلام نهائيًا من واقع المسلمين، وفكرهم، وشعورهم.

تجدون أن الحكومات في البلاد الإسلامية مطالبة من قادة ما اصطلح عليه بالحملة العالمية ضد الإرهاب بشهادة براءة مكلفة، لا بدُّ أن تتحصل عليها كل حكومة على أمل أن تتجو من العقوبة الصارمة.

هذه الشهادة تكتبها كل حكومة بنفسها تاركة مكانًا لامضاء الطرف الآخر عليها بعد التحقيق والتدقيق، وهي شهادة براءة مؤقتة لا أكثر تجدد بنفس الثمن بين حين وآخر.

أما ما تخط به هذه الشهادة، فدماء المسلمين، وأسراهم، وإن لم يدخلوا في حروب وكانوا ممن يُطاردون مطاردة الجراد هنا وهناك؛ لتسلمهم حكوماتهم بيد العدالة الغربية المنصفة!، التي تتطلق من مراعاة الهيمنة الأمريكية، وحماية المصالح المادية للقطب الواحد في الأرض كلها أولاً وبالذات، والمصالح الأوروبية من النوع نفسه ثانيًا وبالتالي.

ومما تخط به كذلك الإجراءات والترتيبات الكثيرة العاجلة، التي تضمن موقف تدفق الوعي الديني لا المشبع بروح الإرهاب، وهوليس وعيًا دينيًا عندنا، بل الوعي الديني

المبرء من الإرهاب والعدوانية، وتقطيع أوصال الإنسانية الكريمة الواحدة بالباطل كما يرتكبه الغرب.

ولكن لأنه وعي، ولأنه يحترم الانسان، ولأنه يعترف بحاكمية الله وربوبيته، وعبودية الانسان لخالقه التي تعني كرامته وحرية البناء ودوره الإصلاحي الكبير، ولأنه ينادي بالحق والعدل والإنصاف، ويناهض الظلم والنهب والاستغلال، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث، فلا بد أن يُلفَّ في الأكفان ويُقبر.

بل لا بد من الترتيبات والإجراءات التي تُحل البديل الحضاري النقيض بالمعني الأعم محل الإسلام في واقع المسلمين وفكرهم ومشاعرهم بما في هذا البديل من إلحادٍ وشركٍ وإنحرافٍ في التصور وخطئةٍ في السلوك، وعندئذٍ ربما نحصل على شهادة حسن السلوك والراقي والتقدم.

وهذا لو كان، فالخسارة ليست خسارة للأمة الإسلامية وحدها، وإنما هي خسارة للبشرية بجميع أجيالها الحاضرة والقادمة، لأنَّ فيه إطفاءً لنور الشمس الذي يمكن أن ينبعث به العالم من جديد، وحجباً لأشعتها التي تمد الحياة المعنوية للإنسان بالبقاء والنماء.^(١)

إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلاميين

ومن أنكر المنكر، وأفحش القول، وأسوأ الظلم أن يُوصم الإسلام والإسلاميون في كل مكان - وهم الذي يرون الخلق عيال الله، والعباد عباد الله، وأن الإنسان أقل ما يربطه بالإنسان أنهما نظيران متكافئان في أصل إنسانيتهما، وما وجدا عليه من فطرة، وأن القاعدة الكبرى في التعامل هو أن يكون بالعدل والإحسان، وأنا لا تحامل يجوز معه رفع اليد عن الأخذ بالعدل، وأن ليس لهم أنفسهم، أي الإسلاميين إلا أن يذلوا لله، ولعدله، وحكمته، وعلمه، وقدرته، وأن ليس لهم أن يطفغوا في الأرض، وأن

١ - خطبة الجمعة (٤٣) ١١ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ٢٥ يناير ٢٠٠٢م.

يستكبروا، أو يسعوا بالفساد، وأن عليهم أن يسترجسوا كل بغيٍ وسوء - من أنكر المنكر، وأفحش القول، وأسوأ الظلم، وأقبح القبيح - أن يوصم هؤلاء والإسلام النقي من قبل دعاة العنصرية، ومصاصي دماء الشعوب، وأصحاب الحملات الاستعمارية المستنزفة لخيرات الأمم، والذي يحصرون مقياس القيم والحق والعدل في موافقة المصالح الأمريكية كما يصرحون أنفسهم.

من أنكر المنكر أن يوصم الإسلاميون بعد كل هذا من قبل هؤلاء بالإرهاب، والغوغائية، والهمجية مستغلين في ذلك الحادث المدمر في أمريكا، الذي إن صدق أنه من بعض المسلمين، فقد جاء رد الفعل خاطئاً، مداناً من سائر المسلمين دولاً وهيئات ومؤسسات وشخصيات في طول العالم الإسلامي وعرضه لمآسي عانى منها المسلمون ولا زالوا يعانون كما تعرف الدنيا كلها، وهو رد فعل نكرر إدانته، ونطالب الإسلاميين في كل مكان أن يقدموا البديل الإعلامي الراقي عنه، والذي لا يشوّه صورة الإسلام الناصعة إرضاءً للعقلية الغربية المادية، والمستوى المتدني من الناحية الخلقية بفعل من طغيان الدوافع الجسدية، ولا يستسلم لإرادة التمييع والتذويب، وفقد الثقة، واهتراء الرجولة مما يحاوله الغرب بنا، ولا يقضي على روح الجهاد للذود عن الأوطان والقيم والكرامة.

نحن مع النداء الذي وجهه النبي عيسى (على نبينا وآله وعليه السلام) لبني إسرائيل؛ للخروج بهم من جاهليتهم، وما تفرزه الجاهلية من مشاكل لها أول وليس لها آخر، وهو نداؤنا لجاهلية القرن الواحد والعشرين، ولشعوب العالم كله من كل العناصر والأقطار والألوان، وهو النداء الذي أمر الله سبحانه خاتم أنبيائه ورسله أن يسمعه أهل الكتاب، ولا زال القرآن يطلقه؛ ليصل مسامع الدنيا بكل من فيها من أفراد وشعوب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١). (٢)

١- آل عمران: ٦٤.

٢- خطبة الجمعة (٤٤) ١٨ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ١ فبراير ٢٠٠٢م.

هل الإسلام يدعو إلى الإرهاب؟

قسَّ يجهل على رسول الله ﷺ، يقول ذلك القسُّ جهلاً منه أو حقداً: إنَّ الرسول ﷺ عاش إرهابياً، فتأكاً فتالاً، سيفه يقطر بالدم، ولا ينتهي من غزوة حتى يدخل غزوة أخرى، تاريخ دموي، يدلّ على غلظة في النفس، وعلى تلذذ بجمرة الدم، هذا ما قاله القسُّ!!

هنا تطاولٌ دينيٌّ، كبيرٌ شائنٌ، وبلحاظ الظروف السياسية العالمية، يستبطن هذا القول تحريضاً على أمة الإسلام بكاملها.

المسلمون تلامذة رسول الله ﷺ، وقدوتهم شخصيته، فمعنى ذلك أنه إذا كان الرسول ﷺ إرهابياً فكلّ مسلم فيه إرهابي.

إذاً، لا بدّ أن تستهدف حملة بوش كلّ مسلم على وجه الأرض.

إنَّه حثٌّ، وتشجيع، وتحريض للعالم المسيحي كلّ وللعالم اليهودي أن يتحوّلوا أعداء الدّاء وبشدة وبفعالية ضد كل مسلم على وجه الأرض!

دعا رسول الله ﷺ إلى كلمتين، بما للكلمتين من مضمون حضاري كبير، لما لهما من أثرٍ بعيد على عالم الفكر والشُّعور والسُّلوك، وبما يعنيان من صياغة خاصّة للإنسان: (لا إله إلا الله، محمّدٌ رسول الله)، ومن كان رسول الله لا يُقبل منه إلا العدل، والرحمة والإحسان.

رسول الله ﷺ هنا وضع نفسه موضع المحاسبة أمام كلّ العالم، أترى أنّ من كان رسول الله يجهل؟!

فإذاً، رسول الله مطالبٌ بالأبّال يجهل، أترى أنّ من كان رسولاً لله يظلم؟!

إذاً، رسول الله ﷺ مطالبٌ بحسبِ دعوته أن لا يظلم.

الرسول من الله، لا يرتقب منه إلا الخير، إلا الإيثار، إلا الرحمة، إلا الإحسان، إلا

العدل إلا الرجولة، إلا الشهامة، إلا الخلق النبيل، وإذا جاء منه ما يشدّ عن هذا الخطّ بكل مفرداته لم يكن رسولاً.

فحينما قال ﷺ: لا إله إلا الله، وهي الأولى، محمد رسول الله ﷺ قد حكم نفسه على بأن لا يأتي منه إلا الخير، ولا يفعل إلا ما يلتقي والعقل وحقّ الدين.

قطع على نفسه ﷺ درب الظلم، درب ما يسمّيه القسّ بالإرهاب، درب كلّ شر. (١)

الإسلام يرفض أن نكون عدوانيين، ويرفض أن نستسلم للإرهابيين

والظاهر أنّه حتى لا يكون المسلمون إرهابيين، وحتى يحصلوا على شهادة براءة من الغرب لا بدّ أن يكونوا دجاً ونعاجاً، ولا بدّ أن تجرّد دولهم نفسها من كلّ أسباب الدفاع المشروع؛ ليبقوا صيداً سهلاً للغرب، هذا هو المطلوب للقسّ، وهذا هو المطلوب لبوش، وهذا هو المطلوب لكلّ الطامعين في هذه الأمة. (٢)

إن الإسلام الحق يجعلنا نرفض الإرهاب العدواني من أي صدد، وعلى أي صدد ودينه، بل ندين من المنطلق نفسه كل عدوان وإن جاء بمظهر الوداعة، وظهر بعنوان التعاون الاقتصادي، والسياسي، والعسكري، والثقافي، وهو يستبطن الاستغلال والاستضعاف، ومسخ القيم، والسيطرة على الشعوب من غير حق.

إذا كان مسؤولون في الغرب قد صدرت منهم تصريحات تثير الحقد في الأرض، وتبعث روح العداوة والعدوان، فإن الإسلام لا يأذن لنا أن نثير روح الحقد والكرهية بين الشعوب والأمم، وإنما يطالب بإدانة الظلم والكفر، وقطع أسباب البغي والعدوان.

إننا لا نرى لقائمة الإرهاب الأمريكية البريطانية التي تزداد طولاً وتمددًا إلا أنها ستطال حتى أصدقاء أمريكا في الأخير، وخاصة إذا خرجت من أحدهم خطأ كلمة لا توافق الرؤية الأمريكية بالكامل.

١- وكيف سرت الرحمة والعدل والإحسان والخلق القويم في صفوف الأمة التي بناها رسول الله ﷺ من كبار أبنائها وصغارهم لو كان قدوتهم الأولى يخالف واقعه دعواه؟

٢- خطبة الجمعة (٨٠) ٤ شعبان ١٤٢٣ هـ، ١١ أكتوبر ٢٠٠٢ م.

تشعر الأمة الإسلامية بكل شعوبها بأن القرار الأمريكي في مسألة الإرهاب الذي تسجلها عملياً على كل الأمة بأنه مستخف بها إلى أقصى حد، ويستهدف هدر كرامتها، واستعداء شعوب الأرض عليها على أن هذا يسد على العالم كله طرق الاستقرار، وأن ينظر إلى الأمور بعين العقل، وأن يفكر في المصالح المشتركة.^(١)

بقايا ضمير

نلاحظ أن هناك بقية من ضمير في هذا العالم، وهي مكبوتة ومقموعة إعلامياً وسياسياً وعسكرياً، إلا أن الضمير الإنساني والفطري والديني له بقية في هذا العالم وهو يطلق صرخاته ضد الإرهاب الأمريكي، وإشعال الساحة العالمية ناراً وحقداً بغية، والأخذ بشعار التصادم الحضاري بدل شعار الحوار الحضاري القائم على الفكر الدقيق العلمي، والقائم على الموضوعية، والقائم على طلب الحق والتسليم له.

وإذا اتجه العالم إلى حوار حضاري من هذا النمط وهو لا يكون على يد الساسة، وأكد أن هذا النمط لا يكون على يد الساسة، لو اتجه العالم من النمط المذكور لكان الرابع في الساحة العالمية هو الإسلام وبصورة قاطعة، وبكل تأكيد.

نعم، أطلق القسيسون، وبعض الرهبان صوته مع أصوات المنكرين للإرهاب الأمريكي والغرب معط حقاً أن يتحدث عن ضميره، أن يتحدث عن نفسه في شارع قبل العالم الإسلامي بسنوات وسنوات، وبمسافات ومسافات، لأن الإنسان هناك غير الإنسان هنا، الإنسان هناك معترف له بإنسانيته، الإنسان هنا وبالنظرة الداخلية، أيضاً بنظرة العالم الإسلامي في الداخل على المستوى الرسمي، أنه إنسان حيوانيته تبلغ ثلاثة أرباع من مستواه.^(٢)

كيف نتخلص من الإرهاب؟

أما كيف نتخلص من الإرهاب، فلنرجع إلى الحديث عن التوحيد، والوحدة، والرحمة، فلا بد من قيم، لا بد من دين.

١- خطبة الجمعة (٣٢) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٤٢٢هـ، ٩ نوفمبر ٢٠٠١م.

٢- خطبة الجمعة (٣٠) بتاريخ ٩ شعبان ١٤٢٢هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠١م.

والدين الحق هو دين التوحيد.

ولا بدّ من فهم قويم للدين، لا يحوله إلى أحقاد وعصبية بغیضة، وتعطّشٍ لدم الآخرين.

نحن بعيدون عن هذه التربية، ولا نؤمن بها، ونشجبها كل الشجب، وقبل أن يُشجب أيّ طرف.

لا بدّ من تشديد الشجب والإنكار والسخط على الإرهاب الأمريكي الغاشم.^(١)

ما يتمناه الإنسان المسلم للناس جميعاً هو الهدى، والتمتع بالعدل، والأمن والسلام، وارتفاع كل أسباب الرعب الهلع في الأرض، وتلاشي ظاهرة الإرهاب سواء كان من مستوى الفعل الابتدائي، أم رد الفعل.

ويستحيل أن يتحقق هذا بلا عودة إلى قيم السماء، والكفّ من شياطين العالم عن تدمير إنسانية الإنسان، ومحاولات مسخ الفطرة التي فطر الله الناس عليها.^(٢)

إننا نألم أن تنصب جهود الإنسانية على بناء حضارة مادية تتميز بناطحات السحاب، والصواريخ العملاقة، والصناعة الضخمة، والعمران المادي المحكم على أساس من ملح أو كف عفريت يتمثل في القيم المادية من شره وحرص وعدوانية، وتهاوش على متاع الدنيا وإن قلّ؛ لتهدم هذه الحضارة على رؤوس الناس في كل مكان، ويتبخر وجودهم ووجود سعادتهم الموهومة في لحظة.^(٣)

١- خطبة الجمعة (١١١) ١٤ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ١٦ مايو ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (٢٤) بتاريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، ١٤ سبتمبر ٢٠٠١م.

٣- خطبة الجمعة (٢٤) بتاريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ - ١٤ سبتمبر ٢٠٠١م.

(٣)

الوطنية والمواطنة

العلاقة بين الوطن والأمة والدين

ما هي العلاقة بين الثلاثة؟

علاقة تنافر وتضاد في الوجودات والمصالح؟

أو علاقة تلاقٍ وتوافق وترابط؟

والكلام عن وطن هو جزء بوجوده البشري الأغلب من أمة هي الأمة الإسلامية، وجزء بأرضه من الوطن العام الإسلامي - إذا لم يعترض البعض على التسمية - وعن أمة هي الأمة التي تحدت عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة بصورة محدّدة المعالم من حيث الرؤية الكونية الواحدة، وأخوة الدين الواحد، ونمط العلاقات، وترابط المصالح، ووحدة الهدف، ومن حيث النظام العام في أبعاده المختلفة، وتبادل المسؤولية الدفاعية، وحفظ الدين وتبليغه، والدعوة إليه، والدؤد عنه، والنهوض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء المشترك المتبادل بين المسلم وأخيه المسلم.

فكل ذلك، وما هو أكثر منه الأمة فيه كيان واحد.

والدين المعنوي في العنوان هو الدين الإسلامي، دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا تبديل لخلق الله.

وكون الأمة الإسلامية في القرآن الكريم، والسنة المطهرة للمعصوم الأول وهو الرسول ﷺ واحدة في أصولها العقيدية العامة من التوحيد، والعدل - إذ لا يقبل مسلم أيًا كان أن ينسب الظلم ملتفتًا إلى الله سبحانه، متخذًا ذلك عقيدة باسم الإسلام -، والنبوة، والمعاد، وواحدة في أصول عباداتها، ومجمل هيئات تلك العبادات بغض النظر عن التفاصيل الجزئية الاجتهادية، وواحدة في مرجعيتها السياسية العامة

وإن اختلف على أخذ وصف العصمة وعدمه فيمن هو الإمام أو الخليفة، وأنه معيّن بشخصه أو بوصفه، وكون أرض الإسلام واحدة وإن اتسعت رقعتها، وتعددت القوميات والشعوب واللغات عليها؛ ضرورة من ضرورات الإسلام التي لا يليق التشكيك فيها.

انقسام الأمة إلى كيانات سياسية متعددة خروج على الأصل المسلّم به بلا ريب، وقد تم في الكثير تحت ضغط الأجنبي وبتخطيطه.

وكون هذا الانقسام واقعاً شاخصاً مسألة لا تحتاج إلى تنبيه، ولا يمكن إنكاره، ولا تجاوزه عملاً، ولا التخلص منه في المدى المنظور، وهو لا يبيح لنا أن نضعف أي وطن من هذه الأوطان المتشظية التي أفزرتها الانقسامات المتوالية، أو الإخلال بمصالحه الحقيقية، وأمنه المشترك.

ولكن كل ذلك لا يحوّل حالة الانقسام والتمزّق أصلاً إسلامياً، فالأصل الإسلامي هو الوحدة، ولا يقلب واقع ما عليه الإسلام من تصور وهدف في هذا المجال، ولا يصح لنا أن ننظر له، ونحاول بصورة غير علمية تبريره وتركيزه، والدعوة إليه.

والعودة بالأمة إلى واقعها السياسي الوجودي يحتاج إلى مدى بعيد، وجهود مكثفة تثمر وعياً كافياً، وقناعة عامة أو واسعة إلى الحد الذي يشعر معه المسلمون جداً بضرورة هذا الأمر ديناً وواقعاً، ويتقبلونه من داخل أنفسهم، وليس الطريق إلى ذلك هي النزاعات الحدودية، والصراعات المادية على الأرض، والبحور الغزيرة من دماء المسلمين ممّا يضرّ بوحدتهم وقوتهم أكثر مما هم عليه، ويؤثر سلباً لا إيجاباً على ما تبقى من وحدتهم الفكرية والشعورية.

ونعطف على السؤال الرئيس في هذا الموضوع، والمتعلق بنمط العلاقة بين الوطن الإسلامي الخاص والعام والدين.

والواضح أنّه مع كون الوطن الخاص إسلامياً، والأمة إسلامية، والوطن العام إسلامياً، لا وجه للتصادم والتنازع في المصالح من هذه الجهة، ولا خلل في صدق هذا العنوان على الموصوفات الثلاثة: إذ مع صدق الوصف يكون الإخلاص للوطن الخاص، وعلى الطريقة الإسلامية ملتقياً تماماً مع مصلحة الأمة، ومصلحة أي وطن آخر

إسلامي، وفيه دعمٌ وقوةٌ للدين، ويمثل أخذًا بحكمه، واستجابةً له.

والحقُّ أنه لا تنافي، ولا تصادم بين الكيان العام والخاص من وطن وأمةٍ إلا بمقدار ما يتباعد هذا الوطن أو ذاك من الأوطان الإسلامية الخاصة عن الإسلام، ومقدار تبعيته لإرادة الأجنبي، ونفوذه، وتدخلاته.

وهذا هو المستنقع الذي تردى فيه واقع المسلمين في الأكثر اليوم، وهو ما يمثل خسارة فادحة وخيانة كبرى للأمة والوطن الإسلامي العام، وكذلك الأوطان الإسلامية الخاصة على حد سواء.

وموقف المسلم الملتزم بإسلامه إزاء هذا الواقع المتردي والمعقد لا بدُّ أن يهتدي كما في كلِّ الأحوال بهدى دينه، ونور شريعته، فيعمل في صالح وطنه الخاص بما يُرضي الله سبحانه، ولا يتساهل في حفظه ودرء الشرِّ عنه، وهذا الموقف الذي يفرضه الإسلام في حق الوطن الخاص هو نفسه الذي يفرضه في حق الوطن الإسلامي كُله والأمة من دون أن يتهاوت الأمان ما دام المستفتى هو الإسلام، والمنظورُ في الموقف هو الله سبحانه.

فينتج أنه لا تفريط بمصلحة الوطن الخاص، ولا تأمر على حسابه، ولا بمصلحة الوطن العام والأمة، ولا تأمر على حسابهما، بل رعاية وحفاظ وإخلاص وذود عن كل هذه الكيانات المتلاقية المتوافية ربحًا وخسارة في نظر الإسلام، وأحكامه الشرعية الصادقة.

وإنك لتلاحظ كثرة كلام في هذا الوطن عن حب الوطن وولائه والإخلاص له، وكأن الأرض لتهتز بأهلها لكثرة المعادين للوطن من أبناء الشعب المتأمرين عليه الداخلين في عمليات بيع له، أو كأن حب الأوطان مسألة فلسفية جديدة تحتاج إلى دروس مكثفة، وتنظيرات تغتال حقائق إسلامية وتطمسها، وكأن هناك تناقضًا بين الإسلام بكل حقائقه الثابتة وبين مصلحة أي شبر من أرض الإسلام، وأي فئة صادقة من أبنائه حتى لا نستطيع تركيز حب الوطن ورعاية مصالحه، ودرء الشر عنه إلا بطمس أو تشويه تلك الحقائق الإسلامية الواضحة الكبرى، وكل ذلك غير صحيح، وغير وارد.

ومنذ بعيد والحكومات العربية والإسلامية هي التي تتبع الأوطان والثروة وعز الأمة

وكرامتها والإنسان، وعلى من بيعها؟! على أعدى أعدى الدّين والأمة والإنسان، على المستكبرين على الله المسترقّين لعباده.^(١)

حُبُّ الوطن واستقلاله

هناك حبّان من حبٍّ؛ حبٌّ طبيعي يعبر عنه الارتباط النفسي، والأنس بالأرض والأهل، وهذا معروف عند الناس.

حبٌّ آخر هو حبُّ الخير للوطن، والعمل بما فيه صالحه، والحفاظ عليه.

والإنسان المسلم يرى هذا واجباً ورسالة.

ولكن هل من حبٍّ عند الإنسان المسلم يقابل حبُّ الله؟!

كل حبٍّ من حبِّ الإنسان، المسلم بمقتضى إسلامه يجب أن يكون تابعاً لحبِّ الله، حب رسول الله ﷺ إنما هو حبٌّ تابع وقائم على حبِّ الله في نفس الإنسان المسلم المؤمن، وكذلك كل حب آخر.

هناك حبٌّ على مستوى عاطفة الميل والألفة بحسب طبيعة النفس للأهل والأرض مثلاً، وهناك حبٌّ آخر عقلي يقوم على تقدير الخير، والتعلق بالكمال، والانشداد إليه، وتقوم عليه الطاعة عند الفعل، ويكسب الطمأنينة والسعادة للنفس.

وهذا اللون من الحب لا يصح لأحد إلا بأن يكون متفرّعاً على حبِّ الله سبحانه وتعالى.

وكيف نحبُّ الوطن؟

كما أحب نفسي، كما أحب ولدي.

إنَّه الحب القائم على الأخذ بتعاليم الشريعة.

إنَّه الحب الذي نعبر عنه التعبير الذي حدّده الله تبارك وتعالى.

إذا أحببت ولدك، وجاء حبك على غير طريق الله، وعلى خلاف ما أمر ونهى، فأنت لا تحبه.

إذا أحببنا الولد، إذا أحببنا الوطن، فإننا نحبه بالطريقة التي قالت بها الشريعة الغراء، وهذا هو الحب الصادق النافع.

أَمِنْ حَبِّ الْوَطَنِ أَنْ نَغْرِقَهُ بِالْخَطَايَا؟

أَنْ نَغْرِقَهُ بِالْفُسَادِ الْخَلْقِيِّ؟

أَنْ نَطْعِمَ جَوْعَى الْوَطَنِ بِكَدِّ الْفُرُوجِ؟

هذا حب لا يرضاه الله سبحانه وتعالى.

يجب أن ينبع حبنا لأي شيء من الله، ويجب أن يأخذ الحب في تعبيره الطريقة التي أمر الله بها وعَلَّمَ.

تقول الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.^(١)

علينا أن نحب الوطن، ونخلص في حبه.

وأن يكون حبنا له من حبنا لله، وهو مقياس كل حب.

وأن يكون تعبيرنا عن هذا الحب لا يغادر خطَّ الشريعة على الإطلاق.

والكلام عن استقلال الأوطان الإسلامية، مرتبط بعلاقة ذلك بوحدة الأمة، وفرقتها، وتقاربها.

باختصار: وحدة الأمة هدف كل مسلم وأمنيته، ولو تمنى أحد المسلمين غير ذلك لخالف إسلامه.

وحدة الأمة هدف كل مسلم، ولكنّه هدف بعيد يفصل الأمة عنه واقع مليئ بالتناقضات والقصور والنواقص، فهذا الهدف ليس على مرمى قريب من النظر العملي عند الإنسان المسلم المتعقل، وطلبه بالقوة يضاعف من مشكلات الأمة ومحنها وفرقتها، ويحتاج إلى قطع مسافة طويلة من التثقيف والتوعية، وتنقية المشاعر والارتفاع بالنفوس إلى الأفق الإيماني الرفيع.

لو أردنا أن نوحد بلدين من البلاد الإسلامية، ولنفرضهما أنهما أكثر البلدان الإسلامية تقارباً لصعبت للغاية، أما توحيد الأمة تحت راية واحدة، وقيادة واحدة، وأطروحة واحدة، فهو من المستحيلات العادية في المدى المنظور، فطلبه على هذا المستوى شيئ من تضييع الوقت والجهد، وينتج مزيداً من فرقة الأمة، وشتاتها، فلا يُطلب على المدى القريب، ولكن على الأمة أن تجد في طلبه ولو على المدى البعيد، ونحن نأمل من الإمام القائم عليه السلام - وهو أمل صادق بإذن الله - أن يوحد هذه الأمة كلّها تحت راية الإيمان والخفاقة العالية.

إذا لم نختر الوحدة، فلنختر مزيداً من فرقة الأمة لكنّ هذا هدف كلّ عدو ومتمر على الأمة، فما هو العملي؟

العملي أن نقول باستقلال كل بلد إسلامي، وأن نقول بوجوب التقارب والتحالف غير الضار بالوحدة، ونفض اليد من التحالفات الأجنبية التي تضرب وحدة الأمة، وتغتال هويتها.

ولا للاختراقات الحدودية العدوانية والتوسعات الجغرافية بين المسلمين التي قد تحرّك الأطماع الرغبة إليها.^(١)

الوطنية والإسلام

كثيراً ما يقابل في المصطلحات السائدة بين الوطنية والإسلام، بما قد يُشعر أو يُراد منه بأن الوطنية تنافي الإسلام، والإسلام ينافي الوطنية.

١ - خطبة الجمعة (٣٣٦) ٢٨ رجب ١٤٢٩ هـ، ١ أغسطس ٢٠٠٨ م.

وهذا صحيح لو اتخذ الوطن معبودًا من دون الله، وكان التقديس والتحميد له، واتخذ مثلًا أعلى وإلهًا مطلقًا، حينئذٍ ما هو دين غير ما هو وطنيُّ ١٠٠٪، وما هو وطنيُّ هو ليس دينًا بالكامل وبالمطلق، أما حسب الفهم الذي نتبناه والوعي الرشيد، الوعي لمعنى الوطنية، والفهم الصحيح للإسلام، فالأمر ليس كذلك.

إنَّ الوطنية من الإسلام، والإسلام يعني المصلحة الوطنية، والمصلحة الوطنية تصب في صالح الإسلام.

نحن نفهم من الوطن الإسلامي أنه وطنٌ آمن بالإسلام وارتضاه منهجًا وطريقًا وقدّمه على كل الأطروحات الأخرى، الوطن الإسلامي وطنٌ يؤمن من أعماقه بالخط الإسلامي وبالقيم الإسلامية.

فإذًا، هو لا يسعى من خلال هذا الفهم والتوجه إلى ما يضاد الإسلام، ولا يرى في مصلحته أنها تقع في شيء يخالف الإسلام.

والإسلام رحمة، الإسلام للبناء، الإسلام للتقدم، الإسلام لإعمار الدنيا، لإعمار الذات الإنسانية، ولأن تقعم القلوب بالنور، ولأن تزدهر الأنفس بالطمأنينة.

هو للأمن، للتقدم العلمي، للتقدم التكنولوجي، للتقدم في كل المسارات الصالحة، وإسلامٌ هو هذا لا يمكن أن يتقاطع مع مصلحة أي وطنٍ رشيد.^(١)

الولاء للوطن والولاء للأمة ورجالاتها

فهمنا أنه لا تنافي بين الولاء للوطن والولاء للأمة، ورجالات الأمة، الرجال الرساليين، رجالات الإنقاذ، الرجال المخلصين.

نحن نقف مع كل قيادة محلية تخلص للإنسان والإسلام، ونحن نقف مع كل قيادة عالمية مع أي قيادة ولو كانت في أمريكا.

في موقف القيادة إذا كانت قيادة مع الإنسان والإسلام.

١- خطبة الجمعة (٤٦) بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ١٥ فبراير ٢٠٠٢م.

يوم أن يتحول الأمريكي إلى إنسان مسلم سنتعلق به، سنعشقه، سنلتف حوله.
هذا وأوصي جداً بالاعتزاز بالوطن لكن في ظل الفهم الإسلامي، والإخلاص للوطن
على خط الإسلام.^(١)

الولاء للوطن والولاء للأمة والدين

موضوع الولاء للوطن، وعلاقته بالولاء للأمة والدين، وهو موضوع وإن تم تناوله في
حديث سابق في غير هذا المكان لكن يبقى نافعا أن يُعاد إليه بالتركيز على بعض أبعاده
العملية بصورة أوضح وأصرح.

يطلب تسليط الضوء على نوع العلاقة بين الولاءين، وهل هي علاقة تضاد وتنافر،
أو علاقة تلاقي وانسجام؟ رفعا لما قد يحصل من تصوّر غير مدروس من جانب، أو سوء
ظنّ من جانب آخر، لا بدّ أن نفهم وظيفتنا في الموقف من هذين الولاءين؛ لنتحرك على
بصيرة كافية.

لا يختلف مسلمان على أن الولاء الأصل لله وحده لا شريك له: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.^(٢)

ماذا يعني الولاء لله؟

يعني الولاء لله فيما يعني حبه، والاستسلام الكامل لرضاه، لكل حكم من أحكامه،
وتبعية إرادة الإنسان لإرادته، فلا يأخذ إلا بما أراد الله، ولا يقارف ما كره الله سبحانه
وتعالى، ويعني ولاءه سبحانه نصرته دينه، والإخلاص في طاعته، ويعني فيما يعنيه
أيضاً تبعية أي حب، وأي نصره، وأي طاعة لحبه ونصرته وطاعته، حتى طاعة رسول
الله ﷺ لا يصح أن تكون طاعة مستقلة عن طاعة الله وإنما يطاع رسول الله ﷺ
بوعي أن طاعته من طاعة الله، وأنها طاعة أمر بها الله، هذا هو من الولاء لله.

١- خطبة الجمعة (٥٨) ٢٧ صفر ١٤٢٣هـ، ١٠ مايو ٢٠٠٢م.

٢- المائدة: ٥٥.

أقول: لا يختلف مسلمان يسلمان للإسلام أمرهما، ويعيشان الإسلام وعيًا صحيحًا وشعورًا صادقًا على هذه البديهية الإسلامية الجليّة.

والحديث عن أيّ ولاء لا بدّ أن يكون محكومًا لهذه البديهية.

وأريد هنا أن أركّز الكلام على العلاقة بين الولاء للوطن، وولاء الأمّة والدين، وفي نظري هما ولاءان غير منفصلين بالنسبة للأوطان الإسلامية.

والتركيز على هذه العلاقة في دائرة كل أنواع الارتباط بالأمّة والدين.

موقعيّة الولاء للوطن من ارتباطات الدين والأمة

هناك عدد من الارتباطات بالدين والأمة، فأين يقع ولاء الوطن والارتباط به من كل واحد واحد من هذه الأبعاد من الارتباط؟

وهل يتنافى أي واحد من هذه الارتباطات بالمصلحة الوطنية ويناقضها؟

١- هناك ارتباط ثقافي بالدين، وإن ثقافة الإنسان المسلم يجب أن تنبئ في ضوء دينه، وثقافة الأمّة الإسلامية بما هي أمّة إسلامية هي ثقافته.

معايشة هذه الثقافة، والارتباط بها، والانكباب على فهمها، والتفاعل معها، هذا الارتباط هل يتنافى مع الولاء للوطن؟

الوطن إما أن تكون ثقافته ثقافة إسلامية، وإما أن تكون ثقافته ثقافة جاهلية، وإما أن تكون ثقافته ثقافة مزيجًا من هاتين الثقافتين، والحاصل العملي في كل أوطاننا الإسلامية الآن هو أن ثقافة مزيجة من ثقافة الإسلام وغيره هي التي تحكم ساحات الأوطان الإسلامية كلها.

ومن حق كل مسلم، بل من الواجب عليه أن ينبذ أي ثقافة جاهلية لأي وطن من أوطانه، وأن يدعو بقوة إلى تركّز الثقافة الإسلامية إخلاصًا لوطنه، وحماية لمصالحه، وحبًا لأهله وقومه، وليس يجوز لأي مسلم في الأرض أن ينسى الثقافة الإسلامية،

ويضحّي بها لأي شيء من ثقافة جاهلية إيرانية، أو تركية، أو عربية مصرية، بحرينية، وأي ثقافة أخرى، يجب أن يرمى بكل الثقافات الجاهلية أيّا كان انتماءها؛ من أجل الثقافة الإسلامية التي توحدنا، وتجتمع عليها قلوبنا وعقائدنا.

٢- هناك ثقافة الارتباط بالمرجعية الفقهية، الأزهر الشريف، النجف الأشرف، قم الشريفة، مراكز علمية فقهية تمتد البلاد الإسلامية كلها بالحكم الشرعي، والرأي الفقهي، هل الولاء لتونس، أو للبحرين، أو لأي بلد من البلدان يتنافى مع مرجعية هذه المراكز؟

إذا، الأمة ستقع في فقر فقهي شديد، وستخسر منابعها الفقهية، وستنفصل عن الإسلام عملياً في بعض سنوات.

طبعاً لا تطلب السياسة في أي بلد من مواطنيها أن ينفصلوا عن المراكز العلمية الفقهية في التعامل الفقهي، وفهم الحكم الشرعي، وتلقيه في مختلف المسائل العملية، وهذا ما عليه سيرة المسلمين منذ وجدوا، فسواء كان المركز العلمي المدينة، الكوفة، أم الأندلس، أم أيّا كان، كانت كل أفئدة المسلمين تهوى للمراكز العلمية، وترتبط بها؛ لتأخذ منها دينها، والسيرة قائمة على هذا، ولا غبار عليه.

٣- هناك قدوات ورموز دينية وطنية، ورموز سياسية على الخط الديني وطنية، وهناك قدوات من داخل الأمة على مستوى الأمة، بل على مستوى العالم، تاريخياً وحاضراً، والقدوات والرموز الدينية والجهادية إذا كانت رموزاً وقدوات على مستوى الأمة عاشت هم الأمة، واستوعبت هم الأمة، وأخلصت للأمة، بل تجاوزتها إلى الإنسان كل إنسان.

أنت لا تستطيع أن تقزم مثل هذه القدوات والرموز في إطار زمان معين، أو في إطار مكان معين.

إننا ونحن مسلمون نكبر من ناحية الجهد العملي، ونفع الإنسان المخترعين في العالم، فلا يمكن أن يطلب للأمة أن تنسى كبار فقهاءها، وكبار مجاهديها، الذين لم يرضوا بأي تقوقع دون أن يفتحوا على مصلحة العالم كله، فضلاً عن مصلحة الأمة.

إننا نظلمهم، ونظلم أنفسنا حين نسجنهم في قفص أوطانهم، وفي حدود جغرافية ضيقة.

إننا نخسر بذلك هويتنا الواحدة، وانتماءنا الواحد، ونبقى بلا رموز عملاقة، فإنَّ الأوطان الصغيرة مهما أعطت من رموز، فلن تعطي رموزاً كما هي الرموز والقدرات الواسعة التي تنتشر بقدر ما ينتشر أفق العالم.

وهل تكريم رسول الله ﷺ يخالف الوطنية؟

رسول الله ليس خاصاً بوطن واحد.

هل تكريم أي من الصحابة؟

وأي من الأئمة عليهم السلام يعني الانفصال، والانفصام عن الولاء الوطني؟

٤- هناك الارتباط العاطفي والمشاركة في أفراح الأمة وآلامها.

فللأوطان مناسباتها الخاصة، وهذه المناسبات ذات المصلحة، والتي تركز على الاستقلالية عن الأجنبي، وتعني الرجولة والأخلاقية، وتعني منعطفاً تاريخياً إيجابياً لهذا الوطن أو ذاك تكرم، وتحيا، ويتفاعل معها.

لكن حين نأتي لإحداث الأمة حدث كربلاء، فتوحات رسول الله ﷺ انتصار المسلمين في أي موقع من المواقع، فتحتمل بهذه المناسبات، تتفاعل معها، ونفي لها هل نكون كفاراً بالولاء الوطني؟

وهل هناك تنافٍ بين هذا والولاء الوطني؟

نحن جزء من هذه الأمة، وأنا حين أكرم الأمة أكرمت وطني، وهل أنا جزء منسلخ من الأمة حتى إذا كرمت الأمة عاديت وطني؟

وطني جزء - من جسم أمة - عملاق، وتكريم هذا الجسم الكامل هو تكريم لكل عضو منه، وبعث للحياة فيه.

٥- الإسهام في نصرته قضايا الأمة الكبرى كقضية فلسطين، والقدس، والمسجد

الأقصى هل يعني كفراً عملياً آخر لقضية الوطن؟

وهل يمثل ذلك تنافياً مع مصلحة الوطن؟

أو أنه يصب في مصلحة الوطن؟

معالجة أي جزء من أجزاء الأمة هو إعطاء العافية والصحة لمجموع الجسم، وإذا لم تحضر البحرين في المشكلة الفلسطينية، فمن سيحضر للبحرين في مشكلتها؟ نحن جسم واحد، ولا أظن الحكومة هنا تريد أن تقول للشعب بأن مثل هذه الأمور تتنافى والولاء الوطني.

٦- هناك ولاء خاص يتمثل في الارتباط السياسي الخاص المضر بالوطن وسلامته، واستقلاله في ظل التجزئة السياسية والجغرافية القائمة بين البلاد الإسلامية.

نحن نعيش واقعاً هو أن مصر وجود وطني، والبحرين وجود وطني آخر، وإن كانت الاثنان جزأين من جسم أمة واحدة ولهما مشتركاتهما العريضة وخطوطهما الرئيسة الكبيرة التي تمثل لب الحضارة الإسلامية والانتماء الإسلامي، لكن حين يراد مني أن أتعامل مع النظام السياسي في أي بلد لأحدث فوضى في بلدي، ولأنشر الخراب في بلدي حين يراد مني أن أهدم وطني؛ من أجل بناء وطن إسلامي آخر، فذاك وطن وهذا وطن، ولماذا أقطع يدي اليمنى؛ من أجل أن تبقى اليسرى من غير ضرورة؟

هنا نحن نتفهم لحساسية الدول ولحساباتها الخاصة الاحتياطية في هذا الجانب، ولكن المؤاخذ عليه هو فرط الحساسية والمبالغة في الحساسية، وحمل أي مظهر تكريمي عام، وأي مشاركة في مناسبة من مناسبات الأمة على مثل هذا التوجه.

هذا التوجه نرفضه كما نرفض هذه الحساسية المفرطة.

نحن مع استقلالية هذا الوطن، وسلامته، وأمنه واستقراره، ولا نرضى لأنفسنا، ولا للإخوة والأبناء أن ينسوا مصلحة هذا الوطن، وسلامته، واستقراره.

ثقافة الأمة ثقافتنا، وكل المراكز العلمية للأمة هي مراكزنا، واليد التي تمتد إلى الأزهر بشر، يد امتدت إلى قلب كل مسلم بسكين، ونالت من كرامة كل مسلم، واليد التي

تمتد إلى النجف الأشرف أو قم هي يدُ آثمة كأختها، ولا بدُّ أن يكون مسّ النجف، أو مس قم بما فيهما من فقهاء، بما فيهما من رموز دينية عالية، وقدوات على مستوى الأمة أن يكون مسًّا للأمة ومصالحتها في كل شبر من أرض الأمة.

علينا أن نصوغ مواطنين بعقلية الإنسان الذي يعرف كيف يجمع بين إخلاصه لوطنه وأُمته، وهذا ميسور جدًّا لو ارتبطنا بالإسلام وركّزنا وعيه، فإنّه في دائرة الإسلام، وعلى خط الإسلام نستطيع أن نفهم جيدًا نظريًّا وعمليًّا كيف لا نفصل بين الإخلاص للوطن والإخلاص للأمة، بين الإخلاص للأمة والإخلاص للوطن.

حياة أيّ بلد من بلدان الأمة، تكون بحياة البلدان الأخرى لا بموتها. ^(١)

الوطنية وموالة الحكم!

لا أريد أن أؤكد على وطنية جماهيرنا، لأنّها غير قابلة للتشكيك بأيّ مقياس من المقاييس حتى تحتاج إلى التأكيد.

والمواطنة والوطنية لا تعني الموافقة على السياسة السقيمة على حدّ الموافقة على السياسة الصحيحة، ولا تعني السكوت على الظلم والموالة لأيّ مشروع وإن كان فيه هلاك الوطن والمواطنين.

السكوت على غبن الحقوق، والإيغال في الظلم، والتهميش والإقصاء إنما هو على خلاف المواطنة الصالحة والإخلاص للوطن.

إن المواطن الصالح هو من يطلب الخير لشعبه وأرضه، ولا خير إلا في العدل الذي به حياة الأرض ومن عليها وما عليها.

فالمطالبة بالعدل والإنصاف من صميم المواطنة الصالحة، ومقوّم رئيس للمواطن الصالح، فلا تجد مواطنًا صالحًا يسكت على الظلم وهو قادر على إنكاره.

والجماهير إنما تهفو للعدالة، وإذا طالبت فإنما تطالب بها.

والمواطن الصالح من لا يخون شعبه في فلس واحد، ولا يزرع الفتنة في أهل وطنه، ولا يبيع شبراً من أرض الوطن على أجنبي، ولا يَمُكِّن له فيها بأي عنوان من العناوين بما يضر بالوطن بأي ثمن من الأثمان، والجماهير بريئة من كل هذا.

والمواطن الصالح هو مَنْ يقف مع استقلال وطنه، ومع أي انفراجة في الوضع السياسي العام تبشّر بشيء من مد الجسور، وإعادة الثقة، وتحمل بارقة أمل في الاستقرار العادل، والاعتراف بالحقوق، واحترام الكرامة برغم ما يعانيه من ظلم واستهداف وإقصاء في وطنه، والتجارب تشهد بأن جماهيرنا هي كذلك. ^(١)

الولاء من أين يبدأ، وإلى أين ينتهي؟

الولاء المطروح بمعنى المحبة، والطاعة، والنصرة.

وقضية الولاء قضية محسومة عند من له دين.

ولا شأن لنا بمن لا دين له، ولا يرى من عظمة الله وحقه ما يكفي.

أما مَنْ له دين، ويرى من عظمة الله وحقه العظيم ما يكفي، فإن ولاءه أولاً وبالذات هو لله وحده لا شريك له، وكل ولاء يدين به هذا العبد المتدين هو ولاء منبثق من ولاء الله، ومنتهٍ إليه.

والولاء لله ولاء للحق، والعدل، والخير، والجمال المعنوي الأسمى.

والمؤمن يعيش حالة الولاء وعدم الولاء، فلكل مؤمن حالة من الولاء، وحالة من عدم الولاء.

إنه يعيش الحالتين مع نفسه، فيوالي من نفسه خيرها، ويعادي منها شرّها، ولذلك يتوب عن السيئة، ويهبط في نظر نفسه كلما ارتكب من ذنب، فأنت وأنت مؤمن تُوالي نفسك وتعاديها، ولا يكون أحدنا مؤمناً حقاً إذا كان ولاؤه لنفسه على الإطلاق؛ حيث يرضى منها الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال.

وإنما تُحب نفسك، وترضى عنها، وتسكت عليها حين تكون على خط الله.

وإنك لتقف أمامها منتفضاً ثائراً حين تجد منها ميلاً إلى خط الشيطان.

والمؤمن يعيش هاتين الحالتين: حالة الولاء، وعدم الولاء مع أهله، مع زوجه وولده وأخيه وأخته وحامته، فيحب منهم خيرهم، ويبغض منهم شرهم، ويناصرهم على هداهم، ويواجههم على باطلهم إخلاصاً لهم ومحبة وشفقة.

وهو يعيش هاتين الحالتين مع مؤسسته، ومع قريته، ومع مدينته، ومع وطنه وأُمَّته؛ فيحب من وطنه ولوطنه الخير، ويبغض من وطنه ولوطنه الشر، وهكذا بالقياس إلى أُمَّته.

ومرتكزه الأساس في عيشه لهاتين الحالتين هو ولاؤه لله تبارك وتعالى.

نفس المؤمن مصنوعة جميلة، مهيّبة، متعلّقة بالخير، فلا تحب إلا الخير، ولا تجد منها للشر إلا بغضاً، ذلك من منطلق حبها لله تبارك وتعالى.

أما عن العلاقة بأمن الوطن، فما من عاقل إلا ويسئته، ويزعجه، ويغضبه، ويرعبه أن يُعتدى على وطنه، وأن يُمسّ أمن الوطن وكرامته، وليس عاقلاً من ساعد على ذلك، وكيف لعاقل أن يهدم بيته على رأسه؟!

أو أن يُحوّل حياته، وحياة أهله فيه إلى جحيم؟^(١)

المسلمون السُّنة والشيعة وتهمة عدم الولاء للأوطان!

ما هو الولاء للوطن؟

أَنْ أَسْجُدَ، أَنْ أَرْكَعَ لِلأشخاص؟

أَنْ أَسْبِّحَ، أَنْ أَقْدِسَ ليلي نهارى للأشخاص؟

إِنَّ التَّسْبِيحَ والتَّقْدِيسَ لله وحده.

ما هو الولاء للوطن؟

هو الميل النفسي له بحسب الطبيعة البشرية، ثم الحرص على سلامة مصالحه، وطلب تقدم أوضاعه الكريمة، لا الساقطة والخبيثة، السعي في منفعة ووحدة وصلاح أبنائه، عدم عون أعدائه عليه، الدفاع عنه.

وماذا يُراد من الشيعة أكثر من ذلك؟

وماذا يراد من السنة أكثر من ذلك؟

ماذا يُراد من السنة في دولة شيعية أكثر من ذلك؟

وماذا يراد من الشيعة في دولة تحكمها حكومة سنّية أكثر من ذلك؟

والشيعة كما أثبت واقعهم غير مستعدين أن يُسلموا شبرًا واحدًا من الأوطان التي تضمهم إلى أي طامع.

أمام الدنيا ثورة العشرين في ظل الحكومة العثمانية، والتي قادها الفقهاء، وأعطى العراق من شيعته تضحيات ضخمة في سبيل إنقاذ البلد المسلم من الاستعمار الكافر.

هناك وثيقة فيما أتذكر لصاحب الكفاية الشيخ الآخوند وأضرابه تحت الشيعة على الانتصار لإخوتهم في المغرب العربي أمام الزحف الفرنسي.

ما هو الموقف في جنوب لبنان؟

ومن أصبر من الشيعة في مواجهة إسرائيل في تلك الساحة الساخنة؛ ساحة الدماء والأشلاء؟

كيف كان شيعة الكويت في الموقف من الغزو العربي للبلد العربي، من غزو حارس البوابة الشرقية للكويت؟!

دعونا نقف وقفة تسأل عن العلاقة بين الولاء للوطن والدين، بين الولاء للوطن والولاء للأمة المسلمة، والولاء للوطن والمطالبة بالحقوق.

الولاء للدين وللمذهب الذي أراه الدين، وأراه الصورة الأنصع للدين كما يرى أصحاب المذاهب الأخرى أن مذاهبيهم هي الصورة الأنصع للدين، ومن حقّي أن أرى

مذهبي هو ما يمثل الدين الحق في صورته الدقيقة الكاملة، وإن كان كل الآخرين من أصحاب المذاهب الأخرى مسلمين، كما هو من حق الآخرين أن يروا لمذاهبهم هذا الموقع وهذا الوزن.

ولائي للدين ينتقض ولائي للوطن؟!

إنَّ الدِّينَ ليدفع في اتجاه ولاء الوطن، ويقوم على تعاليمه ولاء الوطن، ولكن ولاء الوطن الذي لا يعني بيعه للأجانب، الذي يعني وجود القواعد الاستعمارية في الأرض الإسلامية.

هذا هو ما يسمَّى الولاء للوطن؟!

والذي يدافع عن أصالة وطنه، وعن إسلامه، وعن الأخلاق الموروثة لهذا البلد هو الذي يرمي عنه بعدم الولاء؟!

الذين يبيعون الأوطان للأجانب، للكفرة، ويثبتون أقدامهم في أرض الإسلام هم أصحاب الولاء؟!

والمواطن السُّنِّي، والمواطن الشيوعي الذي ينكر على استعمار المستعمر لبلاد الإسلام يمكن أن يُتهم بفقد الولاء؟!

وهل الولاء للوطن يقطعني عن الولاء للأمة المسلمة؟!

البحرين جزء من الوطن العام الإسلامي، وحبِّي للبحرين حبٌّ للناس، لمصر، حبٌّ للسعودية، حبٌّ لكل بلد آخر.

أنا عندي حُبَّان لهذا الوطن: حُبٌّ جِبَلِيٌّ، حُبٌّ عادي هو الحب الذي يورثه حب الارتباط بالتربة منذ نعومة الأظفار، ولأنه وطن الآباء والأجداد، والشيعة هنا من العصر الأول في الإسلام، فهم لا بدُّ أن يحبُّوا هذا الوطن من هذا المنطلق.

وهناك حُبٌّ آخر أشرق، وأركز، وأوعى وهو أن حبِّي للبحرين، لأنها بلد الإسلام والإيمان، وهذا الحب منتشر على كل شبر من الأرض الإسلامية الكبرى.

الذين يريدون لي أن أحبَّ البحرين لأبغض مصر، أن أحبَّ البحرين لأبغض

السعودية، لأبغض أفغانستان، لأبغض إيران، لأبغض أي شبر آخر من أرض الإسلام، فهم يطلبون مُحالاً.

وإذا طالبت بحقوق مُضيّعة، وإذا طالبت بموقعي الوطني اللائق بي، وإذا طالبت باللقمة، وإذا طالبت بالدار، وإذا طالبت بحق أولادي في التعليم، وفي التوظّف، وإذا طالبت بدستور عادل أكون قد فقدت ولائي للوطن؟!

وهل الولاء للوطن مربوط بالظلم؟

وبالسكوت عن الحقوق؟

فهم لا يُمكن أن يُقبل.^(١)

مَنْ يَبِيعُ الْأُوطَانَ؟

ينطلق المسلم المؤمن بدينه حقّ الإيمان في حبّ وطنه، وكلّ ما يقع عليه حبه من رؤية وشعور ديني لا يعدل به عن حبّ الخير، وبُغض الشرّ لمن خلق الله من نفس.

ولا يبغض المؤمن في أحدٍ إلا شرّه، ولا ينكر منه إلا إضراره، ولا يُخرجه من حبه إلا سوءه، وبمقدار سوءه.

وحبّ المؤمن لوطنه يدفع به إلى الأخذ به دائماً في اتجاه خيره، ورقّيه، وصلاحه، والعمل على رفاهه، وسلامة أوضاعه، وذلك لا يتم إلا بالأخذ بإرادة الله سبحانه في إقامة القسط، والرضا بالعدل، والتمسك بالحق، وخضوع كلّ طاعة لطاعته، وكلّ رضا لرضاه، وكلّ تشريع لتشريع.

فلا بدّ من الدعوة لكل ذلك بالتّي هي أحسن.^(٢)

والمؤمن لا يبيع وطنه على المخلوقين، كما لا يبيع نفسه إلا لله، ولا يجد ثمناً أبداً عند أحدٍ لبيع الأوطان، وأيّ ثمن ذاك الذي يبيع به المؤمن نفسه، وولده، وأهله، وإخوانه ومواطنيه في ظلّ شعوره الدينيّ النافذ الذي يحترم الإنسان، ويخاف الله؟!

١ خطبة الجمعة (٢٣٨) ١٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، ١٤ أبريل ٢٠٠٦م.

٢- وهذا دأب المؤمنين.

وإذا كان خارج وطنه نماذج إنسانية طيبة، ففي وطنه نماذج طيبة كذلك، وإذا كان من أبناء أمته الواسعة مؤمنون أتقياء، ففي وطنه منهم الكثير، وإذا كان لأمته كلها عليه حق، فإن حق أبناء أمته، وإخوته في الإسلام والإيمان من أهل وطنه أكبر.

وراحة الأوطان وسعادتها في إصلاحها، وسلامة أوضاعها، وليس في وضعها في مزادٍ عليّ أو سريٍّ لبيعها على أيّ كان.

المؤمن لا يمكن أن يبيع وطنه، وإنما يبيع الأوطان والمقدّسات أهل الدنيا، ومن لا يرون أن لهم وزناً إلا في المال والجاه، ولا يُشبع أحدهم أن تكون له الدنيا خالصة بلا مُزاحم.

لا يبيع الأوطان إلا من لا دين له ولا شرف، ولا احترام عنده للإنسان.

وكثيراً ما يُسوَّق الإعلام العربيُّ الرّسميُّ اليوم في حقّ الحركات التصحيحية والمطلبية والتغييرية وصمة التأمّر، وبيع الوطن للخارج، تهرّباً من الاستجابة لضرورة الإصلاح والتغيير، وللتشويش على سمعة وصدق المعارضة، واستغلال من يُمكن استغلاله، واصطياد من يمكن اصطياده.

وهذا مضحك!

فماذا أبقّت الأنظمة العربية من مادّةٍ أو معنًى مما تغنى به الأوطان لم تُساوم عليه الأجنبي القريب والبعيد؛ من أجل الإبقاء على تسلّطها الظالم، واستنزافها لما يبقى من ثروات الأوطان^(١)، ومن أجل استعباد إنسانها؟^(٢)

يقول المثل العربي: (رمتني بدائها وانسلّت)^(٣)؛^(٤)

١- بعد أن تُعطي ما تُعطي منها للأجنبي.

٢- هتاف جموع المصلين ب: (لن نركع إلا الله).

٣- جمهرة الأمثال ١/٤٧٥، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد الحميد قطامش، الطبعة الثانية ١٣٨٤ - ١٩٦٤م، دار الجيل، بيروت - لبنان.

٤- خطبة الجمعة (٤٧٠) ٢٤ شوال ١٤٣٢هـ، ٢٣ سبتمبر ٢٠١١م.

الولاء للوطن لا للأشخاص

أبناء الوطن الذين خلقوا من تربته^(١)، ونشأوا عليها، وتربوا فيها، واغتدوا منها، وأعطوها من عرقهم وعرق الآباء والأمهات والأجداد، وهي مدفن أحبتهم وأهليهم منذ مئات السنين، ولا يجدون بديلاً عنها، ولا وطن لهم آخر غير هذا الوطن.

حبهم له لا يقتلع من القلوب، ولا مورد للتشكيك في ذلك، والمشكك يرتكب زيفاً من الكلام، ويقف باطلاً من الموقف.

ومن كان وطنه هو مأواه ومرباه وليس له وطن غيره، وكذلك كان أمر آبائه وأمهاته، وحتى أجداده وأجداد أجدادهم ممن كانوا في أعماق الزمن المنصرم البعيد، ونبت حبه لوطنه من أرضية هذا الواقع وفي ضوء عقيدة الإيمان، فلا يمكن أن يتمنى لهذا الوطن إلا الخير والإعمار، ولأهله إلا الأخوة، والمودة، والاحترام المتبادل، والتراحم الصادق، والعزة، والحرية القويمة المسؤولة، والصلاح والاستقامة على طريق الإنسانية الرفيعة والدين القيم.

وهل رأيت راشداً يهدم بيته خاصة وأن ليس له غيره، ويفسد مسكنه في حين لا مسكن ولا مأوى له دونه؟!

وإذا كان الناس يتفاوتون في الحب والوفاء، فلا يعقل من حديث جنسية وله وطن آخر أن يكون أصدق حباً ووفاء للوطن ممن كان أصل وجوده ووجود أجداده إلى مدى زمني بعيد قد مضى من هذه التربة، وما أعطته من طعام وشراب وما لها من نصيب هواء وشعاع.

حكموا الولاء للوطن لا للأشخاص، ومن كان من الأشخاص مخلصاً للوطن وأناسه حقاً، فلن ينفصل الولاء للوطن عن ولائه، على أن كل ولاء من بعد الولاء لله.

(ولا)، ثم ألف (لا) لأي ولاء لا يلتقي بولائه سبحانه وتعالى.^(٢)

١- نطفة هذا الإنسان مصدرها ما أكل أبواه وشربا من أرض وطنهما وتنفسا من هوائه، واستفاداً من أشعة الشمس المرسلة إليه.

٢- خطبة الجمعة (٢٦٤) ٣٠ ذي القعدة ١٤٢٧هـ، ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٦م.

ولاء الوطن وولاء النظام

المقياس الذي تعمل به الحكومات العربية غالباً هو مقياس الولاء للنظام لا الكفاءة. وينبغي أن نلتفت جيداً إلى أن ولاء النظام يختلف عن ولاء الوطن، لأن ولاء الوطن قاضٍ برعاية مصلحته، وأخطاء الأنظمة وظلمها وتجاوزاتها لا تلتقي مع مصلحة الوطن. ولاء النظام يتطلب منك أن تقف مع أخطاء سياسته وظلمها واستخفافها بمصلحة الوطن، وأن تقف مع مخالفتها لدين الله، وإرادته، وكم للسياسة الوضعية من هذه المخالفات والمعاندات؟!

ويتطلب منك أن تقف بحزم في وجه أي دعوة إصلاحية لا يعطي النظام بها إشارة ضوئية خضراء لحاجة في نفس يعقوب، أو ضرورة قاهرة، وأن تُعين على كل ظلم ترتكبه السياسة، وتُسرف فيه.^(١)

معيار المواطنة في الحقوق والواجبات

وطن الجميع خير لا بد أن يكون للجميع، ووطن الجميع مسؤوليته لا بد أن تكون مسؤولية الجميع.

ومما يبحث عنه هذا الوطن وبإلحاح هو الخلاص من طائفية الحقوق والواجبات - وليس من واقع الطوائف -، ويُطرح معيار؛ للتخلص من طائفية الحقوق والواجبات وهو معيار المواطنة، وأن يكون معيار المواطنة هو المأخوذ به في قضية الحقوق والواجبات. أنت مواطن والآخر مواطن.

إذا، أنت مساوٍ له في مسألة الحقوق والواجبات العامة، وللخصوصيات الشخصية من حيث الكفاءة والخبرة والأمانة حسابها الخاص.

هذا المعيار له فاعلية، ولا نرفضه، ولكننا نملك معياراً أدق وأسمى وأكثر فاعلية، وله الاستيلاء على النفوس وهو أن نحكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في مسألة حق المسلم على المسلم وواجبه تجاهه.

١- خطبة الجمعة (٤٦٩) ١٧ شوال ١٤٣٢ هـ، ١٦ سبتمبر ٢٠١١ م.

كذب الذين ينسبون إلى القرآن الكريم، أو السنة المطهرة مشروعية عدوانية الشيعي على السني، وهضمه لحقوقه، واستثأره بالثروة العامة، وبالحق القانوني العام دونه، وكذب مَنْ يعطي السنة هذا بالنسبة إلى الشيعة، أي مذهب يدّعي أنَّ الكتاب الكريم والسنة المطهرة يحملان رائحة التشريع لصحة سلب حق الآخر، لأنه سني أو شيعي، ونهبه، وتهميشه في الحقوق العامة، فهو لا يجد سندًا صحيحًا من القرآن ولا السنة، وعليه أن يراجع نفسه، ومنطلقاته الزائفة للأخذ بهذا الرأي.

الخلاص من واقع الطوائف لمن استهدفه بالإلغاء للآخر أمر مستحيل، ومحاولة سحق طائفة لحساب طائفة، والإلغاء لها أمر مستحيل كما تتحدث لغة الواقع في كل مكان، وما بهذا أمر المسلمون، وأن يفتكوا، ويظلموا، ويستأصلوا بالسيف بعضهم البعض لمجرد الاختلاف الاجتهادي في الرأي، ولم يأذن الإسلام بأن يظلم مسلم مسلمًا؛ من أجل الغائه.

والاعتراف بالآخر بوجوده، بحقوقه، بواجباته هو الطريق إلى أن لا يؤثر واقع وجود الطوائف على مصلحة المسلمين التأثير القاتل.

والصورة المثالية أن لا يكون المسلمون طوائف، ولكن هذا ينتظر إمامًا أن يُبعث رسول الله ﷺ من جديد، وإمّا يأتي يوم القائم (عجل الله فرجه، وسهل مخرجه)، إذ من المرتقب قريبًا أن تذوب حالة الطائفية على مستوى الوجود الخارجي إلا ما نذر.

وفي غير هذا الفرض علينا أن نقبل واقع الطوائف، ويحترم بعضنا البعض، ونعايش التعايش السلمي المخلص القائم على التعاون الإيجابي، وعلى رعاية مصلحة الآخر، وحتى على التضحية في سبيله؛ وذلك من أجل مصلحة كل طائفة.

ومن أجل مصلحة كل المسلمين.

ومن أجل مصلحة الإسلام نفسه.

نخطئ جداً لما يحاول أحدها إضعاف الطرف الآخر؛ ليبقى هو ضعيفاً كذلك أمام الغزاة الأجانب.^(١)

الأيام الوطنية

اعتاد الناس اتخاذ أيام باسم أوطانهم.

وهذا لا كلام لنا فيه، فهو داخل في دائرة المباح إذا لم يعطِ صفة التشريع الديني، ولم يخرج عن حدود ما أحلَّ الله.

وفيما ينبغي أن تكون عليه الأيام الوطنية في الأوطان الإسلامية، أن تكون أيام وقفة على الهموم والآمال، هموم الشعوب قبل هموم الحكومات، وآمال الشعوب قبل آمال الحكومات، والحكومات إذا انسجمت مع شعوبها لم تكن لها هموم، ولا آمال إلا من هموم وآمال شعوبها، وهو ما ينبغي أن يكون عليه وضع أي حكومة عادلة.

وهذه الأيام يجب أن تكون أيام استذكار لتضحيات التحرير والإصلاح - هناك تضحيات تحرير من عدو خارجي، وهناك تضحيات إصلاح داخلي -، وأن تكون أيام مراجعة لمسيرة العدل والظلم، الائتلاف والاختلاف، المساواة والتفرقة، أن تكون أيام نقد للذات؛ للتركيز على الصالح، ونفي الطالح.^(٢)

المناسبات الوطنية الكريمة التي تؤكد على العزة، والأصالة، والرَّفعة، والاستقلال الحميد إنما تُحيا بالمعنى الأكثر جدية من خلال التركيز على هذه المعاني، والمشاريع العملية الشاهدة بالتقدم على مسار العلم، والعدل، والعمران، والمساواة الاجتماعية،
والتححرر من سيطرة الأجنبي الفاشم.

وأي تعبير شكلي عن الفرحة لا بدَّ فيه من أن يكون من النوع الراقي والأخلاقي الكريم، وإلا كان شائئاً، ومنافياً لاستقلال البلد ومصلحه.

١- خطبة الجمعة (٣٠١) ١٤ شوال ١٤٢٨ هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٧ م.

٢- خطبة الجمعة (١٣٣) ١٨ شوال ١٤٢٤ هـ، ١٢ ديسمبر ٢٠٠٣ م.

والمناسبات الوطنية ما كان منها بناءً ومجيداً، رسمية كانت أم شعبية غير متهافة في نفسها، فلا يهافت بينها لا على يد شعب ولا حكومة، ولا على مستوى الكلمة أو التطبيق. وهي لا تكون مبعث قلق ولا ارتياب، ولا يناسبها أن تأتي استفزازية أو مثيرة شكاً، ولا أن تحمل على ذلك قصداً.

وإنني أرى من اللائق أن تتوافق الإرادة الرسمية والشعبية معاً على الاعتزاز بالوطن، والعمل على سلامته وأمنه واستقراره، واحترام مناسباته البناءة المجيدة، وارتباطه بدينه وتاريخه الإسلامي المجيد وقيمه، وعلى تكريم شهدائه، ورجال العلم الصالحين ممن مضى من أبنائه بالأساليب المختارة البناءة التي تشجع على الفضيلة والبذل والعطاء والإيثار، وتركز المعاني الإسلامية والقيم الرفيعة، وتساعد على التلاحم؛ من أجل الخير، والرفعة، والتقدم.^(١)

(٤)

قضية حقوق المرأة

شعار حقوق المرأة

وهو شعار صار يُرفع بقصد التغريب والأغراض السياسية الدنيئة، والتقليل من شأن الإسلام، والتزهيد فيه، والنفرة منه.

هناك مزيدة كاذبة على الإسلام في حقوق المرأة، ومسلم أن على الرجل واجبات وله حقوق، وعلى المرأة واجبات ولها حقوق، ولكن كل الأمر يتمركز في هذا السؤال: ما هو المرجع في كل ذلك وغيره من الحقوق والواجبات في حياة الناس؟

شريعة الله العدل الحكيم، العليم الخبير، أم شريعة الإنسان الظالم لنفسه، الذي لا علم ولا حكمة له من ذاته؟!

القرآن الكريم وسنة المعصومين عليهم السلام، أم اتفاقية سيداو، وقرارات الأمم المتحدة، ووثيقة حقوق الإنسان بما فيها من علم وجهل، وحق وباطل، وصلاح وفساد؟!

أين العلم، والحكمة المطلقة، والرأفة المطلقة، والعدل المطلق؟، عند الخالق أم المخلوق؟

عند الكامل المطلق، أم الناقص المحدود؟!

الناس الذين يعيشون في الأرض فسادًا، ولا يكفون يومًا عن ظلم أنفسهم والآخرين، وعن البغي في الأرض، ولا يقيمون لحق الله وَحَقَّ وحق خلقه وزناً هم الذين يؤخذ منهم التشريع، ويرجع إليهم في معرفة العدل؟!

بئس به من عدل مصدره الظالمون، ومن حق يحدده الباغون، ومن خلق يراه الهابطون!^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ، ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

المرجع في تحديد حقوق المرأة

الإسلاميون مع توعية المرأة على حقوقها وواجباتها والعدالة، وتنقية قوانين الأسرة من كل ما يتعارض مع مبدأ المساواة والعدالة.

ولكن يتركز خلافهم مع الآخرين في العلم والعدل والإحاطة التي يُرجع إليها في تشخيص المساواة والعدالة في مختلف الموارد التي تنظمها الأحكام الشرعية، وتتعرض إليها والقوانين الوضعيّة.

فهل المرجع هو علم الله وَعَلَّمَ، أم علم الإنسان؟

وإحاطة الله، أم تجربة الإنسان؟

وعدل الله المطلق، أم ما قد يدّعيه الإنسان من عدل وما يمكن أن يكون عنده منه وهو قليل محدود مضطرب غير ثابت ولا مأمون؟^(١)

وليس العدل كما يراه كثير من البسطاء بأن تساوي بين المتباينين، وتضع الأخضر مكان الأبيض، والأبيض مكان الأخضر، أو تباين بين المتساوين.

إنّ العدل تساوي في الحكم حيث يتساوى الموضوعان، وتباين فيه بمقدار ما بين الموضوعين من تباين، وقد تتحد بعض جهات الموضوعات المتعددة، وتتفاوت منها جهات أخرى.

فالإنسان واحد بكل أصنافه من حيث إنسانيته، وعلى ذلك تجمعه أحكام واحدة من جهة هذا الاشتراك، وتتفاوت بعض أحكامه من جهة الاختلاف.

في إطار الرجل وحده يمكن أن تتفاوت الأحكام، وكذلك على مستوى المرأة وحدها، على مستواهما معاً، وذلك من حيث ما بين الأصناف من افتراق.

فالغني له تكليفه المناسب لغناه - ذكرًا كان هذا الغني، أم أنثى -، والفقير له تكليفه الذي يلائمه من جهة ما هو عليه من فقر، والقوي له تكليف، وللضعيف تكليف

١- خطبة الجمعة (٥) ١٠ صفر ١٤٢٢ هـ، ٤ مايو ٢٠٠١ م.

آخر، ولخصوصية الذكورية دخل في بعض التكاليف، ولخصوصية الأنوثة دخل كذلك، ومن أنكر ذلك فهو يرمي بالعقل، والمنطق، وموازين الحق والعدل جانباً.

وأين الانسان من القدرة على التشريع العادل؟!

العدل له مقومات، ومن مقوماته:

١- علم لا يحده، ولا يشوبه جهل، ولا غفلة.

٢- عدم الحاجة للظلم على الإطلاق، المشرّع العادل يشترط فيه أن يخلو من الحاجة للظلم على الإطلاق، وإلا ارتقب منه أن يظلم في تشريعه.

٣- انتفاء كامل للخوف من العدل.

ربما اتجهت نفس لأن تقييم العدل، ولكن يردّها عن ذلك أنها تخاف، فيشترط في ضمان أن يكون المشرّع عادلاً أن ينتفي الخوف من العدل عنده على الإطلاق.

٤- تنزه شامل عن الهوى.

٥- قدرة لا يردّها رادّ.

وهل لغير الله سبحانه كل ذلك؟!

وهل من شيء من ذلك إلا وهو الله العظيم؟^(١)

المرأة والتشريعات الإسلامية

كثيراً ما يُسأل عن موقف الإسلام من المرأة، والإسلام من بعد أساسه العقيدي فيه رؤى ومفاهيم، وتشريعات، وآداب، وتوجيهات، وتربية، وإعداد.

وتشريعه فيما يتصل بأي موضوع من الموضوعات الرئيسة يسبقه تقديم رؤية دقيقة وافية عن ذلك الموضوع، وإعطاء الناس التصور الذي يُريهم من حقيقة ذلك الموضوع ما يستطيعون، ويقربهم إلى فهمه قدر ما تتسع له مداركهم.

١- خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ، ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

١- قاعدة الاشتراك في الأحكام

والمرأة والرجل موضوع واحد مشترك للأحكام التشريعية التي تنظم حياة الإنسان وتعدّه إعداداً ربّانياً حكيمًا لبلوغ غايته حيث إن كلاً منهما حصّة من حقيقة واحدة هي حقيقة الإنسان.

ولذلك يأخذ الفقهاء المسلمون بقاعدة الاشتراك في الأحكام بين الرجل والمرأة إلا ما قام الدليل على خلافه.

فخطابات الشريعة وتكاليفها محمولة عندهم قاعدة على أنها خطابات لكل من الرجل والمرأة.

٢- الاشتراك على أساس الإنسانية

وهذه الخطابات المشتركة تقوم على أساس من الحقيقة المشتركة بينهما، وهي إنسانية الإنسان.

وتجد وفرة من النصوص قرآناً وسنةً في موضوع الإنسان، وتقديم تصور إسلامي واضح عنه.

وتعطي المطالعة لكل من التصور الإسلامي للإنسان، والأحكام التشريعية المتعلقة به صورة جليّة عن التناسب الدقيق بين ما هو التصور الإسلامي لهذا الكائن، وبين الأحكام المتمشيّة مع مسار هذا التصور.

وإذا كانت القاعدة في المرأة والرجل هي الاشتراك في الأحكام للاشتراك في الإنسانية، فإنّه يوجد من بين الأحكام وهو قليل ما يخصّ الرجل وحده، أو يخصّ المرأة وحدها، ووراء هذا الاختلاف، اختلاف بين الاثنين لا يمسّ جوهر إنسانيّتهما، ولا ينال من قيمة هذا أو ذاك فيما هو المهم من واقعهما الكبير وهو تلك الإنسانية نفسها.

٣- الرجل والمرأة حقيقة واحدة

وكما يقدّم الإسلام رؤية واضحة للإنسان بما هو إنسان رجلاً كان أم امرأة؛ ليدلّ على طبيعة هذا الكائن، وطبيعة الأحكام التي تتسق مع واقعه؛ يقدّم تصوّراً لطبيعة المرأة التي قد شكّكت حضارات وأمم في حقيقتها، وأنها إنسان أو لا.

وإذا كانت إنساناً، فهي متوفرة على إنسانية كاملة كالرجل أو أنّ إنسانيتها ناقصة مما يجعلها في المرتبة الثانية من الإنسان.^(١)

فارق الذكورة والأنوثة غير جوهري

وتركز النصوص القرآنية على اتحاد المرأة والرجل في حقيقتهم الواحدة، وأنّهما من مستوى واحد في هذه الحقيقة، وقيمتهم من هذه الجهة لا تتأثر بفارق الذكورة والأنوثة، وأنّ السبق في المضمار الإنساني على المستوى الفعلي كما يمكن أن يكون للرجل بالقياس إلى المرأة، يمكن أن يكون للمرأة بالقياس إلى الرجل، بعد أن كان التأهيل لذات كلّ منهما بحسب الفطرة وبفيض الله سبحانه يُعطي قابلية هذا السبق لهذا أو ذاك.

ويلوّن فارق الذكورة والأنوثة الاستعداد، والتناسب بين كلّ من الرجل والمرأة والدور الوظيفي في بعض المجالات بحسب ما عليه تكوينهما من حيث هذا البعد السطحي الذي لا يلامس عمق ما هو إنسانيتهم الواحدة.

النتيجة

وبهذا يتوقع طبيعياً ومنطقياً من التشريع الإسلامي أن تكون القاعدة فيه الاشتراك في الأحكام بين الرجل والمرأة، مع الاختصاص الوظيفي في بعض الموارد.

قضية المرأة بين التأصيل الإسلامي، والتسطيح الوضعي

ودراسة أيّ تشريع في دقّته وقيّمته لا يمكن أن تكون صحيحة إلا في ضوء ملاحظته بالقياس إلى عدد من الأبعاد؛ وهذا بالنسبة للأنظمة التشريعية التي تنطلق من نظرة

١- نعم، هناك حضارات بحثت هذا الأمر وقرّرت بعضها أنّ المرأة ليست بإنسان، وقرّرت الآخر بأن المرأة وإن كانت إنساناً إلا أنها من مرتبة دونية والرجل فوق مرتبتها، أما القرآن فهو غير ذلك.

كونية محدّدة، وتحديدات للموضوعات الرئيسة المتّصلة بعملية التشريع كموضوع الإنسان، والحياة والآخرة، والفرد، والمجتمع، والحرية المطلقة للإنسان وسيادته الكاملة على نفسه، والهدف من هذه الحياة، وما هو المهم والأهم في الإنسان.^(١)

والمثل الحي لهذا النوع من الأنظمة التشريعية هو النظام التشريعي الإسلامي.

وأما الأنظمة التشريعية السطحية السائدة، فهي تتجاوز كثيرًا من هذه الأسئلة، وتشتغل بملاحظة الحالة السطحية لواقع الاجتماع في مقطع زمني قصير المدى، وتهدف إلى ضبط العلاقات الاجتماعية بما يتناسب مع هذا الواقع، أو بما يتماشى مع رغبة مصادر الحكم في المجتمعات، وتستند إلى الأعراف الغالبة ودساتير مختلفة لم تقم على نظرة كونية متكاملة.

إنّ التّأصيل للتشريع بنظرة فلسفية للكون والحياة والآخرة والإنسان والهدف الأقصى له، ومدى سيادته على نفسه، وما يمكن أن تناله معرفته، ومدى حاجاته، وما عليه خصائص ذاته إمّا أن يكون مهملاً تماماً عند المشرّع الأرضي، وإمّا منقوصاً، وإمّا مضطرباً، وإمّا مستعاراً من هنا وهناك.

١- التشريعات الأصلية يسبق فيها التشريع نظرة فلسفية للكون والحياة والإنسان، النظم التشريعية التي تحترم أنفسها لا تكتفي بالنظرة السطحية للواقع المعاش، وإنما لا بدّ أن تفرغ من قبل أن تبتدئ التشريع، أو تلامس مساحته أيّ ملازمة من تأصيل نظرة كونية متجذرة تتناول الكون ابتداءه والكون انتهاءه، والإنسان وموقعه، والإنسان في هذه الدنيا، وهل تستقبل الإنسان حياة أخرى؟

ما هي حقيقة الإنسان؟

ما طاقاته؟

ما مواهبه؟

ما هي استعداداته؟

ما هو الهدف المناسب له؟

أهو سيد مطلق في هذا الكون؟

أو أنّه حر بحرية محدودة؟

ما لم يفرغ النظام التشريعي الأصيل من الأجوبة الحاسمة على كلّ هذه الأسئلة لا يعطي لنفسه حق التشريع للإنسان وأنتم تعرفون حقّة كلّ الأنظمة التشريعية في الأرض التي لا تتناول هذه الأسئلة بجديّة، وبعضها قد يتلقى الأجوبة على هذه الأسئلة من فيلسوف يتغير رأيه يوماً بعد يوم.

ودراسة أيّ تشريع في دقته وقيّمته لا يمكن أن تكون صحيحة إلا بما ذكرنا.

وهو في كلّ الأحوال لا يمكن أن يمتلك الدقّة والاستيعاب والمعرفة الصائبة بالكامل من إنسان علمه محدود متغيّر لا يثبت على حال.

أما خالق الكون والإنسان، فهو خبير بما أبدعته يداها، محيط علمًا بكلّ ما خلق، فتشريعاته لا يتخلّلها قصور ولا نقص على أيّ مستوى من المستويات.^(١)

وإنّ القرآن الكريم والسنة المطهّرة يسبق فيهما التشريع للإنسان تقدّم تصوّر متكامل عن تكوينه ودوافعه وهواجسه وقواه، وواقع الحياة الدنيا التي يعيشها، وطبيعة الآخرة التي يستقبلها، والهدف الذي كان من أجله الإنسان، وكانت من أجله الحياة، وكلّ ذلك معلوم لله سبحانه على حقيقته بما لا يتوفّر للإنسان، ولا لأيّ مخلوق آخر.

وتأتي التشريعات الإلهيّة لهذا المخلوق متناسبة مع الحجم الحقيقي لهذه الأمور وغيرها مما له دخل في موضوع التشريع، وما تهدف إليه تربية الإنسان مما تدعو إليه فطرته، ويحقّق سعادته.

فالتشريع الإلهي مقاس على قدر الإنسان، وطاقاته، وحاجاته، واستعداداته، وغايته.^(٢)

أصل: المرأة الإنسان

ويتحدث المصدران الإسلاميان العظيمان الكتاب والسنة عن المرأة الإنسان، ويقدّمان عنها تصوّرًا يؤكّد على أخوّتها للرجل، والتقائها معه في أصل واحد وحقيقة واحدة، وعلى قيمتهما المشتركة تعزيرًا لموقعها الإنساني في المجتمع الذي يعمل على صياغته، ودفعًا لتوهم الفارق في الحقيقة حين يختلف الدور الوظيفي بين الاثنين في بعض الموارد مما يقتضيه الفرق بين طبيعة الذكورة والأنوثة، وهو أمر آخر لا علاقة له

١- وأؤكد أن فهم الإنسان لفلسفة أحكام الله ليس مقياسًا لصحة تلك الأحكام أساسًا، لأنّ الأمر هكذا: «وَمَا أُوتِيتُمْ

مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». (الإسراء: ٨٥)

٢- بالدقّة بالكامل وبصورة مائة في المائة.

بمستوى إنسانية الإنسان، وإنما هو من باب التفاوتات الحاصلة في صف الرجال نفسه، أو في صف النساء نفسه مما يفاوت بين رجل وآخر، وامرأة وأخرى في تفصيلات الأدوار الوظيفية المختلفة.

شواهد من القرآن الكريم

نقرأ هذه الآيات الكريمة في انطلاق الرجل والمرأة من أصل واحد من حيث التكوين.

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

فأنتم إخوة من حقيقة واحدة، وأصل واحد، وانقسامكم إلى ذكر وأنثى، وتعدّدكم شعوبًا وقبائل لا للفرقة والتناحر، وإنما للتعارف والتكامل.^(٢)

أما القيمة الفعلية من الناحية الأهم، ومن حيث المعنى الكبير والإنسانية الواحدة للذكر والأنثى، لهذا الشعب أو ذاك، لهذه الأمة أو تلك، لهذا الفرد أو لأخيه الفرد الآخر فميزانها التقوى ومدى الانشداد إلى الله، وتكوين الشخصية في ضوء أسمائه الحسنى.

٢- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٣).

أزواج الرجال من النساء، وأزواج النساء من الرجال ليست من طبيعتين مختلفتين من حيث الإنسانية وعدمها، أو من مرتبتين مرتبة إنسانية كاملة، وأخرى ناقصة، إنهما

١- الحجرات: ١٣.

٢- أنت يا أحمد، أنت يا زينب، أنت يا صنف أحمد، أنت يا صنف زينب، خلقتكم من ذكر وأنثى، فأنتم من أصل واحد. ليس أحمد وزينب فقط، إنما زينب السوداء وزينب البيضاء، وأحمد الأسود وأحمد الأبيض كلكم جئتم من ذكر وأنثى.

٣- وهي وظيفة انحرفت بها الحضارة المادية إلى درجة مائة وثمانين؛ لتتخذ من اختلاف الناس إلى ذكر وأنثى، وإلى شعوب وقبائل أداة تمزيق وتخريب وإفساد.

فهناك حروب تنار باسم المرأة، وباسم العنصرية، وهناك حروب تنار باسم الوطنية، وباسم القبلية، وكلها حروب لا يعترف بها الإسلام، وينظر إليها كاستغلال بشع جاهلي ترتكبه الحضارة الجاهلية؛ لإفلاق حياة الإنسان، واستغلال الإنسان نفسه.

٤- النحل: ٧٢.

ذكر وأنثى من مرتبة إنسانية واحدة بتأهيل يهيئهما لاختصاصين وظيفيين متكاملين،
تحتاجهما حياتهما، وتسان بها مصلحة إنسانيتهما.

٣- ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١).

فالأصل الواحد، والذكورة والأنوثة، كل ذلك من أجل زوجية مترابطة متكاملة
ينجذب فيها كل طرف إلى الآخر من موقع الفطرة والتكوين، ومن منطلق الحقيقة
الجامعة، وحاجة كل شطر فيها إلى الآخر.

التشريعات تتفرع من هذا الأصل

ويقوم على هذا الاتحاد في الأصل والإنسانية حكم الإسلام بالاشتراك في المسؤولية،
والتكليف في المساحة الواسعة من فعل الرجل والمرأة، والمساواة في الجزاء مثوبة وعقوبة
كما يشهد بذلك النظام التشريعي والجزائي في الإسلام في عموم مواردتهما إلا ما
استثنى مما هو قليل جداً، وله فلسفته الخاصة به، والنابعة من طبيعة الذكورة والأنوثة،
والدور الوظيفي المناسب لكل منهما، وما يقتضيه هذا الدور.

فمن حيث التكاليف يشترك الاثنان في كل الواجبات والمحرمات، ويختص الرجل
بالتكليف في مورد الجهاد الابتدائي، ومن حيث الجزاء في المورد الذي تقطع فيه يد
أحدهما تقطع يد الآخر لو ارتكب ما ارتكبه صاحبه، وكذا مورد الجلد والرجم، وكل
الحدود والقصاص، وفي مورد تقتل فيه المرأة الرجل يقتص منه قتلاً إذا دفع أهلها
نصف دية.

وهنا اختلاف بين الاثنين مرجعه ليس الاختلاف في الإنسانية التي لا تشتري بمال
أبداً، وإنما قد يكون مرجعه الاختلاف في القوة النوعية الإنتاجية، وفارق التكاليف المالية
التي أنيطت بالرجل دون المرأة في نظام الأسرة في الإسلام.^(٢)

١- القيامة: ٣٩.

٢- خطبة الجمعة (٥٩) ٤ ربيع الأول ١٤٢٣هـ، ١٧ مايو ٢٠٠٢م.

النتيجة

المرأة أخت الرجل أصلاً ومنحدرًا فيما يقرّره الكتاب الكريم.

قيمة مشتركة

بعد اتحاد الأصل والمنحدر بين الرجل والمرأة، وأنهما فرعان على ساق واحد، فهل نتوقع من الإسلام أن يعطي للذكر مرتبة تفوق مرتبة المرأة؟، ثم هل نتوقع من الإسلام أن يعطي المرأة مرتبة تفوق مرتبة الرجل؟

١ - تقول الآيات الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(١).

والآية فيها قسم بخلق الذكر والأنثى، وهو إشارة إلى أنه من الخلق العظيم، والخلق الدقيق، والخلق القويم.

وعظمة هذا الخلق، واستقامته، واستواؤه، ودقته؛ كل ذلك لا فرق فيه بين رجل وامرأة، لأن الآية الكريمة تجعل الاثنين متعلقًا واحدًا للقسم، فهي لا تقسم بخلق الذكر وحده؛ لتضيف إليه القسم بخلق المرأة، ولا تقسم بخلق المرأة ثم تضيف إليه القسم بخلق الرجل، إنما هو قسم واحد مشترك بخلق واحد على درجة واحدة من العظمة في ما يعطيه السياق: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، وليس التعبير: (وما خلق الذكر وما خلق الأنثى)، ولا العكس.

فهنا قيمة مشتركة واحدة، ومستوى واحد، ومرتبة واحدة يتبوأها كل من الرجل والمرأة.

٢ - آية كريمة أخرى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢)، ويستمر السياق إلى أن يقول سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ

١ - الليل: ٣.

٢ - آل عمران: ١٩١.

مُنْكُمْ مَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴿١﴾.

تجدون في الآية الكريمة الأولى نموذجاً رفيعاً من الناس، فئة قطعت شوطاً بعيداً على درب الكمال، وفي اتجاه الله سبحانه حتى تجاوزت الدنيا، وما فيها، وشعت منها الروح حتى غدت تتلأأ بنور من نور الله، هذه الفئة فيما تعطيه الآية الأخيرة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾. (٢)

كما تضمّ الرجل تضمّ المرأة، فهناك فئة منها رجال، ومنها نساء؛ تستمر هذه الفئة في رحلة الكمال، وتتجاوز آفاقاً بعيدة على ذلك الدرب حتى ينوّه الله سبحانه وتعالى بها في كتابه المجيد: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. (٣)

قلوب تعلقت بربها، أرواح شعت بنور بارئها، أفئدة كبرت وسمقت حتى لم يستلفتها على طريقها شيئاً من زينة الدنيا وزخرفها، أفئدة لا ترى وجودها ولا ترى معناها، ولا تسعد لها حياة إلا بأن تتجه إلى الله، تعيش ذكره سبحانه وتعالى، تتغذى بذكره؛ ليفنيها غذاء الذكر عن كل غذاء، ويرتفع بها غذاء الذكر فوق كل منزلة، هذه الفئة فيها رجال، وفيها نساء، لأن الآية الأخيرة وهي نفس السياق: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ (٤)، تفهمنا ذلك.

فإذا، ليس غريباً أن تفوق امرأة خمسة ملايين، أو عشرة ملايين، أو بليون رجل.

وليس غريباً أن يفوق رجل واحد بلايين الرجال والنساء.

إنها قيمة التقوى: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾. (٥)

١- آل عمران: ١٩٥.

٢- آل عمران: ١٩٥.

٣- آل عمران: ١٩١.

٤- آل عمران: ١٩٥.

٥- الحجرات: ١٣.

الخلاصة

وإذا كان الأصل واحدًا، والمرتبة من حيث الإنسانية مرتبة واحدة، فهذا يؤسس إلى أن تكون المسؤولية مشتركة، وأن تكون التكاليف واحدة.

فإذًا، لا غرابة في أن تكون القاعدة في الشريعة الإسلامية هي اشتراك المرأة مع الرجل في كل التكاليف إلا ما دلّ عليه دليل خاص، ومواقع الافتراق كما تقدم إنما تنشأ لفوارق عرضية لا تمس أس الإنسانية في ذات الإنسان امرأة كان أم رجلًا، وهذه الفوارق العرضية إنما تؤسس لفوارق في الدور الوظيفي، وليس في القيمة الإنسانية، وليس في مستوى المسؤولية التي يتحملها كل من الرجل، وكل من المرأة.

مسؤولية مشتركة وتوزّع في الأدوار

تقول الآيات الكريمة:

١- ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾^(١)، الناس برجالهم ونسائهم.

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾^(٢).

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٣).
النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء محمول فقهيًا على التغليب، والمخاطب فيه الرجال والنساء من المؤمنين والمؤمنات، والكل متفق على قاعدة الاشتراك في الأحكام - كما سبق - إلا أن يأتي استثناء واضح في هذا المجال.

٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَلَا

١- آل عمران: ٩٧.

٢- البقرة: ١٨٣.

٣- التحريم: ٦.

يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفَرَ لِهِنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١).

هناك بيعة من الرجال لرسول الله ﷺ رسولاً وقائداً، والبيعة إنما تكون بلحاظ الولاية والقيادة لا بلحاظ التبليغ، قبول التبليغ أول ما يقوم عليه القناعة، وهذه القناعة تؤسس؛ لإعطاء الطاعة.

والبيعة إنما هي؛ من أجل الطاعة.

وكما أخذت البيعة على الرجال أخذت البيعة على النساء، وإن كان هناك نوع اختلاف بينما هو متعلق البيعة بالنسبة للرجال، وبينما هو متعلق البيعة بالنسبة للنساء، والفرق راجع للفوارق العرضية - كما سبقت الإشارة إليه -، أما أساس البيعة فأمر مشترك والرجال صنفًا، والنساء صنفًا يتحملان مسؤولية بناء الدولة الإسلامية في ظل القيادة الشرعية، ويتحملان مسؤولية الحفاظ عليها، وأن يكونوا مجتمعًا مؤمنًا مترابطًا يتحمل مسؤولياته الاجتماعية كل رجل، وكل امرأة بحسب كفاءته، وبحسب مقدوره، وبحسب ما عليه قدراته الخاصة.

٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا...﴾^(٢)، وهذا المبايعة على عدم الشرك بالله وهو أمر عقيدي إنما كان لوضوحه، فلم يبق فيه بعد الاقتناع الفطري إلا الاستجابة العملية بعدم الدخول في الشرك، وما ينسجم مع البيعة الخارجية في الأكثر إنما هو عدم إبداء أي موقف من مواقف الشرك، وأي مناصرة لخط الشرك، هذا الذي يمكن أن يحاسب عليه في العلاقات السياسية على أساس البيعة، أما القلوب فأمرها متروك لله بارئها، والخير بكل خفقة من خفقاتها.

٦- ﴿... وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ...﴾^(٣)،

١- الممتحنة: ١٢.

٢- الممتحنة: ١٢.

٣- الممتحنة: ١٢.

الزنا وهو كبيرة من الكبائر القذرة، وإتيان البهتان المفتري بين الأيدي والأرجل هو أن تكون المرأة ذات بعل، فتخون بعلها، وتأتي بولد من الحرام، والولد يأتي عند ولادته بين يدي ورجلي أمه، فهو تعبير عن الولادة المحرمة، وفي ظل عصمة الزوج.

وفي هذا بهتان، لأن الولد هنا سيُنسب زورًا إلى الزوج، فهنا جريمتان: جريمة الزنا وهي كبيرة، وجريمة هذا البهتان العظيم، والله المحاسب والمؤاخذ.

﴿... وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ...﴾^(١)، فمن متعلق البيعة عند النساء هو الالتزام الخلقي، والتمشي مع الأخلاقية الإسلامية الرفيعة، من دون أن تتلم المرأة كرامة الإسلام وكرامة الإيمان، وهي أهم من كرامتها حين تلتوي في سلوكها وتتحرف.

٧- ﴿... وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ...﴾^(٢)، هناك أمران:

أمر إلهي يبلغه الرسول ﷺ، وأمر ولائي يصدره الرسول بإذن الله سبحانه وتعالى، وهو أمر من موقع القيادة، ومن موقع الحكومة، ومن موقع كون الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم هذا الأمر - أمر القيادة - كما يجب على الرجال اتباعه يجب على النساء اتباعه، وإذا كانت المرأة لم تكلف بالجهاد الابتدائي، فهناك تكاليف اجتماعية وسياسية كثيرة يقدرها المعصوم أولاً، ثم يقدرها الفقيه ثانياً، وإذا أصدرت القيادة الشرعية من الموقع الذي يتبؤه رسول الله ﷺ، أو أمير المؤمنين (عليه السلام)، أو من نصبه الأئمة (عليهم السلام) حاكماً في الأمة، فإن هذه الأوامر الولائية كما تجري في حق الرجال تجري في حق النساء بلا فارق.

فالبيعة كانت ثابتة في عنق الرجال للقيادة الشرعية المتمثلة في المعصوم أولاً بعد الله سبحانه وتعالى، وهي ثابتة أيضاً في أعناق النساء.

١- الممتحنة: ١٢.

٢- الممتحنة: ١٢.

﴿... وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.^(١)

والمؤمنون أيها الإخوة، يحاولون أن يعطوا كلما في وسعهم من إخلاص لله، ومن إخلاص للقيادة التي يرتضيها الله سبحانه وتعالى، ومن بعد ذلك يحتاجون للاستغفار لأنفسهم، واستغفار الرسول لهم، ولولا غفران الله ورحمته، فإن أحداً من الناس لا يستطيع قط أن يوفي حق الله.

٨- ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.^(٢)

وبعد التشريع، وبعد القرار في القضاء، وبعد القرار في الحكومة من القيادة الشرعية لا يبقى أمام المؤمن ولا المؤمنة إلا الانصياع والاستجابة، وهي استجابة عن رضا؛ ليثاب هذا المؤمن والمؤمنة وإلا لكانت الاستجابة لا تمثل طاعة من طاعة الله سبحانه وتعالى.

فالمؤمن والمؤمنة يتحملان مسؤولية مشتركة أمام التشريع الإلهي وأوامر، ونواهي القيادة الشرعية، وبناء مجتمع الإيمان مجتمع العبادة والعمل الصالح، وأخلاقية الإنتاج والنشاط والعدل والإخاء والمساواة والإحسان والقوة والهيبة كل ذلك من مسؤولية الجميع من ذكر وأنثى.

والقيمة الإنسانية الواحدة، والمسؤولية المشتركة تمثلان معاً موضوعاً لكون النتائج مشتركة.

نتائج مشتركة

برغم توزع الأدوار تأتي نتائج العمل الصالح مشتركة، وقد يفوق فلاح فقهاً في النتيجة، وقد تفوق امرأة رجلاً، والخدام المخدم، والطالب المدرس، والجندي القائد.

١- الممتحنة: ١٢.

٢- الأحزاب: ٣٦.

أنت في موقع الجندي، وأخوك من أبيك وأمك في موقع القائد.

له مؤهلات من رزق الله تجعله قائداً، ولك مؤهلات من فيض الله تجعلك جندياً، والقائد في نظر الناس أعلى مرتبة بكثير من الجندي، لكن إذا أخلص الجندي عمله وقام بدوره متقناً، وأدى وظيفته كما أراد الله، واستقام على الخط في نيته متجهاً إلى الله، وقصر القائد بمقدار خمسة في المائة من قدراته وفرصه ومواهبه؛ فأيهما أكثر ثواباً، وأنجى عند الله؟

إنه الجندي بلا إشكال.

وصحيح أن للمرأة دوراً خاصاً في بعض الموارد، وأن للرجل دوراً خاصاً في بعض الموارد؛ الرجل قد يخوض معارك فيها يبذل نفسه، ويعيش شدة الحرب، ويواجه الموت مواجهة، والمرأة تربي طفلها في المنزل، وتحفظ بأخلاقيتها الإسلامية، وتصون عرضها، وتحسن تبعها، المقاتل يدخله شيء من العجب والغرور، فيموت على هذا، فليكن ذهب شهيداً إلا أن شهادته قد تكون مثلومة، والمرأة تموت وفي يدها طفلها تناغيه استجابة لأمر الله، وخضوعاً لأمره، ورضا بالوظيفة التي حدها الله سبحانه وتعالى، هذه المرأة، تموت مرضية عند الله، رفيعة المنزلة، وربما تقدمت على من نسميه شهيداً، خاصة في مثل هذه الأزمان التي لا ترتفع فيها المرأة في نظر الناس إلا بأن تتبوأ موقعاً سياسياً، أو حتى موقع العضوية في المجلس البلدي حين تصغي لأمر الله، وتوازن بين ما فيه رضا الله وما فيه سخطه، بين ما هو أرضى لله، وما هو أقل رضا؛ فتختار ما هو أرضى لله سبحانه وتعالى، فإنها البطلة في نظر الإسلام، وإنها لتسبق الرجل في ميزان الله سبحانه وتعالى.

قد تستطيع التقدم للمجلس البلدي بكفاءة، ولكن الأجواء أجواء الاختلاط، وأجواء التبذل، وأجواء الزمالة التي يفرضها العمل مع الرجل، وهي زمالة تعيشها شبه يومياً، وما تتعرض له في هذه الأثناء، وقد تختار المؤمنة ترك مثل هذا الموقع زهداً فيه؛ من أجل

حفظ العرض والعفة، وهي البطل الأكبر حينئذٍ في نظر الإسلام من مليون امرأة تتقدم
لمثل هذه المواقع من غير ورع ولا تقوى.

٩- ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. ^(١)

نفهم من تربية الإسلام، ومن مجمل أحكام الإسلام أنه يميل إلى أن تكون المرأة
راعية بيت، ومديرة بيت، وصاحبة عفاف وأنه لم يخطط لأن تكون المرأة شريكة الرجل
في أدوار العمل الكادح؛ من أجل المعيشة بقدر ما خطط أن تكون أمينة على الجيل مربية
له، محتضنة للرجل، مودة جواً مفعماً بالحب وبالراحة في بيتها، وبأن تكون شبه ملكة
البيت.

الإسلام خطط لأن تكون المرأة مربية راعية للجيل الجديد أكثر مما خطط، لأن
تكون بناة ونجارة وحدادة، وما إلى ذلك، نفهم ذلك بكل تأكيد.

وهذه المرأة التي تموت في بيتها، وذلك الرجل الذي يموت وهو يمارس مهنة البناء،
أو مهمة الجهاد معاً تقول عنهم الآية الكريمة: إذا أخلصا لله، وكان سعيهما إليه
سبحانه: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. ^(٢)

١- الفتح: ٥.

٢- الحديد: ١٢-١٣.

نور ماذا؟

نور الروح، نور الإيمان.

لا ظلمة في وجود هذه المرأة.

لا ظلمة في وجود هذا الرجل الذي تتحدث عنه الآية، حتى ليفيض النور ويتقدمهم، ويفتح لهم طريق الجنة.

نتائج مشتركة بين فئة من الرجال والنساء.

ونتائج مشتركة بين فئة أخرى من الرجال والنساء.

المؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم، ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار. أمّا المنافقون والمنافقات، والكافرون والكافرات، فلهم باب يسد عنهم عن الرحمة، يسد عليهم دون فرج الرحمة، باطنه العذاب، فهم في وسط العذاب، وليس عذاباً تحفه رحمة.^(١)

جبهتان تقسمان المجتمع

الفئة الأولى: المنافقون

١٠- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.^(٢)

هذه جبهة، وهي جبهة النفاق، وهي دائمة، ولها معالمها التي تحدثنا عنها الآية الكريمة.

نقرأ أن هذه الفئة دأبها أن تأمر بالمنكر، وأن تنهى عن المعروف.

والمنكر ما فيه فساد الإنسان والحياة والكون، والمعروف هو ما تبني به الحياة ويصلح به وضع الإنسان، وينسجم من خلاله كل شيء مع الوضع الكوني العام.

١- خطبة الجمعة (٦٠) ١٢ ربيع الأول ١٤٢٣ هـ، ٢٥ مايو ٢٠٠٢ م.

٢- التوبة: ٦٧.

السمة الثانية أنهم يقبضون أيديهم في موقع المحكوم، وفي موقع الحاكم، إذا بذلوا إنما يبذلون لدنياهم، وإذا أعطوا إنما؛ ليأخذوا ما هو أكبر، وإذا بذلوا إنما؛ ليشتروا الناس، وما يملك الناس.

هذا الدور التخريبي المفسد؛ هو لازمة النفاق التي لا تنفك عنه. وتجدون أن الرجل هنا في صف واحد مع المرأة، وأن المرأة في صف واحد مع الرجل. إنها الجبهة الواحدة المشتركة، التي قوامها رجل وامرأة بلا أن تفرق بينهما ذكورة وأنوثة.

الفئة الثانية: المؤمنون

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤَقِّمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١)

الفئة الأولى تعيش نسيجا: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(٢)، يأتلفون، ويتناصرون، ويدخلون في مؤامرة مشتركة على الإنسان والحياة، يبيعون من أجل دنياهم كل القيم، ويرتكبون كل الجرائم؛ من أجل لذة البدن.

هذا الدور التخريبي له نهايته.

إنَّ المنافقين هم الفاسقون، والفاسقون من أهل جهنم، ومن أهل غضب الله سبحانه.

في مواجهتهم جبهة أخرى فيها الرجل والمرأة وهو نسيج متلاحم يشد بعضه بعضاً، وللمرأة فيه دور كما للرجل دور والمسؤولية يتوزعانها مشتركة: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٣) يتناصرون، ولكل منهم على الآخر درجة من الأمرية؛ للرجل على الرجل والمرأة، وللمرأة

١- التوبة: ٧١.

٢- التوبة: ٧١.

٣- التوبة: ٧١.

على الرجل والمرأة درجة من الأمرية ودرجة من الحاكمية هي التي تعطيهم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما يعنيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التعرض لشخصية الآخر، والتصرف في شأنه بعض التصرف.

هذا التصرف، وهذا النيل هولون من الحاكمية للأمر والناهي بالقياس إلى الآخر على أنهما واجبان على ذات الأمر والناهي، أو ما تقتضيه الحاكمية والأمرية المتمثلة في حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الآخر.

فهنا دوران متعاكسان تمامًا: الفئة الأولى تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، الفئة الثانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

قل لي ربك كيف تتلاقى الفئتان على صعيد اجتماعي واحد؛ لتكون هاتان الفئتان داخلتين في نسيج واحد متلاحم؟!

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(١)، هذا دور؛ لبناء الوضع الاقتصادي، والوضع الاجتماعي الصحيح، للتقدم بالإخاء، لنشر الأخوة الإيمانية، لإحداث التماسك في المجتمع الذي لا يمكن، ولا يتأتى إلا على خط الله.

إنه لا تماسك في الاجتماع، ولا ائتلاف بين الإنسان والإنسان كما ينبغي، ولا يمكن إشادة بنيان مرصوص إلا على أساس من قاعدة الإيمان الصلبة الموحدة.

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، وكفى للدور أن يكون إيجابيًا، وأن يكون إصلاحيًا، وأن يكون بناءً ومتقدمًا، أن يكون تحت هدايات الله، وتحت أوامره ونواهيه العليمة الحكيمة، وكفى بالإنسان استقامة وإيجابية، وفاعلية خيرة أن يكون مرجعيته الله سبحانه وتعالى.

المطلوب هنا: أن نلتفت إلى أن المرأة ليست جبهة، في قبال جبهة أخرى قوامها الرجل، فهذا ليس بالانقسام الذي يؤمن به الإسلام، الانقسام الذي يؤمن به الإسلام

١- التوبة: ٧١.

٢- التوبة: ٧١.

هو هذا الانقسام.

إنَّ هناك جبهة هي جبهة الإيمان قوامها الرجل والمرأة، وفي قبالها جبهة هي جبهة النفاق والكفر قوامها الرجل والمرأة.

فالنساء في الإسلام لسن صفًا واحدًا ضد الرجال، ولا الرجال هم صف واحد ضد النساء.

إنَّ المواجهة ليست بين النساء مجتمعات، وبين الرجال مجتمعين، ولكن بين جبهة من المنافقين والمنافقات، وجبهة أخرى من المؤمنين والمؤمنات.

ولا تلتقي المرأة المؤمنة مع المنافقة في صف واحد وخندق واحد، ولا يلتقي الرجل المؤمن مع المنافق في صف واحد وخندق واحد.

الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة يلاقي بينهما الإيمان، ويوحد جبهتهما، وكذلك الرجل المنافق والمرأة المنافقة.

والصراع قائم على أساس الإيمان والنفاق، وليس على أساس الذكورة والأنوثة.

فليتعلم الرجل المؤمن ذلك ولا يخدع، ولتتعلم المرأة المؤمنة ذلك ولا تخدع.

ومحاولات اختلاق معارك جانبية بين المرأة والرجل، وبين المكان والمكان، وبين نوع من الاختصاص، ونوع آخر كلها؛ من أجل أن تضعف جبهة الإيمان بالتمزق والصراع.^(١)

حقوق المرأة والقانون المنصف

والقانون الذي سينتصر للمرأة على الرجل كما يسيئ للرجل يسيئ للمرأة، لأن المرأة يعزَّز عليها - أيضًا - أن تزوج ابنها؛ ليكون عبدًا بيد زوجته.

ما يسيئ للمرأة في هذه العلاقة يسيئ للرجل، وما يسيئ للرجل في هذه العلاقة

١ - خطبة الجمعة (٦١) بتاريخ ١٨ ربيع ١٤٢٣ هـ، ٣١ مايو ٢٠٠٢ م.

يسيئ للمرأة، وعلينا أن نتمسك بقوانين الله سبحانه وتعالى، مستفيدين من المساحة المباحة، وأن لا يكون تحايلنا في إطار التشريع مضرًا بروح التشريع نفسه.^(١)

هذه المزايدة على مَنْ؟!

هناك مزايدة تملأ الساحة العربية كلها على المستوى الرسمي وغير الرسمي، تتعلق هذه المزايدة بحقوق المرأة، هذه المزايدة على مَنْ؟!

سيبقى الإسلام أكبر راعٍ لحقوق الإنسان ذكره وأنثاه، والله سبحانه وتعالى ليس صديق الرجل، وليس صديق المرأة، ليس صديق الرجل على حساب المرأة، وليس صديق المرأة على حساب الرجل، الله رب العباد جميعًا، وهو أرأف بهم من أنفسهم.

رسول الله ﷺ أرأف بالناس من أنفسهم، فضلاً عن الله سبحانه وتعالى، هذه المزايدة على الله؟! المزايدة على رسول الله؟! على الإسلام؟! وهم إنما يرفعون هذا الشعار دائماً في وجه الإسلام، وفي وجه الإسلاميين، وكأن الإسلاميين خلقوا جفاةً، وخلقوا بلا ضمير، وخلقوا كلهم غلظة على الأم والأخت والبنت والزوجة، عجباها!!

سيبقى الإسلام أكبر راعٍ لحقوق الإنسان ذكره وأنثاه، روحه وبدنه، والغرب الذي يفتك بالملايين؛ من أجل النفط والتسويق لبضائعه، ويتاجر بالجنس لا يمكن أن نصدق بأنه مخلص للمرأة.

المتاجرون بالمرأة!

وكذب جداً من كل الذين يمتصون خيرات الشعوب، ويقهرونها، ويدلون بها فيها من رجال ونساء، وكذب من كل الفئات التي تناصرهم أن يقولوا بأنهم أنصار المرأة.

مَنْ هو نصير المرأة؟

تمتلئ خزائن الأرض من أموال شعوبهم.

١- خطبة الجمعة (١٥٢) ١٠ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ٣٠ أبريل ٢٠٠٤م.

تمتلىّ المصارف في الغرب من ثروات شعوبهم.

أو ليس من هذه الشعوب التي تمتص خيراتها عنصر المرأة؟!

أين الشفقة على المرأة؟!

أنا لا أستطيع أن أصدق أن نفعيًّا مخلص للمرأة، لا تجتمع روح النفعية وروح الإخلاص أبدًا.

والعملية عملية استغلال، واستغلال للمرأة باسم حمايتها.

إذا كانت المطالبة في حدود الإسلام، فهي لا تستوجب المطالبة بتشريعات وضعية فرنسية وأمريكية وبريطانية.

ولا تستقيم مع هذا التغريب العملي لوضع المرأة.

وإذا كانت المطالبة بتشريعات أخلاقية مستوردة، فهي تستهدف:

١- خلق روح عدائية عند المرأة المسلمة لقيم إسلامها وأحكامه؛ تمهيدًا لفصلها عن الدين، وحين تنفصل لا بد أن ينفصل الرجل، لأنَّ الرجل من تربيتها، رجل الجيل الثاني، رجل الجيل الثالث هو صناعة المرأة من جيل اليوم، فحين تنفصل المرأة في هذا الجيل عن الإسلام، فكل الرجال من الجيل الثاني والثالث يكونون قد انفصلوا عن الإسلام، هذا هو المطلوب.

٢- تحقيق مكاسب سياسية في مواجهة الإسلاميين - في الحملات الانتخابية وغيرها - بتصويرهم أنهم يقفون ضد حقوق المرأة، حين ينادون بحقوق المرأة في الإسلام، وعلى الطريق الإسلامية.

فالشعار حماية المرأة، والمطالبة بنتائج انتخابية وغير انتخابية على حساب الإسلاميين، والشعوب بكاملها، وصرف الأمة عن همومها الرئيسة، وخلق معركة وهمية؛ لتفتيت طاقات المجتمع.

٣- الملاحظ أن الغيارى على حقوق المرأة وحمايتها الادعائيين في الكثير من الماديين

المتقنين بالثقافة الغربية، وأصحاب الولاء الأجنبي، وتدخل فيهم حكومات تعاني شعوبها حتى الطفل والطفلة منها الأمرين.

والكلام على مستوى الساحة الإسلامية العامة، وليس على مستوى هذا البلد الخاص غريب أن يكون هؤلاء - حسب دعواهم - هم الأحرص على إحقاق الحقوق، وحفظ العدالة من كل المؤمنين، ومن الرسل، وحتى من الله العدل الحكيم تبارك وتعالى عما يصفون.

٤- ويل للسياسة، من يستعدى على من؟

والتفريق بين من ومن؟

والبعثة لأي كيان؟

البعثة لكيان الأسرة، الاستعداد للولد على أمه، للأم على ولدها، للزوج على زوجه - من ذكر، وأنثى - للأخ على أخيه.

اتقوا الله، لا توجد بعثة للمجتمع أخطر من هذه البعثة، والله عز وجل يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾^(١)، إلى آخر الآية الكريمة.

هذا هو الهدف الإسلامي، أن يخلق الأسرة كياناً مترابطاً، رباطه رباط الإيمان والحب والود والتفاني والإيثار، والقوم يأتون؛ ليخلقوا العداوة في داخل الأسرة، وليثيروا الزوج ضد زوجه من ذكر وأنثى؛ ليصطادوا في الماء العكر.

السياسة^(٢) خبيثة، فهي تضحي بالملايين، وترمي في البحر بكل القيم، وتخلق الفوضى؛ من أجل مصلحة كرسي، أو من أجل حفنة من المال.

أليس كلما تركزت القيم المادية، وابتعدت الأحكام عن شريعة الله تفاقمت مشاكل

١- الروم: ٢١.

٢- القائمة على حب الدنيا المفصولة عن القيم الخلقية وتقوى الله.

الأسر، وارتفعت معدلات الطلاق؟

ماذا تقول الأرقام عن وضع المرأة في الغرب، يا عشاق الغرب؟ والذين تقدمون المرأة فيها نموذجاً لبنت الإسلام؟

ألستم تنقلون الإحصائيات المرعبة عن الغرب، وعن تشتت الأسر في الغرب، وعن غلظة الرجل الغربي على زوجته التي تصل إلى الضرب، والإهمال الشديد؟

ألستم تنقلون حالة عن الغرب ينسى فيها الأب ابنه، وينسى فيها الابن أباه؟

وقد تقطعت الأرحام هناك بفعل الاتجاه المادي؟

أليست بنت الغرب تضج مما هي عليه من فقد الدفء العاطفي، ومن احترام الكرامة الإنسانية؟، أليست تفتش عن ذاتها؟^(١)

إكراه على التبذُّل!

هناك إكراه على التبذُّل، إكراهٌ للاستخفاف بالدين، والخروج على العفة والشرف، امتهانٌ لكرامة المواطن، استغلال بشع لحاجة الإنسان.

هناك أخلاقية عسكرية تركية في بعض المؤسسات التجارية في محاربة عفاف المرأة، وتدخل في حريتها الدينية.

هناك إكراه على لباس التبذُّل، والتخلي عن لباس العفة واللياقة؛ من أجل لقمة العيش، والمرتب الشهري الذي يُتقاضى قبال التعب وصرف جزء عزيز من العمر.

بعض البرادات في البحرين تفعل ذلك كله - حسب النقل المتكرر الذي يعطى الوثوق -، فأأي أخلاقية، وأأي إنسانية، وأأي ضمير، شريف، وأأي قانون يحمل رائحة الإسلام العدل القويم الكريم يجعل التعرّي شرط اللقمة، والعبودية للقرارات المتعسفة ثمنًا للعيش؟!

١ - خطبة الجمعة رقم (٨٤) ٣ شهر رمضان المبارك ١٤٢٣ هـ، ٨ نوفمبر ٢٠٠٢ م.

دموع التماسيح!

كُفُّوا عن هذا أيُّها التَّقدميون، الذين تتباكون على حرية المرأة وحقوقها المسلوبة!
وكأنه فيما أرى تباكٍ؛ لتكون المرأة العوبة، وإلا فأين التباكي على حرية المرأة من
هذا الإكراه، والامتهان للكرامة؟
هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن الفتاة التي تخضع لمثل هذه المساومات الرخيصة والجائرة
بتوهم الجواز للاضطراب مخطئة جداً، ومرتكبة للمحرم، فأين المضحَّى من أجله هنا
من المضحَّى به؟!

المضحَّى من أجله مال يسير حقير مغموس في مستنقع الذلة والهوان، والمضحَّى به
دين عزيز، وشرف رفيع، وعفة وطهارة وكرامة.

المضحَّى به رضا الله الذي لا يعدله أبداً، رضا المخلوقين مجتمعين، ومن أجله تبذل
الثروات، ويضحى بالحياة، ودعوى انحصار الحياة في مثل هذه اللقمة الفاجرة دعوى
بعيدة عن الانصاف والصواب، وفيها كثير من سوء الظن بالله الغني العلي القدير.^(١)

المرأة الإنسان

الإنسان بدنًا: لحم، ودم، وعظم ... إلخ، وهو كذلك فكر ومشاعر لا يبارح أي منها
الطين، ودوافع وحاجات وضرورات وشهوات ولذائذ بدن.

وهو بذلك كلُّه حتى بأفكاره، وبمشاعره المذكورة على حدِّ الحيوان.

وإنَّه كان له فكر لكنَّه منشَّد دائماً إلى المادة، وإن كانت له مشاعر ولكنها مرتبطة
دائماً بالأرض حيوان.

١ - خطبة الجمعة (٩٠) ١٥ شوال ١٤٢٣هـ، ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٢م.

والإنسان مما هو فوق ذلك عقل متجاوز لحدود المادة وحاجاتها، وقلب عارف، وروح مشعة، ونفس زكية، وأشواق سماوية طاهرة، وهدف كبير وراء هذه الحياة، وخلق رفيع مستضيئ بأسماء ربّه الحسنی.

والإنسان بذلك ملك لا حيوان.

ورحلة الحياة يجب أن تكون صعودًا إلى سماء الملائكية، لا هبوطًا إلى منحدر الحيوانات.

والإسلام وحده هو المنهج الصاعد بحياة الإنسان، أمّا المادية الساقطة، فلا بد أن تكون طريق الانحدار.

والإنسان روحًا وبدنًا محترم في الإسلام، ولا يُنقصُ الإسلام أحدهما حقّه. وظلم الإنسان في روح أو بدن قبيح، إلّا أن ظلمه وخيانتَه في بعده الروحي أقبح وأفدح.

والنظر للمرأة أو الرجل ليس إلا جسدًا يحتاجه الآخر، ويستمتع به إلغاءً لإنسانية الإنسان، وقتك بها، وتحقير لهذا المخلوق الكريم.

وإذا عمّمت المرأة جسدًا لمتعة الرجال، ونيلت منها الشهوة حرامًا كان ذلك خطأ شنيعًا لقدرها، وأكثر إيغالا في هدر ما وهبها الله من كرامة.

والذين يعملون على إسقاط حياء المرأة؛ لتكون سلعة رخيصة، ومقضى للشهوات الحرام إنما يلغون بذلك إنسانيتها، ويسحقونها سحقًا.

والمرأة في كل الأرض مستهدفة من الكثيرين بشئى الأساليب، ولدواع شريرة مختلفة، وبشعارات جذابة منها شعار حقوق المرأة، وشعار حريتها، والانتصار لها؛ لتنفصل عن المحور الحافظ لإنسانيتها وهو الدين الحقّ، وتسقط في مستنقع الرذيلة، ولتباع وتُشتري، ويُتاجر بها متاجرة السلع الرخيصة، ولتتحول أداة طيّعة في يد السياسة الظالمة الباغية القبيحة.

والمرأة المسلمة التي تعتزّ بدينها وشرفها صارت تعيش المعاناة من الكثير من التحديات والإهانات والتعديات والاستهداف الخبيث؛ لتتحدّر المنحدرات، وتسقط في الساقطات؛ وهي - بإذن الله - ثابتة كل الثبات، منتصرة في مقاومتها الصلبة الواعية لمحاولات الحرف، والتضليل، والإسقاط.

وعجيب لمن يسمّون أنفسهم بالتقدميين وهم عندنا متخلّفون! إنهم لا يأخذون من الغرب إلا ما خبث، ويدّعون ما طاب، وقد يوجد في الغرب طيّب، فهناك اعتراف ببعض الحقوق من حقوق الإنسان، وهناك رعاية ذوق في بعض الجهات.^(١)

حرية المرأة

القاعدة الشرعيّة في الإسلام أن لا قيد لإرادة أحد من خلق الله في نفسه على إرادة أحد، وأن الإرادة التشريعية الماضية على أي شيء من الخلق إنّما هي لله وحده بلا قيد ولا حد، على أنه تبارك وتعالى هو أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

ومشترك الرجل والمرأة هو إنسانيتهما، وبذلك يمثّلان من هذه الجهة بالتحديد موضوعاً واحداً لا تعددية فيه بلحاظ موضوعيته، ولا بلحاظ الأحكام المترتبة عليه؛ ولذلك جاءت القاعدة الشرعية بوحدة خطابات التكليف الإلهي لهما، وكذلك وحدة العقوبات الدنيوية المترتبة على بعض أفعالهما.

ويمكن أن نجد مفارقة بينهما في بعض الموارد النادرة سواء كان ذلك في مجال التكليف أم العقوبة.

ولا بدّ أن يكون لذلك منشأ من فارق الخصوصية الصنفية التي تمثّل موضوعاً آخر متبايناً بينهما لا يصح أن يلغى اعتباره في مقام التشريع العادل، ولكن بما لا يمسّ النظر إليه إنسانية أحدهما بالتأثير السلبي، ولا ينقص من كرامته على الإطلاق.

١- خطبة الجمعة (٣٢٠) ٤ ربيع الآخر ١٤٢٩هـ، ١٢ أبريل ٢٠٠٨م.

وتستطيع أن تلقى أمثلة بذلك في مسألة الجهاد الابتدائي، وباب الصلاة، وباب الطهارة، والإرث، والقصاص، وغيرها مما تقف وراءه خلفية التنوع الصنفي، والدور العملي المرتبط بذلك التنوع، والقدرة على مواجهة الظروف الموضوعية والتحديات القاسية في التعامل مع الطبيعة، وطرق إنتاج الثروة، وتحديات الصراع، ونوع شئ من الواجبات المناطة بكل منهما مما يتلاقى بدرجة أكبر مع طبيعته.

وأما المثوبة الأخروية، والمقامات الإنسانية، والدرجات عند الله سبحانه، فباب التنافس فيها مفتوح على مصراعيه أمام كل الناس ذكرهم وأنثاهم على حد سواء، ومن غير تفاضل أو تفاوت حيث إن مرد ذلك إلى الكمال الروحي، والرفعة الإنسانية، ولا صلة لشيء من هذا نهائياً بخصوصية الذكورة والأنوثة، وما قد يرجع إليهما.

فالإنسان في الإسلام من حيث إنسانيته وطهره وكماله مؤمن وفاسق، ومتق وفاجر، ومهتد وضال، وليس ذكراً وأنثى، ورجلاً وامرأة وهو في الأخير فريقان - من حيث الإنسانية - فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قوام الأول رجال ونساء، وقوام الثاني رجال ونساء.

وحتى تعرف أن تمايز الأدوار بتمايز الصنف لا يقوم عليه تفاضل إنسانية، ولا ثواب تسمع مما روي عن الإسلام أن جهاد المرأة حسن تبعّلها، وأن من ماتت في ولادتها فهي شهيدة.

والحرية في الإسلام ليست مسألة انطلاقة غير مسؤولة وراء الشهوات، ولا تفجر فيها يدمر صفاء الحياة وأمنها وجمالها المعنوي، ويحوّلها إلى حياة حيوان.

وليس حد الحرية أن لا تقتل الآخر ونلغيه جسدياً، ونأكل لقمة عيشه ظلماً فحسب، كما تذهب إليه مذاهب الأرض من معنى الحرية وحدّها، ولكن يقيّد الحرية كذلك أن لا تُذهب إنسانيتك وكرامتك وشرفك هدرًا، ولا إنسانية الآخر وكرامته وشرفه، وأن لا تقصد في الأرض الإفساد المعنوي كما لا تقصد فيها موارد وحياة المادة.

وعلى هذا إذا طالبنا بحرية المرأة، وحرية الرجل على ضوء الإسلام طالبنا بأمر ليس هو ما يُطالب به من حريتهما بالمعنى الذي تأخذ به مذاهب المادة في الغرب، أو الشرق، أو أي مكان.

وما نسمعه من ضجيج صاحب وشعارات خادعة تنادي بحرية المرأة في مجتمعات المسلمين إنما تعني الحرية المادية المتاجرة بالمرأة سياسياً واقتصادياً، وعلى كل المستويات، والمتخذة منها أداة تلهية ومقضى شهوة في معارض الأزياء والسينمات والمسارح والمراقص، وفي احتفال أقوام ممن يعدّون أنفسهم كباراً في هذه الحياة، وفي مؤتمراتهم، وفي كل زاوية ومفترق طريق.

شعار (حرية المرأة) الدوافع والأسباب

نعم، يفصح نية السوء وراء شعارات الحرية للمرأة والتي تطلقها حكومات كثيرة، ومن خلفها مؤسسات وجماعات أمور منها:

١- إن هذه الحكومات كما تمارس الظلم والقمع ضد الرجل تمارسه بالقسوة نفسها ضد المرأة، وتنتهك حريتهما بصورة صارخة في أكثر ساحات الحياة، وتأبى عليهما أن يشاركا - ولو بالرأي الحر - في اختيار نمط الحياة السياسية التي ترتبط بهما، وبشعبهما وبأمتهم، فأين الفرق؟!

٢- إنها تصدّر، وتستورد المرأة؛ لسد حاجة الملاهي، والمراقص، والفنادق التي تتلاعب بأعراض النساء، وتبيع عفتهن بالثمن الذي يربحها مادياً، ويلغي إنسانية المرأة، ويدوس كرامتها.

٣- كاذب من قال: إنه يحترم المرأة وهو يحتقر الرجل، ويكرمها وهو يهينه، ويحسن إليها وهو يسيئ إليه، وكذلك من قال: إنه يحترم الرجل وهو يحتقر المرأة، يكرم الرجل وهو يهين المرأة، يحسن إلى الرجل وهو يسيئ إلى المرأة.

فليس الرجل إلا امرأة، وليس المرأة إلا رجلاً من حيث إنسانيتهما، والمهان في هذا أو ذاك واحد وهو الإنسانية.

وشعارات الحرية بالمعنى الغربي المطروحة في بلاد المسلمين على لسان عدد من الحكومات والفئات لا بد أن تكون لها منطلقاتها الخاصة إذ لا معلول بلا علة، ولا ظاهرة بلا سبب، ونجد أن من أسباب ذلك:

أ- الحاجة إلى إرضاء الغرب، وتميرير مشاريعه، وتنفيذ رغباته؛ ليعين تلك الحكومات على شعوبها فضلاً عن التغاضي عن مظالمها لتلك الشعوب.

ب- بقاء الحكم التسلطي، وإضعافه لإرادة الشعوب الإسلامية، وتبذخه على حسابها أراه محل توافق بين الهيمنة الاستكبارية العالمية وبين ذلك النوع من الحكومات في البلاد العربية والإسلامية، لأنه من مصلحة الطرفين.

ج- يضاف إلى ذلك شرط مواجهة الإسلام على يد حكومات من أبنائه وهو الشرط الذي تحرص حكومات عديدة في بلاد العرب والمسلمين على الوفاء به، وهو الشرط الذي يأخذه الغرب على كثير من تلك الحكومات.

د- الحكومات المنفصلة عن الأمة الإسلامية رؤيةً وهماً ومصلحةً لا بد أن يدخل في مشروعها السياسي مواجهة الإسلام وإضعافه.

هذه الشعارات الزائفة الكاذبة تحاول أن تحدث فتنة بين طرفي المركب لأي مجتمع بشري وهما الذكر والأنثى، تفتيتاً للمجتمع إلى جنب محاولات التفتيت الأخرى للشعوب في داخلها، وكذلك فيما بينها والتي تعتمد عليها حكومات تجد في فرقة المجتمع فرصة بقاء أطول لها.

هـ- تحاول هذه الشعارات المخادعة حسب الهدف الغربي وهدف ذلك النوع من الحكومات أن تكسب نصف أي شعب من شعوب الأمة المستهدفة، والمتمثل في المرأة بلا ثمن وعن طريق المغالطة، وتنال نصرتها أو تحييدها على الأقل في معركة المطالبة

بالحقوق، وذلك على طريقة: (خدعوها بقولهم حسناء).

و- يمثل المسخ الحضاري لهويّة الأمة الإسلامية، وتراكم التغيرات السلبية في عقليتها وشعورها وانتمائها الحضاري هدفاً مركزياً للاستكبار العالمي وأتباعه.

وما يؤمّل في المرأة المسلمة أن تكون قد تجاوزت، وأن تعمل بدرجة أكبر على تجاوز أن تكون في موقع (خدعوها بقولهم حسناء)، ومصادقاً لهذه المقولة.

ويؤمّل فيها أن لا تظن بشريعة ربّها سوءاً، ومحاباة لرجل على حساب امرأة بفعل الشعارات والحملات الإعلامية الماكرة، وأن تحتكم هي وأخوها الرجل في كل القضايا، ومنها قضايا العلاقات الأسرية، والعلاقات العامة بينهما إلى شريعة ربّهما العدل الحكيم الرحمن الرحيم.^(١)

كرامة المرأة

كرامة المرأة شعار من شعارات الدنيا اليوم.

وكرامة المرأة من كرامة الرّجل، وكرامة الرّجل من كرامة المرأة، لأنّهما معاً إنسان، ولا كرامة للمرأة بعد هذا والرّجل مهان، ولا كرامة للرّجل في ظلّ هذا الوعي والمرأة مهانة.

فمَن كان يراعي كرامة المرأة لا بدّ أن يراعي كرامة الرجل، ومَن كان يراعي كرامة الرّجل، فلا بدّ أن يراعي كرامة المرأة.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٣٣١) ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٢٧ يونيو ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٤٤٩) ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ، ٢٩ أبريل ٢٠١١م.

(٥)

العلمانيّة

العلمانيّة والإسلام

لكل من الإسلام والعلمانية رأي في التدخّل في الشأن العام، وفي قضايا من مثل حدود الحرية الشخصية، والأحوال الشخصية، والمساحة التي يعمل فيها الدين.

وإذا نفت العلمانية حقّ الإسلام في التدخّل في كل هذه الأمور، فهذا يعني إسقاطاً للإسلام، بينما يعني إصرار الإسلام على التدخّل في هذه الأمور إسقاطاً للعلمانية.

وهذا واضح جليّ جداً، هذا يسقط رأي ذاك، وذاك يسقط رأي هذا.

هذا يقول: بأنّ الحاكمية لله، وذاك يقول: بأنّ الحاكمية للشعب، وللرأي الغالب.

وحينما نقول: بأنّ الحاكمية لله، فهذا لا ينفي أن يُعطى الشعب خيار أن ينسجم مع إسلامه، أو لا ينسجم.

والتسقيط من كل الطرفين قائم واقعاً، والمناداة به بدأت في الصحافة من العلمانية، هناك اختلاف واقعي، وهناك تنافٍ من الطرفين في الواقع، بينما المناادة بالإسقاط بدأت من الجانب العلماني.

فالإلغاء لرأي الإسلام معناه تحيا العلمانية، ويسقط الإسلام!

فالإلغاء لرأي الإسلام معناه تحيا العلمانية عملاً وواقعاً، ويسقط الإسلام كذلك، وإصرار الإسلام على فاعلية رأيه معناه يحيا الإسلام، وتسقط العلمانية رأياً، تسقط العلمانية واقعاً.

هذا معنى تمسك الإسلام بطرحه، وتمسك العلمانية بطرحها، والتزام على الساحة قائم، كل منهما يزاحم الآخر على الساحة، على إيمان الشعب بهذا أو ذاك على

أن يأخذ هذا أو ذاك مساحة من التطبيق.

والهجمة في الحالة القائمة جاءت من العلمانية، وبعده أعلام، وبلغة صريحة لا موارد فيها.^(١)

الإسلاميون والعلمانية

لسنا تكفيريين، ولا نحكم على ما في قلوب الناس، لأن ليس لنا علم بالضمائر، ولكننا نعلم أن العلمانية ليست الإسلام، وأن الإسلام ليس العلمانية.

قالوا: بأن العلمانية لا تعني الإلحاد، ولا تعني الكفر!

أقول: عنت الإلحاد أو لم تعنه، فإن الإسلام غير العلمانية.

ومن يقول بالتطابق فعليه التوضيح، وعليه أن يلتزم بالإسلام الذي لا يمكن أن يحكم على نفسه بالإقصاء عن قضايا الحياة العامة كما هو ضروري من فهم الإسلام، وقد حكموا هم بإقصائه.^(٢)

التوافقات السياسية مع العلمانيين

كان مطروحي - في أيام الانتفاضة - ولا زال في العلاقة مع العلمانية يتركز على قضيتين، ولا أرفع يدي عن هذا المطروح:

١- التوافقات العملية مع العلمانية، أو غيرها والتي قد تقتضيها الظروف لا تعني أبداً التسامح في حرمة الإسلام، أو الخروج على أحكامه.

٢- إن الاختلاف المبدئي لا يمنع من التوافقات العملية الداخلة في مساحة المباح والمحققة لمصلحة المجتمع المسلم، وهذا الوطن الكريم وطن مسلم مجتمعه مجتمع مسلم.

١- خطبة الجمعة (٢٩٢) ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ١٣ يوليو ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (٢٩١) ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٦ يوليو ٢٠٠٧م.

هذا وأشار إلى أن الكل يعرف أن هذا الطرف أو ذاك الطرف لم ينطلق في تحالفه مع الطرف الآخر إلا من خلال منظوره ومصالحته، وليس من منظور المقابل ومصالحته، فلا منّ للعلمانية علينا أن دخلوا في توافق معنا في بعض المسائل، ولسنا الطرف الأضعف في المعادلة.

نعم، يأتي في هذا الإطار التنازل المتبادل، أو من طرف واحد عن بعض المصالح ولكن بلحاظ الضرورة في الأكثر، ولو كانت هي ضرورة التحالف حدوداً، أو بقاءً.^(١)

كل التوافقات العملية عندنا لا يمكن أن تكون مهمراً لقبول المساس بقداصة الإسلام وتشويهه، وإنقاص قيمته، والتقول عليه، وغش جماهيره في فهمهم له.

لو قدمتم لنا دولة؛ لننسى الإسلام، لا ننساه.^(٢)

والإسلاميون مبدئيون، والمصلحة والسياسة عندهم لا تنفصل عن نظر المبدأ، ولا تخرج عن مقرراته.

نحن عبيد الإسلام.^(٣)

أمة إسلامية ونظام علماني!

أصوات نشار تدعو الأمة الإسلامية إلى احتضان النظام العلماني في السياسة.

ما معنى أمة إسلامية؟

هل الأمة الإسلامية هي أفراد ينتمون إلى الإسلام عقيدة، ويعيشون حالة التعبد الفردي المنفصل عن حركة الحياة، وبينون حياتهم العامة على قاعدة غير قاعدة الإسلام؟

١- خطبة الجمعة (٢٩٢) ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ١٣ يوليو ٢٠٠٧م.

٢- هتاف جموع المصلين ب: (لبيك يا إسلام).

٣- خطبة الجمعة (٢٩١) ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٦ يوليو ٢٠٠٧م.

ومعنى آخر: إن الأمة جماعة إنسانية تعيش أوضاعاً حياتية عامة ومشتركة في بعدها الفكري والثقافي والنفسي والأخلاقي والاجتماعي وغيرها، وفيما تقيمه من حضارة منطلقة من رؤية الإسلام، وأهدافه، وقيمه، وأحكامه، وأخلاقيته.

ماذا يقول الكتاب والسُّنة هنا؟

كتاب الله مليءٌ بالآيات التي تدل على أن الأمة الإسلامية هي بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول.

والكتاب دلالاته واضحة بيّنة على أن الإسلام يحتضن نظاماً سياسياً من سنخ قاعدته الأصل.

النظام السياسي في الإسلام هو فرع عقيدته، وفرع شريعته، فرع أخلاقيته، ومنطلقه وهدفه، ومكوّن من مكوّنات شريعته.

والحديث طافح بكل ذلك، والسيرة شاهد حيّ شاخص على الأرض، وأن رسول الله ﷺ قد أقام حكومة الإسلام، ومثله أمير المؤمنين علي عليه السلام، والخلفاء الراشدون كلّهم أقاموا الحكومة باسم الإسلام، وإن كنّا نختلف في بعض تفاصيل الحكومة الإسلامية، وأساس شرعيتها.

النظام السياسي العلماني

نسأل: ما هي مساحة عمل النظام السياسي اليوم؟

هل بقيت زاوية من زوايا المجتمع؟

هل بقيت مساحة ولو صغيرة ضيقة من مساحات الفكر، من مساحات العمل، من العلاقات، من الحقوق، من الواجبات غير محكومة للنظام السياسي؟

لو استطاع النظام السياسي القائم اليوم في الكثير من بقاع الأرض أن يحكم أنفاس

الناس لحكمها، لو استطاع أن يتحكم في نسمة الهواء، فيما نحتاجه من أكسجين لنفعل! المساحة الحياتية العامة، وحتى الكثير من الخصوصيات الفردية أصبحت محكومة للنظام السياسي.

فإذا قلت: إسلام ونظام سياسي علماني، أمة إسلامية بمعنى أنها تعيش الإسلام، ونظام سياسي علماني، أفلا يعني هذا التهاافت؟

ألا يعني الضدين اللذين لا يجتمعان؟

ألا يعني النقيضين اللذين يستحيل عليهما الاجتماع؟

كم هي من مغالطات، ومن خدع، ومن الأعيب قد تمرر على ذهن بعض الشباب الخير؟!

الحق: إنه إما أمة معترفة بعبوديتها لله سبحانه، بوصفها أمة، وإما أمة مستكبرة على الله، وتمارس حريتها في التشريع والحكم قبل حكمه وتشريعه.

أي علمانية يعنون؟

علمانية لا تتسع لحزب العدالة والتنمية في تركيا، لماذا؟، لا لأنه إسلامي صرف، وإنما لأن له شمة إسلامية، ولأنه متهم بأن له تاريخاً إسلامياً بدرجة من الدرجات الخفيفة.

وأي علمانية؟

هي علمانية تريد أن تعزل رئيس تركيا المنتخب انتخاباً ديمقراطياً حراً، وأن تحاكمه بجريمة أن زوجته تغطي شعر رأسها بقطعة من قماش!

هذه هي العلمانية التي تجتمع مع الإسلام، وتسمح ببقاء الإسلام، وبقاء الهوية الإسلامية للأمة!!

نعم، هكذا يسعون لمغالطتنا، وهكذا يحاولون أن يخدعونا، وهكذا يريدون أن يسرقوا الإسلام منّا؛ ليرموه به في البحر!

ثم، إنهم قالوا: إن غياب المعصوم عليه السلام يعني الإذن في تخلي المسلمين عن مسؤولية الإسلام السياسية، ويعني السماح بانقلاب الأمة وتحولها من الهوية الإسلامية إلى الهوية العلمانية!!!

وكتاب الله وَجَلَّ يقول: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾ توبيخ ﴿... وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ^(١). ^(٢)

غيرة على العلمانية ولا غيرة على الإسلام؟!

أعزّت العلمانية في هذا البلد ودلّ الإسلام؟!

حكمتم على الإسلام بالإقصاء عن قضايا الحياة للمجتمعات، وهذا المجتمع بالذات، وحرّمتم على الإسلام الكلام في الظلم والعدل المتصلين بالسياسة العامة.

حكمتم عليه بالإقصاء والإلغاء والتعطيل، وهذا هو الإسقاط والإماتة العملية للإسلام بالكامل.

ما أفتيتم به هو: إن ليس للإسلام أن يعطي كلمة واحدة في قضية من القضايا العامة حتى على مستوى التنبيه والإرشاد!

تريدون أن تكبلوا الإسلام، أن تحجروا عليه، أن يبقى في الزوايا المظلمة، أن تهمّشوه، أن ترموا به وراء سور الحياة، أو نعطيكم ذلك؟! ^(٣)

١- آل عمران: ١٤٤.

٢- خطبة الجمعة (٣١٩) ٢٧ ربيع الأول ١٤٢٩هـ، ٤ أبريل ٢٠٠٨م.

٣- خطبة الجمعة (٢٩١) ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٦ يوليو ٢٠٠٧م.

كما للآخرين - كما يرون - أن يرفضوا سلطة الفتوى، والحكم الشرعي والإسلام، وأن يعطوا لأنفسهم الحق في التعبير عن ذلك على مستوى الصحافة العامة، وأن يختاروا العلمانية لا غير، وأن يسقطوا الإسلام، فإن لغيرهم أن يؤمن بحاكمية الله، ويكفر بحاكمية الطاغوت، وأن يلتزم بما يفهمه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من وجوب الأخذ بهما في كل مساحة الحياة، وأن يعبر عن ذلك.

نحن نتعايش مع الأنظمة بأمر الدين، ولكن إيماننا إنما هو بنظام الإسلام، من رضي فليرض، ومن لم يرض فلا يرض^(١).^(٢)

١- هتاف جموع المصلين بـ(بالروح بالدم نفديك يا إسلام).

٢- خطبة الجمعة (٢٩١) ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٦ يوليو ٢٠٠٧م.

الفصل الثَّامَن

مفاهيم ومقولات سياسية

مقدمة

تزوير أخطر من تزوير العملة!

تزوير العملة خطير على الوضع الاقتصادي لأي بلد، وخاصة إذا كان بكميات كبيرة، ولذلك يُحارب محاربة شديدة، ويعاقب عليه عقاباً صارماً.

وأخطر منه تزوير الحقائق، وقلب المفاهيم، ووضع أسماء الأمور والأشياء على أضدادها؛ لتشويش فكر حضاري قويم، وزعزعته وإسقاطه، وسرقة العقول المؤمنة به، والقلوب المحتضنة له.

ويتعرّض الفكر الإسلامي، والمفاهيم الإسلامية، والسلوك الإسلامي، وتعرّض طرق الاستدلال المتعلقة بالنصوص الإسلامية، والبناء الفكري القائم عليه إلى عمليات تشويه وتزوير واسعة متعمّدة في وقتنا الحاضر، وهي عمليات تشترك فيها أطراف من خارج الأمة وداخلها، رسمية وغير رسمية، وحتى من المحسوبين على الدارسين الإسلاميين ممّن سقطوا ضحايا للأطماع الدنيوية، أو لم يكن لهم الاستعداد المبكر الكافي؛ لمواجهة الفكر الآخر.

والكلام هنا عن لون تزوير واحد فاضح سافل حيث يُسمّى المجون فتناً، والهبوط السلوكي ثقافة، وضروب من الفحشاء إبداعاً، والممارسات الحيوانية الفظة صناعة رفيعة راقية، والضعف الغريزي تقدّماً، والترويج للفساد حرّية، وحيث يكون التحشيد الهائل للمال والرجال والنساء والجهد والإعلام، وكل الوسائل المتاحة؛ لتركيز عملية التزوير وتوسيعها وإشاعتها، وإساءة استعمال الكلمة في غير ما وُضعت له في صورة تحريف مكشوف ممقوت للاستغلال، والاستغلال، وترويج الباطل.

إخوتي، أخواتي

هنا خطورة بالغة جدّاً، من خلال الاستعمال الخاطئ المتعمّد للألفاظ في غير المفاهيم الموضوعية لها، في غير المعاني الموضوعية لها.

إنه ليتمكن أن يُسرق وعي الناس، ويمكن أن يُسرق انتماءؤهم لحضارتهم، ويمكن أن

يُهرب بهم عن عقلهم الحضاري، وعن خطِّ انتمائهم الأصيل بهذا اللون الخبيث الماكر من التزوير.

إنَّه في مواجهة هذا العمل التخريبي علينا أن نُسَمِّي الأشياء بأسمائها، وأن نستعمل اللفظ فيما وُضع له، وخاصة إذا كانت التسمية والاستعمال ممَّا ورد في كتاب الله المجيد، والسنة المعصومية المطهرة، حيث الدقة والأمانة والعصمة من الخطأ في هذا الاستعمال والتسمية، فما هو إيمان يجب أن نُسَمِّيهِ إيماناً، وما هو فسق يجب أن نُسَمِّيهِ فسقاً، وما هو علم وثقافة وحق، أو ما هو جهل وانحراف وباطل ولهو وعبت وفاحشة علينا أن نُبقِيه على حقيقته، ونعطيه عنوانه الصحيح من غير مغالطة تهزأ بالعقول، وتتعامل معها باستغفال متعمّد.^(١)

الشعارات الأمريكية في مواجهة الصَّحوة الإسلاميَّة

وبورك للذين يصفقون بالشعارات الأمريكية في الوقت الذي تبرهن أمريكا على كذبها وزيفها!!

الواقع يقوم على الحصد، وشعارات الديمقراطية والتعددية الحزبية، والمجتمع المدني شعاراتٌ لمقابلة الصَّحوة الإسلامية.

الصَّحوة الإسلامية فرضت نفسها على الساحة، فكبرت حسابات أمريكا لمستقبل هذه الصَّحوة، واشتد فزعها منها، وكل يوم لها ألعوبة في الأرض الإسلامية، ولكل مرحلة شعارات في البلاد الإسلامية تصدر من الغرب، وتستوردها أيدٍ وكيلة هنا في الشرق الإسلامي.

مرحلتنا تتطلب اليوم تصدير واستيراد هذه الشعارات؛ لمواجهة الصَّحوة، ولتضليل الرأي العام الإسلامي الذي بدأ يرفض كل الأطروحات الأخرى، ويؤمن بالأطروحة الأصيلية، أطروحة السماء، وقيادة السماء، قيادة رسول الله ﷺ، والخط الامتدادي لهذه القيادة.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٨٠) ١ ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ، ٢٠ أبريل ٢٠٠٧ م.

٢- خطبة الجمعة (٣٠) بتاريخ ٩ شعبان ١٤٢٢ هـ، ٢٦ أكتوبر ٢٠٠١ م.

(١)

مقولة: الانفتاح على الآخر

تسود بين الأوساط مقولة: «الانفتاح على الآخر»، وهي مقولة تحتاج إلى تحليل، ومحاسبة ليس هذا مكانها، ولكن لا يمنع ذلك من تناولها بدرجة ما:

تساؤلات

١- ما هو الآخر المفترض الذي عليّ أن أنفتح عليه؟

الآخر يختلف:

أ- هناك آخر مؤمن أختلف معه بعض الاختلاف.

ب- وهناك آخر مباين كلياً تقريباً.

ج- هذا الآخر طرف حضاري مضاد عقيدياً، فكرياً، وثقافياً، وأنماطاً سلوكية.

د- له تصورات ورواه الكونية على خلاف تصورات وروى الأمة.

هـ- هو كافر، والأمة مؤمنة.

و- هو مادي، والأمة تؤمن بالروح.

ز- هو يسقط قيمة الأخلاق ويرى نسبيتها، والأمة تؤمن بالخلق والقيم.

هذه فروق ملحوظة بين الأمة وبين الآخر الذي تدور حوله مقولة الانفتاح على الآخر.

٢- نسأل ما هي المساحة المعنوية بهذا الانفتاح؟

الآخر عنده تكنولوجيا، الآخر عنده فلك، الآخر عنده رياضيات وهندسة، الآخر

عنده طب، الآخر عنده ما نسميه في المصطلح العلوم البحتة أي العلوم الحيادية التي لا

تنتمي إلى مبدأ معين، وعقيدة معينة، وأرض معينة.

والآخر عنده أخلاقية معينة، عنده سلوك معين، عنده فكر معين، عنده سياسة معينة، عنده نمط حضاري معين، يختلف بزاوية منفرجة عما عندنا من هذه الأمور، بل هو التباين الكامل في كثير من المساحات.

الانفتاح المطلوب على الآخر في أي مساحة؟

هناك مساحة علمية بحتة كعلوم الفلك والرياضيات، وهي حيادية لا تنتمي لتاريخ، أو عقيدة، أو حضارة معينة.

وهناك مساحة التصورات والرؤى الكونية، والرؤية للإنسان والموت والحياة والأخلاق والقيم.

والمساحة الأولى ليست محل الاهتمام لهذه المقولة؛ لأن المساحة الأولى لا يجادل أحد في التعاطي معها، مساحة العلوم البحتة لا يجادل أحد في التعاطي معها والاستفادة منها، وهي لا تنتمي إلى أوروبا، وهي لا تنتمي إلى أمريكا.

أمريكا وأوروبا بدأتا من حيث انتهت الأمة الإسلامية في هذه المجالات.

الأمة الإسلامية هي التي فتحت باب العلم التجريبي، وهي التي تعاملت بشكل مبكر مع الفلك ومع الهندسة والرياضيات والطب، فكما أخذوا منا نأخذ منهم.

هذه المساحة ليست محل الجدل، وليست المعنية بالانفتاح على الآخر عند من يسوق هذه المقولة في صفوف المسلمين وأوساطهم.

ما هو المطلوب منا من الانفتاح على الآخر هو أن ننفتح عليه في توجهاته الحضارية، في توجهاته الفكرية، في ثقافته، في أنماطه السلوكية، في إنكاره لوجود الله تبارك وتعالى، في عدم اعترافه بالرسول والرسالات.

٣- ماهي طبيعة الانفتاح المطلوب، ومداه، ومهدفه؟

هذه بعض أسئلة - ويمكن أن تضع عشرات الأسئلة هنا في مسألة الانفتاح على

الآخر :

١- انفتاح من الخاصة، أو العامة؟

ما هو الانفتاح المطلوب؟

هل هو الانفتاح من الخاصة، من العلماء المتخصصين، الذين توفرنا على رؤية إسلامية واضحة مركزة مبرهنة، واكتسبوا القدرة الفائقة على محاوره الآخر، وعلى الكشف عن زيف ما عند الآخر؟

قد يكون الانفتاح في هذه الحدود، وهذا موجود بلا دعوات إلى الانفتاح.

أو أن الانفتاح المطلوب هو انفتاح العامة، انفتاح جماهير الأمة؛ لتسمع كل ما يقول الآخر، ولتشاهد كل ما يقول الآخر، ولتعيش تربية الآخر، لتخضع لعمليات الغسيل المخي من الآخر، ولتلقى أفلام الجنس، وتفتح على قنوات المجون، وعلى قنوات الإلحاد والتشكيك، ومحاولة الهزيمة للأمة، والهروب بالأمة عن انتمائها؟

مطلوب من الجماهير أن تفتح على كل ذلك انفتاحاً عاماً؛ لنكون تقديمين قد انفتحنا على الآخر؟!

مرفوض مائة في مائة.

٢- حوار الدعوة والهداية؟

الحوار أهو حوار للدعوة والهداية، أن ندعو، أن نبين حقانية الإسلام، أن نفتح عقول الآخرين على الإسلام، أن ندعوهم إلى عبادة الله، وإسقاط عبادة الأوثان؟ هذا واجب حتمي قرره الكتاب، وقرّره السُّنة.

وهذا إنما يكون على مستوى المبادرة المدروسة وليس ركضاً وراء خطة الآخر، وعلى مستوى الإجابة المسترسلة للآخر.

الأمة مطلوب منها أن تكون داعية لله، أن تكون داعية للحق، وعليها أن تبادر إلى ذلك، وعليها أن تكون مبادرتها مدروسة مدعومة بكل وسائل النجاح.

٣- هذا الحوار لدرء الإشكالات والشبهات عن الساحة؟

لو كان كذلك، فهذا لا يعني إتاحة الفرص للآخر أن يملأ الساحة بإشكالاته التي تجعلك في موقع الدفاع، وتمتلك عليك ساحاتك، وهمَّ أوساطها على حساب امتداد وتركز الثقافة الأصيلة، والتمحور حولها.

٤- الانفتاح المطلوب هل هو انفتاح على مستوى الترحيب بالآخر في كل الساحات والمواقع العامة والخاصة، وقد اكتسح الآخر كل مواقعنا، وإذا بقيت نصف ساعة أو ساعة يقضيها المؤمنون في المسجد في احتفال، أو صلاة أيضا نعطيتها للآخر؟، ونجعل المسجد سوقًا؛ لترويج فكر الآخر؟، والحسينية نجعلها سوقًا؛ لترويج فكر الآخر؟

هذا هو من الانفتاح المطلوب، انفتاح على مستوى الترحيب بالآخر في كل الساحات والمواقع العامة والخاصة؛ لتتحول من كونها منابر للإسلام إلى كونها منابر للحضارة الغازية المعلوم سقوطها ودناءة أهدافها عند النخبة الواعية.

٥- الانفتاح على الآخر يعني قبول الحلول الوسط مع الآخر على مستوى العقيدة والتوجهات والسلوك؟

٦- هل يعني الانفتاح على الآخر التنازل عن الذات الحضارية والذوبان في الآخر؟

٧- هل يعني انصراف الخاصة كلهم إلى تتبع تفاصيل الفكر الآخر بعد معرفتهم بفساد مرتكزاته وفقده للأرضية الصالحة حتى يتلهوا بفكر الآخر عن الفكر الإسلامي، وعن التعمق في القرآن والسنة؟

نحن ننفتح على فكر الآخر على مستوى الخاصة، وعلى مستوى ما تقضي الضرورة - ضرورة رد الإشكالات والشبهات -، وقد يكون من أجل السبق إلى سد الطريق على الإشكالات والشبهات.

وهذا الاشتغال بالفكر الآخر لا يكون على مستوى عام وإنما يكون على مستوى المعهد

والكلية المتخصصة وعلى مستوى الأروقة الخاصة في المسجد في حلقات الدرس المعمّقة. ويكون على مستوى تحسين النخب المثقفة من فكر الآخر في مثل هذه الأجواء الدراسية الهادئة المخطط لها.

ولا يعني الانفتاح على الآخر أن نفتح أبواب المساجد، وأبواب الحسينيات، وأبواب البيوت، وكل باب لفكر الآخر؛ ليحل بديلاً محل الفكر الإسلامي الأصيل الذي نتحمل مسؤولية إيصاله إلى الأجيال.

د- ماهي طبيعة الموقف العملي للآخر، والذي يراد لنا أن نفتح عليه؟

ما هو الآخر من جانب عملي - سألنا عنه من الجانب النظري، ونسأل عنه من

جانب عملي -؟

هذا الآخر:

استعمار واستغلال، هيمنة حضارية يفتح طريقها بالحديد والنار، تحكّم في الشؤون الداخلية، وإكراه على تغيير المناهج التربوية والدينية، والإعداد المناسب لأئمة الجماعة والجمعة والخطباء عن طريق قرارات سياسية وإدارية صارمة يملئها، ويشرف على تنفيذها تنفيذاً يتم تحت رؤوس الحراب.

وهذا هو الآخر الذي يراد لنا أن نفتح أبوابنا كلها؛ ليعزونا؟!

التعامل مع الآخر له حدود وضوابط

ماذا تقول النصوص؟

طبعاً الاستقصاء قد يصل بنا إلى عشرات النصوص التي تعطينا رؤية واضحة جداً في التعامل مع مقولة الانفتاح على الآخر، ولكن بصورة عاجلة، أقرأ هذه الجملة من النصوص في الموضوع:

١- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.^(١)

أنا محدد موقفني.

أنا أمة اختارت طريقها، رؤيتها واضحة، لا أشرك بالله أبداً، لا أهاور لأنني غير مستعد للشرك أبداً.

وأنا أمة عليّ أن ألتزم بالدعوة إلى الله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾.

٢- آية أخرى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.^(٢)

وأنت تدعو إلى الله، فليكن جدالك جدالاً بالتي هي أحسن، وليس معنى ذلك أن تطلب الجدل للجدل.

فمطلوب منك المبادرة بالدعوة، والتبليغ، وبصورة مدروسة وحكيمة، وفيها مراعاة للظروف الموضوعية ومقتضياتها.

الآية الكريمة الأخرى تقول في شطر منها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.^(٣)

٣- ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.^(٤)

فحتى الدعوة والتبليغ وحوار الآخر من باب المبادرة بالدعوة والتبليغ له حدود، بحيث لا تتحول العملية إلى عملية عبثية، حين تكون العملية غير منتجة، فلا بد أن تقف

١- يوسف: ١٠٨.

٢- النحل: ١٢٥.

٣- فاطر: ٨.

٤- النحل: ٣٧.

الدعوة، ويقف التبليغ مع الطرف الذي تحوّل إلى وجود مُتكلّس، إلى حجر أصمّ، لا يستجيب لنداء الخير والحق أبداً.

٤- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١).

لهو الحديث، وليس الحديث المخطط له، المصمم تصميمًا دقيقًا بقصد الغزو، وإحلال فكر الآخر محل الفكر الإسلامي.

مادةٌ تهلي الناس عن سماع القرآن، تصرف الناس عن سماع السنة هذه شغل الساحة بها محرم.

ويجب أن ترد وتطرّد فضلاً عن الفكر الغازي.

٥- وآية أخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).

سماع اللغو فضلاً عن سماع الكفر، وما يركز الكفر معروض عنه عند المؤمنين.

فتح الساحة لأن تشغل بالفساد الفكري والأخلاقي، وتخطب أبناء الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر في البلاد الإسلامية بالفكر الآخر المعادي جريمة لا ينبغي ارتكابها.

٦- ممّا أتذكره مضمون هذا الحديث: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ يَنْطِقُ عَنِ اللَّهِ فَقَدْ عَدِيَ اللَّهَ، وَمَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ يَنْطِقُ عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَدِيَ الشَّيْطَانِ»^(٣).

١- لقمان: ٦٠.

٢- القصص: ٥٥.

٣- عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَدِيَ عِبْدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَاطِقُ يُؤَدِي عَنِ اللَّهِ وَحَقَّقَ فَقَدْ عَدِيَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَاطِقُ يُؤَدِي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَدِيَ الشَّيْطَانِ». الكافي - الشيخ الكليني - ج ٦ ص ٤٣٤ - تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري - الطبعة الثالثة سنة الطبع: ١٣٦٧ ش - المطبعة: حيدري - الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران.

هؤلاء الناطقون بالفكر الغربي، أصحاب الكتابات الغربية التي تحارب الإسلام، وتشكك في الإسلام، وأصحاب الندوات الذين يمثلون رسل الفكر الغربي، ومسوقي الفكر الغربي في بلاد الإسلام ناطقون عن الله ﷻ، أو ناطقون عن الشيطان؟!

٧- وفي تذكري أن قصاصاً في المسجد وجده أمير المؤمنين عليه السلام، فأغلظ معه القول، أو طرده. ^(١)

٨- وسورة الجحد تقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾. ^(٢)

شعارات تتعمد التّضليل

كثيراً ما تطرح في ساحتنا الفكرية والثقافية - الساحة الإسلامية عامة - شعارات تكتنفها ضبابية وغموض متعمدان.

وكثيراً ما يفقد العقل دقته أمام هذا الغموض، ويتم التضليل المقصود لأصحاب هذه الشعارات.

واحد من هذه الشعارات المضللة بفعل إجمالها وغموضها شعار «الانفتاح على الآخر».

والانفتاح كلمة معسولة، ولها جاذبيتها في بادي النظر إذا قُوبلت بمعنى: التقوقع، والانغلاق، والنفور، والتّوحّش، والانطواء على الذات.

ولكن علينا أن نطرح أسئلتنا أمام كلمة الانفتاح، وكلمة الآخر؛ لنكون أكثر وعياً بما وراء الكلمات، ولئلا يختلط علينا ما هو حق وباطل، وما هو ضار ونافع، وما يمكن أن ننسجم معه في ضوء العقل والدين والمصلحة، وما يكون الاستسلام له سذاجة في العقل، وسفهاً في نظر الدين، وميزان المصلحة.

١ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام: «رأى قاصاً في المسجد، فضربه بالدرّة وطرده». المصدر نفسه ج ٧ ص ٢٦٣.

٢ - خطبة الجمعة (٩٤) ١٤ ذو القعدة ١٤٢٣ هـ، ١٧ يناير ٢٠٠٣ م.

وعلينا أن نطرح دائماً أسئلتنا العلمية والدينية والموضوعية الواعية أمام كل الصيحات والشعارات والمشاريع الحضارية المستوردة؛ لئلا نكون الأئمة نفعل ما يفعل الناس، ونردد معهم ما يرددون.

ما هو الانفتاح؟

له أكثر من مضمون، وقد يقصد به أكثر من معنى:

- ١- الانفتاح بمعنى التعرّف على ما يقوله ويريده الآخر، والاستماع له إلى الحد المعقول؟
- ٢- الانفتاح: ذلك مطلقاً حتى لو سمعناه ألف مرة، واستمعنا إليه، وأمعنا في مراده، أم مع احتمال الجديد؟
- ٣- الانفتاح: الاستماع، والنقد، والمحاكمة أم الانبهار والتسليم، لأنّ الفكرة جديدة، ولأنّها مستوردة من بلد التقدم التكنولوجي؟
- ٤- الانفتاح: الانبطاح أمام فكر الآخر لحالة الفراغ والخواء الذاتي؟
- ٥- الانفتاح: التعايش بل العيش، والاحتضان الفكري، والسكينة النفسية، والرضا الروحي بالباطل على حدّ ما هو الحال بالنسبة للحق؟
- ٦- يراد أن نستذوق، ونسعد بطعم الفواحش والموبقات التي يمارسها الآخر كما لو صلى، وصام، وصدق، وتصدّق؟
- ٧- يراد بالانفتاح أن نُقدّر للناس حق اختلافهم معنا فيما يمكن أن تختلف بشأنه الأنظار، ويؤثر فيه تفاوت البيئات، وأن ندخل الحوار مع أصحاب الشبهة بصبر كبير؟
- ٨- الانفتاح: أن نفتح كل الأبواب والنوافذ والشبابيك لثقافة نعرف جاهليتها، ونتيقن سقوطها على عقول أبنائنا، وبناتنا، ونفوسهم، وأفئدتهم؟

هناك أنواع ومستويات من الانفتاح بعضها مقبول، وبعضها مرفوض بلا نقاش. إذا أرادوا الانفتاح بكل هذه المعاني، فعلياً أن نكون واعين، وأن لا نقبل بالانفتاح بكل هذه المعاني نحن نقبل بالانفتاح بالمعنى الذي يخدمنا، ويخدم الإنسانية، ويوصل إلى الحق.

ومن هو الآخر الذي يُطلب الانفتاح عليه؟

- ١- هناك آخر مهاجم فكري ومثير للشبهات عن عمد لتضليل الساحة، وجربها إلى الضد الحضاري الذي نعلم انحرافه، وعداوته.
- ٢- هناك آخر باحث عن الحقيقة ومحاوّر علمي.
- ٣- آخر صاحب شبهة يريد أن يتحقق من شبهته.
- ٤- آخر عميل فكري متآمر على الأمة وحضارتها.
- ٥- آخر غاصب للأرض والثروة، أو غازٍ حربي.
- ٦- آخر مهادن ومصالح ومواطن مقبول المواطنة.
- ٧- آخر مائع متحلل.
- ٨- آخر صاحب نظريات علمية نافعة.
- ٩- آخر صاحب دعاوى كبيرة كاذبة، يدس أنفه في صف أهل الاختصاص، ويحشر نفسه معهم بلا حق.
- ١٠- آخر يطرح الشبهة، ويجاب عليها ألف مرة، ولا يزال يطرحها إمّا لأنّه لا يعرف الجواب، وإمّا لأنّه يعاند.
- ١١- آخر يشن الحرب الفكرية بعد الحرب، ويهاجم، ويسب، ويشتم؛ من أجل

باطله، ويطالب الآخرين بالاستماع إليه والمزيد من احترامه.

لا بد أن نفرق في الانفتاح بين آخر وآخر.

أنواع من الآخر في نظر القرآن الكريم

القرآن الكريم طرح لنا أنواعاً من الآخر، وأراد لنا أن ندخل في حوار مع بعض أنواع الآخر، وأن نقاطع أنواعاً من الآخر، وأن ننهي الحوار مع أنواع من الآخر.

الآخر الذي لا انفتاح عليه

- ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(١).

الآخر الذي لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، ما فائدة الحوار معه؟

أنفتح عليه؟

أسلم له أمانة ولدي وبنتي؟

أمكن لثقافته في أرضي؟

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ^(٢) بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤).

١- أقول هذا آخر، يتحدث عنه موسى عليه السلام، هذا الآخر ننفث عليه نحتضنه.

٢- يونس: ٨٨.

٣- أنا أخذ تيس أحاوره؟

أقول: أدخل في حوار مع تيس؟، مع غنمة؟

٤- الأعراف: ١٧٩.

كافر معاند، علماني شهرياً يتسلم راتباً من أمريكا - طبعاً ليس كل العلمانيين يتسلمون راتباً من أمريكا، ولكن من استلم راتباً أو من لم يستلم راتباً، فمن هذا ومن ذاك من هو على ضلال إلى الحد الذي لا يُناقش -، لا يدخل معه في حوار فيه تقدير له، طبعاً تواجه أفكاره، يُرد على شبهاته عند المؤمنين، ولكن لا يُعترف به ويعطى موقعاً، ويدخل في نقاشات مباشرة تفيد فكره معنوياً.

أحياناً يتطلب الأمر إهمالاً، وأحياناً قد يتطلب الأمر إجماعاً.

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾^(١).

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

هناك أنواع من الآخر لا يصح الانفتاح، ولا فتح أبواب البيوت، الحسينيات، المساجد، أبواب القلوب بكل ترحيب وتكريم أمامه.

أُتفتح أبواب الحسينيات، المساجد، البيوت، الجمعيات، أبواب القلوب الفارغة البريئة أمامه؛ ليملاها بالزاد الخبيث؟!

الآخر الذي ننفتح عليه

أما من الآخر، فما تقول عنه الآية الكريمة:

- ﴿... بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٣).

١- النساء: ٤٤.

٢- لقمان: ٦٠.

٣- المائدة: ٨٣.

الإنسان الباحث عن الحقيقة الذي يطلب الحوار لا من أجل الحوار، وإنما من أجل أن يهتدي.

من أجل أن يقارن ما عنده وما عندك وهو مستعد إلى أن يسلم بكلمة الحق، فهذا يُدخل في الحوار معه، وهذا يكون الانفتاح عليه، ويجب الانفتاح عليه.

حوار يائس

هناك حوار يائس، فينتهي الحوار عند اليأس من النتيجة:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾^(١).

الخلاصة

نحن مع الانفتاح الذي يرضاه الله ورسوله، ويمثل أخلاقية رفيعة، ووعياً رشيداً، وتقديراً للمصلحة الإسلامية.

ومع الحوار العلمي والإنساني المثمر.

ولسنا مع الانفتاح بمعنى الذوبان والانبطاح والانبهار والهزيمة.

ولا مع الحوار العقيم الذي يستهدف تغييب فكر الصياغة، وثقافة البناء الإسلامي، وإشهار الفكر الآخر والدعاية له وتركيز النظر عليه.

هناك سياسة شغل الساحة الإسلامية بالحوارات العقيمة؛ حتى تنسف الثقافة الأصيلة، وحتى تكون على انقطاع عن منابعنا الفكرية ومصادرنا الثقافية المغذية، وحتى نلهو عن بناء ثقافة رصينة متكاملة لأجيالنا الصاعدة.

هذا اللون من السياسة لون خبيث يمرر على كثير من العقول، فإذا بك قد بعدت بعد حين عن منابحك الأصيلة، وعن الصياغة المتكاملة للشخصية الإسلامية مشغلاً بالرد على هذه التفاهة، وعلى تلك التفاهة من غير أن تقدم فكرك للآخرين. القرآن بكنوزه، والسُّنة بكنوزها يَظْلان معطلين إلا ما جاء جواباً على هذا، أو جاء جواباً على ذاك، ويراد لنا أن نقدم القرآن والسُّنة فكراً متكاملًا وصرحاً كبيراً؛ ليبهر العقول، وتهوي إليه الأفتدة.

ولسنا مع التوقع والانغلاق والخوف من الطرح العلمي والبرهاني الدقيق.^(١)

(٢)

مقولة: «لا وصاية»

قد تُروَّج مفاهيم غير واضحة ولا محددة في أوساط المسلمين، فتُحدث ارتباكًا فكريًا، وغَبْشًا في الرؤية، وخللاً في التَّصوُّر ممَّا يؤثر بصورة ضارَّة على فهم شريعة واسعة من الشباب المسلم الإسلام، ويُحدث حالة من الغربة عن الفكر الإسلامي الصحيح.

تسمع في أوساطنا الشبابية كلمات من نوع لا وصاية، لا صمنية، لا هيمنة فكرية، لا ولاية لأحد على أحد.

وهذه الكلمات تحتاج إلى تحديد ما يُراد منها، وإلى تدقيق في مؤداها؛ ليعرف مدى الحقانية لهذه الكلمات في ما تريد من تركيزه من فهم، والترويج له من فكر.

أسئلة ثلاثة

ولتطرح هنا بعضُ من الأسئلة في هذا السياق:

- ١- هل صحيح أنه لا وصاية، ولا ولاية مطلقاً لأحد من الناس على أحد؟
 - ٢- وهل الأخذ والاستفادة من فكر الغير واحترامه يُعد هيمنة فكرية دائماً؟
 - ٣- وهل تعني حرية الرأي تساوي الآراء قيمة من المختصين وغيرهم؟
- عن السؤال الأول: [١- هل صحيح أنه لا وصاية ولا ولاية مطلقاً لأحد من الناس على أحد؟]:

١- دينياً: الولاية المطلقة هي لله وحده

في الفكر الديني النقي لا ولاية لأحد على أحد بالأصل، وحتى للشخص من نفسه على نفسه، فلا يملك أحدنا شرعاً تصفية وجوده، ولا التصرف الضار بعضو من

أعضائه مثلاً، وإنما الولاية الثابتة هي الولاية الشاملة لله وحده على كل مخلوقاته، إذ تتبع ولاية التشريع أصلاً، وسعة ولاية التكوين في أصلها وسعتها.

٢- أرضياً: الولاية للأقوى

وفي كل الطروحات الأرضية تبرر قوة طرف فرض ولايته على الطرف الآخر الأقل منه قوة - أقول كل الأطروحات - بمنطق القوة، وأن القوة تعطي لصاحبها السيادة على الغير، والحاكمية على الغير، والتصرف الولائي في الغير!

والطرح الديمقراطي الذي يُعد متقدماً من بين هذه الطروحات، لا يخرج عن هذه القاعدة حيث يعطي الأغلبية الحق في فرض رأيها على الأقلية، وفرض الولاية لمنتخبها على الكل؛ ممّن انتخبوه، وممّن لم ينتخبوه، أو أعطوا رأياً ضده، ماذا يعني هذا يا إخوة؟ ألا يعني أن منتخب الأغلبية حصل على صوت الأغلبية، ووفرت له قوة ليست لصالح الرأي الأقل عدداً؟

إنه يتمتع بموقع قوة لا يتمتع به الآخر، فيكون السيف معه، والمال معه، وكل أسباب القوة والقدرة معه، فيتحوّل من صفر لا ولاية له - في نظر الدساتير الأرضية - إلى رقم هائل فوق كل الأرقام؛ ليفرض سيادته عليها كلها من ناحية التصرف في المال، وفي الأنفس، وفي ثروات الأرض!

فولاية مرشح الأغلبية ولاية بالغير ثابتة بواسطة ناخبه، وهي اختيارية بالنسبة إليهم في الأساس، وإكراهية تحكّمية بالنسبة للأقلية التي قد لا تزيد عليها الأكثرية بأكثر من واحد.

وتدخل في دائرة الإكراه كل الأصوات التي لم تدخل العملية الانتخابية.

وتثبت الولاية بين الناس بالغير في الفكر الديني كذلك، وذلك بتولية من الله، أو من غيره ممن يعود أمره إلى أمره، واختياره إلى اختياره، كتولية النبي ﷺ لغيره من كل ولاة الأقاليم الذين ينصبهم ﷺ.

فالاخلاف بين الديمقراطية وبين الدين في الطرح هو أنّ الولاية في الديمقراطية تكتسب من أصوات الناس، وأنّ الولاية في مطروح الدين تكتسب من أمر الله وتصيبه. هذا من ناحية النظر والواقع في مسألة الولاية على المستوى الديني والعقلاني.

الولاية والوصاية أمر واقع في مختلف مناحي الحياة

١- الولاية في الحكم

ولا يخلو مجتمع بدوي ولا مجتمع مدني من ممارسة الولاية وصلاحيات الحكومة؛ فمن رئيس القبيلة إلى الوزير ورئيس الوزراء ورئيس الجمهورية والملك والأمير، فكل أولئك يمارسون نوعاً من الولاية على الآخرين، والمقولة الشيوعية التي بشرت بمجتمع لا حكومة فيه سقطت بعد خطوات قليلة من انطلاقها وقبل أن تصل إلى مثل هذا الخيال الموغل في الخيالية بمسافة طويلة.

٢- الولاية على القاصر

وهناك الولاية اللابدئية على الطفل والمجنون، والولاية على السفیه ومختلف القاصرين.

٣- ولاية المتصدّين للشؤون الاجتماعية العامة

وإذا كان الأفراد في أنفسهم ناضجين راشدين لا يحتاجون إلى ولاية تفرض عليهم، فإن الحالة الاجتماعية والكيان الاجتماعي، والموجود الاجتماعي بما هو كيان اجتماعي وموجود اجتماعي قاصر عن تدبير شؤونهم، وتنظيم علاقاتهم، ورعاية مصالحهم إلا من خلال مجموعة من الأفراد يتصدون؛ لإنجاز هذه الوظائف، ولا بدّ لهذه المجموعة هي كذلك ممن يشرف على تنظيم العلاقة داخلها، وتنفيذ الأوامر في تدبير شؤونها، لأنها بما هي حالة اجتماعية ووجود اجتماعي تكون قاصرة وإن كان أفرادها هم أكثر الناس نضجاً ورشدًا وعلمًا وخبرة.

وهكذا ينتهي الأمر إلى ضرورة الحكومة والولاية، والولاية تنصب صلاحيات التصرف من صاحبها على البعد الاجتماعي للأفراد، وما يتعلق بجانب الشخصية الاجتماعية لهم الذي يؤثر على صالح المجموع بصورة سلبية أو ايجابية.

خلاصة

إذا، ليس صحيحاً أن نرفع شعار لا وصاية ولا ولاية مطلقاً بحيث يتناول النفي الولاية بالأصل والذات، والولاية بالعرض والغير، والولاية بطرح الأرض، والولاية بطرح السماء.

ردود أخرى

١- وإذا كان من يرفع هذا الشعار يعد نفسه ممن يلتزم بالإسلام، فماذا يفعل بالآية التي تأمر بطاعة أولي الأمر، والآية التي تربط بين الإيمان والتسليم والرضا بحكم الرسول ﷺ؟

وماذا يفعل بالنصوص والأدلة التي تثبت درجة أو أخرى من الولاية للفقهاء، وتعتبر الراد عليهم في الأخير كالراد على الله؟

٢- وماذا يقول أصحاب هذا الشعار حين ينادون هم أنفسهم بالتجنيد الحر، أو الإجباري، وهل تكون قيادة عسكرية بلا ولاية؟

وهل ينتظم أمر جيش بلا أوامر تجب طاعتها بتكليف وآخر؟

هل توجد صنمية الولاية؟!

وإذا فُتشنا عن الصنمية في الولاية، فأين نجدها؟

من كان الراد عليه كالراد على الأئمة عليهم السلام - وهذا هو الفقيه العدل -، والراد على الأئمة كالراد على النبي صلى الله عليه وآله، والراد على النبي كالراد على الله وجل، فطاعته ليست

صنمية؛ وإنما طاعته عبودية، وعبادة خالصة لله.

ومَن كانت طاعته لطاغوتية فيه، أو في حزبه أو لأنه مرشح الأغلبية فقط من غير أن تلاحظ فيه صفات الإيمان والأهلية التي يرضاها الله ﷻ؛ فولايته تجسّد الصنمية والعبودية لغير الله سبحانه.

ومن المفارقة التي ليس لها مردُّ إلا قصور الرأي، أو الهوى أن يقال عن طاعة الفقهاء والعلماء بأنها صنمية، بينما لا يرى هذا القائل بأن طاعته، أو طاعة مجموعته، أو حزبه كذلك، وإن كان إذا نطق لا ينطق إلا عن رأيه، أو رأي جماعته وحزبه من غير استناد إلى حجة شرعية تربط قوله بدين الله ﷻ، بينما من أصغى إلى ناطق ينطق عن الله فقد عبد الله، ومن أصغى إلى ناطق ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان.

والفقيه لا ينطق عن الشيطان، ولا ينطق عن هوى نفسه، ولا ينطق عن رغائبه واجتهاده الذي لم يأذن به الله ﷻ.

إنما ينطق عن الله ﷻ من خلال الاجتهاد العلمي المأذون من خلاله أن ينسب القول إلى الدين، وكل نطق على خلاف الحجة الشرعية هو نطق عن الشيطان.

وعن السؤالين الآخرين:

[٢- وهل الأخذ والاستفادة من فكر الغير، واحترامه يُعد هيمنة فكرية دائماً؟]

[٣- وهل تعني حرية الرأي تساوي الآراء قيمة من المختصين، وغيرهم؟]

فإنه إذا كان المعنى من الهيمنة الفكرية هو رجوع الجاهل إلى العالم، والمتعلم إلى المعلم، وغير ذي الاختصاص إلى ذي الاختصاص، فإن ذلك هو مسلك العقلاء جميعاً وتقوم عليه حركة العلم، ولا غنى لاستمرار الحياة العقلية في نموها وتقدمها عنه، وهو محل موافقة العقل والدين.

وكون الرأي يمكن أن يطرح من أكثر من فرد، ومن أكثر من جهة، وأن الباب مفتوح لطرح الآراء في المسائل، ولا يكون إبداء الرأي حكراً على أفراد معيّنين صحيح إلى حدّ،

وذلك أن يكون طرح الرأي في أي مجال من أهل الخبرة والاختصاص في ذلك المجال. وليس صحيحاً أن تُعطي المجتمعات على نفسها أن تُصغي للرأي من غير أهله، ولا من الحق، ولا الحكمة، ولا النافع أن تأخذ بهذا وتتقيد به.

وهل يقول: بأن حرية الرأي تساوي النظر إلى رأي المختصين، وأهل الخبرة والبصيرة والتجربة والأمانة والتقوى، وإلى رأي غيرهم على حد واحد وبمستوى واحد إلا جاهل، أو مغرض سيئ القصد يريد أن يُضلل، ويصطاد الغافلين؟!

وإذا كان الرجوع في الرأي إلى أهل الخبرة والاختصاص والأمانة هيمنة فكرية، وصنمية مرفوضة، فبم يَصِفُ القائل بهذا القول محاولته أن يكون المأخوذُ به رأيه وهو على المستوى الأقل شأنًا ممَّن يرى أن تقديم رأيهم صنمية لا بدَّ أن تلغى، وهيمنة فكرية لا بدَّ أن تحارب؟^(١)

إطلاق المقولة!

ما معنى هذه المقولة التي تتردد على ألسن الكثيرين بوضوح وبدون وضوح، وهي مقولة: (لا وصاية)؟

ومعنى وصاية الرأي والكلمة: وجوب الطاعة.

حين تنفي الوصاية، فمعنى ذلك نفي وجوب الطاعة من أحد لأحد.

إلا أن هذا الأمر خطأ، فليس في الإسلام نفي مطلق للوصاية.

تنويه: قبل أن نبين هذا الوجه، هناك احترامٌ خلقِي يجب أن لا نخلطه بأمر الوصاية ثبتت أو لم تثبت، وهناك التقدير العقلاني للخبرة والاختصاص، وهذا أمر آخر أيضاً يجب أن لا نخلطه بقضية الوصاية، وعدم الوصاية.

أما الوصاية بمعنى وجوب الطاعة بالذات لأحد من خلق الله، فهو أمرٌ منفي بكل وضوح في الإسلام كما سبق.

١- خطبة الجمعة (٥٥) ٦ صفر ١٤٢٣هـ، ١٩ أبريل ٢٠٠٢م.

فليس ملك ولا رسول أن يطاع من غير إذن الله، وبالنظر الى ذاته فحسب.

أما الوصاية بمعنى صحة الأمر والنهي، ووجوب طاعة هذا الأمر والنهي إذا كانت هذه الوصاية بالغير، فالمنكر لها منكر لأبده البديهيّات في الإسلام، فإن علينا أن نطيع رسول الله ﷺ، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وإنكار الطاعة لرسول الله ﷺ إنكار لأساسية كبرى من أساسيات الإسلام لا يسلم مع إنكارها الإسلام لأحد على الإطلاق.

وهناك طاعة لعلّي ﷺ، وأبنائه المعصومين عليهم السلام باعتبارهم أئمة من الله، وكلما أمر الله بطاعة أحد وجبت طاعته.

فطاعتك لوالديك في الحدود الشرعية واجبة بلا إشكال.

هذه الطاعة الثابتة لرسول الله ﷺ الثابتة للأئمة المعصومين من بعده إذا ثبت شيء منها لفقهاء الأمة كانت الوصاية بمعنى وجوب الطاعة أمراً دينياً لا مفر منه.

إنك تطيع الفقيه تشريعاً في أخذك الفتوى منه، وحين يتحدد في فكرك ونفسك أن عليك تقليد فلان تكون فتوى فلان ملزمة لك، ويجب عليك طاعته، وإنكار ذلك فيه ما فيه من تجاوز للإسلام.

فتبين لك أن إنكار الوصاية على الإطلاق ليس من الإسلام في شيء.

تجب طاعة رسول الله.

تجب طاعة الأئمة المعصومين.

تجب طاعة الفقهاء في الحدود التي ثبت الأمر الشرعي من المعصومين عليهم السلام بطاعتهم^(١).

(٣)

التَّعَدُّدِيَّةُ

التَّعَدُّدِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ الْمَسْمُوحِ وَالْمَمْنُوعِ

إذا تحدثت السياسة في الغالبية العظمى من البلاد الإسلامية عن التعددية بما هي عنوان لقيم الحرية والتسامح والانفتاح، فهي إنما تتحدث عن تعددية أديان تهادن السياسة أو تخدمها، وعن تعددية أنماط سلوكية أخلاقية، وغير أخلاقية تفتح الباب واسعاً لأي سلوك قدر.

وأي ظاهرة اجتماعية قبيحة، ولكلمة الفسق والفجور والرذيلة والمنكر والكفر أن تملأ الساحة الإسلامية طوًلاً وعرضاً.

ولكن لا ترتقب من هذه الدعوات تعددية في إطار السياسة، بل السياسة متروكة لحكم الفرد، لحكم القبيلة، لحكم الحزب الواحد.

ومع الاضطرار وتحت ألوان من الضغط لا تُطاق يمكن أن تطرح التعددية ولو على مستوى الشعار، ولكنها مع ذلك محرمة على الإسلام والإسلاميين.

في مصر لا تشمل التعددية إن وجدت - وبحسب التغيير الجديد للدستور - الإسلاميين، فلا يُتاح لحزب باسم الإسلام أن ينشأ، ويمارس السياسة.

في تركيا هناك حجر على الإسلاميين أن ينشئوا حزباً.

في الجزائر هناك منع أو هم في طريق المنع لترشّح إمام الجماعة للمواقع المسموح بالترشّح فيها.

أما في البحرين، فالصحافة - وهي تابعة للسياسة - تتمنى أن تُسكت المسجد نهائياً عن أن ينطق بكلمة فيها ملاحظة على السياسة!!

والعالم الغربي يُشدّد على التعددية السياسية المفتوحة جداً في أي بلد من بلدان الإسلام يحكم فيه الإسلام بدرجةٍ وأخرى، أو يقدر فيه الإسلام بدرجة من التقدير

بسببٍ وآخر، ويسكت أو يداهن على غياب التعددية السياسية في بلد تواليه فيه السياسة، ويبقى مشدداً في الوقت نفسه على التعددية في مجال الفكر، والسلوك، والحرية، الحيوانية، والانفتاح على ألوان الفساد الخلقي في هذا البلد أو ذاك من بلدان الولاء.

والغرب وأتباعه في بلاد الإسلام يشددون على شرط الاندماج من المسلمين القاطنين في الغرب بحياة الغرب، وأجوائه وعاداته وتقاليده وإسفافه؛ ليعترف لهم بحق المواطنة أو الإقامة.

والنتيجة: إن الحكم العادل للغربيين وكذلك المستغربين من أبناء الأمة الإسلامية قاضٍ بأن يعيشوا في البلاد الإسلامية حرية فكرية وسلوكية بلا ضوابط من دين، ولا خلق، ولا احترام لهذه الأمة، يتعرى منهم مَنْ يتعرى، ويفسد مَنْ يفسد، ويعربد مَنْ يعربد، ويجاهر بكلِّ سوءاته وقبائحه، وينشر الكفر والفسق والفجور ما انتهى، ويكون غريباً كاملاً كما يريد له الغرب وأوضاعه، وعاداته، وتقاليده، وقوانينه، وشذوذه بلا تنازل عن شيء من ذلك على الإطلاق.

أما مَنْ أراد من المسلمين المواطنة، أو الإقامة في الغرب، فعليه أن ينسى هويته الإسلامية، ويطلق انتماءه لأُمَّته، وأن يندمج في مجتمعه الغربي الجديد، ويدوب في أوضاعه وتقاليده وعاداته، ويتخلّى عما يطيب للغرب أن يتخلّى عنه هذا المسلم من قيمه وأحكام دينه.

هذا هو المنطق العادل للغرب والمستغربين، وللعولمة والمتعولمين.

فهل يعطي المسلمون من أنفسهم كلَّ هذا؟!

لئن كان هذا، فبطن الأرض للمؤمن خيرٌ من ظهرها.^(١)

(٤)

الرَّسَالِيَّةُ وَالْوَاقِعِيَّةُ

بين الواقعيَّة والرَّسَالِيَّة

الرَّسَالِيَّةُ: أن تتطلق الكلمةُ والموقف من وحي الفهم والحس والمصلحة الرَّسَالِيَّةُ، وأن لا يُنظر إلى مصلحة الذات في غير ضوء مصلحة الرسالة.

الواقعيَّة: قد يُعنى بالواقعية:

١- التخلِّي في موقع الكلمة والموقف عن القيم والرَّسَالِيَّة والمبدئيَّة، والتركيزُ الكامل على النظر إلى مصلحة الذات المفصولة رؤيةً وشعورًا عن مصلحة الرسالة، والتعاملُ مع الواقع من منطلق مصلحة الذات.

وهذه واقعية لا يقول بها مؤمن، ولا يُحمل قوله عليها.

٢- كما قد يُعنى بها الاستجابة لضغط الواقع واملاءاته، والتكيّف معه في أخطائه، وسلبياته، وانحرافاتِه انهزامًا أمام جبروته، وتبريرُ الكلمة والموقف بضغط الواقع في تنازلٍ عن مصلحة الرسالة، وطموحات الذات مع القناعة الفكرية بهما.

وهذا قد يحدث لنا من منطلق الضعف الذي لا نشعر به.

٣- ومن المعاني التي يمكن أن تحمل على الواقعية، أن لا ينفصل طلب مصلحة الرسالة في بناء الموقف وإطلاق الكلمة عن دراسة الواقع وملاساته ومضاداته وملاءماته، وكيفية التخلص من ضغوطاته، وما تأذن به الرسالة من الاستجابة له من هذا الواقع مع الاضطرار وما لا تأذن، وما يتيسر من الآليات وما لا يتيسر، وما يمكن أن يؤجّل على مستوى المعالجة، وما لا يمكن أن يؤجّل، وما يمكن فعله، وما لا يمكن أن يفعل.

وهذا معنى لا ينافي الرَّسَالِيَّة، وهي تتطلبه حفاظًا على مصالح الدين وأهله.

تحديد المقصود مهم

وإطلاق كلمة الواقعية من غير تحديد المعنى المقصود، قد يخلق حالة من الضبابية في الرؤية، وإجمالاً في المراد، وبليلة في الفهم، وقد يُبرَّر به ما لا يصحُّ تبريره.

الرأي في الموضوع

ومن الواضح جداً بأنه لا رسالية في الانسياق وراء الواقع المنحرف، والاستجابة بغير حساب لضغوطه وإملاءاته، والتكيف المطلق معه، وإعفاء النفس من عناء مواجهته، وطلب الرُّخص للموقف الانهزامي منه، فضلاً عن الانتهازية، وركوب موجة الواقع للأغراض الدنيوية الحقيرة.

على أن مصلحة الرسالة لا يحفظها إهمال النظر إلى الواقع وإيجابياته وسلبياته وفرصه ومنافذه، وما يمكن تجاوزه منه وما لا يمكن تجاوزه مع عرض نتيجة النظر في الواقع على الرسالة والدين في استفتاء صريح موضوعي لها؛ لترسم الموقف، بعيداً عن حالتي التهور والانهزام اللتين كثيراً ما تعتريان أنفسنا بمقدار مُغرق ينبغي الاحتراس منه، ولا عاصم إلا الله.

والرسالة لا تُفتي أبداً بالاستغراق في الواقع المنحرف، والركون إليه، والمساعدة على إشاداته وتثبيتته، وإنما فتواها دائماً بالدرء منه، وتصحيحه بهذا اللون من الموقف أو ذاك، وبالصورة العاجلة الحاسمة، أو التدريجية، مع تقدير دقيق للأولويات، والتزام صادق بترتيبها.

آثار الفهم الخاطئ للرسالية والواقعية

أ- الخطأ في فهم الرسالية

كم حصد شعار الرسالية والمبدئية، والغيرة على الدين، والمنفصول عن حسِّ الواقعية من خَلْق، وضيّع من مصالح، وأفسد من أمور، وأضرَّ بالدين، وسبَّب من كوارث؟!

يقول لك الرسالي المندفع: هذا منكر، ولا بدَّ من اقتلعه.

فتقول له: هذا صحيح، ولكنك لا تملك أسباب اقتلعه في يومين، وأسلوبك في اقتلعه لا يقتله، ويحطم كل المصالح.

إلا أن غيرته على الدين لا تسمح له بأن ينظر في الواقع، وتدفعه لتجاوز كل دلالات الواقع وحساباته؛ ليرى النتيجة غير رابحة، وأن تحرّكه قد أضرّ بالرسالة الضرر الكبير. وقد يقول لك: إنّه التكليف.

ولكن لا بدّ أن يفهم أن التكليف لا يتحول من إنشائيته كما يعبرون إلى حال كونه تكليفاً فعلياً إلا بتحقيق موضوعه في الخارج، ومن تحقق الموضوع أن يتحقق الشرط وعدم المانع.

نعم، قد يكون التكليف في بعض الأحيان مجرد إظهار كلمة الحق وإن غلا الثمن، ولم تتحقق نتائج غير إظهاره، وذلك لئلا تسقط قيمة الدين بصورة أكبر.

وقد تكون النتائج المنظورة للتكليف مستقبلية بعيدة، والتضحيات حاضرة قريبة، فلا يُعترض على التضحيات.

يمكن أن تضحي اليوم مرتقباً النتيجة بعد عشر سنوات، فالتضحية هنا مقبولة ومطلوبة.

ب - الخطأ في فهم الواقعيّة

وأما شعار الواقعية فكم قَبِرَ من مصالح للإسلام، وأزهق من حق، وأحيا من باطل، وفتح الطريق للظلم والقهر والعبث بالدين، وأذلّ المؤمنين وأعان عليهم، وجَهَلهم، وبلّهم، واستغفلهم، وذيلهم، وكان العذر لكل قاعد ومتقاعد، وواهن ومتهاون، ومبهور بالدنيا وطامع؟!

وهو شعار مسؤول عن خسارة المسلمين هويتهم، وأصالتهم أمام الغزو الغربي الكافر، وعن الانحلال الخلقي التي سرت في مجتمعاتنا، والتبذُّل المنتشر بين

صفوف أبناء الأمة وبناتها.

فلا ينبغي للمؤمنين أن يضيّعوا قضاياهم الكبرى، ويذوبوا فيما يخطط لهم على خلاف ما تقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين باسم الواقعية المطروحة شعاراً في غير إطار رؤية متكاملة مدروسة، تحكمها رسالية العقل المسلم، وشعور الإيمان، ممّا يعني تمرير كل المشاريع التي تنطلق من مواجهة الإسلام، وفتح الطريق إليها، وتركيزها. وكثيراً ما يخلط شعورنا المأسور للواقع، المذعور أمامه بين الواقعية الصحيحة وبين الاستسلام للواقع والانبطاح له.

وما أكثر ما تُملّي علينا روح الاسترخاء، وروح الانتفاع الذي تشتهيه النفس من الواقع بأن نرفع شعار الواقعية، ونتحمّس له، ونحوّله ثقافة جماهيرية على مستوى الفكر والشعور والموقف العملي، ممّا يمثّل حال تخدير عام يهيمن على الساحة الإسلامية، ويفتح الطريق لكل مشاريع الهيمنة الأجنبية الجاهليّة.

التّوفيق بين الرّساليّة والواقعيّة

إننا النّاس الذين يضغط عليهم الحماس، فنرفع شعار الرّساليّة بلا حساب للواقع، أو يضغط عليهم الضعف والمصالح، فنرفع شعار الواقعية ولو بتصور حماية الرسالة بما يسحق الرسالة والرّسالية، وينسف قيم الدّين ومصالحه.

والتّوفيق الدقيق بين المبدئيّة والواقعية واحدٌ من الأمور التي استوجبت في إمام المسلمين بعد المعصوم (عليه السلام) شروطاً عالية.

ما الفقاهة^(١) الشاملة الواعية المستوعبة لمساحة الحكم الشرعي، والبنية العامة للإسلام، ومفاهيمه ورؤاه، وأهدافه وأولوياته وأساليبه إلا واحدٌ منها.

فمع ذلك المستوى من الفقاهة التقوى، والتاريخ النظيف البعيد عن الشبهات،

١- الفقاهة بهذا المعنى الواسع واحد من مرتكزات مطلوبة في إمام المسلمين بعد المعصوم (عليه السلام).

والشاهد على النضج والإخلاص، والمبدئية وصحة الرؤية، والرصيد الضخم من التجربة والخبرة، والصلابة النفسية، والفهم المتوازن للمبدئية والواقعية.

والإسلام يؤكد على المبدئية، ويأخذ بالواقعية وله نظرُهُ الدقيق الحكيم الواسع الذي يوظف الواقعية في خدمة المبدأ، ولا يجعلها تنال منه أو تتخذ منه مركباً؛ لتحريفه، وتشويهه، والتلاعب به.

مثال للواقعية المغلوطة

من أيِّ الواقعيّات هذا؟

قد يجدُّ واقع منحرف، أو يكون مشروع على خلاف المصلحة الإسلامية في مرحلة التأسيس، ويتوقف تشييده ونجاحه المطلوب له على مباركة علماء الدين واحتضانهم له، وتفاعل المؤمنين عامة، وتجاوبهم مع خططه.

فإن نال المشروع دعم العلماء ومباركتهم ومشاركتهم، ورضي به سائر المؤمنين برضاهم قام وتأكّد، وأتاحت هذه المشاركة العلمائية خدمة جزئية للدين يقابلها ضرر بالغ عليه، وتحكّم سياسي في مصيره، وامتلاك السياسة الزمنية؛ لمراقب نشاطه وخدمته، على أن هذه الخدمة الجزئية لدين الله غير متوقّفة على الدخول في هذا المشروع والمشاركة فيه.

وإن أنكره العلماء أو قاطعوه لم تسمح له طبيعته المحتاجة لدور العلماء، واستجابة المؤمنين لمشاريعه بأن يتأسس أو يبلغ أهدافه، وبقيت كلمة الدين مستقلة في مساحته التقليدية التي تنازعه عليها السياسة الوضعية وهي مساحة المسجد وما قاربه.

فما يحصل بالمباركة والمساهمة في مثل هذه المشاريع على أحسن التقادير هو الاحتفاظ في المراحل الأولى لها بشيء من مصلحة الدين الحاصلة على تقدير عدم المشاركة، مع تعرض هذا القدر من المصلحة الدينية للضياع عند ترسّخ قدم هذه المشاريع.

فأَيُّ واقعية تدعو للمشاركة العلمائية، ولاستجابة المؤمنين، واندفاعهم في مثل هذه المشاريع؟

أهي الواقعية التي تأخذ بها الرسالية، وتقوم عليها مصلحة الدين، والتي يعني تجاوزها تجاوزاً للفهم والموضوعية، ويعني التهور والانفلات في المشاعر، وغلبة الحماس والمواقف الارتجالية الانفعالية؟

أم هي الواقعية التي ينكرها الدين، ويقف في وجهها بكل حزم وقوة؟
إنَّك هنا تدشّن مشروعات مخالفة للمصلحة الإسلامية، وتقرضها بمشاركتك واقعاً على الأرض يُرغمُ المؤمنين على متابعتها من بعد حين.

إنك هنا تضعف نفسك بنفسك، وتضعف سائر المؤمنين من إخوانك.

إنك تعطي سلطاناً على نفسك وعلى دينك في غير اضطرار ولا إكراه.

فهذه المشاريع ذات الطبيعة الخاصة التي تفرض عليها حاجتها لدعم العلماء ولدعم المؤمنين، والقاضية على مصلحة الدين لا يؤسسها ولا يشيدها ويثبتها إلا أن يلين لها البعض من العلماء لوجهه وآخر، وإن يكن أحياناً بحسن نية، ولا تستطيع تلك المشاريع أن تملك الساحة، وتفرض نفسها على البقية إلا بجهد هذا النفر الذي يعطيها المباركة والدعم، ولا يمكن أن تقوم وتنتعش بعيداً عن هذا الدعم والإسناد والدعاية والترويج، وبذلك تكون مسؤولية العلماء في هذا المجال خطيرة إلى أقصى حد.

وليس من الصحيح أن نسهم في خلق واقع الضيق، والضعف، والتقزيم، والإضرار بالدين والمؤمنين، وننادي بعد ذلك بأن على الآخرين أن يعترفوا بالواقع، وأن يذعنوا له، ويستجيبوا لمقتضياته.

كيف يكون لي أن أُلَفَّ حبل المشنقة حول عنقي وعنق الآخرين من إخواني المؤمنين، وأدعو عندئذٍ للاستسلام للواقع؟

قُدِّمَ في الآونة الأخيرة عرض على الحوزة العلمية في النجف الأشرف بصرف رواتب شهرية لطلاب العلوم الدينية من الأوقاف الشيعية في العراق، والتي يترأسها أحد المؤمنين الغيورين على الإسلام، وكان الاقتراح من منطلق الحرص على المصلحة الإسلامية، وبلحاظ الظروف المعيشية الخانقة لطلاب العلوم الدينية هناك، فرفضت الحوزة أن تتقدم إلى المشنقة من خلال هذه الخطوة الأولى التي لا يؤمن أن تجرَّ إلى خطوات.

وهذا لا يعني التزمّت، والتفريط في الفرص، وإنما يعني الاحتياط لسلامة الدين ومصلحته.

ففرق واسع بين أن تُسَلَّم الأوقاف؛ لِتُصَرَّف المرجعية هناك، فتنفق منها على المصالح الدينية ما وسع الحكم الشرعي ذلك، وبين أن تكون الأوقاف مؤسسة حكومية يرتبط بها مصير الحوزة عن طريق الإنفاق وشروطه وموانعه التي تحددها السُّلطات.

وفي الوضع العام فرق بين أن يعترف للمؤسسة الدينية والحوزات العلمية بحقوقها في الميزانية العامة، وتوضع ميزانية خاصة تحت تصرفها مع الخضوع للمحاسبة، وبين أن يرتبط الوجود الديني برواتب حكومية يرتفع سقف شروطها وموانعها مع مرور الزمن، وتكون المدخل للتحكم في الشأن الديني بكامله.

على أنه ليس من مصلحة الدين أن تعتمد المؤسسة الدينية والحوزات نهائياً على ميزانيات الدول؛ لينتهي ذلك بتجفيف مصادرها الحُرَّة التي وفَّرتها الشريعة المقدَّسة من خمس وزكاة، ووجوه قربية أخرى، وبتوفير الإمكانية الهائلة للطرف الآخر؛ للضغط على إرادتها الشرعية للحاجة الملحة للمصدر الرسمي، والوحيد في التمويل مما يعني أن شرايين حياتها من ناحية معيشية تكون مجتمعة بيد هذا المصدر وتحت رحمته.

وهو مصدر لا يمكن أن يكون مأموناً وموثوقاً على تقدير كل التقلبات والتحويلات، فإن أُنْصِفَ منه يوماً فقد لا يؤمن منه في اليوم الآخر، وإن أحسن في حال فقد يسيئ في حال.

الحوزة العلمية والمؤسسة الدينية مصدرهما الدائم الذي اختارته الشريعة في زمن الغيبة هو الخمس، والزكاة، والوجوه القريبة الأخرى، فذلك آمن للدين، وأحفظ لكلمته واستقلاليته.

فحتى في فرض أن تخصص ميزانية خاصة من ميزانية الدولة العامة للحوزات والمؤسسة الدينية ومن غير تدخل في شؤونها مطلقاً وهو حق لهذه الحوزات، فإنه لا يصح في نظري الاعتماد الكلي على مثل ذلك لما يؤول من مثل هذا الأمر من انقراط أمر الدين^(١).^(٢)

١- فقد يُنخلق عند المؤمنين بهذا نوع من الاتكالية، ويحصل التساهل في الالتزام بأداء الحقوق الشرعية، ويخضع الدين في الأخير للمساومات الدنيوية التي تضر به.

٢- خطبة الجمعة (١٧٦) ١٣ شوال ١٤٢٥ هـ، ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٤ م.

(٥)

مقولة: (ما لله لله، وما لقيصر لقيصر)^(١)

كلمة كنيسة مشهورة تنسب إلى النبي عيسى عليه السلام.

هل قالها؟

لوقالها وهو الرسول المعصوم من أولي العزم، فلا يقولها إلا بمعنى صادق في العقل والدين.

لو أمكن أن يقولها في ظرف خاص محفوفة بالقرائن التي لا تسمح بالتأويل، والتي تساعد على التخلص من ظلم ظالم، تخلصاً لا يضر بدين الله؛ فإنه إنما يقولها بالمعنى الصحيح من هذين المعنيين الآتين:

المعنى الأول لهذه الكلمة:

إن قيصر قسيم لله وعَلَّزَّ في ملكه، والكلمة تضع حداً؛ لتجاوز الله سبحانه وتعالى على ملك قيصر؛ فما لله لله، وليس له أن يتعدى إلى مال قيصر.

كما تضع حداً تصرف قيصر بحيث لا يتجاوز بتصرفه عماله إلى ما هو لله. فقيصر شريك مع الله في ملكه، أو قل: بأن الملك بحسب هذا الفهم قسمة بين الله وقيصر!!

والكلمة تضع حداً؛ لتجاوز مساحة ملك كل طرف إلى مساحة ملك الآخرة. وهو معنى لا يقبله طفل مميز فضلاً عن بالغ رشيد، فهذا المعنى ساقط عقلاً ودينًا بصورة واضحة.

فقيصر لا ملك له في قبال ملك الله سبحانه لا في مساحة التكوين، ولا في مساحة

١- إنجيل برناما، ص ٧٦، سيف الله أحمد فاضل، دراسة عقائد أهل الكتاب وردودها، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، دار القلم.

التشريع.

المعنى الثاني: ما لله - وهو الكون، وما فيه -، والعزّ، والأمر والنهي، والحكم والربوبية، ومطلق التصرف، فكل ذلك لله وحده، وما لقيصر إنما هو العبودية والفقر الذاتي، والمحدودية، وما يناسبه من امتثال المولى الحق.

وبهذا يخرج قيصر بلا شيء؛ بلا ملك لذات، ولا لشيء من ذات، وبلا ملك لأي شيء من الأشياء، وهو عبد قنّ صرف لله تبارك وتعالى، فليبحث قيصر عن كون خلقه؛ ليكون له، عن طعام صنعه؛ ليكون له.

أأنبت قيصر نباتاً؟، أم خلق حيواناً؛ ليكون ملكه؟

فليبحث قيصر عن إنسان أوجده؛ ليكون له!

ليبحث قيصر عن حبة رمل أوجدها؛ لتكون ملكه!

ليبحث قيصر عن نسمة هواء من قدرته؛ لتكون ملكه!

ليبحث قيصر عن شعاع من أشعة الشمس؛ ليكون هذا الشعاع في حوزته!

ما لقيصر؟

قيصر صفر كأى إنسان بما هو في ذاته في هذا الكون، كأى ملك، كأى نبي، ما لقيصر لقيصر، قسمة بين الله وقيصر؟

وقيصر ربما رضي في البداية بأن يكون ما لله مما يعينه هو الله، وما له في اعتباره له، ولكن قيصر تمدد في رغباته وطموحاته، وتمدد في عدوانيته، في استكباره على الله وعجلّ.

كان قيصر يترك لدين الله مسألة ما يجوز، وما لا يجوز في الزواج، ولكنه صار في الغرب اليوم يبيع اللواط والسحاق، وصار قيصر يستخدم الكنيسة ورجالها وإمكاناتها لخدمة سلطته، ولا يرضى لها دوراً غير هذا الدور.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٣٧) ٦ شعبان ١٤٢٩ هـ، ٨ أغسطس ٢٠٠٨ م.

(٦)

شعاراتٌ محاربة

يُطلق البعض عددًا من الشعارات الرنانة المزيّفة المحاربة في مواجهة أي صوت ينادي باحترام الدين، وتصحيح الوضع الخُلقي، والتخلص من المنكرات، وتطهير هذه الأرض الإسلامية من مظاهر الرذيلة، والفحشاء، والمجون.

ويتناول هذا الحديث بعض هذه الشعارات؛ لفحصها، وتعريتها، وإيضاح مداليلها الخطيرة المستهدفة لمن يحركها.

١- التنوّع الثقافي

يُطلق هذا الشعار للرد على المطالبة بمنع الخمر، والتوقّف عن حفلات الرقص، وإلغاء الإباحة الجنسية التي تتوسّع يوميًا بعد يوم.

ما يريده هذا الشعار أن ليس للإسلام أي امتياز في هذا البلد على غيره من الأديان وحتى الطروحات الأرضية، والأهواء الشيطانية لا في فكر، ولا تشريع، ولا سلوك، ولا سياسة ولا أخلاق، ولا أي حقل من حقول الحياة، وأي بُعدٍ من أبعاد حركة هذا المجتمع.

وهذه الجرأة على الإسلام وهذا البلد، وهذا الشعب، وهذه المجاهرة، والمضادة المكشوفة لدين الله، والطّرح الوقح، والتناسي الغبي أو المتعمد لواقع هذا الشعب المرتبط شديداً بالإسلام، والمفاخر به إنما هو مقدّمة لما هو أكثر جرأة وبشاعة ووقاحة، وحرّبا على الإسلام، وهو المناداة بطرد هذا الدين المنقذ الذي لا غنى للإنسانية عنه من تمام الساحة، وأن يتقرّد بها صوتُ الشيطان، والمنتج المحلي من إعداد، أو المستورد تحت نظره من أيّ بقعة ساقطة في الأرض، ومن أيّ فكر هابط، وسلوك سخيف، وأخلاق متردية.^(١)

١- يراد للساحة أن تكون مملوكة لهذا المستورد والمنتج الشيطاني.

المطلوب أخيراً مثل هذا الشعار: أن يكون كل شيء في البحرين محكوماً للفكر الآخر، والسلوك الآخر، والقانون الآخر، وأن يختفي أثر الإسلام.

وقد بدأوا اليوم قبل الغد يرمون الإسلام بالرجعية والتّقام، وعدم القدرة على مواكبة التطور ونحن نعرف أنّ التطور الذي لا يواكبه الإسلام ولا يوافق عليه هو التطور الآخذ في الانحدار، وإلا فإنّ الإسلام قد صار يثبت السبق اليوم فضلاً عن أمس البعيد قدرته على سبق كل الأطروحات في التقدّم الإيجابي بكلّ أبعاد الحياة، وإثراء الحركة الصالحة في أي وطن يكون له فيها موطأ قدم.^(١)

ومن المفارقة التي يقع فيها أصحاب هذا الشعار - شعار التعددية الثقافية - أنهم يصرون على علّمة الأحوال الشخصية، وتحكيم اتفاقية سيداو المناهضة تماماً للإسلام، وهذا بعد طرد الإسلام وإقصائه من كل المساحة التشريعية الأخرى؛ لتتفرد بها القوانين الوضعية.

فأين هذه التعددية الثقافية؟

وأين الانفتاح على كل الأفكار كما تدّعون؟^(٢)

إنّ شعار التنوع الثقافي ومفهومه المطروح عندهم يقول لك: أيها الملتزم بالإسلام، لا تحتجّ منذ اليوم بإسلامك، ولا ترفع شعاره في وجه ما نريد، ونُخطّط له، ولم يعد هذا البلد بلداً إسلامياً كما تتوهّم.

وإنّه لكثير عليك إذا اعترف لك مؤقتاً بوجود هزيل، وشراكة محدودة ضيقة

١- والإسلام هو الذي يقف اليوم شامخاً في كل الساحة الإسلامية والعربية؛ ليقارع الاستكبار العالمي، وليثبت جدارة هذا الدين على التقدم بوعي الأمة وحركتها الإيجابية.

٢- ولماذا لا يكون الانفتاح على المطالبة بالحقوق؟

ولماذا عدم الانفتاح على حرية الدين عند أهل الدين؟

ولماذا هذه الانغلاقية السياسية؟

ولماذا هذه المطاردة المذهبية؟

ولماذا الكثير من التمييز؟

ولماذا الكثير من خنق الحريات؟

ضعيفة باهتة لا تكاد تبين.

وعلى هذا الشعب المسلم أن يردَّ على هذا الشعار وأمثاله بإصرار أكبر، وتمسك أشدَّ، وعودة أصدق للإسلام في كل مجالات حياته؛ ليبطل كيد الشيطان وأهله فيما يريدونه بهذا الشعب، وبهذا الوطن.

أنت تحتج عليهم بالإسلام، وهم يحتجون عليك بأوضاع أهل الكفر! وأنت تلزمهم بالقرآن، وهم يلزمونك باتفاقية سيداوا، وكأنَّهم ليسوا من أهل هذه الأرض، وهذا الدين، ولا صلة لهم بهما، أو كأننا نحن هذا الشعب قد طلقنا الإسلام طلاقاً باتناً، وكأنَّ بيننا وبينه الفراق الذي ليس بعده تلاقٍ.

مسلمون، مسلمون، مسلمون، وسنبقى دائماً إن شاء الله مسلمين.

اغلقوا طريق هذه المؤامرة، قفوا في وجهها صامدين، عضوا بالنواجذ على إسلامكم، قفوا في وجه كل منكر يريد أن يسرح ويمرح في طول وعرض هذه الساحة.

٢- شعار الانفتاح والتسامح

هذا الشعار يقول لهذا الشعب: بلدك بلد الانفتاح والتسامح؛ الانفتاح المفتوح على كلِّ شيءٍ وربَّما على الخسيس من الفكر، والجاييف من السلوك بالخصوص، ودينك كذلك، وإذا لم يكن الدين منفتحاً بهذا النوع من الانفتاح، فدعه يعيش في الزاوية المغلقة الحرجة، وانفتح أنت انفتاح بلدك على كلِّ شيءٍ مُغلِقاً عقلك عن النظر في عاقبة الأمور، مُفسِّراً قلبك على احتضان السيئ.

هذا الشعار دعوة للانبطاح الثقافى، والتخلّي عن الدين والذات والشرف والعفة والكرامة على حدِّ الانبطاح السياسي والتبعية السياسية، والذوبان السياسي، والميوعة السياسية أمام سياسة الغرب وإسرائيل.

إنَّه دعوةٌ للتخلِّي عن الإسلام، وعن الهُويَّة، وأخلاقيَّة الإيمان، واللحاق بالفكر الآخر، والأخلاقيَّة الأخرى، والضَّياع في الآخر.^(١)

هذا الشعار؛ من أجل التسامح والانفتاح إلا مع الإسلام، والالتزام الإسلامي، والأصالة الإسلامية، وحقُّ الإسلام في بلاده، والأخلاقيَّة الإسلامية في موطنها، وحقُّ الإنسان المسلم في حريته الدينيَّة.

هذا الشعار؛ من أجل التَّسامح مع السياحة الهابطة، مع الرِّقص والراقصات، والزنى والزانيات.

ومن أجل مصافحة ومعانقة المثليين والمثليات، والترحيب بالخمير استيرادًا وصنْعًا وتجارة وتعاطيًا وآثارًا كارثيَّة وسلبيات متعاظمة.

من أجل التسامح مع العري، والبشاشة في وجهه، والتمكين له وتعميق ظاهرتَه.

٣- شعار المصلحة الاقتصاديَّة

هذا الشعار شعار إرهابي يطلقه أصحاب البذخ المادي، وناهبو الفقراء، ومصاصو دماء المحرومين في وجه أي مطالبة دينية بمراعاة حرمة هذا البلد وكرامة دينه، ونظافة السياحة، وعدم الاعتماد فيها على سوق الخمر والفاحشة والمتاجرة بالعنصر البشري، واستيراد سلعة الجنس الحرام من أين انفضح سوقُها، وكانت مغرية لطلابها الساقطين من المتوافدين على سياحتنا الشريفة في طلبها.

إنَّه شعار يخوِّف الناس بالفقر والمجاعة حين يقل الترويج للسياحة بالحرام مما توعد عليه الله وَعَلَّزَّ بالعذاب من خمرٍ، وفحشاء، ولواط، وسحاق.

والحقيق بهذا الخوف ليس الفقراء وإنما هم أهل الجيوب المترفة^(٢) والتي يغذيها الدخل الهائل من هذه السياحة الهابطة، وما فيها من مهنة الفحشاء، ومن متاجرة بالأعراض، وعرض لمتعة الجسد الحرام، وتحايل واختطاف واصطياد للفتات من كل مكان.

١- يريدون لنا أن نضيع ذاتًا في ذات الآخر.

٢- تأثير السياحة الهابطة على مَن اقتصاديًّا؟، على الفقراء؟ ١٩.

ومؤدَّى هذا الشعار أنّه إذا ذُكر الاقتصاد - اقتصاد كبار السُّراق والنفعيين -، فلا تذكرُوا دينًا ولا قيمًا ولا خلقًا ولا شرفًا ولا كرامة^(١)، فكلُّ ذلك رخيص أمام مصلحة المترفين.

وكل شيء يجب به التضحية لهذه المصلحة، ولا يمكن أن يُضحَّى بها؛ من أجل شيء أي شيء.

ونحن الكبار السراق لا نجد بابًا أسهل من هذا الباب المخزي، ولا مجالًا أيسر من هذا المجال القذر؛ لضمان الربح السريع الهائل والمفسد لهذا الشعب في الوقت نفسه.

٤- شعار للفتوى مجالها وللقانون مجاله

يقول الشعار: هناك مساحتان منفصلتان عن بعضهما البعض، مساحة الفتوى بما تعتمد عليه من قرآن كريم، وسنة مطهرة، أو غيرهما من مصادر شرعية أخرى عند هذا المذهب أو ذاك، وهي المساحة التي يمكن أن يُتاح للقرآن الكريم نفسه، وللسنة المطهرة نفسها أن تكون حركتهما في إطارها.

وهي مساحة الحياة الشخصية للفرد لو شاء في الأمور التي لا تؤدِّي إلى تدخُّل في صوغ الوضع العام وتوجيهه، والتأثير على مصالح الكبار المفسدين.^(٢)

أما المساحة الأخرى الواسعة التي تستوعبها الحياة العامة، ويدخل فيها الوضع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والوضع الحقوقي العام، والتحكُّم في القوى والمؤسسات الاجتماعية، والثروة، فهي مساحة مملوكة بالكامل للسياسة الوضعية، وللقانون الوضعي والخاضع للوصاية السياسية القائمة وليس لرأي الشعب، ولا علاقة للفتوى ومصادرها بشأن هذه المساحة على الإطلاق.

١- هذا مراد الشعار.

٢- هذه المساحة نتركها وقتياً للفتوى، ولقرآن الفتوى، وللسنة التي تمد الفتوى، ولا نكتفي بهذا بل نضايقه. الإسلام صار يضايق في المسجد، صار يضايق في الحسينية، صار يضايق في الموكب، صار يضايق في الأحوال الشخصية. الإسلام يطارد في كل زاوية من زوايا الحياة حتى الفردية.

وهو طرح علماني واضح فاضح صارخ، وكأن شعب البحرين صوّت بالأغلبية على هذا الفصل بصورة نهائية لا رجعة له فيها، أو تُبرّر هذا الفصل ولو إلى أن يتم استفتاء آخر يمكن أن يُعدّل من قضية هذا الفصل، وكأن شعب البحرين قد خاض إسلامه، أو جدّ له رأي في الإسلام يجعل دين الله وشريعته معلّقين على رفض النسيان، وكأن دستور البحرين لا ينصّ على أن الشريعة الإسلامية مصدر رئيس من مصادر التشريع، وإن كان الدستور لا ينصف الإسلام ولا الشعب المسلم، ولا يقدرهما بقدرهما في هذا التعطيل والإقصاء للشريعة الحقّة عن موقعها الطبيعي في توجيه وحكم حياة المجتمع المسلم بكاملها.^(١)

إنّهم يقولون: إنّ للفتوى مساحتها وأهلها، وحركة الفتوى والفقهاء والمجتهدين إنما هي في مسائل مثل: الوضوء، والصّلاة، والطّهارة عن النّجاسات لمن تهمّه هذه الأمور، ويرى أنها تستحقّ أن يُصغى لها.

وللسياسة أهلها وأبطالها وهم أصحاب الفكر الوضعي النّقي من شوب الإسلام، والمنفصل في تفكيره عن الفهم الديني، وفي نفسيته عن أي تقدير للحكم الشرعي، ويستوحش من ذكر هذا الحكم فضلاً عن الرجوع إليه.^(٢)

وكلمة أخيرة: بأن نجاح الشعارات الأربعة على الأرض، وتحقيقها لمبتغاياها من تصفية الوجود الإسلامي على هذه الأرض تصفية كاملة، والإعداد لأجيال تنتكّر للإسلام، وتعاديه، وتُنازله في هذا البلد المتدين اليوم إنما يعتمد على موقف الشعب نظرياً وعملياً من هذه الشعارات.^(٣)

١- نحن لا نفخر بنص الدستور على أن الإسلام مصدر من مصادر الدستور، لا نفخر به أصلاً. إنه ظلم للإسلام.

أُجعل الإسلام في صف الدستور الفرنسي في المرجعية ١٩ في صف الأعراف الجاهلية المتسودة ١٩

٢- السياسة، الساحة العامة، الأمور المهمة متروكة لنفسية تستوحش من الحكم الشرعي، لعقلية لا صلة لها إطلاقاً بالدين، وفهمه، وتقديره.

٣- أنتم اليوم شعاراتكم مع الإسلام، أو لا دكم غداً مع الأعمال ستكون شعاراتهم مع الكفر، ستضج حتى المساجد لو بقيت صلاة لشعارات العلمانية. ثقوا: إنه أكيد.

موقف السكوت، وعدم المبالاة، والغفلة والتشاغل لا شك أنه يُحقق لهذه الشعارات والمسوّقين لها ما يريدون.

والموقف الوحيد الذي يُفشل هذه المحاولات الخبيثة إنما يتمثل في وعيكم للإسلام والتعرف على عظمته، وإعطائه الحضور الواسع كلما أمكن في حياة هذا الشعب على كل المستويات في البُعد الفكري والشعوري والعملية، وفي إطار حياة الفرد، والأسرة، والمجتمع، وعلى الصعيد الشعبي والصعيد الرسمي معاً، وفي كل الأوضاع بكل الطرق الدينية والعقلانية المتاحة، واستمرار المجاهدة والمطالبة والمقاومة والإصرار على تنظيف هذا البلد من المنكرات الشائعة.

وأؤكد: إنَّ أيَّ مفارقة من شاب أو شابة، ومن أيَّ فرد من أفراد هذا المجتمع المسلم المؤمن عن أيَّ سلوك إسلامي، وأنَّ أخذهما في أي قضية من قضايا اللباس وقصة الشعر، وعادات الزواج، وأنواع الاحتفالات، وإقامة العلاقات، وغير ذلك مما يُبعد عن الإسلام، ويُترّب من حياة المجتمعات والفئات المعادية معناه خطوة مؤثرة في اتجاه **تحقيق أمنية أصحاب هذه الشعارات**^(١) في امتلاك السّاحة، وطرد الإسلام منها كلياً، والتسريع بتحقيق هذه الأمنية.

والكل مسؤول والله هو الغني الحميد.^(٢)

١- خلعتك للعبادة انتصار لهذه الشعارات.

أخذك بالباطل هو الضيق هذا خطوة جريئة ومضادة لدين الله ﷻ، وانتصار صارخ لثقل هذه الشعارات، هو قضاء على الدين، قضاء على الشعب، قضاء على الهوية.

أنت تستسهلين هذا التصرف، وتعتبرينه أمراً شخصياً، تصرفك ليس فردياً.

ليس من حقك أن تتصرفي هذا التصرف.

أنت هنا تعادين الشعب، تعادين الدين.

انتقالك أنت الشاب كذلك من لبس الثوب إلى السروال القصير، بانتقالك من الثوب إلى السروال القصير وفي الطرقات، فيه تقريب لحالة غير إسلامية، تعجيل لحالة غير إسلامية، نستطيع نحن بسلوكنا الشخصي أن نهدم الإسلام، وأن ننصر للإسلام.

٢- خطبة الجمعة (٤٠٧) ٢٩ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، ١٤ مايو ٢٠١٠م.

٩

الفصل التاسع

السُّياسات العالمية

(١)

سياسات الاستكبار والاستضعاف

المنهج الفرعوني

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

الله رب الجميع وغني عن الجميع، فلا يستضعف طائفة من الناس؛ لينتصر بطائفة، لا يقرب طائفة ينتصر بها، ولا يستضعف طائفة يتخلص من ما يحذره منها، أما غير الله ممن لا يسير على درب الله فممنهج - دائماً - فرعوني، والمنهج الفرعوني لا يمكن أن يصلح.

هذه سمة ومعلم رئيس من معالم المنهج الفرعوني، ما هو هذا المعلم؟

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الرأي له لا لله، ومن رأى أن الرأي له لا لله، فهو ممن علا في الأرض واستكبر، كان في الموقع الكبير، أو كان في الموقع الصغير، وحتى لو كان فاقداً لأي موقع.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، منهج إفسادي، والقائم عليه مفسد.^(٢)

إن مردّ المشكلات المستعصية، والمتاعب الكبرى التي تعاني منها الحياة الإنسانية في بعدها السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، وغيرها مشكلتان:

١- مشكلة الفرعونية أمام الله سبحانه.

٢- ومشكلة الحقارة أمام الإنسان.

١- القصص: ٤.

٢- خطبة الجمعة (٧٢) ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ، ١٦ أغسطس ٢٠٠٢م.

حالة الكبرياء والجبروت الموهوم عند نفرٍ من الناس، وحالة الانسحاق أمام هذا الشعور عند آخرين.

والمنهج الرباني يستهدف استئصال هذين الشذوذين في النفس البشرية.

أما المنهج الطاغوتي، فيعمل على تغذيتهما، وتركيزهما معاً.

فالمنهجان في مواجهة دائمة لا تتوقف، والطفة أبداً لا يرضون بمنهج الله، ولا يسمحون له أن ينطلق في الحياة، يصنع الإنسان موحداً لله، وعندئذٍ تنتهي طاغوتيتهم عملاً وفعلاً في الخارج.^(١)

المجتمعات البشرية فيها مستكبر ومستضعف، ويعمل المستكبرون في المجتمعات المختلفة على بقاء هذا الانقسام دائماً حفاظاً على أغراضهم الأنانية الاستكبارية الاستثنائية الظالمة التي لا تتم إلا بامتصاص جهود الآخرين، وإضعافهم؛ ليتم النهب والسلب ومصادرة الثروة والحقوق، وفرض الشروط والاستعباد والاستغلال للعامة من أبناء الشعوب والأمم في مأمن من رد الفعل المتكافئ مع قسوة الظلم ووطأة العذاب، وفي راحة تامة للفئة المستكبرة بحيث لا يكدّرها مكدرٌ من سبب من أسباب القوة يكون بيد المستضعفين.

ومن دور الرسائل السماوية التوحيدية القضاء على هذا الانقسام الذي يفسد المجتمعات، ويحطّم حياتها، ويحرف الإنسانية عن خطّها الطبيعي القويم، وغايتها الكبرى التي بها تحقيق كمالها وسعادتها.

إن من دور الرسائل الإلهية في الأرض إنهاء ظاهرة الاستكبار التي تعني مضادة التوحيد، وعبودية الإنسان للإنسان، وسيادة الظلم والسوء والفحشاء، والانهيئات الخلقية، وسقوط القيم المعنوية الرفيعة، وعبثية الحياة.

ولا يخفى على الاستكبار والطاغوتية في الأرض ما تمثله قضية التوحيد، والدين

١- خطبة الجمعة (٤٧) ٩ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ٢٢ فبراير ٢٠٠٢م.

الحقّ من خطر هائل ماحق للاستكبار والمستكبرين، والطاغوتية والطفاعة، ومن هنا ما إن تأتي رسالة سماوية ورسول من الله، أو تحيا دعوة إلى الدين الحقّ في أي ساحة من الساحات التي تشهد ظاهرة الاستكبار إلا واستنفرت الجبهة الاستكبارية كل طاقاتها في وجه الرسالة والرسول والرساليين.^(١)

لا استكبار ولا استضعاف

١- ﴿قَالِ يَوْمَ تَجُزُّونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.^(٢)

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.^(٣)

تنتشر في المجتمع العالمي حالة الاستكبار، والاستضعاف، وهي ليست ظاهرة وليدة في وقت قريب.

إنها ظاهرة مرضية صاحبت تاريخ الإنسان في كلّ عصوره، وبقيت ملازمة له.^(٤)

وما يدفع لها أساساً هو حبُّ الظهور والسيطرة، وما يغري بها اختلاف ميزان القوى في الناس، وما تعمل عليه روح السيطرة؛ من أجل التمكين لحالة التفوق الخارجي، والاستعباد، والإذلال للآخر هو المزيد من الاستضعاف للمستهدف، وتجفيف منابع قوّته، وممانعته حتى يتم إحكام السيطرة، وضمان استمرارها.

١- خطبة الجمعة (٣٧٠) ٢٦ جمادي الأولى ١٤٣٠هـ، ٢٢ مايو ٢٠٠٩م.

٢- الأحقاف: ٢٠.

٣- النساء: ٩٧.

٤- وهذه ظاهرة ذات شقين متلازمين ما كان استكبار إلا وكان معه استضعاف.

يعمل طالب السيطرة على الغير واستعباده على أن يزيد من مستوى قوّة نفسه، وتجميع كل ما استطاع من أسبابها بيده، وأن يسدّ كل منابع القوّة التي تصبّ في صالح مستهدفه، ومنع مناشئها.

وتتجه عملية استضعافه له في كل الأبعاد من سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وثقافي، وأمني، ونفسي، وديني، وصحي وأي بُعد آخر يمكن أن يكون سبباً؛ للنهوض والقوّة، والقدرة على الممانعة.

وفي هذا عمل تخريبيّ لأكبر مشروع لتقدّم الحياة والإصلاح، وأعظم موجود على ظهر الأرض وهو الإنسان.

وهو عمل سيئ خبيث بالغ الخطورة، ومضادّ لإرادة الله عزّ وجلّ، ودور الخلافة والإصلاح والإعمار الذي كُلف به هذا المخلوق المعدّ لذلك.

ولا تنشأ ظاهرة الاستكبار والاستضعاف في ظلّ عقيدة التوحيد وحضورها في نفس الإنسان، لأنّ في استكبار العبد تنكراً واضحاً لعبوديته، وتمرداً على حقّ الله في الخضوع له، وإرادته في المساواة بين عبيده في واقع العبوديّة، وإذعانهم لها.

والاستسلام؛ للاستضعاف مُنافٍ هو كذلك لقضيّة التوحيد، لأنّ فيه تشجيعاً على دعوى الربويّة الكاذبة من المستكبر، واستجابةً لرغبة الإشراك بالله سبحانه، ومنافاةً لإخلاص العبوديّة له، وعدم الدّلّ إلا بين يديه.

فالإسلام وهو عقيدة التوحيد الشّامل الخالص يُحرّم الاستكبار، والاستضعاف من أجله، والقبول بحالة الاستضعاف والبقاء في موقع الدّلّ عن اختيار، ويفرض على المسلم أن يعمل جاهداً على التخلّص من موقع الضعف الذي يسبب له الدّلّ وقدّ الإرادة، وتعطيلها، وسلب الخيار الحرّ في الحياة، والوقوع في قهر الغير، وتحت إرادته، والاضطرار إلى التنازل عن شيء من دينه.

كما يدفع الإسلام أبناءه إلى طلب القوّة للإصلاح، وخير النّاس والحياة والمجتمعات، وصلاح الدنيا والآخرة، ودفع الشرّ، ودرء العدوان.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾^(١)

فالقوة المأمور به في الآية الكريمة ليست استكبارية ولا عدوانية، وإنما هي قوة رادعة لعدو الله، وبطشه الظالم^(٢)، وعدوانيته الغاشمة.

وعدو الله لا يعرف معروفًا، ولا يتوقّف عن منكر، ولا دين له، ولا ضمير، ولا حدود، ولا قيم، ولا أخلاق ولا رحمة، فإنها به إرهابٌ للشر، وقطعٌ للطريق على الظلم والبغي والعدوان.

قوةٌ للخير لا للشر، والإصلاح لا الإفساد، والأمن لا الخوف، والعدل لا الظلم، وللفضيلة لا الرذيلة.

إنها لصالح كل الشعوب والأمم، ولقطع دابر الطغاة والمستكبرين في الأرض. إنها ليست بديلاً عن العدل والرفقة والرحمة والإحسان والحق، وإنما هي لدعم ذلك كله.

والإرهاب الذي تتحدث عنه الآية الكريمة ليس إرهاباً على الأرض^(٣)، ولا تبنياً لسياسة العنف أصلاً مكان الحوار، وإنما هو بناءٌ للذات، وتملكٌ لأسباب القوة، وإقامة واقع متين على الأرض يهابه المعتدون، والطامعون في النيل من الدين، والحق، وعزة الأمة وكرامتها، ويمنع مغامراتهم في مواجهتها، ويعطل عندهم لغة الحرب.^(٤)

١- الأنفال: ٦٠.

٢- وإذا كان هناك عدو لله، فهو ظالم بطّاش مفسد.

هذه القوة ليست في مواجهة الإصلاح، ليست في مواجهة الخير.

إنها قوة؛ من أجل الخير، وضد الشر.

٣- ليس إرهاباً بالمفهوم المطروح الآن، وهو أن تكون هناك قوة فتأكل فتأكل بغير حساب، وتقتل الأبرياء، وتفجر في الأسواق، وفي دور العبادة.

الإرهاب الذي تتحدث عنه الآية الكريمة هو من نوع آخر.

٤- خطبة الجمعة (٤٥١) ٩ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، ١٣ مايو ٢٠١١م.

الاستكبار وسلاح الإعلام الكاذب

يقول سبحانه في كتابه العزيز: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ، وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

والإعلام الكاذب، والدعاية الظالمة المضادة من أول وسائل مواجهة الاستكبار للحق والتي تتبعها وتزامنها عند هذه الجبهة استمراراً كل الوسائل القذرة والمدمرة الأخرى. وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾^(٢)، يتحدث عن موقف استكباري ثابت مناهض لحركة الرسالات الإلهية الحقّة في كل تاريخها الممتد البعيد بالدعاية المضادة والإعلام السخيف، وإلا فكيف يكون كل أصحاب الرسالات السماوية بمطروحاتها الحقّة الرفيعة العلميّة العادلة الكريمة الهادية المربيّة التي تلقى رصيدها الكبير في العقل السليم، والقلب الطاهر، مع ما عليه أولئك الرسل الكرام من منزلة عالية لا تُجارى في العلم والوعي، والخلق والشرف، وحسن التدبير، والقدرة المتميّزة في القيادة كيف يكون أولئك من السحرة والمجانين وبصورة مستمرة دائمة؟!

وقد تعجب لهذا الاتحاد في الموقف الاستكباري المناهض للرسالات في الأزمان المختلفة، والأماكن المتغيرة، والظروف المتبدلة، والأمم المتكثّرة، والثقافات المتباينة، وتتساءل عن الخلفية وراءه، فهل هي وصية كل جماعة سابقة إلى الجماعة اللاحقة من جماعة المستكبرين بالمواجهة لكلمة التوحيد والعدل والإصلاح؟!

الآية الكريمة - ﴿... أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٣) - تعطي خلفية أخرى لهذه الظاهرة المستمرة، ظاهرة مواجهة الاستكبار للرسالات الإلهية، وإحياء الرسالات، وهي الطاغوتية المشتركة المتغلغلة في عقلية ونفسية هؤلاء المنحرفين عن الخط الكوني الواحد

١- الذاريات: ٥٢-٥٥.

٢- الذاريات: ٥٢-٥٥.

٣- الذاريات: ٥٢-٥٥.

العابد لله وحده، وتوهم الربوبية وحقها لأنفسهم التي لا يملكون من أمرها شيئاً.
فهذه هي الخلفية الأصل العميقة المشتركة بين كل فئات المستكبرين في كل مكان
وزمان، ومن أي قومية كانوا، وأي شعار رفعوا.

والتصادم بين الطاغوتية والتوحيد قائم لا محالة في كل الساحات للتضاد الذاتي
الذي لا يغيره مكان ولا زمان، ولا يتأثر بتنوع الظروف.

التوحيد يعني أن لا طاعة في الأصل، ولا عبودية على الإنسان لغير الله سبحانه،
والطاغوتية تعني تفرد الطاغوت بحق الطاعة له على الناس، والتصرف فيهم كما يشاء.
ومن هنا يعادي الفكر الطاغوتي فكر التوحيد، ويبين شعور الطاغوتية الشعور
الديني الحق، ويتعارض المنهجان، وتقوم الحرب أي لون من الحرب بينهما على مستوى
الخارج، وصياغة أوضاع الحياة.

فما يقوم عليه واقع المواجهة الاستكبارية المشتركة بين كل الطغاة لخطّ التوحيد
والرسالات الإلهية والرسل والدعاة الحقيقيين للدين أعمق من مجرد تواصي هؤلاء
الطغاة وأجيالهم بهذه المواجهة والإيحاء بها، والتشجيع عليها، وإثارتها إعلامياً، والأخذ
بها متابعة وتقليداً، وإن كان كل ذلك هو حاصل ثابت.

وإذا كان هذا هو واقع المستكبرين في عقليتهم المريضة، ونفسياتهم المنحرفة،
فلا استمرار في دعوتهم للحق وإذعانهم له وقد تبين منهم الاستكبار والطاغوتية
والإصرار والعناد والمكابرة بالباطل لا معنى له، لأنه من تضييع الوقت والجهد بعد اليأس
من النتيجة.

وأما واجب التبليغ والدعوة إلى الحق، ومحاولة إنقاذ الجاهل، فيقف عند هذا
الحد، وبالنسبة لهؤلاء ولا لوم على حملة الهدى عندما لا تقابل الدعوة الحقبة إلا بزيادة
من العناد.

نعم لا بد من الإعراض عن دعوة ليس فيها إلا تضييع الوقت والجهد، والنصب،

ولا تمثل إلا نوعاً من العبث الذي تنتزعه عنه الرسل والرسالات: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾^(١).

وهذا لا يعني التوقف النهائي عن الدعوة والتبليغ في الأرض، لأنَّ فريقاً آخر في الناس ممَّن لهم قلوب فاقهة باحثة عن الحق، وأرواح منفتحة مقبلة عليه، وعقول فاكهة تتفعل بالبرهان، وتستوعب الدليل، ونفوس مستعدة لتحمل مسؤولية الدين وقضاياها وتكاليفه من حقهم أن يصلهم صوت الدعوة، وكلمة التبليغ، وهدايات الوحي، وأنوار السماء؛ ليسعدوا بها، ويبلغوا غاياتهم في الكمال.

هذا الفريق من المؤمنين، ومن لهم قابلية الإيمان لا بدَّ أن تنصبَّ عليه عناية الدعوة والتبليغ والتذكير والموعظة والتربية، وأن يُخاطَب منه عقله وقلبه وضميره وإرادته، ومشاعره؛ لاستخراج طيب مكنونه، ونافع مخزونه الإنساني، وما يمكن أن تتفجر عنه ذاته من عطاءات كريمة، وإثراءات جلييلة لمسيرة الحياة، وقضية الإيمان لسعادة هذه الذات، والذوات المماثلة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

سياسة إضعاف الشعوب

«جوع كلبك يتبعك» كلمة قالوها، واتخذوا منها سياسة للشعوب والأمم من منطلق أن التجويع يسبب الضعف، الذل، الاستخذاء، الاستسلام، لكن رقي الشعوب وعياً وعزة وكرامة يسقط صدق هذه الكلمة والسياسة المترتبة عليها.

فكلما وعت الشعوب، واكتسبت شعوراً بالعزة والكرامة والأصالة امتنع عليها أن يكسر التجويع إرادتها، وليس كدين الله يمكن أن يمد النفس بكل هذا، فمن تدين ديناً بالدين الحق عن فهم ووعي كان عزيز النفس، عالي الكرامة، والشعوب التي يصنعها الدين الحق هي شعوب متمسكة بكرامتها وعزتها في كل الظروف.

١- الذاريات: ٥٢-٥٥.

٢- خطبة الجمعة (٣٧٠) ٢٦ جمادي الأولى ١٤٣٠هـ، ٢٢ مايو ٢٠٠٩ م.

«جُوعٌ كلبك يتبعك» مكانها في ظل الشعور، بالعزة والكرامة، والأصالة جُوعٌ شعبك ينتفض عليك.

الساحة العالمية اليوم كلها تقدمت وعيًا، ودخلها شعور من الشعور بالعزة، وشعور من الشعور بالكرامة، وإن تجارب الإسلاميين الجديدة لا تغذي العالم الإسلامي وحده بهذا، وإنما يمتد عطاؤها إلى كل العالم.

الساحة العالمية اليوم بدأت تسقط عن كلمة «جُوعٌ كلبك يتبعك» مصداقيتها. جُوعُوا الصومال، وأرادوا له الذل، وحاولوا أن يسحقوه سحقًا، إلا أنه أعطى ردة فعل معاند استمرَّ عشرات السنين، وبدأ الصومالي يقاوم بأسلوب صحيح أو بأسلوب غير صحيح، عن ذاته، ويقاوم عن كرامته، ويواجه أساطيل العالم؛ ليتوفر على لقمته وعزته.

كوريا الشمالية حوصرت، وأريد لها أن تتحول كلبًا تابعًا إلا أنها تمرّدت، واضطر العالم الاستكباري أن يتابع جلساته بحثًا عن طريق؛ لتهدئة الوضع.

وليس خوف المستكبرين من حرب كوريا الشمالية على جوع الشعب بدرجة أكبر، فالشعوب لا تهم المستكبرين، وإنما الخوف من أن جوعًا بدرجة أكبر لكوريا الشمالية قد يدمّر العالم، وقد يقوّض أمن المستكبرين كلهم، لأن الشعوب اليوم إذا جاعت لا تستسلم وإنما تستأسد، فلتتعلم الحكومات هذا الدرس، وأن تجويع الشعوب لا يخذلها، ولا يذلّها، لا يترتب عليه استسلام بقدر وإنما هو الاستئساد^(١).^(٢)

تبعية أنظمة الأمة للمستكبرين

إن تبعية الغالبية العظمى من أنظمة الحكم في الأمة الإسلامية للاستكبار العالمي مزقت هذه الأمة شرّ ممزق، وبلغت هذه التبعية أقبح صورة، وأمر واقع، فصار اشتراك خندق وموقف، وأسلوب وهدف بين الكثير من البلدان الإسلامية، وعمالقة الكفر والاستكبار العالمي ضد البلد المسلم الواحد، وفي أكثر من تجربة وحالة.

١- هتاف جموع المصلين بـ(هيهات منا الذلة).

٢- خطبة الجمعة (٣٧١) ٤ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ، ٢٩ مايو ٢٠٠٩م.

وصار ما يُفرح الكفر من مصيبة بلد مسلم يفرح حكومات وأحزاباً ومؤسسات
وكيانات وجماعات كثيرة من أهل الشهادتين، ويؤلمهم من خيره ما يؤلم رموز الشر في
الأرض، والمريدين بالأمة كل سوء.

يجمع الخندق الواحد اليوم، والموقف الشامت والمعادي والمتآمر ضد إيران بلاداً
من البلاد العربية، وأحزاباً عربية، ومؤسسات عربية، وصحافة عربية، وإسلامية مع
أمريكا وإسرائيل ضد بلد مسلم جار.

وأمس الخميس كان مسؤول خليجي كبير يبيث شكواه في مقابلة أجرتها معه القناة
الأخبارية للجزيرة، ويعلن عن تألمه لسعاية بعض الأشقاء العرب ببلده عند أمريكا؛
لتخريب العلاقة بها.

بلد عربي له سعاية ببلد عربي آخر؛ لتدمير وتخريب العلاقة بين البلد الثاني
وأمریکا من منطلق التملق، وطلب الموقع، والإضرار بالآخر الشقيق، فهو سباق، وتهافت
على العلاقة بأمريكا والله العالم بالثمن، وسعي من الشقيق بشقيقه؛ لتقويت الخير
والشرف المتوهم عليه، ومحاولة تسجيل موقف من من الساعي بأخيه؛ ليدل على
إخلاصه ووفائه عند السيد الأمريكي الكريم، ويعطيه تقدماً في مستوى العلاقة به.

هذا واقع الأمة المصيبة والكارثة.^(١)

التَّحالف مع الاستكبار!

صار شرفاً، وضمانة أمن، وشهادة براءة، وسبباً تأمناً؛ للاطمئنان أن تعلن أمريكا
أن بلداً من البلدان العربية والإسلامية حليف استراتيجي لها.

كأنّه يكفي لأن تطمئن بلد، لأن تفتخر، لأن ينطلق لسانها شجاعاً أن تعلن أمريكا
بأن هذا البلد حليف استراتيجي لها.

نسأل: أهو تحالف، أو دخول في الخدمة؟

١- خطبة الجمعة (٣٧٤) ٣ رجب ١٤٣٠هـ، ٢٦ يونيو ٢٠٠٩م.

وتسليم للثروات والأرض، وتنفيذ للمخطط الأمريكي؟

حين يعلن أن باكستان - مثلاً - حليف استراتيجي لأمريكا، ماذا يعني هذا؟

أيعني التحالف الحقيقي، وأن هناك حليفين ندين يقفان على صعيد واحد؟

أو أن هناك دخولاً من البلد الإسلامي، أو العربي تحت الخدمة الأمريكية؟

نسأل: هذا الأمن الذي يحصل بالتحالف الاستراتيجي، للشعوب، للاستقلالية، للثروة، للهوية والانتماء، لأصالة الثقافة، لحاضر الأمة ومستقبلها، أو هو أمن للكرسي ولا غير؟

عجيب أمر البلاد الإسلامية والعربية ما تخشاه على نفسها من أخواتها من الدول الإسلامية والعربية ولو في المستقبل البعيد ولو على مستوى الاحتمال تعطيه لأمريكا في صفقات استسلامية براحة ضمير، ونفس رضية.

نسأل هذه التحالفات ضد من؟

أهي ضد إسرائيل أم ضد القضايا الوطنية والقومية والإسلامية، وضد بلدان الجوار العربي والإسلامي؟

ألا ترون أننا نحقق الرضا الذي يعنيه قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١) من خلال الاستجابات المتتابة للرغبة الأمريكية؟

ثم ألا ترون أننا نحقق إيماناً غير ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾^(٢)، وذلك بتحكيم أمريكا في قضايانا بلا أن نجد حرجاً مما قضت به مع تسليمنا تسليمًا؟

ما كانت أمريكا لتستطيع أن تستعبد المسلمين بشرط؛ ذلك أن لو كانوا مسلمين حقًا.

١- البقرة: ١٢٠.

٢- النساء: ٦٥.

ويوم أن يكون المسلمون مسلمين حقًا، فلن تستطيع أمريكا، ولن تستطيع الدنيا كلها أن تستبعد المسلمين لحظة.^(١)

غيظ المستكبرين علامة قوّة

إنّه كلما كان واقع دولة إسلامية، أو جهة من جهات الإسلام، أو قيادة من قيادات المسلمين أصدق إسلامًا وأقوى وأنفع لحياة الإسلام والمسلمين كلما ازداد غيظ الطغاة والمستكبرين والظلمة العالميين وأذيا لهم منها، وحقدهم عليها، وشراستهم في عدائها، والأخذ بالموقف المتشدد والمناهض لها، والاجتماع على محاربتها.

وكلما جاء الموقف لهذه القوى الطاغوتية الاستكبارية من أي وجود إسلامي لجهة إسلامية أشدّ عنفًا وضراوة دلّ على أهميته البالغة وصدقه، وإخلاصه، وكفاءته.

ويُستدلّ على عظمة الشخصية وخطرها على الكفر، ويستدل على عظمة الحزب وخطره على الكفر، ويستدل على عظمة الدولة وخطرها على الكفر أن تتوجّه إليها سهام الكفار والمنافقين، والانتهازيين والنفعيين والساقطين بعنف وقوة واستمرار عدا لئسلامها.

في العادة لنا أن نكتشف عظمة الجهة في حرب العدو مع الأمة من استهداف الكفر وأتباعه لها لإسقاطها.

فالحملة التي واجه بها الاستكبار أعمدة النظام الإسلامي في إيران، وفي مقدمتها مركز القيادة، وولاية الفقيه هي شهادة زكاة وصلاح وشموخ وعظمة يتمتع بها هذا النظام، وشهادة خطر منه على الباطل في الأرض.^(٢)

إملاءات وترحيب

مع الضعف والاستسلام والتبعية من جهة، والقوة والبطش من جهة أخرى تكون الإملاءات من طرف القوي، والترحيب من الطرف الآخر.

١- خطبة الجمعة (١٤٩) ١٩ صفره ١٤٢٥هـ، ٩ أبريل ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (٣٧٤) ٣ رجب ١٤٣٠هـ، ٢٦ يونيو ٢٠٠٩م.

أكثر دولنا العربية والإسلامية هي في موقع الوهن والضعف والتبعية للاستكبار العالمي، وهنا تأتي مصيبة الأمة، مصيبة إملءات الاستكبار العالمي بما هو عليه من ظلم، وبما فيه من كفر، وبما عنده من تحلل، ومن أطماع ومن مسخ الهوية الإنسانية؛ لتتدخل في شؤون أمتنا الإسلامية؛ كل شؤونها.

وضعف الأمة العربية والإسلامية في كثير من أبعاد المسألة ليس راجعاً لفقد السلاح النووي، وترسانة السلاح المتقدم، صحيح أن هذا يضعف الأمة في مجموعها، لكن الاستكبار العالمي ليس مستعداً أن يستعمل السلاح النووي في وجه أقطار عربية صغيرة، وفي كل موقف موقف سياسي، استعمال السلاح النووي له ضروراته البالغة.

السبب الرئيس الذي تخاف منه الأنظمة على نفسها من الاستكبار العالمي، ليس أنها تفقد السلاح النووي والاقتصاد القوي الذي يوازي اقتصاد أمريكا وأوروبا.

السبب الرئيس هو انفصالها عن شعوبها، الحكومة الأمريكية ليست مستعدة.

أن تسقط كل حكومة حكومة تخالف إرادتها بالقوة، ولا يتيسر ذلك بشكل بسيط.

هناك أحد طريقين لإسقاط الحكومة: غزو خارجي، والغزو الخارجي من أمريكا وأوروبا للحكومات العربية والإسلامية بشكل مستمر ليس طريقة عملية.

يبقى إسقاط الحكومات من داخل شعوبها، وهي طريقة أخرى تسلكها قوى الاستكبار العالمي؛ لإسقاط بعض الحكومات التي لا تتماشى مع هواها، وإذا كانت هذه الحكومات منفصلة عن شعوبها، فهي تجد المنفذ؛ لإسقاطها من هذا البعد.

فانفصال الحكومات عن الشعوب، وقدرة القوى الأخرى على تحريك قوى داخلية موالية لها من جهة، وعلى تحريك الشعوب بشكل عام من خلال الإعلام والتحريض على حكوماتها، هو ما يقلق حكومات عربية كثيرة، ويوقعها في التبعية بصورة دائمة.

السر الكبير لهذه التبعية وللخوف الذي تقوم عليه هو انفصال هذه الحكومات عن الشعوب.

لو كانت الحكومات مرتبطة بشعوبها، أمانة من سخط شعوبها، مطمئنة بأنها لا

يمكن أن تضحي بها، لبقيت هذه الحكومات عزيزة ومطمئنة وأمنة، وقوة أمريكا وحدها لا يمكن أن تهدد هذه الأنظمة.

إملاءات غربيّة

تجدون سيلاً من الإملاءات الأمريكية والغربية على بلداننا الإسلامية والعربية، وليس - ما سأذكره - هو جميع هذه الإملاءات، وإنما هو البعض القليل المكشوف، تجدون من هذه الإملاءات:

- التطبيع مع إسرائيل: لا لدعم لحكومة حماس.
- العمل على إسقاطها.
- المشاركة في الحرب الإعلامية الأمريكية ضد أي بلد مسلم أو عربي.
- تغيير القوانين، وتغيير المناهج بما يتناسب مع إرادة أمريكا والغرب، ويناقض مصلحة الأمة ودينها.
- الترويج للأخلاق الهابطة على الطريقة الأمريكية والأوربية.
- فتح الأسواق التجارية.
- استيراد السلاح المحدد من قبل الإرادة الغربية، وليس ما تحتاجه الدول الإسلامية.
- تسليم الكفاءات العقلية الشبابية والناشئة؛ لتصنع حسب الرغبة الأمريكية.
- لا بدّ من بعثات طلابية لأمريكا، من بعثات طلابية لأوروبا، وهذه البعثات تتم تحت النظر الأمريكي والأوربي وليس اعتباراً.
- تسليم الجو والبحر واليابسة للقوات الأجنبية.
- تسليم العناصر المرغوبة للأمن في أمريكا وأوروبا، فيلاحق المسلم في بلاد الإسلام، ويكبّل ويهرّب إلى أمريكا؛ لتفعل به ما تشاء.

- صناعة المرأة والشباب حسب الذوق الغربي، وعبر الخطط الإعلامية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها.
 - حرية الصحافة على حساب الدين والقيم، في حين أن الحرية السياسية للصحافة تقابل بالحديد والنار.
 - التحكم في العلاقات الخارجية، للكثير من الدول الإسلامية والعربية، وليس متروكاً لهذه الدولة أو تلك أن تبني علاقاتها الخارجية كما تقدر أن فيه مصلحتها.
- ما هو الثمن؟
- أن تبقى هذه الأنظمة على كرسي الحكم، وأن يتاح لها الاستغلال، والاستعباد، والكبت للشعوب وتقزيمها!!!^(١)

الاستكبار وسياسة الفساد والإفساد

ما تدعو إليه حضارة الضلال المادية، وما وراءها من قوى الاستكبار العالمي، والشركات العملاقة الفاسدة المفسدة التي تتاجر بشرف الإنسان وأمنه واستقراره وقيمه، وتروج بمختلف الوسائل المتطورة؛ للاستهتار، والفجور، وفوضى الجنس، وبهيمية الشهوات المنحلة.

وهي تتطلق في ذلك من منطلق:

١- إشباع فئة

جمع المال الحرام، وسرقة أتعاب الشعوب، والسيطرة على ثرواتها الطائلة؛ لتبني من جهود المحرومين، ومخزون الثروة الطبيعية في البلاد المستضعفة قوة، واستنزاف خيراته؛ من أجل عريضة لياالي الفحش والتبدل والسقوط التي تعيشها فئة قد اهتزت إنسانيتها وسقطت تمامًا، وخلصت لحيوانيتها الجشعة، وشهوانيتها الغارقة، وبهيميتها المنحدرة إلى الحضيض.

١- خطبة الجمعة (٢٤٠) ٢٩ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، ٢٨ أبريل ٢٠٠٦م.

٢- أغراض سياسيَّة وعدوانيَّة

كما تنطلق من أغراض سياسية وعدوانية دنيئة موغلة في السقوط مما يتمثل في استفراغ الطاقة الشبابية عند الفتى والفتاة في مهاوي الرذيلة، ومستنقعات الفحش والفجور قطعاً للطريق على نهضة الشعوب والأمم، وانبعاثها، وتفكيرها بحاضرها ومستقبلها؛ خوفاً من أن تقوم حضارة إنسانية قوية قديمة يكون على يدها السقوط النهائي لقوى الضلال، والاستغلال، والتلاعب بمقدرات الأمم.^(١)

أساليب السَّيطرة

ومن أكبر شباك هؤلاء الشياطين وأخفاها على بصر الرائيين، وأخبرها بالعقول والأفئدة، وأكثرها جاذبية للإغرار والسطحيين وسيلة الجنس المبتذل، والإباحية الجنسية المفتوحة، وما لها من مقدمات وأجواء ممهدة مشحونة بأنواع الاستثارة الرخيصة، والمجون العابت من عري واختلاط غير مهذب وغناء وكلمات بذاءة وصور خلية، وأزياء متهتكة، وعروض مخزية وإعلام حيواني، وتخطيط شيطاني.

وهذه أساليب كما تسرق من الشعوب والأمم عرق جبينها، وحصيلة جهدها وضناها، تمزق وحدتها، وتتهك عرى المحبة والوئام في داخلها، وتشر الفوضى والرعب في أوساطها، وتفتك بروحيتها وقيمها ودينها، وتقتل منها الإرادة، وتحبط الهمة، وتميت الشعور بالآباء والكرامة، وتذهب بالعفة والشرف، وتقتل إنسانية الإنسان، وتتحط به عن موقعه الكريم ومنزلته التي شرفه الله بها، ومكانته التي بؤاه إياها.^(٢)

القوى الاستكبارية ليست شيئاً أمام قدرة الله

القوى الكبرى الاستكبارية الطاغوتية صنم ضخم، صنم من القوة، صنم من العلم، صنم من الأبهة العسكرية، صنم من المال، صنم من جمال الدنيا من جمال

١- خطبة الجمعة (٨) بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ، ٢٥ مايو ٢٠٠١ م.

٢- خطبة الجمعة (٨) بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ، ٢٥ مايو ٢٠٠١ م.

البيئة والمرأة، من جمال الأثاث والرياش، القوة الطاغوتية في الأرض صنم يقوم مقام الرب العظيم اللامتناهي في ملايين النفوس من الناس غرورًا.

مخدوعون مغرورون واهنون وقعوا فريسة الغرور للعدو الكافر حتى اهتزت الثقة في النفس والمبدأ، وهان على الذات الرخيصة أن تبيع قومها، وأن تبيع أرضها، وأن تبيع كرامتها، وأن تبيع كل القيم والمقدسات متمرغة على قدمي الصنم الهزيل الهش، صنم الكفر العالمي والقوة الطاغوتية الاستكبارية في الأرض.

رب العباد الذي يعلم أن القوى الكفرية هم جند ما هنالك، كل القوى العالمية الاستكبارية - ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ﴾^(١) - ليسوا شيئًا.

أمر تافه أمام قدرة الله وَعَلَّجَ وقدره.

الله الذي يعلم هذا، ويعلم ما أنت، وما يداعب خواطرك، ومسارب النفس التي يأتي منها الشر إليك، يخاطبك: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢).

سحابة عابرة ما وجدت هذه السحابة قهراً على الله، إنما هي فتنة من فتن الإنسان كفتنة الشيطان.

الدار دار امتحان وبلاء.

والدرب إلى الجنة مفروش ليس بالرياحين، إنما مفروش بالأشواك، وعليك أن تقطع الرحلة مجاهدًا مكافحًا، وأن تمتلك النفس الواعية، والعقل الواعي، وأن تمتلك القدرة والصلابة التي تواجه بها تغرير الشيطان الأكبر أمريكا وأوروبا والشرق الكافرين: ﴿... مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، أحجار في جهنم مع الذل والهوان، والاستكانة، والاستغاثة التي لا تجهد.

١- سورة ص: ١١.

٢- آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

قوة المؤمن وضعف الجاحدين

﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾^(١) هؤلاء الساقطون، هؤلاء السفلة الجاحدون، هؤلاء الذين يستهونون ملايين من الناس، ويدخلون الغرور إلى أنفسهم والغفلة، ويصطادونهم بسهولة ومرونة، هؤلاء هم أنفسهم مغرورون، هم أنفسهم واقعون فريسة للشيطان.

لوملكوا النفس الكبيرة، ولوملكوا العقل المفكر، لما صاروا إلى ما صاروا إليه من نسيان الله جبار السماوات والأرض، وهم في قبضته ليل نهار، هم في قبضته ليلاً نهاراً، وإنما هي الغفلة منهم والغرور والسذاجة أن يروا من أنفسهم أرباباً، وأن يقدموا أنفسهم للعالم أرباباً؛ ليصطادوا شباباً بعد لم يع، أو يصطادوا فتاة بعد لم تكتمل.

أما الشاب الذي وعى، والفتاة التي كملت، شباب الإيمان، فتاة الإيمان، لا يمكن أن يهتز وجودهما الكبير العملاق أمام عاصفة الكفر، وإغراء الكفر، وحيلة الكفر.

ويتراءى لهم أنهم يملكون ما يملكون، وأنهم يستطيعون أن يملكوا مصير الأرض!!

قامت ثورة في الأرض عملاقة، كل العالم مجتمع على عداوتها - ثورة الإمام الخميني (أعلى الله مقامه) -، فسحق إرادة الكفر العالمية، سحقها قبل ذلك إرادة الله، وقدر الله، وفاعلية الله التي لا تقاومها فاعلية، ولا توجد من دونها وبدون إذنها فاعلية: ﴿بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢).

أيضاً هم يقعون فريسة الغرور من بعضهم لبعض، وكلما أراد أحدهم أن يفيق ويرجع إلى الخط اجتمعت قوى الكفر العالمية؛ لترده إلى خط الانحراف، وتحجب أن يرى الحقيقة على ما هي عليه، وأن يرفع جبينه إلى الله، وأن يفتح قلبه على الله، فعاد مرتكساً منكوساً: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٣) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ.

١- الملك: ٢٠.

٢- فاطر: ٤٠.

٣- الانفطار: ٦-٨.

عقلك وزنه، عواطفك حجمها، نوعها، كل ما فيك من تركيب الله، وتقدير الله،
وتدبير الله، وأنت كل لحظاتك في قبضة الله، في قبضة الله بمعنى أن ليس من لحظة
تعيشها إلا بفيض من الله، وإلا بعباء من الله سبحانه وتعالى.

ما الذي يصغر الله في قلبك؟

في نفسك؟

ما الذي غرك في الله، فصغره في نفسك؟

أن وجدت إلهاً آخر؟!

أن وجدت خالقاً آخر؟!

مدبراً آخر؟!

رازقاً آخر؟!

حيّاً قيوماً غير الله؟!

أن وجدت هذا الكون يوجد ويقوم ويدوم من غير مدد ولا رفق؟!

أن وجدت أنك تقدر على شيء خارج قوانين الله؟!

أن وجدت مصنوعاً في الأرض صنع بغير قدرة الله؟!

هذا العالم كله لو اجتمع على أن يوجد ذرة واحدة من غير أن يستعمل قانوناً من
قوانين الله، ومن غير أن يستفيد مما خلق الله ما استطاع.

أجمعوا كل علماء العالم، كل أصنافهم؛ ليزيدوا الأرض حبة رمل واحدة من غير أن
يستعملوا قانوناً من قوانين الله، ومن غير أن يعولوا على شيء مما خلق الله.

أمن قدرة؟

لا والله لا قدرة.^(١)

١- خطبة الجمعة (٩) بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ، ١ يونيو ٢٠٠١ م.

(٢)

سياسات الأمن والسَّلام العالمي

الحرب والطَّرِيق إلى السَّلام العالمي!

إنَّ النظام العالمي اليوم وهو يطرح قضية الأمن العالمي والسلام العالمي؛ ليسلك عن علم وعمد الدرب الذي ينتهي بالعالم إلى الفوضى الشاملة، والتمزق والرعب في كلِّ الأرض.

فإنَّ طالب الأمن والسلم لا يسلك إلا طريق الحق والعدل والإخاء والمساواة، وإذا جازت الحرب طريقاً إلى السلم والاستقرار، فإنما هي الحرب التي تعترف بالخلق القويم، والقيم الرفيعة، وحقِّ الشعوب في العزَّة والكرامة والحرية الراقية، وفي الاستفادة من ثرواتها وإمكاناتها مما يصلحها، ويراعي مصلحتها ومصلحة العالم، وفي تسيير شؤونها على يد الأكفاء المخلصين من أبنائها لا على يد العملاء للغازي المستغل المستعبد المعادي لمصلحة الأمَّة، وكرامتها، وتقدمها.

أما الحروب التدميرية التي تستهدف حرق الأخضر واليابس، وتصفية الشعوب تصفية جسدية ومعنوية، ووضع اليد الباغية على مقدَّرات الأمَّة، ومقدَّراتها وبدون حساب للقيم، فلا يمكن أن تقود هذا العالم إلا إلى الهاوية، ولا أن تنتهي به إلا إلى الرعب الشامل.

نموذجان صارخان

وهذه إسرائيل العدوانية لم تستطع، ولن تستطيع آلة القمع العملاقة التي تفتك فاعليتها الهائلة بالشعب المسلم في فلسطين أن توفر لها الأمن في يوم من الأيام.

وهذه هي أمريكا وجبهتها المتعطسة في أفغانستان تعلمها الأيام أنَّ الشعوب لا يركعها الحديد والنار ما دامت صحة وشعور بالعزة والكرامة.

وعلى الشعوب أن تتمسك بالشعور بالعزة والكرامة، فإنه مادام لها هذا الشعور، فإن باب النصر مفتوح، وإذا ذهب منها هذا الشعور انسدت كل أبواب النصر وانفتحت كل أبواب الهزيمة.

ونصيب كل بلد، وكل دولة في هذا العالم هو الفوضى، وعدم الاستقرار والاقتتال والرعب المشترك إذا اختار سياسة البطش والسحق، وألغى قيم الحق والعدل والإخاء والمساواة في تعامله مع الآخرين في الداخل أو الخارج.

إنه ينبغي التأكيد والتذكير والتذكُّر بأن السلام والأمن والتقدم في العدل لا الحرب، وفي سياسة الإخاء لا سياسة العداوة.

هناك أمران ينتهيان بالبلدان إلى الفوضى: أن تحاربني علناً، أن تمكربي سراً.^(١)

أمننا في خطر

يخاف على الوضع الأمني في العالم الإسلامي كله، وفي منطقتنا بازدياد التدخل السافر لأمريكا في السياسة الداخلية والخارجية للدول الإسلامية، وإلى حد المواجهة.

أمريكا ستزعزع العلاقة بين الأنظمة والشعوب، ولن تبقى أي ثقة للشعوب في حكوماتها بما ستفرضه على الحكومات من سياسات معادية للأمة، قد تضطر الحكومات إلى متابعتها بدرجة وأخرى إن يكن بعضها راغباً في ذلك أساساً.

أمريكا سترحل في يوم من الأيام، ولكن الوضع الأمني سيستمر في تدهوره حتى لو رحلت أمريكا.

يطلب للحكومات الإسلامية كلها والحكومات العربية، وحكومات منطقتنا أن تضغط على أمريكا، ولا تعطيلها حق تخريب العلاقة بالكامل بين الحكومات والشعوب.

وإن مَسَّ الدين في هذه المجتمعات أكبر من مسس الدنيا، والأمريكي لا يقدِّر ذلك؛ الذي عاش مع الخمر ومع الرقص... إلخ، لا يعرف كم هي وحشة الإنسان المسلم من الخمرة، ولا يعرف أن المسلم إذا ارتكب محرماً في يوم من الأيام وجد نفسه أنه قد

١- خطبة الجمعة (٦٤) بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٤٢٣ هـ، ٢٤ يونيو ٢٠٠٢ م.

سقط من السماء إلى الأرض، وأن تاريخ الإسلام يشهد بأن المسلمين جاعوا، وخافوا، واستشهدوا مسترخصين كل ذلك في سبيل إسلامهم، والتزامهم بخط مبدئهم.

لا تقدر أمريكا ما في داخل نفسية الإنسان المسلم من تمزق يحصل عند ارتكاب جريمة أمام ناظره، لكن حكام العرب، حكام المسلمين بما هم يعيشون هذه البيئة، وبما لهم من خبرة بهذه البيئة، وبما في داخلهم من إسلام يجب عليهم أن يعيشوا هذا الشعور، وأن يقدروا له وزنه، وأن مَسَّ الدين في حياة الإنسان المسلم لا يمكن أن يصبر عليه.^(١)

مجلس الأمن ودعم الحروب العدوانية!

ويسأل: الاختلاف بين مستكبري العالم في مجلس الأمن أهو اختلاف على العدل والظلم، أم هو اختلاف على المصالح وقسمتها، وعلى ثمن المواقف المختلفة الداعمة للحرب العدوانية على العراق؟

معروف تمامًا أن لا قيم عند هؤلاء جميعًا، وإنما المنظور هو الأنا والسيطرة وموارد الثروة عند الشعوب.

وإذا كان للعرب كلمة معارضة صادقة ضد الموقف الأمريكي من العراق، فهذا لن يكون لو حصلت الرغبة الأمريكية دعمًا ملحوظًا في مجلس الأمن، والكل سيحاول أن ينجو بنفسه عند الشدة لو أمكن له.^(٢)

قضية السلاح النووي

من ناحية: ما هو الصحيح، وما ينبغي أن يكون في الأرض.

لا سلاح من السلاح النووي لأحد على الإطلاق؛ فهو صناعة للرعب والدمار، وفيه استنزاف للثروة، وحرق لقوت الملايين - والملايين محتاجة إلى طعام وشراب، وصحة،

١- خطبة الجمعة (١١٣) ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٣٠ مايو ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة رقم (٧٦) ٦ رجب ١٤٢٣هـ، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٢م.

وعلم ومواصلات، وحياة لاثقة -، ويأكل قوتها وعلمها، وصحتها، وما تحتاجه السلاح النووي بميزانيته الضخمة الهائلة، وهو سلاح؛ من أجل حرق اليابس والأخضر.

أما من ناحية الواقع، وما هو فعلي: السلاح النووي للدول الأكثر ظلمًا وتهورًا وبطشًا وغرورًا، واسترخاًا للإنسان كرامة ودمًا ومالا.

والمطلوب:

١- إمّا تجريد كامل من السلاح النووي يجعل العالم آمنًا.

٢- إمّا تعادل رعب قد يقي الكارثة فعلًا - وإن أبقى الخوف قائمًا -.

وعلى سوء الفرض الثاني - وهو أن يتعادل الرعب -، فهو أخف المحذورين؛ لأن الرعب إما رعب و كارثة ماحقة تعصف بحياة الملايين، وتنسف ما بنته القرون، وهو الرعب الانفرادي، ومعه استعلاء واستكبار جنوني، ونهب، واستعباد للآخرين، وفرض سيطرة مطلقة من القوي الغاشم يعطيها إياه تقرُّده بالسلاح النووي الفتاك.

وإمّا رعبٌ مقلق مشترك قد يردع من وقوع الكارثة، ويقطع يد العدوان والاستلاب.

والفرض الثاني مقدّم عقلاً وعقلائيًا ودينًا على الأول.

وهذه أمريكا وإسرائيل تتخذان العالم الإسلامي فريسة، ومنطقة استثمار واستنزاف، ومحال على العدو أن يتيح مختارًا فرصة من فرص القوة لفريسته ناقضًا بذلك هدفه، ولذلك ما هو المحارب ليس أن تمتلك الأمة الإسلامية سلاحًا نوويًا فحسب، بل هي محاربة على مستوى أسباب القوة من علم متقدم، سياسة موحّدة، عقيدة جامعة، اقتصاد مزدهر، استقلالية رأي وهكذا.

والموقف إمّا الاستسلام لإرادة العدو بأن تظل الأمة تُستغل وتُستنزف ويُمرَّغ أنفها بالتراب فاقدة للقدرة على المقاومة، وإمّا أن تتمرد؛ لتنهض على قدم، وتدافع عن الذات والحاضر والمصير، وأول ما تفعله في هذا السبيل أن توحد موقفها؛ لتجد نفسها محترمة الإرادة.

وأين الأمة من هذا التوحّد، وهي تتنهج مناهج بعيدة عن منهج الله سبحانه وتعالى؟!^(١)

خوف كاذب؛ لتبرير سياسة الميمنة

إسرائيل خائفة، وأمريكا خائفة من تواجد سلاح نووي في المنطقة!
والسلاح النووي لا يرغب صاحب ضمير بانتشاره ولا وجوده أصلاً في يد أي دولة كانت، لأن هذا السلاح لا يعرف البريء من المجرم، ولا يفرّق بين عادل وظالم.
وأهل الإسلام والإيمان في مقدمة من يرفض هذا السلاح، ويكفر به.
لكن هل وجوده بما يكفي؛ لحرق الأرض وأهلها مرّات بيد أمريكا وإسرائيل حق؟!
ووجوده بيد دولة عربية أو إسلامية من الباطل؟!
وهل هذا الفرق لعدالة أمريكا وإسرائيل وقيمهما الإنسانية العالية، وتقواهما الشديدة من الله؟!
هل أمريكا عادلة وغيرها ظالم؟!
تقية وغيرها فاسق؟!
حريصة على الإنسان كل الحرص حتى يسوّغ العقل والعقلاء أن تكون أمريكا مالكة لهذه القوة البطّاشة، ويحرم ذلك على غيرها؟!
هل برهن تاريخ أمريكا على عدالة؟!
على شفقة على الإنسان؟!
على إنسانية في مواقفها من الأمم؟!

١- خطبة الجمعة (١٧٠) ٣٠ شعبان ١٤٢٥هـ، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م.

وهل احتمال الوجود أخطر وأبعث للهلح من تحقق الوجود؟!

هم يتحدثون عن سلاح فعلي في أمريكا وإسرائيل، وعن احتمال وجود سلاح مستقبلاً بيد هذه الدولة أو تلك الدولة العربية أو الإسلامية.

وهل ينبغي أن يفزع المسلمون من السلاح النووي الباكستاني - مثلاً - أكثر من فزعهم من السلاح النووي في يد إسرائيل؟

ثم من يصدّق بأن خوف إسرائيل وأمريكا من إمكان حصول السلاح النووي في يد دولة عربية أو إسلامية هو خوف من عدوان هذه الدولة عليهما مع ما يملكانه من سلاح نووي يُدمر العالم مرات ومرات؟

أي دولة إسلامية أو عربية تجرؤ أن تكون هي المهاجمة اتّكاءً على سلاح نووي محدود لو قدّر أن حصل بيدها في وجه الترسانة الهائلة من هذا السلاح في يد إسرائيل وأمريكا؟

فأي دولة ستكون هي المهاجمة لهما على هذا الحال؟

قدّر أن دولة إسلامية أو عربية يحصل لها سلاح نووي بكمية محدودة، فهل تخاف أمريكا وإسرائيل في هذا الحال من مهاجمة هذه الدولة لهما؟!

الاحتمال صفراً!

واضح جداً أن المستهدف للدولتين العادلتين إسرائيل وأمريكا أن يبقى العالم العربي والإسلامي غير قادر على الردع، ولا الرد على العدوان؛ ليستجيب لكل الإملاءات الغاشمة، ويظل فريسة المطامع القذرة، ولتكون الأرض الإسلامية مستباحة وكما يشاء لها الأعداء، مأمونة الجانب عند استلابها، وتمريغ عزة أهلها في التراب.

وتتعدى رغبة الدولتين والدول الأوروبية الأخرى هذه الدرجة من الضعف لبلاد الإسلام، ويكون المطلوب الحقيقي حرمانها من الطاقة السلمية التي تتمتع بها في

الأغراض المدنية استغناءً عن الغرب.^(١)

الأمن العالمي وهو مفقود، فكيف يتم التَّوفُّر عليه؟

خياران:

١- قوَّة بلا تربية!

هناك قوة رادعة بلا تربية قد يطلبها قسم من العالم؛ ليفرض الأمن في كل الساحة العالمية الواسعة.

قوة بلا تربية، بلا ضمير، بلا تقوى، بلا معرفة لله سبحانه وتعالى، بلا مثل أعلى، لا كلام نظري في هذا الموضوع؛ فقد برهنت هذه القوة المنفردة عن الله بأنها تعني التكريس للظلم، تعني القلق في الأرض، تعني زعزعة الأمن، تعني الخوف والرعب الذي يزداد على الأيام.

٢- تربية بلا قوَّة!

ليس هناك من أطروحة تتمسك بالمثل أكثر مما يتمسك بذلك دين الله، ودين الله لم يعتمد التربية من دون قوة، وإنما اعتمد التربية أسلوباً أول لصناعة الإنسان؛ لتحقيق الأمن، لتحقيق السعادة، ولكن أضاف إلى ذلك القوة، لأن الإنسان في ظل أي تربية راقية لن يتحول إلى ملاك على الأرض.

كثيرون من الناس يمكن أن ترتقي بهم التربية إلى مستويات تقرب من العصمة، لكن عدداً آخر من الناس سيبقى مكباً على الأرض، لا يجد نفسه إلا فيها وفي لذائذها وفي شهواتها، وهذا لا يعرف قيمة الخلق، ولا يقدر لها وزناً، ولا يمتلك في نفسه رادعاً ولا وازعاً، فلا بد من قوة تؤدب مثل هؤلاء.

١- خطبة الجمعة (٢٢٥) ٢٠ ذي القعدة ١٤٢٦هـ، ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٥م.

وإذا أخذ بخيار الرعب، فهناك تصوران:

١- تصور توازن الرعب، وتوازن القوة

أن تكون روسيا القوية الرادعة بسلاحها النووي القادر على تدمير أمريكا وأوروبا الغربية، وأن تكون أمريكا بسلاحها النووي المدمر القادر على سحق روسيا، فوحشان كاسران لا يصرع أحدهما الآخر، يعيش كل منهما العذاب والقلق والخوف والفرع طوال الليل والنهار، والعالم كله منهما مُرعب، لا يُدري متى يضغط هذا على الزر؛ ليدمر العالم، أو يضغط ذاك على الزر؛ ليدمر العالم.

فالعالم يعيش كل أيامه ولياليه وساعاته خوفًا ورعبًا وعذابًا كما يعيش الوحشان الكاسران العذاب بنفس الدرجة.

٢- تصور القوة المنفردة

والقوة المنفردة تعني القوة بلا قوة موازية، وبلا أخلاقية، وبلا وازع من دين، بلا قيم، بلا خوف من الله، بلا تقوى، وهي تعني الطاغوتية الاستكبارية والغطرسة الظالمة في الأرض.

تعني أن يتحول الآخرون كل الآخرين إلى عبيد، وإلى أقزام، وإلى مسحوقين همهم أن يسترضوا العملاق القوي الظالم الطاغوتي، وأن عليهم أن يذلوا بين يديه عسى أن يأمنوا، وأن يركعوا ويسجدوا إليه من دون الله عسى أن تصلهم لقمة العيش الممرغة بالهوان.

وهذا ما تريده أمريكا، وتحاول فرضه بلغة القوة في الأرض، وهي أول ما تستهدف بهذه الطاغوتية، والسحق والتدمير والإذلال الأمة الإسلامية الصاعدة لما تها به منها، وهيبته منها لا من سلاح، وإنما من أطروحة ودين قادرين على أن يُحدثا في الإرادة انتفاضة، وفي العقل انطلاقة، وفي الروح سموًا، وفي الذات جبروتًا غير ظالمة تُدمر الاستكبار الأمريكي، وتسحق الإرادة الأمريكية الظالمة؛ لنشر العدل والسلام.

موقف الإسلام

أما موقف الإسلام من القوة، فالإسلام يطلب القوة، ويشدّد عليها، ولكن للقيم، ولينتهي بالقوة إلى العدل والسلام، وتربية النفس على الهدى، وقيادة العالم على خطّ الأمن والسلام.

القوة في يد الإسلام لا للبطش، إنما للبناء.

نعم، هي؛ لتأديب الظالم، لردّ العدوان، لإسكات الصوت الشيطاني في الأرض الذي لا يرحم الإنسان لا دنياً ولا آخرة.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٦٠) ٦ جمادى ١٤٢٥هـ، ٢٥ يونيو ٢٠٠٤م.

(٣)

سياسة نشر القيم الغربية

من كلمات المسؤولين الأمريكيين وأفكارهم

١- كلمة - مضمونها على الأقل هو هذا - : إن الولايات المتحدة تريد أن تكون قوة محررة، تكرر نفسها؛ لإحلال الديمقراطية، ومسيرة الحرية في العالم الإسلامي».

تعليق: تمشيًا مع فكرة أن الديمقراطية هي المنقذ؛ أمريكا المكرسة نفسها؛ لإحلال الديمقراطية كيف تبارك الديمقراطيات وإن كانت مزورة في كل الدول الصديقة؟! وكيف تقدم دولًا لا ديمقراطية فيها مطلقًا على دول تأخذ بقدر كبير من الديمقراطية؟!

والجواب: إن المهم هو المصلحة، والديمقراطية المطلوبة في العالم الإسلامي نوع ديمقراطية تحدده المصالح الأمريكية، وتتقوده شخصيات يراد لها في مثل العراق أن تكون مفصلة على مقاس كرزاي.

والحرية المخطط لها للعالم الإسلامي، والتي تسعى أمريكا؛ لتركيزها ليست هي الحرية السياسية - كما تعلمون جيدًا - ، وإنما هي حرية الاستهتار الجنسي الساقط، وتناول الوسائل الإعلامية، وكل الألسنة الساقطة على الدين ورموزه وقيمه ومقدساته، وطرح الأفكار الإلحادية والتحليلية كما تشاهدون تمامًا في أكثر من مكان.

الحرية التي يراد أن تثبت في عالمنا الإسلامي على اليد الأمريكية هي حرية فوضى الجنس، هي حرية شتم الدين، هي حرية التعدي على الله، ورسوله ﷺ ، وأنتم تقرؤون في بلاد سرت فيها هذه الحرية كلمات تتال من قدسية الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) ، وتتال من شأن الله العزيز الحكيم.

هناك حسب المسموع في بلد إسلامي عريق، ويتجه للإسلام على طريق الكفاح المر،

ويواجه الدنيا؛ من أجل إسلامه، ومن خلال بعض العناصر الفاسدة تأتي هذه الكلمة: لنا حق أن نخرج في مظاهرات ضد الله، ويريد أن يحاكم بديمقراطيته الغربية الله، يريد أن يحاكم بحريته الخالق العظيم!

هذه هي الحرية التي تبشّر بها أمريكا، وتعطيكم إياها!!

٢- «إن هناك عناصر إصلاحية في العالم الإسلامي نريد دعمها».

تعليق: هل يظن أحد أن العناصر المعنية عناصر دينية خيرة تريد للأمة أن تعيش أصالتها، والاعتزاز بهويتها، والحفاظ على قيمها وثرواتها، وولاء أبنائها لها؟! أو هل تظنون أن هذه العناصر التي تدعمها أمريكا عناصر وطنية، أو قومية تراعي المصلحة القومية والوطنية قبل مصالح أمريكا؟! طبعاً، لا هذا، ولا ذاك.

العناصر المدعومة هي العناصر التي تعمل على التغريب والأمركة لهذه الأمة، وتعمل ليلاً ونهاراً على تركيز الفكر الأمريكي والأخلاقية الأمريكية المبتدلة على الأرض في بلاد المسلمين، وتسوق بما تنتج من إثم وضلال، وزور القول، وفحش الكلمة، وبما تروج له من أزدل السلوك الشباب والشابات في ديار الإسلام إلى هاوية السقوط الخلقي، ورذيلة الزنا، واللواط والعريضة المنفلتة.

هذه هي العناصر الإصلاحية التي تتوجه أمريكا بدعمها في عالمنا الإسلامي.

وعلى ذاك اعرفوا أصحاب الشعارات.

٣- «التفوق الأمريكي في الجانب العسكري يفرض مسؤوليات؛ لتأمين محيط آمن تزدهر فيه بعض القيم».

تعليق: لا بد أن تكون هذه القيم هي التبعية الذليلة لأمريكا، وقبول استنزاف ثروات البلاد الإسلامية، والسقوط في أحضان السياسة الأمريكية النفعية، وأنواع الانحلال الخلقي الذي بدأ يقتحم على المسلمين مواطنهم موطناً موطناً، ومدينة مدينة، وقرية قرية، وبيتاً بيتاً، وهو انحلال واسع يقف الأمريكان أمامه في بلادهم عاجزين عن

التخلص من آثاره الفتاكة، ويتوقعون له أن يُلقى بهم رخيصين في مزيلة التاريخ.
السلح النووي ممنوع عن البلاد الإسلامية، التقدم التكنولوجي ممنوع عن البلاد
الإسلامية، التقدم العلمي ممنوع عن البلاد الإسلامية، المسموح به التبذل الخلقي،
الإيدز، الفحشاء، الحفلات الماجنة في الجامعات وفي كل المحافل، المخامر.
هذا هو المُصدّر لنا!!^(١)

القيم في ميزان المنفعة المادية

لا الديمقراطية، ولا أي شيء آخر مقدّم على المنفعة المادية لأمريكا في عقلية،
وسياسات، وتخطيط، واستهداف الأمريكي الذي تحكمه الرؤية النفعية المادية.
الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحرية السياسية، وكل الشعارات البراقة معلّقة
على الرف، أو يلقي بها جانباً رخيصة زهيدة إذا تصادمت مع المنفعة المادية الأمريكية،
وهيمنة الوجود الأمريكي على العالم.
والشعوب الإسلامية التي يزداد تعلّقها، وانشدادها للإسلام بما فيه من البعد
السياسي لا يمكن أن تلتقي المصلحة السياسية الأمريكية مع آمالها وطموحاتها، ومع
تفعيل ديمقراطية حقيقية في ساحاتها.^(٢)

قيمة الإنسان

١- إنسان لا قيمة له هو إنسان هذا العصر، وذلك في نظر سياسة المادة القائمة في
أكثر أقطار العالم، وكذلك دين لا قيمة له، هو الدين الصادق الذي لا يخدم السياسة
الظالمة في هذا العصر المادي، والذي تحكم فيه قيم الأرض.
٢- هذه هي قيمة الإنسان في سياسة اليوم، أن يقتل بمئات الألوف وبالملايين،
ويشرد؛ من أجل المادة.

١- خطبة الجمعة (٨٣) ٢٥ شعبان ١٤٢٣هـ، ١ نوفمبر ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (٣٧٣) ٢٥ جمادي الثاني ١٤٣٠هـ، ١٩ يونيو ٢٠٠٩م.

أدوية هذا الانسان وطبّه، والمنتجات المستهلكة من قبله دخلها الغش؛ من أجل المادة.
الهواء الذي يتنفسه هذا الإنسان على مستوى العالم يسمم؛ لأجل المادة.
أطفال ونساء يُتاجر بهم للجنس والمادة، تجهيل، وتضليل، وتخويف، وإرهاب
للإنسان؛ من أجل المادة.

وفي بلد عربي عريق فنانات حسب التسمية الجاهلية المخادعة يوظفن للرقص المائع
السخيف أيام عيد الفطر المبارك في الشارع أمام مراكز السينما المفسدة ترويحاً لبعض
الأفلام الهدّامة؛ ليحدث هذا الرقص والأزياء المبتذلة في الشارع جنوناً للشباب المجوّع
جنسياً من حيث الحلال بحيث يدفعه هذا الجنون في هياج حيواني شرس؛ للتحرش
الجنسي المكشوف بالنساء العفيفات، ويصل الأمر لحدّ الظاهرة الواسعة الفاضحة
المقيتة التي تشغل بال حتى الصحافة السافلة إلى حين.

وفي البلد نفسه عطاءات سخية وتكريم؛ للهو والمجون والرقص يجتذب إلى حدّ
الظاهرة المتفشية عدداً كبيراً من الفتيات في الدراسات العلمية الجامعية؛ للرقص،
وللمسرح الهابط.

من هي على طريقها؛ للتخرج طبيبة، أو مهندسة، أو تمتلك اختصاصاً علمياً عالياً
آخر، ومن صاحبات الدرجات الرفيعة في دراستهنّ يغادرن قاعات الدراسة إلى الملهى
والمرقص لاختلاف الفرص، لأن هناك تكريماً، وهنا إهمالاً إن لم يكن إهانة، لأنّ هناك
عطاءات مائيّة وهنا يشحّ العطاء، ويضيّق على الكفاءات العلمية.

وأنت تجد أن الفنانة في كل البلاد الإسلامية - إلا ما رحم الله - تعلقو قدراً على كل
فقهاؤها، وعلمائها، وفلاسفتها، وكتّابها الصادقين، وعلى كل الفئات المعطاءة!!

والفنانة إنما يكرّم فيها فسقها، وإنما يكرّم في الراقصة إشباعها الجنسي لغرائز
السافلين، وإنما يكرّم فيها دورها المفسد لفكر الناس وضميرهم.

والدين الحق تطارده السياسات المادية الظالمة، وأنصارها من شبكات الفحشاء
والمخدرات، وفنادق الجنس فكراً وأخلاقيّة، وممارسة تعليمية ومسجداً، ومؤسسات

ثقافية في كل بلاد الأرض، وتخوض معه حرب تصفية نهائية من خلال تجفيف منابع التوعية، والمحاربة في الأرزاق الشريفة الحلال، ومن خلال نشر العهر والفحشاء، والمتاجرة بالأعراض.^(١)

واقع القيم الغربية

وهل أمريكا تعرف العدل والإحسان؟

تبحث عن أذكيائنا؛ لتصنعهم صنعا لنا؟

تبحث عن العقول هنا؛ لتربيها هناك، فتأتي رجالاتٍ تحمل رسالة الأمة وهمها، وتعمل على طرد عدوها الغازي المستكبر الأجنبي من أرضها؟

هذا تفعله أمريكا؟

هذا يتجاوز الإحسان، هذا يمثل حالة انتحار للذات، أتنحز أمريكا هذا الانتحار؟

أمريكا يمكن أن يدخل في قاموسها عدل أو إحسان؟

الفلسفة التي تقوم عليها الحياة الأمريكية من ألفها إلى يائها - رسميًا - هي مبدأ المنفعة واللذة المادية.

وكل شيء وسيلة، والمنفعة واللذة غاية.

والدين واحد من مراكب أمريكا إلى تحسين الوضع الاقتصادي الأمريكي، والرفاه الأمريكي، والغطسة الأمريكية.

هذه الفلسفة يدخل في حسابها إحسان، أو عدل؟

وماذا يقول الواقع؟

العقل الذي ربّته أمريكا؛ ليحكم أفغانستان ربّته لمصلحتها، أو لمصلحة أفغانستان؟

١- خطبة الجمعة (٢٦٧) ٢٢ ذي الحجة ١٤٢٧هـ، ١٢ يناير ٢٠٠٧م.

الآن لو تأتت لها الأمر في العراق، فمن سنأتي به للحكومة؟ - هناك الآن في الحكومة الانتقالية عناصر إسلامية، ولكن هذه العناصر الإسلامية فرضها الواقع، وليس هو شيئ من تبرع أمريكا -^(١).

قيم الديمقراطية الشككية

توالت هزائم الأمة وانتكاساتها، وتعمق تخلفها على يد أنظمة الحكم السائدة فيها المتخلفة عن الإسلام، وفي ظل الأحزاب والمنظمات المتغربة.

وبدأت صحو إسلامية قوية، وانبعث شعار العودة إلى الإسلام، وأخذ مفعوله الكبير في صفوف أبناء الأمة.

ومن ردود الفعل على الصحو الإسلامية الكاسحة، الطرح الأمريكي للديمقراطية الشككية - وأقول الشككية - في البلاد الإسلامية؛ لاختطاف الأنظار، وللتلهية والتخدير، ولإنقاذ الأنظمة التقليدية من أن تتعرض للإسقاط والتغيير الجذري.

وقد ذهبت أمريكا وأوروبا إلى أن تسقط بنفسها النظام المتصلب الذي يقف في وجه خطتها، ويصر على التحرك خارج المسار الذي تختاره، بعد صبر طويل على تمرده، وبعد دعمه في وجه الإسلام، وانتفاضات المسلمين كما في نظام صدام؛ خشية تحقق مكاسب إسلامية على الأرض تقطع على أمريكا طريقها.

ولا يستبعد أن يوجد تنسيق وتوافق بين أمريكا والأنظمة التقليدية على فتح الساحة في البلاد الإسلامية اقتصادياً وثقافياً ودينياً وتربوياً أمام الإرادة الأمريكية وخططها، وتنفيذاتها المباشرة وغير المباشرة في المنطقة.

وأما الساحة السياسية، فالحكم فيها متقاسم بين الأنظمة المحلية وما يُسمونه بالقطب الواحد صاحب الإرادة السيادية.

والثمن الذي تتمسك به أنظمة الحكم التقليدية هو أصل البقاء والمكاسب القبلية والفئوية والحزبية التي تتمتع بها على حساب الشعوب المظلومة.

١ - خطبة الجمعة (١٢٦) ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣م.

وتترتب على هذه اللعبة المشتركة أمور:

١- امتصاص نقمة الشعوب، وخلق حالة أمل كاذب عن طريق التبشير بشعار الديمقراطية، ونصرة الشعوب وإنقاذها.

٢- اختطاف نظر الأمة عن الطرح الإسلامي المنقذ حقاً، والذي صار يُحقّق واقعاً على الأرض، وشغل الساحة الإسلامية بثقافة سياسية بديلة، تُبقي على جهل الأمة وغربتها في مجال الثقافة السياسية والإسلامية المنقذة.

٣- الاقتراب من المعارضة في البلاد الإسلامية إلى حدّ الالتصاق والتغلغل؛ للسيطرة المعلوماتية الشاملة.

٤- احتواء النخب القيادية الجاهزة في البلاد الإسلامية، وإعداد نخب ناشئة؛ لتكون البديل الجاهز؛ لتنفيذ الخطط الأمريكية في حال اقتضت المصلحة الأمريكية استبدال الحكومات القائمة.

٥- خلق حالة أنس شعبي عام، بل ثقة واطمئنان للصديق الغازي، والعدو المنافق، ترتفع إلى درجة المواءمة والشعور بالامتنان، وواجب تقديم الشكر.

٦- التربية والتثقيف الأجنيان المباشرين وغير المباشرين للشعوب الإسلامية في ظل أجواء الثقة، بحيث تنتهي إلى حالة ولاء كامل، وارتقاء في أحضان الأجنيي يصاحبه انفصال واسع عن الأنظمة الحاكمة التي آلمت تجربتها الشعوب، ويُهَيِّئ إلى الترحيب بالخيار الأمريكي الغربي المعادي للإسلام في كل مناحي الحياة عن رضا واطمئنان وشوق صادق.

مشفقون، ولكن!

إن أمريكا وفرنسا والغرب كله مشفقون علينا من الإسلام وشريعته، وقد جاءوا يعلموننا كيف نتعامل، وكيف نعيش، وكيف نبني أسرة سعيدة في ظل عطاءات حضارة الغرب الراقية، ولكنهم لا يُشفقون علينا من إسرائيل، ولا من جيوشهم أنفسهم

وصواريخها وقنابلها، ولا من تعذيبهم للمسلمين في السجون التي لم يعثر عليها أحد حتى الآن!

هؤلاء المشفقون على الأمة هم الذين كانوا يدعمون صداماً ضد شعبه، وضد محيطه الإسلامي، وهم الذين يدعمون الأنظمة الجائرة التي تحكم الأمة، ويرفعون من جهة أخرى شعار الديمقراطية؛ للتضليل، والأغراض السياسية الخبيثة.

أليس هؤلاء المشفقون هم الذين سهّلوا لطاغية العراق أن يسحق انتفاضة الحرية الشعبانية بالحديد، والنّار، والدّمّار؟!

هؤلاء المشفقون علينا من إسلامنا وتشريعاته هم الذين بنوا لإسرائيل ترسانة سلاحها النووي، وهم الذين يتهددون أي بلد إسلامي يسعى؛ لتطوير قدراته النووية السلمية، أو يحاول التحرّر والاستقلال عن محور التبعية الأمريكية الذليلة.

إن كل الأنظمة السياسية المرتبطة بالمصلحة الأمريكية المتحرّكة في فلکها مدعومة من أمريكا بقوة، ومع ذلك تمارس أمريكا الكذب على الشعوب برفع شعار الديمقراطية المخادع.

وإذا نال العراق شيئاً من الديمقراطية، فذلك بإصراره وتمرّده على الإرادة الأمريكية، وأمريكا تعمل في العراق بكلّ جدّ؛ لتركيز شخصيات لا يرغب فيها الشعب العراقي، ولا يؤمن بها، وتحاول جاهدة لأن تترك لها بصمات واضحة في دستور العراق.

علينا أن نقول لأمريكا والغرب كله: إنّنا أمة غنية بقرآنها، ورسولها، وتاريخها، ورجالها، والثروة الحضارية التي تمتلكها، ولا نحتاج إلى دروسهم في الأخلاق والمعاملة والتشريع والعلاقات الإنسانية، أو في الحق، والعدل، والإحسان.

وأن ما آخر هذه الأمة هو ظلم أنظمتها السياسية، وتقزيمها لها وهي أنظمة طامنا أسندها الغرب وتأمّر معها على الأمة.

وحرية الأمة الحرية الإنسانية والحقيقية، واستقلالها عن تبعية الدول الأجنبية وممارستها لإرادتها الحرة الكريمة، وتقرير مصيرها، واختيار حياتها بحكمة ورشد لا

يأتي منحة من أمريكا ولا غيرها، ولن تُقدّمه الحكومات عن شفقة ورحمة، وإنما يعتمد على وعي أبناء شعوبها، وجهدهم، ونضالهم، وعودتهم لإسلامهم، واستكمالهم لشروط النهضة الصالحة الناجحة.

وممّا يضع الشعوب على طريق الحرية والاستقلال الحقيقيين، ويساعد جداً على تعديل الأوضاع المادية والإنسانية لأبنائها وشرائعها انتشار الوعي الديني الصحيح الذي يُثري الشعور بالكرامة، والتّوق إلى الحرية، والانشداد للحق والعدل، وتعميم ثقافة الحقوق بين مختلف فئات المجتمع ومكوّناته، وهي ثقافة يُركّز عليها الوعي الديني بشدّة. ^(١)

الغرب ثقلٌ مادّيٌّ وخفّةٌ إيمان

وكما يوجد للأفراد وزن، يوجد للشعوب وزن ومن كل الحثيات، قد يكون الشعب عملاقاً من حيثية، له وزن من حيثية، إلا أنه خفيفٌ جداً من حيثية، الشعوب الغربية ثقيلة وذات وزن عالٍ جداً من حيث الواقع المادي، وعلى مستوى بعض الجنبات، وليس كل الجنبات، وعلى مستوى جزئي من حيث العنصر البشري وليس على مستوى شمولي، لكن المجتمعات الغربية تعاني من خفة الوزن إلى حد كبير من حيث الإيمان، من حيث الاستقرار النفسي، من حيث سلامة الهدف في الحياة، وأن الكثير منهم لا يضعون أنفسهم على طريق ما خلقوا له. ^(٢)

لا تخلو أمريكا والغرب عمومًا من أصوات تحترم قيمة العدل وإنسانية الإنسان، وتتنافى وسياسة الظلم والوحش الكاسر التي تهيج به ماديته وبهيمنته؛ لبحث عن فريسة، والتي يؤمن بها ساسة كثيرون هناك، بل يتجاوزون في ذلك الكواسر التي لا تطلب الفريسة إلا عند جوعتها حيث يتحوّل البغي والعدوان في حياتهم إلى قاعدة عامة وسلوك شائع ومن غير ضرورة.

١- خطبة الجمعة (٢٢١) ٢٢ شوال ١٤٢٦هـ، ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (٣٢) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٤٢٢هـ، ٩ نوفمبر ٢٠٠١م.

نعم، في الغرب أصوات لا تستسيغ أن يتبدّخ شعب؛ لتحكم المسغبة حياة كل الشعوب، وأن يحيا شعب؛ لتموت شعوب.

لكن في الغرب ساسة لا تحرّكهم إلا المصالح المادية، والروح الطاغوتية، وجنون الزعامة، ولا يكادون يقفون موقفاً أو يقولون كلمة مما ظاهره حقّ إلا وهم يريدون به الباطل، ويتّخذونه وسيلة للأغراض الخبيثة الدنيئة.

والانقسامات السياسية عند هؤلاء على اختلاف واجهاتها، وتباينات مواقفها منطلقها واحد، وهدفها الغلبة في صراع السياسة المادية في الداخل والخارج، والسبق إلى مواقفها وامتيازاتها، والتّمسك بها.

بوش وهو يصرّ على عدم تحديد جدول زمني للانسحاب من العراق، وعلى الاستمرار في محاربة الإرهاب كما يدّعي، ودعم الديمقراطية في العراق، وتخليصه من حرب طائفية مدمّرة واضح جداً أنه لا يستهدف إلا تركيز الحالة الاستعمارية في العراق، وأن يخرج بطلاً من حربه هناك، وينتصر حزبه في انتخابات الرئاسة الأمريكية المقبلة، أو يخرج غير ملعون بهزيمته المخزية من كل شعبه على الأقل.

والديمقراطيون في مجلس الشيوخ والنواب في أمريكا لا تؤذيهم قذارة الحرب الظالمة على العراق، ولا الاقتتال الطائفي فيه، وحرقت ثرواته، وتحطيم بنيته التحتية، وانتشار الرعب والهلع والرعب في كل ربوعه، ولا كل الخسائر البشرية الهائلة، والكوارث الإنسانية فيه، ولا حتّى تساقط القتلى في صفوف الأمريكيين الغزاة له، وإنما همّهم الكبير أن يفشل الحزب الجمهوري، وتسقط شعبيته بدرجة أكبر؛ ليحتلّوا مكانه فيما يُسمّى بالبيت الأبيض، وتكون لهم الجولة في الصراع على السُّلطة، وكل ذلك مكشوف معروف في شرق الدنيا وغربها، وليس محل بحث وتحقيق.

والمهم بدرجة أكبر من هذا أن الرأي العام الغربي في غالبية إنمّا تحكمه القيم المادية. وبطولة الانتصار العسكري الغاشم، وتحقيق أكبر عملية نهب ممكنة لثروات الشعوب وإن عاش على آلام الملايين من أبناء الأمم والبلاد الأخرى وعداباتهم.

وإن نتائج من هذا النوع تفتح له أبواب حياة مادية أكبر رغداً؛ ليبرر عنده عمليات العدوان الشرسة التي تمارسها حكوماته في حق الشعوب الأخرى، وإن نجاح الحزب والحكومة والرئيس وفشلهم في نظر الغالبية من الرأي العام الغربي مقياسه إحراز النصر على الآخرين ولو كان بأقذر الوسائل وأشدّها فتكاً بمصائر الشعوب بعيداً عن أي حساب للقيم المعنوية من حق وعدل ورحمة وأخوة الإنسان للإنسان.

إنه خطر كبير يتهدد البشرية أن غالبية الرأي العام في أمة ملايينية كبيرة كالأمة العربية هي مع منطق القوة، مع منطق الغاب، مع منطق الغلبة بلا حساب لأي قيم، وبلا حساب لإنسانية الإنسان، وإن كان النصر والغلبة فيه سحق شعوب وأمم.

حين يسود هذا الرأي العام، ويتركز تخسر كل الدنيا أمنها، واستقرارها، وتقدمها.

وهذا هو العطاء الحتمي، والنتيجة اللابدئية للحضارة المادية والمذهب الواقعي بمفهومه الأمريكي وهو مذهب اللذة المادية وما تتطلبه، وما ينبني عليها، وهو المذهب الذي قد حصل على تغلغل كبير في عقلية ونفسية وواقع كثير من المسلمين مما ينذر بانقلاب حضاري خطير داخل الأمة، وتحول جذري هائل عن خط انتمائها.

لقد دخلت روح المادية، والحسابات المادية، وطلب النصر ولو بالظلم حتى في نفوس كثير ممن يصلّون، ويصومون، ويحجّون، ويزكّون، ويخمسّون، وفي نجاح الجهود المقاومة، ومبادرة الفعل التوعوي على يد الإسلاميين المخلصين أمل كبير بعد توفيق الله، وتسديده، وتأييده.^(١)

(٤)

سياسة الإصلاح الأمريكي

إصلاح أو أمركة؟!

المطروح أمركة باسم الإصلاح، وهذا لا يشك فيه مسلم من المسلمين، وهي أمركة عقول، ومشاعر، وإرادة، وأوضاع حضارية، وأوضاع اقتصادية، وأوضاع سياسية، وأمركة لكل الساحة الإسلامية.

ولكن لماذا فزع العديد من الأنظمة؟

غيرة على الإسلام؟

انتصاراً لخط الحضارة؟

إشفاقاً على الشعوب؟

هذا فزع غير معتاد من الأنظمة أن تقفه أمام الأمركة.

اعتدنا احتضان تغيير المناهج، احتضان القواعد العسكرية، اعتدنا الاشتراك في الحروب مع أمريكا في خندق واحد، اعتدنا تواجد الجيوش الأمريكية على الأرض، اعتدنا المشاريع التحليلية المستوردة.

اعتدنا أن أسواقنا أسواق؛ لترويج البضائع الأمريكية.

اعتدنا أن نفط الأمة تحت الخدمة الأمريكية.

الأنظمة التي تقف هذا الموقف كله يُعجب منها حين تقف موقفًا فزعًا من شعار الإصلاح الجديد، إصلاح الشرق الأوسط، ومشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تطرحه أمريكا.

الأمركة هذه المرة كأنها تطل مصالح الأنظمة، ومن هنا جاء الفزع.

تطل بنياتها بعض الشيء، تطل سلطاتها العريض المطلق بعض الشيء.

وهناك شعاران عند الأنظمة لدرء الخطر الأمريكي، شعار الإصلاح من الداخل حفاظاً على الهوية وخصائص الذات، والذات هنا هي الذات الوطنية، والذات القومية، والذات الحضارية.

هذا الشعار يُطرح من الأنظمة قبال الإصلاح الأمريكي على مستوى الشعوب؛ ومن أجل استنهاض الشعوب، وأن تكون نصرتها للأنظمة في هذه المعركة.

لكن هناك شعار آخر لا يُطرح على الشعوب، يُطرح في أروقة المفاوضات، وفي الخلوات؛ للاعتذار للأمريكي عن مشروعه الجديد، هذا الشعار هو خطر تسلق الإسلاميين والإرهابيين إلى مواقع القرار والسلطة.

ماذا كانت قيمة الخصائص الثلاث حسب المعتاد؟

خصائص الذات الوطنية، والقومية، والحضارية عند الأنظمة؟

تقدم أن الثروات للأجنبي، القرار للأجنبي، التبعية الحضارية للأجنبي، مواجهة النهضة الحضارية الإسلامية.

اعتدنا أن أوطان الأمة الإسلامية تباع ثرواتها، وتباع أرضها بثمن بخس، وتوهب بلا ثمن للأجنبي.

اعتدنا مواجهة الحضارة الإسلامية - التي يُدافع عنها الآن - في مواجهة الطرح الأمريكي.

اعتدنا استرخا ص الدم المسلم، واسترخا ص الروح المسلمة من أنظمة كثيرة في البلدان العربية والإسلامية.

اعتدنا تهميش وإهدار كرامة هذا الإنسان الذي يُراد الحفاظ عليه اليوم في صورة شعار يطرح أمام الإرادة الأمريكية؛ للإصلاح الجديد.

والإصلاح من الداخل لا بد أن يُنتظر طويلاً أيها الإخوة كما عطل طويلاً، وعُذب وشرّد وسجن وقتل من دعا إليه.

الإصلاح الخارجي مقابّل بالإصلاح الداخلي، ومطروح الآن شعار الإصلاح

الداخلي الذي انتظرته الشعوب كثيرًا، ونادت به كثيرًا، وعُذبت وشردت، وقتلت من أجله كثيرًا كثيرًا.

وهذا الإصلاح لا بد أن يُنتظر كثيرًا؛ لأن إنسان هذه الأمة لازال غير ناضج، لا يجيد استعمال الديمقراطية، ولا النقد، ولا المشاركة في الحكم، ولازال قاصرًا يحتاج إلى تربية طويلة في نظر كثير من أنظمة الأمة.

يا أمريكا، يا أنظمة، نحن مع الإصلاح النابع من خصائصنا، ومن منطلق الحفاظ على هويتنا، ومصالحنا، وثرواتنا، واستقلالنا.

وخصائص هذه الأمة المعطلة هي أنها أمة العدل والمساواة، واحترام إنسانية الإنسان، وكرامته وحرية الحقيقة لا بمعنى التسيب البهيمي، واحترام دوره الخلافي، وقدرته على المشاركة الإيجابية الفاعلة في صناعة تاريخ إنساني مجيد، وعلى السبق العلمي والتنافس على طريق الصالحات.

هذه أمة الإنتاج الكريم، والقيم والخلق العظيم، والانفتاح على خير الإنسانية جمعاء بلا تمييز.^(١)

الإصلاح الأمريكي!

الإصلاح الأمريكي ليس حلًا وإنما من شأنه أن يؤزّم الأمور، ويأسر الأمة، ويخلق مواجهات خطيرة.

وهو إصلاح يخدم الأغراض الأمريكية النزيهة جدًّا، أو قل باللغة المكشوفة الخالية من المجاز الظالمة والقيحة جدًّا.^(٢)

غاية البؤس والإفلاس

غاية البؤس والإفلاس، والخيبة والفشل، والسذاجة والبلاهة، والغفلة والسبات أن تنتظر الأمة إصلاحها ورسم صورة مستقبلها من أمريكا.

١- خطبة الجمعة (١٤٥) ٢٠ محرم ١٤٢٥هـ، ١٢ مارس ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤م.

لكن لماذا لا، وأمريكا الحانية الحكيمة المؤمنة المأمونة على مصائر الشعوب والأمم
والمقدّرات والمقدّرات كما يشهد موقفها الكريم في فلسطين، وأفغانستان، والعراق ...
إلخ؟!

لا أهلاً ولا سهلاً بإصلاح تقضيه أمريكا، ولا رجاء ولا أمل في إصلاح يتبرع به
النظام الرسمي العربي، وسيبقى الأمر مرهوناً بإرادة الشعوب.

فهل تقترب من وعي ذاتها، أو لا تقترب؟

هل ترجع إلى أسباب عزتها، أو لا ترجع؟

ولا يعني هذا التغمي بأمجاد الماضي، وإعفاء النفس من إضافة الجديد المفيد في
ضوء هدى الله، وثوابت دين السماء.

وهل نقرر فوراً عدم الاستجابة لمزيد من التدهور الخلقي الذي يراد لنا، أو نستمّر
في إرخاء الزمام؟

هل، وهل ...

هل نصمم على عودة جادة للإسلام، أو لا نصمم، هل نتحمل مسؤولية رسم
مستقبلنا، أو لا نتحمل؟

إذا أعطينا أجوبة حاسمة جادة واعية ترضي الله سبحانه والتزمناها موقفاً عملياً
كله إصرار ومواصلة واستمرار، فهذا هو طريق المستقبل الجديد المجيد.

أما أن ننتظر شفقة أمريكا، وجود النظام العربي الرسمي، فهو ضرب من الخيال،
وهو تغلُّب عن المسؤولية، ورضاً بالحياة التي هي دون.^(١)

(٥)

سياسات حقوق الانسان

الغرب وشعارات حقوق الإنسان

كم هي المؤسسات الغربية الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والديمقراطية التي تحمل شعارات الإنسانية وهي تحتقر الإنسان، وتمكر به، وتتأمر عليه، وتختطفه جسداً أو عقلاً، وروحاً وإنسانية وكرامة؟!

وهي مؤسسات يُبهر بها عدد من المسلمين من غير تحقيق في أدوارها الخلقية. إنه لا بد من الاحتراس من الغرب، وسياساته وشعاراته، وإن جاءت برّاقة، ومؤسساته، وعلاقاته وإن بدت مغرية.^(١)

مناهضة التعذيب

مناهضة التعذيب، ومناصرة المعذبين قضية مرة ترفع لافتة إعلامية، ومرة تتخذ قضية جدية.

والغرب في نظري.

الغرب الرسمي في نظري، وفي نظر كل صاحب عين إنما يرفع قضية مناهضة التعذيب لافتة إعلامية، فمن هو الغرب؟

الغرب هو الذي يصنع ويصدر أدوات التعذيب وأحدث آلياته، الغرب هو الذي يدرّب المعذبين على أحدث آلات التعذيب والإيذاء للبشر، والغرب هو الذي يصدر المعذبين، وقد صدر لنا من المعذبين ما صدر، الغرب هو الذي يدرّب على كيفية التعذيب الفردي، وعلى كيفية التعذيب الجماعي والشعب العام، هذا هو الغرب التي تتطلق بعض مؤسساته؛ لترفع راية مناهضة التعذيب، وراية حقوق الإنسان؛ لتستعمل ذلك في مواجهة أنظمة

١- خطبة الجمعة (٣٠٢) ٢١ شوال ١٤٢٨هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠٧م.

إسلامية، وبلاد إسلامية مهما أوغلت في السوء إلا أنها قد لا تبلغ سوء الغرب.

الغرب لو تعرضت مصلحته السياسية لأدنى زوبعة لقتل الملايين، وبروح باردة والحروب الصليبية شاهد.

كيف يناهض التعذيب شعبياً؟

ليس بكلمة تقال في يوم، الكلمة والمؤتمر والندوة وكل الفعاليات في هذا المجال محمود ومطلوب، ويجب أن يكتف ويركز، ولكنه مع ذلك يجب أن يستمر والإسلام وحده الذي يجعل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة يومية لابدئية، ومن أبشع المنكر أن يعذب إنسان إنسان بريئ، والتعذيبات التي تحصل إنما تحصل؛ لانتزاع اعترافات لا يصح أن تعتبر في شرع، ولا في قانون ما دامت تستل تحت مطرقة التعذيب.

واجب اسلامي

أقول: مناهضة التعذيب واجب إسلامي واجب كل مسلم، فلنحول حديث مناهضة التعذيب إلى حديث يومي مستمر طوال العام، وفي كل مجالسنا، وفي كل مجامعنا، وفي كل ندواتنا، وعند أول حادثة تعذيب يطالها النظر يجب أن يكون الإنكار سريعاً ومكافئاً أيضاً.

كيف يناهض التعذيب على المستوى الرسمي؟

الدولة إذا أرادت أن تناهض التعذيب ماذا تفعل؟

عليها أولاً التصحيح، والتطهير للأجهزة المخبراتية.

تصحيح الجهاز المخبراتي من كل المعذبين، ومن كل أصحاب السوابق في هذا المجال.

أما ما بقت رموز التعذيب في مواقعها، فلا أستطيع أن أفهم أن هناك نيّة كافية وعزمًا كافيًا؛ لاقتلاع هذه الجريمة - جريمة التعذيب -، ينضاف إلى هذا التطهير التعقب وتوقيع الجزاء لكل المعذبين، وهل المعذب فوق القانون؟

أسأل: هذا التعذيب بإذن القانون، أو أن هذا التعذيب خارج القانون؟

إن كان هذه التعذيب في ظل القانون وإذن القانون فهو جريمة دولة، وإن كان هذا التعذيب خارج القانون، فلا بدّ للجزء على الخارج على القانون.

رعاية المعتذّبين والمشوّهين!

الدولة تتولى رعاية المعتذّبين والمشوّهين وتعويضهم، على أن هذا التعويض لا يغسل الجريمة، ولا يُسقط العقوبة.

على المستحق إشاعة ثقافة عدم التعذيب على مستوى وسائل الإعلام، ومن خلال كل المواقع.^(١)

اليوم العالمي لمناهضة التعذيب

يُعتبر اليوم العالمي؛ لمناهضة التعذيب فكرة محمودة عقلاً ودينًا وعُقلاً، ويلاحظ أنّ العالم وهو يحتفل بهذا اليوم تستمر أكبر الحكومات وأكثر الحكومات فيه في ممارسة التعذيب بمختلف صوره البشعة، وسيستمر هذا الوضع ما دام الضمير الإنساني مغيبًا، والضمير غائب دائماً ما غاب الدّين، وطمست الفطرة، وكيف يُعطي العالم الذي لا يعترف بالقيم الثابتة أبداً قيمة ثابتة لعدم التعذيب؟!

فلسفة العالم المادي تقوم على إنكار وجود أي قيمة خلقية ثابتة، وأن كل القيم نسبية وهي تنسب إلى المصلحة المادية والمنفعة المادية، فما وافق المنفعة المادية للكبار هو القيمة، وما خالف منفعة الكبار لا قيمة له.

قل لي بربك في هذا العالم: كيف يخدعوننا، ويقولون: إنهم يحاربون الإرهاب، وكيف يخادعوننا، ويقولون: إنهم يشنون حرباً ضد التعذيب؟!

إنّه ضحك على الدّقون لا غير، أن يقول من يتنكر لكل القيم أنه ضدّ التعذيب، ومع عدم التعذيب.

١- خطبة الجمعة (١٣) بتاريخ ٧ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ٢٩ يونيو ٢٠٠١م.

إنَّ التعذيب يمارس علناً في حق شعوب بكاملها من الدول التي تُعلن عن نفسها بأنها حامية حقوق الإنسان، وإن أسرى حركة القاعدة قد قضت المصلحة الأمريكية أن يعاملوا معاملة خارج القانون، فكان هذا هو الحق، لأن الحق كل الحق مع المنفعة المادية لأمريكا كما تقول فلسفتها.

أما الذين يعيشون أقصى ألوان العذاب في سجون إسرائيل، وفي الزنانات الإنفرادية في هذا العالم تشفياً من المطالبين بالعدالة، فالدول التقدمية التي شرّعت مناهضة التعذيب ترى هذه المعاملة الوحشية القاسية لهم من الحلال الطيب الهنيئ المبارك ما دامت تطلق يدها في النهب والسلب والاستثثار، وتُكَمِّم أفواه الشعوب المظلومة المحرومة المعذبة.

وإن على الشعوب أن تحوّل الشعارات الإعلامية التي يريد بها المستكبرون تخدير مشاعر المستضعفين كشعار مناهضة التعذيب من الإنسان لأخيه الإنسان إلى شعارات جماهيرية واعية على طريق تفعيلها وفرضها في الواقع العملي الحي.

وإن الشعوب إذا انطلقت في حياتها من غير منطلق الإيمان والقيم، فإن نداءاتها المتواصلة بالعدالة واحترام الإنسان، ورعاية حقوقه وكرامته، ستكون نداءات فارغة يتنكر لها كل من تسلّق إلى موقع من مواقع السلطة من بين صفوف الجماهير نفسها، أو وجد إلى ذلك الموقع سبيلاً سهلاً.^(١)

ونؤكد نحن المسلمين الذين نعرف من عظمة الإسلام شيئاً ما، بأن حقوق الإنسان في الإسلام لا توازيها حقوقه في أي وثيقة من وضع الناس، وكل حقٍّ ممّا سمّته وثيقة حقوق الإنسان مما يلتقي ومصلحة الإنسان وقيمه الإنسانية العالية، وهدفه اللائق بمستواه وموقعه، فالإسلام أسبق إليه، والإسلام بوصفه متزّلاً من عند الله سبحانه العليم الخبير اللطيف الحكيم، له التعقيب على كل ناتج بشري، وليس له من معقب.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٦٥) بتاريخ ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ٢٨ يونيو ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (٣٧) بتاريخ ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ، ١٤ ديسمبر ٢٠٠١م.

حقوق الإنسان الروحية

يُخطئ الذين يعاملون الإنسان معاملة الحيوان، وينظرون إليه كمًّا من الدم واللحم والعظم، ومجموعة من شهوات الجسد، مُلغين في هذا النظر قيمته الروحية، وشعوره بالعزّة والكرامة، والذات الإنسانية المتميزة.

ولك أن تعرف خطأ هذا النظر من خلال العمليات الاستشهاديّة التي يُقدّم عليها المجاهدون الفلسطينيون المضطهدون.

فمن أصعب شيء على الإنسان وهو يعيش حالة نفسيّة متّزنة أن يقدم على إنهاء حياته وتمزيق جسده، وبعثرة أشلائه بيده، ويثكل والديه، أو يبيّتم ولده، وهو لا يفعل ذلك لأنّ أبواب اللذة الجسدية قد انسدت أمامه، وأنّ عدوه الذي يفجر نفسه فيه يمنعه اللقمة، إذ أن طريق اللقمة المغموسة بالذّل والهوان، وبيع الضمير يفتحه هذا العدو، ويرغب فيه.

فإذًا، سرُّ هذا التقدم الشجاع للاستشهاد هو شيء آخر غير الضائقة المادية، فقرار تصفية الجسد الذي يتخذه المجاهدون وسيلة لقهر العدو المتعطرس حيث يتحولون إلى عبوات ناسفة تتفجر في صفوفه؛ ليزيقوها طعم الموت، وإن تكن أنفسهم الثمن، ليس وراءه إلا الشعور بالكرامة المسلوبة والقيم المهانة، والانتماء الحضاري الذي يهزأ به، والإيمان القوي بالمبدأ الذي يُنتصر له.^(١)

أهمية العمل الحقوقي

ثم إنه لا تصلح الأوضاع السياسية من غير فكر وصوت حقوقي واضح، ونقد علمي موثّق، ومطالبة واعية بأساليب مدروسة ومقبولة، وملاحقة دقيقة لأخطاء السياسة، وقصورها، وتقصيرها.

١- خطبة الجمعة (٦٥) بتاريخ ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ٢٨ يونيو ٢٠٠٢م.

والمؤسسات الأهلية السياسية العلنية، والمراكز ولجان حقوق الإنسان هي الأكثر قدرة على التعامل مع هذا الملف، بما لا يربك ويخلق حالة من فوضى المعلومات والأخبار والالتهامات المثيرة.^(١)

المعالجة الحقوقية والحل السياسي

المعالجة لأيّ مشكل من مشاكل الشعوب التي أوقعتها فيها السياسات الخاطئة، ورفع أي ظلم عنها مما يلحق بوجودها من هذه السياسات أمرٌ مطلوب، وحقٌّ لا بد منه، وهو الصحيح الذي يجب ألا يتأخر.

ومن أوضح ما يُطلب في باب الحقوق ألا يبقى أبناء الشعب الذين طالبوا بحقوقهم وحرّيتهم وراء القضبان، وفي غياهب السجون.

وكلُّ توجيه حقوقي قائم، وأي خطوة في الاتجاه الصحيح على مستوى التوجيه إنما تأخذ قيمتها من تحققها العملي، وتجسيدها في أرض الواقع. وهذا أمرٌ عارٍ من الغموض.

أما العلاج الحقيقي لسوء الأوضاع، ودرء الخطر عن البلاد، ففي الحلّ السياسي الجذّي الجذري العادل الذي ينال موافقة الشارع، ويضمن حالة الاستقرار.

وإنّما تتركز دعوتنا عليه، ويتكتّف ندأؤنا به، لأنه لا ما دونه، الحلّ وليس في غيره حلٌّ على الإطلاق، ويأتي تركيزنا عليه إخلاصًا للبلاد والعباد.^(٢)

١- خطبة الجمعة (١٦٩) ٢٣ شعبان ١٤٢٥هـ، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤م.

٢- خطبة الجمعة (٤٦٧) ٣ شوال ١٤٣٢هـ، ٢ سبتمبر ٢٠١١م.

(٦)

سياسات الاقتصاد العالمي

مشكلة الفقر

فإنَّ حديثي لا ينصبُّ على الأحداث السياسية الجزئية، وإنما هو حديثٌ يذهب إلى العمق من المسألة، وإلى ما هو العلاج الحق لو وعينا وانكشفَت عنَّا غمم الجاهلية العمياء.

الكلُّ يعرف معاناة البشرية، وكثرة مآزقها ولكن ما أقل من يطلب خلاصها، وحل أزمتها من الطريق القصير الصحيح الواصل الذي لا طريق وأصلاً غيره، ولا مخلصاً سواه، وهو طريق الله سبحانه، ومنهجه الكريم الذي تنزلت به كتبه وجاءت به رسله، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾^(١)، و﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) إذ غيره واهم فاسد مؤزم ساقط.

من مشاكل هذا العالم المعرض بوجهه عن منهج الله الذي لا غنى له عنه: فقر، ومرض، يسحقان ملايين من النَّاس، وجوع مذل، وسقم مفترس، وفزع أمنيٍّ دائم من الفرد إلى الدولة إلى العالم، واقتتال طاحن طرفاه الحرمان والاكتراش، فهو من جانب؛ من أجل اللقمة المسلوبة التي تتوقف عليها الحياة، ومن جانب؛ من أجل العبث في كنوز الدنيا، وجهود أبنائها، ومزيد من التناول على الآخرين.

عالم ملؤه مشاكل بلا تعداد، يغرق في مآسيه، ويسعى إلى مزيد.

منشأ المشكلة

من أين هذا الفقر، الجوع، العري، التشرد، المرض، العجز عن اللقمة، عن الكسوة،

المسكن، الدواء؟

١ - آل عمران: ١٩.

٢ - آل عمران: ٨٥.

من أين هذا الفزع عند الإنسان من الإنسان، من نتائج العلم، من مكتسبات الحضارة المادية، هذه المعارك العدوانية المتصلة التي تحصد الناس، وتحرق الأخضر واليابس؟!

كذبة المنشأ

يغالط المستكبرون المستضعفين، فيقولون: إنَّ المشكلة في شح الموارد الطبيعية، وإنَّهم لكاذبون، ولو تضاعفت الموارد الطبيعية أضعافاً، وضاعف التقدم العلمي الإنتاج المادي مرات ومرات فالمشكلة ستبقى، وإذا كان شيئاً، فستزيد لا أنها تنقص.

المنشأ الحقيقي للفقر

المشكلة في الإنسان المستكبر، في فقره، في طاعوته، في سحقه لقيمة الثروة، لقيمة الإنسان، في روح الجشع التي تتحكم في تصرفاته، في بحثه عن ذاته، عن معناه، عن قيمته في المال التالف، في الجاه الزائف، في السلطان العابر، في الخلود الدنيوي الموهوم.

يسكت هؤلاء المستكبرون عن سلبهم لأرزاق الملايين من البشر، واللعب بالثروة من عطاء الأرض وجهود الكادحين، وإبداع المكتشفين والمخترعين لعب الطفل الأبله، ويكدسون الأموال كالرمال، وينسون احتكارهم للطبيعة، وحرمان المستضعفين من الاستفادة منها ومن عطاءاتها، بل وتجاوزهم على الطبيعة بإفسادها، وتخريبها، والإخلال بمعادلاتها التي تتنظم بتوازنها أمور المعاش والحياة لحساب مشاريعهم الجشعة والعدوانية الفتاكة.

ولو صدق الإنسان لقال: بأن الثروة الأولية، ونتاج الكدح العالمي، والفكر المخترع المبدع، والآلة الضخمة يحترقان في وزارات الداخلية والدفاع والإعلام الموجَّه؛ للتضليل والخداع والتجهيل، وفي لياالي الفحشاء وسوق الهوى، ونوادي القمار والخمر، والسرققات والرشوات، وإنتاج أسلحة الدمار الشامل، والبحوث العلمية الموظفة، لتقدم وسائل الفتك العالمي، وتكديسها، وتخزينها، وفي الإنتاج الفضولي الترفي الذي يمثل مع تسويقه،

وامتصاص المال عن طريقه لوئاً من ألوان بعثرة الثروة وسرقتها من جيوب المغفلين.
وتجد النسبة العليا من مال أهل الأرض، وأرزاق ملايينها الغفيرة، وثمرن لقمتها
وكسائها ودوائها وسكنها المناسب، وما به صلاح حياتها في أرصدة حفنة قليلة من
متموّلِي العالم ومهرة سراقه.

هذه هي الحقيقة بالضبط، وإذا بقي منها باقٍ فهو من نفس السياق.

عامل الفساد

قالت كلمة البعض في قمة الأرض الأخيرة: بأن من أكبر عوامل الفقر في العالم إن
لم يكن أكبر عامل له هو الفساد، ويعني به اختلاس المال العام من المتنفذين في مراكز
القرار والإدارة، والرشوة، ومختلف التحايلات القانونية وغير القانونية على ناتج عرق
الكادحين، وعطاء إبداع المفكرين.

ويشترك في الاختلاس والخيانة للمال العام موظفون ومدراء، ووكلاء، ووزراء
ورؤساء وزارات، ورؤساء جمهوريات من مصاصي الدماء، وفاقدي الضمير، والمبتلين
بداء العطاش للمال والدينيا، ومقتضيات الهوى، وهم - الخونة الناهبون الغاصبون
المتحايلون - حراس الثروة والأمن والقيم والدين، وكل مقدّر ومقدرة.

والسؤال: كيف يسقط الإنسان، وتحترق الثروة على يديه في كل هذه المحارق، ويهدر
تعب الأجيال، وكدح المعذبين، وعرق المكدوحين، وتسرق لقمة الكفاية، ولقمة الجياح من
طريقها إلى أفواه الملايين، وإذا وصل ما يقيم الصلب، أو يحفظ الرمق لا يصل إلا وهو
مغموس بالذل والهوان، وبيع الشرف والدين في كثير من الأحيان؟!

كيف صار يمتهن الإنسان على يد أخيه الإنسان الذي يسرق لقمته وجهده ونصبه،
ويتفنن في إذاقته ألوان العذاب مع راحة ضمير، واستمراء للحياة، بل هناة فائقة،
وتلذذ كبير؟!

من أين صار أمن الحكومات لا يتم إلا بإخافة الشعوب؟، وأمن كل دولة لا يتم إلا
بإخافة بقية الدول المجاورة حتى غير المجاورة حيناً آخر؟، وأمن الرؤوس في كل

حكومة لا يتم إلا بالحراسة من بعضهم البعض؟!

لماذا لا ضعيف يأمن، ولا قوي يأمن، والعالم كله في توتر من الأعصاب إلى حد العنف والإرهاب والاغتيال والقتل للتشفي وللبطش والمهابة؟!

معرفة الداء نصف الدواء

وراء ذلك كله أمر؟

نعم، ولا شك ولا ريب.

حاجة الإنسان إلى ربه في المرجعية والحاكمة التشريعية حاجته إليه في المرجعية والحاكمة التكوينية.

حاجته إليه في مساحة الاختيار على حد حاجته إليه في مساحة الجبر والإضطرار. وتكرر الإنسان استكباراً وجاهلية وغروراً لهذه الحاجة في حاكمية التشريع، وهو المذعن اضطراراً لحاكمية التكوين.

هذان الأمران، إنسان محتاج إلى الله، ويستكبر على الله.

الإنسانية تبقى محتاجة إلى الله في عالم التشريع كما هي محتاجة إليه في أصل وجودها وعموم حياتها، هذه الحاجة اللابدئية حين يكون لها تنكّر لا بد أن تكون آثار مدمرة.

أنا محتاج للشمس، فحين أرفض أن أتعامل مع الشمس أي تعامل إلا بالهروب منها، لا بد أن تكون صحتي في كارثة.

أنا محتاج للأكسجين، فحين أكفر بقيمة الأكسجين لا بد أن أنتهي.

هذه هي المشكلة تماماً.

الإنسانية يصلحها الضمير اليقظ، والمنهج الدقيق العليم الحكيم العادل، والاثان مغيبان في مجتمعات الجاهلية والإدبار عن الله.

إن المستضعِف والمستضعَف، المستكبر والمستكبرَ عليه - وهما طرفا المعادلة الفاسدة في المجتمع البشري اليوم - يشقيان معًا بالهروب عن الله، بالتخلي عن منهجه، برفض حاكميته - بتغييب تربية السماء.

ولا يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ولا تعافى الأرض من مشكلاتها، ولا هدى، ولا ضمير، ولا أخوة، ولا صدق، ولا أمانة، ولا عدل، ولا كرامة، ولا أمان، ولا سلام إلا بأن تعود التربية والمنهج المغيبان المحاربان والمهملان: منهج الله، وتربية السماء، إذ لا مثيل ولا نظير، وليس بعد الهدى إلا الضلال.

فليسع الإنسان ما يسعى، ولتقاوم الشعوب والأمم، ولتبتدع الأطروحات بعد الأطروحات، وليكثر الإنتاج ولكن شيئاً من ذلك لن يجدي البشرية نفعاً، ولن تذوق في ظله عدلاً وإحساناً، وراحة ورفاهية، وأمناً وسلاماً وكفاية، وعزّة وكرامة إلا أن تعود إلى حاكمية الله، وتنقاد إلى منهجه، وتتأدب بتربية دينه وأحكام شريعته.

كلما قرأتم شيئاً في السياسة، فارجعوه إلى هذا الأصل.^(١)

النَّفْط هو القيمة العليا!

حضارة المادة لا خلق ولا إنسان ولا قيم فيها إلا قيمة المنفعة، والمنفعة تتركز بدرجة كبيرة اليوم في النفط.

والاختلاف والتوجس من بقاء النظام العراقي وذهابه؛ لتحل محله السيطرة الأمريكية منشؤه نوع القسمة والحظوظ التي قد تتفاوت كثيراً في ظل هذا الطرح أو ذاك، هذه النتيجة أو تلك.

ولا فرق بين أمريكا وبريطانيا وروسيا وفرنسا وحتى حكومات عربية في هذا الأمر.

هناك حكومات عربية تصرّح بأنها ستخسر نفط العراق المتدفق عليها حين تقوم حرب، وتطلب تعويضاً عن ذلك، وإذا حصل التعويض فلا بأس بضرب العراق، وحسن ضرب العراق.

١ - خطبة الجمعة (٧٧) ١٣ رجب ١٤٢٣ هـ، ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢ م.

إذاً، والعالم هذه قيمه، وهذا انحطاطه لا بد أن يواجه درساً تكوينياً عاماً، وفجيرة شاملة، ولا بد أن يقوم على أنقاض هذا الكيان العالمي المنهار نظامٌ إلهي عادل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ونوراً، بعدما ملئت ظلمًا وجورًا وشرًّا، والقيادة لإمام العصر عليه السلام. ومن ناحية عملية فعلية لا يعمل على نقل الأخلاقية «الغربية المهترئة، والتحلل الغربي، ونظام العلاقات الأسرية في الغرب، وخصائص الحضارة المادية هناك إلى أرض الإسلام إلا خائن لبلده، وقومه، وأُمَّته»^(١).

الإفساد وطغيان رأس المال

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسَنَ كَمَا إِيَّاكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

كان واحدًا من قوم موسى، وقوم موسى مستضعفون، وقوم موسى منهم الصالحون، أو كان من قوم موسى من جملة قوم موسى سواء من أبناء إسرائيل أم غير إسرائيل، أي ممن أرسل إليهم موسى عليه السلام.

فرح الاستكبار والطغيان البطر والاعتماد على المال دون الله، وهذا الرجل كان يستعمل المال للإستكبار، والبطش، والحاكمية الظالمة، وكان يسند حكم فرعون، ويسير معه في درب واحد: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣)، طغيان رأس المال، وحاكمية رأس المال، وكون القرار بيد رأس المال، وتلاعب الطبقة

١- خطبة الجمعة (٨٣) ٢٥ شعبان ١٤٢٣هـ، ١ نوفمبر ٢٠٠٢م.

٢- القصص: ٧٦ - ٧٧.

٣- القصص: ٧٧.

الرأسمالية في مصائر الناس من الإفساد، هذا والمنهج الفرعوني، وهما متقارنان منهجان إفساديان.^(١)

الاقتصاد والرذيلة

إن اقتصاد البلد لا تنعشه الرذيلة، ولا تضرُّ به الفضيلة.

وما بنت الرذيلة يوماً خيراً، وما هدمت الفضيلة يوماً بناءً سليماً، وما تجره الفحشاء والخمرة من مكاسب مالية لفئة قليلة مترفة يقابله حالة فراغٍ قيميٍّ تنتشر في الشعب، وتقوِّض الأمن، وتثير الرعب بالقتل والسطو والاعتصاب والسرقة، وتسقط إرادة الخير، وعزم العمل المثمر، وتميِّع الإرادة، وتهدم الأسر، وتشعل الفتن، وتلوث البيئة الصحية، وتوسع من الأمراض السارية التي يجبر إليها الجنس الحرام.

وكل ذلك يتطلب مضاعفة في الميزانية على حساب المستضعفين والمحرومين.

وليس كالرذيلة هادماً للاقتصاد، وباعثاً على الرشاوى والسرقات، والتحايل على المال العام والاستغلال البشع.

وليس كالفضيلة داعماً للاقتصاد، ومحافظاً على الثروة، وصائناً للحقوق، ومانعاً من هدر المال فيما يضرُّ الفرد، وينشر الفوضى في المجتمع.^(٢)

الاستثمار القذر

الاستثمار القذر إذا رأى أن الطريق مفتوح أمامه في بلد، فمعنى ذلك أن ذلك البلد ساقط خلقياً، وأن غيرة أهله قد انتهت، وأن انقلاباً حضارياً على الخط الإسلامي قد حصل.

كلما وجدنا أرضاً تستقبل مشاريع استثمارية قذرة بصورة مفتوحة.

١- خطبة الجمعة (٧٢) ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ، ١٦ أغسطس ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة رقم (٨٩) ٨ شوال ١٤٢٣هـ، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٢م.

وكلما وجدنا هذه المشاريع تتوافد على هذا البلد، كلما ثبت أن البلد قد خسر إسلامه.

أما إذا وجدنا أن المشاريع الساقطة، المشاريع السافلة، مشاريع الفساد، المشاريع الاستثمارية القذرة تهرب من بلدنا، فهذا يجعلنا نحمد الله، ونقول عن بلدنا: بأنها على خط الخير، خط الحضارة الإسلامية والخلق القويم.

هناك شعاران: شعارنا نحن الإنسان والاستثمار، الإنسان الروح والبدن، والاستثمار؛ من أجل الإنسان، لا الاستثمار الذي يحوّل الإنسان إلى حيوان.

حين تصرخ دائماً استثمار استثمار وتُغَيَّب الإنسان وكرامة الإنسان، وكذلك مصلحة الإنسان المستضعف، فهذا من النظر إلى الأشياء بنظرة عوراء.

افتح عينيك معاً، وقل لنا استثمار وإنسان، استثمار من أجل الإنسان.

ولا تقل لي: استثمار ولو كان على حساب روح الإنسان، قيمه، كرامته، أمنه، سعادته، هذا الشعار قاصر وماديٌّ صرف.^(١)

تحرير الثروة

الحرية والاستقلالية والكرامة الإنسانية والدين العظيم لا يعادله ثمن.

والإنسان بإنسانيته، وحرّيته، وكرامته، ومبدئيّته، ورسالتيّته، ودينه قبل أن يكون بما يأكل، ويشرب، ويلبس، ويسكن.

ونحن أمةٌ تباع دنياها بأُخراها، ولا تباع أُخراها بدنياها.

أمةٌ تضحي بضرورة الجسد لضرورة الدين والروح، ولا ترتكب العكس إلا بمقدار ما انسلخت عن هُويتها.

١- خطبة الجمعة (١٤٥) ٢٠ محرم ١٤٢٥هـ، ١٢ مارس ٢٠٠٤م.

ولا طريق لتحرير الثروة، ورد العدوان عنها، وقطع يد سراقها والمستولين ظلماً عليها وهم أكبر سراق العالم وناهبيه إلا بالبذل الكبير الذي يحفظ تدقّق عائدها المستقبلي على مدى الأجيال المتعاقبة لصالح أصحابها أصحاب الأرض وتاريخها الحقيقيين.

إنه جيل واحد يضحى بشيء من ثروة البلد؛ من أجل حفظ هذه الثروة لكل الأجيال القادمة، ومن أجل أن تتنامى على يده ويدها المخلصتين الحرتين الفاعلتين.

وإذا عانت البلاد التي استطاعت تحرير اقتصادها من الهيمنة والسطو الأجنبي من مشكلات اقتصادية للحروب المفروضة من العدو، وألوان الحصار والتآمر، والحاجة إلى الإنفاق على التسليح مما يحمي أمن البلاد؛ فإن ذلك مرهون بوقت معين، وحتى التغلب على هذه المشكلات المثارة - ولنتذكر حصار شعب أبي طالب الذي نال من النبي ﷺ والهاشميين ما نال من سطوة الجوع والضعف -، ولكن من نتائج ذلك الحصار أن قامت دولة عملاقة، وكبرت الثروة في يد المسلمين حتى أصابت بعضهم بالجنون، جنون التلهّي بالدينا، ونسيان الآخرة.

ولا يقاس ذلك بحالة الاستسلام للعدو الجاثم على صدر أي بلد وشعب والمستنزف لخيراتهم، والمتصرف فيها تصرف المالك المطلق، والذي لا يبقى للشعب المستعبد إلا الفتات الذي يسمح كعدوّه باستمرار استثماره له.

وأنت إذا نظرت إلى شعوب البلاد الغنيّة بثرواتها الطبيعية وما يستخرج منها، وما هي عليه من وضع معيشي وجدتها في جمهورها العريض فقيرة جداً بالقياس إلى طبيعّي تلك الثروة ومصنّعتها.

وأما البلاد الفقيرة بطبيعتها، فلا ينقذها استعباد الطغاة العالميين من فقرها إذا لم تزد بذلك فقرا على الفقر، وفاقّة على الفاقة، هذا إلى جانب الذل المقيم، والهوان الساحق.

والطغاة لا يبحثون عن بلدان يعالجون فقرها، وإنما همهم بلدان يستثمرونها، ويستغنون بها، ويستثمرون شعوبها لمطامعهم.^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٢٨) ٢ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ، ٦ يونيو ٢٠٠٨م.

(٧)

سياسات الإعلام العالمي

إعلام مدى وإعلام ضلال

فرنسا وأمريكا قسّمتا الإعلام إلى: إعلام هدى، وإعلام ضلال.

إعلام تحضّر، وإعلام إرهاب.

إعلام لصالح الإنسانية فيما تراه.

وإعلام لغير صالح الإنسانية فيما تراه.

تحتضن الأول، وتحارب الثاني، تُدين وتحرق وتلاحق من يأخذ به، وتحضّر عليه، وتستبيح دمه.

والقضية يتبناها الرأي الفقهي، فتكون تحجّرًا ورجعية وظلاميّة، وأما إذا تبنتها فرنسا وأمريكا كانت ذكاء وحماية مصالح ونقاء حضارة ووعيًا وتقدمًا!

معيب على الفقهاء ورجعية من الفقهاء، وتحجّر من الفقهاء أن يقولوا: بأن هناك كتاب ضلال، وأن يفتوا بعدم قراءة كتب الضلال إلا استثناء لمن كان قادرًا على الرد، وآمنًا من التأثير السلبي.

ذلك رجعية، وذلك تحجّر، ولكن يوم أن تقول أمريكا وفرنسا: بأنّ إعلام قناة المنار إعلام معاد للثقافة الفرنسيّة، ومضر بالسّامية، أو تقول أمريكا: إنه إعلام إرهابي، فهذا حق، وهذا صحيح، وهذا تقدم!!!

فالحق يدور في نظر كثير من العلمانيين مدار الرأي الغربي والتصرف الغربي، الحق يدور مادارت أمريكا وما دارت فرنسا، وما دارت أوروبا.

وتسأل المنكرين على الفقهاء قولهم: هل هناك إعلام هدى وإعلام ضلال؟

وكتاب هدى، وكتاب ضلال؟

يقولون لك: نعم.

وما هو تحديدهما؟

إعلام الضلال هو إعلام يدافع عن الإسلام، ويكشف الحقائق المرة عن الغرب، يحاول أن يقود البشرية إلى الله.

أما إعلام الهدى، فهو ما قدّس الحضارة الغربية ومجّدها وذاب فيها، وتمرّغ على أقدامها!

هكذا هو الجواب، وهو جواب تستوعبه كثير من النفوس، لأنه يأتي بلغة ساحرة، وبفنٍّ بالغ الجودة.^(١)

إن اللغة الإعلامية، وفيها الساحر يقومان في المؤسسات الإعلامية غير الملتزمة على الاستهواء النفسي، والمغالطات الفكرية، وطريقة المصادرة باتخاذ ما هو مطلوب ومحل البحث، قضية مفروغاً عنها، ومقدمة من مقدمات الدليل، وبذلك يجر الإدمان على القراءة والإصغاء للمادة الإعلامية من هذا النوع من غير فكر ناقد إلى التسطح الفكري، والوقوع في قناعات خاطئة تفتقد الأساس العلمي الكافي لنشوئها.

ولا طريق لحماية الفكر من هذه النتائج المتردية إلا بالتزود بطريقة التفكير العلمي المنطقي، وممارسة القراءة ذات الطابع الموضوعي، والدراسات التي تعتمد التمحيص والتدقيق لما تتعرض له من أفكار وآراء.

فما أحوجنا إلى تربية العقلية العلمية التي تعتمد المنهج العلمي الصارم في التفكير. وأنت إذا دققت صفحة واحدة من كثير مما تكتبه الصحافة، وتبثه الإذاعات خاصة فيما يتعلق بالشأن السياسي، وما يتصل به، وما يراد تكوينه من قناعات للرأي العام وجدت تلاعباً بأفكار الناس ومشاعرهم وبعداً فاحشاً عن الحقيقة، واعتماداً على رمي الآخرين بنعوت تبرعية ظالمة تقزّم هذا، وتسقط ذاك، وتثير النقمة ضد ثالث، وتغزل رابعاً، وهكذا.

١ - خطبة الجمعة (١٨٠) ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ، ٣١ ديسمبر ٢٠٠٤ م.

ويقع الظلم الفاحش على الفئة الاجتماعية التي تحرم من الدفاع عن نفسها، ورد أقاويل الزور والتهم الرخيصة التي توجه ضدها، وهذا اللون من المحاصرة والحرمان هو واحد من ألوان الظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي التي قد تمارس ضد هذه الفئة أو تلك حتى تتم عملية التصنيف المعنوية لها في غلس الليل مع خنق لا يسمح بانطلاق صوت للمستغيث.

من مفارقات الإعلام العالمي

ومن المفارقات الغريبة أن الذين يمتلكون مصادر البث وقنوات النشر المختلفة، ويحتكرونها، ويشددون القبضة الحديدية عليها، ويطاردون الكلمة الإسلامية في المسجد، وفي كل زاوية من زوايا المجتمع يرمون الإسلاميين بمصادرة الفكر، والإرهاب الفكري، والحجر على الكلمة، وخنق حرية الرأي.

ومن المفارقات الأخرى الفاضحة أنك تجد عند هؤلاء قائمة طويلة من الشتائم للإسلاميين التي تقذفهم بالرجعية، والتخلف، والتجبر، والتقوقع، وضيق الأفق، ومعاداة الحداثة، والانغلاق الفكري، والهروب من الواقع!

وهم أنفسهم الذين يثيرون زوبعة من الاستنكار والاستبشاع عندما يتحدث الإسلاميون عن التقوى والفجور، وعن الإيمان والكفر والفسوق، وعن طاعة الله سبحانه ومعصيته وعن الجنة والنار، وعن العفة والتسيب، وعن الحجاب وتبرج الجاهلية الأولى! فأمام الطرح لهذه التقسيمات المستقاة من الكتاب والسنة، يرتفع الصراخ منهم بأنكم توزعون صكوك الغفران، وبطاقات المرور إلى الجنة، وتعلنون قائمة أهل النار.

على أن لهذه التقسيمات القرآنية، تحديداتها الدقيقة، ووسائلها الإثباتية المنضبطة التي لا يبيح مسلم بحق لنفسه أن يتعدها، وقائمة الآخرين منها ما يشتم به وهو مفخرة في نفسه، والشتم به؛ لإسقاط قيمته وتشويهه.

ومن ذلك الرجعية، وهي تعني عندهم الرجوع إلى الأصالة، ومرجعية كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ لحركة الفكر والشعور والحياة.

ومثل الرجعية في ذلك معاداة الحداثة التي يريدون بها معاداة الأفكار المناهضة للإسلام ومجانبة التحلل، ومقاومة الغزو الثقافي.

أما الحديث بما ينفع الناس، وما يلتقي مع سلامة الفكر والدين، ولا يثلم من المروءة والخلق الفاضل، فهم يعرفون جيداً أن الإسلاميين يطلبونه ولا يعادونه.

ويُشهر بك بأنك تعادي الحداثة؛ من أجل إغرائك بالوقوع في الحداثة الساقطة والتبعية الذليلة، والمستنقع القذر الذي يخطط للمجتمع الإسلامي أن يقع فيه.^(١)

مقاومة الاستهداف الإعلامي

والخطط التخريبية من الإعلام العالمي الفاسد، وما يستهدف الإنسان المسلم في ضميره، ودينه، وتفكيره، وسلوكه، لا يعد ولا يحصى.

لكن كل هذا الجند يكون ضعيفاً، وكل هذا الجند يمكن أن يرتد خائباً حين يستحضر أحدنا عقله وضميره وفطرته وهده، وحين يستحضر حكم الله ويستحضر مراقبه الله حين يتذكر جلال الله، ويتذكر جمال الله، ويتذكر عظمة الله حين يستحضر الحصيلة الكبيرة من الصبر والعظات التي تراكت عنده طوال حياته الخمسين أو طوال حياته الستين، أو حتى طوال حياته العشرين، أما أن أحدنا حين يستحضر كل ذلك يستطيع أن يملك زمام نفسه، ويستطيع أن يضع نفسه على الطريق الصحيح، ويستطيع أن يصعد بهذه النفس؛ للتخلق بأخلاق الله، والتربي بترية الله، ولأن تعيش من جمال الله ما يغنيها وما يشغلها، ويرتفع بها عن كل التفاهات، ويشغلها عن كل جمال ادعائي مزخرف.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٦٠) ١٢ ربيع الاول ١٤٢٣ هـ، ٢٥ مايو ٢٠٠٢ م.

٢- خطبة الجمعة (٧) بتاريخ ٢٤ صفر ١٤٢٢ هـ، ١٨ مايو ٢٠٠١ م.

وسيلة الصَّحافة

الصحفيون المستأجرون للجهات المعادية للدين، والصحافة الفاجرة والفاسقة^(١) المعريدة في أجواء الأمة، والتي تملأ مساحاتها الطاهرة تحرف الدين، وتهزأ به، وتتعرض لتجريعات ظالمة له، وتال من قدسية مقدّسات الأمة، ومن كرامة علمائها الكبار وفقهائها العظام، وحتى من تدعن لهم الأمة بالعصمة.

وكل هذا التجرؤ والبذاء والغثيان، والطفولة والجنون والعداء والإجرام يتوسع يومياً بحماية من القوانين السفهية الجائرة، وفتح باب الحرية أمام صحافة الهراء والهديان بدفع من قوى الاستكبار العالمي، ورغبة واحتضان حار من أنظمة كثيرة تحكم هذه الأمة بالحديد والنار، وتلاحق كلمة الحرية السياسية ومن يقولها في كل زاوية بالموت والدمار.^(٢)

الإسلاميون والصحافة

فلا بد من إسلاميين غيورين صليبين، واعين قادرين على إبراز الكلمة الإسلامية بكل ما تتطلبه الكلمة الإسلامية من مسؤولية.

لا بد أن يكونوا هم المشرفين على هذه الصحف، وليتحملوا المسؤولية الصحفية فيها.

غياب الفكر الإسلامي في الساحة سيقتل الإسلام.

أنتم يومياً تقرأون العديد من المقالات التي تشوّه الخط الإسلامي، وتقدم الفكر الآخر، وتحارب الرموز الإسلامية وتشوّهها، وهل تقرؤون شيئاً في قبال ذلك؟

إذا بقى الشعب سنيّاً لا يقرأ إلا الفكر الآخر، وإلا الرؤية الأخرى، وإلا للأقلام الأخرى، فإن هذا الشعب سيتغرب، وسينفصل عن إسلامه ورؤاه الأصيلة.^(٣)

١- أتحدث عن نوع من الصحافة، وليس كل الصحافة. (الشيخ)

٢- خطبة الجمعة (٣٧٥) ١٠ رجب ١٤٣٠هـ، ٣ يوليو ٢٠٠٩م.

٣- خطبة الجمعة (١٥) بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ١٣ يولييه ٢٠٠١م.

(٨)

سياسة الغزو الثقافي

الإسلام المصنوع في معامل السياسة

هناك إسلامٌ والصياغة سماوية، وهناك إسلامٌ والصياغة بشرية أرضية.

هناك تحضير واسع في أمريكا وأوروبا ودول عربية وإسلامية لإسلام بديل، إسلام على الكيف العلماني والمسيحي المحرّف؛ ليحل محل الإسلام الأصيل، إسلام القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فأمريكا قبلُ اشتغلت على إعداد أئمة جماعة وجمعة؛ لتحل محل أئمة جمعة وجماعة سابقين فيها؛ لأداء هذه الوظيفة.

وانجلترا اليوم قررت - جدًا - هذا الإعداد والاستبدال، وفرنسا تقرض على المسلمين إسلامًا يتنكر للحجاب، ويعده تخلفًا مقيتًا.

ودول عربية وإسلامية تسابق أمريكا وأوروبا في استحداث إسلام من تصميم وصناعة غربية، وتعد مناهج دينية جديدة خالية من غير المسموح به غريبًا، وتعدّ مبلغين وعلماء من طراز يتماشى، وطموحات الخطة الأمريكية؛ لتثبيت الإسلام الأمريكي التقدمي في أرض المسلمين، بل في عقولهم وأفئدتهم، ويأتي ذلك ركنًا مهمًا في مخطط الهيمنة الشاملة.

ويدعم هذا الإعداد مشاريع فساد بالجملة، في كل يومٍ تطالعك في الأرض الكبيرة، وفي الأرض الصغيرة، في الدولة الواسعة، وفي الدولة غير الواسعة مشاريع لهو، ومشاريع فساد، ومشاريع تحليل لا تكاد تعدّها، وهي تستهدف الشباب والشابات بل كل رجل وامرأة؛ لتضعهما على طريق الخطة الأمريكية، والمصالح الغربية.

وعلى جماهير الأمة المسلمة أن تحمي إسلامها فكرياً وثقافياً من عملية تزويرية كاذبة تستهدف الإسلام، وتمكّن للعلمانية الفاجرة، وتحول الأمة إلى أمة ذليلة خاسئة.

الصّين ومقاومة الغزو الثقافي

وفي الوقت الذي تلقى فيه الخطة الأمريكية والأوروبية ترحيباً على المستوى الرسمي في ديار الإسلام، واحتضاناً مخلصاً على المستوى نفسه، يعلن في الصين رسمياً عن الإعداد لإعلام متميز خاصّ بجيل الطفولة؛ لحمايته وإنقاذه من الوقوع في مخطط الغزو الثقافي الأمريكي والغربي عامّة، حفاظاً على القيم الصينية!

قارن، واضحك!

بل قارن، وابك!

لا، بل عاند وقاوم، وكن شرساً في عنادك ومقاومتك.

فتمرد كل التمرد على مشاريع الفساد، والتحلّل، والانحراف.

أمسك ابنك.

أمسك ابنتك.

انجُ بهما عن النار،

أنقذهما من جهنم، ومن غضب الجبار.^(١)

فرنسا ومقاومة الغزو الثقافي

لفرنسا رأي آخر: كثيرون من أبناء المجتمعات الإسلامية يؤمنون بفتح جميع الأبواب والمنافذ، والطرق لكل أنواع البضاعة الغربية والشرقية على مستوى الفكر والشعور والسلوك وإن كانت مصممة بصورة خاصة؛ لتهدم السقف الذي تستظل به هذه الأمة؛ من أجل وحدتها وعزتها وهداها ومصلحتها، ويحوّل أبنائها إلى دُمى وأدوات؛ لتنفيذ

١ - خطبة الجمعة (١٥٧) ١٥ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، ٤ يونيو ٢٠٠٤م.

أغراض المصدّرين للحضارات الساقطة، وإن كانت البضاعة في صورة الأخ الأكبر، وفي صورة تجميع الكفاءات الشبابية العالية؛ لتتلقى دروساً في التمرد على الإسلام بأسلوب مخملي ناعم ساحر سارق تحت إشراف مباشر للغزاة الحضاريين.

أما فرنسا، فلها رأي آخر في المسألة، وتصر على ذلك الرأي، فهي توقف بث محطة المنار حماية للثقافة الفرنسية، وقارن بين محطة المنار وبين ما لا يحصى من فضائيات، وصحف، وكتب، وشبكات اتصال متقدمة بحجم يغطي مساحة المعمورة كلها، ويفرقها بصديد ورجس ووسخ وقذارات حضارة الجنس والسطو والنهب والحرق والدمار والتعذيب والترويع للشعوب والأمم، مع ذلك فرنسا تخاف من فضائية المنار، وتحتاط لنفسها كل هذا الاحتياط!!^(١)

الغزوا لا يقف عند الاجتياح العسكري

أمريكا الأقدر نووياً، والأقوى فتكاً، والأطول يدّاً في نهب ثروات الشعوب، لذلك لا بدّ أن تكون سيدة العالم أخذاً بنظرية هي الأكثر تخلفاً في فلسفة الحكم، وهي الفلسفة التي تعطي حق الحكم للأطول ناباً، والأحد ظفراً، والأشدّ تهوراً وفتكاً على طريقة حيوان الغاب.

ومن هذا المنطلق تُعطي لنفسها حقّ التنصيب لحكومات العالم، وعزلها وإجبار الشعوب بأن تكون (نعم) عندها هي (نعم) عند أمريكا بالضبط.

وتُعطي لنفسها أن تسأل ولا تُسأل، فليس لأيّ محكمة دولية وإن خضع لقضائها كلّ العالم البشري أن تطلّ سلطتها ولو جُندياً أمريكياً يخرج على كل القوانين الدولية، ويرتكب جرائم حرب في أي بقعة من العالم إلى حدّ السرف واللعب بقيمة الإنسان.

ومن المنطلق نفسه تحصد عشرات النفوس البريئة في الحادث الأخير في أفغانستان، وتجرح مائة أو أكثر، وتحول عرس الآمنين مآتماً وفجيعاً، ويكبر عليها أن تعتذر بكلمة، وكيف يعتذر السيّد للعبد؟!

فأمريكا تهدف إلى استعباد العالم في الكرة الأرضية كلها، وأمريكا تنشر الرعب!
 وأمريكا تمارس الإرهاب!
 وأمريكا تنسف القيم!
 وأمريكا تتعامل باستهتار بالغ مع إنسانية الإنسان!
 وأمريكا تعادي الشعوب والأمم!
 وأمريكا تعادي نفسها، وتسعى إلى الانتحار!
 وإلا فما معنى أن تفزع وترعب وهي الأقوى من بين دول العالم في كل مناسبة من
 مناسباتها الوطنية، وفي مواطن كثيرة، وتعيش حالة الاستنفار.
 أليس هذا من معاداتها للعالم؟
 أو ليس هذا - أيضاً - من عداوتها لنفسها؟

إِنَّ اللَّهَ وَعَلَيْ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
 النَّاسِ﴾.^(١)

والفزع العام، والرعب العام بعض الفساد الذي ظهر بما كسبت أيدي الطغاة في
 الأرض من ظلم وتدمير للقيم.

ولتعلم أمتنا الإسلامية أن هدف الأمريكيين لا ينتهي بتسجيل الانتصارات
 العسكرية، وسحق الشعوب، وحرق الأرض واستعباد الأجسام، وإنما هذا كله مقدمة
 للسيطرة الفكرية والشعورية والثقافية الشاملة والاستلاب الحضاري، والاستيلاء
 الحضاري، لأنه الضمانة الأكبر؛ لاستمرار تدفق خيرات وناتج عرق هذه الأمة في جيوب
 أعدائها، والرضا بالتبعية الذليلة للغازي من غير مقاومة ولو على المدى البعيد، أو
 مشاكل قد تسبب شيئاً من الصداق للسيد الأمريكي، وتزعج راحته المطلوبة.

وإذا عرفنا الهدف، فعلى الأمة أن تقاوم الغزو بكل قوة وإصرار على كل المستويات،
 ومن مختلف مواقع أفرادها وجماعاتها كالمستوى الفكري والثقافي بما يدخل في ذلك من

عادات وتقاليد وأنماط سلوكية مصدرة لنا في كل المجالات.

وعلينا أن نصرّ على خط الاستقلالية الحضارية، ولا نتنازل عن هُويتنا.

وإن مقاطعتنا للبضائع التجارية الأمريكية على أهميتها لا تعدُّ شيئاً أمام مقاطعة المستورد من الأفكار المعادية والسلوك الغازي، والأقلام العميلة، والتحركات التخريبية على المستوى الفكري والإنساني في مجتمعاتنا.^(١)

علاقة الأمة المسلمة مع بقيّة الأمم

إِنَّ لِلَّهِ سُنَنًا فِي التَّشْرِيعِ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ سُنَنًا مِنْ سُنَنِهِ، وَلَا مَعْدَلَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ عَنْ سُنَنِ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى طَرَائِقَ مِنَ السُّلُوكِ مُخَالِفَةً مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ، وَعَلَى يَدٍ مِنْ ابْتِدَعَتْ، لَا فَرْقَ بَيْنَ مُسْتَوْدٍ مِنْهَا، وَمُصَنِّعٍ فِي الدَّخْلِ.

والإسلام لا يريد القطيعة بين الناس أفراداً وأُمَمًا، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.^(٢)

ولا العقل ولا التعقّل يمنعان من الاستفادة من الآخرين، وأخذ ما يزين عنهم وينفع، والناقص يرجع إلى الكامل، والمحتاج يمدّ يده إلى الغني.

والأمم تتكامل فيما بينها، وتتعاظم؛ لتسدّ حاجاتها المختلفة.

ولكن الأمة العاقلة تدرس ذاتها، ومخزونها، وعطاءات حضارتها، ومنابع ثرائها، وتحاول أن تقف على مراكز اضطرارها، ومواقع احتياجها، فتُعطي في تفاعلها مع الآخر ما هي أكثر تقدّمًا فيه، وأكثر هُدىً وصوابية ورُشدًا، وتسعى لسدّ نواقصها مما تجده صالحًا لا تملكه، ويتوفر عليه الآخرون.

١- خطبة الجمعة (٦٦) بتاريخ ٢٤ ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ، ٥ يولييه ٢٠٠٢ م.

٢- الحجرات: ١٣.

وأُمتنا في واقعها شيء، وفي مخزونها الديني والحضاري الإنساني المنطلق من منبع الدين شيء آخر.

فلئن كانت من حيث الواقع تعاني الكثير من النقص والتخلف فيما هي عليه من وعي الدين وأدبه، إلا أنها ومن حيث مخزونها الديني الكبير والحضاري الإنساني المتمشي مع خط الدين يعلن واقع كل الأديان والأطروحات المعاشة في الأرض، وواقع ديننا الحنيف أنها أغنى أمة وأهداها على الإطلاق.

فلا أخذ لهذه الأمة من أمة أخرى فيما يتصل بسنن الدين والخلق والسلوك والعادات الإنسانية الكريمة في نظر الدين، والعقل، والتعقل.

نعم، قد يلتقي سلوك أمة من الأمم في جنبه أو أكثر مع ما عليه سنن الدين الإسلامي الحنيف، ومقرراته السلوكية الصالحة أكثر مما تلتقي أمتنا معه، فيكون ذلك مؤشراً على تقصير هذه الأمة، ويستوجب منها الرجوع إلى دينها وخلقها الأصيل؛ لتكون كما أراد الله تبارك وتعالى لها أهدى الأمم، وفي مقدمة الركب الحضاري العام الصالح، وكما هو مقتضى دينها.

ومن جهة السبق العلمي المادي، والأخذ بخطط الدراسات الميدانية المعمقة والمتخصصة، والاستفادة من حقل التجارب والاستقراء إلى أقصى حد ممكن مما تتميز به أمة في الأرض بالقياس إلى هذه الأمة لم يأت من جهة أن الإسلام مهمل لشؤون هذه الحياة وهو الذي دفع في اتجاه المنهج العلمية الدقيقة التي تغطي حاجة البحوث الحسية والعقلية، ويكفي أساساً متيناً لهذه المنهج والدفع في اتجاهها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.^(١)

والإسلام هو الذي جعل الكون كله أرضه وسماؤه والحركة التاريخية على الأرض **مسرحاً: لتفاعل حس الإنسان، وعقله، ووجدانه.**

والآيات القرآنية الكريمة في هذا البعد غفيرة بيّنة ساطعة منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

وإنه وإن كان لهذه الظواهر الكونية بحسب النظرة الأولية دلالة على عظمة الله، وحسن تدبيره وعلمه وحكمته، ولكنها بالنظرة العلمية الدقيقة المتتبعة أعظم دلالة، وأوصل إلى الهدى والنور، والاطمئنان واليقين.

وإذا كانت الآيات في نفسها تملك الدلالة، فإن الاستفادة من عطائها وهداياتها لا بد لها من تعقل وتفكر بدرجة وأخرى، وبقدر ما يكون التعقل قوياً كافياً وافياً، ويكون البحث علمياً ومعماً تكون الدلالة أوضح وأوسع وأركز وأعمق.

ومثل الآية السابقة الآيتان الكريمتان الآتيتان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

وإذا كانت النظرة السطحية لهذه الآيات ذات عطاء معين، فإن عطائها العلمي الكبير والمركز قائم على النظر العلمي الدقيق، والدراسات التجريبية المتطورة المصحوبة بعقل باحث عن الحقائق الكبرى والعلة الحقيقية الأصل.

والآيات في هذا الحقل وفيرة غفيرة - كما تعرفون -.

وأنتم ترون بوضوح مدى التقدم العلمي المادي الذي تحققه العودة إلى المنهج

١- البقرة: ١٦٤.

٢- الرعد: ٣.

الإسلامي في بعض بلداننا الإسلامية، والانفصال عن الهيمنة الغربية، والتحكم الذي تمارسه على كثير من أقطار أمتنا في حركتها العلمية طلباً؛ للتقدم التكنولوجي الذي يسد حاجة الأمة، ويوفر لها الاكتفاء الذاتي ومن داخلها.

وفي الوقت الذي يمنع فيه الغرب تسرب الأسرار العلمية لحركته العلمية المادية التي تواكب حاجات العصر وتغذيها إلى الدول الإسلامية، ويحجر عليها أن تكون على طريق الوصول إلى هذه الأسرار بجهود أبنائها يفرض عليها كل ساقط من أخلاقياته، وما ابتلت به حضارته من انحرافات إنسانية خطيرة، وما صار إليه من منحدر سحيق في مسألة الدين، وبُعدٍ عن الإنسانيات الرفيعة.

وفي ظل هذا الواقع يتحتم على أمتنا أن تميز بين ما يصح أخذه من الآخر وما لا يصح، وأن تكف عن الاستيراد في مسألة الدين والسلوك المرتبط به، والقوانين القائمة عليه، والرؤى المتولدة منه، وأن ترجع في كل ذلك إلى كتاب الله، وسنة المعصومين عليهم السلام.

أوقفوا المرولة

لكل أمة طابعها العملي الخاص المُستلهم من حضارتها ودرجة وعيها، وهادفتها، ورشدها، ومستوى جديتها ورسالياتها.

وحضارة هذه الأمة إلهية، ووعيها كبير، ورؤيتها متجذرة، وهادفتها عالية، ورشدها بالغ.

وهي أمة رسالية جادة على طريق صنع الإنسان الكبير والأوضاع الحياتية المتقدمة، وتثبيت المسار القيمي الكريم القويم العادل الوضئ في هذه الحياة، والاتجاه الصاعد بعقل الإنسان، وقلبه، وإرادته، وسلوكه على صراط ربّه العظيم.

إنها أغنى الأمم في مستوى انتمائها، وإرثها الحضاري، ودورها الرسالي الضخم، ورموزها الشامخة، وقيمها الخلقية الرفيعة، ودينها القويم.

وأمة هي الأغنى في كل ذلك لا تستورد الخبيث، ولا تهبط إلى مستوى الإسفاف، ولا تكون إمعة، ولا تركض برجلها وراء كل ساقط، ولا ترفع صوتها مع كل ناعق، ولا تقبل أن تكون سوقاً مفتوحاً لكل العادات والتقاليد من مبتكرات الجاهلية، ولا تسرع في استقبال كل جديد وإن سَفَّ، ولا تُخترق لكل المحاولات الخبيثة.

أمة بهذا المستوى تجدد وجودها وحياتها بوعي على خطها الحضاري الكريم، وتعيد إنتاج ذاتها على نفس الخط صاعدة صامدة، وتحقق كل يوم قفزة على هذا الطريق، وتتجز نجاحات مستجدة متوالية، وتتقي الجيد مما تعرضه سوق الفكر، وسوق الثقافة والسياسة، والاجتماع، وغيرها، وتختار لنفسها بوعي لا أن تعطي بيدها لخيارات الآخر ومخططاته ومؤامراته، وصياغاته في سذاجة واستسلام.

وقد نهت الأحاديث المعصومية الشريفة من ظاهرة فقد الوزن، وعدم الإحساس بالذات، والثقة المفرطة في الآخر، أو التبعية البلهاء لكل ما يكون عليه، ولكل ما يدخل فيه، وبيتلي به، ويقع في مهاويه، وذلك بمثل هذا الحديث: «لودخلوا حجر ضب تبعتموهم»^(١) دخلتم حجر الضب على ضيقه ومنافاته لسلامتكم ومصلحتكم المعنوية والمادية وحجمكم الكبير كما دخلوا، وليس عن وعي ولكن لأنهم دخلوا، وذلك لأنكم تعيشون نظرة مخدوعة لهم تريكم إياهم كباراً عظماء، وأن كل ما يأتي عنهم صحيح وتقدمي وموثوق، وتعيشون واهمين نظرة احتقار لأنفسكم، وحضارتكم، ودينكم، وكل تراثكم العظيم، ورموزكم الفذة.

من المؤلم جداً أن صرنا أمة مهزوزة الثقة بنفسها، فاقدة للوزن، محتقرة لذاتها، تعيش الشعور بالحاجة في كل شيء عند الآخر، وتتبعه في رديئه قبل جيده - على أنه ليس له من الجيد ما لا يقدمه لها دينها وشريعتها -، وتدخل معه كل مدخل.

ولو شَرَّقَ لشرقت بتشريقه، ولو غَرَّبَ لغربت بتغريبه، وإذا لبس لبست ما يلبس، وإذا أكل أكل ما يأكل، وإذا شرب شربت ما يشرب، وإن اكتسى اكتست، وإن تعرى تعرت

١ - معجم أحاديث الإمام المهدي (عليه السلام) ج ١ ص ٣٢٤، والحديث منقول عن رسول الله ﷺ.

من غير أن تطرح سؤالاً واحداً على نفسها في هذه التبعية المجنونة، وآثارها المدمرة. أمّا الآخر، فيهبّ فزعاً محارباً بشدة لأي جديد من فكر، أو سلوك، أو لباس، أو غيره يفد دياره من بلاد الإسلام وحضارة الإيمان والقرآن الكريم.^(١)

التقليد الأعمى للأعداء في النصوص الدينية

رواية إسماعيل بن مسلم عن الصادق عليه السلام: «إنه أوحى الله إلى نبي من أنبيائه أن قل للمؤمنين: لا تلبسوا لباس أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تسلكوا مسالك أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي».^(٢)

يحتمل في الرواية فهمان:

١- إن اللباس الذي يلبسه الأعداء يلبسونه بما هم أعداء لله، فهو لباس ينا في العفة، ينا في الحشمة، ينا في الفضيلة.

الطعام الذي يطعمونه - أيضاً - هو طعام لهم بما هو أعداء الله فهو طعام حرام كالحم الخنزير، والميتة، والخمر - مثلاً - من الشراب.

المسالك التي يسلكونها قد يعنى بها أنها مسالك لهم بما هم أعداء الله، ومسلك عدو الله بما هو عدو الله هو مسلك مناف لإرادة الله غير داخل في دائرة المباح.

وهنا تكون المتابعة واضحة كل الوضوح، وهي لا شك مؤدية لأن يتحول هذا المباح الإنسان إلى عدو من أعداء الله، وينتقل من صفوف المسلمين إلى صفوف الكافرين بقلبه، ومشاعره، وسلوكه،

٢- لكن هناك فهماً آخر - وليس بعيداً -: اللباس، والطعام، والسلوك القومي للكافرين، لأعداء الله وإن كان داخلاً في دائرة المباح، لكنه يتميز به أولئك القوم، ويتخذونه شعاراً، ويعرفون به، هو شعار هويتهم وقوميتهم.

١- قطعة قماش على الرأس في الغرب تشيره، وتجعله يشن حرباً عليها!

٢- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ٤ - الصفحة ٣٨٥.

لنفرض الصليب، حتى لو عاد الصليب فاقداً لمعناه الأول، تعليق الصليب على الصدر، قد تكون حرمة منشؤها رمز عبادةٍ فاسدة، أو تدين فاسد، ويمكن أن يكون شعار النصرى.

لنفرض أن الكفرة كان من لباسهم السروال القصير جداً، فصار شعاراً لهم، هذا داخل في دائرة المباح بصورةٍ ما، وعلى مستوياتٍ معينة، لكن حيث إن أعداء الله يتخذونه شعاراً وإن لم يكن من المحرم نفسه، إلا أن التلبس به في الأمة الإسلامية يلغي الفواصل شيئاً فشيئاً، ومما يظهر من النصوص أن الشريعة حريصة كل الحرص على أن تبقى فواصل واضحة في السلوك الإنساني، وفي الأدب الاجتماعي، وفيما تتميز به القوميات الأخرى من أهل الكفر، أو أهل الأديان الأخرى، وفيما يتميز به المسلمون من شعارات وتقاليده وعادات، هذا اللباس، لأنه لباسٌ لأعداء الله وإن حل، إلا أنه تكون به غضاضة لا يليق بالمسلم أن يرتكبها، بما فيه من إلغاء الفواصل، كذلك هي المطاعم والمسالك.

رواية السكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام : قال: «أوحى الله إلى نبي من الأنبياء أن قل لقومك: لا تلبسوا لباس أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تشاكلوا بما شاكل أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي».^(١)

المشكلة، المماثلة، المجارة، اللهث وراء الوارد المستورد من الغرب، المستورد السلوكي، المستورد الفكري.

هذا اللهات، هذا الربط، هذا الارتداء هذا الذوبان يرفضه الإسلام، لما فيه من خطورة وذوبان الفواصل الفكرية والنفسية، وحدوث الألفة الكاملة في المشاعر.

مرسلة الصدوق: قال أمير المؤمنين عليه السلام فيما علّم أصحابه: «لا تلبسوا السواد، فإنه لباس فرعون».^(٢)

١- ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ - الصفحة ١٤٠٨.

٢- من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق - ج ١ - الصفحة ٢٥١.

كأنه الرواية في الظهور في أن السواد ليس عليه شيء، ليس فيه شيء، إلا أنه لباس فرعون، وفيما يتراءى لي أو أظنه أن فرعون المعني ليس فرعون التاريخي، وإذا كان هو الظاهر، فإن المقصود الباطني به هو فرعون القادم بعد عهد أمير المؤمنين عليه السلام من مثل بني العباس، خلفاء بني العباس الذين جاءت فيهم الرواية أن لباسهم الأسود، وأن هذا اللباس مرفوض على مستوى الحرمة، أو على مستوى الكراهة، وذلك لأنه لباس بني العباس: «لا تلبسوا السَّواد، فإنه لباس فرعون»^(١)، ومثلها رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام نفس المضمون، قد جاء في رواية ليست مرسلّة.

رواية حذيفة بن منصور: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالحيرة، فأتاه رسول أبي العباس الخليفة يدعوه، فدعا بممطر أحد وجهيه أسود والآخر أبيض، فلبسه، وقال عليه السلام: أمّا إنّي ألبسه، وأنا أعلم أنّه لباس أهل النار»^{(٢)!!(٣)}

لا يلزم أن الذين في النار يلبسون لباسًا أسود، إنما هي فئة في الخارج، قوم في الخارج، يعيشون زمن الإمام عليه السلام هم أهل النار، واتخذوا من السواد شعارًا، فهذا اللباس لباس أهل النار، ولأن أهل النار الذين في الدنيا اتخذوه شعارًا، لذلك يرفضه الإمام عليه السلام لولا التقية.

أرايتم كيف المفاصلة؟

هذا في حدود مسلم ومسلم، ونحن لا نتكلم على هذا المستوى، نتكلم على مستوى الأمة الإسلامية، وأمم الكفر.^(٤)

دمج المسلمين

ينادي الغرب بسياسة الدمج للمسلمين في دياره، فما معنى هذا الدمج؟

١ - وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ٢٤ ص ١١٧.

٢ - توضيح كلام سماحة الشيخ: إن الحديث عن لبس السواد هنا مرتبط بحقيقة تاريخية معينة، وهي أيام حكم بني العباس، والنهي عن لبس السواد مرتبط بتلك الحقبة الزمنية التي كان يعتبر السواد فيها شعار الأعداء، ولكن ربما لبسه الإمام تقية كما أشار سماحة الشيخ. (معد الكتاب)

٣ - المصدر نفسه - الصفحة ٢٥٢.

٤ - خطبة الجمعة (١٨) بتاريخ ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ٣ أغسطس ٢٠٠١م.

لا ينادي بالتعايش السلمي الودي والتعاون على الخير بين المسلمين وغير المسلمين في تلك الديار.

إنما الشعار الذي يرفعه، ويصرُّ عليه، ويعمل من أجله، ويضايق المسلمين بفاعلياته هو دمج المسلمين في المجتمع الغربي دمجًا يلغي الهوية، ويقضي على الدين، ويحوّل الإنسان المسلم في سلوكياته ومعايشاته إلى إنسان غربي بكل أبعاده النفسية، وبكل أخطائه العملية.

الدمج يعني أن تتعرّى المرأة المسلمة هناك كما تتعرّى المرأة الغربية، وأن ترقص المرأة المسلمة والرجل المسلم كما يرقص الرجل الغربي والمرأة الغربية، أن يشرب المسلم والمسلمة الخمر، ويستبيحانه كما يستبيحه الآخرون، أن يمتلئ المسلم ضحكًا، وتمتلئ المسلمة ضحكًا، وتُسَرَّ لمشهد العري ومشهد الفسق ومشهد الفحشاء، هذا هو الدمج المطلوب، وهذا الدمج لا يفرضه الغرب على المسلمين في دياره فقط وإنما يسعى جادًا - وبمعونة حكومات تحكم البلاد الإسلامية - على تطبيقه في البلاد الإسلامية.

نحن في مجتمعاتنا يُراد لنا أن نندمج في الحضارة الغربية، أن نتنازل عن هويتنا، هم هناك يدمجون المسلمين في مجتمعاتهم بحيث يؤدي ذلك إلى إلغاء الإسلام، أما نحن هنا فليس لنا أن نطلب منهم التعايش السلمي، وليس لنا أن نطلب منهم التعايش الودي، بل علينا أن نندمج - أيضًا - في حضارتهم، وأن نمسخ؛ لنكون غربيين تمامًا في السقوط الغربي، والتسافل الغربي.^(١)

الغزو السلوكي أسرع نفوذًا من الغزو الفكري

إن أسوارنا مفتوحة، وقلاعنا مفتوحة، وأسواقنا مفتوحة، ويدخل الغريب والممجوج والضار المهلك، والساقط الرديء من العادات والتقاليد من دون رخصة، وبلا حواجز والمجتمع وحتى في أوساطه الملتزمة قد يتلقّى كل ذلك بسذاجة بينما قد يكون وراء هذا الأمر بصورة مستتربة جدًا اختراقات خطيرة وخطيرة لا يشعر بها الكثيرون.

١ - خطبة الجمعة رقم (٢٥٣) ١٢ شهر رمضان ١٤٢٧هـ، ٦ أكتوبر ٢٠٠٦م.

إنَّ هناك مَنْ يخطُّط وبمهارة ومكر خبيث؛ لتذويب أخلاق المجتمع، وتمييعه، وانفصاله عن قواعد السلوك الإسلامي، وأخلاقه، وآدابه.

وهذا الغزو السلوكي هو الأقل كلفة، والأكثر شيوعاً، والأسرع نفوذاً من الغزو الفكري، وهو الباب المفتوح، والطريق المؤدي إليه.

فإذا سقط المجتمع الإسلامي أخلاقياً لم يعد قابلاً لهضم الفكر الإسلامي، وتقبله، والصبر عليه، مع ارتفاع قامته.

وهنا يبدأ الانفصال عن هذا الفكر؛ لاستئصال النفس لمقتضياته وتكاليفه، ويبدأ تبرير النفس حتى لا تعيش العذاب الداخلي والمفارقة المؤلمة لهذا الانفصال بمناقشة الفكر نفسه، والتشكيك فيه، ثمَّ مواجهته.

الفكر الإسلامي له مقتضيات تتحملها النفوس السويّة، أما النفوس التي فقدت وزنها، فإنها ليس لها كاهل يحمل التكاليف الإسلامية.

والكلمة الأخيرة: أنْ - يا أيُّها المؤمنون - أوقفوا الهرولة وراء كل مستورد خارجي، ومنتج محلي من الفكر والسلوك قبل التَّمحيص والدراسة الممعنة.^(١)

التَّغريب السلوكي هو الأوسع خطورة

أريد أن أؤكد أن المجتمع طبقات، وشرائح مختلفة؛ شريحة تُغزى من خلال الفكر، وشريحة تُغزى من خلال السلوك، وشريحة تنهزم أمام التهديد، وشريحة تنهزم أمام الترغيب، وأن انقلاباً هائلاً يمكن أن يحدث في الأمة، وغربة شاسعة عن خط دينها يمكن أن يبدأ حدوثها من خلال مفارقة جزئية في هذا السلوك، أو ذلك السلوك لما عليه خط الإسلام ومقرراته.

وإنَّ كثيراً من النَّاس الذين يبدأ انحرافهم عن الإسلام من الناحية السلوكية ليجدون أنفسهم على مسافات شاسعة من بعد حين؛ ليبدأ تنكُّرهم للإسلام في فكره

١ - خطبة الجمعة (٣٩٩) ٢ ربيع الآخر ١٤٣١هـ، ١٩ مارس ٢٠١٠م.

وعقيدته وأصوله، فما إن يفارق السلوك خطَّ الإسلام، ويتغرب عن خط الإسلام إلا ويبدأ الفكر في التنكر بما يقوم عليه هذا السلوك من أصل فكري وعقائدي.

وإنِّي لأرى بأن الغرب يطمح في غزو العالم الإسلامي، وتغريبه من خلال السلوك أكثر ما يطمح في ذلك من خلال الفكر، فإذا كانت مصيدة الانحراف الفكري يقع فيها عدد من الناس، فإن مصيدة الانحراف السلوكي أوسع في عملية الاصطياد.^(١)

التَّغريب اللُّغوي

الأُمَّة التي تتغرب لغوياً، تتغرب ثقافياً، لأن التغرب اللغوي يباعِد عن ثقافة الأُمَّة المحفوظة في وعاء لغتها، ويقارب من ثقافة الأمم الأخرى من خلال الأُنس والاستخدام للغاتها.

واللغة العربية - وكلّما وهن أمر الأُمَّة - تتعرض ومنذ أمدٍ لعملية تغريب مقصود وتلقائي.

ويصبُّ في جسم هذه اللغة يومياً الكثير من المفردات من لغات شتى على المستوى الرسمي والشعبي معاً.

والسَبَقُ في هذه العملية كَمّاً وكيفياً للغة الإنجليزية كما تعلمون.

وتتعدى المسألة حدود المفردة الأجنبية إلى نمط التركيب اللغوي الغازي الذي قد يحل محل التراكم العربية الأصيلة.

وباستمرار العملية سيجد الكثير من أبناء لغة القرآن صعوبة في فهم النص القرآني، ونصوص السنة، والأدب العربي، والميراث الثقافي الذي تسجله كتابات هذه الأُمَّة العريقة.

ومسؤولية الشريحة المثقفة بإزاء هذا الواقع أن تحاول جادّة أن يكون إنتاجها المكتوب والمنطوق مستغنياً باللغة العربية، ملتصقاً بها وبأساليبها التعبيرية ومفرداتها

١ - خطبة الجمعة (٢٣٧) ٨ ربيع الأول ١٤٢٧ هـ، ٧ أبريل ٢٠٠٦ م.

ما استطيع، وأن لا تستهوي هذه الفئة رغبة التبعية للأقوى مادياً وتقليده في اللغة، وفي كل شيء.

ويجب أن نعرف جميعاً بأن الأمة التي تُستهدف حضارتها، تستهدف لغتها؛ ومسح اللغة وسيلة فاعلة لمسح الحضارة.

والمسلمون جميعاً يتحملون مسؤولية كبيرة في الحفاظ على لغة القرآن والسنة، لغة الوحي والقيم والأصالة، وفي إنقاذ اللغة العربية من كونها لغة في معرض الضياع.^(١)

التغريب الفكري

١- ثقافة التشكيك

ومصدرها عقول فلسفية قلقة خسر أصحابها بسبب أوساط خارجية معينة، وصدمات نفسية خاصة، ولون من المطالعات فوق المستوى مبكرة طُمأنينة الفطرة، ووشوق الوجدان، ووضوح ركائز العقل البديهي النظري والعملي معاً؛ مما جعل قاعدة التلقي العلمي المطمئن، وأرضية الإيمان مهتزة دائماً في داخل هذه النفوس.

وينضم إلى هذه الفئة من الفلاسفة مغرضون تستخدمهم سياسة محلية في أي مكان، أو عالمية في وقت الحاجة؛ لمواجهة الحقيقة بالتشكيك، ولإسقاط الفكر العقيدي الذي يهدد المصالح السياسية في أي ساحة من الساحات.

ويقع أصحاب القراءات المكثفة المبكرة لهؤلاء المشككين في دائرة التشكيك نفسها، ويكون صلب ثقافتهم أفكاراً تشكيكية خالية من الرؤية الكونية الأساس، والتأصيل الفكري لما يطرحون.

٢- ثقافة التخدير

ومصدرها الرئيس الساسة الانتهازيون، والماديون النفعيون، وإذا كانت الثقافة

١- خطبة الجمعة رقم ٨ (٨٩) شوال ١٤٢٣هـ، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٢م.

من النوع الأول تثير أمّهات المسائل في الوجود والحياة؛ لتواجهها دائماً بالتشكيك لا غير، وتتعمد تخريب المنهج العلمي الذي قد ينطلق في الكثير من المسائل من الشك إلى اليقين، لكنه لا يفقد يقينيات ثابتة بمقتضى الوجدان الفطري تعينه على الوصول إلى معارفه الفوقية، والتي لولاها لأصيب فكر الإنسان بالدُّوار من غير أن يخطو خطوة واحدة على درب المعرفة، ومن دون أن يفرق بين خطأ وصواب، وحق وباطل، وضار ونافع.

إذا كانت تلك الثقافة - وهي ثقافة التشكيك - تثير المسائل الكبرى، وقضايا المبدأ والمصير والحياة والموت والإنسان؛ لتركّز قلق الشك، وتفسف أسس اليقين، فالثقافة التخديرية تهرب بالإنسان عن ذاته ومبدئه ومصيره ومسؤوليته وهدفه وقيمه؛ ليتحول آلة إنتاج واستهلاك بيد المستكبرين، وأداة تنفيذ طيعة لأغراض السياسة الغاشمة.

والسياسة العالمية الاستكبارية، والسياسة المحلية في كل بلدان العالم تقريباً تنشط على يدها الثقافتان من النوع الأول والثاني، في كل العالم، وفي البلاد الإسلامية بالخصوص في زمننا الراهن لأهمية هذه البلاد وتأهلها الحضاري لدر حر حضارة المادة، وتخليص العالم من شرورها.

والثقافة التشكيكية؛ من أجل استدراج أصحاب القابليات العقلية للانحياز إلى جبهة الكفر ومعاداة الأمة، والثقافة التخديرية؛ من أجل السيطرة على كل الفئات وبخاصة الفئات الجماهيرية العامة.

ثقاقتنا ثقافة الإيقاظ

وهي الثقافة الإسلامية؛ ثقافة القرآن والسُّنة، والتي جاءت؛ لتحرير الإنسان، وإطلاق عقله وقلبه وروحه في اتجاه الحق والحقيقة؛ ومن أجل أن يكتشف ذاته والآخرين، ويتعرف على قيمته وقيمة الآخرين، والأشياء من حوله، ويرى الكامل كاملاً، والناقص ناقصاً، ولا يختلط عنده ما هو بالذات وما هو بالغير، ولا يشتبه عنده خالق بمخلوق، ورازق بمرزوق، فلا يُخدع عن نفسه، ولا يغرَّرَ به، ويُتخذ مطية لذوي الأغراض الدنيئة.

هذه الثقافة؛ كلُّ شيءٍ فيها؛ لإثارة التفكير، التدبر، التّعقل؛ لتنبيه الفطرة، وحيوية

الضمير، ولأن تتفتح الروح، وينشط العقل، ويفقه القلب.

كل شيء فيها؛ من أجل العلم، والمعرفة، والبصيرة.

والآيات التي نجد فيها مشتقات لمادة من نوع (فَكَرَ، وَعَقَلَ، وَبَصَرَ)، قد تصل إلى المئات وهي تحفز على هذه المعاني، وتستثير في النفس أسبابها، وتدفع على طريقها، ومع ذلك سيل كبير من الأحاديث يضع الإنسان على هذا الخط.

ولنقرأ من قوله تعالى في هذا المجال ما يأتي: ﴿... فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

القصة التي تتخذ عند الثقافة الدنيوية مصيدة للشيطان، ولتستهوي نفوساً للباطل، وتخدر أعصاب الناس، وتهرب بهم من ساحة الحياة الجديدة إلى ساحة اللهو والعبث، هذه القصة في القرآن؛ من أجل التفكير، من أجل التدبر، من أجل أن تعي ذاتك، من أجل أن تكتشف ذاتك؛ من أجل أن تسجد لله وحده، ولأن ترفع أنفك، وترفع جبينك معتزاً بالله وَعَلَى أمام كل طاغوت.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِمَّنْ نَّفَعِيهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

إذا كان القرآن يطرح بعض القضايا التكوينية، وي طرح بعض العلاقات التكوينية بين شيء من الأسباب، وشيء من النتائج، فإنه يتيح للفكر أن يحاول الوصول إلى دقة هذه العلاقة وإلى واقع هذه العلاقة.

القرآن الكريم يتحدث لك عن نفسك، ويتحدث لك عن الكون، ويتحدث لك عن آيات القرآن، ويتحدث لك عن التاريخ، ويتحدث لك عن الواقع، ويتحدث لك عن الأنبياء، ويتحدث لك عن الطغاة، لا ليجمد فيك فكرك، إنما لينطلق بك على مسار

١- الأعراف: ١٧٦.

٢- البقرة: ٢١٩.

الفكر الصاعد المنفتح؛ لتتعرف على الحقيقة، ليأخذ بك إلى واقع الأمور؛ من أجل أن تبني حياتك دائماً على بصيرة.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. (١)

تحرك الآية الكريمة السماوات والأرض، وكل شيء فيهما.

تحرك الجماد على مسار الفكر الإنساني، على مسار التدبر.

تعطي تدبراً.

تعطي تفكيراً.

وتعطيك أن تغوص بفكرك في أغوار الكون.

أن تتوقف عند كل صغيرة وكبيرة من هذا الكون العريض؛ لتتحدث مع الأشياء، ولتتحدث لك الأشياء، فإن كل شيء في هذا الكون لله وَعَلَىٰ فيه آيات وآيات.

وانك تستطيع أن تتعرف على الحقيقة، وأن تنجو من خداع الإعلام، ومن تضليل الطغاة في الأرض حينما تقف بفكرك متأملاً متدبراً متفكراً أمام هذه الأشياء التي تراها في الظاهر جمادات وهي في تمور بالحركة، وهي تسبح من خلال الإبداع الإلهي لله وَعَلَىٰ، وتحمده.

إنها فيوضات إلهية.

إنها تقوم بالحكمة بالقدرة بالعلم باللطف، ومن ذلك تستطيع أن تتعرف على عمق، على صدق، على شمولية لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

والإنسان لا يستطيع أن يبني معرفة ولا علماً من فراغ، ولا يمكن أن يحصل له يقين أبداً إذا لم تكن له معرفة نوعية أساس، وقضايا يقينية نابعة من فطرته ووجدانه

كما هو حال هذا الإيمان الراسخ في كل نفس متنبهة من عدم إمكان اجتماع النقيضين وارتفاعهما، وحاجة الممكن إلى الواجب.

وكما تحمل النفس البشرية بفطرتها يقينيات تمثل منطلق المعرفة، كذلك تحمل روح الإنسان أشواقاً كمالية تضعه على طريق الله، وتدعوه إلى الانشداد إليه.

في روحك انجذاب للجمال، في روحك انعطاف على الجمال، في كيانك طلب فطري للكمال، وهذا الانجذاب للجمال لا يغذيه إلا السير على طريق الله.

ولما كانت النفس البشرية محمّلة بأسس الثقافة الإسلامية المتجهة إلى الحق والحقيقة كان من صالح هذه الثقافة لا أن تستغفل الإنسان، لا أن تقتل قابلياته، لا أن تهرب به من حالة التفكير، وحالة التدبر بما يطيقه من تفكير، ومن تدبر في كل المساحات التي يملك فيها أن يتفكر، ويتدبر؛ لينتج الجديد النافع، بل أن توقظ النفس دائماً، وتطلق منها قوى الإدراك الصحيح، ومشاعر الكمال، والرّفعة، والسُّمو.

وكل البشرية محتاجة إلى الثقافة الإسلامية؛ لتكتشف ذاتها وجمالها وقدرها وهدفها ودورها، وتصبر على درب النمو والكمال، وإلا فستبقى جاهلة عاجزة.

وتغييب الثقافة الإسلامية تغييب لإنسانية الإنسان، ولقيم الخير والعدل والجمال، ومصادرةً لرحلة هذا الكائن للكمال.^(١)

العلاقات وضوابط الانفتاح الحضاري

علاقة حضارة بأخرى، وأمةً بثنائية، ومجتمع إنساني بمجتمع إنساني مقابل لا تتمثل في صورة واحدة.

فهناك غزو حضاري يستهدف أن يفرض كل شئ على الآخر بلا تمييز، ويسلبه أسباب أصالته واستقلالته؛ من أجل الاستغلال، ولا بدّ لهذا النوع من العلاقة أن يقاوم بكل قوة وصمود وإصرار من جانب الفريسة، ومن كل الأحرار.

١- خطبة الجمعة (٨٥) ١٠ شهر رمضان المبارك ١٤٢٣هـ، ١٥ نوفمبر ٢٠٠٢م.

وهناك هيمنة حضارية فرضت على الآخر، وتعمل على إلغائه حضارة وثقافة ومصلحة، وهذه لا بد أن يُثار عليها إلى أن تتحطّم، ويتم الانعتاق.

وهناك انبهار حضاري بالآخر تعيشه شريحة سطحية من أمة، أو مجتمع لا تفرق بين ضار ونافع، ولا بين خطأ وصحيح، ولا بين حق وباطل، وهي حالة تحتاج إلى ترشيد وتوعية وتصويب، وقبض على اليد التي تريد إغراق السفينة، وهدم سقف المنزل على رؤوس ساكنيه.

وهناك تغرير حضاري يزين حضارة هي في طريقها إلى السقوط؛ وقاية لها من اكتساح حضارة الآخر الناهضة الصالحة، ولا بد لهذا التغرير أن يُعرّى، وتكتشف خلفيته الأنانية المتخلفة.

وهناك تأمر حضاري لا بد أن يفصح ويضرب.

وهناك انسحاق وذوبان حضاري لا يختاره إلا مَنْ فقد أصول الحضارة الصحيحة، ومقومات الوجود الإنساني القوي.

وهناك تفاعل حضاري، كل طرف فيه يدرس ما عند الآخر، وقيّمه، ويختار مريداً بإرادة حرّة مستقلة واعية ما توافق عليه مباني حضارته، ومبادئها، ومقرراتها التي ثبتت صحتها عنده سلفاً بعد الدراسة، والتّمحيص، والمقارنة.

هذا النوع من العلاقة الحضارية هو ما يصح أن يكون مورداً للانفتاح، ولو من جانب واحد في نظرنا^(١)، وهو ما يمكن أن يوافق شرف الحضارة الإسلامية العملاقة ومنزلتها الرفيعة ورياديتها.

وهذا الانفتاح؛ إنما هو لاستقبال الجيد من الفكر، والنّاتج العلمي، والتّجارب الإنسانية الغنيّة، والخبرة الميدانية ممّا عند الآخر، ممّا يتوافق ومبادئ الدّين ومقرّرات الشريعة، وتحتاجه مسيرة الحياة، وينفع في تعزيز مصالحها.

١- حتى لو لم ينفّث الآخر على حضارتنا بهذا المعنى من الانفتاح، فإننا مستعدون أن ننفّث على حضارته من هذا المنطلق.

وإذا كان الأمر كذلك احتاجت عملية الانفتاح إلى دراسة وتشخيص دقيق من أكثر من فريق من المختصين، وفي مقدمتهم فقهاء الأمة، وعلماء الشريعة الأكفاء المؤمنون.

إشكالية

لكن أليس هذا الكلام عن التحكم في عملية التفاعل، ومدى الانفتاح على الآخر كلاماً خارج العصر؟

وبعيداً عن رؤيته، وفهمه، ومعاناته؟

فهل بقي لأحد أمام الفاعلية الكبيرة لوسائل التوصيل، واقتحام القنوات الفضائية كل بيت أن يختار ما يستقبل من الآخر، وما لا يُستقبل، وأن يتأثر أو لا يتأثر؟ هذه إشكالية تُطرح في هذا المجال.

الجواب

١- لا زال بيد الأفراد بعض مفاتيح عملية الاستقبال لما يريد أن يوصله الآخر، ويعتمد استعمال هذه المفاتيح على إرادة المستقبل.

فليست هناك يد سحرية لحد الآن تمد يدك إلى القناة الفضائية المعينة التي تحمل الغث، وتحمل الضار من الفكر والثقافة والسلوك؛ لتجبرك على فتح هذه القناة.

هذا مثال، وهناك أمثلة، والمكان ليس محل التفصيل.

٢- فرق بين سياسة رسمية تروّج للآخر باسم الانفتاح^(١)، وسياسة أخرى تتعقب فكر الآخر وإعلامه بالنقد والمحاسبة، وتقدم البديل عن سيئته.

٣- إذا بنينا على الانفتاح المطلق على الآخر، والانفعال الاستسلامي بحضارته

١- مرة تبني على الانفتاح المطلق، فإذا بنينا على الانفتاح المطلق كانت لنا سياستنا كأمة وكدولة وكشعوب، ومرة تبني على الانفتاح المدروس وعلى الانفتاح الذي يميز بين ما هو حق وبين ما هو باطل، وخير وشر، على الانفتاح الذي يختار لهذه الأمة ما يناسب خطها الحضاري الذي لا يوازيه خط حضاري رقياً، وأصالة، وإثماراً.

بلا قيد استتبع ذلك أن نربي الأجيال على إكبار الآخر^(١)، والاستجابة الطوعية لفكره، وإعلانه، ومواقفه بلا تحفظ، ولا حدود.

وإذا قدرنا أن الصحيح التمييز بين انفتاح وانفتاح، ومادة فكرية وأخرى، وهذا النوع من البرامج وذلك، كان علينا أن نُعبئ مجتمعاتنا بروح المقاومة لما يقتحم عليهم معاقلمهم من فكر وبرامج مرفوضة.

والله وَكَفَى أعطى للشيطان أن يُسمع صوته للإنسان^(٢)، لكن فرض عليه - أي على الإنسان - أن يقاوم وسوسته وتزيينه بعد أن أعطاه القدرة على المقاومة.

صحيح أعطيت الحضارة الغربية السيئة أن تُسمعنا صوته، ولكن أعطينا أيضا القدرة على مقاومة سيئ هذه الحضارة، والمقاومة لما يهجم به الشيطان على قلب الإنسان تمثل لونا من غلق الباب، وعدم الانفتاح عليه.

والحملة القوية التي يشنها إعلام الكتاب الكريم، والسنة المطهرة ضد الشيطان تمثل مقاومة من الإسلام للآخر القذر وإن أسمع صوته للإنسان، الآخر القذر وهو الشيطان قاومه الإسلام في كتابه وسنته؛ وهي مقاومة على خلاف سياسة الانفتاح على الشر وإن تعمّق، وعلى خلاف سياسة الاستسلام للشر إذا استطار، فلا انفتاح على الشر مطلقاً، ولا استسلام له، وعلينا أن نوسع دائماً تحريضنا ضد الشر، وندعو لمعاندته رغم ما يمتلك من آليات متطورة.

وإذا صحّ الفكر، وترسّخ الوعي، وتركزت الرؤية، ورُبّيت إرادة الخير في النفس استطاع الإنسان أن ينتصر في معاركه مع الهوى والشيطان وجنده من الصغار والكبار،

١- إذا رأينا في الآخر الوجود الكبير، إذا رأينا في حضارته الحضارة الإنسانية اللائقة، إذا رأينا الخير عنده، فعلينا أن نسلك سياسة في تربية أجيالنا، وإذا رأينا في حضارته خيراً وشرّاً، ورأينا فيها حقاً وباطلاً كانت لنا سياسة أخرى تحاسب الآخر، وتتعبق فكره، تنتقده، توافق على شيء، ترفض شيئاً آخر.

٢- الحضارات المادية السيئة أعطيت أن تُسمع صوته قبل ذلك، الشيطان رغم هذه الحضارات السيئة قد أعطاه الله وَكَفَى أن يسمع صوته لنا، لكن هل إعطاء الشيطان القدرة على أن يسمعنا صوته يلغي دورنا؟

ويلغي مسؤوليتنا، ويجعلنا مجبورين أمام الشيطان؟

الأمر ليس كذلك يا إخوان.

والأمة التي توجد فيها التربية الخيرة المقاومة يمكن أن توفر في الكثير من أبنائها كل تلك المقومات.

أريد أن أقول: بأن تقدم وسائل التوصيل بصورته الواسعة لم يسقط قدرة المقاومة للشعر، ولم يترتب على ذلك براءة الذمة من التكليف بالمواجهة والتدخل في تربية أبناء الأمة وبناتها، ولم يقض بالتسليم بالهزيمة، والانهازم الفعلي أمام مخططات الأعداء.^(١)

هنا مفارقة!

تطالب المجتمعات الغربية وحكوماتها ملايين المسلمين من مواطنيها بالاندماج والذوبان في حضارة الغرب، وقيمها، وثقافتها، وأنماط سلوكها، والتنازل عن الهوية الإسلامية حتى في المأكل والملبس.

أمّا في البلدان الإسلامية، فالمسلمون يطالبون من حكوماتهم، والجماعات الموالية حضارياً للغرب بالذوبان في ثقافة الأجنبي، وتشريعاته!

أي مفارقة هذه؟

كل ما نريد أن يطالب الآخرون باحترام حضارتنا، ولا نقول بالذوبان فيها.

نحن لانطالب أن نكره الحكومات الآخرين، ولا يستبج المسلمون المؤمنون لأنفسهم أن يرتكبوا طريقة الإكراه لهم في البلاد الإسلامية على الذوبان في حضارتها، ولكن كل ما نطلبه هو احترام هذه الحضارة، أما أصحاب الحضارة الغربية، فيطلبون من مواطنيهم المسلمين أن يتنازلوا عن الهوية الإسلامية!^(٢)

موقفنا تجاه الغزو الحضاري

صحيح علينا أن نتعامل مع العالم.

أن نتعاطى مع العالم.

١- خطبة الجمعة (١٣٢) ١٠ شوال ١٤٢٤هـ، ٥ ديسمبر ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (٢١٩) ٨ شوال ١٤٢٦هـ، ١١ نوفمبر ٢٠٠٥م.

أن نتفاعل مع العالم.

أن نأخذ، ونعطي.

أن لا نتوقع.

ألا نمنع خيرنا عن العالم نطلب من العالم خيره، لكن في نفس الوقت ليس علينا أن نستقيم أمام خطط العالم العدو، العالم الكافر، الذي يتربص الدوائر بهذه الأمة ليل نهار أنا لا أكلّم الحكومات هنا، ولا أتحدث معها للسياسة، أتحدث مع جمهور المؤمنين والمسلمين: كيف يفتح جمهور المسلمين والمؤمنين على أعلام الغرب المفتوح على مصراعيه على ثقافته الدينية الفاجرة الماجنة على قنواته التي تبث خلقاً وضيعاً سفيهاً؟ كيف تسلم تربية صبيك، وتربية صبيتك، وتربية زوجك في الثامن عشر من العمر؟ كيف تسلم تربية شابك، وشابتك إلى قنوات الفساد والاهتراء والسقوط؟^(١)

نحن محتاجون إلى أن نكون على درجة كافية من الحساسية العقلانية من كل المشاريع والدعوات والشعارات التي تدخل في تشكيل خطاب القوى الأجنبية المجاهرة بعدائها للإسلام والمآكرة به والذي لا يفتأ عن استهداف نخب الأمة وشبابها وناشتتها؛ لإحداث الانفصال بينهم وبين الإسلام في كل الأبعاد والساحات.

ومن أجل هذه الحساسية الضرورية لا بدّ من تنقيف وتبصير وإنذار وتحذير وتسليط للضوء، ومحاولات السبر والكشف والاستطاق، وإفادات النظر إلى الحراسة واليقظة والانتباه.

ويجري هذا كله بعيداً كل البعد عن الفتاوى الإرهابية، والتحريض على إحداث الإرباكات الأمنية، وإشاعة لغة العنف في المجتمعات المحلية والمجتمع العالمي.

فمدرستنا مدرسة لا تستبيح التأسيس لهذه اللغة، ولا تأخذ بها مختارة مطلقاً ما لم تشن حرب جهنمية ظالمة على بلداننا ومدننا تحتّم علينا الدفاع عن العرض، والنفس، والأهل، والولد.

ومدرستنا داعية للسلام والأمن والاستقرار والحوار، وتواجه الفكر بالفكر، والكلمة بالكلمة، والخطاب بالخطاب، والهجمة الثقافية بهجمة من نوعها، ولا تستسيغ العدوان، وليست انفعالية، ولا تظلم حتى في الرد، ولا تزيد عنها بما يخرجها عن الحق إلى الباطل، وعن روح السلام إلى العدوان.

وبرغم أن العداء الحضاري لأمتنا أمر لا يخفيه عدد من ساسة أمريكا وغيرها، فإن الشعار المختار لنا ليس الصدام الحضاري وإنما الحوار الحضاري، فنحن نعرف أن هذه أصوات نشاز لا تمثل ذوق الشعوب وهمها ومصحتها، ولا يهمها أن تحرق الأرض كلها وتبقى هي قوية متنفذة مهيمنة.

إلا أن روح الحوار لا تمنع من الدفاع الثقافي وتجلية الحقيقة، ومن تحذير الأمة وإنذارها، واستيقاظ حساسيتها الرسالية إلى الحد المعقول.^(١)

وحياتنا اليوم تشهد تسللاً خفياً، وهجوماً صارخاً من أعراف حضارية شتى في حالة غزو هائل للساحة الإسلامية الشاملة المهددة بالذوبان.

وفي ذوبانها أمام الأعراف الجاهلية التي تكتسح بلاد المسلمين كلها انفصالها عن الإسلام، ونهايتها الحضارية المخزية.

وهذا لا يستوجب المقاطعة الحضارية الشاملة، على أنها غير ممكنة عملاً، وإنما يتطلب عناية تربوية فائقة، وإعلاماً رشيداً هادفاً، وتركيزاً للقيم الحضارية السليمة، وانتقاءً للنظير مما أمكن مما نستورد من أعراف.

وحرية الانتقاء هامشها ضيق جداً بحكم الظروف العالمية القائمة، وتحول الأرض من الناحية الإعلامية إلى قرية صغيرة بل إلى غرفة ضيقة يرى فيها المشهد الخفي، وتسمع الكلمة الخافتة.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٠٥) ١٧ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٤ يونيو ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (٩٢) ٢٩ شوال ١٤٢٣هـ، ٣ يناير ٢٠٠٣م.

مسؤولية الأمة

مسؤولية عظمتي تفرض علينا العودة الجادة الشاملة القوية لهدي رسول الله ﷺ، والإسلام الذي أوحاه الله إليه بلا تسويف، ولا تراجع، ولا تردد، ولا فتور. وأن نَصْرَ على رفض أيّ بديل حضاري عن الإسلام، وأيّ تغرّب، أو هجرة كليّة، أو جزئية عن دين الله، ورسالته الخاتمة.

مسؤولية الحكّام

وأنتم يا حكام الشعوب الإسلامية ممّن تنطقون بالشهادتين، وتعلنها إذا عاتكم وقتواتكم التلفازية، ووسائل إعلامكم، وتبنون المساجد، وتبثون برامج دينية، ألا قسمتم سياستكم وممارساتكم إلى ما يراه رسول الله ﷺ، وما لا يراه، إلى ما يرضاه وما لا يرضاه، إلى ما توافق عليه شريعته وما تأباه، إلى ما يسره وما يؤذيه؟

ألا استفتيتموه عن الاستبدال عن أحكام دينه بأحكام ملتقطة تستوردونها من وضع الإنسان، وعن أخلاقه بأخلاق جاهلية؟

عن الكيد بالشعوب الإسلامية ووحدة الأمة، وتماسكها، وأخوتها تعاوناً مع أعدى أعدائها من مثل الصهاينة؟

وعن بيع أرض الأمة وثروتها على أعدائها تثبيتاً لكراسي الحكم، والاطمئنان عليها؟

عن حفلات الرقص، والخمر، والفحشاء ممّا تضجّ به الفنادق التي تشيدونها لنفساد الأمة وسرقة ثرواتها، وإرضاء من يريد لهذه الأمة أن تُخدع عن دينها؟

وعن الطاغوتية التي تُمارسونها على الأمة؛ حتى لا تبقوا لها صوتاً ولا رأياً، ولا إرادة

في شأن من شؤونها؟

وعن سفك الدّم الحرام، والإسراف في القتل، والتعذيب، وملء السجون والأقبية

المظلمة من أحرار وحرائر هذه الأمة؟

وعن التعدي على أعراض المسلمين بألوان من التعديات القذرة المحرمة في السجون وخارجها، ومما يتم تحت علمكم وأنتم تشهدون؟^(١)

قوا أنفسكم وأهليكم

فهذا نداء للذين آمنوا من رب العباد الغني عمَّن خلق وما خلق في كتابه المجيد، يحذّرهم، وينذرهم رحمة بهم ولطفًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.^(٢)

وقايتان

نعرف أن من الوقاية التربوية والمراقبة للنفس، للولد، للزوج، للأهل للأقارب، ولكن من الوقاية أيضًا الوقاية الاجتماعية العامة، وإهمالها يفرق المجتمع كله في المأساة، ويضع المجتمع كله على طريق النهاية المأساوية المخزية.

الوقاية الكبرى الاجتماعية، إحباط محاولات الاستغلال والاستغلال، وحماية الأجواء الاجتماعية من التسمم، والوقوف أمام مؤامرات التغريب، ومحاولات إفساد المجتمع الإسلامي بكامله.

فتسميم الأجواء عملية اغتيال هادئة للعقيدة، والقيم، وكلّ المقدسات.

ومسالك التسميم كثيرة، وحين تضع عينك على ظاهرة من ظواهر التسميم خاصة في بدايتها لا تكتثرت بها، ولا تلفت من الإنسان النظر إلا أن يكون صاحب نظر دقيق، لكن هذه الظواهر تتجمع وتتراكم؛ ليجد المجتمع نفسه قد خسر هويته، وقد خسر انتماءه، ووجد نفسه أنه قد ارتقى في أحضان حضارة أخرى معادية.

١- خطبة الجمعة (٤٩٠) ١٧ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، ١٠ فبراير ٢٠١٢م.

٢- التحريم: ٦.

الحرب المستمرة

أيُّها الإخوة، إنَّ أمريكا وكل الكفر العالمي لا يحارب على جبهة واحدة فقط وإذا كانت حروبه القتالية ومن خلال الطائرات والصواريخ والمدافع والقذائف حرباً مؤقتة قد تأتي بعدها بزمان طويل أو قصير حرب أخرى؛ لتدمّر، وتبعثر وجود الأمة إلى وقت، فإن هناك حرباً مستمرة لا تقتصر لحظة واحدة من ليل أو نهار.

هذه الحرب أخطر في نتائجها، وهي أقل إلحاحاً لنظر الأمة، وتبنيها لحساسيتها، فتفعل في الأمة ما لا تفعله الحروب القتالية، وأن أبناء الأمة ليفرحون، ويصفقون وهم يتساقطون صرعى على الطريق في هذه المعركة، معركة الإعلام، معركة التغريب الثقافي، معركة التضليل، معركة استبدال الثقافة الإسلامية إلى ثقافة الإنسان القرد الذي رضي لنفسه أنه ابن القرد!!

الحرب مشتعلة على كل الجبهات بالأصالة، وعن طريق العملاء والوكلاء الرسميين والشعبيين في كل مكان، في كل شبر من بلاد الإسلام، ولا أعني كل الرسميين، ولا أعني كل الشعبين لكن العدد هائل من هؤلاء وهؤلاء الذين تشتريهم أمريكا بثمن بخس.

بدأ تدفق أبطال التشكيك في أساسيات الدين، وثوابت العقيدة من صنائع الفكر الغربي الذي يعد جيوشاً لهذه المهمة الأساس عنده، أكثر مما يعد جيوش المعارك القتالية الغازية، وعنده اهتمام بالإنفاق على هذه الجيوش، وبرعايتها منذ نعومة الأظفار والتقاطها من كل البلاد الإسلامية رعاية تفوق ربما فاقت اهتمامه بجيوشه القتالية، لأن جيوش الفكر والروح أفثك من جيوش الأجساد، حين تصفي في الأمة فكرها وروحها وشعورها بعزتها وكرامتها، بلغت من مأربك الاستعماري الاستغلالي الاستنزافي لا تستطيع أن تبلغه حروبك القتالية المكثفة بما تنفقه عليها من ملايين وبلايين.^(١)

الفصل العاشر

الإسلام والغرب

الباب الأول

العلاقة بين الغرب والإسلام

الغرب بين العدوانية والحوار

الغرب على مستوى حكوماته، والمشتغلين بالسياسة أو الدين من أبنائه، وكذا منظريه - إلا القليل منهم لا يستهدف، ولا يؤمن بالحوار الحضاري مع العالم العربي والإسلامي - إنما يستهدف التغيير الحضاري لأمتنا، وأن يصنعها جديداً من حيث الحضارة على نمط ما يعيشه من أوضاع تحكمها النظرة المادية أو المسيحية.

ينضم إلى هذا أن أكثر الحكومات في العالم العربي والإسلامي لا تملك علاقة طيبة مع شعوبها من جهتين:

الأولى: كونها كيانات مفروضة على الشعوب بالقوة في الأكثر.

والثانية: جورها على الشعوب في الحكم من أبعاد مختلفة، وضغطها المتزايد على هذه الشعوب أمنياً مدفوعةً إلى ذلك بسوء ظنّها الناتج من سياستها العدائية للشعوب. ولهذا الواقع بشقيّه، ولسيطرة الغرب وقوّته الباطشة، وتمكين الأنظمة له في مصائرها ومصائر الشعوب تجد نفسها مضطرة دائماً؛ لاسترضاء الغرب إبقاءً للكرسي، واستمرار السيطرة، والاستئثار بالثروة.

ويأتي هذا الاسترضاء على حساب لقمة الشعوب وضرورتها، ودين الأمة، وحضارتها، وهويتها، وعزّتها، وكرامتها.

ويمارس الغرب عملية الابتزاز للأمة على مستوى المادة والمعنى بصورة مباشرة، وكذلك بوكالة من الحكومات المحليّة المؤتمرة بأمره، المنتهية بنهيّه، المنفّذة لأهدافه ولو تحت الإكراه لأخذ ذلك شرطاً لبقائها، والسكوت والتمرير لجميع انتهاكاتها.

الاستهداف الغربي للأمة الإسلامية

١- استهداف العقيدة

وكلُّ من عقيدة المسلمين وشريعتهم داخل في الاستهداف الغربي لهذه الأمة.

فعلى مستوى العقيدة:

أ- يمارس الغرب بصورة مباشرة حملات التشويه والاستهجان والتسفيه لوحدة من مركّب العقيدة الإسلامية، ورموز من رموز الإسلام كالحملات الشرسة ضدّ القرآن والسنة، والرّسول الخاتم صلّى الله عليه وآله .

ب- يمارس ضغطاً هائلاً على الحكومات في العالم العربي والإسلامي لفتح الأبواب، وأبواب الحرية والواسعة قانونياً وعرفياً للكلمة الإلحادية، والمهاجمة لعقيدة الإسلام عموماً، مع تقديم الحماية الإعلامية والسياسية وغيرها لأصحاب الأقلام المعادية للإسلام داخل البلاد الإسلامية، والدفاع عنها باسم حرية الكلمة.

٢- استهداف الشريعة

وعلى مستوى الشريعة يأتي مع مضمون ألف وباء مما سبق:

ج- فرض مناهج دراسية مشبّعة بمخالفات شرعية وأحكام ومفاهيم ومصطلحات معادية.

د- فرض سنّ قوانين متكررة للشريعة خارجة عليها حتى وصل الأمر إلى دائرة أحكام الأسرة والميراث والوصايا، مما تسعى الحكومات المحلية جاهدة لفصله عن الإسلام، والتسريع مهما أمكن بتغريبه.

هـ- ربط بعض المكاسب السياسيّة، أو الاقتصاديّة الحقيقيّة، أو الوهميّة للأنظمة ولو كانت على حساب الشعوب بالتوقيع على اتفاقات دولية تكرس تبعية هذه الأنظمة ومن ورائها شعوب الأمة لإملاءات الفكر العلماني الغربي والمصالح الغربية، وتُحلّ التشريعات العلمانية الأرضية محلّ التشريعات الإلهية المقدّسة.

نموذج واقعي من الاستهداف

ويأتي في هذا السياق توقيع البحرين على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة؛ من أجل اكتساب العضوية في مجلس حقوق الإنسان الذي يُعطي الحكومة سمعة حقوقية متقدمة، وشهادة بأننا من أروع النماذج في رعاية حقوق الإنسان في الأرض!

واتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة - كما يسمونها؛ ليعطوها صبغة إنسانية عادلة من باب الإعلام الكاذب - هي من وَضَعَ مَنْ يعتبرون نظام الإرث في الإسلام، وحقّ الطلاق، والقوامة، وإذن الولي في الزواج، وحجاب المرأة وحتى ستر مثل ساقها وفخديها وصدرها، وتعدد الزوجات عند الرجل، ومنع بعض صور الاختلاط، والسن الشرعي للزواج كلّ من التمييز ضد المرأة.

واستجابة للشرط المذكور من ناحية عملية تكثر تحركات حكومة البحرين، والمؤسسات التابعة لها والمحسوبة عليها، ومعها كل الذين لا يحملون همّ الدين ولا يمثل عندهم وزنًا، ومَنْ يقيمون حياتهم العملية على خلاف أحكامه؛ من أجل استصدار قانون الأحوال الشخصية؛ ليضع الأحكام الشرعية في هذا المجال على طريق العلمنة الكاملة ضاربًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عرض الحائط.

ومن أجل هذا الغرض نفسه بدأت خطوات عملية تطبيقية كما في مثال التغييرات المستمرة في ورقة عقد الزواج، ومثال مشروع قانون الوصية توصلاً للمطلوب من قانون الأحوال الشخصية ولو بصورة تدريجية بعيدًا عن الضجة الشعبية.

وهذا الشعب المسلم الغيور على إسلامه هو المؤتمن والمسؤول الأول عن الإسلام في هذا البلد، وحفظه، ومقاومة التآمر عليه.

وكل التزامات الحكومة المخالفة للإسلام لا تلزمه، ولا بدّ من مواجهة حملة تغريب القوانين حتى في الزاوية الصغيرة المتبقية من مساحة التشريع الواسعة وهي

مساحة أحكام الأسرة وما يتصل بها بحزم وقوة وإصرار، وإلا لكان الجميع مشتركاً في الجريمة.^(١)

وأخيراً: نجدنا أمام واقع صارخ من تعامل الغرب مع أممتنا يجعلنا على يقين بأن التيار الأعظم من سياسة الغرب، وزعمائه الدينيين ومنظريه العلمانيين إنما يقفون من هذه الأمة موقفاً عدائياً شرساً يقوم على روح الهيمنة المادية والحضارية معاً مغلقين أبواب الحوار الحضاري المقرون باحترام الآخر.^(٢)

المتغربون

لا يخلو مجتمع إسلامي اليوم من قلة محسوبة على المسلمين ترى بعين الغرب، وتُفكر بتفكيره، وتشتبه مشتهاه، وتريد للمسلمين ما يُريده، وتُحاول الأخذ بأوضاعهم الفكرية والنفسية والخلقية إلى ما يتمناه.

ولهذه الفئة منطلقاتها المختلفة في اتخاذ هذا الموقف والتحمُّس له.

وصوتها في المجتمعات الإسلامية صوتٌ نشاز، ولكن قد أخذ على نفسه أن يرتفع في مختلف الساحات الإسلامية برغم كل الظروف، وأن يعمل جاهداً على توسيع دائرته، وطلب دعمه ومناصرته.

ويمتلك أصحاب هذا الصوت النشاز المواقع الرسمية العالية، والثروات الطائلة، والأساليب الكثيرة الملتوية.

ومنهم من يُجاهر بهويته.

ومنهم من يتستر في حربه للإسلام باسم الإسلام، ويستخدم التلاعب بالنصوص الإسلامية، وتطويعها قهراً في خدمة الفهم الذي يُنهي الإسلام، وينقض بُنيته.

وهذه الشريحة مدعومة وبكل قوة في مواجهة الإسلام من الكثرة الكاثرة، والغالبية العظمى من الأنظمة الرسمية التي تحكم المسلمين.

١- هتاف جموع المصلين بـ (لبيك يا إسلام).

٢- خطبة الجمعة (٣٢٧) ٢٤ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، ٣٠ مايو ٢٠٠٨م.

وهناك دعمٌ مفتوح وعلى مختلف المستويات تتلقاه هذه الفئة عن السيد الغربي، والتنسيق بين الطرفين قائم على قدمٍ وساق، وارتباط المصالح بصورة مركزة يدفع لهذا التنسيق والتوافق بين الطرفين.

وهناك توافق أكبر بينهما كما أُشير إليه من قبل من التوافق في المصالح، وهو توافق رؤى ومشاعر وقناعات وأهداف على حساب الإسلام، والأمة الإسلامية. وذلك لأن العلاقة بينهما هي علاقة قويٍّ دوره الفعل، وضعيف ومايع دوره الانفعال. وهذا الصّف حاضر بمكوناته المتعددة بكل قوة في المعارك التي تشنُّ في الساحات الإسلامية على مستوى العقيدة، والشريعة والخلق والسلوك ضدّ الإسلام.^(١)

المجوم الغربي على المقدّسات بذريعة حرية التعبير

الهجمة، حرية تعبير، أو حرية تهريج، وهراء، وهذيان؟

هي من الثاني، وليست من الأول.

وإذا كانت التصفية الجسدية لشخص لا تدخل في الحرية، فكيف بالتصفية المعنوية لأمة بكاملها، ولشخصيات ربانية على مستوى شخصيات الأنبياء، وخاتمهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)؟

وإذا كان باب التهريج مفتوحاً على مصراعيه، ويُمثّل قيمة عالية عند الغرب باسم حرية التعبير، فليعرفوا أنّ المقدسات الحقيقية لأمتنا لا تعادل قيمتها عندنا قيمة، ولا يمكن التنازل عنها.

مقدّسك الوهمي السخيف قائم، ومقدّسي الحقيقي الأصيل يسقط؟، لا يكون.

وأين حرية التعبير من أمور كثيرة؟

وما مسألة حكاية محرقة اليهود إلا واحد منها، وقد تنازلت عنده حرية التعبير في الغرب، وغلبت قدسيته قدسية حرية التعبير عندهم.

١- خطبة الجمعة (٤٠١) ١٦ ربيع الآخر ٢ أبريل ٢٠١٠م.

وإذا كانت الصهيونية العالمية يُسعدّها اشتعال حرب حضارية طاحنة بين الغرب والمسلمين، فإن على الغرب أن يحتسب من ذلك، لأن الخسارة ستكون شاملة وفادحة وكاسحة لو اشتعلت هذه الحرب، ولن تخص المسلمين وحدهم.

وإن ما ذهب إليه الكثيرون من لا بدّية حماية قانونية دولية تعمل عليها الدول الإسلامية لحماية الأديان السماوية من تطاول السّفَلَة، والمفسدين، وأصحاب الأقلام الرخيصة لهو أمرٌ حقٌّ، ويجب التركيز عليه، والدفع في اتجاهه.

وأنبّه أنه كما هوت المادية السقيمة بإنسان الغرب وأفقده أخلاقيته وأتزانه، فهان عليه أن ينال من أقدس المقدسات، فقد بدأ هذا السقوط في الساحة الإسلامية بالنسبة لبعض من يُسمّون أنفسهم مسلمين، ويسعون دائماً؛ للنيل من المقدّسات، ويتناولون على الأُمَّة.

وعلى الأُمَّة أن تحمي نفسها من مثل هذه العناصر السيئة البغيضة.

وما الذي يساعد ويجرّئ غير المسلمين كثيراً على الإسلام؟

متطرّف لا يحترم الآخرين، ويسل السيف في غير موضعه، ويطلق لسانه بالسب والشتم، ومتهاون لا يقيم للإسلام وزناً أمام الآخرين.

ويكثر هذا الصنف في مسؤولي الأُمَّة وحكّامها.^(١)

أمريكان يحرقون القرآن!

أقدمت القوّة الأمريكية في أفغانستان على حرق نُسخٍ من المصحف الشريف تعبيراً عن الاستخفاف به، والحقّد عليه، ومعاداته، ومجاربته.

وحرق نُسخ المصحف المبارك إجراء رمزيّ؛ لإرادة القضاء النهائي على فكر القرآن الكريم في الأرض، ومشاعره، وحضارته، وأمّته، وقيادته لحركة الحياة، ولأيّ كيان يتأسّس على أساسه، ويقوم في ضوئه، وينال مباركته.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٣١) ١٨ محرم ١٤٢٧ هـ ١٧ فبراير ٢٠٠٦ م.

٢- حرق الحرف رمز لحرق المعنى، لحرق الحكم والهيمنة القرآنية في الأرض.

إنها الحرب العدائية للإسلام، ولكل أثر من آثاره، ولكل مقدّس من مقدّساته، ولكل نور من هداياه.

وأثار العدوان حميّة المسلمين في أفغانستان وغيرتهم الإيمانية لما يعرفونه من قيمة القرآن وقديسيته التي تُفدّى بالنفوس، وسقطت أنفس؛ من أجل ذلك في سبيل الله على يد المعتدين.

هذا عدوان حضاري لأمتنا وحضارتنا ومقدساتنا يواكبه عدوان إسرائيلي مماثل ممنهج لا يكفّ عن مهاجمة المسجد الأقصى، وسلبه، وتخريبه، ومحاربة الصّلاة والمصلّين فيه.^(١)

وأين الحكومات في أغلب البلاد الإسلامية؟

إنها في غياب؛ من أجل تشتيت الأمة، إنهاكها، إذلال شعوبها وقهرها والتآمر على ثوراتها والدخول في تحالفات رئيسة طويلة المدى على حساب وحدتها وهويتها.^(٢)

من حقنا أن ندافع عن مقدّساتنا

من منطلق غرور الغرب واستهتاره واستخفافه بالقيم، وبالأحر، ومن منطلق تبعثر أمة الإسلام، ووهن الكثرة الكاثرة من حكومات شعوبها صارت تتكرر الإساءة إلى شخصية الرسول الأعظم ﷺ من بلهاء الغرب وسقطته وسفله، وفي كل أمة بلهاء وسقطلة وسفلة.

الإسلام لا يكره أحداً على الإيمان به، أو على إكبار شخصية الرسول ﷺ والذي هو الأول ممّن يستحق الإكبار.

ولا يؤمن بالعنف قاعدة في تعامل المسلمين مع الآخر، ولكن من حق الإسلام أن يدفع بالمسلمين في اتجاه الدفاع عنه وعنهم، وعمّا له من قيم ومقدّسات بغض النظر

١- هتاف جموع المصلين ب: (الموت لإسرائيل، الموت لأمريكا).

٢- خطبة الجمعة (٤٩٢) ١ ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، ٢٤ فبراير ٢٠١٢م.

عمّا يذهب إليه الآخر، قدّر مقدّراتنا أو لم يقدر، قدّس مقدّساتنا أو لم يقدّس.

أنا عندي مقدّسات.

أنا عندي قيم.

أنا مسؤول عن الدفاع، عن قيمتي ومقدّساتي، وافقت قوانين الغرب أو لم توافق قوانينه، سمحت قوانينه بالتهتك والاستهتار بقيمي أو لم تسمح، وبرغم ما تقوله قوانينه ومواضعاته.

وإذا كان الغرب يضع حدًّا للحرية؛ لحماية المال والبدن لأفراده وجماعاته، ولا يفتحها في هذا المجال بالصورة المطلقة، لأنه يقدر حياة البدن، ثم يطلق الحرية للتعدي على المقدّسات، فإن هذا المنطق لا يصح للأمة الإسلامية أن تسمح بتطبيقه على مقدّساتها وهي تقدّم حياة الروح على حياة البدن، فإذا أصرّ الغرب على استهتاره بمقدّسات الآخرين مسلمين وغير مسلمين من باب حرّيته التي لا تقيدّها عندهم القيم، فإنه بهذا يختار الدخول مع كل العالم الآخر مسلمين وغير مسلمين في مواجهة.

إنه من البلاهة والغباء ممّن أراد أن لا يُمسّ بأذى على الإطلاق أن يُدمي قلوب مليار ونصف المليار أو أزيد من المسلمين بالإساءة إلى الرسول الأعظم ﷺ، وأن يتكرر منه ذلك، والقانون الذي يُطالب أهله المسلمين ببرودة الأعصاب بإزاء مثل هذه الإساءات هو قانون غير قابل التطبيق على كلّ النّاس، وأهله إنما يمارسون غباء سيئاً جدّاً بهذه المطالبة.

أيّها الإخوة والأخوات، أيّها المسلمون في هذا الوطن العزيز كلّ قادر مدعو للمشاركة في المسيرة الاحتجاجية على عدوان الصحافة الدنماركية بالإساءة إلى الرسول ﷺ ودعمها من جانب النظام الرسمي هناك والتي تستهدف - أي المسيرة - مع ذلك تحميل الأنظمة الرسمية في أمّتنا بالموقف الذي يناسب حجم هذه الأمة، وحجم الإساءة الموجهة إليها وإلى رسولها العظيم ﷺ في قبال هذه الهجمات الشرسة الباغية المتكررة والذي يختلف في حجمه وأسلوبه عمّا تسمح به الأدوات التي تملكها الشعوب في

هذا المجال، ولا ويؤدّي إلى مواجهات حضارية تخطط لها الصهيونية العالمية وقوى الشر المعادية لإنسانية الإنسان ومصلحته.^(١)

الشُّعوب الغربيّة تبحث عن الخلاص

ليس عجباً أن مستيقظين في أمريكا والغرب عمومًا يبحثون عن الخلاص من حضارة الغاب التي عاشوها، واكتسبوا بنارها فوجدوها محرقة قيم وإنسانية وأمن واستقرار نفسي وروحي وسعادة، وأن عملاء فكريين وسلوكيين مهّمن ينتحلون اسم الإسلام في أرض المسلمين يعملون بغير كلل؛ للتبشير بتلك الحضارة، وفصل الأمّة عن حضارة النور والهدى والفلاح!

وهؤلاء المتسمون باسم الإسلام حينما يتحدثون عن حضارة الغرب لا يريدون لهذه الأمّة أن تسابق الغرب علمًا ماديًا واكتشافًا واختراعًا؛ لتضيف القوة المادية إلى الهدى والإيمان، وتضعها بيد الدين والعقل والحكمة والعدل والإحسان؛ لتتنفع بهما الأرض كل الأرض، ويتقدم بهما الناس كل الناس.

وإنما يتحدثون لك عن إنسانية تلك الحضارة ورقي معناها، ونموذجيتها، وانفتاحها على قضايا الإنسان وكرامته وحريته، وهم يعلمون أنهم كاذبون.

ونحن إذ نلعن الحضارة الغربية، فإنما نلعن حضارة المادة العمياء الجافية القاسية الأنانية البهيمية، وجدت في غرب أو شرق، ولا نتحدث عن شعوب في الغرب، وأنها مفضولة لشعوب في الشرق.

فالأمم هي الأمم، والشعوب هي الشعوب، والكل من آدم وحواء، والكل من خلق الله سبحانه وتعالى، والأمم والشعوب تأتي في غالبها من صناعة حضارتها وقيم ومواصفات تلك الحضارة.

١ - خطبة الجمعة (٣١٣) ١٤ صفر ١٤٢٩هـ، ٢٢ فبراير ٢٠٠٨م.

وفي الغرب ضمائر حيّة تمردت على حضارتها، وفي الشرق الإسلامي ضمائر ميتة
انسلخت عن حضارتها.^(١)

أمريكا وشراء العقول المسلمة

أمريكا تبحث دائماً في بلاد المسلمين عن الأكثر فاعلية والأقدر على خدمتها؛
ليكون الحاكم، وليكون الكاتب والعالم والمفكر العربي والمفكر الإسلامي، والمتقف التقدير
والمنظر الشهير، والخيار العربي والخيار الإسلامي في أكثر البلدان تابع للخيار الأمريكي
مع الأسف الشديد.

وأمريكا وغيرها لا يشترون من العملاء إلا الأوفر حظاً من نعم الله وَجَلَّ، والمستعدّ
لأن يخون نفسه ويجحد تلك النعم كلها.

وهناك سفهاء جاهلون يبيعون نعم الله الكبيرة عندهم بثمن بخس يُعقّبهم السقوط
في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وأمريكا الآن مشغولة جداً بالتفتيش عن الحكام الأكثر قدرة على العمال، وعلى
الوفاء بشروط العمالة، وكلما تقادم عميل، وكلما كبر به السن، وعجز عن العطاء
المطلوب بالدرجة الفائقة كلما ألقى به في مزبلة الدنيا وهو ملقى عند الله قبل في مزبلة
التاريخ والمزبلة التي تبعد الإنسانية كل البعد.^(٢)

الجمعيات الشبابية والمال الأمريكي

للمال الأمريكي والخبرات الأمريكية والصناعة الأمريكية للإنسان حضور فاعل في
أوساط جمعيات شبابية ونسائية في الوطن العزيز.

هل هذا لدعم الولاء الحضاري الإسلامي؟

لدعم الولاء الوطني أو القومي؟

١- خطبة الجمعة (١٥٤) ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٥ هـ، ١٤ مايو ٢٠٠٤ م.

٢- خطبة الجمعة (٦٧) بتاريخ ١ جمادي الأولى ١٤٢٣ هـ، ١٢ يوليو ٢٠٠٢ م.

أو التَّوجُّه الديمقراطي الحقيقي الذي يخدم شعوب الأمة؟
 هذا المال، هذه الخبرات أليست على حد المال والخبرات التي دخلت العراق؛
 لِنُصِّرَ، وتُعَلِّمَ، وتُعَوَّلَمَ؟
 أليست هذه الأموال والخبرات لصناعة ولاء أمريكي أجنبي، وللتَّهويد، والتَّنصير؟
 ولمسح الهُوية؟
 واستبدال الإنسان إلى إنسان آخر؟
 سؤال لو سمحت السياسة: أمريكا دولة أجنبية أم لا؟
 فكيف يُسمح لأموالها أن تصوغ الأوضاع العقلية والنفسية والإرادية لشبابنا
 وشاباتنا؟
 وأن توجد التوجهات التي ترغبها في الأوساط الشبابية لهذا الوطن؟
 كيف يُسمح بصناعة هذا الولاء الأجنبي بكل المقاييس؟^(١)

بيع الذِّمِّم

نحن في عالم أخذت منه القيم المادية، وتقديس الشهوة مأخذًا كبيرًا، وبعد مسافات
 ومسافات كبيرة جدًّا عن قيم الدين والتقوى، وهذا له آثار، ومن آثاره بيع الذِّمِّم.
 حين يكون الزاد قيمًا مادية بدل القيم المعنوية، وينبتر حس الإنسان عن صلته
 بالله، وعن صلته بالآخرة يسقط في نفسه، وتهون عليه.
 إن الإنسان ليرخص في نفسه حين لا ينفث قلبه على الله، وحين يطغى عليه نسيان
 ربِّه، وهنا يبدأ بيع الذِّمِّم.
 والذِّمِّم تُباع ببيع الموقف والكلمة للباطل والكذب والظلم بالمال والجاه وأمثالهما.

١- خطبة الجمعة (١٩١) ٧ صفر ١٤٢٦هـ، ١٨ مارس ٢٠٠٥م.

أطباء، مهندسون، ممرضون، صيادلة، علماء دين، فلاسفة، خبراء من كل الاختصاصات، ومن كل الشرائح يكثر بيعهم للذمم حين لا يكون دين.

الإنسان في غياب الدين وقيمه وأحكامه مستعد أن يبيع كل شيء؛ من أجل المادة وملتقاتها.

أما الساسة من رؤساء ووزراء ومشتغلين بالسياسة على غير خط الدين، فهم أكثر الناس استعداداً للدخول في هذا البيع.

أول ما يبدأ بيع الذمم يكون الثمن غالباً، ولكن إذا كثر العرض وتجاوز حاجة الطلب، فإن القيمة ستقل، وليلتفت إلى ذلك باعة الذمم.

فإذا كثر علماء السوء الذين تشتريهم السياسة تقل أثمانهم بالضرورة، وكثير من الناس قد يكونون على درجة من التماسك في الدين واحترام الذات قبل أن يدخلوا هذا البيع، أو أي مهنة أخرى قذرة باسم الفن، أو التطوير، أو الحرية، أو الدين، وتعتمد عليها حياتهم المادية، أو تتوسع بها دنياهم.

أما بعد أن يدخلوا، فإنك تجدهم أعداء الداء للدين من الناحية العملية؛ لينتھوا إلى أعداء له حتى من الناحية النظرية، فيصيروا من المنظرين المتقدمين ضد الدين.

وصرت اليوم تجد الكثير من كل الفئات والتخصصات من باعة الذمم والموقف والكلمة، والعرض في هذا المجال آخذ في التزايد.^(١)

أسواق بيع الذمم

هناك جهات خاصة في هذا اليوم؛ لشراء الشعوب، لشراء الحكومات، لشراء الشخصيات.

أنت في سوق تستطيع أن تبيع علمك، تستطيع أن تبيع إيمانك، تستطيع أن تبيع حجمك الإيماني كله بوظيفة من الوظائف بحفنة من المال، بذكر في الصحافة، بكف

١ - خطبة الجمعة (٣٦٨) ١٢ جمادي الأولى ١٤٣٠هـ، ٨ مايو ٢٠٠٩م.

أذى عنك، بمليون سلعة، لكن هذا البيع في نظر الإمام الهادي عليه السلام^(١)، بيعٌ خاسر وتجارة خاسرة، ويلٌ لمن باع دينه من أجل دنياه، سيعض على أناملته، على إصبع الندم يوم أن يفوت وقت الندم.

فيها تنافس من الباعة، الكفاءات كما تطلب شراءها أمريكا، تطلب شراءها الصين، تطلب شراءها حكومات وحكومات، وهنا تنافس والتنافس شديد بين هؤلاء المشتريين، والباعة أصحاب الكفاءات؛ من أجل أن توظف كفاءاتهم؛ لتركيز الظلم، ولاستغلال المستضعفين.

وهناك أيضاً تنافس بين الباعة وبين المشتريين، الذين يبيعون دينهم حين يشح الطلب، حين يشح الطلب يتنافس باعة الدين، ويتهافتون على صفقات بيع الدين بالدنيا، وتبخس هنالك الأثمان أكثر فأكثر، والمشترون يتنافسون وهو ما قلته بالنسبة لأمريكا، وروسيا، والصّين، وغير هذه الصور.

في السوق فنٌ للعرض، وترويج للبضائع، والتلفاز والإنترنت والمذياع والصحف، كل القنوات الفضائية كلها تروج، وكلها تعرض في فن عالٍ من الدقة جداً على باعة الدين، وعلى باعة الشعوب، وعلى باعة الكرامة أن يتقدموا في صفقات البيع المطروحة.

الداخلون في هذه السوق التجارية المادية لهم رصيد مالي، لا يدخلها إلا صاحب رصيد مالي صالح للتجارة، والأكفأ في الميدان الآخر في سوق بيع الأديان، وفي سوق بيع الكرامات، وفي سوق بيع الشعوب والأمم.

الرصيد هنا كفاءة، ومركز اجتماعي، وثقة مجتمع في الشخص، أو في الجماعة، وما إلى ذلك.

وكلما كبر رصيد الشخص في علم، أو في دين، أو مركز اجتماعي كلما كان الثمن أكبر، فاحذروا كل الحذر أن تقدموا مَنْ لا رادع له من دين، ولا تقوى له من الله.^(٢)

١- سماحة الشيخ يشير هنا إلى حديث متقدم على هذه الفقرة، حيث ذكر هناك رواية عن الإمام الهادي عليه السلام، وهي:

(الدنيا سوق، ربح فيها قومٌ، وخسر آخرون). بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٥ ص ٣٦٦.

٢- خطبة الجمعة (٢٥) بتاريخ ٣ رجب ١٤٢٢ هـ، ٢١ سبتمبر ٢٠٠١ م.

الباب الثاني

الإسلام والغرب في واقعهما السياسي المعاصر

قراءة في خارطة الواقع السياسي المعاصر

أمريكا وحليفاتها أوروبا وإسرائيل تفرض هيمنة ظالمة على العالم، وتخاف أن تخسر قوتها الباطشة المتميزة، لذلك تخوض هذه الدول صراعاً مريعاً مع كل قوة ناهضة في الأرض - إسلامية كانت، أم غير إسلامية -، وتخطط؛ لإجهاض كل وليد يهدد مستقبل هيمنتها، كان وراء هذا الوجود إسلام، أو قومية، أو خلفية أخرى.

الصين عدو يحذرهما الغرب، ويخطط ضده، روسيا كذلك، ولكن تبقى العداوة الغربية والتخطيط المضاد الغربي، والفرع الغربي من أي قوة إسلامية ناهضة أشد تحسباً لقوة الإسلام، وذلك من منشأ قوة الإسلام نفسه، وقدرته على الاستقطاب، وامتلاكه رصيذاً فطرياً عقلياً وروحياً ووجدانياً في كيان الإنسان، بحيث لا يمتلك أي طرح آخر مثيلاً له، أو ما يقاربه.

بلاد الإسلام، وأي جماعة أو حزب فيها لا ينصاع للإرادة الأمريكية - ولا يعترف ذليلاً خاضعاً بحقانية هيمنتها، وقبول العبودية - يعمل الغرب، وبكل قوة على تجريده من كل سبب من أسباب النهضة، ومن كل آلية من آليات القوة، وإمكان الاستقلال والتحرر من التبعية.

أما الحكومات والأحزاب والجماعات الموالية للأمريكيين الداخلة في طاعتهم، فإنما يسمح لهم بمستوى من القوة يمكن له أن يلحق الهزيمة، أو الأذى بالقوى المتحررة، ويعطل نموها وتقدمها، ويبقي الأمة في معاناة ضعفها وتفككها وتخلفها، ولكن بحيث لا يخرج مستوى القوة عند هذه الوجودات التابعة عن السيطرة الأمريكية، ولا يمثل خطراً غير محتوئاً من القوى الأجنبية المهيمنة على تقدير أي مفاجأة غير محسوبة.

ويختلط السياسي والديني عند كبار السياسيين، وكبار من الدينين في أمريكا والغرب - رغم فصلهم بين الدين والسياسة - في موقفهم المعادي من الإسلام إلى حدّ الخروج عن الأدب واللياقة، وأسلوب التعامل الإنساني والحضاري العام، وإلى حدّ التشنّج والانفعال الذي يفقدهم التوازن بصورة مكشوفة مزرية، وإلا فما معنى تكريم سلمان رشدي؛ لتطاوله على مقام خاتم النبيين والمرسلين ﷺ، والذي أحيا الحضارة الإنسانية بعد موت^(١)، وصحح مسار البشرية كلّها كلّ بمقدار استجابته؛ لندائه العلوي الإلهي الكريم؟!

وما معنى أن تستعدي ملكة بريطانيا ملياراً ونصف المليار من المسلمين جارحة مشاعرهم الدينية، وضاربة بهم عرض الحائط؟!

أقل ما يقال في هذا التكريم لرجل شيطاني ساقط لم يُبقِ لنفسه اعتباراً في عقل، أو خلق، أو دين: إنّه طفوليّة وعجرفة، واستهتار بالقيم، وغرور شخصي، وسذاجة سياسية، ومعاداة للسلم والحوار الحضاري، والتقارب الإنساني، وخروج عن اللياقة الأدبية.

يتحدث الغرب عن الإرهاب، ويقىم حروباً طاحنة تحت شعار محاربته، ولا مؤجج للإرهاب، ولا موقظ لروح الحق، ولا مشعل لنار الفتنة كمثل كلمات التعدي الديني التي يطلقها كبار من ساسة الغرب ورجاله الدينين، والمواقف الحاقدة الخبيثة كموقف التكريم لسلمان رشدي ربيب الشيطان وقرينه.

أمريكا وإسرائيل وأوروبا يترصدون للإسلام في كل مكان، ويشنون عليه حرباً في كل شبر من الأرض يكون له فيه تواجد، ومعركتهم معهم رئيسة ومخططة ومقيمة، يخوضون حرباً ضارية مكشوفة مع الإسلام: في إيران، في الجزائر، في المغرب العربي كله، في لبنان، في باكستان، في أفغانستان، في الصومال، في تركيا، في العراق، في فلسطين، في كل بلد من بلاد المسلمين بصورة وأخرى، وبمستويات متعددة حسب مقتضى الظروف والخطط المعدة لمواجهة الإسلام.

١- وهذا ما يؤكده تاريخ الغرب واعترافه.

وإنه من العداء السافر للإسلام أن تقف هذه الكيانات وقفة حاسمة ومستعجلة بالدعم المالي والسياسي والإعلامي، وأن تفتح كل قنوات التواصل الإيجابي مع طرف فلسطيني - في واقع الانقسام الخطير الذي يعيشه طرفاً صراع سياسي ودموي من الفلسطينيين - ضد طرف آخر تُسجّل عليه هذه الكيانات المتطرفة أنه يرفع شعار الإسلام، ولا يستجيب لإملاءاتها.

ولا يفوتنا أن نتذكر جيداً أن أمريكا تمتلك في عالمنا الإسلامي شخصيات من أصناف واختصاصات وانتماءات مختلفة، ومؤسسات وجماعات وأحزاب وحكومات متعددة؛ لتنفيذ مخططاتها الخبيثة ضد الإسلام والأمة الإسلامية المستهدفة، والشواهد في هذا المجال تتحدث عن نفسها بلغة صارخة تملأ الساحة، وتتواجد في كل مكان من أرض الإسلام.

أمريكا تمارس الحرب ضد الإسلام بحكومات إسلامية، بحكومات في البلاد الإسلامية، وتنتمي إلى الإسلام، بأحزاب في البلاد الإسلامية، بجماعات، بصحفيين، بعلماء يلبسون عمام!!

كل ذلك أدوات تمتلكها أمريكا في حربها مع الإسلام، والإسلام هو المنتصر.^(١)

منقذو العالم

يقدم الغرب - وفي مقدمته أمريكا، وفرنسا، وإنجلترا - نفسه منقذاً للعالم من كل تخلفاته، وأزماته، ومصائبه، ومظالمه، ويتزعم محاربة الإرهاب، ويحرك أساطيله الحربية العملاقة باسم مطاردته وتعبه!

ويقدم الغرب نفسه أستاذاً في الحضارة والثقافة والأخلاق، ومربيًا وقائدًا وهاديًا لكل العالم!

ومن أبناء المسلمين - وفيهم عمام - ممن هو مبهور بحضارة الغرب المادية الخاوية في أصولها من القيم السماوية العالية، وكذلك ممن يقتاتون على فتات موائدهم

١ - خطبة الجمعة (٢٨٩) ٧ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٢٢ يونيو ٢٠٠٧م.

المسروقة من عرق الشعوب ودمائهم مَنْ يقدّم الغرب للعالم كذلك - أي على أنه قائد، وهادٍ، ومربٍّ، حكيم أمين -.

هذا المنقذ له مؤسساته المتعددة التي تتبرقع بعناوين إنسانية وخيرية، والكثير منها تشترك مع السياسة المادية القذرة التي تمارسها حكومات الغرب في حق شعوبها وشعوب العالم، وتستبيح؛ من أجل ترف القلة وسرفها ولهوها لقمة الإنسان، ودمه، وكرامته، ودينه.

الكثير من تلك المؤسسات هي شريك أصيل لمؤسسات الغرب الحاكمة الظالمة في أهداف تلك السياسة، وخطتها الدنيئة.^(١)

الغرب وعلاقته مع الحكومات والمعارضة في البلاد الإسلامية

يرى الغرب أن علاقته بالبلاد الإسلامية علاقة القوي والضعيف الذي لا يتوقع منه مقاومة، فإذا وجد مقاومة كانت محلّ التعجب والإنكار.

البلاد الإسلامية لا تملك أي سلطة في القرار الأوروبي والأمريكي - كما هو واضح -، وذلك لموضع الضعف، بينما أمريكا وأوروبا لهما التدخل المباشر في قرار الكثير من الحكومات في بلاد المسلمين، والتي تعتمد في وجودها على الدعم الأمريكي والأوروبي، أو الموافقة على البقاء على الأقل.

تهبُّ أمريكا وأوروبا؛ لإنقاذ أي حكومة تستجيب؛ لتقديم مصالحهما على مصالح الأمة والشعوب، وتحضر بمالها، ورجالها، وسلاحها، وخبرائها، وخططها؛ لنصرة الحكومة الموالية التي يتهدها وضعها العملي القلق.

ولتكن هذه الحكومة بعيدة كل البعد عما يتشدد به الغرب من الديمقراطية ويطرحه شعاراً للإنقاذ، فإن ذلك لا يؤثر سلباً على الدعم الهائل؛ لاستمرار الوجود وإسكات المعارضة.

١- خطبة الجمعة (٣٠٢) ٢١ شوال ١٤٢٨هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠٧م.

وتسعى أوروبا وأمريكا؛ لنصرة أي معارضة ضدّ أي حكومة تتمسّك بالحرية والاستقلالية ورعاية مصالح الأمّة والشعب، وإن كانت تمارس الديمقراطية، وكان وصولها إلى السلطة عن طريقها.

وإذا كانت كلّ من الحكومة والمعارضة يلتقي مع هوى الغرب كانت الصداقة موزعة بين الاثنين، لكن التقديم للأقوى.

أما الأضعف، فيُستعمل ورقة تهديد وابتزاز.

هذه السياسة الغربية واضحة لكل ذي عينين، ولا غبار عليها، والغرب مشترٍ، ويستقبل باعة الدّين والضمير والقومية والفكر والوطن، ويفاضل بين الباعة على أساس المصلحة.

قبل ذلك كلمة كان لا بدّ أن تقدّم لشرفها، ولكن حدث سهو عن ذلك.^(١)

الأمّة والغرب

أفهل نحن أممٌ يُستعدى بعضها على بعض، ويستظهر بالبعض منها على الآخر؟ أم هل نحن وجود واحد، وأمّة واحدة هانت على نفسها حتى غدت تستجيب لإرادة الآخر بإهلاك ذاتها؟

أم بلغ الضعف بهذه الأمّة ما بلغ، وصارت من خوفها من العدو تنتحر بلا روية؟! لك أن تقول بالأول لاختلاف المصالح بتعدد الكيانات، وبرودة الانتماء إلى مكونات الوجود الكبير العملاق، ولك أن تقول بالثاني، لأن هذه الأمّة ما اعتزت بشيء مثل ما اعتزت بالإسلام، فعندما يهون عليها لا بدّ أن تهون على نفسها، وتعيش حالة الشعور بالحقارة.

وإن تقل بالثالث، فأنت صادق، لأن درجة الضعف والرهب من الغرب بعد نسيان الله سبحانه، وقيمة الانتماء المجيد صارت بحيث لا يستبعد معها هذا الانتحار.

١- خطبة الجمعة (٣٩٣) ٢٠ صفر ١٤٣١هـ، ٥ فبراير ٢٠١٠م.

ومن هوان المسلمين عند حكومات منهم أن تباع قضاياهم، وأراضيهم، ومواقفهم، ومقدساتهم في المزاد العلني بالدولار، ولا يكون اختلاف بين البائع والمشتري إلا على الكم منه، ومما يشبهه مما يدخل في حساب المقايضات.

وهل رأيت يوماً في تاريخ الإسلام الحديث أصعب على الإسلام وأهله من هذا اليوم الذي تصطاد فيه الأجهزة الأمنية في الحكومات المسلمة من تصطاد من المسلمين كالأرانب؛ لتسلمهم إلى يد الجلاد والجزار الأمريكي الذي يأخذ بهم بعيداً عن قوانين بلده التي تُعطي احتراماً للإنسان في جنبه من الجنبات فراراً من أي محاسبة هناك لعمليات التفنن في التعذيب والذبح والسلخ التي يمارسها مع ضحاياه من المسلمين؟! هذا هو الواقع.

والخطأ الفادح أن تكون محاولات التصحيح من شرائح من أبناء الأمة بهروب أكبر من الإسلام، وركض أشد وراء الغرب!

تعلّموا أن لا تركضوا وراء الغرب، وأن لا تهربوا من الإسلام، تعلموا أن يكون ركضكم في اتجاه الإسلام، وللالتحام به التحاماً شديداً أكيداً.

وما معنى أن تعلن أمريكا أنها ستغيّر خريطة المنطقة، وتعيد رسمها من جديد من جهة، وأنها تعطي التطمينات الكافية للبعض من جهة أخرى بأن التغيير لن يطل حدوده ولا تركيبته؟

لا أحد في الأرض يمكن أن تأخذ التطمينات الأمريكية موقعاً في نفسه من منطلق تقديرها للأخلاق، ووفائها بالعهود، ولكن ما يمكن أن يُحصّل الاطمئنان في النفس هو العزم الثابت من الطرف الآخر على الاستجابة للرغبة الأمريكية على الإطلاق، والمحافظة الآمنة الكاملة على مصالحها.

ولقد انعقدت قمتان عربية وإسلامية بشأن قضية الحرب الظالمة، وعدد ممن يراود له أن يشارك في قرار الإنقاذ له مشاركة في صنع الحرب.

والنتيجة: هي التوصيات غير الملزمة، والفاقة لآلية التفعيل المؤثرة.

وقد سمعت الأمة من عدد من القادة الرسميين قبل انعقاد القميتين ما يركز على الشعور باليأس والتيئيس من أي أثر إيجابي لمحاولات إيقاف الحرب، لكنك تسمع من أجهزة الإعلام الرسمي في عقب كل قمة أنها أنتجت الكثير، وإن لم تجد من هذا الكثير على الأرض شيئاً.

أحسن الاحتمالات سواء صدقه الواقع أم لم يصدقه هو أن مجموع الأنظمة الرسمية في الأمة عاجز عن أن ينفعها في قضية فلسطين والعراق وأفغانستان، وفي أي قضية من قضاياها وهو احتمال مشكل ومؤلم، ولا يمثل عذراً كافياً أبداً، لأنه يأتي السؤال على هذا الفرض: لماذا هذا العجز والتقصير في الإعداد على المدى الطويل؟

ولماذا كُبتت طاقات الأمة، وعُطلت كفاءاتها، وعزلت عن المشاركة في اتخاذ القرار، وصناعة المصير؟

ولماذا الاستمرار في الطريق الذي سبب هذا العجز كله، وعدم التفكير الجدي في بداية التغيير، وإنهاء حالة التبعية للغير، وإقصاء جماهير الأمة، ونخبها، وتهميشها؟
ولماذا مواصلة الإيمان بالغرب ووعوده وعهوده، والتكبر للإسلام من الكثير من الأنظمة ومحاربتة؟

ومن حديث هذا اليوم ما تنقله الصحف المحلية من تصاعد وتيرة الجريمة في هذا البلد الإيماني الأصيل، وكثرة حوادث القتل والسرقة والسطو والاعتصاب، مع بروز ظاهرة الجنس الثالث المنكوس للعيان، من صبية تستورد من الخارج، أو تنتجها جاليات الخارج مما يؤثر سلباً على الصبي في الداخل.

فلا بد أن يسأل ما منبع هذا كله، وأسبابه الموضوعية؟

وما مسؤولية السياسة القائمة في تولده وانتشاره؟

وما هي العلاجات المطروحة: لاستئصاله؟

إنه ليطالب اعتماد كل الوزارات المسؤولة خططاً عملية واضحة، تتصدى لحل هذه المشاكل، ودرء خطرهما الداهم عن المجتمع.

ودور الكلمة إذا لم يسنده المشروع العملي دور فاقده للتأثير الكبير المطلوب، أما مع معاكسته له اتجاهها، فإنه محيط لنتائج بصورة تكاد تكون ساحقة.

وشأن القوانين التي تسن لحماية الأخلاق، ولا تجد لها تطبيقاً على الأرض شأن الأمنيات الباردة الكاذبة، وهو شئ من اللعب على الذقون، قد تمارسه بعض الدوائر. وما يسمى بالإرهاب هو المسألة الثالثة في هذا الحديث.

والعدوانية الدموية في الإطلاق الصحيح - لا ما يسمونه بالإرهاب بقصد سياسي مأكراً؛ ليشمل الدفاع عن النفس - إمّا أن تكون ابتدائية وإمّا جزائية، وعلى مستوى رد الفعل.

والمنظور لهذا الحديث هو أسباب الظاهرة التي قد تكون ابتدائية بحيث لا يكون الشخص أو الجهة قد تعرض لظلم الغير، ومع ذلك ينطلق في أعمال إرهابية عدوانية دموية تفزع حياة الآخرين.

ويدخل في هذا الحروب الاستكبارية الطاحنة، والممارسات الطاغوتية لبعض الحكومات المتعطشة للدماء والدمار، وممارسات بعض الأحزاب السرية والعلنية في التنكيل بالآخرين، والولوج في الدماء إلى حد الاستهتار كما كانت عليه أساليب الشيوعية. وتنطلق هذه العدوانية من أسباب:

- ١- منها الروح المادية الجشعة المتكررة للقيم المعنوية الكريمة الدينية، والإنسانية. ^(١)
- ٢- روح الطاغوتية والاستكبار التي قد تتفاقم في بعض النفوس، بما يبرر لها أن ترتكب كل شئ في سبيل السيطرة الظالمة على الآخرين.
- ٣- التربية المتعصبة عن عمى وجهل قومية كانت هذه التربية، أو وطنية، أو دينية إذا كان الدين مختلفاً، أو أسيئ فهمه من معتنقيه.
- ٤- كلما غابت القيم السماوية الطاهرة من حياة المجتمعات، كلما انفتحت الأبواب على مصراعها على الحالة الهمجية العدوانية الإرهابية بصورة أكبر وأخطر.

١- والتي تعشعش في داخل البعض، وتحكم كل حياته.

وهناك الإرهاب العدواني من موقع رد الفعل على ظلم الآخرين وتعتديهم، بحيث لا يقف عند حد الجزاء العادل، وإنما يتحول إلى عملية استهتارية عابثة، لا تقيم وزناً لأي حرمة من الحرمات، ولا تلتفت إلى أي قيد من القيود ما أمكن لها أن تفسد، وتخرّب، وتتهب، وتقتل، وترعب.

والدين الحق، وفهمه السليم بريئ من هذه العدوانية، والبهيمية الشرسة، والتعطش للدماء والدمار كان ذلك على مستوى الفعل القبيح ابتداءً، أو رد الفعل من النوع السيئ المتجاوز.^(١)

أمريكا تدعو الشباب للانفصال عن فكر الأمة!

وهل يتصور الشباب أن حوارهم تحت رعاية (NDI) يتم بلا توجيه وإن كان غير مباشر؟

ومن غير أهداف محددة من فوق، يراد الوصول بهم إليها بعيداً عن مرتكزاتهم الفكرية وأصولهم المبدئية وبلا قصد أن يحدث عندهم تمرد فكري على كل الأسس والمرتكزات والمؤسسات المخلصة؟

من بين الكلمات التي دارت هناك أن مطروحات عدد من الشباب مطروحات مأسورة لمؤسساتهم، أن مطروحاتهم تدور في فلك أفكار مسبقة من مؤسسات ينتمون إليها، وهذه دعوة: أن انفصلوا عن فكر مؤسساتكم، انفصلوا عن فكر بلدكم، انفصلوا عن فكر دينكم.^(٢)

أمريكا لم تبعد العقول المجربة التي امتحنها الزمن عن مواقع القرار فيها، ولم تطرد اصحاب الخبرة عن مواقع السياسة في أجوائها.

والشباب لا بد أن يفعل دوره، ويعطي الفرص الكافية؛ لإبداء رأيه ونقده واقتراحاته، ولكن لا بد أن تترشد خطواته في ظل الإشراف من جيل يفوقه خبرة، وحكمة وحكمة، وقد أمدته التجارب بما لم يتهيأ لجيل الشباب.

١- خطبة الجمعة (١٠١) ٤ محرم ١٤٢٤هـ، ٧ مارس ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (١٦٤) ٥ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، ٢٣ يوليو ٢٠٠٤م.

وما من أمة، وما من بلد تقوم أمور السياسة المتشابكة والصعبة فيها على خبرات الشباب فحسب.

دعوات، شعارات كاذبة، منها أن الشباب يجب أن يعطوا الحرية في النقاش والحوار، وهذه كلمة حق إلا أنها بهدف باطل.

المطلوب هو أن تتفصل القواعد الشبابية عن مرتكزاتها، وعن أجوائها الإيمانية، وعن قدواتها؛ من أجل أن تصاغ صياغة أجنبية في ظل نقاشات يترأى للشباب والشابات أنها مطلقة، وأنها حرة بينما هي موجة توجيهاً غير مباشر.

أقول: والشباب اليوم يتعلم، وغداً يتعلم منه، وعلى يديه وهكذا سنة الحياة، وما تربى الشيب من حكماء الأمة، وقادتها، وسياسيها، وفقهائها إلا على يد جيل سابق، ولو اكتفى جيل الشيب الآن بنفسه يوم شبابه ما كان له أن يصل إلى الحكمة التي وصلها، وإلى الدرجات الفقهية والعلمية التي تحققت له.^(١)

معارك للاستنزاف

الأمة مواجهة بمعركة استكبارية ضارية بمظهرها المسلح وعنفاها الشرس في فلسطين، والعراق.

وهي تهدد السودان، وسوريا، وإيران، وأي بلد يترث، أو يتردد في موقف الاستسلام للإرادة الأمريكية، والصهيونية.

والساحة الإسلامية والعربية تشهدان معارك محلية في كل قطر من أقطارهما، وهي في الأكثر بين الحكومات والشعوب؛ لتشغل عن المعركة الأم الطاحنة، وتستنزف جهود الأمة وطاقتها، وتخلخل صفوفها، وتشعل نار الفتنة بين أبنائها.

وهي معارك يتسبب فيها في أكثر البلاد العربية والإسلامية الموقف السيئ الذي تقفه الأنظمة من الحقوق العامة، ومسألة العدل والإنصاف والمساواة، والمشاركة الشعبية في تقرير المصير.

١- خطبة الجمعة (١٦٤) ٥ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، ٢٣ يوليو ٢٠٠٤م.

أفئتم هذا بإرادة داخلية محضة لعدد من الأنظمة في الأمة؟

أم بإيعاز؟

أم مكر غير منظور من العدو الكبير الاستكبار العالمي، الذي يرفع شعار الدفاع عن حقوق أبناء أمتنا، وغيرها؟

يذهب النظر إلى اشتراك الأمرين معاً في عذابات الشعوب، وتمزيق شمل الأمة واستهلاكها في معارك محلية لا تنتهي، تفرضها على أبناء الشعوب معاناتهم المرة، وتهميشهم المتعمد، وحرمانهم المقيم.^(١)

الاستكبار وخيارات استبدال الأنظمة

ما هو المفضل عند أهل الحرب، تصفية النظام أم ترحيله؟ ولماذا؟

في تقديري أن الأفضل عند أهل الحرب هو ترحيل النظام، وليس تصفيته، عدد من الشاهات، وعدد من الملوك تفصل عن دورها أنياً وفعلاً، ولكن تبقى ورقة مدخرة بيد الاستكبار العالمي، يستعملها، ويخرجها ثانية ملمعة مؤهلة إعلامياً؛ لتتولى شأنها الأول من جديد.

ورقة نظام البعث ليست رخيصة على الاستكبار في العالم، فلن يقصد إلى حرقها نهائياً إلا عند الاضطرار.

والمفضل أن تبقى هذه الورقة غير فاعلة إلى وقت ما.

ماذا تتصورون لو خير أهل الحرب بين بقاء النظام ونظام يميل للإسلام، بعدل الإسلام، وسلميته، وإنسانيته؟

لو وجد الاستكبار العالمي نفسه بفعل انقساماته، واختلافه على المصالح أنه لا يستطيع أن يرحل النظام ولا أن ينهيه، فإما أن يبقى هذا النظام وإمّا يأتي الإسلام بديلاً له.

١- خطبة الجمعة (١٦٩) ٢٣ شعبان ١٤٢٥هـ، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤م.

ما هو المطلوب؟

ليس الاستبكار العالمي وحده، وإنما معه الكثير الكثير من الدول الإسلامية الذي يفضل بقاء نظام البعث في العراق على أن يأتي نظام يميل إلى الإسلام بديلاً له.

أعدى عدو في نظر الدنيا اليوم - وهي معذورة، لأنها جاهلة، لأنها ساقطة - أعدى عدو في رؤيتها الساقطة، وفي ظل رؤيتها الجاهلية هو الإسلام.

فنظام يميل للإسلام في العراق مرفوض نهائياً، وبقاء نظام البعث هناك هو الأفضل عند هذا الخيار.

غيارى الأمة سيكونون أمام حرب طويلة مع الاستعمار الجديد.

الأمة لن تفقد الغيارى، والتربية الإسلامية الشعبية المستمرة خلقت جيلاً صامداً.

الشيء الوحيد الذي يفقده هو القدرة في ميادين الحرب، وهو القدرة الاقتصادية، وهو القدرة من خلال مواقع القرار، لكن هؤلاء الغيارى، وكما نجد إصرارهم في فلسطين، وفي جنوب لبنان، وفي مناطق أخرى، وفي كل التأريخ، وفي كل الأزمات لن ينهزموا أمام الواقع الأمريكي، ولن يستسلموا مع استسلام الأنظمة، سيقاومون إلى أقصى حد، وبكل الوسائل المتاحة، وكما تقدم في حديث سابق سيتعبون ويُتعبون.^(١)

أمريكا تعادي حكومات تحافظ على مصالح شعوبها، وتعتزُّ بأصالة حضارتها، وتذود عن كرامة وحمى بلادها، وتحرص على الحفاظ على مصالح شعوبها وثرواته.

الحكومتان (الأمريكية، والإنجليزية) ضد هذه الحكومة، وهي مستعدة لأن تستثير شعوب هذا النوع من الحكومات إلى أقصى حد، وأن تخصص الموازنات الضخمة؛ من أجل إحداث أعمال شغب في بلدان حكومات لا تحافظ على المصالح الأمريكية.

أما إذا وجدت الحكومتان (الأمريكية، والبريطانية) من أي حكومة تعاوناً واستجابة ومحافظَةً على المصالح الأمريكية، فهما مع هذه الحكومة، وضد شعوبها.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (٢١١) ٤ شعبان ١٤٢٦هـ، ٩ سبتمبر ٢٠٠٥م.

هل يتحقق الحلم الأمريكي بالانتصار على الإسلام؟

وهل يتوقع أن يتحقق الحلم الأمريكي في التصفية النهائية للحضارة الإسلامية والوعي الديني الزاحف؟

من المستحيل لهذا الطموح المجنون الساقط أن يتحقق على الأرض إذ يعارضه وعد الله لهذه الأمة، بأن يكون إنقاذ العالم على يد مهديها عليه السلام، وأن به وبها تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

قبول الإملاءات الأمريكية هدم للثقة بين الشعوب والأنظمة

مع ذلك فإن الإصرار الأمريكي على حكومات البلاد الإسلامية أن تكون أدوات تنفيذ الخطة، وأن تدخل في مواجهات صرخة حادة مع شعوب الأمة وعقيدتها سيُدخل هذه الأمة في دوامة من الفتن، ويهدم جسور الثقة بين الأنظمة والشعوب، ويحطّم الطرفين.

وهو أمر ملحوظ للأنظمة بلا شك، فلذلك يصعب جداً عليها أن تسائر الرغبة الأمريكية وإملاءها إلى الأخير.

على أنه من سوء الظن جداً كذلك أن نقول: بأن ليس في هذه الأنظمة أكثر من واحد له درجة وأخرى من الاهتمام بأمور المسلمين، ومصير الإسلام، بحيث تمنعه من الاشتراك في ذبح الأمة ودينها بالكامل، وإن كان البعض يهون عليه ذلك.^(١)

أمريكا وواقع الأنظمة التابعة

من المؤسف أن علاقات الكثير من الأنظمة العربية مع شعوبها ليست علاقات مرضية، وتحكمها في الكثير لغة القوة من جانب الحكومات وهي معرضة للتوترات، وتسودها حالة من فقد الثقة بالدرجة الكافية.

١ - خطبة الجمعة (٤٣) ١١ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ٢٥ يناير ٢٠٠٢م.

هذه الحالة تُمثّل منفذاً للقوة العالمية الباطشة؛ لفرض هيمنتها، وشروطها المطلوبة على الأنظمة، وتجعلها تحت التهديد دائماً باستثارة الشعوب عن طريق التلويح بالديمقراطية.

وفي ذلك - التلويح - مكسب آخر تجنيه أمريكا، فهي تخادع الشعوب، وتربح ثقة وودّ البعض، وتحصل على ما تريده من ولاء أصحاب الطموح غير المبدئين وتضمن خدمتهم لها، وتعتمد عليهم قوة موالية تكون رديفاً للحكومات في الحاضر، وبديلاً في المستقبل للسيطرة على شعوب الأمة وأراضيها لصالح أمريكا.

شعار الديمقراطية تستعمله أمريكا في البلاد العربية والإسلامية؛ لخلق بديل من أصحاب الاختصاصات والثقافات الطموحين للمناصب، والذين تغريهم الدنيا.

إن أمريكا تصنع حكومات بديلة، وتُحضّر للمستقبل، وتُهدّد بهذه الحكومات التحضيرية كل الحكومات القائمة بالفعل؛ لتستمر في إعطاء التنازلات، وتقدم كل عزيز على الأمة في سبيل البقاء.

وكلما عزلت أمريكا زعيماً عربياً أو مسلماً عزلته الأنظمة.

وكلما أمرت بالاشتراك في حرب بلد تمّت المشاركة مكشوفة، أو مستورة بحسب اختلاف المواقع، وحسبما ما يتم من اتفاق مع السيد الأمر.

ودور النصر للزعيم المنكوب والقطر المستهدف هو النصحية بالاستسلام، والتزام الأدب الجمّ مع أمريكا، والاستجابة الكاملة للرغبة الأمريكية بالطريقة التي تتال موافقة السيد الكبير، والتي قد تعفي الضحية من أخذ الذي فيه عيناه.

أترى أنّ قضية (رفيق الحريري) تأخذ كل هذا الامتداد، وتُحدث كل هذا الزلزال، ويشترك الجميع في طلب الثأر من الفاعل، ويُضجّ بسوريا الشقيقة كل هذه التضحية لولا أن المحرك للقضية هي أمريكا التي نصّبت نفسها ولياً على القتل، وولياً على لبنان، وولياً على الأمة، ولياً أصلياً في طلب الثأر؟^(١)

العلاقة بين الإسلاميين والغرب

الحوار مع الإسلاميين

ربما فكرت أوروبا وحتى أمريكا أن تحاور القوى الكبرى من الإسلاميين في البلاد الإسلامية كالأخوان المسلمين، بعد أن اقتنعت أنهم رقم لا يمكن إهماله، وترتيب الأوضاع بما يحفظ مصالحها في حال الغائث، بينما قد يصير عدد من الأنظمة من داخل الأمة على عدم العدول عن لغة القوة والبطش والإنكار والتهميش، وهذا أمر سيئ ومدهش جدًّا، وغير عملي، ولا بد أن يسقطه الواقع.

وإذا كان حوار الأوروبيين وغيرهم يطلب من الإسلاميين بيع الدين والأهل والأوطان، والتنازل عن الهوية والانتماء ولو في مقابلة الشراكة في الحكم، أو حتى الاستقلال به تمامًا في أي بلد من البلدان، فإن هذا إنما يعني سد باب الحوار تمامًا، واستعمال لغة استعلائية قبيحة ووقحة، وهي إرهاب^(١)، وأقبح وآلم من الإرهاب، والإسلاميون ما داموا إسلاميين يرفضونها تمام الرفض، ويواجهونها بشموخ واستعلاء أشد.

والإسلاميون الواعون المتخلقون بأخلاق الإسلام، لا يرفضون الحوار أسلوبًا؛ لإحقاق الحق، والمصير إلى العدل في العلاقات الإنسانية، وتبادل المصالح المادية بين مختلف بلدان العالم، ولا يعادون شعوبًا أخرى بكاملها، ولا يريدون سوءًا بالآخر، ولكنهم يرفضون العدوان الأجنبي ويقاومونه، ولا يمكن لهم أن ينسوا القيمة العالية لحضارتهم الإسلامية، أو يتخلوا عن الإخلاص لها والوفاء بشروط الانتماء في ظل أي ظرف من الظروف، وتحت لغة الوعد والوعيد، والإغراء والتهديد.

والغرب الباحث عن مصالحه قد لا يُستغرب منه أن ينسى علاقته بمقدار بمن كان يقدم له الكثير - وهي الأنظمة - من غير شروط تحافظ على مصالح الأمة، وأن

١ - فمحاولتك أن تسلب صاحب الدين دينه؛ لتقدم له فتاتًا من دنياك، يعد إرهابًا ومن الإرهاب العنيف.

يبحث عن بديل له شروطه المتصلة بهذه المصالح، فإن ذلك ممكنٌ جدًا في لغة الغرب الواقعية بعد أن تصبح علاقته بالأول مكلفةً له جدًا، أو لا تحمل ضماناتٍ مستقبليةً كافيةً؛ للحفاظ على مكاسبه الهائلة، وإن كان لا يتوقع من العلاقة الثانية بقدر ما كانت تقدمه له علاقته السابقة مع ما تفرض عليه العلاقة الجديدة من شروطٍ كان متحررًا منها، على أن الغرب لا يسهل عليه أن يخسر كل أوراقه مع أي طرفٍ من الأطراف فيما يحاول.^(١)

وعلاقته مع أي طرفٍ لا تدوم فيما هو المعروف إلا بدوام مصالحه، ولا تحتفظ بمستوى واحد، وإنما تتبع في مستواها ما تفرضه تلك المصالح.

وهذا الكلام يجب ألا يقلل أبدًا من قيمة أخذ الحيطة من القوى الإسلامية الكبرى في الحوار مع الأوروبيين والأمريكيين ابتداءً واستمرارًا، ومن التحسب لمختلف الاحتمالات وراء الرغبة التي قد يبديها أولئك في الانفتاح على الطرف الإسلامي، وتدشين الحوار معه، والاحتراس من الالتفافات في طريق الحوار وفخاخه المنصوبة.^(٢)

كسب الودّ الغربي

إن صرف جهود كبيرة؛ لكسب موقف وديٍّ من الحكومتين (الأمريكية، والإنجليزية) في غير محله وهو ضياع، لأن الحكومتين صديقتا مصالح وحكومات، وليستا صديقتي حقوق وشعوب.

نعم، قد يأتي من الموقف الأمريكي أنه يواجه حكومة من الحكومات، ولكن الخلفية وراء هذه المواجهة دائمًا إحساسٌ أمريكي بأن مصالح أمريكا ليست في استمرار هذه الحكومات.

١- فأوراق الغرب مع حزب البعث - مثلاً - لا يضحي بها كلها، وكذلك مع أي نظامٍ عميل وإن ساءت العلاقات معه.

٢- خطبة الجمعة (١٩٦٦) ١٣ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٢ أبريل ٢٠٠٥م.

أمريكا تعادي حكومات تُحافظ على مصالح شعوبها، وتعتزُّ بأصالة حضارتها، وتزدود عن كرامة وجمي بلادها، وتحرص على الحفاظ على مصالح شعبها وثرواته.

الحكومتان (الأمريكية، والإنجليزية) ضدَّ هذه الحكومة، وهي مستعدة، لأن تستثير شعوب هذا النوع من الحكومات إلى أقصى حدٍّ، وأن تخصص الموازنات الضخمة؛ من أجل إحداث أعمال شغب في بلدان حكومات لا تحافظ على المصالح الأمريكية.

أما إذا وجدت الحكومتان (الأمريكية، والبريطانية) من أيِّ حكومة تعاوناً واستجابةً ومحافظةً على المصالح الأمريكية، فهما مع هذه الحكومة، وضدَّ شعبها.

نعم توصيل المعارضة صوتها إلى شعوب العالم وأحراره؛ من أجل أن تتفهم الحق، وتقف معه، وتناصره، وتُتَكَرَّ على السالين له أمر معقول ومقبول ومطلوب.

على أن التعويل بعد الله إنما يكون في الأكثر على يقظة الشعوب، وتلاحم الشعب الواحد والشعوب المجتمعة، واستمرار المطالبة بالحقوق بعقلانية وحكمة، وعلى نشر ثقافة الحقوق والمطالبة بها.

والمُستهدف فيما ينبغي دائماً إنما هو حل المشكلات لا تأزيمها.^(١)

الباب الثالث

الحرب الغربية على الإسلام

أمريكا ومعاداة الإسلام والأمة الإسلامية

يُصرِّح الرئيس الأمريكي في أوندنوسيا بأن أمريكا لا تعادي الإسلام ولا الأمة الإسلامية، وهو كلام جميل لو صدَّقه الواقع.

ولكن لو كان ذلك واقعاً، فلماذا تصرُّ أمريكا على أن تكون إسرائيل - وهي تناصب أمتنا العداء، وتهتدها بالسحق والمحق - سبّاقة غير مسبوقة ولا ملحققة من ناحية عسكريّة بالنسبة لكل الدول الإسلامية، وبفارق كبير يضمن تفوقها الواضح^(١)، وتعمل على قمع أي بادرة قوّة سلميّة أو دفاعية لأي بلد من بلدان الإسلام؟^(٢)

ولماذا تشدّد أمريكا العداوة لأي بلد أو حزب إسلامي يريد أن يتمتع بالاستقلال، وبنهضة حضارية على خط الإسلام؟

ولماذا وُثِدَ الخيار الإسلامي لأي شعب مسلم، والجدّ في القضاء عليه؟

ولماذا محاربة الثقافة الإسلامية، والتشريع الإسلامي، والأعراف الإسلامية في بلاد المسلمين نفسها؟

لا يريد الإسلام ولا الأمة الإسلامية إحساناً من أمريكا ولا شفقة، ويكفيهما جدّاً أن لا تتماذى في عداتهما، وأن تفرض على نفسها احترام الآخر كما تطالب باحترامها، وأن لا تفرض نفسها سيّداً، وأنّ على الآخرين الامتثال، وأن لا تحكم على إرادة التحرر من الهيمنة الأمريكية بأنها جريمة لا تُغتفر، وذنب لا بدّ أن يُعاقب مرتكبُه عليه.

١- وقدرتها على سحق العالم الإسلامي في وقت قصير.

٢- هذا وأمريكا لا تعادي الإسلام والأمة الإسلامية!!

على أن مصير الإسلام والأمة الإسلامية لا تحكمه الإرادة الأمريكية، ولا أي إرادة من إرادات الأرض، وقد ثبت الوعد الصادق بأن إنقاذ العالم على يد هذا الدين والأمة.^(١)

من حرب إلى حرب

لا زالت أمريكا منذ حرب الخليج الأولى تشعل المنطقة بالحروب الملهبة الطاحنة، وتأخذ بها من حرب إلى حرب، ومن فتنة إلى فتنة، وهي حروب أمريكية ضد المنطقة وأهلها وخيراتها وأمنها، وضد الأخوة العربية والإسلامية فيها سواء كان خوضها لها بصورة مباشرة، أم غير مباشرة.

هذه الحروب ومنها الحرب التي تتوعد بها هذه الأيام هدفها أمريكي، وتوقيتها أمريكي، وتصميمها أمريكي، وأخلاقيتها الساقطة أمريكية، ومن أجل المصالح والمطامع الأمريكية والتوسع الغاشم الأمريكي، ولخدمة القيم المادية الأمريكية، ولحماية إسرائيل، وتسييدها في المنطقة العربية والإسلامية، وتتمشى مع أهداف مشروع التقسيم والتشظية للبلاد الإسلامية والعربية وهو مشروع من المشاريع بالغة الأهمية في النظر الأمريكي.

وهي حروب مسرحها الأرض العربية والإسلامية، وبأموال المنطقة، وعلى حساب مصالحها، ومن آلتها ووقودها وضحاياها إنسان هذه الأرض في الأكثر وهو المتضرر الأول بآثارها السلبية على المستوى البيئي والصحي على المدى القريب والمتوسط والبعيد، وهو الذي يحصد نتائجها المرة على المستوى النفسي والاجتماعي والديني، ويخسر ترابطه وأخوته وثقته بأخيه.^(٢)

وتعمل الآلة الإعلامية الأمريكية الضخمة مسندة من إعلام عربي؛ للترويج لهذا النوع العدواني الظالم من الحروب والمعادي لمصالح الأمة، ودينها، وقيمها، وتعاليم شريعته، وواجب الأخوة الإسلامية المخاطبة به، وتبريره، وسوق الرأي العام العربي

١- خطبة الجمعة (٤٢٨) هـ ذو الحجة ١٤٣١ هـ، ١٢ نوفمبر ٢٠١٠ م.

٢- هتاف جموع المصلين ب: (الموت لأمريكا).

سوقاً في اتجاه مباركة هذه الحروب الباغية الآثمة، ومناصرة أمريكا، والفرح بجرائمها التي تستهدف الجميع، وتفتك بمصلحة الأمة، وتعطل حركتها، وتحرق منجزاتها، وتبعثر نسيج وحدتها.

وهذا الواقع يضع الشعوب العربية والإسلامية أمام امتحان للوعي والإيمان والتمسك بقيم الدين الإلهي، والقدرة على تشخيص العدو الحقيقي والدائم، ومصدر الخطر المحقق.

وحين يذهب وهم الرأي العام العربي والإسلامي إلى أن المصلحة في الصداقة والوثوق والركون إلى العدو الإسرائيلي، والجبار الغاشم الأمريكي، وأن الاحتراس الأكثر يجب أن يكون من بعضنا البعض، وأن يكون موقفنا الداعم لإسرائيل وأمريكا، وفرحنا بنصرهما، فهذا آخر ما يمكن أن ينحط إليه مستوى الفهم عندنا، وأشد ما يمكن أن يصل إليه ضياع الدين على أيدينا.^(١)

ماذا تريد أمريكا وأوروبا للمسلمين؟

وما الذي تستهدفه تحركاتهما الدبلوماسية، وخططهما السياسيّة، وحروبهما العسكرية؟

بصورة عامة:

١- إنهاك هذه الأمة، وإضعافها على كلّ المستويات إلى الحدّ الذي تقبل به الذلّ، والهوان، والتبعية الكاملة، واستنزاف خيراتها لصالح العدو.

٢- تريدان للمسلمين أن يخربوا بيوتهم بأيديهم، فينتقلوا من تخريب بلد مسلم إلى تخريب بلد مسلم آخر، وفتح أبوابه؛ لسيطرة المستعمر بالمال المسلم والدّم المسلم وكلّ الإمكانات المسلمة.

تريد للمسلمين، وللحكومات المسلمة أن تقوم بحرب عنها في المنطقة بالوكالة، تعطي فيها أموال المسلمين، ودماءهم، وإمكاناتهم.

١- خطبة الجمعة (٣٣٣) ٧ رجب ١٤٢٩هـ، ١١ يوليو ٢٠٠٨م.

- ٣- أن لا تفرغ المنطقة من حرب إلا ودخلت في حرب أخرى حتى يتم الاستنزاف للثروة الجاهزة، والإنسان القادر بما يمنع من أي مقاومة للإرادة الاستعمارية مستقبلاً.
- ٤- السيطرة على كنوز الثروة النفطية في المنطقة، والتحكم في إمداداتها، وسعرها.
- ٥- وأد انبعاثة البديل الحضاري القادر على سحق الحضارة الغربية المهترئة، وحرف إنسان أمتنا عن مسار الإسلام، ورؤيته، وأخلاقيته، وأهدافه الكريمة.
- ٦- أن تُخلف الحروب البينية داخل الأمة والمنطقة أحقاداً لا تُنسى؛ ليبقى عالمنا الإسلامي على بركان ملتهب يُهدد بالانفجار في كل لحظة؛ لينسف كل جديد إيجابي، ويهدم كل خير تبنيه سواعد الرجال.

والحكومات التي تسميها أمريكا بالصديقة تريد أن تفرض عليها موقفين:

أ- موقفاً من إسرائيل يتّصف بالمرونة والملاينة إلى حدّ الاستسلام، وتغليب المصالح الإسرائيلية على مصالح الفلسطينيين والعرب والمسلمين عامة، والعمل على التفوق الإسرائيلي على كل دول المنطقة العربية والإسلامية.

ب- موقفاً مُتشدّداً ومُعاديّاً بقوة لبعض البلاد الإسلامية كإيران، ومشاركاً في الحرب عليها، وتضييق الخناق على وجودها.

ولا توجد حتى شُبْهة جواز في هذا المورد؛ للاستجابة للإرادة الأمريكية، ولا مجال لوقوع الحكومات في حالة غررٍ أو خطأ في النظر في المسألة.

فالمللوب الأمريكي واضح في أن ينتصر المسلم لغير المسلم المعتدي على نفسه، وعلى أخيه المسلم المعتدى عليه.

وتسعى أمريكا بكل ما تملك لفرض حصار واسع، وحتى شنّ حرب عسكرية طاحنة بحجّة احتمال أن تملك إيران غداً إمكانية إنتاج سلاح نووي، فإن ذلك في إعلامها والإعلام الواسع الجائر يمثل تهديداً لأمن العالم كله.

أما الترسانة النووية العملاقة في أمريكا وريببتها إسرائيل، ففيها استقرار العالم

وأمنه وخيره ورفاهه وعدله والمساواة بين أبنائه، وكأن البلدين الصديقين لا يُمثَّلان أكبر رقمين في الإرهاب اليوم في العالم، وشواهد الإرهاب الحيّ الطازج لإسرائيل قائمة في مثل حادثة دبي وغيرها.^(١)

إن أمريكا لترحب بالسلاح النووي الذي تضمن صداقته وهيمنتها على اليد الذي تملكه، وما ترهبه وتفزع منه وتقاومه أن تمتلك الروح الاستقلالية للأمة، وأن يمتلك الإسلام أي سبب من أسباب القوة والقدرة على المقاومة.

فالمصيبة ليست مصيبة سلاح نووي، وإنما مصيبة أي سبب من أسباب القوة التي تمكّن الأمة من الدفاع عن حماها وعن استقلالها وشرفها، وأصالتها، ومصالحها.

وأما جيش التحرير الأمريكي للبلاد الإسلامية والمُخرج لها من الظلمات إلى النور، فتشكو مجنداته والضابطات في صفوفه من عمليات الاغتصاب الواسعة من مجنّديه وضباطه والتي تصل أحياناً إلى حدّ القتل!!

وفي وصف إحدى الضابطات في هذا الجيش - كما جاء في إذاعة الـ (B.B.C) العربية من قريب جداً - أن فزعهن من فتك الزملاء الغياري الشرفاء من جنود الجيش الأمريكي وهم الجنود المعدّون؛ لتحرير بلادنا الإسلامية أشد من خوف القتل على يد العدو، فانقضاض الجنود الأحرار من زملائهن عليهن بالاغتصاب والقتل ميسور لدرجة أكبر.

وتؤكد أن تخليها عن سلاحها؛ لتناول سيجارة جعلها ضعيفة أمام فرسان التحرير الأباة في الجيش الذي تنتمي إليه وافتراسهم لها!!^(٢)

الغزوي وجهه الجديد (الاستجابة لاستغاثة الشعوب)

كان الغزو العدواني الطامع من الدول الاستكبارية للدول الضعيفة مكشوفاً، ولأن صبغة النفاق قد تركزت بدرجة أكبر في سيرة أهل الدنيا وطلابها صار الغزو اليوم

١- هتاف جموع المصلين ب: (الموت لأمريكا، والموت لإسرائيل).

٢- خطبة الجمعة (٣٩٥) ٤ ربيع الأول ١٤٣١هـ، ١٩ فبراير ٢٠١٠م.

في ظاهره استجابة؛ لاستغاثة الشعوب، ومعالجة مشكلاتها، وضبط الاضطرابات فيها؛ فلطفاة أيدٍ عابثة في كل البلاد التي تخلو من حكومة موالية مؤتمرة لهذا الطرف أو ذاك، أو تكون موالية لطرف استكباري على حساب الطرف الآخر، وعملاء ومنتفعون يثيرون الفتنة متى شاء المستأجرون؛ لتكون حربٌ بعنوان وآخر، وتحت أي شعار براق، وفي إطار أي عصبية من العصبيات.

لا يبعد أن تكون قرقيزيا مثالا من أمثلة التدخل العاثر للدول الكبرى الظالمة؛ للاستئثار بمواقع النفوذ، والتحكم في مصير الشعوب الأخرى، واستخدامها آلة رخيصة في سبيل أطماعها.

إن الاستكبار العالمي لا يتورع أن يثير حروباً أهلية طاحنة في البلاد التي يطمع فيها؛ ليدخل مستعبداً لها باسم الإغاثة، وإطفاء الحرب، وإحلال الأمن، وإقرار السلام، وإعادة الإعمار، فيكون المحسن الذي لا بد أن يشكر، وتقدر له إنسانيته، وخدماته، وبذله ووفاءه.

وإن الظلم الفاحش الذي يمارسه كثير من بعض الأنظمة العميلة لهذا الطرف أو ذاك في حق الشعوب؛ ليفتح باباً واسعاً لتدخل الخارج.

أمّا أيّ نظام حاكم مخلص لأرضه وشعبه، يحرص على استقلالية الشعب، ويحافظ على الثروة عن سيطرة الخارج، فهو نظام عدو للمستكبرين لا بد أن يعملوا على زعزعته، وجرّ الوضع في البلد المسؤول عنه إلى فتنة مشتعلة، وحتى حرب أهلية طاحنة. والفتنة بطبيعتها لا ترحم، والحرب الأهلية لا تبقي.

ولا تكاد توجد عصمة أخلاقية في مجتمعات الدنيا اليوم تكفي لرعاية حقوق الإنسان وحرماته في حالات السلم، فضلاً عن حالات الحرب، وذلك بفعل التخريب الاستكباري الآثم للدين، والأخلاق، القيم.

اليوم لا تكاد ترعى حرمة لمال، ولا عرض، ولا نفس من الكثيرين في حال السلم ناهيك عن الحرب.

في الحروب الجاهلية لا تبقى حرمانات، وكل شيء مستباح، ولا حدود ولا حواجز أمام المطاعم والأحقاد والشهوات والنزوات، وحروب اليوم كلها - إلا ما نذر - جاهلية لا حرمة فيها لإنسان، ولا دين، ولا قيم.

لا تكاد تقوم حرب أو فتنة داخلية ساخنة إلا وتسمع عن قتل للشيخ والأطفال والأبرياء من نساء ورجال.

وأي حرب من هذه الحروب الجاهلية، وأي فتنة من فتن العصبية العمياء اليوم لا ترافقها حوادث الاغتصاب، والنهب، والسلب، والحرق، والتشريد بلا حساب؟^(١)

أمريكا وإدارة الأزمات

تعرف أمريكا وتمتحن إدارة الأزمات في البلد الواحد، وبين البلدين والأكثر، وفيما بين الطوائف، وكذلك القوميات والأحزاب والفئات، وهي تُعقد هذه الأزمة، وتحول جاهدة دون حل تلك الأزمة، وتخفف أزمة أخرى.

تقف مع هذا الطرف أو ذاك، تقدم أقلية على أكثرية، وتستثير أكثرية ضد أقلية، تمدّ هذا الطرف بالسلاح، وتقف مع الآخر بالكلام، تقدم السلاح للطرفين زيادة في استعارة الحرب، واستثمار حالة الاقتتال.

تتفعل أزمة هنا، وأزمة هناك، وتحاول التحكم والتصرف في مفاتيح كل الأزمات ومغالقتها؛ لتجوج الأطراف كلها إلى اللجأ إليها، والتوسل للخلاص بها، حتى يمكن لها الابتزاز، وفرض الشروط، والاستعباد المذل، والاستغلال البشع.

١- خطبة الجمعة (٤١٢) ٥ رجب ١٤٣١هـ، ١٨ يونيو ٢٠١٠م.

تفعل كل ذلك ضمن حسابات خاصة، وتخطيط شيطاني مرسوم، ومن منطلق الأغراض المادية والاستكبارية الدنيئة.

وتحذيرها رعاياها في بلد، والإشارة إليهم بالترحيل من آخر، أسلوب من أساليب الضغط الذي تمارسه على البلدان المختلفة، وعلى طريق تهديدها بإدراجها في قائمة البلاد التي ترعى الإرهاب، أو تتهاون معه؛ لإعطاء مزيد من التنازل، ومزيد من الاستسلام.

وأمرىكا لا تريد لأي بلد أن يحل مشاكله الداخلية من دون تدخلها الشيطاني؛ لإحكام القبضة بدرجة أشد على الآخر، ومن أجل ارتقاء الأطراف في أحضانها، توصلاً لتنفيذ مخططاتها الخبيثة، وتكريساً للقيمومة والوصاية الشاملة، وإقتناعاً بالحاجة الدائمة؛ لتواجدها العسكري المكثف في مياه وأجواء البلاد المختلفة، وعلى أراضيها. ومن مسؤولية كل الأقطار في الدنيا ومصالحها اللازمة، أن تعمل على التفتُّ من حبال هذه السياسية الطاغوتية الأنانية الخبيثة المدمرة.^(١)

المطالبة بحاكمية الإسلام، هل هي جرم؟!

وانظروا إلى الإسلاميين في العراق، وفي غير العراق أن صار بهم الأمر لا يستطيعون المجاهرة بحاكمية الإسلام، وأن المطالبة بحاكمية الإسلام صارت جريمة عالمية تُدان، وتُعدّ من الإرهاب.

وإن المسلم صار يتوارى عن هذا الطرح!

فلا بدّ من تدارك الأمر قبل أن تتغيب الحقيقة بالكامل، ويُطمس الحق.

أما أبناء التربية الغربية في العراق، وفي كل مكان فيجأهرون برأيهم، وبمعارضتهم

١ - خطبة الجمعة (١٦٤) ٥ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، ٢٣ يوليو ٢٠٠٤م.

لحاكمية الإسلام، ويدينون من يقولون بهذه الحاكمة أو يتمناها!

ولقد كان الغرب يضع شرطاً على عدد من الدول الإسلامية بأن تبعث من أبنائها ومن فلذات أكبادها أكفاء وقدرات متميزة إلى جامعات الغرب، ومطابخ فكره حتى تأتي أفواج من تلك البعثات بفكر الغرب، وشعور الغرب، وطرح الغرب، وتكون (الكوادر) المعدّة؛ لتتقيف البلاد الإسلامية، وللحكم البديل كلما اقتضت الحاجة!

أما اليوم، فالتربية الغربية حاضرة فاعلة قائمة مشهودة لأبناء المسلمين في جامعات المسلمين، وفي مدارسهم، وفي نواديهم، وفي جمعياتهم وبصورة علنية مكشوفة. اليوم يأتي الأمريكي؛ ليقيم الندوات، وقيم المهرجانات الثقافية، وينفذ برامج التي يريدتها في أكثر بلدان الإسلام.

وقد جاء رامسفيلد إلى العراق؛ ليتدخل في تشكيل الحكومة، ليفرض داخلية ودفاعاً من النوع الذي يريد، ويعلن أنهما لا بد أن يكونا تحت النظر، وبالكيفية المرغوب فيها، ويفرض أن يحافظ على العناصر التي اختارتها أمريكا للأمن، للداخلية، للدفاع، للمواقع الحساسة.

وأن تبقى قوة للبعث، وأن يبقى رجال من البعث أقوياء، وأصحاب نفوذ ومواقع متقدمة؛ من أجل أن يكونوا أدوات تُنفذ رغبات أمريكا.

ويريد من مرشحي الشعب أن يكونوا أدوات طيعة للسياسة الأمريكية.

ولا انسحاب للقوات الأمريكية حتى يؤمن على الأغراض الإنسانية العادلة لأمريكا في العراق من بناء قواعد ثابتة، وتدفق النفط بسخاء وبصورة شبه مجانية إلى مخازن الأراضي الأمريكية، وتثبيت عملاء مخلصين في المواقع المهمة، والتأكد من بقاء العراق تحت السيطرة عند ضرب أي بلد إسلامي من أراضيه، وبناء مراكز ثقافية وأجنبية، ومراكز تحليل واهتراء خلقي وميوعة إلى الحد الكافي؛ لمسح هوية الشعب العراقي، وزرع

العملاء في الحوزات، والجامعات، والمساجد، ومراكز التأثير الإسلامي، وتحويل العراق إلى مستعمرة على الطراز الحديث.

ولكن العراق لا يُرتقب له أن يكون فريسة الإرادة المتفردة.

العراق سيصبح ساحة لصراع الإرادات، إرادة إسلامية، وإرادة غير إسلامية. والحرب ستكون بين الإرادة الأمريكية بالأصالة، أو بالوكالة، والإرادة الإسلامية. العراق سيكون أرض مواجهة حضارية حادة وإلى مدى بعيد.

والمواجهة بين الإسلام والغزاة الغربيين ستستمر على أكثر من مستوى، وفي أكثر من بُعد.

والعراق بلد المرجعية، بلد التاريخ المجيد، بلد القباب النورانية الشامخة، بلاد الأئمة الهادين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، بلاد الأبطال الأشاوس، ففي الأخير لن يُهزم العراق.

ولكن هذه هي الديمقراطية الأمريكية المتصدق بها على البلاد الإسلامية، وهي ديكتاتورية أمريكية، وتحلل، وتمييع، وكفريات تملأ الساحة الإسلامية.^(١)

١- خطبة الجمعة (١٩٥) ٦ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ١٥ أبريل ٢٠٠٥م.

خاتمة

لماذا استهداف الإسلام ومعاداته؟

لماذا الاستهداف للإسلام ومعاداته - والإسلام هو هذا الدين الكريم بهذه المبادئ المشعة الجانحة للسلم، المؤكدة للركائز والأسس الإيجابية التي يمكن أن تقوم عليها علاقات دولية محترمة نافعة -؟

الجواب

- ١- دين يجهله أهله، فضلاً عن الأمم الأخرى - والناس أعداء ما جهلوا - .
- الطواغيت قد يعرفون الإسلام، ولكن الطاغوت لا يحمل نفساً مستعدة للاستجابة للحق، أما الشعوب والجماهير العامة من كل الأمم إذا عرفت الحق، فإنها ولو بصورة إجمالية تهوي أفئدتها إليه.
- ٢- التضاد مع المصلحة الدنيوية للطواغيت، وهو الشيء الذي يدفعهم؛ لمواجهة الإسلام بكل وسيلة ممكنة، فالطواغيت يعرفون إما أن يكون إسلام، فيتأتى لهم أن ينصبوا أنفسهم أرباباً من دون الله في الناس، ويقبل الناس هذه الربوبية الكاذبة، وإما أن يكون الإسلام، فيستحيل عليهم ذلك، ولا يجتمع أن يكون هناك وعي إسلامي وانشداد للإسلام، وتقديس للإسلام، واعتراف بألوهية الله ووحدانيته، وأن تقبل النفس الحالة الطاغوتية في الأرض، لذلك فالطواغيت عدو دائم للإسلام، وحربهم له بلا هوادة، فلا يمكن أن تتوقف العداوة للإسلام في الأرض من خلال هذا الطابور الخسيس طابور الطغاة والمستكبرين الجبابرة.
- ٣- العصبية العمياء التي تحكم الكثير من أتباع الديانات، خاصة طبقة المنتفعين بالدين، فهناك رهبان، هناك قسوسة، هناك أحبار قد يعرفون الدين الإسلامي، ويعرفون حقانيته، وأنه الدين الذي لا يصح بعد رسول الله ﷺ أن يتعبد بغيره، لكن لهم نفساً لا تسمح بالوقوف الموقف الصحيح من الرسالة والرسول ﷺ .

٤- البشاعات التي تُرتكب باسم الإسلام، وتسيئُ إليه من فئتين: فئة الحكام المسلمين الظلمة، الأنظمة التي تنتسب إلى الإسلام وهي تمارس الجور والبغي في الأرض، وتتخلف بالأمّة مسافات على طريق تقدّمها، والفئة الأخرى هي التي تحمل راية الإسلام وتمارس أبشع الجرائم في الأرض باسمه ظلماً وجوراً، زوراً وكذباً، جهلاً وسذاجة.

٥- انهيار المستوى الإنساني في كثير من الشعوب، بحيث أصبح الإسلام ثقیلاً على نفوس الكثيرين، وأصبحت تكاليفه متجاوزة حد ما تحتمل تلك النفوس التي انهارت قدرتها العالية بفعل الحضارة الماديّة الساقطة.

٦- ووراء هذا أو ذاك من الوجوه السابقة قصور وتقصير في التبليغ والدعوة، ووراء العداوة للإسلام والتجاسر عليه، والاستئساد في وجهه، والنيل من حرمة وكرامة شخصية الرسول الأعظم ﷺ، فقد الأمّة هيبتها بسبب الوهن والتخلف اللذين تعاني منهما من جراء الهيمنة الظالمة للكيانات الجائرة التي تحكمهما، وتعمل على إسقاط قدرتها وإرادتها.^(١)

ما هو دور المسلمين بإزاء الجهالات التي ترتكب ضدّ الإسلام؟

على المسلمين وظيفتان:

١- وظيفة الرد الحكيم والقوي على كل هذه الجهالات.

٢- ووظيفة عرض الإسلام الوضّاء النوراني الحقّ إلى شعوب العالم.

وهذا العرض يقوم على ركيزتين:

أ- على الدور التبليغي الناجح والجاد.

ب- على إيجاد القدوة - الشخصيات القدوة، والمجتمع القدوة، السياسة القدوة،

الاقتصاد القدوة، الاجتماع القدوة -.

١- خطبة الجمعة (٣١٨) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٩هـ، ٢٨ مارس ٢٠٠٨م.

والمسلمين على تقصير كبير في كلا البُعدين، والأنظمة في البلاد الإسلامية - في أكثرها - إنما تُقدّم نماذج من التخلف والظلم والطبقية والفوضى وعدم العدل، وبذلك تسيئ كثيرًا للإسلام.^(١)

الدِّفاع عن أرض المسلمين

أما الموقف من التهديد الاستكباري لأي دولة من دول العالم الإسلامي، فالواجب الشرعي الصريح أن تنتظر إليه الأمة بكامل حكوماتها وشعوبها على أنه تهديد لكل وجودها، ولأي شبر من الأرض التي تقيم عليها، وأن تقف في وجهه بكل ما أوتيت من قوة حماية لنفسها، ودينها، وكرامتها.

وهذا هو التعامل الذي تتعامله كل الأمم والكيانات المشتركة مع أي تهديد يأتيها من الخارج ولو لجزء منها.

وإنّ قوة أي بلد إسلامي يجب أن تكون قوة داعمة لحقّ الأمة ولوجودها الكامل، ولا يُساء استعمالها بأن يتوجّه منها أي ضرر لأي بلد إسلامي آخر، ولا أن تكون للعدوان الغاشم على أي بلد في العالم، وهكذا يلتزم البلد الإسلامي الحق.

هذا ما نفهمه بكل وضوح وجلاء من الإسلام الذي يتحمّل على الأمة أن لا يكون لها خيار في التعامل مع كل القضايا غيرُه.^(٢)

١- خطبة الجمعة رقم (٢٥٣) ١٢ شهر رمضان ١٤٢٧هـ، ٦ أكتوبر ٢٠٠٦م.

٢- خطبة الجمعة (٣٩٤) ٢٧ صفر ١٤٣١هـ، ١٢ فبراير ٢٠١٠م.

الفصل الحادي عشر

الأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

مقدمة

متطلبات صناعة الأمة الرائدة

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١)

إبراهيم عليه السلام رجا من ربه سبحانه وتعالى أن يوجد من ذريته أمة مسلمة.

ما الطريق إلى هذه الأمة المسلمة؟

كيف تتصنع الأمة المسلمة؟

ذكر إبراهيم عليه السلام ما يحتاجه صنع الأمة المسلمة على الأرض.

﴿... وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ لا بدَّ من رسولٍ أو رسولي لصناعة الأمة، الأمة الصالحة الأمة الرائدة، الأمة التي تنشر السعادة في الأرض، وتقود الإنسان على طريق النجاح والفلاح؛ لصنعها لا بدَّ من رسول، ولا بدَّ من فكرٍ رسولي، وإذا غاب الرسول فلا بدَّ من رموز رسولي، فابحثوا دائماً عن الرموز الرسالية، وانشدوا إليها، وتعلقوا بها، واستمسكوا بعرونها.

فإن هذه الرموز تتعلق بالرسول الأعظم ﷺ، تتعلق بعلي بن أبي طالب عليه السلام، تتعلق بأهل العصمة، والتعلق بالمتعلق بأهل العصمة فيه نجاة، والتعلق بغير أولئك النفر فيه خسران وبوار.

لا بدَّ من رسول، وإذا غاب الرسول لا بدَّ من رسولين، ربما كانوا بمجموعهم يساوون واحداً في المائة من الرسول.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ...﴾، فلا بدَّ من آياتٍ من آيات الله.

ولا بدَّ من بياناتٍ من بيانات الله.

ولا بدَّ من كتابٍ هو من الله سبحانه وتعالى، يقود البشرية يهتدي به الرسول، يهتدي به الرسوليون يطبقونه في الأرض، يسيرون على ضوئه.

فلا بدَّ إذاً - وفي وقتنا الحاضر - من رسولين، وتعلّق بهؤلاء الرسوليين.

ولا بدَّ من استمساك بالكتاب، برؤية الكتاب بطرح الكتاب في كل مساحة الحياة.

﴿...وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ لا بدَّ من تزكية لأن توجد الأمة القوية القائدة التي تستطيع أن تنضبط، وتستطيع أن تقف في وجه التيار، تستطيع أن ترد على التحديات، وتستطيع أن تعلّم وتعديل.

لا بدَّ لهذا كله من أن تتزكى هذه الأمة، والأمة لا تتزكى بنفسها وإنما لا بدَّ لها ممّن يزكيها.

الرسول كان يزكي الأمة.

كان يربيها.

كان يزرع في نفسها الأخلاق يزرع في الأفئدة والقلوب الخلق الإلهي العظيم.

كان يصوغ إرادتها.

كان يظهر ضميرها.

كان يملؤها بالمشاعر الإيجابية الخلاقة.

كان يدفع بها إلى الطريق القويم.

مَنْ بعد الرسول؟

كان الأئمة (صلوات الله وسلامه عليهم) .

ابحثوا عن بديل بعد رسول الله ﷺ ، لن تجدوا أولى من عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ، وأهل بيته من يزكي الأمة ويظهرها ويربيها .

ثم ابحثوا من بعد الأئمة عليهم السلام ، فلن تجدوا غير فقهاء الإسلام ، وغير العلماء الصالحين من هو قادر على تزكية الأمة التزكية التي يرضاها القرآن ، ولا تزكية على غير خط القرآن .

التزكية التي تتحدث عنها الآية الكريمة ، هي تزكية تصوغ النفس في ضوء مفاهيم القرآن وأحكامه وتشريعاته وجعولاته ، ما لم يكن ارتباطاً بالأطروحة الإسلامية ، وبالنظم الإسلامية ، وبالرموز الإسلامية ، لا يمكن للأمة أن تتزكى التزكية القرآنية المطلوبة ، هذه مقومات ضرورية كان يركز عليها دعاء إبراهيم عليه السلام ؛ من أجل صناعة الأمة المنقذة ، فكونوا الأمة المنقذة ، بتمسككم بكتاب الله ، بارتباطكم بعلماء الأمة المخلصين المجاهدين ، بالأخذ بمفاهيم الدين ، بالرد على كل ما يعارض الدين وإن صعب الرد .^(١)

خيانة الأمة

«إن أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأفظع الغش غش الأئمة» .^(٢)

إذا كانت خيانة الفرد كبيرة ، فخيانة الأمة أكبر ، والذين يتعاونون على إفساد وضع هذه الأمة ، وعلى خلخلة صفوفها ، وزرع الفتن فيها ، وسرقة أموالها ، وتضليلها هم من أعظم الخونة .

بل إن هذه الخيانة في الكلمة عن النهج أعظم الخيانة ، وذلك بالقياس إلى خيانة الأفراد .

١- خطبة الجمعة (١٥) بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ ، ١٣ يولييه ٢٠٠١م .

٢- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام - ج ٣ - الصفحة ٢٧ .

وأفصح الغشّ غشّ الأئمة؛ التخلّف عن الإمام الحقّ، رميه بالباطل، التخذيل عنه،
التقصير في نصرته، الكذب عليه، عدم تعظيمه وتوقيره، كلّ ذلك غشٌّ في حقّ الأئمة،
وأئمة الهدى (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أصحاب حقّ عظيم على الأمة لا
يستقيم أمرها إلا برعايته.

حقّ التوقير، والتعظيم، والطاعة للأئمة عليهم السلام أمر لا يستقيم وضع الأمة، ولا تصلح
إلا به.

إفشال مشاريع الإمام، التشكيك في خطاه، التخلّف عن تقديم ما تنجح به تلك
الخطط، التعاون مع الجهات المضادة.

عدم تقديم المعلومات التي تقلّل من خسائر المشاريع.

عدم تقديم الرأي بعد تقليبه وفي الصورة المؤدّبة.

عدم التنبيه على مواضع الخلل، النيل من شخصية الإمام، كل ذلك خيانات كبرى
هي خيانات لله وَعَلَى، ولرسوله، وللاّمة، ومسيرتها الحضارية كلّها.^(١)

الباب الأول الأمة والهوية

ما هو الانتماء؟

أي أمة أنت؟

نحن أبناء أي أمة؟

هل نعرف هويتنا؟

هل نعرف انتماءنا؟

علينا أن نحدد هذا الانتماء.

ما لم تحدد الأمة انتماءها، فإنها ستتيه.

وكل الأمم الأخرى وإن ضلّت، والتزمت قاعدة معينة تنطلق منها، وإن كانت هشة ستبني نفسها بعض الشيء، ولو على مستوى من المستويات، وفي بعد من أبعاد الحياة.

أما الأمة الإسلامية، وكأي أمة أخرى حين تبقى بلا قاعدة.

تعيش التذبذب والتزلزل في الرؤية وفي الانتماء، فإنها ستضيع، ستتيه، ستكون مغلوبة مقهورة مفجوعة، ملقاة حصة رخيصة، أو ذرة ضائعة.

علينا أن نحدد انتماءنا، وأبناء القرآن، وأبناء سنة رسول الله ﷺ.

إننا أبناء القادة الذين اختارهم الله ﷻ للبشرية كلّ البشرية قادة، أبناء رسالة السماء.

إننا نمثل الأمة الامتداد في مسيرتها لمسيرة الأنبياء والمرسلين، هذا هو انتماؤنا، وإذا عرفنا هذا الانتماء، عرفنا أين نضع القدم، وعلى أي طريق، وكيف نصنع.

ما هو حجم هذه الأمة؟

هذه الأمة المليارية، من ناحية العدد البشري، والتي تمتلك الثروة الهائلة من مختلف أنواعها، الثروات الطبيعية الأولية، ماء، ومعادن.

وتمتلك مناخات مختلفة، وينتشر عنصرها البشري في كل القارت.

وتمتلك شرايين صناعة هذا العالم وزراعته وسلاحه.

هذه الأمة التي تتوفر على الإمكانيات المادية الهائلة، أين فرنسا منها؟

أين بريطانيا منها؟

أين كثير من بلدان الكفر المتقدمة منها؟

أين الهند منها؟

الهند التي تختلف عناصرها اختلافاً مبدئياً يجعلها دائماً في انقسام؟!

هذه الأمة على المستوى المادي أمة عملاقة، وعلى المستوى المعنوي تمتلك أكبر كنوز المعرفة الإنسانية، وهي مهيئة من خلال المنهج العلمي، الذي يشدها إليه قرآنها، وسنة نبيها ﷺ إلى أن تسبق في العلوم المادية.

نعم، الأمة الإسلامية لو التزمت المنهج التي يدل عليها القرآن، وتدل عليها السنة، وهي منهجة معرفية تقدر العقل، وتقدر الحس وتقدر مصادر معرفية أخرى، وتضع كل مصدر من مصادر المعرفة في موقعه، وتناغم بين كل مصادر المعرفة؛ لتثري معرفة الإنسان، وعلم الإنسان بحياته وأخراه.

لو التزمت الأمة الإسلامية بالمنهج العلمية التي يفتح القرآن واعيتها عليها لسبقت كل الأمم، وما تقدمت الأمم الأخرى على المسار المادي، وفي العلوم العصرية إلا من خلال التزام المنهج العلمية التي يدل عليها القرآن، وفي جانب منها وهو جانب التجربة والاستقراء الحسي.

التجربة والاستقراء الحسي دلت عليهما المنهج القرآنية ومنهج السنة، كما دلت

على منهج العقل، ومنهج الوجدان، ومنهج الوحي.

هذه الأمة في بعدها المعنوي تمتلك هذه المنهجية العلمية، وتمتلك قرآنًا يدلها على مختلف حقول المعرفة، وتستطيع أن تستخرج منه قواعد الحياة الصحيحة، والاجتماع الصحيح، والسياسة الصحيحة المتقدمة.

تستطيع أن تفتح على كل القواعد التي تمول الفكر البشري في كل مساراته، وفي كل ما تحتاجه الحياة من خلال انفتاحها على القرآن والسنة.

القرآن الكريم، والسنة المطهرة يقدمان نظامًا اجتماعيًا، ونظامًا عباديًا، ونظامًا سياسيًا واقتصاديًا، ونظامًا حيائيًا متكاملًا لا يمكن أن يتقادم مع مرور القرون، وهو لا زال يثبت جدارته أمام كل الأطروحات البشرية التي ما أن يمر عليها قرن أو أقل إلا واهترأت وتقادمت.

هذه الأمة التي تمتلك هذا القرآن، والسنة.

وتمتلك من جهة أخرى الانتماء إلى الله وَكَلَّ.

وتمتلك قادة مثاليين.

وحين أقول مثاليين: ليس معنى ذلك أنهم لا يعرفون الواقع، مثاليين بمعنى نموذجيين، يجمعون بين المثالية والواقعية أتم جمع، وأحسن جمع.

هذه الأمة التي تتمتع بقيادة مثل قيادة رسول الله ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام، وتمتلك من الرموز الفعلية الكم الكبير والمتقدم نوعيًا جدًا من خلال الفقهاء والمفكرين الإسلاميين. هذه الأمة لا ينبغي لها أن تقع في موقعها الحاضر، وهو موقع التخلف، موقع التمزق، موقع الذيلية.

كفى أن الهند تفرض نفسها على باكستان، وأن تطالبها بأن تقدم لها الإسلاميين الذين يدافعون عن أرضهم في كشمير.

كفى أن تفرض أمريكا على كل حكومة إسلامية أن تطارد كل رصيد من أرصدة الإسلاميين في مصارف المال، وأن تفرض على الحكومات الإسلامية أن تقدم لها رؤوس

الإسلاميين الذين يجاهدون عن أرضهم وحرّيتهم وكرامتهم، لا أظن أن يوما سيمر على الأمة هو مشبع بذل أكبر من هذا اليوم.

ما هو الخيار المستقبلي؟

لا بدّ أن نحدد خيارنا المستقبلي أيها الإخوة، إما أن ندوب في الآخرين!

إما أن ننسلخ من هويتنا!

إما أن نستسلم حضارياً!

إما أن نقبل بالبدال.

إما أن ندوب في الآخر، وننسحق في الآخر.

وإما أن نختار خياراً آخر، هذا الخيار الآخر يمكن أن يكون هو حالة التذبذب، هو حالة عدم الاستقرار، هو حالة القلق.

أنا الأمة الإسلامية أنتمي إلى غرب، أو إلى شرق.

أنا الشاب المسلم، أنا الشيخ المسلم لا أدري شطر من أيمّم بوجهي؟

شطر الغرب، شطر الشرق، شطر الإسلام؟

هكذا حياة ستسحق الأمة، ستؤول بالأمة إلى الضياع، إلى التيه، ستنهي الأمة أيضاً كما ينهيها الفرض الأول.

الخيار الوحيد لهذه الأمة أن تعود إلى أصلاتها، أن تعمل على اكتشاف ذاتها، على اكتشاف كنوزها، أن تفرض إرادتها الشعبية شيئاً فشيئاً على الأنظمة التي حكمتها الإرادة الأمريكية.

تفرض إرادتها من خلال التقدم العلمي ما أمكن - وأنا أعرف أنها محاصرة علمياً -.

أن تفرض نفسها من خلال التقدم الإيماني ما أمكن - وأنا أعرف أنها محاصرة إيمانياً -.

أن تفرض نفسها على الأنظمة من خلال ثقافة عالية أصيلة، هذه الثقافة المطاردة المقرّمة المحجّمة الحبيسة، أن تنمي نفسها من مختلف الجوانب والأبعاد، وهي مطاردة في جميع الجوانب والأبعاد.

لا أقول: إن هذا بإرادة داخلية تعيش في أفكار أنظمة البلاد الإسلامية، ولكن بما أن أنظمة البلاد الإسلامية بما أن كثيراً من هذه الأنظمة قد عاشت الضغط الأمريكي الهائل، وقد أُسرت للإرادة الأمريكية، وللإرادة الأوروبية، فهي لا تستطيع إلا أن تستجيب لإرادة الطرف الآخر ولو على حساب أمتها، ولو على حساب أمانها الخيالية المفصولة عن واقعها العملي.

ما هي الوسيلة؟

الوسيلة هذا التقدم، الوسيلة طلب الخبرة في كل الجوانب، والوسيلة هو التنسيق ما أمكن بين الشعوب الإسلامية وبين حكوماتها، وإشعار هذه الشعوب لحكوماتها بأنها لا تعاديهما، وبأنها لا تريد بها كيداً.

في الوقت الذي يحترم الشعب نفسه، وفي الوقت الذي يحاول أن يفرض إرادته من خلال وعي وصحوة ومن خلال تقدم ينفع البلاد الإسلامية ويبنيها ولا يهدمها، إلا أنه يشعر الحكومات وعن صدق بأنه لا يريد بها كيداً، ولا يتأمر عليها. نريد التنسيق.

نريد التلاحم بين الحكومات وبين الشعوب، لكن لا لتقتل الشعوب وإنما لتتقدم، لا لتموت الأمة وإنما لتحيا.^(١)

١- خطبة الجمعة (٤٠) ٢٠ شوال ١٤٢٢هـ، ١ أبريل ٢٠٠٢م.

الباب الثاني

الأمة والعلاقة بالأنظمة الحاكمة

تقويم العلاقة بين أنظمة الحكم والأمة

١- الأنظمة الرسمية محتاجة إلى أن تتفهم بأن هنا أمة، وهي أمة عملاقة، أمة أمجاد، وأمة حضارية كبرى، وهذه الأمة لا يمكن أن تتنازل عن هويتها، ولا يمكن أن تستسلم لعدوها إلا بأن تحترق الأرض كلها.

٢- من الخيال أن يُصدّق بأن المسلمين في شرق الأرض وغربها سيستسلمون للإرادة الاستكبارية، وسيتنازلون عن الإسلام، وسينسون كبرياء الحضارية، وسينسون ذاتهم العملاقة التي تستمد الشعور بالعزّة، والكرامة، والإباء، والشموخ، والثقة من الصلة بالله سبحانه وتعالى.

٣- الأنظمة لتكون للأمة، ومن أجل أن تكون الأمة معها، ومن أجل أن تبني القوى الواحدة الضاربة، القادرة على الصمود، المستحيل عليها أن تستسلم، محتاجة إلى مشاركة شعبية، وتمثيل حقيقي للشعوب الإسلامية في صياغة القرار الرسمي.

الأمة المعزولة، الأمة المغيّبة بكل قواها الضاربة وبكل طاقاتها العملاقة يجب أن يكون لها حضورها الفاعل في قرارها الرسمي وإلا ستبقى الأنظمة ضعيفة مهلهلة، وستكون محل طمع الطامعين.

٤- محتاجة هذه الأنظمة إلى سياسة لا تقصي طرفاً من أبناء الأمة لحساب طرف، فهي أمة واحدة، إن تكن فيها أطراف، فالطرفية هنا طرفيّة أخوة لا طرف عداوة.

٥- تحتاج الأنظمة إلى تطور سياسي إيجابي جاد متوافق عليه بصورة سلمية لا تنجرّ بالأنظمة نفسها وشعوبها في آخر الشوط إلى مواجهات عنيفة تُنزل بهذه الأمة أكبر الهزائم.

٦- محتاجة هذه الأنظمة إلى الكف عن سياسة الهيمنة المذهبية على المستوى السياسي والتشريعي، والحقوقى، والثقافي، والتعبدي.

لا بد من إقلاع عن سياسة الهيمنة المذهبية والقومية وغيرها ولا يبرر سياسة الهيمنة أن تطرح بعناوين وحدوية مع كونها ذات مضمون سلطوي يكرّس روح الهيمنة والتحكم، وإلغاء الآخر.

٧- لا بد للأنظمة والشعوب من التوافق على تقبل مبدأ النقد والمحاسبة للوضع الرسمي بلغة الأرقام والعلم، وبعيداً عن اللغة الإعلامية الاستفزازية كلما أمكن الأمر، ولم تدع الضرورة البالغة لذلك، وأن تحترم هذه اللغة، وتستتبع حقائقها تعديلاً في الأوضاع.

٨- الظلم كارثة على الجميع، والأمثلة الحية تمدنا بالوعي في مسألة ما يستتبعه الظلم الفئوي، والظلم الطائفي، والظلم القومي من كوارث على البلد الواحد، وعلى الأمة بكاملها.

الجزائر كانت ضحية الظلم.

العراق كانت ضحية الظلم.

لبنان في حربها الأهلية الممزقة كانت ضحية الظلم.

أفغانستان في مسيرتها المضطربة، وفي خسائرها الكبرى كانت ضحية الظلم.

فلسطين اليوم وتحت وطأة العدو الشرس والهيمنة العالمية اليد التي يقال عنها بأنها قوية فيها - وهي اليد الإسرائيلية - لا يمكن أن يكون صاحبها على أمن، ولا يمكن أن يطمئن، أو يستريح.

أي بلد من البلدان، وأي أمة من الأمم يدخلها الصراع الداخلي لا يهنأ فيها أحد، ويشقى فيها كل أحد.

٩- تعالوا نكن أسرة وأسرّة حقيقية، وشعار الأسرة شعار تكون له قيمته بمضمونه الحقيقي.

تعالوا نكن إخوة، وللاُخوة حقوق.

تعالوا نلتزم بحقوق الأخوة والأسرية.

تعالوا نكن إخواناً على طريق الله.^(١)

متى تتحد المصلحتان - مصلحة الأنظمة ومصلحة الأمة - ؟

لا يكون ذلك إلا عندما تكون الأنظمة نابعة من رضا الأمة، وتعالقناعتها، وجاءت باختيارها.

وعندما يكون اتحاد على المبادئ والخطوط العريضة لسياسة الأمة، وتكون مصالحها هي المنظورة أولاً وبالذات قبل مصلحة الأنظمة.

وهذا الاتحاد في المصلحتين يمكن أن يأتي بعد أن يكون اعتماد الأنظمة على الله سبحانه وتعالى أولاً، ثم على الأمة، وشعوبها، وجماهيرها.

أمّا إذا كان اعتماد الأنظمة في استمرارها على الدعم الأمريكي، وعلى الاحتضان الأمريكي، وعلى الرضا الأمريكي، فلا شك أن مصلحة الأمة في وادٍ ومصلحة الأنظمة في وادٍ آخر، فإن أمريكا ليست صديقة الأمة، وليست الأمانة على مصالحها.^(٢)

اتحاد الأنظمة لا يكون من دون مرجعية الشعوب

لو كانت الأنظمة السياسية التي تحكم الأمة كلها صالحة، منسجمة مع مصلحة شعوبها، متّحدة في الرؤية معها، حريصة على حاضرها ومستقبلها، منبثقة من إرادتها، معترفة بحقّها وحرّيتها ومرجعيتها السياسية، عادلة في حكمها لكان في اتحادها نقلة كبيرة في اتجاه قوّة الشعوب وعزّتها ومنعتها وخيرها وتقدّمها، وحماية للأمة كلّها أمام كلّ الأخطار والتحديات.

وكلّ اتحاد من هذا النوع، وفي ظل هذا الشرط.

١- خطبة الجمعة (١٢٩) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

شرط المرجعية السياسية للشعوب فيه قوّة وعزّ وتقدّم للكيانات المتّحدة ابتداءً من الشعوب حتى الحكومات.

أمّا الاتحاد بين الأنظمة المنفصلة عن شعوبها، المختلفة معها، غير المعترفة بمرجعيّتها، وحرّيتها وحقّها في الحكم والثروة وتقرير المصير، فلا يمكن لهذه الشعوب أن تعدّه قوّة لها، أو يصبّ في صالحها.

إنّ قوّة الأنظمة قوّة للشعوب حيث تلتقي الرؤية عند الأولى مع الرؤية عند الثانية، ومصلحتها مع مصلحتها، وحيث تكون الأنظمة منبثقة من إرادة الشعوب، ومن منطلق مرجعيّتها.

وفيما عدا ذلك إنما تتقوّى الأنظمة من النوع الذي لا يحترم إرادة الشعوب، ويرى في قوّتها مع إصرارها على الحرية ما يستوجب المناهضة أوّل ما تتقوّى ضد شعوبها، وإجهاضاً لمطلب الحرّية والحقوق السياسية العادلة.^(١)

أزمة الثقة بين الأنظمة والأمة

الكل يعلم أن هناك أزمة ثقة، وفاصلة كبيرة، ودرجة كبيرة من الاحتقان، من التذمر، من بدايات تمرد تحدث هنا وهناك، من توقع انفجار عام، وتخلف واضح في جسم الأمة والأنظمة نتيجة لقصور وتقصير ترمي بلائمتها الأنظمة الأمة، وترمي بلائمتها الأمة الأنظمة، والأنظمة أملك للأمر من الأمة، وهي أقدر فعلاً من خلال تحكّمها بإمكانات وقابليات وثروات وقدرات الأمة، فهي تتحمل المسؤولية بالدرجة الأولى.^(٢)

منشأ الخلاف

الخلاف هل هو على مصالح الأمة، أو هو خلاف منشأ مصالح الأنظمة؟
فيما يجمع عليه الرأي العام في الأمة هو أن خلاف الأنظمة في الكثير الأكثر إنما

١- خطبة الجمعة (٤٩٦) ٢٩ ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، ٢٣ مارس ٢٠١٢م.

٢- خطبة الجمعة (١٥٠) ٢٦ صفر ١٤٢٥هـ، ١٦ أبريل ٢٠٠٤م.

هو خلاف من منشأ مصالح الأنظمة نفسها، وليس من منشأ مصالح الأمة، وهذا مؤلم محزن مؤسف.

أن يحصل مثل هذا الإجماع في الرأي العام - على الأقل - يعني مؤشراً خطيراً جداً.^(١)

الوقاية خير من العلاج

تعاني البلاد العربية والإسلامية من حالة تفكك خطير، وسوء ظنٍّ، وتوتر في علاقاتها البينية، ومن حالة تدهور سيئ في علاقاتها الداخلية بين طرقي الحكومات والشعوب.

ومشاكل الداخل المتفاقمة، وفقد الأمن، وتصاعد حالة الاحتراب تنتشر في باكستان، وأفغانستان، والصومال، والسودان، والعراق، وتهدد كل هذه الأقطار بحريق هائل ماحق.

وبلدان أخرى إسلامية وعربية بدأت الفتنة فيها تخرج من حالة الاختمار إلى حالة الاشتعال سواء ظهر ذلك في الإعلام قوياً، أم لم يظهر.

وما من بلد من بلدان الأمة إلا وتختمر فيه الفتنة على الأقل.

والحديد والنار، والتعذيب والتشريد، والسجون والتهميش ليست الأسباب التي تقضي على الفتن، وإنما هي تُغذيها، وإن أُخِرت يوم لهيبها بعض حين.

ولا وقاية أوضح وأجدي من أن تسرع الحكومة في عملية إصلاح جدية مشهودة على الأرض بأسرع وقت ممكن تتناول تحسين الوضع السياسي والأمني والمعيشي والديني والأخلاقي والخدمي، وأن تتحرك عن جد لا هزل لحالة توافق على مصير كل الملفات الساخنة، وخارطة الحل لكل واحد منها بما ينهي حالة التجاذب والصراع الخطيرين،

١ - خطبة الجمعة (١٤٨) ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

ويؤدي إلى علاقة هادئة إيجابية مستقرة.

يُسيئُ جدًّا، ويؤلم كثيرًا أنه بالإضافة إلى المشاكل والتأزمات البينية المنذرة في البلاد العربية والإسلامية، توجد في كل بلد عربي وإسلامي قنابل اجتماعية موقوتة، ومشاكل مفعَّخة بين الشعوب والحكومات قابلة للانفجار في أي لحظة.

والخطر داهم، ويُخطئ مَنْ قامت سياسته في أي بلد على هدف التفرد بكل الصِّلاحيَّات، والحقوق، والمكتسبات، والخير، والأرض، وسائر الثروة والحياة، وإلغاء الآخر ودفنه وقبره.^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٨٢) ٢٩ شعبان ١٤٣٠هـ، ٢١ أغسطس ٢٠٠٩م.

الباب الثالث

الأمة والوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية الكبرى

مَن كان هدفه الإسلام كانت الوحدة هدفه.

فلست تجد عالماً يفهم الإسلام يأخذ بخيار الفرقة، ويهمل شأن الوحدة.

ليس أنه لا يدعو للفرقة فقط، وإنما يكون من همّه دائماً أن يعمل على الوحدة بين المسلمين، بل إنه يستهدف الوحدة الإنسانية الكبرى.

الوحدة الإسلامية الكبرى لا تعزل باقي البشرية، وتلقي بهم إلى النار، وتجهلهم، وتسلبهم وعيهم، وتقتل فيهم طموحاتهم.

الوحدة الإسلامية الكبرى؛ من أجل أن تتمدد وتتعمق؛ لتكون وحدة إنسانية كبرى على خط الله ليس فيها ظالم ولا مظلوم.

علامة الوعي

هدف الوحدة علامة الوعي والفهم الحقيقي للإسلام، فمن لم يهدف هذا الهدف دلّ بموقفه على نقص في الوعي والفهم للإسلام ودعوته.

الوحدة الإسلامية الكبرى منطلقها الحرص على مصلحة الإسلام، والإخلاص له، وعدم المتاجرة به، مسؤولية علماء الدين أولاً، ثم هي مسؤولية النخبة الإسلامية المثقفة على أنها مسؤولية أمة بكاملها.

والأمة بعمومها ترضى من ساستها اليوم عدم الوقوف مع عدوها في خندق واحد، وأن تتساق الأنظمة بينها؛ من أجل المصلحة العامة، وأن لا تكون عيناً، ولا يداً على بعضها البعض؛ من أجل الأجنبي.

ومن يأتي من عند الأئمة عليهم السلام لا يستطيع إلا أن يطرح شعار الوحدة ويخلص له، وأن يعيش همّ المسلمين جميع المسلمين بلا نظر إلى مذهب وآخر. ^(١)

المراد من الوحدة

ما هو متعلّق الوحدة كما تظن؟

أن نتحول شيعة كلنا؟

أن نتحول سنة كلنا؟!

مطلب ليس دونه خراط القتاد - كما يعبر الفقهاء -، وإنما دونه حصد الرقاب.

لا يمكن بأي حال من الأحوال، وتحت أي ضغط أن يتحول العالم الإسلامي كله إلى شيعة، أو أن يتحول إلى سنة.

وإذا أردنا الوحدة على مستوى تفاصيل العقيدة، فإن الصحابة - كما سبق - لم يكونوا على رأي واحد في هذا الأمر.

وإذا أردنا وحدة إسلامية على مستوى الفروع الفقهية، فالصحابة إذاً لا يشكلون أمة واحدة.

والمذاهب السنية الأربعة لا تشكل أمة واحدة.

والمذهب الشيعي نفسه في اجتهاداته المختلفة لا يشكل أمة واحدة.

إما أن نقبل بأننا كنا ونحن في أحضان الإسلام بعد حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمماً، وبقينا أمماً، وسنبقى أمماً، وذلك للاختلاف الفقهي، وفي بعض تفاصيل العقيدة، وفي دقة الرؤية التوحيدية وعدم دقتها، وأن علينا أن نحصد أصدنا الطرف الآخر إلى آخر واحد.

وأما بأن نقول: بأن كل هذه الاختلافات لم تعدد الأمة في ماضيها، ولا تعددها في حاضرها ومستقبلها، والأمر كذلك.

١ - خطبة الجمعة (١٢٧) ٧ شعبان ١٤٢٤ هـ، ٣ أكتوبر ٢٠٠٣ م.

إننا أمة واحدة عقيدة وفقها، والاختلاف في بعض دقائق العقيدة، والفروع الفقهية لا يقسمنا إلى أمتين أو أمم.

الموحدون الشيعة ليسوا على فهم واحد للتوحيد.

والموحدون السنة ليسوا على فهم واحد للتوحيد.

فإذا كان التفاوت في دقة الفهم لقضية التوحيد مقسمًا إلى أمم، فنحن لسنا أمتين فقط، وإنما أمم متكثرة.

وقد سبق أن النبي ﷺ مسلم وهو على توحيد أكمل توحيد، وأن الأعرابي الذي آمن بالأمس أو اليوم مسلم وهو على ما هو عليه من توحيد ضبابي غائم، وذلك من ناحية الحقوق العامة الدنيوية للمسلم على أخيه المسلم.

وإذا كانت العقيدة لا يمكن أن نتوحد عليها بمالها من دقة بالغة، فهناك قضايا كثيرة جدًا يمكن أن نتوحد عليها، ويجب أن نتوحد عليها:

١- الحفاظ على الأمن الوطني لكل بلد من بلدان الإسلام، قضية تهم الجميع، وفقدوها يضر بالجميع، ولا أمر يقتضي الاختلاف في الحفاظ على هذه القضية.

٢- إقامة العدل في أرض الإسلام، والأخذ بالمساواة في الحقوق والواجبات، المساواة بمعناها الدقيق، وليس بمعناها السطحي الساذج.

إقامة العدل في أرض الإسلام، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مواجهة الظلم والفوضى من أي مصدر كان من حاكم أو محكوم، من سني أو شيعي.

هذا كله يمكن أن نتوحد عليه.

٣- حماية الدين والأمة من الأجنبي، أمر يهم الجميع، وغيابه يضر بالجميع، ولا عائق إذا أنصفنا يعيق عن الأخذ بالوحدة في هذا المجال.

٤- التقدم بمستوى الأمة وأوطانها، وحلُّ مشكلات الجهل والفقر والمرض إلى آخر المشكلات، وهي مشكلات تضايق الجميع، وتضرُّ بالجميع، من مسؤولية الجميع، والتوحد عليها لا يقف أمامه عائق.

٥- تبليغ الإسلام في خطوطه العامة، وكذلك أن تبليغ الإسلام كما تفهم، وأبليغ الإسلام كما أفهم.

تبليغي وتبليغيك يخدمان الإسلام العام، ويُقلِّلان من موجات الكفر وامتداداتها في البلاد الإسلامية على الأقل.^(١)

الوحدة بين الإلغاء والاحترام

تتكوَّن الأمم، والدول، والأقطار في العادة من أكثر من قومية، أو دين، أو مذهب، أو قبيلة، أو لغة، وهي محتاجة للوحدة أو التآلف؛ حتى تنتظم أمور الحياة فيها وتتقدم وترقى، وتكفي النزاعات الواسعة الدائمة المرهقة والمكلفة والمهلكة.

والوحدة يمكن أن يطلبها الطالبون عن أحد طريقتين، ويتصوروا لها أحد أساسين: الإلغاء، والاحترام.

الإلغاء أساس باطل، وفاسد، وغير منتج.

الإلغاء مقدِّمة الافتراق، والبغضاء، والكره، والاحتراب والفوضى، ودمار الأوطان. والاحترام أساس حق، وصالح، ومنتج، يرسِّخ الأخوات، وينتج السلام والأمن، ويوِّاه في بين الجهود على طريق المصلحة المشتركة، فتجد السواعد كلها في جهد متناسق؛ لإشادة البناء على الأرض، ولصلاح الإنسان.

والاحترام هو احترام كل طرف للطرف الآخر.

احترامه لإنسانيته، وكرامته.

وهو احترام للخصوصية القومية، والدينية، والمذهبية، واللغوية.

واحترام لحقوق المواطنة، ويتمثل في المساواة في الحقوق، وفي الاشتراك العملي الحقيقي في الشأن العام المشترك.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (٣٣٣) ٧ رجب ١٤٢٩هـ، ١١ يوليو ٢٠٠٨م.

بين الوحدة والشتات

دين التوحيد ينظر للإنسان بما هو نوع واحد، ويستهدف توحيده على خط الله. والدين الحق وحده من بين كل الأطروحات هو القادر على أن يلاقي بين المصالح الفردية، والفئوية، والوطنية، والقومية، والإنسانية النوعية، - ولا متسع لشرح الأمر -.

على طريق ذلك نحن نجد أن طلب القوة في الإسلام لا يكون بسلب الغير واستضعافه، وأن قوة الفرد يوظفها الإسلام على طريق قوة الفئة، وقوة الفئة على طريق قوة الوطن، وقوة الوطن على طريق قوة الأمة، وقوة الأمة على طريق قوة الإنسانية.

لوراجعنا الإسلام مراجعة دقيقة لوجدنا أنه يدفع بالأفراد إلى طلب القوة، لا على حساب الآخرين، ولا مفصولاً عن مصلحة الآخرين ودعم قوتهم.

ثم إذا كان الإسلام يمحور كل حركة الإنسانية حول محور التوحيد، فإنه إذا تمحورت كل الحركة حول المحور الواحد الصحيح، فلا بد أن ينتج ذلك اتحاد الناس المنشدين إلى ذلك المحور.

لا توحد على الباطل

وكما يمنع الإسلام حالة الشتات يمنع حالة التمحور والتوحد على الباطل، وأنه لا تعاون على شر أو خطأ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾^(١).

اعتصام بما به الاعتصام من الخطأ والجهل والظلم، ولا اعتصام إلا بحبل الله. يطلب بعضنا من البعض الاتحاد، ولكن يسبق كل ذلك سؤال: الاتحاد على ماذا؟

الاتحاد على أطروحة غربية؟

على أطروحة شرقية؟

أو أن الاتحاد الحق، الاتحاد المطلوب هو الاتحاد الذي يعني الاعتصام بحبل الله؟

فلنتعلم أن الاتحاد دائماً يطلب بأن يكون بالاعتصام بحبل الله.

ولنتعلم أن ألا نغالط من قبل الآخرين بطلب الاتحاد بشكل مطلق.

والآية الكريمة الأخرى في شطر منها تقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾^(١).

إذاً، نحن أمام مطلب ديني واضح وهو أن نتحد، ويكون هذا الاتحاد خاضعاً لرؤى الدين، وأحكام الشريعة.

ولا اتّحاد على الإطلاق على ما فيه منافاة الدين، وأحكام الشريعة.

فكلُّ صوت، وكلُّ راية تدعو إلى الالتفاف بها، على المسلم أن يتحقق من أمرها، أهي راية تخضع لشريعة الله؟، وتقدر أحكامه؟، وتعترف بالعبودية له؟، أو تتنكر لشيء من ذلك؟

وإذا أراد ان يبقى على خط إسلامه، فلا يتبعن أحداً من غير إذن الله على الإطلاق.^(٢)

ما هي الأمة المسلمة المؤمنة التي خوطبت بوجوب الوحدة؟

ما هي الأمة المسلمة المؤمنة؟

أهي خصوص أهل المذهب الجعفري؟

أهي خصوص أهل المذهب الحنبلي؟

أهي خصوص أهل المذهب المالكي، غيرهم؟

أم هي أوسع من ذلك؟

الأمة التي خوطبت بالوحدة، وخوطبت بالتعاون على الخير، وخوطبت بحقن الدماء، وحفظ الأعراس والأموال، فكان ذلك مسؤولية ملقاة على عاتقها، ما هي هذه الأمة؟

١- المائدة: ٢.

٢- خطبة الجمعة (٢٢٤) ١٣ ذي القعدة ١٤٢٦هـ، ١٦ ديسمبر ٢٠٠٥م.

قل عني بحكمك الذي لا نفاذ له أني مذهبي من أهل النار، ولكن أبقى مع ذلك واحداً من الأمة الإسلامية التي عليك أن تراعي حقوقها العامة ما دمت على شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وليس كل من فسق أو أخطأ تسقط حقوقه ويخرج عن الإسلام.

نقرأ على مستوى :

١- القرآن الكريم

هذا الخطاب للمؤمنين، للأمة المؤمنة:

أ- الآية الأولى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَبْغِي إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. (١)

فئتان تتقاتلان بالسيف في العراق، فئتان تقاتلتا بالسيف: فئة علي عليه السلام وفئة معاوية، علي إمام الحق المعصوم، ومعاوية الباغي، الخارج عن الحق، لكن الفئتين في نظر الإسلام مسلمتان على مستوى وجوب حفظ الدم، وجوب حفظ العرض، وجوب حفظ المال خارج التقاتل الذي تسبب إليه الباغي، وبدأ به.

ب- الآية الثانية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (٢)

ج- وفي خطاب آخر للذين آمنوا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. (٣)

١- الحجرات: ٩-١٠.

٢- آل عمران: ١٠٣.

٣- المائدة: ٢.

الآية الأولى تخاطب المؤمنين في قبال أهل الكتاب، فالناس فيهم فريقان: فريق أهل الكتاب، وفريق المؤمنين الذين تأمرهم بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق.

فهي تتحدث عن أمة التوحيد بالصورة الإجمالية، وتشمل هذه الأمة أصحاب الآراء المتباينة، والمذاهب الفقهية المختلفة، وحتى أصحاب الخلافات التفصيلية في العقيدة التي لا تخرج بالقضية عن التوحيد بصورة عامة، وعن الإيمان بالرسالة والرسول ﷺ.

الأمة التي خطبت بأنها أمة مسلمة ومؤمنة كانت تختلف في تصورهما للتوحيد، كانت تؤمن بوحداية الله على وجه الإجمال.

أما معنى التوحيد، فيختلف في أذهانها اختلافاً كبيراً جداً، وما كان يمكن أن يساوي التوحيد في صورته في نفس أعرابي أسلم اليوم مع صورة التوحيد في ذهن علي عليه السلام، في ذهن النبي ﷺ، لكن النبي مسلم، وذلك الأعرابي الذي أسلم اللحظة مسلم من ناحية الحقوق الدنيوية العامة المترتبة على أصل الإسلام.

وكم كان يختلف الناس في فهم الحديث عن رسول الله ﷺ، فيختلف بذلك فهم الحكم الشرعي عندهم، والناس في زمن الخلافة بعد رسول الله ﷺ كانوا على مذاهب في تفاصيل العقيدة، وكانوا على مذاهب في الفقه، وكانوا كلهم أمة مسلمة مؤمنة من ناحية الحقوق المذكورة، ومن ناحية المصلحة المشتركة، ومن ناحية الواجبات الملقة على عاتق الأمة في حماية الإسلام والذرع عنه، والحفاظ على مصالحه، والتقدم بالأمة المؤمنة.

وفي اعتبار القرآن، وفي اعتبار السنة أن كل هذه المستويات الإيمانية، وأصحاب هذا المحيط الواسع بما فيه من اختلافات، وبما فيه من رؤى تفصيلية قد تكون متعارضة يشكلون الأمة المؤمنة بالإيمان العام، والمخاطبة بحقوق ثابتة على كل عضو عضو بالنسبة للآخرين في هذه الأمة.

أقول لكم إخوتي: إن الفريقين اللذين تقاتلا في صفين هم في الإسلام مسلمون، وأن الفريقين اللذين تقاتلا في الجمل هم في الإسلام، وفي نظر القائد المعصوم مسلمون.

نعم، هناك إمام حق وإمام باطل، هناك أصحاب شرعية، وهناك طغاة بغاة خارجون على الإمام الحق بغير حق.

٢- على مستوى الحديث

أ- في الموثقة، في سند صحيح إلى ما قبل سماع الراوي: «عن أبي عبد الله عليه السلام - وهو الإمام جعفر الصادق عليه السلام -: «الإسلام شهادة ألا إله إلا الله، والتصديق برسول الله ﷺ، به - أي بهذا الإسلام - حُقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس»^(١).

جماعة الناس الذين يُطلق عليهم أنهم مسلمون، كل أولئك الناس.

الإسلام درجات، وكذلك الإيمان درجات، هناك إيمان عام، وإيمان خاص، ونحن لا نتحدث عن المراتب العليا للإيمان والإسلام، إنما نتحدث عن مرتبة من الإسلام يكون لي عليك بها حق، ويكون لك بها علي حق، من أظهر هذا الحق حفظ الدماء والنفوس والأعراض، وأن علينا أن نتحد.

وعلينا أن نتناصر ونتعاون في الحق.

وعلينا أن نرتفع بمستوى الأمة، ونرعى مصالحها.

وأن لا نبني مصالح دنيوية لهذه الفئة على حساب الفئة الأخرى تنقض حقها، وتضعف عموم الأمة.

ب- وفي صحيحة حمران بن أعين عن الإمام أبي جعفر بن محمد علي الباقر عليه السلام أنه قال: «الإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلها - ما أكثر الفرق يوم أبي عبد الله عليه السلام -، وبه حقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فخرجوا بذلك من الكفر، وأضيفوا إلى الإيمان»^(٢).

١- الكافي ج ٢ ص ٢٥.

٢- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٥ - الصفحة ٢٥١.

هذا هو الإيمان العام، هذه هي الأمة المؤمنة في المعنى العام للإيمان، ويبقى التفاوت داخل المؤمنين واسعاً جداً، فمن إيمان إنسان يفسق في كثير من أحكام الإسلام إلى إيمان النبي ﷺ !

لكن يبقى الاثنان داخلين في الأمة المؤمنة، المسلمة بالمعنى العام للإسلام والإيمان. وقد عدد الحديث الأخير بعضاً من العلاقات الشرعية القائمة بين المؤمنين بهذا المعنى، وبعض الحقوق.

في ضوء النصوص السابقة: يمكن لنا أن نقول: بأن الوحدة الإسلامية واجبة شرعاً وبكل وضوح واطمئنان.

ومن ناحية عقلية، فإن حفظ مصلحة الإسلام، وحفظ كيان الأمة، والرقى بمستوى الأمة، والتقدم بها، وصون الإسلام من العدوان الخارجي كل ذلك واجب شرعي، وهو متوقف على وحدتها، فتكون الوحدة واجباً في العقل.

ثم توجد الضرورة العملية:

هناك عدوان شرس على الأمة بكل مذاهبها.

هناك عملية سحق خارجي.

هناك عملية تصفية، محو لوجود هذه الأمة، استيلاء عليها، استعباد، سلب لحريتها.

هذا العدوان الشرس، وهذه الهجمة الظالمة لا يردعها شيء كما هي الوحدة، فالضرورة قاضية بالوحدة بين المسلمين.

واقع الأمة وقضية الوحدة

هذا كلام فيما هو الواجب.

أمّا فيما هو الواقع، فتصوّراً يمكن للأمة أن تكون متّحدة.

ويمكن لها أن تكون مفترقة.

ويمكن لها أن تكون محتربة، والاتحاد قوّة، والافتراق ضعف، أما الاحتراب فانتحار. وإذا كان هذا هو التصور، فإن واقع الأمّة خارجاً بين أمرين: بين الافتراق والاحتراب، الافتراق كاد يكون مستولياً على الساحة بكاملها.

الافتراق على أساس المذهب، وعلى أساس القومية، وعلى أساس الطبقة، وعلى أساس حاكمين ومحكومين كاد أن يستولي على الساحة الإسلامية بكاملها، والاحتراب بدأ ينشط ويتحول إلى ظاهرة ممتدة، تتمدد وتتوسع؛ لتستوعب المساحة الكبرى من واقع المسلمين وحياة المسلمين.

هذا هو الواقع.

ما الأسباب؟

١- يظهر لي أن من أقوى الأسباب لهذا الواقع المرير المهترئ والمستعر والمدمر هو فتح باب الاجتهاد بصورة مبتسرة، ووجود اجتهادات قاصرة ومجتهدين صغار كثر.

والإخوة السُّنة الذين كانوا يسدون باب الاجتهاد أصبح باب الاجتهاد عندهم مفتوحاً على مستوى طالب جامعي، على مستوى إنسان غيور عن الدين ليست له أية عقلية فقهية تؤهّله للاجتهاد.

صار الاجتهاد من ناحية عملية حقاً حتى للمتقنين العاديين، وهذا منتشر عند الإخوة السنة، وقد يمتد إلى المحيط الشيعي.

٢- قصر النظر العملي الموضوعي.

هناك مَنْ يحمل شيئاً من الفقه، أو يعطي لنفسه حق الاجتهاد من غير أن تكون له بصيرة عملية، ولا يعرف تشابكات الواقع، وما تنتجه فتاواه من مخاطر مدمرة.

ولا بدّ أن ندخل في حسابنا هنا التربية السيئة، أصحاب المصالح السياسية التي يذهب بهم الجشع والطمع والندبوية إلى حد التضحية بالأمّة، وبكل مقدّس، وبكل غالٍ عليها حفاظاً على مصالحهم السياسية والمادية، وما أكثر حكومات العالم العربي والإسلامي من هذا النوع في هذا اليوم!!

- ٣- العملاء الأجراء للأجنبي على مستوى الأفراد، والمؤسسات، والحكومات.
- ٤- الدور التخريبي المباشر للأجنبي، وهيمنته السياسية على البلاد الإسلامية، وقدرته على فرض آرائه وسياسته على هذه الحكومة، وتلك الحكومة.^(١)

أسباب الفرقة بين المسلمين

إلى متى؟ ولماذا الجدار السميكة العازل؟!

أما لماذا، فـ:

- ١- لفهم سيئ من بعض كل مذهب لمذهبهم.
- هناك سنة لا يعرفون مقتضى مذهبهم، وهناك شيعة لا يعرفون مقتضى مذهبهم. هؤلاء لا يعرفون حرص مذهبهم على وحدة المسلمين، وأولئك لا يعرفون حرص مذهبهم على وحدة المسلمين.
- ٢- يُضاف إلى ذلك التربية المتعصبة: من عالم جاهل، ومن عجوز على سداجة، ومن فئات ضالة.
- ٣- المصالح المرتبطة بالإثارات المذهبية: لزعيم شعبي، أو لعالم، أو لغيرهما.
- ٤- ضعف الفهم السياسي: وإننا لا نعرف ماذا يريد بنا عدونا، وماذا يكيد لنا عدونا.
- ٥- المواقف السياسية غير العادلة لبعض الحكومات التي تكون شعوبها من أكثر من مذهب.

هذه المواقف السياسية غير العادلة تستثير المظلوم على المدلل.

إذا كان أتباع مذهب يدللون، وأتباع مذهب آخر يُظلمون، فهذا الواقع بنفسه يستثير أهل مذهب على مذهب وإن كان ليس لهم شأن في ذلك.

١- خطبة الجمعة (٢٦٨) ٢٩ ذي الحجة ١٤٢٧هـ، ١٩ يناير ٢٠٠٧م.

٦- سياسة التحريض التي قد تحتاجها بعض الحكومات - التحريض الإعلامي، والتحريض المكشوف وغير المكشوف، والتخويف، والترعيب -.

٧- كون الأمة محكومة لأعدائها الأجانب ممّا يسهل عليهم إحداث الفرقة وتحذيرها.

٨- عدم أخذ الوجدويين الأمر على محمل الجد إلى الحد المطلوب.

٩- التمزق السياسي الرسمي للأمة المؤدي إلى تمزق اقتصادي، واجتماعي، وسياسي في الشعوب.

هناك تمزّقات مذهبية وتمزّقات قومية فعلية، والتمزق المذهبي غير أصل المذهبية، والتمزق القومي غير أصل القومية.

هناك تمزّقات مذهبية، وتمزّقات اجتماعية، وتمزّقات قومية مبعثها التعددية السياسية في الدول.^(١)

وهناك عوائق تقلل من حظ الوحدة الإسلامية، منها:

١- نمط العلاقة التقليدية الراسخ، المتمثل في التعامل السطحي الذي وصفناه بعض وصف، والمطلوب تعامل عمقي، تعامل ثقافي، تعامل مشاريعي يخدم المسلمين بصفة عامة.

٢- مصالح سياسية.

أصحاب المصالح السياسية يعملون للحفاظ على مصالحهم، وقد لا تسلم المصالح السياسية بعض الأحيان في ظل وحدة إسلامية في هذا الشعب أو ذاك الشعب.

وهنا يأتي فساد كبير في حياة المسلمين، وشرخ هائل يصل بالمسلمين إلى الفرقة الثابتة والعداوة الشاملة وهو ذنب ترتكبه السياسة بلا رحمة.

هذا قد يحصل، وإذا لم يحصل على مستوى السياسة العليا، فقد يحصل على مستويات أخرى.

١- خطبة الجمعة (١٩٧) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م.

٣- المتغربون والمتعلمون يسوؤهم جداً أن تكون وحدة إسلامية بين الشيعة والسنة ممن يتعبدون بالإسلام ويلتزمون خطه، ويدخلون عاملاً مفرقاً ولو من منطلق المصلحة السياسية.^(١)

الطريق إلى الوحدة

تعاني كل البلاد الإسلامية من تمزق داخلي ووهن في الدائرة العامة لها على مستوى كل قطر قطر، وهي محتاجة إلى الوحدة الداخلية في كل بلد، والوحدة الشاملة، والاعتصام بحبل الله، وقيم دينه وتعاليمه، ومؤشرات منهجة، فإن تأخذ بذلك ينتهي التمزق، ويذهب الوهن، وإلا فلا مخرج، كل الحلول الأخرى آنية وقاصرة ومضطربة.^(٢)

ثم أنه لا أغنى من هذه الأمة في مقومات الوحدة، ولا أكثر تمزقاً منها!
ولا أشد غابية من بعض فتاتها!؛ ذلك لبعد عن دين الله، ولسوء فهم لدين الله.

ركائز الوحدة

وللوحدة ركائز منها:

ركيزة العقيدة الواحدة، وهذه الأمة أمة التوحيد، والمفروض أنها تتبع رسولاً واحداً، وكتاباً واحداً، وسنة نبي واحد ﷺ، وفي ذلك ما يكفي لحفظ وحدتها، ولتقديمها نموذجاً رائعاً على خط الوحدة في هذه الدنيا المقفرة.

دواعي الوحدة

ثم إن هناك أسباباً موضوعية تُحتم على هذه الأمة أن تجتمع كلمتها ولو بالمقدار الذي يحافظ على مصالحها في الدنيا، ولا يجعلها نهباً للأمم الأخرى:

١- خطبة الجمعة (١١٣) ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٤هـ، ٣٠ مايو ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة (٤٦) بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٤٢٢هـ، الموافق ١٥ فبراير ٢٠٠٢م.

١- الحاضر والمصير المشترك بخيره وشره

أراد السُّنة والشيعة هذا أو لم يريدوه، فإن حاضريهم ومصيرهم واحد من ناحية ما يطرأ على هذه الأمة من خير وشر.

إن تكن فتنة، فهي فتنة للجميع، وإن يكن وثام فهو مريح للجميع، وفرصة نموّ وتكامل للجميع.

إن يكن خيرٌ فسيعم، وإن يكن شرٌّ فقهراً سيعم.

مثل هذا النظر الموضوعي لا بدّ أن يوحي بشعور الوحدة.

ولا بدّ أن يدفع في اتجاه الوحدة لو كنا على وعي.

٢- توحيد الجبهة المعارضة

أعداء هذه الأمة من خارجها لا يستهدفون الشيعة دون السنة، ولا السنة دون الشيعة، وكلما كانت جبهة معادية واحدة كلما كان من شأنها أن توحّد المستهدف، والمستهدف هو الأمة بكاملها ومن عدو شرّس، وعدو قادر، وعدو خبيث، فكيف لا تتوحد هذه الأمة في ظل هذه المعادلة المهلكة؟

٣- الواقع المشترك

أنت لماذا تحاربني؟

لتقضي عليّ؟

أنا لماذا أحاربك؟

لأقضي عليك؟

إيأس من أن تقضي عليّ، ولأكن يائساً أنا - أيضاً - من أن أكون قادراً على القضاء عليك.

هذا اليأس المشترك من القضاء على المقابل لا بدّ أن يزهد في المقاتلة.

لونسينا كل مقومات وحدتنا، ونسينا ما يوجب علينا ديننا، وتحوّلنا كلنا إلى أشرار، فلنحسب حسابنا بأنك لست قادراً على أن تقضي عليّ، ولست قادراً على أن أقضي عليك، وقد بلغ الكل من التجذّر والقوة والقدرة على الإضرار بالآخر بدرجة كافية. من شأن هذا الواقع أن يدفع الجميع إلى التراضي، إلى التصالح، إلى الوحدة بالمقدار الضروري على الأقل.

٤- الإجماع على حرمة بعضنا البعض

ألسنا نجمع بحسب مذاهبنا - إلا أن يكون هناك مذهب لا يعرف القرآن، ولا يعرف السُّنة - على صيانة دم المسلم وعرضه وماله، ويكفي في ذلك أن ينطق الشخص بالشهادتين من دون أن يظهر منه ما ينقض إسلامه!!^(١)

العلماء والمسؤولية المحورية

المسؤولية الأشد تقع على عاتق العلماء المعتدلين، والتصحيح يجب أن يبدأ منهم.^(٢) وإن علماء الدين الواعين لحريصون كل الحرص على وحدة الأمة، وطلب الأسباب المؤدية لها، ورفع العوائق التي تحول دونها، ومن هذا المنطلق لا يمكن لهم أن يجاروا أي سياسة في ما قد ترغبه مما يمزّق شمل الأمة، ويقطّع أوصالها دينياً وثقافياً، ويخلق الغربة بين أقطارها، ويؤصّل حالة القطيعة القائمة فعلاً بينها. أما المخاوف السياسية التي قد تراود بعض الأنظمة الرسمية من بعضها الآخر، فالعلماء لا يساعدون على تغذيتها، وينأون بأنفسهم عن مسبباتها، والدخول في أجوائها.^(٣)

١- خطبة الجمعة (١٩٧) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م.

٢- خطبة الجمعة (١٩٧) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م.

٣- خطبة الجمعة (١٩٨) ٢٧ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٦ مايو ٢٠٠٥م.

مقترحات للوحدة الإسلامية

تقدم بعض اقتراحات خفيفة في هذا الشأن منها:

- ١- زيارات العلماء لبعضهم البعض، وكذلك الرموز السياسية من مختلف الطوائف.
- ٢- ندوات ومواسم ثقافية.
- ٣- مؤسسات اجتماعية وثقافية ومالية مشتركة.
- ٤- ونداءات موحدة.
- ٥- إذا لم نستطع أن نوحّد صفوفنا، ونكون أمة واحدة لا أقل من أدب الخطاب، والكف عن لغة الشتم، وإيقاف نزيف الدم، وتعايش سلمي.
- ٦- المواجهة السريعة للحالة المتدهورة - كما تقدم في أسبوع سابق - تتطلب إنكار أهل كل مذهب على أهل مذهبهم منكرهم وبشاعاتهم، وفتاوى محرّمة بحق الإرهاب تخرج من أهل كل مذهب؛ لتخاطب أهل مذهبهم.^(١)

لا أقل من التعايش السلمي

يوم وحدة الأمة الإسلامية هو يوم وحدة العالم، لأنها لتوحدت على أساس الإسلام؛ لتَمَّ سبب توحيد العالم على هدى الله ودينه القويم.

وليس من بعد التوحد على دين الله مطلب يُطلب لوحدة هذا العالم.

ولن تتوحد هذه الأمة بحق بلا عودة جادة للإسلام تكون بها الكلمة له في كل أوضاعها وقضاياها.

أما اليوم والأمة تصارع الإسلام في كثير من دروب الحياة، فوحدتها الحقيقية ضربٌ من ضروب الخيال، ولكن وقد أصبحت وحدتها بتضييع دينها، وتحكيم أعدائها في أمرها، وتبعية الكثير الكثير من أنظمتها لإرادة العدو مستحيلة، فلا أقل من أن تدرك ضرورة التعايش السلمي في داخلها، والحفاظ على الحد الأدنى من مقومات وجودها.

١- خطبة الجمعة (١٩٧) ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م.

وإذا نسي الإرهاب الهمجي من بعض فئاتها حرمة الدماء والأعراض والأموال، وحلَّ الاستخفاف والجرأة على هذه المقدّرات محلّ الحرمة، فلا أقلّ من ذوق إنساني وحضاري يُخفّف من هذا الإسراف والولوج في انتهاك الحرمات، ولا أقلّ من إدراك موضوعي لما سينجرّ إليه الوضع إذا عمّت العدوانية الهمجيّة، وتحوّلت إلى سياسة عملية عند كل الأطراف من طوائف وقوميات وأحزاب وقبائل وطبقات وفئات مختلفة.^(١)

مقترحات وحدويّة

أنا أتحدث عن العلاقات المذهبية على مستوى هذا الوطن، ويأتي هذا على هامش أسبوع الوحدة:

١- كان يمكن للعلاقة بين الشيعة والسنة في البحرين أن تستقر عند نمط واحد لمدة طويلة من الزمن، بلا تغييرات ملحوظة لا إيجابية ولا سلبية في وقت لم يكن هناك مقتضيات لتحريك المياه.

اليوم مقتضيات تحريك مجاري الأمور من خطّها إلى خطّ آخر موجودة بوفرة؛ منها السياسي، ومنها الوعي الحقوقي، ومنها العصبية المذهبية.

٢- اليوم تجتمع عوامل مختلفة؛ للتردي بهذه العلاقات وانزلاقها في منعطف خطير، ومع ترك التقريب ستفعل الأمور إلى ما يمثل خطرًا ساحقًا، لأننا سنة وشيعة ليس مغفولاً عنّا، ومنا - شيعة، وسنة - الجاهل المتعصب الذي لا يقدر الأمور، وقد سادت تربية حاكمة في بعض أوساط المسلمين يمكن أن تفجّر وضعهم، وتهدم سقفهم على رؤوسهم.

نحن اليوم بين موقفين: بين موقف أن نتقارب فنسدّ باب الفتنة، وبين أن نُهمَل **شأن التقارب، فالفتنة عندئذ ستقتحم علينا الأبواب، وستخترق كل الجدر، وستتبع من داخل، أو تأتي من خارج.**

١- خطبة الجمعة (١٩٨) ٢٧ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٦ مايو ٢٠٠٥م.

فالأمر يحتاج إلى عمل جاد في سبيل التقريب، ولا تحتاج الفتنة؛ لاشتعالها لأن تأتي بحطب جديد، وأن نشعل أوارها.

هناك مَنْ سيشعل الفتنة، هناك المصالح الاستكبارية العالمية التي لا تريد لهذه الأمة أن تتقارب، ولا تكتفي منها اليوم، وقد بدأ المسلمون صحتهم إلا أن يدخلوا في شقاق مرهق طويل مدّمر.

٣- وعلى طريق التقارب وسد باب الفتن، وخدمة الإسلام والمسلمين، ولصالح هذا الوطن، يُقترح:

أ- تأسيس مجلس علمائي أهلي مشترك، له أنشطته الثقافية، والاجتماعية، ومشاريعه العلمية، وخطواته التقريبية المتعددة.

ب- جمعية سياسية مشتركة من إسلاميين شيعة وسنة.

ج- جمعية ثقافية كذلك، ويتحرك إنتاجها، وأنشطتها في المساحة المشتركة بين المذهبين وهي مساحة واسعة.

د- مركز رعاية مادية للمحتاجين، قوامه البشري من الطائفتين معاً، وتمويله كذلك.

هـ- مشاريع زواج مشتركة، وحفلات زواج إسلامية كذلك.

هذه بعض خطوات عملية يمكن أن تصب في صالح التقارب الإسلامي داخل هذا الوطن؛ لنكون نموذجاً جديداً في عالمنا الإسلامي، ولنكون شوكة في عين الظالمين.^(١)

أسبوع الوحدة

أمّا عن أسبوع الوحدة، فهو أسبوع من ابتكار أفكار القائد العظيم الزعيم العالمي المبارك **روح الله الخميني** (أعلى الله مقامه، ورفع الله درجته في الجنان)، وقد انطلق

١- خطبة الجمعة ١٥٤ ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ١٤ مايو ٢٠٠٤م.

من روح إسلامية صادقة وشفافية روحية راقية، انطلق كلمة من كلمات مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي كانت من الله وَكَلَّمَ؛ لتوحيد البشرية كافة، وستتوحد البشرية في يوم من الأيام، ويوم الظهور المرتقب على يد القائم عليه السلام.

إنها دعوة صادقة جاءت من سليل الرسالة، ومن حفيد أحفاد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لتؤكد على نصاعة هذه المدرسة، وقدسيتها، وحرصها على المصلحة الإسلامية والإنسانية كلها.

لتؤكد على الإخلاص، وعلى الوفاء لهذه الأمة.

ولتؤكد على الكفاءة على إنقاذ الأمة كما سيتحقق في اليوم القريب الذي نأمل قربته من الله.

أسبوع الوحدة يخاطب فكر الأمة.

يخاطب شعورها.

يخاطب واقعها بأن يعيش كل ذلك منها نقله جريئة، ويثور على نفسه ثورة جادة، فيتحوّل الواقع بعد تحول الفكر، وتحول الشعور.

وقد يتحوّل الواقع قبل ذلك بدفع من الضرورة، لكن لا بد أن ينتهي إلى تحول الفكر، وتحول الشعور في اتجاه صالح الوحدة الإسلامية الكبرى المباركة، وليس من مخلص واعٍ في أرض الإسلام إلا ويمد يد المصافحة والمبايعة لمثل هذا النداء المبارك الميمون، الذي أطلقت حنجرة من حناجر الإيمان، وحناجر التقوى، حنجرة روح الله الخميني (أعلى الله مقامه، ورفع درجته في الجنان).

ولقد كان مجيئه رحمته الله؛ ليدكّر بقيادة أهل البيت عليهم السلام.

ليذكّر بعد طول الفترة، وبعد نسيان القدوة، وبعد الغياب غياب المنارات المشعة عن واقع الفعل العملي المتحرك على الأرض.

جاء ليذكر بأصالة مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، وبما ينبغي أن تكون عليه القيادة الإسلامية، قيادة الأمة الوسط، قيادة الأمة الرائدة، التي لها الوصاية على بقية الأمم، وصاية الترشيذ، ووصاية الهداية، ووصاية التربية والتعليم، ووصاية إقامة العدل ونشر روح الإحسان.

جاء عليه السلام ؛ ليقيم حخته على الناس من جديد من خلال نموذج أصغر من نموذج المعصوم.

ليذكر بعظمة المعصوم، وقدرة المعصوم على الإنقاذ الكامل الشامل.

ومجيئه لكانه تمهيد لمجيئ الإمام القائم عليه السلام ، ولأن يقع حجة من حجج القائم عليه السلام يوم ظهوره.

توفي (رحمه الله، وأعلى الله مقامه) ، فترك كلمة ليست الكلمة التي يعبر عنها كثيرًا عند موت أي عالم، إنما هي الكلمة الملحوظة الكبيرة والهوة الساحقة والخندق الكبير الفارغ.

نعم، ملأ هذا الخندق قائد بعده (حفظه الله، وأيده، وسدّد خطاه) وهو أهل لأن يملأ الموقع بجدارة وكفاءة، ولكن لا ينكر أن وفاة الإمام الراحل (أعلى الله مقامه) تركت فراغًا ينتظر ملأه رجالات من رجالات الأمة كالسيد محمد باقر الصدر الذي وافاه الأجل، واستشهد على أيدي الظلمة البعثيين.

والزمن من خلال قدرة الله، ومن خلال رحمة الله بهذه الأمة كفيل بأن يعطي رجالاً ورجالاً من أبناء هذه الأمة يملؤون هذه الفراغات، والموقع قد يفتقد الرجل الواحد فلا يملؤه إلا عدد من الرجال.

الرجل الواحد قد يكون أمة وأمة كبيرة يحتاج ملء موقعه الفارغ إلى عدد هم أمة - أيها الإخوة - ، وسبقى موقع القيادة يشكو من نقص من نقص جزئي، ومن نقص ملحوظ حتى يأتي صاحبه الأصل الإمام القائم عليه السلام ، فلا يبقى فيه نقص، وتكون به الأمة أعز الأمم، ورائدة الأمم على مستوى الفعل.

اللَّهُمَّ، اغفر لنا، ولوالدينا، ولإخواننا المؤمنين والمؤمنات، واجعلنا ممن لا يرضى عن الإسلام بدلاً، ولا يبتغي عن طريق محمد وآله رسولاً، ولا يسره أن يرى الدنيا كلها بيده لخسارة شيء من دينه، أو أن يرى الناس كلهم معه بمفارقته يقينه.^(١)

بين وحدتين

هل العلاقة بين الوحدة الوطنية ووحدة الأمة علاقة انسجام، أم علاقة تهافت وتعارض؟

هل حفاظي على أمن البحرين فيه تهافت مع حفاظي على أمن الأمة؟

اعتزازي بالبحرين فيه تهافت مع اعتزازي بالأمة؟

ولائي للبحرين بالمعنى الذي يرضاه الله يتهاافت مع ولائي للأمة؟

أم أن العلاقة بين كل ذلك هي علاقة توافق وانسجام؟

حين نأخذ الولاء، والمصلحة، والنصرة إلى آخر هذه الأمور بالمعنى الإسلامي، فلا تهافت، وحين نأخذها بالمعنى الجاهلي، فالمسألة تؤول إلى التهافت.

ونحن مسلمون، وعلينا أن نأخذ الأمور بمالها من معنى في الإسلام.

قوة الأمة في وطنها الكبير من قوة الأمة في أوطانها الصغيرة، كما أن مصر ملك الإسلام، فالبحرين ملك الإسلام، وكما أن تركيا ملك الإسلام فعمان مثلاً ملك الإسلام، وعزة الأمة مترابطة، وانتصارها مترابط، والعكس مترابط، فكلما عزّ وطن من هذه الأوطان، وكلما نهض وطن من هذه الأوطان، كلما حقق نصراً كلما كان ذلك يصب في صالح الوطن الكبير، والعكس بالعكس.

التعددية وعلاقتها بالوحدة

نقطة أخرى في هذا المجال، وهي التعددية على مستوى الإسلاميين، والآخر في الوطن الواحد من بلاد الإسلام، وعلى مستوى الأمة، وعلاقة ذلك بالوحدة والفرقة.

١- خطبة الجمعة (١٠) بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٤٢٢هـ، ٨ يونيو ٢٠٠١م.

في البحرين توجد قوى إسلامية، وتوجد قوى غير إسلامية، يوجد مسلمون ويوجد نصارى ويهود، فكيف تكون الوحدة الوطنية في ظل الإسلام؟

صدر الإسلام لا يضيق بخير على الإطلاق، إذا كانت الوحدة على شر، فالمسلم لا يدخل فيها طرفاً سواء كان الطرف الآخر مسلماً أم غير مسلم، وإذا كانت الوحدة على هدى وخير وفيها صلاح الإنسان، وكل صلاح للإنسان فيه رضا الله وَعَلَى، فهذه الوحدة يبادر إليها المسلم سواء كان الطرف الآخر مسلماً أو غير مسلم.

إقامة الحق والعدل في الأرض، العدل في الحقوق والواجبات، مناهضة الانحراف الخلقي، والانحطاط الإنساني يدخل فيه المسلم أيّاً كان الطرف الآخر.

فنحن من منطلق الإسلام مستعدون دائماً للوحدة حتى مع غير المسلم فيما هو خير، فيما هو صلاح، لأنّ في ذلك مرضاة الله تبارك وتعالى.^(١)

الدَّعوة للوحدة وعقبة الحكومات الظَّالمة

الشَّيعة والسُّنة في البحرين وغيرها إخوة دين ووطن وتاريخ.

إخوة ماضٍ وحاضر ومستقبل، وكلنا هنا شعب واحد لا شعبين.

السياسية المفرضة في كل مكان تلعب على الوتر المذهبي والقومي، وأي وتر آخر؛ لإضعاف الشعوب وتقريق كلمتها والاصطياد في الماء العكر، وهذا غير خافٍ على أحد ممّن له أدنى انتباه لسيرة الحكومات الظالمة.

ومن المؤسف أن يغفل البعض عن الأعياب السياسية القذرة، ويتناغم مع الدعوات الطائفية، ويقبل أن يكون أداة من أدواتها.

ونحن نعلم أنّ الدعوة للوحدة الإسلامية والوطنية موجعة للحكومات الظالمة ومفشلة لأهدافها الخبيثة - إذا دعوت للوحدة آذنتك الحكومة التي تريد تقريق الشعب، وألّبت عليك الأقلام، والألسن -، والدعاة لهذه الوحدة من أبغض من يكونوا لهذه الحكومات، وهم ملاحقون منها بالتشويه والعقوبة، وقلب الحقائق، والكذب، والزيف، والبهتان.

١ - خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

وعلينا أن نؤكد دائماً على وحدتنا الإسلامية والوطنية، وليُغضب ذلك من يغضب.^(١)

الوحدة الوطنية ووحدة الأمة

في حلقة حوارية في إذاعة لندن العربية، كان الموضوع هو احتمال المواجهة الساخنة بين أمريكا والحكومات الإسلامية والعربية، وفي كلام لأحد متحاورين من أبناء الخليج، والمتحاورون في مثل هذه المواضيع متخصصون ذوي شأن في الكلمة في العادة، والمتحاور الخليجي ليس من المعارضة.

وكان السؤال: إذا قامت حرب بين أمريكا وإيران، فالخليج مع من؟

قال: يمكن من ناحية قلبية، من ناحية الأخلاق والعاطفة أن يكون موقف الخليج مع إيران، لكن من ناحية فعلية فالموقف مع أمريكا؛ معللاً ذلك بأن إيران تحتل (طمب الكبرى، وطمب الصغرى)١، وكأن أمريكا لا تحتل شبراً واحداً من الخليج، هذا مع عدم تدخلنا في مسألة البت في قضية الحدود بين دولة إسلامية وأخرى، وما أكثر الاختلافات الحدودية الجغرافية بين كل دولنا.

وأمر آخر احتج به المحاور الخليجي هو أن إيران تعمل على التوسع الفكري والسياسي في الامتداد العربي.

وهنا أيضاً نقول أمريكا ليس لها أي هيمنة فكرية، وأن أمريكا لا تفرض ثقافتها على البلاد العربية والإسلامية، وليست لها مؤسسات ضخمة في أكثر البلدان الإسلامية تعمل لصالح الفكر الغربي المادي، وللأيديولوجية الأمريكية، وأمريكا لا تتدخل سياسياً في البلاد العربية وسياستها مطلقاً، وإنما هي دولة ملأ قلبها الرحمة والشفقة على أمة الإسلام، وعلى أمة العرب، وهي حامية ديارنا والمحافظة على مصالحنا!!

ما أعدى إيران للعرب، وما أكبر إخلاص أمريكا!!

١- خطبة الجمعة (٤٨٣) ٢٧ محرم ١٤٣٣هـ، ٢٣ ديسمبر ٢٠١١م، جامع الإمام الصادق عليه السلام بالدرز.

(تنويه: هذه الفقرات كتبناها من التسجيل الصوتي للخطبة؛ حيث إنه لم نجدها منشورة في الموقع الإلكتروني لسماعته).

كذَّبَ اللهُ ظَنُّ هذا المحاور العربي، وجعل حكام بلداننا العربية والخليجية تعرف واجبها الديني لو نشبت حرب بين أمريكا وبين أي بلد من بلدان الإسلام. إنه قد رمى حكام المنطقة بما لا يليق من وقوفها الوقوف المكشوف مع أمريكا ضد بلد إسلامي.

لست هنا محللاً سياسياً، ولا ناقداً، وإنما أنا أضع أمامك صورة من صور التدهور في الوضع العام الإسلامي، وما آل إليه تمزق الأمة، وأن المسلم يقاتل أخاه المسلم تحت راية أمريكا.

فنحن نحتاج إلى الوحدة، نحتاج إلى نداء الوحدة، نحتاج إلى شعار الوحدة الصادق، نحتاج إلى عمل جاد دؤوب على طريق الوحدة.^(١)

التوازن بين هموم الأمة والمهموم الداخليَّة لأقطار الأمة

الأمة المسلمة أمة واحدة في آلامها وجراحاتها، وكلها مسؤولة عن إقامة القسط، وإشادة العدل في داخلها، وفي العالم ما وسعها الأمر ووجدت إلى ذلك سبيلاً.

وهي مسؤولة عن حماية حدودها الفكرية والجغرافية ومصالحها، وعن رد العدوان الأجنبي عن كل شبر من أرضها، وعن كل شعب من شعوبها.

وإذا كان لكل قطر من أقطار الأمة اليوم مشكلاته ومعاناته الداخلية، وخلافات بين أبنائه والنظام الذي يحكمه، فهذا لا يسقط الواجب العام المتعلق بحماية الأمة، وكل أبنائها من بطش الأجنبي، وإرهابه، وعدوانه.

في الوقت الذي لا ينسى فيه - أي قطر من الأقطار - همومه الداخلية التي هي من هموم الأمة، ويجب على الأمة أن تشاركه فيها، ولا يتوانى عن السعي الدؤوب لحل مشكلاته الخاصة، وتحسين أوضاعه وأوضاعه، لأنه الأولى بذلك، ولن ينيب أحداً عنه في هذا الأمر، ويكون السابق له.

١ - خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ، ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

إنَّه لا يسع أي قطر في الأمة أن ينسى نفسه وهمومه ومشكلاته؛ لتتفقد بدرجة أكبر، وتتأزم كل أوضاعه بصورة أشد.

وليس طبعياً أبداً، ولا معقولاً أن يُسكت على خراب البيت الداخلي، وتبعثر أوضاعه، وسيادة الظلم والفساد كل أجوائه بحجة الاشتغال بالقضايا العامة للأمة، فيما عدا ظروف استثنائية جداً يتعرض فيها الكيان العام للأمة - مثلاً - للإلغاء والمحق.

والمسألة في مثل هذه الظروف تكون مسألة استثنائية، وينسى كل بيت صغير، وكل بيت كبير همومه الخاصة، وتكون هبة قوية لدرء الخطر العام عن كيان الأمة.

وهذه ظروف خاصة واستثنائية جداً.

وليس طبعياً أبداً، ولا معقولاً أن تقهقه الشوارع العربية والإسلامية، وتسبب مؤسسات المجتمع الأهلي للأمة وأهل غزّة يُحاصرون، وتغلق عليهم كل المنافذ، وتُمنع عنهم إمدادات الحياة، ويكتب عليهم العدو الإسرائيلي الموت الجماعي المتسارع.

إنَّ الأمة بكاملها؛ لتعيش مسؤولية مشتركة أمام الله سبحانه، ثمَّ التاريخ لو بقيت متفرجة على الوضع المأساوي للإخوة المسلمين في فلسطين عامة، وغزّة خاصة.

فإذا كان تفجر الغضب الشعبي للأمة كلّها ضرورياً أو نافعاً في رفع الحصار، وتخفيف الأزمة هناك؛ ليتوقف الموت السريع والجماعي للإخوة في الإسلام هناك كان لا بدّ أن يحدث ذلك وبصورة قادرة على التأثير.^(١)

ضرورة كبرى

ضرورة التأخي الإيماني العام في الظروف الحالية العصيبة، التي تواجه المؤمنين في العالم، وتنزل بمجتمعاتهم وجماعاتهم الضربات القاصمة، فأمامنا ظروف الأفغان، والشيشان، والعراق كأمتة من أمثلة المحنة الإسلامية العامة، وضرورة التأخي الخاص على مستوى القطر والمدينة والقرية والمحلّة، فإن التأخر والتعاضد بين المؤمنين معيشياً وثقافياً واجتماعياً، وعلى كل المستويات لهو من أكبر الضرورات وخاصة في مثل الظروف

١ - خطبة الجمعة (٣٠٩) ١٦ محرم الحرام ١٤٢٩ هـ، ٢٥ يناير ٢٠٠٨ م.

الحالية التي يواجه الإسلام والمسلمون فيها الهجمة الشرسة المنظمة، المستمرة المدعومة بالتخطيط والرصيد المالي الضخم.^(١)

وحدة الهمِّ الدينيّ

السياسة في كل البلدان لها حساسيتها الخاصة، والتي قد تبلغ حدَّ الإفراط المزعج أحياناً.

ولا بدّ من مراعاة هذه الحساسية، ولكن بالمقدار الذي لا يهدم الفهم، والحس الديني، ولا يخنقه، ولا يلغي أحكام الشريعة.

ولا يصح أن نفرض على الدين أن يعيش حالة التجزئة الجغرافية والسياسية التي تفرض نفسها على واقع الأمة.

فعلينا أن لا نقسّم الأمة في وجودها ووعيها وهمها، وفرحها، وحزنها الديني بقدر أوطاننا الجغرافية والسياسية، وأن نعيش من الناحية الدينية البعثة التي نعيشها في البعد السياسي نفسه.^(٢)

وما يعرفه المسلمون من الإسلام أنه قد أمر بالتعاون على البرِّ والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان، يقول الكتاب الكريم في سياق خطابه للذين آمنوا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.^(٣)

وكلُّ مشروع يُقسّم المسلمين إلى قسمين في الوطن الواحد والأرض الواحدة؛ ليثير هذا ضدّ ذاك، ومن أجل الكيد به وإضعافه، ومناهضة حقّه، ولتهميشه، والنيل منه وإقصائه بظلم، فإنّما هو من التعاون على الإثم والعدوان الذي لا ينبغي لمؤمن أن يأخذ به.^(٤)

١- خطبة الجمعة (٣٥) بتاريخ ١٤ رمضان ١٤٢٢هـ، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠١م.

٢- خطبة الجمعة (١٩٠) ٣٠ محرم الحرام ١٤٢٦هـ، ١١ مارس ٢٠٠٥م.

٣- المائدة: ٢.

٤- خطبة الجمعة (٣٨٩) ٢٤ ذو القعدة ١٤٣٠هـ، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٩م.

مقولة: «عدم التدخل في الشؤون الداخلية»

إن شعار عدم التدخل في الشؤون الداخلية الذي أخذت به الأمة رسمياً، والقاضي بتفرض الدول الإسلامية كلها على عذابات أي شعب من شعوب الأمة، وبتيح لأي حكومة أن تمارس أقصى أنواع الظلم في حق شعبها من دون أن تحرك الأمة شعبياً وحكومات ساكنة في سبيل تخليص المظلوم، والتخفيف عنه.

شعار لا ينسجم مع الإسلام نهائياً، وهو شعار توافقت عليه دول العالم طوعاً أم كرهاً كما قد يكون الحال عند بعضها، قهراً للشعوب، وتصالحاً بين الحكومات بأن يسكت كل على ما يمارسه الآخر في حق شعبه من ظلم واضطهاد.

ولو التزمت الأمة خط الشريعة المقدسة لما علقت الآية الكريمة محل الحديث، وآيات عديدة أخرى تحرّم على الأمة أن يعذب شعب مسلم من شعوبها بشتى ألوان العذاب لعشرات السنين، وتقتل رجالاته، وتشرّد الملايين من أبنائه، ويحارب في دينه، وتداس أعراضه، ويقبر أبناؤه في السجون، وتسلب لقمته.

وكل هذا يحدث على مرأى ومسمع من الأمة؛ لتواجه هذه المآسي والمظالم بشعار عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

لكن عندما تمس حكومة مرضي عليها من الكبار تأتي قاعدة أخرى، هي قاعدة انتهاك الحدود المحترمة، وعندئذ تجتمع الدنيا؛ لترد العدوان والمعتدي إلى جحره؛ ليعود فيمارس دوره الطاغوتي في أرضه، وداخل حدوده فتتحيا القاعدة الأولى من جديد، قاعدة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

وها قد اقتضت المصلحة الأمريكية عند فريق من الساسة الأمريكيين التدخل في الشؤون الداخلية للعراق، فجاء الكلام عن ديكتاتورية الحكومة العراقية، وانعدام الديمقراطية، واضطهاد الشعب العراقي، ومشرديه، وسجنائه، وقتلاه.

وجاء الكلام عن تهديد دول الجوار، وأن أمريكا لا بد أن تُنصفها، وتؤمن لها حدودها وإن كانت دول الجوار هي من شنّ الحرب على العراق أخوف على حدودها، وعلى كياناتها من بقاء الوضع على ما هو عليه.

متى تملك هذه الأمة زمام أمرها؟!

هذه الأمة على فُرقتها التي تعيشها هذا العصر، وتعدد دولها إلى حد الإفراط، لو ملكت أمرها بعض الشيء واعتزّت بشخصيتها، وأمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر رسمياً في الدائرة العامة لدولها، واعتمدت محكمة إسلامية تحكم في خصومات حكوماتها فيما بينها نفسها؛ وفيما بينها وبين شعوبها لكُفيت كثيراً من المخاطر، والخسائر الفادحة، والحروب الداخلية ذلك حين تكون مع المظلوم على الظالم، وترد صاحب العدوان عن عدوانه، إذ اعتماد موقف من هذا النوع لمرة واحدة يعدّ رادعاً كبيراً جداً عن تكرار العدوان.^(١)

معركة واحدة ضدّ أمة واحدة

إنّ المسلم أخ المسلم لا يخذله، ولا يُسلمه، ولا يتفرّج على مأساته وظلم الأعداء له وسحقه وإذلاله.

١- ولكن أين الدول التي تملك إرادتها أمام كبار المستكبرين في العالم؟

وكم هي الدول التي تعترف بانقسام الأمور إلى معروف ومنكر؟

وأي الدول التي تسعى لوجود محكمة سندها قوة الأمة؛ لتنتصف لشعوبها منها؟

وكم تتصورون الدول العربية والإسلامية التي لا يُرضيها شئ حرب مدمرة على العراق رعاية للأخلاق، وغيره على

القيم بعيداً عن حساب الربح والخسارة بميزان المصالح السياسية البحتة؟

أمّا غير هذه الدول، ففلسفتها النفعية الواقعية معلنة، وتمثل قاعدتها الرئيسة والأساس في الحياة.

نحن في هذا العالم صدّقت أو لم تصدّق.

عالم هدم القيم، ويهدم غيائها بناءه على رأسه، وعن مناسبة عيد الميلاد للنبي عيسى (على نبينا وآله وعليه وجميع أنبياء الله ورسله أفضل السلام) تؤكد إيماننا بأنه يوم رحمة لهذا العالم، وأنّ عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله الصادق الأمين، وقد جاء هدى للناس ودالاً لهم على طريق ربه.

ولو اتبع نصارى العالم إنجيل عيسى عليه السلام غير محرّف ولا مكذوب عليه لالتقوا مع المسلمين في طريق واحد، ولا أقل من أن يكونوا دعاة أخلاق ودين وسلام ومحبة وتعاون على الخير حقاً في هذا العالم، ولا يضعوا يدهم في أيدي المستكبرين أعداء عيسى، وموسى، ومحمد، وجميع رسل الله ﷺ أجمعين.

وإيمان عدد في الغرب، وفي أنحاء العالم بالنبي عيسى عليه السلام على ما في هذا الإيمان من شرك وكثير من البعد عن ملازمة الواقع؛ يخفف من غلواء الشر في الأرض.

ونحن فرحون جداً بيوم المولد الشريف لهذا الرسول الكريم، وبيوم أي مولد لنبي من أنبياء الله، ورسول من رسله (سلام الله عليهم أجمعين)، ونبارك للعالم المؤمن كله هذه المناسبة.

إنهم يعلمون الأمة بأن موقف الخذلان للإسلام وللمجاهدين الغياري موقف غير إسلامي لا يستقيم مع القرآن والسنة على الإطلاق.

المسلم لا يخذل أخاه المسلم شيعياً كان أو سنياً، عربياً كان، أم تركياً، أم فارسياً، أم من أي قومية أخرى.

إن آلام المعركة ومتاعبها وخسائرها يُقدِّم المسلم الحقُّ مختاراً على تقاسمها مع أخيه المسلم وإن وسعه جداً من ناحية عملية أن ينأى بنفسه عنها، وإن وقف كل الآخرين منها موقف المتفرِّج كما عليه وضع الكثير الأكثر من أنظمة الأمة في معركة اليوم.

إن أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام ليسوا كفاراً - كما يُخطئ البعض القول -؛ ليحاربوا المسلمين، ويحاربهم المسلمون، وإنما هم مسلمون بصدقٍ وحقٍّ، وفي مقدِّمة المسلمين الذين لا يصبرون على إراقة الدم المسلم الحرام ظلماً في أي مكان، ولا على سلب شبر من الأرض الإسلامية، ويبدلون كل الجهد في حماية الإنسان المسلم، وأرض الإسلام ومقدِّساته، ولا يُفرِّقون في الذود عن المسلمين بين سنيٍّ وشيعيٍّ، وعن الأرض الإسلامية بين أرض وأرض، وبلدٍ وآخر.

إن أنهار الدماء الزكية المسلمة التي تدفقت وتدفق في أرض العراق ظلماً كان الصحيح أن يُحتفظ بها؛ لمواجهة أعداء الله والإنسانية والأمة من مثل الصهاينة المستكلبين المستهترين، وأنها لجاهلية حمقاء تلك التي تستهدف النفس المسلمة المصونة، والدم المسلم الحرام في العراق، والمستضعفين هناك من شيب وولدان ونساء ورجال أبرياء.

إن على الأنظمة في بلاد الإسلام ألا تُغْرِق الشعوب المسلمة في المشاكل الداخلية، وتصرف همّها عن معركتها المصيرية مع أعداء الله وأعداء الإنسانية في الأرض، وأن لا تضع عليها من تخلف الأوضاع، ومن الأوضاع الإرهابية الرسمية والقوانين الجائرة قيداً يعيقها عن مواجهة أعداء الأمة وناهبي أرضها، والعابثين بدم وأمن وكرامة وعيش الشعب المسلم في فلسطين.

إن نصرة حزب الله لإخوانه المجاهدين في فلسطين ليست بالتصفيق والمجاملات

والابتسامات المخادعة، إنها نصره بالدم القاني، والأرواح الغالية، والنفوس المؤمنة الزكية، وشهداء المجد والإباء والشموخ والإيمان والكرامة.

الآن وقد اصطفّت كل قوى الشر والطغيان والاستكبار في العالم ضدّ أمّتنا ووجودنا، والأرضُ تلتهب تحت أقدام المجاهدين في لبنان وفلسطين، ويُمطر الآمنون بالنار، وتذكّ البيوت على رؤوس أهلها المؤمنين، وتشرّد الأفواج من ديارهم، وتُقطّع بهم السبل، ويُلحقهم الموت والدمار أينما وطأت لهم قدم.

كيف يسوغ لمسلم في أي موقع من المواقع، ولأي دولة من الدول الإسلامية أن تعين الكفر والظلم والعدوان بكلمات هي أشدّ ضرراً وفتكاً بالإسلام والمسلمين من نيران الأعداء ومن قنابلهم؟!

ومن الكتاب المسلمين في الساحة الإسلامية من يخاف على أمة الإسلام، ووحدتها، وأمنها، ودينها، ومصالحها في معركة من معارك المصير التي تخوضها المقاومة في لبنان، وفي فلسطين على يد حزب الله وحماس ضدّ العدو الصهيوني وخطرسته الجاهلية، ويندد بهما انتصاراً لإسرائيل التي تؤمّن كلّ العز والمجد والرخاء والأمن والاستقلال والكرامة للإسلام والمسلمين.

إسرائيل تؤمّن كل ذلك، والخوف على كل ذلك من حماس وحزب الله في نظر هؤلاء الكتاب؟!

وما أصدق تعبير هؤلاء الكتاب عن ضمير الأمة التي لا يخدعها شيء عن عداء إسرائيل الدفين لها، وما أنطقها من لغة بوعي الأمة الراض لهذه الأفكار السوداء القاتمة المسمومة، والمشاعر السقيمة، والأصوات النشاز البغيضة؟!!

مّمّ خوف هؤلاء الكتاب؟

ومن وراءهم؟

خوفهم عندي وعندك، وعند كل الواعين من الإسلام شيعيه وسنيه، من الإسلام بكل قومية من قوميات أبنائه لا فرق بين عربٍ وفرنسٍ وتركٍ وغيرهم.

إنه الخوف حقاً من الإسلام.

خوفهم لا من الإسلام الشيعي فحسب، فحماس وهي مخوفة منهم ليست شيعية.

إنهم يعادون حماس كما يعادون حزب الله، وحماس ليست شيعية، وحماس كذلك لا تُتهم بأنها ستمكّن للفرس على حساب العرب، فليس من عاقل يذهب إلى أن الحس الفارسي في قلوب أبناء حماس قد طغى على الحس العربي، وأن انتصارهم سيكون للفرس على حساب العرب، فلم تُبغض حماس، ولم تُحارب حماس، وتُحاصر حماس، وتُعان أمريكا وإسرائيل على حماس، وهي السنية العربية؟!

وهل أمريكا وإسرائيل قد أصبحتا متسنتين ونحن لا ندري؟!

وهل أمريكا وإسرائيل قد أصبحتا عربيتين؛ ليقف معهما العرب ضد الفرس، وضد الشيعة؟!

وحتى ضد حماس السنية العربية؟!

وهل تكتفي كل من أمريكا وإسرائيل بما هو أقل من السيطرة التامة على البلاد السنية العربية، وأن تكون لهما الكلمة العليا، والمصلحة الأولى؟!

يُخاف من استعمار إسلامي؟!

ومن امتداد سياسي إسلامي؟!

ويؤمن للامتداد الأمريكي والإسرائيلي؟!

بأي لغة إسلامية نتحدث؟!

يا كتاب، من هذا النوع ممّن تتواجدون في الساحة الإسلامية هنا وهناك؟!

إنّها العمالة، وإنّها المهزلة، وإنّها السخرية بالأمة، وإنّه الاستغفال للجماهير بالتخويف من التشيع، والتخويف من الفرس.

أخوف من الشيعة، ومحاربة لهم وهم المسلمون والعرب، وهم الأقلية في مجموع البلاد الإسلامية؟!

واطمئنان ونصرة لأمريكا وإسرائيل، وارتقاءً في أحضانها، ووقوف معها في خندق واحد، وأمريكا وإسرائيل ليستا مسلمتين، ولا عربيتين، وهما القوتان الباطشتان في الأرض والتي حق أن يخاف منهما؟!

لقد حزن المسلمون الأوائل، وقلقوا كثيرًا؛ لانتصار الفرس يوم أن كانوا يعبدون النار على الروم، لأنهم أهل دين سماوي حتى طمأنهم الله بأن أهل الدين سينتصرون، فما لكم أيها المسلمون تفرحون بانتصار الكفر، وتمدّون الكفر بأسباب النصر، وتقفون في مؤامرة مشتركة ضدّ المسلمين؟!

لئن كان الشيعة في نظركم ليسوا مسلمين خالصين، فهل إسرائيل وأمريكا أقرب إلى الإسلام وأصدق إسلامًا؟!

الصحابة الذين تحتجّون بسيرتهم كانوا قد حزنوا لانتصار من لا دين له على من كان له أصل دين سماوي؟!

عجبااه!!!

يطلع عالم من علماء الإسلام على الأمة؛ ليقول: بأنّ حتى الدعاء لحزب الله حرام!! من أين هذا الفهم؟!

طائفة من كتابنا وسياسيينا المسلمين تفرح؛ لانتصار الطاغوتية الأمريكية والصهيونية الحاكمة على المسلمين بحجة أنهم شيعة، وأنهم من مذهب واحد مع الفرس، وهو شعار لخداع الجماهير المسلمة السنيّة، شعار للخداع فقط، ولتفصل جماهير من المسلمين عن معركة الأمة في اليوم الحاسم، وتُعطي الفرصة سانحة لانتصار أمريكا وإسرائيل.

أقول: إنه خداع، لأن حماس سنية عربية، ويكره هؤلاء كلهم انتصارها في قبال إسرائيل وأمريكا، ولئن الفرس ليسوا كلهم شيعة، ولو كان حزب الله لا صلة له بإيران

أبدًا وكان على إسلامه ومبدئيته بقي بفضه مكيًا في نفوس هؤلاء، ولن تشفع له عروبيته عند من لا يريدون الإسلام، ويخافون من أيام الإسلام.

ولا نخطئ، ولا ننسى، فإن الشريعة الواسعة من المسلمين السنة الحق الذين تخفق قلوبهم بحب الإسلام، ويتطلعون إلى نصرته، ويعادون أعداءه، ويحبون أعباءه ليقفون مع حزب الله، ومع حماس.

منهم السياسيون غير المرتبطين بالسياسة الرسمية، ومنهم الكتاب، ومنهم الطلاب، ومنهم الجماهير الأخرى من أبناء الأمة.

إننا لا نشكو من الإخوة السنة، إنما نشكو من سني عميل، ومن شيعي عميل.

نشكو من سني ساذج، ومن شيعي ساذج.

نشكو من سني لم يقرأ الإسلام القراءة الصحيحة، ومن شيعي لم يقرأ الإسلام القراءة الصحيحة.

من سني يفرح لآلام الشيعة على يد الكفار، ومن شيعي يفرح لآلام السنة على يد الكفار.

نشكو من شيعي لا ينصر أخاه السني في إسلامه، ومن سني لا ينصر أخاه الشيعي في إسلامه.

إنها معركة واحدة، وعلى الأمة أن تتوحد في هذه المعركة، وتبذل كل ما في وسعها، وتقف بالكلمة، وبالمال، وبأي جهد قل أو كثر مع حماس، مع حزب الله، مع القيادة المؤمنة.^(١)

الباب الرَّابِع

الأُمَّة وواقعها المعاصر

توصيف الوضع الأمنيِّ والسِّيَاسي المعاصر

أما بعد، فإن فارق ما بين أُمس الأُمَّة الإسلامية ويومها كفارق ما بين السماء والأرض.

أُمَّة كان يُخطب ودُّها بالأمس وتُهاب، وتتقدم الأمم على كل طرق البناء والتقدم والعز والمجد والكرامة، وها هي اليوم في مجال الأمن والسياسة من أسوأ الأمم، وما هي بأحسن حالاً في المجالات الأخرى.

وهذا من وصف وضعنا الأمنيِّ والسِّيَاسي - فعلاً -:

١- ما من بلد من البلدان الإسلامية - فعلاً - حتى لو لم يكن نظامها نظاماً عميلاً إلا وهي محكومة ولو جزئياً لإرادة هذا الأجنبي أو ذاك ولو من خلال بعض العملاء.

٢- نحن في مخاض مرحلة جديدة لحكم الأُمَّة بكاملها، وبصورة تامة لا جزئية بالإرادة الأمريكية، وعن طريق حكوماتٍ من تنصيب أمريكا بصراحة وقحة.

وقد بدأ تدشين هذه المرحلة السيئة بأفغانستان، ويراد تطبيقها فعلاً في فلسطين، ومعه العراق؛ لتستمر العملية التطبيقية لهذا الطرح حتى آخر بلد إسلامي.

وكل البلاد الإسلامية مخيَّرة بين حكومات محلية تعمل كوكيل كامل، وتنصيب أو موافقة من أمريكا؛ لضمان المصالح الأمريكية، وتنفيذ سياسة البيت الأبيض في استكمال المخطط الإرهابي الخطير ضد أمتنا، وبين حرب طاحنة مدمِّرة.

ولمَّا كان العراق هو المرشح هذه المرة؛ للاستيلاء الكامل عليه، فقد أعلنت بعض الأنظمة موافقتها على الاشتراك والتعاون؛ من أجل تسهيل المهمة الأمريكية في هذا البلد، والباقي قد يكون في الطريق.

ولماذا لا وأمريكا تضع هذه التعاون شرطاً للبقاء في الحكم وسلامة الحدود؟! ولتُعدّر هذه الأنظمة، لأنها أضعف من أن تقاوم الإرادة الأمريكية والشرّ الأمريكي، ولكن من أين جاء هذا؟

أليس من التخلي عن الإسلام؟

من الانفصال عن الشعوب؟

من تمزق الأنظمة نفسها؟

من التمكين التدريجي للتدخل الأمريكي الأجنبي عموماً؟

أليس من الاتكاء على الدعم الخارجي في مواجهة الشعوب؟

من شعور بعض الشعوب بعداوة الحكم لها حتى صارت تعادي الحكم، وتتمنى زواله بأي صورة من الصور، من باب عليّ وعلى أعدائي؟!

وها هي الحرب مشتعلة في أكثر من موقع، ويمتد اشتعالها على أمة صامته بعضها موقع ابتداء على ذبح الأمة، وإنهائها.

وآخر مستسلم في الطريق، وشعوب كالشعب العراقي - كان الله في عونهِ - بين نارين لا رمضاء ونار، لا يدري من أيهما يهرب - لو كان له الخيار -، وإلى أيهما يصير.

٣- يحكم الكفر العالمي على كل البلاد الإسلامية بعدم العودة إلى الإسلام، وبعدم التمتع بالحرية السياسية على النمط الغربي، حيث يتعارض كل من الفرضين مع إحكام القبضة السياسية الأجنبية على الشعوب ومصالحتها قطعاً على الفرض الأول، واحتمالاً على الفرض الثاني بسبب عدم الانفصال الكامل عن الإسلام من أبناء الأمة.

وكانه - أي الكفر - يمنع على أي حكومة إلا أن تستخف بشعبها، دون أن تتعامل معه تعاملًا إنسانياً كريماً؛ لتتال احترامه، ودعمه، والتفافه، وتقوى به، وتقوى بها.

٤- كل ما تملكه الأنظمة الرئيسة في الأمة إذا جدّ جدُّها، وبلغ السيل الزبي، واشتد الخناق على الأمة بما يخيف تلك الأنظمة على نفسها أن تذهب بالمشكلة إلى الأمم

المتحدة ومجلس الأمن، والنتيجة هي الاتفاق أو الاختلاف بين أهل حق تعطيل القرار على قسمة بلاد الأمة، وثرواتها، ومراكز نفوذها!

الأمة بهذه الصورة الكئيبة والوجود المهلهل المهدد هي الامتداد السيئ لأمة قال عنها ربها العظيم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١)، وخير أمة لا بد لها من التوفر على كل مقومات الصلاح الذاتي: سلامة في الرؤية، وسموًا في الهدف، وصحة في المنهج، وجدًا في العمل، وضخامة في الوظيفة، وبعدًا في الطموح، وعدلًا في الحكم، واستقامة في الخلق، وتقدمًا في العلم، وصبرًا في الجهاد، والتفافًا بالحق.

ولولا ما كان لها من ذلك مجتمعًا في نصابه الكافي بصفة كونها أمة لما استحققت شرف هذا الوصف الناظر إلى إيمانها على مستوى العقيدة والعمل.

أمة كبيرة عملاقة رائدة تملك مخزونًا لا ينفذ، يعطي للتقدم الحضاري على طول الخط حاجته، ويتقدم الزمان والمكان أبدًا.

وما كانت أمة الإسلام؛ لتحظى بهذا الوسام الكبير من رب العباد لو كان أمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر لا عن ائتمار منها للمعروف، وانتهاء عن المنكر أولًا، ولو كان إيمانها بالله سبحانه إيمانًا ميتًا لا حركة له، ولا نبض في عالم الأوضاع والحياة.

وإن ما بنى أمة الإسلام في ظل قيادة الرسول ﷺ هادية مهدية، نشطة قوية، عادلة قويمه، متقدمة على طريق الخير سبابة هو أمور أربعة:

١- الإيمان، وهو لتصحيح الإنسان من الداخل.

٢- المنهج الإيماني الذي ينظم الحياة، ويقدم كل الحلول العملية وهو لعدالة العلاقات، وإثراء حركة الخارج، وربطها بالعلم والقيم النبيلة.

٣- الحكومةُ الأُمينة حقاً على المنهج الرباني، القيمة صدقاً على تطبيقه.

٤- المجتمعُ الرسالي الذي يمارس الرقابة الاجتماعية، ويحرس النظام، ويلاحق الأخطاء والتجاوزات ما ظهر منها من كل المستويات في محيط الفرد والجماعة، بالتصحيح والتقويم والرد إلى المنهج، وهو ما يعبر عنه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يمثل رقابة اجتماعية عامة شاملة.

والإيمانُ قد خفَّ؛ لما انتشر وخطط له طويلاً وكثيراً من الضلال.

والمنهجُ الحياتي القائم على الإيمان قد حلت محله أطروحات من غرب وشرق صنعتها جاهليَّة الإنسان.

والحكومةُ الأُمينة على منهج الله، المنفَّذة لأحكامه، الذائدة عن حماه صارت مكانها حكومات وحكومات تطارد شرع الله، وتُجرِّم من ينادي به.

ورقابةُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد توارت لما امتلأ به الدرب من ألوان التحديات، واعتلى بدل ذلك صوت المنكر يطالب في صحافة المسلمين، وعبر كل قنوات الإيصال السمعي والبصري بالصيغة الجاهلية لكل الحياة، وحتَّى مساحة الأحوال الشخصية التي لا زالت الشريعة تحافظ على طهرها بمقدار، وتتأى بها عن الفحشاء والسفاح.

هذا هو الوضع!

واقع الأمة والابتعاد عن المواثيق الإلهية

هناك مواثيق مع أمم أرسل إليهم رسل، وكانت هذه المواثيق واصله على يد الرسل ومن خلال الكتب، وهي تختلف عن ميثاق الفطرة، وإن كانت متجهة اتجاهه ومؤكدة له: ﴿يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(١)، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا

نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ^(١)، والقرآن الكريم هو ميثاق بين الله وَحَكَمَ وبين هذه الأمة، فابتعادنا عن كتاب الله شبرًا يعني نسيان الميثاق، تخلينا عن مفاهيم كتاب الله، عن أهداف كتاب الله، عن منهج الله سبحانه وتعالى يعني نسيانًا منَّا للعهد مع الله وَحَكَمَ.

ألم نكن - وقد قبلنا الإسلام، قد قبلنا القرآن؟، ألم نكن وقد دخلنا الإسلام، قد قبلنا قيادة رسول الله ﷺ وكل كلمة أتت على لسانه الشريف؟، نحن في عهد مع الله - على أن نقيم حياة قرآنية في الأرض، على أن نتخذ رسول الله ﷺ والقيادة من سنخه قيادة لنا دون أي قيادة، هذا عهد يعطيه المسلم لله سبحانه وتعالى حين يقول: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وما أكثر ما ننسى هذا العهد في علاقتنا مع أنفسنا، مع ربنا، مع أسرنا، مع مجتمعنا، مع كل محيط الحياة، مع النملة، مع النبتة، مع أي شيء آخر. كل مخالفة، وكل ميل عن كتاب الله وَحَكَمَ وتعاليمه يعني نسيانًا عمليًا لهذا العهد، وتخليًا واقعيًا عن هذا الميثاق.

﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٢) لا النسيان العلمي، ولا النسيان العملي.

رسول الله ﷺ ضمن له ربه سبحانه وتعالى أن لا ينسى القرآن على مستوى العلم، وأن لا ينسى القرآن على مستوى الذكر في مقام الشعور، وفي مقام العمل، في المواقف السهلة، وفي المواقف الصعبة، حين تكون الدنيا معه، وحين تكون الدنيا ضده.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتُكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا﴾^(٣)، فهناك موثيق وعهود تُنسى، وهناك كتب تنسى، كتب الله تنسى، وموآثيق الله وعهوده تنسى، وكل هذا النسيان يؤثر كارثة في حياة الإنسان، والكارثة الأكبر أن يخسر آخرته.^(٤)

١- المائدة: ١٤.

٢- الأعلى: ٦.

٣- طه: ١٢٦.

٤- خطبة الجمعة ١٥٤ ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٥هـ، ١٤ مايو ٢٠٠٤م.

لو دخلوا جُحْر ضُبٍّ لدخلتموه!^(١)

كلمة كانت تقال على لسان رسول الله ﷺ بأكثر من تعبير للمسلمين في علاقتهم مع النصارى واليهود.

دخول جحر الضب من شخص، من مجتمع، من أمة ماذا يمثل؟

فقدٌ للعقل، سفاهة، قصور في النظر، فساد في الشعور، ضلالة تامة.

أمة بكاملها تدخل جحر ضب؟!

شخص واحد يدخل جحر ضب على ضيقه واختناق.

خيارٌ سفيه، خيار مجانين، لكن هذه الأمة حسب الكلمات الواردة عن رسول الله ﷺ تدخل جحر الضب حيث يدخله اليهود والنصارى.

النصارى واليهود يدخلون جحر الضب من خلال الاقتصاد الجاهلي، ومن خلال السياسة الجاهلية، ومن خلال التدهور الخلقي، ومن خلال زواج المرأة بالمرأة، والرجل بالرجل، ومن خلال كل المنكرات متخلين عن منهج الله المنهج اللائق.

اليهود والنصارى يدخلون الجحر بسفهمهم، وبضلالتهم ابتداءً، والأمة الإسلامية في الكثير منها تدخل جحر الضب متابعة، فهي ترتكب خطيئتين:

الخطأ الأول: السفه الذي تشارك فيه الأمم الأخرى، والضلالة التي تفرق مع الأمم الأخرى فيها.

الخطأ الثاني: إن هناك تنازلاً عن الشخصية، عن الهوية، انسلاخاً عن الذات الحضارية، نسيان قيمة الذات، التبعية الهزيلة، الاستخفاف بالنفس، الدونية في الشعور بالقيمة الذاتية لهذه الأمة، الانبهار المجنون، السقوط أمام الآخر، الحكم على النفس بالدونية أمام الآخر، وأي آخر ذلك؟

١- قال ﷺ يوماً لأصحابه: «لتسكن سنن الذين من قبلكم، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه». عوالق اللئالي ١/ ٣١٤، ابن أبي جمهور الأحسائي، تقديم: السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، تحقيق: آقا مجتبی العراقي، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، - ١٩٨٣ م، سيد الشهداء، قم - إيران.

آخر ساقط، سفيه، ضال، فاقد للتقدير الدقيق، «لودخلوا جحر ضب لدخلتموه».^(١)

هل تبقى أمة؟

ما فُرض علينا، وما يراد أن يفرض علينا من مقدمات هو الآتي، ونسأل في ظل هذه المقدمات، وفي ظل هذا الواقع المعاش: هل تبقى أمة، أم تنتهي أمّتنا؟ وإذا كان الأمر أن الأمة تنتهي في ظل هذا الواقع، فلا بدّ من تمرّد على هذا الواقع، ومناطقته ونسفه، وإلا فقد اخترنا أن ننتهي، وأن نكون نسيًا منسيًا.

المقدمة الأولى: لا سلاح لمن يقاوم، ويدافع عن هذه الأمة، عن دينها، وعزّتها وكرامتها، ومصالحها الدنيوية، والسلاح المسموح به هو السلاح باليد الطيّعة، وبالمقدار المحسوب الذي لا يضرّ عند المفاجآت وهو سلاح تحت الرقابة المشددة، والهيمنة المباشرة حيث المشرفون الأمنيون، والمدربون على السلاح، والمشغّلون له، والمشرفون المباشرون على كمياته ونوعه، وهو سلاح يُلجّ على طلب الخبرة الأجنبية، لمنع الخبرة أن تُملك، وأن تتنامى بيد المسلمين.

المقدمة الثانية: الجامعات ومنذ بعيد في خدمة الثقافة الأجنبية، وقد خرجت تقريباً من اليد، وفكرها يناصب الفكر الإسلامي العدا.

والطالب الذي يريد أن يستقيم وهو في الجامعة يجاهد جهاداً مرّاً؛ من أجل أن تثبت قدمه على الصراط وهو يحاصر بأجواء معادية، وبأجواء صناعة الصنع الخبيث، الصنع المغرّب، الصنع المعادي للأمة والإسلام.

المقدمة الثالثة: التشريع الوضعي قد اقتحم في كثير من البلاد الإسلامية آخر موقع للتشريع الإلهي من مواقع الحياة الاجتماعية في كل أطرها، وهو ما يسمونه خطأ بالأحوال الشخصية.

المقدمة الرابعة: التحرك الجدي على الأرض؛ لتطبيق الإرادة الأمريكية في فرض مناهج يدّعي أنها دينية، وتربية تسمى إسلامية توافق هوى الغزاة الذين لا يعادون شيئاً كالإسلام.

المقدمة الخامسة: تخريج أفواج جديدة من علماء وأئمة جمعة وجماعة وأساتذة حوزات وقضاة ومرشدين للحج، ولكل الاختصاصات والوظائف الدينية مصنوعين تحت الإشراف الأمريكي، وعلى ضوء مخطط؛ لمسح الأمة وإنهائها.^(١)

واقع الأمة مؤلم

من المؤلم أن دول العالم تصطرع حول المسألة؛ تصنع تاريخنا، تختلف عليه، تختلف في أدوارها من صناعته، ترسم لنا خريطة مستقبلنا، تتدخل في حاضرننا، أما الدول الإسلامية، فتتظر وكأنها لا تمتلك أي فعل في الأحداث العالمية من صنع الإنسان، كأنها ليست على وجه الأرض، كأن المسألة لا تعنيها، وكأنها قد أقعد بها العجز إلى الحد الذي يعفيها من أي دور.

أمة هي الكسيح من بين الأمم.

مؤلم جداً أن يكون هذا فرنسا، والصّين، وروسيا!

الدول الكبرى، والدول الصغيرة تحاول أن تدخل بجدّ في صياغة هذا الحاضر والمستقبل، أما الأمة الإسلامية التي يُخطّط لحاضرها، ويُخطّط لمستقبلها على يد عدوها، فهي تتنظر وتتقرّج، وتُسكت جماهيرها أحياناً عن الكلمة.^(٢)

أمريكا وإرادة الأمة الإسلامية

تقول لنا الحياة والأحداث: بأن لا إرادة مطلقة لغير الله، وأنّ كل المتعلمين والفراعة ليس لهم أن يقولوا للشيء كن فيكون كما لله سبحانه، فإرادة المخلوقين تبقى

١- خطبة الجمعة (١١٥) ١٢ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ١٣ يونيو ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

في أحسن ظروفها محدودة لا تعمل في حرية مطلقة، ومن غير شروط مفروضة من الخارج، فكثيراً ما تريد أمريكا وغير أمريكا ولكن الطريق ليس مفتوحاً دائماً أمام ما تريد.

ويظل البحث عندها قائماً، والمقارنات مستمرة إلى مدة تقتصر أو تطول فيما يرتبط بما تريد الإقدام عليه من حيث توفر الشروط، وتأتي الأسباب، وما يمكن أن يؤول إليه الفعل من ربح أو خسارة من غير أن تكون جازمة في قرارها منذ الخاطرة الأولى للفعل، ولا متأكدة تماماً في الكثير من مراحل الفعل أحياناً بما عليه النتيجة.

وما تريده هذه الدولة المسماة بالقوة العظمى في العالم من غزو العراق مثال لما عليه التردد البشري والمحدودية البشرية، وضبابية الرؤية عند البشر، وحاجته للتوسل في طريق غايته بوسائل وأسباب لا يملكها وعليه أن يبحث عنها هنا وهناك، ويتحايل في الحصول عليها، وقد يجبره اجتماع الصغار على خلاف إرادته وكسر قراره على التراجع عما يريد.

وبالفعل، فإن الدول الإسلامية فضلاً عن دول العالم لا تفقد القدرة على إجبار أمريكا بأن تراجع نفسها كثيراً في الإقدام على تدمير العراق، والاستمرار في شنّ عدوانها على العالم بلداً فبلداً إذا اجتمعت على مواجهة القرار الأمريكي، وحتى على عدم التعاون معه.

وعليه، فإن الدول العربية والإسلامية تتحمل قسطاً وافراً من مسؤولية إنجاح القرار الأمريكي الظالم على الأرض بتدمير البلاد الإسلامية، وأسر الأمة، وكسر هيبتها، وسقوط الكيانات القائمة واحداً تلو الآخر؛ لتخلق فوضى عارمة في العالم العربي والإسلامي، وذلك من خلال ما يعنيه إنكارها الجاد للإرادة الأمريكية الظالمة في هذا الأمر، وعدم إبداء أي لون من التعاون في إنجاح حربها الغازية من سلبية عملية واضحة تفرض نفسها وضغطها على جدية القرار الأمريكي، وفاعليته، وجازميته، والاستمرار عليه لو كان.

الأمة لم تتحول بالكامل إلى صفر.

إنَّ لها قوى، وعليها أن تعرف قواها، وإن لها وزناً، وعليها أن تعترف أولاً هي وبالذات بوزنها.

وإن عدم الإنكار على سياسة البطش الأمريكي فضلاً عن دعمها يوقع غداً حتماً الداعم والمتفرج تحت طائلة هذه السياسة، وينشر الفوضى في العالم كله، ويأتي على مكتسباته الحضارية فضلاً عن أمنه، واستقراره، وتقدمه.

وإن الحكمة قاضية بتضامن العالم الإسلامي، بل العالم كله في مواجهة أمريكا بالتحذير من سياسية البطش والرعب والغطرسة، والعالم كله مسؤول بأن يمتنع عن دعم هذه السياسة وتشجيعها.

وروح الأنس التي تقف وراء السياسة الأمريكية قد تبتدئ بضرب من تسميه عدواً، ولكنها في الأخير لا تعرف أخوة، ولا صداقة، ولا وعداً، ولا عهداً، ولا يقف أمامها شيء من ذلك عن تحقيق مطامعها الذاتية المتمددة.

وإن القوة المادية الهائلة بيد أمريكا - وهي محدودة على كل حال ومحكومة لقدر الله - لتغريها بأن تنسى حاجة العالم إلى الأمن والسلام، وأنها هي من هذا العالم الذي لا يتجزأ سلامه وأمانه بعد تقاربه واتصاله، وأن القوة الضاربة لا تُعفي منطلقها من الاحتراق بنار الحرب التي تشعلها ملتهبة طاحنة شاملة.

وهل تتذكر أمريكا بأن حرب الأمم تمتد أجيالاً، وتتوقد جمرتها في النفوس على المدى الطويل؛ لتحصد وتدمر وتعاود الاشتعال وتزلزل ما تحت الأقدام، وتقطع الأواصر البشرية، وتصرف الإنسان؛ لتدمير حياة أخيه الإنسان.

لعل غرور القوة وغطرسة السلاح النووي والأسلحة الفتاكة الأخرى تُنسي أمريكا كل ذلك، ولكن ليس للعالم أن يشارك أمريكا هذا النسيان القاتل.

وهكذا كل مغرور مخمور لا يفيق على الحقيقة إلا بعد فوات الأوان.

ومسكين هو الشعب العراقي الذي لا يريد له المستكبرون أن يخرج من محنة إلا ليدخل في محنة مثلها، ولا يفلت من يد سفاح إلا ليقع تحت قبضة سفاح آخر، ولا ينتهي

امتهانه على يد طاغية إلا ليبدي امتهانه على يد طاغية ربما كان أسوأ.

ولكن متى أشفق المستكبرون على شعب من شعوب الأرض وهم بين اضطراع على استعبادها، أو اقتسام تضطهرهم إليه الظروف لخيراتها؟^(١)

القوة مفصولة عن الحكمة تغر وتضر وتجر إلى الغباء، فلو تجاوزت قوة الإنسان كثيراً مما هي عليه لم يكن إلا كثير البطش، كثير الظلم، مغلوباً لغروره، مأسوراً لهواه.

هذا الإنسان يتحمل درجة من القوة، يتحمل درجة من الجمال، يتحمل درجة من الغنى، ولو زاد على هذه الدرجة لأهلكته زيادته، ولقد جاء على لسانهم ﷺ ما معناه: **إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْلُحُهُ الْغَنَى، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصْلُحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَكَذَلِكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَصْلُحُهُ إِلَّا الصَّحَّةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصْلُحُهُ إِلَّا الْمَرَضُ.**

أمريكا قوية قوة مادية، ولا تمتلك الخلفية الحضارية التي تورث الحكمة والتعقل، وتضع الخطى على طريق الهدى والصلاح.

أمريكا تنطلق من خلفية الفلسفة البرجماتية النفعية الواقعية التي تلخص الكون والوجود، وكل شيء في اللذة والمنفعة المادية.

أمريكا وقوة العضلات!

فليس أمام أمريكا من واقع فلسفتها، ومن واقع عدوانيتها، ومن واقع غزوها الجاهلي إلا الإفراط في استخدام القوة؛ لإسكات الشعب العراقي، والإفراط في استخدام القوة سيظهرها وحشاً كاسراً للأرض كل الأرض، للناس كل الناس، ويسقطها حضارياً في نظر كل الناس.

فأمريكا قد تريح ماديّاً إلى وقت، ولكنها ستخسر حضارياً ومعنويّاً على المدى الطويل.

١- خطبة الجمعة (٧٣) ١٥ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ، ٢٣ أغسطس ٢٠٠٢م.

وإذا كان العالم يتذكر، ومن المؤسف أنَّ العالم كثيرًا ما ينسى، فإن هذا العالم لن يصدق أمريكا في يوم من الأيام أنها منقذة للعالم، وبأن لها ديمقراطية تستهدف نشر العدل في الأرض، وتركيز أسس المساواة.^(١)

أمريكا وإسرائيل معسكر الشر بحق

إذا كان بوش يرى أن معسكر الشر يعني غير المعسكر الذي يقوده، فالحق الصُّراح والذي يتأكد على أرض الواقع يومًا بعد يوم أن ليس هناك جبهة للشر في الأرض أقرب للشيطان من جبهة يقودها بوش وسياسته.

أمريكا وإسرائيل تشنان حربًا ثقافية وأمنية واقتصادية وسياسية على أمة بكاملها، وفي كل شبر من أرض الإسلام، وفي كل شبر من أرض الله فيها هدى، أو يُرتقب لها أن تكون أرض هدى وصلاح.

إنهما تفسدان الأرض كلها، وتشيران فيها الفساد بدرجة أكبر فأكبر كل يوم بل كل لحظة، وتشنان حربًا عسكرية دموية قذرة وبلا قيم ولا ضوابط، ولا مراعاة لقانون دولي، ولا عرف إنساني في فلسطين والعراق وأفغانستان، وتهددان كل أرض من أرض الإسلام، وكل الكيان الإسلامي.

الأمة كلها تشهد ضرب المقدسات، قتل الآمنين، تكسير العظام، ألوان التعذيب، الأساليب الساقطة خلقياً، تشهد فضائع في أرض الإسلام على يد هاتين السياستين الخبيثتين، على يد الطغاة في هاتين الدولتين الشريرتين بما لهما من قيادة، وبما لهما من سياسة، ولا نعني أنهما شريرتان بما لهما من شعبين بكل فتاتهما.

رَفَح وكوارثها، وتجاوز السياسة الإسرائيلية لكل متعارف على أرض رَفَح تُمَثِّل تحديًا مخجلًا لهذه الأمة، وتمثّل اختبارًا لإرادتها.

هل بقيت في هذه الأمة إرادة مقاومة أو لم تبقى؟!

هل بقي فيها إحساس بالذات أو لم يبق؟!

هل بقي فيها تمسكٌ بالمصلحة العامة للأمة أم لم يبق؟

هل هنا أمة؟

أو الأمة قد غُيبت؟

هل هنا رجال أو لا رجال على الأرض؟

هل هنا استحضار للتاريخ؟

للدور الرسالي؟

للدور الخلافي؟

أهنا وعي هدف؟

وعي طريق؟

أم أنّ كل ذلك قد خسرتَه الأمة؟

وافضيحتاه، فإن الحدث المهول في رفح، وفي العراق يشبتان على الأمة أنها على شفى انهيار.

سياسات متضععة متخاذلة متآمرة - هي على أقسام -، وأمة قد أفقدتها هذه السياسات التي لعبت دورًا كبيرًا في إسقاط نفسيّتها، وتجفيف منابع العزة والكرامة في صفوفها، وعملت كثيرًا على قتل إرادتها.

هذه الأمة فقدت الكثير من إرادتها، ولم تعد في الكثير قادرة فعلاً على كسر القيود، وعلى تكسير الأغلال، وعلى الانطلاقة المقاومة لكل الوضع الفاسد في داخلها؛ من أجل حاضرٍ عزةٍ، ومستقبل كريم.

والمسؤولية وإن كانت على كاهل الأنظمة بالدرجة الأولى لكن الأمة تبقى مسؤولة كذلك.

هذه مظاهرة تخرج اليوم؛ لإنكار الوضع الفاضح السيئ، والتّحدي الساخر لقيم الأمة.

هل سنجد في المسيرة كبار سن؟

هل سنجد الأطفال؟

هل سنجد العجائز؟

أو أن الواجب تعتبره الأمة واجب شباب فقط؟

اليوم والمتحدّي علي والحسين عليه السلام، أين الذين يملؤون المآتم؟

أين الذين يلطمون على الصدور؟

أين الذين يبذلون الأموال في عاشوراء، وغير عاشوراء على خط الحسين عليه السلام؟

المتحدّي اليوم من أمريكا هو علي والحسين عليه السلام.^(١)

نعم، لبيك يا حسين، لأن نداء الحسين هو نداء الله.

نعم، لبيك يا حسين، لأن كلمة الحسين كلمة الله.

نعم، لبيك يا حسين، لأن خط الحسين خط الله.^(٢)

الخطوات العدوانية المتسارعة الراكضة المجنونة على أرض رفح، وعلى أرض كربلاء والنجف، وعلى أرض العراق أرض المقدسات؛ هي لإذلال الأمة وتركيعها بدرجة أكبر؛ لزرع عقدة الحقارة في نفوس المسلمين، فهل تقبلون أن تكونوا حقيرين في أنفسكم إلى الأبد؟^(٣)

نقول لأمريكا: إن الدماء رخيصة.

إن الرؤوس رخيصة.

إن الأشلاء رخيصة على طريق علي والحسين عليه السلام.^(٤)

١- هتاف سماحة الشيخ مع جموع المصلين: (لبيك يا حسين).

٢- هتاف جموع المصلين بالتكبير: (الله أكبر)، والموت لأمريكا وإسرائيل.

٣- هتاف سماحة الشيخ وجموع المصلين ب: (هيهات منا الذلة).

٤- هتاف سماحة الشيخ مع جموع المصلين: (لبيك يا حسين).

نعم، إن ضرب المقدسات سيشتعل فتيل العنف، ويزيد أواره ليس في أرض العراق فقط، وإنه يكتب ديناً ثقيلاً في ذمة المعتدي لأمة قادرة على الانتقام، واستخلاص الحق. وأمريكا وإسرائيل لن تثبت لهما قدم في فلسطين والعراق، لأن وراء فلسطين والعراق الأمة الناهضة التي بدأت بوادر نهضتها في الصف الإسلامي المتراص، وهذه الصحو والنهضة ستستمر وستتسع، ولها إرادة فولاذية؛ للاستمرار، والمقاومة، والغلبة، والنصر إن شاء الله.

وإن أمريكا لتنتحر من حيث يتراءى لها أنها تتنصر.

إنها تنتحر، لأنها تستثير أمة وإن أدلتها السياسات الوضعية الظالمة، إلا أنها في رقدتها التي طالت، على ميراث كبير من إرادة العزة والكرامة والشموخ، وفي داخلها صوت من صوت رسول الله ﷺ، صوت من صوت علي، صوت من صوت ثورة كربلاء، وأمة في داخلها هذا الصوت وإن طال بها النوم وقتاً ما إلا أنه لا يدوم، وهي لا بد منتفضة، ولا بد أن تسترد كرامتها وموقعها ليس في أرضها، وإنما في كل الأرض.

مسيرة اليوم هي تعبير عن أن الأمة واحدة، وعن أن العدوان على الذات الحضارية للأمة بكاملها، وأن ليس هناك غير في العراق غير هنا، وإنما هو جسم واحد، وذات واحدة في العراق، في فلسطين، في أفغانستان، في كل شبر من أرض الإسلام.

وإذا كانت تعبيراً عن الاستنكار على أصل العدوانية - وإننا لننكر العدوانية في الأرض كل الأرض، سواء كانت عدوانية على مسلم أم غير مسلم، على دم حرام في هذه الأرض أم في تلك الأرض، على حق تسلبه العدوانية في شرق الدنيا أو في غربها -، فإن لنا إنكاراً آخر هنا؛ وهو الإنكار على العدوان السافر على قيم هذه الأمة، وعلى خطها الحضاري، وعلى رموزها الشامخة من بعد رسول الله.

من رمز أكبر من علي، والحسن، والحسين ﷺ بعد رسول الله ﷺ. (١)

الغزو الأمريكي

أمريكا تطلب المستحيل، وأحلامها ليست واقعية.

والأرض الإسلامية لن تكون ساكنة ومستقرة تحت أقدام الأمريكان والأوروبيين الذين جاءوا بغزوهم الجديد، وأن الإسلام لن يموت، وإنما قد يزيد انبعاثه.

هذا الهجوم شرس عدواني وردود الفعل في البلاد المغزوة ستتواصل بقوة بما يسقط الرهان الأمريكي على هذه العمليات الفاشستية الظالمة.^(١)

لن نستسلم للغزو الكافر

كل هذه الأمة ستقاوم، كل هذه الأمة ستجالد، كلها ستنتفض، كلها ستقول: لا - لا على المستوى اللسان، فحسب وإنما على مستوى الموقف العملي - وإن وصل الأمر إلى بذل الدم، من كل الأمة، وإلى أن تتحول ملايين من أبنائها إلى أشلاء وركام.

لن نستسلم للغزو الكافر.

ولن نرضى بأن نُسلَب إسلامنا.

لن نرضى بأن نُسلَب انتماؤنا الحضاري الكريم.

لن نتفصل عن قرآنا.

لن نتفصل عن محمد ﷺ.

لن نتفصل عن أئمة الهدى.

لن نتفصل عن رب العباد جميعاً.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٥٨) ٢٧ صفر ١٤٢٣هـ، ١٠ مايو ٢٠٠٢م.

٢- خطبة الجمعة (١٠٤) ٢٥ محرم ١٤٢٤هـ، ٢٨ مارس ٢٠٠٣م.

الغرب مع مَنْ؟

الغرب: أمريكا وأوروبا مع مَنْ؟

مع الحكومات التابعة؟

مع الحركات المتحرّرة؟

مع خصوص الحركات الإسلامية منها؟

مع الشعوب التوّاقة للاستقلال؟

هذا السؤال مسبق بسؤال، وفي جواب ذلك السؤال الجواب.

ماذا يريد الغرب - أمريكا، وأوروبا -؟

وماذا تريد كل الدول الكبرى المستكبرة؟

كل أولئك يبحث عن عملاء، عن عبيد، عن ثروات الشعوب، عن مواقع جغرافية مؤثّرة، عن فرص استعمار، واستغلال، عن تدخّل مريح في شؤون الغير، عن سيطرة وهيمنة وتحكّم في مصير الأمم والشعوب؟

وإذا كان الأمر كذلك، وهو ليس إلا كذلك فالغرب، وكلّ الدول الاستكبارية، وكل الطواغيت إنما هي مع الحكومات التابعة التي لا تبخل بشيء من ثروات الأوطان وعزتها، وكرامة إنسانها وقيمه، ودينه في سبيل دعم بقائها بقوة الأجنبي بعد أن تُعادي أطماعها بينها وبين شعوبها، وتتكرّر لمصلحة الأوطان.^(١)

مصلحة الأجنبي إنما تلتقي مع حكومات تبيع كل شيء؛ من أجل بقائها ولول يوم واحد في الحكم.

١- ليس بعد أن تأخذ الأطماع الحكومات الجائرة إلى معاداة مستقرة مع شعوبها إلا أن ترتمي في أحضان الأجنبي؛ لتجد الدعم لها من قوّته. ليستعمل أوطان الآخرين بقرة حلوباً لمصلحته.

ولا يمكن أن تتلاقى وتتوافق مع توجه أي حركة تتشبّث مع حرية قرارها، وعزّة وطنها وأمتها - من أي وجهة نظر كانت هذه الحركة، ومن أي انتماء -.^(١)

وأما تصادم أولئك الطامعين الذين تحرّكهم روح الاستعمار، والاستغلال، والاستعباد، والاستكبار مع الحركات الإسلامية الصادقة فأساس ودائم، لما يعرفونه من عزّة الإسلام، وقوّته، وصلابته، ومبدئيّته، ومقاومته، وإخلاصه، ونقائه، وثوريّته، ونزاهته وأعلائيّته.^(٢)

والتلاقي بين أي حركة حرّة، والنظم الاستكبارية - كما قد يقول به البعض في المثال الليبي - حيث تتّجه إرادة الشعب هناك مع إرادة الاستكبار في إسقاط النظام ولو كان ذلك من منطلقين مختلفين لا يدوم ولا يطول.

ولا بدّ أن ينقلب في فرض تمسك الحركة بالحرّيّة، والاستقلال، والمصلحة الوطنية إلى صراع شرس مرير وإنّ كان بأساليب متنوّعة يمارسها الغرب بمهارة وفنّ؛ حتى يتكشف أمر هذا الصراع، ويعلن عن نفسه على مرأى من الدنيا ومسمعها.

اليأس من دعم القوى الاستكبارية لقوى التحرّر في العالم، لا يقل عن اليأس من استجابة الحكومات التابعة لها لكلمة الحقّ والعدل، والمطالب المُنصّفة للشعوب إلا بما اقتضاه الاضطرار، واستدعته الضرورة الخانقة.^(٣)

١ - فلتكن الحركة قومية، أو تكون وطنية، أو تكون علمانية، أو تكون إسلامية ما دامت تصر على الاستقلال، فالغرب ليس معها.

٢ - الإسلام يعلو، ولا يُعلَى عليه، والاستعمار إنما يبحث عمّن يعلو عليه. (هاتف جميع المصلين ب: تبيك يا إسلام).

٣ - خطبة الجمعة (٤٦٣) ٤ شهر رمضان ١٤٣٢هـ، ٥ أغسطس ٢٠١١م.

الباب الخامس

كيف نغيّر واقع الأمة؟ بحث مقتضب حول الإرادة والتّغيير

قانون التّغيير: التّغيير الخارجي يقتضي تغييراً داخلياً

إذا كان التّغيير المطلوب هو تغيير على مستوى الفرد، فالفرد لا بدّ أن يغيّر نفسه؛ ليتغيّر خارجه.

ولا بدّ أن يقصد التّغيير الداخلي؛ ليتغيّر داخله.

لا بدّ أن يبدأ التّغيير حتى لو أراد أن يتحسن داخله.

أريد أن يتحول جهلي علماً، هلعي إلى صبر، خوفيّ وجبني إلى شجاعة لا بدّ أن أعمل على التّغيير.

تغيير الداخل وتغيير الخارج يبدأ من إرادة الإنسان.

ولا بدّ أن يقوم الإنسان بدور في داخله فيتغيّر داخله، ثم يأتي التّغيير منسجماً مع واقع النفس الجديد - عليّ أن أسرع -.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، فهنا علاقة التّغيير الخارجي بالتّغيير الداخلي، وأنه لا بدّ من تغيير داخلي؛ من أجل التّغيير الخارجي، هنا أمران: أمر العلاقة بين التّغيير الداخلي والتّغيير الخارجي، وأن هذه العلاقة هذا الربط هو من صنع الله سبحانه وتعالى.

الربط بين تغيير الداخل وبين تغيير الخارج هو من صنع الله سبحانه وتعالى وتحت حكومته، والإنسان إنما يملك بتمليك من الله المقدمة - كما يعبرون - التّغيير الداخلي، تملك أن تغيّر داخلك بتمليك من الله وَكَوْنُكَ، ثم أن التّغيير الخارجي يأتي نتيجة لربط

القانون الإلهي بين السبب وبين المسبب.

فالارتباط ليس ذاتيًا بين السبب والمسبب.

الارتباط مفاض من الله بين كل سبب وبين كل مسبب، وهيمنة الله وَجَلَّ تَمَسَّكُ بكل ذرة من هذا الكون، وبكل علاقة فيه بين دقائقه، وبين كل شيء كبير فيه.

فهذا القانون كسائر القوانين في كل المساحات الاجتماعية والكونية محكوم لله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

هنا عندنا ﴿مَا﴾ هذا الذي بالقوم، والذي يراد تغييره يمكن أن يقال عنه: بأنه الوضع الخارجي، وكذلك يتصور فيه أن يكون - كما سبق - الوضع الداخلي، هناك في النفس ما يمكن أن يُغَيَّر، والنفس ما لا يمكن أن يُغَيَّر.

خلقنا باستعدادات عدّة قد تُعْطَل وقد تُفْعَل

جئنا بعقول على قدر، جئنا بأوزان من الأنفس على قدر، ما كان فينا مخلوقًا من الله سبحانه وتعالى على محدودية فهو هو.

وهناك مساحة أعطينا فيها الحركة في داخل أنفسنا.

نحن جئنا بمعلومات قليلة، أو لم نأت بمعلومات وإنّا جئنا باستعداد للعلم، ثم صارت لنا فعلية القدرة على العلم، صرنا قادرين على أن نتعلم، على أن نفهم، على أن تستقبل عقولنا، هذه القدرة الفعلية، أعطينا من بعدها حركة التعلّم، القدرة من الله، الاستعداد للعلم من الله، القدرة الفعلية على التعلّم من الله.

أقدرنا الله أيضًا أن نتعلم، أن نطلب العلم، هنا نستطيع أن نغير، في الكم الذي نتعلمه، في النوع الذي نتعلمه، في أن نقبل على هذا العلم، نترك ذلك العلم، ندرس الأولويات في العلوم نقدم ما هو الأهم على المهم، فنحن نستطيع أن نتحرك في الداخل.

أعطينا أيضاً قدرة على الشجاعة، القدرة على الصدق القدرة على الأمانة، القدرة على الفضائل كلها، أعطينا قدرات ربما تكون مختلفة بمقدار وآخر على الفضائل، هذه القدرات على الفضائل إما أن نتحرك على خطها، وإما أن نفعها، ونتجاوب معها ونستثمرها، وإما أن نعطلها.

فتحن نملك مساحة في داخلنا؛ للتغيير، لإضافة الجديد، لحذف شيء في الداخل، لإضافة شيء في الداخل، حذف القبيح، إضافة الجديد النافع، هذا مما يملكه الإنسان وهو طريقه لتغيير داخله وذاته، أما الكيفية فذلك أمر آخر ويحتاج إلى كلام آخر.

هل لإرادة الإنسان موقع في قانون التغيير؟

هنا أضيف نقطة: قانون التغيير أين موقع الإرادة الإنسانية منه؟

هل نحن مجبورون، أو غير مجبورين؟

هذا القانون الذي يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، والقوانين الاجتماعية تحكم حركة الاجتماع عند الإنسان.

فإذا كانت الحركة الاجتماعية محكومة بقوانين الله سبحانه وتعالى، فأين المساحة التي نتحرك من خلالها؛ لنطور أنفسنا، ونطور حياتنا؟

في الحقيقة هنا الآية الكريمة تقدم لنا حلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، المكتوب المفروض القهري هو أن التغيير ينتج التغيير، هو أن التغيير الداخلي ينتج التغيير الخارجي هذا لا حيلة لنا فيه.

أنا لما أعمد إلى داخلي، فأشوه داخلي، حين أن أكب على الشبهات، أحاول أعيش القبايح، حين أحاول دائماً أن أكذب، أن أسقط، هذه المحاولة لما تتراكم آثارها في النفس، هذا السعي العملي والسعي العلمي، يعطي تراكمات سلبية في النفس، فالأثر الخارجي لا بد أن يحصل.

إهمال الأمة للعلم، إهمال الأمة لطلب القوة، إهمال الأمة للتماسك الاجتماعي، إهمال الأمة دون أن تعطي جهداً في تطوير ذاتها.

هذا موقفٌ كانت نشطةً فكّست، كانت متعلمةً فصارت تميل إلى الجهل، كانت متحدةً فصارت تتفرق، هذا موقف عملي غير ما بالداخل.

حين يتغير ما بالداخل أنت لا تملك بعد ذلك إلا أن تحصل النتائج، أما من غير الداخل؟ هل تتغير داخلك قهراً؟

لا لم يتغير داخلك قهراً.

أنت تستطيع أن تتغير داخلك من خلال إرادتك، فهذا القانون مقدمته إرادة الإنسان، ونتيجته نتيجة حتمية تترتب على حسب اتجاه الإرادة، وفاعليتها، ونوع فاعليتها عند الإنسان.

لا إرادة للأمة تابعة

المخطط للبلاد الإسلامية، إما الاستسلام مع إبقاء أسبابه، استسلام وبقاء لأسباب الاستسلام، ضعف وتبعية وخنوع مع إبقاء كل الموجبات؛ لاستمرارية هذا الخنوع والخضوع والاستسلام، إمّا أن تقبل البلاد الإسلامية بهذا، وإمّا عليها أن تواجه الضغط من الخارج، وصراعات الداخل من الدرجة الحادة والمصنوعة بعملاء الخارج.

فأفغانستان شأنها شأن أي بلاد إسلامية أخرى، تحكمها الإرادة الأجنبية، فهي يجب أن لا تجد فرصة إلى بر الأمان وأرض الأمان، ستبقى البلاد الإسلامية تعيش الولايات ما لم تتسلخ عن التبعية، وما لم تطلب القوة من داخلها، الأمة التي تعتمد في حل مشكلاتها، في اقتصادها، وفي سلاحها، وفي صناعاتها، وفي كل مقوماتها على الخارج، لا بد أن تكون مستعبدة للخارج، تابعة لإرادته.^(١)

١- خطبة الجمعة (٣٣) بتاريخ ٣٠ شعبان ١٤٢٢هـ، ١٦ نوفمبر ٢٠٠١م.

أهم أسباب التَّخَلُّف السِّيَاسِي

أيها الملاّ الكريم، كل ساحاتنا الإسلامية مليئة بالمشاكل، مبتلاة بالتخلفات، مهددة بأفدح الأخطار.

وبرغم تعدد الأسباب إلا أن المطالع لا يفوته أن في مقدمة هذه الأسباب أمرين:

١- تغييب الإسلام عن ساحة الفعل والقرار.

٢- شل إرادة الشعوب عن العطاء والتحرك والمشاركة الفاعلة المنتجة إلا ضمن القوالب التي تحددها إرادة الأنظمة في داخل الأمة والمحكومة أساساً في الأكثر لإرادة أعداء الأمة من خارجها، والداخلين معها في حروب تاريخية مستمرة.^(١)

كيف ننمض بالأمة؟

والأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أوّلها، والإنسان نوعٌ واحد يمثل موضوعاً واحداً، لا يصلحه أكثر من منهج واحد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾^(٢)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾^(٣)، ولن تصلح بغيره أوضاع آخرته ولا أولاه، ولن تهناً له حياة ولا ممات.

وستبقى الأرض تحترق وأهلها بالعذابات حتى تُضيئ بنور ربها نور الإسلام على يد القيادة المعصومة الرشيدة، وفي ظل إيمان يطهر الداخل، ومنهج ربّاني يقود حركة الخارج، وأمة تهتدي بهدى الله وتدعو إليه، وتردُّ الضال إلى طريقه.

لكن هل ينتظر بأفواه مفتوحة حتى ينزل الفرج من السماء للمتقاعسين في الأرض؟

وهل يستوي القاعدون والمجاهدون في أجر الآخرة والنتائج الموضوعية في الحياة؟

وهل يكون وضع أمتنا هو وضعها قامت قائمة، أو كانت من القاعدين؟

١- خطبة الجمعة (٢٣) بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، ٧ سبتمبر ٢٠٠١م.

٢- آل عمران: ١٩.

٣- آل عمران: ٨٥.

وهل تحولّنا إلى لا شيء أمام أمريكا؟

وهل تحتم علينا أن نخرج من ساحة التاريخ؟

وهل لا بدّ لنا أن نقنع أن نكون وراء جدار التاريخ، وأن نكون في الهامش الصغير؟
أم أننا لا زلنا أمة تمتلك أن تنتفض، و تمتلك أن تهض، و تمتلك أن تتقدم؟

الأول غلط، الثاني صحيح.

وحتى لو لم يكن إلا فرد واحد يؤمن بالإسلام، فعليه أن يتحرك في اتجاه النصر
بتركيز عقيدته، بالدعوة إليها، بتخلقه بأخلاق الإسلام.

أنتم لا تملكون أن تنصروا الإسلام بكلّ ما يحتاجه النصر، لكن ألا تملكون أسلحة
نصر للإسلام ولو على مستوى التمهيد للنصر؟

أن تلتزموا في حياتكم الخاصة، وفي حياتكم الأسرية بالإسلام.

أسنا نحن نحارب الإسلام من خلال الخروج عليه في حياتنا الخاصة، وفي حياتنا
الأسرية، وفي علاقتنا الاجتماعية في الإطار الإيماني؟

أسنا أعداء للإسلام بنسبة؟

أسنا أنصاراً لأمريكا بما نفعل؟

لو لم يكن إلا واحد لأمكن له أن ينصر الإسلام بإقامة حياته الخاصة، وعلاقاته
الاجتماعية ما استطاع على أساسه، وبإطلاق صوت الإسلام إلى المدى الذي يمكن له،
بنصيحة الآخرين، بأن يطلب الأساليب والآليات التي تقنع بفكرته.

هذا هو الفرد، فكيف بأمة لا زالت تغنى بالعلماء والمتقنين، والمجاهدين، وجمهور
عام من المؤمنين يتعشق الإسلام ويقدمه بكلّ غالٍ وعزيز؟!

يتوجب جدّاً إشاعة الفكر الإسلامي، والحوار؛ من أجل الإسلام، لا الحوار الذي
يمكّن للباطل، فهناك حوارات من هذا النوع الأخير يراد إشاعتها باسم أن الإسلام
يفتح باب الحوار.

علينا أن نختار كيفية الحوار، أن نخطط للحوار، لا أن نستدرج للحوار الذي يريدون. يتحتم إشاعة السلوك الإسلامي، وطرح وجهة النظر الإسلامية في الصحافة وغيرها من وسائل التفاهم المعاشة، خلق أجواء اجتماعية كلما أمكن، تطبيق الإسلام في الحياة الشخصية والأسرية والعلاقات الاجتماعية، واستثمار كل الفرص على هذا الطريق، المناشدة والمطالبة في كل البلاد الإسلامية بتصحيح الأوضاع باسم الإسلام، والقرآن، والسنة، والواجب الشرعي.

إذا غيّبت مصطلح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غيّبت مصطلح الواجب الشرعي، غيّبت مصطلح الشورى، غيّبت كل مصطلح إسلامي صار العدل من عطاء الحضارة الغربية، صارت المطالبة بالحقوق تفكيراً غريباً فقط، وضيعت الإسلام، وغيّبت الإسلام كله.^(١)

ومن ثابت كربلاء الذي لا بد أن يستهدي الحاضر به، ولا يمكن له الانفصال عنه:

١- تحمل مسؤولية الإصلاح والتغيير للواقع الفاسد في الأمة وعدم التنصّل عنها، ويشهد لذلك السيرة المستمرة من المعصومين عليهم السلام بما يتجاوز في النظر الدقيق الدلالة الاستحبابية؛ لاشتراك كل المعصومين في هذه السيرة، وعدم وجود موقف مضاد واحد في سيرتهم عليهم السلام.

وأكثر من ذلك دلالة على الوجوب النصوص المتواترة كتاباً وسنة.

وقد انصبت كلمات الإمام الحسين عليه السلام ومواقفه على هذا الاتجاه بصورة مركزة، وقدم أبلغ الدروس في هذا المجال قولاً وعملاً.

٢- المستهدف دائماً هو الإصلاح الشامل للإنسان والحياة بكل أبعادهما، والإصلاحات الجزئية مقدمة له، ولا يصح أن تشغل عنه، أو تؤثر على هوية الأمة وانتمائها.

١- خطبة الجمعة (٧٨) ١٩ رجب ١٤٢٣ هـ، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٢ م.

ونستهدي هنا بما جاء عن الإمام الحسين عليه السلام: «....، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي»^(١)، فهو إصلاح مطلق وليس لحيثية معينة، ولا لعلاج مشكلة خاصة فحسب.

وإذا كان التصدي في موقفه عليه السلام للانحراف السياسي، فإنما كان بهدف المقدمة؛ من أجل الإصلاح الشامل الكامل.

وإذا كانت مسؤولية الإصلاح ثابتة دائمة، فإن أساليبها وآلياتها وخصائصها المكانية والزمانية، وما تقتضيه هذه الخصائص من المتغير الذي يتطلب نظراً جديداً، ودراسة موضوعية خاصة به.

وهذا لم يورث من المعصوم عليه السلام إلا في حدود ضوابطه الكلية العامة.^(٢)

الاكتفاء الذاتي للأمة

لا تكون الأمة - أمة الإسلام، أمة الإيمان، في أي مكان وفي أي زمان -، أمة تنتظر قوتها من عدوها، وتنتظر ثوبها، وكل شيء تحتاجه في هذه الدنيا، ممّن يخطط؛ للاستحواذ على مقدراتها ومقدوراتها.

ليس مسموح للأمة في إسلامها إلا أن تكون في مقدمة الأمم آخرة ودنيا، وأن تكون الأمة الأقوى، وأن تكون الأمة الأغنى، وأن تكون الأمة الأكثر تماسكاً، وأن تكون الأمة الأقدر على اتخاذ القرار العالمي، والأمة الإسلامية.

وأي أمة لا يمكن أن يكون لها دور في القرار العالمي، فضلاً عن أن تتزعم موقع هذا القرار، من دون أن تكون هي الأقوى ومن دون أن تكون هي الأغنى، ومن دون تكون هي الأكثر قوة عسكرية ضاربة، وأن تكون أكثر علمًا وأكثر خبرة وتجارب وتماسكًا اجتماعيًا والتفافًا حول قيادتها الواعية، إعمار الدنيا مسؤولية الإنسان المؤمن، وتنشيط

١ - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٤ ص ٣٢٩.

٢ - خطبة الجمعة (١٠١) ٤ محرم ١٤٢٤هـ، ٧ مارس ٢٠٠٣م.

حركة الاقتصاد والحركة الاجتماعية، والحركة السياسية على خط الله مسؤولية من مسؤوليات الإنسان المؤمن والأمة المؤمنة.^(١)

جهد واجب لا تطوع

ما نسميه بالعمل التطوعي مما يدخل في الدعوة الى الله، مما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يدخل في مواجهة الباطل والانحراف الفكري والانحراف الخلقي، مما يمثل دفاعاً عن الإسلام، ومشاركة في تصحيح الفكر عند الشباب المسلم، وأخذاً بالناس على الطريق، ومواجهة الكفر العالمي، فيما يتعمده من غزو فكري وخلقي، وفيما يشنه من حملات تدميرية على نفسية الإنسان المسلم وأخلاقه وكيونته الإنسانية الرسالية، هذا الذي نسميه عملاً تطوعياً هو من التسمية الخطأ مائة في المائة.

إنَّه جهاد واجب أيُّها الإخوة.

دخولك المؤسسة الإسلامية؛ لكي تشارك في الدفع بالعملية التوعوية، أو السياسية الصحيحة، هو من الجهاد الواجب العيني إذا لم يكن هناك العدد الكافي الذي يقوم بالوظيفة، هذه المشاركات المالية والمشاركات الفكرية بالكتابة والإلقاء والاتصالات الثنائية، والاتصالات الجماعية؛ من أجل تركيز الوعي الرسالي هو من الواجب الكفائي، فإن وجد العدد الكافي الذي يقوم بالوظيفة سقط الواجب عن جميع المسلمين، وإن لم يوجد العدد الكافي والمسلمون قادرون على أن يغطوا الحاجة، فكلهم آثمون، عاصون لله وَعَلَىٰ، فأنت القادر الذي لا تشارك عاص لله آثم خائن لأمانة الدين.

ونحن نسمي هذا العمل عملاً تطوعياً بالخطأ الصريح.

ماذا تعني الآية الكريمة؟ ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾^(٢)؟ الإسلام يُسحق، الإسلام يجهز عليه، الإسلام يغرَّب، وتغرب في بلاده، نغزى في قعر دارنا، يملك علينا شبابنا وشاباتنا، يدخل السوء على كل فرد فرد في منزله، الفحشاء تنتشر،

١- خطبة الجمعة (٦) بتاريخ ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ، ١١ مايو ٢٠٠١ م.

٢- آل عمران: ١٠٤.

العبث الأخلاقي، يمتد في شرق الأرض وغربها، دين الله محارب، خطط ومؤامرات ومشاريع كلها تصب مصباً واحداً في مواجهة دين الله، وأنت تستطيع أن تصحح بعض التصحيح، أنت تمتلك من الطاقات والمواهب التي رزقك الله إياها ما يسمح لك بأن تدرأ عن الإسلام بعض الشر، أيستحب لك أن تدرأ هذا الشر، أم هو الواجب؟!

إنه واجب، ومن أهم الواجبات: ﴿... وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

هناك جهاد بالسيف، هناك جهاد بالكلمة، هناك جهاد بالمال، جهاد بالوقت، جهاد بالجاه، والجهاد في كل الساحات وكل الساحات مستغرقة بالغزو، فيجب أن تستغرق.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(٣)، نجاهد بأموالنا وأنفسنا، ولا نجاهد بكلمة؟!

ولا نجاهد بحضور احتفال؟!

ولا نجاهد بدفع أبنائنا إلى مشاريع التعليم الصيفي الديني؟!

ولا نساهم في محاربة الموضات التحليلية؟!

ولا نجاهد الفتاة في الرجوع إلى لبس العفاف والستر والكرامة.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، فالتطوع في هذه الأعمال لا يعني أصل المشاركة، وبالجهد المتعارف إنما يعني ذلك أمر واجب حتمي.

١- آل عمران: ١٠٤.

٢- المائدة: ٣٥.

٣- التوبة: ٤١.

٤- التوبة: ٤١.

التطوع في هذه الأعمال حينما تبلغ من الجهد حد الطاقة يعني إلى أقصى حد. حينما تبذل أقصى ما يتسع له وسعك هذا يدخل في التطوع، أما بذل الجهد المتعارف فهو واجب^(١).^(٢)

صمود الأمة

وإسقاط الأنظمة واستسلامها شيئٌ وسقوط الأمة وسقوطها شيئٌ آخر، سقوط الأنظمة أمر سهل، ولكنَّ سقوط الأمة لن يكون سهلاً أبداً. وهذه الأمة وجدت؛ لتبقى.

وجدت؛ لتقود المسيرة العالمية إلى الخاتمة الحسنة.

وجدت؛ لتقيم عدل الله في الأرض، ليشهد الوضع الاجتماعي، والوضع السياسي، والوضع الاقتصادي، والوضع الثقافي والوضع الإنساني بكل أبعاده بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فهي أمة لن تقبر.

أمة لا بدَّ أن تنهض، وقد بدأت نهضتها، وهذه الزوبعة لن ترتد بالأمة عن خط المقاومة، وعن خط النهضة والصمود.^(٣)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى أكبر الكوارث.

قتل الإمام الحسين عليه السلام، تسيير الفاطميات مسيئات كان نتيجة لإهمال وتمهّل في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما إن تتأخّر عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا ويكبر المنكر في الأمة، ويضمّر المعروف.

١- والجهاد يستلطن بذل الجهد، وتحمل حاله الجهد والتعب والمشقة، فالأمر بالجهاد على هذا أمر يتحمل المشقة والنصب في سبيل الله.

٢- خطبة الجمعة (٦٣) ٢ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، ١٤ يونيو ٢٠٠٢م.

٣- خطبة الجمعة (١١٨) ٣ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ٤ يوليو ٢٠٠٣م.

وكلما كبر المنكر، وضمير المعروف كان الناس في كارثة ليست على مستوى الدين فقط، وإنما أيضًا على مستوى الدنيا.

الحرب التي نراها الآن، واستئساد الكفر على الإسلام هو من تأخر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوساط المسلمين، فلو كان أمر بمعروف ونهي عن منكر لاشتد عود الأمة، وإذا اشتد عود الأمة وقامت على ساق لم تستهدفها الأمم بمثل ما تستهدف الوجود الضعيف.

لو كان أمر بمعروف ونهي عن منكر في هذه الأمة لكانت رائدة الأمم كما هي مؤهلة إلى ذلك بإسلامها، وتراثها، وقادتها.^(١)

الجهل بإنكار المنكر

لونطق الإسلاميون - وهم أغلبية الأمة ممن يؤمن بالإسلام عقيدة ومنهجًا وعملاً لا خصوص من يطلق عليه هذا العنوان عرفًا - لونطقوا برأيهم، وبلغوا الإسلام ليس بمناسبة خاصة، وإنما دائمًا، وأنكروا المنكر، وأمروا بالمعروف لسادت كلمة الإسلام ورأيه في الساحة الإسلامية كلها.

تصوّروا أن هذه الملايين التي تؤمن بالإسلام عقيدة ومنهجًا وعملاً، وإن كانت تقصّر في الممارسة التطبيقية، تصبح وتمسي وهمّها الإسلام، وشغلها الشاغل بعد طلب اللقمة، ومع طلبها الدعوة للإسلام، وتبليغه، والتوجيه إليه، وتركيز سلوكه في الحياة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكم أن تتصوّروا ماذا ستكون النتيجة لو قامت الأمة بهذه الوظيفة الواجبة عليها من الله سبحانه وتعالى؟

أنت مسلم قبل أن تكون عاملاً.

أنت مسلم قبل أن تكون مدرسًا.

أنت في أي موقع مسلم ومسؤول أن تبلغ الإسلام، وأن تجهر بكلمة الإسلام ما استطعت، وأن تصحّح الفهم الإسلامي عند أخيك، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.^(١)

مواجهة المنكر

وحقاً أقول لكم: بأن الأمة التي لا تعتز بهويّتها، ولا تذود عنها، يهزأ بها الآخرون ويحتقرونها، أما الأمة التي تحترم مقدّساتها وتذود عن كرامتها، فتفرض احترامها على الآخرين.

ولا بدّ من التنبيه إلى أن الإصرار على أخذ المنكرات الهابطة واقع الظواهر المستفحلة الواسعة لا يتحرك من مجرد غرائز بهيمية منفelte يمكن أن تشبع نهمها ولو حراماً بغير كل هذا الضجيج والتبجّح والاستنفار والتظاهر والعدوانية ضد القيم وإنما منطلقه السيئ الواضح الأهم إرادة إحلال أنماط حضارية ساقطة أجنبية محلّ الأنماط السلوكية والفكرية المنتمية لحضارة الأمة ودينها، وهنا الخطورة.

وهذا منطلق يحتّم علينا مواجهة مثل هذه العملية من المسخ الحضاري.

إنه مسخ حضاري يجب أن يُواجه بجديّة، وعقلانية، وصبر، ووعي، وتكاتف.^(٢)

أمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر

للحكومات دور، وللشعوب دور في تركيز الأمر بالمعروف أو مواجهته، وفي نفي المنكر أو تركيزه، أيهما الغالب؟

لا شك أن الحكومات تملك إمكانات هائلة، وتملك الخبراء والميزانيات الضخمة، والاختصاصيين والخبراء؛ لتنفيذ مشاريعها، لكن مع ذلك أؤكد لك بأن الأمة التي

١- خطبة الجمعة (٢٧٧) ٣ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، ٢٣ مارس ٢٠٠٧م.

٢- خطبة الجمعة (٢٨٠) ١ ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، ٢٠ أبريل ٢٠٠٧م.

ترفض المنكر تغلب الحكومات، وأنّ الحكومة المتصدية لنشر المنكر لا تستطيع تنفيذ خطتها إذا واجهت وعياً، وإرادة صلبة، وتصميماً من أي شعب وأي أمة على محاربة المنكر.

وحتى حكومة كحكومة علي بن أبي طالب (عليه السلام) لا تستطيع أن تركز المعروف، وأن تنفي المنكر إذا لم تجد تجاوباً من الأمة، وقاومت إرادتها الشريرة الإرادة الخيرة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام).

مرة توجد الظاهرة بقوة في منطقة من المناطق، فتحتاج مقاومتها إلى جهد كبير، ومرة تحاول أن تجد لها موطئ قدم في منطقة كالترويج للمشية في الشوارع من غير لباس فيه حشمة، كتعرية السيقان والصدر والرأس وما إلى ذلك، كل ظاهرة بعد لم تنتشر الانتشار الكبير في القرى - مثلاً -، نستطيع أن نفتح لها الطريق والضوء الأخضر، ونستطيع أن نشعل في وجهها الضوء الأحمر.

تنبيه من هذا، تنبيه من ذاك، تحقيق للسلوك المنحرف، ولا يلزم من ذلك التحقير للشخص، كلمة «هذا أمر غريب»، هذا أمر شاذ، «هنا ليس أمريكا، هنا ليس فرنسا، هنا ليس إنجلترا»، كلمات، تنبيهات، تذكيرات خفيفة تتكاثر إلى المائة، والمائتين لا يمكن أن تثبت معها ظاهرة متركزة فضلاً عن ظاهرة تبحث عن موطئ قدم لها في منطقة.

كلما كثر الناهون عن المنكر، الأمرون بالمعروف كلما وجد المعروف فرصته لأن يعيش في المجتمع، وواجه المنكر الصعوبة الشديدة في أن يكون له موطئ قدم، وكلما خفت الصوت كلما انتشر المنكر.

يريد منا الإسلام أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ومن السمات الرئيسة لهذه الأمة أنها أمة أمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.^(١)

الرَّقَابَةُ

ولنتقف مع تأشيرات من تأشيرات قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١)، فظاهر الآية الشريفة يقدم أكثر من تأشير يتصل بصناعة الحياة الاجتماعية والرقابة الإيمانية لحركة الحياة وواقع المجتمعات والتجمعات، فما نلتقيه في إطار هذه الأجواء من الآية الكريمة:

أولاً: إن هناك عملاً وحركة في حياة الإنسان لا بد منها، وإن عملية التطور والتبدل والتحول عملية متوقعة دائماً ومستمرة ومتدفقة.

ثانياً: إن الإنسان فرداً ومجتمعاً ليس سيد نفسه على الإطلاق، وإنه يتمتع بحرية مفتوحة تجعله خارجاً عن المراقبة والمساءلة والمحاسبة، لأنه مملوك لله وكل تصرفاته وما يملكه من أدوات الصنع وأسباب الحركة راجع إلى فيض الله وقيومته على الكون كله، فليس له أن يخرج على الإرادة التشريعية للمالك الحق فيما يفعل ويتصرف.

ثالثاً: لا معنى للرقابة إذا لم يترتب عليها التوجيه، والمحاسبة، والتقويم، والتأديب، والرد إلى الصواب، وذلك حسب المناسبات والمقتضيات.

رابعاً: تثبت الآية الكريمة تشريعاً للرسول ﷺ، والمؤمنين في الرقابة الثابتة لله على المخاطبين فرداً ومجتمعاً.

وفي هذا إكرام عظيم جليل لكل من الرسول ﷺ والمؤمنين، وبيان واضح لنوع الرقابة التي يمارسها المؤمنون، وأن مقياسها منهج الله وأحكام شرعه وموافقة رضاه.

ولكون هذه الرقابة من سنخ رقابة الله ﷻ، ومن نفس طبيعتها فالمجسد لها بحق هم المعصومون الذين لا يحددون في تقييمهم وتصرفاتهم عن خط الله، ولا يملك الهوى

أي سلطان على قراراتهم ولا يدخلها الخطأ، ولذا جاء القول بأن المعنى بالمؤمنين في الآية الكريمة هم خاصة عليهم السلام لا غير.

خامسًا: يواجه المؤمنون مسؤولية الرقابة الاجتماعية على المجتمع وأفراده في المساحة المكشوفة من سلوك الفرد، وفي مجال التحولات والتوجهات الاجتماعية الثابتة والمتغيرة، وما ينشأ في إطار حركة الاجتماع والسياسة من خطوط وطروحات وتكتلات. وتستفاد هذه المسؤولية من المنطوق الذي يقدمه ظاهر الآية مباشرة، أو من خلال القيمة البديلة الثابتة للشريعة الرسالية، وفي مقدمتها فقهاء الأمة وعلمائها الربانيون في حال غياب المعصوم عليه السلام، ومن خلال ما يتطلبه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

سادسًا: يفرض واجب الرقابة الاجتماعية معرفة المجتمع، وتحركاته، وتوجهاته، ومستجداته، ومتابعة أخباره، وبدايات تحولاته ومساراتها؛ لقياس الأوضاع القائمة والمتوقعة بمقياس الرأي الشرعي والخط الإلهي، وذلك للتقويم والتسديد والرفض، أو الإشادة والدعم، أو تقديم البديل.

هذا إلى واجب إثراء حركة المجتمع بالجديد من الموضوعات والقضايا العلمية في إطار الطرح الشرعي، وقيمه الثابتة، وأحكامه الأصيلة من الجانب المؤمن ابتداءً.

سابعًا: الرقابة الإيمانية للأمة والمجتمع البشري في أي عصر تتطلب امتلاك قراءة صحيحة دقيقة لأوضاع العصر وطروحاته وتحركاته وأساليبه، وقواه العاملة في الساحة، وعوامل القوة والضعف عند هذه القوى، وما هي عليه من خطأ أو صحة في أهدافها وطروحاته ووسائلها - مثلاً -.

ثامنًا: هذه الرقابة تعنى أن المؤمنين لا يصح لهم بأي حال من الأحوال أن يختاروا لأنفسهم موقفًا هامشيًا في حركة التاريخ وصناعة المجتمعات، بل يتحملون دورًا فاعلاً،

ومهمة طليعية تستهدف سعادة الإنسان وتقدمه وهداه، مقدمة لرضوان الله تبارك وتعالى.^(١)

هكذا يقوم الدين وتنمض الأمة

أما بعد ، فلنتقف عند قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ﴾.^(٢)

نستضيئ بنوره، ونتفياً ظلّاله، ونأخذ من هديه.

١- إن إقامة الوجه للدين خلوص التوجه له، والإنشداد كلياً إليه، بلا ميل إلى يمين أو شمال، لأن لا جاذبية لشيء آخر يوازي جاذبيته، ولا ثقة بأي طرح كان كالثقة به، بل لا اعتبار بغيره، ولا احتمال للخير في ما خالفه.

وهذا هو مقتضى الإيمان الكامل بدين الله، واليقين الثابت بأنه من عنده، فلا ركض وراء الشعارات من هنا وهناك، ولا تلتفت للغث الكثير المستورد من شرق أو غرب، أو ما يأتي به بشر أياً كان، ومن أي مكان، وفي أي زمان كان أو يكون، مما يخالف كلمة الوحي، وحكم السماء.

٢- إن المأمور بالتوجه إليه هو الدين القيم الذي لا عوج فيه، ولا يدخل بناءه خلل، ولا لبنة فيه من الباطل، أو الفكر المهزوز، أو الشعور السقيم، أو التوجه الضار، أو ما ينطلق من وهم بشري، وضعف أرضي، أو هوّى عابث.

وهو المنهج المتفرد بالمتانة والسلامة، فلا وجود لمنهج قيم آخر، ولا طريق مستقيم غيره.

١- خطبة الجمعة (١) ١٢ محرم ١٤٢٢هـ، ٦ أبريل ٢٠٠١م.

٢- الروم: ٤٣.

ولهذا لزم أن يكون الانشداد وإليه مطلقاً، حيث ليس فيما سواه منجى ولا خلاص، ولا سمو ولا فلاح.

٢- إنه دين قيم لا يقبل السقوط؛ تسقط كل الطروحات وهو قائم لا يفعل فيه الزمن، ولا يهن له بناء أن يتقدم فكر الإنسان وتجربته.

أصوله تمتد في أغوار الضمير وأعماق الكون، وهي مما تقوم به السماوات والأرض. وفروعه لا تعدل عن الحق، ولا تميل عن الصواب، ولا تخطئ المصلحة، وأخلاقه تتبعثر الحياة وتعم الفوضى حين يهمل جانبها.

لغته لغة النظام الكوني العام صدق وعدل وانسجام وتوحيد ونداء حق جلي، وخلق كريم، وتعاون في الخير، ورفض للفوضى والعشوائية والانفلات.

قيم هذا الدين كله في قدرته التامة على تحمل أعباء القيادة للمسيرة البشرية بما لا يطيق غيره من نظم وطروحات.

عطاءاته تتقدم المسيرة البشرية، ولا تتخلف عنها، ولا يمكن أن تبطل حركة الحياة الكريمة أو تشلّها، أو يكون من بينها ما ينحرف به المسار عن الحق، ويعدل بالناس عن المصلحة والسعادة.

الحياة دائماً على خط هذه العطاءات متقدمة لا متعثرة، مستقيمة لا منحرفة، غنية لا فقيرة، على هدى لا ضلال، يغمرها النور لا الظلمة.

وليس هناك فراغات في عقيدة، أو تشريع، أو تربية وخلق في الإسلام يمكن أن تملأ بالبدل، فبناؤه تام، وعمارته كاملة، ويتحمل دوره بأعلى كفاءة، وأدق أداء.

يتحرك الإسلام بحياة الإنسان على مسارها الصحيح في ضوء علم حضوري كامل لما هو المنطلق الحق، والهدف السديد، والمنهج الصائب، والموضوع كما هو خارجاً

وحقيقة، والذي يتمثل في الإنسان، وفي ضوء علم حضوري بكلِّ مآله من هذا الكون العريض الذي لا يحيط به الإنسان خُبْرًا، من تأثير على هذا الكائن في حياة روحه وبدنه، وتقدُّمه وتأخره، وما ينبغي أن يكون منظورًا في توجهه وتشريعه.

٤- إقامة الوجه للدين ضرورة فردية واجتماعية للإنسان، ولذلك جاء الأمر الإلهي الحكيم بها جليًّا صريحًا لا يحتمل التأويل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ...﴾^(١)، مدعوًّا مع مولويته - مع مولوية هذا الأمر - ببيان الوجه في ضرورته، متوعِّدًا على إهماله ومخالفته بيوم يعسر فيه الحساب، ويشتد العقاب، ولا يكفي من هوله أحد، ولا يدفع فيه دافع عن أحد، وأمره خالص بيد الواحد القهار، تقول الآية الكريمة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾^(٢)، هناك توعدٌ ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾.

٥- ذلك يوم تتصدع فيه الوحدة الأسرية والمؤسسية والحزبية والقبلية والوطنية والقومية والعنصرية، وكل وحدة يشعر من خلالها الإنسان هنا - في هذه الحياة - بالدفع والقوة والحماية والاعتزاز، وتتهدم كل القلاع، ولا تنفع علاقة من العلاقات إلا العلاقة بالله، وفي الله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، علاقاتنا هذه كُلُّها تنفرط، وتتناثر وتتلاشى، وقد تتحول بل تتحول قطعًا في الكثير منها إلى عداوات يوم القيامة وكل طرف من الأصدقاء على الدنيا، وعلى الباطل يلعن الطرف الآخر، ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٤)، فمن أراد أن يتترس غدًا، فليطلب اليوم ترسًا من الإيمان، وأن يحتمي غدًا، فليطلب اليوم قلعة من التقوى، وأن يتحصَّن غدًا، فليطلب اليوم حصنًا من العمل الصالح والنية الخيرة والتوجه إلى

١- الروم: ٤٣.

٢- الروم: ٤٣.

٣- الزخرف: ٦٧.

٤- القارعة: ٤.

الله، وإلا فلا ترس، ولا قلعة، ولا حصن يوم يقوم الأشهاد من النار، وغضب الجبار.^(١)

نحتاج إلى إعداد الرّساليين

بقاء الدّين برساليّيه.

الدّين يحتاج دائماً إلى رساليين، وحيث لا يوجد رساليون لا يوجد دين، فعلى الأمّة دائماً أن تخلق الظروف لوجودهم، فماذا لولا الإمام الحسين عليه السلام؟

ماذا لولا أهل البصائر، وقراء المصر؟، والمرأة الصّالحة العاملة الصّابرة ممّن كان مع الحسين عليه السلام؟

لو لم يكن الحسين عليه السلام سيد أهل البصائر، ومّن معه من أهل البصائر لما وصلكم إسلام.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٩٥) ٢١ ذي القعدة ١٤٢٣هـ، ٢٤ يناير ٢٠٠٣م.

٢- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

الباب السادس

الأمة والصَّحوة الإسلاميَّة

معنى الصَّحوة الإسلاميَّة

الصَّحوة تعني: استيقاظ الإنسان المسلم على شيء من عظمة إسلامه، وعلى شيء من معناه هو، بما هو إنسان، وبما هو إنسان مسلم بالخصوص.

من علائم الصَّحوة

والانتخابات في البلاد الإسلامية تعلن حقيقة رفض المجتمع المسلم بعد الصَّحوة لغير الإسلام، وإصراره على الإسلام، انتخابات الجزائر، انتخابات تونس، انتخابات تركيا، انتخابات باكستان، الانتخابات في أي بلد مسلم إذا أعطيت شيئاً من الحرية، فهي قادرة أن تقوم برهاناً صارخاً على الرفض الجماهيري الواسع من النخب وغير النخب لغير الإسلام، وأن الخيار الوحيد أصبح لا يتجاوز غير الخيار الإسلامي في فؤاد الإنسان المسلم، وعلى يديه كذلك.

وهذه الصَّحوة، وهذا الخيار، وهذا الواقع علقم في فم الكافرين، وشيء مرُّ لا تصبر عليه الحضارة المادية.

فلا بدُّ من جهد عالميٍّ ومحليٍّ على مستوى البلاد الإسلامية كلّها وهو مكثف، ومخطط له على جميع الأصعدة للعودة بالأمة إلى حالة السبات.

بدأتم تستيقظون، وفي يقظتكم خطر على الحضارة المادية، فلا بدُّ من المخدرات التي تعود بكم إلى حالة السبات، فهل تملكون مقاومة لكل المخدرات الثقافية؟

والمخدرات السلوكية؟

ومخدر المال؟

ومخدر الجاه؟

ومخدرات قد لا نملك لها عدًّا

تحتاجون إلى صحة حقيقية.

تحتاجون إلى عقل يفكر.

تحتاجون إلى فطرة نابهة.

تحتاجون إلى نباهة ويقظة والتفات إلى عظمة هذه الأمة، وأين تكون
مصلحتها.^(١)

استهداف الصحوة

فإن الأمة المسلمة اليوم أمام منعطف من المنعطفات التاريخية بالغة الخطورة، وتخطيط استكباري حاسم يستهدف وجودها، ويعيش حالة من التطبيق الواسع على أرض الإسلام من أقصاها إلى أقصاها على يد ملايين من الأجهزة والتجمعات والمؤسسات التي تنتشر في كل البلاد الإسلامية؛ لإحداث تصفية سريعة للحالة الإسلامية التي بدأت صعودًا ملحوظًا في القرن الماضي، ومواجهتها مواجهة حدية بكل وسائل الفساد والتخريب الفكري والأخلاقي والإرادي والاجتماعي، وفي كل الأبعاد دعمًا لجيوش الغزو العسكري والاحتلال المباشر الزاحف في توسُّع وازدياد على كل شبر من أرض الإسلام.

رغم كل ذلك، فإن يقيننا أن الأمة لن تموت، وأن الدولة العالمية القادمة هي دولتها، وسيكون هذا التحدي المصري باعثًا جادًا من بواغث نهضتها، وشعورها بعزتها وكرامتها، ولن يطول الزمن قبل أن تتمرد الأجيال الناهضة على وضع التغريب والتميع الذي ينهك مقاومة الأمة، ويسقط رجولة شبابها، ويومنا هذا قد بلغ وعي الصحوة في الكثير الكثير من بلاد الإسلام ما يمثل تحديًا كبيرًا أسقط فاعلية الآلة الإعلامية الضخمة للمستكبرين المفسدين وأذنا بهم في القضاء على هذه الصحوة، التي لا تجد من الآلة الإعلامية والقدرات الأخرى ما يساعدها على التركيز والامتداد، ولإجهاض التأم

١ - خطبة الجمعة رقم (٨٤) ٣ شهر رمضان المبارك ١٤٢٣هـ، ٨ نوفمبر ٢٠٠٢م.

للحرب الثقافية الشرسة التي يشنها أعداء الله على هذه الأمة.

وصحيح أن مخطط الهجمة في اتساع، والتجميد والتجفيف والمصادرة لفرص الصحو الإسلامية وآلياتها مستمرة، وأن أدوات التخريب والإفساد تتطور يوماً بعد يوم، ولكن كل ذلك لا يفشل هدى الإسلاميين، ولا يحجب شمس دعوتهم، وهناك قلوب ظمأى، وعقول متعطشة، وأرواح ملتهبة في كل الدنيا تتطلع للإسلام، لكلمة الوحي الصادقة، لما يغذي طموحها في أن تسترد إنسانيتها المسلوقة، وكرامتها المغيبة، وسعادتها المسروقة من حضارة الطين والفروج والبطون، والشهوات المدمرة، ورعاتها الطغاة الناهبين الماكرين الذين يحتقرون الإنسان، ويسحقون قيمه.

ولا يخاف على الإسلاميين، ولا يحبط دورهم أكثر من أن تستغلهم مخططات الفرقة والشتات من طائفية وما مائلها أو شابها من شعارات ممزقة، تحول معركتهم بينهم، وتجعلهم يعملون وكلاء تبرعيين عن أعدائهم من أشرار العالم في القضاء على كياناتهم.

أمريكا والصَّحو الإسلاميَّة

أمريكا وهي المنفتحة زعمًا وادعاءً لا تستطيع التعايش مع واقع الصحو الإسلامية القائمة.

هناك صحو إسلامية فرضت نفسها على الساحة الإسلامية ليس في بقعة معينة من بقاع الأرض، إنما في كل شبر فيه إنسان مسلم.

هذا الواقع أمريكا لا تحتمله، الغرب السائر في ركاب أمريكا لا يحتمله، وهذا يخلق مشكلة صراع حضاري خطير.

أمريكا بموقفها المحارب للصحو الإسلامية، المواجه لها بالحديد والنار، هل تقتل الصحو، أو تنفخ في روح الصحو؟

وتحول الصحو إلى انتفاضة وثورة؟

أمريكا بموقفها الغبي تحوّل الصحوة إلى انتفاضة وثورة، وتشعل روح الانتفاضة والثورة في كل روح فيها إباء من إباء الإسلام، وشموخ من شموخ الإيمان، وعزة بالله سبحانه وتعالى.

نعم، إن أمريكا ترتكب غباءً فاحشاً، وتسقط الثقة فيها وفي حضارتها، وتعلن كذب ديمقراطيتها، وتؤلّب خلقاً كثيراً في الأرض ليس من المسلمين فقط وإنما مسلمين وغير مسلمين عليها.

إنها خدمة من عدو لدود، وهي خدمة كشف الأوراق، فأمريكا تكشف بهذا الموقف عن كل أوراقها، وعن زيفها وكذبها، تتقدم بمليون دعاية؛ لتأسر قلب الشاب والشابة من شبابنا وشاباتنا، ولتستقطب أفئدتنا، لترينا أنها كبيرة وأنا صغار، وعلينا أن نؤمن بتبعيتها والذوبان فيها.

لكن من الجهة الأخرى تُشهر سيفها ضد مصالحنا، تواجهنا بالحديد والنار، تسفك دماءنا، وتكشف التقارير الجديدة عن صور بشعة أخرى مارسستها في سجن أبو غريب.

كل ذلك ترتكبه أمريكا؛ لتسقط كل محاولاتها الخبيثة الماكرة التي تحاول من خلالها استقطاب قلوب المسلمين.

هذه الحالة ينبغي استثمارها، وإدامة ذكر التجارب المرة المستمرة لها مع هذه الأمة.

الأجيال تنسى، هذا جيل شهد سحق أمريكا، وكذب أمريكا، وظلم وطغيان وفحش أمريكا، وعنجهية وجاهلية وطاغوتية أمريكا، لكن الجيل الثاني يمكن أن يُخدع، وهذا الجيل نفسه يمكن أن ينسى من بعد سنوات.

على الواعين، على الدعاة، على الرساليين أن يبقوا الصورة البشعة حية باستمرار في قلوب المسلمين، وأمام مرأى كل أجيالنا.^(١)

صوت العدالة يتعالى

بدأ صوت العدالة يتعالى في أوساط كل شعوب العالم، وفي أوساط الشعوب الإسلامية بكاملها.

بدأ صوت العدالة يتعالى، ويهزّ جنبات المجتمعات، وظهرت الصحة الإسلامية، وتفجّر الوعي الحقوقي والسياسي، وانتفضت روح الكرامة الإنسانية والإيمانية في هذا الإنسان.

ولم يعد من الممكن أن يتراجع صوت العدالة في ظلّ هذه العناصر الكريمة. وبدأ صوت آخر وهو من ذلك الصوت يعمّ المعمورة، وهو صوت التحرّر من الهيمنة الأجنبية.

بدأ هذا الصوت يتعالى كذلك.

والأنظمة تخوّف فئة بأخرى، وتستميل فئة لضرب أخرى، على أن الفتّين لوعتا لاكتشفنا أنهما مظلومتان معاً.

يسرقون الجميع، ينهبون الجميع، يخيفون الجميع، يقرّمون الجميع، يستعبدون الجميع، لكن يثقلون على طرف أكثر من طرف؛ ليحسب الطرف الثاني المسكين أنه يتمتع بالنعم الكثار، وأنه في جنة الفردوس.

ولبنان تردّ على هذا الدجل الأمريكي والإسرائيلي - مثلاً - بتوحد الشيوعي والسني والمسيحي.

أما الفلسطينيون ومجتمعات أخرى إسلامية، فهي تقع في الفتنة الداخلية التي تخدم الأغراض الأجنبية والداخلية الخبيثة.

من جهة أخرى: إن عقلية الشعوب قد بدأت تتصحّح، وهي آخذة في النمو على هذا الطريق، ولكن عقلية الحكومات بعد لم تعرف التغيّر التصحيحي.

عقلية الحكومات كانت ولا زالت ترى أن البلاد والعباد ملك السلطان، وأنه لا اعتراض على مالك يتصرف في ملكه وعبيده، وكانت هذه العقلية محلّ اقتناع الشعوب،

لكن بدأت صحوة في الشعوب تسحق هذه العقلية، وتستبدل عنها عقلية جديدة، عقلية الحرية والتحرّر.

من المنتصر؟

المنتصر الواهم؟

أو المنتصر الواعي؟

المنتصر: الواعي، المنتصر: المتمشّي مع خطّ الله، مع مفاهيم الشرائع العادلة، وأن الإنسان حرٌّ لا يستعبده إنسان، فيملك عليه فكره، وشعوره، وإرادته، وحياته.^(١)

الباب السابع

الأمة الإسلامية.. المقاومة، الجهاد، والثورة

المستكبرون وإسقاط روح المقاومة عند المستضعفين

تريدنا أمريكا أمة: بلا إسلام، بلا سلاح، بلا إرادة مقاومة، ثلاثة مطالب.

والأمة التي تجرد من مبدئها تهلك، والأمة التي تجرد من سلاحها تغلب، وهي مهزومة أكثر، وضعيفة أكثر ومغلوبة بدرجة أسهل حين تفقد إرادة المقاومة، والمطالب الثلاثة محلُّ الإرادة الشريرة لأمريكا بالنسبة لهذه الأمة.

بعد فصل الأمة عن الإسلام المطلوب سلب سلاح اليد، وسلب سلاح النفس.

وحين يسلب سلاح اليد، ويبقى سلاح النفس من إرادة المقاومة يمكن أن يستعاد ذلك السلاح، أما حين تسلب إرادة المقاومة من النفس، فلا فرصة من جديد للنهوض، إلا أن يعود هذا السلاح ذاته.

وإسقاط روح المقاومة من طريقه:

١- التَّهْوِيل، والتَّمْدِيد، والتَّقْزِيم للتَّخْوِيف، والتَّيْنِيس

التَّهْوِيل في حجم العدو، والتَّهْدِيد لفريسته، والتَّقْزِيم لهذه الفريسة في الإعلام، وفي الخطط؛ للتَّخْوِيف، والتَّيْنِيس.

٢- التَّمْيِيع

وطريق آخر هو طريق التَّمْيِيع، والأمة التي تميع في نفسياتها وسلوكها لا تبقى قادرة على المقاومة، وتخسر نهائياً إرادة المقاومة.

٣- التشكيك في الفكرة المحور

من الطرق لقتل روح المقاومة التشكيك في الفكرة المحور، وفي المبدأ الذي يمثل محور الالتفاف عند الأمة.

وإنما تتحرك الأمة جاذبة وجاهدة وتناضل في التفافها حول هذه الفكرة، أو تلك، لأنها تستحوذ على اهتمامها، وتأخذ حركتها قيمتها من قيمة تمحورها حول المبدأ والفكرة، فحين تسقط الفكرة في نظر الأمة، وفي نفسيتها تفقد السبب الأصل لديمومة الحركة، وروح المقاومة.

٤- الاستضعاف

كلما استضعفت الأمة عملياً، وكلما عاشت حالة الفرقة كلما وجدت شراذم الأمة ضعفاً داخلياً يمليه الضعف الخارجي القائم على أرضية الفرقة.

فحين نفترق سنة وشيعة، وعرباً وأتراكاً وأكراداً وأفغاناً، فسنفقد سبباً من أسباب القوة، وسبباً من أسباب استمرار روح المقاومة وهي الوقود الأصل لحركة الذات في البرهنة العملية على ذاتها، وعلى طريق مواقعها المتقدمة.

٥- التشكيك في القيادات

وهو أسلوب استعماري يمارسه العدو بكل دهاء وخبث التشكيك في القيادات، والتهميل لها، والتهوين من شأنها يسقط روح المقاومة؛ ذلك لأن محور حركة الأمة والجماعة يتمثل في أمرين معاً: في هيبة الفكرة، وفي قدسيته، وفي هيبة الرمز والقُدوة.

وحين تفقد الأمة الفكرة المحور تسقط بسقوط روح المقاومة وروح الحركة، وحين تسقط قيمة القدوة - أيضاً - تنتهي الأمة بانتهاء روح المقاومة.

لو كان الإسلام حقاً في نظر الأمة، ولكن سقط من شخصيات الأمة من عدا رسول الله ﷺ، وفرغ تاريخ الأمة كله من الشخصيات القدوة وفرغ الحاضر من أي شخصية قدوة لكان الأمر أمر الأمة إلى انحدار وشتات.

الأمة بلا محور من رمز وقدوة أبعاد ضعيفة متفرقة تنتهي إلى الفردية المحضة، والهروب عن الفكرة.

٦- إظهار جانب الخيانة في الأمة

إظهار أي حادثة خيانة، واختلاق حوادث خيانة تعرض على الأمة؛ من أجل الشك في قدواتها أسلوب مستعمل على طريق تمثيت وحدتها.

والصحيح أن وصف رمي أي قدوة بالخيانة لا يترك للجماهير، وإنما تشخيصه دائماً يُترك للنخبة، لأنهم الأقرب إلى فهم القدوة، وكان الإمام جعفر الصادق عليه السلام تبلغ زرارة منه كلمة جرح - زرارة من خلص تلامذة الإمام عليه السلام -، فسيئته ذلك، فيرسل إليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قالها، ولكن قالها حفاظاً على زرارة، واعتزازاً به، وأدخاراً له بما هو رصيد إسلامي ضخمة.

السُّقُوط مرهون بنا

أمريكا تريد إسقاط إسلامنا، تريدنا بلا سلاح، تريدنا بلا إرادة مقاومة، وهذه إرادة الفاعل، ولكن الفعل كما يحتاج إلى إرادة الفاعل يحتاج إلى استجابة المنفعل، يحتاج إلى قابل كما يقولون، وهذه الإرادة الأمريكية لها شرط؛ وهو شرط أن نكون في موقع القابل الذي لا يقاوم، الذي لا يرفض، الذي لا يتحرك.

أما الأمة التي تعيش وعي الرفض، وتعيش روح المقاومة، وتعيش سلوكية الحركة، فإن إرادة العدو لا تنجح معها.

فهل نستسلم؟

لغة أمريكا في مواجهة الدول والقيادات اليوم على طريقة استسلم طوعاً، أم كرهاً. على إيران أن تستسلم طوعاً أو كرهاً، على سوريا أن تستسلم طوعاً أو كرهاً، على كل بلد إسلامي وعربي أن يستسلم طوعاً، أو كرهاً.

هذا ما تعرضه أمريكا.

وقد تعرض هذا على فرنسا، وقد تعرضه على روسيا أيضًا.

نحن أقوى مجتمعين

والعالم الإسلامي مجتمعًا هو في نظري أقوى من أمريكا، لأن أمريكا إما أن تشن حربًا عادية، وإما تشن حربًا نووية ساحقة؛ على مستوى الحرب العادية، فحربها في العراق إنما نجحت بالمسلمين أنفسهم.

أما حين تدخل في مواجهة الأمة بكاملها، وتدخل الأمة مجتمعة في مواجهتها، فهذا أمر آخر.

وأما الحرب العالمية، فكما ستسحق العالم الإسلامي ستسحق أمريكا بكل تأكيد.

ما أضعفنا متفرقين!

والعالم الإسلامي منقسمًا ومتشتتًا وخائفًا أضعف من أمريكا بلا أي إشكال، فنحن الذين نغلب أنفسنا، ونحن الذين نجعل أنفسنا في هذا الموقع الضعيف؛ موقع أن تقول لنا: أمريكا استسلم طوعًا أو كرهًا.

وهي بالنسبة لعالمنا الإسلامي قد أعطت نفسها، وأعطتها ذليلة كثير من الأنظمة، وإضعاف هذه الأنظمة لشعوبها موقع ولي أمر المسلمين الأكبر.

يستكثر المسلمون أن يكون في البلد الواحد منهم ولي أمر لهم باسم الإسلام، ولكن ومن ناحية الواقع العملي قد أعطوا لأمريكا أن تتبوأ هذا الموقع؛ موقع ولي أمر المسلمين الأكبر، وإن كان على غير الطريقة الإسلامية.

وها هي تأمر الدول واحدة واحدة، وترسم لها سياساتها، وتجعلها في طابور واحد في مواجهة أي بلد مسلم من غير أن تكاد دولة أن تستعصي.

وها هي تنصب قرضاي في أفغانستان ولي أمر للمسلمين، وتقرض نفسها في صياغة الحكومة الفلسطينية، وتقرض الجلبي أو غيره في العراق، بعد الجنرال الأمريكي المتقاعد، وغداً تنصب حاكماً في سوريا، ثم في غيرها ولها لكل بلد حكومة جاهزة، والأمر والنهي لكل هذه الحكومات إنما هو السيد الأمريكي الذي يتمتع بولاية مطلقة على المسلمين جميعاً إن لم يكن على العالم!!^(١)

عودة الشعوب للإسلامها ناقوس خطر لأعداءها

فإن شعوب الأمة الإسلامية قد تفاقم في داخلها الشعور بأنها لا تتبوأ مكانتها اللائقة، وأن الفارق بن حجمها الحضاري وحجمها الواقعي كبير جداً، وقد دخلها الشعور بضرورة الانتفاض على واقعها المهيّن، الذي فقدت من خلاله الأمة كلها وزنها وكرامتها.

وهذه الشعوب لا زالت تتلمس الطرق، وتجرب الواحد تلو الآخر بحثاً عن الوزن المفقود والكرامة الضائعة، وأكبر ما صعب على العالم الغربي المستفيد من تخلف الأمة أن تفكر بعض شرائحها في العودة للإسلام لا عن طريق الإرهاب للأبرياء الذي ينفيه الإسلام نفسه، وإنما حتى عن طريق الديمقراطية التي يؤمن بها الغرب نفسه والتي لم يصبر على نتيجتها في الجزائر عندما جاءت ورقة موجبة لصالح الإسلام.

وأي ديمقراطية يُتوقع لها بحسب المعادلات الخارجية، والظروف الموضوعية أن تحقق نتيجة كالتي حققتها في الجزائر، فهي ممنوعة بقرار غربي متغطرس، فضلاً عما يدعو إليه واقع المصالح التقليدية داخل الأمة من رفض لديمقراطية تؤدي إلى هذه النتيجة.

الوعي هو البداية

الشعور بضرورة الخروج من أسر الواقع المتردي.

واقع التخلف والتبعية للأجنبي المعادي، يمثل بداية نهضة داخلية مباركة على

١- خطبة الجمعة (١٠٨) ٢٣ صفر ١٤٢٤هـ، ٢٥ أبريل ٢٠٠٣م.

مستوى الشعور، وهو أمرٌ وراءه خلفيّة حضارية ثرّة، وميراث حضاري كبير، ورموز مشعة على طول الطريق، وتحضيرات تربوية متصلة بمستوى وآخر، وضغط فائق من واقعٍ مأساويٍ منافٍ لكرامة الإنسان القادر على إدراك ذاته، والشعور بقيمة إنسانيته.

وهذا مجرد بداية تحتاج إلى وعي نظري لقيمة الأطروحات المختلفة، وما تمتاز به الأطروحة السماوية عن غيرها في كل المقارنات، وإلى وعي عملي يستوعب عطاء كل التجارب التاريخية التي عاشتها الأمة على مستوى المناهج الأرضية المختلفة، إلى جانب ما تحتاجه كلُّ نهضة من مقومات أخرى ضرورية.

فالمناهج الأرضية بكل مقاساتها ضيقة وخانقة بالنسبة لحجم الإنسان: أبعاد ذاته، ومواهبه وطاقاته، وأمانيه وطموحاته.

والمنهج الذي يتقدم قامته الإنسان في طريقه لكمالهِ، ويعرف كيف يقوده على الطريق، لأنه يدرك وزنه وظروفه وفعلية طاقته هو الإسلام، والإسلام وحده.

والتجارب البشرية وإن كان بعضها أقل سوءاً من بعض، إلا أنها كلها متسمة بالقصور، والعيوب الواضحة، ولا يصح تعليق الآمال عليها بصورة مطلقة، ومن يفعل ذلك لا بدّ أن يصطدم بنتائجها الوخيمة المريعة.

نعم، علينا أن نطلب الأقل سوءاً، ولكن ليس لنا أن نثق بغير منهج الله الذي اختاره بعلمه ولطفه وحكمته للعدل في عباده وتربيتهم وتكميلهم، وهو العليم الخبير.

الدساتير والقوانين الأرضية لا ريب في أنها تمثل بما لها من صوابية وخطأ، وبما تتطوي عليه من عدل وظلم واقعاً مضاداً، أو مساعداً بصورةٍ ما على تغيير الواقع المتخلف في المجتمعات، أو تكريسه إلا أنها لا يمكن لتخلفها أن يقاوم شعور النهضة في النفوس ليعطله، وإرادة التغيير الصالح؛ ليشلها، والتطوير النافع؛ ليقفمه.^(١)

المسلم وانتصارات الكفر

الآية: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١)، يغرهم - ويغر عددًا من المؤمنين العاملين -، ويغر الجماهير المسلمة العامة، وهو سبب فتنة وانقلاب في الفكر والشعور، وتراجع في الموقف العملي.

إن الانتصارات التي يحققها الكفر في الساحة العالمية، وفي الساحة الإسلامية، لها مردودات نفسية خطيرة، حين لا تكون يقظة، وحين لا يكون وعي، وحين لا يكون انشداد بالله، أما القلوب المؤمنة المطمئنة، فهي لا ترى إلا فاعلية الله، ولا ترى في هذا الكون إلا هيمنة الله، وتعرف أن كل جند من جند الأرض إنما هم جند مهزول مهزوم لإرادة الله سبحانه وتعالى، وإن شيئاً في الأرض لا يمكن أن يتم إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى، وإذا وقع شر في الأرض على المسلمين، فهو بمقدمات من فعل أنفسهم وبحسب حاكمية القوانين الاجتماعية التي كتبها الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان في اجتماعه.

نعم هذه الانتصارات التي يمكن أن تتحقق على وجه الأرض على يد الكفر، تعطي للكفر انتفاخاً وانتفاشاً أكبر، وترى أنه الرب الفاعل، وأنه القوة التي لا يمكن أن تواجه، فيزيده ذلك طغياناً، وإدباراً عن الله سبحانه وتعالى، وتماديًا في الظلم والبطش والفتك.

ومن جهة أخرى، وفي دائرة المؤمنين العاملين، إذا لم تكن لهم من التربية الإسلامية ومن الارتباط بالله سبحانه وتعالى ما يكفي حماية ووقاية، فإن شعورًا سلبيًا يغزو أفئدتهم في هذا الظرف، وربما سبب لهم الفتور والتراجع في الحركة، ذلك من وحي شيطاني يترتب على مثل هذه الأسباب.

ولذلك لا بد من دوام ذكر الله سبحانه وتعالى، وانشغال النفس بالنظر إلى جبروته وعظمته، وآثار ذلك في النفس والآفاق؛ من أجل أن يصغر كل شيء في النفس أمام عظمة الله سبحانه وتعالى، وألا لكان الإنسان قريبًا من الشرك وخسارة الإيمان.

كَيْفِيَّةُ التَّغَلُّبِ عَلَى الْمَشَاعِرِ السَّيِّئَةِ

أولاً: أما القواعد المؤمّنة العامة، فهي أكثر تأثيراً بمثل هذه الأحداث، وعلى المبلّغين والدُّعاة أن يعالجوا سلبية هذا الشعور، حين الأزمات وأن يعطوا ضخاً إيمانياً كبيراً، وزخماً إيمانياً فاعلاً بالنفوس، نفوس الجماهير المؤمّنة؛ من أجل أن لا تلتفت إلا إلى عظمة الله، وفاعلية الله، وجبروت الله، وحتى لا تقع ساجدة لعدو الله.

ثانياً: المؤمن الذي يتمتع برؤية كونية ثابتة، ونظرة إيمانية متأصلة، ويقين بالله وبالיום الآخر، وتقييم دقيق لوزن الدنيا والآخرة، والذي يرى النهايات والمصائر هو الذي لا يرى في تقلّب الذين كفروا في البلاد شيئاً كبيراً، ولا وزناً ثقيلاً، ولا نعمة يغبط عليها، وهي تعقب النار، وتذهب سريعاً؛ ليحل محلها مهاد وهو بئس المهاد، وعذاب هو أشد العذاب.

ثالثاً: وكيف ينسى هذا الإنسان جبروت ربه، ويفضل حاكميته وقهره، وبطشه وأخذه، وملكه ونعمائه واحتقار الأشياء إليه، وتقوّمها بعباء رحمته، ويملك عليه كلّ نفس ظهور عابر، ونصر عاجل، يسجل هنا أو هناك، وسلطان محدود متزلزل لهذا أو ذاك؟ إنّه جهل الإنسان، غفلته، انخداعه، اغتراره، وأنّها وسائل المكر، والخديعة، والتّظليل، والتّهويل، وتصغير الكبير، وتكبير الصغير.

النصر الذي قد يأتي في ظروف معينة للكفر يمكن أن يأتي في ظروف أخرى للإسلام، الكفر يأخذ بأسباب من أسباب القوة التي أمر الله بها، فيمتنع ويعز في دنياه، ويغلب وينتصر، والمسلمون حين يفرطون في الأخذ في الأسباب المدفوعين إليها من قبل الله سبحانه وتعالى، يقعون في الهزيمة.

اطلبوا أسباب القوّة أيها المسلمون، أسباب العزّة: ﴿اعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾^(١).

ابنوا أنفسكم علمياً.

ابنوا أنفسكم إرادياً.

ابنوا أنفسكم في كل أبعادها.

تحركوا، خططوا.

التفوا حول قيادة رشيدة.

اطلبوا كل أسباب الاجتماع المتين والتماسك، تحتلون الموقع الأول من بين الأمم.

تنجون من مثل هذه الظروف التي تهز الثقة، التي تقلل الإيمان بالإسلام، بعظمة الإسلام، بفعالية الإسلام، بقدرته على تحقيق النصر وإعطائه الريادة لكم من بين كل الأمم.^(١)

تخشى القوى الطاغوتية صحة المسلمين وقوتهم

وإن أعدى ما تعاديه القوى الطاغوتية في العالم وأشد ما تحذر منه، وتخطط ضده، هو أن تقوم قائمة للإسلام والمسلمين؛ ذلك لما عرفتته هذه الدول من قبل من نزاهة الإسلام وعظمته، وجدارته في انقاذ العالم من سياسة الخداع والتضليل والتجهيل، وإسقاط القيم واللعب بالألفاظ، وسحر الفن السافل، والتّهويل، وزرع الرعب، وتغيب الذات الإنسانية التي تنشد إلى السمو والرفعة، وتطالب بهما، ولا تلتذ بمثل ما تلتذ لهما.^(٢)

أيها المؤمنون والمؤمنات

إنّه مهما يكن من أمر الصراع بين الكفر والإسلام في الساحات المختلفة من فلسطين، وأفغانستان، والشيشان، وكشمير، وكلّ البلاد الإسلامية، فلن يجد الكفر في يوم من الأيام الفراغ من هذا الصراع.

واستقرار الأرض تحت قدميه؛ ليفرض إرادة الباطل والفسق والفجور على الساحة الإسلامية العامة؛ ف**المقاومة مستمرة**، وأجيال الجهاد متدفقة، وروح الإصرار متنامية،

١- خطبة الجمعة (٣٤) بتاريخ ٧ رمضان ١٤٢٢هـ، ٢٣ نوفمبر ٢٠٠١م.

٢- خطبة الجمعة (٨) بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٤٢٢هـ، ٢٥ مايو ٢٠٠١م.

والزحف قادم، وبلاد الكفر فضلاً عن بلاد الإسلام لا بد أن يعمّها عدل الإيمان، ورشده، وهداه، وأطروحته المنقذة.

وإن الأنظمة المتخاذلة لا تُمثّل مستوى الأمة؛ وليس لها إرادتها ولا إيمانها وصلابتها، ولا رؤيتها وهمّها وتطلّعها، وقداسة هدفها، واعتزازها بذاتها، فإذا انتكست الأنظمة وسجّلت على نفسها الهزيمة بعد الهزيمة، والانسحاب بعد الانسحاب، فلا يعني هذا أبداً انهزام الأمة، وانسحاق الشعوب، وانسحاب المجاهدين من أبناء الإيمان والقرآن من سوح الجهاد والمنازلة.

ولولا ما ينعكس به الواقع الرسمي المتردّي داخل الأمة على مجمل حركتها من عوامل العرقلة والشلل، والبعثرة والوآد للحركة والانطلاق، وقابليّات الصنع والإبداع لما أمكن لأعداء الله ومردة الكفر أن يجدوا موطناً قدم في بلاد الإسلام في يوم من الأيام. ولهذه الحقيقة التي ينطق بها تأريخ المجد الإسلامي، وواقع الإنسان المسلم الحقّ ينصبّ الاهتمام من كلّ القوى المعادية من الخارج والداخل في دائرة الأمة على محاصرة الإرادة الإسلامية والفكر الإسلامي، والصحوّة الإسلامية في نفوس أبناء الأمة، ويزداد التّفنّن في مختلف الخطط والمشاريع؛ لمطاردة الإسلام وأخلاقيّته وفاعليّته في كلّ ميدان من ميادين النفس، وفي كلّ ميدان من ميادين الحياة النابضة في الخارج.

إنّ الأمة بشعوبها الحيّة وأبنائها الأماجد، وروح الأصالة والعزّة والكرامة الإيمانية، التي تسري في عروقهم؛ لتبرأ من واقع التبعية الذليل الذي يغوص كثير من الأنظمة الرسمية في وحله، وحالة المهانة والسقوط، وفقد الهوية التي يعاني منها مسؤولوا هذه الأنظمة إلى الحدّ الذي تفرض التعبير عن ذاتها على أسنة البعوض بالصورة الرسمية بطرح مقايضة بين الدم والمال، بين نصرّة الأمة، وقبض ثمن ماليّ مقدّم باهض منها، بل بالبراءة من نصرتها مطلقاً، والانفصال عنها، والنأي بعيداً بالنفس عن لهب النار التي يراد لها أن تحرقها على يدي العدو الذي قد يراه هذا البعوض عدوّاً لا بد أن يُركع له، ويتمرّغ على قدميه تودّداً وخنوعاً؛ من أجل بقاء الموقع - والموقع كلّ الأمنية، والموقع

كلّ الحياة، والموقع كلّ المقدسات، وكلّ الشرف والكرامة - قد يراه صديقاً يُطلب قربهِ، ويعترف لجميل دولاره، ودعمه لكرسي الحكم الذي لا يجد له أرضية مستقرة إلا بهذا الدعم، لأنّه لا يقوم على رضا شعب، ولا مراعاة مصالحه، ولا احترام مقدّساته.

ولعلّ هذا هو الاحتمال الأرجح الذي يقضي النظر إلى واقع الأمور التي تتحدث بلغة الأرقام، وبيان أفصح من بيان اللسان.

وإنّ الأمة لمسؤولة أن تجنّد كلّ طاقاتها في معركتها المصيرية التي يشتدّ أوارها هذه الأيام في أكثر من أرض من أرض الإسلام، وخاصة في أرض المقدسات فلسطين، وهي تمتد؛ لتشمل بعدوانيتها الإسرائيلية الأمريكية كلّ شبر من الوطن الإسلامي الكبير.

مسؤولة أمّتنا ألا تدّخر وسعاً في دحر العدو، والدفاع عن المصير والكرامة، والأرض والإنسان، والثروة والقيم، والأصالة والتاريخ، والحاضر والمستقبل، وفي سبيل منع الكارثة الكبرى مما يستهدفه العدو الشرس الباغي من تسجيل هزيمة فادحة تسحق وجود الأمّة، وتغوص إلى أعماق إنسانها.

المعركة التي دمّرت أفغانستان، وسجّلت كلّ البشاعات القذرة على يد الصهاينة في أرض الرسالات، وهي في طريقها إلى سحق العراق؛ لتتواصل في شوط بعيد المدى حتى لا تترك مسلماً ولا إسلاماً إلا ألحقت به الأذى، ولا شعباً ولا حكومة تنتصر للدين والأرض والنفس والكرامة، إلا وأذاقتها الهوان، ولا بلدًا من بلدان الإيمان إلا وأذلّته، ولا ثروة للمسلمين إلا وضعت يد الباغي عليها.

هذه المعركة آتتوانى أمّاها؟!

أيشغل عنها بلعب الكرة، ومسابقات الجمال والليالي الساهرة العابثة الرخيصة، وكثير من اللهو والمجون الذي يأكل شعور الأمّة بالعزّة والمجد والكرامة، ويأكل رجولتها وقدرتها على المواقف المشرّفة الخالدة؟!

المقاطعة سلاح

وأهنيّ جماهير أمتنا المؤمنة في مقاطعتها للبضائع الأمريكية بكلّ ما تستطيع، وبكلّ ما يفسح لها المجال، لأنّه فيما يبدو من حملات التضليل الإعلامي التي تقلّل من أهمية هذه المقاطعة على السنة الإذاعات الدليّة التابعة للمعسكر الظالم أنّ الضربة موجعة، وأنّ المقاطعة بدأت تأخذ تأثيرها الضار على العدو، فلا بدّ من مواصلة الطريق.

والمقاطعة لن تدخل أثرها المطلوب على الجبهة المعادية حتى تتواصل وتستمر بإصرار وجد، حتى تتحول عبادة في فهمنا وفي شعورنا، ونصرة في سبيل الله، وسلاحاً نواجه به العدو.

يا جماهير أمتنا المؤمنة

أدخلي عنصر المقاطعة لكلّ ما يمكن من السلع الأمريكية والإسرائيلية سلاحاً في المعركة التي تستهدف هزيمة الأمة، وليشجعكم على ذلك كثيرًا ما تحاوله إذاعة لندن وغيرها من التقليل من أهمية المقاطعة.^(١)

الجهاد وإسقاطاته على الواقع المعاصر

أمّا بعد أيّها المؤمنون والمؤمنات، فإنّ للإيمان تكاليف باهضة لا يسع مؤمن أن يتخلّى عنها، ويدير ظهره إليها منها ما يحمله هذا الخطاب الإلهي من مسؤوليّة للذين آمنوا: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.^(٢)

والمؤمنون اليوم أمام معركة ضارية تستهدف طرد شعب مسلم من أرضه، وهي تحصد في طريق هذا الهدف الإجرامي المسلمين كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا، مجاهدين ومدنيين من غير حساب، وتكّل بالآمنين أشدّ تنكيل في صور مرعبة وأشكال رهيبة.

١- خطبة الجمعة (٥٦) ١٣ صفر ١٤٢٣ هـ، ٢٦ أبريل ٢٠٠٢ م.

٢- التوبة: ٤١.

المؤمنون والمسلمون اليوم أمام حالة من حالات الدفاع عن الأرض والمال والنفس والعرض، فكل ذلك يتعرض للعدوان، وكل ذلك يواجه صوراً من الفتك والسحق.

وحالة الدفاع هي حالة استنفار لكل قوى الأمة وقدراتها إلى الحد الذي يدفع العدوان، وتأمين به الأرض، والأنفس، والأموال، والأعراض والمقدسات، ويعيد الحق إلى نصابه كما تجمع عليه فتاوى الفقهاء، وتقرّره واضحات الشريعة.

والدفاع جهادٌ موضوعه عدوان ابتدائي يتوجّه إلى المسلمين وأرضهم ومقدّساتهم، فيتوجب عليهم ردّه بما هم أمة، فإن تأدّى على يد جماعة معيّنة سقط الوجوب عن الجميع.

أمّا إذا لم يكفِ المدافعون واستعداداتهم للردّ على العدوان وإيقافه نهائياً، وتصحيح الوضع بالكامل، فالأمة كلّها مخاطبة بنصرتهم حتى تؤدي عملية الدفاع كامل أغراضها، وإن لم تفعل وهي قادرة فهي آثمة، وكل من أبنائها معاقب بحسب تقييده.

وإنّ الأمة اليوم لتقف وجهاً لوجه أمام هذه الخطابات الإلهية الحاسمة:

١- ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾^(١)، منكم من تسمح له ظروفه بأن يندفع، يتحرّك في سراع إلى الجهاد من غير معاناة، ومنكم من تثقل ظروفه خطاه، إلا أنّ على الجميع من سهلت حركته، ومن صعبت أن يتحرّك في حالة من المستميت، وخاصة إذا كانت المسألة مسألة دفاع بأن كان العدو مبتدئاً غازیاً: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ لا الجهاد.

٢- ﴿...وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(٢)، وغير الأموال، وغير الأنفس، من ولد ومن رحم ومن قريب ومن صديق.

٣- ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولا يكن هذا الجهاد خطرسة، ولا يكن هذا الجهاد للظهور الشخصي، ولا حماية عن الوطن بما هو وطن فقط، إنما بما هو وطن إسلامي، وكلّ شبرٍ من الوطن الإسلامي له قدسية، وكلّ حبة تراب من الوطن

١- التوبة: ٤١.

٢- التوبة: ٤١.

الإسلامي لها قدسية عند الله ورسوله لا بما هي حبة رمل، وإنما بما تملكه من وظيفة فعلية في خدمة الدين، وفي أداء الدور الخلافي هنا في الأرض عن الله.

٣- ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، وإنما تستحقون النصر حينما يكون جهادكم في سبيل الله.

٤- ﴿... ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، خسارة الأموال، وخسارة الأنفس، الاضطراب الأمني، فقد الراحة، المعاناة الصعبة، الثكل، التيمم، شتى الآلام، كلها ثمن رخيص للنصر الذي يخدم دين الله، الذي تأمن به السبل، الذي ينتشر به العدل، الذي تتمكن من خلاله الأطروحة الإسلامية، أن تؤدي دورها على الأرض، ودورها دور إيجابي دائم، دور عادل، دور متقدم، دور صناع للإنسان، لرفقي الإنسان، لتقدم الإنسان، لإنسانية الإنسان.

التخطيط في التضحية

إذا قال السيف هنا قتل وتصفيات، قال الدّم الزاكي - حيث يكون إسلام - هنا تضحية مرسومة، وفداء مخطط.

ولا يكفي أن تكون هناك تضحية.

ولا يكفي أن يكون هناك فداء.

فلا بد أن تكون التضحية دربها مرسومًا.

ولا بد أن يكون الفداء مخططًا له.

على الأمة أن تتعلم كيف تنتصر حتى لو لم يكن لها سلاح إلا التضحية.

يمكن الانتصار بالتضحية حيث يكون التخطيط، وحيث تكون الدراسة الميدانية، وحيث توضع التضحية موضعها، فكر السيد الشهيد الصدر (أعلى الله مقامه) أن

١- التوبة: ٤١.

٢- التوبة: ٤١.

يخطو خطوة مصغرة على منوال موقف أبي عبد الله الحسين عليه السلام، كان يفكر أن يخطب خطبة جهنمية في الحرم الحيدري - حرم الإمام علي عليه السلام - ضد البعث، هو وصفوة من طلابه، كالسيد الحائري، والسيد الهاشمي، وما إلى ذلك.

فَكَرَّ في هذا؛ ليحدث زلزالاً في ضمير الأمة، لأنه سيستشهد على أثر الواقعة.

فَكَرَّ، وَقَدَّرَ، واستشار، ثم تَوَقَّفَ! ^(١)

لا حُدَّ للتَّضحية!

لا حُدَّ للبذل في الدين ما دام هو الأصلح لبقائه.

وليس أعزَّ من رأس الحسين عليه السلام رأس بعده.

ولا أكرم من أهل بيته أهل بيت.

وما لاقى شهيد في الإسلام من أجله ما لاقاه الحسين عليه السلام قبل الشهادة وبعدها في سبيل الله.

وما أودى أهل بيت مختارين تضحية للدين كما أعقبته كربلاء من أذى لأهل بيت رسول الله صلَّى الله عليه وآله، وعلي فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام أطفالاً ونسوة وعليلًا. ^(٢)

الدِّينُ مَقْدَمٌ

هناك موقع كبير للأنفس، وحرمة كبيرة للأنفس في الإسلام.

الأنفس مقدمة على الأموال.

الأعراض مقدمة على الأموال، ولكن دين الله مقدم على كل شيء، وعزَّة الأمة الإسلامية بما هي أمة إسلامية مقدمة على كل شيء.

أن يبقى النور الإلهي في الأرض مربيًا صانعًا هو أهم من الأنفس.

١- خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

٢ خطبة الجمعة رقم (١٠٢) ١١ محرم الحرام ١٤٢٤هـ، ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

أهم من الأموال.

أهم من كل شيء.

ليس هناك دم أغلى من دم الإمام الحسين عليه السلام في وقته.

وليس هناك بيت له من القدسية ما لبيت رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولا حرمة أكبر من الحرمة الثابتة لبيت النبوة، وللفاطميات يوم كربلاء، إلا أن كل ذلك قد رخص في سبيل الله، ومن أجل الحفاظ على دين الله.

١- ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)، ولو علمنا لانكشف الأمر لنا، لكنها السذاجة، ولكنها الغفلة التي تجعلنا نطلب الراحة بالذل، ونطلب العيش الرغيد ببيع دين الله.

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢)

تضع الآية الكريمة أيدينا على خلفية التقاعس.

على خلفية الخوف في داخل أنفسنا.

على خلفية الجبن.

على خلفية التخاذل أمام أعداء الله، ما هي الخلفية؟

هي الارتباط بالحياة، تقديم الحياة على الآخرة، لأننا لا نعرف قيمة الآخرة.

لأننا لا نذكر الله.

لأننا لا نعرف أنفسنا.

١- التوبة: ٤١.

٢- التوبة: ٣٨.

لو عرفنا أنفسنا ما بعناها بأي ثمن، لو عرفنا الله وَعَلَّيْ، لما ارتعدنا أمام طاغوت.
لو عرفنا قيمة الآخرة لزهدنا في الدنيا حتى لو لم تكن ثمنًا للآخرة، فيكف بها في
ما يراد بنا أن تكون ثمنًا لآخرتنا؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، أفقدتم وعيكم؟

أفقدتم حسكم الإيماني؟

أنسيتم ذواتكم؟

أنسيتم ربكم؟

أنسيتم مستقبلكم؟

أنسيتم عزتكم؟

إننا قلتم إلى الأرض؟

رضيتم متاع الدنيا من الآخرة؟

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢).

الله يكشف لنا الواقع.

الله يكشف الغطاء عن الحقيقة.

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣)، قليل مزهود.

قليل لا يلفت النظر.

قليل لا يستقطب النفس.

﴿إِلَّا تَتَفَرُّوْا...﴾ أمام إسرائيل، أمام كل غزو ﴿إِلَّا تَتَفَرُّوْا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

١- التوبة: ٣٨.

٢- التوبة: ٣٨.

٣- التوبة: ٣٨.

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ... ﴿١﴾، دين الله لا يتعطّل: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (١)

فوق هذا العذاب الذي يواجهنا به العدو إذا جبنّا، إذا نكصنا، إذا تراجعنا.
نتوقّع عذاباً أكبر وصفه الله وَعَلَّزَ بأنّه عذاب أليم، ووصف الله وَعَلَّزَ لا يرقى إليه وصف.

رؤى مبدئية

- ١- إننا ضدّ مشاريع الاستسلام والتّطبيع الخانع بكلّ أشكالها وصورها.
- ٢- ضدّ استعباد الأمة، والسّيطرة الأمريكية على مقدراتها ومقدّراتها باسم الصّداقة الأمريكية العربية أو الإسلامية.
- ٣- ضدّ سلبية الأنظمة الرسمية في القضايا المصرية لحاضر أمّتنا ومستقبلها، وتأمّر بعض هذه الأنظمة على واقعنا ومستقبلنا الإسلامي الكبير.
- ٤- ضدّ تهميش الشّعوب المسلمة وإلغاء إراداتها الإيمانية الفاعلة.
- ٥- ضدّ تعميم الشّعور بالضعف والهزيمة، وتركيزه في نفوس جماهير الأمة وأجيالها الصّاعدة.
- ٦- نحن نؤمن بقدرة أمّتنا، وبعطاء جماهيرنا، ونؤمن بعظمة الإسلام الصّناع للقدرات الهائلة، وتفجير الطاقات المخزونة، والقابليّات التي تعاني من الكبت.
- ٧- نؤمن بأنّ أيّ ضعف طارئ على الأمة مرده إلى قصور الأنظمة وتقصيرها، وليس لعظمة ذاتية تتمتع بها إسرائيل أو أمريكا، أو غيرهما وتفتقدها هذه الأمة المجيدة الحيّة المعطاء.

٨- نؤمن بأنَّ طريق النَّصر يُمرُّ باعتراف الأنظمة بالشعوب وكرامتها ومخزونها الهائل، وإتاحة الفرصة لهذا المخزون أن يتحرَّك فاعلاً على أرض الواقع من غير عوائق فتوية وطائفية ومصالح شخصية ضيقة، ومن خلال أجواء النُّمو الصالح، والتعبير بإرادة حرّة عن الانتماء الحضاري الإسلامي القادر على الدفع بعجلة الأوضاع إيجاباً، وبصورة مثمرة ثرة ملايين الأضعاف على ما عليه واقع سيرها فعلاً، وفي غياب فاعليّة هذا الانتماء وتجميده.^(١)

زمن الثَّورة والدَّولة

متى تكون الثَّورة؟

متى تكون الانتفاضة؟

متى تكون الحركة؟

متى تكون الدولة إسلامية؟

تحدث في عالمنا الكبير ثورات، انتفاضات وحركات تستهدف لونا من التصحيح، الإصلاح، التغيير، وتنطلق من ضغط ظالم، وظروف سيئة، ويكون لهذه الثورات خط من صواب أو خطأ، وعدل أو ظلم، واستقامة أو انحراف.

وتحدث في عالمنا الإسلامي ثورات، وانتفاضات وحركات منها المنتسب للإسلام، والمنتسب لغيره.

وقد يكون لما انتسب للإسلام منها منطلق إسلامي، أو صبغة ما إسلامية، أو إيمان إجمالي بالإسلام، أو استثناسٌ به، أو تُحاول الاستفادة من الانتساب إليه.

وقد تؤدي الحركات الأولى أو الثانية إلى بعض الإصلاحات والتعديل في هذا الوضع أو ذاك، وتسترد بعض الحقوق، وتختلط نتائجها من السلب والإيجاب بالنسبة لما هي

١- خطبة الجمعة (٥٣) بتاريخ ٢٢ محرم ١٤٢٣هـ، ٥ أبريل ٢٠٠٢م.

المصلحة الحقيقية للإنسان ومجتمعه، بالقياس إلى أهدافه النبيلة الكريمة المنسجمة مع الغاية الصديق التي ينبغي أن يكون تحرُّكه الحضاري على مسارها كما هو في رأي الإسلام.

أما الثورة الإسلامية، والحركة الإسلامية التي يصدق عليها هذا العنوان بحق، فلها شروطها الخاصة بحيث تكون إسلامية حقاً منطلقاً ورؤية وهدفاً وأخلاقية وأسلوباً ومعالجةً ومنهجاً وخضوعاً لأحكام الإسلام وتشريعاته في كل كبيرة وصغيرة تواجه الحركة، الثورة، الانتفاضة على الطريق الطويل الشائك.

والثورة الإسلامية التي فجرها الإمام الخميني عليه السلام حقيقة بهذا العنوان بصدق بلحاظ كل المقومات السابقة.

ثم، إنه لا يتم صدق الثورة الإسلامية والحركة الإسلامية، ما لم تكن القيادة قيادةً إسلامية واقعة؛ وصدق عنوان القيادة الإسلامية متوقف على شروط لا بد من تحققها الخارجي:

- ١- وضوح فكري للإسلام في تركيبته العامة، وروحه، ومقاصده، ورؤيته.
- ٢- إيمان عميق ثابت بالإسلام، وقدرته على الإنقاذ، وحقانيته التي لا غبار عليها.
- ٣- فقه أحكامه^(١) وتشريعاته بما في ذلك تشريعات الحياة العامة للمجتمع، وحركة الحياة خاصة.
- ٤- التقوى العملية الرادعة عن مخالفة الشريعة في مضائق الأمور، ومزالق الأقدام.
- ٥- كفاءة الخبرة والعلم بالمكان والزمان.
- ٦- الكفاءة النفسية، والإرادة الإيمانية المتطلبة عدم الضاغط المعطل، أو المعرقل من صفتين خطيرتين على النفس في هذا المجال: الجبن، والتهوُّر.

١- القيادة بلا فقه، لا يمكنني أن أسميها قيادة إسلامية.

٧- التواضع أمام علم الآخرين وخبرتهم إلى حدّ التنازل عن رأي القيادة وإن كان معلناً، مع احترام القيادة لما هي عليه من علم وخبرة.

والشرط الأخير وارد في حق غير المعصوم عليه السلام.

وإذا كانت القيادة الإسلامية في درجتها المثالية إنما تتجسّد في المعصومين عليهم السلام فحسب، فإنها متجسدة بحق وصدق بدرجة عالية كافية في الإمام الخميني رحمته الله، وبلحاظ كل تلك الأمور، وهو الشيء الذي أعطى قيادته الاستقطاب الكبير للمستضعفين والمحرومين والوعاة المنصفين، وأتعب بها الطغاة المستكبرين.

أمّا عن أثر الثورة الإسلامية المباركة على يد الإمام الخميني (أعلى الله مقامه)، فإنها أعطت بعثاً جديداً للإسلام والأمة على مستويات: على مستوى الروح، والإرادة الإيمانية الروحية، وصحوة الفكر الإسلامي، والتفتُّح الفقهي الميداني العام، والثقة العالية بالنفس عند الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، والحمية والغيرة على الدين، والأمة، والوطن الإسلامي الكبير، وهيبة الدين والأمة في صدور الأعداء، وعزة وكرامة الإنسان المسلم، واستيقاظ روح البذل والتضحية والجهاد، والوعي الحقوقي لأبناء الأمة، والإيمان بقضية التغيير، وفرض الدولة الإسلامية المباركة واقعاً حياً، ومثالاً كريماً، ومنارة مضيئة في الأرض.^(١)

١٢

الفصل الثاني عشر

قضية فلسطين

فلسطين القضية والمحك

موقع الأمة من الحرب على فلسطين

أمامنا فلسطين المغتصبة ومشكلتها المتحدية للأمة، والتي تحملها مسؤوليتها الكبيرة.

المُحَارَب في فلسطين إرادة الأمة، تاريخها، انتماءها، كبرياؤها، نهضتها، حاضرها، مستقبلها، وليس إنسان فلسطين فقط.

والنتيجة لهذا الطرح ولهذا الواقع هو أن لا بد أن تكون الأمة كلها في خندق المواجهة، ما دام المواجه كل الأمة.

فلا بد أن يكون المواجه أيضاً هو كل الأمة، فهذا يعطينا الشعور بأننا لا يصح لنا أن نكون متفرجين، ولا يكون حديثنا واهتمامنا بالقضية الفلسطينية عند تأجج الأحداث فقط، وعند مناسبات خاصة.

الانتفاضة رأس مال الفلسطيني المقهور، المضطهد فكيف يقرط فيها؟!

هل له رأس مال آخر في مواجهة إسرائيل في استرداد حقه في أن يكون له أمل في استرداد هذا الحق؟!

لا يوجد على الساحة، على الأرض شيئ من الرصيد غير هذه الانتفاضة.

إذاً، لا يصح له أن يقرط فيها والحال هو هذا الحال، حل العدو أن يتحول عرفات إلى جزّار وكيل لشعبه.

وحل الانتفاضة مواصلة الكفاح.

أسأل: فالأمة مع أي حل؟!

مع حل العدو الصهيوني الذي يطرحه، وهو أن تكون مفاوضات غير مشروطة بشرط واحد يفرض عليّ، وشرطه في ذلك أن تقف الانتفاضة بالكامل، أن يكون الانسحاب من

ساحة المواجهة.

أن يتخلَّى الفلسطيني عن قفزة إرادته.

عن اشتعال نار الثورة في داخله؛ من أجل أن يبرد.

من أجل أن تبرد أعصابه.

من أجل أن يستكين للاستراحة.

من أجل أن تطوى صفحة الانتفاضة.

هذا هو شرط العدو في الدخول في مفاوضات لا يلتزم فيها ولو بشرط واحد.

الأمة في شعوبها، الأمة في حكامها مع من؟^(١)

على هدى الإسلام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢)؟

أفقدتم وعيكم؟

أفقدتم حسكم الإيمان؟

أنسيتم ذواتكم؟

أنسيتم ربكم؟

أنسيتم مستقبلكم؟

أنسيتم عزتكم؟

أناقلتم إلى الأرض؟

رضيتم متاع الدنيا من الآخرة؟

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣).

١- خطبة الجمعة (٢٣) بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، ٧ سبتمبر ٢٠٠١م.

٢- التوبة: ٣٨.

٣- التوبة: ٣٨.

مسؤولية الحكومات

إنّ الحكومات لمسؤولة أن تنتقل من ردّ الفعل على مستوى الإدانة اللفظية، ومناشدة أمريكا الصديقة العدوّة تخفيفاً لموجات الغليان الشعبية في الأمة، وتخديراً للأعصاب، وإقناعاً للجماهير بالموقف البطولي الرّائف إلى اتّخاذ مواقف عمليّة جادّة في مسألة الدّفاع.

نحن لسنا أمام مسألة جهاد بالمعنى الاصطلاحي، نحن أمام مسألة دفاع بهذا المعنى.

ونحن في حالة ردّ العدوان، ولسنا في حالة فتح بلاد أخرى باسم الإسلام، وتفعيل كلّ الآليات المتوفّرة في المعركة المصيرية المشتعلة.

ولا يُقبل أبداً أن يتساوى ردّ الفعل من الأنظمة التي تضع يدها على قدرات الأمة، مع ردّ الفعل من الشعوب المسلوّبة كلّ شيءٍ إلّا النزر القليل.

الشعوب تُدين بإدانات لفظية، ومظاهرات، واحتجاجات كلامية، وأيضاً موقف الحكومات هو الإدانة الكلامية؟!

ببّد الحكومات

١- سلاح النفط.

٢- قطع العلاقات السّياسية، والاقتصادية، والثّقافية مع العدو الإسرائيلي.

٣- توظيف موقف سياسي موحد قوي للضغط على السياسة الأمريكية.

٤- طرح البديل الجاد لمبادرة السلام التي واجهتها إسرائيل بالاستخفاف والردّ الساخر من القمّة العربية.

٥- إمداد المجاهدين بالمال والسلاح في داخل الأرض المحتلة.

٦- فتح الفرص؛ لتدفق المجاهدين من أبناء الأمة خارج فلسطين المغتصبة عليها.

٧- إيقاف الاستثمارات العربية في البلاد المساندة لإسرائيل.

٨- عدم التعاون العلني والسري مع المشاريع الأمريكية في المنطقة، والغزو الظالم للبلاد الإسلامية.

والمعروف أنَّ بعض الأنظمة العربية والإسلامية - وإلى الآن - تواجه وتمنع المظاهرات السلمية ضدَّ إسرائيل في الوطن الإسلامي، كما أنَّ كثيرًا من بلدان العالم العربي والإسلامي لا زالت تتقرَّب إلى أمريكا بتسليمها الصيد المسلمين الذين ترميهم أمريكا نفسها بالإرهاب توثيقًا؛ لإخلاصها للسيد الأمريكي، وسياسته الرحيمة في بلاد المسلمين.

مسؤولية الشعوب

أمَّا ما تملكه الشعوب، فهو:

١- المقاطعة الشاملة لكلِّ ما فيه دعم للاقتصاد الإسرائيلي، ومنايع دعمه في أمريكا عدا ما قضت به الضرورة القصوى.

٢- الاستمرار في المظاهرات والمسيرات والاحتجاجات؛ لتكون ظاهرة صارخة على مستوى الأمة في وجه العدوان الإسرائيلي والاحتضان والدعم الأمريكي، والصمت الرسمي العربي والإسلامي فضلًا عن الصمت العالمي، ومن أجل تحريك الضمير العالمي الذي يعاني من التبلد والجمود.

٣- تملك أن تسجِّل رفضًا تاريخيًا مستمرًا وبقوة لمخططات الاستسلام، وبيع الحاضر والمستقبل الإسلامي؛ من أجل إيقاف المؤامرة الاستكبارية على أمتنا، وأن تحبط بمواقفها المبدئية محاولات التغريب الفكري والعملي التي تستهدف إسقاط هوية الأمة.

رسالة الموقف

١- إنَّنا ضدَّ مشاريع الاستسلام، والتطبيع الخانع بكلِّ أشكالها وصورها.

٢- ضدَّ استعباد الأمة والسيطرة الأمريكية على مقدراتها ومقدَّراتها باسم الصداقة الأمريكية العربية أو الإسلامية.

٣- ضدَّ سلبية الأنظمة الرسمية في القضايا المصرية لحاضر أمتنا ومستقبلها،

وتأمر بعض هذه الأنظمة على واقعنا ومستقبلنا الإسلامي الكبير.

٤- ضد تهميش الشعوب المسلمة، وإلغاء إرادتها الإيمانية الفاعلة.

٥- ضد تعميم الشعور بالضعف والهزيمة، وتركيزه في نفوس جماهير الأمة وأجيالها الصاعدة.

٦- نحن نؤمن بقدرة أمتنا، وبعطاء جماهيرنا، ونؤمن بعظمة الإسلام الصانع للقدرات الهائلة، وتفجير الطاقات المخزونة، والقابليات التي تعاني من الكبت.

٧- نؤمن بأن أي ضعف طارئ على الأمة مرده إلى قصور الأنظمة وتقصيرها، وليس لعظمة ذاتية تتمتع بها إسرائيل أو أمريكا، أو غيرهما وتفتقدها هذه الأمة المجيدة الحية المعطاء.

٨- نؤمن بأن طريق النصر يمرُّ باعتراف الأنظمة بالشعوب، وكرامتها، ومخزونها الهائل، وإتاحة الفرصة لهذا المخزون أن يتحرك فاعلاً على أرض الواقع من غير عوائق فتوية وطائفية ومصالح شخصية ضيقة، ومن خلال أجواء النمو الصالح، والتعبير بإرادة حرة عن الانتماء الحضاري الإسلامي القادر على الدفع بعجلة الأوضاع إيجاباً وبصورة مثمرة ثرة ملايين الأضعاف على ما عليه واقع سيرها فعلاً، وفي غياب فاعلية هذا الانتماء وتجميده.

وطأة الضَّغط

يا أبناء أمتنا الغيارى، إنكم لن تعولوا في أي يوم من الأيام على مندوبي الرئيس الأمريكي للمنطقة، ولا على الرئيس الأمريكي نفسه، وعلى طلبه لإسرائيل بالانسحاب.

ولن تقدم أمريكا ولا أوروبا على أي خطوة في صالح قضيتنا إلا اضطراراً تحت وطأة الضَّغط من جماهير الأمة، وقواها الشعبية الفاعلة، ولإنقاذ مصالحها، والحفاظ على مدلولتها إسرائيل.

إنه لا يُحسن الظن بأعداء الأمة.^(١)

خطُّ الوعي والبصيرة والقيادة

الواجب على المسلمين أن يحموا أي ذرة من ذرات الأرض الفلسطينية، ومن ذرات أي وطن من الأوطان الإسلامية، والأوطان الإسلامية والأوطان الإسلامية كلها وطن واحد، وأن يترجم اهتمام المسلمين بفلسطين عملياً في صورة بذل مالي، في صورة مظاهرات، في صورة مسيرات، في صورة اجتماعات، في صورة حمل البندقية، وبذل الدّم وما إلى ذلك.

لكن كل هذا لا يصح أن يأتي عشوائياً، ولا يصح أن يتلقى من جهة مجهولة أبداً، وإنما الصحيح للمؤمنين في كل مكان أن يخدموا قضاياهم من خلال خط الوعي، ومن خلال خط البصيرة، ومن خلال خط الارتباط بالقيادة التي يؤمنون بها.^(١)

بوصلة الجبهة الإسرائيلية

كل التدمير الهائل، والنسف للبنية التحتية في غزة، والدك للمواقع المؤثرة بدرجة أساس وحتى المواقع الثانوية، والمذابح الأثمة للمدنيين، والترويع للجميع، وتقطيع شرايين الحياة والحركة، والحصار الخانق، والشح في الإمدادات، والإيمان في التخريب، ثم الإدانات الرسمية العربية والأجنبية للمقاومة، ومشاريع الهدنة المصممة تصميماً خاصاً يتوافق مع رغبة العدو الإسرائيلي؛ كل ذلك يراد له أن ينتهي إلى تجريد المقاومة كل المقاومة من حماس وغير حماس في فلسطين، وغيرها وحتى على مستوى الدول من قدرة المقاومة، وسلاح المقاومة، وإرادة المقاومة، وروح المقاومة، والإيمان بالمقاومة فضلاً عن فاعلية المقاومة.^(٢)

وذلك ليستسلم الجميع، ويسلم للمشروع الاستكباري المتعلق بالأمة الإسلامية والعربية، وفرض لون سياسي واحد على المنطقة والأمة، وصوت واحد، ومنطق واحد هو منطق المصلحة الأمريكية والإسرائيلية، والأوربية، وفرض إرادة هذه الجهات وهيمنتها السياسية والأمنية والحضارية على كل مفاصل وجود هذه الأمة، وهو المنطق الذي لا يقبل كياناً حاكماً في هذه الأمة إلا الكيان الذي يحكم فيها نيابة عن الأجنبي، وإرادته

١- خطبة الجمعة (٦) بتاريخ ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ، ١١ مايو ٢٠٠١ م.

٢- هتاف الشيخ وجموع المصلين ب: (لبيك يا مقاومة).

وعقليته، ومصلحته.

ولا يقبل رأياً ولا صوتاً يخالف هذا التوجه والسياسة، ويتمرد على قهرهما.
وإنه ليراد لهذه الأمة أن تنتج لغيرها، وأن تكون التابعة الذليلة لغيرها، وتستسلم وتسلم لإرادة غيرها، وأن تذوب، وتتنازل عن ذاتها له، وأن تتسلخ من جلدها وهويتها، وتنفصل عن حضارتها ودينها لاطمئنانه، ويراد لها أن تقبل منه أن يذبح مَنْ يذبح من أبنائها راضية ضاحكة مسرورة.^(١)

لا مبرر للتقاعس

هل من مبرر لتقاعس الأمة؟

هناك وجودٌ فتاكٌ في المنطقة في حربه وسلمه، وجودٌ عدوانيٌّ، ومتوسّعٌ من كل أعداء الإسلام ومصالح العرب، هذا الوجود هو إسرائيل المغتصبة للقيطة، الحربة الغائرة في خاصرة أمتنا، وهناك مهزومٌ مشلولٌ قاصرٌ، يقفه الوجود العربي الرسمي في أكثر، والوجود الرسمي الإسلامي في أكثره كذلك، وينسحب الشلل والهزيمة والقصور على الموقف الشعبي في تعاطيه مع القضية، على المستوى الأوسع من شعور الأمة وتفكيرها وهما.

هذا القصور والهزيمة والشلل في الموقف، خاصة على المستوى الرسمي، من قصور ذاتي أم من تقصير في الأمة؟

هذا هو السؤال.

أسأل: الأمة مجتمعةً فاقدة لأي لون من ألوان الضغط السياسي المشترك، والضغط الاقتصادي المؤثر في أمريكا مدللة إسرائيل، وعلى إسرائيل نفسها؟

الأمة لا تستطيع أن تمارس هذا الضغط؟، تقتطعه؟

أم أنها فرقة الكيانات المصلحية المتناحرة؟

والمتاجرة؛ لتثبيت الكراسي المهزوزة، وبعثرة أموال الأمة وطاقاتها، وممارسة تميع الإرادة عند إنسان الأمة، والفاصلة الكبيرة بين كثير من الأنظمة وشعوبها.

مَن يلجأ إلى استقرار الوضع الأمني بالقوة، إلى طلب رضا العدو الخارجي الذي يحتضن إسرائيل، ويمدها بأسباب القوة والصمود؟

أو لم يمر وقتٌ طويل على القضية نهضت فيه أمم وشعوب.

الأمة الإسلامية تراوح في مكانها، أو تتراجع القهقرة بالقياس إلى حالة التقدم السريع في العالم، في أسباب النمو العسكري والاقتصادي والصناعي والزراعي، وثورة المعلومات إلى آخر هذه الأمور؟

الهند أقل في ثراوتها الطبيعية، أم العالم الإسلامي؟

أيهما يخاف الآن بدرجة أكبر من ناحية عسكرية؟

أكثر بلدان العالم الإسلامي، أم الهند؟

الهند، ولماذا؟، لأن الأخيرة تصر بدرجة ما على إرادة التحرر من قبضة الآخرين، وتراهن على شعبها وتقدمه، وتفجير قابلياته وطاقته، وأكثر حكام أمّتنا تحول الشعوب والأرض والمقدّرات والمقدورات إلى أعداء الأمة؛ من أجل الاستقرار الذي يعني تكبيل الأمة والغائها، وتقزيمها، وكأنه لا استقرار إلا بهذا، ولا أمن إلا بأن تعذب الآخرين، وتكبت فيهم أي نبضٍ للحرية.^(١)

العمق الاستراتيجي للمقاومة

كيف نتصر للقدس، والأرض المغصوبة، والمسلم المعذب؟

والشهداء، قوافلهم، القادة الإسلاميين، العسكريين، المجاهدين، المسلمين، الرُضّع، الشيوخ، الحرائر، الشابات.

هناك الاحتجاجات والبذل المالي، والمسيرات والمظاهرات، والمؤتمرات والمذكرات،

هناك أساليب من هذا وقد ترقى إلى حمل السلاح!

إلا أن الأهم من ذلك في نظري وعلى المدى البعيد أن نعرف هويتنا.

أن نرجع إلى انتمائنا.

أن نتمثل قيم الإسلام وروح الإسلام.

إذا صرنا على الخط الآخر وهو خط التغرب، والتغرب لا يعيد أمجاد أمة، ولا يستعيد القدس بما هي قدس، الخط الآخر خط التميع، وخط التميع لا يخلق بطولات، ولا يخلق رجولات، ولا يخلق قوافل شهداء، ولا يخلق قادة صامدين، ولا يخلق قلوباً صلبة صامدة، ونزيهة لا تخون.

أمجاد الأمة كل أمجادها كانت تحت راية الإسلام، ولن تستعيد مواقع المجد ومواقع العزة والكرامة ومواقع الريادة إلا تحت راية الإسلام.

هذه التجارب تتوالى، فوق المليار مسلم، السلاح موجود، قد تتفوق إسرائيل على المسلمين من حيث السلاح الذري، لكن أسلحة كثيرة بيد المسلمين، بيدهم السلاح المدني، وبيدهم السلاح الحربي، وبيدهم العدة التي لا تعرفها إسرائيل، بيدهم القبضة على شرايين الحركة الصناعية في الغرب، لكنهم يفقدون الإرادة وفقدتهم للإرادة من خلال فقد الإيمان، ومن خلال التغرب الذي غزاهم، ومن خلال مواقف الاهتزاز في الثقة، بل مواقف التراجع عن خط الله سبحانه وتعالى علناً وسفوراً.

نحتاج إلى أساليب المسيرات والمظاهرات، والبذل المالي، والتبرع بالدم، والمذكرات والمؤتمرات، والاحتجاجات، والخطب، والقصاصد.

لكننا في الأصل نحتاج إلى شيء أساس هو أكبر من ذلك كله، ولن ينتج ذلك كله إلا بالرجوع إلى الإسلام، وعزة الإسلام، وكرامة الإسلام.

أن تصنع نفسك مسلماً قوياً.

أنت كيف تنتصر للقضية الفلسطينية - قضية القدس - أن تصنع نفسك مسلماً قوياً، فيما تملكه من إمكانيات علمية وخبرات ميدانية، وفيما تتمسك به من فكر إسلامي

أصيل، وفيما تتزين به من خلق إسلامي كريم.

خَرَجَ من نفسك شخصية إسلامية تخرج من نفسك أمة تقف في وجه اليهود والطامعين، كل الملايين والمليارات من غير إسلام ستكون هباء.

قولوا: لماذا؟

هناك فرق كبير، بين الأمم الأخرى وأمتكم.

أنتم - المسلمين - ذقتم الإسلام، عرفتموه بمقدار، لازلتهم على درجة من صفاء الفطرة والذوق الفطري السليم، والذوق الخلقى الكريم، والضمير الإنساني النقي أصول الفكر الفطري.

أنتم على هذا الواقع - ومن خلال هذا الميراث - لا يمكن لكم نفسيًا، ولا عقليًا وإن حاولتم أن تتسلخوا عن الإسلام بالكامل، وأن تقبلوا بأي أطروحة أخرى، لأن كل الأطروحات الأخرى قاصرة، دونية، منسحقة، أمام الأطروحة الإسلامية التي تتراءى لكم على بعد، والتي تحملون عنها تصورًا ما ولو باهتًا، الأمة التي تحمل ولو تصورًا باهتًا عن الأطروحة الإسلامية تمتلك نفسية أكبر من كل الأطروحات، وعقلية أكبر من كل الأطروحات، ونقاء فطريًا يرفض كل الأطروحات الزائفة.

الغرب يمكن أن ينتج في ظل أطروحة زائفة كاذبة إنتاجًا دنيويًا.

أنتم لا يمكن أن تتسجموا مع أي أطروحة تعادي الإسلام، وتتفصل عن الفطرة، فحيث تحرمون من الإسلام من جهة، ولا تستطيعون أن تتفاعلوا التفاعل الكامل مع أي أطروحة أخرى قاصرة مناهضة، تكون في حالة من التذبذب، والقلق الفكري والنفسي والحضاري.

وبذلك نفقد الموقع المتقدم، ونفقد القدرة على رد الفعل فضلًا عن الفعل.

أمريكا القدوة، القدوة الفكرية.

أمريكا القدوة في الديمقراطية.

أمريكا القدوة في المجتمع المدني.

أمريكا القدوة في الليبرالية.

أمريكا القدوة في التحرر، ماذا تقول؟

ترفض أن تحضر مؤتمرًا لمحاربة العنصرية في جنوب أفريقيا يتعرض لعنصرية إسرائيل، اقتدوها أيها الناس، هذا هو إمام الحضارة الحالية، هذا هو المبشر بالإنقاذ، هذا هو القائد إلى ساحل الأمان وشاطئ الكرامة الإنسانية.

أمريكا ترفض أن تحضر مؤتمرًا يتعرض لإسرائيل فيما تمارسه من ممارسات عنصرية قاسية مقيته، فماذا يقول الإخوة المثقفون العرب؟

ماذا يقول المتفرجة فكريًا؟

ماذا يقول المتفرجة سلوكيًا؟

ماذا نقول نحن المسلمين؟

عودة أيها الإخوة، للإسلام وبقوة، عودة لفكر رسول الله ﷺ، عودة لأحضان القرآن، عودة لرايات الأئمة، والصحابة الكرام.^(١)

خطر الفتنة الطائفية على القضية الفلسطينية

من منطلق الحرص على متانة الصف الإسلامي في بلادنا الإسلامية بكل أقطارها، والحفاظ على وحدة المسلمين، وتوجه الجهود المشتركة إلى بناء وطن المحبة والاستقرار، **والتمحور حول القضايا المهمة بالأمة**، وفي طليعتها قضية فلسطين، والقدس، والمسجد الأقصى.

أحذر كثيرًا من الانجرار وراء الإثارات الطائفية البغيضة مما يمارس في الصحافة محليًا كانت، أم غير محلية.

فالجواب على ذلك ينبغي أن يكون عمليًا، ومن وحي الدين وتقدير مصالح المسلمين، ومن خلال تلاحم أكثر بين كل المخلصين من الطائفتين الإسلاميتين الكبيرتين، والذين

١- خطبة الجمعة (١٨) بتاريخ ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ٣ أغسطس ٢٠٠١م.

يحملون هم الإسلام المشترك، ويسعون لتوحيد صفوف الأمة الواحدة، ليس في يوم حربها مع الغادي فقط، وإنما في يوم الحرب والسلام، والشدة والرخاء.^(١)

حرف البوصلة إلى أعداء وهميين!

الانتقال من الحديث عن الخطر الإسرائيلي إلى الحديث عن الخطر الإيراني!، إلى الحديث عن الخطر الشيعي!

ألا نعلم جميعاً بأن القرآن الكريم، والسُّنة المطهرة آخى بين المسلم والمسلم، وفرض عليهم أن يكونوا صفّاً واحداً في مواجهة الغزو الكافر؟

أيختلف مسلمان على هذا؟

فمن أين جاز لنا قرآنًا، أو سنةً أن نتحدث الصحافة العربية، والقنوات العربية. الإذاعات العربية، التصريحات العربية عن خطر على العرب تتحدث عنه أمريكا، وتشيع ثقافته أمريكا.

أمريكا هي الصديق، والشيعية هي العدو؟

أمريكا التي تستعمر، التي تقتل، التي تستعبد، التي تستنزف خيراتها في كل البلاد العربية.

أمريكا التي ما وقفت في يوم من الأيام مع العرب ضد إسرائيل، وما وقفت في يوم من الأيام الموقف الحيادي في الصراع العربي الإسرائيلي.

أمريكا صديق مخلوق، والشيعية عدو؟!!^(٢)

وعد بلفور

أمّا بعد، ففي مثل هذا اليوم، وهو الثاني من نوفمبر للعام السابع عشر بعد التسعمائة والألف كان الوعد المشؤوم الظالم لبلفور المعادي للحق بما فيه من كيد للأمة

١- خطبة الجمعة (٢٢) بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، ٢٤ أغسطس ٢٠٠١م.

٢- خطبة الجمعة (٣١٥) ٢٨ صفر ١٤٢٩هـ، ٧ مارس ٢٠٠٨م.

الإسلام، واستهداف لخلق الصراع الدائم في هذه المنطقة من الأرض ووضعها تحت نعمة الغرب.

واليوم تتوسل أنظمة الأمة إلى أخلاف بلفور؛ من أجل إنقاذ القدس، وتطهير الأقصى، فهي تحوّل العدو صديقاً، والذئب حارساً، والظالم عادلاً.

نعم، والدليل هو الدعم لإسرائيل، وتجويع العراق، وتدمير أفغانستان، والتهديدات الجدية لحرق دول أخرى إسلامية عربية وغير عربية، والهجمة الثقافية، والعب المتواصل من نبط المسلمين، ونهب ثروة الأمة مرتين، مرة في هذا الاستنزاف للثروة الأولية بثمن بخس؛ لتحريك الآلة الصناعية والحربية المعادية - وهو أمر يهدد مستقبل الأمة -، وأخرى في التصدير المفروض على الأمة للمواد التحويلية بأثمان خيالية مضاعفة، وفي الكثير ممّا لا ينفع، وممّا لا يضر.

بناء الذات مسلّك؛ لاسترداد الحق

فيا أيتها الأمة المسلمة، اختاري بين أن تعيشي على الأحلام الوردية المؤلمة في رحمة العدو الجاني، بتقديم هدية هائلة، دولة فلسطينية مستقلة كاملة السيادة تراحم الوجود الإسرائيلي الحبيب للمهدين، أو أن تعودِي إلى الأصالة، وبناء الذات على جميع المستويات؛ لاسترداد الحق، وانتزاع الأرض والمقدسات من اليد العدوانية الفاصبة.^(١)

ازدواجية المعايير الغربية

إسرائيل وهي تمتلك السلاح النووي الذي يهدّد المنطقة بكاملها.

وإسرائيل التي تقتل المدنيين - بمن فيهم من أطفال - عن سبق تخطيط وعمد وإصرار من أعلى مستويات القرار الرسمي، والتي تُعقب الجريمة بالتبجح والفخر.

وإسرائيل التي تهدم البيوت على رؤس الأمنين، وتغتال وتختطف، وتجتث الأشجار، وتدمّر كل مظاهر الحياة عند فريستها، دولة من دول التقدم والخير والديمقراطية

والشرف الرفيع،

حاشاها أن تعدّ دولة إرهاب وشرّ في قاموس الغرب، وفي قاموس أمريكا، وإذا طُفح الكيل واضطرّ رعاة السلام في العالم والأمناء على العدالة من أهل أمريكا وأوروبا أن يقولوا كلمة عن إسرائيل تقتضيها مصالح السياسة، فلا بدّ أن تقال مخفّفة!

ولا بدّ أن يعقبها موقف عملي داعم لدولة الخير والسلام.

ولا بدّ أن يحال أمريكياً بين أي منظمة دولية وبين القرار الذي يضرّ بمصلحة إسرائيل ما أمكن.

وإذا غضبت الدول العربية إلى أقصى حدّ شجبت واستنكرت الوحشية الإسرائيلية في كلمات.

والشعوب العربية لكثرة ما تعاني من ظلم في بلادها، وتسكت عليه مقهورة تعلّمت أن تصبر سلّياً على الجراح حتّى من مثل إسرائيل، بل أوّليس قد تعلّمت هذه الشعوب من أنظمتها أن تلك الأنظمة لا تصبر ولو على مظاهرة ضد إسرائيل؟^(١)

التطبيع

التطبيع مع إسرائيل إضعاف للأمة، إسقاط لقيمة الجهاد الفلسطيني، خيانة للقضية، إلغاء لتاريخ التضحيات، تنكّر لآلام وآمال الشعب الفلسطيني، إقرار بالهزيمة أمام العدو الإسرائيلي، وهو إقرار ترفضه الأمة، ولا ترى أي مبرر لارتكاب عاره، مكافأة للعدوان الغاشم، تسهيل لمزيد من التسميم الثقافى والخلقى والدينى لأجواء الساحة الإسلامية، ومزيد من التميع الحضاري، توفير للراحة النفسية، وضخّ للثقة عند الغزاة المحتلّين، تذويب لروح الجهاد، وقتل لإرادة التحرّر عند الجيل الحاضر وأجيال أخرى لاحقة من أبناء أمتنا.

هذا هو التطبيع في درجاته الأولى، أما عضوية إسرائيل في تجمع عربي أو إسلامي إقليمي والعدوان الإسرائيلي على أشده و رغم انتهاكاته لكل القيم والمقدّرات والمقدّسات

١ - خطبة الجمعة (٦٩) بتاريخ ١٥ جمادي الأولى ١٤٢٣ هـ، ٢٦ يوليو ٢٠٠٢ م.

إمضاء عملي صريح لجرائم الصهاينة الكبرى، ومشاركة فاعلة في قبائحهم المنكرة، وهو من أوضح الحرام وأصرحه.^(١)

فلسطين .. واخجلتاه!!

أكاديميون أوريبيون يهتّون لمقاطعة جامعات إسرائيلية، وأكاديميون إسرائيليون يطردون من مطبوعات بريطانية - كما هو أخبار الخليج -، وحكومات عربية تحارب المقاطعة، وتهرول على طريق التطبيع الذليل.^(٢)

وهذه الحكومات المستأسدة ضد شعوبها ضعيفة متخاذلة فاقدة للحيلة مستسلمة أمام إسرائيل، وإرادتها.

كانت الأنظمة العربية تُكثر القول المكرّر بأن فلسطين والقدس هما القضية الأولى للأمة العربية.

والقضية الأولى والمركزية والثابتة لا يساوم عليها ولا تُضَيّع، ولا تُنسى، ولا تُتّقدّم على حسابها التنازلات.

وقد توالى الانسحابات عن الالتزام بهذا القول، ودخلت الأمة رسمياً في خارطة الطريق لسدّ الطريق، أو ليؤدي إلى تحقيق ما خططت له إسرائيل في هذه القضية، وبدأ التنازل بعد التنازل، والتبرير؛ للتخاذل بعد التبرير، وسجّلت الأنظمة على نفسها ضعفاً مخجلاً أمام الأمة والعالم إن لم يكن خيانات واضحة من البعض، وتأمراً على الأمة.

وفي كل مرة من المفاوضات المباشرة أو غير المباشرة تسدّ إسرائيل الطريق، وتتظاهر أمريكا بالضغط عليها ببعض الكلمات؛ لتعلن للعرب من بعد ذلك بأنّ الإرادة الإسرائيلية أقوى من أن تلين؛ ليستجيب العرب بتنازل جديد للإشارة الأمريكية لا ضغطها الذي لا تحتاجه في التعامل مع هذا الطرف الذي حكم على نفسه بخلو اليد من كلّ الأوراق الضاغطة على إسرائيل والوسيط الأمريكي المخلص لها.

١- خطبة الجمعة (٣٤٠) ١٠ شوال ١٤٢٩هـ، ١٠ أكتوبر ٢٠٠٨م.

٢- خطبة الجمعة (٦٧) بتاريخ ١ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، ١٢ يوليو ٢٠٠٢م.

وكأنَّ العرب لا نفط بيدهم، ولا موقع ذا أهمية استراتيجية تحتاجه أمريكا، وليست لهم مساندة تعتمد عليها فيما تريد الوصول إليه في قضايا الأمة، ولا يمثلون سوقاً رابحة لأمريكا في السلاح والبضائع الأخرى، ولا أرصدة لهم اسمًا في المؤسسات المالية الأمريكية؛ لتنشيط الاقتصاد الأمريكي وتغذيته.

فالأنظمة الرسمية في الأمة أقوياء ولكن ضعفاء؛ أقوياء عليها، ضعفاء أمام إسرائيل^(١).

ولماذا تحرص أمريكا وإسرائيل على التطبيع؟

لتكون البلاد العربية والإسلامية سوقاً مفتوحاً اقتصادياً، وثقافياً، وسياسياً، وعلى المستوى المخبراتي لكل البضائع الساقطة والمسممة للساحتين العربية والإسلامية وإنسانهما وأوضاعهما، ولفرض الهيمنة وإحكام القبضة الأمريكية والإسرائيلية على مَقْدَرَاتٍ وَمُقَدَّرَاتٍ أَمْتَنَا، وتنفيذ خططهما الخبيثة ضد الإسلام بصورة أوسع وأسرع.

ويتجاوز الطموح الأمريكي الإسرائيلي تحييد الأمة العربية أنظمة وشعوباً عند توجيه أي ضربة عسكرية قاسية ضد أي بلد إسلامي مقاوم إلى مشاركة هذه الأنظمة، أو عددٍ منها في هذه الضربة.

والخاسر الأكبر في التطبيع المشؤوم هو جماهير الأمة، ودينها، وحضارتها، وأخلاقيتها، وعزتها، وكرامتها، ونهضتها المجيدة التي وُجدت وبعد لم تبلغ.

والحق أن التطبيع مع العدو الإسرائيلي يعني توجيه ضربة قاسية ومقصودة لوجود الأمة المادي والمعنوي، وتأمراً على أمنها في كل أبعادها، فلا يقدم عليه إلا معادٍ بها، والمريد لها سوءاً^(٢).

يوم القدس العالمي

يوم القدس العالمي دعوة سياسي مؤمن محنّك؛ لترسيخ حاكمية العدل والحق.

١- خطبة الجمعة (٤٣٥) ٢٤ محرم الحرام ١٤٣١هـ، ٣١ ديسمبر ٢٠١٠م.

٢- هتاف جموع المصلين بـ(الموت لإسرائيل).

٣- خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠هـ، ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.

١- هو يوم لجعل القضية الفلسطينية والقدس الشريف في مقدمة قضايا الأمة التي يتحتم عليها العمل بجِدٍّ، ومن خلال جهادٍ مستميتٍ على طريق حلها.

٢- من أجل نقل القضية من المحيط العربي، وهو محيط على سعته ضيقٌ بالنسبة إلى المحيط الإسلامي الأعم، فهذا اليوم يصر على نقل القضية، أو تقوقعها في المحيط العربي، وأن تنتقل إلى المحيط الإسلامي الأكثر رحابة، خدمةً للقضية، وتحشيدًا للطاقت الهائلة التي تختزنها الأمة على هذا الخط.

٣- للخروج بالقضية من سيطرة الأروقة الرسمية، وما قد تخضع له من مساومات، وتنازلات، وربطها بالهم العام للأمة؛ من أجل أن تمارس الضغط على مواقع القرار في صالح القضية.

٤- لخلق حالة من الإنكار العالمي للظلم الصهيوني.

٥- لتعبئة ضمير الأمة تعبئةً هائلةً نصرَةً للقضية، وإذا تحرك الضمير تحرك الخارج.

٦- لحشد مستضعفي العالم ضد المستكبرين.

وهذه لفظة ليست بالأمر اليسير كانت في كلمة السيد الإمام (أعلى الله مقامه) حين عدّ هذا اليوم يوم مواجهة، ومكافحة المستضعفين للمستكبرين.

إنها التفاته تختزن كثيرًا من الوعي، وتختزن شديدًا من الرؤية السياسية المركزة، وتختزن عمقًا ووعيًا إيمانيين شديدين، ذلك لأن قضية القدس قضية الإيمان والإسلام، قضية ارتباط البشرية بالقدس، بقيم القدس، بخط القدس، الخط الإلهي.

والصراع في الأرض بين خطين: الخط الإلهي، والخط الشيطاني.

والمستضعفون آلة للمستكبرين، ولقمةٌ سائغةٌ بيدهم إذا حكم خط الشيطان.

الملايين من البشر، المليارات من البشر تتحول إلى سائمة، وتتحول إلى آلة رخيصة، وتتحول إلى آلة مستغلة، وإلى أيدي كادحة، وأدوات منتجة؛ لتصب في جيوب عددٍ ضئيلٍ من المستكبرين، وتعطيهم آلة البطش والفساد والإفساد في الأرض، هذا كله حين تكون

الحاكمية لخط الشيطان.

والأقصى لا يسجن مبنئ، الأقصى مسجونٌ قيماً، مسجون خطأ، مسجونٌ مدرسة، مسجون أطروحة.

والجهاد كل الجهاد ليس لتحرير الأقصى مبنئ، إنما الأكثر من ذلك لتحريره معنى، وكل أرض الله أقصى، كل أرض الله تحتاج إلى تحرير من قبضة الشيطان، حيث يسيطر على إنسان العصر الهوى، حيث يحكمه هوى المادة، وحيث يبعد ويشرد عن الله سبحانه وتعالى حكوماتٍ وشعوباً في أكثرها.

الأرض تحتاج كلها كالأقصى الأسير إلى تحرير، وتحريرها بأن تتطلق من أسر الشيطان وقبضة الهوى، وحاكمية الطغيان، والظلم، والبغي، والاستكبار العالمي؛ لتتطلق على خط الحاكمية العادلة، حاكمية الحق، والعدل، والخير، حاكمية الله سبحانه وتعالى.

ويبقى على الأمة أن تفعل هذا اليوم وتستثمره استثماراً جيداً في وجه العدوان الصهيوني ومؤامرات دفن القضية وتذويبها.

وسيبقى هذا اليوم شاهداً من شواهد عديدة على تجاوز ذلك الرجل العظيم لكل الأطر الضيقة في التفاعل مع قضايا الأمة والإنسان، وانفتاحه على هموم الإسلام والمسلمين بكل جدية وإخلاص، وعلى هموم المستضعفين والمحرومين في كل مكان؛ ليسجل شاهداً على عظمة الإسلام، وانفتاح الإسلام، وعدم انغلاقيته، وأن الإسلام والعقلية الإسلامية، والقلب المسلم لا يؤطره المكان، لا يؤطره الزمان، لا يتوقع مع الأطر القومية، ولا الأطر الجغرافية، ولا أي إطار.

إنَّه ينطلق مع إرادة الله، إرادة الخير والجمال؛ ليبني الخير، ويهدم الشر، ولينتصر للمظلوم، ويواجه الظالم في كل مكان، ومن أجل كل إنسان.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٣٧) بتاريخ ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ، ١٤ ديسمبر ٢٠٠١م.

٧- إنه يوم للأمة؛ لوحدها، وقوتها، ووعيتها، وحيوية إرادتها، وتعزيز ثقتها بنفسها، وشحن عزيمتها، وعزتها، وكرامتها، ونصرها، وروح النهضة والمقاومة فيها، وأنه يوم للقضية؛ للإصرار على القضية، للتمحور حولها، لذكرها، لحضورها، وانتصارها.

والأمة اليوم تتعرض للتفتيت، والقضية اليوم يستهدفها الطمس والتغييب، ويراد لها أن تدفن وتُتسى، فالحاجة إلى يوم القدس حاجة ملحة.

والأمة اليوم تتعرض؛ لتربية الإذعان والاستسلام والذوبان، والقضية تتعرض للتآكل، والتآمر، والمساومات الرخيصة التي تحفظ الكرسي الهزيل المهزوز قبال العزة، والكرامة، والقيم، والانتماء، والأصالة، ومصلة الأمة، ووجودها.

٨- إنه يوم لمقاومة اليأس والقنوط وروح الإحباط التي تزرعها الأنظمة الرسمية في نفوس أبناء الأمة، ولرفض العمالة والتحالفات الظلامية مع القوى المستكبرة والمقسمة للأمة لصالح أعدائها.

٩- إنه لتحية الصمود الإسلامي الذي يجسده حزب الله لبنان، وحماس، وكل جماهير الأمة المؤمنة الواعية في وجه المخططات الاستكبارية المدمرة، وحمولات الإبادة المعنوية لإرادة الصمود لأبناء الأمة الغيارى والمجاهدة، الأمر الذي يذهب إليه الوهم الأمريكي والإسرائيلي الكاذب.

١٠- **يوم القدس؛ لإحداث فاصل مائز بين تخاذل عدد من أنظمة الأمة الحاكمة في موقفها الاستسلامي والتآمر على مصلحة الأمة وهويتها وبين موقف الجماهير الباسلة الذي يصر على مقارعة المعتدين.**

إنه لخلق حاجز من وعي الجماهير وثورتها وحضورها الفاعل في قضاياها عن التلاعب الرسمي من كثير من أنظمة الحكم في الأمة بهذه القضايا والمساومة الرخيصة عليها، وتصفيتها لصالح أعداء الأمة.

إنه يوم من تخطيط قائد عظيم قدّر كيف سيكون مسار القضية بيد الكثير من الأنظمة الرسمية في الأمة، فأراد أن لا تكون القضية رهن الإرادة الخائرة لتلك الأنظمة، وأن يكون لإرادة الأمة حضورها الفاعل في كل قضاياها^(١).^(٢)

ستستمر المقاومة ولو بالسنّ والظفر

ينبغي أن يفهم أن إسرائيل ستبقى عاجزة عن توفير الأمن لنفسها مادامت تختار إخافة المسلمين الفلسطينيين واضطهادهم طريقاً إلى ذلك، لأنه لا يمكن بحسب تصميم الشعب الفلسطيني وعدالة قضيته، وروحية الإنسان المسلم في ظروف الصحوّة أن يتم الخنوع والاستكانة أمام الآلة الحربية الفتاكة لإسرائيل، وستستمر المقاومة ولو بالسن والظفر، وما ينطبق في فلسطين ينطبق في أفغانستان وباكستان، وأي بلد إسلامي آخر أمام الغزو الأمريكي والغربي عمومًا، فلا بدّ أن تستمر وتيرة الخسائر في الجيوش الغازية كلما طال أمدّها على أرض الإسلام حتى يتم التفجر الهائل لوجود الأمة.

وإن العالم كله - وعلى مستوى كل بلد، وعلى مستوى العلاقات الدولية - لا يقبل إلاّ أحد أمرين، والثالث وهمّ!

لا يقبل إلاّ أمنًا مشتركًا، أو خوفًا مشتركًا، أما أمن منفرد لمن يسمّون بالأقوياء وحدهم، وخوف وقتل وتشريد واضطهاد وظلم سياسي واجتماعي واقتصادي، وتهميش ثقافيّ للآخرين، فقد أصبح أمام إرادة الشعوب المضطّهدة والجماعات المستهدفة أمرًا مستحيلًا دونه موت هذه الجماعات الذي يعني بالضبط محرقة للجميع.

والمرآنة على قوة السلاح، والاحتياطات الأمنية، والتخدير الإعلامي، وبث الفرقة هي مرآنة على وسائل بدأت تفقد مفعولها أمام وعي الشعوب وصلابة تصميمها، وصارت أمام حالة من نفاذ الصبر على الضيم والهوان.

١- هتاف جموع المصلين بـ (لبيك يا روح الله).

٢- خطبة الجمعة رقم (٢٥٥) ٢٦ شهر رمضان المبارك ١٤٢٧هـ، ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٦م.

فالرشيد من الحكام والساسة على مستوى العلاقات الدولية، وعلى مستوى الوضع الداخلي لأي بلد من البلدان هو من طلب لبلده الأمن والتقدم والحياة المستقرة، وتحسّن الأوضاع في العدل لا الظلم، وبالفعل الصادق لا القول المراوغ، وبالإعتراف بالآخرين لا الاستخفاف بهم، وبمدّ يد الصداقة لا العداوة، وب تقدير القيم لا هدرها.

ودروس الحياة القائمة في كل مكان تؤكد هذا المنطق، وتبرهن على هذا الطرح.

ويكفي درسًا لإسرائيل، ودرسًا لأمريكا، ودرسًا للعالم كله، ودرسًا لهذه الأمة التي تستضعف نفسها، قبل أن يستضعفها عدوها، ونحن في ذكرى انتصار المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان أن إسرائيل لم تصمد طويلاً أمام أمام نخبة مؤمنة، فئة تربت على الإيمان ولم يكن بيدها سلاح كثير الفاعلية بما يكافئ فاعلية السلاح الإسرائيلي والأمريكي، ويزيد عليه أضعافاً مضاعفة إلا سلاح الإيمان، وسلاح الإيمان فاعليته غير محدودة، وغير موقتة، وفاعليته لا تشتري بالأثمان.

سلاح الإيمان له منبع ثر من داخل الضمير الذّاكر لله، الموصول بحب الله، المستقي العزة من عزة الله سبحانه وتعالى.

إنه درس للعالم كله بأن هذه الأمة لا يمكن أن تهزم إلى الأخير، وأن هذه الهزيمة مؤقتة، وقبل أن ينتفض المارد الإسلامي في داخل الإنسان المسلم، وقبل أن يستقيم الشباب المسلم، وقبل أن يفيق الشباب المسلم على أنه مخدوع بالفكر الآخر، على أنه مخدوع بالأخلاقية المهترئة المستوردة، على أن إيمانه مستهدف، وأن عزة الأمة مستهدفة من خلال استهدافه، وقبل أن تفيق الشابة المسلمة، والمرأة المسلمة، وتلتفت إلى قيمة الحجاب والعفة والمواقف الصلبة، إلى الإصرار على المبدأ، الإصرار على درب العزة والكرامة والشرف والجهاد.

ويوم أن تفيق الإرادة الإسلامية في نفس الشاب المسلم، وفي نفس الشابة المسلمة، في الرجل الكهل، في المرأة الكهله، في كل الأعمار حينئذ لن يبقى بيد العالم كله سلاح

يمكن أن يقهر إرادة الأمة.

وليتعلم حكام الأمة، ولتتعلم الأمة نفسها أن الحكام خانوا الأمة حين أخذوا بها بعيداً عن طريق الإيمان، وإلا فما معنى أن الأمة العربية كلها تقف خاسئة أمام إسرائيل، ثم إن المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان قد استطاعت فعلاً بما في يدها من سلاح الإيمان أن تقهر إسرائيل، وأن تطردها؟!

وإن ثورة الحجارة في فلسطين لن تهدأ، ولن تفيد المساومات، ولا المغالطات، ولا المؤامرات في إيقاف هذه الثورة، وستواصل دربها حتى تكتسح الظالم، وحتى تظهر الأرض المحتلة من دنس أقدام الصهاينة الغاصبين.

ولتتعلم الأمة أن تطالب دائماً وأبداً في أول ما تطالب به أنظمتها وحكامها بالعودة إلى الإسلام، وبالقرب من خط الله سبحانه وتعالى، وبعدم تمييع الأمة، وبعدم بناء اقتصادي ولو عملاق على حساب شرف الناس، على أنقاض شرف المرأة، على أنقاض شرف الرجل، وأؤكد لكم أن أي اقتصاد عملاق يقوم على أساس من سرقة شرف الآخرين، فإنه لن يصير إلى جيوب المستضعفين، وإنما هو دائماً سيصب في جيوب المستكبرين.^(١)

الفصل الثالث عشر

الصحوة الإسلامية و(الرَّبيع العربي)

(١)

رياح التغيير

هذا الذي يعرض للأجواء السياسية في البلاد العربية هو من رياح التغيير العاتية، والزلازل العنيف، والظوفان الجارف، والتحوّلات الكاسحة.

ما يحدث ليس صدفة، ولا مفاجأة كاملة، ولا شذوذاً في سير التاريخ، ولا خروجاً عن سُننه.

المقتضي موجود، والموجب تام، والسبب قائم في جور الأنظمة، نهبا للقيمة الشعوب، سياسة الإذلال والهوان، تهميش الأمة، بيع المقدّرات، التّكرُّ للهويّة، سحق الكرامة، بيع الأوطان، الفساد والإفساد الشامل.

وإذا كان مانع من التغيير، فهو على ما هو عليه لم يتغير، وهو قهر الأنظمة، بطشها، تمسكها بالحكم بأيّ ثمن تجده على الإطلاق، استهزاؤها بإرادة الشعوب.

والثّابت أنّ المانع على شدّته ليس إلى الحدّ الذي يُعطّل رياح التغيير، ويؤجّل الزلزال، ويحوّل بين الطوفان وبين أن يبدأ، ويمدّ في عمُر الباطل لو حصل شرطُ التغيير.

مسألةُ بداية التغيير، وزحفه، وحدوث الزلزال، واشتداده، وانطلاق الطوفان، واكتساحه مرهونة بانهدام حاجز الخوف والرعب الذي أقامته ومثّنته الأنظمة السياسية الجائرة في نفوس أبناء الأمة، والحرص على الحياة الدّنيا وإن كانت شحيحة ذليلة في نفوس الشعوب، ومرهونة بإدراك الحالة البائسة حتى لمن كان شعبان من الناس، وانفتاح الأمل بعد اليأس المقيت.

أما رشد التغيير، وتحقيقه للأمال العريضة، وانضباطه، وأمنه من الحرف والالتفاف عليه، ويُسرّه وانسيابيته بدرجة أكبر وأضمن، فيحتاج إلى شرط القيادة الموحّدة الكفوءة الرشيدة الأمينة الشجاعة النابعة من ضمير الأمة، المنسجمة مع آمالها، المجسّدة لرؤيتها، التي لا ينقصها الوفاء والإخلاص، والتقدير الدقيق.

وقد تجسّد هذا الشرط في مثل قيادة الإمام الخميني (رضوان الله عليه) في ثورته العملاقة أمام طغيان النظام الشاهنشاهي المقبور.

على أن أي تغيير صالح في الأنظمة الفاسدة تتوفر عليه الشعوب هو خير، وإن لم يبلغ كلّ ما تبلغه ثورة تامة المقوّمات، مكتملة الشروط.

شرط التغيير، وانطلاق الطوفان حصل في تونس، ومصر، وله بوادره القوية في بلدان أخرى.

وهو الشيء الجديد في درجته القويّة الواسعة فيما استجدّ في مسألة التغيير، ولمنّبّه وآخر، وبرحمة من الله وعجلّ توسّع الإحساس بضرورة التغيير، وانتفضت النّفس مستعلية على خوفها، وقبولها بالهوان، مسترخضة حياة الدّلة والخسّة، فكان التغيير.

والطوفان بدأ لا يهدأ، ولا ليقف عند حدّ بلدٍ وشعب، وهو غير قابل للالتفاف والمغالطة، والتخدير، والتأجيل.

ومن التغيير ما يكلف البلدان الكثير من الخسارة على مستوى الإنجازات والإنسان، ومنها ما هو دون ذلك.

والمسألة ترتبط بحكمة الأنظمة وتعقّلها، ومبادرتها في الاستجابة لضرورات النّاس ومطالبها العادلة السياسية وغيرها، والاعتراف العملي العاجل بكرامة الشّعوب وحقوقها في شكل الحكم وسياسته.

وقد رأينا أنّ ما يُمتنع عن إعطائه للشعوب اليوم لا ترتضيه غداً على مضاعفته، وأن الذين يتدّرعون بالأوان من التدّرعات، ويعتذرون بألف عذر عن الإعطاء للقليل، والتغيير في حال السّعة، يعلنون عن استعدادهم للإعطاء الواسع، والتغيير الكثير إذا ضاقت بهم الأمور، وعند فوات الأوان.^(١)

بين ربيع وخريف!

الوطن العربي بين خريف حارق لكلّ أخضر ويابس على مستوى العقول والقلوب

١- خطبة الجمعة (٤٣٨) ٧ ربيع الأول ١٤٣٢هـ، ١١ فبراير ٢٠١١م.

والضماائر، وإرادة الخير والإبداع الكريم في الإنسان، وعلى مستوى السّاحة الخارجية، وكلّ مظاهر الحياة.

بين ذلك وبين ربيع بدأت نسائمه تهبّ عبقة ببشائر الحياة.

طال الخريف العربي حتّى كاد أن يقضي على الحياة، إلّا أن الأرض العربية بدأت تستقبل الربيع، وتعيش مظاهره في واقع الشعوب وحركتها.

والخريف العربي، والجمود في الواقع العربي الرّسمي لا زال يقاوم بشراسة ودهاء، وإمكانات وخزائن هائلة حركة الوجود، وانبثاق الحياة في الأرض العربية.

وما بيد الوجود الرسمي من خزائن وجيوش وإمكانات إنّما هي مُلك الأُمّة، وكلّ إمكاناته التي يُواجهها بها من صنع ثروتها وأيديها.

الحركة حركة شعوب لا حركة أنظمة من ذاتها، ولا حركة لأيّ نظام عربي بمقدار خطوة إيجابية صغيرة إلا بتحريك من الزلزال العربي على مستوى الشعوب.

دور الأنظمة دور مُقاوم، مُجهّز، مبطل، محرّف، متحايل، سارق لحركة التغيير ونتائجها.

المستقبل لأيّ؟

حالة الجمود، أو الإصلاح والتغيير؟

لبقاء الخريف العربي الذي طال؛ ليدمر كلّ شيء من خير هذه الأُمّة، ويحرق كل أوراقها، ويأتي على كل أخضر ويابس، ويهلك الحرث والنسل؟

أم لانتعاشة الربيع العربي، وازدهاره، وقوة الأُمّة، وعزّتها، وريادتها؟

الجواب: ليس خفيّاً على أحد حسب مؤشّر الأحداث، وما جدّ في حياة العقول والنفوس ومستوى الإرادة عند إنسان أمتنا.^(١)

(٢)

المنطلقات والأسباب

منطلقات الثورات العربيّة المعاصرة

كلّ التحركات الإصلاحية، والثورات التّغييرية في الساحة العربية منطلقتها الروح الوطنيّة التحرّرية، ومبعثها الظلم والتهميش واحتقار إرادة الشعوب الذي تمارسه الأنظمة الحاكمة.^(١)

إذا حصل السبب حصل المُسبّب

فلسفيّاً وخارجيّاً إذا حصل السبب حصل المُسبّب.

وهو قانون سارٍ في عالم الطبيعة والاجتماع، والسياسة والاقتصاد، ومختلف جنبات الحياة والوجود.

والمجتمع الذي ينقسم إلى ظالم ومظلوم، ناهبٍ ومنهوب، سالبٍ ومسلوب، قاهرٍ ومقهور، آمنٍ وخائف، مترفٍ ومحروم، لا بد أن يكون منشأً للصراع واحتدامه.

ومجتمعات الأرض اليوم - إلا ما ندر منها - تعيش هذا الانقسام المنتج للصراع، المؤجج له.

وحالة الانقسام المرّضي هذه لا بدّ منها في غياب الدين الحق، والقيم الخلقية الأصيلة عن عالم السياسة والاجتماع.

وتعاني المجتمعات العربية بصورة فظيعة من هذا الواقع السيئ من الانقسام، وتتقدم على مجتمعات كثيرة في العالم في هذا المضمار.

١- خطبة الجمعة (٤٤٠) ٢١ ربيع الأول ١٤٣٢هـ، ٢٥ فبراير ٢٠١١م.

وتكرّس هذا الواقع حكومات مستبدة لا تقيم لشعوبها وزناً بمقدار مثقال، ترى أن الأرض لها، ترى الثروة مختصة بها، وإنسان الأرض رقاً تحت يدها، لها التصرف فيه كيف تشاء، وليس له في قبالها شئ من حقوق.

طعامه، شرابه، ملبسه، مسكنه، تعلّمه، بقاؤه حياً دون تصفية جسدية منّة منها. إنَّ قَصْرَ في شكر هذه المنّة، فلم ينحِن، ولم يُسَبِّح باسم الحكومة المنعمة عليه بها حقّ عليه العذاب.

توقيت الانفجار

الظاهرة قديمة، فلماذا لم تنفجر الثورات قبل اليوم؟

والظاهرة ليست بنت اليوم، وإنما قد ترسّخت طويلاً، ومكنّتها في الأرض عامة، وفي الأرض العربية بالخصوص طويلاً مقيم.

لكن لماذا اليوم لا أمس يرتفع صوت الشعوب، وتكثر التحركات والثورات، ويعلو لهب النار، ويحتدم الصراع؟

الجواب

السّر أن من عناصر العلة انتفاء المانع، فحتى مع وجود المقتضي لا يولد المسبّب في ظل ما يعطل فاعليته.

فالظلم، والنهب، والقهر، والإساءة، وازدراء الشعوب، والاستخفاف بكرامتها، واستعبادها، وتجهيلها، واستحمارها من قبل الحكومات هو ما اعتادته الساحة العربية منذ قديم، ومنذ تنكّرت هذه الحكومات لإسلام الأمة وإنسانيتها.

والتخلّف الفكري، والهزيمة النفسية، وسحق الثقة في النفس، ومحق إرادة التغيير عند الشعوب بفعل سياسة التجهيل والقمع والإذلال، وتحريف الدين، وتحويله إلى أداة تخدير، وتدجين واستسلام لإرادة الظالم، كان دائماً هو المعطّل لحركة الشعوب؛ من أجل استرداد حقها وكرامتها.

كان هذا هو المانع من أن يدفع واقع الظلم والاستبداد والأثرة والقهر الذي تمارسه الحكومات شعوب الأمة للتحرك، وقبول ما يتطلبه من ثمن باهظ، وقد شاء الله وَجَلَّ أَنْ يرتفع هذا المانع بحدوث درجة من الصحة الإسلامية التي عمت الأمة، فكان لها منها بعثٌ قوي، وحياة فكر وإرادة ومضاء وروح تضحية من جديد.

وبهذا المستجد في حياة الشعوب كان لا بد من نهضة، ولا بد من إصلاح وتغيير وإن كلف الكثير.

وهذا الذي كان حينه صاحب الحق للمطالبة بحقه، وأصرّ المأسور على استرداد حريته، وأبى المظلوم أن يقرّ للظلم في أرضه قرار، فتداعت التحركات والاحتجاجات والمسيرات والثورات في مختلف البلاد العربية، وتنادت صيحات الإصلاح والتغيير هنا وهناك، وجنّ جنون الحكومات، فلجأت إلى كل سلاح فتاك؛ من أجل إسكات صوت الشعوب.^(١)

جور الحكومات

الحكومات وظيفّة؛ من أجل أمن الشعب، نُظِم أمره، لَمَّ شمله، حماية دينه، ونفوس أبنائه وبناته، تطوير اقتصاده، وثروة وطنه وتوظيفها لغذائه وصحته، وتقديمه العلمي، والاجتماعي، وتحسين بيئته، وتوفير الخدمات المدنية التي يحتاجها، والتقدم بكل أوضاع حياته.

أما عن واقع حكومات كثيرة فقد صار مطلوبها شعباً بلا أظافر، بلا عقول، بلا إرادة، بلا اعتزاز بذات، بلا رأي، بلا شوق للحرية، بلا إيمان بالكرامة، بلا تطلّع لحياة مريحة، بلا أمل، وحتى بلا لسان.

صار مطلوبها شعباً مستسلمة مستكينّة، متنازلة عن حريتها أو لا تؤمن بهذه الحرية أساساً، وكل إيمانها بالحرية المطلقة للحكومات في أن تفعل فيها ما تشاء، وتختار لها ما تشاء، وأن الحكومات مالك مطلق للأرض والشعب وكل الثروة، وأن على الشعوب

١ - خطبة الجمعة (٤٦٨) ١٠ شوال ١٤٣٢هـ، ٩ سبتمبر ٢٠١١م.

أن تكبح جاهدة؛ لثراء حكوماتها التي إن شاءت أن تتصدق عليها بما يقيم أودها؛ لتقوى على خدمتها كان ذلك منها إحساناً، وإن شاءت أن تقبض يدها فهي تمارس حقها الطبيعي، ولا مورد لأي اعتراض عليها.

المطلوب لهذه الحكومات شعبٌ يُسَبِّح باسم حاكميه ليلاً ونهاراً، وينسى ذاته ورببه ودينه وقيمه، وضروراته، وحاجات حياته، ويكون بلا أمل، ولا أمنية، ولا تطلُّع.

وهذا هو الواقع الذي تُعاني منه شعوب هذه الأمة، ويثير تحركات أقطارها، ويفجر ثوراتها، ويسقط حكومة تلو حكومة، ونظام تلو نظام من حكوماتها وأنظمتها.

وهو الواقع الذي ألم هذا الشعب، وأنفذ بثقله ومرارته البالغة صبره، وجعله يدفع من أمنه وماله وجهده ودمه، ويركب الصعاب، ويتعرض لما يعز عليه من مهانة الأعراض، وأذى النفس؛ ليكون في الوضع الإنساني والحقوقى الصحيح، ويملك اختيار طريقه، وأسلوب حياته، ويسترد حريته، وتُصان كرامته.

وهذا الواقع المرفوض عقلاً ودينياً ووجداناً، والذي يحرك جميع شعوب الأرض اليوم؛ من أجل الانعتاق، واسترداد الحرية والكرامة هو الذي يغذي كل التحركات الشعبية، ويدفع بها إلى الأمام، ويعطيها الدوام والاستمرار، ولا يأذن لها بالتوقُّف، ويجعل الأثمان الغالية في سبيل التخلص منه زهيدة رخيصة.

وشعبنا شعبٌ من شعوب الدنيا ومن أوعاها وأشدها صبراً وإباءً وغيره وتحملاً، وإحساساً بقيمة ذاته ودينه وشرفه.^(١)

استرداد الحقِّ السياسي

كل المشاكل الحقوقية إفراز طبيعي للمشكلة السياسية، للتهمة السياسية، للإقصاء السياسي، للاضطهاد السياسي، لدستور واجهه الرفض الشعبي قبل ولادته ويوم ولادته، وفرضته القوَّة على الواقع رغم الإرادة الشعبية، وظل رفضه قائماً إلى اليوم.

والحق السياسي هو أول حقٍّ للشعب في العلاقة بينه وبين الحكومة، والحقُّ الأساس الذي لا يسلم معه أيُّ حقٍّ آخر من حقوقه مع سلبه.

ولا يمكن أن يُضمن استرداد الحقوق الأخرى المسلوبة في ظل استمرار سلب هذا الحق.

الشَّعب الذي لا رأي له في دستور حكمه، ولا القوانين التي تنظّم حياته العامة، ولا تمثّله سلطة نيابية منتخبة انتخاباً حرّاً عادلاً، وتمارس صلاحياتها النيابية كاملة في ضوء قنوات شعبها المرتكزة إلى دينه وشريعته، وتقوم بدورها في الرقابة والمحاسبة وطرح الثقة نازرةً إلى مصلحته.

الشعب المجرّد من كل ذلك كيف يمكن له أن يُحافظ على حقوقه، ويحمي نفسه من انتهاكات السُّلطة المتفردة التي تملك القوّة، وتتحكّم في الثروة، وتُشرّع كما تشتهي وتهوى؟!

ما لم يسلم هذا الحق السّياسي، فلا سلامة لأي حقٍّ من الحقوق، وما لم تُحلّ المشكلة السياسية، فلا حلّ لأي مشكلة من المشاكل.

وكلّ الشعوب العربية اليوم متوجهة لاسترداد حقّها السياسي، ومَن لم يرتفع صوته مجلجلاً من هذه الشعوب بالمطلب السّياسي مُبكراً لظروفه الخاصة، فهو في طريقه لأن يوصل صوته إلى كل العالم بهذا المطلب.

وأيُّ دائرة إقليمية تحسب حكوماتها أنها معفية من المطالب بهذا الاستحقاق الشعبي فهي واهمة جدّاً، ولا بدّ للصّمت أن يخترق، وللقيد أن ينكسر، وللحق أن يعلو، وللشعوب أن تتنصر.

كلّ الشعوب التي عاشت الحراك الثّوري، والسياسي لم يتراجع أحدها، والشعوب الأخرى في تتابع في لحاقها بهذا الحراك؛ لتزيد من قوّته وفاعليته، وتُصاعِد من فورانه وتأثيره.

صار المطلب السياسي يملأ واعية هذه الشعوب، ومنها شعب البحرين، ويمثّل همها، وحاجتها العملية، ويملك عليها شعورها، ولم يُعدّ خاطرة عابرة، وحلمًا ممّا يداعب الخيال.

وهو بذلك أقوى من أن يشهد تراجعًا، أو يُلتفّ عليه، أو تشغّل عنه الدعايات، والاختلاقات، والمغالطات، أو تصرف عنه المسرحيّات والترّهات.^(١)

تحركت الساحة العربية بصورة واسعة؛ لتصحيح وضع العلاقة الظالم بينها وبين حكوماتها، أو التخلص منها نهائيًا بإلغاء النظام أو الحكومة كما في بعض هذه التحركات، وقد أسقط عدد من الأنظمة، وطُوّيت صفحته من الواقع تحت ضغط الشعوب.

وكل الحكومات والأنظمة التي واجهتها موجة الاحتجاجات والانفضاض والثورات في الساحة العربية أبدت درجةً من اللّين والمرونة والاستجابة لمطالب شعوبها، وذلك على مستوياتٍ سياسيةٍ متفاوتة، ولا زالت الشعوب تطالب بالمزيد لإيمانها بأن الاستقرار الحقيقي لا تحقّقه الحلول الشكلية، والمعالجات الهزيلة.

وحتى الجزائر التي لم تتصاعد فيها حركة الاحتجاجات، ولم تتسع رُقعته، يعلن النظام فيها عن تبني نوعٍ من الإصلاح للدستور تحسُّبًا لما ينتظره الوضع هناك من تفجّرات، وإن كان بعض دعاوى الإصلاح تخديرية وليست ذات مضمونٍ جدّي مما يُمثّل حلًّا حقيقيًّا.

وفي الكويت الخليجية تحضير عملي، وخطوات على الأرض لنوعٍ من الإصلاح السياسي المطلوب.

فهل البحرين التي عاشت المطالبة بالإصلاح السياسي لسنوات وسنوات، واشتدّ الحراك الشعبي فيها لهذا الهدف بدايةً من الرابع عشر من فبراير، وبذل الشعب في سبيل ذلك ما بذل من أثمان باهظة، والحكومة على تصلّبها؟

١- خطبة الجمعة (٤٧٨) ٢١ ذو الحجة ١٤٣٢هـ، ١٨ نوفمبر ٢٠١١م.

هل البحرين والحال هذا تعتبرها الحكومة خارج السياق العربي كله، وأنها المستثنى الوحيد الذي لن يكون فيه إصلاحٌ لوضعه السياسي، ولن يَمَسَّ وضعه السياسي تغييراً أو تعديل؟

استمرار الاستثناء مستحيل، والمماطلة بالإصلاح فيها تصعيد، وتأخيرها لا يضاعف الكلفة المدفوعة من الشعب وحده، ولا يخفّض من سقف المطالب، فحسب كل تجارب الحراك العربي، وحسب الحراك المحلي، كلما مضى الوقت تعقّدت الأمور، وكلما دفعت الشعوب تضحيات أكثر كلما ارتفع سقف مطالبها حتى استحال الالتقاء في عدد من النقاط من الساحات العربية على نقطة مشتركة، وحسب عدد من هذه التجارب.^(١)

التَّطَلُّعُ للحياة الأفضل

تحرك عددٌ من الشعوب العربية في سبيل واقع جديد، وحاضرٍ مشرّف، وغدٍ أفضل ينطلق من إصلاح الوضع السياسي الظالم في الأمة وتغييره، ومن تحقيق الانعتاق من الأسر الخائف الذي تُعاني منه شعوب الأمة على يد الأنظمة السائدة، وحالة التهميش التي تفرضها عليها، والاستخفاف الذي تتعامل به معها؛ إذ كل جنّبات الحياة عند الإنسان يصيبها الضرر، والتصدّع، والتأثر بسبب سوء الوضع السياسي، والخلل الداخل عليه.

للحرية، للكرامة

تحرك هذا العدد من هذه الشعوب؛ لاسترداد كرامة الدين، والإنسان، وحرّيته، وإنقاذ الثروات الوطنية من يد العبث، والنهب، والتلاعب. وهو تحركٌ لا رجعة فيه إلى الوراء، ولا انحسار.

وشعوب الأمة التي لم تلتحق بعدُ بحراك الإصلاح والتغيير لاحقةً به لا محالة. وقطار التغيير مواصلةً انطلاقته إلى آخر الطريق، ولن توقفه قوّة غاشمة، ولا تحايل ولا مكر ولا كلّ الأعيب السياسية، ولا موقف دولةٍ صغرى، ولا دولةٍ كبرى في الأرض كلّها على الإطلاق.

منطلق الصَّحوة الإسلاميَّة

ربيع الثورة العربي، وحركات الإصلاح إنما وُلد كلٌّ ذلك من رحم الصحوة الإسلامية التي سرت في روح هذه الشعوب، وكلما حضر الإسلام في وعي شعبٍ وشعوره كلما امتنع أن يردَّ هذا الشعبُ رأًى عن طريق العزَّة، والكرامة، والحرِّيَّة، والمطالبة بالحقوق، والتَّغيير الصَّالح، والانعتاق.

منطلق الربيع العربي مخزونٌ من الشعور بالقهر والإذلال والحرمان والتهميش والكبت، وفقد الأمن.

وكل ذلك من عطاءات النظام السياسي العربي الغاشم.

منطلقه هذا المخزون، وتلك الصحوة التي بعثت الوعي، فأحيت الضمير، وحركت الإرادة، وألهبت الشعور.

والنجاح الحقيقي لحركات التغيير والإصلاح، وتحقيقُ مستقبلٍ زاهرٍ كريمٍ رائدٍ للأُمَّة مرهونٌ باستمرار هذه الصحوة وتعمِّقها، وصِدْقِيَّتِها في ميزان الدِّين، وشدتها وتوسعها.

مع استمرار هذه الصحوة وتصاعدها، يستحيل على أيِّ نظامٍ من أنظمة الحكم الظالمة أن يكون في منأى عن المواجهة والمطالبة بالإصلاح والتغيير.

وفي ظلِّ الواقع الجديد لشعوب الأُمَّة لم يبقَ أمام الأنظمة الحاكمة المناهضة للإصلاح والتغيير إلا أن تستبدل عن شعوبها، أو تستجيب لإرادتها.^(١)

أُمَّة تعود إلى ماضيها

أُمَّة الإسلام اليوم تعود لماضيها؛ لتُحيا لا تموت، لتتحرك للأمام لا لتجمد، ولا تتراجع إلى الخلف، لتتجدد لا لتتقادم.

١- خطبة الجمعة (٤٨٤) ٥ صفر ١٤٣٣هـ، ٣٠ ديسمبر ٢٠١١م.

أُمَّةُ الإسلام تعود لماضيها عودة حياة لا موت، حركة لا جمود، تقدّم لا تراجع، تجدّد لا تقادم؛ ذلك لأنها عودة لقيادة الإسلام، قيادة القرآن، قيادة الرسول ﷺ.

وهي قيادة؛ لأنماء الحياة، ولإثرائها، لتدقّقها، لتقدمها، للارتقاء بها، لتخليص حركة الإنسان في إنسانيته الكريمة، وفي إنجازاته المثمرة، وإبداعاته واكتشافاته وإضافاته النافعة من كل معوّقاتها، والدّفع بها إلى الأمام على الخط القويم.

وإنّ عودة الأُمَّة إلى هذه القيادة فيها صحتها، وحياة عقلها وإرادتها، وفيها حيويتها ونشاطها، وعزّتها وثقتها بنفسها، وقوّة عزيمتها، وحريتها واستقلالها، وإباؤها ورشدها وهداها.

وشعبنا وهو من أشدّ شعوب هذه الأُمَّة ارتباطاً بالإسلام، وانشداداً إلى رؤيته، واعتزازاً به يعود اليوم بقوة إلى إسلامه، وعزّة الإسلام، وقيم الإسلام، وأحكام شريعته، وهدى القرآن العظيم، وقيادة الرسول الكريم ﷺ. (١)

وبهذه العودة المباركة صار لا يستثقل في سبيل حريته وكرامته، واسترداد حقوقه المسلوبة، وردّ اعتباره إليه من البذل والتضحية ما ثَقُلَ، ولا يئنُّ من التعب الذي تثنُّ منه النفوس القوية، ولا يستبطئ النصر وإن أبطأ، ولا ييأس من الظفر وإن تأخّر، ولا يشكو من قلة الناصر وإن عَزَّ، ولا يفكر في التراجع وإن طال المدى، ولا يتنازل عن شيء من مطالبه وإن قست الظروف، ولا يُغيّر من قناعته أن تتكرّر لحقه كلّ الدنيا (٢). (٣)

١- شعبكم أنتم.

٢- أي لن يصل بكم أحد إلى حد الضعف والتسليم إلى عملية الاستضعاف.

٣- خطبة الجمعة (٤٧٧) ١٤ ذو الحجة ١٤٣٢ هـ، ١١ نوفمبر ٢٠١١ م.

(٣)

الانفجار

ظاهرة مشتركة

تمثّل الربيع العربي في عدد من الحركات والانتفاضات والثورات في طول الساحة العربية وعرضها، وعلى مستوى الكثير من دولها، وإشترك كل هذا في ظاهرة بيّنة ثابتة، تلك هي: إن المطالبات الشعبية تبدأ بأسلوب سلمي، وبسقف متواضع فتُقابل بقمع السلطة وإرهابها، وإسالة دم أبناء الشعب والجرح والقتل، فلا يلبث سقف المطالبة أن يرتفع، وتتسع رقعة الاحتجاجات، وتعمّ المظاهرات والمسيرات، وتحدث التمرّكات الشعبية الكبيرة، ويزداد قمع السلطة، ويغزر سيل الدماء، وتعمل قوى الأمن الحكومية والجيش على دفع جماهير الشعب إلى فقد الصبر، والخروج عن دائرة الأسلوب السلمي دفاعاً عن النفس؛ لتتخذ الجهة الأخرى من ردّة الفعل الشعبيّة مبرراً للاستباحة العامة على حدّ ما ينقله التاريخ من استباحة مدينة الرسول ﷺ في حكم يزيد بن معاوية إلّا أنّ الزمن في تجارب بعض الأنظمة العربية هذه الأيام يمتدّ وضع الاستباحة لشهور طويلة في تنكّر تام لقيم الدين، وضوابط الشريعة، والقانون والعرف المحلي والعالمي، وكلّ المقدّرات والمواضع الإنسانية.

وفي النهاية قد يُصرع النظام كما في التجربتين التونسية والمصرية، وقد تطول المنازلة بين الطرفين؛ لتزيد خسائر الأوطان، وتطول محنة الجميع، وتتكبد البنى التحتية في البلاد ما تتكبّده من تصدّعات وشروخ خطيرة.

ومن الشعوب من لا يُخرجه عن خياره السلمي، وقليل هو هذا النوع.

وفي الثبات على الخيار السلمي رحمة بالأوطان، وحجة تدين الأنظمة، وإن تطلّب

ذلك صبراً كبيراً، وتحملاً للمعاناة المُرّة.^(١)

ظاهرة طافحة

تكوّنت في الساحة العربية في البُعد السياسي والأمني في العلاقة بين أنظمة الحكم والشعوب ظاهرة واضحة طافحة تتكرر بمشاهدتها الثابت والتي قد تختلف في بعض التفاصيل التي لا تضر بوحدها النوعية في كل مواطن التحرك الحقوقي والثوري من البلاد العربية، تبدأ هذه الظاهرة تحت ظروف الابتزاز الرسمي للشعوب، وسلب حقوقها، وقهر إرادتها، والتلاعب بمصيرها باحتجاجات، وتجمُّعات، ومسيرات، واعتصامات للمطالبة الحقوقية، وتحسين الأوضاع.

تُقابل هذه البداية بالاستهزاء، والتزوير، والعنف المفرط، والاتهامات الظالمة، والتلفيق الكاذبة العارية.

وتأتي الضحايا من أبناء وبنات الشعوب الأبرياء متوالية، ويتعاظم عدد الشهداء؛ ليكون الصاعق المفجّر للأوضاع بصورة مُرعبة، وليدخل الساحة في صراع مصيري لا هوادة فيه.

القليل من الأنظمة مَنْ يتغلّب على غرور السلطة، ويستجيب جزئياً لإرادة الإصلاح قبل تفجّر الأوضاع، وصعوبة أو استحالة تداركها لكسر حِدّة التوتر الشديد، وتراجع حالة الغليان؛ ليستريح الوطن بعض وقتٍ في ظل هدوءٍ نسبي للأوضاع.

والكثير من الأنظمة لا يملك نفسه أمام غرور السلطة، ولا يسمع لنصح عقل، ولا يُصغي لتقدير مصلحة، وإنما يلجأ؛ للإفراط في استعمال القوة؛ لينتصر للمعارضة على نفسه، ويرفع من مستوى رصيدها الشعبي، ويزيد من أضرارها، ويُجرّئ عليه قوى جديدة واسعة كان يأمل أن تُحيدها فاعلية السلاح، إن لم تكن طوع يده في ضرب المعارضة.

في ظلّ هذا النوع من ردّ الفعل الرسمي ينتقل الوضع إلى حالة المفاصلة العملية التامة، والثورة الشّاملة، التي منها ما لا يغادر حالة الأسلوب السلمي، وهو قليل، ومنها ما يقابل العدوان بعدوان مثله ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ولحدّ الآن بالنسبة للسّاحات التي بدأت تحرُّكاً جديّاً في المواجهة مع ظلم الأنظمة لم نجد شعباً قد تراجع، وقد وُجد تراجعٌ بدرجة وأخرى في أكثر من نظام، وإن كان ذلك في عدد من التجارب بعد فوات الأوان حتى كانت أخسّ نهاية يحاذر منها النظام، وأساء ما كان يَفِرُّ منه، وهو السُّقوط، والهروب بالجُلْد، والظهور في قفص الاتهام.

والعقل، والمصلحة، وراحة الأوطان، وما يتمنّاه أهل الحكمة والإخلاص هو خيار الإصلاح الشامل لا السلاح الفتاك، والمبادرة بالإصلاح المُرضي للشعوب، لا الاستمرار في إلهاب مشاعر الناس بزيادة القتل والفتك حتى تَقْلَت كلّ الأمور، ويُقضى على جميع فرص التفاهم، وتغلّق كل أبواب العودة، وتُسَدّ الطرق أمام أيّ حلّ يجمع بين إرادة الطرفين.

وأوضح ما تُجمَع عليه تجارب الساحة العربية منذ بداية الربيع العربي هو أن تراجع الشعوب إلى الوراء صار شيئاً ميثوساً منه على الإطلاق، وذلك لعدد من الظروف والمتغيّرات في مستوى الشعوب، وما ذاقَت على يد الأنظمة الحاكمة من ويلات وكوارث ومذلّة.

والتركيز على الإصلاح الجدي لا المازح، والشّامل لا الجزئي، والجذري لا السّطحي إنّما هو لكونه حقّاً أولاً، ولأنّ مَنْ يريد لأيّ وطن أن يستريح طويلاً، ويجعل أجواءه قابلة للتفاهم عند الخلاف لا يجد من هذا النوع من الإصلاح بُدّاً، ولا عثور له على بديل له يُحلُّ محلّه.^(١)

(٤)

الدُّروس

درس بعد درس!!

درس بعد درس، وعظة بعد عظة، وعبرة بعد عبرة يقدمها قضاء الله وقدره القاهر هذه الأيام^(١)؛ فأين المعتبرون؟!

يتساقط أهل القوة الباطشة، والقبضة الحديدية على الشعوب، والسلطة المتفردة واحداً تلو الآخر في مصائر سوداء مخزية، ومشاهد ذليلة من شأنها أن تكسر جبروت الطفلة، وأن تُلَقِّن أهل الأرض جميعاً دروساً من سلطان الله الذي لا يُقهر، وقَدْرُه الذي لا يردُّ، وأخذه الذي لا يقاوم، وأن تذكر ما عليه الشعوب من قوَّة إذا جدَّ جدُّها، ومن انتصار الله سبحانه لإرادة المظلومين، ودحر الظالمين.

على مستوى الساحة العربية، قبلُ شهد العالمُ المصيرَ الأسود لسفَّاح العراق، وفي هذه الأشهر القليلة فرَّ بجلده طاغية تونس، وشوهد فرعونُ مصري في قفص الاتهام، واليوم يُطارَد مغرور ليبيا، وأكثر من طاغية يشعر بالتهديد الجدِّي، والأرض في نقمة تهتزُّ من تحت قدميه، وقضية الرحيل الكثيب المخزي تلتفُّ حول عنقه.

أوليس هذا بكافٍ للاستفادة من الدرس، واتخاذ العظة، وحسن الاعتبار؟^(٢)

يا رجال أنظمة الحكم الظَّالمة

إذا أردتم أن يبقى لكم ظلمكم واستئثاركم بكنوز الأوطان، واستعبادكم للنَّاس، فاقتلوا شعوبكم، واستبدلوا عنها شعوباً ميتةً ذليلة، تقبل الأسر والاستعباد.

ولن تجدوا بديلاً في الأرض اليومَ من هذا النوع.

١- يتحدث سماحة الشيخ عن أيام ما يُعرف بـ«الربيع العربي»، حيث نشبت الثورات الشعبية العارمة في وجه الأنظمة الجائرة.

٢- خطبة الجمعة (٤٦٦) ٢٥ شهر رمضان ١٤٣٢هـ، ٢٦ أغسطس ٢٠١١م.

شعوبكم العربيّة المسلمة صار يستحيل عليكم بعد صحتها، وعلى من هو أشدُّ منكم وأقسى أن يحكمها بالحديد والنار، ويقتل إرادتها، ويخمد في داخلها روح الثورة، وطموح الإصلاح والتغيير.

سبيلكم الوحيد إذا عزَّ عليكم الإصلاح والتغيير أن تحصدوا هذه الشعوب حصداً إلى آخرها إن أمكنكم ذلك، ولا تستطيعون.

والأفان أيّ شعبٍ من الشعوب التي حرّكها الشعور بضرورة التغيير على ضوء الإسلام لن تتراجع ما دام الدم سارياً في عروقتها، ولن يطول صبر أي شعبٍ من الشعوب المظلومة التي لم تهبَّ بعدُ على الظلم والسكوت.

وكلّ الاحتياطات الوقائية من التغيير لن تصمد أمام هبة الشعوب وعزمتها وجديتها، واستمراركم في الظلم يُفقد شعوبكم الصبر، ويستنهض إرادتها.

على أي حكومة عربية ألا تصدّق نفسها بعد اليوم بأنها ستبقى صاحبة الكلمة الوحيدة، وسيّدة القرار والموقف تتحكم في مصير شعبها كما يحولها، أمّا الشعب فسيبقى مكتوف اليدين، مستسلماً، سهل الانقياد، حاكماً على نفسه بالقصور والملكوتية والعبودية، راضياً بالانبطاح^(١)

غياب الخيار الصحيح

ما أكثر ما يُعيب الخيار الصحيح عند الإنسان في هذه الحياة في ظلّ جهالة النفس التي تغمر العقل، وتُضللّ رؤيته، أو تعزلها عن التأثير فيما يتجه إليه خياره، وهذا سارٍ في شأن القويّ والضعيف، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، وفي كلّ الطبقات.

الخيار الصحيح أن يعترف الإنسان بعبوديته للواحد الأحد، ويظلّ كلّ حياته ثابتاً على طريق هذه العبودية المشرفة.

ومن أشدّ ما يُفقد الإنسان رشده، وهذا الخيار الصحيح أبهة الحكم، وغرور السلطان، وبذخ الملك.

وضحايا هذا الغرور يملأون ساحة الحياة!

كان يسع الذين أطاحت بهم ثورات هذه الآونة أن يعترفوا بعبوديتهم لله سبحانه، ولا يخسروا شيئاً من اللذة الحلال في الحياة، وأن يخرجوا منها كراماً أما جد لا يلعنهم اللاعنون.

وخيار العدل لو كان لرفع لهم شأنًا في الدنيا ما بقيت، وجعل الملايين تودعهم بالدموع، والأجيال تذكرهم في الخالدين.

فلماذا الظلم، والبطش، والنهب، والتعالي يا ذوي السُلطان؟!

إنَّ في مقتل القذافي درسًا واعظًا يُضاف إلى دروس كلّها عظة غنيت بها الساحة العربية في زمن قصير.

عِظَةُ لِلطُّغَاة: بأن لا تَطْلُغُوا فِلْسْتَم آلهة، إنما أنتم عبيد، ولكم يوم محتوم.

وعِظَةُ لِلْحُكُومَاتِ الْبَدِيلَةِ: بأن كونوا أذكاء، فلا تخرجوا من هذه الدُّنيا ملعونين كما ودَّعت مَنْ قبلكم لعنات الملايين.

وعِظَةُ لِعَبْدَةِ السَّلَاطِين: بأن هذا هو مصير آلهتكم المكذوبة، فلا تأووا إلى ركن ضعيف.

وعِظَةُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْض: بأن لا تتسوا أن الإله الحق هو الله، وأنه الرب الذي لا ربَّ غيره، وأنه مهلك الظالمين.^(١)

(٥)

موقفنا

موقفنا من ثورات الشعوب

ونحن مع حرية الشعوب وحقوقها في تقرير المصير، ورأينا ألا مكان لحكومة لا يرضاها الشعب، وأن ليس لأي حكومة أن تفرض نفسها قهراً على شعبها.

نحن مع حق الشعب المصري، والتونسي، والليبي، واليمني، والسوري، والبحريني والشعوب الخليجية، وكل الشعوب في العالم في اختيار حكوماتها، وتقرير مصيرها، وتمتعها بحريتها، وكرامتها.

ولا نختار للشعوب الأخرى غير ما شددنا عليه مراراً بالنسبة للحراك الشعبي في البحرين من الأخذ بالأسلوب السلمي، والنأي بأي بلد من البلدان الإسلامية عن تدخلات الخارج، والتمكين للأجنبي من مصير المسلمين، والتحكم في ثرواتهم، ومقدراتهم، ومقدراتهم.

وهذا الموقف العام هو الموقف الذي يتخذه هذا المنبر من قضايا كل الساحات العربية من غير ولوج في تفاصيل كل ساحة ساحة.

وأنتم تجدون أن كلاً من الساحات العربية قد شغلته أحداثها الداخلية، ومحنة شعبها عن الدخول في تفاصيل أحداث الساحة الأخرى، وإن كانت لا تنفصل بهما عنها.^(١)

وموقفنا مع هذه التيارات والثورات والتحركات، لأنها صادقة ووفية ومخلصة ومخلصة.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤٩٦) ٢٩ ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، ٢٣ مارس ٢٠١٢م.

٢- خطبة الجمعة (٤٤٠) ٢١ ربيع الأول ١٤٣٢هـ، ٢٥ فبراير ٢٠١١م.

(٦)

ثورة البحرين.. امتحان المصداقية للعالم كله

لماذا يا مسلمون؟!

انتهى اجتماع وزراء الخارجية العرب تحت مظلة الجامعة العربية في القاهرة هذا الأسبوع في تناوله للوضع السوري إلى إدانة العنف الرسمي هناك، والمطالبة بإيقافه سريعاً، والاعتماد العملي المفعّل للتعددية السياسية، واحترام حقّ الشعب كلّ الشعب في المشاركة في الحكم، وتمنّع جميع أبنائه بالأمن والحرية والكرامة وحقوق المواطنة كاملة، والتخلّص من كلّ أسباب الفساد المستشري.

ونحن مع حقّ الشعوب في كلّ ذلك، ومع استقرار جميع أهل الأرض، وحرّيتهم، وأمنهم، وخيرهم ورفاههم وانتهاء كل ألوان الظلم والفساد.

نحن لا نستبشع الظلم في حقنا، ونستسيغه في حقّ الغير، ولسنا ممّن إذا أصابه ظلم استاء له، وإذا أصاب غيره استطابت له نفسه.

نحن ندرك أن الظلم في بقعة من الأرض يؤسّس للظلم في الأرض كلّها، وأنّ نظاماً سياسياً عادلاً في دولة من الدّول يمثّل بشارة خير، وببادرة إصلاح، وتغيير سليم في كلّ الدول.

موقفنا دائماً مع الإصلاح في كلّ مكان، ومع التغيير الإيجابي في كلّ الدّول.

جميل أن تذهب الجامعة العربية إلى مطالبة سوريا بإنهاء العنف، وسحب القوّات من الشوارع، وبالتعددية السياسية، والإصلاح الجذري، لكن لماذا هذا في سوريا دون البحرين مثلاً؟

أهذه حقوق إنسانيّة، أو جغرافية؟!

لماذا يُشدّد على هذه الحقوق في قطر أو أكثر من قطر، وتُحرّم نفسها على يد

المتشدد من أجلها هناك في قطر آخر كالبحرين؟!

لماذا هناك مطالبة، وهنا عقاب؟!

دول الخليج دورها في القرار المتعلق بالوضع السوري بارز وريادي، وعدد منها له تواجد عسكري في البحرين لوئد المطالبة بهذه الحقوق، ولتفرغ جيش البحرين لمواجهتها على الأقل حسب الإعلان الصريح.

كيف ينسجم هذا كله بعضه مع بعض؟!

كيف يجوز هذا مُجْتَمِعًا يا وزراء، يا محترمون، يا مسلمون، يا عقلاء، يا عرب؟
افرضونا غير عرب، افرضونا غير مسلمين لكن هل لا إنسانية لنا على الإطلاق؟!
ألستم تتحدثون عن هذه الحقوق بما هي حقوق إنسانية؟!

وإذا كانت هذه حقوقًا فيما ترون - وهي حقوقٌ فعلاً -، فلماذا لا يأخذها المطالب بها الغير حقوقًا على نفسه قبل غيره؟^(١)

عين ترى، وعين لا ترى!

وضع جامعة الدول العربية بالنسبة لظلم الأنظمة العربية ومأساة شعوبها وضعٌ مَنْ له عينٌ ترى وعينٌ لا ترى، أذنٌ تسمع وأذنٌ لا تسمع، العين التي ترى، والأذن التي تسمع متوجهةٌ لأنظمةٍ وشعوبٍ بعينها، والعين التي لا ترى، والأذن التي لا تسمع متوجهةٌ لأنظمةٍ وشعوبٍ أخرى.

بل الأمر أكبر من ذلك، فإنَّ عين الجامعة العربية ترى ظُلم بعض أنظمتها عدلاً، وخطأها صواباً، وتنكيلها بشعوبها حقاً، ومعارضة ظلمها جوراً، ومطالبة شعوبها بحقوقها ذنباً، وحرصها على حريتها وكرامتها إثماً، والمقابلة لصوتٍ شعبي يطالب بالحقوق والحرية والكرامة بكل أنواع القمع والتنكيل والسحق حقٌّ طبيعي لهذه الأنظمة، تُباركه الجامعة العربية، وتقف معه، وتسانده بكل قوة.

١ - خطبة الجمعة (٤٦٩) ١٧ شوال ١٤٣٢هـ، ١٦ سبتمبر ٢٠١١م.

وترى الجامعة العربية أن تترفع عن مقابلة مَنْ يُمثّل المعارضة لظلم هذه الأنظمة المختارة، أو تسمع لهُ وجهة نظر ينقل فيها معاناة شعبه، وما تصب عليه حكومته من ألوان العذاب والمهانة صَبًّا.^(١)

ما لشعب البحرين ومطالبه المشروعة من الجامعة العربية هي هذه العين التي ترى حقّ هذا الشعب باطلاً، ومطالبته بحريته وكرامته تعدياً، وتطلّعه لتقرير مصيره غروراً، وترى في سلميَّته حرباً.

وليس لها عين ترى من ظلم الحكومة لهذا الشعب شيئاً؛ لا من ظلم قتل الأبرياء تحت التعذيب، ولا الاغتيالات للآمنين العاديين، ولا انتهاك حرمة النساء والمساجد والقرآن الكريم، ولا سجن المئات بسبب التفوّه بكلمة ناقدة، أو مشاركة في مسيرة سلمية، ولا حرمان الألوف من أبناء هذا الشعب القليل العدد، ومَنْ يعيلونه من سبب الرزق الشريف، ولا سلب طعم الأمن ليلاً ونهاراً للكبار والصغار من أبناء هذا الوطن، وتحويل مناطق كثيرة من مناطقه إلى ساحة حربٍ من طرف واحد^(٢)، هذا إلى جانب التمييز، والتهميش، والاضطهاد الديني والثقافي وإنسانية الإنسان.^(٣)

كلُّ ذلك لا تراه عين الجامعة العربية، وأذنها صمّاء عن كل صراخ، وتوجع، وأنين طفل أو ثكلى أو معذب من أبناء هذا الشعب.

نحن نعرف أنّ النصر إنما هو من عند الله، وأنّه لا يُستجدي إلا منه، ولا يملكه غيره، وليس بيد غيره منه شيء، ولا يجد من سواه سبيلاً إلى منعه وتأجيله^(٤)، وعلينا أن لا نتوكّل إلا عليه، مع الأخذ بما أمر به من بذل المظلوم لما يجد من جهد في سبيل النصر والخلاص من الظلم.

١- أبوا أن يُقابِلوا وفد المعارضة، أن يسمعوا منه كلمة.

٢- كلُّ ذلك عين الجامعة العربية لا تراه.

٣- الذي تمارسه هذه الحكومة، كل ذلك والجامعة العربية لا ترى.

٤- فنحن لا نستجدي النصر من المخلوقين، وإنما نسأله ونستجديه من الخالق.

ولكنّ هذا لا يتنافى مع إنكار ما عليه موقف الجامعة العربية من هذا الشعب المظلوم، وتذكيرها بأنها تتحمّل مسؤولية ثقيلة بين يدي الله وَعَلَىٰ لهذا الموقف غير العادل وغير الأخلاقي، والبعيد كلّ البعد عن الحق والدين.

﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

والله ﴿... خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾^(٢).^(٣)

البحرين كأنها خارج السياق في نظر الحكومة المحلية، في نظر المحيط الخليجي، في نظر الجامعة العربية، في نظر المجتمع الدولي، فهل سيعطي الشعب موافقةً على أنه خارج السياق العربي والثورات العربية، بحيث يخرج الكل بنتيجة، ويرجع الشعب البحريني بِخُفْيٍ حنين؟^(٤)

ماذا بقي؟!

ماذا بقي لهذا الشعب من حرية التعبير؟

من حرمة دم؟

من حرمة مال؟

من حرمة عرض؟

من كرامة؟

من كلمة؟

من أمر دين؟

من حرمة دين؟

١- ١٠: الأنفال.

٢- آل عمران: ١٥٠.

٣- خطبة الجمعة (٤٧٧) ١٤ ذو الحجة ١٤٣٢هـ، ١١ نوفمبر ٢٠١١م.

٤- خطبة الجمعة (٤٨١) ١٣ محرم ١٤٣٣هـ، ٩ ديسمبر ٢٠١١م.

حرمة صلاة؟

حرمة مسجد؟

حرمة قرآن؟

ألم يُهاجم المصلون وهم يقبلون على الصلاة؟

ألم تهدم المساجد؟

ألم تنتهك حرمة القرآن؟

ماذا بقي من شيء لم تنتهكه السياسية الظالمة في هذا البلد الكريم؟!

لا شيء من حرمة لهذا الشعب المقاوم للظلم، للقهر، للإذلال، للاستئثار، للاستبداد، للتهميش، لنهب الثروة، للاضطهاد، للانتهاك الديني في نظر حكومة تمارس كل ذلك في حق هذا الشعب.

مسؤولو دول كبرى تتوافد، ووفود حقوقية في مجيء وذهاب والأمور إلى الأسوأ، والانتهاكات للحقوق الإنسانية والوطنية والدينية في تصاعد واتساع!

ونقول للدول الكبرى وللمنظمات الحقوقية الدولية: إمّا أن رأيها أن الشعب غير محق في مطالبه الحقوقية والسياسية، وإمّا أنه شعب نشاز من بين كل شعوب الأرض، وأنه ليس أهلاً لشيء من الحقوق، وعليها لو كان رأيها كذلك أن تعلن هذا بصراحة، ولها أن تدعو الحكومة لمزيد من التكتيل بهذا الشعب، وإغائه، وإقباره.

وإمّا أن يكون رأيها غير ذلك، وأنّ الشعب كسائر شعوب الدنيا، وله من الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية والسياسية ما لغيره من الشعوب، وأنّ مطالبه في الحرية والكرامة والديمقراطية والأمن والسلام مطالب محقة، وعندئذٍ عليها أن تدين السياسة المنتهكة من الحكومة، وتمارس عليها الضغط الذي تجد له وسائل وأدوات كثيرة بما يلجؤها إلى الإذعان للحق والاستجابة لمطالب الشعب العادلة.

مَنْ يصدِّق أن الدول الكبرى والمنظمات الحقوقية الأممية، لا تملك أكثر من دور الواعظ الذي لا يجد شيئاً من أدوات الضغط لصالح ما يراه حقاً، وما فيه إنقاذ لهذا للشعب؟!

وفود الأمم المتحدة، الوفود الأمريكية، والبريطانية، والفرنسية، والمسؤولون الذين يجيئون من أمريكا، وفرنسا، وإنجلترا، هؤلاء وعاظ؟!

يسمعون الحكومة كلمة؟ - إن كانوا يُسمعون الحكومة كلمة تُغيضها! -، أهم وعاظ فقط، أم أصحاب دول كبرى تستطيع أن تضغط؟ أين ضغطها؟!

وَمَنْ يصدق بممارسة الضغط الذي تملكه الدول الكبرى، والهيئات الأممية لصالح حقوق الشعب، ولكن لا تؤثر!

أمعقول أنهم يضغطون الضغط الذي يملكونه، ثم لا يؤثر شيئاً؟!

نقول هذا - وأملنا في الله وحده، ولا تعويل من مؤمن على مخلوق، وشعبنا لا يأخذ عزمه من موقف الدول، ولا يثنيه عن حقه تنكراً من أحدٍ أيّاً كان - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرَّوْا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).^(٢)

١- محمد: ٧.

٢- خطبة الجمعة (٤٨٣) ٢٧ محرم ١٤٣٣هـ ٢٣ ديسمبر ٢٠١١م، جامع الإمام الصادق عليه السلام بالدراز. (تنويه: هذه الفقرات كتبناها من التسجيل الصوتي للخطبة؛ حيث إنه لم نجدها منشورة في الموقع الإلكتروني لسماعته).

(٧)

الإسلاميون

الإسلاميون أمام تجربة جديدة صعبة

هناك أكثر من ثورة عربية أسقطت نظامًا حاكمًا مغضوبًا عليه من شعبه، وهي في طريقها؛ لإقامة حكومة أخرى، ونظام حكم آخر مكانه، وعلى أنقاضه.

والغالبية في الشعوب العربية عاطفة أو رأيًا وعاطفة لا تُقدّم نظامًا وحكمًا على الإسلام، ولا تنسجم معه.

وفي حال أن تجري انتخابات حرة بالمعنى الحقيقي بعيدة عن كل ألوان المغالطة، والغش، والخداع، والمراوغة، والاحتيال، والتلاعب، وشراء الذمم، فسنجد أن خيار الغالبية من الشعوب الإسلامية هو الإسلام.

وهنا يكون الإسلام والإسلاميون أمام تجربة جديدة صعبة، وامتحان عسيرٍ مكشوفٍ مؤثرٍ بدرجة عالية على مصيرهما.

ولو أخفقت هذه التجربة المتطلع إليها من قبل جماهير مسلمة عريضة، والتي ستكون مراقبة بالمجهر الدقيق من قبل مختلف الملايين، ومقاومةً من قبل كثيرين فإنها ستكون أشد خطرًا، وأبلغ في تأثيرها السلبي على الإسلام من حالة إقصائه عن السياسة وعداوتها السافرة له.

والإسلام قد خاض تجربة الحكم قديمًا وحديثًا، ولم تحقق أي أطروحة أخرى ما حققه من نجاح حينما خاض هذه التجربة برؤيته وعقيدته الدينية والسياسية الصادقة، وشريعته وقيمه وأخلاقيته الحقيقية.

وكذلك قد خاض الإسلام تجربة الحكم مظلومًا على يد التزوير والأطماع الرخيصة، ممّن لا يؤمن به حق الإيمان، وإنما اتخذ مطيّةً لأطماعه وهو عابدٌ للعالم

ولأكثر من مرة في القديم والحديث، فسجّل ذلك تشويهًا للإسلام، وتحريفًا لأحكامه وقيمه، وإسقاطًا لوزنه، وانقلابًا في الرأي العام في أوساط المسلمين عليه، وبحثًا عن بديلٍ سيئٍ له.^(١)

واحتيج في تصحيح رأي الناس في إسلامهم بعد ذلك إلى جهود مضنية، وتوعية صبورة، وثورات قاسية، ودماء غزيرة.^(٢)

ويبقى امتحان الإسلاميين في التجربة الجديدة لو تأتى للأمة أن تعطيهم خيارها، وتضع يدها في يدهم، وتحملهم أمانة الحكم وهي أمانة ثقيلة لا يتحملها إلا أمناء كبار، وقادة أوفياء، وعقول راجحة، وهمم عالية، ونفوس متحررة من شهواتها، متأبّية على الأهداف الرخيصة، وذمم طاهرة، وأيد نظيفة، وفهم إسلامي ناضج، وقلوب لا تغفل عن ذكر الله، ولا يصرفها عنه لهو ولا تجارة.^(٣)

فهل يكون الإسلاميون في هذه التجربة الجديدة بوزن هذه الأمانة الكبرى بمقدار لا يسيئ للإسلام، ولا يظلمه ظلمًا أشد من ظلم أعدائه؟

هل يقربون في فهمهم من فهمه، وفي طهر نفوسهم ونياتهم من طهره، وفي حكمتهم من حكمته، وفي إنسانيتهم من إنسانيته، وفي عقلانيّتهم من عقلانيّته؟

وهل يأخذون في سيرة حكمهم نزاهةً تزيّنهم من نزاهته، ودرجة عدل تعشقهم بها الملايين من عدله المطلق الشامل الذي تفرّد به؟

إن كان لهم ذلك سَعِدَت بهم الأمة، وسعدوا بها، وحمتهم بقلوبها وأيديها، وكانت قلعتهم الحصينة، وسياجهم المتين، ودعامة وجودهم الثابتة بعد دعم الله وحمايته، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتعمّق إيمانهم به، وتصلّب، وتنبّت اختيارهم الإسلام، ولم يستبدلوا عنه، أو يتخلوا عن نصرته.

١- صارت الأمة تبحث عن بديلٍ سيئٍ عن الإسلام لما أصابه من تشويه على يد الحاكمين باسمه، وهم لا يؤمنون به حق الإيمان.

٢- ذلك هو الإسلام، فماذا عن الإسلاميين؟

٣- الحكم الإسلامي، الحكم، موقع الحكم يتطلب كل هذا.

أما لو أساءوا فهم الإسلام، ولو صبغوه بالعصبية العمياء، لو فصلوه عن بعده الإنساني، لو أوغلوا السيف في رقاب العباد، لو ظلموا وهم يعلنون انتماءهم للإسلام، ويتحدثون باسمه، لو كان أول تنافسهم على المواقع والثروة، لو اشتغلوا بالغنائم عن هموم الناس ومشاكلهم، لو توجَّهوا؛ لبناء الأمجاد الدنيوية الشخصية والفئوية ضارين بمصالح الأمة عرض الحائط، فإنهم سيسقطون من نظر الأمة، وسيسقطون الإسلام من ناحية عملية إلى حدٍّ كبير، ويجنون عليه أكبر جناية.

وفي الجناية على الإسلام أعظم جناية على الأمة المظلومة، والإنسانية المعذبة، وحرمان لأهل الأرض من منقذ لا منقذ لهم سواه إلى مدى قد يطول، وإن كان لا بدَّ أن ينقذ الإسلام العالم من مأساته التي أغرقها فيها البعد عن الله سبحانه على يد الكافرين والظالمين.

ويُسقط الإسلاميين الذين يصلون إلى الحكم باسم الإسلام، وينزل به ضربة قوية أن يساوموا أعداءه عليه^(١)، ويحرفوه مجاملة لهم وكسباً لودهم؛ ليجدوا فيهم سنداً، أو يأمنوا منهم شراً وتأمراً.

نجاح الإسلاميين في حكم الأمة، أو شعب من شعوبها أن يكونوا رساليين مبدئيين بمقدار رسالية الإسلام ومبدئيته، واقعيين عند حدود واقعيته، جدّيين بمستوى جدّيته، منفتحين بسعة انفتاحه، نزيهين كنزاهته، عادلين في الناس لا يتعدّون عدله، بعيدين عن كل عصبية أرضية تُعكّر نقاءه وصفاءه.

وبهذا يقوون، وتقوى بهم الأمة، ويجدون منها حضناً دافئاً، وحصناً حصيناً، وعيناً ساهرة، ويداً ضاربة، وإمداداً غير منقطع.

وبهذا يحترمهم العدو، ويهابهم، ويعطون لأوطانهم الاستقلال، ولأمتهم العزة والمهابة والكرامة.

١- هذا خطر آخر.

يُخطئُ الإسلاميون لو طلبوا البقاء في الحكم عن طريق الإكراه، والتحايل على الأمة وترهيبها.

إنهم يستطيعون أن يضمنوا البقاء في الحكم، والعودة إليه عبر صناديق الاقتراع في كل مرة تعطى الأمة فيها فرصة الانتخاب، لورأى الناس منهم صدق الإسلام، وعدله، ورحمته، وأخلاقيته، واهتمامه بتقدم المجتمع في كل مسارات حركته الصالحة، وأبعاد وجوده الكريمة، ولورأوا منهم التفاني في خدمة الشعب والإخلاص له، والأمانة الصادقة على ما تحت أيديهم من خيراته وثرواته، والاحترام لإرادته وكرامته على خلاف ما رأوا ويرون في غيرهم من الطغاة والمستكبرين وأهل المصالح الدنيوية الضيقة.^(١)

(٨)

التَّحْدِيَّاتُ وَالْمَخَاطِرُ

خطر الأنظمة المتسلّطة

امتُحِنَ الوطن العربي خاصّةً، والوطن الإسلامي عامةً لمدى زمني طويل بأنظمة حكم تسلّطية فرضت نفسها على خلاف إرادة الأُمّة، ودينها، ولا يمكن لها في ظلّ وعي الأُمّة وصحوتها، وإدراكها لمقتضيات هُويتها ومصالحها، واعتزازها بذاتها وحضارتها أن تنال ولاءها وثقتها ومناصرتها؛ فصارت تعمل دائماً على تجهيلها واستغفالها، وقتل إرادتها، ومنع أسباب القوّة والنهوض عنها درءاً لما تراه خطراً عليها في صحوتها ووعيتها وقوّتها، وإدراك مأساتها، هذا من جهة.

خطر الهيمنة الأجنبيّة

ومن جهة أخرى لقد مكّنت هذه الأنظمة للأجنبيّ من رقبته، وأباحت له الأرض العربيّة والإسلامية وخيراتها، وأعانته على غزو ثقافتها، وأخلاقيتها، وقيمها، وإفساد دينها وتربيتها شعوراً منها أمامه بالضعف، وحاجتها إلى دعمه وتأييده في قبال حركة الشعوب المتوقعة، وهذا ما جعل بقاء هذه الأنظمة مرهوناً بإرادة الأجنبي، وأتاح له أن يبتزها بأي درجة من الدرجات متى شاء، وكيف شاء، وجعل له تغلغلاً واضحاً في كل مفاصل هذه الدول الذليلة المستسلمة، ومُلّكه علاقات مهيمنة على مستوى التفكير والشعور والإرادة ونوع الطموح على كثير من أبنائها خارج جسم الحكومات؛ لتكون البديل المناسب لخدمة نفوذه ومصالحه عند الضرورة.

وقد جعل هذا الواقع المعقّد حركات الإصلاح والتغيير الصالح في الأرض العربية والإسلامية تواجه خطر القمع الداخلي العنيف على يد الأنظمة الحاكمة، والدعم الأجنبي لها والذي كان قائماً في المثال الليبي إلى وقت كان القذا في يقمع فيه الشعب، ويُنزّل حمم سخطه عليه، كما تواجه خطر البديل المتعاون مع الاستعمار الأجنبي من

أبناء شعوبها ممن صُنِعوا على عين المستعمر نفسه لمدة طويلة^(١)، وأعدوا بصورة جاهزة لخدمته، وتنفيذ سياسته وأهدافه.

خطر الميل إلى التبعية للأجنبي

وخطر آخر على حركات الإصلاح والتغيير في البلاد العربية والإسلامية قد أوقعها فيه ذلك الواقع المرير الذي صنعه الأنظمة الفاسدة، والحكومات الجائرة، وهو شعور الكثير من هذه الحركات بالحاجة إلى مغازلة الأجنبي، واسترضائه، والدخول في مساومة معه لا إيماناً بقيمته، ولكن إذعائاً لهيئته.

وقلَّ أن تتحرَّر حركة تغيير، أو إصلاح من هذا الهاجس، وتتمتع بروح الاستقلال الحقيقي، وتعتمد على قوتها الداخلية، ورصيدها الوطني، وجهدها وجهادها وتضحياتها وإن طال الطريق، وذلك وإن قلَّ إلا أنه قد تحقق على الأرض^(٢) وهو قائم وموجود فعلاً.

وإذا وجد كان معادى من جميع قوى الظلم والانحراف، والزيغ والضلال، وكان عليه أن يواصل جهوده المضنية، ويصبر على مرَّ عداوة الأعداء الكثيرين، وحربهم وأذاهم، وأن يملك دائماً انتباهه، ويقظته لما يدور حوله، وما يحاك له من مؤامرات، وأن يبني قوة متينة متنامية تحميه.

ولا أمل في تحرُّر الأمة وانعتاقها من ذُلِّ العبودية لقوى الطاغوتية في الداخل والخارج إلا في حركة إصلاح أو تغيير مستقلة عن هيمنة القوى المعادية للأمة، تولد من رحم أمتها المجيدة، ووعيتها الإسلامي، وخطُّها الحضاري، وإرادتها الحرَّة التي لا تخضع إلا لله، ولا تستكين إلا أمام إرادته، ولا تتطلع إلا إليه، ثم لا تعتمد مع بذل كل الجهد إلا على ربِّها، وتتحمَّل المعاناة الصعبة، والتضحيات الجسيمة في سبيله، وتكون على نباهة ووعي بالغين لا يسمحان بأن تسرق صنائع الأجنبي وخلاياه المعدَّة عطاء التضحيات الباهظة لجماهير الأمة ومكاسبها.^(٣)

١- بتسهيل الحكومات الظالمة.

٢- أي وجود نموذج التغيير والإصلاح الحقيقي المستقل النابع من ضمير الأمة، والناظر لمصلحتها.

٣- خطبة الجمعة (٤٧٢) ٨ ذو القعدة ١٤٣٢هـ، ٧ أكتوبر ٢٠١١م.

تآمر الأنظمة العربيّة والغرب ضدّ الثّورات

رائع جدّاً، ومفرح جدّاً أن تتّجه الإرادة في النظام العربي الحاكم إلى إنكار الظلم من أي دولة من دوله للشعب الذي تحمّلت أمانة حكمه بصورة وأخرى، وأن تردّها عن ظلمه، وتقرض عليها الاحترام لإرادة الشّعب الذي همّشت إرادته، وإرجاع حقوقه المسلوبة منه، وحرّيته المصادرة عليه، وثروته المتلاعب بها.

هذا رائع، ومحلّ تّمين كبير إذا كان من العودة إلى الحقّ، والأخذ بالصّحيح، واحترام الشعوب، والنظر إلى الإسلام، وأحكامه، وقيمه.

فهل هذا هو المنطلق لإدانة هنا، ولخطوة عملية هناك يمارسها النظام العربي في مساحة منه ضدّ إحدى دوله ظاهرها أنها من أجل تصحيح وضع تلك الدولة أو تغييره انتصاراً للشعب هناك؟!

إذا كان هذا هو المنطلق، فالشّعوب العربيّة كلّها مضطهدة، ومهمّشة، ومنهوبة، ومسرّوقة، ومستخفّ بها، وحرّيتها مصادرة، وكلمتها مقهورة، وحقوقها مضيّعة، ودينها مُغيّب، وإرادتها مسحوقة.

وكل الحكومات العربيّة تمارس هذا بدرجة عالية وصورة فاضحة في حق شعوبها.^(١)

وإذا كان كذلك، فعلى كل هذه الحكومات أن تنتفض ضدّ نفسها، وتُدين ظلمها ضد شعوبها، وتتخذ قراراً جماعياً شجاعاً يُنهي تسلّطها على هذه الشعوب وإنهاء مأساتها، والرجوع إلى إرادة الأمّة في حكم نفسها.

كيف يصحّ للنظام الرسمي العربي أن يكون منه مطالبٌ بالإصلاح والتغيير ومطالبٌ؛ بينما كله يعيش الحاجة إلى الإصلاح والتغيير، وكلّه غارق في الظلم، والخطأ، والتخلّف، والاستبداد، واضطهاد الشعوب؟!

١- ولذلك يتساوى الجميع.

وما تفسير أن الصوت المطالب من داخل النظام الرسمي العربي بالإصلاح والتغيير والمحشد لهما والمستنصر بالغرب أحياناً؛ لتنفيذهما هو نفسه المدافع عن ظلم حكومات داخل هذا النظام^(١)، ويثبت أركانه، ويدين ويخون أيّ تحرك داخلي ضدّ تلك الحكومات، وأي حركة إصلاحية تريد أن تغير من الواقع المأساوي التي تعيشه الشعوب، ولا يكفيه إلا أن يحشد الجيوش؛ لإجهاض أي لون من الحراك يقاوم تلك الأوضاع؟

وما تفسير هذا التوافق بين كلمة هذا الصوت، وموقفه مع الكلمة الأمريكية، والموقف الأمريكي في إدانة من تدين أمريكا، وحرب من تحارب، ومقاطعة من تقاطع، والسكوت ممن تسكت، وتأييد من تؤيد، ومناصرة من تناصر؟!

وما تفسير الموقف الأمريكي المتباين من حكومات تتساوى ظلمًا وتسلاً وديكتاتورية واستبداداً، ونهباً وسرقة وعبثاً بمصير الشعوب، ومن شعوب تشترك في المعاناة والمأساة من هذه الحكومات، وتُصادر حريتها، وتؤاد إرادتها، وتُحارب وتُجهل وتمزق بثرواتها على يد الساسة المتسلطين عليها؟!

حكومة من هذه الحكومات تُدان علناً وتُناصر خفاءً حتى يتم اليأس منها، ويُعثر على بديل مناسب لها.

وحكومة أخرى يُتدخل ضدها بالسلاح، وبالصورة المكشوفة.

وثالثة تُغازل، وتُذل، وتُكرّم؛ لقمع شعبها.

وشعب تُوجج مشاعره، ويُلهب حماسه ضد حكومته، وربما مدّ بالمال والسلاح، وآخر يُغرر بكلمة، ويلام بكلمة، وثالث يُغري بالوعود الزائفة، ورابع يُيأس؛ من أجل أن يركع.

ما السرّ في ذلك؟

السرّ تعرفه كل الشعوب، وكل الدنيا، وكل الحكومات.

١- من جهة هناك دفاع عن الشعوب، ومن جهة أخرى هناك دفاع عن حكومات، وحماية لها، بينما الحكومات على حد واحد، والشعوب على حد واحد.

السُّرُّ أن أمريكا لها ميزان واحد، ومقدّس واحد ليس هو إلا مصلحتها المادية، وقبل ذلك المصلحة الماديّة لكبار ساستها، والطامعين في رئاستها، والمراكز السياسية العليا فيها.^(١)

الفتنة الطائفية

مَن له شيء من عقل، شيء من دين، شيء من ضمير، شيء من إنسانية، شيء من غيرة، شيء من حياء لا يُحرق وطنه، أهل وطنه، ثروة وطنه، أخوة مواطنيه، دينهم، أخلاقهم، إنسانيتهم، أمنهم، حاضرهم، مستقبلهم، وكل ذلك تحرقه الفتنة الطائفية التي يضيع فيها العقل، ويغيب الدين والضمير، وتعطل الكوابح، ويقفز على الحواجز.

فلا ريب أن مَن يسعى لإشعال الفتنة الطائفية، فإنما يريد إشعال حريق شامل يجد منه مخرجاً للتحكم في الأوضاع غير مبالٍ في نفوس الناس، ومالههم، من عرض ومال.

إنها جريمة السياسة القذرة في حقّ الوطن والمواطنين أن يعمد أحد إلى إحداث فتنة طائفية.

إنها عملية استهتار، وسحقٍ للدين، والقيم، والإنسانية، وكل حرمة من الحرمات. هناك مَن يريد احتراق الوطن، مَن يريد لكم يا أبناء الشعب سنة وشيعة أن تقتتلوا، أن تسفكوا دماءكم، أن تدخلوا في حربٍ مفتوحةٍ لا حدود لها، ولا تستثني مალًا، ولا عرضًا ولا دمًا، ولا ترعى حرمةً من الحرمات، ولا تحترم أخوة، ولا تاريخًا، ولا دينًا ولا خلقًا. أمّا أنتم، فلا تُحرقوا البحرين، ولا تقتتلوا، ولا تدخلوا حربًا جاهلية لا يرضاها الله ورسوله ولا المؤمنون.

ولا تلقوا بأنفسكم إلى تهلكة دنیا وآخرة.

١- خطبة الجمعة (٤٧٤) ٢٢ ذو القعدة ١٤٣٢هـ، ٢١ أكتوبر ٢٠١١م.

كونوا عقلاء أذكاء كأبائكم وأجدادكم الذين أفضلوا مثل هذه المحاولات من قبل،
وأثبتوا وعيًا سياسيًا متقدمًا، وأخوةً دينيةً ووطنيةً قوية، واجتمعت كلمتهم على مطالب
سياسيةٍ موحّدة.

أيها الواعون، أيها الشرفاء، يا أبناء هذا الشعب الكريم، أمامكم مصر، ليبيا،
اليمن، سوريا.

انظروا كم حصدت السياسة الدنيوية المقاومة لمطالب الشعوب، وحركات الإصلاح،
وكم حصد إصرار السُّلطات على كل مكاسبها الظالمة من أرواح أبناء هذه الشعوب.

لم يُحصَد الليبيون على يد القذافي السنّي لأنهم شيعة.

ولم يُحصَد المصريون على يد حسني مبارك السنّي لأنهم شيعة.

ولم يُحصَد أهل صنعاء وعدن على يد صالح السنّي لأنهم شيعة.

حُصد كل أولئك وهم سنة من الحاكم السنّي لذنْب واحدٍ مشترك هو المطالبة
بالحقوق والإصلاح والحرية والكرامة، ولم تشفع لهم أخوةٌ دينيةٌ، ولا مذهبيةٌ، ولا وطنيةٌ
يشترك الحاكم معهم فيها.

إن السياسة الدنيوية لا تعرف وزنًا لدين ولا مذهبًا، ولا قيمًا، ولا أعرافًا.

كلُّ القيمة عندها للكرسيّ، والسُّلطة، والدنيا.

ألف شيوعي معارض لا يساوي سنّيًا مواليًا عند حاكم شيوعي معبوده الدنيا.

وألف سنّي معارض لا يساوي شيوعيًا مواليًا عند حاكم سنّي مقدّسه الدنيا.

يمكن لهذا أو ذاك أن يفاوت أحيانًا بين موالين أو معارضين^(١)، ولكنه لا يمكن إلا

أن يقدّم الموالي على المعارض من أي دين، أو مذهب، أو قوميةٍ كان هذا، وكان ذاك.

١ - لسنّية هذا وشيعية ذاك، لتصرّائية هذا وإسلام ذاك.

ولا تقتصر السياسة الدنيوية الحيلة والمكر الذي يوقع أبناء الشعب الواحد في الاقتتال حفاظًا على السُّلطة، بل على كل ما تغتصبه من الشعوب، وتصادره من ثروة وحرية وكرامة الأوطان ظلمًا.

والمداخل لهذا المكر متوفرة دائمًا، والفرص ميسورة.

هناك التعدد الديني، التعدد المذهبي، التعدد القومي، التعدد اللوني، التعدد القبلي، التعدد المناطقي، التعدد الطبقي، التعدد اللغوي.^(١)

أي شعب يخلو من هذه التعددات ومن غيرها حتى لا تجد السياسة الظالمة مدخلًا تلجهُ للفرقة، وتقتيت الشعب الذي تحكمه، واحتراب أبنائه؟

في مصر استُخدمت ورقة التعدد الديني، وفي ليبيا استُخدمت ورقة التعدد القبلي، والمناطقي وكذلك في اليمن.^(٢)

تهممة العمالة للخارج

أما ورقة الاتهام بالتآمر، والعمالة للأجنبي، والخيانة فهي ورقة مشتركة استخدمها المصري، والليبي، واليمني، وهي مستعملة في سوريا وفي كل مكان.

والسياسة التي لا تقدس إلا الدنيا لا تستثني أي أسلوب دنيئٍ إجرامي في سبيل الحفاظ على مصالحها.

ومن أبشع هذه الأساليب دناءة وإجرامًا تمزيق الشعب الواحد، وزرع روح الكراهة بين أبنائه، وإثارة الأحقاد والريبة والبغضاء بين صفوفه، والانتهاؤ به إلى حربٍ داخلية طاحنة لا تلتفت إلى دين ولا قيم، ولا مصلحة وطن.

١- كل هذه التعددات وكثير منها يتواجد في الوطن الواحد والشعب الواحد.

والورقة الرابعة في البحرين هي ورقة الطائفية التي تجيد السلطة لعبة استخدامها.

٢- والورقة الرابعة في البحرين هي ورقة الطائفية التي تجيد السلطة لعبة استخدامها.

وأَيُّ شعبٍ يكون ممتحناً امتحاناً قاسياً في دينه، وعقله، وبصيرته، وخبرته أمام مثل هذه المحاولات.

وأنتم اليوم ممتحنون أمام فتنةٍ يراد لكم أن تلجوا بابها الخطير، وتدخلوا نفقها المظلم الذي لا ينتهي إلا بنهايةٍ مأساوية.

وعلى هذا الشعب الكريم بسنته وشيعته أن يُبرهن على تفوّقٍ في الذكاء والدين والنباهة والبصيرة وهو يتعرض لهذا الاختبار، وأن يُسجّل الفشل على كل محاولة تستهدف تفتيته، وإثارة الفتنة بين صفوفه، وتستثير أسباب الحرب الجاهلية المشؤومة قولاً وعملاً بين المواطنين وتؤجّج الروح الطائفية.

إذا كان كل هذا؛ من أجل التراجع عن المطالب الشعبية، فإن هذه التجارب قد باءت بالفشل في الأقطار الأخرى، وقد سجلت فشلها بوضوحٍ في هذا الوطن.

ونرجو أن لا تقوم للفتنة الطائفية قائمة.

إنه لا علاج إلا بالاستجابة لإرادة الشعب، وتحقيق مطالبه العادلة.

والتراجع عن ذلك أصبح من المستحيل، وهو ضارٌّ بالوطن بصورةٍ فظيعةٍ مرعبة.

لا تراجع، ولا حلول سطحية تعود بعدها الحرائر والأحرار ثانياً للسجون، وتُصَبِّغ الشوارع من دم أبناء الشعب، وتُفَتَّت اللحمة الوطنية، ويُحَرِّم الناس من لقمة العيش، وتجيّش الجيوش، ويسلب النوم من جفون الأمنين^(١).^(٢)

١- هتاف جموع المصلين بـ: (هيهات منا الذلة)، و(لن نركع إلا لله).

٢- خطبة الجمعة (٤٧٦) ٧ ذو الحجة ١٤٣٢هـ، ٤ نوفمبر ٢٠١١م.

(٩)

الانتصار

لغتان تتصارعان

لغة حكومات لشعوبها أن تموت هذه الشعوب أو تتحني، أن تموت جسداً أو تموت فكراً، وإرادةً، وإنسانية، وتتنازل عن حريتها، أن تقبل الهوان، والذل، والفقر، والجهل، والمرض، وتخسر دينها.

وذراع هذه اللغة ما بنته ثروات الأوطان التي هي ملك الشعوب من قوة عساكر، ومؤسسات استخباراتية، وسجون، وقوى تسليحية، وصحافة موالية، وقنوات إعلامية تحت التصرف، وإمكانات هائلة، ومرترقة، وكل ما يستعان به لقمع الآخر وإذلاله.

أما اللغة الأخرى، فهي لغة شعوب أفاقت من غفوة طالت، ونفضت عنها غبار المسكنة، وتخلصت من عقدة الخوف، وكسرت طوق رعبها.

ولسان هذه اللغة يعلو مجلجلاً:

الموت لا الانحناء.

الحرية وإلا فالمنيّة.

الموت أولى من الذلّ والعار.

وأخذت كلمة الإمام الحسين عليه السلام التي انطلقت من روحه الأبيّة، وقطعت مسافة القرون المتوالية؛ لتملأ الساحة الثورية العربية والإسلامية الواسعة الملتهبة كلها، وتنطلق مدوّية على ألسن الملايين نصّاً أو معنى؛ لتملأ مسمع الدنيا كلها بشعار: «هيهات منا الذلة».^(١)

١- هتاف جماهير المصلين بـ(هيهات منا الذلة).

كلمة قالها الإسلام من أول يوم، وبقيت على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وفي سلوكه، وعلى لسان كل إمام بمعناها وبمؤداها، وهي باقية على لسان المسلم الحق إلى الأبد. (هتاف جموع المصلين ب: لن نركع إلا لله).

هذه اللغة سلاحها الإيمان بقيمة الإنسان وكرامته، وأن الله وَعَلَىٰ يأبى للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه، وأن يطأطأ لإرادة العبيد المخالفة لإرادة ربّه، وأن يُسَلِّم للعبودية لغير خالقه، وسلاحها الصبر على مواجهة الموت، وبذل الرّوح في سبيل الله، وما أذن الله وَعَلَىٰ أن يُبذل الدّم من أجله.

ولغة الشعوب هذه أخذت تتحوّل إلى لغة عامة ومفهومة ومستدوّقة بل معشوقة في العالم العربي والإسلامي، وأخذت في التعمّق والتجذّر يوماً بعد يوم في ظل ظاهرة الاستشهاد المتتابع، وبحور دماء شهداء هذه اللغة في الأرض العربية.

هذه اللغة بدأت تفرض نفسها على الأجيال الجديدة بقوة بعيداً عن العدوانية وإنما هو عشق الحرية والكرامة، ورفض العبودية إلا لله سبحانه الذي لا يُستكثر عليه أي ثمن في سبيل رضاه. ^(١)

وما تجلّى عنه الصّراع بين اللغتين لحدّ الآن هو انتصار لغة الدم على السيف، والحق على البطش، والحرية على رغبة الاستعباد، والشعوب المطالبة بالإصلاح على الحكومات المضطهدة للشعوب. ^(٢)

ولولا الروح الاستبدادية والطاغوتية عند الحكومات، ولولا عملها على قمع الشعوب وإذلالها والاستئثار بثروات الأوطان ونهبها والتلاعب بها، ومعاداتها لوعي الأمة ونهضتها لاجتماعت القوّة التي تضع هذه الحكومات يدها المتسلّطة عليها، ووعي الشعوب وصلابة إرادتها، واعتزازها بحريتها لحماية الأمة واسترداد كرامتها وموقفها الريادي بين الأمم، وفرض إرادة الخير في الأرض، والعمل على تعزيز مبدأ الأخوة الإنسانية في كل العالم مكان كل التناقضات التي تهزّ الأمن العالمي هزّاً، وتُسبّب انتشار الرعب في كل المجتمعات ^(٣). ^(٤)

١- قيمة ثمن الموت في سبيل الله؟

٢- وذلك في أكثر من تجربة.

٣- كان من الممكن جداً، والمطلوب بالضرورة أن تجتمع القوة بيد الحكومات والإرادة الإيمانية الصلبة التي تتمتع بها الشعوب على إحقاق الحق في الأرض، وإبطال الباطل، والتقدم بمستوى هذه الأمة ولكن!

٤- خطبة الجمعة (٤٧٣) ١٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ، ١٤ أكتوبر ٢٠١١م.

إلى أين تتجّه الأمور، وترسو السفينة، ويصير الواقع؟

عناد حكومات، وإصرار شعوب.

حكومات لا تريد أن تتنازل عن شيء من استبدادها، وظلمها، ونهبها، واستغلالها واستكبارها، أو تعترف بشيء من قيمة الشعوب، وحققها في رسم مسار حياتها، وتقرير مصيرها، وتمتعها بحريتها، وكرامتها، والاعتزاز بإرادتها.

وشعوب لم يعد يثنيها عن استرداد هذا الحق، صعوبة من الصعوبات، ولا تحدٍ من التحديات، ولا أي آلام تلقاها على الطريق، أو سبب منية يعترضها.

عود الأمور إلى ما كان ليس في الإمكان، وليس له أي مكان.

والتنازل السهل من الحكومات غير وارد في الكثير.

والواقع المشهود، وما يُسجّله من استماتة الشعوب رغم كل التضحيات، وتصاعد الروح الثورية في إنسان هذا الجيل يومًا بعد يوم حتى لا يزيده ارتفاع مستوى التضحيات إلا إصرارًا وصمودًا ينفي تمامًا إمكان أن يحصل تراجع في حركة المقاومة لظلم الحكومات واستبدادها، وما تصر عليه من استعباد الشعوب.

والمظلوم إذا استردّ إرادته أقوى من الظالم، والموجع أشدّ اندفاعاً؛ للتخلص من آلامه من مترفٍ يهّمه أن يحافظ على ترفه.

فالنتيجة للصراع - حسب المقدمات الموضوعية - هو الإصلاح والتغيير، والتراجع لصالح إرادة المظلومين وحقّهم، وهو التراجع الذي يدعو إليه العقل والدين والضمير، وهو التراجع الذي يحفظ إنسانية الطرفين ومصالحتهما^(١).

عامُ البداية

العام ٢٠١١م ما هو إلا عامُ البداية للثورات العربية في وجه الأنظمة الحاكمة التي ضاقت بها الأمة ذرعاً، بما أوقعها فيه من مستنقع التبعية الذليلة، وسلبتها العزة، ولقمة العيش، وأذاقتها الهوان.

١ - خطبة الجمعة (٤٦٨) ١٠ شوال ١٤٣٢هـ، ٩ سبتمبر ٢٠١١م.

ثوراتٌ لن تُلقِي عصا السير، ولن تتوقَّف عن تصاعدها، ولن تستريح حتى تكون الحاكِمية التي تُؤمِّن بها الشعوب، لا الحاكِمية التي تُؤمِّن طاغوتية السلاطين.

ذلك لأنها لم تتطلق من فراغ، ولا نظرية سطحية، أو حالة انفعالٍ عابر، أو رؤية مُتَعَجِّلَة، أو إرادةٍ متلَكِّئة، أو عزمٍ ضعيف.

وإنَّه لن تنفع بعد يَقْظَة الشعوب، وانبعاث إرادتها، والإصرار على استرداد حقوقها، وحرّيتها، وكرامتها في إيقاف هذه الثورات أساليب بطشٍ وقمع، ولا حيلةً ولا وسيلةً ممَّا يقع تحت يد الباطشين الذين لا يراعون إلَّا ولا ذمَّة، ولا يقيمون لإنسانٍ وزنًا.

في أقلَّ من عام سقطت ثلاثة أنظمة من أعتى الأنظمة العربيَّة، وغادر حاكمُ اليمن موقع السلطة مُكرهًا تحت ضغط الشعب الثائر الذي لن تهدأ ثورته حتَّى يتمَّ له مطلبه في الحرّية والكرامة، ويختار نظام الحكم الذي يؤمِّن به من غير هيمنةٍ أحدٍ عليه إلَّا اللهُ تبارك وتعالى.

وسيبقى التَّحرُّك الثَّوريُّ زاحفًا للأمام، وعلى مساحة الأُمَّة كلّها، وتتعالى الصرخات، ويستمرُّ الزلزالُ حتَّى تتحقَّق أهداف الشعوب في الحرّية، والكرامة، واسترداد الحقوق، ويُستجاب لإرادة الأُمَّة فيما تختار من حُكمٍ وحاكمين.

لم يبقَ صبرٌ للأُمَّة على الذلِّ، والهوان، والإقصاء، والتحكُّم، ومصادرة الإرادة الشعبيَّة، والفساد السياسي والاقتصادي، وألوان الفساد الأخرى.

نعم، هناك صبرٌ جديدٌ مُضاعفٌ كبيرٌ على البذل والأذى في سبيل الله والتضحيات، لا صبرٌ على طاعةٍ كطاعة العبيد.

وفي ذلك ضمانَةٌ من ضمانات الاستمرار على طريق الجهاد؛ من أجل العزة والكرامة.

صار مستحيلًا في وعي الأُمَّة، وشعورها، وتصميمها أن تكون عودةً للأمس الظالم، وصار لا بدَّ أن تُغلَق كلُّ أبواب العودة إليه، بل لا بدَّ أن يكون غد الأُمَّة أفضل دائمًا من

يومها الذي تعيشه، والحال الذي تكون عليه.

ثم لو كانت الأنظمة الحاكمة في البلاد العربية على حكمة بالقدر المطلوب ومقدرة ولو لمصلحتها لوجدت في دروس العام ٢٠١١ م ما يكفي لإقناعها بضرورة الإصلاح حتى قبل تحرك من لم يتحرك بعد من شعوبها؛ لأن رياح التغيير لا توقف لها، وليس في وسع الوعود وآلة الإعلام الكاذب أن تطيل كثيراً من عمر التخدير للرأي العام، وأن تشل إرادة الناس، وتعطّل فهمهم.

ولا يمكن لأسلوب البطش، وإرهاب الدولة بعد هذه القفزة الهائلة في الوعي والشعور والإرادة عند الشعب العربي أن يقهر إنسان هذا الشعب، ويحدث له الاستسلام.

كل ذلك لا يملك اليوم أن يصرف عن المطالبة بالحقوق، أو يثبت أمام هيبة هذا الشعب وثورته.

ليس حقيقاً بالحكم، والحكم ليس محلاً لمن لم يتعلم من الحكام العرب من دروس العام المنصرم، ولم يفهم أن عليه أن يستجيب للتغيير، بل عليه المبادرة إلى ذلك، وأنه ليس بإمكانه أن يوقف عجلة الإصلاح، ويعطّل حركة التغيير، لأنه كي يستطيع ذلك لا بدّ عليه أن يرجع بإنسان الأمة وعياً، وتطلّعاً، وثقةً بالنفس، واعتزازاً بالذات، وجرأة وإرادة، وتشبّثاً بالحرية إلى مسافات بعيدة تستحيل العودة إليها.

ودروس العام المنقضي تُقدّم خطاباً للحكومات، وخطاباً للشعوب.

خطابها للحكومات: بأنّه لا مجال للّف والدوران، والمغالطة والتميّع لمطلب الإصلاح والتغيير، وأنّ كلّ الوسائل التي تملكها الأنظمة في التحايل، والتضليل، والقمع عاجزة عن مواجهة إرادة الشعوب.

وخطابها للشعوب: بأنّ قدرها أن تنصر بإذن الله إذا أصرت على الحقّ، وسلكت سبيله، وصبرت على التضحيات، وأحسنّت الأسلوب، وصدقت العزم، وأخلصت النية، ووجدت الصفوف.

وجديد العام المنصرم أن قامت أنظمة سياسية بديلة في أكثر من قطر عربي قد تم لها قيامها، أو أنها على هذا الطريق.

وبعد أن تجدد وجود الأمة فكراً ورؤية، وإرادة وطموحاً وعزماً، وشعوراً بالعزة والكرامة، ووعياً وخبرة لن يسع الأنظمة المنبثقة عن الثورات العربية أن تتعامل مع شعوبها تعامل الأنظمة البائدة، وأن تعود بها إلى ما كانت عليه من حالة الإقصاء، والتهميش، والاستغلال، والاستنزاف، والذيلية والتبعية المهينة.

ومن جهة أخرى لا بد أن تترك الأنظمة الطاغوتية التي أسقطتها إرادة الشعوب بصمات سيئة، ومتاعب جمّة، وآثاراً مفرقة، وأزمات متراكمة من مخلفاتها يحتاج للتخلص منها مع الجد والإخلاص إلى جهود مضاعفة، ووعي كبير، وعمل حثيث، وزمن ممتد.^(١)

وحركة الشعوب كلها اليوم إلى الإمام، ولا حركة للخلف.

كل الأنظمة الجائرة عليها أن تعدل.

كل الحكومات المفسدة عليها أن تصلح؛ وإلا فلا مكان لها في المستقبل.

هذا هو منطق الواقع الجديد لإنسان الأمة، وشعوب الأمة، وكل شعوب العالم، وهذه هي الحتمية المترتبة على الصحة، والثورة العارمة في وعي الأمة وإرادتها، والمتولدة من وحي الحياة الجديدة في إيمانها بربها وإسلامها.^(٢)

١- خطبة الجمعة (٤٨٥) ١٢ صفر ١٤٣٣هـ، ٦ يناير ٢٠١٢م.

٢- خطبة الجمعة (٤٨٦) ١٩ صفر ١٤٣٣هـ، ١٣ يناير ٢٠١٢م.

الفصل الأخير

المستقبل السياسي للعالم

مقدمة

ولادة أمل المستقبل

في يوم الخامس عشر من شعبان تأتي ذكرى غالية عزيزة في الإسلام.
إنه يوم ذكرى ولادة الإمام الحجة المنتظر القائم عليه السلام، ومكن له، وهزم به الكفر
والظلم والنفاق، وطهر به الأرض من الرجس والظغيان.
وبورك للأمة المؤمنة يوم هذه الذكرى، وجعله يوم انطلاقة ميمونة في تاريخ أمتنا،
وعهد زاهر جديد.

يوم هذه الذكرى يوم وعي رشيد يمنع من استغفال الأمة عن قيادتها الإلهية التي
أكرمها الله بها ولم يرض لها بديلاً عنها، ويمنع من تميعها وتدجينها، واستلاب
أصالتها، ومن ارتمائها في أحضان الغرب والشرق، والرضا بالقيادات الصغيرة.
يوم يُذكر هذه الأمة بحجمها وكرامتها وعزتها، واختيار الله لها لقيادة العالم،
وتعليم الناس، والإطاحة بالظلم، وإقامة العدل، وتحكيم كلمة الله في الأرض.^(١)

يوم للقضاء على اليأس الذي عملت الطاغوتية العالمية، وآلتها العميلة في الأمة
طويلاً على زرعه وترسيخه في نفوس الأجيال المتلاحقة من أبنائها وبناتها^(٢)، وعلى
هز الثقة بعنف في داخل إنسانها بحيث لا تحدثه نفسه إلا بالتبعية للغير، واسترضائه؛
ليتوقّر على ضروراته في ذلّ ومهانة، من دون أن تأتي في نفسه خاطرة الحرية والعزة،
والنصر، والاستقلال، والكرامة.^(٣)

يوم لبعث الأمل الناهض القويّ المصحوب بالجدّ والسعي العملي، والإصرار على
مواصلة الطريق الشاقّ للنصر والعزّ والكرامة.

١- علينا أن ندرك أننا الأمة التي اختارها الله وَجَعَلَ لقيادة العالم، فنحاول أن نكبر، أن ننمو بقدر يؤهلنا لهذه القيادة.

٢- الإسلام يريد أن يرفع همّة المسلمين، ويرسخ في داخلهم الشعور بالعزة، والكفر يعمل بالإطاحة بنفسية الإنسان المسلم.

٣- هكذا يريدون لنا أن نكون.

يَوْمٌ لانتفاضة الإرادة الإيمانية المكبوتة، واندفاعتها على طريق الهدى والنور والصّلاح؛ لتغيير ما على الأرض من سوء، ونسف ما فيها من طاغوتية، وما تعاني من فساد، وما تشكو منه من ظلم.

يوم للجدّ في العمل في سبيل الله، وإعداد النفس والأمة؛ لتحمل مسؤولياتها الجسام، وحسم معركتها مع الجور في الأرض لصالح الدين والقيم والإنسان، ولمجاهدة النفس أقوى مجاهدة؛ لاجتثاث كل عوامل الضعف والوهن والخور والانحراف منها حتى تستقيم على طريق البذل والجهاد والتضحية؛ من أجل تصحيح كل الأوضاع لا في بقعة ضيقة، وإنما في كل العالم.

يوم يلتحم بالأمة المؤمنة بطريق الأنبياء وأئمة الهدى عليهم السلام على مستوى الفكر والشعور والعمل، ويجعل مواصلة هذا الطريق خيارًا لا بديل له على الإطلاق.^(١)

مراحل المستقبل السياسي للعالم

المرحلة الأولى مرحلة التَّيِّه والضَّياع

النتيجة الحتمية حين يغيب الدين عن الضمير والساحة أن ندخل جميعاً في صراع واصطراع على الدنيا، ونتهارش على جيفتها كما تتتهارش الكلاب، وحينئذ تكون الحقيقة في حركتنا ومواقفنا، وكلماتنا - حاربنا، أو سالمنا، عادينا أو صادقنا، كذبنا أو صدقنا، جاهرنا بالمعصية، أو أظهرنا العبادة - تهاشراً على هذا المتاع الدنيئ الفاني، والجيفة القدرة، والاختلاف إنما هو بتنوع الأساليب، والتفنن في المظاهر.

وهو تهارش يُزهق الأرواح، ويطحن الجماجم، ويحرق الأعصاب، ويحوّل الحياة إلى جحيم وعذاب منقُص هنا، وفي الآخرة مقيم.

وما يطلبه الناس من علاجات لمشاكلهم في غياب الدين والخلق الكريم إنما هي علاجات آنية لا دائمة، وسطحية لا جذرية معمّقة؛ فحيث لا تكون عودة من الأرض للسماء، واستنجد حقيقي بقيمها وتشريعاتها ستظل الأرض تعاني من التمزق والضياغ والشقاء والعذاب، وسيستمر الاقتتال والاحتراب على اللقمة والخرقة والسُرف في الانهماك في الشهوة.

الأرض محتاجة حتماً إلى منهج الله في صياغة الضمير، وتربية الأجيال، وفي ساحة الحكم، وبناء كل الأوضاع.

وهي ستعود مستصرخة بالسماء من شقاء كل الانتماءات والأطروحات الأرضية الشيطانية؛ لتُغاث وتُخلص من عذاباتها المتتالية بعد أن طال بها الشقاء، وسيطول حتماً مادام ركونها لغير الله، وثقتها بغير منهجه.^(١)

١ - خطبة الجمعة (٩٦) ٢٨ ذي القعدة ١٤٢٣هـ، ٣١ يناير ٢٠٠٣م.

أمثلة على نتائج الابتعاد عن الدين

لا حلّ في الأرض بغير دين الله، ستبقى المشكلة الإنسانية تراوح مكانها ما دام الدين مفصولاً عن ساحات الحياة الجادّة، وحركتها العارمة.

١- عشرة بلايين دولار مختلسة من برنامج النفط مقابل الغذاء مما كان مرتبطاً بالعراق، بالإضافة إلى سرقات الحزب ورئيس الحزب في العراق لأموال المحرومين.

٢- مخصصات وأطعمة الجوع في المناطق المنكوبة في العالم، تُختلس وتُسرَق من الأمناء الذين تعتمدهم الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة!

٣- وكلما جعلت رقيباً عليك أن تجعل على الرقيب رقيباً في ظل غياب رقابة الضمير، ورقابة الضمير لا تحيا إلا في ظل خشية الله سبحانه وتعالى.

٤- تقيم المدير؛ ليضبط العمل، فإذا المدير يحتاج إلى ضبط، تقيم الرجل الذي ترى فيه أمانة؛ ليكون أمينك ورقيبك على عدد من العمّال وإذا به يخونك.

أقول باختصار: كلّما نصبت رقيباً في الأرض تحتاج أن تنصب عليه رقيباً ما دام بلا دين.

ومن هم المختلسون والسّراق؟

أهم أصحاب حاجة، يأكل الجوع معدتهم وأمعاءهم؟

لا، إنهم أصحاب قصور، وأرصدة ضخمة.

إنهم ملاك الأرض.

وملاك كنوز الأرض.

وملاك ما على الأرض.

إنهم المترفون.

إنهم أصحاب الثروة الهائلة.

وسرقات واختلاسات بطرق أخرى تعمّ الأرض، وتسيطر على القيم، والمقدّسات، والخلق، والضّمير، والعبادة، والشّرف، والكرامة مستعملة عنوان التجارة، والاستثمار!! وهؤلاء السّرّاق الكبار يقفون صفّاً واحداً دون إيمان أي بلد بالحل الإسلامي، بل حتى بصلاحية الإسلام، وضد احترامه، وحتى الاقتراب منه.^(١)

سيطرة الخوف والرّعب

انتهت الحضارة الماديّة والاستكبار العالمي إلى تعميم الخوف، وسيطرة الرّعب، فلا أفغانستان المستضعفة الفقيرة الممزّقة آمنة، ولا واشنطن المستكبرة الغنيّة آمنة، ولا الحكومات آمنة، ولا الشعوب آمنة.

الدول خائفة من الدول، ومن الأفراد، والجماعات، والدولة في داخلها خائفة من الشعب، والشعب خائف منها، والجماعة خائفة من الجماعة والأفراد، والأفراد يخافون من الأفراد والجماعات.

وتدخل العداوة والصراع والاحتراب داخل الأسرة بين الزوج وزوجه، وبينهما وبين الأولاد بتحريض القانون، وغياب القيم، وسقوط الأخلاق.

وكَلَّمَا شَنَّتْ أمريكا القويّة حرباً كلما تهدد ذلك أمنها بدرجة أكبر، وكأنها تبحث دائماً عن تزايد في عدد الأعداء من الدول والشعوب والأفراد، حتى تُسبب لشعبها أن يموت خوفاً ورعباً، وبما تزرعه من رعب في الأرض كلّها، وما يُعطي من ردود فعل قاسية لا ترحم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.^(٢)

وهذا الاضطراب والرعب والوضع القلق في الأرض كلها لا بدّ أن ينتهي بهذه الحضارة إلى الانتحار، وقيام البديل الحضاري الصالح، وهو الحضارة الإلهية التي توحد الأرض وتنشلها من الظلام، وتصنع أمنها الشامل، ومستقبلها الرغيد.

١- خطبة الجمعة (١٦١) ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ٢ يوليو ٢٠٠٤م.

٢- الحشر: ٢.

يقول سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١)، ويقول عز من قائل: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢).

حقاً إنَّ الأرض مندفة بسرعة في اتجاه هذه الحكومة المنقذة التي لا تريد في الأرض علوً ولا فساداً، تطلبها بكل أوضاعها التي تمثل مقدمة الانهيار لحكومات الاستكبار العالمي التي لا تبتغي إلا علوً في الأرض، ولا تريد إلا فساداً.^(٣)

مِنْ وَهْمٍ إِلَى وَهْمٍ!

كان السود في جنوب أفريقيا وهم الأكثرية يعانون الأمرين من حكومة البيض الأقلية المتفردة الطاغوتية الدكتاتورية يومذاك.

وأخيراً: وصل السود إلى الحكم بعد السعي الحثيث، والبذل الغزير المكلف، والتضحيات الجسام، وعبر مسيرة طويلة.

وبذلك انفتح أمل كل أسود في العدل، والرخاء، والصحة، والتقدم، ونيل الكرامة.

وبعد أن حكم السود، وجاء التطبيق بدأت مشاكل تظهر على السطح، وبدأ الفساد الإداري والمالي، وألوان أخرى من الفساد على يد الأسود كما كان على يد الأبيض، وشكى الأسود من الأسود كما شكى من الأبيض، وجاءت التقارير تحمل أن حكومة السود تشهد من الفساد الكثير.

وهكذا يبقى تنتقل بهم الآمال بل الأوهام من حضن نظام سياسي إلى حضن نظام سياسي آخر، ومن التعلق بحزب سياسي حاكم إلى حزب سياسي آخر ينتقل إلى موقع المعارضة بعد أن كان في موقع الحكم، ومن الوقوع في فخٍّ إلى الوقوع في فخٍّ آخر، ويستمر

١- القصص: ٥٠.

٢- الحج: ٤١.

٣- خطبة الجمعة (٩٨) ١٢ ذي الحجة ١٤٢٣ هـ، ١٤ فبراير ٢٠٠٣ م.

الناس يعطون ويبدلون في سبيل الخلاص على أي طريق، وتحت أي راية وهم لا يلتفتون إلى أن القضية ليست قضية أسود وأبيض، وشرقي وغربي، وغير ذلك، ولا ينتبهون أن الأسود والأبيض في مقام الحكم، وبلا دين وقيم معنوية سماوية، وخوف من الله، واستغناء كل منهما به أسود كالح شقي، مشقٍ ظالم، طاغٍ ظالم لا يؤمن على شيء.

لن يجدوا السعادة في غير الدين

وأنهما مع الدين والقيم ومنهج الله والخوف منه، والرجاء فيه كلّ منهما أبيض ناصع سعيد، وتسعد به البلاد والعباد، عادل منصف يؤمن على أئمن الكنوز وأغلاها، والأرض وما فيها.

القضية قضية دين قويم وتقوى صادقة إلى جنب العلم والخبرة والكفاءة، فإن كان ذلك في أي أرض وعرق وقومية ولغة ولون كانت الحكومة التي تحقق آمال المستضعفين، وإن لم يكن فالآمال خائبة، والعلاقة علاقة مغالبة، وأحسن أوضاع الأرض حينئذٍ هو ما أمكن الصبر عليه، ولم يفقد الناس كل صبرهم أمامه.^(١)

اللثم وراء سراب الديمقراطية

لقد ضاقت الأرض بما رحبت على بلايين المستضعفين في هذا العالم، وغامت واسودّت أجواء الحياة في نَاطِرِي النَّاسِ، ذلك أن الأرض صارت محكومة لقيم المادة بعيداً عن قيم الروح والإيمان وخطّ الله ﷻ، وحلّت عبادة الطاغوت بالحديد والنار، والترغيب والترهيب، والتجويع والإتخام محل عبادة الله ﷻ في المساحة الأكبر من أوضاع الحياة وعند شرائح واسعة منتشرة في المجتمعات.

وغياب القيم المعنوية، وحكم الطاغوت من نتيجته الحتمية التي لا بدّ منها أن تتأزم أوضاع الحياة، وتثقل على النفوس، وتتجاوز بسوئها قدرة التحمل عند غالبية الناس.

١- خطبة الجمعة (٣٦٦) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، ٢٤ أبريل ٢٠٠٩م.

والإنسانية اليوم في غالب أبنائها تحت الضغط الهائل غير المُحتمل الذي تواجههم به أوضاع الحياة بين يأس قاتل، وتمرد مقموع، وتطلع موهوم.

إنه التطلع إلى الخلاص على يد الديمقراطية الغربية المزعومة المكذوبة في منشئها، المهزوزة الفاشلة في نفسها.

إن الديمقراطية الغربية التي تفرض على العراق - مثلاً - اتفاقية تستعبد، وتحتل أرضه وسماءه، وتهين إنسانه، وتلغي استقلاله إلى أجل غير مسمى كما تحاول أمريكا إنما هي ديمقراطية كاذبة، ووسيلة جديدة؛ لتسويق قضية الاستعمار، والاستغلال، والاستعباد للشعوب والأمم.

الديمقراطية التي لم تُخرج إلا حكومات طاغوتية قاسية تعيث في العالم فساداً، وتجري على يدها أنهاراً من دماء الشعوب، وتسرق لقمة الجيعان من سكان الأرض لشهوة جمع المال وتكديسه، وتتلذذ ببيكاء الثكالى وتضوّر المحرومين إنما هي ديمقراطية زائفة كاذبة.

والديمقراطية التي لا تقوم على المنظومة الفكرية والمبادئ الخلقية الإلهية، وحقّ الله وكرامته، ورقابته لا يمكن أن تنتج العدل وتقيم الحق، وتنصر لإنسانية الإنسان وتعرف له كرامته في مجال السياسة أو غيرها؛ ومتى كان للشوك أن ينبت العنب، ومتى كان لما انفصل عن الله سبحانه أن يتنزل على الناس بالرحمة؟!

الديمقراطية عاجزة عن أن تصنع ضميراً طاهراً، وتجذر في نفس الإنسان قيماً عالية، وتبعث روح عدل وإحسان وتضحية وإيثار ورحمة ورأفة، وكل ذلك تحتاجه حياة العدل والإخاء والمودة والاستقرار، وبدونه لا تستقيم الحياة على الخط.

الديمقراطية حتى في منشئها إنما هي احتراب مال الشركات التجارية العملاقة، ومكر وخداع غير شريف، ووسائل كثيرة قذرة على السلطة، ويدخل في ذلك الكذب والدس والتآمر والتشهير بظلم، والدعاوى العريضة الفارغة والمهاترات، وبيع الشعوب، وإثارة الحروب، وتقوم على الهيمنة الإعلامية على أكبر قدر ممكن من الرأي العام لا على التنافس العلمي والعملية بين البرامج السياسية المتواجهة.

النَّاسُ بَيْنَ مُحْرِقَتَيْنِ!

هذا شأن الديمقراطية وأما عن النظام الفردي الأرضي، فهو أسقط من ساقط، وأفزع من فظيع.

والديمقراطية وهي هاجرة محرقة يلجأ إليها الناس من نار الدكتاتورية الفردية الطاغية.

عالمنا في ظلّ النظام الفردي، وكذلك ما يدّعى أنه ديمقراطي كذباً عالمان: عالم من المستكبرين الطغاة المتبذخين، وعالم من المستضعفين المنهوكين الجوعى المسحوقين، وكل منهما مضغوط ومسحوق لمشاعر الصراع، ومستعبد لأوضاعه، ولا يعرف قيمة الإنسانية التي ينتمي إليها، ولا يعرف طعم لذة حقيقية في الحياة التي يعيشها.

وقلّة من النَّاسِ هي التي تعرف هدفها ومنهجها وقيمتها، وتشعر بلذة دورها الرسالي، وخطّها الذي آمنت به مصيبةً للواقع، منشدةً إلى الحقّ الجلي، وإن كان ذلك وسط متاعب جمّة ومعاناة مستمرة مما تلقي به الأوضاع المزرية المرهقة لحياة صنعها الاستكبار في الأرض بعيداً عن النهج الإلهي الحق من ظلال سوداء ثقيلة يطال عذابها كل إنسان.

التَّطَلُّعُ إِلَى الْخُلَاصِ

والتطلع إلى الخلاص تطلّع مشروع مبرّر تدفع إليه البلايين من الناس دفْعاً قوياً بضغط الظروف المأساوية التي يولدها الانحراف والظلم على المستوى الإنساني والمعيشي على حد سواء.

أما التطلع إلى الديمقراطية منقذاً، فهو من تمسك الغريق بالطحلب، والزبد الذي يذهب جفاء.

وإذا كان التطلع هو تطلّع إلى إنقاذ الحق من الباطل، والعدل من الظلم، والرحمة من القسوة، والإحسان من العدوان، والصدق من الكذب، فهذا التطلع في روحه ولبّه وعمقه وحقيقته إنما هو تطلّع ليوم الظهور، يوم الإسلام الصادق، والإمام الموعود عيسى عليه السلام.

فتطَّلَعُ البلايين للخلاص الذي إنما يدفع إليه حسب الواقع بُعد المسيرة البشرية عن الله، والانحدار عن خط دين الحق، وإقصاء القيادة الربانية الرشيدة والتي يمثل المعصوم عليه السلام النموذج الأعلى لها عن موقع الصدارة إنما هو تطلُّع إلى الإسلام المضيق، وقيادته المغيَّبة.

ولو وصل الإسلام بصورته الحقيقية إلى البلايين، وتعرفت على معالم القيادة الإلهية على واقعها لكان انتظار الناس على مستوى العالم، وبصورة صريحة، وبصوت مرتفع للإسلام لا للديمقراطية، وللقائم عليه السلام لا لزعامات الأرض المصطنعة والتي لا تلتقيه على خطِّه الصاعد القويم.

ولهذا لا تجد جاهلية القرن عدوًّا لها كالإسلام، ولا تجد أثقل عليها من الحديث عن القائم عليه السلام ومقتضياته، وهي لا تبذل جهودًا مضادة على جميع مستوياتها.

وفي العالم كله كما تبذل في مواجهة الإسلام وتشويهه والكذب عليه، ومحاولة تزييفه ومسخه، ومزجه بالردئ الساقط، وإسقاط رموزه وقيادته، والتقول عليها وتغييبها، ولا تترك شيئاً في الوسع إلا وبذلته للحيلولة بين الصورة الحقيقية للإسلام وقيادته وبين جماهير الأمة المسلمة، فضلاً عن جماهير العالم.

وهنا تكبر مسؤولية الرساليين فيما يتعلق بتبليغ الإسلام، ونشره، وتوصيله، وعرضه على العقول والأفئدة بما هو عليه من حُسن، وصدق، وأصالة، وإخلاص، وكفاءة، وشموليَّة، وعلم، وروعة، وتخطيط، ودقَّة منهجة، ورحمة، ورأفة.^(١)

وَهُمُ الْأَطْرُوحَاتُ وَالنُّظُمُ الْأَرْضِيَّةُ

نحن نعرف أن الشيوعية قد سقطت، وسقوطها لعدم التناسب بين الحكم والموضوع.

الشيوعية أُريد لها أن تكون منهجاً لحياة الإنسان ونظاماً.

يعني جملة أحكام وتشريعات ورؤى وقضايا تحكم تحرّكه وعلاقاته، وإذا جاء النظام والحكم بعيداً عن طبيعة موضوعه، فلا يمكن أن يستقيم.

١- خطبة الجمعة (٣٣٨) ١٣ شعبان ١٤٢٩هـ، ١٥ أغسطس ٢٠٠٨م.

لكل موضوع ما يناسبه من أحكام، وحيث تتفارق طبيعة الموضوع وطبيعة الحكم لا يمكن أن تقبل الناحية الموضوعية استمرار حمل الحكم على الموضوع.

وبلغة أخرى لا يمكن أن ينجح نظام للإنسان تضعه على لموضوع النبات، ولا يمكن أن ينجح نظام يتناسب مع الحيوان تضعه للإنسان، وهكذا يكون لكل موضوع حكمه الذي يتناسب معه.

ولمخالفة النظام الشيوعي لطبيعة الإنسان كان لا بد أن يسقط، وستسقط الرأسمالية في المال والاقتصاد، وستسقط الديمقراطية، وسيسقط كل طرح آخر يُراد له أن يكون نظاماً للإنسان، ومنهجاً لحياته على بعده عن طبيعته.

إنه سبب يقف وراء سقوط كل الأطروحات التي جربها تاريخ الإنسان، وكل الأطروحات التي يمكن أن يجربها في حاضره ومستقبله وهي بعيدة عن التناسب مع موضوع الإنسان.

وهذا الإنسان قد حقق نجاحات واسعة هائلة في مجالات كثيرة معروفة: في الصناعة، في الزراعة، في المواصلات، في الطب، في الاستفادة من الطبيعة، في تسخيرها لأهدافه، وقد عانى من التخلف الذريع في علاقاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأمنه واستقراره وهدايته، وأن يكون على طريق الغاية التي تتناسب مع كرامته بما هو إنسان.

واشتغل كثيرا عن هدف السمو والتكامل الإنساني، والإشعاع الروحي، والنمو في ذاته، من حيث الروح رغم كل النجاحات القافزة التي تحققت في حياته المادية، وقد عجز عن أن يحقق علاقات عادلة بين أفراد ومجتمعاته.^(١)

السبب: إنه في مساحة التعامل مع الطبيعة، في البعد الطبي، الزراعي، الصناعي، غيرها صار يعترف بقوانين الله، ويخضع لها، ولحدّية هذه القوانين، ولسرعة مفعول معاندتها ومكابرتها، والتي لا تسمح للإنسان بأن ينسى تأثيرها كان لا بد للإنسان أن

١- ورغم تقدّمه الصناعي والزراعي، وفي فنون عملية نافعة كثيرة كفن الإدارة، ظلت مشكلة الفقر والمرض والبؤس العام تفرضها نفسها على الملايين الفقيرة من أبنائه.

يخضع لها، وأن يستكين، وأن يجري مجراها، وإذا حاول أن يتغلب على قانون إنما يتغلب عليه بقانون آخر مما سمح الله تبارك وتعالى له بأن يتغلب به على ذلك القانون.

أما هو في المساحة الاجتماعية والسياسية، وفي العلاقات الإنسانية فكابر، وعاند قوانين الله، وقوانين الله كما هي حاكمة في المجال الطبيعي هي حاكمة في المجال الاجتماعي، وفي المجال الإنساني.

هناك لم يحاول البحث عن البديل، وهنا حاول البحث عن قوانين بديلة، وكابر القوانين الطبيعية التي هي من خلق الله تبارك وتعالى وتكوينه.

تحدث للإنسان على هذا الأساس الهزّة بعد الهزّة، والاضطراب بعد الاضطراب، ويستتبع هروبه عن الله وَخَلَّزَ دُرُوسًا قَاسِيَةً فِي حَيَاتِهِ، فتقوم حروب طاحنة، وتسقط حضارات، ويستوعب حياة المجتمعات فقر متقع، ومع ذلك لا يتعلم هذا الإنسان كثيرًا، ولا يدرك أن وراء كثير من أزماته ومشكلاته هذا الإدبار، أو هذه المعاندة والمكابرة لقوانين الله وتشريعاته.

الهزّة المالية العالمية الأخيرة، وتأثر النظام المالي، وما سينسحب على النظام المالي والاقتصادي بشكل عام من سلبيات هائلة هو إنذار إلهي، وتعزية لقيمة النظام الرأسمالي، وبداية سقوط وتهاوي لهذا النظام.

والديمقراطية عرّتها حروب أفغانستان والعراق وأهدافها، والتدخل الغربي في لبنان وغيره، والدعم للدكتاتوريات الموالية، والمواجهة للأنظمة التي لا تحقق المصالح الخاصة لأمريكا والغرب وإن كانت أكثر احترامًا لرأي الشعوب، وحفاظًا على كرامتها. والجاهلية المادية ستكابر طويلًا ما استطاعت دفاعًا عن وجودها ولكن المحتوم آت، وكل الفقاعات الأراضية ستنتهي وسيبقى الإسلام.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

تهاوي الحضارة الماديّة

انظروا أن الشيوعية سقطت ودولتها قائمة، ووراءها قوة سلاح نووي، وأمبراطورية كبيرة.

نعم سقطت الأطروحة برغم القوّة التي تحتضنها وتدعمها.

وانظروا للرأسمالية وهي تأخذ طريق نهايتها، ودول كثيرة قوية لا زالت تدعمها. سقوط النظرية من داخلها، وفقدانها لقيمتها، وشهادة الواقع على فشلها، وعدم كفاءتها لقيادة البشرية، بينما القوّة الباطشة لا زالت تحميها، العمارة المادية لا زالت قائمة شامخة تشير إليها دليل على الخواء.

أما الإسلام، فصار يعيش القرون بلا دولة، سقطت الدولة، ولكن الدين لم يسقط، والأطروحة صامدة، وعاندت على الزمن، وستبقى ثابتة، والقلوب معها، والناس الآن سيؤوّن إليها.

فارق جوهرى علينا أن نتأمله، وندرك قيمة الإسلام من خلاله.^(١)

الدّوران في حلقة الوهم

ودولنا في العالم الإسلامي لا تتعلم.

لا زلنا نواصل رحلة الغباء، ورحلة السقوط، ورحلة الانحدار.

لا زلنا نأخذ طريقنا إلى التيه، في هروب دائم عن الله في اتجاه الغرب، وعن شريعة الله ﷻ إلى شريعة الأرض، وعن أخلاقيات السماء إلى أخلاقيات الحيوان في حضارة القرد.

لا زال المسلمون لم يكتفوا من سموم الحضارة المادية.

هناك إصرار من حكومات كثيرة في البلاد الإسلامية، ومن أحزاب في البلاد الإسلامية على أن يدخل المسلمون كل الأنفاق المظلمة التي دخلها الغرب، وأن نتلوث بكل

١ - هتاف جموع المصلين والشيخ ب: (ليبك يا إسلام).

المستنقعات التي تلوثوا بها.

الأنظمة تدفع دائماً إلى التخريب الثقافي والاجتماعي والديني والمعيشي بما يضعف الأمة، ويفصلها عن هويتها، ونعرّب أجيالها، وهي جريمة بشعة في حق هذه الأمة المجيدة، وفي الإنسانية جمعاء.^(١)

أين الحلُّ؟

لقد قالوا: إنَّ الحلَّ في العلم.

وقد تقدم العلم كثيراً، وقفز على خط تقدّمه قفزات عالية، وبقي الظلم والخوف والفقر والمرض والتمزّق والعدوان والكوارث المدمّرة التي تجري على يد الإنسان وآلاته العلمية العملاقة، وسلاحه النووي والكيمياوي والجراثومي، وبخطط جهنمية قائمة على العلم ومكر سياسي خبيث يعتمد عطاء الدراسات العلمية، والتجارب العملية!

وتقدم بتقدم العلم الاقتصاد، وتضاعفت الثروة، وتضاعدت أرقامها إلى أرقام فلكية هائلة، ولا زال التشرد والبطالة والفقر والرعب والأمراض وموجات من الوباء الفتاك تجتاح الملايين في بلاد المليارات والأرقام الكونية في تعداد المال!

وتقدمت بتقدم العلم المواصلات والاتصالات، وحولت العالم إلى ما يشبه القرية الواحدة من حيث سرعة الانتقال وانتشار المعلومات وسعة هذا الانتشار، وتقدمت في ظل الطفرات العلمية جنابات كثيرة من الحياة ولكن؛ ليزداد شقاء البشرية بقدرة المفسدين على التدمير الهائل الواسع للأمن العالمي، ولأخلاق الإنسان، وكيان الأسرة والمجتمع، وتعميم حالة القلق والاضطراب، والترقب السيئ، والخوف من الآخر، وفقد الثقة.

وبقيت مشكلة الاستكبار والاستضعاف تحكم علاقات العالم، والمجتمعات، والفئات والأسرة، وتمثّل منبع فساد دائم وخراب عميم!

لقد قدّم العلم في غياب الإيمان والقيم الأخلاقية لطغاة العالم قوّة بطش وتحكّم وسيطرة ظالمة، وإرعاب وإخافة وحروب طاحنة مدمّرة، وإفساد كبير في الأرض بصورة

١- خطبة الجمعة (٣٤١) ١٧ شوال ١٤٢٩هـ، ١٧ أكتوبر ٢٠٠٨م.

مضاعفة وواسعة جداً سهّل الوصول؛ لتحقيقها عليهم بما زاد الأوضاع سوءاً، ومشكلة العالم تعقيداً.

وبقيت المليارات من أبناء البشرية في أفريقيا وآسيا وغيرهما تحت خط الفقر، وبقيت بلاد كثيرة في العالم تشكو وتهدّد من فقد المياه الصالحة للشرب، ومن الحاجة إلى شبكات الصرف الصحي؛ لتتفاقم في أوساط شعوبها الأوبئة السارية والأمراض الفتاكة.

وصار أناس هذا العالم اليوم وفي ظل التقدم العلمي وتضاعف الثروة، ولتخطيم القيم بآلة العلم على أيد الطغاة الجهلة أخوف ما يخافون على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ودمائهم من بعضهم البعض، ومن عدوانية الإنسان للإنسان، وجاهليته ووحشيته وخيانتته وإباحيته، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والمجتمعات والدول. لقد برهن العلم وبدرجة بالغة، وصورة قاطعة على عدم كفاءته في غياب الإيمان، وأخلاقيته الكريمة عن حل المشكلة البشرية، وأكثر من ذلك أنه ضاعفها.

ولقد قالوا: إن الحل في الديمقراطية.

ولا حديث عن الديمقراطيات الناقصة والمزورة المكذوبة، وإنما الكلام عما يوصف بأنه ديمقراطية عريقة وكاملة ونموذج ومثال.

وقد طبقت الديمقراطية التي يدّعى لها أنها من النوع الثاني، وهي نوع من الحكم أساسه في الحقيقة الاحتراب السياسي المفتوح على أقذر الأدوات، وأسقط الأساليب، وأمكر المكر السيئ؛ لإبراز الذات، وإسقاط الآخر، والتحايل على كسب الرأي العام الذي يعدّ الأداة الفعّالة في الوصول إلى مواقع السيطرة والتحكّم.

وفي غالب هذه الديمقراطية أنها حكومة رأس المال الضخم بأرقامه الهائلة المستنزّفة بمهارة وفن وروح إباحية جافة وقاسية من عرق المستضعفين؛ لتمكّن لحكومة المستكبرين، وتسلبهم المناصب عن طريق التلاعب بالرأي العام الذي يُسخّر المال في كسبه بصورة بشعة.

لقد أصبحت الديمقراطية عملية مقاومة خطيرة، وتجارب مستمرة غير مضمونة تمارسها الشعوب فيمن تختارهم؛ لتكتشف في كثير من المرات أنها أخطأت الخيار، وأحكمت طوقاً حول رقبتها حين أوصلت عناصر المغامرة بحياة الشعوب وإنسانيتها ومكاسبها في سبيل طموحاتها الشخصية وغرورها إلى مواقع الحكم والسيطرة.

والديمقراطية من بعد ذلك صراع غير شريف، وحرب استنزاف، وحرق أعصاب للشعوب بين الحكم والمعارضة.

وهو صراع مصالح شخصية وحزبية وقبائلية في أغلب الأحيان والبلدان.

وهي حرب يخوضها طرف الحكومة والمعارضة في بيئات الديمقراطية العريقة بإمكانات الشعوب ولشغلها عن الآلام، وتنافساً على كرسي الحكم وامتيازاته الكبيرة.

وكثيراً ما تتناوب المعارضة والحكومات على الكرسي؛ لتمارس معارضة الأمس وحكومة اليوم دور سابقتها في التلاعب بمقدرات الأمة ومقدراتها وقراراتها المصيرية، ولتمارس حكومة الأمس ومعارضة اليوم دور سابقتها في التنديد بالظلم والسرقة، وتوزيع المناصب والأخطاء الخطيرة للحكم، وهكذا يتغير الدور كلما تغير الموقع.

وكل المشاكل التي لم يحلها العلم لم تحلها الديمقراطية، والمآسي الإنسانية المتفاقمة في ظل العلم بقيت متفاقمة في ظل الديمقراطية.

والحروب الظالمة، واستنزاف خيرات الشعوب، واستعباد أبنائها، وفرض الهيمنة الاستكبارية برؤوس الأموال المنهوبة أو المنتجة، وبأفتك الأسلحة وأقذرها وأشدّها وأوسعها طاقة تدميرية، وسياسة التمييز الظالم، وإلغاء الآخر، كل ذلك لم تقل منه الديمقراطية الأصلية العريقة المثال، بل صارت المصدر الأول لكل هذه الكوارث والمآسي ومضاعفتها.

الديمقراطية التي لا تؤمن بقيم عالية، ولا تقوم على تربية خلقية.

ولا تشترط مستوى إنسانياً كريماً في مرشح الرئاسة فضلاً عن دونه، ولا تنظر

إلى دين، ولا تقيم وزناً لكلمة الله، ولا تتجاوز بنظرتها شهوات الحياة لا تعني إلا صراعاً مفتوحاً وإباحياً على الحكم، ثم مكتسباته ولو بأقذر الوسائل وأشدّها ضرراً بالأمة.

إنّ الصراع الأرضي الجاهلي الوسخ الذي قد يأخذ صوراً ناعمة مأكرة مسمومة؛ لينقلب إلى صورة حرب دموية ساحقة مكشوفة في بعض الحالات والظروف، وحين يمتنع النصر عن طريق الوسائل الناعمة.

هذا هو حال الديمقراطية.

أمّا الديكتاتورية وهي حكم هوى الفرد، أو العائلة، أو الحزب الواحد بلا شريك ولا معارضة قادرة فليس مثل سوءها سوءاً، ولا قبحها قبحاً، ولا صديدها صديقاً، ولا كارثتها كارثة.

ومن الحق أن يقال: بأنه يستحيل أن يقوم حكم رشيد عادل في الأرض بلا دين حقّ، وفهم صادق أمين لهذا الدين، وتربية إلهية عامّة، وقيادة دلت عليها السماء.

وحتى المنهج الإسلامي الرشيد لو توقّرت عليه الدنيا في أصدق وأنقى صورة له إذا لم تسعفه تربية من نوعه تصحّ العقول، وتطهّر القلوب، وتزكّي النفوس، وتستبدل عن الأهداف الأرضية الوضعية الوضيعة الهدف الإلهي الرفيع، وتحول التنافس إلى تنافس أخلاق، والسباق إلى سباق فضائل بدل تنافس الشهوات والنزوات، فإنه لا يحلّ المشكل.^(١)

والمنهج الإسلامي على سموّه بلا قيادة من جنسه لا يمكن أن يتم به الحل.

وإنما الحل في المنهج الإلهي الصدق، والقيادة الربانية الحق، والتربية الإسلامية الرشيدة التي تزرع في الناس رؤية الإسلام، وأهدافه، وقيمه، وأخلاقه.

فمن كانت له شفقة على أهل الأرض، فليفهم الإسلام، ويخلص له، ويصدق معه، ويعمل في الناس ما استطاع على نشر هداية.^(٢)

١- الإسلام نفسه لا يستطيع حل المشكل بلا تربية منه تساند منهجه السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، ... إلخ.

٢- خطبة الجمعة (٤٠٣) ٣٠ ربيع الآخر ١٤٣١هـ، ١٦ أبريل ٢٠١٠م.

ويستمر الصِّراع بين الحق والباطل

مرت أمم وأمم من الكفار على مدى التاريخ، حققت انتصارات وقتية في معاركها مع خط الايمان، ومواكب النبيين والشهداء والصالحين، لكنها سقطت أطروحات ومناهج، وتعاقبت مناهج متلونة من الطرح تتقدم لتراجع، وتقوم لتسقط.

وقد أتى قدر الله على تلك الأمم، فأحالتها إلى عدم.

وعند النوازل القاصمة من قدر الله كان يضج الظالمون، وينادون بالويل والثبور، وربما استغاثوا بالله، أو طلبوا مفرًا ومهربًا، ولكن الحين ليس حين فرار ولا خلاص، ولا استجابة، ولا استغاثة، أو دعاء، فالعبيد قد ينتفخون ويستعلون ويستكبرون، ولكنهم في الأخير يقهرون ويذلون ويخنعون، والعزة بالحق لله الواحد القهار وحده، ثم لمن آمن واهتدى، وأطاع الملك الأعلى، لا لمن تمرد وكفر، وطغى وتجبر.

فهذا سيره القدر حيث لا صبر ولا مفر.

ومصائر المستكبرين تقول للمستضعفين: لا تعبدوا إلا الله، ولا تستكينوا خاشعين إلا إليه، وأن لا قدر إلا من قدر الله، ولا خير ولا شر بمصيب أحدًا إلا بإذنه.

والانقسام بين الكفر والإيمان انقسام مستقل لا صلة له بالانقسامات الجغرافية والقومية والعنصرية، ولا بأي انقسام آخر، فمعسكر الإيمان ينتشر في كل الأرض، وفي كل القوميات ومن مختلف المستويات، وكذلك هو معسكر الشرك والكفر والإلحاد.

ولن تخرج الأرض من الفوضى والاختلال، والأمم من المواجهات الساحقة حتى تُوَحِّد الله، وتُرجع الأمر إليه، وتحتكم إلى منهجه العدل القويم.^(١)

وتنتقض عرى الإسلام

لوسألنا أنفسنا: لماذا ظهور الإمام عليٍّ (عليه السلام)؟

يأتي الجواب من الأحاديث المنقولة من أهل العصمة (عليهم صلواته وسلامه عليهم أجمعين من النبي وآله عليهم أفضل الصلاة والسلام)، السبب هذا: «لتنقض

عرى الإسلام عروة عروة، كلما نقضت عروة تشبث الناس بالتشيء، فأولهن نقض الحكم، وآخرهن الصلاة^(١).

فالإسلام وبعد فترة وجيزة من حاكميته الكبرى صار يتعرض على أيدي البشر إلى انحسار جزئي يكبر شيئاً فشيئاً.

كان الحكم الإسلامي على يد القيادة المعصومة المباركة المختارة من الله سبحانه وتعالى به تمام الإسلام، وبه استمرارية الإسلام وهو ما يفهم من قوله تبارك وتعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾^(٢)، فلا تمامية للإسلام، ولا بقاء للإسلام، ولا شهود للعدل الإسلامي ومرونة الأطروحة الإسلامية إلا من خلال الشكل الكامل، وبصوره النامة إلا من خلال حكم المعصوم (عليه أفضل الصلاة والسلام)، ويأتي حكم من دل الأئمة عليهم السلام على حكمهم في غيبتهم في الدرجة الثانية من حيث حفظ الإسلام، ومن حيث تجلي صورته الرائعة في أفئدة الناس، وفي الواقع العملي والساحة الخارجية.

أما حين يغيب الإسلام على مستوى الحكم، فإنه لا بد أن يبدأ العد التنازلي للإسلام على كل الأصعدة، ومن مختلف الحثيات، وهذا ما حدث بالضبط.

الصلاة هي آخر عروة تنقض، وفعلاً نقضت الصلاة على مستوى التطبيق العملي في كثير من أوساط المسلمين، وجاءت مدة من الزمن تقلص فيها وجود الصلاة إلى أن ضاق في حدود شريحة اجتماعية ضيقة جداً، ثم بدأت الصحو؛ لتعود الصلاة؛ وحيويتها؛ وفعاليتها بدرجة ما.

وربما واجهت الصلاة أيضاً إنكاراً عملياً حتى جاءت دعوات تقول: بأن الإسلام يعني أن لا تبغض الآخرين فقط ألا تعادي الآخرين فقط، ومنهم هؤلاء الآخرون سواء كان مؤمناً أم كان كافراً عليك ألا تبغض أحداً حتى لعمله عليك، ألا تبغض أحداً حتى لباطله^(٣).

١ - الأمالي - الشيخ الطوسي - ص ١٨٦.

٢ - المائدة: ٣.

٣ - خطبة الجمعة (٣١) بتاريخ ١٦ شعبان ١٤٢٢هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠١م.

يعود الإسلام غريباً!

من أحاديث هذه المسألة، وما يقف خلفه وراء ظهور الإمام هذا الحديث الشريف:

١- «بعثت بين جاهليّتين لأخراهما...»^(١)، الجاهلية الأولى التي كانت قبل البعثة جاهلية طاغية، جاهلية مقتته، إلا أن الجاهلية التي تعقبت حكم الإسلام هي جاهلية أكثر طغياناً، وأكثر عمى وأكثر إغراء؛ لما يدعى لها من باب الزور من حيث التأسيس الزائف لفكر الجاهلية وتقديمه في صورته مفلسفة تغري كثير ممن لا يملك أن يمعن الفكرة وألا يتأمل، وإذا تأمل لم يسمع له عمقه الفكري بأن ينفذ إلى الحقيقة.

٢- «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(٢)، وأنتم تجدون غربة الإسلام حتى في مساجده وفي قلاعه، وأنه مطارد في كل زاوية من زوايا المجتمع المسلم والوطن الإسلامي العام، وأن المؤمن يتوجس خيفة في تنقلاته، وإلى طرح فكرة يطرحه؛ ليواجه من كثير من الأقاليم، ومن كثير من الألسن، وينكر له حتى شرائع تحسب على الإيمان والمؤمنين!

هذا كله لا بدّ به من أن يظهر الإمام حين تكاد الأرض تغرق في الجهل، وحين تغيم الحقيقة، ويكاد يتعذر على طالب الحقيقة أن يصل إليها، وهذا الظرف ظرف أن تغيم الحقيقة، وأن تسد السبل عن الكثير للوصول إلى أي ضياء الحق هو ظرف إرسال الرسل وظرف مجيئ المصلحين والمصلح الأكبر هو الإمام القائم، فلا بدّ من أن تتسم الحجة لله على الناس أن يظهر في الوقت المحدود.^(٣)

ما أحوالنا للمنقذ

١- نحتاج إلى نظام منقذ موحد للعالم.

١- الرواية: «بعثت بين جاهليّتين، لأخراهما شرّ من أولاهما»، العقل والجهل في الكتاب والسنة - محمد الريشهري - ص ٢٧٣.

٢- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٨ - الصفحة ١٢.

٣- خطبة الجمعة (٣١) بتاريخ ١٦ شعبان ١٤٢٢هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠١م.

والنظام البيئي، والنظام القومي، والنظام القطري، والنظام العنصري، نظام أرضي لا يستوعب الأرض والسماء، ولا يستوعب علاقات الكون كلها، ولا يستوعب ما تزدهم به كينونة الإنسان، وهو لا بد أن يكون عنصرياً، وهو لا بد أن يكون قوميّاً، فلا تتوحد الأرض إلا في ظل نظام منقذ من رب الأرض والسماء؛ لتتحد مسيرة الأرض، وتلتحم بالمسيرة الكونية العامة في تناسق وتناغم، يوصل إلى الهدف الكبير.

الحاجة إلى النظام المتقدم الموحد، وليس هو إلا النظام الذي يأتي على يد الرسل من خالق الكون كله.

٢- الإنسانية ضلت كثيراً في محاولتها؛ لتحقيق السعادة التي تطيقها الدنيا، فكيف ترسم الدرب إلى سعادة الآخرة؟

مرة ننظر إلى الإنسان على أنه مادة فقط، ضرورات وحاجات ومطامح وآمال مادية، ومرة ننظر إليه على أنه حاجات وضرورات ومطامح مادية وروحية معاً.

توازي الضرورات، والمطامح، والآمال المادية فيه ضرورات ومطامح وآمال روحية عليا.

ومرة ننظر إليه أنه ابن الدنيا فقط، ومرة ننظر إليه ابن الدنيا والآخرة.

والإنسان في واقعه ابن الدنيا والآخرة.

والإنسان في واقعه مادة وروح.

والنظام الذي يكفل معالجة مشاكل المادة والروح ليس هو إلا النظام الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى، وكل الخيراء في الأرض يعجزون عن إبداع هذا النظام من دون بعثة الرسل.

٣- الأطروحة الكاملة لا تحل المشكل من دون قيادة كاملة.

الإسلام الكامل إذا طبق على يد إنسان ناقص أصبح نظاماً ناقصاً.

أي أطروحة تأخذ حجمها في مقام التطبيق، من مستوى القيادة التي تطبق هذه الأطروحة، لا يمكن أن تكبر الأطروحة من ناحية عملية، القيادة الأمانة على أمرها،

الإسلام الإلهي الكبير، الإسلام الأطروحة المعصومة، لا يمكن أن يبقى في التطبيق العملي معصومًا، ولا يمكن أن يبقى على نقائه السماوي، إلا على يد الرجل الذي ينشد بكله إلى السماء، فلذلك لا بد من أنبياء، ولا بد من مرسلين.

٤- البشرية كلها - بكل مستوياتها - تحتاج إلى قدرات تشع بأكبر طاقة ممكنة للإنسان، بالصفات الكمالية؛ لتعطي التربية والتكميل للآخرين.

أنتم تجدون أن عمالة الروح في عالمنا الإسلامي، كما هم عمالة الفكر يستدفئون بروحية المعصوم، يقتبسون هداياتهم من شخصيات المعصومين عليهم السلام، يشعرون أمام روحية المعصوم عليه السلام، الإمام الخميني وعرفانيته، أبو ذر وزهده وتقواه، سلمان المحمدي وانقطاعه إلى الله، يشعر باليتم، يشعر بالغربة، يشعر بالفقد، عندما يبتعد عن المعصوم عليه السلام تلك المنارات التي لا تشع في أفق محدود من الدنيا، إنما أفقها أفق الدنيا بكاملها، أفقها أفق الحياة كلها، أفق اشعاعها، ذلك الأفق الواسع الممتد؛ لتهتدي كل الأجيال إنما تتجسد في الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المعصومين عليهم السلام.

تأتي منارات في الطريق.

السيد الإمام منارة.

السيد الشهيد منارة.

علماء المسلمين من المذهبيين يمكن أن يكونوا منارات، لكن هذه المنارات تمتد إلى زمن، تحدث موجًا ويبدو هائلًا إلا أن هذا الموج يبدأ ليختفي، يبدأ ليتراجع مع الأيام. أما الموج الذي لا ينحسر، والمد الذي لا يعقبه جزر، فهو مد نور النبوة، ونور الرسالة، الذي يبقى دائمًا يستقي ويستمد من نور الله سبحانه وتعالى.

فالنور الذي يكون قدوة، والنور الذي يكون حجة على الأجيال، هو نور ذلك الإنسان الكامل النبي والرسول، ووصي النبي والرسول.

البشرية كلها تحتاج إلى قدوات تشع بأكبر طاقة ممكنة للإنسان بالصفات الكمالية؛ لتعطي التربية والتكميل للآخرين.

وهذه القدوات هم الرسل والأوصياء.

وانظر إلى ما عليه مختلف الأمم من درجة التحلي بالقيم الروحية تجد أنها تتفاوت في ذلك بقدر ارتباطها بخط الرسل.

تخفت الروح تمامًا، وتبتسر الأخلاق، وتعم الفوضى الخلقية، وتتركز الحيوانية والوحشية، بقدر ما تبتعد أمة عن خط الرسل وهدايات الأنبياء، والعكس هو الصحيح. على أن الرسل لم يأتوا بديلاً عن المختصين، ولإعفاء الناس من مهمة الإبداع والاختراع، إنما جاؤوا؛ ليثيروا في الناس الحركة على مستوى كل الأبعاد النافعة، ويستثيروا فيهم دفائن العقول، ويفجروا فيهم منابع الخير.^(١)

المرحلة الثانية

مرحلة الظُّمور والثَّوْرَة العالَمِيَّة

يوم الخلاص

تشتدُّ أزمة العالم يومًا بعد يوم، وتزيد الأوضاع في الأرض سوءًا، ويضيق الناس بحياتهم ذرعًا، ويضيق بهم الخناق بما عمَّ وتعمَّق من ظلم، وما تعلق من سوءٍ في ظلِّ الهروب عن الدين، والإدبار عن الله، ونسيان القيم.

وهناك يوم إنقاذ للأرض من ويلاتها، وللإنسان من مأساته، ويوم خلاص. هذا الإنقاذ لا يمكن أن يكون على يد أنظمة قائمة أو مستجيِّدة، وحكوماتٍ شاخصة أو بديلة، وشعوب خاملة أو مزمجرة إذا كان الكل من المتخلِّين عن الدين، الهاربين عن الله، المكبِّين على الأرض.

هذا الإنقاذ هيَّا الله سبحانه له رجالا لا يتَّخذ من دونه إلهاً في شيء، ولا يستبدل عن دينه في كبيرة ولا صغيرة، ولا يتخلَّف عمَّا أمره، ولا يُقَدِّم على ما نهى، ولا يأتي حركة إلا بإذنه، ولا يعدل به عمَّا كُلف به دينًا إعصارٌ ولا زلزال.

ويعِدُّ له جيلًا لا رأي لهم إلا الإسلام، ولا إيمان عندهم إلا بقيادته المعصومة، وأكبر همُّهم إعزاز الدين، وإظهار كلمة الله في الأرض، وأن تكون في حياة النَّاس هي العليا على المكشوف كما هي في الباطن.

الأرض غارقة في الظلام، مملوءة ظلمًا وجورًا، ولا تخرجها من ظلامها، وظلماتها ديمقراطية ولا شيوعية، ولا رأسمالية، ولا اشتراكية، ولا علمانية، ولا قومية، ولا عصبية وطنية، ولا حكومات استكبارية، ولا حكومات تابعة ذليلة، ولا شعوب تختار نفسها على خلاف ما اختار الله لها، وتُعطي لرايها حقَّ السيادة والتشريع في قبال سيادته وتشريعه. ما يُنقذ الأرض، ما يخلصها، ما يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ما يُنهي

مأساة الظلم والتمزق والافتتال في حياة الناس هو ما يأخذهم في اتجاه الله وَعَلَى وعلى طريقه، ويخرجهم إلى عبادته من عبادة الطاغوت، ويخرس صوت الشيطان في حياة المجتمعات، وهو الإسلام عقيدة، وشرعية، وأخلاقاً وقيماً، ومنهجاً وقيادة تجسد الإسلام علماً وعملاً لا تضيق منه شيئاً، ولا يفوتها منه شيء، ولا تخالفه في شيء، ولا تخذله في أمر، وهي قيادة الإمام القائم (عجل الله فرجه الشريف، وجعلنا من أنصاره وأعوانه في غيبته وظهوره).^(١)

يوم الظهور والثورة

وهو يوم مواجهة الطاغوتية العالمية والجاهلية المنتشرة التي تكاد أن تكون قد دخلت كل بيت.

ولا يُدرى أنه يبقى بيت لم تدخله الجاهلية حين ظهور الإمام عليه السلام أو لا يبقى.

هو يوم على الكافرين والمؤمنين عاصب إلا من رحم الله؛ عاصب على الكافرين لما يواجهونه من شدة الإمام القائم عليه السلام، وقتل ذريع، ونسف كيان، وعاصب على المؤمنين، لأنه يوم امتحان كبير، يوم ابتلاء عظيم، تُمتحن فيه النفس المؤمنة.

يوم القائم عليه السلام يحتاج إلى مؤمن من مستوى خاص، وعلينا أن نؤهل أنفسنا لذلك المستوى؛ لئلا نخسر قضية ارتباطنا بالإمام القائم عليه السلام.

يوم شدة، يوم هول، يوم مواجهة للطاغوتية العالمية، ونحن لا نصبر حتى على المعارك الصغيرة، فكيف بمن لا يصبر على معركة صغيرة أن يصبر على معركة هي أكبر المعارك، يضحي فيها المؤمن بكل شيء، ليس بنفسه فقط وإنما بأهله وولده، ويضحي فيها بما أسسته التربية المنحرفة في داخله، يضحي فيها بقناعات بنتها آثار الجاهلية فيه، ومن امتحانه أن يسلم تسليمًا.

يوم يحتاج إلى أن يعد المؤمنون له، فإنه يحتاج إلى عدة وعدد، ويوم المواجهات،

١- خطبة الجمعة (٤٦١) ٢٠ شعبان ١٤٣٢هـ، ٢٢ يوليو ٢٠١١م.

ويوم الكفاح، ويوم يتطلب مستويات راقية تكون وجهها لثورة الإمام القائم عليه السلام.
يوم يتطلب صبراً لم تعرفه حياتنا كلها، فهو يوم يحتاج إلى إعداد، ونحتاج اليوم
إلى أن نعد أنفسنا له؛ لتحمل مسؤولياتنا.
يوم قرب أو بعد لا بد أن يعيش المؤمنون معركته اليوم، وتأجيل معركته إلى غد
تفريط بمعركة الغد.

التحضير: إعداد جيش الإمام القائم عليه السلام.
إعداد فقهاء يوم القائم عليه السلام.
إعداد خبراء يوم القائم عليه السلام كله اليوم وليس غداً، فإذا لم يكن اليوم إعداد، فهو
الخذلان في الغد.
يوم الثورة يوم قد جهّزت فيه كل الاستعدادات، أُتخذت فيه كل الضمانات، ولا
تأجيل إلى ساعة الصفر، أو لحظة الصفر.
لحظة الصفر ليست لحظة الإعداد، اليوم يوم الإعداد، وغداً يوم التنفيذ.

يواجه القائم عليه السلام حرباً شرسة ضده

عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن القائم عليه السلام يلقي في حربه ما لم يلق رسول الله صلى الله عليه وآله
وآله وسلّم - يلقي عنناً، يلقي شدة، يلقي مقاومة عنيفة، يلقي فكراً فلسفياً مؤصلاً وفي
إطار الإسلام المنحرف.

ربما لقي عقيدة صلبة على غير الخط الصحيح للعقيدة الإسلامية -، لأن رسول
الله صلى الله عليه وآله أتاهاهم وهم يعبدون الحجارة المنقورة والخشب المنحوتة -، وهذا فكر
مهمل، غير مفلسف، غير مؤصل، فكر سطحي، لا يلبث صاحبه أن يفيق على الحقيقة،
فيتركه إلا من خلال تلبث العادة فيه، أما القائم عليه السلام فيجد فكراً غير هذا الفكر -،

وإن القائم يخرجون عليه، فيتأولون عليه كتاب الله، ويقاتلونه عليه»^(١).

فيواجه مقاومة عنيفة شرسة من داخل الأمة، وربما بسبب طغاتها الذين يضللون جماهيرها باسم الإسلام، كما يفعلون في كل مرة.

والإمام القائم سيتحرك بمن؟

سيقاوم بمن؟، بالمؤمنين.

فهناك مرحلتان: مرحلة الطريق؛ لتحقيق النصر، ومرحلة ما بعد النصر.

وإذا كانت جنة أبدان، وجنة راحة ورفاه، وعلاقات اجتماعية مستقرة وعدم قلق، وما إلى ذلك فإنما هو بعد النصر.

أما الطريق إلى تحقيق النصر، فهو طريق شاق مكلف صعب، ومن لم يبين نفسه اليوم على تحمل شدائد ذلك الطريق، فليس هو مع الإمام القائم عليه السلام على الطريق.

فإذًا، جنة الدنيا وهي التي تتحقق يوم النصر لا يكون تحققها إلا من خلال جهاد مرير وأتعاب مضنية^(٢).

١- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٢ - الصفحة ٣٦٣.

٢- خطبة الجمعة رقم (٨٢) ١٨ شعبان ١٤٢٣ هـ، ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٢ م.

المرحلة الثالثة

مرحلة قيام الدولة الإسلامية العالمية معالم دولة آخر الزمان

جنة الدنيا

وعن جنة الدنيا ويومها - يوم انتصار الإسلام على يد صاحب الزمان عليه السلام -
جنة الدنيا لا تتأتى إلا في يوم واحد، جنة الدنيا تبدأ بعد انتصار الإمام عليه السلام،... قد
جاء فيها:

١- «ويجمع» أي الله يجمع للقائم عليه السلام «إليه أموال الدنيا من بطن الأرض» كل
كنوز الأرض تكون تحت تصرف الإمام القائم عليه السلام، أي تخرج الأرض كنوزها، وهذا لا
يحتاج إلى غيب وإنما يكون إخراجاً طبيعياً من خلال سياسة حكيمة عادلة، ومن خلال
الدفع بحركة العمل الجهادي على كل الأصعدة، ومن خلال الوضع السياسي الصحيح،
ومن خلال الإيمان بقيمة العمل والجهاد تحت راية الإمام القائم عليه السلام، لا نحتاج هنا
إلى إدخال العنصر الغيبي في التقدم السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي أيام الظهور
وإن كان لتوفيقات الله الغيبية دور واضح مع جهاد الإنسان، وجهده الكبير حين يوضع
على الخط، فإن الجهاد البشري حين يوضع على الخط الصحيح منتج إنتاجاً كبيراً
هائلاً نافعاً «وظهرها» الزراعة والصناعة «فيقول للناس» أي الإمام القائم عليه السلام:
«تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرم
الله وعز وجل» ها هو ميسور، ها هو مبذول «فيُعطي شيئاً لم يعطه أحد كان قبله» يثري
إلى الحد الكبير جداً، بحيث يستكثر الآخذون العطاء، ويملئون كما سبق في الحديث -،
«ويملا الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً كما ملئت ظلمًا وجورًا وشراً».^(١)

فهنا جنتان: جنة بدن، وجنة روح - «يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً بعدما ملئت ظلماً وجوراً شراً».

٢- وفي حديث آخر: «... ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب العباد» جنة مادية وجنة معنوية، «واصطلحت السباع والبهائم، حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام، لا تضع قدميها إلا على النبات، وعلى رأسها زيبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه».^(١)

٣- «إن المؤمن في زمان القائم عليه السلام وهو بالشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق».^(٢)

الآن العلم أوصلنا إلى أن نرى صور إخوان لنا في الآدمية في المشرق ونحن في المغرب، أو هم في المغرب ونحن في المشرق، أما في دولة القائم القائم عليه السلام وبحسب ظاهر الحديث أنك ترى أخاك لا صورته فقط.

«إن المؤمن في زمان القائم عليه السلام وهو بالشرق ليرى أخاه الذي في المغرب...» لا يرى خياله فقط، وإنما ترى شخصه حسب ظاهر الحديث، وهذا تقدم علمي متفوق.

نسأل: وما هو الجديد الذي يحول الدنيا جنة ويزرعها خيراً؟

ماذا سيجد؟

ستنزل ملائكة؟

ستخرج الأرض كنوزها تلقائياً؟

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾.^(٣)

١- المصدر نفسه - الصفحة ٣١٦.

٢- المصدر نفسه - الصفحة ٣٩١.

٣- الأعراف: ٩٦.

٤- يقول الحديث: «إِنَّ الْعِلْمَ بَكِتَابِ اللَّهِ وَكِتَابِ رَسُولِهِ ﷺ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ يَنْبِتُ فِي قَلْبٍ مَهْدِينًا كَمَا يَنْبِتُ الزَّرْعُ عَلَى أَحْسَنِ نَبَاتِهِ، فَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ حَتَّى يَرَاهُ، فَلْيَقْلُ حِينَ يَرَاهُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ الرَّحْمَةِ وَالنَّبُوءَةِ، وَمَعْدَنَ الْعِلْمِ، وَمَوْضِعَ الرِّسَالَةِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ»^(١).

الحديث جامعٌ مانع.

الحديث يقول: إن الجديد في أمر الدنيا حين ظهور القائم ﷺ أن علم الكتاب على واقعه وحقيقته، وليس على المستوى الاجتهادي فقط متوفر للقيادة.

ويقول: إن القيادة هي القيادة التي اختارها الله سبحانه وتعالى في أكبر نصاب لها، في أتم نصاب لها، والقيادة المختارة لله ﷻ في أتم نصاب لها مصاديقها أهل بيت الرحمة والنبوة.

وقائد من أهل بيت الرحمة والنبوة، رحيم بالعباد، روح النبي ﷺ بين جنبيه، وشفقة النبي، وأخلاقية النبي، وعلم النبي، وسيرة النبي، وعدل النبي، وهو معدن العلم، وموضع الرسالة حفظًا وتبليغًا وتطبيقًا.

نعم هذا الذي جد في الأمر؛ ظهور بقية الله، وآخر مخزون من النماذج الإنسانية الكاملة، وآخر واحد من الكَمَل على مستوى البشر صلوات الله وسلامه على الكمل، وهو بقية الله في الأرض، الشمس الوحيدة التي ينتظرها العالم.

الجديد في الأمر أن بقية الله، بقية من اصطفاهم الله، من اختارهم الله، البقية التي أبقاها الله؛ لإنقاذ الأرض وتظهر وتحكم.

هذا هو الجديد ودائمًا الأوضاع في صحتها وسقمها من تواجد الإسلام وخفائه، من ظهور الإسلام وَغَيْبَتِهِ، من صحة الإسلام وتزويره.

٥- في حديث آخر: «... يَصْنَعُ مَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» هذا هو الجديد أيضًا بلسان آخر «يهدم ما كان قبله» يعني البناء الذي تبنيه الأرض على مستوى الفكر والشعور

والرؤية الكونية والفهم السياسي، والفهم للرجل، والفهم للمرأة، والفهم للعلاقات والحقوق، فهم جاهلي سيأتي عليه الهدم من المعصوم ﷺ، فيه كثير من الغلط، وفيه كثير من التزوير، ودرجة الانحراف التي يعاني منها عن خط الإسلام الصحيح في اتساع دائم «كما هدم رسول الله ﷺ أمر الجاهلية، ويستأنف الإسلام جديداً»^(١) ومن خلال ثقافتنا التي تقترب من الغرب، وتبتعد من الإسلام يومياً سنبنّي إسلاماً يحتاج إلى أن يهدمه القائم ﷺ.

يهدم الإسلام الموجود الآن بالفهم المزور، ويستأنف إسلاماً جديداً على فهمنا، جديداً على قناعاتنا، جديداً على من انطوت عليه مشاعرنا، ونظراتنا، ورؤانا. تلك جنة الدنيا، وعرض سريع عنها.^(٢)

دولة الإمام المنتظر شمولية

الأحاديث تبشر بوضع عالمي متقدم جداً في كل أبعاده:

١- «تنعم أمتي في زمن المهدي نعمة لم ينعموا مثلها قط، ترسل السماء عليهم مدرارها، ولا تدع الأرض شيئاً من النبات إلا أخرجته، والمال كدوس» متراكم، كثير.^(٣)

٢- «العلم سبعة وعشرون جزءاً، فجميع ما جاءت به الرسل جزءان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الجزأين، فإذا قام القائم أخرج الخمسة والعشرين جزءاً، فبثها في الناس، وضم إليها الجزأين حتى يبثها سبعة وعشرون جزءاً».^(٤)

وعلم القائم إنما هو من علم محمد ﷺ، ولكن ليس علماً تحمل رسول الله ﷺ.

١- المصدر ص ٣٥٢ ج ١٠٨.

٢- خطبة الجمعة رقم (٨٢) ١٨ شعبان ١٤٢٣ هـ، ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٢ م.

٣- الملاحم والفتن - السيد ابن طاووس - ص ١٤٩.

٤- الرواية في البحار: «العلم سبعة وعشرون حرفاً...»، بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٢ ص ٣٣٦.

كان الناس يطيقون أن يتلقوه، فلذلك كان الكثير من علمه خزانة عند أمير المؤمنين عليه السلام، وعند الإمام بعد الإمام من أئمة العصمة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، ولكل زمن ما يناسبه من مستوى الطرح العلمي ومن مستوى الأحكام الشرعية والزمن الذي يكون أكثر تقدماً هو زمن الإمام القائم عليه السلام حيث تكثر المبادئ والأطروحات، فتأتي الأطروحة الإسلامية بكل إشعاعاتها؛ لتفضح كل أطروحة، ولتسقط كل واحدة من هذه الأطروحات.

وحاجة العالم اليوم إلى الأحكام المضاعفة بمقدار آلاف أو ملايين المرات بالنسبة لحاجة العالم إلى الأحكام زمن رسول الله ﷺ؛ نظراً لتعدد الحضارة، وتشابك مسائلها، وغموض قضاياها

٣- «إنه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى» له «كل منخفض من الأرض، وخفض له كل مرتفع منها؛ حتى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته» راحة الكف «فأيكم لو كانت في راحته شجرة لم يبصرها؟»^(١).

فكان الإمام عليه السلام يكون في موقعه الخاص من الأرض يملك رؤية وليست غيبية، وتكون علمية معللة تعليلاً طبيعياً، ومن خلال القوانين الطبيعية يملك رؤية لكل هذا العالم، وقد يكون التقدم في قوة الإبصار الصناعي أكثر مما هي عليه الآن، وفي قضية أمر التوصيل أكثر مما عليه الآن بمرات مضاعفة.

تتبع الأحاديث هنا وبصورة مختصرة تقدم لنا وضعاً حضارياً متقدماً جداً على المستوى المادي، والمستوى السياسي، والمستوى العلمي، والمستوى الاجتماعي، والمستوى الأمني، ومن كل الحثيات؛ حتى يتجلى للناس جميعاً بأن الإسلام لا تماثله أطروحة، وأن الإسلام فعلاً وحقاً هو القادر الوحيد على إنقاذ البشرية.

وهو يومٌ تتجلى فيه عظمة الإسلام، وهو يومٌ من أيام إشراقات النور الإلهي في الأمن، هنالك يعرف الإنسان حقاً أن العدل عند الله وليس عند غيره، وأن الله هو أرأف بعباده من أي جهة، وأن النظام الذي جاء من عند الله هو نظام الرأفة والرحمة

والحكمة والعلم واللفظ والتقدم، وبهذا يكون النظام وتطبيقه آية دالة على الإسلام، وقائدة للناس على توحيد الله سبحانه وتعالى.

إنسان الدولة والعزة والعشق

- «إذا خرج المهدي ألقى الله تعالى الغنى في قلوب العباد».^(١)

هذا مستوى إنساني متقدم جداً؛ النفوس التي الآن تتهاوت وتبيع ذاتها رخيصة، الإنسان الذي يبيع كامل شخصيته، وكامل تاريخه، ويبيع وطنه ودينه، ويبيع آخرته؛ من أجل لقمة العيش، ومن أجل ثمن بخس، عند ذلك تكبر نفسه وتعلو ذاته وتكون شخصيته الشخصية العزيزة الكبيرة العملاقة بحيث لا تعدل الدنيا شيئاً بما يشعر به من عزة وكرامة الانتماء إلى الله سبحانه والعزة بالله!

حينئذٍ لا يستلطفه المال، ولا يكون معشوقه المال بعد أن صار له معشوق حق وهو الله سبحانه.

وأنتم ترون من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، ومن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والمعصومين كيف أنهم يكبرون على المال، ولا تستطيع الدنيا أن تشتري منهم لحظة واحدة من العمر، في حين أن أصحاب الشهادات العلمية الأكاديمية الكبيرة الذين لم يُصنعوا صنفاً إنسانياً وإيمانياً يبيعون أنفسهم بأبخس الأثمان!

رئيس الولايات المتحدة قد يُرشى، رئيس أكبر دولة قد يُرشى إلى حرب، أو يوقف حرب؛ ليخون بلاده!

أنتم ترون هذا في كل مكان!

أمّا الشخصية الإيمانية التي صنعت على يد الله سبحانه، فيستحيل جداً أن تشتريها الدنيا بكاملها؛ وكيف لقلب هوى الله، وكيف لقلب شد إلى الله يرى للمال بريقاً يخفت بريق المال كل جمال أمام جمال الله، وعظمة الله، وجلال الله، وجمال الله، وقدس الله.

والإنسان في تربية الإمام القائم عليه السلام يصعد بمستواه إلى بعيد جدًا، حيث يكبر على هذه الدنيا بكاملها.

المهدي ملاذ الأفئدة الوالمة

١- «يرضى عنه ساكن السماء، وساكن الأرض»^(١)، هو التواصل التام القلبي والقناعة التامة، والرضا التام من كل المحكومين بالنسبة إلى الحاكم.

٢- «تأوي إليه أمتة كما تأوي النحل إلى يعسوبها»^(٢).

ويعسوب النحل هو رئيسها، التفاف، لأنه قمر الدنيا، ولأنه شمس الدنيا، لأنه نسيم الدنيا يرون فيه قناتهم الذي يعبرون بها إلى الله سبحانه، من خلال علمه. من خلال سلوكه.

من خلال معطيات سيرته عليه السلام.

من خلال عدله تتعلق به القلوب، وتلتف به الأفئدة، يستقطب كل القلوب التي تهوى الحقيقة، والتي تعشق الجمال.

٣- «المهدي كأنما يلحق المساكين الزبد»^(٣).

الزبد بالنسبة للمساكين طعام مقوي، يعيد له نشاطه، وحيويته.

المهدي كأنما يلحق المساكين الزبد، أي زبد؟

وأي مساكين؟

إنهم مساكين المعنى، مساكين المعرفة، مساكين العدل، مساكين الإنسانية.

ليس مستوى الدكتوراه، مستوى الأستاذية، مستوى الباحث، كل هؤلاء المثقفين الذين كانوا يركضون وراء السراب، يبحثون عن الحقيقة، يبحثون عمّا يروي عطشهم

١- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥١ - الصفحة ٨١

٢- الملاحم والفتن - السيد ابن طاووس - ص ١٤٧.

٣- المصدر نفسه - ص ١٤٤.

من خلال الأطروحات الأرضية.

كل أولئك يجدون ضالتهم في الإمام القائم عليه السلام، فيعتبرون أنفسهم مساكين، وأن الإمام القائم عليه السلام يقدم الزبد.

ويقدم لهم الطعام.

ويقدم لهم الطعام المُلذ.

ويقدم لهم غذاء إنسانيتهم، وغذاء معناتهم.

كيف يتمُّ التَّحوُّل الكبير؟

التحول الكبير لا يأتي بمعجزة سماوية وفي الإسلام، وفي القيادة الإسلامية الكفائية.

نعم عندما يطبَّق الإسلام، وعلى يد القيادة الكفوءة الأمانة تأتي توفيقات علوية خاصة للأرض، ولأصل الأرض، للقيادة، للنخبة، للناس جميعاً.

أما أساس الانطلاقة الناجحة، فهو أن تكون، أن تتمكن الأطروحة الإسلامية من قيادة البشرية.

ولا تتمكن هذه الأطروحة من قيادة البشرية بدقة إلا على يد المعصوم الذي يمتلك شخصية تتحمل ثقل القرآن، وتتحمل ثقل السنة بأمانة وبالكامل.

أركان التَّحوُّل الكبير:

الركن الأول: عودة الأطروحة الإسلامية

اسمعوا أيها الإخوة، عن التحول الكبير، وكيف يتم من خلال ما تقدمه الأحاديث الشريفة، وأقرأها بسرعة:

١- «إنَّ قائمنا إذا قام دعا النَّاسَ إلى أمر جديد، كما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»^(١).

فهو بنفس الأمر، ولكن الأمر الذي دعا إليه رسول الله ﷺ؛ لفارقة الأمة له طويلة، ولانحساره من الساحة العملية حتى ينتهي الانحسار إلى مستوى الفكر والروح. ذلك الأمر الذي كان معروفاً يصبح مجهولاً، ولا يعود جديداً إذا قوبل به الناس إذا طرح على الناس.

فالإمام القائم عليه السلام يطرح إسلام رسول الله، ولكن إسلام رسول الله ﷺ لهجران الأمة له يرى جديداً، ويرى شيئاً بدعاً يهدم ما قبله كما صنع رسول الله ﷺ دون الجاهلية تناطح السحاب، جاهلية عمقت جذورها في الأرض، رفعت بناءها من خلال حضارة مادية ساخرة بالقيم، ساخرة بالألباب، ساخرة بالنفوس التي لم تفتح على الحقيقة، هذه الحضارة التي تمتلك من آلية الإعلام، وتمتلك من وسيلة المال، وتمتلك من وسيلة السياسة ما يضل العقول، وما يزيغ بالأفئدة.

لا بد لهذه الحضارة أن تهدم؛ حتى ينفصح للإنسان أن يرى الحقيقة؟

لا، يهدم ما قبله كما صنع رسول الله ﷺ، ويستأنف الإسلام جديداً.

ألا نحتاج إلى إسلام جديد والمصطلحات الغربية تغزو شبابنا، وعقولنا، وعقول باحثينا، وعقول علمائنا، وعقول متعلمينا؟!

كل يوم نحن نبتعد عن الصورة الإسلامية، نبتعد عن فهم الإسلام، نسلك في المفهوم الإسلامي لهذا الغزو الفكري الهائل!

٢- «أبطل» أي رسول الله ﷺ «ما كان في الجاهلية، واستقبل الناس بالعدل» ليس عدل المال فقط، وليس عدل الحكم فقط، العدل في كل مساحة الحياة، العدل على مستوى الفكر، العدل على أي مستوى من مستويات الحياة وأبعاد الإنسان «وكذلك القائم عليه السلام إذا قام يبطل ما كان في الهدنة ممّا كان في أيدي الناس، ويستقبل بهم العدل»^(١).

٣- «إذا قام القائم عليه السلام دعا الناس إلى الإسلام جديداً، وهداهم إلى أمر قد دثر، فضل عنه الجمهور».^(١)

هناك كتاب يمتلكون من الخبرة، يمتلكون من الفن.

وهناك ألسن خطابية تستطيع أن تضلل الجمهور، وأن تبعد الجمهور عن الفهم الإسلامي لدرجة مائة في المائة، وإنما سمي القائم مهدياً، لأنه يهدي إلى أمر مضلوع عنه، وسمي بالقائم؛ لقيامه بالحق.

هذه الأحاديث كلها تقدم لنا دعوة الأطروحة، تبشرنا بعودة الأطروحة الإسلامية، بعودة شمس الإسلام التي لا حياة لأهل الأرض على مستوى الروح والعقل والعلاقات الإنسانية والأوضاع الاجتماعية، وحتى العدل الاقتصادي إلا بها، فهذا ركن من أركان الإنقاذ.

الركن الثاني: هو القيادة المعصومة.

- «يقضو أثري لا يخطئ» الوصف المنقول عن النبي صلى الله عليه وآله في الإمام القائم عليه السلام هذا الوصف: «يقضو أثري لا يخطئ»، لا على مستوى فكر، ولا على مستوى شعور، ولا على مستوى تطبيق، وهذه هي العصمة.

٢- «وسنته سنتي، يقيم الناس على ملتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربي»^(٢) دعوته صادقة، وحكمه صادق، وعلمه صادق، فهو المعصوم عليه السلام، وهو القيادة الأمنية، وهو القيادة النزيهة، وهو الداعية إلى الله، والقائد إلى هدام.

٣- «يبلغ من رد المهدي للمظالم حتى لو كان تحت ضرس إنسان شيء انتزعه حتى يرده».^(٣)

١- الإرشاد - الشيخ المفيد - ج ٢ - الصفحة ٣٨٣.

٢- كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٤١١.

٣- الملاحم والفتن - السيد ابن طاووس - ص ١٤٣.

حَبَّة بسيطة وصلت إلى ما تحت سن الغاصب ينتزع الإمام القائم عليه السلام؛ ليعيد الحق إلى أهله، يعيد الحق إلى أهله مبالغة في التقصي الدقيق للمظالم، وردّ هذه المظالم، فهو العدل الكامل الدقيق.

٤- «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».^(١)

هذا هو الإنقاذ، ولا نحتاج ماذا، من باب لطف الله سبحانه وتعالى، في هذه الألفاظ، في لطف الأطروحة الكاملة، وفي لطف الإمام المعصوم كفاية لأن تنعم الأرض بكل ما تشقه النفوس الإنسانية السوية من خير الدنيا وخير الآخرة، ينضاف إلى ذلك توفيقات وعنايات وألفاف خاصة ورحمات متتابعة من الله سبحانه وتعالى حين تطبق الأطروحة الإسلامية، وحين يطاع الله في الأرض.^(٢)

١- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٦ ص ٢٦٣.

٢- خطبة الجمعة (٣١) بتاريخ ١٦ شعبان ١٤٢٢هـ، ٢ نوفمبر ٢٠٠١م.

خاتمة

كيف نتميّاً للمستقبل؟

شرط الغلبة

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.^(١)

أمّا الظهور العملي، وغلبة المجتمع على المجتمعات الأخرى، فهي مربوطة بشرط؛ شرط أن يأخذ هذا المجتمع بالإسلام، أن يحتضن الإسلام فكراً واضحاً ظاهراً، وأن يلتحم بالإسلام شعوراً، وأن يقيم الإسلام مشروعاً.

هذا المجتمع يستحيل أن يُعلَى عليه، ولا بدّ أن يعلو ولو من بعد حين.

ولقد قالت التجربة النبوية الكبرى في تعاملها مع أمة كانت ساقطة أن المجتمع الإسلامي الآخذ بالإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه.

وما ضيّعت الأمة الإسلامية مستواها، وتخلّفت هذا التخلّف حتى عادت مأكولة، وحتى عادت مأسورة ومهزومة في نفسها فضلاً عن خارجها إلا بعد أن شطّت مسيرتها عن الإسلام.

والآية الكريمة تقول لنا: بأن كل مجهود بشري يمارسه الشرك والكفر والنفاق على المستوى الثقافي والفكري لا يمكن أن يهزم أمامه الإسلام في نفسه، ولا يمكن أن يهزم أمامه فكرٌ يحمل الإسلام بحق.

وإن الإسلام سيبقى هو الأقدر على الإنقاذ، وعلى قيادة المسيرة البشرية حتى تطوي السماوات وتنتهي الأرض.

وإن للمسلمين عودة لموقع العزة و الكرامة والريادة ذلك بشرط واحد هو أن يأخذوا بالإسلام.

الغرب والشرق يبدلان الكثير الكثير في المواجهة الثقافية مع الإسلام، وسننهزم ثقافيا أمامهم حين لا نكتب على الفكر الإسلامي والفهم الإسلامي، وحين تضلّ بنا السبل عن الإسلام.

أمّا الأمة التي تستقي فكرها من فكر القرآن والسنة المطهّرة، وتتوفّر على رؤية إسلامية حقّة، فإن كل الثقافة الواردة أمام هذا الفكر، وأمام هذه الرؤية ستذهب أدراج الرياح.

إن كل جهود الشرق والغرب والمنافقين في البلاد الإسلامية، والذين يشنون حرباً لا هوادة فيها على الفكر والثقافة الإسلاميين لا يمكن أن تتجح إذا أمسكنا بالإسلام فكراً ورؤية.

إذا، فالسر الأكبر في فشل هذه الأمة ليس جهود أعداء الإسلام، وإنما عدم تحمّل المسلمين أمانة الإسلام.^(١)

فلسفة انتظار ظهور المنقذ

صار العالم لما ضاقت به أوضاعه الجاهلية يدرك ضرورة ظهور المنقذ - عرفه، أو لم يعرفه، سمّاه أم لم يسمه -.

وكلُّ العالم إلا المستكبرين في تطلّع شائق ليوم الظهور، وكل المستكبرين في خوف منه وحذرٍ شديد.

أما المنتظرُ بحق، وعن وعي وبصيرة، فالانتظار في فكره وشعوره وموقفه العملي تأكيدٌ بعد تأكيد؛ للانتماء الصادق الفعّال للإسلام، ورفع شعاره، والأخذ برؤاه.

١- خطبة الجمعة (٢٣٨) ١٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ - ١٤ أبريل ٢٠٠٦م.

وهو صوغٌ لخياراته كلها في جميع القضايا والأحداث وما يدخل في تكوين شخصيته صوغاً ينسجم مع قضية الانتظار، وخط الانتماء للمنتظر عليه السلام.

المنتظر حقاً إنما ينظر فيما يأخذ ويرد، ويقبل ويرفض، ويقوم ويقعد، ويوالي ويعادي، ويقدم ويؤخر، وينصر ويخذل، ويقول ويسكت رضا إمامه الذي هو من رضا ربّه، ويسعى دائماً أن تنسجم حياته مع إرادة منتظره بما هي من إرادة الله وَعَلَّامٌ، وبما هي مطابقة لله في الرضا والسخط، وهذا لا يمكن أن ينفصل عن فهم الشريعة والفقه الكافي في الدين.

على المنتظر حقاً أن يتخندق فكراً، وشعوراً، وكلمة، وعملاً مع الخط الذي ارتضاه الإمام المنتظر عليه السلام، وأوصى به الأمة في غيبتيه الكبرى، وهو خط الفقهاء الأكفاء الصادقين الصالحين، وأن لا يُبدي استكباراً وتكبراً لهذا الخط على الإطلاق.

على المنتظر حقاً أن ينسلخ عن التقليد الأعمى، والتبعية الفكرية والشعورية والسلوكية للغرب والشرق، ولأي من الجاهليات القديمة والحديثة، وقيم حياته كلها على أساس الإسلام.^(١)

الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الجزء الأول

٥	المقدمة
٩	الفصل الأول
٩	الدين والسياسة
٩	١
١١	مدخل
١١	أسئلة تمهيدية
١٥	الخلاصة
١٦	التجربة خير برهان
١٨	الباب الأول
١٨	فلسفة السياسة
٨١	جذور المسألة السياسية في الرؤية الإسلامية
١٨	أولاً: الجذر التكويني
٢٠	ثانياً: الجذر التشريعي
٢١	العلاقة بين الولاية التكوينية والتشريعية
٢٢	منبه
٢٣	النتيجة
٢٤	السياسة وعقيدة التوحيد
٢٥	شكر النعمة
٢٦	الخلاصة
٢٧	الباب الثاني
٢٧	العلاقة بين الدين والسياسة
٢٧	الارتباط في الموضوع والوظيفة
٢٧	الاعتزال والانفصال خرافة وافتراء

٢٨.....	تسييس الإسلام.....
٢٩.....	لا فصل عند مَنْ يؤمن بالإسلام.....
٣١.....	مفارقة عجيبة.....
٣١.....	خدعة «السياسة نجاسة».....
٣٢.....	خلاصة.....
٣٢.....	العلاقة بين المجتمع والدين والسياسة.....
٣٤.....	العلاقة بين السياسة والدين والدولة.....
٣٤.....	بأيهما يأخذ المسلم؟.....
٣٥.....	تعدّي السياسة على الدين.....
٣٦.....	الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.....
٣٦.....	حاكمية الدين على السياسة.....
٣٨.....	الباب الثالث.....
٣٨.....	استقلالية الشأن الديني عن السياسة الوضعيّة.....
٣٨.....	استقلالية المسجد.....
٣٨.....	أهداف الهيمنة على المساجد.....
٣٩.....	رجال دين على المقاس الأمريكي!.....
٤٠.....	مبررات للهيمنة على الشأن الديني.....
٤٢.....	لا تؤتمن الحكومات على الدين.....
٤٣.....	المسجد بين الاستقلالية والتبعية.....
٤٥.....	كيف نأتمن الدين عند هكذا سياسة؟.....
٤٧.....	استقلالية الخطاب الديني.....
٤٩.....	السياسة والدين المروّض.....
٥٠.....	ضمانة حفظ الدين من مكائد السياسة.....
٥٠.....	خطاب المسجد.....
٥٢.....	لو سكّنت المساجد!.....
٥٤.....	منبر الجمعة منبر رسول الله ﷺ.....

٥٧.....	الباب الرابع.....
٥٧.....	الأئمة ٢ والسياسة.....
٥٧.....	موقف الأئمة ٢ من السياسة.....
٥٩.....	من مواقف الأئمة ١٢ السياسية.....
٦١.....	الباب الخامس.....
٦١.....	العلماء والسياسة.....
١٦.....	عجباہ!.....
٦٢.....	لماذا هذا الاستخفاف بعالم الدين؟.....
٦٣.....	موقف العلماء من المسألة السياسية.....
٦٤.....	العلماء حصون الأمة لذلك هم مستهدفون.....
٦٤.....	أساليب الاستهداف الخبيثة.....
٦٦.....	مناقشة الأفكار التي تدعو لفصل الأمة عن علمائها.....
٦٦.....	تتلخص هذه الأفكار في الآتي.....
٦٩.....	ثالثاً: القداسة الكاذبة.....
٧٣.....	الفصل الثاني.....
٧٣.....	النظام السياسي الإسلامي.....
٧٣.....	٢.....
٧٥.....	تمهيد.....
٧٥.....	هل يمتلك الإسلام نظاماً سياسياً؟.....
٧٥.....	التفريق بين المذهب السياسي وعلم السياسة.....
٧٦.....	النظام الإسلامي بين الحل الكامل والحل الناقص.....
٨٠.....	مسألة اختيار النظام السياسي.....
٨٦.....	الباب الأول.....
٨٦.....	أركان النظام الإسلامي.....
٨٧.....	١- المنهج الإلهي.....
٨٩.....	٢. القيادة الربانية.....

٩١.....	الباب الثاني.....
٩١.....	رسالة النظام الإسلامي.....
٩١.....	الصفات العامة.....
٩٤.....	محورية التوحيد في النظام الإسلامي.....
٩٦.....	أساس العدل.....
٩٩.....	الإنسان دوراً.....
١٠٥.....	قيم رسالية.....
١١٠.....	الانحراف وتردي الأوضاع.....
١١٠.....	الانحراف والكوارث.....
١١١.....	الانحراف وفساد البيئة.....
١١٢.....	أين يبدأ الحل؟.....
١١٥.....	الباب الثالث.....
١١٥.....	الحكومة في النظام الإسلامي.....
١١٥.....	الحكم وقوة التشريع.....
١١٧.....	الباب الرابع.....
١١٧.....	العلاقات الداخلية والخارجية في النظام الإسلامي.....
١١٧.....	أسس العلاقات الداخلية والدولية.....
١٢١.....	المبدئية والانفتاح في العلاقات.....
١٢٢.....	أنواع المبدئية.....
١٢٥.....	دين التواصل لا التقاطع.....
١٢٨.....	المبادئ الثابتة في العلاقات.....
١٣٠.....	علاقات الولاء.....
١٣٠.....	أقسام العلاقات الولائية.....
١٣٧.....	التفاضل والارتقاء بالشعوب.....
١٣٧.....	ميزان التفاضل العالمي.....
١٣٩.....	الإسلام ومبدأ تعارف الشعوب.....

منهجية الإسلام نفي للاستعباد والتمييز الظالم بين البشر	١٤٠
اعتراضان	١٤١
مقدمات	١٤١
النتيجة	١٤٢
العلاقات الإنسانية في الحضارة الطينية	١٤٣
خلاصة	١٤٧
الباب الخامس	١٥١
أسس السياسات الدفاعية	١٥١
والأمنية في النظام الإسلامي	١٥١
فلسفة القوة	١٥١
القوة الاقتصادية	١٥٢
القوة السياسية	١٥٢
الضعف والاستضعاف مرفوض	١٥٣
القوة بين حضارة المادة وحضارة الانسان	١٥٤
أهمية الشباب في بناء القوة السياسية	١٥٥
المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف	١٥٦
منهجية العزة ونبد الذل	١٥٧
الدلة على أكثر من ضرب	١٦٠
أسس الحرب والسلم	١٦٣
لا حرب للغنائم الدنيوية	١٦٣
لا تعطش للحرب	١٦٣
القوة ضرورة لقيام الدولة	١٦٤
أنواع الحروب.. وحكمها في الإسلام	١٦٤
أهداف حروب الإسلام	١٦٦
وجوب تحرير المستضعفين	١٦٨
الفرق بين القتال الإيماني والقتال الاستكباري	١٦٩

١٧٠	الحرب المدرسة
١٧١	وحدة الوطن الإسلامي
١٧١	مسؤولية الأمة في الدفاع
١٧٣	الفصل الثالث
١٧٣	القيادة الإسلامية
١٧٣	٣
١٧٥	القسم الأول
١٧٥	القيادة المعصومة
١٧٥	دروس من قيادة الرسول ٤
١٧٩	الخلاصة
١٧٩	القيادة المعصومة هي قيادة للعالم كله
١٨١	قيادة الأئمة من أهل البيت ٢
١٨٢	إنهم قادة بعد الوفاة!
١٨٣	إنهم صنّاع أمة لا طلاب حكم
١٨٥	حراس الأمة
١٨٥	من ثمرات قيادة الأئمة ٢
١٨٦	معنى الإمامة
١٨٧	الإمامة أصعب امتحان
١٨٨	الإمام بعد النبي ٤
١٨٩	الإيمان بالإمام يفتح البركات على العالم
١٩٠	نضجات من قيادة الإمام علي عليه السلام
١٩١	التزام خط الإمامة الشرعية
١٩٢	انعكاسات الالتزام بخط الإمامة
١٩٥	المرجعية على نهج الأئمة ٢
١٩٦	الدّرس المستفاد للشباب
١٩٧	مناقشات حول القيادة المعصومة والشورى

الموقف العملي.....	٢٠٢
الموقف العملي.....	٢٠٢
الموقف العملي.....	٢٠٣
القسم الثاني.....	٢٠٤
القيادة غير المعصومة.....	٢٠٤
المركزية في القيادة.....	٢٠٤
شرط الطاعة والانقياد.....	٢٠٤
القيادة موقع خطير.....	٢٠٤
التشويش في مفهوم القيادة.....	٢٠٤
لا بد من قائد.....	٢٠٥
لا قيادة إلا لمن ثبت على خط الرسالة.....	٢٠٥
شروط القيادة الإسلامية.....	٢٠٦
القيادة ونظم الأمر.....	٢٠٧
لن القيادة في زمن غيبة الإمام؟.....	٢٠٧
تعدد القيادة.....	٢٠٨
بين القيادة التابعة والقيادة المتبوعة.....	٢٠٩
الرُموز القيادية واتباعها في المنعطفات.....	٢١٠
أمن الأمة وأمن القيادة لا يتجزأان.....	٢١٠
القرار بيد الشارع أم القيادة؟.....	٢١١
الولاء الهش.....	٢١١
القيادة والانقياد.....	٢١١
القيادة والثبات.....	٢١٢
المرجعية.....	٢١٣
الحاجة إلى الفقهاء.....	٢١٣
دور المرجعية في الأمة.....	٢١٣
السُر في محاولات فصل الأمة عن المرجعية.....	٢١٦

٢١٧	لا نعيد عن المرجعية ..
٢١٧	لا بد من مرجعية ..
٢١٨	على الإسلاميين أن يحددوا مرجعيتهم!
٢٢٠	الإسلاميون والتقيّد بمرجعية الفتوى ..
٢٢١	المفتون الجدد ..
٢٢١	إسلام بلا مراجع، ومراجع بلا إسلام ..
٢٢٢	المرجعية من أبرز مفاصل القوة لدى الأمة ..
٢٢٣	حياد المرجعية ..
٢٢٦	الرد على أولي الأمر ..
٢٢٩	قضايا لا تحتاج إلى توضيح ..
٢٢٩	تنبيهات ..
٢٣٤	فقهائنا .. علماؤنا تصدّروا كل نهضة ..
٢٣٥	عالم الدين بين الظالمين والمظلومين ..
٢٣٨	العلماء وواجب المسؤولية في مختلف قضايا المجتمع ..
٢٣٩	العلماء يُسيّرهم الحكم الشرعي فقط ..
٢٤٣	الفصل الرابع ..
٢٤٣	أطروحات الحكم ..
٢٤٣	٤ ..
٢٤٥	الباب الأول ..
٢٤٥	أطروحة الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه) ..
٢٤٥	حديث صراحة وعلم ..
٢٤٥	المخرج في الفكر السني ..
٢٤٥	المخرج في الفكر الشيعي ..
٢٤٦	المخرج في عصر الغيبة ..
٢٤٧	شروط الولاية الفعلية ..
٢٤٧	الإيمان النظري لا يلزم التطبيق الفعلي ..

٢٤٧.....	لا ولاية فعلية خارج مساحة اليد المبسوطة
٢٤٨.....	لا علاقة لفكرة ولاية الفقيه بالتوسع السياسي
٢٤٨.....	الفكر السنّي - كما الشيعي - يثبت ولاية الفقيه ١
٢٤٩.....	نتائج عملية
٢٥٠.....	هل القناعة بالنظريات العلمية ممنوع ١٩
٢٥٢.....	تخرّصات الصحافة تتطلّب هذه الوقفة التوضيحية
٢٥٢.....	ولاية الفقيه بين القبول والرفض
٢٥٥.....	يمكن فرض الآتي في سبب الاستنكار، وعدم الطاعة
٢٥٦.....	إشكالات قضائية
٢٥٧.....	حكومة الفقيه انتخابية دستورية
٢٥٨.....	بحث مختصر في ولاية (غير الفقيه)
٢٥٩.....	الأدلة لا تشمل غير الفقيه
٢٥٩.....	تنويهات
٢٦٠.....	لا خلاف بين الفقهاء في مسألة ولاية الفقيه من حيث الأصل
٢٦٠.....	النتيجة
٢٦١.....	المسألة من منطلق ولاية الشعب
٢٦١.....	فلنحتكم للميزان الشرعي
٢٦٢.....	مشاركات ومفترقات بين حكومة الفقيه وغيرها
٢٦٣.....	مغالطة وتهويل
٢٦٥.....	الباب الثاني
٢٦٥.....	أطروحة الحكم الوضعي (الديمقراطية)
٢٦٥.....	المحور الأول
٢٦٥.....	البحث النظري في مسألة الديمقراطية
٢٦٥.....	مساحات الديمقراطية
٢٦٥.....	أساسها الأول: هو الحرية المطلقة
٢٦٧.....	الحرية في الرؤية الإسلامية

٢٧٢.....	الارادة التكوينية والتشريعية وعلاقتها بالحرية
٢٧٣.....	الحرية بالارادة التكوينية والتشريعية
٢٧٤.....	خلاصة
٢٧٥.....	رأي الإمامية في الحرية
٢٧٥.....	الديموقراطية هل لها تأصيل إسلامي؟
٢٧٦.....	مقومات الديمقراطية
٢٧٧.....	مصدرية الشعب للسلطات
٢٧٨.....	سلطة واحدة لا سلطات ثلاث
٢٧٩.....	المحور الثاني
٢٧٩.....	الموقف العملي من الديمقراطية
٢٧٩.....	الديموقراطية خيار قد يفرضه الموقف العملي، وليست فكرة تؤمن بها
٢٨٠.....	تقبل الديمقراطية (عملياً)؛ لأننا الرابحون فيها!
٢٨١.....	الإسلاميون والديموقراطية
٢٨١.....	غير الإسلاميين والديموقراطية
٢٨٢.....	الديموقراطية وواقع الشارع الشعبي في بلاد المسلمين
٢٨٥.....	الديموقراطية بين الغرب والشرق
٢٨٥.....	أمثلة على مصداقية الديمقراطية الغربية
٢٩١.....	الديموقراطية المصدرة الى بلاد المسلمين
٢٩٢.....	أنواع الديمقراطيات التي يرتضيها لنا الغرب!
٢٩٣.....	الخيار المفضل لدى الغرب
٢٩٤.....	صعوبة المخادعة بالديموقراطية من النوع الثالث
٢٩٤.....	التعاطي العملي الغربي مع الأنواع الثلاثة من الديمقراطية المصدرة
٥٩٢.....	العقبة الكؤود أمام المخطط الغربي
٢٩٦.....	موقف أمريكا من الديمقراطية
٢٩٦.....	مراوغات باسم الديمقراطية
٢٩٧.....	شرط الغرب: الإسلام والاستقلالية في مقابل الديمقراطية!

٢٩٧.....	الغرب والانقلاب على الديمقراطية.....
٢٩٩.....	خلاصة.....
٣٠٠.....	الديمقراطية في واقع البلدان العربية.....
٣٠٠.....	إشادة نظرية وقمع عملي.....
٣٠١.....	موقف الانظمة العربية من الديمقراطية.....
٣٠٢.....	الأنظمة بين مطرقة الإسلام وسندان الديمقراطية.....
٣٠٣.....	مفارقة!.....
٣٠٣.....	الديموقراطية والقيم.....
٣٠٥.....	هل تبقى بلا ديمقراطية، ولا دين؟.....
٣٠٦.....	لا إصلاح للأرض إلا في الدين القيم والشريعة العادلة.....
٣٠٨.....	تتمة.....
٣٠٨.....	أنظمة سياسية بلا هوية!.....
٣١٠.....	الباب الثالث.....
٣١٠.....	بحث مقارن في فلسفة النظم السياسية.....
٣١٠.....	مقارنات بين النظام الإسلامي والأنظمة الأخرى.....
٣١٠.....	أولاً: الرؤية والهدف.....
٣١١.....	الفرق على مستوى العدالة.....
٣١٢.....	ثانياً: مستوى التشريعات.....
٣١٢.....	نماذج من شرعة النظام الإسلامي.....
٣١٢.....	أ- من الأوامر.....
٣١٥.....	ب: من النواهي.....
٣١٧.....	نماذج من شرعة الحضارة المادية.....
٣١٨.....	ثالثاً: الحضارتان وصناعة الإنسان.....
٣٢٣.....	حضارة الذكر وحضارة النسيان.....
٣٢٦.....	رابعاً: الحضارتان والأوضاع الخارجية.....
٣٣٠.....	خامساً: القوة بين الحضارتين.....

- أ- قوة مع عدل وقوة مع ظلم ٣٣٠
- ب- قوّة هادفة، وقوّة هدف ٣٣١
- ج- حضارة تؤسس لسقوطها ٣٣١
- سادساً: الحضارتان والعلاقات الإنسانية ٣٣٢
- حضارة الإنسان والإيمان ٣٣٢
- الأساس الفلسفي ٣٣٣
- الأصول الأولى ٣٣٣
- ١- خالق واحد ٣٣٣
- ٢- الأصل الإنساني ٣٣٣
- ٣- هدف واحد ٣٣٤
- ٤- منهج أخلاقي ٣٣٤
- ٥- ميزان تقييمي عالمي ٣٣٤
- سابعاً: المنهج والتربية ٣٣٧
- تعاونان ٣٣٨
- أطروحة الحياة الكاملة ٣٣٨
- الدنيا والآخرة سبيلان منسجمان ٣٣٩
- الأسس والمنطلقات ٣٤٠
- أولاً: حضارة الفرج والبطن! ٣٤٠
- ١- الأساس المادي ٣٤٠
- ٢- أساس الشك ٣٤٠
- ٣- أساس الإشباع المادي ٣٤٠
- رؤاهم والواقع ٣٤١
- ثانياً: حضارة العقل والقلب ٣٤٤
- الأسس الفلسفية للحضارة الإسلامية ٣٤٤
- ١- أساس الفطرة والعقل ٣٤٤
- ٢- أساس الإيمان وسمو الذات ٣٤٥

٣٤٦.....	٣- أساس خلافة الإنسان.....
٣٤٧.....	نتائج الفلسفة الإسلامية.....
٣٤٩.....	الفصل الخامس.....
٣٤٩.....	الحكومة.....
٣٤٩.....	٥.....
٣٥١.....	الباب الأول.....
٣٥١.....	الحكومة وتقسيماتها.....
٣٥١.....	الحكومة.....
٣٥١.....	أقسام الحكومات.....
٣٥١.....	أولاً: تقسيم على أساس المنهج.....
٣٥١.....	١- الحكومة الغائية.....
٣٥١.....	٢- الحكومة الإنسانية.....
٣٥٢.....	الفرق بين الحكومة الغائية والانسانية.....
٣٥٣.....	ثانياً: تقسيم على أساس الإصلاح.....
٣٥٣.....	١- حكومة الإصلاح الجدي.....
٣٥٣.....	٢- حكومة الإصلاح الصوري.....
٣٥٤.....	ثالثاً: تقسيم على أساس صراع الرأي والإرادة.....
٣٥٦.....	رابعاً: تقسيم على أساس الاستقلالية والتبعية.....
٣٥٧.....	حكومات غير ناجحة.....
٣٥٩.....	الباب الثاني.....
٣٥٩.....	الحكومة والشعب.....
٣٥٩.....	أنماط العلاقة بين الحكومة والشعب.....
٣٥٩.....	١- العلاقة الطبيعية.....
٣٥٩.....	٢- علاقة الخلاف.....
٣٥٩.....	تناسب طردي.....
٣٦١.....	الناس والحكومات.....

النزاعات فرصة البعض.....	٣٦٢
الحكومات وحاجة المجتمعات.....	٣٦٣
المجتمع المسلم وحاجاته الخاصة.....	٣٦٤
موقف الحكومات من حاجات المجتمع.....	٣٦٥
العلاقة بين الحكومة والمعارضة.....	٣٦٥
مسارات العلاقة بين الحكومات والشُّعوب.....	٣٦٦
١- ماذا تريد الحكومات من الشُّعوب؟.....	٣٦٧
٢- ماذا تريد الشعوب من الحكومات؟.....	٣٦٨
موازين القوى بين الحكومات والشُّعوب.....	٣٧٠
المخارج من أزمات التوتُّر بين الحكومة والشَّعب.....	٣٧٢
حاجة متبادلة بين الحكومة والشَّعب.....	٣٧٤
أقوياء ولكن!.....	٣٧٧
آثار الانقطاع بين الأطراف المشتركة.....	٩٧٣
المواجهات الداخليَّة.....	٣٧٩
تقويم العلاقة الفعلية بين حكومات والشُّعوب.....	٣٨٠
الفاصلة الواسعة بين الشُّعوب والأنظمة.....	٣٨١
الباب الثالث.....	٣٨٢
الحكومة والدُّستور.....	٣٨٢
الدُّستور واستقرار البلدان.....	٣٨٢
الباب الرَّابع.....	٣٨٣
الحكومة والقانون.....	٣٨٣
بين الحقِّ والقانون.....	٣٨٣
شروط احترام القانون.....	٣٨٥
أ- أن يكون من جهة محايدة.....	٣٨٥
ب- أن يكون القانون عادلاً.....	٣٨٦
ج- أن يكون أخلاقياً وواقعياً.....	٣٨٦

٣٨٧	د- أن تطبقه الحكومات على نفسها.
٣٨٧	الموقف من القوانين الظالمة
٣٨٧	العلاقة المتوترة بين الشعب والحكومة
٣٨٨	يا أصحاب الحل الثاني
٣٨٨	الحكام وحسن الظن
٣٩٠	الباب الخامس
٣٩٠	الحكومة والممارسة الحكومية
٣٩٠	الممارسة الحكومية وتحديد الأحكام
٣٩١	تشخيص المصالح والمفاسد للحكم
٣٩٢	الحكومة وآلية اتخاذ القرار
٣٩٤	الباب السادس
٣٩٤	الحكومة وإدارة الحكم
٣٩٥	قواعد من الحكمة الإدارية
٤٠١	تقديم المصلحة الشعبية
٤٠٢	التفتوا أيها الإخوة
٤٠٣	إشكال جانبي
٤٠٤	الحكومة وسر الاستقرار
٤٠٤	الحكومة في خدمة الشعب
٤٠٥	الحكومة وتصادمها مع دين الشعب ودينه
٤٠٦	إدارة الخلافات السياسية
٤٠٦	فروض ثلاثة
٤٠٧	أنواع المعالجات
٤٠٧	أ- المعالجة الأمنية بالاستعمال المفرط للقوة
٤٠٨	ب- المعالجة السياسية الكيدية الخادعة
٤٠٨	ج- المعالجة السياسية الواقعية
٤٠٨	د- المعالجة الإنسانية الأخلاقية

هـ- المعالجة الدنيئة.....	٤٠٩
علاج الأزمات يتم بعلاج أسبابها.....	٤٠٩
اجتناب التعصب.....	٤١٠
أدب الخلاف.....	٤١١
الثقة بين الشعب والحكومة.....	٤١٢
الحب يحتاج إلى ثمن.....	٤١٢
الباب السابع.....	٤١٤
الحكومة والسياسات العامة للحكم.....	٤١٤
أصعب عمل.....	٤١٤
أنماط السياسات.....	٤١٤
١- هناك سياستان، سياسة دنيوية وسياسة أخروية.....	٤١٤
٢- هناك سياستان: سياسة تنطلق من حساب المصالح، وسياسة تنطلق من منبع القيم.....	٤١٦
٣- هناك سياستان: سياسة الإنسان، وسياسة القطعان - قطعان الغنم -.....	٤١٩
المنطلقات العامة لسياسات الحكم.....	٤٢٠
الإنصاف والحكم.....	٤٢١
أنواع السياسات العامة للحكم.....	٤٢٥
أولاً: سياسة العدل وسياسة الظلم.....	٤٢٥
الحكومة وخيار العدل.....	٤٢٦
العدل هو الميزان.....	٤٢٦
سياسة التضيق والتشديد وآثارها المدمرة.....	٤٢٦
ثانياً: سياسة نشر الكراهية.....	٤٢٧
ثالثاً: سياسة زرع الخلافات والفرقة.....	٤٢٨
رابعاً: سياسة أنا والآخر، وأنا أو الآخر.....	٤٢٩
خامساً: سياسة القبضة الأمنية.....	٤٣١
الحل الأمني ^(١)	٢٣٤
سياسة تجرّ للاحتماء بالخارج.....	٤٣٣

منطق القوّة انتهى.....	٤٣٤
الحلّ الأمنيّ وتجارب السّاحة العالميّة والعربيّة.....	٤٣٥
هناك لغتان	٤٣٧
سادساً: سياسة الانفتاح والإصلاح.....	٤٣٨
أنجح طريق، وأقصر طريق	٤٣٩
معنى الإصلاح	٤٤٠
إصلاح الأرواح أولاً.....	٤٤١
الميزان في الإصلاح	٤٤٢
الحاجة إلى الإصلاح السّياسي	٤٤٢
محوريّة الإصلاح السّياسي	٤٤٣
استمراريّة الإصلاح أمر ضروري.....	٤٤٤
نيّة الإصلاح لها طريقها المتناسب معها	٤٤٤
بين سياسة الإصلاح وسياسة العنف.....	٤٤٦
شرط الإصلاح السّياسي	٤٤٧
أنواع الإصلاح.....	٤٤٨
أ- الإصلاح الجذري والإصلاح الحقلي	٤٤٨
ب- الإصلاح التلقائي وإصلاح المقاومة.....	٤٤٨
ج- الإصلاح المشهود وإصلاح القطّارة	٤٤٨
تقييم أنواع الإصلاح	٤٤٨
الإصلاح وخصوصيّة الشّعوب	٤٤٩
الإصلاح بضريبة وبلا ضريبة	٤٤٩
الإصلاح المشهود هو الخيار الصّحيح.....	٤٥٠
إصلاح الخطوة الخطوة.....	٤٥١
متطلبات الإصلاح السّياسي	٤٥٢
الشّعوب ومطلب الإصلاح.....	٤٥٣
ولماذا تختار الحكومات قولة لا للإصلاح؟	٤٥٥

- ١- أثره وجشع، وجنون مادي. ٤٥٥
- ٢- خوف ارتفاع سقف المطالب. ٤٥٥
- ٣- الاعتماد على الدعم الخارجي. ٤٥٥
٤. اعتقاد الفوقية. ٤٥٥
- العلاقة بين الإصلاح السياسي والإصلاح المعيشي. ٤٥٦
- العلاقة بين الحوار والإصلاح. ٤٥٧
- الإصلاح على الطريقة الحسينية. ٤٥٨
- سابعاً: سياسة الحوار. ٤٦٢
- الحوار هو المسار الطبيعي. ٤٦٢
- متى يكون الحوار منتجاً؟. ٤٦٢
- لا يأس من الحوار. ٤٦٣
- لا بد من الحوار. ٤٦٣
- الدعوة للحوار ليست ضعفاً. ٤٦٣
- الحوار الهادف نهج ثابت. ٤٦٤
- لا استكبار على الحوار. ٤٦٤
- الحوار والعلاج الناجع. ٤٦٥
- الحوار والأمن. ٤٦٥
- الإصلاح والحوار. ٤٦٥
- الحوار حاجة مشتركة. ٤٦٦
- الحوار طريق وليس هدفاً. ٤٦٧
- الحوار المؤيَّس. ٤٦٧
- باب الحوار أو السُّجون! ٤٦٨
- الحوار بين النُّظام والشَّعب فقط، ولا طرف ثالث. ٤٦٨
- شروط الحوار السياسي الناجع. ٤٦٩
- شروط التَّمثيل الشَّعبي في الحوار والمفاوضات مع الحكومة. ٤٧٠
- الشَّخصية شخصيتان. ٤٧٠

٤٧٢	ثامناً: سياسة إطلاق الحريّات العامة
٤٧٢	حرّيّة الدّين والمعتقد
٤٧٢	حرّيّة الصحافة
٤٧٤	الباب الثّامن
٤٧٤	الحكومة والسّياسات الاقتصاديّة
٤٧٤	الحكومات والمال العام
٤٧٤	أ- حكومة الغلّبة
٤٧٥	ب- الحكومة الديمقراطيّة
٤٧٥	ج- الحكومة الشّرعيّة
٤٧٦	الحكومات وملكيّة المال العام
٤٧٧	النتيجة الكلّيّة
٤٧٧	مال الشّعب
٤٧٩	المال في الإسلام
٤٨٠	استخلاف لا ملك
٤٨٠	مشكلة الفقر
٤٨١	النّظرة الجذريّة للفقر
٤٨٢	الفقر شاهد صدق
٤٨٣	تقسيمات الفقر
٤٨٦	المعالجة الجذريّة للأوضاع المعيشيّة
٤٨٧	هل الحكومة مسؤولة؟
٤٨٧	وطن بلا فقر
٤٨٩	الإيمان في مواجهة الفقر
٤٩١	الفقر والشّخصية الإنسانيّة
٤٩٢	الثّروات الاقتصاديّة ومقاومة الهيمنة السّياسيّة العالميّة
٤٩٤	ربط الاقتصاد بالدّولار
٤٩٤	الاقتصاد واستنزاف الميزانيّة العسكريّة والأمنيّة

البطالة والضمان	٤٩٥
نداء	٤٩٦
الباب التاسع	٤٩٧
الحكومة والسياسات الأمنية	٤٩٧
الأمن حاجة ومسؤولية	٤٩٧
المعنى الصحيح للأمن	٤٩٩
تهديدات للأمن	٤٩٩
من مقوماته	٥٠٠
ومن محطّماته	٥٠٠
الجميع مسؤول، والحكومات أولاً	٥٠٠
الحوار الجاد هو المخرج	٥٠١
عاقبة الطّيش الأمني	٥٠١
الحلّ الأمني للمشكلات السياسية	٥٠١
منطق القوة	٥٠٢
تجارب سياسة العنف الحكومي	٥٠٣
الحلول الأمنية هل هي قادرة على حلّ الخلافات؟	٥٠٣
الحلّ يكمن في معالجة الأسباب	٥٠٤
لغة القوة بين الحكومة والشّعب	٥٠٥
تنويه	٥٠٦
العلاقة بين الأمن الداخلي والخارجي	٥٠٦
تنويهان	٥٠٦
الجيش	٥٠٨
أمن الحكومة وأمن الشّعب	٥٠٨
ماهو الطّريق لهذا الأمر؟	٥٠٩
الطّريق	٥١٠
ما هو الأهم في حالة التّزاحم: الأمن أو الإسلام؟	٥١٠

الأمن المفقود.....	٥١١
من أين يبدأ الأمن؟.....	٥١٢
أتدرون أين الأمن؟	٥١٢
الأمن الحقيقي	٥١٣
المطالبة بالحقوق والمسألة الأمنية.....	٥١٣
أرضية الأمن الاجتماعي.....	٥١٤
الجريمة ومسؤولية الحكومة.....	٥١٥
الجريمة وأسبابها	٥١٦
الباب العاشر	٥١٨
الحكومة والسياسة الإعلامية.....	٥١٨
الأمن والإعلام	٥١٨
نموذجان: إعلامان.....	٥١٨
ما نحتاجه في مواجهة الاعلام المضاد.....	٥١٩
الفصل السادس.....	٥٢١
الشَّعب.....	٥٢١
٦	٥٢١
تمهيد	٥٢٣
علاقة الشعب مع الحكومة	٥٢٣
المشاركة في مشاريع الحكم الوضعي	٥٢٣
الطموح للإسلام لا ينال في معاشة الوضع وفق التوجيه الإسلامي	٥٢٣
مسألة التعاطي مع الأوضاع غير الشرعية	٥٢٤
قضية حساسة ولغة صريحة	٥٢٤
الشَّيعة والتَّعاليش مع أنظمة الحكم الوضعية - كالحكم الوراثي مثلاً -	٥٢٥
الحكم الوراثي خطأ وقع فيه المسلمون.....	٥٢٧
المحور الأول.....	٥٣٠
الحراك الشعبي العام.....	٥٣٠

- (أ) ٠٣٥
- ٥٣٠ تنامي الوعي عند الشُّعوب
- ٥٣٠ مطلب الشُّعوب المعاصرة
- ٥٣١ الشُّعوب وخيار الحرِّية والكرامة
- ٥٣٣ سقف المطالب عند شعوب العصر
- ٥٣٤ مطالب الشُّعوب أكبر من لقمة العيش
- ٥٣٥ وعي الشُّعوب
- ٥٣٧ الشُّعب المتحرِّك حالةٌ صحيَّة
- ٥٣٨ ضريبة التَّحرُّك السِّياسي
- ٥٤٠ التَّحرُّك الاصلاحِي هو من صميم الإسلام
- (ب) ٥٤٣
- ٥٤٣ المطالبة بالحقوق
- ٥٤٣ المطالبة والمناهضة
- ٥٤٤ فتاوى تحرِّم الاحتجاجات
- ٥٤٥ المطالبة بالحقوق في الفهم الدِّيني
- ٥٤٥ نداء إلى الجماهير
- ٥٤٥ واجب شرعيٌّ لا يجوز التَّفريط به
- ٥٤٥ المطالبة بالحقوق حقٌّ ثابت
- ٥٤٦ المطالبة بالقيم هي الأهم
- ٥٤٦ بطون وعقول
- ٥٤٧ مطالب قدسيَّة
- ٥٤٨ التَّوازن بين المطالب السُّعبيَّة الدنيويَّة والدِّينيَّة
- ٥٤٩ تجزئة خطأ
- ٥٤٩ النُّقافة الحقوقيَّة في الإسلام
- ٥٥٠ الحقُّ لا يسقط بالتَّقدم
- ٥٥٠ النُّقافة الحقوقيَّة والواقع المعاصر

٥٥١	منطلقات المطالبة بالحقوق
٥٥٣	مشاركة المرأة في الاحتجاجات
٥٥٥	(ج)
٥٥٥	ضوابط التحرك الشعبي
٥٥٥	ضوابط الاحتجاجات
٥٥٥	لا تشترك في مظاهرة مجهولة
٥٥٥	لا ندفع باتجاه تبادل التصعيد
٥٥٦	اختيار الشعارات والكلمات غير الاستفزازية
٥٥٧	المنطلق الشرعي في حفظ الممتلكات
٥٥٧	لا بد من ضوابط ولكن!
٥٥٨	المعارضة واستقرار الأوطان
٥٥٩	المعارضة والثوابت الشرعية
٥٥٩	التعديلات الحكومية بين السكوت والمعارضة
٥٦٠	حركة الشارع
٥٦١	الانضباط بالقيادة العلمانية
٥٦٢	التفريق بين القرار السياسي والخطاب السياسي
٥٦٢	هل يقال كل شيء بحجة أن الكلمة كلمة حق؟
٥٦٣	هل السكوت على كل المطروح إقرار وعجز؟
٥٦٣	الثوابت في الموقف السياسي
٥٦٦	الحفاظ على أرواح والممتلكات أساس في أساليب الإصلاح
٥٦٦	توصيات لحفظ وحدة الصف
٥٦٧	الانضباط وحرية الرأي
٥٦٨	السلمية لها قيمة متميزة
٥٦٨	السلمية بين الشعوب والحكومات
٥٦٩	التغيير بين الواقع والطموح
٥٧١	المحور الثاني

- الحراك الشعبي الخاص ٥٧١
- (١) ١٧٥
- الأحزاب والجمعيات السياسية ٥٧١
- مسؤولية المسلم تجاه العمل السياسي ٥٧١
- مؤسساتنا الإسلامية ٥٧١
- الموقف من الجمعيات الإسلامية والإنسانية ٥٧٢
- واقع الجمعيات الإسلامية ٥٧٣
- ١- الحجم ٥٧٣
- ٢- الموقع المؤثر ٥٧٥
- ٣- المسؤولية ٥٧٥
- أيهما الصحيح: أن تتعدد الجمعيات، أم أن تتوحد؟ ٥٧٦
- تعدد، أو توحد ٥٧٦
- الجمعيات والمرجعية ٥٧٧
- الجمعيات والتثقيف ٥٧٨
- التصدعات والانقسامات ٥٧٩
- الجمعيات المهنية والنقابات ٥٨٠
- (٢) ٥٨٢
- الانتخاب والتصويت ٥٨٢
- الانتخاب حق أم واجب؟ ٥٨٢
- الانتخابات والمصلحة الإسلامية والوطنية ٥٨٢
- مسألة التصويت على اختيار نظام الحكم ٥٨٢
- خلفيات هذا الخيار ٥٨٣
- هل شعار الانتخابات عند الإسلاميين وصولي وموقت، وسيُقابل بإدارة الظهر بعد تحقيق
المطلب السياسي؟ ٥٨٤
- تجربة الانتخابات وغير الإسلاميين ٥٨٥
- مبدأ صوت لكل مواطن ٥٨٦

٥٨٧	تساوي الأصوات
٥٨٧	ما يحتاجه الشعب لخوض الانتخابات
٥٨٨	مغالطات انتخابية مغرضة
٥٨٨	أ- الخوف من تدخل علماء الدين في الانتخابات
٥٨٩	ب- أكذوبة صكوك الغفران
٥٨٩	ج- مقولة: «الناس كلهم مسلمون ومؤمنون فهم على حد واحد»
٥٩٠	د- مقولة: «المساواة بين المتدين وغير المتدين في الانتخاب»
٥٩٠	الاختلافات المصاحبة للانتخابات
٥٩٢	(٣)
٥٩٢	التحالفات السياسية
٥٩٢	مفهوم عدم التمكين، ومفهوم التحالف
٥٩٣	التحالف السياسي والحفاظ على الدين
٥٩٤	(٤)
٥٩٤	مجلس النواب (البرلمان)
٥٩٤	مجلس النواب وسلطة التشريع
٥٩٥	التشريع لمن؟
٥٩٦	الدولة العصرية بين تشريعات الديكتاتورية والمجالس النيابية
٥٩٧	مجلس النواب فرصة؛ لإيصال مطالب الناس للحكومة
٥٩٨	قيمة المجلس النيابي
٥٩٨	مجلس النواب لا يلغي دور الشعب
٥٩٩	(٥)
٥٩٩	النائب ومسؤولية التنوير
٥٩٩	فلسفة التنوير
٥٩٩	من يمثل المسلم الحقيقي على المستوى السياسي؟
٦٠٠	إرشادات للنخبين
٦٠٠	من ننتخب؟

- ما الموقف عند تعدد المرشحين ولم يكن أحدهم مرضياً بصورة مطلقة ولكن كان أحدهم
يَحْسُنُ السُّكُوتَ عليه؟ ٦٠١
- ماذا لو كان المرشحون كلهم غير ثقات؟ ٦٠١
- ماذا أفعل لو لم أكن قادراً على تشخيص المرشح الصالح؟ ٦٠١
- صفات المرشح المرضي..... ٦٠١
- أيُّهما الأَهون: المرشح ناقص الخبرة، أم المرشح ناقص الدين؟ ٦٠٢
- المرشح غير الصالح..... ٦٠٢
- شرط الإيمان في نواب المسلمين..... ٦٠٣
- على ضوء الآيات والروايات.. ننتخب مَنْ؟ ٦٠٣
- الحذر الحذر..... ٦٠٤
- وعى الانتخاب..... ٦٠٧
- النواب ثلاثة لا يستوون ٦٠٩
- (٦) ٦١٠
- النائب ومسؤولية النيابة ٦١٠
- أيُّها النائب المحترم، وأيُّها الممثل البلدي المحترم..... ٦١٠
- أيُّها الناخب المحترم..... ٦١٠
- وظيفة الشعب بعد انتخاب النواب..... ٦١٦
- (٧) ٦١٨
- النواب ومسؤولياتهم..... ٦١٨
- النواب - السياسيون والبلديون - وحاجات الناس..... ٦١٨
- قضاء الحاجات العامة ٦١٩
- قضاء الحاجات الخاصة..... ٦١٩
- قضاء الحاجات المعيشية للمحتاجين..... ٦٢٠
- وقفه مراجعة ٦٢١
- أيُّها المرشح المحترم ٦٢١
- الاختلاف بين المرشحين المؤمنين ٦٢٣

- المطلوب وقمة وطنية من الجميع..... ٦٢٣
- المرشح الرأشي والنائب المرتشي ٦٢٣
- حديث مع المؤمنين ٦٢٤
- منهج النائب في البرلمان ٦٢٥
- إذا فزت أيها المرشح ٦٢٦
- (٨) ٦٢٧
- الكتلة الانتخابية ٦٢٧
- النواب بين التبعض والتكتل ٦٢٧
- التجربة خير برهان ٦٢٨
- من أهداف الكتلة النيابية ٦٢٨
- الكتلة الانتخابية والبرلمان ٦٢٩
- أتستوي كل هذه الصور عطاء في الخارج؟! ٦٢٩
- القائمة الموحدة والمستقلين ٦٣٠
- (٩) ٦٣١
- المعارضة والعمل النيابي ٦٣١
- لا بد من معارضة ٦٣١
- هدف المعارضة ٦٣١
- آليات المعارضة ٦٣١
- استراتيجيات المعارضة السياسية ٦٣٢
- الإسلام هو الهدف الاستراتيجي للمعارضة الإسلامية ٦٣٢
- (١٠) ٦٣٤
- المشاركة والمقاطعة للانتخابات ٦٣٤
- آليات المعارضة ٦٣٤
- المشاركة والمقاطعة مسؤولية دينية ٦٣٥
- المشاركة على وفق مبدأ تقليل الخسائر ودفع الضرر ٦٣٧

الجزء الثاني

٦٤١.....	الفصل السابع
٦٤١.....	قضايا سياسية معاصرة
٦٤١.....	٧
٦٤٣.....	(١)
٦٤٣.....	قضية الطائفية
٦٤٣.....	مشروع الفتنة الكبرى
٦٤٤.....	العلاقة بين الطوائف
٦٤٥.....	ما هي الأرضيات للتقارب؟
٦٤٨.....	من يقف وراء الطائفية داخل بلدنا؟
٦٤٨.....	الجهات المحتملة وراء تأجيج الطائفية
٦٥٠.....	الشُرْعُ
٦٥٢.....	الطائفية السياسية
٦٥٣.....	المطالبة بالعدالة نقيض الطائفية
٦٥٤.....	الطائفية ذلك الشبح المخيف
٦٥٦.....	لا للطائفية، نعم للحقوق
٦٥٧.....	الطائفية والحياة الإصلاحية
٦٥٨.....	صُناع الطائفية
٦٦٠.....	الطائفية العمياء تحصد أرواح الأبرياء
٦٦٠.....	تكفير المسلمين
٦٦٢.....	الدّم الحرام
٦٦٣.....	الخطاب التحريضي
٤٦٦.....	فتنة وقى الله المسلمين منها ^٥
٦٦٥.....	الفتنة لعنة قاسية
٦٦٧.....	الصّحافة والفتنة الطائفية
٦٦٧.....	مقاطعة الصّحافة الطائفية

٦٦٨	تعدد الطوائف والمذاهب.....
٦٦٩	هل يمكن إلغاء الخصوصيات المذهبية؟.....
٦٦٩	نبذ الطائفية ليس معناه إلغاء الطوائف
٦٧١	إسلام بلا مذاهب!
٦٧٤	(٢)
٦٧٤	الإرهاب.....
٦٧٤	مفهوم الإرهاب.....
٦٧٤	أولاً: المصطلح الغربي
٦٧٥	ثانياً: المصطلح الإسلامي.....
٦٨٠	الحكومة الإسلامية وموقفها من الظلم والعدوان
٦٨٠	أسباب ظاهرة العدوانية.....
٦٨١	مناشئ الإرهاب
٦٨٢	إرهابان مدمران
٦٨٤	الإرهاب لا دين له.....
٦٨٥	الارهاب ومسؤولية الحكومات
٦٨٥	استغلال قوانين مكافحة الإرهاب
٦٨٦	كلمة «الإرهاب» قبيلة إرهاب!
٦٨٧	الحرب الإرهابية على الإرهاب!
٦٨٧	ازدواجية المعايير: الإرهاب نموذجاً.....
٦٨٨	يحاربون الارهاب، أو يسوقونه؟!
٦٨٩	الحرب الإرهابية التي تشنها أمريكا هي نهاية الإرهاب أم بدايته؟
٦٩٠	هدف الحرب الإرهابية على الإرهاب
٦٩١	إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلاميين
٦٩٣	هل الإسلام يدعو إلى الإرهاب؟
٦٩٤	الإسلام يرفض أن تكون عدوانيين، ويرفض أن نستسلم للإرهابيين.....
٦٩٥	بقايا ضمير

- ٦٩٥ كيف نتخلص من الإرهاب؟
- (٣) ٦٩٧
- ٦٩٧ الوطنية والمواطنة
- ٦٩٧ العلاقة بين الوطن والأمة والدين
- ٧٠٠ حب الوطن واستقلاله
- ٧٠٠ وكيف نحب الوطن؟
- ٧٠٢ الوطنية والإسلام
- ٧٠٣ الولاء للوطن والولاء للأمة ورجالها
- ٧٠٤ الولاء للوطن والولاء للأمة والدين
- ٧٠٤ ماذا يعني الولاء لله؟
- ٧٠٥ موقعية الولاء للوطن من ارتباطات الدين والأمة
- ٧٠٩ الوطنية وموالة الحكم!
- ٧١٠ الولاء من أين يبدأ وإلى أين ينتهي؟
- ٧١١ المسلمون السنة والشيعية وتهمة عدم الولاء للأوطان!
- ٧١٤ من يبيع الأوطان؟
- ٧١٦ الولاء للوطن لا للأشخاص
- ٧١٧ ولاء الوطن وولاء النظام
- ٧١٧ معيار المواطنة في الحقوق والواجبات
- (٤) ٧٢١
- ٧٢١ قضية حقوق المرأة
- ٧٢١ شعار حقوق المرأة
- ٧٢٢ المرجع في تحديد حقوق المرأة
- ٧٢٣ المرأة والتشريعات الإسلامية
- ٧٢٤ أ- قاعدة الاشتراك في الأحكام
- ٧٢٤ ب- الاشتراك على أساس الإنسانية
- ٧٢٥ ج- الرجل والمرأة حقيقة واحدة

٧٢٥	فارق الذكورة والأنوثة غير جوهري
٧٢٥	النتيجة
٧٢٥	قضية المرأة بين التأصيل الإسلامي، والتسطيح الوضعي
٧٢٧	أصل: المرأة الإنسان
٧٢٨	شواهد من القرآن الكريم
٧٢٩	التشريعات تتفرع من هذا الأصل
٧٣٠	النتيجة
٧٣٠	قيمة مشتركة
٧٣٢	الخلاصة
٧٣٢	مسؤولية مشتركة وتوزع في الأدوار
٧٣٥	نتائج مشتركة
٧٣٧	نور ماذا؟
٧٣٨	جبهتان تقسمان المجتمع
٧٤١	حقوق المرأة والقانون المنصف
٧٤٢	هذه المزايدة على من؟
٧٤٢	المتاجرون بالمرأة
٧٤٥	إكراه على التبذل
٧٤٥	دموع التماسيح
٧٤٦	المرأة الإنسان
٧٤٨	حرية المرأة
٧٥٠	شعار (حرية المرأة) الدوافع والأسباب
٧٥٢	كرامة المرأة
٧٥٣	(٥)
٧٥٣	العلمانية
٧٥٣	العلمانية والإسلام
٧٥٤	الإسلاميون والعلمانية

٧٥٤	التوافقات السياسية مع العلمانيين
٧٥٥	أمة إسلامية ونظام علماني!
٧٥٦	النظام السياسي العلماني
٧٥٨	غيرة على العلمانية ولا غيرة على الإسلام؟
٧٦١	الفصل الثامن
٧٦١	مفاهيم ومقولات سياسية
٧٦١	٨
٧٦٣	مقدمة
٧٦٣	تزوير أخطر من تزوير العملة!
٧٦٣	إخوتي، أخواتي
٧٦٤	الشعارات الأمريكية في مواجهة الصّحوة الإسلامية
٧٦٥	(١)
٧٦٥	مقولة: الانفتاح على الآخر
٧٦٥	أ- ماهو الآخر المفترض الذي عليّ أن أنفتح عليه؟
٧٦٥	ب- نسأل ما هي المساحة المعنية بهذا الانفتاح؟
٧٦٦	ج- ماهي طبيعة الانفتاح المطلوب، ومداه وهدفه؟
٧٦٩	التعامل مع الآخر له حدود وضوابط
٧٧٢	شعارات تتعمّد التّضليل
٧٧٣	ماهو الانفتاح؟
٧٧٤	ومن هو الآخر الذي يُطلب الانفتاح عليه؟
٧٧٥	أنواع من الآخر في نظر القرآن الكريم
٧٧٥	الآخر الذي لا انفتاح عليه
٧٧٦	الآخر الذي نفتح عليه
٧٧٧	حوار يائس
٧٧٧	الخلاصة
٧٧٩	(٢)

٧٧٩.....	مقولة «لا وصاية»
٧٧٩.....	أسئلة ثلاثة
٧٧٩.....	أ- دينيا: الولاية المطلقة هي لله وحده
٧٨٠.....	ب- أرضياً: الولاية للأقوى
٧٨١.....	الولاية والوصاية أمر واقع في مختلف مناحي الحياة.....
٧٨١.....	أ- الولاية في الحكم
٧٨١.....	ب- الولاية على القاصر.....
٧٨١.....	ت- ولاية المتصدّين للشؤون الاجتماعية العامة
٧٨٢.....	خلاصة.....
٧٨٢.....	ردود أخرى
٧٨٢.....	هل توجد صنمىة الولاية؟.....
٧٨٤.....	إطلاق المقولة!.....
٧٨٦.....	(٣)
٧٨٦.....	التعددية.....
٧٨٦.....	التعددية السياسية بين المسموح والممنوع.....
٧٨٨.....	(٤)
٧٨٨.....	الرئسالية والواقعية.....
٧٨٨.....	بين الواقعية والرئسالية.....
٧٨٩.....	تحديد المقصود مهم.....
٧٨٩.....	الرأى في الموضوع.....
٧٨٩.....	آثار الفهم الخاطئ للرئسالية والواقعية.....
٧٨٩.....	أ- الخطأ في فهم الرئسالية.....
٧٩٠.....	ب- الخطأ في فهم الواقعية.....
٧٩١.....	التوفيق بين الرئسالية والواقعية.....
٧٩٢.....	مثال للواقعية المغلوطة.....
٧٩٦.....	(٥)

٧٩٦.....	مقولة: ما لله لله، وما لقيصر لقيصر
٧٩٨.....	(٦)
٧٩٨.....	شعاراتٌ محاربة
٧٩٨.....	١- التنوع الثقافي.....
٨٠٠.....	٢- شعار الانفتاح والتسامح
٨٠١.....	٣- شعار المصلحة الاقتصادية
٨٠٢.....	٤- شعار للفتوى مجالها وللقانون مجاله
٨٠٥.....	الفصل التاسع
٨٠٥.....	السياسات العالمية
٨٠٥.....	٩
٨٠٧.....	(١)
٨٠٧.....	سياسات الاستكبار والاستضعاف
٨٠٧.....	المنهج الفرعوني
٨٠٩.....	لا استكبار ولا استضعاف
٨١٢.....	الاستكبار وسلاح الإعلام الكاذب
٨١٤.....	سياسة إضعاف الشعوب
٨١٥.....	تبعية أنظمة الأمة للمستكبرين.....
٨١٦.....	التحالف مع الاستكبار!
٨١٨.....	غيظ المستكبرين علامة قوة.....
٨١٨.....	إملاءات وترحيب
٨٢٠.....	إملاءات غريبة.....
٨٢١.....	الاستكبار وسياسة الفساد والإفساد.....
٨٢١.....	١- إشباع فئة
٨٢٢.....	٢- أغراض سياسية وعدوانية.....
٨٢٢.....	أساليب السيطرة
٨٢٤.....	قوة المؤمن وضعف الجاحدين

٦٢٨..... (٢)

٨٢٦..... سياسات الأمن والسَّلام العالمي

٨٢٦..... الحرب والطَّرِيق إلى السَّلام العالمي!

٨٢٦..... نموذجان صارخان

٨٢٧..... أمننا في خطر

٨٢٨..... مجلس الأمن ودعم الحروب العدوانيَّة!

٨٢٨..... قضِيةُ السَّلاح النَّووي

٨٣٠..... خوف كاذب؛ لتبرير سياسة الهيمنة

٨٣٢..... الأمن العالمي وهو مفقود، فكيف يتمُّ التَّوفُّرُ عليه؟

٨٣٢..... ١- قوَّة بلا تربية!

٨٣٢..... ٢- تربية بلا قوَّة!

٨٣٤..... موقف الإسلام

٨٣٥..... (٣)

٨٣٥..... سياسة نشر القيم الغربيَّة

٨٣٥..... من كلمات المسؤولين الأمريكيَّين وأفكارهم

٨٣٧..... القيم في ميزان المنفعة الماديَّة

٨٣٧..... قيمة الإنسان

٨٣٩..... واقع القيم الغربيَّة

٨٤٠..... قيم الدِّيموقراطيَّة الشَّكليَّة

٨٤١..... مشفقون، ولكن!

٨٤٣..... الغرب ثقلٌ مادي و خفَّةٌ إيمان

٨٤٦..... (٤)

٨٤٦..... سياسة الإصلاح الأمريكي

٨٤٦..... إصلاح أو أمركة؟

٨٤٨..... الإصلاح الأمريكي!

٨٤٨..... غاية البؤس والإفلاس

٨٥٠.....	(٥)
٨٥٠.....	سياسات حقوق الانسان.....
٨٥٠.....	الغرب وشعارات حقوق الإنسان.....
٨٥٠.....	مناهضة التعذيب.....
٨٥١.....	كيف يناهض التعذيب شعبياً؟.....
٨٥١.....	واجب اسلامي.....
٨٥١.....	كيف يناهض التعذيب على المستوى الرسمي؟.....
٨٥٢.....	رعاية المعتذبين والمشوهين!.....
٨٥٢.....	اليوم العالمي لمناهضة التعذيب.....
٨٥٤.....	حقوق الإنسان الروحية.....
٨٥٤.....	أهمية العمل الحقوقي.....
٨٥٥.....	المعالجة الحقوقية والحل السياسي.....
٨٥٦.....	(٦)
٨٥٦.....	سياسات الاقتصاد العالمي.....
٨٥٦.....	مشكلة الفقر.....
٨٥٦.....	منشأ المشكلة.....
٨٥٧.....	كذبة المنشأ.....
٨٥٧.....	المنشأ الحقيقي للفقر.....
٨٥٨.....	عامل الفساد.....
٨٥٩.....	معرفة الداء نصف الدواء.....
٨٦٠.....	النَّفْط هو القيمة العليا!.....
٨٦١.....	الإفساد وطغيان رأس المال.....
٨٦٢.....	الاقتصاد والرذيلة.....
٨٦٢.....	الاستثمار القذر.....
٨٦٣.....	تحرير الثروة.....
٨٦٥.....	(٧)

٨٦٥.....	سياسات الإعلام العالمي
٨٦٥.....	إعلام هدى وإعلام ضلال
٨٦٧.....	من مفارقات الإعلام العالمي
٨٦٨.....	مقاومة الاستهداف الإعلامي
٨٦٩.....	وسيلة الصحافة
٨٦٩.....	الإسلاميون والصحافة
٨٧٠.....	(٨)
٨٧٠.....	سياسة الغزو الثقافي
٨٧٠.....	الإسلام المصنوع في معامل السياسة
٨٧١.....	الصين ومقاومة الغزو الثقافي
٨٧١.....	فرنسا ومقاومة الغزو الثقافي
٨٧٢.....	الغزو لا يقف عند الاجتياح العسكري
٨٧٤.....	علاقة الأمة المسلمة مع بقية الأمم
٨٧٧.....	أوقفوا الهرولة
٨٧٩.....	التقليد الأعمى للأعداء في النصوص الدينية
٨٨١.....	دمج المسلمين
٨٨٢.....	الغزو السلوكي أسرع نفوذاً من الغزو الفكري
٨٨٣.....	التغريب السلوكي هو الأوسع خطورة
٨٨٤.....	التغريب اللغوي
٨٨٥.....	التغريب الفكري
٨٨٥.....	١- ثقافة التشكيك
٨٨٥.....	٢- ثقافة التخدير
٨٨٦.....	ثقافتنا ثقافة الإيقاظ
٨٨٩.....	العلاقات وضوابط الانفتاح الحضاري
٨٩١.....	إشكالية
٨٩١.....	الجواب

هنا مفارقة!	٨٩٣
موقفنا تجاه الغزو الحضاري	٨٩٣
مسؤولية الأمة	٨٩٦
مسؤولية الحكام	٨٩٦
قوا أنفسكم وأهليكم	٨٩٧
وقايتان	٨٩٧
الحرب المستمرة	٨٩٨
الفصل العاشر	٨٩٩
الإسلام والغرب	٨٩٩
١٠	٨٩٩
الباب الأول	٩٠١
العلاقة بين الغرب والإسلام	٩٠١
الغرب بين العدوانية والحوار	٩٠١
الاستهداف الغربي للأمة الإسلامية	٩٠٢
١- استهداف العقيدة	٩٠٢
٢- استهداف الشريعة	٩٠٢
نموذج واقعي من الاستهداف	٩٠٣
المتغربون	٩٠٤
الهجوم الغربي على المقدسات بذريعة حرية التعبير	٩٠٥
أمريكان يحرقون القرآن!	٩٠٦
من حقنا أن ندافع عن مقدساتنا	٩٠٧
الشعوب الغربية تبحث عن الخلاص	٩٠٩
أمريكا وشراء العقول المسلمة	٩١٠
الجمعيات الشبابية والمال الأمريكي	٩١٠
بيع الذمم	٩١١
أسواق بيع الذمم	٩١٢

الباب الثاني..... ٩١٤

- الإسلام والغرب في واقعهما السياسي المعاصر ٩١٤
- قراءة في خارطة الواقع السياسي المعاصر ٩١٤
- منتقدو العالم ٩١٦
- الغرب وعلاقته مع الحكومات والمعارضة في البلاد الإسلامية ٩١٧
- الأمة والغرب ٩١٨
- أمريكا تدعو الشباب للانفصال عن فكر الأمة! ٩٢٢
- معارك للاستنزاف ٩٢٣
- الاستكبار وخيارات استبدال الأنظمة ٩٢٤
- هل يتحقق الحلم الأمريكي بالانتصار على الإسلام؟ ٩٢٦
- قبول الإملاءات الأمريكية هدم للثقة بين الشعوب والأنظمة ٩٢٦
- أمريكا وواقع الأنظمة التابعة ٩٢٦
- العلاقة بين الإسلاميين والغرب ٩٢٨
- الحوار مع الإسلاميين ٩٢٨
- كسب الودّ الغربي ٩٢٩

الباب الثالث..... ٩٣١

- الحرب الغربية على الإسلام ٩٣١
- أمريكا ومعاداة الإسلام والأمة الإسلامية ٩٣١
- من حرب إلى حرب ٩٣٢
- ماذا تريد أمريكا وأوروبا للمسلمين؟ ٩٣٣
- الغزو في وجهه الجديد (الاستجابة لاستغاثة الشعوب) ٥٣٩
- أمريكا وإدارة الأزمات ٩٣٧
- المطالبة بحاكمية الإسلام، هل هي جرم؟ ٩٣٨
- خاتمة ٩٤١
- لماذا استهداف الإسلام ومعاداته؟ ٩٤١
- الجواب ٩٤١

٩٤٢.....	ما هو دور المسلمين بإزاء الجبهات التي ترتكب ضدَّ الإسلام؟
٩٤٣.....	الدِّفاع عن أرض المسلمين
٩٤٥.....	الفصل الحادي عشر.....
٩٤٥.....	الأمة الإسلامية
٩٤٥.....	١١.....
٩٤٧.....	مقدمة.....
٩٤٧.....	متطلبات صناعة الأمة الرائدة.....
٩٤٩.....	خيانة الأمة.....
٩٥١.....	الباب الأوَّل.....
٩٥١.....	الأمة والهوية.....
٩٥١.....	ما هو الانتماء؟.....
٩٥٢.....	ما هو حجم هذه الأمة؟.....
٩٥٤.....	ما هو الخيار المستقبلي؟.....
٩٥٥.....	ما هي الوسيلة؟.....
٩٥٦.....	الباب الثاني.....
٩٥٦.....	الأمة والعلاقة بالأنظمة الحاكمة.....
٩٥٦.....	تقويم العلاقة بين أنظمة الحكم والأمة.....
٩٥٨.....	اتحاد الأنظمة لا يكون من دون مرجعية الشعوب.....
٩٥٩.....	أزمة الثقة بين الأنظمة والأمة.....
٩٥٩.....	منشأ الخلاف.....
٩٦٠.....	الوقاية خير من العلاج.....
٩٦٢.....	الباب الثالث.....
٩٦٢.....	الأمة والوحدة الإسلامية.....
٩٦٢.....	الوحدة الإسلامية الكبرى.....
٩٦٢.....	علامة الوعي.....
٩٦٣.....	المراد من الوحدة.....

الوحدة بين الإلغاء والاحترام	٩٦٥
بين الوحدة والشَّتات	٩٦٦
لا توحَّد على الباطل	٩٦٦
ما هي الأمة المسلمة المؤمنة التي خوطبت بوجوب الوحدة؟	٩٦٧
١- القرآن الكريم	٩٦٨
٢- على مستوى الحديث	٩٧٠
واقع الأمة وقضية الوحدة	٩٧١
ما الأسباب؟	٩٧٢
أسباب الفرقة بين المسلمين	٩٧٣
الطَّرِيق إلى الوحدة	٩٧٥
ركائز الوحدة	٩٧٥
دواعي الوحدة	٩٧٥
أ- الحاضر والمصير المشترك بخيره وشره	٩٧٦
ب- توحيد الجبهة المعارضة	٩٧٦
ج- الواقع المشترك	٩٧٦
د- الإجماع على حرمة بعضنا البعض	٩٧٧
العلماء والمسؤولية المحورية	٩٧٧
مقترحات للوحدة الإسلامية	٩٧٨
لا أقل من التعايش السلمي	٩٧٨
مقترحات وحدوية	٩٧٩
أسبوع الوحدة	٩٨٠
بين وحدتين	٩٨٣
التعددية وعلاقتها بالوحدة	٩٨٣
الدعوة للوحدة وعقبة الحكومات الظالمة	٩٨٤
الوحدة الوطنية ووحدة الأمة	٩٨٥
التوازن بين هموم الأمة والهموم الداخلية لأقطار الأمة	٩٨٦

٩٨٧	ضرورة كبرى
٩٨٨	وحدة الهمم الديني
٩٨٩	مقولة: «عدم التدخل في الشؤون الداخلية»
٩٩٠	متى تملك هذه الأمة زمام أمرها؟!
٩٩٠	معركة واحدة ضد أمة واحدة
٩٩٦	الباب الرابع
٩٩٦	الأمة وواقعها المعاصر
٩٩٦	توصيف الوضع الأمني والسياسي المعاصر
٩٩٩	واقع الأمة والابتعاد عن الموائيق الإلهية
١٠٠١	لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه!
١٠٠٢	هل تبقى أمة؟
١٠٠٣	واقع الأمة مؤلم
١٠٠٣	أمريكا وإرادة الأمة الإسلامية
١٠٠٦	أمريكا وقوة العضلات!
١٠٠٧	أمريكا وإسرائيل معسكر الشر بحق
١٠١٠	الغزو الأمريكي
١٠١١	لن نستسلم للغزو الكافر
١٠١١	الغرب مع من؟
١٠١٤	الباب الخامس
١٠١٤	كيف نغير واقع الأمة؟
١٠١٤	بحث مقتضب حول الإرادة والتغيير
١٠١٤	قانون التغيير: التغيير الخارجي يقتضي تغييراً داخلياً
١٠١٥	خلقنا باستعدادات عدة قد تعطل وقد تفعل
١٠١٦	هل لإرادة الإنسان موقع في قانون التغيير؟
١٠١٧	لا إرادة لأمة تابعة
١٠١٨	أهم أسباب التخلف السياسي

١٠١٨	كيف ننهض بالأمّة؟
١٠٢١	الاكتفاء الذاتي للأمّة
١٠٢٢	جهاد واجب لا تطوّع
١٠٢٤	صمود الأمّة
١٠٢٤	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٠٢٦	مواجهة المنكر
١٠٢٦	أمّة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر
١٠٢٨	الرّقابة
١٠٣٠	هكذا يقوم الدّين وتنهض الأمّة
١٠٣٢	نحتاج إلى إعداد الرّساليّين
١٠٣٤	الباب السّادس
١٠٣٤	الأمّة والصّحوة الإسلاميّة
١٠٣٤	معنى الصّحوة الإسلاميّة
١٠٣٤	من علائم الصّحوة
١٠٣٥	استهداف الصّحوة
١٠٣٦	أمريكا والصّحوة الإسلاميّة
١٠٣٨	صوت العدالة يتعالى
١٠٤٠	الباب السّابع
١٠٤٠	الأمّة الإسلاميّة.. المقاومة، الجهاد، والثّورة
١٠٤٠	المستكبرون وإسقاط روح المقاومة عند المستضعفين
١٠٤٠	١- التّهويل، والتّهديد، والتّقزيم للتّخويف، والتّئيس
١٠٤٠	٢- التّميع
١٠٤١	٣- التّشكيك في الفكرة المحور
١٠٤١	٤- الاستضعاف
١٠٤١	٥- التّشكيك في القيادات
١٠٤٢	٦- إظهار جانب الخيانة في الأمّة

السُّقُوط مرهون بنا	١٠٤٢
فهل نستسلم؟	١٠٤٢
نحن أقوى مجتمعين	١٠٤٣
ما أضعفنا متفرقين!	١٠٤٣
عودة الشُّعوب لإسلامها ناقوس خطر لأعداءها	١٠٤٤
الوعي هو البداية	١٠٤٤
المسلم وانتصارات الكفر	١٠٤٦
كيفية التغلب على المشاعر السيئة	١٠٤٧
تخشى القوى الطَّاغوتية صحوة المسلمين وقوتهم	١٠٤٨
أيُّها المؤمنون والمؤمنات	١٠٤٨
المقاطعة سلاح	١٠٥١
يا جماهير أمتنا المؤمنة	١٠٥١
الجهاد وإسقاطاته على الواقع المعاصر	١٠٥١
التَّخطيط في التَّضحية	١٠٥٣
لا حدَّ للتَّضحية!	١٠٥٤
الدِّين مقدَّم	١٠٥٤
رؤى مبدئية	١٠٥٧
زمن الثُّورة والدَّولة	١٠٥٨
الفصل الثاني عشر	١٠٦١
قضية فلسطين	١٠٦١
١٢	١٠٦١
موقع الأمة من الحرب على فلسطين	١٠٦٣
على هدى الإسلام	١٠٦٤
مسؤولية الحكومات	١٠٦٥
بيد الحكومات	١٠٦٥
مسؤولية الشُّعوب	١٠٦٦

رسالة الموقف.....	١٠٦٦
وطأة الضُّغط	١٠٦٧
خطُّ الوعي والبصيرة والقيادة	١٠٦٨
بوصلة الجبهة الإسرائيليَّة	١٠٦٨
لا مبرر للتَّعاس	١٠٦٩
العمق الاستراتيجيُّ للمقاومة.....	١٠٧٠
خطر الفتنة الطائفية على القضية الفلسطينية.....	١٠٧٣
حرف البوصلة إلى أعداء وهميين!	١٠٧٤
وعد بلفور	١٠٧٥
بناء الذات مسلَّك؛ لاسترداد الحق	١٠٧٥
ازدواجيَّة المعايير الغربيَّة	١٠٧٥
التَّطبيع	١٠٧٦
فلسطين .. واخجلناه!!	١٠٧٧
ولماذا تحرص أمريكا وإسرائيل على التَّطبيع؟.....	١٠٧٨
يوم القدس العالمي	١٠٧٩
ستستمر المقاومة ولو بالسَّن والظُّفر	١٠٨٢
الفصل الثالث عشر.....	١٠٨٥
الصحوة الإسلاميَّة و(الرَّبيع العربي).....	١٠٨٥
١٣	١٠٨٥
(٠)	٧٨٠١
رياح التَّغيير	١٠٨٧
بين ربيع وخريف!	١٠٨٨
(١)	١٠٩٠
المنطلقات والأسباب	١٠٩٠
منطلقات الثُّورات العربيَّة المعاصرة	١٠٩٠
إذا حصل السَّبب حصل المُسبَّب.....	١٠٩٠

١٠٩١	توقيت الانفجار.....
١٠٩١	الجواب
١٠٩٢	جور الحكومات.....
١٠٩٣	استرداد الحق السياسي
١٠٩٦	التطلع للحياة الأفضل
١٠٩٦	للحرية، للكرامة.....
١٠٩٧	منطلق الصّحة الإسلامية
١٠٩٧	أمة تعود إلى ماضيها
١٠٩٩	(٢)
١٠٩٩	الانفجار
١٠٩٩	ظاهرة مشتركة.....
١١٠٠	ظاهرة طافحة
١١٠٢	(٣)
١١٠٢	الدروس
١١٠٢	درس بعد درس!!
١١٠٢	يا رجال أنظمة الحكم الظّامة
١١٠٣	غياب الخيار الصحيح
١١٠٥	(٤)
١١٠٥	موقفنا
١١٠٥	موقفنا من ثورات الشعوب.....
١١٠٦	(٥)
١١٠٦	ثورة البحرين.. امتحان المصادقية للعالم كله
١١٠٦	لماذا يا مسلمون؟!
١١٠٧	عين ترى، وعين لا ترى!
١١٠٩	ماذا بقي؟!
١١١٢	(٦)

الإسلاميون.....	١١١٢
الإسلاميون أمام تجربة جديدة صعبة	١١١٢
(٧)	١١١٦
التحديات والمخاطر.....	١١١٦
خطر الأنظمة المتسلطة	١١١٦
خطر الهيمنة الأجنبية.....	١١١٦
خطر الميل إلى التبعية للأجنبي	٧١١١
تأمر الأنظمة العربية والغرب ضد الثورات.....	١١١٨
الفتنة الطائفية.....	١١٢٠
تهمة العمالة للخارج	١١٢٢
(٨)	١١٢٤
الانتصار.....	١١٢٤
لغتان تتصارعان	١١٢٤
إلى أين تتجه الأمور، وترسو السفينة، ويصير الواقع؟.....	١١٢٦
عامُ البداية	١١٢٦
الفصل الأخير	١١٣١
المستقبل السياسي للعالم	١١٣١
١٤	١١٣١
مقدمة.....	١١٣٣
ولادة أمل المستقبل.....	١١٣٣
مراحل المستقبل السياسي للعالم	١١٣٥
المرحلة الأولى.....	١١٣٥
مرحلة التيه والضّياع	١١٣٥

النتيجة الحتمية حين يغيب الدين عن الضمير والساحة أن ندخل جميعاً في صراع واصطراع على الدنيا، ونتهارش على جيفتها كما تتهارش الكلاب، وحينئذ تكون الحقيقة في حركتنا ومواقفنا، وكلماتنا - حاربنا، أو سلمنا، عادينا أو صادقنا، كذبنا أو صدقنا، جاهرنا

بالمعصية، أو أظهرنا العبادة - تهارشاً على هذا المتاع الدنيئ الفاني، والجيفة القذرة،	
والاختلاف إنما هو بتنوع الأساليب، والتفنن في المظاهر .	٥٣١١
أمثلة على نتائج الابتعاد عن الدين	١١٣٦
سيطرة الخوف والرعب	١١٣٧
مِنْ وَهُمْ إِلَى وَهُمْ!	١١٣٨
لن يجدوا السعادة في غير الدين	١١٣٩
اللّهث وراء سراب الديمقراطية	١١٣٩
الناس بين محرقتين!	١١٤١
التطلع إلى الخلاص	١١٤١
وَهُمُ الأطروحات والنظم الأرضية	١١٤٢
تهاوي الحضارة المادية	١١٤٥
الدوران في حلقة الوهم	١١٤٥
أين الحل؟	١١٤٦
ويستمر الصراع بين الحق والباطل	١١٥٠
وتنتقض عرى الإسلام	١١٥٠
يعود الإسلام غريباً!	١١٥٢
ما أحوالنا للمنقذ	١١٥٢
المرحلة الثانية	١١٥٦
مرحلة الظهور والثورة العالمية	١١٥٦
يوم الخلاص	١١٥٦
يوم الظهور والثورة	١١٥٧
يواجه القائم . حرباً شرسة ضده	١١٥٨
المرحلة الثالثة	١١٦٠
مرحلة قيام الدولة الإسلامية العالمية	١١٦٠
معالم دولة آخر الزمان	١١٦٠
جنة الدنيا	١١٦٠

دولة الإمام المنتظر شمولية	١١٦٣
إنسان الدولة والعزة والعشق	١١٦٥
المهدي ملاذ الأفئدة الوالهة	١١٦٦
كيف يتم التحول الكبير؟	١١٦٧
خاتمة	١١٧١
كيف نتهيأ للمستقبل؟	١١٧١
شرط الغلبة	١١٧١
فلسفة انتظار ظهور المنقذ	١١٧٢
الحمد لله	٥٧١١
رب العالمين	١١٧٥

